اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة

المؤرخ العربى

تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب

بالقاهرة

العدد الثامن | المجلد الأول | مارس ٢٠٠٠

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الثامن – المجلد الأول

مارس ٢٠٠٠

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .
- تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المـؤرخ العـربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثامن – المجلد الأول – مارس ٢٠٠٠

فى هذا العدد

- المحاولات العربية لفتح القسطنطينية فى العصر الأموى .

د. صلاح حسن العاوور

- التاريخ السياسى لمدينة أستجة الأندلسية منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر الدولة الأموية .

د. إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا

- وزراء العصر العباسى الأول . د . فايزة إسماعيل أكبر
- القبالات فى المغرب والأندلس . د. صلاح أحمد عبد خليفة
- ابن ظفر الصقلى وجهوده العلمية . د. على محمد سعيد الزهرانى
- السياسة الأمنية للسلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد الأول .

د. نورة عبد الله بادياب

- التنافس الدولى فى الخليج . د. عمر بن صالح بن سليمان العمرى
- العلماء والأئمة فى عمان . د. سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمى
- نقشان كتابيان يؤرخان لعمارة دار الحميدية بمكة المكرمة .

د. عادل بن محمد نور غباشى

- علماء الأندلس ودورهم فى التصدى للقوى الأسبانية المسيحية فى عصر الطوائف .

د. سحر السيد عبد العزيز سالم

- الغرب الأوروبى و حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية .

د. سعيد بن سعد سفر الغامدى

- المعاهدة التركية الأمريكية عام ١٨٣٠م .

د. عبد العليم على أبو هيكل

كلمة الافتتاح :

***وللتأريخ تاريخ

من حقنا أن نتساءل ، ونحن نقدم هذا العدد الثامن من مجلة (المؤرخ العربى) للقراء : من هو المؤرخ ؟ وما هى الصفات والمؤهلات التى يجب أن تتوافر لفـــرد حتى يكون مؤرخا ؟ وما أبعاد الإطار العام الذى يتحرك داخله المشـــتغل بالتـــاريخ ليكون ناجحا فى عمله ؟

هل المؤرخ هو الراوى الذى يحكى ما توافر له من حوادث سواء رآها بنفسـه أو سمع بها ؟ أم أنه المحدث الذى يروى الحوادث ويحدد سير الأشـــخاص الذيـن تناقلوا الرواية ، وسردوا الحكاية ؟ وهل كل من حصل على إجـــازة علميـــة فـــى التاريخ - مهما تكن درجتها يعتبر مؤرخا ؟

التساؤل ضرورى ، والإجابة صعبة ، ولكنها غير مستعصية ، خاصـــة فـــى أيامنا التى نرى التارخ وقد غدا أشبه ببحر لجى كبير ، يخوض فيه الخائضون علـى غير علم بطبيعته وأبعاده ، فيفسدون صفحته النقية ويعكرون مياهه الصافية . أجـل، لقد غدا التاريخ - للأسف - مطية ، يستعين بها أصحـــاب المصـــالح فـــى تحقيـق مكاسب شخصية ، أو تبرير سياسة خاطئة ، أو إرضاء لسلطة حاكمة .

ها هو مخرج روائى يعرض رواية يختار لها اسما تاريخيا جذابا ، ويحشـوها بتفاصيل وصور وأقوال ينسبها إلى التاريخ ، والتاريخ برئ منـــها دون أن يعنيـــه إفساد التاريخ بقدر ما يعنيه الكسب المادى والشهرة التى يحققها لنفســـه فـــى عـــالم العبث والفن .

وها هم بعض السياسة ورجال الإعلام ، يريد أحدهم أن يروج لرأى معيـــن ، أو يبرر سياسة خاطئة أو ينشر مذهبا هداما ، فينسب إلى التاريخ ما ليـــس فيـــه ،

ويفسر الأمور تفسيرا بعيدا عن الحقيقة والواقع ، وربما ابتكر قصة من وحى خياله وألبسها زيا تاريخيا ، ودسها على التاريخ دسا ... كل ذلك ليبرر وجهة نظره ، بعيدا عن قواعد الأخلاق وأمانة الكلمة وصدق الأحكام .

ونقول لهؤلاء وأمثالهم ، إن التاريخ علم ، له منهجه وأهدافه ، وطابعه المميز . إنه علم يتطلب ممن يشتغل به ، أو يخوض فى جنباته أن يتحلى بصفات جوهرية ، منها الأمانة والصدق ، والقدرة على الالتقاط والتعليل من جهة ، والاستنباط والمقارنة من جهة أخرى ، والعمل على ربط الحاضر بالماضى ، لأن التاريخ يوصف بأنه قصة الإنسان على ظهر الأرض ، وهى قصة متصلة الحلقات، اليوم نبع من أمس ، وغدا ينبع من اليوم ... وهكذا .

ولا نعنى بهذا الربط إلباس الحاضر ثوب الماضى ، فلكل عصر طبيعته ، وأجواؤه ، وخصائصه التى ترتبط بنظرة الناس إلى الحياة . ومع أن الإنسان هو الإنسان ، بتكوينه الذهنى وبنائه الجسدى والعضوى ، وأحاسيسه ومشاعره النفسية... ، إلا أن نظرة الإنسان إلى الحياة تختلف من عصر لآخر . وبعبارة أخرى فإن الإنسان فى العصور الوسطى أطل على الحياة من زاوية غير تلك التى أطل منها إنسان العصور القديمة أو الحديثة على الحياة ، الأمر الذى لا بد وأن يترك بصماته فى صورة التاريخ وتكييفه وتشكيله فى كل عصر من عصوره . وتتجمع كافة هذه الاعتبارات لتكوين ما يمكن أن نسميه « الحاسة التاريخية » وصدق المشاعر ، والقدرة على المقارنة والاستنتاج والتعليل ، فى ضوء الظروف المحيطة بالإنسان والزمان والمكان ... مع تنقية النفس من الميول والأهواء الشخصية ، والالتزام بالعدالة فى تقييم العقائد المذهبية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ...

والواقع إن المؤرخ فى مباشرته عملية « التأريخ » يجد نفسه أكثر ارتباطا بالماضى منه بالحاضر . إن ما يجرى حاليا ومستقبلا أكثر صلة بالعلوم السياسية

منه بعلم التاريخ . التاريخ فى حقيقته نظرة إلى الماضى ، إلى أيام ولت وسنين أدبرت وعصور انقضت ، ولم يبق منها جميعا إلا الأثر والذكرى . وهذا الإطار الزمنى للتاريخ يجعل مهمة المؤرخ صعبة ، لأنه يستعرض أعمالا انقضيت ، ويتعرض لأناس فارقوا الحياة ، ولم يعد لهم وجود ليدافعوا عن أنفسهم ويبرروا تصرفاتهم ، ويفسروا وجهات نظرهم ، ويوضحوا أهدافهم وسياستهم وغاياتهم . ثم إن هناك حقيقة كبرى لا ينبغى أن تفوتنا ، هى أن التاريخ يرتبط دائما بعنصر غائب لا يدرك حقيقته إلا الله عز وجل . نحن نؤرخ لحوادث قام بها أفراد قد نرى صورهم وأشكالهم ، ونقرأ أقوالهم ونسمع عن أفعالهم ، ولكننا لا نعرف شيئا عما كانت تكنه قلوبهم وتفيض به صدورهم ، وتدبره عقولهم وتحس به نفوسهم . وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى الظن وربما الخيال . وهذا الظن قد يكون صحيحا أو غير صحيح . فإذا رجعنا إلى المصادر المعاصرة لتلك الحوادث والمزامنة للأشخاص المؤرخ لهم ، فإن علينا التثبت من شخصية صاحب المصدر والتأكد من سلامة وصحة المادة التى يقدمها إلينا ، والتى علينا أن نرجع إليها ونحاول الاسترشاد بها . علينا أن نعى حقيقة ما كتبه السابقون ، فقد يكون فيه السليم وغير السليم . علينا أن نقارن بين مختلف الروايات فقد يكون منها المقبول وغير المقبول. علينا أن نقوم بما يمكن أن نسميه « عملية غربلة » لما تحويه هذه الروايات لنستخلص السمين ونستبعد الغث . علينا أن نؤمن بأن من خلفوا لنا هذا التراث بشر، يحبون مثلما يحب البشر ، ويكرهون مثلما يكره البشر ، وأن لهم ميولهم وأغراضهم وأهواءهم ، وهذه كلها قد تؤدى ببعضهم - فى حالات خاصة - إلى الانحراف ، إرضاء لميولهم ونزعاتهم ونزواتهم ومصالحهم ...

وهنا يأتى دور المؤرخ ليبدأ من حيث ينبغى أن يبدأ ، ونقطة البداية هنا هى الإحاطة بشخصية صاحب المصدر الذى يستمد منه المؤرخ معلوماته : أخلاقه ، حظه من الأمانة ، ميوله وعقائده ، ومآربه وتطلعاته وطموحاته . فإذا ثبت له أن

صاحب المصدر موثوق به ، استعان به وبروايته . أما إذا تشكك فى أخلاقه وسلوكه ، فعليه أن يكون حذرا عند الاقتراب منه ، وله أن يستبعده ويسقطه من حسابه .

ولدينا أمثلة واضحة فى علم الحديث النبوى ، وهو العلم الذى تفرع عنه علم التاريخ عند المسلمين . ذلك أن علماء الحديث عندما رأوا أن بعض الأحاديث دخل عليها الزيف ، قاموا بعملية (غربلة) واسعة وتحروا عن شخصية كل فرد من المسندين الذين أسندت إليهم الأحاديث ، حتى استخلصوا (الصحيح) واستبعدوا غير الصحيح ، وهو الضعيف أو الخفيف أو المدسوس . فهذا حديث رفض « لأن من رواته فلان ، وكان كذابا مجاهرا بالفسق » ، وهذا حديث آخر قالوا فيه « إن من رواته فلان .. ولا يجوز الاعتداد به » . وهذا حديث ثالث قالوا فيه « إن من رواته فلان .. وحديثه منكر وغير محفوظ » . وصدق الله العلى العظيم إذ يقول : { يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين } .

* * *

وإذا كان مطلوبا من المؤرخ الاعتماد على المقارنة ، والالتزام بالحكم الصادق الأمين ، والحرص على التعبير الصحيح فى كتابة التاريخ ؛ فإن ثمة مشكلة تواجهنا فى الحكم على ما يسمونه (التاريخ المعاصر) . ذلك أننا ذكرنا أنه من المفروض فى المؤرخ أن يلتزم بالأمانة والدقة فيما يتعلق بالعصور السابقة والسنين الخالية . ولكن ماذا يكون الوضع بالنسبة لموقف المؤرخ من الأحداث القائمة حوله أو التى يعاصرها ويعيش بين جوانبها ويتأثر بما فيها من نزعات وتيارات قد تكون متلاطمة ؟ من الممكن فى بعض الحالات أن يجد المؤرخ نفسه غير راض عن تصرفات حاكم مستبد ، أو حكومة متسلطة ، أو جماعة منحرفة ، فهل يمكن للمؤرخ فى ظل هذه الأوضاع أن يقول كلمة بشجاعة معرضا نفسه

لعقوبة قد لا يقوى على احتمالها ، ومضحيا بلقمة العيش التى يتحكم فيها سادته الحكام ؟

إن كثيرين فى التاريخ المعاصر «يرقصون للقرد فى دولته» على قول المقريزى ، فيسجدون لكل متسلط معبرين عن ولائهم ، مهللين لحسن سياسته ، مشيدين بعظيم إنجازاته ... وليس هذا هو التاريخ .

ومن ناحية أخرى ، فإن علينا أن نتذكر ما سبق أن أشرنا إليه من أن لكل حاكم ، ولكل نظام ، ولكل عهد ، أنصاره وخصومه ، ومحبيه وكارهيه ، ومؤيديه ومعارضيه . الفريق الأول - وهم الأنصار والمؤيدون ومعظمهم غالبا من جماعة المنتفعين والمستفيدين ، والفريق الثانى ومعظمهم من المضارين أو غير المستفيدين أو المتطلعين إلى ما لم يتمكنوا من الوصول إليه . ويقف الفريقان فى مواجهة صريحة أحدهما أمام الآخر . فإذا امتدح المؤرخ فردا أو انتقد عملا أو تصرفا لأحد الفريقين ، برز له الفريق الآخر ليكيل له الذم والهجاء .

ومن جهة أخرى ، فإن الوثائق المدونة التى تشكل مصدرا هاما من مصادر المعرفة بمجرى الأمور فى الفترة المعاصرة ، تحوى الكثير من خبايا السياسة التى لا يجوز الكشف عنها فى حينها . ولذا فإن الكثير من الحكومات تتحفظ على هذه الوثائق فى أرشيفات وزارات الخارجية ولا تسمح بالإطلاع عليها إلا بعد مرور فترة زمنية معينة ، أربعين عاما فأكثر . فكيف يتسنى لمؤرخ العصر الحديث ، المعاصر لأحداث اليوم أن يدون تاريخا لا يعتمد على مثل هذا المصدر من مصادر البحث التاريخى ؟

لعله من الأصح والأسلم ألا تدخل الفترة المعاصرة التى نعايشها فى نطاق عمل المؤرخ ، ونرى أنه من الأصوب ارتباطها بدائرة العلوم السياسية . إنها ستصبح فى عداد التاريخ فى يوم من الأيام - بعد نصف قرن تقريبا - وعندئذ يكون صانعو أحداث هذه الفترة والمرتبطين بها بين مؤيدين ومعارضين ، قد فارقوا

الحياة أو فارقوا أماكنهم ، وضعفت قواهم ، وانحل نفوذهم ، مما يجعل سلطانهم على التاريخ والمؤرخين قليل الأثر على حرية الرأى والتعبير .

* * *

وبعد ، فهذه خواطر وافتراضات ، تدور حول علم التاريخ وعملية التأريخ . ومرة أخرى نقول إن التاريخ علم واسع الأفق ، ومدرسة تفيض بالخبرات والتجارب الإنسانية ، فعلينا أن لا نترك الباب مفتوحا أمام من لا يمتلكون القدرات للخوض فيه دون إلمام بمنهجه وأدواته وأهدافه . ورحم الله الكافيجى - من علماء القرن التاسع عشر الهجرى ، الخامس عشر للميلاد ، إذ يقول :

(إن من جملة العلوم النافعة فى المبدأ والمعاد ، وما بينهما ، علم التاريخ ، الذى فوائده وغرائبه لا تعد ولا تحصى . وهو بحر الدرر والمرجان ، لا يحيط بمنافعه نطاق التحديد والتبيان ...) .

وللتأريخ تاريخ ...

أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور

رؤية مصر لجيرانها فى الشرق الأدنى

من واقع النصوص المصرية القديمة

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين (*)

تعددت ملامح النظرة المصرية الذاتية عن نفسها خاصة ما يتعلـــق برؤيتـــها عن ذاتها واسم شعبها ومدى الإلمام بجغرافية المناطق المجـــاورة لـــها وتوصيفـــها وبالمثل الرؤية المصرية عن جيرانها عبر تاريخها الطويل منذ الألف الثـــالث قبـــل الميلاد إلى العصر الهيلينستى ، ونظرة تلك الشعوب إلى مصر ذاتها مما ســـنتعرض له فى هذا البحث التالى لمزيد من الدراسة والتحليل .

أولاً : النظرة المصرية عن ذاتها

من الملامح المرتبطة بمصر وموقعها الجغرافى ذلك التضـــــاد بيـــن اللـــون الأخضر (حرفياً اللون الأسود فى اللغة المصرية  Kmt كمت) الـــدال على الأرض الزراعية ، مقابل اللون الأحمر (حرفيا  Dsrt دشـــــرت فى اللغة المصرية) المرتبط بالأرض الصحراوية[1] ، وانعكاس ذلك التضاد علـــى المفهوم الدال على الحياة أو الموت ، وبالمثل على مفـــهوم الاســـتقرار والديمومـــة Order فى مقابل الفناء والفوضى Disorder . وتردد صدى هذه الظـــاهرة فـــى نصوص ومناظر العديد من مقابر الأفراد وخاصة فى الدولة الحديثة وذلك ضمن ما يسمى مناظر الحياة اليومية التى يبدو فيها صاحب المقبرة وهو يصطاد الأســـماك أو يطعن برمحه فرس النهر أو يقتنص الحيوانات أو الطيـــور الجارحـــة فـــى فيـــافى الصحراء من جهة ، أو وهو ينازل الأعداء من جهة أخرى ، وذلك تعبـــيراً عـــن

(*) أستاذ الحضارة المصرية والشرق الأدنى القديم المساعد بقسم الآثار المصرية ، كلية الآثار – جامعة القاهرة . معار حالياً للتدريس بقسم التاريخ ، كلية الآداب – جامعة الكويت .

القدرة على السيطرة على مناطق الفوضى والضرب على أيدى الخارجين عن مفهوم المركزية والنظام ، مما يؤدى إلى بسط النفوذ المصرى على المكان وقاطنيه من بشر وحيوان من جهة أخرى .

وحفظت لنا النصوص المصرية القديمة التصور المصرى عن نشأة الخلق على يد آلهة مصرية ، وعن سيادة مصر الحاضرية ولغتها على شعوب العالم القديم المعروفة آنذاك . وحفظ لنا نص دينى التصور المصرى عن خلق العالم على يد أوزوريس ، إذ جاء فيه :

« ما أن صار (أوزوريس) ملكا حتى رفع الشعب المصرى من حالته البائسة البربرية ، وجعل أبناءه يعرفون ثمرات الأرض ، ومنحهم قوانين ، وعلمهم أن يحترموا الآلهة ، بعد ذلك زرع الأرض كلها لينشر فيها الحضارة »(٢) .

كما تضمنت قصيدة عن طيبة وإلهها آمون من أوائل الأسرة التاسعة عشر المفهوم المصرى القديم عن سيادة مصر العالمية وإلهها آمون :

« كل إقليم يرهبك وسكانه خاضعون ... واسمك سام عظيم ، والفرات والبحر فى وجل منك . وسلطانك ذو وطأة على الأرض ، وفى الجزر التى فى وسط البحر ... وسكان بونت يأتون إليك ، وأرض الإله تصبح خضراء لأجلك حبا فيك ، ويحملون لك الروائح العطرية لتجعل معبدك فى عيد بالروائح الزكية »(٣) .

وتوضح النصوص المصرية بالمثل النظرة الخارقة عن حاكم مصر وقدراته، وأن الحياة والموت ملكا له ، يعطى الصحة لمن يشاء وتأتمر الطبيعة بامره :

« خضع فيضان النيل لفرعون بنفس الطريقة التى يخضع له بها ماء السماء فى مملكة الحيثيين النائية . وكف الثلج عن السقوط فى الجبال السورية لكى يسمح لمبعوث رمسيس الثانى بأن يمر »(٤) .

ومن جهة أخرى فإن نصوص « ون آمون » تظهر اعتراف أهل الشرق الأدنى القديم بعالمية آمون حيث ورد على لسان أمير بيبلوس نفسه أن .

« آمون خلق كل البلاد بعد أن أنشأ أرض مصر من قبل » ، وفـــي إشـــارة «ون آمون» لأمير جبيل من أن « البحر ملك لآمون ، وأن لبنان التي تقـــول أنها ملك لك إنما هي ملك لآمون ... آمون سيد لنـــا ومـــا أنـــت إلا خـــادم لآمون»[٥].

كذلك عكست لنا تعاليم الحكيم « آني » من الأســـرة الحاديـــة والعشـــرين أو الثانية والعشرين[٦] سيادة مصر الثقافية ، وانتشار اللغة المصرية القديمة فـــي كـــل البلاد الأجنبية ، وأن *« العبيد قد تعلموا اللغة المصريـــة ، وكذلـــك الســـوريون وكـــل الأجانب»*[٧] وقد تردد صدى ذلك في النص الأدبي للمدعو « سنوهي » من الدولـــة الوسطى في رحلة هروبه من مصر ، إذ وجد أميراً هناك يعرف المصرية وتحـــادث معه ، مما خفف عنه بعض عنائه ، ثم تعلم لغة القوم وصار منـــهم : « أن حـــالك معي سيكون حسنا ، لأنك ستسمع هنا كلام (لغة) مصـــر »[٨] . كذلـــك توضـــح قصة الأمير المسحور » « أقدار الأمير الثلاثة » سيادة اللغة المصرية في الشـــرق الأدنى القديم فعندما وصل الأمير إلى سوريا في طريقه إلى بلاد النهرين تقابل مـــع أمرائها فتحدث معهم بدون الحاجة إلى وسيط (مترجم)[٩] . كما أن « ون آمـــون » عندما وصلت به رحلته إلى جزيرة لارسا (آلاشيا) (قبرص) سأل جماعة مـــن الحاشية التي كانت تحيط بالملكة الحاكمة عليهم عمن يعرف اللغة المصريـــة مـــن بينهم ، وأجابـــه أحدهـــم عن إلمامه بها[١٠] . وعكست النصـــوص المصريـــة المباهاة بأن *«الحكمة آتت مـــن مصر لتصل إلى هذه المملكة (بيبلوس) حيث أعيـــش (ون آمون)»*[١١] .

وحرصت النصوص المصرية أحياناً على الإشارة إلى الحنيـــن إلـــى أرض الوطن والمعاناة من شعور الغربة مثلما عكسته لنا نصوص رحلة « ون آمـــون » عندما حيل بينه وبين إكمال مهمته في إحضار الأخشاب اللازمة لآمون والسفر بـــها بحراً إلى مصر :

« وذهبت إلى ساحل البحر حيث كان الخشب محزوماً ، ولمحت إحدى عشرة سفينة تقترب من البحر وهى من متاع زاكا ، وقد أتت بالأمر : خذوه سجينا ولا تسمحوا لسفينة له أن تذهب إلى أرض مصر . وعندئذ قعدت وبكيت ثم أتى كاتب خطابات الأمير وقال لى : ماذا يؤلمك ؟ » فقلت له : « لا ريب أنك ترى الطيور التى تذهب إلى مصر للمرة الثانية [لطول بقاء ون آمون لما يقرب من العام الكامل فى لبنان] . انظر إليها ! أنها تذهب إلى البرك الباردة ، ولكن متى سأترك هنا ؟ لا شك أنك ترى هؤلاء الذين أتوا ثانية ليأخذونى سجيناً »(١٢) .

وظهر مثل هذا الشعور من قبل فى النص الأدبى سنوهى من عصر الدولة الوسطى عندما بلغ به المشيب مبلغه ورغب فى العودة إلى مصر ليدفن فى أرضها(١٣) .

ثانيا : المفهوم المصرى عن جغرافية الأراضى الأجنبية

حفظت لنا بعض النصوص المصرية القديمة جانبا من الملامح الجغرافية للبلاد الأجنبية سواء الأفريقية أو الآسيوية التى كان لمصر اتصالات بها سواء كان بعض أهلها قد ترددوا على مصر أم أن المصريين ترددوا على تلك البلاد (خريطة ١) . وتناولت الموضوعات الجغرافية فى النصوص المصرية الإشارة إلى أسماء الشعوب الخارجية ومدنها الرئيسية ومنتجاتها المشهورة كزيوت قبرص وخيتا (الأناضول) وسنجار ونبيذ سوريا وتينها وشهرة بعض مدنها بالجعة وتطعيم الخشب ، وشهرة السودان بالذهب والعاج والأبنوس وريش النعام والحيوانات البرية(١٤) .

وقد ورد وصف جغرافي بديع فى نص سنوهى الأدبى لمنطقة تدعى « يا » فى بلاد الشام أثناء رحلة هروبه من مصر ، إذا جاء فى هذا النص :

« كانت أرضا جميلة تسمى « يا » ، وكان فيها التين والكروم ، ونبيذها أكثر من مائها. شهدها غزير ، وزيتونها كثير ، وكل الفاكهة على أشجارها. وكان فيها الشعير والقمح ، وماشية يخطئها العد من كل نوع»(١٥).

كذلك تلقى نصوص قصة « الأمير المسحور » الضوء على أن « السفر من مصر إلى بلاد النهرين كان ميسورا ، وما على المسافر إلا أن يمتطى عربته ، ويأكل مما يصادفه من صيد الصحراء ، ويتخذ وجهته إلى هدفه فيصل إليه »(١٦) .

إضافة إلى ذلك فقد تضمنت نصوص قصة الملاح الغريق (نجاة الملاح) من عصر الدولة الوسطى التى جرت أحداثها فى البحر الأحمر إشارة إلى جزيرة مسحورة خالية من البشر أسمتها النصوص المصرية « جزيرة الروح » - ربما كانت جزيرة الزبرجد أو إلى الجنوب منها عند مدخل البحر الأحمر(١٧) – توفر بها كل شيء جميل وأن حاكمها ثعبان هائل الحجم ، هو أمير بلاد البخور . وربما نجد هنا إشارة إلى الموقع الجغرافى الشهير بإنتاجه للبخور ، نعنى بلاد بونت(١١٨) :

« ألقتنى موجة على جزيرة أمضيت بها ثلاثة أيام فى دغل لا أنيس لى فيه ولا معين ، ثم أخذت طريقى فى أرضها أبحث عن شيء أضعه فى فمى ، فوجدت تينا وعنبا وكثيرا من الخضر بأنواعه المختلفة ، وكذا جميزا وخيارا، وأسماكا وطيورا فطعمت وشربت »(١٩) .

وتمدنا نصوص قصة الأخوين أو ما تعرف أحيانا باسم بردية أوربينى من عصر الدولة الحديثة بوصف جغرافى عن لبنان :

« ... ثم نادى الأخ الأصغر أخاه من الجانب الآخر (من البحيرة المليئة بالتماسيح) قائلا : « أمكث هنا حتى ينبلج الصباح ... وسنحتكم إلى الشمس معا عند شروقها ، وسيسلم المبطل للمحق (أى سينتصر الحق) ، لأنى لن أكون معك بعد ، ولن أعيش فى مكان أنت فيه وسأتخذ لى فى وادى الأرز (لبنان) مقاما لى»(٢٠) .

وفى المساجلة للظابط ، مربى أفراس الملك « حورى » مع الكاتب امنمؤبى من الدولة الحديثة فى مدى الإلمام بالمعلومات الجغرافية والإحاطة بطبيعة مناطق بلاد الشام ورد ما يلى :

« ألم تطأ طريق « مجر » [ربما جزء من لبنان] حيث السماء مظلمة نهارا ويغزر فيها نمو العليق (؟) والبلوط وأشجار الأرز التي تناهض السماء ؟ وهناك أسود أكثر من الفهود والضباع ويحيط بها البدو من كل جانب . أرجوك ... دعني أخبرك عن برت . أنك تنفر من تسلقها وتفضل عبور نهرها ... وسترى ما يكون عليه الإنسان لأجل أن يصير ماهرا ، وذلك حينما تحمل عربتك على كتفك ... وتستيقظ عند ساعة الرحيل في ... ليل . وأنت وحدك تسرج الحصان ، والأخ لا يأتي لأخيه والهاربون(؟) قد أتوا إلى المعسكر ، وحل قيد الجواد ... قد نهبت بالليل وسرقت ملابسك. وسائسك قد استيقظ بالليل وعرف ما قد ارتكبوه ، فأخذ ما بقى . وانضم إلى صف الخونة واختلط بقبائل البدو وغير نفسه إلى آسيوى»[٢١] .

وفي جزء آخر يتهكم « حورى » على زميله متحديا إياه في معلوماته الجغرافية ومدى إلمامه بظروف البلاد الأجنبية التي يتعين عليه أن يجوس خلالها في عمله ، بسؤاله عن ميناء سمير اسوسو ، وعلى أى جانب منها تقع مدينة حلب، وما أهمية مجراها ؟ »[٢٢] . كما عكست النصوص المصرية أحيانا نقدا وصفيا لجغرافية بعض المناطق الأجنبية ، مثلما نعلم عن وصف منطقة تدعى « كنكانو » أقام بها أحد المصريين :

إني أقيم في « كنكانو » وليس لدى كافة الضروريات ... إني أتطلع سنويا إلى الطريق الصاعد (المؤدى إلى) فلسطين ، وأرقد تحت شجرة لا تحمل ثمارا (!) صالحة للأكل ، فثمارها قد أختفت رغم أنها لم تنضج بعد ومع شروق الشمس يملأ البعوض المكان وعند الظهيرة الحشرات . وذبابة الخيل تلدغ وتمتص (الدم) من العروق ... »[٢٣] .

وحفظت لنا نصوص « ون آمون » ما يدل على وجود خطوط ملاحية مشتركة بين « زاكار بعل » Zakar Baal أمير جبيل ومصر في عهد «سمندس» (نيسو – بانب – جد) من الأسرة الحادية والعشرين :

« وهكذا تكلم (الى ون آمون) وقلت له : « ولكنها سفينة مصرية ونواتيها مصريون يسيحون لسمندس ، وليس له ملاحون سوريون » . فقال لى : «ولكن يوجد فى ثغرى عشرون سفينة مشتركة مع سمندس وفى صيدا التى مررت بها سائحا أيضا خمسون مركبا مشتركا مع « وركت إيل » وهى تسافر إلى بيته »[٢٤] .

وقد حفظت لنا نفس نصوص « ون آمون » وصفا لأرض « لارسا » المرجح ارتباطها جغرافيا مع جزيرة قبرص الحالية وعن سيادة العدالة بها ، عندما ساقت الرياح سفينته إليها مطرودا من ميناء جبيل ، وكاد أهل المكان أن يقتلوه وتساؤله عما إذا كان هناك من بينهم من يعلم المصرية القديمة لينقل عنه إلى ملكتهم :

« قل لسيدتى : لقد سمعت أنه يقال من أول طيبة حتى إلى مكان آمون إن الظلم يفعل فى كل مدينة ، ولكن الحق يفعل فى أرض لارسا . والآن كذلك يفعل الظلم كل يوم هنا . فقالت لى : ولكن ما الذى تعنيه بما تقول ؟ فقلت لها : « إذا كان البحر قد هاج وساقتنى الريح إلى الأرض التى تسكنيها ، فإنك لن تسمحى لهم أن يقبضوا على ليذبحونى مع العلم بأنى رسول آمون فتدبرى الأمر جيدا . إنى فرد سيجرى البحث عنه باستمرار »[٢٥] .

ثالثا : النظرة الإيجابية لمصر إلى جيرانها فى الشرق الأدنى القديم

تعددت ملامح العلاقات الإيجابية المصرية مع جيرانها عبر تاريخها القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد . وحفظت لنا النصوص - الملكية منها والخاصة - وكذلك بعض الإشارات فى النصوص الأدبية ، ملامح تلك العلاقات التى يتضح منها وصول العديد من الأجانب إلى مصر للمتاجرة مع أهلها أو بحثا عن الاستقرار (رحلة ابشا)[٢٦] وفى مرحلة تالية وصول وفد من الجنبتيو (اليمن) فى عهد تحوتمس الثالث حاملين هداياهم من البخور[٢٧] . وبالمثل كما نعلم حتى من مرحلة

تالية فى العصر البطلمى (زيد ايل) [٢٨] . أو طلبا للعون فى ضائقة اقتصادية مثلما نعلم من مناظر المجاعة لبدو آسيويين على جدار الطريق الصاعد لمجموعة وناس الهرمية فى سقارة[٢٩] أو فيما حفظته لنا المصادر اللاهوتية عن قدوم يوسف عليه السلام وأهله إلى مراعى الدلتا فى فترة الانتقال الثانى أو ما يعرف اصطلاحا باسم عصر الهكسوس[٣٠] . تؤكد النصوص المصرية أن هؤلاء الأجانب قدموا لطلب « نسيم الحياة » من حاكم مصر أو للعمل السلمى داخل مساكن ومعابد مصر القديمة كما نعلم من نصوص بردية بروكلين رقم ٣٥٠١٤٤٦ وبردية بولاق ١٨ من الدولة الوسطى[٣١] . وخلال أواخر عصر الدولة الحديثة وفترة الانتقال الثالث وجدت فى مصر جاليات أجنبية الأصل نالت العديد من المزايا والحقوق ، وتولى بعض أفرادها مناصب إدارية وسياسية وعسكرية ، مثلما نعلم على سبيل المثال عن «دودو» فى بلاط آخناتون من الأسرة الثامنة عشر و « أرسو » الآسيوى من أوائل الأسرة العشرين ، وعن نشاط شعوب البحر ومشاركتهم عسكريا فى الجيش المصرى من بعد[٣٢] . ولعل ما عرف اصطلاحا باسم الزواج الدبلوماسى دعم وجهة النظر السليمة فى العلاقات الدولية القديمة بين مصر وجاراتها و أقدم مثال على ذلك ما نعرفه عن وصول أميرة آسيوية إلى بلاط ساحورع من الأسرة الخامسة ربما لتزف إليه وفقا لما يذهب إليه بعض الباحثين وذلك ضمن مناظر عودة أسطوله وهى المناظر المنقوشة على جدران معبده الجنائزى فى سقارة[٣٣] . وحفظت لنا النصوص المصرية بالمثل زواج « رمسيس الثانى » من الأميرية الحيثية، وعن مدى سعادة الشعبين لمثل هذا الزواج وكونهما أصبحا « قلبا واحدا مثل الأخوة ، وأنه لا توجد ضغينة لأحدهما تجاه الآخر »[٣٤] .

وعكست نصيحة سنوهى للحاكم الآسيوى النظرة المصرية إلى البلاد الأجنبية المسالمة لمصر وحكامها خلال أوائل الألف الثانى قبل الميلاد :

« أرسل إليه [إلى حاكم مصر] ، دعه يعرف اسمك ،ولا تنطقن بألفاظ ضد جلالته وهو لا يفوته أن يقدم خيرا إلى أرض ستكون مسالمة له »[٣٥].

وحوالى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد اكتسبت العلاقات المصرية البابلية طابع الصداقة الشخصية . وتمخضت تلك الصداقة عن مصاهرة البيتين الحاكمين أكثر من مرة ، من أشهرها زواج امنحتب الثالث بابنة الملك «كاردونياش» وطمعه فيما بعد فى الزواج من بنت أخيها كادشمان خاربى (أو كادشمان انليل) مع ضنه فى الوقت نفسه بتزويج الملك البابلى إحدى بناته أو إحدى أميرات بيته الفرعونى قائلا : *« لم يسبق من قديم الأزل أن أعطيت أميرة مصرية إلى أى إنسان »*(٣٦) .

وعكست الخطابات التى أرسلها ملوك آسيا إلى أمنحتب الثالث والرابع الحرص على مخاطبة الحكام الميتانيين لحكام مصر بلفظ « أخ » دلالة على المساواة فى المكانة السياسية والعلاقات الاجتماعية المميزة واعتياد كل منهم أن يسأل عن الآخر فى رسائله عن أهله وداره وخيوله وأتباعه(٣٧) . إضافة إلى ذلك فقد زخرت تلك الخطابات بالطلبات البالغة القيمة حيث « الذهب فى مصر تراب على الطريق . يجب أن ترسل لى كمية كبيرة من الذهب كما فعل أبوك » . ويقول ملك بابل :

> *« لا يجب أن يعهد أخى إلى موظف بالذهب الذى يرسله لى ... بل يجب أن يرى أخى بعينه أن الذهب قد عبئ وختم وسافر لأن الذهب الذى أرسله أخى والذى عباه وختمه موظف من عند أخى كان من نوع ردئ »*(٣٨) .

ولقد تسامح المصريون مع ديانات أصدقائهم ، ولم ير أمنحتب الثالث بأسا فى أن يتقبل فى قصره تمثالين صغيرين للمعبودين العراقيين شمس واشتار ، أرسلهما الملك الميتانى مع ابنته عروس أمنحتب لتستعين ببركتهما على إقرار حبها فى قلبه فضلا عن ٣١٧ من النساء والخدم(٣٩) . أو أن يتقبل أمنحتب الثالث معونة عشتار التى أرسلت على عجل من نينوى للمساهمة فى علاجه ومداواة آلامه(٣٠) .

وضمن أنشودة آتون أوضحت النظرة المصرية عن مفهومها للخلق وللمساواة بين مصر والأجانب المحيطين بها :

حينما كنت وحيدا (لا شيء غيرك) خلقت الناس وجميع الماشية والغـزلان وجميع ما على الأرض مما يمشى على رجليه . وما فى عليين ممـا يطـير بأجنحته ، وفى الأقطار العالية سوريا وكوش وأرض مصر .

وأنك تصنع كل إنسان فى موضعه ... والألسنة فى الكلام مختلفـة وكذلـك تختلف أشكالهم وجلودهم ، لأنك تخلق الأجانب مختلفين ... أنت تخلق النيل فى العالم السفلى وتأتى به كما تشاء ... وجميع الأقطار العالميـة القاصيـة تخلق حياتها أيضا .

ويوجد نيل فى السماء للأجانب ولأجل غزلان كل الهضاب ... أمـا النيـل (الأصلى) فإنه يأتى من العالم السفلى لمصر »[٤١] .

وتردد صدى لمثل تلك الأفكار فى أنشودة أخرى لآمون[٤٢] .

رابعا : النظرة السلبية المصرية إلى جيرانها فى الشرق الأدنى القديم

من المعلوم أن مصر خلال الألف الثالث قبل البـلاد كـانت لـها علاقاتـها الرئيسية مع كل من آسيا والنوبة وأحيانا مع ليبيا وبلاد بونت . وعلى العكس مـن ذلك نجد الإشارات معدومة تجاه علاقاتها مع بلاد الرافديـن . ولا تفيدنـا كثـيرا المصادر النصية من بلاد الرافدين فى هذا الصدد برغم علمنا بوجود العديـد مـن الإشارات النصية الدالة على نشاطات لها مع ما أسمته النصوص السومرية القديمـة دلمون (البحرين) وماجان (عمان أو سهل مكران الإيرانى) وملوخا (السـند) ، أو فى تأكيدات حكامها على امتداد نفوذهم من البحر الأسفل (الخليج العربى) إلـى البحر الأعلى (البحر المتوسط) ، وعلى سبيل المثال فى نصوص لوجال زاجـيرى وسرجون الأكدى وحفيده نارام سين[٤٣] ، وانعدام أى إشارات محتملة لها مع بـلاد الرافدين فيما عدا التخريج الخاطئ عن ارتباط ملوخا مع مصـر فـى التفسـيرات القديمة[٤٤] . واستمر الوضع كذلك إلى منتصف الألف الثانى قبـل الميـلاد حينمـا بدأت مرحلة التصادم العسكرى ، ثم التصالح السياسى بعد ذلك ودعمـه بـالزواج الدبلوماسى بين كل من حضارة وادى النيل وبلاد النهرين .

وعكست النصوص المصرية بأنماطها المتعددة – الدينية منـــها والأدبيـــة أو التاريخية – ملامح من الرؤية المصرية السلبية لمصر عن جيرانها فى النوبة وآسيا من الألف الثالث قبل الميلاد وما تلاه وقد حفظت لنا النصوص الدينيـــة المعروفـــة اصطلاحا باسم « متون الأهرام » النظرة المصرية إلى الأجانب مثلما عكسه النـص التالى :

« الحمد لله يا (عين حور) ... الناس يخافونك ، والشعوب الأجنبية تســقط أمامك على وجوهها ، وتسعة الأقواس[٤٥] تحنى رءوسها لـــك مـــن جـــراء نبحك بأيتها الساحرة ، وإنك تستعبدين (للملك فلان) قلوب البلاد الأجنبيـــة الجنوبية والشمالية والغربية والشرقية كلها جميعا »[٤٦] .

كما ورد ضمن الأناشيد الملكية صفة السيادة الملكية على الأجانب ومن أمثلـة ذلك ما فى قصائد المديح للملك سنوسرت الثالث ، الأنشودة الرابعة : *« لقـــد جـــاء إلينا، ووطأ بقدمه الممالك الأجنبية ، فضرب على يد الإنو الذيـــن لـــم يعرفـــوا الخـــوف منه »*[٤٧] وفى قصيدة انتصارات تحوتمس الثالث ورد ما يلى :

« عظمتك جميع البلاد الأجنبية ، جميعهم فى قبضتك ، وإنى بنفســـى أمـــد يدى واصطادهم لك ... واربط الأسرى من التروجادويت بعشرات الألـــوف والألوف وأهل الشمال بمئات الألوف . أنى جاعل أعداءك يســقطون تحــت نعليك قتلاً ... الثائرين ... »[٤٨] .

وتكرر مثل ذلك أيضا للملك « رعمسيس الثانى » من عصر الأسرة التاســعة عشر[٤٩] . وعكست تعاليم « خيتى بن دواف » إلى ابنه بيبى ، المؤرخة فيما بيـــن أواخر الدولة القديمة والأسرة الثانية عشر[٥٠] ، محاولة النيل من المهن المعروفـــة آنذاك فى مصر وتعظيم مهن الكاتب والكتابة فأشار إلى وظيفة « حـــامل الـــبريد » ومساوئها مما يستنبط منه نظرة المصرى آنذاك إلى البلاد الأجنبية فيما يلى :

« وحامل البريد عندما يسافر إلى بلد أجنبى يوصى بأملاكـــه لأولاده خوفـــا من الأسود والآسيويين ، وهو يعلم ذلك وهو فى مصر ، وعندما يعود إلـــى بيته يكون تعسا لأن المشى قد حطمه وقطعه إربا »(٥١) .

وهذه النظرة المتعالية على الأجانب انعكست صورتها فى نبوءات العرافيـــن الذين تنبأوا بحلول المصائب بمصر وبأن : *« أسرارنا (مصـــر) ســتقع فـــى أيـــدى الجهلاء والبرابرة وسيبرعون فى فنون مصر السفلى »*(٥٢) .

ومثل تلك النظرة المتعالية على الأجانب تردد صداها فى عصر الأغريـــق : *«يا أيها الإغريق ، ما أنتم سوى أطفال !»*(٥٣) . وحفظت نصوص فترة الانتقـــال الأول ضمن نصائح « خيتى » لابنه « مريكـــارع » بعـــض الإشـــارات السـلبية عـــن الآسيويين وطبائعهم الغير سوية حتى أنهم لا يستقرون فى مكان واحد ، ولذا فـــهم يهاجمون من الخلف » :

انظر إلى الآسيوى اللعين (البدوى) ، أن الأمور سيئة فى بـــلاده ، فمـــاؤه أسن ، وطرقاته وعرة ، لذلك فهو دائم الترحال ، لا يستقر فى مكان واحـد ، وإنما ظل يشاغب منذ عهد حور ، لا يغلب ولا يغلب ، لا يهتم بأمره ، فـــهو ليس إلا بدويا منبوذا على الشاطئ ، لا يغير إلا على الموطن المنعـزل ، ولا يجرؤ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان . أقـــم الحصـــون فـــى تخومـــك الشرقية، وابن مدنا وعمرها بالسكان »(٥٤) .

وتكرر مثل ذلك فى تعاليم الملك أمنمحات إلى ابنه سنوسرت حيث ورد مـــا يلى :

لقد قهرت أهل واوات وأسرت قوم الماتو (المجاى) ، وجعلت الآســـيويين يمشون (يفرون) كالكلاب ... »(٥٥) . وضمن نـــص ســنوهى وردت إشارة إلى وصف أرض فلسطين بأنها ملك للملك المصـــرى : *« والآن فلتأمر جلالتك أن يحضر " مكى " من " كدمى " و " خنتواش " مـــن بـــلاد "*

خنتكش ، و" منوس " من أرض " الفنخو " وهم أمراء مشهورون قد نموا على حبك غير أنهم منسيون ، وفلسطين ملكك »[٥٦] . كذلك تضمن نص سنوهى إشارة واضحة إلى أنه : *« ليس هناك بدوى يحالف رجلا من الدلتا »* .

مما يدل دلالة واضحة على التفوق الحضارى والنظرة المتعالية . وفى نظرة سنوهى إلى المستقبل والخوف من الموت بعيدا عن أرض مصر عكست نصوصه فرحته بالرد الملكى الذى جاء فيه : *« وعلى ذلك لن تموت فى الخارج ، ولن يدفنك الآسيويون ، ولن توضع فى جلد غنم عندما يصنع لك قبرك »*[٥٧] .

وانعكست تلك النظرة الفوقية ضد الأجانب فى نص سنوهى بالرغم من تلك المكانة الاجتماعية التى وصل إليها فى أرض الغربة وكيف أنه عندما عاد إلى مصر وصف كيف أخذوه إلى بيت أحد الأمراء وأعدوا له حماما ، وكيف عطروه وألبسوه فاخر الثياب ، وأن الخدم كانوا رهن إشارة إصبعه :

« وجعلوا السنين تغادر جسمى ، وانسلخت عنى وسرحوا شعرى ، وألقوا إلى الصحراء بحمل من القانورات ، وألقوا بملابسى إلى ساكنى الصحراء ، وألبسونى أفخر الثياب ، وعطرونى بأحسن أنواع العطور ، ونمت على سرير، وتركت الرمال لمن هم فيها ، وزيت الخشب لم يلطخ نفسه به»[٥٨].

وضمن نصوص الحوار لمساجلة الكاتب أمنمؤبى وحورى من الدولة الحديثة عن جغرافية بلاد الشام ورد ما يلى :

« انظر أن هناك(؟) مضيقا قد حفه بالمخاطر البدو الذين يكمنون تحت الأشجار ، بعضهم يبلغ أربع أذرع أو خمسا من الأنف إلى أخمص القدم ، وجوههم متوحشة وقلوبهم غليظة ولا يصغون إلى الملاطفة »[٥٩] .

وأشارت النصوص المصرية دائما حال تناولها أرض كوش بإطلاق صفة الخاسئة hsi أو الشريرة عليها ، وعكست دائما نظرة عدائية ضدها[٦٠] .

ولعل مثل تلك النظرة العدائية ارتبطت فى الذاكرة المصرية بما كان يفعله الأجانب بمصر وأهلها حينما تسنح لهم الفرصة للتسلل السلمى إلى داخل أرضها نتيجة لخلل داخلى وضعف لحكومتها المركزية مثلما كان الحال خلال عصر الانتقال الأول[٦١] أو من خلال تداخلات عسكرية خلال فترة الانتقال الثانى على سبيل المثال ، وأخيرا خلال عصر الرعامسة حينما حاولت مجموعات شعوبية نتيجة لانهيار الحضارة المينوية دخول مصر عنوة من حدودها الشمالية الشرقية والغربية أو من سواحلها الشمالية . وقد انعكست جهود مصر وملوكها لمحاولة درء تلك الأخطار فى بعض الإشارات النصية لعل من أشهرها ما ورد ضمن نصوص بردية نفرتى [٦٢] ، محاولة حاكمها تشييد خط دفاعى على الأقاليم الشرقية من دلتا نهر النيل عرفت باسم « أسوار الحاكم » من أجل « ألا يسمح للآسيويين بالدخول إلى مصر لدرجة دفعتهم إلى الاستجداء من أجل السماح لقطيعهم بالقدوم للحصول على الشراب[٦٣] . وفى مرحلة تالية ما بين ثارو (القنطرة حاليا) ورفح على تخوم فلسطين على طول الخط الساحلى لشبه جزيرة سيناء ، وفى ارتباط مع ما يعرف اصطلاحا باسم « طرق حورس » [٦٤] ، وعلى حدودها الغربية ما بين وادى النطرون ومرسى مطروح ، أو إلى الجنوب حول سمنه وقمة على نهر النيل[٦٥] .

وضمن تقرير لأحد وزراء أمنحتب الثالث من الدولة الحديثة عن الحدود وتنظيم دخول الأجانب إلى مصر ورد به إشارة إلى ما يلى :

« وضعت قوات فى الطريق لمطاردة الأجانب وردهم على أعقابهم إلى بلادهم . وتحيط تلك القوات بنصف المملكة لمراقبة تنقلات البدو الرحل . وفعلت نفس الشيء على ضفاف النيل ومصباته فى الدلتا فيغلقها الجنود فى وجه كل واحد ما عدا رجال البحرية الملكية »[٦٦] .

خامسا : الرؤية المعاكسة للأجانب عن مصر وأهلها

حفظت لنا بعض المصادر النصية إشارات إيجابية أحيانا وسلبية أحيانا أخرى لجيران مصر فى مناطق الشرق الأدنى القديم عبر تاريخها القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد وما تلا . ولعل من أهم ما حفظته لنا تلك النصوص شهرة مصر بطبها وأطبائها(٦٧) .

من ذلك أن الملك الحيثى موتالو طلب من معاصره البابلى أن يوفد إليه طبيبا وساحرا . وكان قد طلب نفس الطلب من مصر أيضا فأرسلت إليه تمثالا لمعبودها رب الشفاء خونسو ومعه كاهن ملازم له(٦٨) . وتردد صدى ذلك فى المصادر اليونانية حيث ورد فى النص الأدبى الشهير لهومير فى الأوديسا أن أرض مصر بها من الأعشاب الشافية لكل دواء وأن كل إنسان بها طبيب ، وأنهم على علم بمداواة كل علة ، وأنها « بلد الأطباء أحكم أهل العالم »(٦٩) . كما أن هيرودوت فى كتابه الثانى أكد على أن : *« ممارسة الطب فى مصر كان يغلب عليها التخصص ، وأن لكل علة طبيب : أطباء للعيون والأسنان والباطنة والأمراض الخافية »*(٧٠) . كما أوضح بالمثل أن المدارس الطبية فى مصر كانت فى منتهى الشهرة والسمعة الطيبة ، كما أن رجال الطب كان لهم صيت ذائع ، وأن الملوك والأمراء والعظماء فى البلاد الأخرى كانوا يستدعونهم لعلاجهم(٧١) .

وتردد صدى شهرة مصر فى مجال العرافة أيضا ، حيث استفسر ملك قبرص أثناء عصر العمارنة عن عراف مصر كان يعرف كيفية الحصول على أجوبة من النسور وأنه متخصص فى ممارسته »(٧٢) . وتردد صدى لمثل ذلك فى كتابات هيرودوت عن مصر : *« وهم أول العرافين ، وعنهم نقلت العرافة إلى بلاد اليونان »*(٧٣) . وظل الأجانب – حتى عندما اضطرب حبل الأمن بين الآموريين والكنعانيين فى الشام خلال عهد الفرعون إخناتون وتأثر المتاجر البابلية بالفوضى فى أرض كنعان – يأملون فى مصر وحاكمها سرعة الاستجابة لنجدتهم ومساندتهم

حيث لم يجد الملك البابلى غير الفرعون المصرى يستصرخه لتأمين تجارته : *«كنعان أرضك ... وأمراؤها مواليك»*(٧٤) .

وعلى العكس من ذلك فقد حفظت لنا بعض النصوص الأدبية نظرة عدائية باتجاه مصر وأهلها مثلما جاء فى قصة « الأمير المسحور » اتضحت عندما تمكن الأمير المسحور (المحكوم عليه من القدر) من تحقيق شرط الوصول طائرا إلى شرفة ابنة حاكم بلاد النهرين المرتفعة عن الأرض بستة وخمسين ذراعا ، وبالتالى كان من حقه أن يتزوج منها :

« فسألهم الرئيس ابن من فى الرؤساء هو ؟ فقال له أنه ابن ضابط أتى طريدا من أرض مصر فارا من وجه زوج والده » . ولكن رئيس بلاد النهرين استشاط غضبا وقال : « هل أعطى ابنتى إلى طريد مصر ؟ دعه يبتعد من هنا ثانية » . فأتوا ليخبروه قائلين « ارجع إلى المكان الذى أتيت منه ؟ »(٧٥) .

وبالمثل انعكس ذلك فى الرد على طلب « ون آمون » من أمير جبريل بتزويده بالخشب اللازم لآمون :

« إذا كان حاكم مصر سيد أملاكى وكنت أنا خادمه أيضا لم يكن لزاما عليه أن يرسل فضة ولا ذهبا حينما تقول « نفذ أوامر آمون » . على أنها لم تكن هدية ملك التى أعطوها والدى. وأنا لذلك لست خادمك ، ولا خادم من أرسلك »(٧٦) .

وعلى هذا يتضح من خلال النظر فى النصوص الأدبية فى حضارة مصر القديمة مدى التنوع فيما احتوته من معلومات عن البلدان المجاورة لمصر والصفات المرتبطة بأهلها ، واختلاف تلك النظرة المصرية باختلاف العلاقات المصرية معها سلبا أم إيجابا . كما عكست تلك النصوص المصرية أحيانا ألفاظا قاسية وصفات سيئة لحقت بتلك الشعوب وارتبطت بطبيعة العلاقة بين الطرفين ومدى تأثير القوة السياسية والعسكرية المصرية عليها .

خريطة رقم (١)

مناطق الشرق الأدنى القديم

الهوامش

(1) Gardiner, A.Egypt of Pharaohs, Oxford University Press, 1961, p.27.

(٢) بوزنر (جورج) وآخرون ، معجم الحضارة المصرية ، ترجمة أمين سلامة ، ومراجعة د. سيد توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص٤٧.

(٣) حسن (سليم) ، الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة ، الجزء الثانى : فى الدراما والشعر وفنونه ، الطبعة الثانية ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ١٩٩٠ ص ١٣٢ .

(٤) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٥) مهران (محمد بيومى) ، مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الرابع : الحضارة المصرية القديمة ، الجزء الأول : الآداب والعلوم ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية : ١٩٨٩ ، ص ١٣٦ .

(٦) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٧) حسن (سليم) الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة . الجزء الأول : فى القصص والحكم والتأملات والرسائل ، الطبعة الثانية ، دار أخبار اليوم بالقاهرة ، ١٩٩٠م ، ص ١١١ ، ص٢٤١ .

(٨) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١١١ ، مهران (محمد بيومى) المرجع السابق، ص ٤٦ ، توفيق (سيد) معالم تاريخ وحضارة مصر القديمة ، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٧ ، ص ٢٣٥ .

Wilson J. « Egyptian Myth and Tales : The Story of Sinuhe », ANET I, Princeton University Press:1975, p.7.

(9) Wilson, J. « Egyptian Myth and Tales : The Journey of Wen – Amen to Phoenicia, » ANET I, Princeton University Press : 1972, p.24.

(١٠) حسن (سليم) ، المرجع السابق ص ١١١ ، توفيق (سيد) المرجع السابق ، ص ٣٧٢ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ص ١٣٤ ؛

Gardiner A. Op.Cit., pp. 312 – 13 .

(١١) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٣ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٣٧ .Wilson, J.Op. Cit p.20

(١٢) حسن (سليم) ، المرجع السابق ص ١٧٩ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٣٤ ، .Wilson, J.Op. Cit p.23

(١٣) توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(١٤) صالح (عبد العزيز) ، « التربية الثقافية ، تاريخ الحضارة المصرية : العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٨٦ .

(١٥) حسن (سليم) ، المرجع السابق ص ٤٨ ، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٩٩ ؛ فالبيل (دومينيك) ، الناس والحياة فى مصر القديمة ، ترجمة ماهر جويجاتى ومراجعة د. زكية طبوزادة ، كتاب الفكر رقم ١٤ ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٩م ، ص ١٢٥ ، Wilson, J. Op. Cit., p.7

(١٦) حسن (سليم) ، المرجع السابق ص ١١١ ، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٣٧٣ .

(١٧) فخرى (أحمد) ، « الأدب المصرى » ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣٩٠ – ٣٩١ .

(١٨) توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠-٢٤١ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١١٠-١١١ .

(١٩) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٢٠) حسن (سليم) المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٣٧٧ . مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص١٢٣ .

Wilson, J. « Egyptian Myths and Tales : The Story of Two Brothers, » ANET I, Princeton University Press, 1972, p. 15 .

(٢١) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٤٠٧-٤٠٨ ، صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٢٢) صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ٢٠٥

(٢٣) فالبيل (دومينيك) ، المرجع السابق ص ١٢٥ .

(٢٤) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٣٠.

Wilson, J. Journey of Wen – Amun, p. 19 ; Gardiner, A. Op. Cit., 309.

(٢٥) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٨٠ ، Wilson, J. Op. Cit., p. 24

(26) Saleh, A. « Arabia and the Arabs in Ancient Egyptian Records, » Journal of the Faculty of Archaeology, Cairo University, Special Issue Cairo : 1978. P. 74 .

(27) Saleh, A. « The Gnbtyw of Thutmosis III's Annals and the South Arabian Geb(b)anitae of the Classical Writers, » BIFAO 72 (1972), pp. 245 – 62.

مهران (محمد بيومى) «دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمـــة» مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس (١٣٩٦هـــ / ١٩٧٦م) ص ٣١٠ – ٣١١ .

(٢٨) شاهين (علاء الدين) ، تاريخ الخليج والجزيرة العربية القديمـــة ، منشـــورات ذات السلاسل ، الكويت ١٩٩٧، ص ٢١٤ مهران (محمد بيومى) ، المرجع الســابق ، ص ٣٢٥ .

(٢٩) عن مناظر البدو الآسيويين على طريق وناس الصاعد فى مجموعة الهرميـــــة فـــى سقارة راجع : توفيق (سيد) ، المرجع لسابق ص ١٢٦ ؛

Smith W.S. The Art and Architecture of Ancient Egypt, p. 133 , Fig. 126.

(٣٠) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح السابع والأربعون ، آيــات : ١ – ٥ دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط ١٩٩٤ .

(31) Posner, G. « Les Asiatiques en Egypte, » Syrie 34 (1957), pp. 145 – 53, Kemp, B. et al.,, Ancient Egypt: A Social History, Oxford University Press : 1983, P. 155.

(32) Gardienr, A. op.cit., p.281.

فالبيل (دومينيك) ، المرجع السابق ، ص ٣٩

(٣٣) فخرى (أحمد) ، مصر الفرعونية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القـــاهرة ، ١٩٧٤ ، ص١٠٨ ، ص ١٢٣ .

(34) Gardiner,A. Op. Cit., p.266.

(٣٥) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ، مهران (محمـــد بيومـــى) ، المرجـــع السابق ، ص١٠١ ، فخرى (أحمد) ، الأدب المصرى ، ص ٣٨٦ .

(٣٦) صالح (عبد العزيز) ، الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول : العـــراق ، القـاهرة ١٩٩٠ ، ص ٥٥٩ – ٥٦٠ ؛ توفيق (سيد) المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

(٣٧) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ ، صالح (عبد العزيـز)، المرجع السابق ، ص ٥٦٣ .

(٣٨) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٣٩) صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ص ٥٦٣ .

(40) Gardiner, A. Op. Cit., p. 266 .

(٤١) حسن (سليم) ، الأدب المصرى القديم ، الجزء الثانى : فى الدارما والشــعر ، ص ١١٩ – ١٢٠ ، مهران (محمد بيومـــى) ، المرجـع الســابق ، ص ١٦٣ – ١٦٤ ؛ فخرى (أحمد) ، المرجع السابق ، ص ٤١٨ – ٤١٩ .

(٤٢) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٤٣) البدر (سليمان سعدون) ، الخيج العربى فى الألفين الثانى والأول قبــل الميــلاد ، الكويت ١٩٧٨ ، ص ٣٣ ؛ شاهين (علاء الدين) ، المرجع السابق ص ١٥ .

(٤٤) وبنهايم (ليو) ، بلاد ما بين النهرين ، ترجمة سعدى فيضى عبد الـــرازق ، بغـداد ١٩٨٦، ص ٧٨، صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ٤٦١ ، ص ٤٨١.

(٤٥) شاهين (علاء الدين) ، « الرمزية التاريخيــة للأقــواس التســعة فــى المصــادر المصرية وحتى نهاية الدولة الحديثة » ، المؤرخ المصرى ، قسـم التــاريخ ، كليــة الآداب – جامعة القاهرة ، العدد الثامن (يناير ١٩٩٢) ، ص ٣٥ – ٦٤ .

(٤٦) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٤٧) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ ، مهران (محمد بيومـــى) ، المرجــع السابق ، ص١٩١ .

(٤٨) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

(٤٩) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(٥٠) فخرى (أحمد) ، المرجع السابق ، ص ٤٣٧ .

(٥١) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٢٥٥ ، حسن (سليم) ، الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة ، الجزء الأول : فى القصص والحكم والتأملات ، ص ٢٢٤ .

(٥٢) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ص ٣٧ .

(٥٣) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ص ٣٨ .

(٥٤) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق، ص ٣١١، Gardiner, A. Op. Cit p.37

(٥٥) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣ .

(٥٦) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص٥٣ .

(٥٧) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ٤٩ ، ص ٥٢ ؛ مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص١٠٤ ، فخرى (أحمد) ، المرجع السابق ص ٣٨٨ .

(٥٨) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٥٩) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص٤٠٩ .

(60) Gardiner, A. op.cit., p. 37, p.180 .

(61) Shaheen, A . « A Possible Syncronization of EB IV Ceramic ware in Syro – Palestinian and Egyptian Sites»,

مجلة كلية الآثار – جامعة القاهرة العدد الخامس (١٩٩١) ، ص ١٠٧ – ١١١ .

(٦٢) راجع شاهين (علاء الدين) ، « التحركات البشرية على حدود مصر الفرعونية إلى نهاية العصر البرونزى الحديث : الدلائل على وجودها ودوافعها » ، مجلة كلية الآداب بقنا ، جامعة جنوب الوادى ، العدد الخامس ، الجزء الثانى (١٩٩٥) ، ص ٣٢٥ – ٣٥٢ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(63) Wilson J. « Egyptain Prophecies, Songs and Poems, » ANET I, Princeton University Press : 1972, p. 257.

فخرى (أحمد) ، مصر الفرعونية ، ص ٢١٣ ، توفيق (سيد) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ، فالبيل (دومينيك) المرجع السابق ص ٣٩ .

(٦٤) راجع : شاهين (علاء الدين) ، « المسح الأثرى والحفائر فى سيناء خلال القرن العشرين : الهدف والمضمون » مجلة إبداع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، العدد الثالث (مارس ١٩٩٥م) ص ٣٨ – ٤٥ .

(65) Gardiner, A. Op. Cit, p.135, p. 270; BAR III,#580,#586.

(٦٦) بوزنر (جورج) وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(67) Gardiner, A. Op. Cit., p.266.

(٦٨) شاهين (علاء الدين) ، « السياحة العلاجية فى مصر الفرعونية » مجلة كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، العدد السادس عشر (يونيو ١٩٩٤م) ص١١–١٧.

(٦٩) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

(70) Strouhal, E. Life of the Ancient Egyptians, University of Oklahoma Press : 1992, p. 243,

مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

(٧١) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٨١ .

(٧٢) وبنهايم (ليو) ، المرجع السابق ، ص ٢٦٣-٢٦٤ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

(٧٣) مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

(٧٤) صالح (عبد العزيز) ، المرجع السابق ، ص ٥٦٠ .

(٧٥) حسن (سليم) ، الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة ، الجزء الأول ص ١١٤، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٣٧٣-٣٧٤ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص١٤١ .

(٧٦) حسن (سليم) ، المرجع السابق ، ص ١٧٦، توفيق (سيد) ، المرجع السابق ، ص ٣٨٤ ، مهران (محمد بيومى) ، المرجع السابق ، ص١٣١ ،

Gardiner, A. Op. Cit. P.309.

حجـــر رشـــيد

قصة الكشف عنه ومراحل نقله وعرض لمحاولات حل رموزه

أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

.القسم الأول : قصة الكشف عن الحجر

ومراحل نقله داخل مصر وخارجها

في منتصف شهر يوليو عام ١٩٩٩ تمر ٢٠٠ (مائتا) سنة بالضبط علي كشف حجر رشيد فقد عثرت فرقة من جنود الحملة الفرنسية بقيادة الضابط بوشار (Francois Xavier Bouchard) علي هذا الحجر مثبتا في جدار مبني قديم في اطلال قلعة تعرف حاليا باسم قلعة " قايتباي " وموقعها في قرية "برج رشيد " التي تبعد عن وسط مدينة رشيد بحوالي سبعة كيلومترات ، وقد اطلق عليها الفرنسيون " قلعة سان جوليان " علي اسم احد ضباط الحملة الذين قتلوا اثناء المعارك في مصر وذلك عندما كانت هذه الفرقة تقوم بازالة هذا الجدار لتحصين المكان ضد الهجوم المنتظر من الاتراك والانجليز .

وتقع هذه القلعة علي لسان من الارض علي الشاطئ الغربي للنيل والمؤكد ان هذا الموقع لم يكن هو المكان الأصلي للحجر الذي يرجع للعصر البطلمي(عام ١٩٦ قبل الميلاد تاريخ الحجر) لان المنطقة كانت لا شك مغطاه بمياه البحر في العصر البطلمي (Quirke 1988 , p. 3) ونتيجة لارساب الطمي خلال القرون التي تلت العصر البطلمي تكوّن هذا اللسان الذي انشئ عليه المبني الذي يرجع للعصر الاسلامي وقد عثر علي آثار قديمة أخري كثيرة في منطقة رشيد استخدمت كمادة بناء في منشآتها من بينها آثار فرعونية تبين من دراستها انها نقلت من مدينة سايس القديمة (صا الحجر الحالية عند كفر الزيات) التي كانت تزخر بكثير

(*) أستاذ التاريخ القديم والآثار كلية الآداب - جامعة إسكندرية .

من الآثار الفرعونية عندما كانت عاصمة لمصر في المرحلة الأخيرة من العصر الفرعوني المسماه" العصر الصاوي "(نسبة الي صا الحجر) والذي امتد ما بين الاعوام ٦٧٢ - ٥٢٥ قبل الميلاد ، وعلي هذا رجح العلماء ان يكون حجر رشيد قد اقيم اصلا في معبد مدينة " سايس " هذه فقد وردت في نصوص الحجر جملة تدل علي ان هذا الحجر ونسخ أخري من نصوصه وزعت علي معابد مصر .

وحجر رشيد(شكل ١) هو كتلة من البازلت ويبلغ ارتفاعه ١١٨ سم وعرضه ٧٧ سم وسمكه ٣٠ سم ووزنه ٧٦٢كجم ويندرج تحت ما يعرف في علم الآثار المصرية بـ " اللوحات التذكارية " وقد دونت عليه ثلاثة نصوص هي النص الهيروغليفي في جزئه العلوي وقد ضاع جزء كبير منه يبلغ حوالي ثلثه بسبب كسر الحجر (شكل ٢) ويبلغ عدد السطور الباقية ١٤ سطراً (شكل ٦) وكان في الأصل لا يقل عن ٢٠ سطرا ولكن من مقارنة الرسوم في أعلي اللوحات (الأحجار) المشابهة لحجر رشيد يتضح أن الجزء العلوي المفقود كان اغلبه رسوم تمثل الملك أمام الآلهة وفوقهم قرص الشمس المجنح .

ثم النص الديموطيقي في القسم الأوسط وهو أكمل النصوص الثلاثة ولم يفقد منه غير جزء بسيط في ركنه الايمن العلوي ،ويبلغ عدد سطوره ٣٢ سطرا واخيرا النص اليوناني ، وقد ضاع جزء من نهايته في الركن السفلي الايمن من الحجر ويبلغ عدد سطوره ٥٤ سطرا .

والحجر مسجل عليه مرسوم او قرار اصدره الكهنة المصريون الذين اجتمعوا في معبد الاله بتاح في مدينة منف في العام التاسع من حكم الملك

البطلمي للاحتفال بذكري توليه الملك بطلميوس الخامس (المعادلة لسنة ١٩٦ ق.م) للإحتفال بالذكري الأولي لتنصيبه فرعونا علي مصر وبعيد ميلاده في نفس الوقت وتكريمه بسبب ماقدمه للمعابد المصرية من اعفاءات من الضرائب والالتزامات وذلك باقامة تمثال ومقصورة له في كل معابد مصر وتسجيل هذا القرار علي لوحة واقامتها بجوار التمثال والمقصورة .

وبمجرد كشف الضابط الفرنسي بوشار وزملائه للحجر والاطلاع علي النص اليوناني الذي جاء في آخره عبارة افصحت عن مضمون نصوص الحجر وهي "يدون هذا المرسوم علي لوحة بالحروف المقدسة والحروف الوطنية وبخط الايونيين" (الذي تبين فيما بعد انها الهيروغليفية والديموطيقية ثم اليونانية التي كانت معروفة لهم) - ادرك الضابط بوشار وزملاؤه الاهمية الكبيرة للحجر فارسلوا تقريرا عن الحجر الي الجنرال مينو الذي كان القائد المباشر لفرقة بوشار والذي كان مرابطا في مدينة الاسكندرية في ذلك الوقت فامر مينو الضابط بوشار بارسال الحجر الي منزله في الاسكندرية واعتبره من املاكه الخاصة (Budge 1921 , p.1) وقد تمكن مينو من الحصول علي ترجمة للجزء الأخير من النص اليوناني للتأكد من حقيقة العبارة المذكورة (Andrews 1987 , p. 9).

وعندما علم نابليون بالموضوع أمر بنقل الحجر الي القاهرة فوصل اليها في منتصف اغسطس ١٧٩٩ ، وكان نابليون قد اصدر قبل ذلك بقليل قرار انشاء المجمع المصري Institut d'Egypte الذي ضم ١٦٧ عالما وباحثا في مختلف فروع المعرفة (هارتليبن ١٩٩١ ، جـ ٩) فوضع الحجر في مبني هذا المجمع حيث

تمكن اثنان من هؤلاء العلماء هما Remi Raige , Joseph Marcel من التعرف علي النص الديموطيقي بانه مدون بكتابة هي علامات مختصرة من العلامات الهيروغليفية التي في القسم العلوي من الحجر , Andrews 1987) p. 10) ، وفي سبتمبر ١٧٩٩ نشرت اول المعلومات عن الحجر في جريدة (الحملة الفرنسية) المسماه "Courtier d'Egypte" (Andrews , 1987 , p. 9) ثم امر نابليون بعمل نسخ من الحجر قام بها اثنان من المتخصصين في الطباعة هما : Marcel & Grallard والطريقة التي اتبعاها هي تغطية نقوش الحجر بالحبر ثم بسط ورق عليه وتمرير اسطوانة من المطاط عليه (Andrews , 1987 , p. 10) و ارسلت النسخ الي العلماء ذوي الخبرة العريضة في اوروبا ومن بينهم العالم الفرنسي Dutheil الذي تمكن من قراءة النص اليوناني في احدي هذه النسخ التي حملها الجنرال الفرنسي Dagua الي فرنسا عام ١٨٠١ . (Budge 1929 , p. 1)

وفي عام ١٨٠١ عندما لاح الخطر الانجليزي لغزو مدينة القاهرة هاجر العلماء الفرنسيون الي الاسكندرية وحملوا معهم حجر رشيد الذي اعيد الي منزل الجنرال مينو وظل هناك حتي عقدت المعاهدة بين الفرنسيين والانجليز في ١٨٠٢ التي نصت علي رحيل الفرنسيين عن مصر وتسليم الآثار المصرية التي بحوزتهم الي الانجليز وكان من بينها حجر رشيد ولكن الجنرال مينو امتنع عن تسليم الحجر فقد اعتبره ملكا خاصا له غير ان أحد الضباط الفرنسيين تمكن من تسليم الحجر خفية الي الانجليز الذي نقلوه الي انجلترا فنقل الي ميناء بورتسموث في فبراير

١٨٠٢ ومنها الي لندن حيث تم ايداعه في مقر جمعية "دارسي الآثار " بلندن حيث تمكن ستيفن واتسون Stephen Watson عالم اللغات الكلاسيكية بالجمعية من قراءة النص اليوناني في ابريل من تلك السنة (Quirke 1988 , p. 20)وفي هذه الجمعية تم عمل نسخ جصية من نقوش الحجر ارسلت الي جامعات لندن وكامبردج وادنبره ودبلن كما عملت نسخ من النص اليوناني بمفرده ارسلت الي الجمعيات والمكتبات والاكاديميات في اوروبا . وفي أواخر عام ١٨٠٢ نقل الحجر الي المتحف البريطاني حيث ظل به حتي اليوم. (Andrews 1987 , p. 11)

جهود العلماء في حل رموز حجر رشيد قبل شامبليون

أولا : معلومات الباحثين عن الكتابة الهيروغليفيةقبل حل رموز حجر شيد :

تسود بين بعض الدارسين في الوقت الحاضر معلومات غير صحيحة بان شامبليون كان اول من قرأ اسمي بطلميوس وكليوباترة علي حجر رشيد والحقيقة ان اسم كليوباترا لم يرد علي حجر رشيد وانما ورد اسم بطليموس فقط ، كما ان شمبليون لم يكن اول من قرأ اسم بطلميوس علي هذا الحجر بل سبقه الي ذلك علماء آخرون وان كانوا قد اخفقوا في متابعة قراءة باقي نقوش الحجر ولعل القارئ يتساءل عن سبب هذه الاخفاق وفي المقابل عن سبب نجاح شمبليون رغم ان هؤلاء العلماء كانوا اصحاب باع طويل وخبرة عريضة في تخصصهم والسبب ان هؤلاء العلماء اعتنقوا فكرة عن الكتابة الهيروغليفية كانت السبب في اخفاقهم بينما تخلص شامبليون من هذه الفكرة ربما بسبب عبقريته هذه ، وهذه الفكرة هي

اعتقادهم بان الكتابة الهيروغليفية تتكون من علامات رمزية Symbolic اي ان العلامة الواحدة تدل علي معني باكمله فقد تعبر عن كلمة او جملة طويلة ، وهذه الفكرة انحدرت اليهم من الكتاب الاوائل ، فمن ذلك ان المؤرخ ديودور الصقلي في القرن الأول قبل الميلاد اشار الي رمزية العلامات الهيروغليفية بقوله " ان الصقر يرمز الي كل شئ يحدث بسرعة لانه اسرع الطيور) Andrews 1987, p. 7 (وفي القرن الثاني او الثالث الميلادي كرر كليمنت السكندري هذه الفكرة عن رمزية الكتابة الهيروغليفية واضاف اليها ان العلامات الهيروغليفية لها معاني خفية او سرية (Ibid)

وانتقلت فكرة الرمزية الي الكاتب حورابولو Horapollo الذي الف كتابا اسماه " الهيروغليفية " Hieroglyphika تم تجميعه في القرنين الرابع والخامس الميلاديين فمثلا من بين ماجاء في كتابه وصفه لصورة النسر في الكتابة الهيروغليفية اذ يقول ان شكل النسر اذا كان رابضا يدل علي الام لانه لا يوجد ذكر بين هذا النوع من الطيور ، وإذا كان طائرا دلت صورته علي " حدود معركة " لانه يحلق حول حدود المعارك انتظارا لجثث القتلي (Davies 1988 , p. 47)

وهذه الفكرة اي الاعتقاد في رمزية الكتابة الهيروغليفية استمرت في كتابات الباحثين حتي القرن السابع عشر الميلادي فقد ترجم العالم اللغوي اثناسيوس كرشر(Athnasius Kircher(1602 - 80 اسم الملك " ابريس " Apries(أحد فراعنة الاسرة السادسة والعشرين الصاوية) بجملة طويلة هي

"امتيازات اوزير المقدس والتي للحصول عليها تكبل الجن بالسلاسل ويتم الحصول ايضا علي منافع النيل" (Davies1988,. p. 48) وبالطبع فان هذ التفسير الذي يمتد لجملة كاملة يغلب عليه الطابع الخرافي لا يعبر عن اسم الملك ابريس باي حال ، فقد كان لهذا الملك اسمان احدهما هو " حع - ايب - ع " اي الذي يسر قلب رع " والثاني هو " واح - ايب - رع " بمعني " تعاطف قلب رع " .

هذه الفكرة عن رمزية الكتابة الهيروغليفية انتقلت عبر العصور حتي اعتنقها العلماء الذين حاولوا حل رموز حجر رشيد قبل شامبليون وكانت سببا في عدم نجاحهم في ذلك . ولكن رغم اخفاق هؤلاء العلماء فالحق يقال انهم مهدوا الطريق بمحاولاتهم حل رموز الحجر امام شامبليون . ذلك ان العالم اثناسيوس كرشر المذكور رغم اعتقاده الخاطئ في رمزية الكتابة الهيروغليفية فانه ساهم في تمهيد الطريق امام شمبليون بتعمقه في دراسة اللغة القبطية وتأليفه كتابا في قواعدها ومفرداتها مما كان فيما بعد عنصرا جوهريا في حل رموز الهيروغليفية ، فمن المعروف ان من اسباب نجاح شمبليون في حل رموز حجر رشيد هو اتقانه للغة القبطية لانها المرحلة الأخيرة للغة المصرية القديمة التي كتبت بالهيروغليفية والديموطيقية علي حجر رشيد .

ثم توالت مساهمات العلماء خلال القرن الثامن عشر في محاولة فهم الكتابة الهيروغليفية ومنهم ج. ج.بارثلمي J.J Barthelemy (١٧١٦ - ١٧٩٥) الذي اعلن ان الحلقات المستطيلة (التي عرفت فيما بعد باسم الخراطيش

التي يكتب في داخلها اسماء الفراعنة) هي اسماء ملوك , Quirke 1988)
(p. 4 وكانت هذه الحقيقة كما هو معروف سببا في نجاح العلماء قبل شامبليون في قراءة خراطيش او اسماء ملوك البطالمة الواردة علي حجر رشيد وغيره من آثار العصر البطلمي .

ثانيا : جهود العلماء قبل شمبليون في قراءة نقوش الحجر :

كانت أول دراسة لحجر رشيد هي دراسة العالم الفرنسي سلفستر دي ساسي في اواخر عام ١٨٠٢ تلتها دراسة العالم السويدي Johan Akerblad في نفس السنة وقد اتجه هذان العالمان الي النص الديموطيقي في محاولة لقراءته أولا لعدة أسباب هي :

١. انه أكمل من النص الهيروغليفي.

٢. انه توجد في بدايات سطوره (السطران ٥ , ٦) اسماء ملوك وملكات وكهنة يونان ، ولما كان النص الديموطيقي كاملا تقريبا فانه يمكن تتبع مايقابل هذه الاسماء اليونانية في هذا النص .

٣. اعتقاد العلماء في ذلك الوقت ان النص الديموطيقي مكتوب بحروف ابجدية (وان كان قد ثبت خطأ ذلك فيما بعد) بينما النص الهيروغليفي مكتوب بعلامات رمزية (وقد ثبت خطأ ذلك أيضا). (Quirke 1988 , p. 4)

ومن المقارنة (op.cit. p. 50) بين اسماء الاشخاص في كل من النص

الديموطيقي والنص اليوناني نجح دي ساسي في التعرف علي اسماء " بطليموس والاسكندر " في النص الديموطيقي وقد سار اكربلاد علي نفس المنهج وتعرف علي اسماء " ارسنوي " و " برينكي" (من اسماء ملكات البطالمة) ثم استخرج من النص الديموطيقي ٢٩ علامة قال انها حروف ابجدية وان لم يكن ذلك صحيحا تماما لان ذلك ينطبق علي نصفها فقط ، وبذلك توصل اكربلاد الي حقيقة هامة هي ان بين العلامات الديموطيقية علامات صوتية Phonetic (العلامة الصوتية تشبه حروف الهجاء عندنا) وبهذه النتيجة توصل الي قراءة بعض الكلمات مثل " مصري " " معبد " ، " يحب" وكذلك بعض الضمائر مثل ضمير الغائب المفعول himوضمير الملكية his وقد استعان في التوصل الي هذه النتيجة بمقارنة هذه الكلمات الديموطيقية بما يناظرها في اللغة القبطية فكان بذلك اول من استعان باللغة القبطية في التعرف علي الكلمات المصرية القديمة (الديموطيقية) وهي الطريقة التي استخدمها شامبليون فيما بعد وساعدته الي حد كبير في حل رموز الكتابة الهيروغليفية .

وقد دفع ذلك النجاح بأكربلاد الي الاعتقاد بان جميع العلامات الديموطيقية هي علامات صوتية وهنا وجه الخطأ وهو يعادل نفس الخطأ الذي وقع فيه الكتاب الذين سبقوه باعتقادهم ان العلامات الهيروغليفية كلها علامات رمزية لان الكتابة الديموطيقية شأنها شأن الهيروغليفية كما سيتضح فيما بعد تجمع بين العلامات الرمزية والعلامات الصوتية .ولذلك توقف اكربلاد عن التقدم أكثر من ذلك .

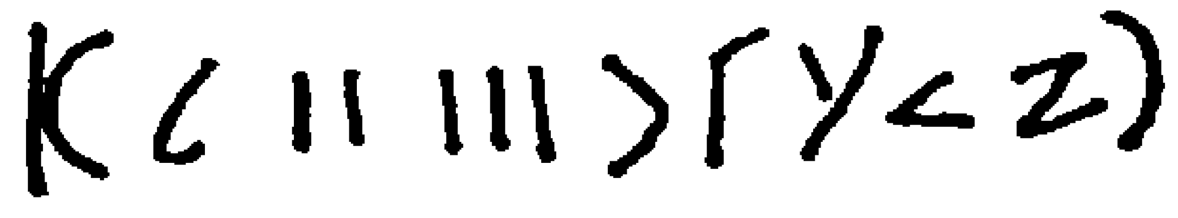
وبعد محاولات اكربلاد بأثني عشر عاما وبالتحديد في عام ١٨١٤ جاءت محاولات العالم الانجليزي توماس يونج Thomas Young الذي بدأ ايضا بالنص الديموطيقي وتوصل الي حقيقتين هامتين تبينت صحتهما فيما بعد وهما :

أ- ان علامات النص الديموطيقي بعضها علامات صوتية وبعضها علامات رمزية (Quirke 1988 , p. 4).

ب - توجد علاقة بين اشكال العلامات الديموطيقية والعلامات الهيروغليفية (ثبت فيما بعد ان العلامات الديموطيقية هي اختصار للعلامات الهيروغليفية مرورا بالعلامات الهيراطيقية)

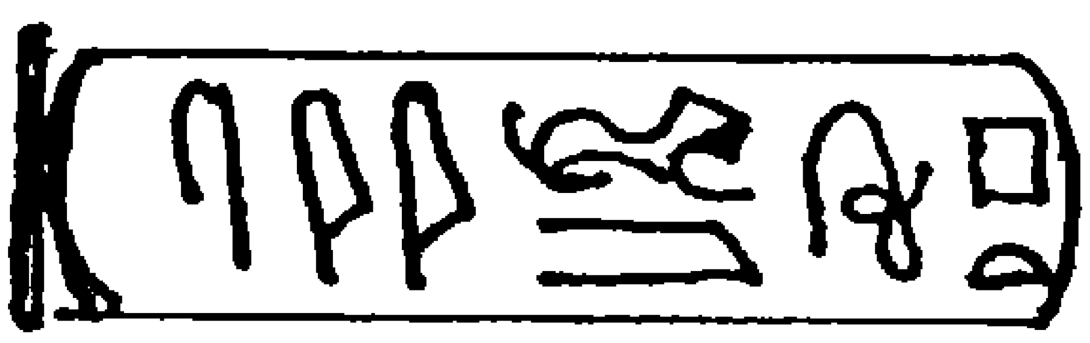
وقد تمكن يونج من قراءة خرطوش الملك بطلميوس في كل من النص الديموطيقي والنص الهيروغليفي ، (شكل ٣) وكانت تلك أول خطوة نحو التعرف علي العلامات الهيروغليفية وتوصل لذلك بالمقارنة بين الاسم في كل من النصوص الثلاثة علي حجر رشيد كما يلي :

اسم بطليموس باليونانية ΠΤΟΛΕΜΑΙΟΣ

اسم بطليموس بالديموطيقية 

(يقرأ من اليمين بين جانبي (پ ت و ل م ي س)

خرطوش غير كامل

الاسم بالهيروغليفية داخل خرطوش كامل 

وبذلك توصل يونج الي قراءة خمسة حروف هيروغليفية قراءة صحيحة وهي حروف الباء الثقيلة والتاء والميم والياء والسين

(Quirke 1488, p. 4)

وقد ساعد يونج علي التوصل الي هذه النتيجة ان اسم بطلميوس كتب علي حجر شيد بالحروف الابجدية الهيروغليفية وكانت هذه الطريقة هي التي اتبعها الكهنة المصريون في كتابة الاسماء الاجنبية في العصر البطلمي ،(وفي عصر الرومان فيما بعد) مثل اسماء ملوك وملكات البطالمة واباطرة الرومان وربما كان الكهنة المصريون قد تأثروا في ذلك بالابجدية اليونانية التي سوف يستخدمونها في أواخر العصر البطلمي او بداية الروماني في كتابة اللغة المصرية القديمة بدلا من العلامات الديموطيقية فيما عرف فيما بعد بالابجدية القبطية .

بعد ذلك وسع يونج دراساته خارج نطاق حجر شيد فدرس النصوص الهيروغليفية التي نشرت في كتاب وصف مصر (كان الفرنسيون قد بدأوا في نشر هذا الكتاب في عام ١٨٠٩) ، كما درس البرديات الجنازية الموجودة في المتحف البريطاني فلاحظ ان اسماء الاناث تأتي في آخرها علامتان هما ثبت فيما بعد أن العلامة العليا هي تاء التأنيث وان العلامة السفلي هي " شكل بيضة" وهي علامة زائدة علي نطق الكلمة كان المصريون يستخدمونها للدلالة علي الإناث فيما يعرف بين علامات الكتابة الهيروغليفية باسم " المخصصات "-Deter " (minatives) ومن مقارنة الكتابات علي البرديات تعرف يونج علي الكتابة

الهيراطيقية (وهي خط مختصر من الهيروغليفية كان يستخدمه الكهنة في الكتابة علي البردي) وبمقارنتها بكل من الكتابتين الهيروغليفية والديموطيقية توصل الي حقيقة هامة هي ان الكتابة المصرية القديمة تطورت من العلامات الهيروغليفية الي العلامات الهيراطيقية الاكثر اختصارا ثم الي العلامات الديموطيقية المختصرة كثيرا ، وبذلك صادف يونج الكثير من النجاح ولكن لم يتقدم أكثر من ذلك لسببين : اولهما انه كان لا يزال يعتقد مثل العلماء قبله ان العلامات الهيروغليفية هي في الاساس علامات رمزية Symbolic وانه لا يوجد بينها علامات صوتية فيما عدا الحروف الابجدية التي كتبت بها اسماء ملوك البطالمة واباطرة الرومان والسبب الثاني في عدم تقدم يونج هو عدم المامه الماما كافيا باللغة القبطية التي كانت خير معين لشمبليون في التوصل الي كشفه العظيم .

وآخر المحاولات في قراءة الكتابة الهيروغليفية وان كانت خارج حجر رشيد هي محاولات الرحالة الانجليزي W.J Bankes ففي عام ١٨١٩ تمكن هذا الرحالة من نقل مسلة صغيرة مع قاعدتها من معبد ايزيس بجزيرة فيلة جنوب اسوان الي انجلترا حيث اقامها في منزله في دورست Dorset وقد نحت علي قاعدة هذه المسلة نص اغريقي به اسماء بطلميوس وكليوباترا بينما نحت علي المسلة نفسها نص هيروغليفي به خرطوشان استنتج بانكس من النص اليوناني انهما نفس اسمي بطلميوس وكليوباترا ولاحظ ان اسم بطلميوس علي المسلة يتفق تماما مع نفس الاسم في النص الهيروغليفي علي حجر شيد الذي كان يونج قد توصل الي قراءته ، وقد طبع باكس نسخا من نقوش المسلة وقاعدتها ووزعها علي العلماء وارفق بها استنتاجاته وكانت اعمال بانكس بداية لما قام به شامبليون فيما بعد .

ثالثا : طريقة شامليون في حل رموز حجر رشيد :

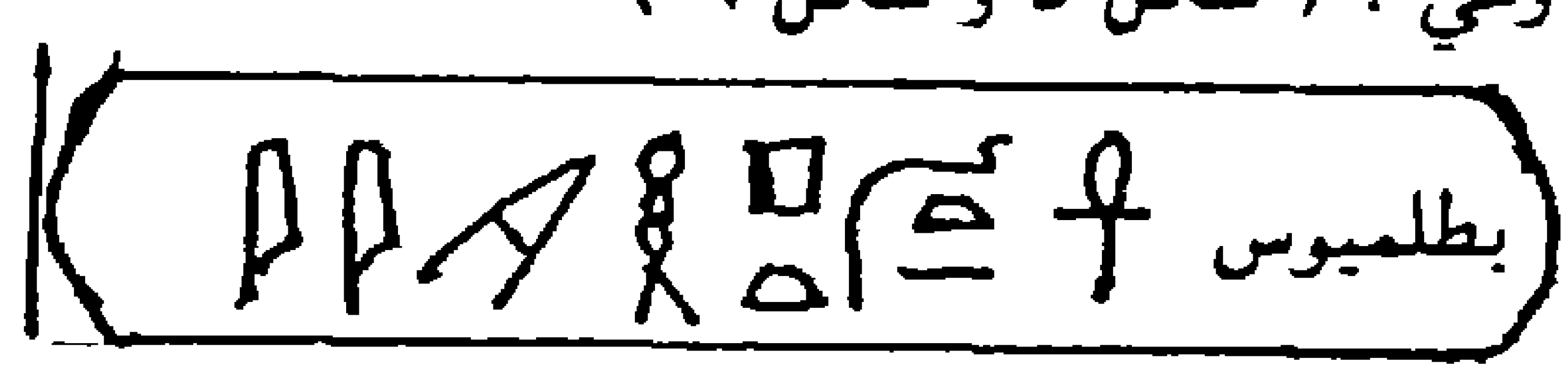
مما سبق يتبين ان شامبليون لم يبدأ من فراغ في حل رموز حجر رشيد كما هو الشائع ، بل سبقته جهود علماء توصلت الي نتائج استفاد منها شمبليون واهمها ان الكتابة الهيروغليفية بها علامات صوتية هي الحروف الابجدية التي كتبت بها الاسماء الاجنبية مثل اسماء ملوك البطالمة ومنها التوصل الي نطق الحروف في اسماء بطلميوس وكليوباترة . ومنها ان معرفة اللغة القبطية تساعد علي التعرف علي الكتابات المصرية الأخري كالهيروغليفية والديموطيقية .

والحقيقة ان شامبليون عندما بدأ يعكف علي دراسة حجر رشيد كان متأثراً بفكرة الخاصية الرمزية المطلقة Symbolic للكتابة الهيروغليفية التي كانت سببا في اخفاق من سبقوه وظل هذا الاعتقاد يلازمه حتي١٨٢١(Gordon 1971, p. 43) ولم ينجح في حل رموز الهيروغليفية الا بعد ان تخلص من هذا القيد اي نبذ فكرة الخاصية الرمزية المطلقة لعلامات الكتابة الهيروغليفية فقد تجلت عبقريته في ادراكه ان الخاصية الصوتية للعلامات الهيروغليفية لا تقتصر علي الحروف [١] الابجدية ولكنها تمتد لتشمل عدداً كبيرا من العلامات ، وان الكتابة الهيروغليفية تشمل الي جانب هذه العلامات الصوتية علامات رمزية وقد ساعد علي نجاحه

---

(١) يلاحظ اننا في استخدامنا للمصطلحات اللغوية نفرق بين المصطلح " حروف " والمصطلح "علامات " فالحروف نقصد بها الحروف الابجدية التي تنطق بصوت واحد في الكلمة مثل الحروف العربية والحروف الانجليزية وغيرها ، أما مصطلح " علامات " فنقصد به جميع اشكال الكتابة الهيروغليفية الأخري التي سيأتي تفصيلها وشرحها فيما بعد .

الكبير اعتماده علي المقارنة بين اللغة القبطية التي كان يتقنها وبين نطق العلامات الهيروغليفية (المصرية القديمة) التي توصل اليها غير انه قبل أن يتوصل شامبليون الي انجازه الكبير تمكن من قراءة بعض الاسماء اليونانية والرومانية باتباع الطريقة التي توصل اليها من سبقوه وهي المقارنة بين حروف هذه الاسماء في النصوص اليونانية والديموطيقية والهيروغليفية سواء علي حجر شيد او علي غيره من الآثار فتمكن من قراءة اسماء الاسكندر والقاب قيصر واوتوكراتور واسماء الاباطرة الرومان تيبريوس ودوميسيان وتراجان وانطونينوس (Gordon 1971,p. 43) وبالإضافة لذلك تمكن شمبليون من قراءة علامات كانت تضاف داخل خرطوش الملك بطلميوس علي حجر رشيد بعد اسمه (في السطور ٦ و ١٢ و ١٤) وهي : (شكل ٤ و شكل ٦)



فبدأ بتتبع ورود اسم بطلميوس في النص اليوناني بادئا من آخر النص للتعرف علي الأسم الهيروغليفي المقابل للاسم اليوناني (لأن النص الهيروغليفي كامل في آخره) فلاحظ ان اسم بطلميوس الوارد في سطر ٤٩ من النص اليوناني يتبعه عبارة ترجمتها اليونانية هي :" العائش ابديا محبوب بتاح " ووجد ان هذا الاسم يقابله في النص الهيروغليفي (سطر١٢) خرطوش به اسم بطلميوس وبعده العلامات المذكورة داخل الخرطوش ، وتكررنفس التطابق في السطر ٣٧ من النص اليوناني مع السطر ٦ من النص الهيروغليفي وعندئذ استنتج شمبليون ان

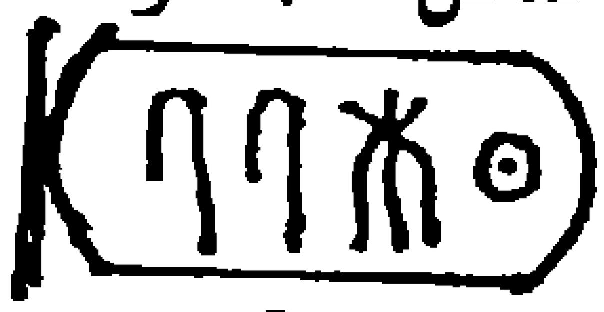
العلامات الهيروغليفية معناها" العائش ابديا محبوب بتاح "(وتقرأ الآن " ع ن خ / ج ت / م ر ي / ب ت ح) وعندما رجع شمبليون الي اللغة القبطية وجد ان كلمة عاش او حياة هي (وتقرأ " ا و ن خ ") في القبطية فاستنتج أن العلامة تقرأ " أ و ن خ " ولكن العلامات التالية وهي بمعني "ابديا" لم يجد ما يقابلها في اللغة القبطية ، ولكنه لاحظ ان علامة هي حرف التاء الهيروغليفي (التي سبق ان توصل يونج الي التعرف علي أنها تاء التأنيث) وعندما بدأ شمبليون ببحث عما يقابل العلامة التي تكررت كثيرا علي حجر رشيد وجد انها تبدأ بكلمة يقابلها في النص اليوناني كلمة معناها " يسمي " او يقال له " وعندما رجع الي اللغة القبطية وجد ان كلمة " يقال له " هي (وتقرأ " ج و ") فاستنتج ان العلامة تقرأ "ج " وتوصل بذلك الي ان الكلمة تقرأ " ج ت " وان معناها "ابديا أو الي الأبد" (كما جاء في النص اليوناني) ثم انتقل شمبليون الي العلامات الأخري وهي والتي يقابلها في النص اليوناني " محبوب بتاح " وكان شمبليون يعرف ان العلامة تقرأ باء ثقيلة في كل من اسمي بطلميوس وكليوباتره وان العلامة تقرأ " تاء " وتوصل من ذلك الي ان قراءة الكلمة هي " ب ت ..." واستنتج من كل ذلك ان الحرف الأخير من الكلمة وهو يقرأ " ح" لتكمل كلمة " پ ت ح " اي" بتاح" وعلي ذلك فان العلامات التالية لهذه الكلمة وهي هي الكلمة الهيوغليفية التي تقابلها كلمة " محبوب " في النص اليوناني وعندما رجع الي

اللغة القبطية وجد ان كلمة " يحب" هي MEPE (وتقرأ " م ي ر ي ")
ولما كان شمبليون يعرف من قراءة خرطوش بطلميوس ان العلامتين ꞵꞵ هما
حرف الياء فاستنتج من ذلك ان العلامة [illegible] تقرأ " م ر " وان معناها "
محبوب " وهكذا توصل شمبليون الي قراءة العبارة التي معناها " محبوب بتاح "
في خرطوش بطلميوس ، غير أن الأهم والأخطر من ذلك انه اكتشف حقيقة ذات
أهمية كبيرة في حل رموز الهيروغليفية وهي ان علامة [illegible] التي تقرأ " م ر "ليست
علامة ابجدية مثل العلامات الأخري التي سبق ان قرأها في خراطيش ملوك البطالمة
والرومان لانها تنطق بصوتين هما الميم والراء (شكل ٤) فخرج من ذلك بنتيجة
هامة جدا وهي ان الكتابة الهيوغليفية تحتوي الي جانب الحروف الابجدية علي
علامات صوتية مقطعية اي تنطق بأكثر من صوت واحد وكان لذلك فضل كبير في
تقدمه في حل رموز الكتابة الهيروغليفية .

وعند هذا الحد ارسل شمبليون نتائج قراءاته للهيروغليفية في خطابه المشهور
سنة ١٨٢٢ الذي عنوانه " Lettre á M. Dacier relative á
l'alphabet des hieroglyphes Phonétiques " وهوموجه الي امين
اكاديمية العلوم والفنون عن ابجدية الحروف الهيروغليفية الصوتية التي كان
يستخدمها المصريين في تدوين القاب واسماء الحكام اليونان والرومان علي جدران
آثارهم (هارتليين ١٩٩١ ، ص ١٦).

غي ان شمبليون عندما اتجه بعد ذلك لقراءة الاسماء الهيروغليفية للفراعنة

المكتوبة داخل خراطيش لاحظ انها كتبت بعلامات تختلف عن العلامات التي كتبت بها اسماء ملوك البطالمة واباطرة الرومان لان هذه الأخيرة كما ذكرنا مكتوبة بالحروف الابجدية (فيما عدا المقطع "م ر" والذي لا يدخل في هذه الاسماء وهو مقطع صوتي ثنائي كما تبين فيما سبق)

وكان اول اسماء الفراعنة التي اتجه اليها هو خرطوش الملك رمسيس الذي حصل عليه من بين النقوش التي وصلته من معبد ابي سمبل (شكل ٥) ، وقد كتب اسم رمسيس علي جدران هذا المعبد في ابسط اشكاله وهي 

فهو يعرف من علامات هذا الخرطوش العلامة الأخيرة فقط وهي حرف السين في اسم بطلميوس الوارد علي حجر رشيد .، غير انه لاحظ ان العلامة الأولي تشبه شكل الشمس ، ولما كان يعرف ان اسم الشمس في اللغة القبطية هو PH ويقرأ " ري " فقد استطاع بذلك قراءة العلامات في أول الخرطوش وفي آخره وهي (" ر ي " ؟ س س ") وفي الحال قفز الي ذهنه اسم الملك رمسيس المذكور في تاريخ الكاهن المصري مانيتون (الذي دوّن تاريخا لمصر الفرعونية باللغة اليونانية في عصر الملك بطلميوس الثاني وفيه قسم تاريخ مصر الفرعونية الي ٣٠ اسرة ورد فيها اسم الملك رمسيس بالصيغة Ramesses ضمن ملوك الاسرة التاسعة عشرة).

وعلي هذا استنتج شامبليون ان العلامة التي في الوسط وهي هي حرف الميم (وهي نتيجة غير صحيحة تماما لأن هذه العلامة مقطعية تقرأ الآن " م س") ثم لاحظ شمبليون ان هاتين العلامتين وردتا في النص الهيروغليفي علي حجر

رشيد (في النصف الأول من السطر العاشر)(شكل ٦) وعندما طابق مايقابل هذه الكلمة في النص اليوناني وجد ان الكلمة اليونانية التي تقابلها هي Genethlia بمعني " يوم ميلاد " (السطر رقم ٤٦) وهنا قفزت الي ذهنه الكلمة القبطية ⲘⲒⲤⲒ (وتقرأ م ي س ي) بمعني يلد او ميلاد(Vycich 1983 , p. 170) وبذلك توصل الي قراءة هذه العلامة الهيروغليفية بأنها " م س " وعرف انها علامة مقطعية . وأخذ شمبليون يتتبع العلامات الهيروغليفية علي حجر رشيد ويقارنها بما يقابلها في النص اليوناني وتوصل من ذلك الي ان الكتابة الهيروغليفية تتكون من ثلاثة انواع من العلامات هي:

(أ) علامات صوتية Phonogram منها ماهي وحيدة الصوت (وهي الحروف الابجدية) وثنائية الصوت مثل علامة "م س " وثلاثية الصوت مثل علامة " ع ن خ " ويطلق الآن علي العلامات الثنائية والثلاثية مصطلح " مقطع ثنائي biliteral syllable ومقطع ثلاثي triliteral syllable ,

(ب) علامات رمزية Symbolicوهي تدل علي كلمة بأكملها اما بنفس الشكل الذي تمثله علامة الشمس ☉ التي تنطق " رع" فهي تعني الشمس نفسها وفي هذه الحالة تسمي علامات تصويرية Pictogram أو تفيد معني مرتبط بشكل الشمس مثل كلمة " يوم " او " نهار"(هرو) وفي هذه الحالة تسمي رمز معني ideogram (يجمع بعض الباحثين بين العلامة التصويرية ورمز المعني تحت مصطلح واحد هو رمز كلمة (logogram)

(ج) علامات تحدد معاني الكلمات وتأتي في آخر هذه الكلمات ويطلق

عليها اسم المخصصات determinative مثل استخدام علامة الشمس في كلمة "رك" بمعني " زمن" ففي هذه الكلمة لا تقرأ العلامة "رع" او " هـ ر و " بل ليس لها قراءة اطلاقا وانما تأتي في آخر كلمة " ر ك " لتحدد معناها بأنه زمن وليس معني آخر .

كما توصل شامبليون الي أن رموز المعاني ideograms يمكن ان تستخدم كعلامات صوتية اي تفقد معناها ومدلولها الأصلي وتصبح مجرد قيمة صوتية ومثال ذلك علامة التي تنطق" پ ر" اي بصوتين (مقطع ثنائي) والتي تمثل فناء منزل وتستخدم للدلالة علي المنزل فانها يمكن ان تفقد المدلول الأصلي لشكلها وتصبح مجرد قيمة صوتية اذا دخلت في كلمة مثل كلمة " پ ر ت " بمعني " فصل الشتاء "وتكتب هكذا وبذلك تحولت العلامة الي مجرد مقطع صوتي ثنائي ولم يعد لها علاقة بالمنزل (١)

---

(١) لتوضيح كيف استخدم المصريون القدماء العلامة الواحدة في الأنواع المختلفة للعلامات الهيروغليفية (علامة تصويرية - رمز معني - علامة صوتية -مخصص) نأخذ كمثال علي ذلك علامة العين (مع تبسيط كتابة العلامات) فهذه العلامة تقرأ " إر" اذا كتبت بمفردها ويكون معناها " عين " وهي بذلك علامة تصويرية Pictogram اي ان شكلها يدل علي معناها ، ولكن اذا استخدمت في معني مرتبط بالعين مثل كلمة " اري " بمعني" يقرأ " او "يتلو (تعويذة)" اصبحت بذلك رمز معني ideogram ثم اذا استخدمت في كلمة مثل كلمة التي تقرأ "إ ر ت ت " بمعني " لبن حليب" فقدت صلتها بمعناها الاصلي (عين) او المعاني المرتبطة بها (يقرأ) وصارت علامة صوتية Phonogram تقرأ في نطاق كلمة " ا ر ت ت" التي لا علاقة لها بالعين ، ويمكن ايضا ان تستخدم علامة العين لتحديد معني كلمة مثل كلمة "يري" وتقرأ " م ا" (Faulkner 1972 , p. 100) وهي نطق العلامة التي تعني " يري" ويقتصر دور علامة العين لتحديد معني الكلمة بالفعل " يري" لان كلمة " م ا " لها معني

وقد اعلن شامبليون هذه النتائج في عام ١٨٢٤ في كتابه المشهور "المختصر في نظام الكتابة الهيروغليفية عند قدماء المصريين "

Préc. is du systéme hiéroglyphique des anciens Egyptiens

وبعد ذلك قام شمبليون برحلة الي مصر بين عامي ١٨٢٨ - ١٨٢٩ زار خلالها الاثار الفرعونية في مختلف اقاليم مصر واهمها الجيزة وسقارة وبني حسن والأقصر وكوم امبو وابو سمبل حيث جمع كثيرا من النصوص الهيروغليفية (هارتلين ١٩٩١ ، ص ٣٨٩)

ومات شمبلبون في عام ١٨٣٢ وعمره لا يتعدي الثانية والاربعين ، ولكن اخاه الأكبر جاك جوزيف شمبليون فيجاك قام بنشر مؤلفاته في اللغة المصرية القديمة ما بين الأعوام ١٨٤١ - ١٨٤٣ ، وهي" قواعد اللغة المصرية القديمة"

Grammaire Egyptienne"

"والمعجم المصري للكتابة الهيروغليفهية"

Dictionnaire égyptien en écriture hiéroglyphique

= آخر هو" وعل" (Ibid)وفي هذه الحالة يرسم رأس وعل بعدها  ليحدد معناها بانها " وعل" وتسمي علامة العين وعلامة رأس الوعل بالمخصص determinativeلانها تخصص أو تحدد معني كلمة " م ا " إما " يري" اذا كان المخصص " عين " او " وعل" اذا كان المخصص رأس وعل .

ورغم هذه النتائج الموفقة التي توصل اليها شمبليون في حل رموز الهيروغليفية الا انه من العجيب ان العلماء ظلوا يتشككون في هذه النتائج الي ان تم في عام ١٨٦٦ كشف حجر مكتوب بنفس الكتابات المدونة علي حجر رشيد وهي الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ودون عليه مرسوم للكهنة المصريين المجتمعين في مدينة كانوب (ابي قير شرق الاسكندرية) لتكريم الملك بطلميوس الثالث جد الملك بطلميوس الخامس ونصوصه تشبه من حيث مضمونها واسلوبها نصوص حجر رشيد الي حد كبير ويطلق عليه الباحثون " مرسوم كانوب " وقد عثر علي هذا الحجر العالم الألماني لبسيوس في مدينة تانيس (صان الحجر بالقرب من المنزلة في شرق الدلتا) (Encyclopaedia 1998 , p. 442) ويرجع تاريخ مرسوم كانوب الي عام ٢٣٨ قبل الميلاد اي يسبق حجر رشيد بحوالي اربعين عاما وعندئذ آمن العلماء بالنتائج التي توصل اليها شمبليون وساروا قدما في دراسة اللغة المصرية القديمة علي الأسس التي وضعها حتي اصبحت هذه اللغة اليوم كتابا مفتوحا امام علماء المصريات .

رابعا : زيادة تأكيد صحة قراءات نصوص حجر رشيد :

لم يكن العثور علي حجر كانوب عام ١٨٦٦ هو وحده الذي أكد قراءة شمبليون لنصوص حجر رشيد بل انه في السنوات التالية اكتشفت اجزاء من نسخ أخري من حجر رشيد (وبالتحديد من مرسوم منف المدون علي حجر رشيد) وترجع كلها الي عهد بطلميوس الخامس ، ففي عام ١٨٩٨ كشف في قرية نقراش بالقرب

من دمنهور (وهي موقع مستوطنة يونانية عرفت باسم نقراطيس) كشف في ذلك العام عن بقايا نسخة أخري من حجر رشيد وهي محفوظة الآن بالمتحف المصري بالقاهرة تحت رقم ٥٥٧٦ (Budge 1929,p.2) والنص عليها مؤرخ بالسنة التاسعة ايضا من جكم بطلميوس الخامس والنص الهيروغليفي مطابق لنص حجر رشيد الي حد كبير مما مكن العلماء من التعرف علي جزء كبير من النص الهيروغليفي المفقود علي حجر رشيد ، كما كشف ايضا عن نقشين محفورين علي جدار معبد ايزيس في جزيرة فيلة (الان جزيرة ايجلكاالتي نقل اليها المعبد) .

وكان شمبليون أول من اكتشف وجود هذ النقش اثناء زيارته لجزيرة فيله عام ١٨٢٨ ووصفه في كتابه " ملاحظات وصفية لآثار مصر والنوبة (Champollion , I.F., Notices descriptives des monuments de E'gypte et de la Nubie , 1844) الذي نشر بعد وفاته ، والنص الآخر مؤرخ بالسنة ٢١ من حكم الملك بطلميوس الخامس ايضا ، كما عثر علي نسخة من النص الأخير اي المؤرخ بالسنة ٢١ مسجلا علي لوحة (حجر) وجدت في دندره بها بقايا نص هيروغليفي يتكون من ١٣ سطرا (سليم حسن ١٩٦٠ ، جـ١٦ ، ص ١٦٤)

هذا غير اجزاء من نسخ أخري وجدت في أماكن متفرقة احداها وجدت في جزيرة الفنتين (جزيرة أسوان الحالية) مؤرخة بالسنة التاسعة أيضا واخري في"اصفون" (ارمنت) مؤرخة بالسنة ٢٣ ، واغلب هذه النسخ مدون عليها النصان الهيروغليفي والديموطيقي فقط . (Quirke 1988, p. 9)

ولم يرد النص اليوناني الا علي كسرة من حجر الجرانيت وجدت في جزيرة الفنتين (سليم حسن ١٩٦٠ ج١٦ ، ص ١٦٤) وفيما عدا نسخة نقراطيس التي يطابق نصها الهيروغليفي نص حجر رشيد تقريبا فان بعض النسخ الأخري تختلف نصوصها عن نص حجر رشيد بعض الشئ وخاصة في ذكر مناسبة احتفال الكهنة فبينما جاء علي حجررشيد ان مناسبة احتفال الكهنة هي الاحتفال بالذكري الاولي لتتويج الملك بطلميوس الخامس فرعونا علي مصر وتمجيدا لانتصاره علي اعدائه في ليوكوبوليس ، فان هذه المناسبة في النقش المؤرخ بالسنة ١٩ علي معبد ايزيس في فيلة هي انتصار الملك علي ثوار طيبة (سليم حسن ١٩٦٨، ص ١٦٣) وفي النقش المؤرخ بالسنة ٢١ علي نفس المعبد وعلي لوحة دندره وكذلك في النقش المؤرخ بالسنة ٢٣ علي لوحة اصفون فان هذه المناسسبة هي الاحتفال بعيد أحد الحيوانات المقدسة .

ويمكن اجمال تواريخ واماكن اجتماعات الكهنة في عصر بطلميوس الخامس والنسخ المدونة عليها المراسيم الكهنوتية الصادرة في هذه الاجتماعات والتي يعتبر بعضها نسخا من نصوص حجر رشيد والبعض الآخر نسخا من نصوص أخري مشابهه له كما يلي :

تاريخ اجتماع الكهنة (صدور المرسوم)	مكان الاجتماع	الغرض منه	النسخ المدونة عليها المرسوم
(أ) السنة التاسعة (من حكم بطلميوس الخامس)	منف	(١) الاحتفال بذكري تتويج بطلميوس الخامس فرعونا (٢) الانتصار علي ثوار ليكوبوليس	١- حجر رشيد ٢- نسخة نقراطيس ٣- نسخة جزيرة الفنتين
(ب) السنة ١٩	الاسكندرية	الانتصار علي ثوار طيبة	(١) نقش محفورعلي جدار معبد ايزيس في جزيرة فيلة
(ج) السنة ٢١	منف	الاحتفال بعيد العجل ابيس	١- نقش علي جدار معبد ايزيس في فيلة ٢- نقش علي لوحة في دندره
(د) السنة ٢٣	منف	الاحتفال بعيد العجل منيڤس	لوحة اصفون

محتويات نقش حجر رشيد :

كما قلنا فيما سبق فان نقش حجر رشيد هو نسخة من مرسوم اصدره مجمع الكهنة المصريين المنعقد في مدينة منف للاحتفال بالذكري الأولي لتتويج الملك بطلميوس الخامس ابيفانس فرعونا علي مصر طبقا للتقاليد المصرية ، وكان ذلك التتويج قد أجري لأول مرة في السنة السابقة لسنة هذا الاحتفال اي في السنة الثامنة من حكم الملك ، والنقش مؤرخ في النص اليوناني باليوم الرابع من شهر كسانديكوس (ابريل) مع معادلته باليوم الثامن عشر من شهر أمشيرمن السنة التاسعة من حكم بطلميوس الخامس ، والنص الديموطيقي مؤرخ بنفس الشهر اليوناني وبنفس التقويم المصري اي في اليوم الثامن عشر من الشهر الثاني من فصل الشتاء (شهر امشير) من السنة التاسعة وقد اضاف النص اليوناني الي التأريخ المذكور تأريخا طبقا للتقاليد اليونانية وهو اتخاذ سني كهنوت الكهنة والكاهنات المكلفين بخدمة عبادة آباء واجداد بطلميوس الخامس اساسا لهذا التأريخ.

والغالب أن الصيغة الاصلية للمرسوم وضعت أولا بالنص الديموطيقي ثم ترجمت الي النصين الهيروغليفي واليوناني والقسم الأول من النقش (بنصوصه الثلاثة) تشغلها قائمة بالقاب بطلميوس الخامس واوصاف ونعوت تمجد الملك وتقواه نحو الآلهة وعطفه علي المصريين وفي القسم الثاني يعدد الكهنة الاحسانات التي اسبغها الملك علي الكهنة وغيرهم من الرعايا المصريين والتي

تمكن تلخيصها كما يلي :

١- هبات مالية من الحبوب للمعابد

٢- هبات من الاوقاف للمعابد.

٣- الغاء نصف الضرائب المستحقة للحكومة علي المعابد

٤- التجاوز عن الديون المستحقة للحكومة علي الشعب .

٥-الافراج عن السجناء الذين وهنت عزيمتهم(ربما من طول مدة السجن)

٦- الغاء تسخير الملاحين (البحارة) من المصريين

٧- تخفيف الرسوم التي كان يدفعها المرشحون لوظائف الكهنوت

٨- تخفيض الضرائب المستحقة الدفع من المعابد للحكومة .

٩- تعزيز الخدمة الدينية للمعابد

١٠ - العفو عن الثوار الذين سبق السماح لهم بالعودة الي مصر والاقامة فيها .

١١- ارسال الفرق الحربية بالبحر والبر ضد اعداء مصر .

١٢ - حصار واسقاط مدينة شكان (Lycopolis) في وسط الدلتا

١٣ - التجاوز عن الديون المستحقة علي الكهنة للملك

١٤- تخفيض ضريبة الكتان الملكي .

١٥ - تخفيض ضريبة الحبوب علي الأراضي .

١٦- ترميم معابد العجل ابيس والعجل منيفس ومعابد الحيوانات المقدسة الأخري

١٧- اعادة بناء المقاصير المهدمة والمباني الدينية وامدادها بالهبات الوقفية .

واعترافا من الكهنة بالجميل نحو الملك لكل هذه الاحسانات (في نظرهم) فقد قرر المجلس العام للكهنة المصريين المنعقد في "منف " زيادة احتفالات التشريف والتكريم لبطلميوس في المعابد باتخاذ الاجراءات التالية .

١- عمل تماثيل للملك بوصفه " حامي مصر " واقامة تمثال في كل معبد في مصر لكي يتعبد له الكهنة والشعب .

٢- عمل تماثيل (من الذهب) ووضعها في مقاصير ذهبية تقام الي جانب مقاصير الآلهة وتحمل معها في المواكب .

٣- تمييز مقصورة بطلميوس (عن المقاصير الاخري)بان يوضع فوقها عشرة تيجان مزدوجة من الذهب .

٤- الاحتفال بيومي ميلاد وتتويج بطلميوس وهما اليوم السابع عشر واليوم الثلاثين من شهر مسري كعيدين الي الأبد .

٥- اعتبار الأيام الخمسة الأولي من شهر توت اعيادا خاصة بتكريم الملك الي الأبد ، تقدم فيها القرابين للمعابد ويلبس فيها الشعب كله الاكاليل .

٦- اضافة لقب جديد الي القاب الكهنة هو " كهنة الاله الظاهر (ابيفانس) الذي طيباته كاملة " وان يحفر هذا اللقب علي الختم الخاص بكل كاهن من كهنة الملك وان يوضع هذا الختم علي كل وثيقة كهنوتية .

٧- السماح للجنود بان يستعيروا من المعابد المقاصير بما فيها من تماثيل لبطلميوس وان يأخذوها الي ثكناتهم ويحملوها في مواكب الاحتفالات .

٨- ان تنقش نسخ من هذا المرسوم علي لوحات من الحجر الصلب (كتل من حجر البازلت) بكتابة كلام الإله (الهيروغليفية) وبكتابة الوثائق (الديموطيقية)[١] وبكتابة الايونيين (اليونانية) وان تقام اللوحات المدون عليها نسخ من هذا المرسوم في معابد الدرجات الاولي والثانية والثالثة الي جانب تمثال بطلميوس الاله العائش ابديا .

المغزي التاريخي والسياسي لنصوص حجر رشيد

لم يكن مرسوم الكهنة المدون علي حجر رشيد سوي حلقة في سلسلة من المراسيم امتدت ما بين عصر بطلميوس الثالث والذي صدر في عهده المرسوم المعروف بمرسوم كانوب في عام ٢٣٨ قبل الميلاد مرورا بالمرسوم المسجل علي حجر رشيد والذي صدر في السنة التاسعة من عهد حفيده بطلميوس الخامس في سنة ١٩٦ ق.م وانتهاء بالمرسوم الصادر في السنة ٢٣ من حكمه.

وهناك تباين واضح بين المرسومين فبينما عقد اجتماع الكهنة الذين اصدروا مرسوم كانوب بالقرب من الاسكندرية مركز السلطة والحضارة اليونانية الاجنبية

(١) اختلفت هذه التسمية في النصين الهيروغليفي والديموطيقي عنها في النص اليوناني فبينما اطلق عليها النصان المذكوران " كتابة الوثائق " فان النص اليوناني يسميها " الكتابة الوطنية " اي الديموطيقية .

فان إجتماع الكهنة الذين اصدروا مرسوم منف عقد في عقر دار حضارة مصر الوطنية وتحت رعاية الاله بتاح الاله المصري وهذا التغير يعكس التطور الكبير الذي حدث خلال الاربعين عاما التي تفصل بين تواريخ المرسومين .ففي وقت صدور مرسوم كانوب كانت الدولة البطلمية في عصر بطلميوس الثالث في اوج قوتها في الداخل وفي اقصي اتساعها في الخارج واصبحت لعاصمتها الاسكندرية السيادة علي منطقة شرق البحر المتوسط، ولكن في عصر بطلميوس الخامس تغيرت الصورة بعد انتصار المصريين في عصر بطلميوس الرابع في معركة رفح في عام ٢١٧ ق.م وبعد تجنيدهم علي نطاق واسع في الجيش البطلمي وبعد ان نقل بطلميوس الرابع بلاطه مؤقتا من الاسكندرية الي منف العاصمة القديمة للفراعنة (لاخفاء استعداداته الحربية عن رسل الملك السليوكي عدوه اللدود كما يري بعض الباحثين) (Quirke 1988 , p. 7) .

ولكن سارت الامور علي غير ما يشتهي ملوك البطالمة فقد سرت الروح الوطنية في المصريين وانتشر التمرد ضد الحاكم البطلمي الاجنبي وامتد الي مصر كلها وعند موت بطلميوس الرابع سنة ٢٠٥ق.م انسلخ الجزء الجنوبي من مصر عن الحكم البطلمي كما انسلخت منطقة وسط وشرق الدلتا وتركزت الثورة في المنطقة الممتدة من سمنود نحو الجنوب وهي المعروفة في النصوص البطلمية بالمقاطعة البوصيرية ومركزها هو المسمي" ليكوبوليس" في النص اليوناني و " شكان " في النص الديموطيقي .

ولكن بطلميوس الخامس قام عام ١٩٧ ق.م ، بعد ان تمكن من تدعيم جيشه ، قام بشن حملة ضد ليكوبوليس واستولي الجيش البطلمي علي المدينة في هجوم خاطف وقبض علي الثوار ، وفي السنة التالية وهي السنة التاسعة من حكم الملك و كان الملك في سن الرابعة عشرة (١٩٦ ق.م) اقيم احتفال بالذكري الاولي لتتويجه في مدينة منف علي الطريقة الفرعونية وذلك لمزيد من اضفاء الشرعية علي حكم الملك لمصر في نظر المصريين لتعزيز موقفه في مواجهة الثوار وتضمن ذلك الاحتفال نشر عبادة الملك البطلمي في معابد مصر واقامة تمثال له ومقصورة في كل من هذه المعابد واقامة لوحة الي جانبها يدون عليها المرسوم الكهنوتي الصادر بإنشاء هذه العبادة بالاضافة الي الجوانب الاخري التي يحتوي عليها هذا المرسوم بالكتابات الثلاثة الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية وقد استمر اصدار هذه المراسيم بعد ذلك خلال السنوات التالية من حكم بطلميوس الخامس مما يدل علي ان هذه السياسة جاءت بنتائج في صالح الحكم البطلمي فقد تمكن الملك من اخماد الثورة في الجنوب التي كانت طيبة مركزها واستولي علي هذه المدينة في السنة التاسعة عشرة من حكمه (عام ١٨٦ ق.م). وقد سجل المرسوم الذي اصدره الكهنة هذا الانتصارفي النقش المحفور علي جدران معبد ايزيس في جزيرة فيلة[١] كما سبق القول .

---

(١) نقل هذا المعبد الي جزيرة ايجيلكا القريبة من جزيرة فيلة والاكثر ارتفاعا منها ضمن خطة إنقاذ اثار النوبة في الستينات .

القسم الثاني

الدراسة التحليلية المقارنة لنصوص حجر رشيد الثلاثة

ملاحظة :

رغم انه امكن للعلماء استكمال الجزء المفقود من النص الهيروغليفي (الذي يبلغ ثلث النص تقريبا) من النسخ الاخري لمرسوم حجر رشيد كما ذكرنا سابقا ، الا اننا سنقتصر هنا علي دراسة النص الهيروغليفي المدون علي حجر رشيد فقط (السطر الاول من هذا النص يقابل السطر ١٦ من النص الديموطيقي والسطر ٢٧ من النص اليوناني) التزاما منّا بداية حجر رشيد نفسه وخاصة أن النص الديموطيقي علي الحجر وهو شبه كامل يكاد يطابق النص الهيروغليفي في القراءة والمعني (كما تبين من النسخ الاخيرة في مرسوم حجر رشيد) مما يعطي فكرة واضحة عن مضمون الجزء المفقود من النص الهيروغليفي

السطور العليا من النص 11	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	(س١)(١) السنة التاسعة (من شهر) اكسانديكوس (٢) اليوم الرابع الموافق شهر أهل مصر	(س١) في عصر الشاب (٣) الذي ورث الملكية من

(١) (س١) هي اختصار كلمة " سطر " والرقم يدل علي رقم هذا السطر ،

(٢) هو اسم الشهر المقدوني الذي كتب في سياق النص اليوناني (سطره) ΞΑΝΔΙΚΟΥ وسوف نلتزم في كتابة الكلمات اليونانية كما وردت في النص بالضبط) ، وقد كتب في النص الديموطيقي محرفا الي النطق المصري " ق س ن ت ق س "

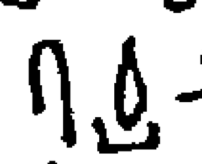
و المقصود بعبارة " شهر اهل مصر " (أ ب د / ن / ر م ت / ك م ت) هو شهر امشير فهو المعادل لشهر كساندیکوس هذا كما جاء في النص اليوناني (س٥)

(٣) يلاحظ ان نظام التأريخ اليوناني يختلف عن النظام المصري فبينما يبدأ النظام المصري بذكر التاريخ منسوبا الي الفرعون الحاكم (طبقا للنظام الفرعوني) فان النظام اليوناني يبدأ بالقاب الملك وصفاته ثم يذكر التاريخ منسوبا الي كهنة الملك (سطر ٤ من النص اليوناني) ولذلك لم يتطابق النصان الديموطيقي واليوناني في هذا الجزء من الحجر علي عكس ما سيحدث من تطابقهما في الاجزاء التالية .

ترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــــي
= الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	(الشهر) الثاني من فصل الشتاء اليوم الثامن عشر (في عهد) الفرعون (٥)(ح س ص)(٦) الشاب الذي ظهر كفرعون (ح س ص) علي	والـده رب التـيـجـان (٤) عظيم المجد الذي ثبت مصر التّقي نحو الآلهـة (س٢) المنتـصـر علي اعدائه الذي اصلح الحياة المتحضرة للبشرية سيـد الاعـيـادالثـلاثينيـة (٧) وهو مثل هيفايستوس (٨) العظيم

(٤) هذه ترجمة في النص اليوناني للقب المصري " ن ب / خ ع و " وسوف نري ان الالقاب المصرية ترجمت الي معانيها في النص اليوناني كما ترجمت الالقاب اليونانية الي معانيها في النص الديموطيقي مما سهل التعرف علي مدلول هذه الالقاب .

(٥) استخدم النص الديموطيقي لقب الفرعون (ب ر / ع ا) للدلالة علي الملك البطلمي الذي تشبه بالفراعنة بينما استخدم النص اليوناني لقب الملك (باسيليوس)

(٦) (ح س ص) هو اختصار لصيغة التمنيات المألوفة في النصوص المصرية القديمة " ع ن خ - و چ ا - س ن ب " وترجمتها " (له) الحياة والسلامة والصحة " وهذه الصيغة تلازم كلمة فرعون في النص الديموطيقي تمشيا مع النصوص المصرية القديمة والعبارة تكتب مختصرة في النصوص الهيروغليفية هكذا 

(٧) هذه العبارة لها اهمية كبيرة لانها حلت مشكلة أمام علماء المصريات وهي مدة احتفال الفراعنة بذكري جلوسهم علي العرش فقد ذكر اسم هذا الاحتفال في النصوص الهيروغليفية " ح ب - س د " أي " عيد الذنب " لان الفرعون كان يلبس اثناء هذا الاحتفال جلد حيوان له ذنب ولم يذكر المصريون اي معلومات عن هذا الاحتفال فجاءت عبارة " الاعياد الثلاثينية " علي حجر رشيد لتوضيح ان هذا الاحتفال كان يقام في الأصل في ذكري مرور ثلاثين سنة علي اعتلاء الفرعون العرش ، ولو ان ذلك كان نظريا فقط لان بعض الفراعنة احتفلوا بهذا العيد عدة مرات اثناء حكمهم ولم يتقيدوا بمدة الثلاثين سنة وكان الهدف من هذا الاحتفال الفرعوني تجديد شباب الملك ليكون قادرا علي استمراره في حكم البلاد .

(٨) هيفايستوس : هو الاله اليوناني المقابل للإله " بتاح " المصري الذي اجري الاحتفال بذكري تنصيب بطلميوس فرعونا في معبده في منف ولكن النص اليوناني لم يلتزم بذكر اسم " هيفايستوس " بدلا من اسم بتاح في السطور التالية اذ ذكر اسم بتاح محرفا الي النطق اليوناني " ف ث ا " ΦθΑ السطور ٤ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من النص اليوناني) .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
	عــرش والده سيــد الصلين (١٠) الذي قوته عظيمة الذي ثبت مصر وجعلها جميلة الذي قلبه محسن نحــو الالهــة الذي يقف في وجــه اعدائه الذي جمّل حياة الناس ست سنوات عيــد حب - سـ(د) (١٣)	(س٣) مـثـل الشـمـس (٩) الملك العظيم لمصر العليا والسفلي نسل الالهين فيلوباتور(١١) الذي وافق عليه هيفايستوس ، الذي منحته الشمس النصر الصورة الحيـة لزيوس(١٢) ابن الشـمـس بطلميـوس (س٤) العـاش ابديا

(٩) ترجم النص اليوناني كلمة " رع" الواردة في النص الديموطيقي (والهيروغليفي في السطور التالية) الي معناها وهو الشمس (Helios باليونانية) وكان ذلك من العوامل التي ساعدت شمبليون علي حل رموز حجر رشيد كما ذكرنا .

(١٠) الصلين " تثنية " صل " وتطلق علي حية الكوبرا المقدسة والمفروض ان يكون هذا اللقب هو اللقب المعروف بـ " نبتي" اي " الربتين " وهو من الالقاب الخمسة للفرعون وترسم في الهيروغليفية بشكل رخمة (انثي النسر) التي ترمز الي ربة الجنوب وبجوارها صل واحد الذي يرمز الي ربة الشمال ، ولكن في العصر البطلمي حل رسم الكوبرا (الصل) محل الرخمة واصبح رمزا للجنوب ولذلك كان يرسم صلان متجاوران فوق رأس احدهما تاج الشمال وفوق رأس الآخر تاج الجنوب .

(١١) ترجم النص الديموطيقي هذا اللقب الي " م ر - إت " كما سنذكر بعد .

(١٢) زيوس هو الاله اليوناني المعادل للاله أمون المصري .

(١٣) هذه العبارة اي " حب - سد " او " عيد سد " هي التي ذكرنا ان النص اليوناني الذي جاء فيه لقب " سيد الاعياد الثلاثينية " قد حل مشكلة التعرف علي هذا العيد .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	مثل عيد بتاح تاتنن(١٥)	محبوب بتاح (١٤)
	(س٢) الفرعون (١٦)(ح س ص) مثل رع فرعون (ح س ص) المناطق العليا والسفلي ابن الالهين المحبين لوالدهما (١٩) الذي اختاره " بتاح " والذي منحه رع	في السنة التاسعة (١٧) من كهنوت ايتوس Aitos بن ايتوس (١٨) في (خدمة ، الاسكندر والالهين " سوترس" والالهين " ادلفوي " والالهين ايوارجتاي "

(١٤) ذكر هنا اسم الاله بتاح باسمه المصري المحور الي النطق اليوناني " ف ث ا " وليس باسم الاله هيفابستوس " المعادل اليوناني للاله بتاح المصري كما ذكرنا في السطر الثالث .

(١٥) كلمة تاتنن معناها الارض المرفوعة ، وقد اطلقت علي اله كان يعبد في مدينة منف قبل الاله بتاح ويعني اسمه الارض التي تم اكتسابها من مستنقعات منف وتحويلها الي أرض زراعية وعندما عبد الاله بتاح في منف اندمج فيه الاله تاتنن وصار يمثل صفة الخلق في بتاح

(١٦) كلمة الفرعون (بر - عا) في الص الديموطيقي يقابلها كلمة (الملك) Baselios في النص اليوناني .

(١٧) تأخر ذكر التاريخ في النص اليوناني عنه في النص اليوناني للسبب الذي ذكرناه فيما سبق .

(١٨) هذا الكاهن الذي ارخ النص اليوناني بسنوات كهانته وكذلك الكاهنات اللاتي سيأتي اسماهن هم القائمون علي خدمة عبادة الاسكندر وملوك وملكات البطالمة وكانوا ينتظمون في نظام اغريقي خالص .

(١٩) هذه ترجمة مصرية للقب اليوناني " فيلوباتورز " (بطلميوس الرابع وزوجته) والد بطلميوس الخامس وتقرأ " م ر - ا ت و "

السطور العليا من النص الهيروغليفي ١١	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
	النصر ، الصورة الحيـة لامون ابن الشمس بطلميـوس (٢١) العـاتش ابديا محبـوب بتـاح الاله الظاهر (٢٤) الذي طيبـاته كاملة (٢٢) اب بطلمـيـوس وارسنوي الالهـان المحبـان لوالديهمـا حينمـا كـان	والالهين فيلوباتورز (٢٠) والاله (س٥) ابيـفـانس ابوخـارسـتـوس (٢٢) وعندمـا كـانت (كـاهنة) اثلوفوروس (٢٣) الخاصة ببرنيكي ابوراجيتس هي "پرها" ابنة فيلينوس (٢٥) وعندمـا كـانت (كـاهنة)

(٢٠) المعروف ان هذه الالقاب اليونانيـة هي لكل من بطلميوس الاول وزوجته (سوترس) وبطلميوس الثاني وزوجته (ادلفوي) وبطلميوس الثالث وزوجته (ابوارتاي) وبطلميوس الرابع وزوجته (فيلوباتورز) وهم اباء وجداد بطلميوس الخامس (ابيفانس) وسوف يرد في النص الديموطيقي ترجمة لهذه الالقاب .

(٢١) كتب اسم بطلميوس في النص الديموطيقي دائما داخل خرطوش مختصر ( ) ولكن اختلف هجاء الاسم بين خرطوش وآخر ففي الحالة لتي نحن بصددها كتب هكذا (ب ت ل و م ي س)

(٢٢) هذا اللقب Eucharistos يلازم اسم بطلميوس في النص اليوناني ومعناه " صاحب الحسنات " ويعادله في النص الديموطيـقي " ث ا ي - ف / م د - ن ف ر ت " اي الذي طيباته كاملة . وفي النص الهيروغليفي (كما سيأتي بعد) " ن ب - ن ف ر و " اي " سيد الطيبات " .

(٢٣) Athlophoros ستـرد ترجمتها في النص الديموطيقي بمعني " حاملة هدية النصر " وكانت الكاهنة الخاصة بعبادة الملكة برنيكي زوجة بطلميوس الثالث ابوراجتيس

(٢٤) هذا اللقب ويقـرأ في الديموطيـقيـة " ن ث ر - ب ر " بمعني الاله المشرق والظاهر هو الترجمة الديموطيقية للقب اليوناني . Epiphanes

(٢٥) "پرها" ابنة فيلينوس Phirlios هي كاهنة athlophoros الخاصة بعبادة الملكة برنيكي زوجة بطلميوس الثالث ، وقد ترجم هذا اللقب في النص الديموطيقي الي " ف ا ي / ش ب / پ ا / ن ن ي " اي " حاملة هدية النصر "

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــــي
الجسنترس (٢٧) والالهان المنقذان (٢٨) (س٣) والالهـان الاخـوان (٢٩) والالهـان المحـسنان (٣٠) والالهـان المحـبان لوالدهمـا (٣١) والفرعـون (ح س ص) بطلميـوس الاله الظاهر الذي فـضـائله كـاملة	كانيفوروس (٢٦)الخاصـة بارسنوي فيلادلفوس هي اريا ابنة ديوجينيس (٢٦) وعندما كانت كاهنة ارسنوي فيلوباتور هي ارينى ابنة بطلميـوس في شهـر كسانديكوس اليـوم الرابع الموافق اليـوم الثـامن عـشـر من شهر امشير المصري (٣٢)

(٢٦) اريا Areia ابنة Diogencs هي كاهنة Canephoros الخاصة بعبادة ارسنوي زوجة بطلميوس الثاني ، وقد ترجم هذا اللقب في النص الديموطيقي الي " ف ا ي / ث ن / ن ب و " اي " حاملة السلة الذهبية "

(٢٧) هذه هي صيغة اسم الاسكندر في النص الديموطيقي وقد كتب داخل خرطوش مختصر (أ ل ج س ن ت ر س)

(٢٨) ترجم لقب Soteres في النص اليـوناني الي " ن ت ر و / ن ت ي / ن ح م /" في النص الديموطيقي ويحمل نفس المعني اليوناني وهو " الالهان المنقذان " ، وفي بعض الاحيان استبدلت بكلمة " ن ح م " كلمة " ن ج " وتحمل نفس المعني اي " المنقذ "

(٢٩) ترجم لقب Adelphoi في النص اليـوناني الي (ن ت ر و / س ن و) في النص الديموطيقي ويحمل نفس المعني اليوناني وهو (الالهان) الأخوان .

(٣٠) ترجم لقب Euergetai في النص اليـــوناني الي" ن ث ر و / م ن خ و " في النص الديموطيقي ويحمل نفس المعني اليوناني وهو (الالهان) المحسنان .

(٣١) ترجم لقب Philopatores في النص اليـوناني الي (ن ث ر و / م ر - ا ت . و) في النص الديموطيقي ويحمل نفس المعني اليوناني وهو (الالهان) المحبان لوالدهما)

(٣٢) يلاحظ الاختلاف في ذكر الشهر بين النصين الديموطيقي واليوناني فبينما ورد الشهر في النص الديموطيقي بالنسبة لترتيبه في الفصل الذي يقع فيه (الشهر الثاني من فصل الشتاء) (س١) وهي الطريقة الفرعونية المألوفة في ذكر الشهـور ، فقد ذكر في النص اليـوناني باسمه امشير MEXEIP وذلك رغم ان اسماء الشهـور (التي ظلت باقية في الشهـور القبطية) كانت معروفة في العصر البطلمي .

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	(٣٣) اياتوس (٣٤) ابن اياتوس حينما كانت"پرا" ابنة تيليشبس(٣٥) تحمل هدية النصر (٣٦) أمام برنيجا (٣٧) المحسنة وحينما كانت اريا ابنة تياجنس (٣٨) حاملة السلة الذهبية أمام ارسنوي محبة اخيها (٣٩) وعندما كانت هرانا (٤٠) ابنة بطلميوس كاهنة ارسنوي محبة والدها	)

(٣٣) هذه ترجمة للقب ابوخارستوس كما سبق القول (هامش ٢ سطر ٥ من النص اليوناني)

(٣٤) " ا ي ا ت و س " هي الصيغة الديموطيقية للاسم اليوناني Aitos

(٣٥)" پ ر ا " هي الصيغة الديموطيقية للاسم اليوناني Pyrrha " و"ب ي ل ي ن س " هي الصيغة الديموطيقية للاسم اليوناني Philios.

(٣٦) سبق ان ذكرنا ان هذه ترجمة ديموطيقية للقب اليوناني Athlophoros

(٣٧) (ب ر ن ي ج ا) هي الصيغة الديموطيقية لاسم الملكة برنيكي ، وقد كتبت داخل خرطوش ناقص( )

(٣٨) " ا ر ي ا " و" ت ي ا ج ن س " هما الصيغتان الديموطيقيتان للاسمين اليونانيين Diogenes , Areia .

(٣٩) كتبت هذه العبارة في النص الديموطيقي بالصيغة التالية (ا ر س ي ن ا)ت ا / م ر – س ن " ارسنوي محبة الاخ "

(٤٠) " هـ ر ا ن ا " هي الصيغة الديموطيقية للاسم اليوناني Irene

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر
س٦) مرسوم : ان رؤساء الكهنة والكهنة المعبرون عن نبوءات الالهة (٤١) وهؤلاء الذين يدخلون المحراب (س٧) لالباس تماثيل الالهة(٤٢) وحملة المراوح والكتبة المقدسين وكل الكهنة الآخرين الذين اتوا من المعابد في كل البلاد (٤٤) الي الملك في منف .	(س٤) في هذا اليوم قرر كبار الكهنة وكهنة التنبؤات (٤١) الكهنة الذين يدخلون الي قدس الاقداس لالباس (تماثيل) الآلهة (٤٢) وكتبة الاسفار المقدسة وكتبة بيت الحياة (٤٣) والكهنة الاخرون الذين اتوا من معابد مصر (٤٤) (س٥) الي منف	

(٤١) اختلفت تسمية هؤلاء الكهنة في كل من النصين الديموطيقي واليوناني فبينما اطلق النص اليوناني عليهم Prophetai اي " المعبرون عن نبوءات الآلهة " فقد اطلق النص الديموطيقي عليهم " ن ا / ح م - ن ث ر و " اي " خدمة الآلهة " .

(٤٢) من أهم الطقوس التي تجري في المعابد المصرية كان طقس الباس تماثيل الالهة في قدس لاقداس وتقليدهم الشارات الالهية ، وكان يقوم بذلك طائفة متميزة من الكهنة في صباح كل يوم .

(٤٣) بيت الحياة " ب ر - ع ن خ " هي ما يقابل عندنا دار الحكمة او المجمع العلمي ، ومقرها في المعابد (وفي بعض الاحيان اطلقت علي المدارس العليا " ومقرها المعابد ايضا ، وقد عرفت منها " مدرسة للحياة " في كل من منف وابيدوس والعمارنة .

(٤٤) كان الكهنة المصريون في كافة انحاء البلاد يرسلون في مناسبات معينة (هي هنا مناسبة عيد تتويج الملك البطلمي) مندوبين عنهم لعقد مؤتمر عام يتخذ قرارات تنفذها كل المعابد في مصر ومؤتمر منف التي سجلت قراراته علي حجر رشيد ومن قبله مؤتمر " كانوب " الذي عقد في عصر بطلميوس الثالث (عام ٢٣٨ ق.م) من امثلة هذه المؤتمرات .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
في عيد تسلم الوظيفة السامية (٤٥) (بواسطة) الفرعون (ح س ص) بطلميوس العائش ابديا محبوب بتاح الاله الظاهر الذي طيباته كاملة من والده	من أجل عيد تسلم (س ٨) بطلميوس الملكية العائش ابديا محبوب بتاح الاله ابيفانس "إيوخارستوس "(الملكية) التي ورثها عن والده
لقد اجتمعوا (الكهنة) في معبد منف وقالوا جميعا " منذ ان حدث ان الفرعون (ح س ص) بطلميوس العائش ابديا	لقد اجتمعوا الكهنة) في المعبد في منف في هذا اليوم وقالوا (س٩) كان الملك بطلميوس العائش ابديا
الاله الظاهر (ابن الفرعون (ح س ص) بطلميوس (س٦) " والفرعون " (ح س ص) ارسنوي (٤٦)	الاله ابيفانس ابوخارستوس الذي انحدر من الملك بطلميوس والملكة ارسنوي الالهين فيلوباتورز كان

(٤٥) المقصود بالوظيفة السامية هي الملكية البطلمية التي ورثها بطلميوس عن والده ، وقد وردت بهذا المعني في النص الهيروغليفي (سطر ١٠) اذ عبر النص عن هذه الوظيفة السامية بكلمة " ن س ي ت " بمعني "مَلَكِيـةٌ" وقد شرحنا ذلك بالتفصيل في هامش (٣) سطر ١٠ حيث وردت هذه الكلمة .

(٤٦) من الغريب اطلاق لقب " فرعون " (بر - عا) علي الملكة ارسنوي زوجة بطلميوس الرابع ، وهذا أمر لم يكن مألوفا في مصر الفرعونية بالنسبة لزوجات الفراعنة (فيما عدا الملكة حتشبسوت التي كانت تحكم فعلا) وقد الحقت بهذا اللقب عبارة التمني " (له) الحياة والسعادة والصحة " التي الحقت باسم بطلميوس .

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	والالهين المحبين لوالدهما (قد قدم) حسابات كثيرة لمعابد مصر (٤٧)	محسنا بوسائل شتي بالنسبة للمعابد
	ولكل اولئك الذين تحت حكمه كفرعون (ح س ص) ولكونه الها ابن اله والهة ولكونه شبيه الاله حور(٤٨) ابن ايزيس واوزير الذي حمي والده اوزير والذي قلبه محسن نحو الالهة الذي اعطي فضة كثيرة وغلة كثيرة لمعابد مصر	(س ١٠) ولهؤلاء الذين فيها ولهؤلاء الذين يعيشون تحت رعايته حاكما كإله انحدر من اله والهة مثل حورس (٤٨) بن ايزيس واوزوريس حامي والده اوزوريس فبالنسبة للآلهة (س ١١) بوصفه يميل للاحسان قد اهدي دخلا من المال وغلة للمعابد

(٤٧) استعملت كلمة " كمت " هنا كاسم لمصر وهو الاسم الذي استخدم في سائر النص الديموطيقي (والهيروغليفي كما سيأتي بعد) وهو الاسم الشائع لمصر في النصوص المصرية القديمة ومعناه " السمراء " اي الارض السمراء نسبة الي لون طمي النيل الذي يغطيها ولشيوع هذه الكلمة وارتباطها بظاهرة طبيعية دائمة في البيئة المصرية فقد استمرت في اللغة القبطية KHME بنفس نطقها تقريبا (كيمي)

(٤٨) الاله حورس ورمزه الصقر كان يعتبر في مصر الفرعونية اول السلالة الملكية التي حكمت مصر وبذلك كان الفراعنة يحملون اسمه ويكتبون اسماءهم داخل شكل مستطيل يرمز الي واجهة القصر الملكي ويربض فوقه شكل صقر ويعرف هذا اللقب باللقب الحوري بين علماء المصريات نسبة الي الاله " حور" أو " حورس " .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
(س٧) (وانفق مصاريف) كثيرة لينشر (حرفيا ليوجد) السلام في مصر ولتوطيد مركز المعابد فقد منح الهبات للفرق الحربية التي تحت امرته جميعها	وتحمل مصاريف كثيرة ليجعل مصر في رخاء (س ١٢) ولتدعيم المعابد وكان كريما مع كل فرقه الحربية (٤٩)
والضرائب والجزية المفروضة في مصر بعضها خفضه وبعضها الغاه تماما لكي يجعل الجيش (٤٩) وكل الناس جميعهم سعداء في عهده (س٨) كفرعون (ح س ص)	وبالنسبة للدخول والضرائب التي كانت قائمة في مصر فقد الغي بعضها تماما وخفض الاخري لكي يكون الناس (المصريون) وجميع الآخرين (الجنسيات الأخري) في سعادة

(٤٩) المقصود بالطبع هو الفرق الحربية المصرية في جيش البطالمة التي بدأ تجنيدها في عصر الملك بطلميوس الرابع والد ابيفانس وتمكن الجنود المصريون من الانتصار علي جيش الملك السليوكي (حاكم الشام اليوناني) في موقعة رفح في عام ٢١٧ ق.م) بينما انهزمت الفرق اليونانية مما كان له اثره في بعث الروح القومية في نفوس المصريين من ناحية وفي تنازل ملوك البطالمة عن تعسفهم وتعصبهم ضد المصريين وتقربهم اليهم من ناحية أخري وكان من نتيجة هذا التقارب تتويج بطلميوس الرابع فرعونا في منف (ابراهيم نصحي ، ١٩٦٠ ، ج٢ ، ص ١٩) وسار علي منواله ابنه بطلميوس الخامس .

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	والضرائب الخاصة بالفرعون (ح س ص) المفروضة علي كل سكان مصر (٥٠) وهؤلاء الذين تحت سلطته كفرعون (ح س ص) وهي كثيرة فقد الغاها .	تحت حكمه (س ١٣) والديون المستحقة للتاج علي هؤلاء الذين في مصر والذين في سائر دولته وعددها كبير فقد الغاها
	والناس الذين كانوا مسجونين والذين كانت ضدهم اتهامات منذ مدة فقد اطلق سراحهم وقد امر فيما يخص الدخل المقدس للالهة والفضة والغلال التي كانت تقدم (س٩) الي معابدهم (معابد الكهنة) سنويا (٥١)	والمقبوض عليهم والمحبوسين في السجون (س ١٤) والمتهمين منذ مدة طويلة فقد اعفاهم من التهم الموجهة اليهم وقد امر بالنسبة لدخول المعابد والهبات السنوية التي تمنح لها من الغلال والمال (س ١٥)

(٥٠) التعبير الديموطيقي هو " ر م ت و / ن ت ي/ ن / ك م ت " اي الناس الذين في مصر

(٥١) في النص اليوناني استخدمت كلمة ΣΥΝΤΑΞΕΙΣ (Syntaxis) للدلالة علي الاعانة التي تقدمها الدولة نقدا او عينا للمعابد لمعاونتها علي استمرار اداء الطقوس الدينية للآلهة ولما كانت لا توجد كلمة في اللغة المصرية تفيد هذا المعني فقد كتبت هذه الكلمة في النص الديموطيقي بلفظها اليوناني مع بعض التحوير في الحروف كما يلي "س ن ت ج س ي "

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــــي
والانصبـة التي تؤول للآلهـة من حـقــول الكروم والحـدائق وســائر الممتلكات كلها التي من عهد والده ان تظل في حوزتهم (٥٢)	والانصبـة المخصصة للالهة من كل من حـقـول الكروم والحـدائق ومن الاملاك الأخري الخاصـة بالآلهة في عصر والده (أمر) ان تظل كما هي (٥٢)
وقد أمر بخصوص مايدفعه الكهنة الا يدفعوا ضريبتهم نظير خدمتهم	(س ١٦) وقد امر بالنسبة للكهنة الا يدفعوا أكثر مما كان مقررا عليهم

(٥٢) اطلق النص اليوناني علي هذه الانصبة ΑΠΟΜΟΙΡΑ (ابو موبرا) بينما اطلق عليها النص الديموطيقي المترجم هنا " د ن ي و / ن ت ي / خ ب ر / ن / ن ت ر و / ن ن ، / ا ح و / ا د ل ي / ن ا / ا ح و / ت ج ي " وكانت الابومريرا هذه في الاصل ضريبة تجبيها المعابد المصرية في العصر الفرعوني من زارعي الكروم والفاكهة وكانت تبلغ سدس المحصول وكان دخلها يكّون جانبا كبيرا من موارد هذه المعابد ولكن طلميوس الثاني جعل جبايتها من حق الدولة البطلمية فكانت تورد الي مخازن الدولة ، ثم يقوم الملك البطلمي بتقديم جزء منها للمعابد كهبة منه تحت قسمي الصرف منها علي عبادة الملكة ارسنوي (اخته وزوجته) وذلك تمشيا مع سياسته في اخضاع المعابد لسيطرته ، وبمرور الوقت وزيادة عدد افراد اسرة البطالمة الذين تجري لهم طقوس العبادة من ناحية ولرغبة بطلميوس الرابع في استرضاء الكهنة المصرين من ناحية أخري فقد زاد هذا الملك من انصبة المعابد من هذه الضريبة ، ويبدو انه كان من حق بطلميوس الخامس انقاص هذه الضريبة ولكنه ابقاها كما كانت في عهد والده مما استلزم شكر الكهنة المصرين كما جاء في النصين المذكورين (ابراهيم نصحي ١٩٦٠ ، ج٢ ، ص ٦٥ - ٦٠)

	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	ككهنة أكثر من المقدار الذي كانوا يدفعونه حتي السنة الأولي من عهد والده (٥٣) (س ١٠) وقد اعفي الناس الذين كانوا يشغلون وظائف في المعبد من الرحلة النهرية التي كانوا يقومون بها الي مدينة الاسكندرية (٥٤) سنويا (٥٥) كما امر بعدم تسخير البحارة (٥٦)	من ضريبة التنصيب (في سلك الكهنوت) في السنة الأولي من حكم والده (٥٣) وقد اعفي اعضاء الطوائف الكهنوتية من الابحار سنويا الي الاسكندرية وأمر بايقاف الخدمة في الاسطول (بالسخرة)(٥٦)

(٥٣) تدل هذه العبارة علي ان بطلميوس الخامس رفع قيمة هذه الضريبة في بداية عهده ثم أعادها الي ما كانت عليه في عهد والده بطلميوس الرابع .

(٥٤) هكذا كتب اسم الاسكندرية في النص الديموطيقي ويقرأ " پ ا ع (ا ل ج س ا ن ت ر س) وقد كتب اسم الاسكندر في خرطوش غير كامل شأن خرطوش بطلميوس .

(٥٥) كان يفرض علي الكهنة المصريين السفر سنويا بطريق النيل الي الاسكندرية لتجديد الولاء للملك البطلمي .

(٥٦) المقصود عدم تسخير عمال المعابد في الخدمة في الاسطول ، فقد كان هؤلاء العمال مصدر دخل للمعابد التابعين لها اذ كانت المعابد تؤجر بعضهم للمشتغلين بالتجارة والصناعة وتستخدم البعض الآخر في مصانعها ومزارعها .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
وقد تنازل عن ٣/٢ الكتان الملكي (٥٧) الذي كان يورد لبيت الفرعون (ح س ص) من المعابد وكل الاشياء التي كانت قد اهملت منذ زمن طويل (س ١١)قد وضعت في موضعها (الصحيح)	وبالنسبة للضرائب علي نسيج الكتان الملكي (٥٧) التي تدفعها المعابد للتاج فقد خفضها بمقدا الثلثين (س١٨) وكل ما كان قد أهمل في الزمن الماضي اعيد تنظيمه
فقد وجه كل الإهتمام بان يؤدي (الانسان) ما كان يجب ان يؤديه للالهة بطريقة صحيحة ولذلك جعل الحق للانسان في العدالة كما فعل تحوت (٥٨) المزدوج العظمة	مع الاهتمام بان تدفع الضرائب التقليدية للآلهة كما يجب (س١٩) وكذلك فانه وزع العدالة علي الجميع كما فعل هرمس (٥٨) عظيم العظمة

(٥٧) هو المكان المعروف في النصوص البطلمية بـ Byssus وهو نوع من الكتان الناعم الفاخر وقد ورد في سياق النص اليوناني بالصيغة ΒΥΣΣΙΝΩΝ وتقابله في النص الديموطيقي "ش س / ن س و و " أي " الكتان الملكي " لانه كان احتكارا ملكيا ، وقد عبر النص الديموطيقي عن ذلك الاحتكار بعبارة " و ن - ن ا و / ا و = و / ا ر = و / پ ا (پ ر - ع) (ع و س) ن ا / ر پ ي و " وترجمتها " الذي كان يورد لبيت الفرعون (ح س ص) من المعابد " وكانت المعابد فقط فقط هي التي لها حق صناعته وعليها توريده للتاج .

(٥٨) الواضح من النص اليوناني ان الاله هرمس هو المعادل اليوناني للاله " تحوت " اله العلم والحكمة المصري ، ولكن في مواضع اخري من النص اليوناني ذكر الاله تحوت باسمه محرفا الي النطق اليوناني بالصيغة Thowth (سطر ٥٠)

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
وكذلك أمر فيما يخص العائدين الي بلادهم من الجنود المحاربين وباقي الناس الذين كانوا في الجانب الآخر خلال الاضطرابات التي حدثت في مصر (٥٩) (س١٢) ان يعودوا الي مساكنهم وان تبقي املاكهم لهم	وقد امر ايضا بان الذين عادوا من طائفة المحاربين وغيرهم ممن ضلوا السبيل في ولائهم (سطر ٢٠) زمن الاضطرابات (٥٩) يجب ان يعودوا الي املاكهم القديمة
ولقد كرس عنايته لتوجيه الجنود المشاه والفرسان والسفن ضد كل من يأتي عن طريق البر والبحر	وقد جهز القوات من الفرسان والمشاة والسفن لارسالها ضد هؤلاء الذين هاجموا مصر برا وبحرا (٦٠)(سطر ٢١)
لمهاجمة مصر (٦٠) قد انفق من	منفقا مصاريف كبيرة من المال

(٥٩) هذه اشارة الي السنوات التي تلت عام ٢٠٥ ق.م عندما قامت ثورة في المنطقة الممتدة من قفط شمالا الي اسوان جنوبا بزعامة مصريين اولهم " حور - ون - نفر " (كان اسمه يقرأ خطأ حور ام اخت " حوّلها بعض الباحثين الي النطق اليوناني حورماخيس) ثم منذ عام ١٩٩ ق.م بزعامة " عنخ - ون - نفر " (وكان اسمه يقرأ خطأ فيما مضي عنخ - ما - خت) (Quirke 1988 , p. 23)

(٦٠) لا شك ان هذه اشارة الي تحصين مصر ضد هجوم عدوه الملك السليوكي الحاكم اليوناني لسوريا ، وقد عمل ابيفانس علي ازالة هذه العداوة فيما بعد بزواجه من الملكة كليوباتره (الأولي) ابنة انطيوخوس الملك السليوكي عام ١٩٤ ق.م) (Quirke , 1988 , p. 7) اي بعد مرسوم حجر رشيد بعامين .

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
	أجل ذلك مـصـاريف باهظة من الفضة والغلال ليجعل المعابد والناس الذين في مصر يصبحون في طمأنينة	والغلال لكي تصبح المعابد وكل مَنْ في البلاد في أمان
	وقد زحف علي قلعة شكان (٦١) التي حصنها العدو بكل وسيلة وبداخلها اسلحة كثيرة وكل معدات الحرب	وعندمـــا وصل الملك الي ليكوبوليس(٦١) (س٢٢) في المقاطعة البوصيرية وهي التي كان الثوار قد احتلوها وحصنوها (وملأوها) بمخزون كبير من الاسلحة وكل المعدات الأخري لمقاومة الحصار
	وقد حاصر القلعة المذكورة بجدار حول محيطها لحصار الاعداء الذين بداخلها والذين كانوا قد ارتكبوا	ولما كان أمر العصيان طويلا (س٢٣) من الرجال الكفرة المتجمعين فيها الذين الحقوا ضررا بالغا بالمعابد

(٦١) اختلف اسم هذه القلعة في النصين فبينما يسميها النص الديموطيقي " ت ا / ر س ت / ش ك ا ن " اي " قلعة شكان " لا يذكر النص اليوناني اسمها بل ينسبها الي المدينة التي تقع فيها وهي مدينة Lycopolis في المقاطعة البوصيرية ومكانها اليوم المنطقة المتاخمة لمدينة سمنود جنوبا غرب فرع دمياط وكانت مقرا لعبادة الاله اوزير ، وقد اشتق اسمها اليوناني Busiris من اسمه ، ومن هذا الاسم اليوناني جاء اسم قرية " ابي صير " الحالية التي تقع في نطاق هذه المقاطعة

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليونانـــي
	جرائم عظيمة نحو مصر فقد تجاهلوا طريق واجبهم نحو الفرعون (ح س ص) وطريق واجبهم نحو الآلهة (س ١٤)	وبسكان مصر وبعد ان عسكروا امامها (س ٢٤) فقد احاطها باكوام التراب وبالخنادق والاسوار المحكمة
	وقد سد القنوات التي تحمل المياه للقلعة المذكورة (٦٢) ولم يعرف فراعنة سابقون فعلوا المثل وقد انفق فضة كثيرة عليه (علي الحصار) وعين جيشا من المشاه والفرسان عند مصبات القنوات لمراقبتها وحراستها	ولما كان النيل مرتفعا ارتفاعا عظيما في السنة الثامنة (من حكم بطلميوس) وكاد يغرق (س ٢٥) السهول ، فقد منعه وذلك بسده عند نقط عديدة عند فتحات الترع (٦٢) وتد انفق علي ذلك مبلغا من المال ليس بالقليل وعين الفرسان والمشاه لحراستها
	بسبب فيضان مياه النيل (٦٣) التي كانت مرتفعه في السنة	

(٦٢) من الواضح ان المياه المتدفقة من فيضان النيل المرتفع في تلك السنة (وهي السنة السابقة لسنة تسجيل النقش) احاطت بمنطقة الثوار فكانت بمثابة حصن لهم يعوق هجوم قوات ابيفانس فقام بسد الترع والقنوات التي تحمل المياه الي منطقتهم مما أدي الي هبوط مستوي الحياة حولها وسهل الهجوم عليها .

(٦٣) استخدم النص الديموطيقي كلمة " ح ب ا " للتعبير عن فيضان النيل التي يري بعض الباحثين انها الاصل في كلمة Aegyptus اليونانية (عبد العزيز صالح ١٩٦٢ ، ص ١١) ولكن النص اليوناني استخدم عبارة " كان النيل مرتفعا ارتفاعا عظيما " وقد وردت =

السطور العليا من النص الهيروغليفي مفقودة بسبب كسر الحجر

ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
الشامنة في القنوات (س ١٥) المذكورة التي كانت تمد بالمياه منطقة شاسعة وكانت عميقة جدا	
وقد استولي الفرعون (ح س ص) علي القلعة المذكورة بالقوة في زمن قصير وسيطر علي الاعداء الذين كانوا بالداخل واجري مذبحة بينهم مثلما فعل ع (٦٤) وحور بن ايزيس مع اولئك الذين كانوا معادين لهم في الاماكن المذكورة .	(س ٢٦) وفي وقت قصير استولي علي المدينة بهجوم خاطف وقضي علي الرجال الكفرة مثل هرمس (٦٤) وحورس بن ايزيس واوزوريس عندما اخضعوا الرجال في نفس الاماكن فيما مضي

=كلمة النيل في سياق النص بالصيغة ΝΕΙΛΟΥ وهي من كلمة Nilus اليونانية ، وقد استخدم اليونان هذه الكلمة رغم انها ليست يونانية او مصرية وانما سامية الأصل تقابلها في اللغة العبرية كلمة " ن هـ ل " بمعي " نهر " وكان العبرانيون يطلقون التسمية " نهل مصرايم " علي نيل مصر.

(٦٤) يلاحظ اختلاف اسم الاله في النص الديموطيقي الذي ذكر اسم الاله " رع " بينما ذكر النص اليوناني اسم الاله " هرمس " وهو المعادل للاله تحوت المصري كما سبق القول ولعل السبب في ذكر الاله تحوت هو رواج قصة من قصص اوزوريس في العصر البطلمي مؤداها ان اتباع الاله اوزير الذين قادهم الالهان حورس وتحوت قد هزموا اعوان الاله " ست " اله الشر بجوار المدينة المسماه في العصر اليوناني " هرموبوليس بارفا " (علي اسم الاله هرمس) (Quirke 1988 , p. 23) في المقاطعة الخامسة عشرة في شرق الدلتا (قرية تل بلله الحالية الي الشمال الشرقي من سمنود شرق فرع دمياط) وهي قريبة من المقاطعة البوصيرية مقر الثورة ، ولعل السبب في ذلك هو الارتباط بين الاله اوزير الذي دارت حوله هذه القصة وبين المقاطعة البوصيرية التي كانت مقرا لعبادته ، وكانت في الوقت نفسه ملجأ للثوار الذين انتصر عليهم بطلميوس .

ملاحظة

في الجزء التالي من نصوص حجر رشيد يبدأ النص الهيروغليفي في الظهور ، ولما كان هذا النص هو الذي اعتمد عليه شامبليون اساسا في حل رموز الهيروغليفية فسوف نضيف الي ترجمته قراءة نصوصه وسوف نرمز لهذه القراءة بالحرف " ق" والي الترجمة بالحرف " ت " وسوف نستخدم في اثبات هذه القراءة الحروف العربية المفردة بدلا من الحروف اللاتينية المتبعة في اثبات قراءة العلامات الهيروغليفية بين المتخصصين في علم المصريات وذلك لكي يتمشي اتجاه القراءة مع اتجاه العلامات الهيروغليفية لانه من اليمين الي اليسار (مثل الحروف العربية) ولتيسير الامر لمن يريد مطابقة هذه القراءة علي النص الهيروغليفي نفسه المنشور في آخر هذا البحث(شكل ٦) . ثم تمشيا مع هذا التيسير فقد فصلنا بين كل كلمة واخري بشرطة مائلة وان كان ذلك غير متبع في علم المصريات ولكنه متبع في الدراسات العربية الجنوبية (في النصوص السبئية - الحميرية ومايشبهها)

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
(س١)	(س١٦) والاعداء	(س٢٧)وهؤلاء
ق. ... ا س ك / ج د ب / م ش ع/ (١)	الذين جـمـعـوا	الذين قـــادوا
ت. .بالنسبة لهؤلاء الذين جمعوا الجنود	جـيـشـا وقـادوه	الثوار في عهد
ق. و ن . س ن / م/ ت پ .	لتـرويع الاقـاليم	والده وسـبـبـوا
ت. وكـــــانوا علي رأســـــهم	ولإيذاء المعـــابد	الاضـــطـــراب
ق. .س ن / س د م ن .س ن /	متنكرين	للبلاد واسـاءوا
ت. مـــــــزعــــــجـين		للمعابد عندما
ق. (ت) ش و /ن ك ن .س ن		
ت. الاقـــــاليـم وضـــــارين		
ق. ا د ب و - ح ر(٢)..		
ت. شـــــواطئ حـــورس..(٣).		
	لطريق الفـرعـون	جـاء الي منف
	(ح س ص)	للدفـــاع عن
	ولوالده) فـــإن	(ارث) والـــده

(١) نتيجة لكسر الحجر تبدو المعلومات مبتورة وسوف نرمز للعبارات الناقصة بالنقط ....

(٢) " ا د ب و / ح ر " او شواطئ حورس هي كناية عن " مصر " في نصوص العصر المتأخر ، وكلمة شواطئ هنا تعني شاطئ النيل (Gauthier 1975 , I , p. 127)

(٣) نتيجة لضياع العبارات في نهاية السطر الأول وبداية السطر الثاني لم يتم الحديث عن ثورة المصريين ويبدأ موضوع جديد هو الغاء الملك للضرائب التي تدفعها المعابد .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
(س٢٨) وعن مملكته فقد عاقبهم جميعا عندما حضر احتفال تنصيبه ملكا	الالهة انعمت عليه بالسيادة عليهم في منف خلال حفل تنصيبه مركزه السامي الذي ورثه عن والده فقد ذبحهم علي الوتد (٤)	
ولقد الغي ايضا (س٢٩) ضرائب التاج المأخوذة من المعابد حتي السنة الثامنة والتي تعد كميات صغيرة	(س١٧) لقد الغي الضرائب المستحقة للفرعون (ح س ص) التي فرضت علي المعابد حتي السنة التاسعة والتي تبلغ كميات كبيرة	ق. .... (س٢)،ن ن / ح م . ف /ر/ ت. ....لقد الغاها جلالته

(٤) كلمة " وتد " بالديموطيقية هي " ب ا خ ت " وربما هو ما يعرف " بالخازوق " فقد كان المصريون في العصر الفرعوني يعدمون بهذه الطريقة من يرتكب اشنع جريمة عندهم وهي سرقة المقابر ، ويبدو ان الملك البطلمي اعتبر الثورعليه جريمة مساوية لجريمة سرقة المقابر فاطلق عليهم " الكفار " واعدمهم بنفس الطريقة .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	من الفضة والحبوب	من الحبوب والمال
ق. ت ا/م ي ن ت / ا ر و / م / د ر ت. وكذلك الكتان ق. ب ج / ... / ر د ي ت /ر/ ت. البديع الذي يقدم الي ق. پ ر- ن س و / و ن /خ ر/ ج س ت. القصر الملكي من ق. و - پ ر و / ح ن ع / ش ث ا ت. المعابد بالاضافة الي ق. م ن ي / ت ر ت. البقية المفروضة علي النسيج	وكذلك تنازل عن قيمة الكتان الملكي الذي فرض علي المعابد لبيت مال الفرعون (ح س ص) وكذلك ماتبقي في ذمتها وكان يجب ان تدفعه حتي وقتنا هذا	وكذلك الغرامات المفروضة لعدم التسديد للتاج من قماش الكتان الملكي byssos (س٣٠)وكذلك الرسوم المستحقة مقابل ماأجري من تحقيقات بسبب التأخير عن التوريد خلال نفس المدة

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	وامر كذلك بالغاء ضريبة ارادب(٥) القمح التي كانت تجبي علي كل اورورا (٦) من الاراضي الخاصة بضيعة المعبد (س١٨) وايضا ضرائب النبيذ عن كل اورورا من أرض الكروم الخاصة بضياع المعبد	وقد اعفي المعابد ايضا من ضريبة الاردب (٥) المستقة علي كل اورورا(٦) من اراضي المعابد وايضا اردب من ضريبة مزارع الكروم (س٣١) بواقع جرة نبيذ عن كل اورورا
ق. (ن)/س ن/ن ف ر ي/ت ر... ت. لهم حتي...	ولقد قدم احسانات كثيرة	وبلنسبة لابيس Apis ومنيفس

(٥) الكلمة في النص اليوناني هي artaba اي " اردب " وفي النص الديموطيقي " ردب " وهي قريبة من الكلمة الحالية " اردب ".

(٦) الارورا : مقياس مساحة يوناني معادل ٣/٢ فدان ، وقد وردت الكلمة في النص الديموطيقي " أ ر ل ي "

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ...(س٣) ع و ي /ن ث ر/ن ب/	للعجل ابيس	(العجول
ت. ...الحيوانات المقدسة كلها	والعجل منيفس	االمقدسة) فقد
ق. خ و / م / هـ ا و / ر / ا ر .س ن	(٧) والحيوانات	منحها هبات
ت. زيادة علي ما عمل لها	الأخري المقدسة في	كثيرة وكذلك
ق. / ا ن / ت پ ي و - ع	مصر أكثر مما	الحيوانات
ت. بواسطة الاسلاف	عمله سابقوه	الأخري المقدسة
		في مصر اكثر
		مما منحه الملوك
		الذين سبقوه
ق. ا ب .ف / ع ق / ح ر / س خ ر و	وكان قلبه في كل	
ت. وقلبه راض عن شئونهم	وقت مهتما	
ق. . س ن /م/ ا ت/ ن ب / ر د ي ت	بأحوالها وقدم كل	
ت. في كل وقت لقد اعطي	ما يلزم لدفنها	
ق. ن . ف/ خ ت / ن ب	بسخاء واحترام	
ت. كل شئ	(س١٩) واحضر	
ق. چ ع ر.س ن /ر/ ع ب/ ج ت.س ن	ماتحتاج اليه	
ت. (لقد) رغبوا (ان تكون) دفناتهم	معابدها في	

(٧) العجل ابيس كانت منف هي مقر عبادته بينماالعجل منڤيس Mnevis (والكلمة محورة من الكلمة المصرية " من - ور ")كانت هليوبوليس هي مقر عبادته .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق· و ر . ت و / ج س ر .	الأعياد الكبيرة	(س٣٢) مع
ت· عظيمة ومقدسة	حيث تقدم أمامها	استمرار تقدير
ق· .ت و / ا ث . ن . ف / س خ ن /	القرابين المحروقة	ما يناسب كل
ت· لقد استوعب ما حدث	وسائر ماهو لازم	اله فقد صرف
ق· م . س ن / ا و(٨)	لها ، أما التكريم	بسخاء وفخامة
ت· لهم في	اللازم للمعابد	علي ما يتطلب
ق· ح و ت و - ن ث ر [س ن]	والتكريم الآخر	دفنها وما كان
ت· معابدهم	بمصر فانه جعلها	يقدم لمعابدها
	تبقي كما هي علي	من اضاحي وما
	حسب القانون .	كان يجري من
	ومنح ذهبا وفضة	احتفالات وكل
		الشعائر الآخري
		المتبعة
		(س٣٣) وابقي
		امجاد المعابد
		وامجاد مصر
		حسب القوانين
		وزخرف معبد

(٨) دون كاتب النص (المصري القديم) حرف الواو خطأ بدلا من حرف الميم فالمفروض انها " إم" بمعني " في " .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
ابيس Apieion	وغلالا كثيرة	ق. (س٤)... ح ج / و ا ح ي / و ر و
بالزخارف الثمينة	واشياء أخري لمعبد	ت. .. فضة وحبوب كثيرة
وامده بالذهب	ابيس واكمل هذا	ق. / ح ن ع / خ ت / ن ب / م ي /
والفضة (س٣٤)	الاجراء الجديد بما	ت. مع كل شئ بكثرتهم
والاحجار الكريمة	جعله عملا غاية	ق. ع ش (ا) . س ن / ر / ح و ت /
بكميات ليست	في الجمال	ت. (حرفيا مثل كثرتهم) الي المعبد
بالقليلة واسس	(س٢٠) وامر	ق. س خ ن / ن ت ي / ح ب / ع ن ج
معابد ومقاصير	بإقامة معابد	ت. المقر (الخاص) بابيس الحي(٩)

(٩) " ابيس الحي " (ح پ / ع ن خ) هو العجل الذي كان يعتبر التجسد الدنيوي للاله بتاح اله معبد منف حيث يجري الاحتفال بعيد تنصيب بطلميوس الخامس فرعونا وهو العيد المعروف عند المصريين القدماء " بعيد سد " كما ذكرنا ويختلف " ابيس الحي " " اي ابيس الدنيوي عن ابيس الأخروي الذي كان يسمي " اوزير - ابيس " (بالهيروغليفية " " اوسر - حب " ويطلق علي العجل بعد موته وتقديسه في العالم الآخر وهو الاله الذي حرف اليونان اسمه الي " سيرابيس " ولكنهم عبدوه في شكل آدمي . ورغم تمجيد البطالمة لهذه الالهة الحيوانية تقربا منهم للمصريين فان كتّاب اليونان كانوا يسخرون من هذه العبادات الحيوانية ، والحقيقة ان المصريين في عصور مجدهم في عصر الفراعنة العظام لم يكونوا يعبدون الحيونات بالطريقة المتبذلة التي عبدوها بها في عصورهم المتأخرة عندما نزلت بهم ضربات الاحتلال الاجنبي ابتداء من الغزو الاشوري ، فالفارسي فاليوناني فقد تسببت هذه الضربات في اهتزاز ثقتهم بانفسهم وداخلهم الخوف والقلق فالتجأوا للقوي السحرية يلتمسون فيها الامن والامان واعتقدوا ان هذه القوي السحرية تتجسد في الحيوات من عجول وقطط وغيرها ولذلك عبدوها لذاتها بينما في عصور مجدهم كانوا يعتبرون هذه الحيوانات تجسيدا لصفات الاله الأكبر وهو الاله رع الذي كان احتفال عيد سد يجري تحت حمايته وليس تحت حماية العجل ابيس .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق· س خ ك ر/ا ن/ح م.ف/م/ ك ا ت ت· وتجميله بواسطة جلالته بعمل (زخرف) ق· م ن خ ت / ن / م ا / ن ف ر . و ي ت· بديع جديد وجميل جدا ق· س ش س/ م ا ع / س خ ع ت· وجعل يظهر فيه ق· . ن . ف/ ح ب / ع ن خ ت· ابيس الحي ق· ر.س / ع س ق(١٠) / ن . ف ت· واكمل له ق· ح و ت و - ن ث ر / ج م و ت ت· المعابد والمقاصير ق· خ ا و / م / م ا ... ت· والمذابح من جديد ..	ومقاصير وموائد قرابين (مذابح) من جديد للآلهة وامر بإقامة أخري كما كانت عليه من قبل (اي	ومذابح كما رمم ما يحتاج منها لترميم وجعله في حالة حسنة ايضا وذلك بروح اله محسن في الشئون الخاصة

(١٠) اخطأ الكاتب المصري القديم في كتابته حرف السين بدلا من الراء (في وسط الكلمة) فالكلمة يجب ان تكون " ع ر ق " بمعني أكمل او استكمل وليس " ع س ق "

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	ترميمها) في حين جعل قلبه نحو الآلهة بمثابة اله محسن وسأل عن أمجاد المعابد لكي تجدد في زمن حكمه كفرعون (ح س ص) علي حسب ما يليق بها .	بالدين (س٣٥) وقد حقق أكثر الشئون تكريما للمعابد وجددها خلال مدة حكمه كما يليق (بها)
ق.. (س٥)ا س و ي/ن ن /د ي ت/ن ف ت. وفي مقابل ذلك اعطته ق. ن ت ر و / ن ث ر و ت / ق ن و ت. الآلهة والآلهات النصر ق. ن خ ت / ع ن خ / و ج ا/س ن ب ت. والقوة والحياة والرخاء والصحة	وكمكافأة علي ذلك فإن الالهة منحته الشجاعة والنصر والقوة والعافية	وفي مقابل ذلك منحته الآلهة الصحة والنصر والقوة
ق. / ح ن ع / خ ت / ن ب / ن ف ر ت. مع كل شئ بديع ق. ر - ا و .س ن / إ و/ ت. في امتدادهم وان	وكل الاشياء الأخري (س٢١) الطيبة وان يبقي سلطانه ثابتا له	و(كل) الاشياء الطيبة الاخري (س٣٦)وثبتت ملكه له

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ا يا ت(١١).ف /و ر ت/ ج د.ت و ت. وظيـفـتـه العظيـمـة تدعـمت ق. خ ر.ن /ح ن ع /خ ر د و.ف/ج ت ت. معه ومع اولاده (اطفاله)الي الابد	ولاولاده الـــي الأبد	ولاولاده الـــي الابد .
ق. ح ن ع /س ح ن/ن ف ر/ ع ق . س ت. مع حظ حسن دخلت (حرفيا دخل) ق. / م / ا ب / ن / و ع ب و / ن و ت. الي قلب الكهنـة الخـــاصين ق. ا ت ر ت ي / ش م ع / م ح و ت. بمعابد مصر العليا والسفلي ق. م ي (١٢) ع ش (أ). س ن.... ت. بدرجـــة كـــبـــيـــرة.....	ومع الحظ السعيد لقد حلت في قلب كـهنة كل المعـابد في مصر	ومـع الحـظ الحـسن قـرر كـهنة جـميع المعابد في كل ارجاء البلاد

(١١) بعض الكلمات الهيروغليفية تأتي فيها الألف المفتوحة (أ) بعد الألف المكسورة (إ) مباشرة وعلي هذا يجب ان تقرأ " إأت" ولكن علماء المصريات اصطلحوا علي نطق الألف المفتوحة ياء تسهيلا لنطق الكلمة فتنطق " إيات " ويبدو ان المصريين القدماء كانوا ييسرون نطق الالف سواء المفتوحة اوا لمكسورة بتحويلها الي ياء في النطق ، بدليل ان كلمة والد او أب التي تكتب في الهيروغليفية " إت " تنطق " ي و ت " في اللغة القبطية (I OT) والمعروف ان اللغة القبطية هي المرحلة الأخيرة من اللغة المصرية القديمة .

(١٢) المفروض قراءة هذه الكلمة " م إ " اي الف مكسورة كما هو المتبع في استخدام الحروف اللاتينية ولكن تسهيلا لنطق الكلمة استخدمنا حرف الياء بدلا من الالف المكسورة وعلي ذلك تنطق الكلمة " م ي " .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	الامجاد الخاصة	زيادة التكريم
	بالفرعون (ح س	الحالي (س٣٧)
	ص) بطلميوس	للعائش ابديا
	العائش ابديا الاله	الملك بطلميوس
	الظاهر الذي	محبوب بتاح
	طيباته كاملة في	الاله ابيفانس
	المعابد (س٢٢)	ابوخارستوس
	وتلك الاعمال	وتكريم اجداده
	التي عملهما	الالهة (س٣٨)
	الالهان اللذان	ايوارجتاي
	يحبان والدهما	
	وهما اللذان انجباه	
	والتي عملها	
	الالهان المحسنان .	
	اللذان انجبا مَنْ	
ق. (س٦)....[س خ] پ [ر] . س ن	انجبه و اللذان	وتكريم
ت. لقد انجبهم	ينتميان للالهين	الالهين "
ق. ح ن ع / ن ث ر و /	الاخوين اللذان	ادلفوي"
ت. مع الالهين	انجبا هؤلاء الذين	وتكريم
	انجبوهم وهؤلاء	
	اللذان ينتميان الي	

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ن ج ر (١٣) / ج ن ف و / ن/	الالـــــهـــــين	الالـــــهـــين
ت. المـنـقــــــــذيـن وكـل	المنقذين(١٣)	سـوترس (١٣)
ق. ت و ت . س ن / م ت و / . ت و		
ت. الاجـــــــــــداد		
ق. س ع ح ع / خ ن ت ي / ن /	اباء آبائه فلتتزايد	واقــامــة تمـثـال
ت. ولاقـــــامــــــة تمثــــــال	(تلك الأعـمـال)	للعـائش ابديا
ق. ن س و / ب ي (١٤) ت ي/	التي عــمـلهـــا	الملك بطلميوس
ت. لملك مـصـر العليـا والسـفلي	اسـلافـه الملوك	ابيفانس (١٥)
ق. (ب ت و ل م ي س) /	ويجب ان يقـــام	
ت. بـطـلـمــــيــــــوس	تمثال للفرعون (ح	
ق. ع ن خ / ج ت / م ر ي	س ص)	
ت. عـــاش للابد مـــحــــبـــوب	بطلميوس العائش	
ق. پ ت ح / ن ث ر / ب ر(١٥)	ابديا الاله الظاهر	
ت. بـتــــــاح الالـه الـظـاهـر	(١٥)	

(١٣) سبق توضيح الترجمة الديموطيقية لالقاب ملوك وملكات البطالمة ، ومنها لقب سوترس الذي ترجم في الديموطيقية الي نترو / ن ح م بينما ترجم اللقب هنا في النص الهيروغليفي الي " ن ث ر و / ن ج ر و " والترجمتان مترادفتان وتعنيان الالهين المنقذين " او " الحاميين" .

(١٤) الياء الأولي في هذه الكلمة اصلها الف مكسورة .

(١٥) في النص الهيروغليفي يرد لقب " ن ث ر / ب ر " هنا لاول مرة وهو نفس التعبير المستخدم في النص الديموطيقي بمعني الاله المشرق او الظاهر (ايبفانس في اليونانية)

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ن ب / ن ف ر و / ك ا - ت و /	الذي طيباته	يوخارستوس
ت. سيد الطيبات الذي سيكون	كاملة (س١٣)	كما في كل
ق. ر ن . ف (ب ت و ل م ي س)	التي تجعله يسمي	معبد في ابرز
ت. اسمه بطلميوس	بطلميوس	مكان فيه
ق. ن ج /ب ا ق ت (١٦)/وح ع .ف	حامي مصر بمعني	(س٣٩) وان
ت. حامي مصر ومعناه	بطلميوس الذي	يطلق عليه
ق. پ و (ب ت و ل م ي س)	يدافع عن مصر	(التمثال)
ت. بطلميوس		بطلميوس
ق. ن [خ ت / ك م ت ..		حامي مصر
ت. الذي يحمي مصر ...		
	(ويقام تمثاله)	ويقام بجانبه
	الي جانب تمثال اله	تمثال للاله
	المدينة يقدم سيف	الرئيسي للمعبد
	النصر (١٧) له	وفي يده
		السلاح الذي

(١٦) " ب ا ق ت " اسم متأخر لمصر ورد في نصوص العصر البطلمي ،، Gauthier (1975 , II , p. 6) وتنفس الكلمة معناها " عين الاله المقدسة " وربما جاء اطلاقها علي مصر نتيجة لهذا التشبيه .

(١٧) هو السيف المعقوف المسمي في اللغة المصرية " خ پ ش " وفي الرسوم الفرعونية تظهر الاله أمون (أو غيره) يسلم هذا السيف للملك ليذبح به اعداءه .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	في المعبد (١٨) وفي كل معبد (آخر) في ابرز مكان علي حسب الطراز المصري	يؤدي للنصر (١٧) الذي يجب ان يصنع علي الطراز (المصري)
ق. (س ٧) ... م / ر و - پ ر / ن ب ت. وفي كل المعابد ق. ح ر / ر ن . ف / ش م س ت. المذكورة يخدم ق. خ ن ت ي/ ا ب ن / س ب / ٣ ت. التماثيل هذه ثلاث ق. م - خ ر (ن) / هـ ر و / ت. في اليوم	وعلي الكهنة ان يؤدوا للتماثيل ثلاث صلوات يوميا	(س٤٠) وعلي الكهنة ان يقوموا امامها باداء الخدمة الدينية لهذه التماثيل ثلاث مات يوميا

(١٨) المقصود معبد الاله بتاح في منف حيث تم الاحتفال بذكري تنصيب الملك البطلمي فرعونا وكان طقس تسليم الاله السيف للفرعون من أهم طقوس الاحتفال بذكري هذا التنصيب الذي عرف في مصر " بعيد سد " او العيد الثلاثيني ، كما جاء في النص اليوناني .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق- ح ن ع / ا ر / ا ر د ي ت /	في المعبد (منف)	وان يضعوا
ت- وتقدم	وفي كل معبد	امامها ادوات
ق- د ب ح و / م - ب ا ح . س ن /	(س٢٤) وعليهم	العبادة وان
ت- ادوات عبادة امامهم	ان يضعوا امامهم	يؤدوا الشعائر
ق- ا ر ت . س ن / ت ب-ر د/ ن ب	(التماثيل)	المعتادة التي
ت- ويعملون (الكهنة) كل التنظيمات	الادوات المقدسة	تؤدي للآلهة
ق- ت و ت / ن - ك ا . س ن /	وان يؤدوا لها	الأخري في كل
ت- لتماثيل ارواحهم(١٩)	باقي الأشياء	ارجاء البلاد
ق- م ي / ا ر / ن / ن ت ر و /	(الطقوس) كما	
ت- مثلما يعملون للآلهة	يجب ، مثل تلك	
ق- س ب ا ت و / م / ح ب و	التي يعملونها	
ت- المحلية (٢٠) في الاحتفالات	للآلهة الأخري في	
ق- ت ب / ت ر و /	الأعياد والمواكب	
ت- طبقا للتقاويم	في الأيام المذكورة	

(١٩) المقصود تماثيل الملك البطلمي في كل معابد مصر فقد كان اجتماع الكهنة في منف يضم مندوبين عن كهنة كل معابد مصر وكان التمثال في العقيدة المصرية القديمة يعتبر ملجأ أو مستقرا لروح الشخص الذي يمثله ولذلك يسمي " بتمثال الروح (الكا)

(٢٠) كان لكل مقاطعة من مقاطعات مصر اله محلي خاص بها الي جانب الاله الأكبر وهو هنا الاله بتاح اله مدينة منف حيث اجري الاحتفال بذكري تنصيب الملك البطلمي فرعونا .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق· ح ن ع /هـــــــ ر و / ن / خ ع ت· وفـــي ايـــام المـــواكـــب ق· ح ن ع / ا ي / هـــــــ ر و / م ت· وفـــي الايـــام ق· ر ن . ف / م ت و . ت و / ت· المذكـــورة وعليـــهم ق· م س / س خ م / ن / ن س و / ت· تشكيل تمثال لملك الوجهين القبلي ق· ب ي ت ي/ب ت و(ل) [م ي س] ... ت· والبـــحـــري بطلمـــيـــوس ...	وعليـــهم ان يعرضوا التمثال المقدس للفرعون (ح س ص) بطلميـــوس الاله الظاهر الذي طيباته كاملة ابن بطلميوس والملكة (ح س ص) ارسنـــوي (٢١) الالهين المحبين لابيهما .	(س٤١) وان يقام للملك بطلميوس الاله ابيفانس ايوخاريستوس المنحدر من الملك بطلميوس والملكة ارسنوي الالهين فيلوبانورز
ق· (س٨) .... ش ب س / م / ت· (مقصورة) فخمة من ق· ج ع م / م ح / م / ع ا ت / ن ب / ت· السام (٢٣) مطعمة بكل حجر كريم	(س ٢٥ (التمثال) في مقصورة ذهبية في المعبد وفي كل	تمثال (٢٢) ومقصورة ذهبية في كل (س٤٢)المعابد

(٢١) كتب اسم ارسنوي في النص الديموطيقي داخل خرطوش غير كامل بالصيغة (ار س ي ن ا)

(٢٢) كانت هذه التماثيل تصنع من الخشب وتطلي بالذهب وكذلك المقاصير .

(٢٣) السام (ج ع م) هو مخلوط من الذهب والفضة المسمي في اللغات الاجنبية Electrum

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ن / م ا ع / م / ر و - پ ر/ن ب ت. في جميع المعابد ق. ح ر / ر ن . ف / ح ت ب / م / ت. التي باسمه تستقر في ق. ب و / ج س ر / ح ن ع /ك ا ر و ت. الهيكل مع مقاصير ق. ن و / ن ث ر و /س ب ا ت ي و ت. الالهة المحلية	معبد يجب ان يوضع في قدس الاقداس مع المقاصير الأخري المصنوعة من الذهب (٢٤)	علي ان يوضع في محاريب المعابد مع مقاصير (الالهة الاخري .
ق. ا ر / ا ر ف / خ پ ر / ح ب و / ت. عندما تجري الاحتفالات ق. و ر و / ب ر / ن ث ر / م / ت. العظيمة التي يخرج فيها الاله من ق. ق ب ح . ف / ش پ س ت. معبده الجليل	عندما تقام الاعياد الهامة التي تظهر فيها الآلهة يجب ان تظهر فيها مقصورة الاله الظاهر ذو الطيبات الكاملة	واثناء الاعياد الكبري التي تسير فيها مواكب مقاصير (الالهة) (٢٤) وعليهم (الكهنة) ان يحملوا ايضا مقصورة الاله ابيفاتس ايوخارستوس

(٢٤)هذه التماثيل للالهة الأخري كانت تصنع ايضا من الخشب المطلي بالذهب ليسهل حملها في المواكب.

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
(س٤٣) ولكي	ولاجل أن تعـرف	ق. ر- س ا / ب ر . ف / ا م . س ن
يسـهل تميـزها	المقـصورة اليـوم	ت. وخـارج بيتـه (المعـبد) بينهم
الان والي الابـد	وفي المسـتـقـبل	ق. م ت و . ت و / س خ ع /ك ا ر /
(٢٥) يجب ان	(٢٥) يـجـب أن	ت. انهم يجـعلون اشـراق المقـصـورة
يركّب فـوقـهـا	يوضع عليـهـا	ق. ش ب س /ن/ ن ث ر/پ ر/ ن ب
عـشرة تيـجان	عـشرة تيجان من	ت. الجليلة للاله الظاهر سـيـد
ذهبيـة للملك	الذهب يثبت علي	ق. ن ف ر و / ح ن ع .س ن / ر /
يعلوها صل	كل منهـا صل	ت. الطيـبـات مـعـهم لكي
(٢٦) لكل تاج	(٢٦) كـمـا هو	ق. ر د ي ت / س ي ا / ت و /
مـثل كل	متبع (س٢٦)	ت. يجـعلوا مـعـرفـة
التيجان	عادة في التيجان	ق. ك ا ر .ت ن / م/هـ ر و/ [پ ن]
	الذهبية	ت. المقـصـورة هذه من هذا اليـوم
		ق. ر /] ح ن ت ي ...
		ت. لـلابـد ...
	فوق هذه المقصورة	ق. ....(س ٩) س ح ن] / ن ب /
	في مكان الصلال	ت. ..... كـل تـاج

(٢٥) اي لكي تميز المقصورة التي بها تمثال الملك عن المقاصير التي بها تماثيل الالهة الأخري اثناء سير المواكب في كل عيد

(٢٦) الصل هو ثعبان الكوبرا المقدس الذي كان تمثاله الخشبي يثبت في مقدمة تيجان الفراعنة وكان المصريون يعتقدون ان الصل ينفث السم في وجوه اعدائهم .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ح ر - ت ب / ك ا ر / ث ن / ت. كل [تاج] فوق المقصورة هذه ق. م - ا س و .ن /و ر ت ت /و ن ت. في مكان الصل الذي يكون ق. ح ر - ت ب / ك ا ر و / ا و / ت. فوق المقاصير (الأخري) ق. س خ م ت ي (٢٧)/ ت. والتاج المزدوج ق. م - ح ر- ا ب / ا ر و / ت. في وسطهم	التي فوق بقية المقاصير وان يكون التاج المزدوج (س خ م ت ي) (٢٧) في وسط التيجان الأخري	(س٤٤) التي تحليها الصلال فوق المقاصير الأخري وان يكون في وسطها التاج المسمي "پ س خ ن ت " (٢٧)
ق. ج ر - ن ت ي / پ س د / ت. لان قد ظهر ق. ح م . ن / ا م . ف / ت. جلالته فيه	لان الفرعون (ح س ص) يتجلي ظهوره فيها	الذي لبسه الملك عندما
ق. م / ح و ت - ك ا - ب ت ح ت. في معبد روح بتاح (٢٨)	في معبد منف عندما تؤدي له	دخل المعبد في منف لكي

(٢٧) كلمة " س خ م ت ي " الواردة في النصين الهيروغليفي والديموطيقي معناها الحرفي " القوتان " وتطلق علي التاج المزدوج الذي يتكون من تاج الوجه القبلي (الابيض) وتاج الوجه البحري (الاحمر) ، ولكن النص الاغريقي اختصر الكلمة الي Pskhent

(٢٨) سبقت الاشارة الي ان هذا هو اسم معبد منف الذي كان الاله بتاح معبوده الرئيسي وان هذا الاسم هو الاصل في كلمة ايجبتوس اليونانية .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. م / خ ت / ا ر . ن . ف	الطقوس المعتادة	(س٤٥) يؤدي
ت. عندما اجري له	التي تجري عند	ماهو معتاد
ق. ا ر / ن ب / ن / پ س - ن س و	تقلده الوظيفة	لتنصيبه ملكا
ت. كل طقس لاجل المقام الملكي	السامية	(حرفيا لتقلد
ق. ر / ح و ت - ن ت ر / خ ف ت /		الملكية)
ت. في المعبد عندما		
ق. ش س ب/ن.ف/ا ي ات. ف(٢٩)		
ت. تقلد(تسلم) وظيفته		
ق. و ر ت		
ت. العظيمة		
ق. م ت و .ت و /ر د ي ت /م /ج س	وعليهم (الكهنة	وسوف يوضع
ت. وكان عليهم ان يضعوا في الجزء	) ان يثبتوا فوق	فوق المربع
ق. ح ر ي / ن / خ ب ت (٣٠)	التاج (٣٠) الذي	(٣٠) حول
ت. العلوي من التاج	الي الخارج من	التيجان في

(٢٩) هذه الكلمة استبدلنا الياء بالالف المكسورة لتسهيل نطق الكلمة كما سبقت الاشارة لذلك .

(٣٠) كلمة التاج (ح پ ت) في النص الهيروغليفي تقابلها كلمة " أ ت ف " في النص الديموطيقي وهو نوع من التيجان الفرعونية ، ولكن النص اليوناني استخدم كلمة ΤΕΤΡΑΓΩΝΟΥ (Tetragonos) التي تحمل معني " مربع " ربما لعدم وجود كلمة يونانية تعبر عن الشكل الحقيقي لهذا التاج الذي يتكون من تاج الوجه القبلي وعلي جانبيه ريشتان وفوق قمته قرص الشمس وتستقر قاعدته علي قرنين افقيين .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق- / ن ت ي / م / ر و ت / ح ب و ت- الذي خـــارج (غـيـــر) هذه ق- ا ب ن / م - ع ك ا / [ن]/ ت- الــتـــيـــجـــان ق- س خ م ت ي / [ب] ن.. ت- ان الـتـــــاج المزدوج هـذا ...	التيجان في مقدمة (س٢٧) التــاج الذهبي المذكـــور (الخاص بالملك)	مواجهة التاج المذكور
ق- ... (س ١٠) ذ . . . . . م ح ت- ... الـبـــــــــــردي ق- ق ع ح . س / ا ي ا ب ي / ت- عـــلـــي ركـــنـــه الايمـــن ق- و ح ع . ف / پ و / ن ب ت ي / ت- وهـو يـرمـــــــز لـلـريـتـين ق- س ح ج / ت ا و ي / ت- اللـتين تـنـيــــــران الارضين	(عبارة عن) نبات بردي ونبات لوتس وعليهم ان يثبتوا صلا (٣١) فـوق سلة واسفلها نبات لوتس الي اليـمين فـوق الركن الواقع عند قمة المقصورة الذهبية وعليهم ان يضعوا صلا بسلة اسفلها فوق نبات	الرموز الذهبية للـوجـــهـين (القـــبلي والبـحـري) لـكي (س٤٦) ترمـز الي ارتباطها بالملك الذي يجـعـل الوجهين القبلي والبـحـري

(٣١) المفروض ان تثبت الرخمة رمز الوجه القبلي وليس الصل الذي جاء في النص انه ثبت مع نبات البردي رمز الوجه البحري وقد سبق القول انه في العصر المتأخر استخدم الصل عوضا عن الرخمة في الرسوم التي تشير الي الوجه القبلي .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
	البردي الي اليسار لترمز الي الفرعون (ح س ص) الذي يضئ مصر العليا والسفلي	يتجليان
ق. ج ر - ن ت ي / و ن / ا ب د-٤ ت. منذ الشـــــهـــــر الرابع ق. ش م و / ع ر ك ي ت. من فصل الصيف(٣٢) اليوم الاخير ق. هـــ ر و / م س(٣٣) . ن ث ر / ت. وهو يوم مـــيــــلاد الاله	ولما كـان اليـوم الاخير من الشهر الرابع من فـصل الصـيف (٣٢) الذي يحتفلون فيه (س٢٨) بعـيد مـيلاد (٣٣) الفـرعـون (ح س ص)	ولما كـان اليـوم الثـلاثون من شـهـر مـسري (٣٢) هو اليوم الذي يحـتـفل فيه بعيد ميلاد (٣٣) الملك

(٣٢) الشـــهر الرابـــع من فصـل الصـيف هو شهـــر مـسـري كما جـاء في النـص اليونانـــي MEΣOPHE

(٣٣) هذه الكلمة هي التي اعتمد عليها شمبليون في قراءة خرطوش رمسيس الثاني كما سبق القول بعد ان تعرف علي قراءة العلامة  الهيروغليفية علي حجر رشيد والتي استخلص معناها من الكلمة اليونانية المقابلة لها وهي ΓΕΝΕΘΛΙΑ (Genethlia) والتي استفاد من اللغة القبطية في معرفة قراءتها Micl وكلها تعني مولد او ميلاد .

ترجمة النص اليوناني	ترجمة النص الديموطيقي	قراءة وترجمة النص الهيروغليفي
	وقد ثبت كعيد	ق. ن ف ر / ع ن خ / چ ت /
	واحتفال تجري	ت. الطيب له الحياة الي الابد
	الاحتفال به دائما	ق. چ د . ت ا / م / ح ب / خ ع / م
	في المعابد	ت. الذي ثبت في عيد يشرق في
		ق. / ا د ب و / ح ر
		ت. شواطئ حورس(١/٣٣)
كذلك لما كان	كذلك كان الحال	ق. خ ر - ح ا ت / م ي ت ت / ا ر و
اليوم	في اليوم السابع	ت. وفعلا بالمثل
....(٣٤) هو	عشر من الشهر	ق. ن / ا ب د . ٢ / ا خ ت / س و
اليوم الذي	الثاني من فصل	ت. الشهر الثاني من فصل الفيضان(٤)
(س٤٧) ورث	الشتاء (٣٤) وهو	ق. ١٧ / ار . ن ف /
فيه	الذي كان يقام	ت. اليوم السابع عشر عندما اجري له

(١/٣٣) سبق ان ذكرنا ان " ا د ب ٢/ ح ر " اي " شواطئ حورس " اسم متأخر لمصر .

(٣٤) يظهر التناقض في تاريخ تتويج الملك بين النصين الهيروغليفي والديموطيقي بينما اختفي التاريخ من النص اليوناني بسبب كسر الحجر فالنص الهيروغليفي يحدد شهر بابه كذكري لهذا التتويج (الشهر الثاني من فصل الفيضان) بينما يحدد النص الديموطيقي شهر امشير لذلك(الشهر الثاني من فصل الشتاء) ولو ان هذا التاريخ الاخير (شهر امشير) اقرب الي الحقيقة لانه الشهر الذي اجتمع فيه الكهنة للاحتفال بهذه الذكري كما جاء في السطر الأول من النص الديموطيقي ، والسطر السادس من النص اليوناني الا ان العلماء فضلواشهر بابه اعتمادا علي وروده في نسخة نقراطيس (Quirke 1988 , p. 24)

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ا ر و / ن و / خ ع - س ن و ت. الطقس الخاص بالظهور الملكي ق. م / س ش پ . ن . ف / ت. عندما تسلم ق. ن س ي ت (٣٥) / م - ع ت. الملكية من ق. ا ت . ف ت. والده	فيه الاحتفال له بتسليم الوظيفة السامية (٣٥)	الملكية (٣٥) عن والده
ق. ا س / ا ر ف / م / خ ت / ت. انظر ان بداية كل الاشياء ق. ا خ و [و ر و]..... ت. الطيبة العظيمة.....	وكان فعلا بداية بداية المنافع	فانهما (اليومين) يكرمان بتسميتهما

(٣٥) في هذه الفقرة المشتركة بين كل من النص الهيروغليفي ولنص الديموطيقي والنص اليوناني يتضح مغزي عبارة " الوظيفة السامية " التي وردت في السطور السابقة من النص الهيروغليفي " إ ي ا ت . ف / و ر ت " (سطر ٩) وترددت في النص الديموطيقي " ت ا / إ ي ا ت . ف / ح ر ي " وهو نفس المعني (الوظيفة السامية) ولكن النص الهيروغليفي افصح عنها في الموضع المشار اليه (س ١٠) بانها " ن س ي ت " ومعناها" الملكية " وبذلك اتفق المعني في النص الهيروغليفي مع معناها في النص اليوناني حيث وردت الاشارة الي هذه الوظيفة في سياق النص بالصيغة ΒΑΣΙΛΕΙΑΝ اي الملكية (البطلمية) التي ورثها ابيفانس عن والده فيلوباتور او بعبارة أخري عيد تتويجه ملكا .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
		(كاعياد) في
		المعابد وهما
		بحق مناسبتان
		لبركات عظيمة
		للجميع
ق· ...(س ١١) م ن خ ت / ا و	التي تعم علي كل	فسوف يحتفل
ت· ..... والجليل	الناس اي يوم	بهما كأعياد
ق· م ي / ا ر . ت و / هـ ر و و /	ميلاد الفرعون (ح	ومواكب في
ت· الذي جعل من الايام	س ص) عاش	المعابد في كل
ق· ا ب ن / س و / ١٧ / ع ر ق ي	ابديا ويوم تسلمه	ارجاء مصر
ت· هذه اليوم السابع عشر واليوم الاخير	الوظيفة السامية -	(س٤٨) كل
ق· ا ب د / ن ب / م / ح ب / م	وهذان اليومان	شهر
ت· من كل شهر اعيادا في	بهما يوم ١٧ ويوم	
ق· ج س و - ب ر و / ن و	٣٠ (من كل شهر	
ت· المعابد الخاصة	) يجب أن يحتفل	
ق· ب ا ق ت (٣٦)/ ا و/آو / س ن	بها كعيدين في	
ت· بمصر كلها (علي امتدادها)	كل معابد مصر	
	(٣٦)	

(٣٦) سبقت الاشارة الي استخدام كلمة " باقت" في العصر المتأخر كإسم لمصر ولكن من الغريب ان الكلمة لم تستخدم في النص الديموطيقي المقابل له بل استخدمت الكلمة الشائعة " ك م ت "

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق- م ت و . ت و / و ا ح / ت- فـمـسـتـقـدم ق- ع خ / س ج ر / و د ن و ت- القرابين المحروقة والسوائل(المقدسة) ق- ح ن ع / ا ر / خ ت / ن ب ت- مع عمل كل شئ ق- ت و ت / ن / ا ر/ م / ت- يناسب عمله في ق- ح ب و / م / ح ب / ا پ ن ت- الاعياد في هذه الاعياد ق- ت پ /أ ب د / ن ب ت- (في) اول كل شهر	ويقدموا فيها (الكهنة)القرابين المحروقة والسائلة والاشياء الاخري المعتاد عملها في الاعياد الأخري في هذين العيدين كل شهر	وان تقدم فيها الاضاحي وقرابين السوائل وكل الاشياء المعتادة كما هو الحال في الاعياد الأخري
ق- خ ت / ن ب / ا ر . ت و / م ت- وكل شئ يقدم في ق- ح ب و / ا پ ن / س ش م ت- الاعياد هذه (يجب ان) يخصص ق- ا و / س / ن ب / ا ر / ت- لكل رجل يقوم	وما يقدم من قرابين يجب ان يخصص للناس الذين يخدمون في المعابد (٣٧)	وان تعطي القرابين التي تم تقديمها لهؤلاء الذين قاموا باداء

(٣٧) هذه اشارة الي النظام المتبع في تقديم القرابين للمعابد وهو ان هذه القرابين بعد اداء طقوس تقديمها علي موائد القرابين لالهة المعبد كانت تعاد للكهنة كأجر علي اداتهم هذه الطقوس.

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. و ن و ت . س ن /م / ح و ت –	ويجب ان يحتفلوا	الطقوس عليها
ت. بالخدمة في المعبد(٣٧)	بعيد وموكب في	(٣٧)(س٤٩)
ق. ن ث ر / [م] ت و . [ت و...	المعابد في مصر	في المعابد
ت. (والخدمة) تماثيل...	قاطبة للفرعون	ويجب ان يقام
ق... (س ١٢)([ب ت]و ل م ي س	(ح س ص)	عيد وموكب
ت... بطلميوس	بطلميوس العائش	للملك العائش
ق. ع ن خ / ج ت [م ر] ي /	ابديا الاله الظاهر	ابديا محبوب
ت. عاش ابديا محبوب	الذي طيباته كاملة	بتاح بطلميوس
ق. ب ت ح / ن ث ر / ب ر / ن ب	كل عام	الاله ابيفانس
ت. بتاح الاله الظاهر سيد		ايوخارستوس
ق. ن ف ر و / ت پ / ر ن پ ت		كل عام في
ت. الطيبات في بداية السنة		المعابد في كل
		ارجاء البلاد
ش ا ع / م / ت پ ي /	في اليوم الأول من	(س٥٠) من
ابتداء من الشهر الاول	الشهر الأول من	اليوم الاول
آ خ ت / س و /	فصل الفيضان	لشهر توت
من فصل الفيضان (٣٨) اليوم	(٣٨) لمدة خمسة	(٣٨) لمدة

(٣٨) هذا هو اليوم الأول من السنة المصرية ، وقد عبر عنه في النصين الهيروغليفي والديموطيقي بالطريقة المصرية الشائعة وهي نسبة الشهر الي ترتيبه في الفصل (الشهر الأول من فصل الفيضان اول فصول السنة المصرية) بينما ذكر الشهر باسمه في النص اليوناني وهو شهر توت وقد كتب بهذا الشكل ΘΩΥΘ (Thouth)=

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. واع / ن ف ر ي ت / ر / هـ ر و /	أيام يلبسون	خمسة أيام
ت. الأول لمدة ايام	خلالها الاكاليل	وخلالها يرتدون
ق. د ي و / م ح / ر/ ج ا ج ا . س ن	ويقدمون القرابين	الاكاليل
ت. خمسة والاكاليل فوق رؤوسهم	المحروقة والسائلة	ويقدمون
ق. س ح ب / خ ا و ي /	والاشياء الأخري	الاضاحي
ت. محتفلين في مذابح المعابد	اللائقة	وقرابين
ق. س ق ر / د ن و / ح ن ع /		السوائل وكل
ت. مقدمين قرابين السوائل مع		الاشياء
ق. خ ت / ن ب / ت و ت /		المناسبة
ت. كل شئ مناسب		
ق. ن / ا ر ت ي /		
ت. عمله		
و ع ب و / ن و /ج س و - ب ر و	ان الكهنة الذين	وسوف يطلق
ان كهنة المعابد	في معابد مصر	علي الكهنة
م/ر و-ب ر/ن ب/ح ر/رن.ف	وفي كل معبد	في كل معبد
من كل معبد من (المعابد) المذكورة		

= ويبدو ان الكهنة المصريين فضلوا الطريقة المصرية القديمة في كتابة الشهور غم ان اسما ءها الواردة في النص اليوناني (توت) بابه (سطر ٢٨) مسري (س ٤٦) كانت قد انتشرت قبل العصر البطلمي ، وقد استحدث الكهنة عيدا خاصا للملك بطلميوس الخامس يبدأ باول ايام السنة ويستمر لمدة خمسة أيام .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ك ا . ت و . س ن /	يجب ان يطلق	كهنة الاله
ت. يجب ان يطلق عليهم	عليهم كهنة الاله	ابيفانس
ق. ح م / ن ث ر / ب ر /	الظاهر الذي	ايوخارستوس
ت. خدمة (حرفيا: خادم) الاله الظاهر	طيباته كاملة	(٣٩)بالاضافة
ق. ن ب / ن ف ر و / م - هـ ر و /	بالاضافة الي	الي الاسماء
ت. سيد الطيبات بالاضافة الي	الالقاب الكهنوتية	الأخري للالهة
ق. ا ي ا و ت / و ع ب و . ن . س ن /	الأخري ويجب ان	الذين يؤدون
ت. وظائفهم الكهنوتية	يكتب هذا اللقب	لهم الخدمة
ق. ا م ي / س / پ ح ر/	في الوثائق	الدينية ويجب
ت. ويجب ان تسجل (تكتب)	الرسمية من اي	ان يسجل في
ق. ...(س ١٣) ا ي ا ت /و ع ب/ ن/	نوع ويجب ان	الوثائق
ت... وظيفة كاهن	تسجل وظيفة	الرسمية
ق. ن ث ر / پ ر / ن ب / ن ف ر و /	كاهن الاله الظاهر	
ت. الاله الظاهر سيد الطيبات(٣٩)	الذي طيباته كاملة (٣٩)	

(٣٩) ترجمنا لقب Eucharestos اليوناني عدة ترجمات طبقا لمعناه في النص الهيروغليفي " نب - نفرو" بمعني " سيد الطيبات ، والنص الديموطيقي " الذي طيباته كاملة " (ت ا ي . ف / م ح - ن ف ر)

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ح ر/خ ت م /ا ر ي(كشط في الحجر) ت. علي الاختام الخاصة(بهم) ق. ج ر ت . س ن / ت. وعلي اصابعهم	بان تحفر علي اختامهم	(س٥٢) وينقش (اللقب) علي الأختام التي تحملها كهنته (كهنة الملك)
ق. ا س / ا ر ف / س و / ت. وايضا بالنسبة لهؤلاء ق. ع و ي / و ن ن ي و / ن ت ي / ت. الذين لديهم تكون ق. ا ي ا ب / س ع ح / م ي ت ت / ت. الرغبة في اقامة نظير ق. ك ا ر / ت ن / ن / ن ت ر / ت. للمقصورة هذه الخاصة بالاله ق. ب ر / ن ب / ن ف ر و / ت. الظاهر سيد الطيبات ق. ر / ر د ي ت / و ن ن . س ت. ويضعونها ق. م / ب ر . س ن / ت. في منازلهم	وينبغي السماح كذلك للافراد العاديين لمن اراد منهم ان يظهر صورة المقصورة الذهبية للاله الظاهر الذي طيباته كاملة فيجعلونها توضع في منازلهم	ويسمح للافراد العاديين بالاحتفال بالعيد واقامة المقاصير المذكورة سابقا (الخاصة بعبادة بطلميوس) وان يحتفظوا بها في منازلهم

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. م ت و . س ن / ا ر / ت. ويقـــومـــون بعـــمـل ق. ح ب و / ح ع و / ا ب ن / ت. الاعـــيـــاد وهـذه المواكب	وان يقيموا الاعياد والمواكب المذكورة	وان يــــؤدوا الطقـــوس المعتـــادة في الأعياد
ق. ت پ / ا پ د / ت پ / ر ن پ ن / ت. في بداية الشـــهــر وبداية السنة ق. ر / ر د ي ت / س ي ا . ت و / ت. لـيكن مـــعـلومـــا ق. و ن ن / ا م ي و / ت. لـهـــؤلاء الـذيـن فـي ق. ت ا - م ر ت / ح ر / مـــصـــر (٤٠)	في كل سنة وبذلك يكون مـعلومـا لهـؤلاء الذين في (س٣٢) مصر	كـل شـهـر (س٥٣) وكل سنة لكي يكون معلومـا (للجـمـيع) مـدي تـبجـيل وتـكـريم هـؤلاء الذين في مصر
......(س١٤) ج س ر / .... ويـــخـــلـــدوا	ان يمجـــدوا الالـه الـظـاهـر الـذي	للاله ابيفانس ابوخارستوس

(٤٠) هذا اسم آخر لمصر وهو " ت ا - م ر ت " اي الأرض الطيبة ومازالت هذه الكلمة باقية في الريف المصري في كلمة " دميرة " وتطلق علي الأرض الخصبة بعد تغطيتها بطمي الفيضان وتهيئتها للزراعة .

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. س خ ا و ي / پ ن / ح ر / ع ح ع ي /	طيباته كاملة كما	الملك طبقا
ت. المرسوم هذا علي لوحة	هو متبع عمله انهم	للقانون
ق. ن ت ي / ع ا ت / ر و ج / م / س خ	(الكهنة) يجب	(ولقد تقرر)
ت. من الحجر الصلب بخط	ان يكتبوا هذا	نقش هذا
ق. ن / م د و – ن ث ر /	المرسوم علي لوحة	المرسوم علي
ت. كلمات الاله (٤١)	من الحجر الصلب	لوحة (س٥٤)
ق. س خ / ن / ش ع ي /	بخط كلمات	من الحجر الصلب
ت. وبخط الوثائق(الديموطيقي)	الاله(٤٢) وبخط	بالحروف المقدسة
ق. س خ ا ي / ن / ح ا و / ن ب و(٤٤)	الوثائق(٤٣)	(الهيروغليفية)
ت. وبخط اليونانيين	وبخط الايونيين	والوطنية
ق. ر د ي ت / ع ح ع . ف / م /	(او اليونانيين)	(الديموطيقية)
ت. وان تقام (اللوحة) في	(٤٤) وان تقام	واليونانية (٤٤)
		وان تقام في كل

(٤١) هذه التسمية للكتابة الهيروغليفية " س خ / ن / م د و – ن ث ر " في النص الهيروغليفي و" س خ / م د – ن ث ر " في النص الديموطيقي ومعناها " خط كلام الاله " هي الاصل في التسمية اليونانية Hieroglyphs " اي النقش المقدس "

(٤٣) هذه التسمية وهي في النص الديموطيقي س خ – ش ع ت " اي بخط الوثائق هي تسمية الخط الديموطيقي (في النص الهيروغليفي تختلف قليلا حيث كتبت " س خ / ن / ش ع ي ") بينما كتبت الكلمة المقابلة في النص اليوناني egchorios ΕΓΧΩΡΙΟΙΣ بمعني (الخط) الوطني "

(٤٤) كلمة ح ا و – ن ب و "كانت تطلق في النصوص الهيروغليفية عامة علي سكان جزر البحر المتوسط وقد خصصت هنا كاسم للايونيين او لليونانيين كما تدل علي ذلك =

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. ج س و - ب ر و /م / ر و - ب ر و	(اللوحــة) في	معبد من معابد
ت. في الهــيــاكل في المعــابد	مــعــابد الدرجــة	الــدرجـــــات
ق. ن ب / ح ر / ر ن . ف /	الاولي والدرجـــة	الأولي والثانية
ت. كـلـهـــا المذكـــــورة	الثـانيـة والدرجـة	والثالثة (٤٥)
ق. م / م ح - و ا ع / م ح - س ن و /	الثــالثـــة (٤٥)	بجـوار تمثـال
ت. من الدرجـة الاولي والدرجـة الثـانيـة	بجـوار التـمـثـال	الملك عـــاش
ق. م ح - خ م ت (٤٥) / ر - ج س /	المقدس للفرعـون	ابــديـــا
ت. والدجـــة الثـــالثـــة بجـــوار	(ح س ص)	
	عاش ابديا	

=كتابتها في النص الديموطيقي وهي كلمة س خ / و ي ن ن ، فمن الواضح ان كلمة و ي ن نٌ" قريبة من كلمة " ايوني" او " يوناني" اما في النــص اليونانـــي فقد كتبــت الكلمــة المقابلــة ΕΛΛΗΝΙΚΟΙΣ اي هلليني .

(٤٥) لم يذكر الباحثون المتخصصون في الآثار اليونانية الرومانية أساس تقسيم المعابد المصرية الي ثلاث درجات (ابراهيم نصحي ١٩٦٠ ، ج٢ ، ص ٣٨ ، ٤١) و في اتصال شفوي بالاستاذ الدكتور لطفي عبد الوهاب استاذ الحضارة اليونانية الرومانية بآداب الاسكندرية افادني بان كبار المتخصصين في التاريخ البطلمي من العلماء الاجانب ايضا مثل Otto , Bevan لم يتوصلوا الي اساس هذا التقسيم ولكنه يرجع ان هذا الاساس (في رايه) هو حق حماية المعبد اللاجئين فالمعابد التي تعتبر مساحتها كلها ملجأ لهؤلاء اللاجئين هي معابد الدرجة الأولي والمعابد التي لا يسمح بالالتجاء اليها الا في منتصف مساحة الحرم الخاص بها هي معابد الدرجة الثانية والمعابد التي ليس من حقها السماح بالالتجاء اليها هي معابد الدرجة الثالثة ، غير انني اري من جانبي ان اساس هذا التقسيم هو موقع المعبد وبالتالي حجمه واهميته ، فالمعابد التي في المدن الكبري والتي لا شك انها أكبر المعابد واكثر المعابد اهمية هي معابد الدرجة الأولي والمعابد التي في المدن =

قراءة وترجمة النص الهيروغليفي	ترجمة النص الديموطيقي	ترجمة النص اليوناني
ق. خ ن ت ي / ن/ن س و/ب ي ت ي ت. تمثال ملك الوجهين القبلي والبحري ق. (ب ت ل م ي س ت. بطلميوس ق. ع ن خ / چ ت / م ر ي(٤٦) ت. عاش ابديا محبوب ق. پ ت ح) / ن ت ر / ب ر ت. بتاح الاله الظاهر ق. ن ب / ن ف ر و / ت. سيد الطيبات		

= الأصغر حجما (التي يمكن أن تعادل المراكز في وقتنا الحاضر) هي معابد الدرجة الثانية والمعابد التي في القري وهي لا شك اصغر المعابد هي معابد الدرجة الثالثة وفي رأيي ان النص علي معابد الدرجات الاولي والثانية والثالثة هدفه التأكيد علي ان اقامة تماثيل الملك واللوحات المسجل عليها المرسوم قد شملت معابد المدن والمراكز والقري اي جميع معابد مصر .

(٤٦) اضيف نعت " عاش ابديا محبوب بتاح " داخل خرطوش بطلميوس (شكل ٤) (وكذلك في سطر ١٢) وقد ساعد ذلك شمبليون علي قراءة العلامة الصوتية " م ر " وتوصل الي ان الهيروغليفية تضم علامات صوتية مقطعية كما ذكرنا سابقا .

المصادر والمراجع

استخدمنا في كتابة عناوين هذه المراجع النظام الحديث المتبع في المؤلفات الاوروبية والامريكية باسم Harvard References System وذلك لتميزه علي النظام التقليدي السائد في المؤلفات العربية بمرونته وعدم اهدار وقت وجهد القارئ في تقليب الصفحات من آن لآخر للتعرف علي المراجع .

المراجع العربية :

- ابراهيم نصحي ١٩٦٠ : د. ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، جـ ١ ، جـ ٢ ، الطبعة الثانية
- سليم حسن ١٩٥٩ : سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ ١٥ ، القاهرة .
- سليم حسن ١٩٦٠ : سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ ١٦ ، القاهرة
- عبد الحليم نور الدين ١٩٩٨ : د/ عبد الحليم نور الدين ، اللغة المصرية القديمة ، الطبعة الثانية ، القاهرة .
- عبد العزيز صالح ١٩٦٢ " د. عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الاول ، القاهرة .
- هارتلبن ١٩٩١ : هارتليبن ، هـ ، شمبليون في مصر ، الرسائل والمذكرات ، ترجمة عماد عدلي ومراجعة د/ طاهر عبد الحليم ، القاهرة .

(٢) المراجع الاجنبيـــة

- Andrews 1987 : Andrews , Carol , the Rosetta Stone , London

- Budge 1929 : Budge , E.A. Wallis , The Rosetta Stone . London .

- Davies 1987 : Davies , W.V., Egyptian Hieroglyphs , London .

-Encyclopaedia 1999 : Encyclopaedia of the Archaeology of Ancient Egypt , ed. Kathryn A. Bard , London .

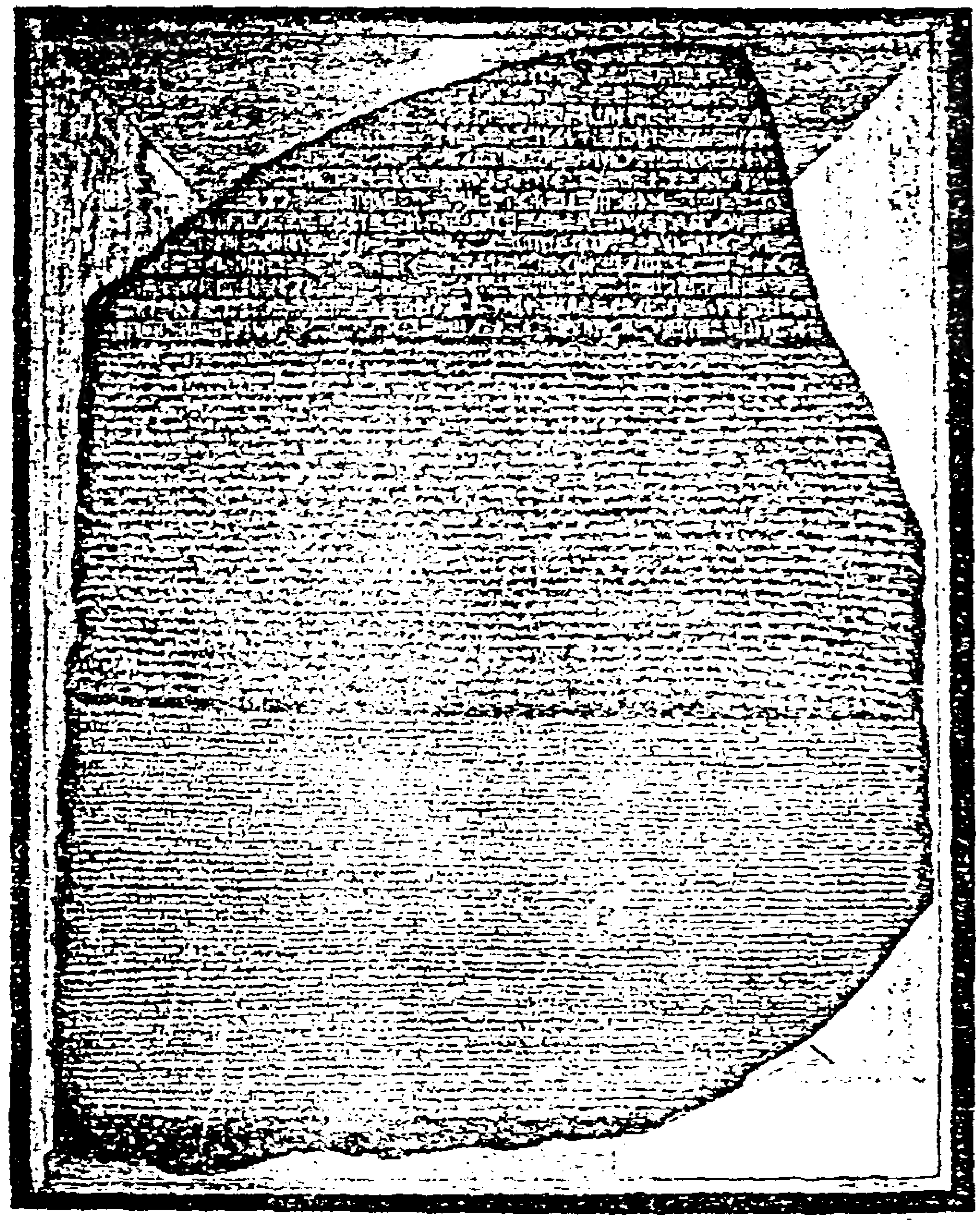
- Faulkner 1972 : Faulkner , Raymond , O.; A concise dictionary of Middle Egyptian , Oxford .

-Gauthier 1975 : Gauthier , H., Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les textes hieroglyphique Onsbruck .

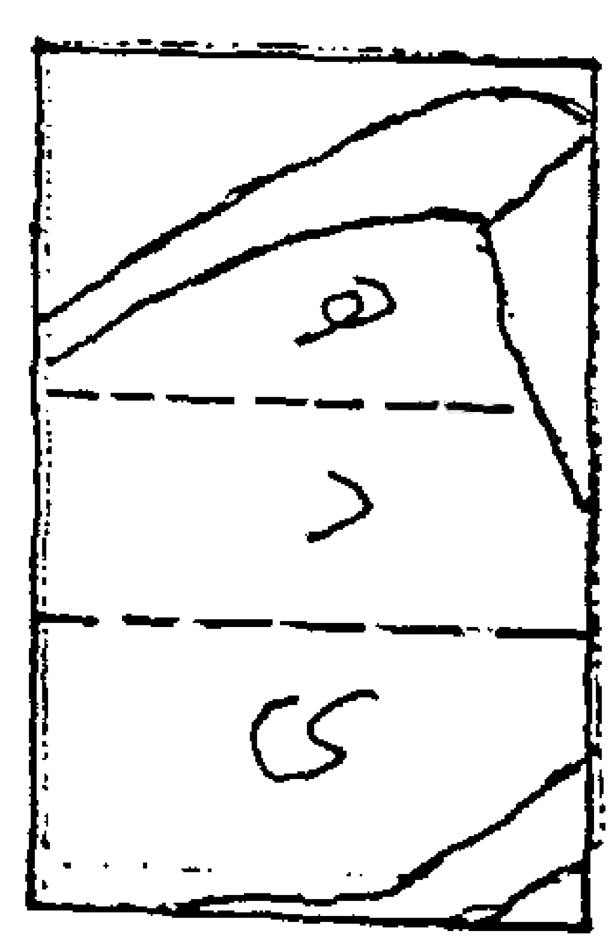
- Gordon 1971 : Gordon , Cyrus.H., Forgotten Scripts , The story of their decipherment, Harmondsworth.

- Quirke 1988 : Quirke , Stepher & Carol Andrews; The Rosetta stone , London.

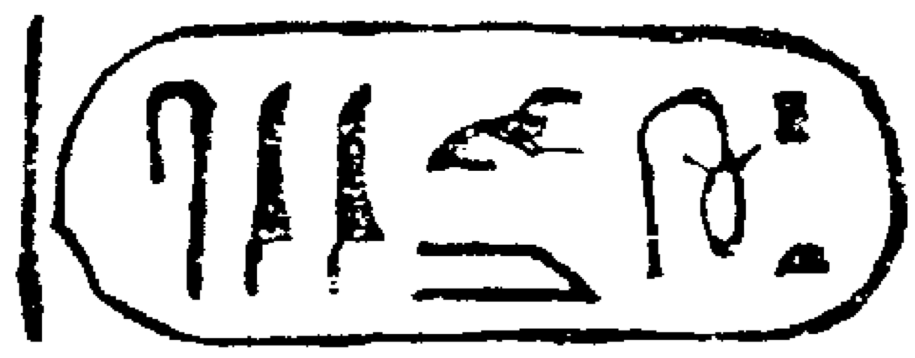
- Vycichl 1983 : Vycichl , Werner; Dictionnaire Etymologique de la langue Copte , Leuven.



(شكل ١) حجر رشيد بنصوصه الثلاثة الهيروغليفي (العلوي) والديموطيقي (الاوسط) واليوناني (الاسفل)

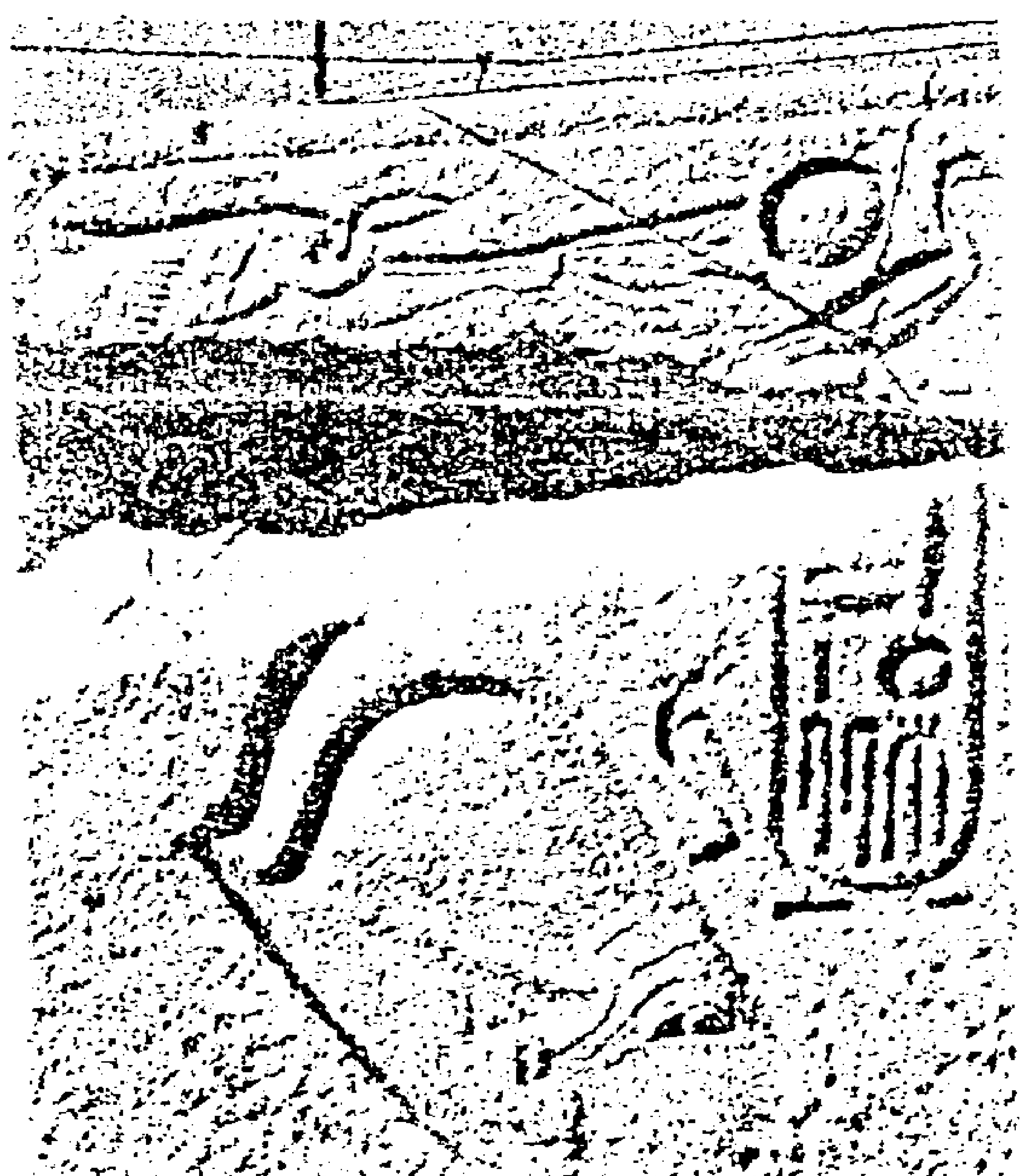


(شكل ٢) الحجم الاصلي لحجر رشيد (المستطيل) قبل كسر الحجر . وقد وضح داخله الحجم الحالي للحجر ، وقد ضاع من النص الهيروغليفي (هـ) جزء كبير من ثلاث جهات وضاع من النص الديموطيقي (د) جزء صغير في الركن الايمن العلوي للنص ولذلك يعتبر اكمل النصوص الثلاثة بينما ضاع من النص اليوناني (ي) جزء في ركنه الايمن السفلي

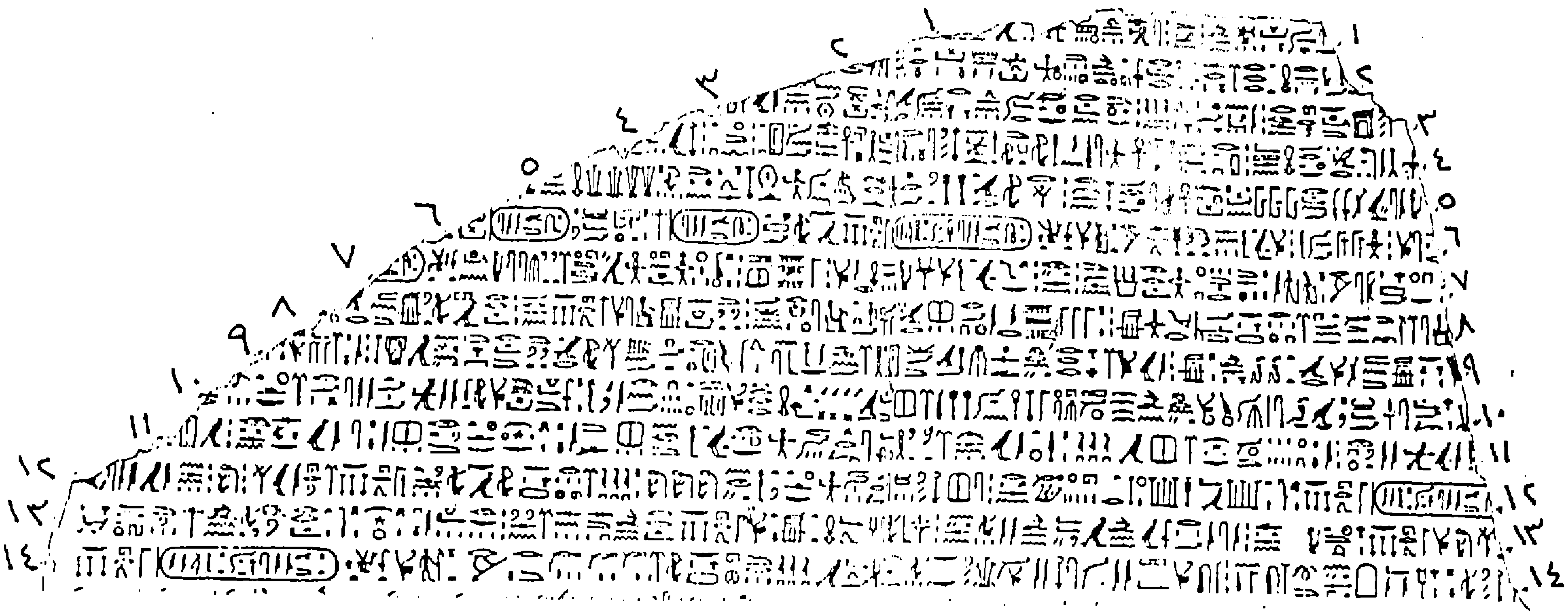




(شكل ٣ وشكل ٤) الاسم " بطلميوس " علي حجر رشيد داخل خرطوشين (بنفس الشكل والحجم كما هما علي الحجر) في صيغتين احداهما الصيغة المختصرة (شكل ٣) اي الاسم فقط والثانية (شكل ٤) نفس الصيغة ولكنها متبوعة بوصف " عاش ابديا " (ع ن خ / چت) محبوب بتاح (م ر ي / ب ت ح) وقد تمكن شمبليون من قراءة هذه الاوصاف واستخلص منها بالمقارنة باللغة القبطية ان الكتابة الهيروغليفية تحتوي علي علامات صوتية مقطعية (علامة " م ر ")



(شكل ٥) اسم الملك رمسيس الثاني المحفور علي واجهة معبد ابي سمبل الذي استخدمه شمبليون في قراءة علامتي " رع" و " م س " بالمقارنة بما يقابل معاني هذه العلامات في النص اليوناني وما يقابل نطقها في اللغة القبطية



(شكل ٦) تفصيل النص الهيروغليفي علي حجر رشيد (راجع قراءة النص سطرا سطرا في الصفحات من ٥١-٨٤)

البارثينـون

د. محمود إبراهيم السعدني[*]

تقديم تمهيدى :

كان لليونان القديم ، فيما قبل الميلاد ، حضارة زاهرة ، تــأرجحت – ككــل مناطق التحضر القديمة فى العالم القديم – ما بين القوة والضعف ... وكــان علــى قمة السبق وحجم الإنجاز ونوعية العطاء الحضارى اليونانى القديــم ، مــا قدمتــه جزيرة كريت المينوية[١] ، ثم ما شهدته أراضى ومراكــز الســيادة الميكينيــة[٢] ، وبخاصة فى البلوبونيز ، حتى عام ١١٥٠ – ١١٠٠ ق. م ، حينما أبتليت اليونــان بالغزو الدورى الرهيب ، مخلفاً وراءه دماراً كثيراً ، وسكوناً طويلاً ، وحذراً شــديداً وقلقاً شاملاً من أهالى البلاد الأصليين تجاه العنصر الوافد إليه الجديــد ، المنتصــر بقوة معدن الحديد[٣] ، حتى أضطر علماء التاريخ والآثار تسمية الفترة الواقعة مــن ١١٠٠ – ٩٠٠ ق. م بالعصور المظلمة (Dark Ages)[٤] .

ومع ذلك ، جاءت المفاجأة الحضارية اليونانية الكلاســيكية بتــدرج ملحــوظ وبطيء على المستوى المادى ، ولكن ، وعلى النقيض تمامــاً ، بقفـزات تحضــر عملاقة على المستوى الفكرى والثقافى الإنسانى . وكان نظام المدينــة – الدولــة (Pólis - Krátos) كياناً أمثل لنمو خصائص التميز السياسية للفرد اليونانى القديــم ، بالرغم مما كان فى ذلك من أنانية وفرض الخصوصية الذاتية للمواطنيــن ، داخــل أطر محلية ، على حساب الروح القومية اليونانية ، كأمة (Éthnos) ، وهى التــى لم تظهر ككيان له قيمته العظمى ، إلا فى حروب اليونان مع الفرس فــى جولتيــن اثنتين عامى ٤٩٠ ، ٤٨٠ / ٤٧٩ ق. م... وكانت أثينا خلالهما ، هى رائد ة العمــل العام والكفاح المسلح ضد العدو المشترك لكل اليونانيين جميعــاً ، علــى اختــلاف أقاليمهم وانتماءاتهم الحزبية ، وظل هيرودوت يحلم بكيان يونانى واحد ويردد آراء،

(*) كلية الآداب – جامعة حلوان .

لم تخرج عن كونها طموحات مثقف ، رآها هو - بحسه القومى ، واجبة النفاذ والتطبيق ، ولكن هيهات لهذه الروح المنتصرة أن تدوم بسبب الخلافات الأيدلوجية والتوجهات السياسية المختلفة والمتناقضة ، تناقضا جادا ، بين قطبى تلك السياسة فى أثينا وإسبرطة ، وهى التى أفرزت - فى نهاية القرن نفسه (القرن الخامس ق.م) - تلك الحرب الضروس بينهما ، المعروفة باسم الحروب البلوبونيزية (٤٢٧ - ٤٠٤ ق. م) ، فأنهكت قواهما ودمرت اقتصادهما ، وخربت خزائنهما ، وفتحت الباب أمام السيادة المقدونية على كل اليونان تقريبا ، بعد ذلك بحوالى خمسين عاما أخرى ، وكأن فرحة الانتصار المروع على الفرس ، وسيادة العنصر الآثينى ، وزعامة أثينا على كل العالم اليونانى ، لم تدم لأكثر من (٥٠) عاما فقط ... ومع ذلك ، فقد كانت فترة إنجاز غير مسبوق فى تاريخ الأمم والشعوب القديمة : سياسيا ، وعلميا ، وفنيا (أدبا وفنا) . إننا أمام الفترة الزمنية المشهورة فى التاريخ الآثينى باسم « العصر الذهبى » ، وبخاصة الانطلاقة الأولى ، التى ظلت فى أذهان اليونان جميعا ، عبر العصور اللاحقة تذكارا خالدا ، يقسمون به ويحلفون الأيمان المغلظة برموزه ، مثل قولهم :« mà tò ierò brakhá ! » أى « أقسم بالصخرة المقدسة » كناية عن الأكروبوليس والبارثينون ، وكل تاريخ تلك البقعة الزاهرة ، سياسيا ، ودينيا ، وفنيا (وكفاحا وطنيا ضد الغزاة) ... فما السر إذن ، لكل تلك الروح المتفاخرة بالماضى المجيد ، وكيف كان حال البارثينون فى ذاك العصر ؟ وما هى مظاهر العظمة والجمال فى بناء ذاك المعبد العظيم ؟

هذه هى محاور بحثنا الذى بين أيدينا لعلنا نوفق ، فى الرد على أسئلتها ، بمنطق سليم ، ويقين علمى .

البارثينون ، أو معبد الربة أثينا (Athena) ، فوق أكروبوليس مدينة أثينا (Athenai) ، كان فى العصر الذهبى الكلاسيكى ، كعبة لليونان جميعها ، ورمزا للقوة الآثينية ، ورخائها ، وإيمانها .

وبالحق أوجزت العالمة أليســون بــيرفورد (A. Burford) هــذا المعنــى الضارى لذاك البناء المعمارى ، فقالت :

« The Parthenon's function was twofold. If served both as an architectural master-piece dominating the Athenian Acropolis, and as a shelter for the cult-statue of Athena Parthenos, a monument to Athenian power, prosperity, and piety »(٥).

وهكذا يمكننا أن نفهم الوظيفة الثنائية الهدف للبارثينون – كما أدركها البعـض – على أنها هى :

أولاً بناء معمارى متميز فى عصره .

ثانياً : مأوى آمن لتمثال الإلهة المعبودة ، والربة الحاميــة للمدينــة ، وهــى «أثينا العذراء» (Athená Parthénos) .

ولكن البارثينون ، (فى نهاية المطاف ، للأثينيين علــى وجــه الخصــوص ولصاحب فكرة المشروع ، القائد السياسى البارع بيريكليس " Periklés ") لم يكــن مجرد بناء فريد جميل ، على البقعة المقدسة فى تاريخهم الطويــل ، الأكروبوليــس وبتكلفة عالية فى زمانه(٦) ، وبتسجيل فنى رائع لأساطيره وحياته وآلهته ، بل كــان **رمزاً لحضارة وسجلاً لانتصار شعب قوى وعنيد ، ولإيمان أمة بآلهتها ، وبقوتــها الذاتية ، ولاعتزازها بقادتها وزعمائها** . ولكن ماذا يقول اليونانيون أنفسهم ، اليــوم عن هذا الأثر الهام والقابع فوق أعلى ربوة طبيعية فى وسط أثينا القديمة ؟ إنهم يقولـون مايلى ، كتقييم معاصر لأثر قديم :

« Τὸ τελειότερο δημιούργημα τῆς ἑλληνικῆς ἀρχιτεκτονικῆς εἶναι ἀναμφισβήτητα ὁ Παρθενών, ὁ ναός τῆς Ἀθηνᾶς Παρθένου, πού οἰκοδομήθηκε ἀπό τὸ 447 ὡς τὸ 432 π. Χ. ἐπάνω στήν ἀθηναϊκή Ἀκρόπολη. Μνημεῖο θρησκευτικό ἀλλά συνάμα με....... (7) γαλειώδης ἔκφραση της πολιτικῆς ἀκμῆς τῆς Ἀθήνας,...., ὁρατή παρουσία τοῦ κλασσικοῦ πνεύματος ».

بمعنى (بترجمة حرفية) :

بمعنى (بترجمة حرفية) : « إن البارثينون هو ، بلا جدال ، أكمل بناء للعمارة اليونانية ، وهو معبد الربة أثينا العذراء ، الذى تم بناؤه منذ عام ٤٤٧ وحتى ٤٣٢ ق. م ، فوق الأكربوليس الآثيني ، إنه هو بناء ذو وظيفة دينية ، ولكنه، في الوقت نفسه ، تعبير فخم عن أثينا في قمتها السياسية ، بناء يرتفع فوق التل المقدس ، كوجود محسوس للروح الكلاسيكية .. » .

ولعل أوضح رد فعل آثيني معاصر من الرأى العام ، لمجرد انتشار بعض الإشاعات حول مخاطر إنهيار الصخرة المقدسة وما عليها من آثار ، جاء في تقرير ، أو بمعنى صحفى أدق تحقيق ، مطول بقلم السيد د. باناپوتوبولو ، في العدد الأسبوعى للجريدة الرسمية اليمينية « كاثيميرنى » (Kathemeriré) ، ليومى الأحد والاثنين ١٤ - ١٥ أغسطس عام ١٩٨٣ ، مؤكداً للكافة في مانشيت كبير : « آثار تل الأكروبوليس لا تتعرض لأى خطر مباشر » ، وكانت معظم الجرائد اليومية الآثينية قد كتبت ، في تلك الأيام عن مخاطر جمة يتعرض لها التل المقدس وبخاصة من ارتفاع منسوب المياه الجوفية ، فوق الأكروبوليس ، وكذلك بسبب نشاط الأمطار وكثافتها . ويسجل هذا الصحفى الحس القومى اليونانى ، والاثينى بوجه خاص ، تجاه « التل المقدس : Hieró Brákho) ، لأنهم يدركون إدراكا عظيما أن مصيرهم مرتبط إرتباطا شديدا بمصير مدينتهم ، وكيف أن كبار السن منهم يعرفون تماما فضل الأكروبوليس وآثاره في ألا تمتحن مدينتهم بقصف جوى عنيف - كما حدث لمدن أوروبية أخرى - إبان الحرب العالمية الثانية ، ولهذا كله، ودون الدخول في تفاصيل نوعية الأخطار ، تقرر تشكيل لجنة من رئيس هيئة الآثار آنذاك ، البروفيسور يورغوس ميلوناس (G. Mylonás)، على رأسها ، وعضوية آخرين من هيئة البحوث الجيوفيزيقية وكذلك الأرصاد ، فضلا عن المدير العام لمتحف وآثار الأوكربوليس السيد يورغوس ذونتاس (G. Dontas) لمزيد من الاطمئنان واليقين ، مع لجان الترميم الخاصة بالموقع ، على أن تعرض أعمالها وتعرضها خلال أسبوعين على الناس . وكان القائمون على هذا الأمر قد حددوا

حوالى (٢٢) موقعاً تحتاج إلى تدخل سريع ومباشر فى أجـزاء التـل المختلفـة ، وبخاصة فى اتجاه الشمال والجنوب منه (انظر شكل /١) .

وهكذا ، فنحن أمام (فى رأى اليونانيين المحدثين (٧/أ) ، علمـاء التـاريخ والآثار ، وهم بذلك لا يختلفون عن بقية الأجانب الأوربيين فى تقديرهم لقيمة هـذا الأثر) شهادة متعددة الوجوه ، تجمع على أن البارثينون ، معبد الربة أثينـا (منـذ منتصف القرن الخامس ق. م تقريباً) هو :

١ – بناء دينى الوظيفة (θρησκευτικόν)

٢ – وهو أكمل بناء معمارياً (τὸ τελειότερον)

٣ – وقمة فى التطور السياسى (τῆς πολιτικῆς ἀκμῆς)

ولكنه ، فى الختام ، هـو تجسـيد حـى (ὁρατή παρουσία) لـروح العصر الكلاسيكى الأثينى آنذاك .

ولهذه الأسباب جميعاً أفردنا هذا البحث لعلنا نوضح جوانـب عديـدة لـهذا الموضوع ، ولعلنا نجحنا فى ترتيبنا لأولوية جزئيات تلك الدراسة ، فـى تسلسـل تأريخى لتطور الأحداث على مسرح العمليات فى إقليم أتيكى القديم : حيـث بدأنـا بالأسطورة ، وعشنا مع تفاصيل خيالية خلدتها ذاكرة السنين لأولئك الأقوام فى أثينـا القديمة عبر مئات السنين ، قبل بناء البارثينون نفسه . ثم مررنا على عبادة الربـة أثينا نفسها ، فى الموقع نفسه ، متطرقين ، من وقـت لآخـر ، لتطـور الأحـداث التاريخية فى تلك الفترة الهامة من تاريخ مدينة أثينا كزعيمة للعالم الهيللينى آنـذاك ، وأخيراً ، انتهينا إلى إبراز الجوانب الفنية ، سواء المعمارية أو النحتية (التشـكيلية) فى البارثينون .

أولاً : بين الأسطورة والآثار :

يتفق معظم المؤرخين ، وعلى رأسهم العلامة أرنولدتوينبى (A. Toynbee) بأن البداية الحقيقية للعنصر اليونانى الهيللينى الخالص ، تؤرخ بالقرن الحادى عشـر

ق. م ، أى مع مقدم الغزو الدورى فقط وليس قبل ذلك ، ومن هنا نـدرك إصـرار الأساتذة والعلماء اليونان على تلك البداية (وكأنهم لا علاقة لهم بما كان قبل ذلـك من مراحل حضارية زاهرة فى كريت أو فى الجزر أو حتى داخل البلوبونيز ، إبـان العصر الميكينى حوالى من ١٦٠٠ حتـى ١١٠٠ق. م) ، فيطلقـون علـى تلـك الهجرات الغازية العنيفة - كما ذكرنا من قبـل - المعروفـة باسـم « الدوريين Dorieis » عنوانا ، يجسد فهمهم وإحساسهم ، وانتماءهم المؤكد للعنصر الأوروبـى، هو « بداية تاريخنا » ، « وهو الشيء نفسه الذى يؤكده أرنولد توينبى قائلا :

« The Hellenic Civilization lasted for about seventeen centuries from the eleventh century B. C., to the seventh of the Chrisitan Era»[٨].

ويبدو ، على الأرجح ، أن المشكلة لابد أن تفسر علـى هـذا النحـو مـن الاستنتاج ، وتلك الشهادات القوية من علماء أجلاء ، من ناحية ، وفى ضوء الأدلـة الأثرية والأدبية المتاحة ، حتى الآن ، من ناحية أخرى ، وجميعها تؤكد أن تـراث العصر الكلاسيكى اليونانى ليس له تاريخ مؤكد أبعد من أقدم دليـل لدينـا ، وهـو المادة الأدبية الخالدة لشاعر الخلود / هوميروس ، وأشعار هيسيود من بعـده ، وإن كان هناك بعض مظاهر الاستمرار الحضارى ، مـن العصـر الميكينـى ، طيلـة القرنين الثانى عشر والحادى عشر ق. م ، وخاصة بعض العادات الاجتماعية فـى الملبس وطقوس الدفن[٩] ، وهذا أمر طبيعى .

ويعترف العلامة أنطونـى أنـدروز (A. Andrewes) بـأن الدوريين ، والقادمين الجدد الآخرين ، كان لهم سمتهم الخاص المميـز عـن بقيـة العنـاصر اليونانية ، ولا سيما فى لهجاتهم واحتفالاتهم الدينية المشتركة وكذلك فـى نظامـهم الإدارى والسياسى القبلى الملحوظ[١٠] .

وهنا نتوقف قليلا لتفسير تلـك الأسـطورة القائلـة بعـودة آل هـيراكليس (Heraklidae) وكأنها ليست سوى محالة لتقنين اسـتيلاء الدوريين واغتصابـهم لأراضى اليونان ، من خلال دعوى دينية تحقيقا لمشيئة إلهية : « أن اهبطوا البلـد

الأم ، وألا تمسوا حياة الملك الأثينى كودروس (Kódros) بسوء ، فتحققوا النصر ! » [١١] ، ولكن الأقدار تشاء بأن يقاتل هذا الملك بشرف ويدافع عن أثينا ، محتمياً بالأكروبوليس ، ويموت فى سبيل كرامة وطنه ، ويخرج أبناؤه متزعمين حركة الهجرة إلى الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، ويقيمون المدن الأيونية فيها .

وإذ كان علامة آخر هو فنلى (M. I. Finley) قد قدر العصور المظلمة اليونانية (Skoteinés Aiōnes) : Dark Ages بأربعة قرون ، إلا أنه يقرر بأن ظهور معدن الحديد مع الدوريين هو الذى يؤرخ لبداية ميلاد المجتمع اليونانى [١٢] . وكذلك يرفض ، رفضاً قاطعاً تلك التسمية المضللة لها ، بالعصور المظلمة (فى وجود ملاحم بهذا القدر من السمو اللغوى وحبكة الصياغة ، ووضوح الصورة الإنسانية الراقية للكيان الآدمى) إلا إذا كانت تعنى فقط جهلنا نحن بما كان يجرى آنذاك [١٣] .

وإذا كانت الإليـاذة والأوديسيا ، بوجه عام ، يوجد بهما العديد من المتناقضات الملحوظة (Remarkable Paradoxes) – كما أسماها فنلى [١٤] – إلا أن بهما مادة تاريخية يقينيـة حول المجتمع الذى صورانه وفكر أناسه الذى جاء فيهما . هذا وإن كان تأريخ هاتين الملحمتين الطويلتين (الإليـاذة حوالى(١٦) ألف بيت ، والأوديسيا(١٢) ألف) ., فى نظر البعض ، لا يخرج عن الفترة فيما بين نهاية القرن (٩) ومطلع القرن (٧) ق. م [١٥] . وهاهو أوديسيوس نفسه يعترف – (مخاطباً الشاعر ديمودوكوس) – مما يعنى اعترافاً صريحاً من شاعرنا الأصلى هوميـروس – قائلاً : « ذلك لأنك تنشد بالحق المصير الواقعى للآخيين ، وكأنك أنت نفسك كنت حاضراً أو قد سمعت ذلك من شاعر آخر [١٦] » .

وهكذا نكون أمام عنصرين هامين من مصادر تكوين هذين العملين الخالدين، لهوميروس(؟!) ، وهما :

١ - *الخيال : فيما لم يكن الشاعر معايشاً له ولا يعرف عنه شيئاً .*

٢ - الرواية السماعية : عن آخرين .

ولذلك ، نجد أنفسنا أمام واقع محدود للغاية لدور مدينة أثينا والأكروبوليس ، فيما رواه هوميروس فى الإلياذة والأوديسيا ، ولا يجد المؤرخ نفسه إلا وجهاً لوجه أمام التراث الشعبى الشفاهى وحكايات الفولكلور اللاحقة .

ولقد جاء ذكر أثينا (Athenai) فى الإلياذة ، ضمن أسماء المدن اليونانية الأخرى المشاركة فى الحرب الطروادية ، أى فى كتالوج الحلفاء ، ولكن بطريقة غامضة ، وغير كافية ، وفى إشارات متقطعة الأوصال مع شخصيات أكثر غموضاً ، وأقل شهرة ، فمثلاً :

(أ) ارتبطت الإشارة الأولى بإريختيوس[١٨] (Erechtheus) :

" ὅν ποτ᾽ Ἀθήνη θρέψε Διός θυγάτηρ "

بمعنى : « الذى أرضعته أثينا ، بنت زيوس ، يوماً ».

وهنا نحس إزدياد الغموض غموضاً بتفسير أسطورى آخر ، وكأن الشاعر قد فسر الماء بعد الجهد بالماء !!!

(ب) وجعل هوميروس ثمة علاقة بين أياكس(Aiax) ، البطل الآخر المغوار ، وجزيرته سلاميس وبين الآثينيين[١٩] ، بالرغم من قوة المشاركة الآثينية بأسطول من السفن يتراوح ما بين ٤٠ - ٥٠ سفينة ، ولا يحتاج الأمر إلى تزكية بحرية من سلاميس وبطلها .

(جـ) أما الغموض الأكبر فى الدور الآثينى ، آنذاك (نهايات القرن ١٣ ق. م ، إبان قيام تلك الحرب فى أواخر مراحل الحضارة الميكينية) فقد ظهر فى التناقض الرهيب بين إشارة الإلياذة السابقة بأن إريختيوس هو الذى يقيم فى معبد أثينا :

" Κὰδ δ' ἐν Ἀθήνης εἷσεν, ἑῷ ἐν πίονι νηῷ (٢٠)

بينما أخبرتا الأوديسيا بأن أثينا (الربة) هى التى تقيم فى قصر اريخثيوس :

" .... καὶ εὐρυάγυιαν Ἀθήνην, δῦνε δ' Ἐρεχθῆος πυκινὸν δόμον. " (21)

ولما كنا لسنا بمتخصصين فى الأدب اليونانى القديم ، ولا نملك أدواتـــه الآن ولا يهمنا من الموضوع كله سوى ذلك الغموض والإبهام الواضح لـــدى شـاعرنا هوميروس ، حتى وصل الأمر إلى حد التناقض المعرفـــى (فـى الغـالب ، هنـا السماعى)، حول أثينا الربة ومعبدها ، فوق الأكربوليس ، ومن تستضيف معها مــن آلهة أخرى ، فإننا لن نخوض فى تفاصيل الأساطير المتعلقة بكل تلك الشـخصيات ، الواردة فى الإلياذة والأوديسيا ، ويكفينا قول واحد من أهم الباحثين فى هذا المجــال وهو هوبر (Hopper) ، الذى أكد على تلك الملاحظة بالآتى :

«... Athens receives relatively little attention in the Homeric poems» [٢٢].

ولكن القرون تمر ، وتتشكل الوحدة الثقافية اليونانية نسبياً ، ويزودنا هيســيود فى عمليه العظيمين « الأعمال والأيام » ، والثيوجونيا (أنساب الآلهة) بتفــاصيل كثيرة وحكايات أكثر ترابطاً ، ومنها نعرف أن اتصال الربة أثينا بأخرين لـــم يكــن وقفاً على الملك (؟!) إريخثيوس ، بل تعداه إلى بوســيدون (Poseidon) ، حتــى فوق الأكروبوليس نفسه ، ولكن فى جهة الغرب منه ، حيث كانت تقيم أثنتــان (أو أربعة) من فتيات الأسر الأرستقراطية الآثينية للقيام بطقوس دينية غريبـــة (؟!!) للإلهة أثينا فى عيدها ، ويذكرهن الشــاعر أريســتوفانيس[٢٣] ، كذلــك الجغرافــى المؤرخ بأوسانياس (Pausanias) فى وصفه عن الأكروبوليس[٢٤] ، حيــث تمــت الإشارة إليهن باســم أريفــورى) (Arrephoroi) أو ربمــا (Arretophoroi) ،

بمعنى « حاملات الأشياء السرية » . وكانت أثنتان منهن يقمن بحياكة ثوب تمثـــال الإلهة ، المعروف باسم البيبلوس (Peplos)[٢٥] .

وتجدر الإشارة إلى أن الربة أثينـــا (Ἀθηνά , Ἀθήνη) دخلـــت بقوة فى صراعات (حفاظاً على استقلال إقليمها وسيادة مدينتها أثينا)، ومن بينـــها – كما ذكرنا مع بوسيدون – وكذلك هيفايســـتوس (He phaistos) وحتـــى مـــع العمالقة، وعلى أرسهم التيتان باللاس (pallas)[٢٦].

وهنا يثار سؤال منطقى ، وما هى مظاهر قوة هذه الربـــة علـــى الآخريـــن وتفوقها وسر بقائها خالدة ومقدسة فوق الأكروبوليس ، الصخرة المقدسة ؟!!! .

بداية ، يصرح هوبر ، فى دراسته الآنفة الذكر[٢٦] ، قائلا :

« In the Iliad and Odyssey, Athena is a power to be reckoned with , neither contemptible like Aphrodite, nor yet childish like Artemis ».

إذن ، كانت أشهر صورة للربة أثينا ، الملحمية (كما وصلتنا فـــى ملحمتـــى الإلياذة والأوديسيا) هى كشخصية معتدلة المزاج ومتزنة ، ليست مثل أفرديتى تثير الإزدراء والاحتقار بسبب نذلالتها الإخلاقية ، ولا هى مثل أرتميس ، فى مشـــاعرها وأفعالها الطفولية ، هنا ومنذ تلك البدايات الأولى لتشـــكيل الوجـــدان الأســـطورى (العقائدى اليونانى القديم) ، نتعرف على أحد أهم ملامح ومفاتيح شخصية الربة أثينا وأحد أسرار قوتها ، وهو اتزانها العقلى . ومن ثم ، كان طبيعياً أن يكون الاتســـاق قائمًا ومستمراً ، وواردأ فى تفاصيل أخرى أسطورية تخص تلـــك الربـــة : مثلمـــا الحال ، فى اختيار البومة طائراً مقدساً لها ، حتى سميت باسم جلاوكيـس Glaukis، بمعنى صاحبة النظرات (الثاقبة) كالبومـــة[٢٧] ، (انظـــر لوحـــة (٥) للعمـــلات

الآثينية) وكذلك مولدها من رأس أبيها زيوس ، دلالة على العقل والتعقل وإعمال الذهن بوجه عام (انظر لوحة (٥) شكل a, b) .

وكما ارتبطت الربة أثينا بظهورها متخفية على هيئة طائر البومة (كما حدث فى الأوديسيا) ، كانت هناك سوابق لمثل هذا الاتجاه ، هى أقدم بكثير من تأريخ تكوين الأوديسيا (بالقرنين ٩ - ٨ ق.م) ، وترجع إلى العصرين والحضارتين الأشهر فى كريت (المينوية) وموكيناى الآخية ، ومن ثم يتبادر - بالحق - إلى الذهن سؤال :

وهل ما عرفناه عند الربة أثينا هو امتداد لتراث الأجداد الأقدم ؟

وبكلمات أخرى ، هل خصائص الربة أثينا ، فى ظاهرة التخفى والظهور على هيئة أخرى - غير إلهية(٢٨) - ليست حكرًا عليها ،، وكان لها بدايات أقدم منها فى العبادة المينوية الكريتية وكذلك الميكينية ؟

لقد كشفت الدراسات الحديثة فى نصوص الكتابة الخطية الثانية (Linear B) عن اسم الربة أثينا مقرونًا بصفة محددة ، حيث يقول هذا النص (أو السطر) :

«a – ta - na Po-ti-ni-ja»(٢٩).

بمعنى : (الربة) أثينا السيدة (أو) الرئيسة ، وهو المعادل للقبها فى اليونان القديم باسم "Πότνι Ἀθηναίη" ، بالمعنى نفسه ، وإن كان ذلك يجعلنا نستدعى ربة أخرى ، أقدم بالضرورة من أثينا وهى إلهة الثعابين ، تلك التى كانت ثعابين منزلية "οἰκουροί ὄφεις" والتى ، ربما ، كانت الصورة المتخفية (فوق أكروبوليس أثينا) للملك المؤله إريخثيوس ، وليس هذا ببعيد أو بمستبعد أن يتم الربط بين ذاك الأقدم من العصر الميكينى ، على تلك الصخرة المقدسة الواحدة، وبين الإلهة الأحدث ، نسبياً ، وهى الربة أثينا ، التى ازدهرت ، فى العصر

الكلاسيكى على أرض العاصمة الميكينية نفسها ، حيث تم الكشف عن معبد لـــها ، كان قد تداخل مع آثار القصر الميكينى الأقدم .

والمفاجأة الأثرية الأخرى هى الكشف عن آثار لجدران قصر ميكينـــى فـــوق الأكروبوليس الآثينى ، وذلك فـــى الأرض أو الســـاحة الواقعـــة بيـــن البـــارثينون الكلاسيكى وبين الإرخثيون ، وهو الموقع المعروف لدى الأثريين باســـم مكتشـــفه « Doerpfeld Foundation » ، وكذلك الكشف عن بوابة ميكينية ، وسلالم موصلـــة لها ، فى الجزء الشمالى من الأكروبوليس . هذا فضلاً عن اكتشاف جـــدار آخـــر ، بمواصفات أحجار البناء فى ميكينى نفســـها والمعروفـــة باســـم « Cyclopean or Pelasgic Walls » – فى الناحية الجنوبيـــة من الموقع نفسه ، أى من الأكروبوليس ، وكذلك بقايا قليلة لجدار ميكينى على يمين المدخل الحالـــــى للموقع الأثـــــرى (tà propýlaia) (لوحة (٦) /ب) ، تقريباً فى مواجهة المدخل الغربى للبارثينون.

ولكن الاكتشاف الأخطر لوجود آثار ميكينية فى المنطقـــة ، وازدهـــار أثينـــا نسبياً ، إبان العصر الميكينى (١٦٠٠ – ١١٠٠ ق.م) هو العثور علـــى مقـــبرة أميرة آثينية ، فى الجانب الشمالى من تـــل أريوبـــاجوس (Areopagus) – شـــمال غرب الأكروبوليس على هيئة ربوة صخرية صعبة الصعود حتى اليـــوم[٣٠] (؟!)- حيث وجدت مقابر أخرى ميكينية ، مـــــن النـــوع المعـــروف باســـم «Chamber Tombs»، وفيها أسلحة ، ورقائق ذهبية ، وآنية . أما معثورات مقبرة الأميرة فكـــان أهم أثر فيها هو علبة زينة فخمة (Pyxis) مصنوعة من العاج ، عليها زخـــارف لأشكال غزلان وجريفن (Griffin) ، ممـــا يؤكـــد الصناعـــة والفـــن الميكينـــى الأصيل[٣١] ، (انظر لوحة(٤) حيث تشاهد الأصل بغطائه المستدير ، ومحفور عليـــه الموضوع نفسه ، ويؤرخ بالقرن ١٤ ق.م) .

كما لا حظ علماء الآثار ظهور ظاهرة غريبة فجأة فى بعض الأماكن ، مـــن اليونان القديمة ، واختفائها تماماً فى أماكن أخرى ، ألا وهى عبادة الأبطال (Hero – Cults) وكان العلامة نيكولاس كولدستريم (31/a) (N. Coldstream) قد رصـــد

الدليل الأثرى عليها ووجد ذلك فى الفترة الزمنية فيما بين (٧٥٠) و (٧٠٠)ق.م، أى فى النصف الثانى من القرن الثامن ق. م ، حيث أشار إلى وجود اهتمام مفاجئ من اليونانيين – فى بعض الأماكن دون غيره – بتقديم قرابين للأموات ، فوق مقابر قديمة للغاية تسبق أحياء ذاك الزمان بما لا يقل عن (٥) قرون ؟!!! فلماذا إذن ؟ وما هو تفسير ذلك ؟

وهنا يقدم لنا هذا العلامة الكبير تفسيراً مقنعاً ، ومبدعاً كما وصفه علامة آخر هو سنودجراس (31/b) (Snodgrass) ، كالتالى :

بداية، لا يجب الحديث عن أى شئ يمكن أن يسمى باستمرار العنصر السكانى الواحد ، بل على العكس تماماً ، فإن أى إدعاء حول وجود أية علاقة وراثية بين من كانوا يسكنون اليونان قديماً ، قبل الغزو الدورى ، ومن جاءوا معهم أو بعدهم ، هو مجرد إدعاء كاذب وزائف . لقد أقدم الجدد على عبادة الأموات الأقدم ، فى ذاك الوقت بالذات ، لأن المجتمع اليونانى ، آنذاك ، كان قد قرر أن يحدد نصيب المشاركة السياسية فى بنائه ، وتحديد مسئوليه على أساس حجم الثروة أو الممتلكات من الأراضى ، كمعيار أول مضمون للمواطنة اليونانية ، ومن ثم كان طبيعياً وعاملاً مساعداً – على قدر كبير من الأهمية – لا يجاد وسيلة أو رابطة أو أية علاقة من نوع ما ، بين مواطنى القرن(٨) ق. م والسكان الأقدم ، أهل البلاد الأصليين ، أصحاب الأراضى الحقيقيين ، الذين كانت مقابرهم الضخمة ، من عصر الأبطال ، مزارات فى عصرهم .

وإذا أردنا نحن كذلك أن نضيف شيئاً فى الاتجاه ذاته ، يمكننا أن نقول لقد دخل الدوريون اليونان فاتحين منتصرين ، بالآلاف على عدة أفواج، ولمدة زمنية طويلة ، وأصبحوا أسياداً بحق الفتح ، وبفضل معدن الحديد ، إلا أنهم ظلوا قروناً عدة بعيدين عن الاندماج مع الأهالى والسكان الأصليين ، والذين كانوا كذلك فى مرحلة ترقب وحذر وإشفاق على مستقبلهم ومصيرهم المجهول ، حتى بدأت الثلوج تذوب ، بفعل الزمن وتحت ضغط الحاجات اليومية الضرورية لكلا

الطرفين. هنا بدأ المجتمع اليونانـــى الجديد (الخليط) فى وضع ضوابط جديـــدة لمستقبله الجديد ، حينما (فى منتصف القرن ٨ ق . م) ارتضوا أن يكون معيـــار الأفضلية ، فى الممارسة السياسية ، قائماً على ما يملكه الفرد من أراضى . عندئـــذ لجأ السكان الجدد (وبخاصة أحفاد القادمين مع الغزو الدورى ، أى بعد عام ١١٠٠ ق . م) إلى حيلة بارعـــة ، وهى إظهار التعظيـــم والإجـــلال ، حتـــى درجـــة التقديـــس والعبادة ، لمقابــــــر الأبطال القدامى ، لإيجـــاد نـــوع مـــن الرابطـــة الاجتماعيــــة توثق بينهم وبين تلك الرمـــوز الأقـــدم ، صاحبـــة الأرض الفعليـــة والأمجاد الحقيقية . وحقاً صدق وصف سنودجراس(31/C) لهذا الإجراء على أنـــه كـــان « rustic propaganda – practices » ، وهو ما يمكن أن نسميه بلغة اليـــوم : « مكر الفلاحين »، وتظاهرهم بسلوكيات لتمرير مصالحهم بســـلام ، أى مجـــرد « فك مجالس » .

ولقد جاءت المادة الأثرية المكتشفة فى المواقع المختلفة فى اليونـــان مؤكـــدة ومدعمة لهذا التفسير السابق ، حيث لوحظ الآتى :

(أ) جاء توزيع أماكن تلك العبادة (الأبطال) موافقا تماما مع مناطق كانت فيـــها – من قبل – مقابر ضخمة من عصر الأبطال (الميكينى) ولكنـــها فـــى القـــرن الثامن ق . م كانت قد اختفت ، فاحيا ذكراها السكان الجدد لهدف محدد ، ومـــن ثم كان كل ما هو مجهول ، آنذاك ، كان لـــه واجـــب التبجيـــل : « Omne ignotum pro magnifico » .

(ب) تغيـــب هذه العبادة للأبطال (فى القرن الثامن ق.م) – كمـــا لاحـــظ ذلـــك أيضا سنودجراس – فى أقاليم مثل كريت ولاكونيا وتساليا ، (وجميعـــها بـــها مناطق زراعية شاسعة) حيث لا حاجة للفلاحين الأحرار ، والمعتمدين علـــى أنفسهم ، والوارثين لأجدادهم ، لمثـــل هـــذا الســـلوك أو الإدعـــاء والخـــداع الاجتماعى .

وهكذا جاءت الربة أثينا ، فى وقت ما فى أواخر العصر الميكينى (؟!!) ، إلى مدينة أثينا ، واستطاعت بطريقة ما ، ولأسباب لا نعرفها ولا يمكن أن نخمنها(؟!!) ، أن تدخل إلى قصر إريختيوس الميكينى ، وتتواجد جنبًا إلى جنب مع المعبودات الميكينية الأخرى ، فوق هضبة الأكروبوليس . ورويدًا رويدًا بدأت هذه الربة فى كسب احترام المجتمع الآثينى ، الذى أعلاها مكانة ورفعها فوق بقية آلهة المكان .

ثانيًا : بين المعبد والتمثال (قصة الإلهة أثينا) :

يلفت نظر الدارس لموقع الأكروبوليس ، فى أثينا القديمة ، ثلاثة أشياء:

الأول : هى تلك البقايا الأقدم الأثرية ، من العصر الميكينى (وهو ما سبق الحديث عنه) .

الثانى : هو المعبد القائم ، فعلاً إلى يومنا هذا .

الثالث : وهو تمثال الإلهة المعبودة نفسها ، الربة أثينا ،الذى لا أثر له اليوم على الإطلاق ، إلا فى الإشارات الأدبية والتاريخية لبعض الكتاب الكلاسيكيين .

ولكن من بين ما عُرِفَ لدى الأثريين ، فوق الأكروبوليس ، باسم « Doerpfeld Foundation » (خلافًا للجدران الميكينية والبوابة ومقبرة الأميرة الآثينية) كانت هناك آثار جدران لمعبد قديم صغير ، يقع بين البارثينون ومعبد الإريختيون، وهو المعبد الشهير ، فى المصادر ، على أنه «المعبد القديم : ὁ ἀρχαῖος νεώς » ، حيث التمثال الأقدم، الخشبى المصنوع من شجر الزيتون ، للربة أثينا ، المعروف ، أيضًا فى المصادر ، على أنه « التمثال القديم : τὸ ἀρχαῖον ἄγαλμα ».

ومن المرجَّح ، فى ضوء اعتبارات فنية خاصة وتأريخية ، أن هذا التمثال القديم ، الخشبى ، لأثينا ، كان تمثالاً جالسًا ، من ناحية ، وليس ، كتمثال فيدياس

الشهير من بعد ذلك ، واقفًا ، وحاملاً درعًا ورمحًا ، ولابسًا خوذة ، أى كربة حامية ، ومن بين هذه الاعتبارات ما يلى :

١ - يُؤرَّخ المعبد بأوائل القرن السادس ق. م ، ومِنْ ثَمَّ يخضع للروح العامة الفنية السائدة لتلك الفترة ، فى العالم اليونانى ، بوجه عام ، والمجتمع الآثينى على وجه الخصوص .

٢ - شيوع نحت وعمل تماثيل الرجال ، أى الكورروى (Kouroi) ، من الأحجار، واقفة، بينما تتجسد ، فى الغالب ، أشكال النساء جالسة ، ولا سيما لو كانت لشخصيات تعبدية ، دينية(٣٢) .

٣ - وجود علاقة بين الربة أثينا ، اللاحقة ، والربة نيكى (Νίκη)- إلهة النصر - السابقة فيما يخص منافسات أعياد الباناثينايا الفنية وكذلك الرياضية ، كما حدث بالفعل ، على أيام حكم ثيموستوكليس (٥٢٨ - ٤٦٢ ق.م) عندما أصدر مرسومًا - تم الكشف عنه فى البلوبونيز (فى تريزينيا) - جَمَعَ فيه بين الربة أثينا والربة نيكى ، حينما كان الشِعار « νῦν ὑπὲρ πάντων ἀγών » بمعنى (فَلْيَكن) الآن ، التنافس لصالح الجميع » .

ومِنْ ثَمَّ ، لا نتوقع ،حينئذ ، أن يكون تمثال الربة أثينا منذ حوالى منتصف القرن ٦ ق.م وحتى نهايته (وبالضرورة حتى فيما قبل عام ٤٩٠ ق. م)، كإلهة حامية (πρόμαχος) ، بل ربما ، فقط ، كما تُصوِّرها العملات الآثينية المبكرة لسيدة راعية لسباقات الاحتفالات السنوية أو كل (٤) سنوات فى أثينا .

ويبدو أنه كان هناك بناء لمعبد ما ، فى الفترة فيما بين ٤٩٠ و٤٨٠ ق.م فى الجزء الجنوبى من الصخرة المقدسة للأكروبوليس ، إلا أن الغزو الفارسى لأثينا

فى ٤٨٠ ق.م ووصولهم إليها ، جعل الآثينيين يهـربون إلـى سـفنهم حـاملين معهـم ، على الأرجـح ، تمثـال الربـة أثينـا الخشـبى (τὸ ξόανον) . ومنذ تلك اللحظة ، لا يدرى أحد مصيره ، بعد أن عاد الآثينيـون إلـى مدينتهـم عقب انتصارهم المدوى على الفرس ، فى سلاميس . ولكنه أيضًا ، بعـد أن كـان الفرس قد أحرقوا ودمروا معظم آثار الصخرة المقدسة كما وصفها لنـا هـيرودوت بأسى شديد(٣٤) . وظل الحال على ما هو عليه أمدًا طويلاً وأشلاء الاكروبوليـس متناثرة على سطحه وجنباته ، حتى جاءت لحظة الوفاء بالعهد الذى قطعة الآثينيـون على أنفسهم عشية انتصارهم ، ببناء معبد وإقامة تمثال للربة الحامية أثينـا ، مـع منتصف القرن (٥) ق. م . وها هو نقش ، عثر عليه ضمـن آثـار الأكروبوليـس المبعثرة ، كدليل على بداية الوفاء بالنذور لإلهة المكان ، يقول :

١٤ φαρθὲνε ἐν ἀκρόπολει Τελεσῖνος
ἄγαλμα ἀνέθεκεν
Κέτιος hοῖ χαίροσα διδοίες ἄλο ἀναθὲναι

بمعنى : « يا أيتها العذراء ، فوق الأكروبوليس ، إن تيليسينوس الكيتى(٣٥)، قد أهداك تمثالاً ، آملاً أن تمنحيه (خيراتك) بحبور ولسوف يهديك تمثالاً آخر » .

ومن هنا ندرك سيادة الربة أثينا على أمور الديانة والعبـادة فـوق الصخـرة المقدسة ، وامتداد تلك الهيمنة الإيمانية لها خـارج حـدود مدينـة أثينـا نفسـها ، وانتشارها فى كل إقليم أتيكى ، وذلك بشهادة المؤرخ والجغرافى باوسانياس(٣٦) .

وهنا ، أيضًا ، يمكننا أن نعود إلى سابق سؤالنا عن مظاهر ومـبررات تلـك السيادة الدينية ، التى منحها لها المواطن الآثينى القديم ، على الأقـل ، فيمـا بعـد النصر على الفرس ٤٧٩ق. م ، وإن كان الأمر لا بد وأن يرجع – كمـا سـبق أن ذكرنا – إلى جذور أسطورية أيضًا .

وتؤكد السيدة إدنا هوكر (Edna M. Hooker) في مقالة صغيرة لها(٣٧)، على أن سيادة الربة أثينا جاءت من قيامها ، في المقام الأول والأقدم ، بدور حامية للطفل المقدس (الإلهي) ، متمثلاً في رعايتها هي - كما تقول الأسطورة - لابن الإله هيفايستوس ، وهو إريختونيوس(٣٨) ، ويبدو أن شيوع تلك الأسطورة كان عظيمًا ، والإيمان بها قويًا ، إبان القرن (٥) ق.م ، بدليل المادة الأثرية الكثيرة التي تصور على الآنية الآثينية وغيرها ذلك الموضوع بتكرار كبير، كأحد الموضوعات المحببة إلى قلوب الرسامين في ذلك الوقت(٣٩) .

وإذا كانت أسطورة أو ، بالأحرى ،الأساطير الخاصة بتربية وتنشئة بعض الآلهة ، أمثال ديونيسوس(٤٠) (Dionysos) وزيوس(٤١) (Zeus) تروى أنها قد تمت في السر على أيدى بعض المربين خوفًا من أعدائهما ، فإن الربة أثينا نفسها ، قد ظهرت في بعض تلك الأساطير ، كمربية وحامية لكثير من الأبطال الصغار وفي ظروف مشابهة ، ولكن ارتباطها وصلتها بمدينة أثينا ، والأكروبوليس على وجه التحديد ، كانت لصيقة جدًا ، وكانت مظاهر وجودها وعلامات ألوهيتها أى الـ (Tokens)، المصاحبة لأولئك الأطفال تتمثل في :

(أ) شال ، يلف به الطفل ، وعليه تطريز وحياكة تمثل شكل الـ آيجيس(٤٢) : «Aegis » ، صديرية لصدر الربة برأس الجورجونا(٤٣) في وسطها .

(ب) ميدالية على شكل ثعبانين .

(جـ) إكليل من أوراق شجرة الزيتون المقدسة للربة .

ويبدو أن كاهنة الربة أثينا كانت حريصة كل الحرص ، على أن يعرض على النساء ، حديثى الولادة ، ذلك الشعار الرسمي ، والعلامة المقدسة لها وهي الـ أيجيس (Aegis) ، وهي هي نفسها تلك الأشياء التي حملتها طفلتان صغيرتان من الأكروبوليس (ضمن شعائر وطقوس احتفال الربة) ، المدعوتان أرفورى (كما ذكرنا من قبل في هامش ٢٥) مثلما جاء بغموض شديد عند

باوسانياس(٤٤) من بعد ذلك بقرون طويلة ، حينما أصبح مثل ذاك الطقس – فى القرن الثانى الميلادى – أثرًا بعد عين (؟!!!) .

ولما كنا لسنا من هواة الإغراق فى الحواديت والروايات والأساطير ، كما فعل بعض الدارسين الذين أجهدوا أنفسهم – دون طائل – فى روايات الماضى السحيق الغامضة ، فإننا – على النقيض – نميل إلى تحليل وترجيح هوكر(٤٥) الذى قدمته لتعبير « τὴν δρόσον » ، على أنه ، على الأرجح ، (حيث لا يمكننا أن نكون على يقين) لا يخرج عن تلك العلامات والشارات الرسمية للربة أثينا ويجسد حرص كهنوتها على أن ترتبط باستمرار ، وفى كل عام ، بالطفل الملكى القادم ، أى بولى العهد الحاكم على المدينة ، وأن تكون هى صاحبة الفضل (كما كانت فى الماضى البعيد) فى تربيته وتنشئته . وهنا نلمس المغزى السياسى ، البعيد النظر ، لسيادة الربة أثينا ، فوق الأكروبوليس ، والذى أكدته الأساطير ، منذ بداية حضورها إلى تلك الصخرة المقدسة وارتباطها بالطفل إريختونيوس ، وهنا أيضًا نتأكد من ذكاء المعالجة ، والحرص على الاستمرار ، من كهنوت واع وفاهم لقواعد اللعبة السياسية فى أثينا القديمة ، وهو وضع تعكسه عبارة أرسطو نفسه ، التى تقول : « إنها قلعة (ويقصد الأكروبوليس) تناسب حكم الأقلية ، وحكم الرجل الواحد ، وأرض ممهدة للديموقراطية(٤٦) » مما يزيدنا يقينًا حول الدور السياسى المؤثر والفعال لساكنى تلك القلعة من الأحياء أو الألهة . وهكذا أمكننا أن ندرك – بسهولة ويسر وفق ظروف ومتطلبات ذاك العصر – مدى الأهمية السياسية فى تنشئة ولى العهد القادم وتربيته فى أحضان الربة الحامية والكهنوت الملتزم الحامل لكل عناصر الحماية الإلهية والطبيعية :

(أ) فوق ربوة مقدسة قوية بطبيعتها الصخرية .

(ب) وفى أحضان ربة عذراء تستنفر كل أدوات الدفاع وعناصر البطولة الذكورية: الدرع، والرمح، فضلاً عن قوة أسطورية لها عمق الماضى وخيالات التراث الإيمانى، متمثلة فى رأس الميدوسا القاتلة ، ناهيك عن الثعابين الفتاكة.

(جـ) وفى كنف بنات عذراوات ، من الطبقة الارستقراطية ، يشرفن على راحتـــه وتثقيفه ورعايته حتى يصل إلى مرحلة الرجولة .

فهل كان هذا الدور ، فى مكان العبادة الرسمية ، أقل من مثيله فـــى حمايـة ورعاية الملك الحاكم نفسه ؟!!! كلا ، فالنشاطان حيويان ، ولا يمكن الاستغناء عــن أحدهما دون الآخر ، حتى يضمن الحاكم ، وكذلك المجتمع الآثينـــى كلــه ، نقــل السلطة، فى المستقبل ، دون انقطاع ، وبطريقة سلسة دون اهتزاز ، ومن ثم يضمـن الجميع الاستقرار اللازم لكل نجاح فى أى مجال من مجالات الحياة .

ولعل فى حماية ورعاية الربة أثينا للأطفال الذكور ، حكام المســتقبل (منــذ نعومة أظفارهم وفطامهم وحتى بلوغهم سن الرشد ، ما يفســر وصفــها بصفــة « بــاللاس » (Pallas) ، والمــأخوذة ، بــالضرورة ، مــن لفظــة «بــاللاكس» (Pallax)(٤٧) ، وهو ما عرفته هوكر(٤٨) بأنـــه (Indeterminate of Sex) جريــا وراء التشــبه بمـــا كـــان يفعلـــه ، فـــى أســاطيرهم ، ديونيســوس ، وأخيليوس وثيسيوس ، حينما لبسوا الزى النســائى ، كالبنـــات وذلــك لدواعــى الأمن والسلامة الذاتية ، إبان مرحلة شبابهم ، ففعلـــت هـــى العكــس ، وتشــبهت بالشباب ، فى قوتهم وأدوات تسليحهم ، وكانت الأسطورة الخاصة بـــها حريصــة على هذا الملمح ، منذ البداية ، فجعلتها ، مثلاً ، تولد من أبيهــا مباشرة ، وفقــط ، وليســت كأية ولادة طبيعية !!! ومن ثــم كـــانت (ἀθήλη) ، أى ليســت بالمعنى المعتاد ، وفضّلت حيــاة المغامرات الحربية ، ونبـــذت الــزواج ، وظلت عذراء (παρθένος) .

ثالثًا : بين النحت والنحاتين :

إنه لمن أشد الأمور غرابة فى موضوع بناء البارثينون أننا لا نعرف تفـاصيل محددة عن هذا العمل العملاق (بمعيار زمانه ، ومعيار إمكانات أثينــا الشــحيحة) من مصادر معاصرة لتلك الفترة .

والحقيقة أنه لدينا (٣) ثلاثة مصادر قديمة أساسية ، تحكى لنا طرفًا من موضوع بناء البارثينون .

أولها : (وأكثرها مصداقية ومباشرة ومعاصرة) ، عبارة عن نقش ، به فجوات كثيرة عن إحدى سنوات البناء وتكاليفها ، والمشرفين عليها[٥٠] .

ويلاحظ على هذا النقش ما يلى :

(أ) يبدأ بتحديد العام[٥١] (زمن الإنفاق) .

(ب) يذكر ، بعدها مباشرة أسماء الخمسة مشرفين (epistatai) المعينين لمتابعة تنفيذ الأعمال المحددة من قبل المهندسين والنحاتين .

(جـ) تم تقديم مساعدات مالية كبيرة من خزائن وصناديق معابد مثل مبلغ : ٩٥,٨٢٢ دراخمة من خزائن الربة أثينا ، وكذلك مبلغ (غير معروف) دراخمة من خزائن الرب هيفايستوس ، من منطقة لاوريون (Laureion) حيث مناجم الفضة . هذا فضلاً عن مساعدة بمبلغ ٤٢,٦٧٥دراخمة و(٥) (خمس أوبولات) من الخزانة العامة الهيللينية، المعروفة باسم (Hellenotamiai) .

(د) ضرورة ذكر سكرتارية كل خزينة فى عامها هذا ، باسم المسئول عنها ، مثلما الحال فى النقش السابق الذكر ، حيث ورد اسمان لشخصين هما : لاكياديس (Lakiades) ، عن خزائن أثينا ، وكذلك إرجوفيلوس (Ergophilos) عن الخزانة الهيللينية العامة .

وثانيها : وصف حى للأعمال القائمة فى عهد بيريكليس ، صاحب الفضل فى إنجاز مشروع وبناء البارثينون ، وعلاقة هذا الحاكم النشط الطموح لأثينا ، آنذاك ، بالمهندسين والفنانين (النحاتين) ، وذلك عند بلوتارخوس ، الذى لم يعطنا، للأسف ، تفاصيل دقيقة عن المشروع[٥٢] .

وثالثها : إشارة محددة من فيتروفيوس[٥٣] (Vitruvius) إلى نقش حجرى، على البارثينون ، منسـوب إلـى كـل مـن إكتينـوس (Iktinos) وكـاربيون (Karpion) ، دون توضيح شاف إلى مسئولية كل منهما فـى إنجـاز المشـروع المعمارى العملاق[٥٤] .

هذا وإن كانت رواية الجغرافى المدقق باوسانياس[٥٥] (Pausanias) (مـن القرن الثانى الميلادى) هى أكمل وأوضـح سـرد لأدوار كـل مـن المهندسـين والنحاتين، وبخاصة فيدياس .

وتجمع المصادر والدراسات الحديثة[٥٦] على أن إنجاز ذاك المشـروع مـر بعده مراحل ، ولم يكتمل إلا بعد مرور خمسة عشر عامًا من تاريخ البداية الفعليـة فى إعادة بناء وإعمار الأكروبوليس ، عام ٤٤٧/٦ق. م وهـذه المراحـل يمكـن إيجازها فى عدة نقاط كالتالى :

١ – أخذ موافقة الجمعية الشعبية الآثينية (البولى) كخطوة أولى لإقرار المشـروع والإلتزام بالتعهدات الواردة معه من تمويل وإشراف .

٢ – تحديد مهندس وكبير نحاتى المشـروع ، باستحضار كل من فيديـاس ، مـن عمله فى تمثال الرب زيوس فى أولمبيا ، وكذلك إكتينوس ، من عمله فى معبـد الرب أبو للون ، فى إقليم باساى (Bassai) فى محافظـة أركاديـا بوسـط البلوبونيز ، والذى اختار مهندسًا من آثينا ، فى الغالب ، هـو كـاليكراتيس ، كرفيق عمل تنفيذى .

٣ – ضرورة تحديد مسافة ومساحة الإنشاء للمعبد الجديد ، والاستفادة القصوى مـن امتدادات الأساسيات القديمة للمعبد الأقدم فوق الموقع : سطح واسـع ضخـم بمساحة ٧٣ × ٢٢٠ قدمًا ، ومواقع لإنشاء جـدار خـارجى مـن الأعمـدة (بيريستيليو Peristelio) تعداده ٦ × ١٦ عمودًا ، كما كان قائمًا ، وتحويـر

ذلك إلى سطح ١٠٢ × ٢٢٩ قدمًا ، وعمل السور الخارجى الدائرى من عمد (Colonnade) أو البريستيليو ، كما ذكرنا من قبل) ليتكون من ٨ × ١٧ عمودًا (انظر / لوحة a,b/v) .

٤ – أما مراحل العمل والتنفيذ نفسه ، عامًا بعام ، وخطوات الإنجاز ، فيمكن إيجازها كالتالى :

المرحلة الأولى : وضع الأساسات :

السنة الأولى (٤٤٧/٤٤٦ ق.م) : تم دفع أجور قاطعى الأحجار ، والحمالين والفنيين ومساعديهم .

السنة الثانية : (٤٤٦ / ٤٤٥) : تم قطع الرخام من هضبة بنديلى Pendeli ونقله إلى الأكروبوليس .

السنة الثالثة : (٤٤٥ / ٤٤٤) : تحديد مكان قدس الأقداس (Cella) وجدرانه السفلى وحوائطه العليا .

المرحلة الثانية : الارتفاع بالمبنى فوق مسطحه :

السنة الرابعة : (٤٤٤ / ٤٤٣) : تم شراء العروق والكمرات الخشبية الضخمة ، والتى تتحمل رفع كتل حجرية وصلت ، بعض أوزانها ، إلى (١٥) طنًا . وهنا يلاحظ إعادة استخدام بعض أبدان الأعمدة الأقدم ، السليمة ، والمتبقية فى الموقع نفسه ، من المعبد الأقدم للربة أثينا .

السنة الخامسة : (٤٤٣ / ٤٤٢) : استمرار العمل فى رفع الكتل الحجرية وبناء الجدران الداخلية .

السنة السادسة : (٤٤٢ / ٤٤١) : بداية العمل فى الأعمدة ، وتحديد مواقعها .

السنة السابعة : (٤٤١ / ٤٤٠) : استمرار العمل .

السنة الثامنة : (٤٤٠ / ٤٣٩) : تم دفع أجور عمال اليومية ، وإقامة أبـــواب المعبد فى أماكنها .

السنة التاسعة : (٤٣٩ / ٤٣٨) : تم شراء العاج اللازم لتمثال الإلهـــة أثينـــا ، وتم دفع أجور حرفـــى الســـبائك والمعـــادن الذهبية والفضية كما تم الاتفاق على الأعمـــال الخشبية لبقية الأبواب وكذلك الأسقف الخفية. وكذلك تم الاتفاق علـــى مقاولـــة الأعمـــال الحجرية وتجهيز أجزاء الأعمـــدة وتســـوية أسطحها .

السنة العاشرة : (٤٣٨ / ٤٣٧) : تمت إقامة ورفع تمثال الربة أثينا فى مكانـــه من المعبد كاملاً ، فى ضوء شـــراء كميـــة كبيرة من الذهب ، مما يؤكد الانتـــهاء مـــن عمل قاعدة التمثال وكذلك داخـــل المعبـــد . ولكن كانت الأفاريز لا تزال علـــى الأرض ولم يتم رفعها إلى أماكنها .

المرحلة الثالثة : استكمال نحت الأفاريز :

وكانت الهيئة المشرفة الخماسية قد دفعت ، بالفعل أجور عمال المحاجر لقطع كتل الرخام اللازم لنحت لوحات الإفريز الرئيسى ، فى واجهتى المعبـــد الشـــرقية والغربية ، ولكل مراحل حملها ونقلها ورفعها حتى أعلى تل الأكروبوليس .

الحادية عشرة : (٤٣٧ / ٤٣٦) : تم شراء كمية أكبر من العاج،وعمل عربات نقل بعجلات خشبية وذلك خصيصًا لنقل الكتل الحجرية الضخمة إلىحيث أماكن رفعها في مواضعها المحددة لها في البناء الرئيسي، ويبدو أن هذه العربات تم بيعها للمشرفين (epistatai) على بناء مدخل البارثينون ، المعروفة باسم «τὰ προπύλαια» ، والتي كان العمل قد بدأ فيها في ذاك التوقيت .

السنة الثانية عشرة (٤٣٦/٤٣٥) : تم شراء زوج من أدوات الرفع (ويبدو أنهما كانا مستعملين) كما استمرت عمليات قطع الأحجار ، ونقلها ، وظلت أعمال النحت وعمل التماثيل مستمرة .

السنة الثالثة عشرة (٤٣٥/٤٣٤) : استمر العمل في كل المجالات ، دون إنجاز محدد .

السنة الرابعة عشرة (٤٣٤/٤٣٣) : استمرار أعمال قطع الأحجار والرخام ، من محاجرها ، وحملها ونقلها إلى موقع العمل ، ورفعها إلى التل ، فضلاً عن استكمال أعمال النحت وعمل لوحات التريجليف (τὰ τρίγλυφα) .

السنة الخامسة عشرة (٤٣٣/٤٣٢) تم الانتهاء من كل أعمال النحت ، وتم وضعها في أماكنها ، وتم تزيينها ، بالذهب والألوان الأخرى ، وبخاصة شعور التماثيل ورؤوسها ، وبعض ملامحها وملابسها .

ولنا بعد ذلك التفصيل الكامل لإنجاز كـــل عـــام ، أن نشـــير إلـــى بعـــض الملاحظات العامة والأخبار المتفرقة التى وصلتنا مـــن خـــلال بعـــض المصـــادر المبعثرة، والتى تؤرخ فى الغالب ، لسنوات طويلة لاحقة .

١ – كان عدد عمال المحاجر ، فى بنديلـــى (Penteli) ، لقطـــع كتـــل الرخـــام المطلوب ، بالمقاسات المحددة ، لا يزيد ، فى أى وقت عن خمســـين (٥٠) ولا يقل عن (٣٠) ثلاثين .

٢ – تم التغلب على مشكلة انزال الكتل الرخامية ، سليمة دون أذى ، مـــن أعلـــى الجبل وحتى السهل ، بعمل ممر ممهد ، تحمل من خلاله تلك الكتل ، على عدة مراحل ، وذلك فوق زلاقات خشبية (Rollers or sledges) .

٣ – كانت عمليات نقل كتل الرخام الضخمة تتم بواسطة أعداد كبيرة مـــن البغـــال والبقر ، وبخاصة خلال شهرى يوليو وأغسطس (لأنهما أقـــل شـــهور العـــام رطوبة) ، طبقًا لمصادر لاحقة من القرن (٤) ق. م ، من إقليم إليوسيس[٥٧].

٤ – كان العمال الذين يعملون فى الموقع ، فوق الأكروبوليس فى بناء البـــارثينون ، ينقسمون إلى (٣) ثلاث مجموعات :

الأولى : عمال المحاجر .

الثانية : الحمالين والسائقين .

الثالثة : الفنيين والفنانين .

وتجدر الإشارة إلى أنه لا يوجد ذكر لأى من هؤلاء فى سجلات المشروعات ، فلم نعرف كم كان عدد هؤلاء ، ولا ماذا كانت أجور كل واحد منهم .

ولكنه ، مع ذلك (وفى ضوء مصادر أخرى وثيقة الصلة) يمكننا إيجاد بعـــض الإجابات المحتملة لبعض الأسئلة ، كما عرفنا من قبل .

٥ – لقد كانت فئة الحجارين الفنيين واحدة من أهم جماعات العمل الدائبة في المشروع ، وليس ببعيد أن يكون سقراط (كنحات أثيني مقيم) واحد منهم ، ضمن مجموعة صغيرة من هؤلاء النحاتين المهرة الذين عملوا في كل مكان من البناء العظيم . وليس أدل على ذلك من ذكر وثائق الإرخثيون وحولياته[٥٨] (٤٠٨/٤٠٧ ق. م) ، من أن جماعة من (٤) إلى (٥) نحاتين كانت تقوم وحدها، في آن واحد وفي كل الجوانب ، بعمل التجويفات الطويلة للأعمدة (Flutes)[٥٩] (انظر لوحة a(v)) .

أما أشهر وأهم أعمال النحت والتماثيل في البارثينون فهي كالتالي :

(أ) تمثال الربة أثينا (**Athena**) العذراء (**Parthenos**) :

لقد ظل الارتباط وثيقًا بين المعبد وتمثاله طيلة قرون عديدة ، بعد منتصف القرن الخامس ق. م ، حتى أن أحدهما كان يذكر فينصرف الذهن سريعًا ، وبالحق، إلى الآخر ، ومن هنا جاء تخليد مكانة فيدياس (Pheidias) النحات الذي أخرج هذا التمثال (الذهبي – العاجي) إلى النور ، عام ٤٣٨/٤٣٧ ق. م[٦٠] .

هذا ، (وبالرغم من عدم معرفتنا لمصدر معلومات بلوتارخوس حول حقيقة هذا الخبر) فإن الإشارة التالية تؤكد على المكانة العالية والمسئولية الكاملة الشاملة لكل الأعمال النحتية وصناعة التماثيل واللوحات الجدارية داخل وخارج البارثينون من قبل فيدياس ، وفق الاتفاق المبرم بينه وبين القائد والحاكم الأثيني بيريكليس (Perikles) . وهذه الشهادة تقول :

« لقد تمت مناقشة كل الأعمال (التشكيلية) معه ، وكان فيدياس هو المشرف العام له ، بالرغم من وجود مهندسين عظام وفنانين لهذه الأعمال»[٦١] .

وإنه لمن المؤكد ، في ضوء إتساق الخطوط التشكيلية في تماثيل البارثينون ، أن التعاون والتشاور والالتزام بمنهج واحد في النحت ، كان هو الروح السائدة بين

فيدياس والمهندسين والنحاتين الآخرين ، ولا سيما كـــاليكراتيس (Kallikrates) وإكتينوس (Iktinos) علمًا بأننا لا ندرى يقينًا عما إذا كان فيديـــاس قـــد شــــارك بالفعل فى نحت الأعمال التشكيلية الأخرى داخل البارثينون.

وكذلك فإنه من اللافت للنظر لأى باحث أن كل الأعمال النحتية والزخرفيـــة فى البارثينون (خلافًا لأقرب مثال فى الزمان والشكل وهو معبد زيوس فى أولمبيـــا) جاءت لتكرس عبادة وتقديس وحماية الربة أثينا على الأكروبوليس فى أثينا .

أما عن التمثال نفسه ، الشهير بلقب (Khrysoelephantinon agalma)
«Χρυσοελεφάντινον ἄγαλμα
فجاءت أوصافه فى المصادر اللاحقة كما يلى :

١ – كان ارتفاعه (٤٠) قدمًا ، أى حوالى عشرة أمتار (؟!!!)[٦٢] .

٢ – وكان جسم التمثال نفسه عبارة عن قلب (Core) من قطعة خشب كبــــيرة ، فضلاً عن تشكيل معدنى ، وفخار ، وجبس (وذلك للصق المكونات) ، وفـوق كل ذلك طبقة خارجية من الذهب ، لتزين الزى والملبس ، بينما كـــان العـــاج لتزين ما ظهر من جلد التمثال وبشرته .

٣ – كانت طبقة الذهب قابلة للإزالة[٦٣] ، وإعداد التركيب كما كانت من قبل .

٤ – النماذج الموجودة للتمثال ، حتى الآن ، هى تلك التـــى تمــت عقــب ترميــم الأصول الأقدم ، وبخاصة بعد إصلاح الزى وتقليده فى قوالـــب أصليـــة مـــن الفخار ، كتلك التى تم العثور عليها للإله زيوس فى أولمبيا مؤخرًا .

٥ – التمثال يقف وقفه تقليدية لتماثيل العصر الأرخايكى (archaic) ، بصــــورة أكثر رسمية عما عداها من التماثيل لتلك الفترة (انظــر لوحـــة ١) ، نـــاظرًا أمامه ، لابسًا على رأسه خوذة حربية مرصعة ومزخرفة ببذخ ، وعلى صـــدره (فوق القميص الأصلى ، الـــ « بيبلوس » (Peplos) ، درقة الآيجيـــس[٦٤]

(Aegis) ، المستقرة على صدر الربة أثينا وفـــى وســطها رأس ميدوســا[٦٥] (Medusa) .

٦ – يوجد ثعبان كبير[٦٦] ، يقف على ذيله ورأسه فـــى مواجهـــة النــاظر ، فــى المساحة بين ساق الربة الأيسر والدرع الذى تمسكه بيدها اليسرى .

٧ – ويوجد موضوع أسطورى ، وهو مولد باندورا فى حضـــور الآلهـــة ، فــوق مقدمة القاعدة ، كما عرفناه من نسخ مقلدة للأصل ، ولكـــن تـــؤرخ بـــالعصر الإمبراطورى الرومانى .

٨ – كما تم نحت موضوع الصراع (الحرب) بين اليونان والأمازونات[٦٧] ، نحتًـا بارزًا ، على واجهة الدرع ، بينما تم رسم حرب الإلهة مع العمالقـــة ، علــى سطح الدرع الداخلى ، وهو أحد ثلاثة موضوعات الأكـــثر شـــهرة للمعـــارك الأســطورية ، ونقصـــد ذلـــك المعـــــروف باســـم « جيجانتوماخيـــا » (gigantomachia) .

(ب) الميتوبات[٦٨] (Metopes) :

١ – عدد هذه الألواح التشكيلية ، إجمالاً ، هو ٩٢ لوحة ، وذلـــك فـــى الواجهـــة الخارجية للمعبد ، فى الجهات الأربع ، وجميعها تم نحتـــها بطريقـــة النحـــت البارز ، كما تم تلوينها ، وكانت ، فى حجمها ، تساوى حوالى ثلثـــى الحجـــم الطبيعى لأشخاصها وموضوعاتها .

٢ – كانت أرضيات الألوان المستخدمة ، لهذه الميتوبات ، الأحمر أو الأزرق ، مـع علاقات لها للتثبيت على الجدار ، مصنوعة من معدن البرونز .

٣ – لا تزال ميتوبات الجهة الشرقية والغربية فى أماكنـــها ، حتـــى الآن ، بينمـــا تعرضت اللوحـــات الأخـــرى للســـرقة ، أو الدمـــار ، أو التشـــوية لأســـباب عديـــدة[٦٩].

٤ – تمثل مجموعات الأشكال المنحوتة ، فى الغالب ، صراعًا ومواجـهات : ففـى الواجهة الشرقية ، هناك بالتأكيد ، صراع بين الآلهة والعمالقـة ، بينمـا فـى الواجهة الغربية ، يوجد على الأرجح ، صراع بين اليونانيين والأمازونات .

٥ – من بين القطع الباقية ، فى أقصى الطرف للواجهة الغربية ، لوحة (ميتـوب) بدون رؤوس (انظر لوحة ١٠ ، شكل / a) لسيدتين ، إحداهما جالسة علـى صخرة ، والأخرى واقفة أمامها ، وفى الغالب هما شخصيتان لإلـهتين علـى درجة عالية من الجمال ، تظهر من رقة وفخامة ملبسهما .

٦ – أمـا ميتوبـات الواجهـة الجنوبيـة فـهى تصـور حـروب الكنتـورات (Centauromachies) .

٧ – يتضح تصوير الحركة ، فى لوحات البارثينون ، (وقياسًا على شبيهاتها فـى معبد زيوس بأولمبيا ، بأسلوب أكثر تعقيدًا ، وأكثر تفصيلاً فى طيات العبـاءة اليونانية الفضفاضة الكبيرة .

(جـ) البديمنت(٧٠) (أو / الأيتوما : Aetoma) :

وكان الجغرافى المؤرخ باوسانياس قد سجل لنـا موضوعـات الواجـهتين ، الشرقية والغربية (ta aetomata) ، ولولا ذلك ما أستطاع الدارسـون التكـهن بتفسير بقايا تلك اللواحات .

١ – فى الواجهة الشرقية ، تم تصوير مولد الربة أثينا ، وهى الرواية التى حكى لنـا أطرافها الشاعر هيسيود ، كما صورتها لنا رسومات على آنية وألواح من قبـل بناء البارثينون نفسه (قارن / لوحة (٥) ، شكل (a) و (b) .

٢ – وحول شخصية الفرد الممدد على الأرض (انظـر لوحـة ١١/ شـكل / a) اختلف الأثريون : فاعتبره البعض ثيسيون ، والبعض الآخر هيراكليس ، بينمـا

هناك شبه إجماع على أنه ديونيسوس(٧١) (Dionysos) ، إلـــه الشـــراب والخمر واللذة والمجون .

٣ – ومن أروع منحوتات هذا الجمالون الشرقى ، تمثالان لسيدتين : (بـــدون رأس) إحداهما جالسة ، والأخرى ممددة مرتكن على الأولـــى الجالســـة ، ويرجــح الأثريون أنهما الربة أفروديتى (Aphrodite) وأمها ديونـــى (Dione) ، يرتديان زيًا ثريًا جدًا ، ويعكسان حيوية أنثوية لجمال طاغ (انظر لوحـــة ١٠ شكل / b) .

٤ – ولكن بقايا الواجهة الغربية فقد أصابها الدمار أكثر مما لحق بمثيلاتها الشـرقية، ومع ذلك فإننا نعرف الكثير عن موضوعات تلك اللوحات ، من مصدرين .

(أ) باوسانياس ووصفه لصراع أثينا مع بوسيدون حول السيادة علـــى أرض إقلم أتيكى (Attike) .

(ب) ما قام به الرسام جاك كارى (Jacques Carrey) قبـل (١٠) أو (١٥) عامًا من وقوع الانفجار فـــوق الأكروبوليـــس عـــام ١٦٨٧م ، وحفظـــه لأماكنها وموضوعاتها فوق البارثينون .

٥ – تتمركز شخصيتا الإلهتين : الربة أثينا والإله بوسيدون ، فى وسط الجمـــالون ، بحجم أكبر من كل ما عداهما ، وبينهما شجرة الزيتـــون (الشـــجرة المقدســـة ومظهر إعجاز أثينا) ، وربما ومعها الثعبان ، وكذلك تمثال صغير للربة نيكـــى (Nike) ، إلهة النصر(٧٢) .

نتائج البحث

أولاً : كان للصخرة المقدسة (الأكروبوليس) تاريخ أقدم ، واعتبار قديم لدى الآثينيين ، (فيما قبل العصر الكلاسيكى) يرجع إلى العصر الميكينى، حوالى عام ١٤٠٠ق.م .

ثانيًا : التراث الآثينى بخاصة ، واليونانى بعامة ، يخلد وجود الربة أثينا ، فى رسومات وأساطير ، يرجع تاريخها إلى ما قبل العصر الكلاسيكى نفسه ، أى قبل بناء البارثينون ، كأعظم صورة من صور تكريم الآثينيين لها فى تاريخهم القديم .

ثالثًا : استطاعت الأساطير فك طلسم وجود الربة أثينا ، فوق الأكروبوليس ، جنبًا إلى جنب مع الآلهة الأقدم ، مثل إرختيوس ، فألحقت بها رموزه المقدسة ، وأصبحت هى وحدها ، الحامية للمدينة وقلعتها ، والحارسة لكل السلطة الحاكمة فيها ، على ربوتها التاريخية .

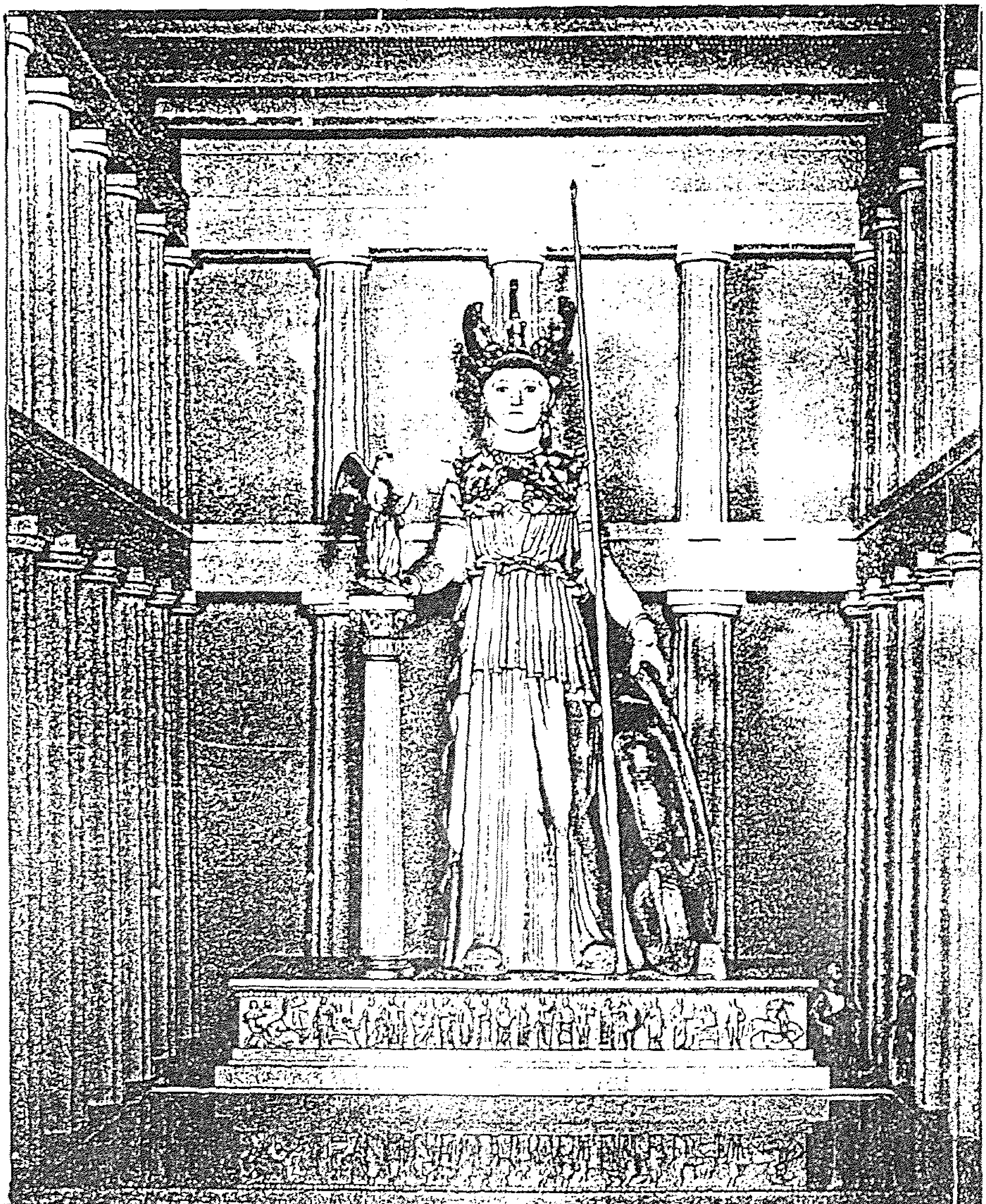
رابعًا : بناء البارثينون ، فى أفخم وأكمل وأروع صورة (بالرغم من تكلفته الكبيرة وطول مدة البناء) جاء تكريمًا للربة أثينا ، وإعلاء لمكانة أثينا والآثينيين السياسية الرائدة بين بقية اليونانيين .

خامسًا : قدرة الفنان الآثينى : المهندس والنحات ، على التعامل،بدقة متناهية وتمكن ملحوظ ، مع الأحجار الصلبة ، للتعبير عن طراوة الجسد الآدمى ، وحيويته، وتوظيف الشكل المعمارى فى أفضل صورة .

سادسًا : تمكن الإيمان بالآلهة فى قلوب اليونانيين ، على الأقل حتى ذاك النصف الثانى من القرن (٥) ق.م ، وتكريس كل تلك الميزانيات وحجم الأعمال ، على مدى (١٥) عامًا ، وإيمان القيادة السياسية بأهمية المشروع ، والإصرار على إنجازه .

سابعًا : التمكن الفنى العظيم من أدوات النحت وخاماته: الخشب، والعاج، والذهب ، بين أيدى بعض الفنانين الموهوبين وشهرتهم فى كل أرجاء اليونان .

لـوحــــة (١)



Photograph by courtesy of the Royal Ontario Museum, Toronto

THE 'GOLDEN IMAGE' OF ATHENA

Reconstruction of the chryselephantine statue by Pheidias in its setting in the Parthenon

(See J. W. Graham, 'Acropolis and Parthenos', pp. 82–83)

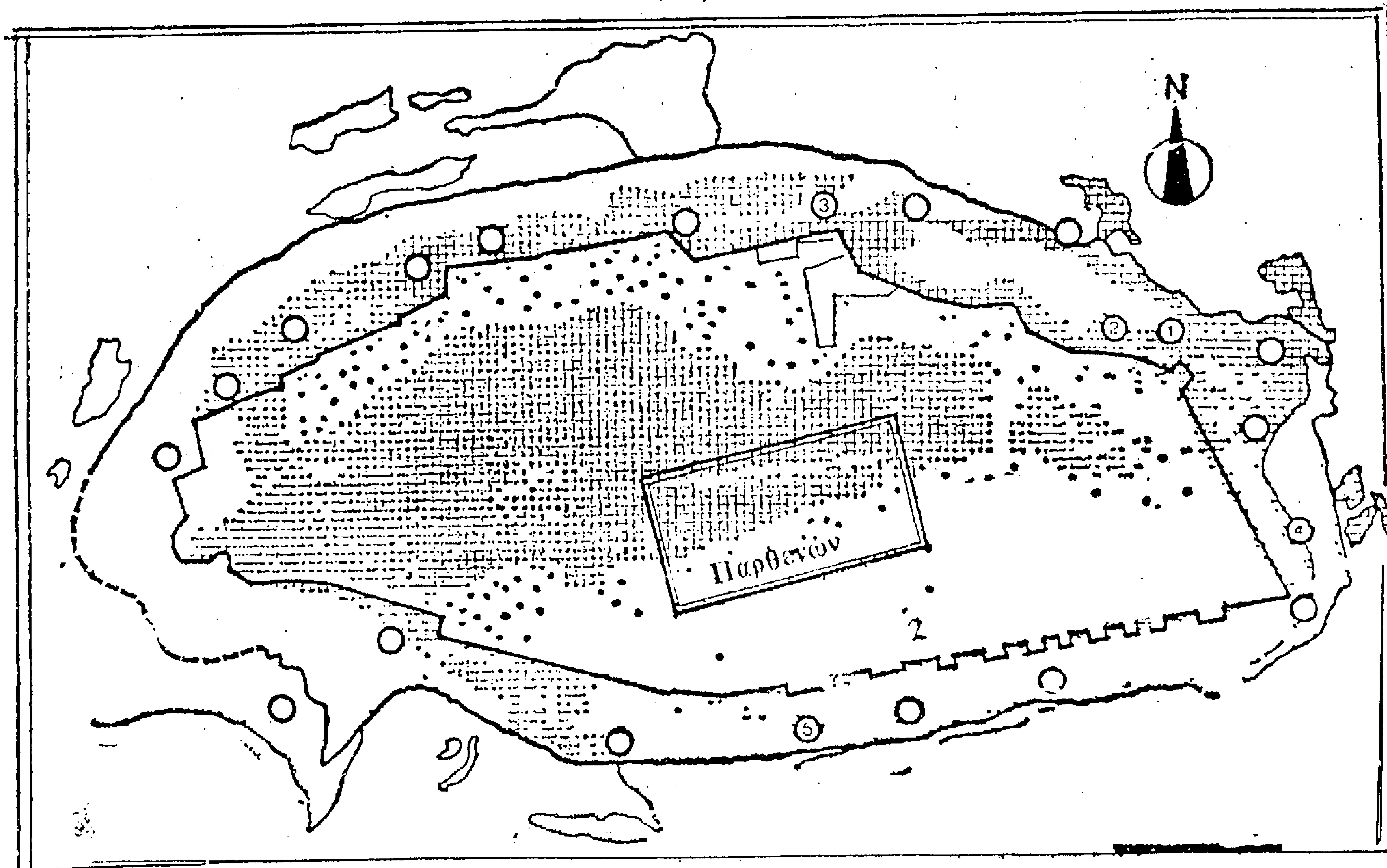
ماكيت تخيلى لتمثال الربة أثينا – على أساس النماذج الرومانية اللاحقة – على قاعدته وبصحبــة كــل رموزه المقدسة ، داخل قاعته قدس الأقداس (Cella) ، حيث يرتفع الســقف دوريــن / أو / مــرة ونصف تقريبًا . والصورة منقولة عن متحف أونتاريو الملكى – تورنتو – كنــدا . لاحــظ التــاج، ذا الخيول الثلاثة، والدرع وتمثال الربة نيكى المجنحة ، إلهة النصر ، واقفة فى الكف الأيمن للربة أثينا .

لوحة (٢)



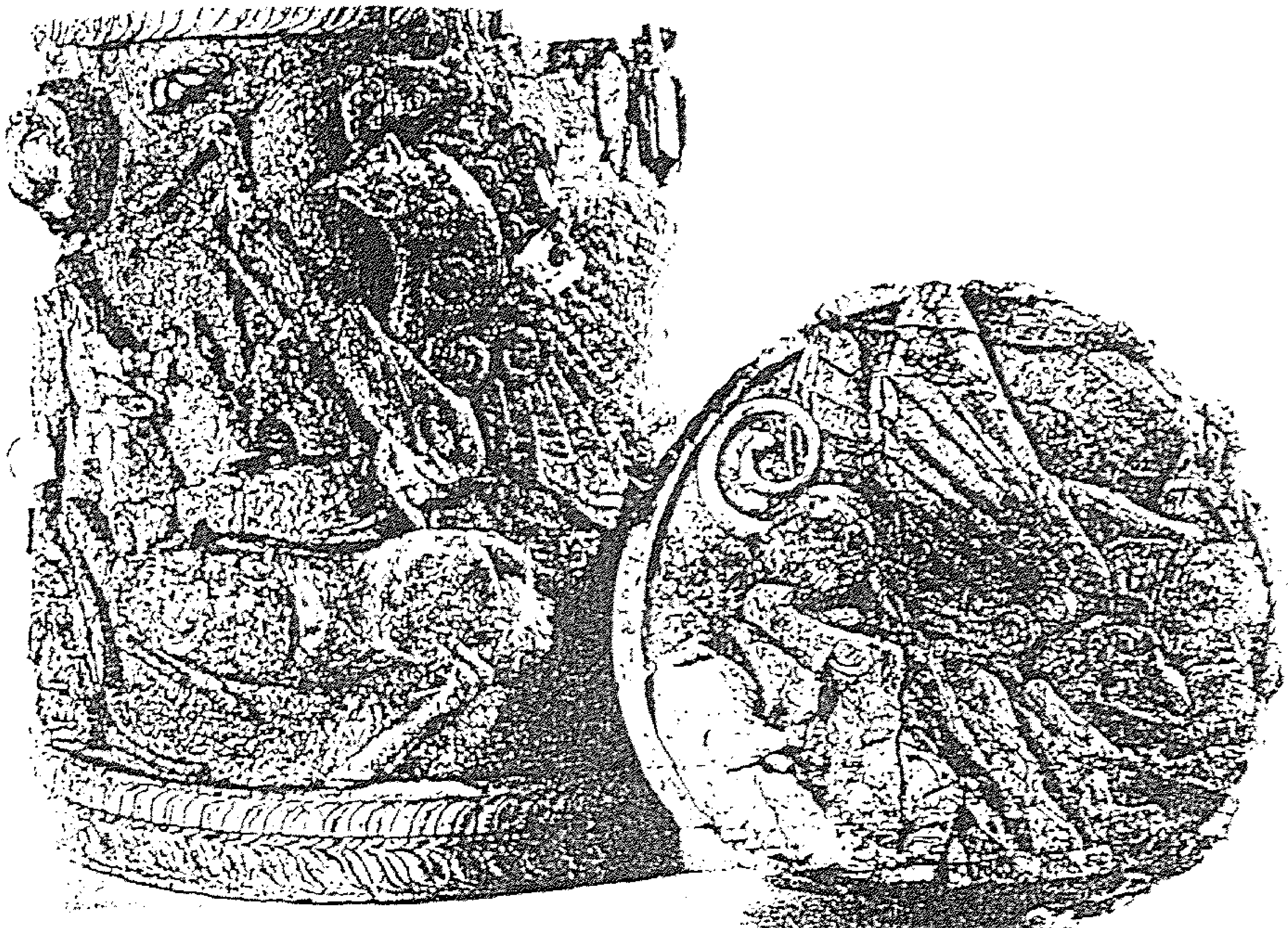
محاولة رسم دقيقة للغاية لملامح التمثال السابق ، مــع إبــراز تفــاصيل كثــيرة لمكونات التمثال المقدس (e parthenos) .

لوحة (٣)



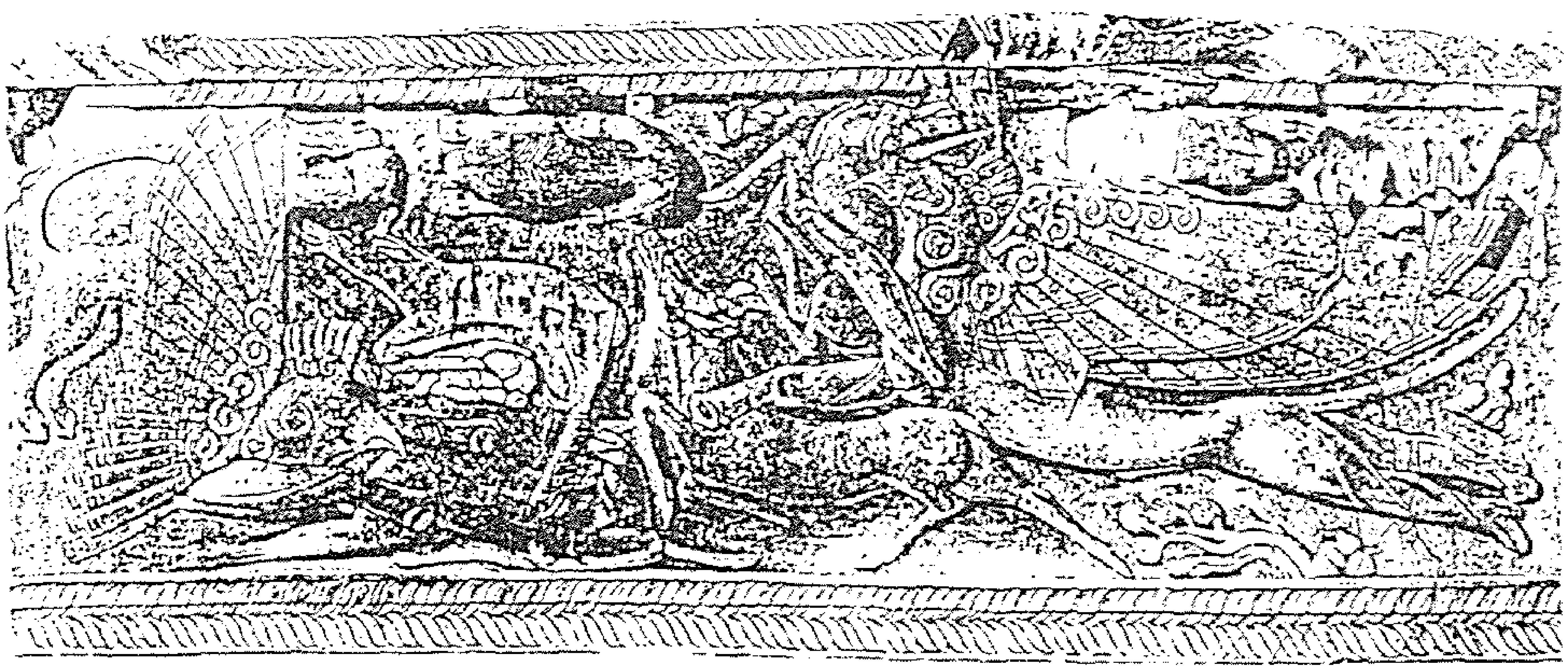
خريطة منشورة فى دورية نقابة المهندسين المدنيين اليونانيين ، عدد / إبريل – مايو ١٩٨١ ، مشفوعة بدراسة للمهندس أ. موتوكروسو حول «أعمال التقوية لصخرة الأكروبوليس فى أثينا» ، حيث تتضح مناطق التدعيم فى الشمال والوسط لتلحق بالنصف الشمالى من البارثينون نفسه ، كما فى اللوحة أمامنا ، مما يوضح اهتمام يونانى اليوم بكل رموز تراثهم العريق .

لوحة (٤)



(a)

Ivory pyxis (cosmetic-box) carved from a cross-section of a tusk (*above*) from a tomb at Athens of the fourteenth century BC. A development of the decoration (*below*) shows a lively scene of winged griffins hunting deer. Crouched near the top rim are two small lions, seen from above



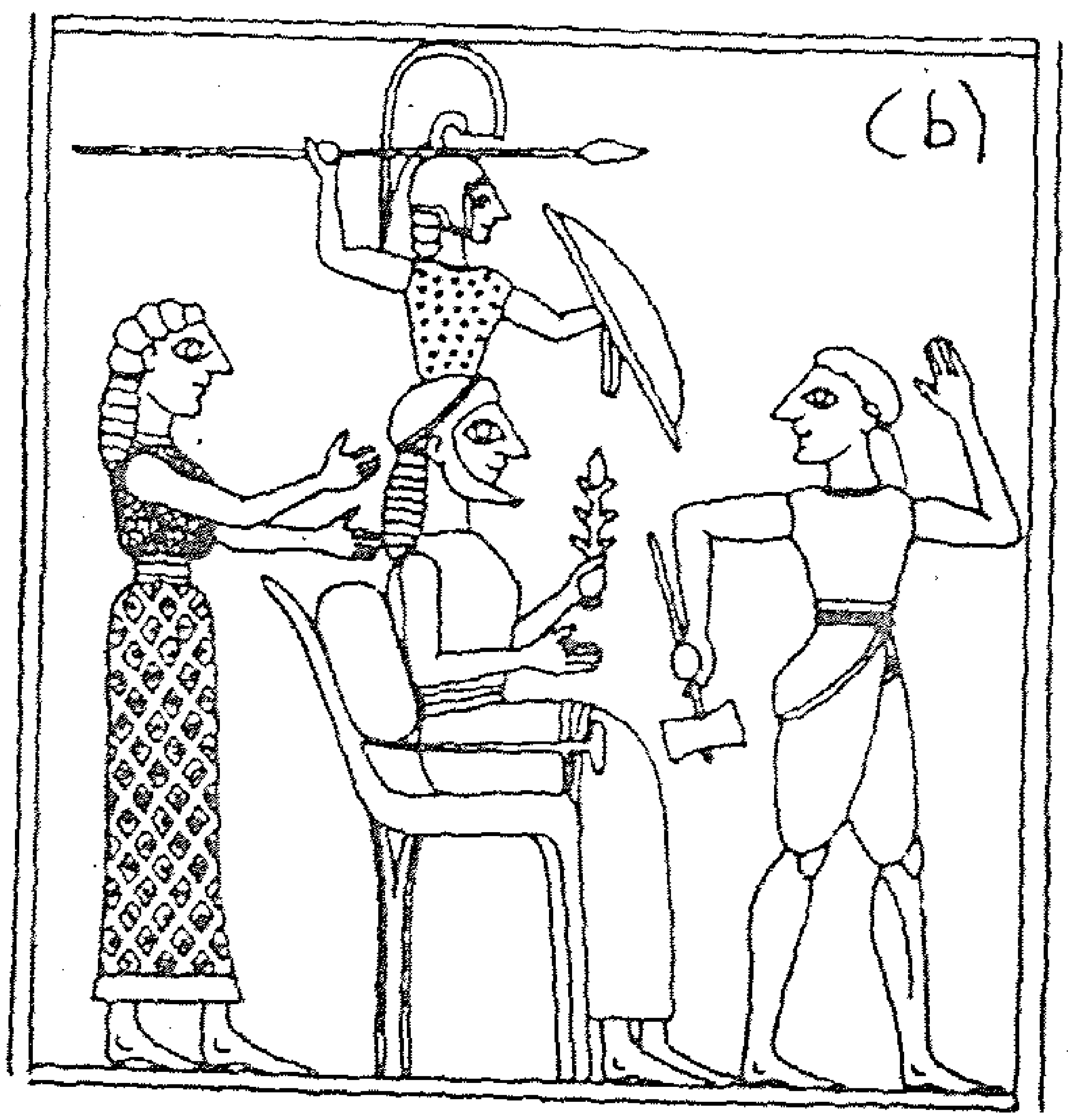
(b)

(a) ، (b) صندوق الزينة العاجى (Pyxis) المكتشف فى مقبرة ميكينية فوق أكروبوليس أثينا ، مع لوحة تفصيلية للموضوع الزخرفى للطائر الأسطورة الــ Griffin، أحد أهم الرموز الملكيــة الميكينية . مؤرخ بالقرن (١٤) ق.م .

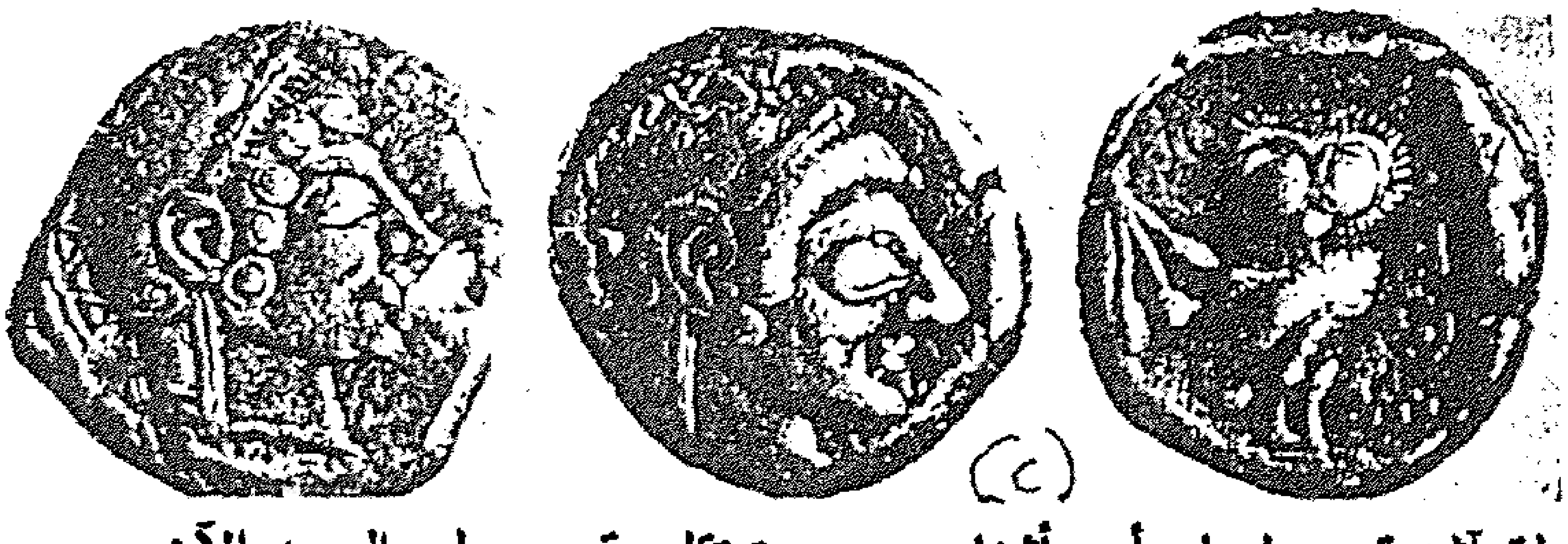
لــوحـــة (٥)



(a) مولد أثينا ، من رأس أبيهاز زيوس ، فى حضور هرميس / أو / هيفايستوس ، الذى يحمـــل المطرقة بيده اليسرى ، كما صورها هنا فى حافة الأناء الصغير ، بينما يمسكها بيده اليمنى فـــى شكل (b) أسفل .

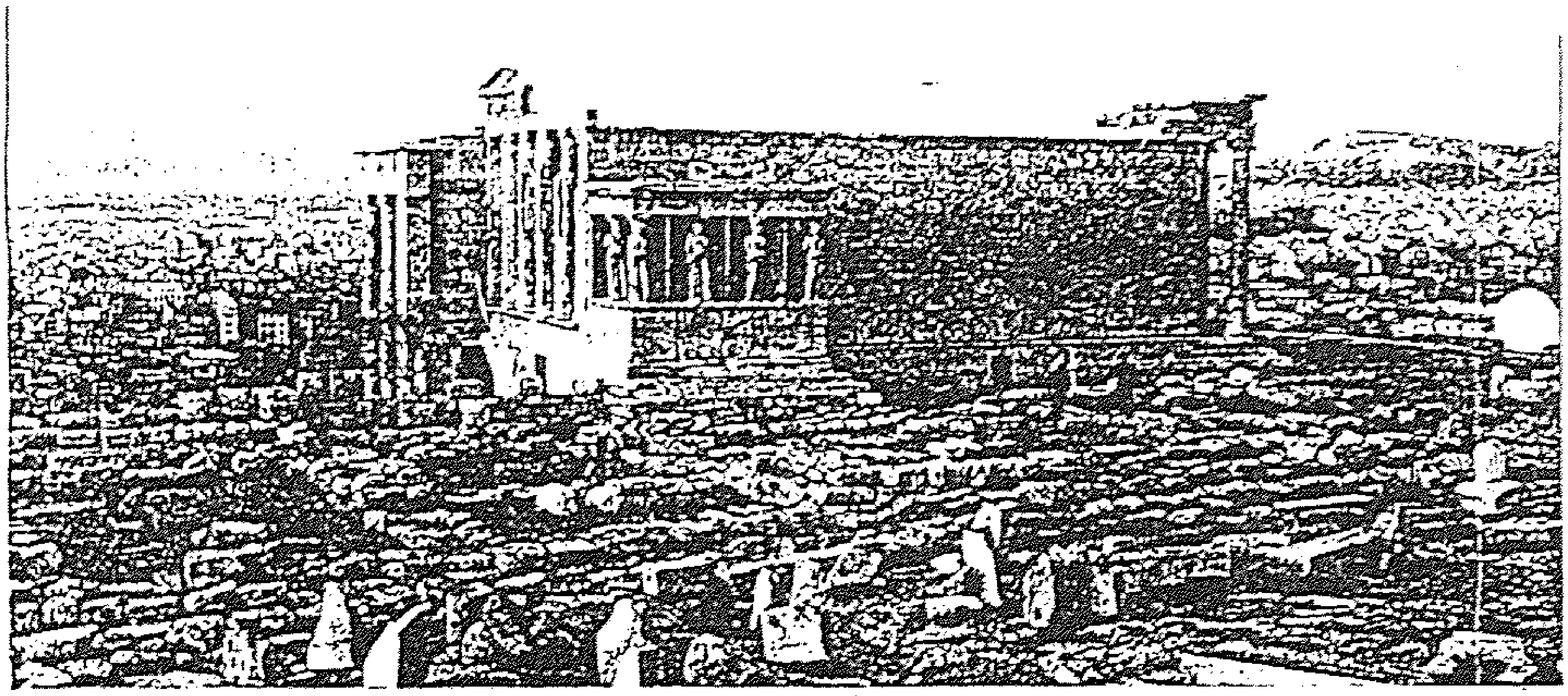


(b) الموضوع نفسه ، مع وجود الحورية إليثيا ، (الكريتية ؟!!!) مما يرجح الأصـــل الــدورى لهذه الأسطورة ، وتم نقلها إلى أثينا وأولمبيا ، حيث تم الكشف عن هذا التصوير فوق لـــوح برونزى ، من القرن (٧) ق.م .

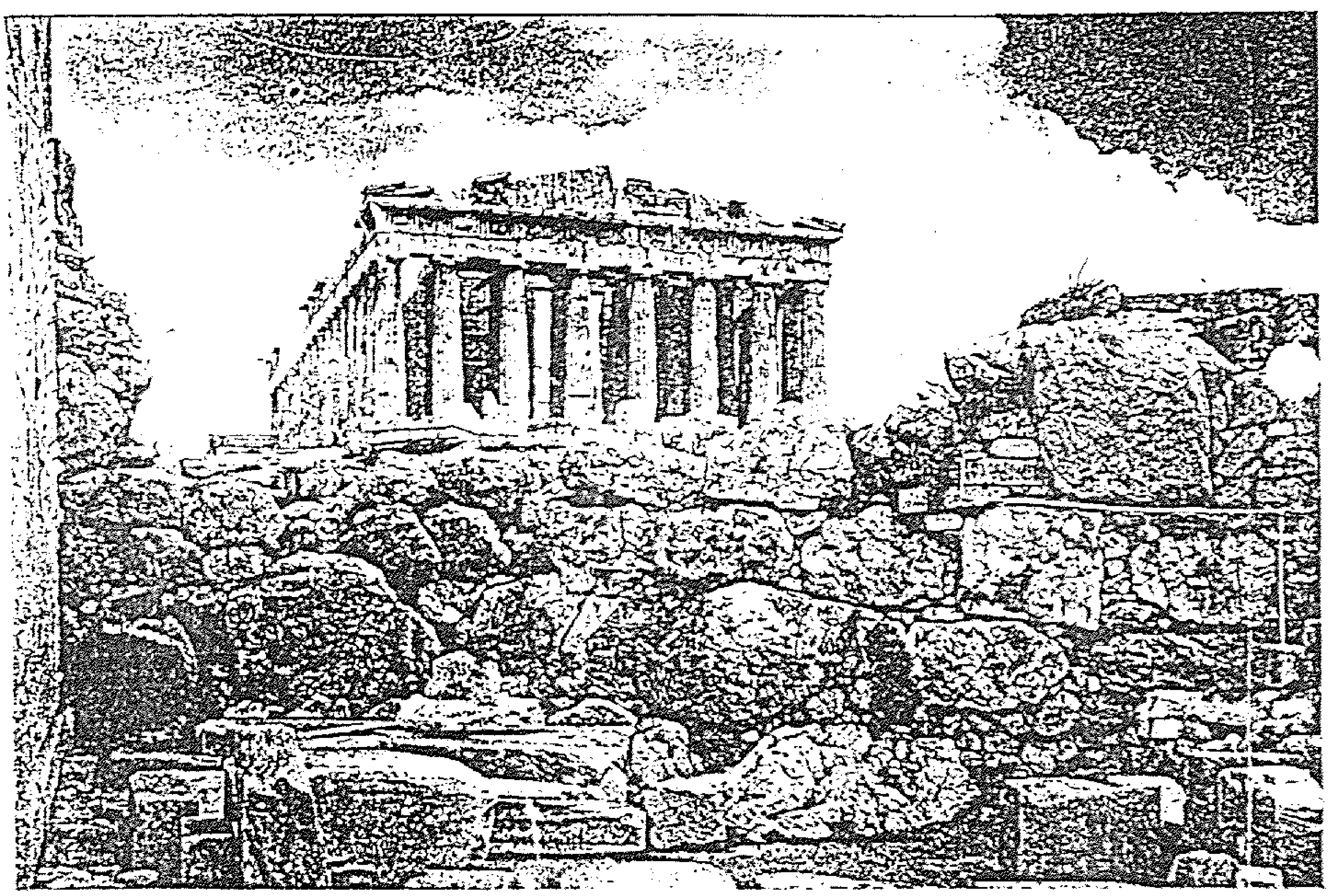


(c) أشكال لعملة آثينية ، عليها رأس أثينا ، بصورة تقليدية ، وعلى الوجه الآخـــر ، لإحداهـــا ، البومة ، الطائر المقدس للربة .

لـوحـــة (٦)



(a)

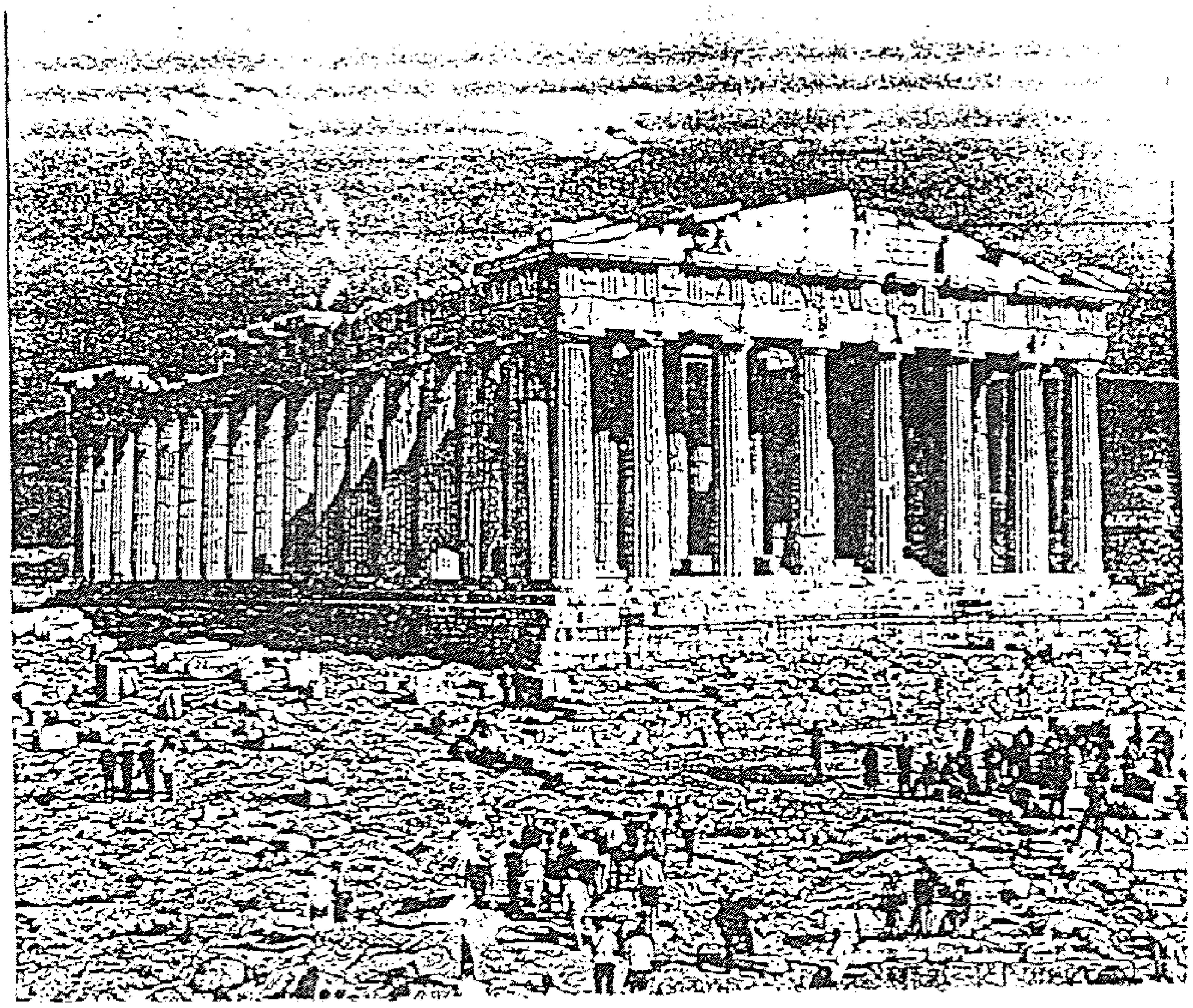


(b)

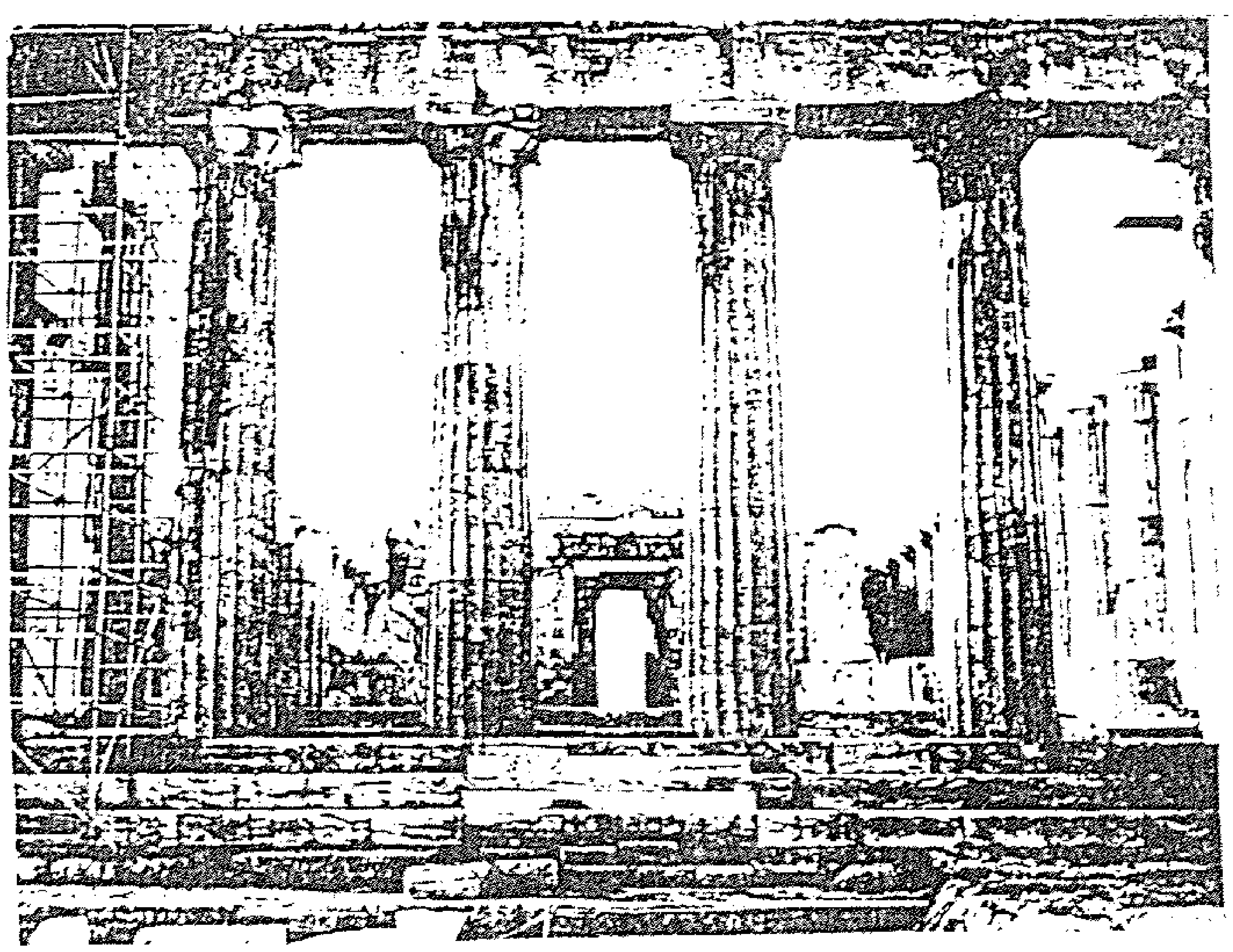
(a) الإرخثيون ، من الجهة الجنوبية حيث مقصورة الفتيــات العــذراوات (Korai) حــاملات السقف، الشهيرات باسم : الكارياتيديس (Kariatydes) .

(b) معبد البارثينون ، كما يرى من الجهة الشمالية الغربية ، والجدار الأقدم ، فى الواجهة هنا فى الصورة ، الحائط الميكينى (١٦٠٠- ١٢٠٠ ق.م) .

لــوحـــة (٧)

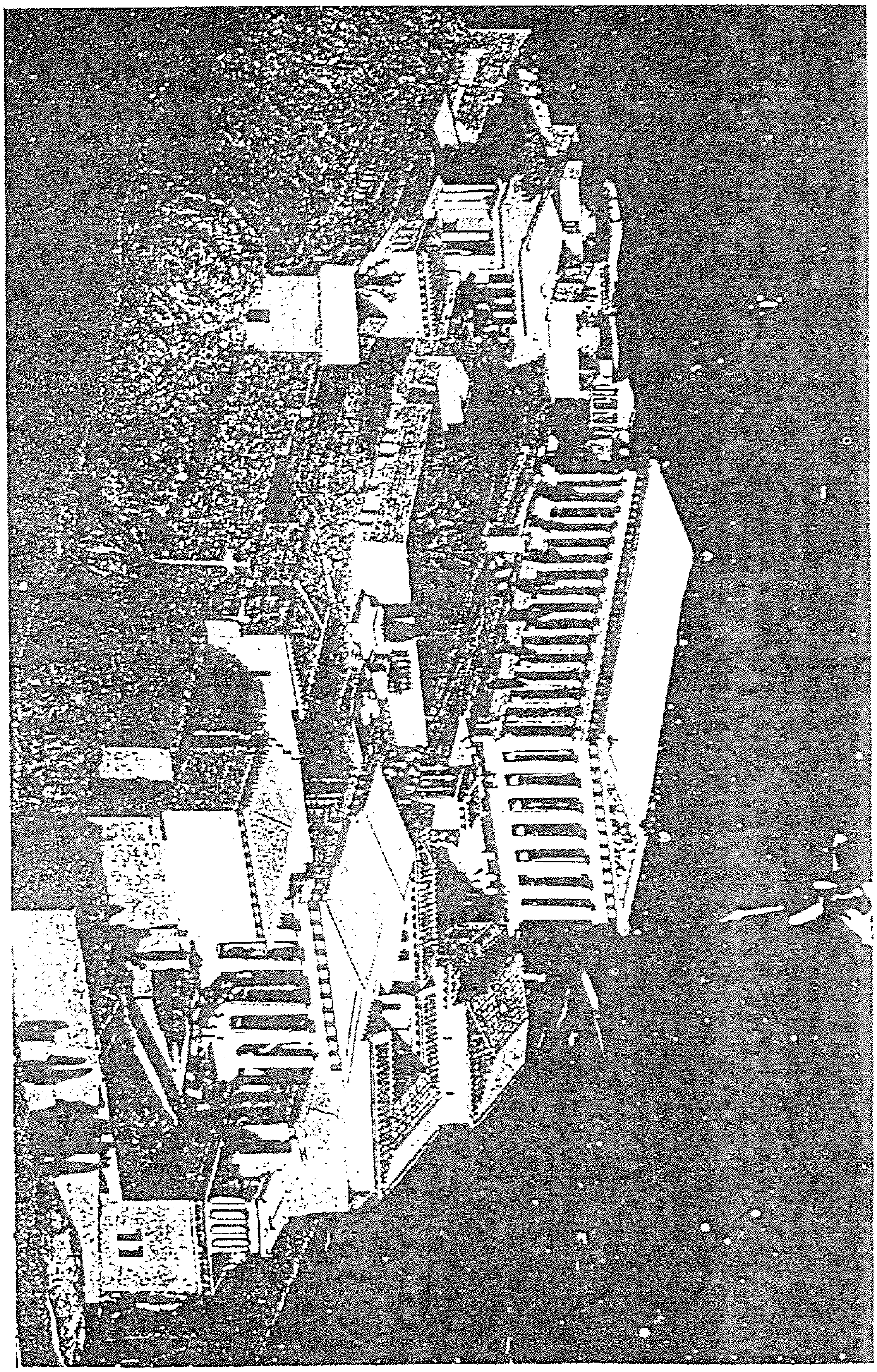


(a) البارثينون ، كما يبدو على حاله الآن ، فى التسعينات من هذا القرن العشرين ، من الواجهة الشمالية الغربية . وهى الأكثر بقاءً وحفاظًا على الشكل الأصلى للمعبد المقدس على الأكروبوليس .



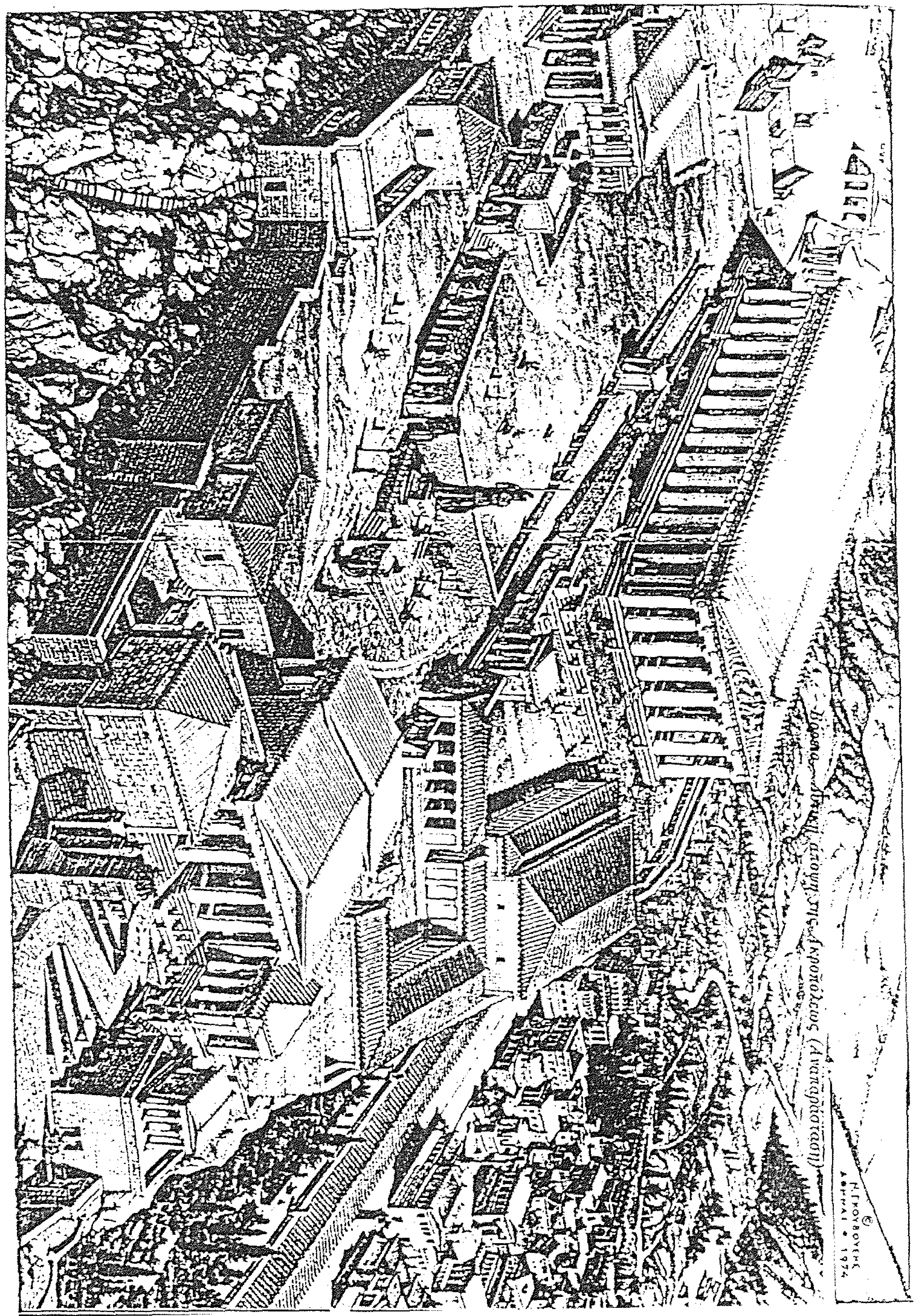
(b) الواجهة الشرقية للبارثينون ، كما تبدو أثناء عمليات الترميم (التنظيف والتثبيت) فى الســبعينات . (كاميرا المؤلف) . لاحظ مكوينات العمود الدورى ، وفتحات التثبيت للميتوبات أعلى التيجان .

لــوحـــــة (٨)



(ماكيت كامل صغير لكل آثار ومبانى الأكروبوليس ، داخل السور العلوى على)

قمة الصخرة المقدسة .



لــوحــــة (٩)

صورة إعادة تكوين تخيلى لكل آثار الصخرة المقدسة « الأكروبوليس » مـــن الجهــة الشــمالية الغربية ، بقلم / جوفوسيس / أثينا ١٩٧٤م .

لوحة (١٠)





ب



(C)

لــوحـــة (١١)



الأيتوما (الجمالون) الغربى ، كما يمكن أن يبدو فى الأصل القديم :

(أ) إستناداً إلى بعض القطع النحتية الباقية حتى يومنا هذا .

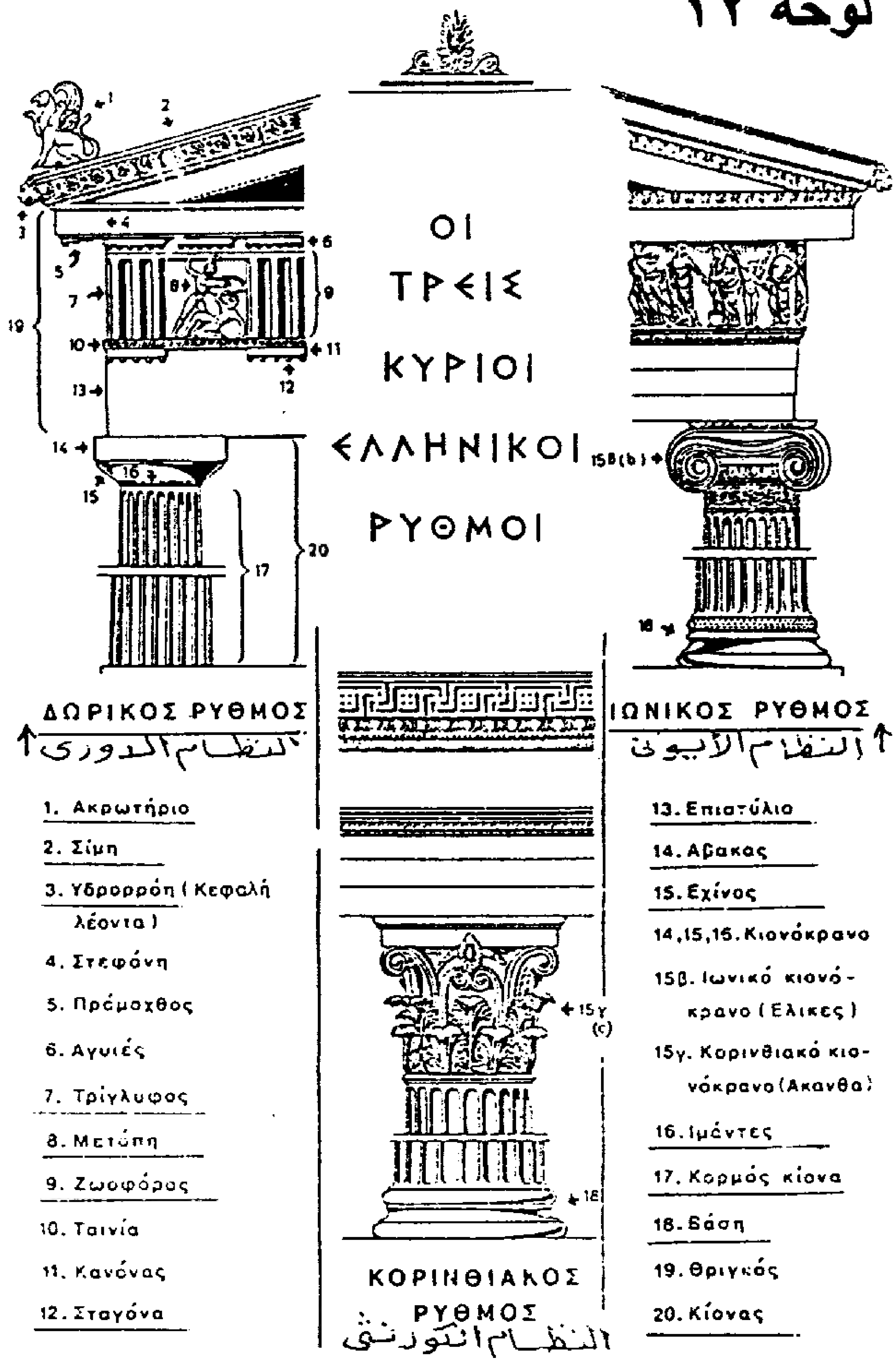
(ب) واعتماداً على الوصف الشامل عن باوسانياس .

(جـ) محاولات الفنانين الرومان (اعتماداً على النصوص اللاتينية وكذلك النسخ المقلدة عن الأصول) لإحياء التراث الكلاسيكى .





لوحة ١٢



أشهر وأهم أجزاء النظم اليونانية الكلاسيكية فى أعمدة العمارة

١ – أكروتيريو (akrotério) ١٢ – ستاجونا (Stagona)

٢ – سيمى (Simé) ١٣– إيستيليو (Epistylio)

٣ – هيدرورّوى (Hydrorróe) ١٤ – أباكاس ('Abacas)

٧ – تريجليفوس (Triglyfos) ١٥ – إخينوس (Ekhinos)

٨ – ميتوبى (Metōpe) ١٦ – إمانتيس (Imántes)

٩ – زوأوفوروس (Zoofóros) ١٧ – كورموس (Kormós)

٢٠ – كيوناس (Kionas) ١٨ – باسى (Básē)

لاحظ الحرص على الإشارة إلى الأجزاء المعمارية بالأرقام نفسها كما فى الأصل اليونانى القديم.

الهوامش

(١) فى دراسة شاملة لكل الجوانب الحضارية فى كريت القديمة ، ولا سيما الجانب السكانى وقضية أصل السكان الأول لأرض تلك الجزيرة فى الألف الثالثة ق. م ، وتفاصيل نظرية إيفانس (Evans) حول ترجيح هجرة مصريين إلى هناك وتأسيس تلك الحضارة استناداً لبعض المتشابهات بين الحضارتين ، فى مصر وكريت آنذاك ، والرد الكامل على تلك النظرية وتفنيد بنودها ، بل ورفضها جملة وتفصيلاً ، راجع كتابنا : تاريخ الحضارة الهيللينية (سلسلة قراءات فى التاريخ القديم (١)) الرياض، دار الخريجى للنشر والتوزيع ١٩٩٧ ، ص ص ٥٩ – ٨٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ص ٩١ – ١٢٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ١٢٧ – ١٣٨ .

(٤) راجع مثلاً :

(a)Snodgrass, A. M., The Dark Ages of Greece, Edinburgh 1971.
(b)Desborough, R. A. The Greek Dark Ages, London – Bonn 1972.

(5) « The Builders of the Parthenon », Greece and Rome, Vol.X (1963), p. 23 .

(6)Ibid., pp. 29 –34

حيث تم تقدير حجم العمالة الماهرة من النحاتين ، بحوالى ١٥ – ٢٠ رجلاً ، لمدة (٣٠) يوماً فى العام ، وعلى مدى (١٥) عاماً تقريباً (من ٤٤٧ / ٤٤٦ إلى ٤٣٣/ ٤٣٢ ق. م.) وأن هؤلاء كانوا قد تقاضوا مبلغاً إجمالياً (لاستكمال نحت الإفريز) Pediment حوالى ١٦,٣٩٢ دراخمة فى العام الواحد . أما إجمالى عدد العمال العاملين فى كل المشروع ، ولكل الأعمال ، فيمكن أن يكون حوالى ١٠٠٠ (ألف) رجل ، وكان الأجر اليومى ، للنحات، لا يزيد عما كان فى بناء الإرخثيون ، وهو حوالى ١,٥ – ٢ دراخمة. وكان هذا مبلغاً كبيراً ، بمعيار عصره ، حتى أن، بلوتارخوس يحتفظ لنا بحكاية طريفة عن أحد الحمالين للأحجار ، كان قد ترك ليستريح ، ولكنه رفض ذلك ، واستمر يهرول إلى جانب فريق عمله ، وكأنه يشجعهم فى صعود التل ، ولذلك قرر الأثينيون ، منذ تلك اللحظة ، أن يقدم له الطعام فى الموقع على نفقة المدينة (راجع /Plut., Cato The elder, 5:8) .

(7)I. E. E., Vol. III.2, Athens 1972, p.

فى واحد من أكبر وأفخم سلاسل التاريخ بايدى يونانية ، فى السنوات الأخيرة، خـرج إلى النورأجود عمل – على أغلـى ورق وبـأحدث تكنولوجيـات إخـراج الكتـب والموسوعات العلمية وبأقلام أكبر علماء اليونان فى التاريخ والآثار – وهو موسـوعة « تاريخ الأمة اليونانية » Historia tou Hellenikou Ethmous فى اثنـى عشـر جزءا ، ومن أكبر دور النشر اليونانية، وهى شركة متخصصة فى نشـر الأعمـال التاريخية

(٧/أ) ولعل أوضح رد فعل اثينى معاصر ، لمجرد انتشار بعض الإشاعات حول مخـاطر انهيار الصخرة المقدسة وما عليها من آثار ، جاء فى تقرير ، أو بمعنـى صحفـى أدق تحقيق ، مطول بقلم السيد / ب. باناپوتوبولو ، فى العدد الأسـبوعى للجريـدة الرسمية اليمينية « كاثيميرينى » Kathemerine ، ليومى الأحد والاثنيـن ١٤ – ١٥ أوغسطس عام ١٩٨٣ ، مؤكدا للكافـة فـى مانشـيت كبـير : « آثـار تـل الأكروبوليس لا تتعرض لأى خطر مباشر » ، وكانت معظـم الجرائـد اليوميـة الآثينية قد كتبت فى تلك الأيام ، عن مخاطر جمة يتعرض لـها التـل المقـدس ، وبخاصة من ارتفاع منسوب المياه الجوفية، فوق الأكروبوليـس ، وكذلـك بسـبب نشاط الأمطار وكثافتها ، ويسجل هذا الصحفى الحس القومى اليونانى ، والآثينـى بوجه خاص ، تجاه « التل المقدس : Hiero Brakho ، لأنـهم يدركـون إدراكـا عظيما أن مصيرهم مرتبط ارتباطا شديدا بمصير مدينتهم ، وكيف أن كبـار السـن منهم يعرفون تماما فضل الأكربوليس وآثاره فى ألا تمتحن مدينتهم بقصف جـوى عنيف – كما حدث لمدن أوربية أخرى – إبان الحرب العالمية الثانية ، ولهذا كلـه ، ودون الدخول فى تفاصيل نوعية الأخطار ، تقرر تشكيل لجنة – من رئيـس هيئـة الآثار آنذاك ،البروفيسور يورغوس ميلوناس (G.Mylonas) ، علـى رأسـها ، وعضوية آخرين من هيئة البحوث الجيوفيزيقية وكذلك الأرصـاد ، فضـلا عـن المدير العام لمتحف وآثار الأوكربوليس السـيد يورغـوس دوفتـاس (Dontas) لمزيد من الاطمئنان واليقين ، مع لجان الترميم الخاصة بالموقع ، على أن تعـرض أعمالها وتقررها خلال أسبوعين على الناس ، وكان القائمون على هذا الأمـر قـد

حددوا حوالى (٢٢) موقعًا تحتاج إلى تدخل سريع ومباشر فى أجزاء التل المختلفة، وبخاصة فى اتجاه الشمال والجنوب منه .

(8) The Greeks and Their Heritages, Oxford 1981, p. 25.

(9) Andrewes, A., Greek Society, (Pelican Books), England 1967, (Rep. 1975, 77, 79) P. 36.

(10) Ibid., P. 37.

(11) Ibid., PP. 32, 41.

ويؤكد بيرن (Burn) فى كتابه The Pelican History of Greece, Penguin Books 1965, [Rep. 79, p. 57.] على أن كل القصة بعودة أبناء هيراكليس ، ما هى إلا اختراع لعمل مصالحة بين إدعاء الملوك الدوريين بأنهم أحفاد هيراكليس وبين الحقيقة القائلة – كما تؤكد الروايات المحلية – بأن هيراكليس كان معروفًا وله أنشطة وأعمال مشهورة فى جنوب اليونان إبان العصر الآخى (الميكينى) .

(12) The Ancient Greeks (Pelican Books), England 1963, (Rep. with revisions 1971, 75, 77) P. 16.

(13) Ibid., P. 28.

(14) Ibid.

(15) Ibid., P. 25.

(16) Homeros, Ody. VIII: 489-491.

(17) Iliad., II: 546-556.

(١٨) جاء فى قاموس أكسفورد الكلاسيكى تحت اسم هذا العلم [(O. C. D.) Oxford, 2nd edition 1970, Rep. 72, PP. 405-406: s. v. Eraechtheus] بأنه هو ملك أسطورى لأثينا ، كانت الربة أثينا (Athena) قد أرضعته ، وغالبًا ما يتم الخلط بينه وبين اريخثونيوس ، ولكن الأسطورة الرئيسية الخاصة بهذه الشخصية هى فى بناته الثلاث أو الأربع وعلى وجه التحديد ابنته خثونيا (Khthonia) التى ضحى بها أبوها لتحقيق النصر على الغازى لإقليم أتيكى ، ابن بوسيدون ، كما أمره بذلك وهى دلفى .

(19) Iliad., II: 558.

(20) Iliad., II: 556.

(21) Odyssey, VII: 80-81.

(22) Hopper, R. J., «Athena and the early Acropolis », Greece and Rome, Vol. X (1963), Supplement, p. 2.

(23) Lysistrata, 640-647.

(24) Periegeseis, I: 27, 3.
(25) Hopper , Op. Cit., p. 4.
وفى تاريخ الموسوعة اليونانية الحديثة (I. E. E., P. 257) ، جاءنا أن الاسمين هما لشئ واحد ، وهى الاحتفال الأثينى للربة أثينا ، والذى حافظ (خلافًا للاحتفالات الباناثينيا والديونيسيا) على المضمون الدينى له ، ذات ليلة من أيام صيف شهرى يونيو ويوليو ، لنقل المتاع السرى للربة ، على أيدى طفلتين صغيرتين ، منحدرتين من أصل آثينى عريق ، وأن تتراوح أعمارهن فيما بين (٧) إلى (١١) سنة ، حتى يقمن بطقوس دينية تستلزم الطهر والبراءة ، وإلا تفسد تلك الطقوس (؟!!) .

(٢٦) ويذهب البعض إلى أن الربة أثينا حصلت على لقبها « أثينا باللاس » ، من انتصارها عليه ، أو من اللفظة اليونانية القديمة « Pallax » ، التى تعنى «عذراء » . راجع / O. C. D., Op. Cit., s. v. « Pallas, » 2, p. 772. حيث نجد رأيًا يخالف ذلك الرأى الأول ، ويميل إلى الاشتقاق اللغوى من معنى « الشابة أو العذراء » الذى كان فى الأصل ، عبارة عن اسم صديقة للربة قتلتها خطأً ، ومن ثم حملت اسمها لتخليدها (؟!!) .

(٢٧) وهناك رأى آخر يؤكد على زرقة العينين كقاسم مشترك بين البومة والربة أثينا ، وليس على شكل البومة نفسه ، راجع / هوبر
Hopper, Op. Cit., p. 6.

(٢٨) مثلما حدث ، فى الاوديسيا (Ody. I: 306-18) عندما تخفت الربة أثينا فى شخصية منتيس (Mentes) الضيف الصديق لأسرة أوديسيوس ، وقابلت ابنه تليماخوس (Telemachus) ، الذى دعاه (وبالأحرى / دعاها) إلى منزله (أو/ قصره) ليقدم له واجب الضيافة ، آنذاك ، وقد جاءعلى لسانه ذكره لمظهرين اثنين كانا معروفين ، بين الأسر الارستقراطية لمثل تلك الضيافة ، وهما : إقامة طيبة لمدة من الوقت ، وكذلك تقديم هدية قيمة للضيف .

(29) Hopper, Op. Cit., p. 6.

(٣٠) هذا بالرغم من إعداد الممر الصاعد للتل ، الآن ، بطريقة آمنة نسبيا ، إلا أن طبيعة الصخر الملساء ، وكثرة الاحتكاك والسير عليه من السياح ، جعله أكثر خطورة للزائرين للموقع . راجع / لخرائط ممتازة للموقع :

Rossiter, S. – Flower, J. Blue Guide Greece, Ernest Benn Limited, London and Jonbridge, 4th edition 1981, pp. 100-104.

(31) CF. Higgins, R. Minoan and Mycenaean Art, Thames and Hudson, London 1967, Rep. 1974, Fig. 160-161.

(31/a) Journal of Hellenic Studies, 95 (1976), pp. 8-17 & CF. Snodgrass, A. M., Archaeology and the Rise of the Greek State, (an inaugural lecture) Cambridge Univ. Press, Cambridge 1977, pp. 30-31.

(31/b) Ibid.

(31/c) Ibid.

(32) CF., Richter, G. A Hand book of Greek Art, (Translated into Modern Greek by K. G. Korre) London 1959, by Paidon press Ltd., Athens 1974, pp. 61-62, for kouroi & pp. 65, 70 for seated Figures.

(33) CF., the O. C. D., Op. Cit., p. 1053, s. v. Themistocles, Also see, e. g., Burn, A. R., The Pelican History of Greece, 1965, (Rep. with revisions 1978, 79), pp. 159-196.

(34) Herod., V: 77.3 & VIII: 144.

(٣٥) لا نعرف أصلاً لغويًا لهذه الصفة (بعد أن أعيانا البحث فـــى القواميـــس اليونانيـــة المتخصصـة) ، كما لا يمكننا التكهن ، إن جاز لنا ذلك ، بموقع جغرافـــى ، بـــهذا الاسم ، على خريطة اليونان القديمة ؟!!! وليس هناك احتمال ثالث لمعنى مثل تلـــك الصفة ، فإما أنها ترجع إلى العنصر السكانى ، وإما إلى المكان نفسه الذى ينتمـــى إليه الشخص المذكور ، كما كان شائعًا فى وثائق أوراق البردى ، من بعـــد ذلـــك ، وكذلك النقوش فى الـــ « stelae » ، قارن مثلاً ، من الفترة نفسها (حوالـــى ٤٤٠ ق. م.) نقشًا على حجر كريم لخاتم كتب عليه : « Dexamenos epoie chios » بمعنى : « ديكساميناوس من خيوس ، صنع هذا » راجع مثلاً :

Boardman, J., Greek Art, (New Revised edition), London. 1987, p. 157, fig. 162.

(36) Paus., I: 26-7.

(37) « The Goddess of the Golden Image », Greece and Rome, vol. X (1963), pp. 17-22.

(٣٨) تحكى الأسطورة ، كما جاءت عند كل من أبوللودوروس (Apollod., III: 14-6) وكذلك باوسانياس (Paus., I: 18-2.) بأن الإله هيفايستوس أنجب ولدًا من الإلهـــة الأرض « Ge » فأخفته عن العيون ووضعته فـــى صنـــدوق ، وأحضرتـــه إلـــى

الأكروبوليس وعهدت به إلى بنات ملك أثينا ، كيكروبـــس (Kekrops) - فــى العهد الأسطورى الأول لنشأة المدينة ؟!!! - محــذرة إيــاهن بــألا يفتحــن ذلــك الصندوق أبدًا . ولكنهن ، مع ذلك ، (بدافع الفضول الأنثــوى الطبيعــى) فتحــن الصندوق ، وراعهن ما رأينه بداخله من طفل رضيع ، هــو إريختونيــوس ، فــى حماية ثعبانين اثنين ، فهرب الجميع ، ولكن أثينا تقدمت إليه وحملته ، وربتــه فــى محرابها ، حتى صار وأصبح إريخونيوس ملكًا على أثينا . وعندئذ رد لــها الديــن وأقام لها تمثالاً خشبيًا على الأكروبوليس ، وأرسى قواعــد الاحتفــال البانــاثينى ، وشارك فيها بنفسه بعربته ذات الأربع خيول (التى هى من اختراعــه هــو ؟!!!) وعندما مات ، تم دفنه فى المحراب نفسه الذىكانت أثينا قد ربته بداخله .

(39) CF., e. g. Athens Acropolis Museum, Nr. 433 (or. J. H. S., XIV, pl. 10 & Kerenyi, Gods of the Greeks, p. 127. & I. E. E., III. 2., Athens 1972, p. 346.

حيث لوحة جنائزية من القرن (٦) ق. م. ، تصور بنات كيكروبـــس يرقصـــون وفى أيديهم إريختونيوس كطفل صغير يرقص معهم(من متحف الاكروبوليس) .

(40) Applod., III: 4.3.

(41) Ibid., I: 1.6. & Paus., IV: 33.1. An Intermediate Greek - English Lexicon, (Liddellend Scott), 7th ed., Oxf. 1968., p. 19.

(٤٢) الأيجيس (Aegis) كان فى الأصل عبارة عن عباءة أو درع للإله زيــوس (كمــا جاء فى أقدم إشارة له فى الإلياذة : Iliad, V: 738 ff. من جلد الماعز، على وجــه الخصوص ، وكانت تتغطى به تماثيل الربة أثينـــا ، علــى أكتافــها وصدرهــا ، وتتوسطه رأس الجورجونا أو ميدوسا ، وينتهى بأهداب على هيئة رأس الثعــابين ، ولمزيد من التفاصيل ، راجع / هيرودوت

Horodotus, IV: 189.

(٤٣) عن أسطورة الجورجونا أو الميدوسا (Medusa) ، راجع / The O. C. D., Op. D., Op. Cit., p. 472, « Gorgo » نحن ، هنا ، ننطق هذا الاســم وفــق مســماه باليونانى الحديث الأشهر .

(44) Paus., I: 27-4.

(45) Hooker, Op. Cit., p. 19.

(46) Finley, M. I., The Ancient Greeks, (Penguin Books), England 1963, (Rep. 1977), pp. 160-161.

(47) Liddle – Scott, Op. Cit., p. 388., وكذلك راجع / هامش (٢٥)

(48) Hooker, E., Op. Cit., p. 20.

(49) Apollod., III: 4,3,13.

(50) Burford, A., Op. Cit., p. 24.

أما النقش نفسه ، فهو منشور ومترجم فى Inscriptiones Graecae, I. 2, Nr. 372.

(٥١) وهو هنا ، للأسف ، غالب وغير واضح على الحجر ، ولم يتم التعرف عليه أو تحديده ، بالضبط .

(52) Plutarchus, Pericles: 12 ff., see (e. g. Plutarch: The Lives of the Noble Grecians and Romans, Translated by John Dryden the Modern Library, New York, U. S. A. 1970, 1st Published and revised by A. H. Clough, 1864, pp. 182-212).

وهنا يعطينا بلوتارخوس تفصيلا لعلاقة بيريكليس المتينة بالنحات فيدياس وثقته الشديدة فيه ، وقيام أحد المواطنين ، أحد اعمال فيدياس ، باتهامه بتبديد أموال مشروع البارثينون ، وتقديمه للمحاكمة ، مما تسبب (وكذلك من جراء تصرفات أسباسيا زوجة بيريكليس) فى توجيه اللوم وإثارة الشكوك حول نزاهة الرجل الأول فى أثينا ، بيريكليس نفسه ، وكذلك يفصل بلوتارخوس فى علاقة القائد الآثينى بحكام إسبرطة اللاكيديمونيين ، ولكنه يشير إلى أن حقيقة تلك التفاصيل غير مؤكدة .

(53) CF., e. g. The O. C. D., Op. Cit., p.

(54) Vitruvius, De Architectura, VII: praef. 3.

(55) Paus, V: 11.9.; VIII: 41.9.

(٥٦) يعرض العلامة الإنجليزى الأثرى الشهير جون بوردمان (J. Boardman) فى كتابه القديم الجديد (حيث يتم إعادة نشره كل حين لبساطته وإحاطته بموضوعه ، منذ عام ١٩٦٤ وحتى الآن ، وبفضل تنقيحه وإضافاته الأثرية المستمرة تمشيا مع نتاج الحفائر الأحدث) للبدايات السياسية المشجعة ، منذ منتصف القرن ٥ ق. م. ، حينما تم نقل خزائن الاتحاد الكونفدرالى بزعامة أثينا ، إلى أثينا نفسها فى عام ٤٥٤ ق. م. ، ومن ثم تمكن بيريكليس من تنفيذ مشروعه العملاق بتزين المدينة

وإقامة المشروعات الدينية والمدنية (بين معابد ومباني عامة) بالقدر اللائق لتلـــك الزعامة . راجع /

Greek Art (New Revised edition, World of Art, Thames and Hudson) Great Britain 1964, (Rep. 73, 85, 87), London, pp. 114-121.

(57) I. G., II. 1675.

(58) I. G., I. 373 f.

(٥٩) هي تلك الثنيات المحززة في بدن العمود اليوناني والتي تميزه دائما بوجودها.

(٦٠) هناك رأي أحدث ومخالف تماما ويستند على شهادة المصادر القديمة ، وهو للســـيدة العالمـــة جيزيللا ريختر (Gisela Richter) صاحبة أشهر مرجع عن الفن اليوناني، حتـــى الآن ، وهو A Handbook of Greek Art, (Paidon Press Ltd.), London 1959. في ترجمته اليونانية بأثينا : Arkhaia Ellenike Tekhne, (Instituton tou Bibliou Athenai 1974. P. 34. (حيث يجمع الخبر التأريخي الجديد (فيما بين عـــام ٤٢١ وحتى ٤١٥ ق. م) بين تمثال الإله ايفايستوس وكذلك أثينا ليؤكد أنهما لـــم يرتفعـــا في مكانهما من معبديهما قبل ذلـــك التوقيـــت ، راجـــع / Cicero, De Natura Deorum, 1.30 & I. G. 2,370, 371.

(61) Robertson, M. 'The Sculptures of the Parthenon ', Greece and Rome, X (1963), P. 47.

(٦٢) ذلك لأن ارتفاع أعمدة البارثينون نفسه ، الحاملة للسقف ، لم تصل أطوالها إلى هـــذا الحد ، وعليه فربما كان في الأمر مبالغة على الأرجح .

(٦٣) لقد تم ذلك بالفعل مرتان :

المرة الأولى : بعد وقت قصير من إتمام عمل تمثال ، وبســـبب كـــثرة الشـــائعات وتوجيه الاتهام فعلا ضد فيدياس بالاختلاس مـــن الذهـــب المشـــترى لاستكمال زينة العمل المقدس للربة أثينا ، وذلك بـــهدف إعـــادة وزن تلك الرقائق الذهبية والتثبت من الواقعة .

المرة الثانية : بعد حوالي قرن ونصف ، عندما أمر بذلك الدكتاتور الآثيني المدعـــو لاخاريس (Lachares) لكي يدفع مرتبـــات جنـــوده ، وحـــاصره

ديمتريوس واستولى على أثينا فى عام ٢٩٥ ق. م راجع
. O. C. D. P.575.

(٦٤) راجع هامش (٤٢) و(٤٣) مما سبق .

(٦٥) الهامش نفسه .

(٦٦) كان الثعبان – كما ذكرنا من قبل – هو التجسيد الملكى للإله الأقدم فى موقع الأكروبوليس ، إريخثونيوس ، وظل كذلك طيلة قرون حتى جاءت الربة أثينا واستطاع كهنتها المزج بينه ، كرمز ملكى أقدم للحاكم المحلى ، وبين الربة القادمة فى أسطورة خالدة لتبرز الدور الجديد لها ، مع الإبقاء على ذلك الرمز الأقدم ، الذى ارتبط بمثل تلك الأرواح الأرضية على شاكلة ثعبانية .

(67) O. C. D., op. Cit., p. 50.

وهن محاربات (Amazones) من الفتيات اللائىيسكن على حدود العالم المأهول القديم ، يختلطن بالرجال ، فى مواسم معينة وعندما ينجبن يقتلن أطفالهن الذكور ، ويستبقين البنات ، حتى إذا كبرن ، قطعن ثديهن الأيمن حتى لا يرضعن ، ومن ثم جاء اسمهن (a + mazos) ، بمعنى : اللائى ليس لهم حلمة للرضاعة / وكان أول ذكر لهن عند هوميروس ، فى الإلياذة ، بالكتاب السادس .

(٦٨) وهى الأجزاء المستطيلة الصغيرة ، الحجرية ، التى تقع بين تريجليفين (Triglyphs) ، أعلى العتب (وفوق الأعمدة) وأسفل السقف المثلث (Aetoma)، للمعبد . وهى هنا جمع ، ومفردها ميتوبى (Metope) بمعنى : واجهة .

(٦٩) ومن بين هذه الأسباب ، مثلا ، وقوع انفجار على الأكروبوليس عام ١٦٨٧م ، مما عرض حوالى ٩ ميتويات كاملة للتلف التام ، وبالتالى فإن موضوعاتها لا يمكن اليقين حولها ، وإن كان هنا ترجيح قوى بأنها تناولت حياة إريخثيوس .

(٧٠) هى الجزء المعمارى ، المثلث الشكل فى الواجهة وانظهر للمبعد ، حيث ينحصر فيما بين السقف والميتوبات والتريجليف ، أما التسمية اليونانية (الأيتوما) ، فمن المحتمل ، أن تكون مشتقة من لفظة (aetos) ، أى / الصقر ، حيث يتفق اللفظان فى علو مكانهما ، وسيادتهما على مادونهما من أشياء . إن هو المعروف فى مصطلحات العمارة ، عندنا ، باسم « الجمالون ».

(71) Robertson, op. Cit., p. 51.

(٧٢) هذا الموضوع ، بالضبط ، ظهر فى رسومات الآنية الآتيكية ، التى تـؤرخ بـالقرن الرابع ق. م ، مما يؤكد وجوده ، فوق البارثينون ، بهذا الشكل الأصلى . ويبقـى أن نذكر ، بكل أسف ، أن كثيرًا من القطع النحتية لهذا الجمالون توجد الآن معروضـة فى متحف لندن ، وبعضها فى اثنيا .

راجع / British Museum, An Historical Guide to the Sculptures of the parthenon (1962) وهو عبارة عن سجل كامل لكل القطـع النحتيـة التشـكيلية اليونانية ، من البارثينون ، مع عرض تاريخى لهذه التماثيل وكذلك راجـع / N. Yalouris-F. Kenett, Classical Greece: The Sculpures of the Parthenon, London 1960. وفيه لوحات صور جيدة / وبخاصة تلك القطـع فـى المتحـف البريطانى بلندن .

قبرص فى المصادر المصرية القديمة

د. محمد السيد عبد الحميد(*)

قام البحر المتوسط بدور كبير فى تشكيل تاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم ، فعلى سواحله نمت وترعرعت مدنيات العالم القديم ، وكان لتقاربها فى أكثر من موقع وكثرة الجزر التى تنتشر فى أرجائه الدافع الأكبر فى الاتصال بين شعوبه واحتكاكهم وأن يرتبطوا ببعضهم البعض ولحضارتهم أن تتداخل وتمتزج ومن ثم تصبح مراكز لوحدات حضارية إن لم تكن متجانسة تماما فى كثير من مناطقها فعلى أقل تقدير متكاملة(١) .

وكما هيأ موقع مصر الجغرافى لها أن تلعب دورا فعالا على مدى تاريخها الطويل فى التأثير على حضارات غيرها من شعوب المنطقة ؛ فإن هذا الكلام ينسحب بدوره على قبرص(٢) ، كجزيرة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط لها دورها ، وأهميتها الجغرافية بسبب موقعها الممتاز الذى يتوسط القارات الثلاث آسيا وأفريقية وأوروبا مما جعلها همزة الوصل الحضارى بين بلدان الشرق الأدنى القديم والغرب ، فضلا عن كونها من أكبر موانيه البحرية(٣) .

وباستثناء السلاسل الجبلية المحيطة بها فإن السهول الخصبة الصالحة للزراعة - التى ساهمت فى اتصال سكان قبرص ببعضهم البعض منذ أقدم العصور - تشكل الجزء الأكبر من طبيعة الجزيرة(٤) .

ومعنى هذا أن النشاط السكانى فى الجزيرة تركز فى البداية فى المناطق الداخلية . وبالإضافة إلى ذلك فإن توافر الموارد المعدنية (النحاس) فى مناطقها الداخلية واكتشافه بها مع بداية القرن السادس عشر ق. م. أدى إلى تحول الاهتمام إلى المناطق الساحلية وخاصة فى مدينتى انكومى Enkomi وكيتيون Kition (شكل ١)

(*) مدرس التاريخ القديم - كلية الآداب - قنا - جامعة جنوب الوادى .

مما شجعها على الاتصال بعالمها الداخلى المتمثل فى مناطق بحر إيجة وبلاد اليونان الداخلية من جهة والعالم الخارجى المحيط بها وخاصة مناطق الشرق الأدنى القديم ومصر من جهة أخرى[٥] ، مما أسهم بطريقة فعالة فى إثبات الكرونولوجيا الصحيحة للآثار القبرصية عن طريق الكرونولوجيا المصرية التى باتت تحدد كرونولوجيا الحضارات الأخرى ببلاد اليونان وكثير من بلدان أوروبا والشرق[٦] وبناءا على ذلك أمكن تحديد الحضارة القبرصية القديمة بثلاثة عصور متعاقبة :

العصر القبرصى المبكر E. C. (٣٠٠٠ - ١٨٠٠ ق. م.)

(٢٣٠٠ - ١٩٠٠ ق. م.)

العصر القبرصى المتوسط M.C (١٩٠٠ - ١٦٠٠ ق. م.)

العصر القبرصى الأخير L.C. (١٦٠٠ - ١٠٥٠ ق. م.)

وهذه العصور الثلاثة تكاد توافق على وجه التقريب عصور الدولة القديمة فالوسطى فالحديثة المصرية[٧] .

ومما سبق يتضح لنا أن قبرص كانت تشغل مكانة مرموقة بين المجتمعات القديمة فى عالم البحر المتوسط ، الأمر الذى هيأ لها الفرصة للقيام بدور فعال فى تاريخ المنطقة[٨] .

لقد أدت أعمال الحفائر والتنقيبات الأثرية المتواصلة فى المواقع الأثرية المختلفة داخل الجزيرة إلى الكشف عن آثار عديدة تدل على وجود علاقات متبادلة بين قبرص وجيرانها فى الشرق الأدنى ومصر خلال عصر البرونز المتأخر ١٦٠٠ - ١٠٥٠ ق. م الذى - يتزامن مع فترة الاستيطان المينوى والموكينى فى

قبرص - بزغت فيه بوادر ثقافية قبرصية جديدة ومراكز حضارية جديـــدة أهمـــها إنكومي ، كيتيون ، مورفو - تومبا توسكورو ، فريسي، توباربـــا فـــى لابيثـــوس ، مواقع التعدين فى نقوسيا ، وأثينـــوا وتيكـــى وآغيـــوس ســـوزومينوس وأبليكـــى وماثياتيس[٩] .

وقد يسرت طبيعة الملاحة فى البحر المتوسط سبل الاتصال المبكر لقـــبرص بحضارات الشرق الأدنى القديم والعكس ... ، وأصدق صورة لذلـــك رحلـــة « ون آمون »[١٠] عبر طريق الشرق (شكل ٢) الذى يعد أكثر أمنا وخاصـــة بالنســـبة للسفن الصغيرة ، ومن أنسب الطرق البحرية فى العصور القديمة[١١] .

ويرجح أن الحاجة الاقتصادية قد عجلت التعاون فيما بين مراكز الحضـــارة القديمة فى الشرق الأدنى . وربما كان لتوافر النحاس فى الجزيرة وحاجـــة مصـــر إليه هى التى دفعتها إلى الملاحة البحرية والتجارة البعيـــدة المـــدى التـــى كـــانت عناصرها الأساسية موجودة منذ الألف الثانى ق. م ونظـــرا لأن مصـــر الأقـــوى والأرفع حضارة ، بالإضافة إلى كونها أكثر اكتفاءا ذاتيا من قـــبرص منـــذ أقـــدم عصورها ؛ لذا يرجح أن القبارصة كانوا هم البادئين فى الاتصال بمصر ، ومن ثـــم يبدو لنا أن العلاقات المصرية القبرصية كانت على غرار العلاقـــات المصريـــة - الكريتية ذات صبغة تجارية[١٢] .

الواقع أن تحديدا زمنيا لبداية تاريخ العلاقات المصرية القبرصية أمر صعـــب الجزم به ، وبخاصة فى عصرى الدولة القديمة والوسطى ؛ نظرا لأن وثـــائق كـــلا العهدين لم تشر إلى هذه الجزيرة . وعلى الرغم من غياب الدليل الوثـــائقى القـــاطع إلا أنه يرجح قيام علاقات أو صلات من نوع ما مباشرة أو غير مباشرة فـــى تلـــك العصور ، وكانت غالبا ما تتم عن طريـــق الســـاحل الســـورى خاصـــة مدينـــة « أوجاريت »[١٣] .

ومع ذلك ، فإنه يمكن ترجيح تأريخها بالقرن الخامس عشر ق. م. ويستدل على ذلك بالآثار المصرية التى عثر عليها فى الجزيرة من (حلى وخزف وجعارين) ويرجع تاريخها إلى النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة ، أظهرها تلك الخواتم والجعارين التى عثر عليها فى المناطق التالية :

(أ) Dhima عثر فيها على خاتم نقش عليه اسم الملك تحوتمس الثالث[١٤] .

(ب) انكومى عثر فيها على جعارين منقوش عليها اسم الملك أمنحتب الثالث وزوجته الملكة تى وأمنحتب الرابع ورمسيس الثانى والثالث[١٥] .

(جـ) انكومى عثر فيها على خاتم فضى للملك أمنحتب الرابع بالإضافة إلى خواتم برونزية صدرية ، جعارين ، لؤلؤ بشكل جعران ، ضفدعة ، أوانى من الألباستر والزجاج والفيانس ، وبيض النعام ، ولوحة من العاج بيضاوية الشكل عليها نقش بارز يمثل زنجى[١٦] .

وفى عصر إخناتون أصبحت قبرص حاضرة مملكة ميسينية على علاقة بمصر . ويحتمل أنها لعبت دوراً بارزاً فى تقدم التجارة الموكينية . ويستدل على ذلك بالآثار التى تتمثل فى كسرات الفخار القبرصى الذى عثر عليها فى العمارنة[١٧] يرجح أن تاريخها يرجع إلى العصر الميكينى الثالث(أ)[١٨] . وقد عثر على آثار عديدة فى « أبو غراب » (ثلاث جرار ركابية) « وريفة » (جرتان ركابيتان كرويتان) أحدهما من مقبرة « باسر Pasar » يرجح أنها قبرصية ويرجع تاريخها إلى العصر الميكينى الثالث الانتقالى (أ) و (ب) - وفى أبيدوس عثر على جرار قبرصية يرجع تاريخها إلى العصر الثالث (ب)[١٩] .

ومما يعضد ذلك ما ذكره : هول H.R. Hall من أن القبارصة من أنكومى قد مثلوا فى الوفود الإيجية (كفتيو والجزر التى فى وسط البحر) التى قدمت إلى مصر فى عهد إخناتون[٢٠] .

وقد أسفرت التحريات الأثرية فى كيتيون عن العثور على الآثار التالية:

١ - صولجان خزفى منقوش عليه اسم الملك « حور محب » .

٢ - إناء للخمر منقوش عليه اسم الملك « سيتى الأول » .

٣ - تمثال صغير للمعبود بس يرجع تاريخه إلى القرن الحادى عشر ق. م.

٤ - معبد للمعبود « بس » يرجع تارخه إلـــى عـــام ١٢٠٠ ق.م يشـــبه النمـــاذج المصرية لبناء المعابد(٢١) .

وأخيراً يذكر « هيرودوت » فـــى كتابـــه الثـــالث (فقـــره ٣٩) أن الملـــك «أمازيس»عندما أدرك قوة فارس وملكها « قورش » وشدته ، مقدراً عواقب نشاطه الخطير، سارع إلى إخضاع قبرص وكان ذلك فى عام ٥٧٠ق.م.(٢٢).

وقد أدت وثائق الشرق الأدنى القديم دوراً مهماً فى التعريف بـــهذه الجزيـــرة خلال عصر البرونز المتأخر على الرغم من عدم الاتفاق فيما بينها فى ذكرها باســم موحد ، ولقد جرت محاولات عديدة لتحديد هوية الإشـــارات الـــواردة إلـــى هـــذه الجزيرة فى مصادر هذه الفترة . فالوثـــائق المصريـــة ووثـــائق الشـــرق الأدنـــى المعاصرة لها - تردد اسم ألاشيا (Alashia)(٢٣) ، « ألاسا » (Alasa) ، « إيـــرس ، يرس » (Yeres) أو « إسى ، آسى ، إيزى » (Asy) « وكفتيـــو » (Keftieu) و « كتيم » (Kitim) و « كابتار » (Kaptar) .

والجدير بالذكر انه قد ثار جدل طويل بين المؤرخين حول هوية هذه البلـــدان وأين تقع ؟ وما مدى صلتها بقبرص ؟ وهل هى جزيرة بالفعل أم أراضى قارية تقـــع فى آسيا ؟ وأيها قبرص ؟ والواقع أن عصر الدولة الحديثـــة فـــى مصـــر والعـــالم الخارجى كان عصر لإتصال الشعوب بعضها ببعض ، وفيه شهدت مصر حركـــة هجرة غير عادية منها وإليها ، لم تشهدها من قبل فاستخدموا الأجانب بكثرة ؛ ومـــن ثم أصبحت الأسماء الأجنبية متداولة على ألسنة العامة(٢٤) . وقد تعددت الأمثلة التى

وردت بها تلك الأسماء ومن أهمها - والتى تخص موضوعنا - « ألاشـــيا » وقـــد ظهر فى شكلين :

الاسم وهو « ألاشيا » A-la-si-ia[٢٥]  و « ألاســيا » A-la-si-ia وهى الصورة التى عرفت فى النصوص المسمارية كما وردت فى رسـائل العمارنة. أما « ألاســيا » A-la-sa أو « إيرس » فـــهو المقابل المصرى الهيروغليفى لها . وهاتــان الصورتان همــــا مجــــرد شــكلين لنفس الاسم[٢٦] . وأقدم ذكر لهــذه الأســماء ورد فى النصوص المصريـــة جــاء فى الشكل (P3 – a - la – sa) فى حســاب أرض ، يرجـع تاريخه إلى عهد الملكة « حتشبسوت »[٢٧] .

وقد ذكرت كأحد المدن التى تقع فى مجاورات حلب والفــرات ، فـــى نـــص يرجع تاريخه إلى عهد الملك تحتمس الثالث .

ويرجح أن هذا الاسم كان يطلق على بلاد مهمــــة تقيـــم علاقـــات سياســـية واقتصادية مع مصر وبلدان الشرق الأدنى القديم[٢٨] . ورغم ذكرهـــــا فـــى عـــهد حتشبسوت إلا أن[٢٩] البعض يميل إلى القول بأن العلاقات المصرية الآلاشية كـــانت قد بدأت منذ عصر تحتمس الثالث .

وفى عهد إخناتون تغيرت الأمور عنها فى عهد تحتمس الثالث ففى رســـــائل العمارنة وردت سبع أشارت إلى مملكة تسمى « ألاشـــيا » (EA-33-39)[٣٠]. وفيـــها يخاطب ملكها - الذى لم يذكر اسمه - الملـــك المصـــرى ، والـــذى يرجـــح أنـــه «إخناتون». هذا بالإضافة إلى رسالة (EA 40) من رئيس وزراء ألاشيا إلى نظـــيره المصرى[٣١] .

وقد ورد هذا الاسم فى هذه الرسائل بالأشـــكال التاليـــة : ألاشـــيا A-La-ši-ia (شــكل٣) كمـــا فـــى الرســـائل (٢/٢٣ ؛ ١/٣٤ ، ٣٩، ٢/٣٥ ، ٣٠ ، ٣٨ /٢ ، ٣/٤٠؛ ٥٢/١١٤) والشكل A-La-si-ia ألاسيا كما فى الرسالة(٢/٣٧)[٣٢].

ويلاحظ فى هذه الرسائل أن ملك ألاشيا يخاطب الفرعون مخاطبة الأخ لأخيه، ففى الرسالة(٣٣) نقرأ تهنئة ملك الآشيا لأمنحتب الرابع بإرتقائه العرش ، وينتهز هذه الفرصة ليعرض على فرعون تبادل الرسائل بين الجانبين وقد أرسل ملكها مائتى « تلنت » من النحاس (التلنت وزنة ٥٧ رطلا)[٣٣] (شكل ٤) .

ويستمر الملك الألاشى فى المخاطبة الودية لفرعون مصر «أمنحتب الرابع» ففى الرسالة(٣٤) نقرأ : « هكذا تكلم ملك ألاشيا إلى ملك مصر ، أخى أعلم أننى على ما يرام وأن أرضى على ما يرام ... وقد أرسلت إليك مائة تلنت من النحاس... »[٣٤] .

وفى الرسالة (٣٥) يعتذر الملك الألاشى لفرعون عن صغر حجم رسالة النحاس التى بعث بها إلى مصر (والتى تبلغ خمسمائة تلنت) . فقد حل الوباء ببلاده ودمرها ، وأمتد إلى قصره فقتل ابنه أيضا ، وفى خطابه يلقى الملك الألاشى تبعه ما حدث على المعبود الأكبر نرجال[٣٥] ، وجعله مسؤولا عن موت كثير من المدنيين والمشتغلين بصهر المعادن حيث يقول : « قتلت يد نرجال كل الناس فى بلدى ، ولهذا لم يعد هناك من يستطيع إنتاج النحاس » ويعتذر فى نفس الخطاب عن احتجازه المبعوث المصرى ثلاث سنوات فى بلاده ، ويخبره أيضا أن يد نرجال ما زالت مستمرة فى الضغط على بلده ، بل إنها قد طالت قصره حيث قتلت ابنه[٣٦] .

وفى موضع آخر من نفس الخطاب يطلب الملك الألاشى من فرعون الفضة « فليرسل أخى الفضة التى سألتك عنها فى كميات كبيرة ... »[٣٧] . كما أنه كتب لفرعون فى موضع آخر من نفس الخطاب يرجوه ألا يعقد تحالفا مع ملك «خاتى» أو ملك « شنعار » (سنجر)[٣٨] . غير أنه لم يذكر السبب لذلك[٣٩] . وفى نفس الخطاب نجد أن الملك الألاشى يطلب من فرعون أن يرسل إلى الاشيا متاع أحد رعاياه وكان قد مات فى مصر لصالح ابنه وأرملته[٤٠] . ويرجح البعض أن هذا

الطلب ربما يمثل نوعا من المساومات الدبلوماسية الخاصة التى تعد إرهاصا بمولد القانون الدولى الخاص ، وربما نمت على التنظيم الرفيع للعلاقات الدولية فى ذلك العصر[٤١] . وفى الرسالة(٣٦) نقرأ أن ملك ألاشيا كتب إلى الفرعون يخبره بأنه أرسل إليه قوالب النحاس المنتج من بلده (والآن) أرسلت لأخى ٨ تالنت من النحاس والمتبقى سبع تالنت من أصل ثلاثين تالنت من النحاس) . وبالرغم من أن الرسالة ناقصة إلا أن المتبقى منها يشير إلى غنى ألاشيا بالنحاس[٤٢] .

وفى الرسالة (٣٧) استمر ملك ألاشيا يتودد إلى الملك المصرى ويخاطبه (بأخى) وتتضمن هذه الرسالة إقرار من الملك الألاشى بإستلامه الفضة والخيول من فرعون وعودة رسوله[٤٣] . وفى الرسالة (٣٨) يبدو أن ملك مصر أخذ يتشكك فى إخلاص ملك ألاشيا فاتهمه بأنه يقوم بالتآمر على مصر مع قراصنة من بلاد اللوكى Lukki[٤٤] ، ولذلك كتب إليه ملك ألاشيا مبرئا نفسه من تلك التهمه وينفى مسئولية بلاده عن الخسائر التى تعرضت لها السفن المصرية ، مشيرا إلى أن بلاد اللوكى يغيرون سنويا على أراضى ألاشيا نفسها وينهبون مدنها ، وهم مسئولون عن هذه الخسائر وليس البحارة التابعون له[٤٥] . ومما يؤكد ذلك أنه فى الرسالة (٣٩) يتوسل لفرعون ويرجو إعادة رسله من التجار[٤٦] .

هذا بالإضافة إلى الخطاب(٤٠) الذى يعد من الخطابات الهامة إذ أرسله رئيس الوزراء الألاشى إلى نظيره المصرى يطلب إليه تبادل السلع ، وكذلك يرجوه أن يطلق سراح سفنه وبعض الناس التابعين لملك ألاشيا ويعتقد البعض أن هؤلاء هم أعوان بلاد لوكى الذين أتهم الفرعون ملك ألاشيا بالتواطؤ معهم على مصر[٤٧].

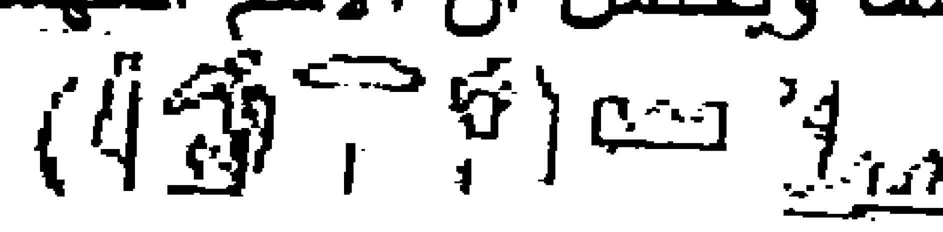
وذكرت ألاشيا - أيضا - فى الخطاب (١١٤) الموجه من (ريبادى) Rib-Addi حاكم بيبلوس (جبيل) إلى إخناتون فى إشارة فحواها أنه جهز لسفر شخص يدعى « أمنامشا » Amanmasa إلى « ألاشيا » أرضاء لفرعون[٤٨].

وفى عصر الرعامسة ذكرت ألاشيا : فى النصوص المصرية فـــى الشـــكل التالى :

إيرس أويرس Yeres  [٤٩] .

ويلاحظ على هذا الاسم أن أول ظهور له كان فى عصر (الأسرة التاســـعة عشر) حيث يذكر فى قائمة على قاعدة تمثال « أبو الهول » يرجع تاريخـــها إلـــى عهد الملك « سيتى الأول » عثر عليها فى معبده الجنائزى بالقرنة نقش عليـــها مـــا يأتى :

« (١ - ٩) قائمة الأقواس التسعة ، (١٠) بلاد خيتا ، (١١) بلاد نـــهرين ، (١٢) إرسا  (١٣) عكا ، (١٤) سميرا ... »[٥٠] .

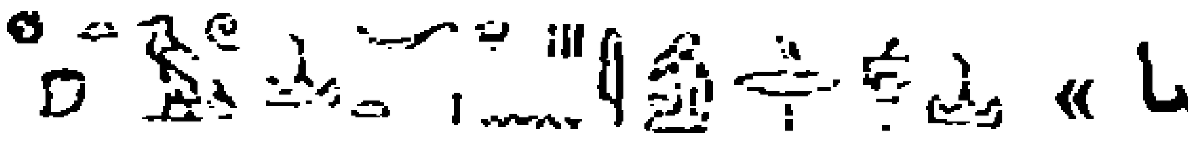
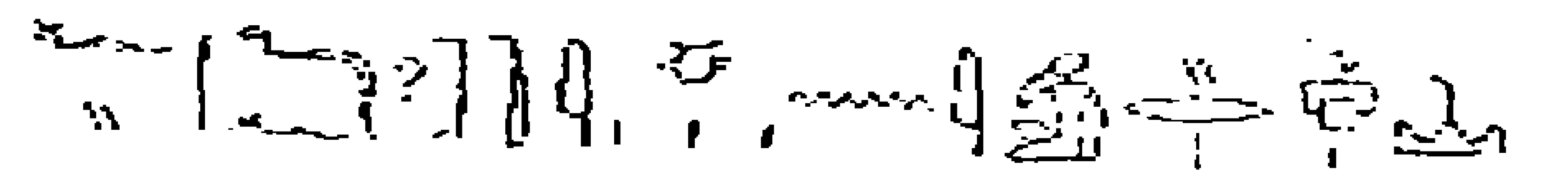
ويذكر « وينرايت » أنه فى مستهل إحدى قوائم الأسرى التى ترجع إلى عـــهد الملك سيتى الأول وبعد ذكر بعض البلاد الأجنبية وخاصة « مجدو Megiddo » نجـد المتن مهشما ويحتمل أن الاسم المهشم الذى يلى « مجدو » وقبـــل « حمتـــو » أنـــه «ألاسا» ،  [٥١] .

وقد ورد هذا الاسم - ايضا - فى قائمة أخرى (للأسرى) ترجع إلى عـــــهد الملك رمسيس الثانى « منقوشة على حائط معبد « سرة » فى النوبة[٥٢] مرتبة علـــى النحو التالى :

(١) نهارين (أعالى الفرات) (٢) خيتا (الحيثيين) (٣) 

ارس Irs (ألاشيـــا = قبرص) ، بدلا من أرش irrh (الألاخ) (٤) (بلاد مـــا بيـــن النهرين) (٥) محطم (٦) كفتيو (٧) ق ... (على الأرجح قرقميـــش) (٨)توينـــب (٩) قادش (١٠) أوجاريت (١١) كدن ، أما بقية القائمة فمحطمة[٥٣] .

وذكرت أيضا فى عهد هذا الملك فى نص واحد مـــع (إســـى) . (ألاســـا) «خيتا» « سنجار » « كفتيو » وفى النصوص المتـــأخرة للأســـرة التاســـعة عشـــرة

إشارات متعددة إلى منتجات « إرسا »  حيث تذكر بردية « انستاسى » « أن زيت » فيدى (Fidi) و « انبو » (Inbu) قد احضروا من « إرسا » (ألاسا) مع زيوت « خيتا » و « سنجارا » وأرض « آمور » و« تيخس »[٥٤] وفى موضع آخر ذكرت أن أبناء « ألاسا »[٥٥] قد احضروا زيت « أيوبا » (Iupa) وذكرت بغا « ألاسا » مع خيول « سنجارا» و« خيتا »[٥٦]  [٥٧] .

ويذكر « ماسبيرو » أن هذا الزيت غير معروف لكن (ربما يكون الزفت ، القار) ، أما « أنبو » فيرى فيه « دى . روجيه » العنب بينما يرجح « ماسبيرو » أنه نوع من أنواع النبيذ[٥٨] .

وفى عهد رمسيس الثالث تعرضت إيرس Irs³  [٥٩]، لهجمات شعوب البحر . ففى نقش السنة الثامنة من حكمه على جدران معبد مدينة هابو نقرأ :

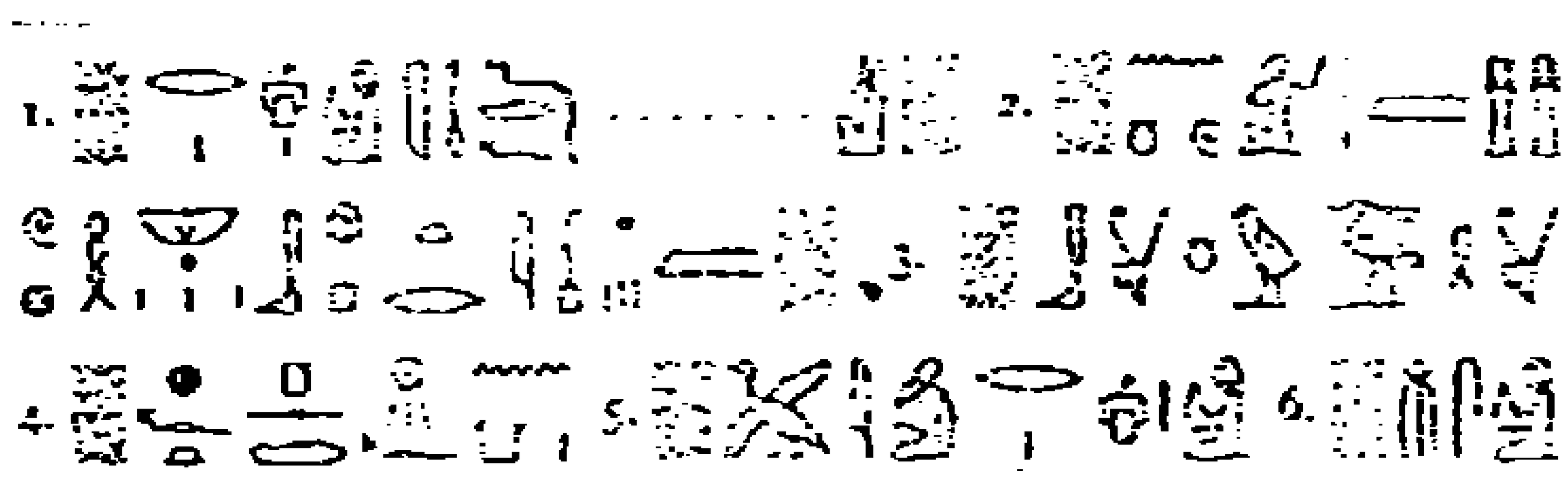
« أما أهل الممالك الأجنبية فقد تآمروا فى جزرهم وقد خربت الأراضى وشتتت فى ساحة الوغى فى وقت واحد ، ولم تكن هناك أرض يمكن أن تقف أمام أسلحتهم من بلاد « خاتى » و « قودى » و« كركميش » ويرث » (إزراوا « كليكيا») « ويرس » (ألاشيا = قبرص) ولكنهم سحقوا فى وقت واحد ... »[٦٠] .

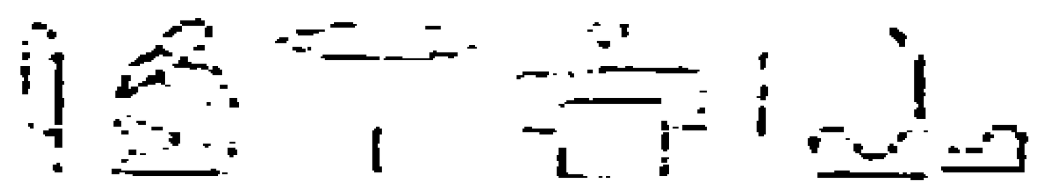
وقد ورد ذكرها - أيضا - فى نقش بالشكل التالى :



ويرجع تاريخه إلى عهد الأسرة العشرين[٦١] . وهذا اسم « يرس » أو « إرس » IRS الذى وجده المؤرخون بألاشيا وطابقوه بقبرص[٦٢] . ذكر ـرة أخرى على لوحة من الحجر الجيرى - فى مجموعة فرايبورج

(Freiburg) فــى بـــــادن (Baden) التــى نفــذت بأســلوب الأســرة التاســـعة عشرة بالشكل التـــالى :



وذكرت « ألاشيا »  قصة « ون آمــون » مبعوث حريحور Hrihor إلى فينيقية للحصول على ألواح خشبية من لبنـــان لقــارب الاحتفالات الخاص بالإلـــه مـــون ، وبعد عـــدد مـــن النكبـــات التـــى صادفتـــــه وصول « ون آمون » إلى ألاشيا حيث لجأ مبعوث حريحور إلى أميرة « ألاشـــيا» « حاتيبـــا »  أو « حتـــب » Heteb[٦٣] ملكـــة قبرص ويقول ون آمون :

« عندما أتى الصباح ، استدعى معيته ووقف فى وسطهم ، وقال « لماذا جئتـم وراءه » ؟ فقالوا له : جئنا وراء السفن المعصوفة التى ترسلها إلـــى مصـــر مـــع خصومنا لكنه قال لهم « لا يمكننى القبض على رسول آمون فى داخـــل أرضـــى . فدعونى أبعده وطاردوه لتقضوا عليه » . وحملنى ، وأبعدنى من هناك عند مينـــــاء البحر . وألقت بى الرياح على أرض « ألاشيا Alashiya . وخرج الذين فى المدينـــة ضدى ليقتلونى ، لكنى اخترقت طريقى بينهم إلى المكان الذى توجـــد فيـــه حتـــب Heteb، أميرة المدينة ، فقابلتها حينما كانت تخرج من إحدى منازلها لتدخـــل مـــنزلا آخرا لها . ومن ثم قدمت لها التحية، وقلت للناس الذين كانوا بالقرب : « أليس ثمـــة واحد بينكم يفهم لغة مصر . فقال أحدهم : « إننى أفهم ، وعلى ذلك قلت له : « بلـغ سيدتى إننى سمعت حتى طيبة ، فى المكان الذى يقيم فيه آمون أن الظلم يرتكب فـــى كل مدينة ، لكن العدالة تقام فى ارض ألاشيا ذلك فإن المظالم تكتب كل موجة هنـا : « فقالت لماذا ، ما الذى تعنيه بقولك ؟ » فقلت لـــها : « إذا كـــان البحـــر هائجـــا والرياح تدفعنى على الأرض حيث تقيمين ، فلا يجب أن تسمحى لهم بقتلى ، لأننـــى

رسول آمون . أنظرى – أما فيما يختص بى ، فسيبحثون عنى كل الوقت! أما فيما يختص ببحارة أمير بيبلوس الذين مالوا إلى القتل ، فلسوف لا يجد سيدها عشرة من بحارتك ، ليقتلهم أيضا » ولهذا أرسلت تدعو لقومها ووقفوا (هناك) ، وقالت لى : « امض الليل » .

وعند هذه النقطة تتوقف البردية . ولا نعرف نتيجة ما حدث . ولكن لما كانت القصة قد رويت فى ضمير المخاطب فيرجح أن « ون آمون » عاد إلى مصر ليروى قصته سالما أو ناجحا فى مهمته إلى حد ما[٦٤] ويفهم من النص أن «ون آمون» ذهب إلى ألاشيا ورأى الحياة فيها وأن الناس فيها يمثلون شعبا واحد تحكمهم أميرة ، ويفسر البعض ذلك باستمرار النظام الأمومى الذى ظلت له آثار باقية فى ملاحم هوميروس وفى أنظمة دويلات المدن الإغريقية وكذا الشرقية . ومن ثم يبدو الأمر عاديا فى قبرص أبان القرن الثانى عشر ق. م أن تحكمهم امرأة[٦٥] .

ومما سبق يتضح أن رسائل العمارنة فى مجملها تحمل طابع الود وذات لهجة دبلوماسية تنم على حرص الملك الآلاشى على أن تكون علاقاته طيبة مع مصر ، وكسب ود الفرعون المصرى ، وعدم معاداته . لذلك نجده دائما يخاطبه بلقب أخى « أنت أخى » . ومن ثم فإن الود والصداقة كانا هما طابع العلاقات بين مصر وألاشيا فى زمن إخناتون . ومما يدل على ذلك الاعتذار الرقيق الذى أرسله ملك ألاشيا إلىإخناتون يعتذر فيه عن عدم تهنئته بعيد تنصيبه وأنه يرجوه ألا يأخذ ذلك عليه وألا يكون سببا فى تكدير صفو العلاقات الطيبة التى بينهما ، وأرسل إليه رسولا يحمل الهدايا الجمة وطلب إليه أن يغدق عليه من خيرات بلاده[٦٦] .

وبلغت رغبة ملك الاشيا فى صداقة مصر أنه حذر فرعون من الدخول فى أية معاهدة مع مملكة « خيتا » أو « بابل » . ونستشف تلك العلاقات الوثيقة بين

البلدين من تلك التلميحات العابرة الواردة فى الخطاب والتى تدل دلالة واضحة على ما كان بين البلدين من روابط وثيقة من الناحيتين السياسية والاجتماعية .

وعلى الصعيد التجارى فإن الخطابات من (٣٣ - ٣٦ ، ٤٠) تدل بما لا يدع مجالا للشك أنه كانت هناك علاقة تجارية بين البلدين تدعمها معاهدات تجارية، إذ كانت مصر تستورد النحاس من ألاشيا وتتلقى فى مقابلها مجموعة مختلفة من السلع أهمها الفضة التى كانت معدومة فى ألاشيا ، والأبنوس وآنية الزيت (٣٦ - ٣٧) . وتعد نصوص بوغاز كوى أكبر شاهد على إنتاج النحاس من قبرص كما تعد ألاشيا مركزا للسفن (رسائل العمارنة ١٣/٣٦(؟) - ١٧/٣٩ - ١٧/٤٠)[٦٧] .

وهكذا يتضح لنا أن بلاد ألاشيا كانت المصدر الرئيسى للنحاس فى عالم البحر المتوسط وكانت تبعث بكميات كبيرة منه إلى مصر . وقد أوضحت الرسائل أنها أرسلت مرة (٢٠٠ تلنت ١٦/٣٣) وأخرى ١٠٠ تلنت (١٨/٣٤) وثالثة ٥٠٠ تلنت (١٠/٣٥) ورابعة ٨ تلنت (٥/٣٦)[٦٨].

ومن ثم يمكن تحديد طبيعة العلاقة بين مصر وألاشيا فى تلك الفترة بأنها ذات صبغة تجارية[٦٩] ، وأن النحاس كان على رأس قائمة البضائع المتبادلة . وأهمية هذا تكمن فى ترجيح اعتبار ألاشيا مصدرا رئيسيا للنحاس وبالتالى ترجيح مطابقتها بقبرص التى كانت تعتبر موطنا للنحاس فى العالم القديم[٧٠] .

والجدير بالذكر أنه قد ثار جدل كبير بين المؤرخين وتعدت آرائهم حول إذا ما كانت كلمة « ألاشيا » التى وردت فى نصوص الدولة الحديثة السابقة هو الاسم الذى أطلقه المصريون على جزيرة قبرص أم لا ؟ . والجدل ليس حديثا بل تمتد جذوره إلى ما قبل عام ١٩٠٠ حول تحديد موقع ألاشيا ، فقد رأى كل من ماسبيرو (١٨٨٨) وأ. فيديمان (١٨٩٠) وم. ميللر (١٨٩٣) أن أصل موقع ألاشيا فى

سوريا على مقربة من مصب نهر الأورنت على طول الساحل ، ويقول « ميللر » أنها تمتد حتى البلدة التى تقع جنوب النهر فى حين أن ماسبيرو يرى أنها تمتد حتى سفوح جبال الأمانوس فى شمال النهر(٧١) . غير أن « ميللر » حاول فى عام (١٨٩٥) أن يبين أن ألاشيا كانت شكلا آخر لاسم « إسى Asy » الذى أقره على أنه قبرص ، أى أن «ميللر» يحول « ألاشيا » من الوطن الأم إلى قبرص ودعم نظريته بناء على إنتاج وتصدير النحاس وسياسة الحياد التى أتبعها الملك الألاشى بين المصريين والحيثيين والتى ركن إليها فى اعتبار ألاشيا جزيرة - أو تقع فى جزيرة مثل قبرص - أكثر من أن يكون مكانا فى الوطن الأم(٧٢) .

وقد أكد « كوندر » هذا الاتجاه فى كون ألاشيا جزيرة وعضد ذلك بمطابقتها مع الاسم أليشه وجزائر أليشة التوراتية (سفر التكوين ١٠/٤ حزقيال ٢٧ / ٧) المصحوبة بكلمة إيبى) التى ترجمت بوجه عام جزر أو جزائر . وقد ظهرت فى محيط يونانى كما ورد فى التوراة « وبنو ياوان أليشه وترشيش وكتيم ودودانيم » ، ومن النص فإن ألاشيا تبدو على وجه التأكيد أنها ضمن مجموعة تتآلف أساسا من أراضى وجزر يونانية ، ومن ثم فإن أليشه هى ألاشيا التى تشير إلى قبرص(٧٣) ، وفى عام ٩٥ / ١٨٩٦ أقر « Jensen » بأن ألاشيا هى قبرص معتمدا فى ذلك على النقش الموجود فى « تاماسوس Tamasos » والذى يطابق الاسم «ألاسيوتاس .Αλασιοτας مع الاسم « أبوللو » غير ان « Jensen » نفسة يقر عدم استبعاد احتمال الأصل الأجنبى(٧٤) .

وقد عارض هذا الاتجاه بشدة « وينرايت Wainwright » واعتمد فى تقييم معلوماته على عدة أدلة :

١ - صناعة وتعدين النحاس فى سوريا .

٢ - العلاقات السياسية بين هذه الأراضى كما تظهر فى حوليات تحوتمس الثالث وخطابات تل العمارنة .

٣ - معادلة ألاشيا مع إليشا التوراتية .

أولا : يذكر وينرايت أن عنصر النحاس ليس عاملا حاسما لمطابقة ألاشيا مع قبرص ، وفوق ذلك فهو يرى أن ألاشيا ليست قبرص بل هى بلدة فى شمال سوريا ويستند إلى أن الجانب الصخرى من هذه الأراضى مغطى بطبقة من النحاس ، وإنه إذا كان النحاس كثير الوجود فى قبرص فسيكون أيضا كثير الوجود على امتداد القارة حسب المعلومات الجيولوجية - جبال امانوس - أو المنطقة الشمالية لسلاسل هذه الجبال . كما أن معدن النحاس الخام موجود بكثرة فى آسيا الصغرى وفى شمال سوريا ، بالتحديد فى منطقة حلب[٧٥] . كما أن مناجم النحاس القديمة توجد فى شمال لبنان وليست بعيدة عن جب (Arba) المجاور لكفتيو[٧٦] و(Riha) فى الرحلة من حلب إلى جبل (Ala)[٧٧] . ويعضد نظريته بأن ألاشيا أراضى قارية ، ولم تكن فى يوم من الأيام جزيرة كما أدعى « ميللر » وأن فكرة الحياد التى استند إليها فى تدعيم رأيه فى كون ألاشيا جزيرة يمكن الرد عليها بان ملك تلك البلدة لم يكن هو الحاكم الوحيد الذى كان يؤمن بمكانه مصر ، إذ أن كثيرا من الأمراء التابعين له لم يبدو رغبة فى التمرد على السلطة بل ظلوا موالين للحكام ، ومن ثم فمن الطبيعى أن يكون موقع هذه البلدة فى الوطن الأم أكثر من كونه فى جزيرة[٧٨] بالإضافة إلى أن كلمة ‎ ‎ أيبى) التوراتية تشير على حد سواء إلى حدود السواحل ، ولا تتضمن بالضرورة جزيرة .

إذن فليست هناك ضرورة فى أن نقول فى « أليشة » سوى أنها بلد ضمن الوطن الأم أو الأجزاء الرئيسية من البلاد - الواقعة فى شمال سوريا وآسيا الصغرى - كما أنه ليس هناك داع لأن نضفى عليها صبغة يونانية بوجه خاص ، أما بخصوص النص التوراتى (سفر التكوين (١٠ / ٤) فقد طابق بين ياوان وأيونيا وترشيش بطرسوس . أما « كتيم » فقد طابقها بقبرص ، غير أنه لم يوافق على مطابقة « دودانيم » برودس بل ذكر بأنه لو أمكن القول بأن دودانيم - الاسم المعروف جيدا فى المصادر المصرية - هى دانوناDanuna(شعب فى شمال سوريا)، فإنه من غير المقبول اعتبار أليشه جزيرة يونانية بسبب جوارها للحدود اليونانية ،

ويخلص « وينرايت » إلى أن موضوع أليشة بالتحديد هو ألاشيا ، علـــى الســاحل بجوار دانونا (شمال سوريا) بالقرب من كيليكيا (طرسوس) وقبرص (كتيــم) . ومن ثم فإن الاسم الأخير يضعف أى احتمال فى النظرية التى تقول أن اليشة هـــى قبرص، وذلك لأن الاسم « كتيم » فى الغالب يوضع فى الاعتبار على أنـــه يشـــير إلى تلك الجزيرة(٧٩) .

ويؤكد «وينرايت» نظريته ذات الاتجاه السورى فى تفسير كلمة ألاشيا بإضافة جزئية أخرى ولكنها دينية وتتمثل فى العنوان .Ἀλασιώτας الموجـــود علـــى نقش « تاماسوس » . وأسماء الأماكن القبرصية الحاليـــة مثـــل (Alassos, Ailasyka Arsos) التى استخدمها البعض دليلا على أن قبرص هى ألاشيا – فإن « ويـــنرايت » لا يعلق أهمية على ذلك ، ويرى أن هذا اللقب يتضمن أن حامله هو إله ألاسى Alas ، غير أنه لم يكن من أصل تاماسوس ولكنه صدر من « ألاسى » إلى هناك ، وأنـــه اضطر إلى الإبقاء على هويته فى الصراع من أجل البقاء مـــع المنافســـة المحليـــة وذلك عن طريق إضافة اسم الأسرة . ويرجح أن تلك كانت عادة ســـائدة بالنســـبة للآلهة المستوردة . وأما بالنسبة لأسماء الأماكن فعلى الرغم من أهميتها الكبـــيرة ، فإن هذه الأسماء تشبه « ألاشيا » ولا تقتصر على « قبرص » ولكنها فـــى أمـــاكن أخرى مجاورة مثل أرسوس على الساحل الشمالى من سوريا(٨٠) .

ولكن محاولة « وينرايت وتقييمه لهذه المعلومات فى تحديد موقع «ألاشيا» لم تلق قبولا لدى قطاع عريض من العلماء وعلى رأسهم «فيركوتيه» عـام (١٩٥٦) الذى يرى أن قبرص تسمى فى النصوص المصرية « ايزى إسى Isy » أو « ايرزا/ إرسا Yrsa » و « ألازيا / الاسيا Alasia »(٨١) .

وفى دراسة له عام (١٩٣١) ذكر « سايس Sayce » أن « كابتـــار » التـــى ظهرت فى معبد « كوم أمبو » (K-p-t-a-r-a) ضمن قائمة جغرافية ترجع إلى عـــهد « سرجون الأكدى » ٢٧٠٠ ق. م جاء فى نهايتها أن التجارة البابلية كانت تمتد إلـــى

أرض القصدير (و) كابتار هى الأراضى التى تقع خلف البحر العلــوى (البحــر المتوسط) ، وترجم التعبير « kuki » المصاحب لها على أنه الرصاص وعليه فــإن « كابتار » تكون إما قبرص أو جزء من الساحل جنوب شرق آسيا الصغرى .

وبالإضافة إلى ذلك يرى أن هناك فرقا بين « كابتار » « وكفتى » يتمثل فــى اللاحقة (ar) التى يفسرها على أنها تعنى جزيرة أو شيئا مشابها، ومن ثم يخلــص إلى أن اسم « كابتار » بقبرص أو بآسيا وليس بكريت(٨٢) .

وقد خرج علينا فريق من العلماء برأى مخالف تماما لما جرت عليــه العــادة من اختلافات بين المؤرخين حول اسم جزيرة قبرص فى الآثار المصرية - مــؤداه أن  « كفتيو »(٨٣) التى وردت فى وثائق الدولة الحديثــة هــو الاسم الذى أطلقه المصريون على جزيرة قبرص ، ويرجــع ذلك إلى ما قبل عــام ١٩٠٠ ورأى « بيرش S. Birch » وتبعـــــه « روجيه G.de Rouge » عام (١٨٥٧) أنها قبرص ، أو أنها كانت تقع فى قبرص نظرا للتشابه بين كفتيو مع الاسم كفتــور أو كافتور التوراتية وعضدوا ذلك ببعض الأشياء الميكينية التى كان يجلبها ســفراء الكفتيو وقرب قبرص من مصر(٨٤) . وتبعهم « شتيندورف Steindorff » فــى عــام (١٨٩٢) الذى قرر أن كفتيو يمكن البحث عنها فى مكان ما فى قــبرص(٨٥)، ثــم «بروجش» عام (١٨٩٨) الذى رأى أن كفتيو هى قبرص(٨٦) .

وفى مقالة له نشرت عام (١٩٧٣) ثم أعقبها بكتابه تحت عنوان كــافتور / كفتيو عام (١٩٨٦) نهج « سترانج J. Strang »(٨٧) منهج السابقين عليه رأى العودة للأخذ بالاقتراح القديم عن قبرص - والذى يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشــر - بدلا من كريت . ويضيف قائلا أن تلك الجزيرة (قــبرص) تفــى بمعظــم شــروط المطابقة الأساسية مع كفتيو / كافتور وقد أورد أدلة عديدة ليعضد بها نظريته منها:

(أ) أنها تقع فى الغرب وفقا للنصوص المصرية .

(ب) أنها جزيرة أو أرض ساحلية فى البحر من وجهة النظر المصرية والآسيوية .

(جـ) أنها قريبة تماما من الأراضى الآسيوية الأم (وفقا لنص سرجون) .

(د) أنها أكبر بلدة تنتج النحاس وتصدره لمنطقة شرق البحر المتوسط فى أواخر عصر البرونز بالإضافة إلى كونها مستقرا لإله التعدين .

(هـ) دخول قبرص العصر البرونزى ٢٣٠٠ ق. م وهو الوقت الذى ذكرت فيه كفتيو / كافتور لأول مرة . وتختفى من الأفق الجغرافى فى نهاية عصر البرونز / لما تداعت تجارة النحاس بسبب الهجرة الكبيرة من اليونان إلى قبرص . وقد عثر على اسم حديث للجزيرة كما أن اسم الجزيرة قبل الوجود اليونانى لم يكن متيقنا منه ، ومع ذلك أشار إلى هذا الاسم فى الخطية (B) (Ku – pi – ri-jo) من كنوسوس .

ويخلص « سترانج » مما سبق أن ما ذكرته النصوص المصرية لهذا الاسم هو لجزيرة قبرص وموقعها ، أو ربما لجزر قريبة منها . وبالتالى ليس هناك ما يستدعى الإشارة إلى كريت بينما يرجح أن اسم « ألاشيا » هو اسم السهل الشرقى فقط ، أو ربما يمكن البحث عنه فى مكان آخر فى قبرص[٨٨] .

ونستخلص مما سبق أن بحوث (برش وروجيه شتيندورف وبروجش وسترانج) أوصلتهم إلى نتيجة مؤداها ان الكفتيو هى جزيرة قبرص . وهذا الفرض لا أساس له من الصحة لعدة أسباب :

(أ) أن ظهور هذه الكلمة فى مفردات اللغة المصرية حوالى نهاية الألف الثالثة أو فى بداية الألف الثانية ق.م مواكبا تماما لظهور الفخار المينوى فى مصر .

(ب) أن اختفاء هذه الكلمة - أيضا من مفردات اللغة المصرية جاء مواكبا - أيضا - لاختفاء السيطرة البحرية الكريتية .

(جـ) أن تصاوير الكفتيو المسجلة على جدران مقابر أشراف الأسرة الثامنة عشرة بطيبة تشبه إلى حد كبير رسوم الايجيين على جدارن مقابر كنوسوس فى تلك

الفترة وأن أغلب سماتهم كلون البشرة وطريقة تصفيف الشعر وعــدم وجـود اللحية، وكذلك نوعا الزى والأحذية - تدل بما لا يدع مجال للشك أنهم ايجيين.

(د) أن أغلب الأشياء التى جلبها الكفتيو سواء المحمولة أو الموضوعـة أمامـهم إيجيبة أو مينوية .

(هـ) أن كفتيو هى كفتور أو كافتور التوراتية ومن ثم فالمعادلة كفتـور = كريـت رغم اختفاء حرف ® من النطق المصرى - التى تشير إلى الساحل الجنوبـى من آسيا الصغرى (جزر بحر إيجة وكريت) .

(و) تميزها عن الجزر التى فى وسط البحر وقبرص .

(ز) أنها تقع فى الغرب من البلاد الآسيوية .

ومن ثم فإن كفتيو هى كريت وليست قبرص كما أن هذه المحاولة لـم تلـق قبولا لدى العديد من المؤرخين[٨٩] .

وفى ستينات هذا القرن ومن خلال الحفائر والتنقيبات الأثرية الحديثـة التـى أجريت فى جزيرة قبرص قدمت لنا العديد من الأدلة التى تشير بقوة إلـى وجـوب المطابقة ألاشيا = قبرص وإقرارها[٩٠] وما يعضد تلك المطابقة ما ذكرته نصـوص الشرق الأدنى المعاصرة التالية :

١ - النصوص الحيثية (بوغاز كوى) ذكرت :

- أن النحاس كان يستورد من جبل « تجاتا » فى ألاشيا .
- وقوع ألاشيا تحت النفوذ الحيثى فى القرن الثـالث عشـر ق.م (مـا ذكـره توتهاليا الرابع) .
- اتخاذ ألاشيا كمكان لنفى المبعدين السياسيين (مثلما نفى قتله « تود خاليـاش » إليها وكذلك نفى « خاتوشيليش الثالث » خصومه إليها) .

- غزو « مادواتاش » - ألاشيا واستيلائه على أسرى منها - أحد أتباع الملك « أرنوانداش الثالث » (١٢٤٥ - ١٢٢٠) ق.م ومطالبة الأخير له بإعادة الأسرى إليه[٩١] .

- انتصار الحيثيين على الألاشيين بحريا وحرق سنفهم فى البحر .

٢ - نصوص « مارى » ورد بها إشارات تفيد بتصدير النحاس إليها من ألاشيا حوالى ٢٠٠٠ ق. م[٩٢] لاستخدامه فى تشييدات قصر مارى .

٣ - نصوص « الألاخ » من القرن الثامن عشر ق.م ورد بها ذكر ألاشيا .

٤ - نصوص « أوجاريت » ورد بها عدة إشارات عن ألاشيا تبين لنا تفاصيل العلاقات بين الجانبين أهمها :

- رسالة من ملك أوجاريت إلى ملك ألاشيا تحوى شكوى من أعمال القرصنة فى أراضى الأول التى لا تحصى بالحماية .

- رسالة من أحد كبار رجال البلاط الألاشى المدعو « أشوارا Eshuwora » إلى ملك أوجاريت تحوى التأكيد على شكوك الأخير فى أحد رعاياه .

- ذكر سفن ألاشيا .

- العثور على فخار قبرصى ، يرجع تاريخه إلى العصر القبرصى المتوسط الثانى .

- وثيقة تتناول بعض الأشخاص الذين فروا من الاشيا إلىالمملكة الحيثية.

- لوحة أوجاريتية يستدل منها على وجود أسرى حرب من ألاشيا فى خدمة عائلة أوجاريتية .

- وثيقة حكم مدون ربما أنطوى على نوع من العقاب يعلم منه أن الملكة الأم لاوجايت قد أخذت أخويين لملك أجاريت إلى ألاشيا للقسم أمام الربة عشتار بأنهما لن يطلبا شيئا فى المستقبل من أخيهما ملك أوجاريت أو ابنه[٩٣] .

كل هذه النصوص ترجح مطابقة ألاشيا بقبرص . هـــذا بالإضافــة إلـــى أن الحفائر والتنقيبات الأثرية الحديثة التى أجريت فى الجزيرة قدمت لنا العديـــد من الأدلة التى تعضد من ذلك الاتجاه ناهيك عن وفرة إنتـــاج النحـــاس فـــى قبرص أهمها :

(أ) العثور على قوالب لصب المعدن منقوش عليها أحرف من أبجديـــة قـــبرو - ميسينية .

(ب) العثور على أدلة متعلقة باستخراج المعدن فى عصر البرونز فـــى عـــدد مـــن المواقع .

(جـ) اكتشاف الخام والخبث فى حفائر موقع مدينة[٩٤] يرجع تاريخها إلى عصـــر البرونز المتأخر يرجح أنها ألاشيا ذاتها .

(د) الكشف عن حطام سفينة غارقة تحت الماء يرجع تاريخها إلى عصر الـــبرونز فى رأس جيليدونيا Cap Gelidoniya[٩٥] على الشاطئ الجنوبى لتركيا ، وكـــانت تحمل كمية كبيرة من قوالب (أو سبائك) النحاس حوالى أربعين سبيكة يرجـــح أنها جاءت من قبرص وبعضها يحمل علامة صاهر المعدن القبرو - ميسينى .

(هـ) العثور على السبائك القبرصية ذات الأضلاع المقوســـة مـــن الداخـــل وذات أطراف (زوائد) أربع ليسهل حملها (استخدامها) والوجه الأسفل للسبيكة بـــه لسان صلب يشبه دفة السفينة مخصص للوصل فى قاعدة . والواقـــع أن هـــذا الطراز من السبائك يعتبر طرازا خاصا بقبرص، وكان يصـــدر إلـــى بلـــدان الشرق الأدنى .

(و) أرجعت التنقيبات والحفائر الحديثة تاريخ بداية المناجم وصناعة النحاس فـــى الجزيرة إلى أواسط الألف الثالث ق.م[٩٦] . وكافة الأدلـــة الســـابقة تؤيـــد أن قبرص كانت تستخرج وتنتج النحاس بوفرة ، ومن ثم فإن هـــذا يدعونـــا إلـــى مطابقتها كمصدر هام للنحاس . وقد ثبتت تلك المطابقة - فيما يرى « ألـــبرايت

كمصدر هام للنحاس . وقد ثبتت تلك المطابقة - فيما يرى « ألبرايت » بالدليل في تقرير « ون آمون »[٩٧] .

ومن الأدلة التي تعضد الرأي السابق ما جاء في الخطاب رقم (٣٥) من أن نقص كمية النحاس ترجع إلى المعبود (نرجال) الذي قضى على كثير من الرجال، ويبدو أن ذكر (نرجال) البابلي هنا يعني أن الاشيا كانت تمارس التجارة مع بابل منذ زمن بعيد جدا وأنهما كانا على معرفة ببعض ، فقد عثر بها على أختام بابلية تشهد على وجود تجار فيها وفدوا إليها من أرض الجزيرة . وإذا كان ذلك قد حدث ، فإن ألاشيا تكون أبعد بلد في الغرب باستثناء بعض النواحي في آسيا الصغرى أتخذ من اللغة البابلية لغة للمخاطبات الدبلوماسية في العلاقات الدولية[٩٨].

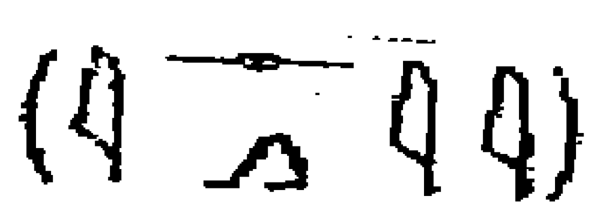
- ويرجع « كلود . ف. شيفر » أن المعبود « نرجال » المنتمي إلى جميع أرباب بابل ، والذي يمثل بمظهر إله محارب ، كان يماثل « الرب ذا السبيكة » في الجزيرة وهو يمثل حامي المعدنيين ، والذين يبحثون عن الصخور المحتوية على النحاس في جبال الجزيرة ، والمشتغلين بصهر المعادن والقبرصيين الذين كانوا يستخرجون منها وينتجون السبائك . وهو أحد الأرباب التي قدمتها شعوب الشمال وشعوب البحر ، وكان يصور بمظهر إله محارب مسلح[٩٩] . كما كان يماثل المعبود « رشف » الذي كان يقدس في مدينة أوجاريت وكان يصور بمظهر إله محارب . ويخلص « شيفر » إلى أنه طالما أن « نرجال » في بابل « ورشف » في سوريا وأوجاريت يمثلان بمظهر إله محارب - أيضا - كالمعبود ذي السبيكة في قبرص فإن هناك صلة بينهما ، ومن ثم فليس غريبا أن يكون معبودا ساميا مصدره الشرق الأدنى . وربما يكون الرب ذو السبيكة هو الرب « أبو للو كرياتاس = أبو للو ذو القرون » الذي كان يسمى أيضا «أبو للو الألسيوي»[١٠٠] ، أي المنتمي إلى مدينة ألاشيا ، حيث كان يعبد في قبرص أولا . ومن أنكوفي انتشرت عبادة أبوللو كرياتاس إلى مدن أخرى بالجزيرة مع لقبه الجديد (الألسيوي) وأن الرب (نرجال)

ما هو إلا أبوللو كرياتاس فى ألاشيا ، كما أن رشف المعبود الفينيقى ، كان مناظرا (لأبوللو الألسيوى) كما جاء فى نقش « تاماسوس »[١٠١] . وعلى الرغم من أن « كاتلنج » قد أسهم بشكل فعال فى إلقاء الضوء على كل الأدلة السابقة ، والتى تدعم من المعادلة ألاشيا = قبرص ، إلا أنه يقول أن هذه المطابقة مفتقرة إلى الدليل ، وحتى تتوافر أدلة أخرى جديدة[١٠٢] . ويرى « عبد المعطى سمرة » أنه فى ظل ما توفر من دليل حتى الآن ، تعتبر المطابقة قبرص = ألاشيا كما عرفت فى نصوص الشرق الأدنى مطابقة مرجحة . صحيح أنها لا تصل إلى حد اليقين ولكنها لا تبتعد عن حدود الترجيح المقبول الذى يأخذ به جمهرة الباحثين فى الوقت الراهن . ويدعمها بقوة الآثار المصرية التى اغفلها « كاتلنج » - وعثر عليها فى قبرص[١٠٣]. ويذكر « م . برنال » أنه على الرغم من الجدل الذى آثاره الاسم « إيرس » أنه ربما يكون اسم لجزيرة قبرص[١٠٤] ويبدو أن هذا الفرض مغرى لأن نطابق ألاشيا بقبرص ، أو كونها مدينة فى قبرص . ومما يعضد ذلك الفرض الاختلاط بين الثقافات الشرقية والإغريقية فى ألاشيا المدينة أو الجزيرة الذى يعد السمة المميزة لقبرص منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا[١٠٥] ونخلص من كل هذا أن قبرص هى بعينها ألاشيا التى ذكرتها رسائل العمارنة ، وكل هذا يدل دلالة قاطعة على الصلة الوثيقة بين قبرص وبلدان الشرق الأدنى وتقارب أفكار شعوبها .

وقد اختلف المؤرخون حول إذا ما كان هذا الاسم يقصد به الجزيرة كلها أو قسم منها أو يقصد به مدينة بعينها . فالبعض يرى أن هذا الاسم يقصد به جزيرة قبرص كلها ، ويعتمدون فى ذلك على ما جاء فى نقش فينيقى أن شبه الجزيرة حملت هذا الاسم « ألاشيا » حتى القرن السابع ق.م وربما إلى ما بعد ذلك التاريخ . ويرى آخرون عكس ذلك وأن هذا الاسم قد أطلق على قسم منها كان الأقوى وكانت له السيادة على مناجم النحاس والمعادن الأخرى ومن ثم عمم هذا الاسم على الجزيرة بأكملها . بينما يرى فريق ثالث أن هذا الاسم قد يكون اسما لمدينة فى الجزيرة ، ومن ثم يرجح أنها كانت أكبر وأهم مدينة ، وأن هذه المدينة كانت

العاصمة لدولة ممتدة ربما سميت مملكة ألاشيا ، حيث كان ملوكها على قدم المساواة مع ملوك الشرق الأدنى آنذاك[١٠٦] . بل أفترض البعض أن هذا الاسم (ألاشيا) يقصد به مدينة أنكومى كما يفترض أحيانا أن الاسم يخص بلدة « كالوبسيدا Kalopsidha » شرق جزيرة قبرص[١٠٧] ، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن «ألاشيا» كانت تابعة لمصر منذ عصر تحتمس الثالث ، واستمرت كذلك حتى عهد إخناتون ، إذ نراها فى هذه الفترة متحررة من الحكم المصرى[١٠٨] .

ولكن « جلوتز G. Glotz » يرى - غير ذلك - أن ألاشيا لم تكن خاضعة أو تابعة لمصر ، ويعلل ذلك بأن الوفود الألاشية كانت مثل نظيرتها الكريتية تعامل بما لا يوحى بأنها وفود من ولاية تابعة لمصر جاءت لتؤدى فروض الطاعة والولاء أو لدفع الجزية للفرعون المصرى[١٠٩] .

أما الاسم « إسى » ، « آسى » ، « ايزى »  Sy فقد رددته النصوص المصرية مرات عديدة وأقدم إشارة ترجع إلى عهد الملك « تحوتمس الثالث » على اللوحة الشعرية التى أمر بإقامتها فى معبد الكرنك . وفيها يخاطب « آمون رع » رب الكرنك ابنه تحوتمس قائلا :

١ - « ... لقد حضرت : لأجعلك تتمكن من أن تطأ الأرض الغربية فى «كفيتو» و « إسى » تحت سلطانك ولأجعلهم يشاهدون جلالتك مثل الثور الصغير ثابت القلب ، جاد لا تمكن مهاجمته ... »[١١٠] .

وقد ذكرت جزية « إسى » فى متن الحملة التاسعة لـ «تحوتمس الثالث» على بلدة « نجس » فى السنة الرابعة والثلاثون من حكمه حيث نقرأ :

٢ - « جزية (إسى) فى هذه السنة : مائة وثمانية قوالب من النحاس النقى وسبيكة من النحاس زنتها ألفان وأربعون دبنا ، وكذلك خمسة قوالب قصدير وألف ومائتا قطعة من القصدير وعشرة ومائة دبن من اللازورد وسن فيل واحد ، وقطعتان من خشب « ثاجو » ...[١١١] .

وقد ذكرت جزية « إسى » – أيضا – فى متن الحملة الثالثة عشرة فى السنة الثامنة والثلاثون إلى بلدة « يونجس » من أعمال سوريا – من حكم تحوتمس الثالث حيث نقرأ :

٣ – « الجزيرة التى يحملها أمير « إسى قالب نحاس من بلاده وجواد واحد»[١١٢] .

وقد ورد ذكر جزيرة « إسى » كذلك فى متن الحملة الرابعة عشرة لـ « تحوتمس الثالث » فى السنة التاسعة والثلاثين حيث نقرأ :

٤ – « جزيرة أمير » إسى « سنا فيلين وأربعون قالب من النحاس وقالب من ... القصدير ... »[١١٣] .

وفى عصر الرعامسة تبدلت طبيعة المصادر الكتابية التى تشير إلى «إسى» عما كانت عليه فى عهد « تحوتمس الثالث » فأصبح ذكرها فى قوائم جغرافية هو الصفة الغالبة فى هذا العصر[١١٤] .

وأول ظهور لها فى هذا العصر يرجع إلى عهد الملك « سيتى الأول » فى آثاره فى معبد الكرنك فقد ذكرتها قوائمه ثلاث مرات على النحو التالى :

٥ – « بابخ Pabekh » « تخس Tikhsi » « إسى Asy » « طنب Tunip »[١١٥] .

٦ – بابخ Pabek ، إسى Asy ، مانوس Mannus[١١٦] .

٧ – « قادش Qadesh » ، « بابخ Pabekh » ، « قدنا Qedna » ، « إسى Asy » ، « مانوس Mannus »[١١٧] .

وذكرت « إسى – أيضا – فى قوائم ترجع إلى عهد « رمسيس الثانى » فعلى الجدران الأمامى من معبد أبيدوس – نقوش تمثل سلسلة من الأقوام الأسرى – صور الـ « إسى » فى قائمة الشعوب الشمالية[١١٨] حيث نقرأ:

٨ - التحنو (ليبيا) - نهارين (ميتانى) - سنجار (بلاد النهرين) الحيثين - الكفتى - إسى (إزى) شات - إشر - بدجتى - شو « الأقوام التسعة»[١١٩] .

وقد ذكرت « إسى » مع « ألاسا » فى نقش واحد على قائمة يرجع تاريخها إلى « رمسيس الثانى » على النحو التالى :

٩ - « جبل (مفكت) . (إسى) (ألاسا) خيتا . سنجار. كفيتو[١٢٠] .

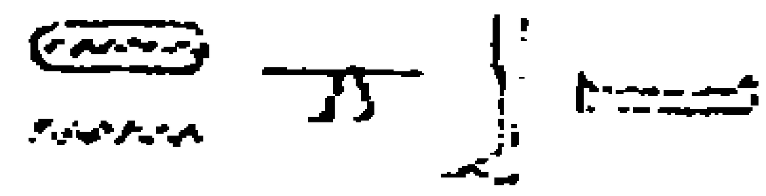
مما سبق يتضح لنا أن « إسى » ذكرت فى النصوص المصرية تسع مرات وفى عهود كل من « تحوتمس الثالث » و « سيتى الأول » و« رمسيس الثانى » أى شملت عصر الدولة الحديثة . ففى النص الأول قورنت « إسى » بـ « كفيتو » ووصفت على أنها بلد غربى ، ويرجح أن هذه القصيدة وضعت فى آسيا وأن كاتبها حين كان يحدد مواقع البلدان المهزومة كان يذكرها وفقا لموقعها بالنسبة لآسيا - المكان الموجود فيه الكاتب حين أنشد القصيدة - فـ « إسى » هنا بلد غربى أى إلى الغرب من المكان الذى سجلت فيه اللوحة ، وهى فى هذا النص تقع بعد « كفيتو ».

وفى النصوص (٢ ، ٣ ، ٤) علمنا أن « إسى » كانت ترسل جزيتها(؟) إلى مصر وكانت تتضمن النحاس (سبائك وقوالب) والقصدير واللازورد والعاج « سن الفيل » والخشب (ثاجو) والخيول . وفى النصوص (٥ ، ٦ ، ٧) قرنت « إسى » ببلدان تقع فى البر الرئيسى لآسيا وهى « بابخ » و « قدنا » و« طنب » وقادش » و « مانوس » و « تخس » . وفى النصوص (٨ ، ٩) نجد مجموعة أخرى من الجيران « نهارين « سنجار » « خيتا » « كفيتو » والملاحظ هنا أن « إسى » على غرار «ألاسيا» كانت ضمن دول شعوب أقصى الشمال ، وتبين القوائم عددا من الأسماء التى تشيع بين كلا البلدين - « إسى » و « ألاسا » مثل نهارين ، خيتا ، سنجار ، تخس . ويتضح من جوار تلك البلدان استنتاج قرب « إسى » و « ألاسا » الشديد من بعضها .

والواقع أن القارئ لقائمة الأسماء فى النص التاسع يجد أن أسماء البلدان التى ذكرت فيها مرتبة جغرافيا فهناك أسماء فى الغرب ، الشمال الغربى والشمال الشرقى والشرق . يهمنا فى هذا المقام الأسماء التى تقع فى الغرب والشمال الغربى البعيد وتمثلها هنا « الكفيتو » و « إسى » ، وهذا الجمع بين « كفيتو » و« إسى » ظهر من قبل فى نصب الكرنك الشاعرى حيث وضعهما ضمن الأراضى الغربية . ويرجح أن ذكر « إسى » مع اسماء أخرى ربما كان استمرارا للتقليد القديم الباقى من أيام « تحوتمس الثالث » أو أن هذه البلاد أخذت تنتهج سياسة المودة مع مصر ، وترسل هداياها لتؤكد صداقتها لها(١٢١) .

والملاحظ أن الكثير مما قيل أن « ألاشيا » يرمز تماما إلى « إسى » وخاصة إنتاجهما للنحاس . وما يميز « إسى » عن « ألاشيا » هو أنها كانت تقدم لمصر القصدير واللازورد والعاج والشب والخيول ، مما حدا بالبعض إلى القول بأنها كانت ضمن البلاد الخاضعة لمصر وقتئذ نظرا لقوتها البرية والبحرية . ويعللون ذلك بأن أمير « إسى » كان يخشى بأس «تحوتمس الثالث» وأصبح خاضعا لإرادته . هذا إلى أن الأسطول المصرى جعل جزر الشمال تخشى بأسه ، وأصبح سلطانه ممتدا على شرق البحر المتوسط حتى بحر إيجه ، مما جعل قائده « جحوتى مس » يعد الجزر التى فى وسط البحر من الممتلكات التى كانت تحت سلطانه ، إذ كان يلقب بحاكم الأقطار الشمالية(١٢٢).

وقد اعتبرت « إسى » – لفترة من الوقت – قبرص أو جزء من قبرص مما أدى إلى إثارة الجدل والاختلاف حول « إسى » وهويتها وأين تقع ؟ . وعلى الرغم من أن علماء المصريات قد اعتمدوا المطابقة بين « إسى » وقبرص وسلموا بها(١٢٣) . إلا أنهم وجدوا معارضة شديدة من « وينرايت » الذى كتب مقالة طويلة حاول أن يبرهن فيها على عدم صحة هذه المطابقة . وقد اعتمد « وينرايت » فى بحثه على تقييمه للمعلومات المتاحة عن موضوع « إسى » من حيث إنتاج النحاس فى « إسى » و إنتاج قبرص منه فى العصور القديمة ، والتداخل بين أرض

الثامنة عشرة « إسى » والأراضى البطليموسية 

جزيرة سب  جزيرة " سـينياى » . ويطلـق علـى هذيـن المكانين جزر كما توجد لهما علاقة مباشرة مع قبرص أو أن تكون بغير شك أسماء بطليموسية لقبرص . إلا أنها لا يمكن أن تظهر لها علاقة باسـم الأسـرة الثامنـة عشرة « إسى » التى يشترك معها الاسم الأول فقط فى رمز واحد وتشـترك مـع الثانى فى رمزين . وحتى ذلك لن يدلل على أن « إسى » القديمة كان يقصـد بـها قبرص ، لأن قبرص على عهد البطالمة كانت مشهورة بالنحـاس - وعلـى ذلـك الأساس فقط - ربما كان الكتبة البطالمة يعتبرون بكل بساطة ، مثلما فعـل علمـاء الآثار المحدثون، أن اسم أرض كانت تنتج على عهد الأسرة الثامنة عشرة كميـات كبيرة من النحاس كما كانت تنتج « إسى » لابد أنها ، فى تلك الأيام العتيقة كـانت اسم الأرض التى كانوا يعرفونها بشهرتها للنحاس أى قبرص ، و لو كانت تلك هـى الحالة عند ترجمة الأصل الأغريقى أو الديمقوطيقـى إلـى الهيروغليفيـة لكـانوا استخدموا هذا الاسم بدلا من قبرص بصورة طبيعية[١٢٤] .

واعتمد « وينرايت » فى تعضيد نظريته بعدم مطابقة « إسى » لقبرص علـى تقييمه للمعلومات المتاحة عن العطايا التى كانت تقدمها لمصر برفضه أن « إسـى » كانت تنتج العاج ، لعدم قبوله الاعتقاد بوجود فيله بأى عدد من الأعداد فى قـبرص فى وقت متأخر جدا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ق.م هذا بالإضافة إلـى أن الرصاص ليس من منتجات قبرص ولم يثبت بعد وجوده فى الجزيرة . كمـا أن الرصاص يعتبر دائما من المعادن الغير مألوفة فى النقوش المصريين . كذلك يـرى أن « إسى » لا يطلق عليها لفظ جزيرة ، ويستند فى ذلك إلى أن المصريين أنفسـهم لم يتحدثوا عن «إسى» على إنها جزيرة[١٢٥] . ويضيـف « ويـنرايت » أن موقـع «إسى» بالنسبة لجيرانها فى القوائم يجعلها أقرب إلى مجموعة الدول الغربية ، ومـن ثم فإنها تقع إلى ناحية الشمال ، على عكس « ألاسا » التى كانت تقع إلـى جـوار

أربعة من الجيران فى ناحية الجنوب ، مما جعلها تنتمى بصلة قرابة كاملة مع سوريا على عكس « إسى » التى تمت بصلة خفيفة إلى سوريا كما تتصل أيضا بصلة جزئية مع آسيا الصغرى[١٢٦] . ويخلص « وينرايت » إلى أن المطابقة إسى = قبرص غير كاملة ، وجعلها تتبع الوطن الأم (سوريا) فى موضع على مقربة من مصب نهر « أورونت » العاصى حديثا[١٢٧] .

وفى عام ١٩٤٦ ذهب « بوسير M. H. Bossert » فى تحديده لمكان« إسى » فى حدود « ليديا الكلاسيكية » على الساحل الغربى من آسيا الصغرى وهذا يعنى أنها تقع على حدود بحر إيجة فى مواجهة كريت تقريبا[١٢٨] .

ويرى « هلك W. Helk » أن « إسى » ليس هو المكان كما كان يعتقد مرارا أنه قبرص ولكنه مكان يقع فى جنوب غرب الأناضول[١٢٩] . وتـود : « م. دروار » على ذلك بقولها أن أى محاولة لوضع « إسى » أو « ألاشيا » على الشاطئ الشمالى لسوريا تواجهة صعوبات كبرى ، لأسباب كثيرة من بنيها أن الخريطة السياسية لهذه المنطقة قد شغلت بالفعل تماما بدول المدن المزدهرة ، ومن الصعب أن نعثر على مكان على امتداد الشاطئ لمملكة هامة أخرى[١٣٠] .

ومن ثم فإن وضع « إسى » بعد « كفتيو » كما جاء فى النص الأول هو تسلسل منطقى وطبيعى . وهذا الجمع بين « إسى » و « كفتيو » فى نصب الكرنك الشاعرى ظهر فيما بعد فى نص من عصر «رمسيس الثانى» (النص التاسع) حيث وضعهما ضمن الأراضى الغربية . ومن ثم فإذا كانت المعادلة كفتيو = كريت فإن إسى هى قبرص أو جزء من قبرص[١٣١] .

ويدعم لوى - أ. كريستوف مطابقة إسى بقبرص مما استخلصه من لوحة انتصارات « تحوتمس الثالث » من أن المصريين فى تحديدهم للاتجاه فى آسيا اعتبروا أن الشمال الشرقى هو الشمال الذى نعرفه الآن ، وأنه (أى المصرى) لما كان يعتبر زاهى والليطانى واقعتين فى شمال مصر ، فمن المنطقى أن يعتبر «

إسى » و « كفتيو » من بلدان الغرب ، ومن ثم فإن الغرب فى تلك اللوحة يبدأ فى سوريا الشمالية ، وربما أن « كفتيو » مقرونة بـ « إسى » ، بل قبل هذه الجزيرة فإن كلا من البلدين متجاورتين(١٣٢) .

وبالغرم من ذلك فإن « كريستوف » يشير فى موضع آخر إلى أن تلك المطابقة ليست مؤكدة تأكيدا تاما(١٣٣) . أما بخصوص تقديم « إسى » الجزية لمصر وتفسير ذلك بأنها كانت خاضعة لمصر آنذاك ، فقد أكد على تلك الفرضية العالم الأثرى القبرصى « قاسواكارابورغى » بقوله « أن قبرص وجدت نفسها مضطرة أمام قيام مصر بدور فعال فى المنطقة أن تدفع ضريبة من نوع ما لفراعنة مصر(١٣٤) . فى حين يرفض فريق آخر هذا الرأى ويرون أن العلاقات المصرية القبرصية كانت حميمة بحيث لا تسمح بتداول مثل هذا الرأى ، وأن الوفود القبرصية قدمت إلى مصر مثل نظيرتها الكريتية لتعقد صفقات لتبادل المنتجات والمصنوعات ، ويعللون ذلك بأن قبرص فى هذه الفترة كانت قوة بحرية واقتصادية، وساعدها على ذلك ما توافر لها من ثروات وبخاصة مناجم النحاس(١٣٥) .

والملاحظ فى النص التاسع ذكر « إسى » مع « ألاسا » فى نص واحد مما دفع إلى الاعتقاد بان الاسمين كان ينطبقان على منطقتين مختلفتين من قبرص(١٣٦). وتدعم « م . دروار » ذلك بقولها أن قبرص فى الألف الأول ق. م لم تكن جزيرة موحدة ولكن كانت مقسمة إلى عدة ممالك مستقلة ، وبناء على ذلك ترجح أن «ألاشيا» و« وأسى » قبل ذلك التاريخ كانتا مملكتين قبرصيتين من ممالك عصر البرونز ، وكانت لكل منهما علاقاتها المباشرة بدول البر الرئيسى(١٣٧) .

وقد اقترح البعض أن « إسى » هى الشكل الأول لـ « الاشيا » ويدللون على ذلك بما جاء فى نقوش ميت رهينة . ويرى « م. برنال » أن «إسى» ربما تدل على « إنكومى » أو إحدى المدن الرئيسية فى قبرص(١٣٨) .

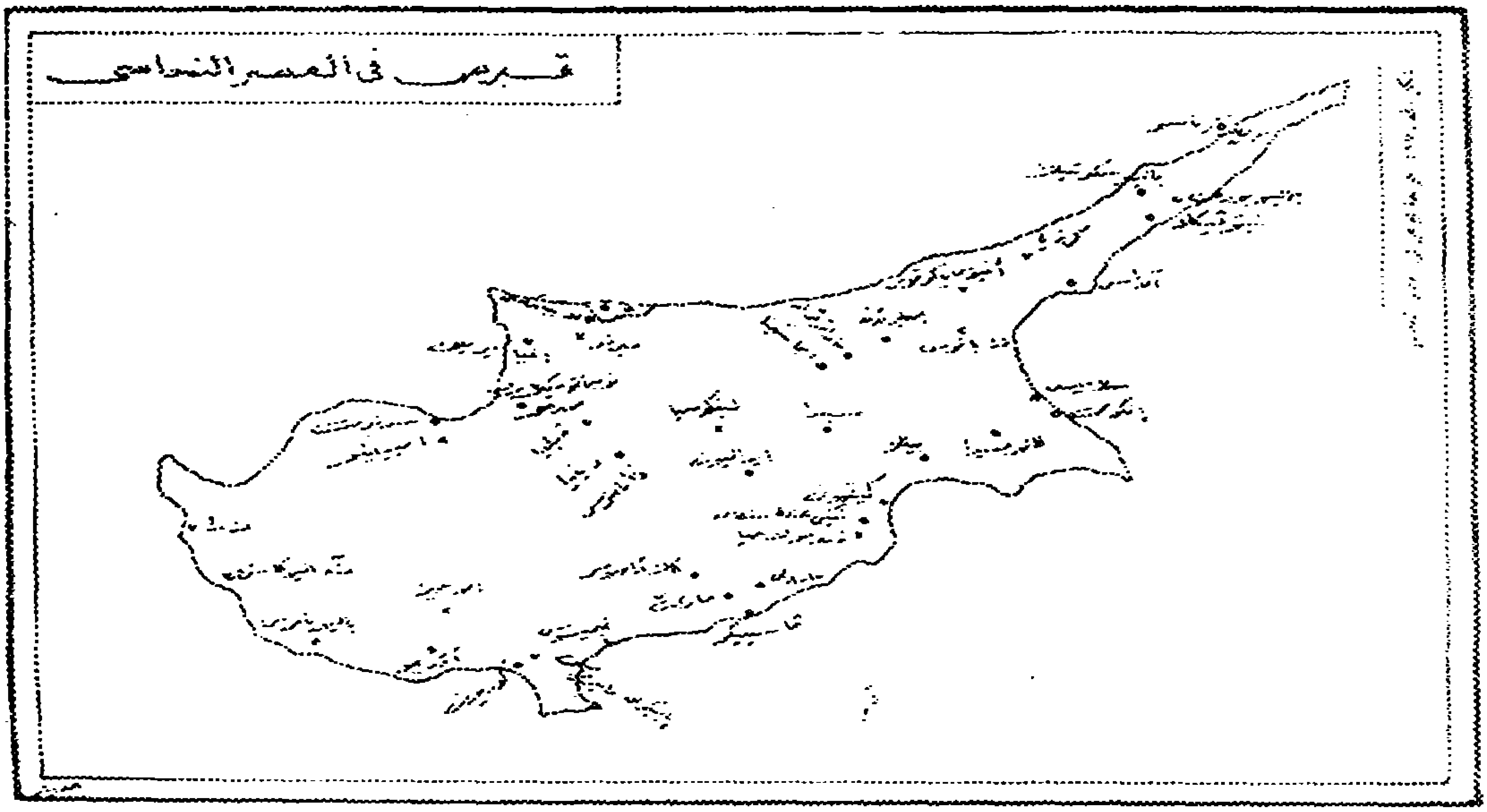
وعلى الرغم من كل هذا الجدل الذى أثير حول هوية الإشارات الواردة إلى قبرص فى النصوص المصرية ووثائق الشرق الأدنى القديم ، فإن أهم ما تبقى من ثمار هذا الجدل تلك الصورة من صور الفكر الأثرى فى سعيه إلى الحقيقة من خلال المنهج العلمى السليم المعتمد على دراسة الوثائق واستقرائها ، فضلا عما قدمه هذا الجدل من إسهام فى جلاء بعض الحقائق المتعلقة بقبرص فى المصادر المصرية .

وبعد كل ما ذكرناه آنفا يمكن القول :

(أ) استبعاد المطابقة كفيتو = قبرص ؛ لأن المصادر الأثرية المختلفة، والمصادر النصية الأدبية أثبتت أن كفتيو التى وردت فى النصوص المصرية هى الاسم الذى أطلقه المصريون على جزيرة كريت .

(ب) كذلك استبعاد مطابقة « كابتار » و« كتيم » بقبرص لعدم كفاية الأدلة .

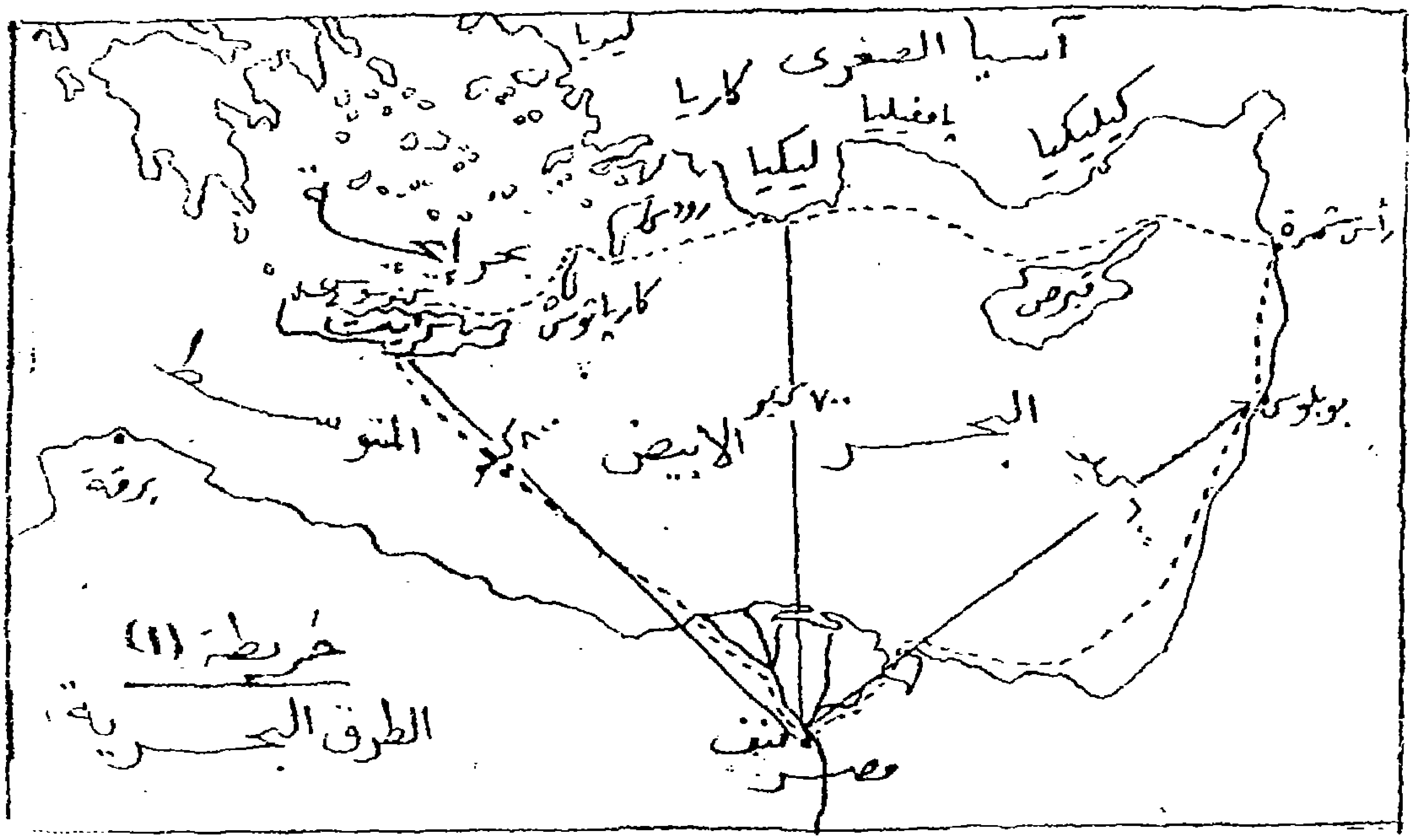
(جـ) من الأرجح أن تنطبق على جزيرة قبرص التسمية التى وردت فى محفوظات العمارنة « ألاشيا » ، والتسمية المصرية القديمة « إيرس » أو « يرس » ، أما « إسى » فتعتبر هى أيضا قبرص أو جزء من قبرص . كما أن ذكر « ألاشيا » مع « إسى » فى نص واحد يحمل على الاعتقاد أن الاسمين ينطبقان على منطقتين مختلفتين من قبرص .



شكل (١)

خريطة لقبرص فى العصر النحاسى عن :

أحمد عتمان ، تاريخ قبرص.



شكل (٢)

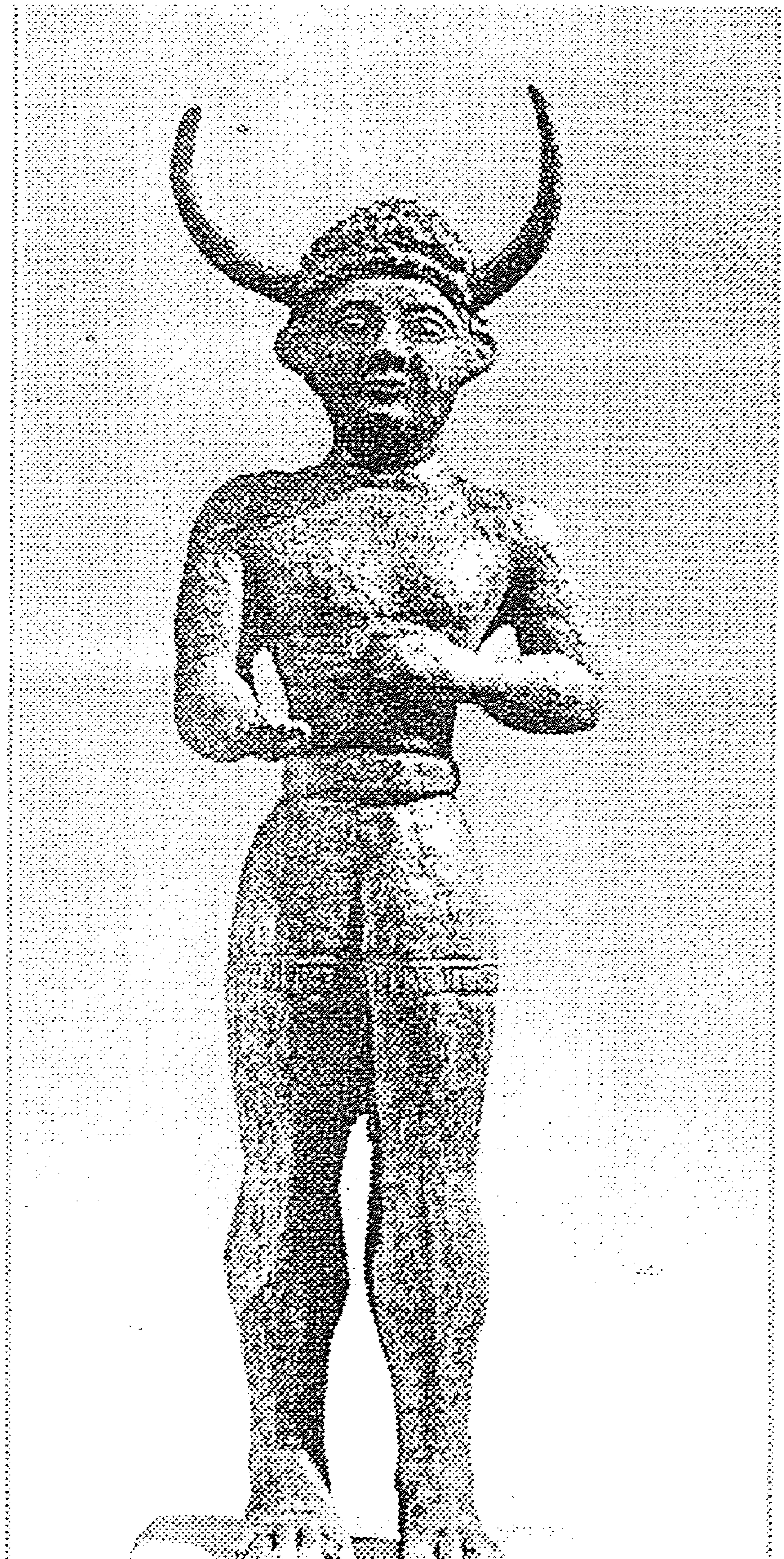
خريطة للطرق البحرية بين مصر والعالم الإيجى عن : فركوتيه، قدماء المصريين والإغريق .

الرسالة	السطر	ألاشيا A-La- si- ia	ألاسيا A-La-si-ia
٣٣	٢	X	
٣٤	٣٩,١	X	
٣٥	٣٠,٢	X	
٣٦			
٣٧	٢		X
٣٨	٢	X	
٣٩	٣	X	
٤٠	٣	X	
١١٤	٥٢	X	

شكل (٣)

الرسالة	السطر	الكمية (بالتالنت)	Mercer, AT., I. P.
٣٣	١٦	٢٠٠ تالنت	191
٣٤	١٨	١٠٠ تالنت	193
٣٥	١٠	٥٠٠ تالنت	195
٣٦	٥	٨ تالنت	199

شكل (٤)



شكل (٥)

تمثال للرب ذا السبيكة محفوظ فى متحف قبرص عن أحمد عتمان، تاريخ قبرص.

الهوامش

(١) رؤوف عباس ، مصر وعالم البحر المتوسط ، ط١ القـــاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥ ؛ ر. أ. س مكلستر ، نظرة عامة فى ثقافات البحر المتوسط (تاريخ العالم ، المجلــد الأول) ، القاهرة د. ت . ، ص ٦١٩ ؛ لطفى عبد الوهـــاب ؛ اليونـــان مقدمـــة فـــى التـــاريخ الحضارى ، الإسكندرية ١٩٩٦ ، ص ٢٦ – ٢٩ .

(٢) تعد جزيرة قبرص من أكبر جزر الحوض الشرقى للبحر المتوسط إذ تبلغ مســـاحتها الإجمالية حوالى ٩٢٥١كم٢ طولها بين طرفيها الشرقى والغربى ٢٢٥ كــم وعرضـــها ٩٦ كم وأهميتها ترجع إلى أنها كانت مطمعا لملوك المنطقة المحيطة بــــها ومـــن ثـــم مصدر للتنازع بين الشرق والغرب طوال تاريخها وهو ما يمثل الطابع التاريخى العـــام لها ، أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ٢٣ .

(٣) أحمد عتمان ، المرجع السابق ، ص ٢٣ ، ســليمان بــو جمعـــه ، شـــعوب البحـــر وعلاقتهم بمصر ١٣٠٠ – ١١٥٠ ق.م دراسة تاريخية (رســـالة ماجســتير – غــير منشورة) كلية الآداب – جامعة الإسكندرية ١٩٩٢ ص ٢٤ .

(٤) سليمان بو جمعه ، المرجع السابق ، ص ٤٩ « كـــانت الزراعـــة تشـــكل القـــاعدة الأساسية فى حياة المجتمع القبرصى حيث السهول الخصبة ، على عكس طبيعة بــــلاد اليونان الصخرية الجبلية ، راجع : لطفى عبد الوهاب ، المرجع الســـابق ، ص ٣٥ – ٣٨ ؛ محمود السعدنى ، الحضارة الهللينية منذ أقدم العصور حتى نهاية القرن الســـابع الميلادى ، جـــ١ ، القاهرة ١٩٩١ ؛ ص ٦٥ .

(٥) سليمان بو جمعه ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(6) H.Kantor, The Aegean and the orient in the second millennium B. C., Bloomington Indian 1947, p. 17; M. R. Bell, preliminary Report on the mycenaean Pottery From Dier El-Medina (1979 – 1980), ASAE, Lxviii (1980), p. 143; E. J. Bickerman, chronology of the Ancient World. Revised Edition Thomas and Hudson 1980, P. 62F.

والكرونولوجيا Chronology علم تحديد تواريخ الحوادث ، أو علم حساب التواريخ .

(7) R. S. Merrillees, the Cypriot Bronze Age pottery Found in Egypt, SMA (xviii), Lund 1968, p. xvii; H. W. Catling, Cyprus in the middle Bronze Age, CAHII3, Chapter iv, p. 165.

(8) N.G.L.Hammond, A History of Greece to 322 B. C., 2 nd, Oxford, P. 32.

(٩) أحمد عتمان ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(١٠) عن قصة « ون أمون » راجع : ج-بريتشارد ، نصوص الشرق الأدنى القديم ، ج١ ، ترجمة وتعليق عبد الحميد زايد ومراجعة محمد جمال الدين مختار ، سلسلة المائة كتاب (٩) ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١٠١ وما بعدها .

(11) V Schachermeyr, « Agypten Und Krerta «, AFO, XVI (1952 – 53), P81-82.

وراجع أيضا : عبد القادر خليل ، علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة، الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ٦٧، وقد عدد«فيركوتيه» محطات هذا الطريق من كريت إلى مصر بادئا بـ « كاسوس » (Kasos) و«كرباثوس» (Karpathos) حتى « رودس » وساحل الأناضول ثم يتجه إلى قبرص ثم الساحل السورى والفلسطينى ويسير بحذائه حتى مصر والعكس . فيركوتيه ، قدماء المصريين والإغريق ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص٢٢ .

(١٢) جمال حمدان ، شخصية مصر (دراسة فى عبقرية المكان) المجلد الأول القاهرة ١٩٨١م ، ص ٤٣٠ ؛ ألن جاردنر ، مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٥٦ ، ٦١ ؛ ج. ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخرى . القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤١ ؛ رالف لنتون ، شجرة الحضارة جـ٢ ، ترجمة أحمد فخرى ، القاهرة د. ت. ص ٤٩٥ .

(١٣) رأس شمر حاليا مدينة ساحلية تقع فى مواجهة انكومى ، وقد عثر فيها على عدد كبير من الألواح التى تتضمن رسائل موجهه إلى ملوك آخرين ، ووثائق قضائية

واقتصادية ، وقصائد أدبية ودينية ومعظمها مكتوب باللغة الأكدية عبد اللطيـــف أحمـــد على ، التاريخ اليونانى ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٧٧٥ - ٧٧٦ .

(14) LA VI 1453 .

(15) R. H. Hall Catalogue of Egytian Scarabs In BM, London 1913, p. 276.

وانظر : عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، جـ١ (مصر والعـــراق) ط٣ ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٢٢٣ ؛ جون ويلسون ، الحضارة المصريـــة ، ترجمـــة أحمـــد الفخرى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٠٨ - ٣١٠ ، أحمد عتمان ، المرجع الســـابق ، ص ٣٠ .

(16) LA. VI, p. 1453.

(17) RH. Hall, « Egypt and External World in the time of Akhenaten ». JEA, 7 (1921), p. 49 – 50 .

(١٨) يرجح « بترى » و « ستابنجز » أن أصول هذه الكسرات قبرصية راجع :

F. Petrie, Tell El amarna, London, 1981, PI.XXVI, 11 – 15, XXV1.126 – 29; F. H. Stubbings, Myanaean Pottery from the Levant, Cambridge, 1951, p. 91 – 92.

(19) Stubbings, Op. Cit., pp. 95, 98; F. Petrie, Gizeh and Rifeh, London, 1907, P. 23, PI.XXV1.1

ولمزيد من التفاصيل عن الفخارى القبرصى المكتشف فى مصر ، والأبحاث الأثريـــة التى تناولته : انظر

R. S. Merrillees, Op. Cit.

(20) Hall, Op – Cit., P. 50.

عن كفتيو و « سكان الجزر التى فى وسط البحر » راجع : محمـــد الســيد عبـد الحميد ، العلاقات المصرية اليونانية فى الدولة الحديثة (رسالة دكتوراه غير منشـــورة) آداب الزقازيق ، ١٩٩٦م .

(٢١) أحمد عثمان ، تاريخ قبرص ، ص ٣٠ ، ٤٣ ، محمود السعدنى ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ . ولمزيد من التفاصيل عن الآثار المصرية المكتشفة فى قبرص والأبحاث الأثرية التى تناولتها انظر :

PM. VII2, pp. 403 – 404.

(22) LA VI 1453.

(٢٣) ورد ذكر ألاشيا فى مصادر الشرق الأدنى الأخرى فقد ذكرتها المصادر الحيثية التى عثر عليها فى « بو غاز كوى » ، ونصوص « رأس شمره » ، ومحفوظات« مارى » ، ونصوص « الالاخ » ، ونصوص « أوجاريت » راجع :

M. S. Drower, Syria C. 1550 – 1400 B.C. in CAH Vol. II3 Part I, Chapter X section VI : The Amarna Age, P. 491 – 493; H.W Catling, Cyprus And Her neighbours in The Middel Bronze Age CAHII3 part I, Section X, p.201 – 203.

(٢٤) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص٢٠٤ ، ٢١٢ .

(25) G. Maspero, « Le Pays D'Alasia », Rec. De Trov-x (1888) p. 209.

(26) G.A. Wainwright, Alashia = Alasa; And Asy. Klio xiv (1915) Leipzig, P.4; S Mercer, The Tell E Amarna Tablets, Vol. II, Toronto 1939, p. 827; A. H. Gardiner AEo.; I Oxford 1947, p. 131.

(27) L. A. VI, p.1452; And see : S. R. K. Glanville, The Letters of AAHMOSE of Peniati, JEA, 14 (1928), p. 311.

(28) Urk IV, 790. Nr.213, 719 Nr.236.

(29) H.W. Cating , Op. Cit., P. 202 .

(٣٠) ليلى عطا الله ، الأضواء التىتلقيها كتب العمارنة على تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ، (رسالة ماجستير – غير منشورة) كلية الآداب جامعة الإسكندرية ص ٨٢.

(٣١) رسال العمارنة مكتوبة كلها على ألواح صغيرة من الطين المحروق بالخط المسمارى البابلى ومجموعها لا يتجاوز الثلاثمائة والستين وتعتبر من أهم المصادر التاريخية التى توضح لنا ما كانت عليه الحالة السياسية فى بلاد سورية وفلسطين وبابل وآشور وميتانى وخيتا أواخر أيام أمنحتب الثالث ثم إخناتون وتوضح لنا الصلة التى كانت بين هذه البلاد ومصر وتوضح لنا أساليب المراسلات الدولية فى ذلك

العهد . (أحمد فخرى ، مصر الفرعونية، ط٥ القـاهرة ١٩٨١ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ ؛ سليم حسن ، مصر القديمة ، ط٥ القاهرة ، ص٣٤٦ - ٣٥٠) .

(32) S. Mercer, The Tell El Amarna Tablets, Vol.II Toronto 1939, p. 827.

(33) Ibid., p. 827 .

(34) Mercer, op. Cit., I. P. 191 .

(35) Ibid., P. 193 .

(٣٦) ينتمى هذا المعبود إلى مجمع أرباب بابل ، سيد الجبال وسيد مملكة الموتـى الـذى يعتقد أنه يحدث الكوارث الطبيعية والحروب كما كان يقدس من أجل اكتساب الصحـة والخصب ، برستيد ، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسـى ، ترجمـة حسن كمال ط٢ ، الألف كتاب الثانى (٢٩٨) القاهرة ١٩٩٧ ص ٢٢١ .

(37) Mercer, Op. Cit., I. P. 194 – 197.

(38) Mercer, Op. Cit., I. P195.

(39) A. H. Gardiner, AEO, I, P. 209.

(٤٠) عن أسباب ذلك راجع : M. S. Drower, CSH, II, 2, p. 491 – 492.

سيرسيل ألدريد ، إخناتون ، ترجمة أحمد زهير أمين ، مراجعة محمود ماهر سلسـلة الألف كتاب الثانية (١٠٠) القاهرة ١٩٩٢ ص ٥٦ .

(41) Mercer, Op.Cit., I. P. 195 and see; Catling, CAH, II, 2 P. 203

سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص ٥٧ ، برستيد ، تاريخ مصر ص ٢٢١ .

(٤٢) عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(43) Mercer, Op. Cit., J.P. 199.

(44) Ibid., pp. 200 – 201 .

(٤٥) أراضى « لوكا » على الساحل الليكى (جنوب آسيا الصغرى) وهم مـن شـعوب البحر التى هاجمت مصر فى عهد رمسيس الثانى وولده مرنبتـاح : محمـد بيومـى مهران ، مصر والعالم الخارجى فى عصر رمسيس الثالث ، (رسالة دكتوراه - غـير منشورة) كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٦٩ . ص ١٨١ ، ١٨٢ .

Mercer, Op. Cit., p. 202 .

(46) Mercer, Op. Cit., p. 201; Drower, Op. Cit., I. P. 491 – 492, Catling. Op. Cit., P. 202 .

سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ٥ ، ص ٦٣٨ .

(47) Mercer, Op. Cit., p.203.

(٤٨) سليم حسن ، المرجع السابق ص ٦٣٨ وانظر : . Mercer, Op. Cit., P. 205

(49) Mercer, Op. Cit., P 393.

(50) C. R. Lepsius, Denkmaeler aus Aegypten und Aethiopien, Vol. 5, Geneve 1972, III, 131a, A. H. Gardiner, AEO., I, 131,

(٥١) سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ٦ ، ص ٤٥ ، وعن النص انظر :

L D. III, 131a; Brugsch, Geographische Inschriften, II, p. XIII, p.40 .

(52) Wainwringht, Op. Cit., p. 10, 34.

(٥٣) سليم حسن ، المرجع نفسه ، ص ٣٤٧ .

(54) Vercoutter, Op. Cit., p. 89; LD., III. 175 g.

(55) Maspero, Rec, de Trav., X., 1888, p. 209; Wainwright, Klio Xiv (1915), p. 35.

(56) Papyrus Anstasi IV, p1. 15, 1. 2-4.

(57) Wainwright, Op. Cit., p. 34. .

(58) Papyrus Anstasi IV, p1.17, 1.7 – 9.

(59) Maspero, Op. Cit. P.210.

(60) J. G. Ggreene, Fouilles Executees A Thebes Dans L'anee 1855, paris 1855 PL.II.16, 17.

(٦١) سليم حسن ، مصر ، جـ٧ ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٢٩٣ .

(62) LD, III, 229 C12.

ترجمها أرمان (حقل قبرص) ؟

إرمان ، هـ . رانكه ، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ، القاهرة د. ت ص ٥٩٦ حاشية (١) .

(63) Mercer, Op. Cit., II. P. 827; W. F. Edjerton, J. A. Wilson, Historical Records Of Ramses, Chicago 1935, P. 53; A. H. Gardinar, AEO., I. 131.

(64) A wiedemann, « Stela at Freiburg in baden « proce. SBA, X111 (1890), p. 31.

(٦٥) البردية حاليا بمتحف موسكو ، عثر عليها فى الحيبة بمصر الوسطى ، ويرجع تاريخها إلى بداية الأسرة الحادية والعشرين (القرن الحادى عشر ق. م.) . ولمزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع انظر : ج. بريتشارد ، نصوص الشرق

الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم ، جـ١ ، ترجمة وتعليق عبد الحميد زايد ومراجعة محمد جمال الدين مختار ، ص ١٠١ . ألن جاردنر ، مصر الفراعنة ، ص ٣٣٦ – ٣٤٣ .

and see : BAR., IV, 557 – 591.

(٦٦) برتيشارد ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٦٧) كان نظام الحكم فى ألاسيا مثل كل الأنظمة الشرقية ملكيا استبداديا ، ويأتى على قمته الملك ، وكان البلاط الملكى هو مركز الحياة السياسية والاقتصادية بل الإدارية والدينية والعسكرية والواقع أن هذا النظام كان هو الصورة فى العالم الموكينى . أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ٤٨ .

(68) Catling, Op. Cit., pp. 202, 203; M. S. Drower, Op. Cit., pp. 490, 491.

(69) Mercer, Op. Cit., II, p. 827 – 828 ، سليم حسن ، مصر القديمة ، ج٥ ، ص ٦٣٧ ، ٦٣٨ .

(70) Ibid., p. 827.

(71) Ibid., p. 827.

(72) M. S. Drower, Op. Cit., 490.

(73) A. Maspero, Rec. de Trav.X (1888), P. 210; A. Wiedman, Stela at Freiburg in Baden « Proce SBA XIII (1890), P. 31; And see : Wainwright, Op. Cit., P. 4.

(74) M. Muller, Asien Und Europa , Leipzig1893, p.261, 394-395, Map at end of book; And see : Wainwright, Op. Cit., p.4.

(75) Wainwright, Op. Cit., p.7.

(76) P. Jensen, Asien und Europa nach altagyptischen Denkmalern, ZA. X. 1895/6, p. 380 And see : Wainwright, Op. Cit., p.4.

(77) Wainwright, op. Cit., PP. 2, 5, map at p.2.

(٧٨) عن الكفتيو بالتفصيل انظر : محمد السيد عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

(79) Wainwright, Op. Cit., p.2.

(80) Ibid., p. 5.

(81) Ibid., pp. 7, 8.

ذكر « هـ . ر . هول » أن مطابقة ألاشيا مع قبرص غير مجدية (H. R. Hall, JEA., 7 (1921) , P. 47) ثم عدل عن هذا الوضع وذكر أن ألاشيا تطابق قبرص واستند فى ذلك على تقرير « ون آمون » ونصوص بوغازكوى .

H.R.Hall « The keftians, Philistines and other peoples of the levant » in : CAH, Vol. II.

(82) Wainwright, Op. Cit., P. 6 – 7 .

(83) J. Vercoutter, L'Egypte., p. 394.

(84) A. H. Sayce : « The Home of the Keftiu », JHS, LI (1931), Notes, p. 286 – 287.

(٨٥) عن كفتيو فى النصوص المصرية ومطابقتها بكريت واختلافات المؤرخين حولها انظر :

محمد السيد ، العلاقات المصرية اليونانية ، ص ١٧٧ ، وما بعدها ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

(86) Hall, Oldest Civilization of Greece, P. 164.

(87) G. A. Wainwright « The keftiu People of the Egyptian Monuments », LAAA, VI 1913, pp. 24 – 5.

(88) Vercoutter, L'Egypt, p.33.

(89) « A new preoposal for the Identity of keftiue / caphtor » A preliminary account, GM 8 (1973), p. 47 – 51.

(90) J. Strange, op. Cit., p. 50 –51 .

(٩١) لمزيد من التفاصيل عن الاتجاه الكريتى لكفتيو انظر :

H. R. Hall « Keftiu », in Essays in Aegean Arch. Presented To sir Evans, Oxford. 1927, p. 31 – 41; J. Vercoutter, L'Egypte et le Monde Egeen prehellenique (IFAO) BiB d' Etude, t.XX11, le Caire, 1956.

(٩٢) سليم حسن ، مصر القديمة ، ج٥ ، ص ٦٣٨ ، س . الدريد ، إخناتون ، ترجمة أحمد زهير ، الألف كتاب الثانية (١٠٠) ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٥٦.

(93) H. W. Catling, Cyprus in the late Bronze Age – In : CAH II3, Pa. Chapter XXII(b), Sec. 1X. pp.202.

---

(94) See. G. Dossin, Les Archives Economique du palais de Mari, in Syria, 20 (1917), p. 111; H. W. Catling, in CAH 113 part, Section x. Cyprus and her neighbours in the Middle Bronze Age, p. 174.

(95) H. W. Catling, CAH II3, part 2 A , chapter XXII(b), pp. 202 – 204; M-S. Drower, Op. Cit., 490.

(٩٦) وهى تقع فى بلدة أنكومى قرب سلاميس Salamis بقبرص على الشاطئ الشرقى من الجزيرة فى مواجهة أوجاريت . سليمان بو جمعة ، شعوب البحر ، ص ٥٣.

(٩٧) هذا الكشف منشور فى :

G. F. Bass, Cap Gelidoniya, A. B.ronze Age Shepwreck, Philadelphia, 1967.

(98) C. F. A. Scheaffer, Les peuples de la Mer et leurs Sanctuaires a Enkomi – Alasia, College de France, Paris, 1972, p. 506 et pls. I – III.

عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

(99) Mercer, Op. Cit., II. P. 827.

(١٠٠) ر. أ. س. مكلستر ، نظرة عامة فى ثقافات البحر المتوسط الأولى ، المجلد الأول من تاريخ العالم ، ص ٦٤٢ ؛ وعلى الرغم من عدم العثور على أى استخدامات للخط المسمارى لدى هؤلاء الناس إلا أننا نعرف استخدام الخط المسمارى فى ألاشيا (فى رسائل العمارنة) .

And see : G. A. Wainwright, Op. Cit., P.9.

(١٠١) عثر الأثرى الفرنسى « كلود . ف . شيفر » فى حفرياته بقبرص عام ١٩٦٣ على تمثال برونزى لهذا المعبود وهو محفوظ حاليا فى متحف نيقوسيا يبلغ ارتفاعه ٣٥ سم مغطى بزنجار ذى لون أخضر فاتح ويمثل إلها بهيئة بشرية ، رأسه مغطى بقلنسوة ذات قرنين ، ويمسك المعبود بيده المرتفعة إلى أعلى بحربة رأسها على هيئة ورقة الغار ، كما كان يمسك بيده اليسرى الممتدة إلى الأمام بترس صغير لاتقاء حراب أو سهام أعدائه ، ويضع المعبود قدميه على سبيكة من النحاس ، ذات هيئة قبرصية مميزة وهو يجسد الخصوبة بالمفهوم الشائع فى الشرق (شكل ٥) .

See, Scheaffer, Op. Cit., P. 5-6, PL. I-II.

(١٠٢) أبوللو ذو القرون ، وفد إلى قبرص مع الآخيين القادمين من اركاديا فـــي القــرن الثالث عشر ق. م. ، أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ص ٤٩ .

(103) Schaeffer, Op. Cit., pp. 9 – 10 .

عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٣٩٤ – ٣٩٥ .

(104) Catling, CAH. II3, Part,I, p.167, Part 2A, Map 7, p. 194; Id., Sec-x, p. 205 .

(١٠٥) عبد المعطى سمرة ، المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(١٠٦) أحمد عتمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤ حاشية (٣) .

(١٠٧) أحمد عتمان ، المرجع السابق ، ص٤٨ .

(١٠٨) أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ٤٤ .

(109) Catling , Op. Cit., 201 – 202.

(١١٠) سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ٥ ، ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ ؛ جـ . هـ. برســيد ، تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسى ، ط٢ ، القـــاهرة ١٩٩٩ ، ص ٢٢١ .

(111) G. glotz, The Aegean Civlization, 1928, pp. 207 – 208.

(١١٢) سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ ٤ ، ص ٥١٣ . وعن النص المصرى راجع:
Urk., IV, p. 615, 11, 11, 12;p. 616, 11. 12.

(١١٣) سليم حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٤٢ ، وعن النص المصرى راجع :
Urk., IV, p. 707:15-16.

يذكر « سليم حسن » أنه فى متن الحملة العاشرة على بلاد النـــهرين فـــى الســـنة الخامسة والثلاثين من حكم تحوتمس الثالث » وعند ذكر جزيـــة البـــلاد الأســـيوية الأخرى نجد المتن مهشما ، ويحتمل أنه قياسا على ما سبق فى المتون الأخـــرى – يشير إلى « إسى » و « خيتا » « ... ... آنية من الذهب ... ... خشـــب ســاجو وكل الخضر الجميلة من هذه البلاد » المرجع نفسه ، ص ٤٤٢ .

(١١٤) سليم حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٤٧ . وعن النص المصرى راجع :
Urk., IV, p. 719 : 12-13.

(١١٥) سليم حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٤٩ ، وعن النص المصرى راجع : Urk., IV, p. 724 : 9-13. وفى متن الحملة السادسة عشـرة والأخـيرة علـى قـادش وحلفائها فى العام ٤٢ من حكمه ذكرت جزية بلاد آسيوية أخرى يحتمل « سـليم حسن » أنها « إسى » و « خيتا » حيث نقرأ :

« الجزية التى أحضرها أمير ... فى هذه السنة ... فضة ... وكذلك أطبـاق ورؤس ثيران زنتها ٣٤١ دبنا وقدنان ، وثلاثة وثلاثون قدنا من اللازورد الحقيقى وعصـا جميلة من خشب « ثاجو » ... قالب نحاس منها (من مناجم هذه الجهـة) ... » المرجع نفسه ، ص ٤٥٢ .

(116) J.Vercoutter, L'Egypt et Le Mond Egeen, IFAO, BiB. D'etude, T-XXII, Le Cairo, 1956, p. 86.

(117) LD., III.. 131a.

(118) Wainwright, Op. Cit., p. 34.

(119) LD., 111, 129 .

(١٢٠) سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ٦ ، ص ٠٧٣ – ١٧٣ .

(121) Vercoutter, Op. Cit., p. 87.

وعن النص راجع : A. Mariette, Abyds II, Paris 1880, p. L2a.

(122) Wainwright, Op. Cit., p. 34, M. Muller, Egyptological Researches, 11, p. 90 – 92.

(123) Catling, Op. Cit., p.203., Vercoutter, L'Egypt., p. 87, 88.

أحمد فخرى تاريخ مصر الفرعونية ، ط ٥ ، القاهرة ١٩٨١ ، ص٣٤٢ .

(١٢٤) سليم حسن ، مصر القديمة جـ٦ ، ص ٤٤١ – ٤٤٢ ؛ عبـد الحميـد زايـد ، مصر الخالدة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٥٤٦ ؛ برستيد ، تاريخ مصر ، ص ٢٠١.

(125) Miiller, Op. Cit., P. 91 Id., Asien und Europa., map at end of Book.

(126) Wainwright, Op. Cit.,P. 14 , 15 .

(127) Ibid., P. 17 , 18.

يذكر « أ. لوكاس » فى معرض حديثه عن الرصاص أنه ليس هناك ما يـدل علـى وجود هذا الخام فى قبرص ، ويرى أن « إسى » هذه ليست قبرص بل إقليـم علـى

الساحل الشمالى لسوريا . أ. لوكاس ، المواد والصناعات عند قدمـــاء المصرييـــن ، ترجمة زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٨٦ .

(128) Wainwright, Op. Cit., p. 19 , 20.

(129) Ibid., p. 31 .

(130) L. A. Christophe, Notes Geographiques a propos des compagnes de thoutmosis III, Rev. d'Egypte VI (1951), p. 112 nots (2), see : MUIR'S Atlas of Ancient and Classical History, London 1986, Map. 2

عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٤٠٥ .

(131) LA. VI, p. 1452.

(132) M. Drower, Syria C. 1550 – 1400 B. C. in : CAH II3, part I. chapter x. p. 491.

(133) Catling, Op. Cit., p.201; BAR., II, p. 264 (659 /16).

برستيد ، تاريخ مصر ، ط٢ ص ٢١ .

(134) L. A. Christophe, Op. Cit., P. 107, 110, 112.

(135) Ibid., p. 110 Note 7.

(١٣٦) محمود السعدنى ، تاريخ الحضارة الهللينية ، جـ١ ، القاهرة ١٩٩٠ ص ١٧٥.

(137) G. Glotz, The Aegean Civilization, I ed, London, 1925, pp. 207 – 208.

أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ٤٥ ، عبد المعطى سمره ، المرجع الســابق ، ص ٢٥٤ .

(138) Catling, Op. Cit., p. 203.

(139) Drower, Op. Cit., p. 491.

عبد المعطى سمره ، المرجع السابق ، ص ٤١٣ .

(١٤٠) أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ٤٤ .

قبرص بين السيادة المصرية

والأشورية القديمة

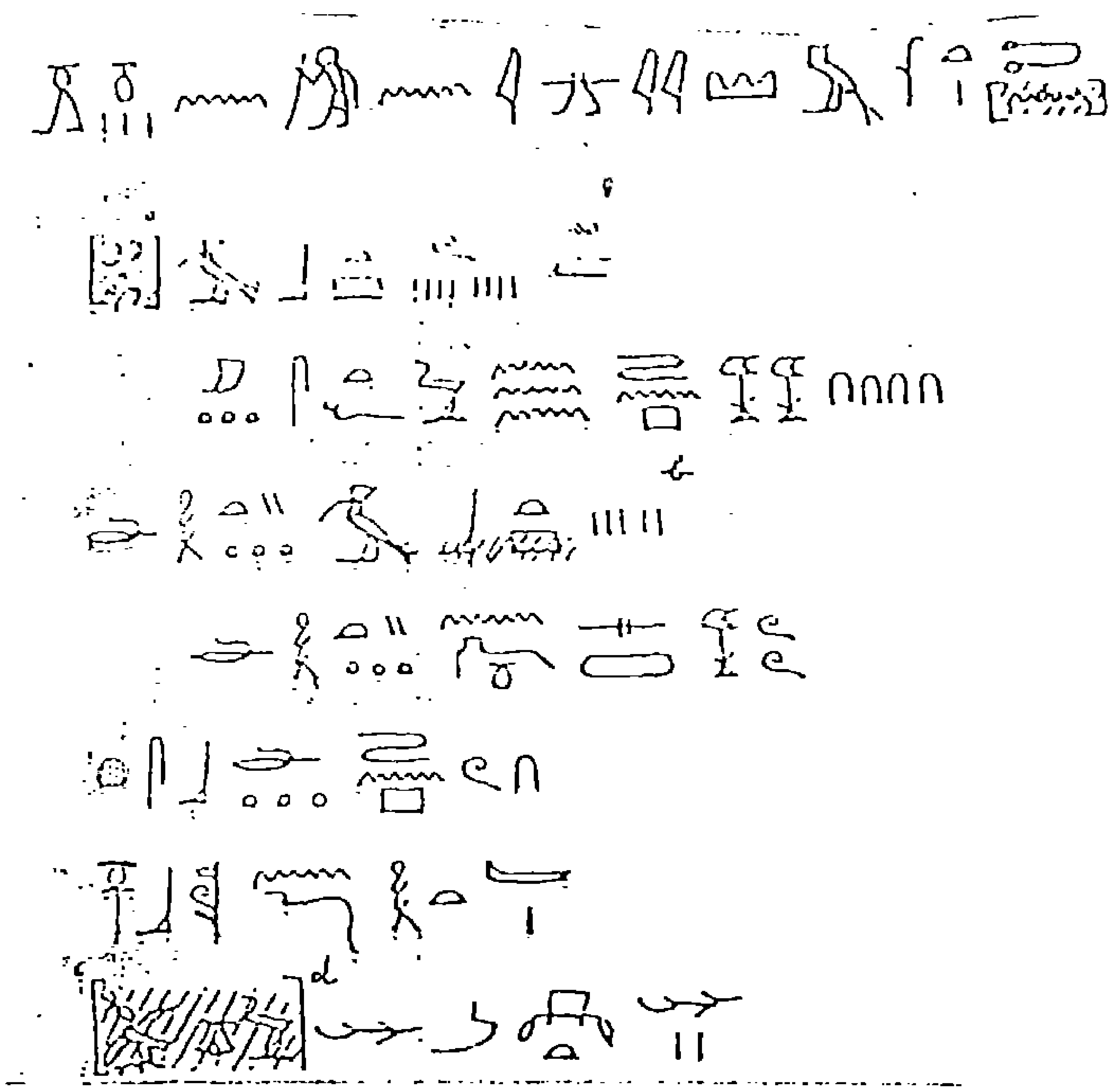
د. محمد علي سعد الله(*)

تقع جزيرة قبرص فى شرق حوض البحر المتوسط ، حوالى ٤٠ ميل (٦٤ كيلو مترًا) جنوبى تركيا ، ٦٠ ميل غرب الساحل السورى (حوالى ١٠٠ كم من أقرب نقطة عند رأس الشمرة) ، ٢٥٠ ميل (٤٠٠كم) شمالى نيل الدلتا ، وتمتد الجزيرة من رأس (Arnauti) فى الغرب إلى رأس اندرياس فى الشرق (Andreas) ، والجزيرة فريدة من ناحية الشكل بسبب وجود سلسلة من الجبال ، جزؤ منها يعد من أعظم المنحنيات المتجهة من آسيا نحو جزيرة كريت ، بقاياه جبال كيرنيا Kyrenia الموجودة فى شمال قبرص ، وفى الجنوب سلسلة جبال طرودس (Troodos) ، والأرض السهلية مفتوحة على البحر من الشرق والغروب فيما يعرف بسهل مزوريًا (Mesaoria)[1] ، وتمتاز الجزيرة بوفرة ما فيها من الأحجار الثمينة والمعادن وخاصة النحاس ، كما اشتهرت بثروتها الزراعية من الحبوب والكروم وشجر الزيتون ، وكذلك تنتشر بها الغابات التى جعلت بعض السكان يتجهون نحو تصنيع السفن .

وقد اتجه بعض سكان قبرص إلى صناعة الخزف والأوانى الفخارية[2] ، وكان لموقعها المتميز فى شرق البحر المتوسط ، بجانب ثرواتها المعدنية والزراعية ، أثر فى اهتمام الدول القديمة وبخاصة الدول القوية المطلة على البحر المتوسط ببسط سيادتها على هذا الجزء من العالم القديم ومن هذه الدول مصر وخاتى وآشور والمدن الفينيقية ، وهو ما تؤكده النصوص والأدلة الأثرية القديمة .

(*) أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم المساعد – كلية الآداب بنها – جامعة الزقازيق .

والواقع أنه كانت لمصر علاقات قديمة بسكان جزر البحر المتوسط بمعنى أن هذا البحر لم يكن يمثل عائقًا يفصل بين المصريين وسكان هذه الجزر منـــذ أقـدم الأزمنة وخاصة منذ عصر الدولة القديمة وهو ما تدعمه الأدلة الأثريـة[٣] ، وبعـد محنة الهكسوس ، عاد الاهتمام بالجانب الشرقى من البحـر المتوسـط وضـرورة السيطرة على مداخل التجارة ، ومداخل الهجرات التـى يمكـن أن تـهدد الأمـن المصرى ، وهذا ما تؤكده النصوص المصريـة بالنسـبة لقـبرص علـى وجـه الخصوص خلال هذه الفترة التى اصطلح على تسميتها بعصر البرونز الأخير فـى قبرص (١٥٥٠ – ١٠٥٠ ق.م)(٤) ، من ذلك أن « تحوتمس الثـالث » (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق. م) قاد على الأقل ست عشرة حملة عسكرية إلى آسـيا فـى خـلال عشرين عامًا تقريبًا ، وكانت بعض هذه الحملات للقضـاء علـى مشـاكل تـهدد الأمبراطورية المصرية التى جعل حدودها من (أقاصى النوبة جنوبًا) إلى أقـاصى آسيا شمالاً ، كما كانت بعض تلك الحملات لإظهار قوة مصـر وسـيطرتها علـى أنحاء إمبراطوريتها ، وسجلت هذه الحملات الجزية الواردة إلى مصر مـن بـلاد عديدة منها قبرص[٥] ، حيث جاء فى نص الفرعون « تحوتمس الثالث » عن حملته التاسعة التى تمت فى العام الرابع والثلاثين من حكمه ما يلى :



Ỉnw n (w) wr (w) Isy n rnpt ṯn

bỉ 3 ḏbt 108 $\frac{1}{2}$

b Ỉ 3 stfw dbn 2040

dḥty ḏbt 5

dḥty nws 1200

ḫ s b d dbn 110

3 b nḏht 1

ṯ 3 gw m 3 wt 2

الترجمة العربية للنص :

هدايا حاكم قبرص فى هذا العام (العام الرابع والثلاثين) :

مائة وثمانية ونصف قالب من النحاس .

نحاس خام : ٢٠٤٠ دبنًا (الدبن = ٩١ جرام) .

(وحمولة) خمس قوارب قصدير ، وألف ومائتا قطعة من القصدير ومائة وعشرة دبن من الفيروز (اللازورد) وناب (سن فيل) واحد ، وقطعتان من خشب ثاجو .

كذلك تضمنت حوليات «تحوتمس الثالث » فى العام الثامن والثلاثين (الحملة الثالثة عشرة) ما يفيد قيام قبرص بإرسال جزيتها باعتبارها ضمن البلاد الخاضعة لمصر التى كان اسطولها يسيطر على شرق البحر المتوسط فى المنطقة الممتدة حتى بحر ايجة .

وتكرر نفس الأمر فى الحملة الرابعة عشرة فى السنة التاسعة والثلاثين من حكم تحوتمس الثالث، وكذلك فى الحملة الخامسة عشرة فى العام الأربعين من حكمه حيث سجلت جزية قبرص (أسى Isy) التى تضمنت النحاس وعدداً من الخيول (فرسين)[٧] .

وقد حوت لوحة أنشودة النصر للملك « تحوتمس الثالث » التى عثر عليها فى معبد الكرنك وهى حاليًا موجودة فى المتحف المصرى بالقاهرة رقم (34010):

« ...... لا يوجد متمردون إنهم يأتون حاملين الجزية فوق ظهورهم ، ينحنون لجلالتك ، إنى جعلت الطغاة المعتدين الذين يقتربون منك ضعفاء وقلوبهم تحترق وأجسامهم ترتعش ، جعلتهم تحت قدميك ...... » .

لقد سحقت تحت سيطرتك الأراضى الغربية والشرقية كفيتو (كريت) ، « اسى Isy (قبرص) ...... »[٨] .

كذلك يبدو من المؤكد استمرار خضوع « اسى » (قبرص) للنفوذ المصرى فى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، حيث استمر ورود الاسم فى القوائم الجغرافية مع ملوك مصر : الفرعون سيتى الأول (١٣٠٦ - ١٢٩٠ ق.م) ، والفرعون

رمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م)[٩] ، ومع بداية القرن الثانى عشر ق. م اجتاحتها شعوب البحر[١٠] ، وهو ما عبرت عنه نصوص الفرعون « رمسيس الثالث » فى العام الثامن من حكمه حوالى عام ١١١٨ ق. م ، حيث تصدى لخطر هذه العناصر التى جاءت من البحر ومن الأراضى الساحلية وقضت على الدولة المينوية (Minoen) فى كريت ، كما قضت على الامبراطورية الحيثية .

« ...... فى العام الثامن من حكم جلالة (رمسيس الثالث) تآمرت الشعوب الأجنبية فى جزرها وأزالت بلادا وشردت الحرب (أهلها) ، ولم تستطع دولة أن تقف أمامهم ابتداء من خاتى (الامبراطورية الحيثية) وقدى (شاطئ قيليقية وشمال سوريا) وقرقميش ، وأرزاوا (بالقرب من قيليقية) وإسى (قبرص) ......»[١١].

وتشير الأدلة الأثرية إلى ازدياد النفوذ الحضارى الفينيقى وخاصة فى الجوانب الاقتصادية خلال القرنين التاسع والثامن ق. م (٨٥٠ - ٧٥٠ ق. م) ، وعندئذ نمت العلاقات التجارية بين مدن صور وصيدا وغيرهما فى فينيقية وعلى الجانب القبرصى مدن « كيتون » ، وأيداليون ، وانكومى ، وتماسوس ، ولايبثوس ، ولارناكا وغيرها ، (خريطة رقم ١) ولا بد من القول أن العناصر الفينيقية لم تنفرد وحدها بالجزيرة ، وإنما شاركتها عناصر اليونان التى انتشرت على سواحل آسيا الصغرى واستقرت أيضا فى الجزيرة . فى حين قامت جزيرة «رودس » بدور الوسيط الأساسى بين قبرص واليونان[١٣] (خريطة رقم ٢) .

ثم كان أن انتقلت السيادة على قبرص إلى دولة آشور ، وذلك فى الفترة التى عرفت اصطلاحا باسم العصر الأشورى الحديث ، وخاصة بين سنتى ٧٥٠ - ٦١٢ ق. م[١٤] ، وفى تلك الفترة اتجهت سياسة الامبراطورية الأشورية إلى السيطرة على الطرق التجارية والحربية والوصول غربا إلى شاطئ المتوسط ومحاولة الحلول محل الامبراطورية المصرية القديمة التى بلغت دور الشيخوخة ، ويمكن تتبع ذلك من خلال نصوص الملك الأشورى « سرجون الثانى » (٧٢١ -

٧٠٥ ق. م) الذى تحدث فيها بفخر عن انتصاراته واستيلائه على السامرة عاصمة العبرانيين الشمالية التى صمدت أمام حصار الأشوريين خلال عهد سلفه « شلما نصر الخامس » ، ولكنها انهارت أمام سرجون فى العام الأول من حكمه عام ٧٢١ ق. م ، وبذلك قضى على (مملكة) إسرائيل ونهب أشدود ، وذكر بفخر تبعية حكام جزيرة قبرص له :

« ... أخضع (سرجون الثانى) الملوك السبعة لبلاد أسى « قبرص » (إيادنانا) الذى يسكن فى جزيرة فى البحر (على مسافة) سبعة أيام إن مكانها بعيد جدًا ، لم يذكرها أحد من أسلافه الملكيين منذ الأيام البعيدة جدًا ...... »(١٥) .

ويتضح من النص السابق أن الجزيرة كان يسودها نظام أقرب إلى دويلات المدن بسبب وجود عدد من الحكام للجزيرة بلغ عددهم سبعة كما أشار النص ، ويبدو أن الجزيرة اضطرت للخضوع إلى الأشوريين بعد أن نجحوا فى اخضاع المدن الفينيقية ومنها مدينة صور التى أشارت النقوش التى عثر عليها فى الجزيرة على ما يدل على أن صور كانت لها مستعمرة فى قبرص أو أن دويلة قبرصية كانت خاضعة لصور ويحتمل أن هذه الدويلة كانت كيتيون(١٦).

كذلك ذكرت نصوص سينا خريب (سنحريب) . (٧٠٤ - ٦٨١ ق. م) التعاطف الذى كان موجوداً بين قبرص وبعض المدن الفينيقية ، حيث يشير النص :

« ...... لولى Luli ملك صيدا كان خائفًا من محاربتى ، وفر إلى مدينة قبرص (إيادنانا) وهى جزيرة فى وسط البحر واتخذها ملجأ ، ولكن حتى فى هذه الأرض قابل الموت بسبب تأثير الرعب من أسلحة سيدى (الإله) آشور أنا عينت أيثث بعل (على صيدا) على العرش الملكى وفرضت عليه الجزية ......(١٧) » .

والنص إشارة واضحة لاستمرار سيادة آشور على قبرص ومحاولات الخروج عن سيطرة آشور من جانب صيدًا وأيضًا جزيرة قبرص التى سبق وأعلنت الولاء لحكام آشور حتى لا تتصدى للنشاط التجارى القبرصى بينهم وبين سوريا ومصر وبلاد الأناضول[١٨] .

وقد ترك الملك الأشورى « أسرحدون » (٦٨٠ - ٦٦٩ ق. م) فى نصوصه قائمة بأسماء الحكام التابعين له ومن بينهم حكام قبرص :

« ...... كل ملوك الجزر التى تتوسط البحر ، من مدينة إيادنانا (قبرص)، حتى أيضا تارسيسى Tarsisi (كونسوس حسب رأى Luckenbill) انحنوا تحت قدمى وأخذت منهم جزية كبيرة » .

والنص يشير إلى خضوع جزيرة قبرص للسيطرة الأشورية فى عهد الملك « أسرحدون » كما تتحدث نصوص أخرى عن استدعاء ملوك (حكام) بلاد عديدة ، وعشرة ملوك من قبرص (إيادنانا) التى تتوسط البحر ، للذهاب إلى عاصمته « نينوى » للمشاركة فى بناء قصره[١٩] ، وقد يعنى هذا أيضا من جانب الملك الأشورى «أسرحدون » من دعوته لهذا العدد الكبير من الملوك والحكام البالغ عددهم اثنين وعشرين ملكا بما فيهم حكام قبرص ، الشروع فى تأسيس حصن جديد للملك الأشورى فى العاصمة « نينوى » ما يؤكد إحكام قبضته على الطرق التجارية الممتدة من الساحل الفينيقى حتى جزيرة قبرص صاحبة الموقع البحرى الهام . ذلك أن سيطرة آشور على تلك الطرق يعنى فقدان مصر شريانا هاما فى طرق التجارة العالمية فى تلك الفترة[٢٠] .

وقد استمرت السيادة الأشورية على قبرص فى عهد الملك الأشورى « أشوربانيبال » (٦٦٨ - ٦٣٣ ق. م) الذى أشار فى نصوصه إلى حكامها التابعين لأشور فى عهده ، وعندما إنهارت بعد ذلك الإمبراطورية الأشورية ودمرت عاصمتها حوالى ٦١٢ ق. م نعمت قبرص بالاستقلال .

على أن هذه الفترة كانت محدودة ، إذ عادت قبرص من جديد تحت السـيادة المصرية فى نهاية الأسرة السادسة والعشرين حينما استطاع الفرعـون « أحمـس الثانى » حوالى عام ٥٦٨ق. م السيطرة على الجزيرة ذات الموقـع الاسـتيراتيجى بالإضافة للأهمية الاقتصادية (٢١) .

وحوالى عام ٥٢٥ق. م وقعت مصر فريسة فى أيدى الفرس ، فانتقلت سـيادة الجزيرة إلى الفرس الاخمينيين حتى عام ٣٣٣ق. م ، ثم تعـاقب السـيادة عليـها الإسكندر الأكبر وخلفائه من الملوك البطالمة حتى عام ٥٨ق. م .

خاتمة البحث

يتضح من هذه الدراسة أن للموقع الجغرافى المتميز لجزيرة قبرص فى شرق حوض البحر المتوسط بجانب ثرواتها المعدنية والزراعية أثر فى اهتمام الدول القديمة وبخاصة الدول القوية المطلة على البحر المتوسط ومنها مصر وخاتى وآشور بالسيطرة عليها لما فى ذلك من فوائد اقتصادية وعسكرية .

تركز الاهتمام المصرى بجزر بحر ايجه وشرق البحر المتوسط فى بداية الأسرات الفرعونية وحتى نهاية عصر الدولة الوسطى على تغليب علاقات الود مع تلك الجزر واتخاذ الصلات التجارية معها سبيلاً إلى التأثير الحضارى فيها ، وبعد انتهاء الاحتلال الهكسوسى وبدء عصر الدولة الحديثة ، عادت مصر إلى الاهتمام بالجزء الشرقى من البحر المتوسط ، وضرورة السيطرة على مداخل الهجرات التى يمكن أن تهدد الأمن المصرى . كذلك الحرص والسيطرة على المواقع الاستراتيجية الهامة التى تتحكم فى التاريخ السياسى والتجارى لدول البحر المتوسط .

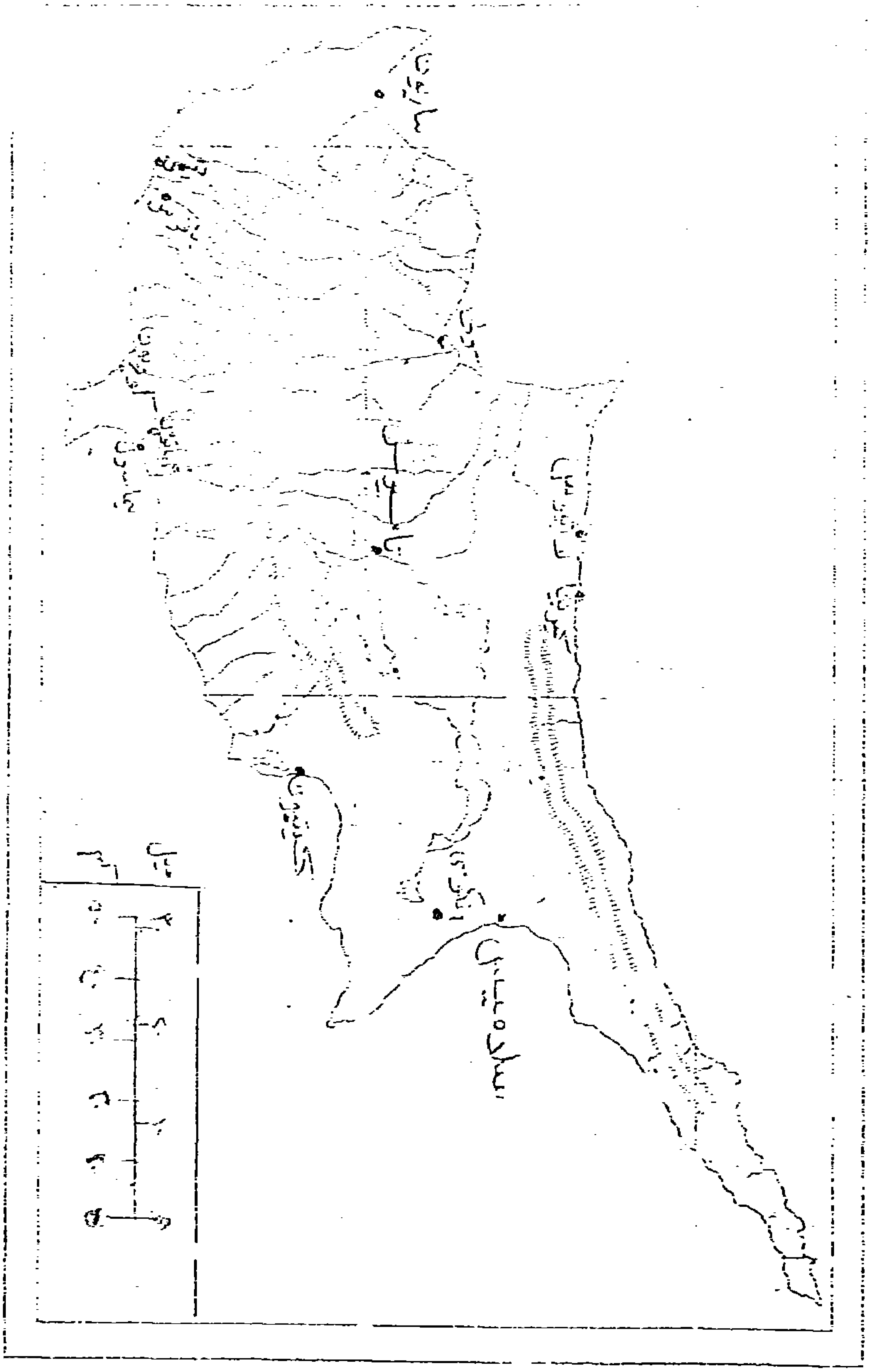
وقد سجلت النصوص الأثرية لملوك عصر الدولة الحديثة سيادة مصر على جزيرة قبرص ، وحرص حكامها على التودد وضمان رضاء ملوك مصر عليهم وذلك باستمرار تقديم الجزية ، وهو ما عبرت عنه نصوص تلك الفترة .

كذلك مثلت قبرص مركزًا تجاريًا أو سوقًا للشرق الأدنى القديم استفادت منه المدن الفينيقية وشاركتها العناصر اليونانية التى كانت قد استقرت فى الجزيرة ، وقامت جزيرة رودس بدور الوسيط الأساسى بينها وبين اليونان .

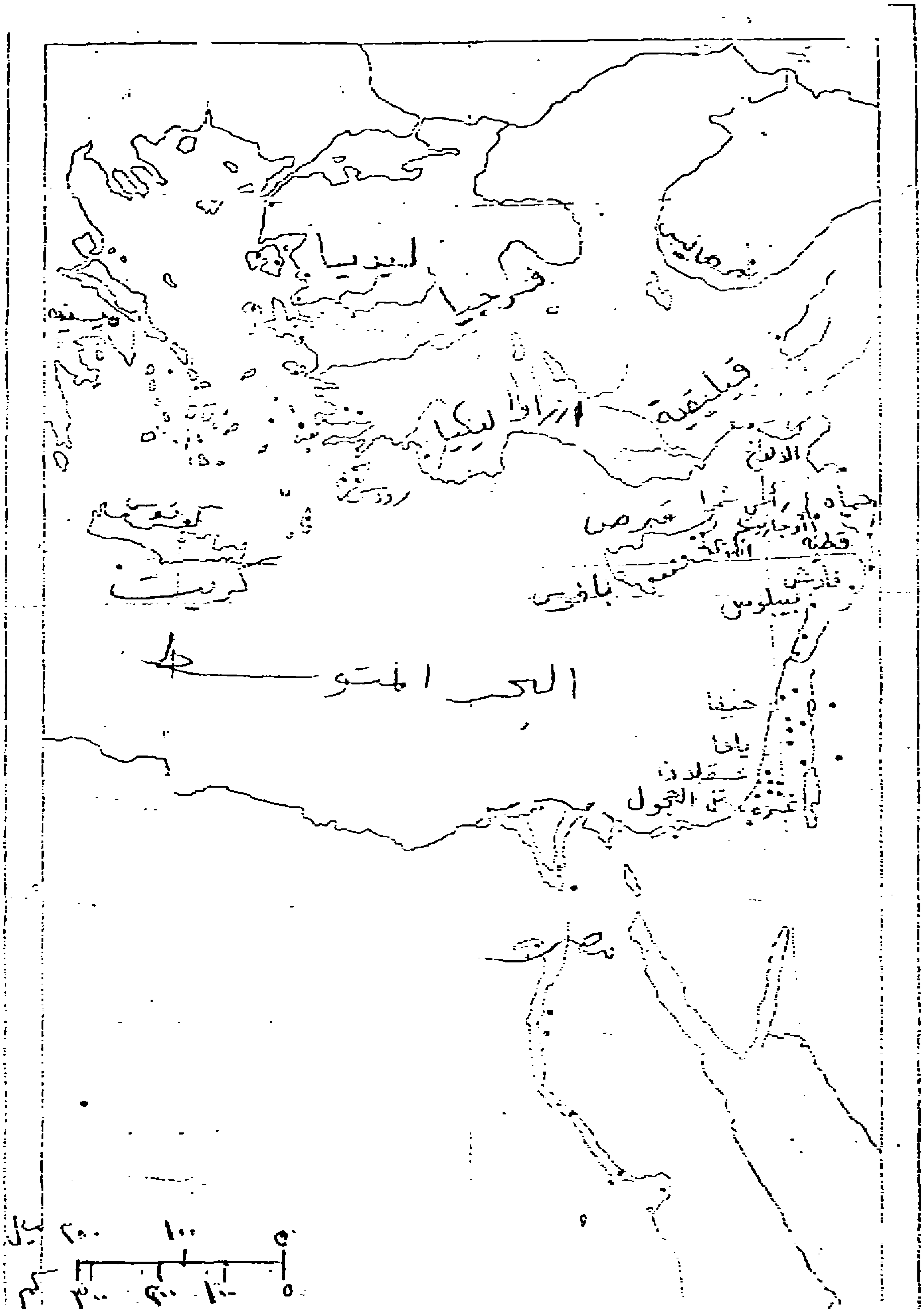
وحينما دخلت مصر مرحلة من مراحل الضعف بعد انتهاء عصر الدولة الحديثة ، انتقلت السيادة على قبرص إلى دولة آشور التى عبرت نصوصها عن هذه السيطرة ، والتى يفهم منها أن الجزيرة كانت مقسمة إلى دويلات لكل منها حاكمها الذى حرص على تقديم فروض الولاء للدولة الأشورية .

كذلك دلت النصوص الأشورية على ما يؤكد إحكام أشور سيطرتها على الطرق التجارية الممتدة من الساحل الفينيقى وحتى جزيرة قبرص ، وحرمان مصر من موقع استراتيجى واقتصادى هام فى الفترة من ٧٥٠ – ٦١٢ق. م .

ونظرًا لأهمية قبرص السياسية والاقتصادية والعسكرية قام الفرعون المصرى « أحمس الثانى » (الأسرة السادسة والعشرين) بإعادة السيطرة عليها من جديد . وعندما فقدت مصر استقلالها على أيدى الفرس ، انتقلت سيادة الجزيرة إلى الفرس ، ثم تناوبت السيادة عليها القوى الجديدة التى ظهرت على مسرح التاريخ .



(خريطة رقم ١) أهم المدن القديمة فى قبرص



(خريطة رقم ٢) قبرص وشرق البحر المتوسط

نقلاً عن : Blegen, C.W. CAH, Vol. II, P.2, P.183

حواشي البحث

(1) Goult, Herman, The New Encyclopaedia Britannica Vol. 5, P. 402.

(٢) جـ . كونتنو : الحضارة الفينقية ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، مراجعة طه حسين ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ١٠٥ .

(٣) راجع للباحث الأقواس التسعة من خلال مقابر الأسرة الثامنة عشرة فى مصر القديمة، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية المجلد ٣٨ ، ١٩٩٠ .

عن العلاقات بين مصر وسكان جزر بحر ايجه والكلمة المصرية « حاونبوت » ، ووجود الأوانى الحجرية وغيرها من الأدلة الأثرية فى كريت ، والطرق التجارية من مصر إلى سوريا ومنها إلى قبرص وكريت وغيرها من جزر البحر المتوسط ، راجع .

Vercoutter, T, The Near East, London, 1967, P. 367.

(٤) عصر البرونز الأخير فى قبرص ينقسم إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى من ١٥٥٠ – ١٤٠٠ق. م ، والثانية من ١٤٠٠ – ١٢٠٠ق.م، والثالثة من ١٢٠٠ – ١٠٥٠ق. م انظر :

Catling, H. W., Cyprus in the late Bronze Age, CAH, Vol. II, P. 2, P. 188.

(٥) بعض هذه الجزى كانت جزى حقيقية من بلاد مهزومة ، وبعضها هدايا من حكام بلاد بعيدة تطلب ود الفرعون تحوتمس الثالث الذى يسيطر بأسطوله القوى على موانى فينيقية وفلسطين وجزر البحر المتوسط ، انظر :

Wilson, J., The Asiatic Campaigns of Thut – mose III, ANET, P. 238.

(6) Urk, IV, PP. 707-708.

(7) Urk, IV, P. 719, ARE, II, PP. 210-212.

(8) Wilson, J., The Hymn of Victory of Thut – mose III, ANET, PP. 373-374.

(9) Wilson, J., Lists of Asiatic Campaigns under the Egyptian Empire, ANET, 242;

وكذا Catling, H. W, Op. Cit, P. 203 – 242, Ibid, P. 204.

(10) The Hittite Archives, JEA, Vol. 25, 1939, PP. 148-150.

Redford, D., Egypt, Canaan, and Isreal, in Ancient Times, Cairo, 1995, P. 253.

Wainwright, G. A, Some Sea – Peoples and Others in Hill, G. F., A History of Cyprus, 1., CAH, 1940, P. 44.

Roberts, J. M, History of the World, New York, 1993, P. 86.

(11) Wilson, J., The War Against the Peoples of the Sea, ANET, P. 262.

كما ورد اسم « الأشيا Alashiya » فى رحلة ون آمون ، راجع :

Wilson, J., The Journey of Wen – Amon to Phoenicia, ANET, PP. 25-29;

تم قبول أن «اسى » هى قبرص ، وفى عام ١٨٩٥ «ماكس مولر Max Müller » حاول توضيح أن أليسا (الأشيا) كانت شكلا آخر لنفس الكلمة ، وآلاشيا هى أيضا قبرص ، راجع :

Wainwright, G. A., Alashia = Alasa, and Asy, Klio, Leipzig, 1915, P. 2.

(١٢) خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م الايجبيون وصلوا إلى الجزيرة فى البداية كتجار ، ولكن فى نهاية هذه الفترة كمستوطنين .

كما يوجد اتصال بين فينيقيا وقبرص من القرن الثالث عشر وما بعده ، وهناك اسطورة الأميرة «اليسا » التى فرت من صور إلى قبرص فى طريقها إلى قرطاجة فى القرن التاسع ق. م ، انظر .

Harden, D, The Phoenicians, New York, 1971, PP. 52-60.

Baramki, D., The Phoenicians, P. 59.

جـ . كونتنو :المرجع السابق ، ص١٠٤ .

(13) Bickham Sweet – Escott, The New Encyclopaedia Britannica Vol. 5, P. 406.

(14) Ibid, 406.

(15) Oppenheim, L., Babylonian and Assyrian Historical Texts, ANET, 284.

(١٦) محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٥٩ .

وكذا : Baramki, D., Op. Cit, P. 32.

خضوع حكام قبرص للملك الأشورى « سرجون الثانى » جعله يقيم لوحة لتسجيل الحدث فى عاصمته «دار شاروكين » (خورسباد) وكذلك فى كيتيون واللوحة موجودة حاليا فى متحف برلين ، وفيها تتم الإشارة إلى قبرص باسم « يا أتانانا Yatnana وقد سمح حكام الجزيرة بحفر صورة سرجون الثانى ورموز آشور على اللوحة ، راجع :

The New Encyclopaedia Britannica, P. 406.

(17) Oppenheim, L., Op. Cit., P. 288; Smith, S., Sennacherib and Esarhaddon, CAH, Vol. III, P. 72.

(١٨) « لولى » وصف كحاكم لمدينتى صيدا وصور ، وصف بالنشاط والتصدى للحكم الأشورى ، تحالف مع مصر ويهوذا ، فى عام ٧٠١ ق. م اجبره «سنحريب » على الفرار إلى قبرص ، انظر :

Harden, D., Op. Cit., P. 49.

(19) Oppenheim, L., Op. Cit., pp. 290-291.

(20) Smith, S., Op. Cit., p. 84.

(21) Gardiner, A., Egypt of the Pharohs, London, 1974, p. 362.

مرويات عمر بن شبه فى تاريخ الطبرى

بين سنتى ٥٩ ، ٦٥هـ

د. عبد العزيز عبد الله السلومى(*)

من الواضح أن تاريخنا الإسلامي الذى دون عبر الأجيال المتتابعة يعطينا صورة عملية ووجه كامل لأحداث تاريخ هذه الأمة . وقد تم نقل وجمع وتدوين هذا التاريخ بطرق شتى من أهمها أسلوب المحدثين فى الإسناد ويقوم هذا المنهج على الاستقراء والتجرد فى معرفة أى قضية أو حدث من خلال التعرف على حقيقة الرواية بدراسة أسانيدها وكان الإمام الطبرى رحمه الله أحد أعلام هذا المنهج فى مؤلفاته وبخاصة كتابه « تاريخ الرسل والملوك » ، حيث اعتمد فى رواياته التاريخية على عدد كبير من مشايخه المحدثين والإخباريين وغيرهم أمثال سيف بن عمر ، والمدائنى وعوانه بن الحكم ، وأبى مخنف ، والواقدى ، وابن الكلبى ، وعمر بن شبه ، وغيرهم ممن تباينوا فى الدقة والاتجاه والأسلوب وحتى فى كيفية الرواية . ولم يشترط الطبرى صحة كل ما رواه فى كتابه وإنما أورد الروايات وأسندها إلى رواتها تاركا الحكم فيها للقارئ ، ويتفق هذا مع ما قاله فى مقدمة كتابه : « فما يكن فى كتابى هذا من خير ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها من الصحة ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا[1] » ، وهكذا فإن الأمر يحتاج إلى تحقيق ودراسة وتمحيص فى الأسانيد ورواتها ، والروايات ومتنها مع مقارنتها

(*) أستاذ الحضارة والنظم الإسلامية المساعد - كلية الشريعة جامعة أم القرى - مكة المكرمة .

بما ورد فى المصادر الأخرى ، وهذا ما حدث بالفعل حيث عنى عدد لا بأس به من الباحثين فى كل من جامعتى أم القرى بمكة المكرمة والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بدراسة مرويات العديد من شيوخ الطبرى خلال فترة معينة من التاريخ عبر رسائل علمية مهمة فى التاريخ والدراسات التاريخية والحضارية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى[٣] ، مرويات عوانه بن الحكم والواقدى[٣] ، ومرويات سيف ابن عمر[٤] ، ومرويات عمر بن شبه[٥] ، وغيرها من المرويات التى اتفقت جميعها فى الطريقة والمنهج وقد اخترنا أن نضيف إلى تلك الدراسات هذه الدراسة وموضوعها مرويات عمر ابن شبه فى تاريخ الطبرى خلال سنتى ٥٩ — ٦٥هـ دراسة مقارنة وعددها اثنان وعشرون رواية .

وفى دراستى لهذه الفترة امتداداً واتصالاً لما سبق فقمت بجمع مرويات عمر ابن شبه برواياتها وأسانيدها ، وأجريت دراسة لرجالات السند حيث استقيت الحكم عليهم من خلال ما كتبه عنهم علماء الجرح والتعديل ، صحة أو ضعفاً كل بحسبه، ولهذا يتضح للباحث مستوى سند الرواية .

كذلك عملت عند دراسة الرواية على مقارنتها بما وردت فى المصادر الأخرى سواء من خلال تتبع السند أو مقارنة المتن ، حرصت قدر جهدى على تبيان الفروق بينها من خلال كتب التاريخ والتراجم التى رجعت إليها ، كما عملت على الترجمة المختصرة للأعلام غير المشهورين الذين وردوا فى النص ، وقمت بتوضيح معانى الكلمات أو المصطلحات أو الأماكن المهمة وشرح معانيها وتحديد أماكنها ، وذلك بالاعتماد على المصادر المتباينة . وحيث أن علمى هذا البحث وهما : محمد بن جرير الطبرى ، وعمر بن شبه ،

قد تمت دراستهما دراسة مستوفية عبر كثير من المصـــادر القديمـــة والحديثـة فإنني آثرت في ذلك عدم التكرار أو حتى الاختصار .

أما من حيث ترتيب الروايات فقد أوردتها وفق ترتيبها كما ذكرهـا الطـبرى في كتابه تاريخ الرسل والملوك من غير تقديم ولا تأخير حتى لا يكون هناك تداخـل في بعض الروايات أو في تاريخ حدوثها .

الرواية الأولى : ٥ / ٣٢٨

١ — حدثني عمر ، قال : حدثنا علي ، عن إسحاق بن خليد ، عن خليد بن عجـلان مولى عباد : مات معاوية ويزيد بحوارين[٦] ، وكانوا كتبوا إليه حين مـرض ، فأقبل وقد دفن ، فأتى قبره فصلى عليه ، ودعا له ثم أتى منزله ، فقال :

جـاء البريـد بقرطـاس يخب به	فأوجس القلب من قرطـاسـه فـزعـا
قلنا : لك الويـل ماذا في كتابكم ؟	قالـوا : الخليفـة أمس مثبتـا وجعـا
فمادت الأرض أو كادت تميـد بنا	كأن أغبـر[٧] مـن أركانهـا انقطعـا
من لا تزل نفسه توفى على شرف	توشـك مقاليد تلك النفـس أن تقعـا
لما انتهينا وباب الـدار منصـفق	وصوت رملـه ريـع القلب فانصـدعـا

رجال السند :

– أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني الأخباري : قال عنـه يحيى بن معين ؛ ثقة ثقة ثقة ، وقال ابن عدي : « ليس بالقوي الحديث » وقـال الطبري : « كان عالما بأيام الناس صدوقا في ذلك » وقال الذهبـي : العلامـة الحافظ الصادق الإخباري » وقال أيضا : « صدوق » ولد سنة ١٣٢هـ وتوفـي سنة ٢٢٤هـ[٨] .

- إسحاق بن خليد : مولى سعيد بن العاص القرشى ، قال عنه البخارى : شـــيخ ، وذكره ابن حبان فى الثقات[٩] .

- خليد بن عجلان مولى عباد : لم أقف على ترجمته .

دراسة الرواية(١) :

لهذه الرواية عدة وجوه ، اتفقت جميعها من ناحية المضمون ، وأن اختلفـــت فى تطابق النص ، فقد ذكرها ابن عبد البر[١٠] بسنده بقوله : روى محمد بن عبـد الله ابن الحكم[١١] ، قال : سمعت الشافعى ، يقول : لما ثقل معاوية كان يزيد غائبا فكتـب إليه بحاله ، فلما أتاه الرسول أنشأ يقول : وذكر الأبيات الواردة فـــى الروايـــة مـــع اختلاف فى بعض الكلمات ، فقد اتفقت الأبيات الثلاث الأولى مع أبيات النـــص وأن اختلف فى بعض كلماتها ، كما ذكر الشافعى أن البيتين الأخيرين للأعشى[١٢] .

أما صاحب العقد الفريد[١٣] ، فقد أوردها بسنده إلى الهيثم بن عدى[١٤] ، بقوله: أخرج إلى يزيد بريدا بكتاب يستقدمه ويستحثه ، فخرج مسرعا . فتلقاه يزيد فـأخبره بموت معاوية ، فقال يزيد الأبيات المذكورة . وأورد قول محمد بن عبـــد الحكـم : قال الشافعى : سرق هذين البيتين من الأعشى .

أما ابن سعد فقد أورد رواية على بن محمد المدائنى هذه من طريق آخر بسند حسن عن سليمان بن أيوب وذكر مطولا أحداث وفـــاة معاويـــة رضـــى الله عنـــه والأبيات التى قيلت فى ذلك ، حيث أوردها ثمانية أبيات مـــع تقديـم وتـــأخير فـــى بعضها[١٥] .

كما أورد ابن الأثير[١٦] هذه الرواية غير مسندة بقوله : وقيـــل : لمـــا اشـــتد مرضه — أى مرض معاوية — كان ولده يزيد بحوارين ، فكتبوا إليه يحثونه علـــى المجئ ليدركه فقال يزيد شعرا وذكر الأبيات .

أثبتت النصوص بعد يزيد عن أبيه معاوية عند وفاته ، وإنشاده تلك الأبيات عند تلقى نبأ مرضه ، وحثه على الحضور إلى دمشق ، وكذا ما ذكره عمر ابن شبه فى روايته للنص أن يزيد بن معاوية قد أقبل بعد دفن أبيه وإنشاده للشعر فى منزله بعد أن أتى قبر أبيه وصلى عليه .

أما صاحب الاستيعاب[١٧] ، فذكر أن معاوية قد أفاق حين وصل ابنه يزيد وأوصى إليه بقوله : يا بنى إنى صحبت رسول الله ﷺ ، فخرج لحاجة فاتبعته بإداوة ، فكسانى أحد ثوبيه الذى كان على جلده فخبأته لهذا اليوم ، وأخذ رسول الله ﷺ من أظفاره وشعره ذات يوم ، فأخذته وخبأته لهذا اليوم ، فإذا أنامت ، فاجعل ذلك القميص دون كفنى مما يلى جلدى ، وخذ ذلك الشعر والأظافر فاجعله فى فمى، وعلى عينى ، ومواضع السجود منى ، فإن نفع شئ فذاك وإلا فإن الله غفور رحيم .

كذلك أورد ابن كثير[١٨] هذه الوصية بسنده فى آخر خطبة لمعاوية، حيث ذكرها بقوله : وقد ورد من غير وجه أنه أوحى إليه أن يكفن فى ثوب رسول الله ﷺ الذى كساه إياه ، وكان مدخرا عنده لهذا اليوم ، وأن يجعل ما عنده من شعره وقلامة أظفاره فى فمه وأنفه وعينيه وأذنيه .

الرواية الثانية : ٥ / ٣٥٩

٢ — ذكر عمر بن شبة ، عن هارون بن مسلم ، عن على بن صالح ، عنه قال :
لما جاء كتاب يزيد إلى عبيد الله بن زياد[١٩] ، انتخب من أهل البصرة خمسمائة ، فيهم عبد الله بن الحارث بن نوفل[٢٠] ، وشريك بن الأعور[٢١] — وكان شيعة لعلى فكان أول من سقط بالناس شريك ، فيقال : إنه تساقط غمرة ومعه ناس ثم سقط عبد الله بن الحارث وسقط معه ناس ، ورجوا أن يلوى عليهم عبيد الله ويسبقه الحسين إلى الكوفة ، فجعل لا يلتفت إلى من سقط ،

ويمضى حتى ورد القادسية[٣٢] وسقط مهران مولاه ، فقال: أيا مهران ، على هذه الحال ، إن أمسكت عنك حتى تنظر إلى القصر فلك مائة ألف ، قال : لا ، والله ما استطيع فنزل عبيد الله فأخرج ثيابا مقطعة من مقطعات اليمن ، ثم اعتجر[٣٣] بمعجرة يمانية ، فركب بغلته ، ثم انحدر راجلا وحده ، فجعل يمر بالمحارس فكلما نظروا إليه لم يشكوا أنه الحسين ، فيقولون : مرحبا بك يابن رسول الله ﷺ ! وجعل لا يكلمهم ، وخرج إليه الناس من دورهم وبيوتهم ، وسمع بهم النعمان بن بشير[٣٤] فغلق عليه وعلى خاصته ، وانتهى عبيد الله وهو لا يشك أنه الحسين ومعه الخلق يضجون ، فكلمه النعمان ، فقال : أنشدك الله إلا تنحيت عنى ما أنا بمسلم إليك أمانتى ، ومالى فى قتلك من أرب ، فجعل لا يكلمه . ثم إنه دنا وتدلى الآخر بين شرفتين ، فجعل يكلمه فقال : افتح لا فتحت ، فقد طال ليلك ، فسمعها إنسان خلفه ، فتكفى إلى القوم ، فقال : أى قوم ، ابن مرجانه ، والذى لا إله غيره فقالوا : ويحك إنما هو الحسين ، ففتح له النعمان ، فدخل ، وضربوا الباب فى وجوه الناس ، فانفضوا ، وأصبح فجلس على المنبر فقال : أيها الناس إنى لأعلم أنه قد سار معى ، وأظهر الطاعة لى من هو عدو للحسين حين ظن أن الحسين قد دخل البلد وغلب عليه ، والله ما عرفت منكم أحدا ، ثم نزل وأخبر أن مسلم بن عقيل[٣٥] قدم قبله بليلة ، وأنه بناحية الكوفة ، فدعا مولى لبنى تميم فأعطاه مالا ، وقال : انتحل هذا الأمر ، وأعنهم بالمال ، واقصد لهانئ[٣٦] ومسلم وأنزل عليه ، فجاء هانئا فأخبره أنه شيعة ، وأن معه مالا ، وقدم شريك بن الأعور شاكيا ، فقال لهانئ : مر مسلما يكن عندى ، فإن عبيد الله يعودنى، وقال شريك لمسلم : أرأيتك إن أمكنتك من عبيد الله أضاربه أنت بالسيف ؟ قال : نعم والله .

وجاء عبيد الله شريكا يعوده فى منزل هانئ – وقد قال شـريك لمسـلم : إذا سمعتنى أقول : اسقونى ماء فأخرج عليه فأضربه – وجلس عبيد الله على فـراش شريك ، وقام على رأسه مهران ، فقال : اسقونى ماء ، فخرجت جاريـة بقـدح ، فرأت مسلما ، فزالت ، فقال شريك : اسقونى ماء ، ثم قال الثالثة : ويلكم تحمونـى الماء اسقونيه ولو كانت فيه نفسى ، ففطن مهران فغمز عبيد الله ، فوثـب ، فقـال شريك : أيها الأمير ، إنى أريد أن أوصى إليك، قال : أعود إليك ، فجعل مـهران يطرد به ، وقال : أراد والله قتلك ، قال : وكيف مع إكرامى شريكا وفى بيت هـانئ ويد أبى عنـده يد فرجع فأرسل إلى أسماء بن خارجة[٢٧] ومحمد بن الأشـعث[٢٨] فقال : ائتيانى بهانئ ، فقالا له : إنه لا يأتى إلا بالأمان ، قال : وما له وللأمـان ! وهل أحدث حدثا! انطلقـا فإن لم يـأتى إلا بالأمان فأمنـاه ، فأتيـاه فدعـواه ، فقـال : إنه إن أخذنى قتلنى . فلم يزالا به حتى جاءا به وعبيـد الله يخطـب يـوم الجمعة ، فجلس فى المسجد ، وقـد رجل هانئ غديرتيه[٢٩] ، فلما صلى عبيـد الله ، قـال : يـا هانئ ، فتبعه ، ودخل فسلم ، فقال عبيد الله : يا هانئ ، أمـا تعلـم أن أبى قدم هذا البلد فلم يترك أحدا من هذه الشيعة إلا قتلـه غير أبيك وغير حجـر[٣٠] ، وكان ابن حجر ما قـد علمت ، ثم لم يزل يحسن صحبتك ، ثم كتب إلـى أمـير الكوفة : إن حاجتى قبلك هانئ ؟ قال : نعم ، قال : فكان جزائى أن خبأت فى بيتـك رجلا ليقتلنى ! قال : ما فعلت ، فأخرج التميمى الذى كان عينا عليـهم ، فلمـا رآه هانئ علم أن قد أخبره الخبر ، فقال : أيها الأمير ، قد كان الذى بلغك ، ولن أضيـع يدك عنى ، فأنت آمن وأهلك فسر حيث شئت ، فكبا عبيد الله عندها ، ومهران قـائم على رأسه فى يده معكزة[٣١] ، فقال : وأذلاه ! هذا العبد الحائك يؤمنك فى سلطانك! فقال : خذه ، فطرح المعكزه، وأخذ بضفيرتى هانئ ، ثم أقنع بوجهه ، ثم أخذ عبيـد الله المعكزة فضرب بها وجه هانئ ، وندر الزج ، فارتز فى الجدار ، ثـم ضـرب وجهه حتى كسر أنفه وجبينه ، وسمع الناس الهيعة وبلغ الخبر مذحـج ، فـأقبلوا ،

فطافوا بالدار ، وأمر عبيد الله بهانئ فألقى فى بيت ، وصيح المذحجيون ، وأمر عبيد الله مهران أن يدخل عليه شريحًا[٣٢] ، فخرج ، فأدخله عليه ، ودخلت الشرط معه ، فقال : يا شريح ، قد ترى ما يصنع بى قال : أراك حيًا ، قال : وحى أنا مع ما ترى ! أخبر قومى أنهم إن انصرفوا قتلنى ، فخرج إلى عبيد الله فقال : قد رأيته حيًا ، ورأيت أثرًا سيئًا ، قال : وتنكر أن يعاقب الوالى رعيته ! أخرج إلى هؤلاء فأخبرهم ، فخرج ، وأمر عبيد الله الرجل فخرج معه ، فقال لهم شريح : ما هذه الرعة السيئة ! الرجل حى ، وقد عاتبه سلطانه بضرب لم يبلغ نفسه ، فانصرفوا ولا تحلوا بأنفسكم ولا بصاحبكم فانصرفوا .

رجال السند :

- هارون بن مسلم بصرى ، من السابعة مستور ، وذكره ابن حبان فى الثقات[٣٣].
- على بن صالح بن حى الهمدانى أبو محمد : ثقة عابد من السابعة ، مات ١٥١هـ وقيل بعدها ، وثقه أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين[٣٤] .

دراسة الرواية(٢) :

تقاربت رواية ابن الأثير[٣٥] التى أوردها بدون سند مع رواية عمر بن شبه هذه فى أحداث الجزء الأول من الرواية ، وان اختلف فى أسماء من خرج مع عبيد ابن زياد حيث ذكر ابن الأثير ، أن مسلم بن عمرو الباهلى[٣٦] كان ممن خرج مع ابن زياد ، وفى رواية ابن شبه ، أن عبيد الله بن الحارث بن نوفل ، كان ممن أنتخبه ابن زياد للخروج معه إلى الكوفة ، وأفاض فى تفاصيل دخوله ، مع إيجاز ابن زياد لأهل الكوفة ، والتى أفردها ابن الأثير .

ويروى المسعودى وابن كثير بدون سند[٣٧] ، أن يزيد بن معاوية ولى عبيد الله بن زياد ، إمرة الكوفة وحثه على قتل مسلم بن عقيل أو نفيه ، وكيف استقبله والى الكوفة ، النعمان بن بشير ظانا منه أنه الحسين بن على .

وأوردت كثير من المصادر الوسيلة التى لجأ إليها عبيد الله بن زيـــاد ، فـــى تقصى ومعرفة مكان مسلم بن عقيل ، فقد أوردها الحافظ ابن حجـــر[٣٨] بســنده : وقال عمار بن معاوية الدهنى[٣٩] ، قلت لأبى جعفر محمد بن على ابن الحسـين[٤٠] ، حدثنى عن مقتل الحسين حتى كأنى حضرته ، فذكر فى روايته الطريقة التى لجـــأ إليها ابن زياد لمعرفة مكان مسلم بن عقيل .

كما اتفقت رواية ابن الأثير وابن كثيــر[٤١] ، مع روايـــة عمر بن شـــبه ، من حيث الإطـالة وتفصيل الأحداث ، دون الإخلال بـالمعنى العـــام للروايـــة ، خاصة فى ذكر ما أقـدم عليـه عبيد الله بن زياد مع هـانئ بن عروة المـــرادى ، إلا أن تلك الأحداث جاءت موجزة من طريق ابن حبان[٤٢] حيث قال : وأخبر عبيـد الله بن زياد ، أن مسلم بن عقيل فى دار هانئ بن عروة المـــرادى ، فدعـــا هانئًـــا وسأله فأقر به ، فهشم عبيد الله وجه هانئ ، بقضيب كان فى يده حتى تركـــه وبـــه رمق ، ثم أورد القصة كاملة مع اختلاف فى الطريقة التى تم القبض فيها على مسلم ابن عقيل وقتله .

كذلك أشـــار الدينورى إلى هذه القصة بقوله : « ... أن ابن هانئ خـــرج إلى عبيد الله بن زيــاد ، ومعه عصاه وكان أعرج ، ثم دخل على ابن زيـــاد فقـــال له : يا هانئ أما كانت يد زياد عندك بيضاء ؟ قـــال : بلى ، قال ويدى ؟ قـــــال : بلى فقال هانئ : قد كانت لكم عندى يد بيضاء ، وقد أمنتك على نفســـك ومـــالك ، فتناول العصا التى كانت بيد هانئ فضرب بها وجهه حتـــى كســرها ، ثـم قدمــه فضرب عنقه ...[٤٣] » .

الرواية الثالثة : ٥ / ٤٧١ — ٤٧٣

٣ — حدثنى عمر ، قال : حدثنى على بن محمد ، قال : حدثنا مسلمة بن محـــارب ابن سلم بن زياد ، قال : وفد سلم بن زياد[٤٤] ، على يزيد بن معاويـــة وهـــو

ابن أربع وعشرين سنة ، فقال له يزيد : يا أبا حـرب ، أوليك عمل أخويـك: عبد الرحمن وعباد[٤٥] ؟ فقال : ما أحب أمير المؤمنيـن ، فـولاه خراسـان وسجستان ، فوجه سلم ، الحارث بن معاوية الحارثى جد عيسى بـن شـبيب من الشام إلى خراسان ، وقدم سلم البصرة ، فتجهز وسار إلـى خراسـان ، فأخذ الحارث بن قيس بن الهيثم السلمى فحبسه ، وضرب ابنه شبيبًا وأقامـه فى سراويل ، ووجه أخاه يزيد بن زياد إلى سجستان .

فكتب عبيد الله بن زياد إلى عباد أخيه — وكان له صديقًا — يخـبره بولايـة سلم ، فقسم عباد ما فى بيت المال فى عبيده ، وفضل فضل فنادى مناديه : مـن أراد سلفًا فليأخذ ، فأسلف كل من أتاه ، وخرج عباد عن سجستان ، فلما كان بجيرفت[٤٦] بلغه مكان سلم — وكان بينهما جبل — فعدل عنه ، فذهب لعباد تلـك الليلـة ألـف مملوك ، أقل ما مع أحدهم عشرة آلاف قال : فأخذ عباد على فارس ، ثم قدم علـى يزيد ، فقال له يزيد : أين المال ؟ قال كنت صاحب ثغر ، فقسمت ما أصبـت بيـن الناس . قال : ولما شخص سلم إلى خراسان شخص معه عمـران بـن الفصيـل البرجمى[٤٧] ، وعبد الله بن خازم السلمى[٤٨] ، وطلحة بـن عبـد الله بـن خلـف الخزاعى[٤٩] ، والمهلب بن أبى صفره[٥٠] ، وحنظلة بن عراده[٥١] ، وأبـو حزابـه الوليد بن نهيك[٥٢] أحد بنى ربيعة بن حنظلة ، ويحى بن يعمر العدوانى[٥٣] حليـف هذيل ، وخلق كثير من فرسان البصرة وأشرافهم ، فقدم سلم بن زياد بكتاب يزيـد ابن معاوية إلى عبيد الله بن زياد بنخبة ألفى رجل ينتخبهم — وقال غيره : بل نخبـة ستة آلاف — قال : فكان سلم ينتخب الوجوه والفرسان .

ورغب قوم فى الجهاد فطلبوا إليه أن يخرجهم ، فكان أول من أخرجه سـلم حنظلة بن عراده ، فقال له عبيد الله بن زياد : دعه لى ، قال : هو بينـى وبينـك ، فإن اختارك فهو لك ، وإن اختارنى فهو لى ، قال : فاختار سلمًا ، وكـان النـاس يكلمون سلمًا ويطلبون إليه أن يكتبهم معه ، وكان صله بن أشيم العـدوى[٥٤] يـأتى

الديوان فيقول له الكاتب : يا أبا الصهباء ، ألا أثبت أسمك ، فإنه وجه فيـــه جـــهاد وفضل ؟ فيقول له : استخير الله وانظر ، فلم يزل يدافع حتى فرغ من أمر النـــاس ، فقالت له امرأته معاذه ابنة عبد الله العدوية[٥٥] : ألا تكتب نفســك ؟ قـــال : حتـــى انظر ، ثم صلى واستخار الله ، قال : فرأى فى منامه آتيا أتاه ، فقال لـــه : أخـــرج فإنك تربح وتفلح وتنجح ، فأتى الكاتب فقال له : أثبتنى ، قال : قـــد فرغنـــا ولـــن أدعك ، فأثبته وابنه ، فخرج سلم فصيره سلم مع يزيد بن زياد فسار إلى سجستان .

قال : وخرج سلم وأخرج معه أم محمد ابنة عبد الله بن عثمـــان بـــن أبـــى العاص الثقفى ، وهى أول امرأة من العرب قطع بها النهر .

رجال السند :

- على بن محمد المدائنى : سبقت ترجمته فى سند رقم ١ .
- مسلمة بن محارب بن سلم بن زياد ، كوفى روى عن أبيه . أن معاوية كتب إلـــى زياد سمعت النبى ﷺ يقول : أن العجم أو العدو لا ينصرونى على قـــوم ، روى عن ابن جريج ، وروى أبو الحسن المدائنى عنه. ذكره ابن حبان فى الثقات[٥٦].

دراسة الرواية(٣) :

أورد خليفة بن خياط[٥٧] مختصرًا أن سلم ابن زياد غزا خوارزم فى أحـــداث عام ٦٢هـــ .

فيما أورد ابن كثير وابن الأثير[٥٨] أن ولاية سلم بن زياد فى أحـــــداث عـــام ٦١هـــ فقد يكون تولى سلم بن زياد خراسان نهاية ٦١هـــــ وقيامـــه بغـــزو بـــلاد خوارزم جاء فى أوائل عام ٦٢هـــ ، وعليه فليس هنـــاك اختلاف فى ذكر عـــامى ٦١ ، ٦٢ . فقد وافق ابن الأثير عمر ابن شبه فى عرضه للنص وتفصيل الأحـــداث منذ ولاه يزيد بن معاوية لخراسان وانتخابه للوجوه التى خرجت معه من البصـــرة ، بينما أوجز ابن كثير تلك الأحداث بصورة أكثر اختصاراً .

أما ابن عساكر وابن عبد ربه[٥٩] فقد أوردا نصيحة يزيد بن معاوية لسلم حين ولاه خراسان فقال له : إن أباك كفى أخاه عظيمًا ، وقد استكفيتك صغيرًا فلا تتكلن على عذر منى ، وقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك منى قبل أن أقول إياى منك فإن الظن إذا أخلف منك أخلف فيك ، وأنت فى أدنى حظك فأبلغ أقصاه ، وقد أتعبك أبوك فلا ترح نفسك ، واذكر فى يومك أحاديث غدك .

فى حين أبرز صاحب كتاب الفتوح[٦٠] الدور الذى قام به عبيد الله بن زياد تجاه من خرج على سلم بن زياد إلى خراسان وبين سر العداوة التى بينه وبين أخيه سلم بن زياد .

وقد جاء اسم سلم بن زياد عند ابن الجوزى[٦١] سالم بن زياد وأما الذهبى[٦٢] فقد ذكره سالم بن أحور .

وقد اتفقت المصادر السابقة على خروج زوج سلم بن زياد ، أم محمد ابنة عبد الله بن عثمان بن أبى العاص الثقفية معه وهى أول امرأة من العرب قطع بها النهر إلى جانب ذكر غنائم المسلمين والتى بلغت نيف وعشرين ألف، كما ذكر ابن الأثير أن سلم كان يأخذ الرأس والدابة والمتاع بنصف الثمن .

كما أوردها الطبرى من طريق المدائنى بسنده عن شيخ ، من خزاعة وذكرها مختصرة[٦٣] .

الرواية الرابعة : ٥ / ٤٩٩

٤ — حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنا محمد بن يحيى ، عن هشام بن الوليد المخزومى ، أن الزهرى كتب لجده أسنان الخلفاء ، فكان فيما كتب من ذلك: مات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين ، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر فى قول بعضهم ، ويقال : ثمانية أشهر .

رجال السند :

- محمد بن يحيى بن على بن عبد الحميد بن عبيد بن غسان بن يسار الكنانى أبو غسان المدنى ، شيخ ثقة من العاشرة ، لم يصب السليمانى فى تضعيفه . ذكره ابن حبان فى الثقات[٦٤] .

- هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى . ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال وهو الذى ضرب سعيد بن المسيب بالسياط ، ليس بثقة ولا مأمون ولا تحل الرواية عنه لما مر لسعيد(٦٥) .

- محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى ، الفقيه الحافظ ، متفق على جلالته وإتقانه من رؤوس الطبقة الرابعة ، توفى سنة ١٢٥هـ وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين(٦٦) .

دراسة الرواية(٤) :

اختلفت المصادر فى تحديد فترة خلافة يزيد بن معاوية ، وعمره عند الوفاة ، حيث ذكر خليفة بن خياط(٦٧) ، أنه مات يزيد بن معاوية بحوارين من بلاد حمص ، وصلى عليه ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية ليلة البدر فى شهر ربيع الأول ، ومات وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ، وقالوا : ابن بضع وأربعين سنة ، وكانت ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر واثنين وعشرين يومًا.

كما ذكر المحقق ابن كثير(٦٨) : أنه مات لأربع عشرة ليلة من ربيع الأول سنة أربع وستين ، وهو ابن خمس أو ثمان وثلاثين سنة ، فكانت ولايته ثلاث سنين وستة أو ثمانية أشهر .

كما أرج ابن الجوزى(٦٩) وفاته بقوله : توفى لأربع عشر خلت من ربيع الأول من هذه السنة (أربع وستون) بقرية من قرى حمص يقال لها حوارين ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وقيل تسع وثلاثين ، وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر وقال الواقدى : وثمانية أشهر إلا ثمان ليال .

وقد ذكر ابن الأثير(٧٠) فى حوادث سنة أربع وستين وفاة يزيد بن معاوية بقوله : وفى هذه السنة توفى يزيد ين معاوية بحوارين من أرض الشام لأربع عشر

خلت من شهر ربيع الأول ، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة فى قول بعضهم ، وقيل : تسع وثلاثين ، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر .

كما أن الطبرى أورد رواية بسند مجهول عن أحمد بن ثابت عمن حدثه ... « أن يزيد بن معاوية توفى لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا ثمان ليال »(٧١) .

ثم إنه أورد رواية عن هشام بن محمد الكلبى شذ فيها عن بقية المؤرخين من أن ولاية يزيد بن معاوية كانت سنتين وثمانية أشهر ... وأنه توفى سنة ثلاث وستين وهو ابن خمس وثلاثين سنة(٧٢) . إلا أن هذه الرواية لا تصمد مع ما سبق إيراده من روايات كلها أجمعت على أن مدة خلافته ثلاث سنين وبضعة أشهر تفاوتت بين الستة إلى ثمانية .

الرواية الخامسة : ٥ / ٥٠٣

٥ — حدثنى عمر ، عن على بن محمد ، قال : لما استخلف معاوية بن يزيد وجمع عمال أبيه ، وبويع له بدمشق ، هلك بها بعد أربعين يومًا من ولايته ، ويكنى أبا عبد الرحمن ، وهو أبو ليلى ، وأمه أم هاشم بنت أبى هاشم ابن عتبة بن ربيعه ، وتوفى وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يومًا .

رجال السند(٥) :

- على بن محمد المدائنى : سبق ترجمته . (سند رقم ١) .

دراسة الرواية :

أورد ابن شبه هذه الرواية من رواية المدائنى الذى رواها من دون ذكر لسنده كما تعددت الروايات فى مدة خلافة معاوية بن يزيد ، وعمره حين وفاته ، فقد أورد خليفة بن خياط(٧٣) ، قوله : « استخلف ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية ، فأقر

عمال أبيه ولم يول أحدًا ، ولم يزل مريضًا حتى مات وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، ويقال : عشرين سنة » . ولم يذكر شيئًا عن مدة خلافته .

أما ابن قتيبة[٧٤] فذكر أنه « لما مات يزيد بن معاوية ، استخلف ابنه معاوية، وهو يومئذ ابن ثماني عشرة سنة ، فلبث واليًا شهرين وليالي محجوبًا لا يرى ، ثم خرج بعد ذلك ، قال : فجمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إني نظرت بعدكم فيما صار إلي من أمركم ، وقلدته من ولايتكم فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي ، فاختاروا مني إحدى خصلتين : إما أن أخرج منها ، وإستخلف عليكم من أراه لكم رضا ومقنعًا، وإما تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها.

قال : فلم يلبثوا بعدها إلا أيامًا حتى طعن ، فدخلوا عليه ، فقالوا له : استخلف على الناس من تراه لهم رضا ، فقال لهم : عند الموت تريدون ذلك؟ لا والله لا أتزورها ، ما سعدت بحلاوتها ، فكيف اشقى بمرارتها ، ثم هلك ولم يستخلف أحدًا » .

أما ابن كثير[٧٥] فقد أورد عدة أقوال في ذلك ، فمن قوله : بويع له بعد موت أبيه وكان ولي عهده من بعده في رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين ، وكان رجلاً صالحًا ناسكًا ، ولم تطل مدته ، وقيل : إنه مكث في الملك أربعين يومًا ، وقيل عشرين يومًا ، وقيل شهرين ، وقيل شهرًا ونصف الشهر ، وقيل ثلاثة أشهر وعشرين يومًا ، وقيل أربعة أشهر .

ثم مات معاوية بن يزيد عن إحدى وعشرين وقيل ثلاث وعشرين سنة وثمانية عشر يومًا ، وقيل تسع عشرة سنة ، وقيل عشرون سنة ، وقيل ثلاث وعشرون سنة ، وقيل : إنما عاش ثماني عشرة سنة ، وقيل تسع عشرة سنة، وقيل عشرون ، وقيل خمس وعشرون كما أورد الذهبي في حوادث سنة ٦٤هـ[٧٦] ، قوله : « ولما هلك يزيد بويع بعده ابنه معاوية بن يزيد ، فبقي في الخلافة أربعين

يومًا ، وقيل شهرين ، أو أكثر متمرضا ، والضحاك بن قيس يصلى بالناس ، فلما احتضر قيل له : ألا تستخلف ؟ فأبى وقال : ما أصبت من حلاوتها ، فلم أتحمل مرارتها ! وكان لم يغير أحدًا من عمال أبيه.

وكان شابًا صالحًا ، أبيض جميلاً وسيمًا ، عاش إحدى وعشرين سنة».

كما أن الطبرى أشار فى بعض رواياته أنه لم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر حتى مات[٧٧] .

الرواية السادسة : ٥ / ٥٠٤

٦ — حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنى موسى بن إسماعيل ، قال : حدثنا حماد ابن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن ، قال : كتب الضحاك بن قيس[٧٨] إلى قيس بن الهيثم[٧٩] حين مات يزيد بن معاوية : سلام عليك ، أما بعد ، فإن يزيد بن معاوية قد مات ، وأنتم إخواننا ، فلا تسبقونا بشئ حتى نختار لأنفسنا .

رجال السند :

- موسى بن إسماعيل المنقرى ، مولاهم أبو سلمة التبوذكى البصرى، ثقة ثبت من صغار التاسعة ، توفى سنة ١٢٣هـ[٨٠] .

- حماد بن سلمة بن دينار البصرى أبو سلمة مولى تميم : ثقة ، عابد ، من كبار الثامنة ، أثبت الناس فى ثابت ، تغير حفظه فى آخره ، توفى ١٦٧هـ[٨١] .

- على بن زيد بن جدعان أبو الحسن القرشى التميمى البصرى الأعمى ، ليس بالقوى ، لا يحتج بحديثه ، كان يتشيع ، توفى سنة ١٣١هـ[٨٢] .

- الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى أبو سعيد مولى الأنصار ، وأمه خيره مولاة أم سلمه ، ثقة فقيه فاضل مشهور ، كان يرسل كثيرًا ويدلس ، وهو رأس أهل الطبقة الثالثة ، توفى سنة ١١٠هـ وقد قارب التسعين[٨٣] .

دراسة الرواية(٦) :

جاءت هذه الرواية مسندة من عدة وجوه ، وأن اتفق بعضها فى الإسناد إلى الحسن كما جاءت فى رواية عمر بن شبه ، التى خلت من حديث رسول الله ﷺ ، والذى تصدر الرواية عند الإمام أحمد ابن حنبل[٨٤] ، بقوله :

حدثنا عبد الله حدثنى أبى[٨٥] ثنا عفان[٨٦] ثنا حماد بن سلمه قال أخبرنا على ابن زيد عن الحسن أن الضحاك بن قيس ، كتب إلى الهيثم حين مات يزيد بن معاوية ، سلام عليك أما بعد فإنى سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : إن بين يدى الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم ، فتنًا كقطع الدخان يموت فيها قلب الرجل ، كما يموت بدنه ، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا ، ويمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا ، يبيع أقوام خلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا ، وان يزيد بن معاوية قد مات وأنتم إخواننا وأشقاؤنا فلا تسبقونا حتى نختار لأنفسنا .

وقد وردت هذه الرواية مسندة عند ابن كثير ، وابن الأثير والذهبى[٨٧] .

كما اتفق البلاذرى[٨٨] مع ابن شبه فى النص ، مسندًا من طريق بسام الحمال عن حماد بن سلمه بسنده ، ثم ذكر الرواية كما وردت عند ابن شبه هنا .

الرواية السابعة : ٥ / ٥٠٤

٧ - حدثنى عمر ، قال : حدثنا زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب قال : حدثنا محمد بن أبى عيينة ، قال : حدثنى شهرك ، قال : شهدت عبيد الله بن زياد حين مات يزيد بن معاوية قام خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل

البصرة أتسبوني ، فوالله لتجدن مهاجر والـــدي ومولـــدي فيكـــم ، وداري ، ولقـــد وليتكم وما أحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ولقـــد أحصـــى اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفا ، وما أحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفـــا ، ولقد أحصى اليـــوم مائـــة وأربعين ألفـــاً ، وما تركت لكـــم ذا ظنه أخافـــه عليكم إلا وهو في سجنكم هذا .

وإن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفي ، وقد اختلف أهل الشـــام وأنتـــم اليوم أكثر الناس عدداً ، وأعرضه فناء ، وأغناه عن النـــاس ، وأوســـعه بـــلاداً ، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، فأنا أول راض من رضيتمـــوه وتابع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، وإن كرهتم ذلك كنتم على جديلتكم حتى تعطوا حاجتكم، فما بكم إلى أحد من أهـــل البلدان حاجة ، ما يستغني الناس عنكم فقامت خطباء أهل البصرة فقالوا : قد ســـمعنا مقالتك أيها الأمير ، وأنا والله ما نعلم أحدًا أقوى عليها منك ، فهلم فلنبايعك ، فقال : لا حاجة لي في ذلك فاختاروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتـــى كـــرروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلمـــا أبو بسط يده فبايعوه ، ثم انصرفوا بعد البيعة وهـــم يقولون : لا يظن ابن مرجـــانه أنا نستقاد له في الجماعة والفرقة ، كذب والله ! ثـــم وثبوا عليه .

رجال السند :

- زهير بن حرب بن شداد الحرشي أو خيثمة النسائي ، ثقة ثبـــت ، أحـــد أعـــلام الحديث من العاشرة . روى عنه مسلم أكثر من ألف حديث . مات سنة ٢٣٤هـــ وهو ابن أربع وسبعين(٨٩) .
- وهب بن جرير بن حازم البصري ثقة حافظ من التاسعة روى له الجماعة، مـــات سنة ٢٠٦هـــ(٩٠) .

- محمد بن أبى عيينة بن المهلب البصرى ، ليس من أهل العلم الذى يرجع إلى روايته[٩١] .

- شهرك : لم أقف على ترجمته .

دراسة الرواية(٧) :

وردت خطبة عبيد الله بن زياد ، فى بعض المصادر بإسناد يوافق إسناد ابن شبه ، فقد أوردها البلاذرى[٩٢] بسنده قال : حدثنى أحمد بن إبراهيم[٩٣] حدثنا وهب ابن جرير ، حدثنا محمد بن أبى عيينة ، حدثنى شهرك ، قال : شهدت عبيد الله بن زياد حين جاء موت يزيد بن معاوية ، فقام خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا أهل البصرة ... » ثم ذكر نص الخطبة كاملاً ، مع اختلاف فى بعض ألفاظها .

كما جاءت هذه الخطبة فى رواية لابن الأثير[٩٤] ، وابن الجوزى[٩٥] غير مسنده ، وعرضا خطبة عبيد الله بن زياد ، كاملة مع اختلاف فى بعض ألفاظها .

وفى رواية للذهبى[٩٦] ، بسنده : وقال سعيد بن زيد الأزدى[٩٧] : قال عبيد الله لأهل البصرة : اختاروا لأنفسكم ، قالوا نختارك ، فبايعوه وقالوا: أخرج لنا إخواننا، وكان قد ملأ السجون من الخوارج ، فقال : لا تفعلوا فإنهم يفسدون عليكم فأبوا عليه فأخرجهم ، فجعلوا يبايعونه ، فما تتام أخرهم حتى أغلظوا له ، ثم خرجوا فى ناحية بنى تميم .

كما يروى عن جرير بن حازم[٩٨] ، عن عمه ، أنهم خرجوا ، فجعلوا يمسحون أيديهم بجدار باب الإمارة ، ويقولون : هذه بيعة ابن مرجانه، واجترأ عليه الناس ، حتى نهبوا خيله من مربطه .

الرواية الثامنة : ٥ / ٥٠٥

٨ - حدثنى عمر ، قال زهير : قال : حدثنا وهب ، قال . وحدثنا الأسود بن شيبان عن خالد بن سمير ، أن شقيق بن ثور(٩٩) ومالك بن مسمع(١٠٠) وحضين(١٠١) ابن المنذر أتوا عبيد الله ليلاً وهو فى دار الإمارة ، فبلغ ذلك رجلاً من الحى من بنى سدوس ، قال : فانطلقت فلزمت دار الإمارة ، فلبثوا معه حتى مضى عليه الليل ، ثم خرجوا ومعهم بغل موقر مالاً ، قال : فأتيت حضيناً فقلت : مر لى من هذا المال بشئ - قال : وعلى المال مولى له يقال له : أيوب(١٠٢) - فقال : يا أيوب ، أعطه مائة درهم ، قلت: أما مائة درهم والله لا أقبلها ، فسكت عنى ساعة ، وسار هنيهة ، فأقبلت عليه فقلت : مر لى من هذا المال بشئ ، فقال : يا أيوب ، أعطه مائتى درهم ، قلت : لا أقبل والله مائتين ، ثم أمر بثلثمائة ثم أربعمائة ، فلما انتهينا إلى الطفاوه(١٠٣) قلت : مر لى بشئ ، قال : أرأيت إن لم أفعل ما أنت صانع ؟ قلت : أنطلق والله حتى إذا توسطت دور الحى وضعت إصبعى فى أذنى ، ثم صرخت بأعلى صوتى : يا معشر بكر بن وائل هذا شقيق بن ثور وحضين بن المنذر ومالك بن المسمع ، قد انطلقوا إلى ابن زياد ، فاختلفوا فى دمائكم ، قال : ماله فعل الله به وفعل ! ويلك أعطه خمسمائة درهم ، قال: فأخذتها ثم صبحت غاديًا على مالك - قال وهب : فلم أحفظ ما أمر له به مالك - قال : ثم رأيت حضيناً فدخلت عليه ، فقال : ما صنع ابن عمك ؟ فأخبرته وقلت : أعطنى من هذا المال ، فقال : أنا قد أخذنا هذا المال ونجونا به ، فلن نخشى من الناس شيئًا ، فلم يعطنى شيئًا .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبق ترجمته فى سند رقم (٧) وهو ثقة .

- وهب بن جرير : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) وهو ثقة .

- الأسود بن شيبان السدوس البصرى ، ثقة عابد من السادسة ، توفى سنة ٦٠هـ[١٠٤] ، صالح الحديث .

- خالد بن سمير السدوسى البصرى : صدوق يهم قليلاً ، من الثالثة[١٠٥] .

دراسة الرواية(٨) :

أورد البلاذرى هذه الرواية موجزة بعض الشئ عن رواية ابن شبه ، مع اختلاف فى بعض رجال السند بقوله : حدثنى أحمد بن إبراهيم[١٠٦] ، وخلف ابن سالم[١٠٧] قالا : حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا الأسود بن شيبان عن خالد ابن سمير ، أن شقيق بن ثور ومالك بن مسمع وحضين بن المنذر ، أتو ابن زياد وهو فى دار الإمارة ليلاً ، قبل أن يتحول إلى مسعود بن عمرو، فأقاموا عنده عامة ليله ، ثم خرجوا ومعهم بغلاً موقر مالاً ، فقال رجل من بنى سدوس : خوفتهم بأن أنادى إن فلانًا وفلانا قد اجتمعوا فى دمائكم ، فأعطوه خمسمائة درهم .

وإسناد البلاذرى هنا إسناد حسن .

الرواية التاسعة : ٥ / ٥١٠ – ٥١١

٩ – قال أبو جعفر وأما عمر فحدثنى قال : حدثنى زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير ، قال : حدثنا أبى ، عن الزبير بن الخريت ، عن أبى لبيد الجهضمى ، عن الحارث بن قيس ، قال : عرض نفسه – يعنى عبيد الله بن زياد – على ، فقال : أما والله إنى لأعرف سوء رأى كان فى قومك ، قال : فوقفت له ، فأردفت على بغلتى – وذلك ليلاً – فأخذت على بنى سليم ، فقال من هؤلاء ؟ قلت بنو سليم ، قال : سلمنا إن شاء الله ، ثم مررنا ببنى ناجيه وهم جلوس ومعهم السلاح – وكان الناس يتحارسون إذ ذاك فى مجالسهم – فقالوا : من هذا ؟ قلت : الحارث ابن قيس ، قالوا : امضى

راشــدا ، فلمــا مضينا قال رجل منهم : هذا والله ابن مرجانه خلفه ، فرمــاه بسهم ، فوضعه فى كور عمامته ، فقال : يا أبا محمد ، من هؤلاء ؟ قـــال : الذين كنت تزعم أنهم من قريش ، هؤلاء بنى ناجيه ، قال : نجونــا إن شــاء الله ، ثم قال : يا حارث ، إنك قد أحسنت وأجملت ، فهل أنــت صــانع مــا أشــير عليك ؟ قد علمت منزلة مسعود بن عمرو فى قومه وشـــرفه وســنه وطاعة قومه له فهل لك أن تذهب بى إليه فأكون فـــى داره ، فــهى وسـط الأزد، فإنك إن لم تفعل صدع عليك أمر قومك ، قلت : نعم ، فانطلقت به فمـا شعر مسعود بشئ حتى دخلنا عليه وهو جالس ليلتئذ يوقد بقضيب على لبنــة ، وهو يعالج خفيه قد خلع أحدهما وبقى الآخر ، فلما نظر فى وجوهنا عرفنـــا وقال : إنه كان يتعوذ من طوارق الســوء ، فقلت له : أفتخرجه بعدما دخــل عليك بيتك ! قال : فأمره فدخــل بيت عبــد الغافر بن مســعود - وامـــرأة عبد الغافر يومئذ خيرة بنت خفاف بن عمرو - قال : ثم ركب مسعود مـــن ليلته ومعه الحارث وجماعة من قومه ، فطافوا فى الأزد ومجالسهم ، فقالوا : إن ابن زياد قد فقد وأنا لا نأمن أن تلطخوا به ، فأصبحوا فى السلاح ، وفقــد الناس ابن زياد فقالوا : أين توجــه ؟ فقالوا : ما هو إلا فى الأزد ! .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) وهو ثقة .
- وهب بن جرير بن حازم ، سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) وهو ثقة .
- جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله بن شجاع الأزدى البصرى ، أبــو النضــر ، توفى سنة ١٦٩هـــ ، ثقة لكن فى حديثه عن قتادة ضعف ، له أوهام إذا حــدث من حفظه ، من السادسة ، لم يحدث بعد اختلاطه[١٠٨] .
- الحارث بن قيس بن صهبان بن جهضم بن فهم[١٠٩] .

- الزبير بن الخريت البصرى : ثقة من الخامسة ، له فى مسلم حديث واحد ، قال العجلى : تابعى[١١٠] ثقة .

- أبو لبيد الجهضمى هو لمازه بن زبار الأزدى الجهضمى البصرى : صدوق ناصبى من الثالثة ، صالح الحديث ، أثنى عليه أحمد بن حنبل ، ذكره ابن سعد فى الطبقة الثانية من أهل البصرة ، ذكره ابن حبان فى الثقات[١١١] . وقال ابن معين قد رأى حماد بن زيد أبا لبيد ، وأبو لبيد رأى عليا .

دراسة الرواية(٩) :

أورد البلاذرى[١١٢] ، والذهبى[١١٣] هذه الرواية بإسناد وافق إسناد ابن شبه وإن كان فى رواية البلاذرى إبراهيم الدورقى[١١٤] ، وبدأ الذهبى إسناده بـابن الخريت وساق كلا منهما الرواية نفسها .

أما ابن الأثير[١١٥] فقد ذكر الرواية موافقة لرواية ابن شبه من دون إسناد .

كما أوردها ابن الجوزى[١١٦] أيضا بدون إسناد بقوله : وقدم مسلمة بن ذؤيب فدعا الناس إلى بيعة ابن الزبير ، فمالوا إليه وتركوا ابن زياد ، فكان فى بيت المال يومئذ تسعة عشر ألف ألف ، ففرق ابن زياد بعضها فى بنى أمية وحمل الباقى معه ، وخرج فى الليل يتخفى ، فعرفه رجل فضربه بسهم فوقع فى عمامته وأفلت ، فطلبوه فمات وانتهبوا ما وجدوا له فطلب الناس من ثار عليهم . كما يتفق البلاذرى[١١٧] مع ابن شبه ، فى الجزء الآخر من النص ويذكر فيه نفس الإسناد ، بقوله : وحدثنى أبو خيثمه وأحمد بن إبراهيم قالا : حدثنا وهب بن جرير بن حازم ، حدثنى أبى عن الزبير بن خريت عن أبى لبيد عن الحارث بن قيس ، قال : قال لى ابن زياد : إنك قد أحسنت وأجملت فهل أنت صانع ما أشير به عليك ؟ قد عرفت منزلة مسعود بن عمرو وشرفه وسنه وطاعة قومه له ... إلخ .

أما خليفة بن خياط[١١٨] ، فيذكر المدة التى أقامها ابن زياد عند مسعود بن عمرو بقوله : فرفع ابن زياد العطاء ، وشاور أخوته وأهل بيته فى قتال من عصاه وخالفه ، فأشاروا عليه بالكف عن ذلك ، فتنحى وصار إلى مسعود فى جمادى الآخرة سنة أربع وستين ، وأقام عنده أكثر من شهرين ، وإنما صار إلى الدار فى شعبان ، ويقال : أقام ابن زياد عند مسعود أربعين يوما ، ويقال : أقام عنده ثلاثة أشهر فانتهبت دار الإمارة .

ويذكر ابن أعثم[١١٩] هذه الرواية بقوله : فأرسل عبيد الله بن زياد إلى هؤلاء القوم فجمعهم إليه ثم أمر بهم فحبسهم ، ثم خرج فى جوف الليل فى جماعة من خاصة حتى صار إلى دار مسعود بن عمرو الأزدى وهو شيخ الأزد بالبصرة ، فاستجار به عبيد الله بن زياد ، فأجاره وأجار من كان معه.

الرواية العاشرة : ٥ / ٥١١ – ٥١٢

١٠ – حدثنى عمر ، قال : حدثنى زهير بن حرب ، قال : حدثنا الأسود بن شيبان ، عن عبد الله بن جرير المازنى ، قال : بعث إلى شقيق بن ثور[١٣٠] فقال لى : إنه قد بلغنى أن ابن منجوف[١٣١] هذا وابن مسمع[١٣٢] يدلجان[١٣٣] بالليل إلى دار مسعود ليردا ابن زياد إلى الدار ليصلوا بين هذين الغارين ، فيهريقوا دماءكم ويعزوا أنفسهم ، ولقد هممت أن أبعث إلى ابن منجوف فأشده وثاقا ، وأخرجه عنى ، فاذهب إلى مسعود فاقرأ عليه السلام منى ، وقل له : إن ابن منجوف وابن مسمع يفعلان كذا وكذا ، فأخرج هذين الرجلين عنك . قال : وكان معه عبيد الله[١٣٤] وعبد الله ابنا زياد . قال : فدخلت على مسعود وابنا زياد عنده : أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فقلت : السلام عليك أبا قيس ، قال : وعليك السلام ، قلت : بعثنى إليك شقيق بن ثور يقرأ عليك السلام ويقول لك : إنه بلغنى ، فرد الكلام بعينه إلى « فأخرجهما عنك » ، قال

مسعود: والله فعلت ذاك ، فقال عبيد الله : كيف أباثور – ونسى كنيته ، إنما كان يكنى أبا الفضل – فقال أخوه عبد الله : إنا والله لا نخرج عنكم ، قد أجر تمونا ، وعقدتم لنا ذمتكم ، فلا نخرج حتى نقتل بين أظهركم ، فيكون عارا عليكم إلى يوم القيامة .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) وهو ثقة .
- الأسود بن شيبان : سبقت ترجمته فى سند رقم (٨) وهو ثقة .
- عبد الله بن جرير المازنى بن عبد الله البجلى : جاء فى تقريب التهذيب ، وعبيد الله بن جرير بن عبد الله البجلى ، مقبول ، من الثالثة .
- روى عن أبيه روى عنه يزيد ابن أبى زياد[١٣٥] .

دراسة الرواية(١٠) :

يروى خليفة بن خياط[١٣٦] ، التحالف الذى تم فى دار مسعود بن عمرو مما يوافق رواية ابن شبه بقوله : فانطلق مالك بن مسمع وسويد بن منجوف إلى مسعود ابن عمرو ليحالفوه ويردا ابن زياد إلى دار الإمارة ، وقال ابن زياد لعباد بن زياد : أكد بينهم الحلف .

فكتبوا كتابا بينهم ، وختمه مسعود بخاتمه ، وكتب لمالك بن مسمع كتابا وختمه بخاتمه ، ودفع الكتابين إلى ذراع بن أبى هارون بن ذراع النميرى ، فوضعهما على يده ، ثم قالوا لابن زياد : انطلق حتى نردك إلى دار الإمارة . فقال لهم ابن زياد : انطلقوا فمسعود عليكم ، فإن ظفرتم رأيتم حينئذ رأيكم .

الرواية الحادية عشر : ٥ / ٥٢١

١١ – قال أبو جعفر محمد بن جرير : وأما عمر ، فإنه حدثنى فى أمر خروج عبيد الله إلى الشام ، قال : حدثنى زهير ، قال : حدثنا وهب بن جرير بن حازم ، قال : حدثنا الزبير بن الخريت ، قال : بعث مسعود مع ابن زياد مائة من الأزد ، عليهم قرة بن عمرو بن قيس[١٣٧] ، حتى قدموا به الشام .

رجال السند :

– زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) وهو ثقة .

– وهب بن جرير بن حازم : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) وهو ثقة .

– الزبير بن الخريت : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) وهو ثقة .

دراسة الرواية(١١) :

أورد البلاذرى[١٣٨] نص الرواية بإسناده الذى وافق إسناد ابن شبه ، وأن كان فى إسناده زيادة بقوله : حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا وهب بن جرير عن أبيه ... قال : بعث مسعود مع ابن زياد مائة عليهم فروه بن عمر[١٣٩] حتّى قدموا به الشام . فذكره باسم فروة بن عمرو .

كما ذكر ابن أعثم[١٣٠] هذه الرواية بقوله : واتقى عبيد الله بن زياد أن يعلم بمكانه ، فأقبل على مسعود بن عمرو فقال له : إنك قد أجرتنى وأجرت أصحابى هؤلاء وأنا خائف على نفسى من أهل البصرة ، وأنا أريد منك أن تتم إحسانك وأن تخلصنى كيف شئت وأنى شئت ، فقال له مسعود بن عمرو : أفعل ذلك إن شاء الله ! فقد كان لأبيك على حق واجب . قال : ثم دعى بثلاثين رجلا من أصحابه وأمرهم أن يخفروا عبيد الله بن زياد حتى يلحقوه بالشام قال : فخرج

عبيد الله بن زياد فى جوف الليل مع جماعة من خاصته وغلمانه وحشمه ومعه هؤلاء الثلاثون رجلا .

كما روى ابن الأثير[١٣١] الرواية بدون إسناد . وقد ترأس الأزد قرة بن عمرو ابن قيس .

كما ذكرها الذهبى[١٣٢] بسنده قال : وقال الزبير بن الخريت ، عن أبى لبيد[١٣٣]، إن مسعودا جهز مع عبيد الله بن زياد مائة من الأزد ، فأقدموه الشام .

الرواية الثانية عشرة : ٥ / ٥٥٢ – ٥٢٣

١٢ – وحدثنى عمر ، قال : حدثنا أبو عاصم النبيل ، عن عمرو بن الزبير وخلاد ابن يزيد الباهلى والوليد بن هشام ، عن عمه ، عن أبيه ، عن عمرو بن هبيرة ، عن يساف بن شريح اليشكرى ، قال : وحدثنيه على بن محمد ، قال – قد اختلفوا فزاد بعضهم على بعض – إن ابن زياد خرج من البصرة ، فقال ذات ليلة : إنه قد ثقل على ركوب الإبل ، فوطئوا لى على ذى حافر ، قال : فألقيت له قطيفة على حمار ، فركبه وإن رجليه لتكاد أن تخدان فى الأرض ، قال اليشكرى : فإنه ليسير أمامى إذ سكت سكته فأطالها، فقلت فى نفسى : هذا عبيد الله أمير العراق أمسى نائم الساعة على حمار ، لو قد سقط منه أعنته ، ثم قلت: والله لئن كان نائما لأنغصن عليه نومه ، فدنوت منه ، فقلت : أنائم أنت ؟ قال : لا ، قلت : فما أسكتك ؟ قال : كنت أحدث نفسى ، قلت : أفلا أحدثك ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : هات ، فوالله ما أراك تكيس ولا تصيب ، قال : قلت : كنت تقول : ليتنى لم أقتل الحسين، قال : وماذا ؟ قلت : تقول : ليتنى لم أكن قتلت من قتلت ، قال : وماذا؟ قلت : كنت تقول : ليتنى لم أكن بنيت البيضاء ، قال : وماذا ؟ قلت : تقول : ليتنى لم أكن استعملت الدهاقين ، قال : وماذا ؟ قلت : تقول : ليتنى كنت أسخى

مما كنت ، قال : فقال : والله ما نطقت بصواب ، ولا سكت عن خطـأ، أمـا الحسين فإنه سار إلى يريد قتلى ، فاخترت قتلـه علـى أن يقتلنـى ، وأمـا البيضاء فإنى أشتريتها من عبد الله بن عثمان الثقفى[١٣٤]، وأرسل يزيد بـألف فأنفقتها عليها ، فإن بقيت فلأهلى ، وإن هلكت لم آس عليها مما لـم أعنـف فيه، وأما استعمال الدهاقين فإن عبد الرحمـن بـن أبـى بكـره[١٣٥] وزاذان فروخ[١٣٦] وقعا فى عند معاوية حتى ذكرا قشور الأرز ، فبلغا بخراج العراق مائة ألف ألف ، فخيرنى معاوية بين الضمان والعـزل ، فكرهـت العـزل ، فكنت إذا استعملت الرجل من العرب فكسر الخراج ، فتقدمت إليه أو أغريـت صدور قومه ، أو أغريت عشيرته أضررت بهم ، وإن تركت مال الله وأنـا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين[١٣٧] أبصر بالجبايـة ، وأوفـى بالأمانـة ، وأهون فى المطالبة منكم ، مع أنى قد جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحدا .

وأما قولك فى السخاء ، فوالله ما كان لى مال فأجود به عليكم ، ولـو شـئت لأخذت بعض مالكم فخصصت به بعضكم دون بعض ، فيقولـون : مـا أسـخاه ! ولكنى عممتكم ، وكان عندى أنفع لكم . وأما قولك : ليتنى لم أكن قتلت من قتلـت ، فما عملت بعد كلمة الإخلاص عملا هو أقرب إلى الله عندى من قتلى من قتلت مـن الخوارج ، ولكنى سأخبرك بما حدثت به نفسى ، قلت: ليتنى قاتلت أهل البصـرة ، فإنهم بايعونى طائعين غير مكرهين ، وأيم الله لقد حرصت على ذلك ، ولكن بنـى زياد أتونى فقالوا : إنى إذا قاتلتهم فظهروا عليك لم يبقوا منا أحـدا ، وإن تركتـهم تغيب الرجل منا عند أخواله وأصهاره، فرفقت لهم فلم أقاتل . وكنت أقول : ليتنـى كنت أخرج أهل السجن فضربت أعناقهم ، فأما إذ فاتت هاتان فليتنـى كنـت أقـدم الشام ولم يبرموا أمرا .

قال بعضهم : فقدم الشام ولم يبرموا أمرا ، فكأنما كانوا معه صبيانا ، وقـال بعضهم : قدم الشام وقد أبرموا ، فنقض ما أبرموا إلى رأيه .

رجال السند :

- أبو عاصم النبيل هو الضحاك بن مخلد الشيبانى البصرى : أجمعوا على توثيقه ، مات بالبصرة ٢١٢هـ أو بعدها ، كان فقيها ، ذكره ابن سعد فى الطبقة الثانية من الفقهاء والمحدثين من أهل البصرة ، كان يحيى بن معين يوثقه ، قال أحمد ابن صالح : هو ثقة وله فقه ، وهو كثير الحديث[١٣٨] .

- عمرو بن الزبير البصرى : ترجم له البخارى وسكت عنه فى التاريخ الكبير (٣٣٢/٦) ، وذكره ابن حبان فى الثقات (٢٢٠/٧) .

- خلاد بن يزيد الباهلى البصرى المعروف بالأرقط ، صدوق جليل من التاسعة هو شيخ ، قال عنه أبو زيد عمر بن شبه : كان من الجبال الرواسى نبلا[١٣٩] .

- الوليد بن هشام القحذمى البصرى أبو عبد الرحمن ، ثقة ، ذكره ابن حبان فى الطبقة الثالثة من الثقات ، من أهل البصرة[١٤٠] .

- عمرو بن هبيرة : الصواب عمر بن هبيرة ابن معاوية بن سكين : الأمير أبو المثنى الفزارى ، أمير العراقين ، والد أميرها يزيد ، كان ينوب ليزيد بن عبد الملك فعزله هشام ، جمعت له العراق سنة ١٠٣هـ ، عزل بخالد القسرى[١٤١] .

- يساف بن شريح اليشكرى : ذكره ابن الأثير باسم مسافر بن شريح اليشكرى ولم أجد له ترجمة فى كتب الرجال بهذين الاسمين . انظر الكامل (٣٢٣/٣) .

دراسة الرواية(١٢) :

أورد البلاذرى[١٤٢] نص هذه الرواية مسندة عن أبى الحسن المدائنى عن عامر بن حفص[١٤٣] ، قال : ... خرج ابن زياد من البصرة هاربا إلى الشام فى قوم وفواله ، فقال ذات ليلة : إنه قد ثقل على ركوب الإبل فوطئوا لى على ذات حافر ، فألقيت له قطيفة على حمار فركبه وإن رجليه لتخدان فى الأرض ، فقال

بعض من كان معه ورآه قد سكت سكتة طويلة : هذا عبيد الله بن زياد أمير العـراق بالأمس نائمًا .

ثم أورد الرواية كاملة كما رواها ابن شبه .

كما يذكر ابن أعثم[١٤٤] بدون إسناد روايته التى توافق رواية عمر بن شبه فـى المعنى مع الإيجاز وأن اختلفت فى ألفاظها .

ويروى ابن الأثير[١٤٥] روايته أيضًا إسنادًا فكان فيما روى قوله : ... فبينما هـو يسير ذات ليلة قال : قد ثقل على ركوب الإبل فوطئوا لى على ذى حافر فجعلوا لـه قطيفة على حمار فركبه ثم سار وسكت طويلاً ، قال مسافر بن شريح اليشـكرى : فقلت فى نفسى لئن كان نائمًا لأوقظن عليه نومه فقلت : أنائم أنت ؟قال : لا كنـت أحدث نفسى ... ويستمر ابن الأثير فى روايته التى وافقت رواية ابن شبه .

الرواية الثالثة عشر : ٥/٥٢٧ – ٥٢٨

١٣ – قال أبو جعفر : وأما عمر بن شبه ، فإنه حدثنى فى أمر عبد الملك بن عبـد الله بن عامر بن كريز وأمر ببه ومسعود وقتله ، وأمر عمر بن عبيد الله غير ما قال هشام عن عوانه[١٤٦] والذى حدثنى عمر بن شبه فى ذلك أنـه قـال: حدثنى على ابن محمد عن أبى مقرن عبيد الله الدهنى ، قال : لما بايع النـاس ببه[١٤٧] ولى ببه شرطته هميان بن عدى[١٤٨] ، وقدم على ببه بعـض أهـل المدينة ، وأمر هميان بن عدى بإنزاله قريباً منه ، فأتى هميان داراً للفيلى[١٤٩] مولى زياد التى فى بنى سليم وهم بتفريغها لينزلها إياه ، وقـد كـان هـرب وأقفل أبوابه ،فمنعت بنو سليم هميان حتى قاتلوه ، واستصرخوا عبد الملـك بن عبد الله بن عامر بن كريز ، فأرسل بخاريته ومواليه فى السـلاح حتـى طردوا هميان ومنعوه الدار ، وغدا عبد الملك من الغد إلى در الإمارة ليسـلم على ببه ، فلقيه على الباب رجل من بنى قيس بن ثعلبه ، فقال : أنت المعيـن

علينا بالأمس ! فرفع يده فلطمه ، فضرب قوم من البخارية يد القيسى فأطارها ، ويقال : بل سلم القيسى ، وغضب ابن عامر فرجع ، وغضبت له مضر فاجتمعت وأتت بكر بن وائل أشيم بن شقيق بن ثور[١٥٠] فاستصرخوه، فاقبل ومعه مالك بن مسمع[١٥١] حتى صعد المنبر فقال : أى مضرى وجدتموه فأسلبوه وزعم بنو مسمع أن مالكاً جاء يومئذ متفضلاً فى غير سلاح ليرد أشيم عن رأيه .

ثم انصرفت بكر وقد تحاجزوا هم والمضريه ، واغتنمت الأزد ذلك ، فحالفوا بكراً وأقبلوا مع مسعود إلى المسجد الجامع ، وفزعت تميم إلى الأحنف[١٥٢] ، فعقد عمامته على قناه ودفعها إلى سلمة بن ذؤيب الرياحى[١٥٣] ، فأقبل بين يديه الأساوره حتى دخل المسجد ومسعود يخطب ، فاستنزلوه فقتلوه ، وزعمت الأزد أن الأزارقة قتلوه ، فكانت الفتنة ، وسفر بينهم عمر بن عبيد الله بن معمر[١٥٤] وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام[١٥٥] حتى رضيت الأزد من مسعود بعشر ديات ، ولزم عبد الله بن الحارث بيته ، وكان يتدين ، وقال : ما كنت لأصلح الناس بفساد نفسى .

رجال السند :

- على بن محمد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .
- أبو مقرن عبيد الله الدهنى : تولى شرطة واسط أيام أبى جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ حينما خرج إبراهيم بن محمد بالبصرة وما حولها[١٥٦] .

دراسة الرواية(١٣) :

ورد فى بعض المصادر أن أهل البصرة بايعوا عبد الله بن الحارث بن نوفل، بعد خروج عبيد الله بن زياد عن البصرة ، واختلاف الناس بينهم ، فيذكر ابن سعد[١٥٧] ، قوله : وتداعت القبائل والعشائر وأجمعوا أمرهم فولوا عبد الله بن

الحارث بن نوفل صلاتهم وفيئهم وكتبوا بذلك إلى عبد الله بن الزبير إنا قد رضينا به فاقره عبد الله بن الزبير على البصرة .

كما يروى البغدادى[١٥٨] : أنه لما كان أيام مسعود بن عمرو وخرج عبيد الله ابن زياد عن البصرة ، واختلف الناس بينهم أجمعوا أمرهم فولوا عبد الله بن الحارث بن نوفل صلاتهم وفيئهم وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير ، فأقره على البصرة ولم يزل عاملاً عليها سنة ثم عزله .

كذلك يذكر ابن الأثير[١٥٩] وعلل ذلك بقوله : « أنه هو الذى اتفق عليه أهل البصرة عند موت يزيد بن معاوية ، حتى يتفق الناس على أمام ، وإنما فعلوا ذلك لأن أباه من بنى هاشم وأمه من بنى أمية ، فقالوا : من ولى الأمر رضى به » .

هذا وقد وافق ابن حجر[١٦٠] هذه الروايات . أمارواية البلاذرى[١٦١] ، والتى وافقت رواية ابن شبه بسنده حيث ذكر : قال أبو الحسن المدائنى : جعل ببه على شرطته هميان بن عدى ... إلخ القصة ، ويذكر الرواية كاملة كما أوردها ابن شبه فيوردها بسند حسن من رواية أبو عبيدة[١٦٢] حدثنى زهير بن هنيد[١٦٣] عن عمرو ابن عيسى[١٦٤] ، قال : كان مالك ابن مسمع فى المسجد فبينما هو قاعد ، وفى الحلقة رجل من ولد عبد الله بن عامر بن كريز إذ نازع القرشى مالكاً فاغلظ له القرشى ، فلطم رجل من بكر القرشى فتهايج من ثم مضر وربيعه ، وكثرتهم ربيعه ممن فى المسجد ، فنادى رجل يآل تميم ، فوثب قوم من بنى ضبه على رماح حرس المسجد وترستهم ، ثم شدوا على الربعيين فهزموهم ، وبلغ ذلك أشيم بن شقيق بن ثور وهو يومئذ رئيس بكر بن وائل ، فأقبل إلى المسجد فقال : لا يجدن ربعى مضرياً إلا قتله ، فبلغ ذلك مالك بن مسمع فأقبل متفضلاً فسكن الناس حتى كف بعضهم عن بعض ، وسأل مالك أن يجدد الحلف بين الأزد وربيعه[١٦٥] .

وذكر الطبرى رواية عن أصحابه من دون أن يسميهم قال : « ... فلما أمروا ببه على البصرة ولى شرطته هميان بن عدى السدوسى »[١٦٦] .

الرواية الرابعة عشر : ٥/ ٥٢٨

١٤ – قال أبو الحسن : فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير فكتب إلى أنس بن مالك يأمره بالصلاة بالناس ، فصلى بهم أربعين يوماً .

رجال السند :

– أبو الحسن على بن محمد المدائنى : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .

دراسة الرواية (١٤) :

لم يحدد خليفة بن خياط[١٦٧] ، المدة التى صلى بها أنس بن مالك فى البصرة حيث ذكر أن عبد الله بن الزبير كتب إلى أنس بن مالك أن يصلى بالناس وكذا ابن كثير[١٦٨] .

أما بقية المصادر الأخرى فإنها تتفق مع ما أورده الطبرى من رواية ابن شبه فيروى ابن عساكر والذهبى[١٦٩] روايتهما بسنده أن أنس بن مالك صلى بالناس أربعين يوماً .

كما ذكر ابن الأثير[١٧٠] نص الرواية بدون إسناد وحدد المدة التى صلى بها أنس بن مالك بالناس أربعين يوماً .

ويوافق البلاذرى[١٧١] سند ونص رواية ابن شبه فيذكر روايته مسندة إلى المدائنى وأن ابن الزبير كتب إلى أنس بن مالك يسأله أن يصلى بهم فصلى بهم أربعين يوماً .

الرواية الخامسة عشر : ٥ / ٥٢٨ .

١٥ – حدثنى عمر قال : حدثنا على بن محمد ، قال : كتب ابن الزبير إلى عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى[١٧٢] بعهده على البصرة ، ووجه به إليه ، فوافقه

وهو متوجه يريد العمرة ، فكتب إلى عبيد الله [١٧٣] يأمره أن يصلى بالنـاس ، فصلى بهم حتى قدم عمر .

رجال السند :

- على بن محمد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .

دراسة الرواية (١٥) :

روى البلاذرى[١٧٤] هذه الرواية ، كما جاءت عند ابن شبه موافقة لـــها فـــى النص والإسناد .

كما رواها ابن الأثير[١٧٥] بدون إسناد موافقة لرواية ابن شبه .

أيضاً ذكر ابن عساكر[١٧٦] وابن حجر[١٧٧] ، أن عبد الله بن الزبير كتب إلـــى عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى بولايته ، وقد جاء اسم عمر بن عبيد الله عند ابن عساكر ، عمرو بن عبيد الله بن معمر التيمى .

الرواية السادسة عشر : ٥/ ٥٢٨ .

١٦ - حدثنى عمر ، قال : حدثنى زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جريــر ، قال : حدثنى أبى ، قال : سمعت محمد بن الزبـــير ، قـــال : كـــان النـــاس اصطلحوا على عبد الله بن الحارث الهاشمى[١٧٨] ، فولى أمرهم أربعة أشهر، وخرج نافع بن الأزرق إلى الأهواز[١٧٩] ، فقال الناس لعبد الله : إن الناس قـد أكل بعضهم بعضاً ، تؤخذ المراة من الطريق فلا يمنعها أحد حتى تفضـــح ، قال : فتريدون ماذا ؟ قالوا تضع سيفك ، وتشد على الناس ، قال : ما كنـــت لأصلحهم بفساد نفسى ، يا غلام ، ناولنى نعلى ، فانتعل ثم لحـــق بأهلـه ، وأمر الناس عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى[١٨٠] ، قال أبى ، عـــن الصعب ابن زيد[١٨١] إن الجارف وقع وعبد الله على البصرة ، فماتت أمه فى

الجارف ، فما وجدوا لها من يحملها حتى استأجروا لها أربعــة إعــلاج[١٨٢] فحملوها إلى حفرتها ، وهو الأمير يومئذ .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم(٧) وهو ثقة .
- وهب بن جرير : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) وهو ثقة .
- جرير بن حازم : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) وهو ثقة .
- محمد بن عبد الله بن الزبير بن عمر بن درهم الأسدى مولاهم أبو أحمد الزبيرى الكوفى ، ثقة ثبت من التاسعة ، إلا أنه قد يخطئ فى الحديث الثورى ، مات سنة ثلاث ومائتين ، قال عنه العجلى : أبو أحمد كوفى ثقة وكان يتشيع[١٨٣] .

دراسة الرواية(١٦) :

اختلفت المصادر فى تحديد المدة التى تولى فيها عبد الله بن الحارث الهاشمى إمرة البصرة ، فقد أورد ابن سعد[١٨٤] بسنده عن محمد بــن عمــر[١٨٥] ، أن ابــن الزبير أقر عبد الله بن الحارث على البصرة فلم يزل عاملاً عليها سنة ثم عزلــه ، كما وافقه البغدادى[١٨٦] فى تحديد مدة الولاية على البصرة ، ثم يروى الخبر مــرة ثانية مسنداً إلى يعقوب بن سفيان[١٨٧] دون أن يحدد مدة ولاية عبد الله بن الحارث.

كما يذكر ابن عساكر[١٨٨] بسنده عن خليفة بن خياط : إن ابن الزبير أقر عبد الله بن الحارث الهاشمى على البصرة أشهراً ثم عزله .

ويروى ابن الأثير[١٨٩] وصاحب العقد الثمين[١٩٠] بدون إسناد ، أن عبــد الله ابن الحارث بن نوفل تولى أمره البصرة ولم يحدداً مدة الولاية .

ويوافق ابن شبه فى تحديد مدة ولاية ببه للبصرة ، كلاً من ابــن الجــوزى ، والبلاذرى[١٩١] الذى وافق ابن شبه فى روايته بإسناده عــن أحمــد بــن إبراهيــم

الدورقى[١٩٢] ثم يذكر الإسناد الذى ذكره ابن شبه ، وإن عمد البلاذرى إلى تقسيم النص إلى جزئين ذكر فيهم ما رواه ابن شبه فى هذه الرواية .

الرواية السابعة عشر : ٥/٥٢٩ .

١٧ – حدثنى عمر ، قال : حدثنى على بن محمد ، عن القافلانى ، عن يزيد ابن عبد الله بن الشخير ، قال : قلت لعبد الله بن الحارث بن نوفل[١٩٣] ، رأيتك زمان استعملت علينا أصبت من المال ، وأتقيت الدم ، فقال : إن تبعة المال أهون من تبعة الدم .

رجال السند :

- على بن محمد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .
- القافلانى : أبو الربيع سليمان بن محمد أبو سليمان القافلانى ، كان سليمان يبيع السفن بالبصرة ، سئل عنه ابن معين فقال : ليس بشيء[١٩٤] .
- يزيد ابن عبد الله بن الشخير أبو العلاء العامرى ، البصرى ، أحد الأئمة ، ثقة من الثانية ، مات سنة ١١١هـ أو قبلها ، كان مولده فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فوهم من زعم أن له رؤيا ، له أحاديث صالحة[١٩٥] .

دراسة الرواية(١٧) :

من خلال البحث فى كتب التاريخ التى رجعت إليها لم أعثر على رواية بهذا المعنى ، كما بحثت فى كتب التراجم التى ترجمت لعبد الله بن الحارث بن نوفل فلم أعثر على إشارة بهذا النص .

الرواية الثامنة عشر : ٥ / ٥٤٥ .

١٨ – حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنا على بن محمد ، قال : أخبرنا مسلمة بن محارب ، قال : بحث سلم بن زياد[١٩٦] بما أصاب من هدايا سمر قند

وخوارزم إلى يزيد بن معاوية مع عبد الله بن خازم[١٩٧] ، وأقام سلم والياً على خراسان حتى مات يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، فبلغ سلماً موته، وأتاه مقتل يزيد بن زياد فى سجستان وأسر أبى عبيدة بن زياد ، وكتم الخبر سلم ، فقال ابن عرادة[١٩٨] :

يا أيها الملك المغلق بابه	حدثت أمور شأنهن عظيم
قتلى بجنزه والذين بكابل	ويزيد أعلن شأنه المكتوم
أبنى أميه إن آخر ملككم	جسد بحوارين ثم مقيم
طرقت منيته وعند وساده	كوب وزق راعف مرثوم
ومرنة تبكى على نشوانه	بالصنج تقعد تارة وتقوم

قال مسلمة : فلما ظهر شعر ابن عرادة أظهر سلم موت يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، ودعاً الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة ، فبايعوه ، ثم مكثوا بذلك شهرين ، ثم نكثوا به .

رجال السند :

- على بن محمد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١) .
- مسلمة بن محارب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٣) .

دراسة الرواية (١٨) :

ذكرت المصادر هذه الرواية بدون إسناد ، فيروى صاحب كتاب الفتوح[١٩٩] هذه الرواية والتى تتفق فى معناها مع ابن شبه .

كما يذكرها ابن الجوزى[٢٠٠] فى أحداث سنة ٦٤هـ ، وإن لم يورد الأبيات التى أوردها ابن شبه فى نصه هذا .

ويروى ابن الأثير[٢٠١] فى أحداث سنة ٦٤هـ بيعة أهل خراسان لسلم بن زياد واختلافهم بعد بيعتهم كما يروى شعر حنظلة بن قيس لهذه الواقعة .

أما الذهبى[٢٠٢] فيروى هذه القصة فى أحداث سنة ٦٥هـ خبر سلم بن زياد وبيعة أهل خراسان له ، وخروجه من خراسان بعد اختلافهم عليه ، كما أنه لم يورد شعر حنظلة بن قيس .

الرواية التاسعة عشر : ٥ / ٦١٢

١٩ – حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنى زهير بن حرب ، قال : حدثنى وهب ابن جرير ، قال : حدثنى أبى ، عن المصعب بن زيد أن الجارف وقع وعبيد الله بن عبيد الله بن معمر[٢٠٣] على البصرة ، فماتت أمه فى الجارف ، فما وجدوا لها من يحملها حتى استأجروا لها أربعة علوج فحملوها إلى حفرتها وهو الأمير يومئذ .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) .
- وهب بن جرير : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) .
- جرير بن حازم : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) .
- المصعب بن زيد : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٦) .

دراسة الرواية (١٩) :

سبق جزء من هذه الرواية فى سند رقم (١٦) وقد أشرت فى دراسة الرواية السابقة أن البلاذرى[٢٠٤] قسم روايته التى وافقت رواية ابن أشبه إلى قسمين ، فكان القسم الثانى منها والذى جاء مستقلاً هو ما يتعلق بنص هذه الرواية .

وقد اختلفت المصادر فى السنة التى وقع فيها الجارف ، حيث ذكره ابن الجوزى[٢٠٥] فى أحداث سنة ٦٤هـ ، كما يرويها ضمن حوادث سنة ٦٥ هـ كلا من ابن الأثير وابن كثير وصاحب النجوم الزاهرة[٢٠٦] .

أما الذهبى[٢٠٧] فيسجله فى حوادث سنة ٦٩هـ وهذا هو المشهور ، فى تعليق لابن كثير على هذه السنوات المتفاوتة[٢٠٨] وأن جاءت عند الطبرى فى حوادث سنة ٦٥هـ .

أما هذه الروايات فقد اتفقت جميعها أن أم عبيد الله بن عبيد الله بن معمر ماتت فى هذا الجارف وأنه كان الأمير على البصرة وقتئذ فلم يجد من يحملها واستأجر لها أربعة أنفس .

الرواية العشرون : ٦١٣/٥

حدثنى عمر بن شبه ، قال : حدثنا زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير قال : حدثنا أبى ، عن محمد بن الزبير أن عبيد الله بن عبيد الله بن معمر[٢٠٩] بعث أخاه عثمان بن عبيد الله إلى نافع بن الأزرق[٢١٠] فى جيش فلقيهم بدولاب[٢١١] ، فقتل عثمان وهزم جيشه .

رجال السند :

- زهير بن حرب : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) .
- وهب بن جرير : سبقت ترجمته فى سند رقم (٩) .
- جرير بن حازم : سبقت ترجمته فى سنة رقم (٩) .
- محمد بن الزبير : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٦) .

دراسة الرواية (٢٠) :

يذكر ابن الأثير وابن الجوزى[٢١٢] هذا النص بدون سند فى حـوادث سـنة ٦٥هـ ، ففى رواية ابن الأثير قوله قيل : إن عثمان بن عبيد الله بن معمر قـاتل الخوارج ، ونافع بن الأزرق قبل مسلم فقتل عثمان ، وانهزم أصحابه بعد أن قتـل من الخوارج خلق كثير .

ولم يذكر ابن الجوزى فى روايته عن مقتل عثمان ، وإنما أفاد عـن مقتـل نافـع بن الأزرق .

كما جاء ذكر هذا الخبر عند الكوفى فى : كتاب الفتوح[٢١٣] وهى تعليق علـى قتل عثمان أخو عبيد الله بن الماحوز ، وأيضاً كتاب الدينورى والأغانى فى ترجمـة ابن الماحوز ، أشار مؤلف الكتاب أن الماحوز كانت له معركة مع عثمان بن عبيـد الله بن معمر ، قتل فيها عثمان[٢١٤] .

الرواية الواحدة والعشرون : ٥/ ٦١٣

قال عمر : قال زهير : قال وهب : وحدثنا محمد بن أبى عيينه ، عن سـبره ابن نخف أن ابن معمر عبيد الله[٢١٥] بعث أخاه عثمان[٢١٦] إلى ابـن الأزرق[٢١٧] ، فهزم جنده وقتل ، قال وهب : فحدثنا أبى أن أهل البصرة بعثوا جيشاً عليهم حارثـة ابن بدر[٢١٨] ، فلقيهم ، فقال لأصحابه :

كرنبـوا ودولبـوا[٢١٩] وحيـث شـئتم فأذهبـوا

رجال السند :

- زهير بن حرب ، سبق ترجمته فى سند رقم (٧) .
- وهب بن جرير ، سبق ترجمته فى سند رقم (٩) .
- محمد بن أبى عيينه : سبقت ترجمته فى سند رقم (٧) .

- سبره بن نخف : ويقال سمره بن نخف ويقال سمره بن يحيى ، اختلفوا فى اسمه واسم أبيه . حيث ذكره أبو الأحوص عن سماك عن سمره بن يحيى وفى الثقات سبره ابن نخف كذلك على بن صالح وقد يكون أبو الأحوص : أخطأ فى اسم أبيه وأصاب فى اسمه وعكس على بن صالح خطأ فى اسم الرجل وأصاب فى اسم أبيه فيكون الصواب : سمرة بن نخف(٢٢٠) .

دراسة الرواية(٢١) :

أورد ابن خياط من دون إسناد قصة تولية أهل البصرة لحارثة بن بدر الغدانى لتولى قيادة الجيش بعد قتل قائدهم على يد الخوارج(٢٢١) .

الرواية الثانية والعشرون : ٥ / ٦١٣

حدثنا عمر ، قال : حدثنا زهير ، قال : حدثنا وهب ، قال : حدثنا أبى ومحمد بن أبى عيينه قالا : حدثنا معاوية بن قرة ، قال : خرجنا مع ابن عبيس(٢٢٢) فلقيناهم ، فقتل ابن الأزرق(٢٢٣) وابنان أو ثلاثة للماحوز(٢٢٤) ، وقتل ابن عبيس .

رجال السند :

- زهير بن حرب سبق ترجمته فى سند رقم(٧) وهو ثقة .
- وهب بن جرير ،سبق ترجمته فى سند رقم (٩) وهو ثقة .
- جرير بن حازم سبق ترجمته فى سند رقم (٩) وهو ثقة .
- محمد بن أبى عيينة سبق ترجمته فى سند رقم (٧) .
- معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزنى ، أبو إياس البصرى ، ثقة عالم ، من الثالثة ، مات سنة ثلاث عشرة ومائة ، وهو ابن ست وسبعين سنة ، له أحاديث، ذكره ابن حبان فى الثقات(٢٢٥) .

دراسة الرواية(٢٢) :

ذكر الدينورى من دون إسناد قصة مقتل مسلم بن عبيس على يد الخوارج فى مكان يسمى الدولاب ، ولم يورد مقتل ابن الأزرق هنا ، لكنه أشار فيما بعد أن ابن الأزرق قتل على يد المهلب بن أبى صفرة[٢٢٦] .

وأوردها ابن خياط من رواية معاوية بن قرة المزنى بقوله : « خرجنا مع ابن عبيس نحواً من عشرين ألفاً ... إلخ القصة حيث ذكر مقتل ابن الأزرق ، وابن عبيس[٢٢٧] .

الهوامش

(١) تاريخ الطبرى ٨/١

(٢) د. يحيى بن إبراهيم على اليحيى .

(٣) د. عبد العزيز بن سليمان السلومى .

(٤) د. خالد محمد الغيث .

(٥) أ. خالد يمانى .

(٦) حوارين : بالضم وتشديد الواو ، من قرى حلب معروفة ، بها مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ . ياقوت الحموى ، معجم البلدان : ٣١٥/٢

(٧) أغبر : ذكرها ابن الأثير بعين مهملة ساكنة . ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ (٢٦١/٣) .

(٨) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد (٥٥/١٢) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (١٥٣/٣) . المغنى فى الضعفاء (٤٥٤/٢) . ابن حجر العسقلانى ، لسان الميزان (٢٥٣/٤) .

(٩) البخارى ، التاريخ الكبير (٣٨٥/١/١) . الرازى ، الجرح والتعديل (٢١٩/٢) . ابن حبان ، الثقات (٤٧/٦) .

(١٠) ابن عبد البر ، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب (٣٩٩/٣) .

(١١) محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث ، أبو عبد الله بن المصرى الفقيه، من فقهاء مصر من أصحاب مالك ، وثقه النسائى وابن أبى حاتم ، ت ٢٦٨هـ . ابن حجر تهذيب التهذيب (١٦٩/٥) .

(١٢) وإليه أشار أيضًا ابن كثير — رحمه الله — وكذا ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٧٥٩/١٦) . البداية والنهاية (١٤٤/٨) .

(١٣) أحمد بن محمد بن عبد ربه (٣٧٣/٤) .

(١٤) الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن بن زيد الطائى الكوفى . ت ٢٠٧هـ ، قال البخارى : سكتوا عنه ، وقال النسائى وغيره : متروك الحديث . الرازى ، الجرح والتعديل (٨٥/٩) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (١٠٣/١٠) .

(١٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، الطبقة الرابعة ، تحقيق د. عبد العزيز السلومى (١٥١/١-١٥٣) .

(١٦) الكامل (٢٦١/٣) .

(١٧) ابن عبد البر النمرى (٣٩٩/٣ — ٤٠٠) . وانظر ابن سعد ، الطبقات الكبرى — الطبقة الرابعة من الصحابة الذين أسلموا بعد فتح مكة (١٤٦/١ ، ١٤٧) .

(١٨) الحافظ ابن كثير ، البداية والنهاية (١٤٤/٨ ، ١٤٦) .

(١٩) عبيد الله بن زياد أبو حفص : أمير العراق ، ولى البصرة سنة ٥٥هـ ، وولى خراسان ، أول عربى قطع جيحون . انظر الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٥٤٥/٣) . ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب (٧٩/١) .

(٢٠) عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث الهاشمى : أبو محمد المدنى ، أمير البصرة ، له رؤية ولأبيه وجده صحبه ، أجمعوا على ثقته ، مات سنة تسع وسبعين، ويقال أربع وثمانين ابن حجر العسقلانى ، تقريب التهذيب (٢٩٩) .

(٢١) شريك بن الأعور الحارثى من أتباع على ﷺ شارك فى معركة صفين وتولى اصطخر وكرمان . انظر الطبرى ، تاريخ (٣٠١/٤ ، ٣٢١/٥ ، ٣٦١) .

(٢٢) القادسية : تبعد عن الكوفة بأربعة عشر فرسخاً ، من أهم المعارك التى انتصر فيها المسلمون على الفرس فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ . ياقوت الحموى ، معجم البلدان (٢٩١/٤) .

(٢٣) الإعتجار : لف العمامة دون التلحى ومنه حديث « أن الرسول ﷺ دخل مكة يوم الفتح معتجرًا بعمامة سوداء . بمعنى أنه لفها على رأسه ولم يتلح بها ، والمعجر والمعاجر ضرب من ثياب اليمن . ابن منظور ، لسان العرب (٢٨١/٥) .

(٢٤) النعمان بن بشير الأنصارى الخزرجى : له ولأبويه صحبه ، سكن الشام ، ثم ولى إمرة الكوفة ، ثم قتل بحمص سنة خمس وستين ، وله أربع وستون سنه ، وهو أول مولود من الأنصار ولد بالمدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٥٣/٦) ، ابن حجر ، تقريب التهذيب(٥٦٣) .

(٢٥) مسلم بن عقيل بن أبى طالب الهاشمى ، عن عمرو بن شعيب قال : أخبرنى من سمع أبا هريرة يقول : ما رأيت من ولد عبد المطلب أشبه بالنبى ﷺ من مسلم بن عقيل وهو الذى كتب إلى الحسين بن على يخبره ببيعه اثنى عشر ألفًا من أهل الكوفة ويأمره بالقدوم لها . البخارى ، التاريخ الكبير (٢٦٦/٧) . الطبرى ، تاريخ (٣٤٨/٥) .

(٢٦) هانئ بن حميد عروة بن الفضفاض المرادى : مخضرم سكن الكوفة ، وكان من خواص على ﷺ . ابن حجر ، الإصابة (٦١٦/٣) .

(٢٧) أسماء بن خارجة ابن حصن بن حذيفة بن بدر الأمير أبو حسان . الفزارى الكوفي من كبار الأشراف ، قال خليفة بن خياط : مات أسماء سنة ست وستين ، ولخارجة صحبة يسيرة ولا رواية له وكان جوادا ممدحا . البداية والنهاية (٤٥/٩) . والذهبى ، سير أعلام النبلاء (٥٣٥/٣) .

(٢٨) محمد بن الأشعث بن قيس أبو القاسم الكوفى ، مقبول ، من الثانية ، ووهم من ذكره في الصحابة ، مات سنة سبع وستين ، فى قتال المختار مع مصعب بن الزبير . ابن حجر العسقلانى ، تقريب التهذيب (٤٦٩) . الإصابة فى تمييز الصحابة (٥٠٩/٣) .

(٢٩) الغديرتان : الذؤابتان التى تسقطان على الصدر ، وفى صفته ﷺ : « قدم مكة وله أربع غدائر هى الذوائب واحدتها غديرة » . انظر ابن منظور ، لسان العرب .

(٣٠) حجر بن عدى بن ربيعه بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن الحارث بن كندى : كان جاهليا إسلاميا ، شهد القادسية ، قيل هو حجيه بن عدى وإلا فمجهول ، من الثالثة حجية ، بوزن عليه ، ابن عدى الكندى ، صدوق يخطئ من الثالثة . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢١٧/٦) ، ابن حجر ، تقريب التهذيب(١٥٤) .

(٣١) معكزه : ومنه العكازه وهى عصا فى أسفلها زج يتوكأ عليها الرجل . انظر ابن منظور ، لسان العرب (٣٠٥٦/٥) .

(٣٢) شريح بن الحارث بن قيس الكوفى النخعى : القاضى ، أبو أميه ، مخضرم ، ثقة ، وقيل له صحبة ، مات قبل الثمانين أو بعدها ، يقال : حكم سبعين سنة ، قاض المصريين .
انظر الحافظ جمال الدين المزى ، تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ٤٣٥/١٢ . ابن حجر، تهذيب التقريب (٢٩٥) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (١٠٠/٤) . ابن العماد ، شذرات (٨٥/١) .

(٣٣) الرازى ، الجرح والتعديل (٩٤/٩) . البغدادى ، تاريخ بغداد (٢٣/١٤) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥٦٩) .

(٣٤) الرازى ، الجرح والتعديل (١٩٠/٦) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (١٣٢/٣) . ابن حجر تقريب التهذيب (٤٠٢) .

(٣٥) الكامل (٢٦٨/٣) .

(٣٦) مسلم بن عمرو الباهلى : كان من أتباع مصعب بن الزبير وخرج معه فى السنة التى قتل فيها مصعب إلا أن مسلم جرح فى تلك المعركة سنة ٧٢هـ .
انظر البسوى ، المعرفة والتاريخ ٣٣١/٣. الذهبى / تاريخ الإسلام (١١٠/٣) .

(٣٧) المسعودى ، مروج الذهب (٦٦/٣ ، ٦٧) . فى البداية والنهاية (١٥٥/٨) .

(٣٨) ابن حجر ، الإصابة (٣٣٣/١ — ٣٣٤) .

(٣٩) عمار بن معاوية الذهبى البجلى ودهن قبيلة من بجيله ، من أهل الكوفة ، كنيته أبو معاوية روى عن أبى الطفيل ، ربما أخطأ ، وكان راويا لسعيد بن جبير ، روى عنه سفيان بن عيينة ، وسفيان الثورى ، مات سنة ١٣٣هـ . انظر ابن حبان ، الثقات (٢٦٨/٥) . ابن حجر ، تهذيب (٤٠٦/٧) .

(٤٠) أبو جعفر محمد بن على بن الحسين ، روى عن جابر بن عبد الله وروى عن أبيه وجديه الحسن والحسين ، كان ثقة كثير الحديث فقيها فاضلا ، توفى سنة ١١٤هـ على الصحيح ، روى له حديث العائد فى هبته ... إلخ . انظر ابن حبان ، الثقات (٣٤٨/٥) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٣٥٠/٩) .

(٤١) الكامل (٢٧٠/٣ ، ٢٧١) . البداية والنهاية (١٥٥/٨) .

(٤٢) محمد بن حبان ، الثقات (٣٠٧/٢) .

(٤٣) ابن قتيبة الدينورى ، الإمامة والسياسة (٥/٢) .

(٤٤) سلم بن زياد بن أبيه : أمير . كنيته أبو حرب . ولاه يزيد خراسان عام ٦٠هـ ، غزا سمرقند ، ذكره ابن حبان فى الثقات (٣٣٤/٤) ، وانظر أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى (٨٧/٧) .

(٤٥) عبد الرحمن بن زياد بن أبى سفيان : ذكره ابن حبان فى الثقات (٨٣/٥) ، وقال ابن حجر مقبول من الرابعة ، بقى إلى أيام الحجاج . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٣٦٢/٣) . - عباد ابن زياد بن أبى سفيان ، يكنى أبا حرب ، ولاه معاوية سجستان عام ٥٣هـ ، مات سنة ١٠٠هـ . كان يوم مرج راهط مع مروان ، له حديث فى المسح على الخفين يرويه مالك . انظر ابن حبان ، الثقات (١٥٨/٧) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٦٤/٣) . الذهبى ، تاريخ الإسلام (٣٩٦، ٣٩٧) .

(٤٦) جيرفت : بالكسر ثم السكون ، وفتح الراء ، وسكون الفاء ، وتاء فوقها نقطتان ؛ مدينة بكرمان من أعيان مدنها ، فتحت فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ ، ينسب إليها جماعة من العلماء منهم أبو الحسن أحمد بن عمر بن إسحاق الجيرفتى ، وبها ناس من الأزد والمهالبة منهم محمد بن هارون النسابه . وانظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان (١٩٨/٢) .

(٤٧) عمران بن الفصيل بفاء ومهملة ابن عائذ التميمى أبو خالد له صحبة واستعمله عثمان ﷺ على سجستان سنة ٢٩هـ . قال أبو موسى أورده الحافظ أبو زكريا بن منده يعنى مستدركًا على جده ، ذكره ابن ياسين الحافظ فيمن ورد هراة من الصحابة بسنده ، وتعقب ابن الأثير كلام ابن ياسين ، فجاء أنه ذكره استطرادًا فى ترجمة الهياج وأنه ذكره فى الجملة ولم يصرح بأنه ورد هراة . الطبرى ، تاريخ (٢٦٥/٤)، ابن حجر ، الإصابة (٢٨/٣) .

(٤٨) عبد الله بن خازم السلمى ، أبو صالح البصرى ، أمير خراسان ، يقال له صحبة ورواية . ولى خراسان عشر سنين ، ثم شار به أهل خراسان فقتلوه سنة ٧١هـ وحمل رأسه إلى عبد الملك بن مروان . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٢٨/٣) .

(٤٩) طلحة بن عبد الله بن خلف بن أسعد بن عامر الخزاعى : المعروف بطلحة الطلحات أبو المطرف البصرى ، أصالاً جواد ، أمير سجستان من الثالثة ، لم يثبت أن أبا داود روى له. ابن حجر ، تقريب التهذيب (٢٨٢) .

(٥٠) المهلب بن أبى صفرة ، أبو سعيد ، قائد الكتائب ، أدرك عمر ولم يرو عنه ، غزا الهند سنة ٤٤هـ ، وولى الجزيرة لابن الزبير ، حارب الخوارج ، ولى خراسان ومات بمرو الروذ سنة ٨٣هـ فى خلافة عبد الملك بن مروان . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (١٢٩/١). الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٣٨٣/٤) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٣٢٩/١٠) .

(٥١) حنظلة بن عرادة : لم أقف له على ترجمة .

(٥٢) أبو حزابة الوليد بن نهيك : الوليد بن حنيفة من بنى ربيعه بن حنظلة من تميم ، من شعراء الدولة الأموية ، سكن البصرة وعمل فى الديوان ، خرج مع ابن الأشعث على عبد الملك ، كان راجزًا ، فصيحًا ، هجاءًا . الأصفهانى ، الأغانى (١٥٨/٦) .

(٥٣) يحيى بن يعمر ، أبو سليمان العدوانى / قاضى مرو أيام قتيبة بن مسلم ، أول من نقط المصحف ، قال خليفة : توفى قبل الـ ٩٠ ، يكنى أبا عدى ، ثقة ، فصيح من الثالثة ، نفاه الحجاج إلى مرو فقبله قتيبة بن مسلم ، قضى فى أكبر مدن خراسان ، اكثر روايته عن التابعين . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٣٦٨/٧) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٩٢/٦) . الذهبى ، تاريخ (٥٠٢) .

(٥٤) صله بن أشيم العدوى : من كبار تابعى أهل البصرة ، كنيته أبو الصهباء ، كان ذا فضل وعبادة وزهد ، زوج معاذة العدوية ، روى حديث واحد عن ابن عباس . مات شهيدًا . ابن كثير ، البداية (١٧/٩) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٤٩٧/٣) .

(٥٥) معاذة ابنة عبد الله العدوية أم الصهباء البصرية ، ثقة من الثالثة ، ذكرها ابن حبان في الثقات وقال : كانت من العابدات . روت عن عائشة رضى الله عنها ، وثقها ابن معين وأرخها ابن الجوزى فى سنة ٨٣هـ . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٤٨٣/٨). تهذيب التهذيب (٦١٥/٦) . الذهبى ، تاريخ الإسلام (١٩٨) .

(٥٦) البخارى ، التاريخ الكبير (٣٨٧/٧) ، الرازى ، الجرح والتعديل (٢٦٦/٨) ، ابن حبان ، الثقات (٤٩٠/٧) .

(٥٧) تاريخ خليفة بن خياط (٢٣٥) .

(٥٨) البداية (٢١٣/٨) . الكامل (٣٠٤/٣) .

(٥٩) تاريخ دمشق (٢٣٧/٦) . العقد الفريد (١٣/١) .

(٦٠) ابن أعثم الكوفى .

(٦١) المنتظم (٣٤٧/٥) .

(٦٢) تاريخ الإسلام (٢٢) .

(٦٣) تاريخ الطبرى (٤٧٣/٥) .

(٦٤) الرازى ، الجرح والتعديل (١٢٣/٨) . ابن حبان ، الثقات (٧٤/٩) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥١٣) .

(٦٥) الرازى ، الجرح والتعديل (٥٢/٩) . ابن حجر ، تعجيل المنفعة (٤٣١) .

(٦٦) الرازى ، الجرح والتعديل (٧١/٨) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥٠٦) .

(٦٧) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٥) .

(٦٨) فى البداية والنهاية (٢٢٨/٨ ، ٢٢٩) .

(٦٩) المنتظم (٣٤/٦) .

(٧٠) الكامل (٣١٦/٣ ، ٣١٧) .

(٧١) الطبرى ، تاريخ (٤٩٩/٥) .

(٧٢) المصدر السابق (٤٩٩/٥) .

(٧٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٥) .

(٧٤) الإمامة والسياسة (١٠/٢) .

(٧٥) فى البداية والنهاية (٢٤٠/٨ ، ٢٤١) .

(٧٦) تاريخ الإسلام (ص٣٦) .

(٧٧) تاريخ الطبرى (٥٠٣/٥) .

(٧٨) الضحاك بن قيس ابن خالد الفهرى القرشى ، شهد صفين وفتح دمشق ، قتل بمرج راهط ، مختلف فى صحبته ، ولد قبل وفاة الرسول ﷺ بسبع سنين أو نحوها ، كان على شرطة معاوية ، واستعمله على الكوفة من سنة ٥٣- ٥٧هـ وكان مع يزيد وابنه معاوية إلى أن ماتا . انظر ابن كثير ، البداية والنهاية (٢٤٦/٨) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٥٦٩/٢) . ابن الأثير ، أسد الغابة (٤٩/٣) .

(٧٩) قيس ابن الهيثم السلمى ، وقيل السامى بالمهملة ، جد عبد القاهر بن السرى ، ذكره البخارى فى الوحدان من الصحابة ، وذكر غيره أنه من التابعين . ابن حجر ، الإصابة (٢٦٢/٣) . محمد بن سلام الحمصى ، طبقات فحول الشعراء (٤٨٢/١) .

(٨٠) الرازى ، الجرح والتعديل (١٣٦/٨) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥٤٩) .

(٨١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٤٤٤/٧) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (١٧٨) .

(٨٢) الرازى ، الجرح والتعديل (١٨٦/٦) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٣/ ١٢٧) .

(٨٣) الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٥٦٣/٤) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (ص١٦٠) .

(٨٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤٥٣/٣) .

(٨٥) عبد الله بن أحمد بن حنبل : أبو عبد الرحمن ، محدث بغداد ، روى عن أبيه شيئًا كثيرًا من أهمه المسند والزهد ، كان ثقة ثبت روى له النسائى ت عام ٢٩٠هـ وعمره سبع وسبعين سنة . انظر عنه ، الرازى ، الجرح والتعديل (٧/٥) ، البغدادى ، تاريخ بغداد (٣٧٥/٩) . ابن الجوزى ، المنتظم (٣٩/٦) .

(٨٦) عفان بن مسلم بن عبد الله الصفار ، أبو عثمان البصرى ، قال العجلى : ثقة ثبت ، صاحب سنة ، متفق على توثيقه ، أخرج له الجماعة . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٤٧/٤ — ١٤٩) .

(٨٧) البداية (٢٤٧/٨) . أسد الغابة (٥٠/٣) . سير أعلام النبلاء (٢٤٢/٣) .

(٨٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف (٣٥٠/١/٤) .

(٨٩) البغدادى ، تاريخ بغداد (٤٨٢/٨) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٢١٧) .

(٩٠) البخارى ، التاريخ الكبير (١٦٩/٨) . ابن حبان ، الثقات (٢٢٨/٩) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٥٨٥) . وتهذيب التهذيب (١٠٣/٦) .

(٩١) الرازى ، الجرح والتعديل (٤٢/٨) . ابن حبان ، الثقات (٤١٨/٧) .

(٩٢) أنساب الأشراف (٤١٨/١/٤) .

(٩٣) أحمد بن إبراهيم بن كثير العبدى ، مولى عبد القيس أبو عبد الله البغدادى الدورقـــى، ١٦٨ — ٢٤٦هـ ، من العلماء البارزين فى علم الحديث ، روى عنه الإمام مسلم ، وابن ماجـــة — وثقه صالح بن محمد المعروف بحزره . متفق عليه . قال عنه ابن أبى حاتم صـــدوق ، ثقة حافظ ، من العاشرة . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٧٧) .

د. محمد جاسم المشهدانى ، موارد البلاذرى عن الأسرة الأموية فـــى أنســاب الأشــراف (٥٢٨/٢) .

(٩٤) الكامل (٣٢٠) .

(٩٥) المنتظم (٢٤/٦) .

(٩٦) تاريخ الإسلام (٣٦) .

(٩٧) سعيد بن يزيد بن مسلمة الأزدى ثم الطاحن ، أبو مسلمة البصرى القصير ، ثقة من الرابعة . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٢٤٢) .

(٩٨) جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله بن شجاع الأزدى البصرى ، يكنـــى أبـا النضـــر، ت ١٦٩هـ ، ثقة لكن فى حديثه عن قتاده ضعف ، وله أوهام إذا حدث مـــن حفظـــه، مـــن السادسة ، اختلط فى آخره . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٧٨/٧) . ابن حجر ، تقريـــب التهذيب (١٣٨) .

(٩٩) شقيق بن ثور بن عفير السدوسى ، أبو الفضل البصرى : صدوق ، مخضرم ، مات ســـنة أربع وستين .

ابن حجر العسقلانى ، تقريب التهذيب (٢٦٨) . الرازى ، الجرح والتعديل (٣٧٢/٤) .

(١٠٠) مالك بن مسمع بن غسان البصرى : كان شديد الاجتهاد فى العبادة والزهادة ، كان ســـيد ربيعه ، مات سنة ٧٣هـ أو ٧٤هـ . ابن كثير ، البداية (٣٥٣/٨) . ابن حجر ، الإصابة (٤٨٥/٣) .

(١٠١) حضين بن المنذر بن الحارث الرقاشى ، أبو ساسان ، وهو لقب وكنيته أبو محمد ، كـــان من أمراء على بصفين ، وهو ثقة ، من الثانية ، مات على رأس المائة ، ابـــن حجــر ، تقريب التهذيب (١٧١) .

(١٠٢) أيوب بن حمران مولى عبيد الله بن زياد ، كان رسول عبيد الله إلى معاوية فـــى حياتـــه وإلى يزيد بنت معاوية ، أرسله عبيد الله إلى الشام ليأتيه بخبر يزيد ، فقـــدم وأســـر إليـــه بموت يزيد بن معاوية . ابن عساكر (٢٠٦/٣) .

(١٠٣) الطفاوة : حى من قيس عيلان . انظر ابن منظور ، لسان العرب (٢٦٨٤/٥) .

(١٠٤) الرازى ، الجرح والتعديل (٢٩٣/٢) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (ص١١١) .

(١٠٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٥٣/٧) ، ابن حجر ، تقريب التهذيب(ص١٨٨) .

(١٠٦) أحمد بن إبراهيم الدورقى : سبقت ترجمته ضمن دراسة رقم (٧) ، وهو ثقة .

(١٠٧) خلف بن سالم أبو محمد المخرمى البغدادى ، المهلبى مولاهم ، السندى ، ثقة حافظ ، من العاشرة ، صنف المسند ، عابوا عليه التشيع ، أشاد به ابن سعد ، قال عنه ابن معين : صدوق ، ليس به بأس ، وكان أحمد لا يشك فى صدقه ، وثقه أبو حاتم والرازى والنسائى ، (ت ٢٣١هـ) . ابن حجر ، تقريب التهذيب(١٩٤) . المشهدانى ، موارد البلاذرى (٤٨٠/٢) .

(١٠٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٧٨/٧) . ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب (٢٧٠/١) .

(١٠٩) لم أقف له على ترجمة .

(١١٠) الرازى ، الجرح والتعديل (٥٨١/٣) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٨٥/٢) .

(١١١) الرازى ، الجرح والتعديل (١٨٢/٧) . ابن حبان ، الثقات (٣٤٥/٥) . ابن حجر، تقريب التهذيب (٤٦٤) . الذهبى ، تاريخ الإسلام (٥٣٨) .

(١١٢) أنساب الأشراف (٤٢٠/١/٤) .

(١١٣) تاريخ الإسلام (٣٧) .

(١١٤) سبق ترجمته فى دراسة السند رقم (٧) وهو ثقة .

(١١٥) الكامل (٣٢١/٣) .

(١١٦) المنتظم (٢٥/٦) .

(١١٧) أنساب الأشراف (٤٢١/١/٤) .

(١١٨) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٨) .

(١١٩) الفتوح (٣٠٦/٥) .

(١٢٠) سبقت ترجمته ضمن الرواية رقم (٨) وهو صدوق .

(١٢١) سويد بن منجوف السدوسى من أهل البصرة ترجم له الرازى وسكت عنه وذكره ابن حبان فى الثقات . الرازى ، والجرح والتعديل (٢٣٤/٤) . الثقات (٣٢٣/٤) .

(١٢٢) سبقت ترجمته ضمن الرواية رقم (٨) .

(١٢٣) الدلجة سير السحر والدلجة بالفتح سير الليل كله ومعنى يدلجان بالليل يسيران من آخر الليل أو فى أى ساعة من أول الليل إلى آخره . ابن منظور ، لسان العرب (١٤٠٧/٣) .

(١٢٤) عبيد الله بن زياد سبقت ترجمته فى سند رقم (٢) .

وعبد الله بن زياد : هو عباد بن زياد سبقت ترجمته فى سند رقم (٣) .

(١٢٥) الرازى ، الجرح والتعديل (٢٤/٥) . ابن حجر . تقريب التهذيب (٣٧٠) .

(١٢٦) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٨) .

(١٢٧) قرة بن عمرو بن قيس : لم أقف له على ترجمة .

(١٢٨) أنساب الأشراف (٤٢٢/١/٤) .

(١٢٩) ورد عند الطبرى : قرة بن عمرو بن قيس .

(١٣٠) الفتوح (٣٠٨/٥) .

(١٣١) الكامل (٣٢٣/٣) .

(١٣٢) تاريخ الإسلام (٣٧) .

(١٣٣) الزبير بن الخريت وأبو لبيد الجهضمى : سبقت ترجمتهما فى سند رقم (٩) .

(١٣٤) عبد الله بن عثمان الثقفى : مجهول من الثالثة . ابن حجر . تقريب التهذيب (ص٣١٣) .

(١٣٥) عبد الرحمن بن أبى بكره : وهو نفيع بن الحارث الثقفى البصرى ، يكنى أبا بحر ، ثقة كبير القدر ، مقرئًا عالمًا ، كان جوادًا ، أول مولود ولد فى الإسلام بالبصرة ، توفى سنة ست وتسعين .

ابن سعد ، الطبقات الكبرى (١٩٠/٧) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٣١٩/٤ ، ٤١١) . ابن حجر . تهذيب التهذيب (١٤٨/٦) .

(١٣٦) زاذان فروخ : أبو عمرو الكندى ، مولاهم البزار الضرير ، أحد العلماء الكبار ، ولد فى حياة النبى ﷺ ، وكان ثقة ، صادقًا ، مات سنة ٨٢هـ .

الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٢٨٠/٤) . ابن كثير ، البداية والنهاية (٥٠/٩) .

(١٣٧) الدهاقين : بضم الدال وكسرها ,وهو زعيم فلاص العجم ورئيس الأقاليم فى بلادهم — معرب من دهخان بالفارسية . الأصفهانى ، الأغانى (٣٥٥/١٣) .

(١٣٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٩٥/٧) . ابن عساكر ، تاريخ دمشق (٢٧/٧) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٣٢٥/٢) .

(١٣٩) الرازى ، الجرح والتعديل (٣٦٧/٣) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٦٥٧/١) . ابن حجر . تقريب التهذيب (١٩٧) .

(١٤٠) الرازى ، الجرح والتعديل (٢٠/٩) . ابن حبان ، الثقات (٥٥٥/٧) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٣٤٩/٤) . ابن حجر . لسان الميزان (٢٢٨/٦) .

(١٤١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٥٦٢/٤)

(١٤٢) أنساب الأشراف (٤١٠/١/٤ ، ٤١١) .

(١٤٣) عامر بن حفص ، لقبه أبو اليقظان ، كان عالمًا بالأنساب والمآثر والمثالب ، ثقة فيما يرويه ، ت سنة ١٩٠هـ ، له جملة كتب فى الأخبار والأنساب . ابن النديم ، الفهرست (١٣٨) . د. بدرى محمد فهد ، شيخ الإخباريين أبو الحسن المدائنى(١٦٦) .

(١٤٤) الفتوح (٣٠٨/٥ ، ٣٠٩) .

(١٤٥) الكامل (٣٢٣/٣ ، ٣٢٤) .

(١٤٦) انظر رواية هشام عن عوانه فى تاريخ الطبرى (٥٢٤/٥) .

(١٤٧) هو عبد الله بن الحارث بن نوفل ، أبو محمد القرشى الهاشمى ولقبه ببه ، أقره ابن الزبير على البصرة سنة ثم عزله لأبيه وجده صحبه ، حنكة النبى ﷺ ، قال العجلى : مدنى تابعى ثقة ، أخرج له الجماعة . ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٢٤/٥) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٥٢٩/٣) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١١٩/٣) .

(١٤٨) هميان بن عدى السدوسى كان من الولاة فى عهد الدولة الأموية ، ثم وجهه الحجاج فى مسلحة إلى كرمان ليمد عامل سجستان والسند ولكنه عصى الأوامر فوجه الحجاج بن الأشعث فى محاربته فهزمه وأقام بموضعه . انظر الطبرى ، تاريخ (٣٢٩/٦) .

(١٤٩) الفيل مولى زياد ترجم له البخارى وقال هو مولى زياد بن سميه روى عنه محمد بن الزبير الحنظلى ، وسكت البخارى عنه فى التاريخ الكبير (١٤٠/٧) وذكره الرازى فى الجرح والتعديل (٩٠/٧) .

(١٥٠) أشيم بن شقيق بن ثور : من أتباع على رضى الله عنه وشيعته والمحاربين إلى جانبه الطبرى ، تاريخ (٥١٥/٥ ، ٥٢٠) .

(١٥١) مالك بن مسمع : سبقت ترجمته فى سند رقم (٨) .

(١٥٢) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمى السعدى ، أبو بحر ، اسمه الضحاك ، وقيل صخر ، مخضرم ثقة ، قيل مات سنة سبع وستين وقيل اثنتين وسبعين ، أسلم فى حياة النبى ﷺ ولم يره ، يضرب بحلمه المثل ، قال العجلى : هو بصرى تابعى ثقة ، كان سيد قومه ، جواداً صحالحًا . ابن كثير ، البداية (٣٣١/٨) ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى (٩٣/٧) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٢٣/١) .

(١٥٣) سلمه بن ذؤيب بن عبد الله بن محكم بن زيد بن رياح بن يربوع بن حنظلة الرياحى هـو الذى جمع الناس فى البصرة ودعاهم إلى اللحاق بعبد الله بن الزبير - العائذ بـالحرم - وحاول الأحنف — صخر بن قيس — منعه وصده ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً مما جعـل الناس يقعدون عن عبيد الله بن زياد . الطبرى ، تاريخ (٥/٥٠٧ ، ٥٠٨) .

(١٥٤) عمر بن عبيد الله بن معمر : الأمير ، من أشراف قريش ، كان جـواداً ، شـجاعًا لـه فتوحات مشهودة ، ولى البصرة لابن الزبير ، ولى أمره فارس ، روى عن العراقييـن وذكره ابن حبان فى الثقات (٧/١٧٧) .

وانظر ابن كثير ، البداية (٩/٤٩) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٤/١٧٢) .

(١٥٥) عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى ، أبو محمد المدنى ، له رؤية، وكان من كبار ثقات التابعين ، مات سنة ثلاث وأربعين ، قال الدارقطنى مدنـى جليـل يحتج به ، كان ممن أمره عثمان بن عفان أن يكتب المصاحف مع زيد بن ثابت وسـعيد ابن العاص وعبد الله بن الزبير ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٣/٣٥٠) .

(١٥٦) تاريخ الطبرى (٧/٦٣٦) .

(١٥٧) الطبقات الكبرى (٧/١٠٠) .

(١٥٨) تاريخ بغداد (١/٢١١) .

(١٥٩) أسد الغابة (٣/٢٠٧) .

(١٦٠) الإصابة (٣/٥٨) .

(١٦١) أنساب الأشراف (٤/١/٤٠٥ ، ٤٠٧) .

(١٦٢) أبو عبيدة . معمر بن المثنى التيمى ، صاحب التصانيف ، أخبارى صدوق ، رمى برأى الخوارج ، من السابعة ، ت ٢٠٨هـ أو بعد قارب المائة . قال الجاحظ : لم يكن فـى الأرض خارجى أو جماعى أعلم بجميع العلوم من ابن عبيدة . ابـن حجـر ، تقريـب التهذيب (٥٤١) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٤/١٥٥) .

(١٦٣) زهير بن هنيد العدوى أبو الذيال البصرى ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وأبـى زرعـة العراقى فى ذيل الكاشف (1.11) ، ابن حبان ، الثقات (٦/٣٣٨) . البخـارى ، التـاريخ الكبير (٢/١/٣٩٢) .

(١٦٤) عمر بن عيسى بن سويد العدوى البصرى وثقه أحمد والنسائى والعجلى وذكره ابن حبان فى الثقات (٢٢٦/٧) . البخارى ، التاريخ الكبير (٣٥٨/٢/٣) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٨٧/٨) .

(١٦٥) وقد أورد هذه الرواية الطبرى بهذا السند وبتفصيل أكثر فى تاريخ الأمم (٥١٤/٥) .

(١٦٦) الطبرى ، تاريخ (٥١٣/٥) .

(١٦٧) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٩) .

(١٦٨) البداية (٢٤٢/٨) .

(١٦٩) تاريخ دمشق (١٥١/٣) . سير أعلام النبلاء (٤٠٢/٣) .

(١٧٠) الكامل (٣٢٥/٣) .

(١٧١) أنساب الأشراف (٤٠٧/١/٤) .

(١٧٢) عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى . سبقت ترجمته ضمن الرواية (١٣) .

(١٧٣) هو عبيد الله بن عبيد الله بن معمر التيمى القرشى ، قال ابن المثنى حدثنا معاذ حدثنا ابن عون عن محمد : أن أول من رفع يديه فى الجمعة عبيد الله بن عبيد الله بن معمر ، وأول من أحدث فى الوصية برأيه ...

انظر البخارى ، التاريخ الكبير (٣٩٩/٥) .

(١٧٤) أنساب الأشراف (٤٠٧/١/٤) .

(١٧٥) الكامل (٣٢٥/٣) .

(١٧٦) تاريخ دمشق (١٥١/٣) .

(١٧٧) تعجيل المنفعة (٢٩٩) .

(١٧٨) عبد الله بن الحارث الهاشمى : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٣) .

(١٧٩) نافع بن الأزرق بن قيس الحنفى البكرى الوائلى الحرورى أبو راشد ، رأس الأزارقة واليه نسبتهم ، كان جباراً فتاكاً قاتله المهلب بن أبى صفرة ولقى الأهوال فى حربه ، قتل يوم (دولاب) ت ٦٥هـ . الأصفهانى ، الأغانى (٨١/١) .

(١٨٠) عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٣) .

(١٨١) الصعب بن زيد : روى جرير خمس روايات عن صعب بن زيد وهو مجهول ، أكد الذهبى روايته عنه ، بينت أوضاع البصرة بعد هروب ابن زياد عنها ووقوع مرض

الطاعون فيها . البلاذرى ، أنساب الأشراف (٤٢٦/١/٤) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٣١٥/٢) . الرازى ، الجرح والتعديل (٤٥٠/٤) .

(١٨٢) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم . ابن منظور ، لسان العرب (٣٠٦٥/٥) . الأصفهانى ، الأغانى (١٠٧/١٣) .

(١٨٣) البغدادى ، تاريخ بغداد (٤٠٥/٥) . الذهبى ، ميزان الاعتدال (٥٩٥/٣) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٤٨٧) .

(١٨٤) الطبقات الكبرى (٢٥/٥) .

(١٨٥) محمد بن عمر الواقدى صاحب التصانيف والمغاز ، قال عنه البخارى سكتوا عنه، وقال النسائى ليس بثقة ، وقال عنه الذهبى أحد أوعية العلم على ضعفه المتفق عليه ، توفى سنة ٢٠٧هـ . انظر البخارى ، التاريخ الكبير (١٧٨/١) . ابن سعد ، الطبقات (٣٣٤/٧) . البغدادى ، تاريخ بغداد (٣/٣) . الذهبى ، سير أعلام النبلاء (٤٥٤/٩) .

(١٨٦) تاريخ بغداد (٢١٢/١) .

(١٨٧) يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسى أبو يوسف ذكره ابن حبان فى الثقات وقال : مات سنة إحدى وثمانين ومائتين ، وكان ممن جمع وصنف وأكثر مع الورع والنسك والصلابة فى السنة . الثقات (٢٨٧/٩) .

(١٨٨) تاريخ دمشق (١٥١/٣) .

(١٨٩) الكامل (٣٢٥/٣) .

(١٩٠) الفاسى ، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (١٢٨/٥) .

(١٩١) المنتظم (٢٥/٦) . أنساب الأشراف (٤٢٦/١/٤) .

(١٩٢) أحمد بن إبراهيم الدورقى : سبقت ترجمته ضمن دراسة الرواية رقم (٧) وهو ثقة.

(١٩٣) عبد الله بن الحارث بن نوفل : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٣) .

(١٩٤) أبو أحمد عبد الله بن عدى الجرجانى ت٣٦٥هـ ، الكامل فى الضعفاء (١١١١/٣). السمعانى ، الأنساب (٣٠٩/١٠) . ابن حجر ، لسان الميزان (١٠٣/٧) .

(١٩٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى (١٥٥/٧) . الرازى ، الجرح والتعديل (٢٧٤/٩) . ابن حجر ، تقريب التهذيب (٦٠٢) .

(١٩٦) سلم بن زياد : سبقت ترجمته فى سند رقم (٣) .

(١٩٧) عبد الله بن خازم بن أسماء بن الصلت البصرى ، أمير خراسان ، يقال له صحبة ورواية ، قتل سنة ٧٢هـ بعد قتل عبد الله بن الزبير ، أول ما ولى خراسان سنة ٦٤هـ بعد موت يزيد بن معاوة وابنه معاوية .

ابن كثير ، البداية والنهاية (٣٣٠/٨) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (١٢٨/٣) .

(١٩٨) ابن عراده : هو حنظلة بن قيس بن عراده التميمى .

(١٩٩) ابن أعثم الكوفى (٣٠٩/٥) .

(٢٠٠) المنتظم (٢٨/٦) .

(٢٠١) الكامل (٣٣٠/٣) .

(٢٠٢) تاريخ الإسلام (٤٤) .

(٢٠٣) عبيد الله بن عبيد الله بن معمر التيمى ، سبقت ترجمته ضمن الرواية رقم (١٥) .

(٢٠٤) أنساب الأشراف (٤٢٧/١/٤) .

(٢٠٥) المنتظم (٢٥/٦) .

(٢٠٦) الكامل (٣٥٦/٣) . البداية (٢٦٥/٨) .

يوسف بن تغرى بردى الاتابكى : النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة (١٦٨/١).

(٢٠٧) تاريخ الإسلام (٦١ — ٦٦/٨٠) .

(٢٠٨) البداية والنهاية (٢٦٥/٨) .

(٢٠٩) عبيد الله بن عبيد الله بن معمر : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٥) .

(٢١٠) نافع بن الأزرق : سبقت ترجمته فى سند رقم (١٦) .

(٢١١) دولاب : بفتح أوله ، وآخره باء موحدة ، وهى قرية من قرى الأهواز بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ ، كان بها وقعة أهل البصرة . وأميرهم مسلم بن عبيس بن كريز وبين الخوارج ، قتل فيها نافع بن الأزرق . ياقوت ، معجم البلدان (٤٨٥/٢) .

(٢١٢) المنتظم (٤٠/٦) . الكامل (٣٥١/٣) .

(٢١٣) ابن أعثم الكوفى (١٦/٦) .

(٢١٤) الدينورى ، الأخبار الطوال (٢٧٣) . أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى (١٥٣/٦).

(٢١٥) سبقت ترجمته فى سند رقم (١٥) .

(٢١٦) سبق معنا ضمن سند رقم (٢٠) .

(٢١٧) سبق معنا ضمن سند رقم (١٦) .

(٢١٨) حارثة بن بدر بن حصين التميمى الغدانى : تابعى من أهل البصرة ، لـــه أخبـــار فـــى الفتوح ، أمرعلى قتال الخوارج فى العراق فهزموه ، حارب فى زمن علـــى ﷺ ، لـــه أخبار مع زياد وغيره فى دولة معاوية وولده ، توفى بنيسابور ودفن فيها .

ابن عساكر ، تاريخ دمشق (٤٣٣/٣) . الأصفهانى ، الأغانى (١٥٥/٦) .

(٢١٩) كرنبوا : بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، ثم فتح النون ، وباء موحدة ، وألف : موضع فـــى نواحى الأهواز كانت به وقعة بين الخوارج وأهل البصرة بعد وقعـــة دولاب . انظـــر ياقوت ، معجم البلدان (٤٥٧/٤) .

(٢٢٠) البخارى ، التاريخ الكبير (١٧٨/٢/٢) . الرازى ، الجرح والتعديل (١٥٥/٤ ، ٢٩٥) .

(٢٢١) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٦) .

(٢٢٢) مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعه ، خليفة عبد الله بن الحارث بن نوفـــل ، أيـــام ابـــن الزبير ، كان فارسًا شجاعًا دينًا ، وكان أميرًا على جيش أهل البصـــرة ، مـــات ســـنة ٦٥هـــ الأصفهانى ، الأغانى (١٥٢/٦) .

(٢٢٣) نافع بن الأزرق : سبق ترجمته فى سند رقم (١٦) .

(٢٢٤) الماحوز : هو عبد الله بن بشير بن الماحوز الســـليطى الـــيربوعى التميمـــى : رئيـــس الأزارقة فى الأهواز وما حولها ، كانت له معركة مع عثمان بن عبيد الله بن معمـــر ، قتل فيها عثمان ، ومعارك مع المهلب ، قتل فى نهايتها ابن الماحوز .

ابن أعثم الكوفى ، الفتوح (٢٢/٦) . الأصفهانى ، الأغانى (١٥٣/٦) .

(٢٢٥) ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٢٢١/٧) . الرازى ، الجرح والتعديل (٣٨٧/٨) . ابـــن حبان ، الثقات (٤١٢/٥) . ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٤٨٤/٥) .

(٢٢٦) انظر الأخبار الطوال (٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥) .

(٢٢٧) تاريخ خليفة بن خياط (٢٥٧) وعن مقتل ابـــن الأزرق وابنـــا مـــاحوز انظـــر تـــاريخ خليفة(٢٥٦) .

قائمة المصادر والمرجع

ابن أعثم (ت ٣١٤هـ) : أبو محمد بن أعثم الكوفى :

- الفتوح ، الطبعة الأولى - دائرة المعارف العثمانية بالهند عـام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) : عز الدين أبو الحسن على بن أبو الكرم محمد بـن عبد **الكريم الشيبانى :**

- أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق : محمد إبراهيم البنا وآخـرون ، ط . دار الشعب المصرية .

- الكامل فى التاريخ ، طبعة دار الفكر - بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) : الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبـل الشيبانى :

- المسند ، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م دار الفكر ، بيروت .

البخارى (ت ٢٥٦هـ : أبو عبيد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم :

- التاريخ الكبير ، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ١٤٠٧هـ .

البسوى (ت ٢٧٧هـ) : يعقوب بن سفيان البسوى .

- المعرفة والتاريخ ، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى ، ط مؤسسة الرسالة ، الطبعـة الثانية عام ١٤٠١هـ .

البغدادى (ت ٤٦٣هـ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب :

- تاريخ بغداد ، ط دار الكتاب العربى ، بيروت .

البلاذرى (ت٢٧٩تقريبا) : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى .

- أنساب الأشراف ، تحقيق د. أحسان عباس ، النشـــرات الإســلامية ، المطبعــة الكاثوليكية ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م .

- فتوح البلدان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، ط مكتبة النهضة المصرية .

بدرى : د. بدرى محمد فهد

- شيخ الأخباريين أبو الحسن المدائنى ، مطبعة القضاء ، النجف ، العراق .

ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ) : يوسف بن تغرى بردى

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ط المؤسسة المصرية للتـــأليف عـــام ١٩٦٣م .

ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ) : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن

- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الطبعة الأولى ، دائرة المعـــارف العثمانيـــة، حيدر آباد - الهند عام ١٣٥٧هـ .

ابن حبان (ت ٣٥٤هـ) : محمد بن حبان بن أحمد التميمى

- الثقات ، طبعة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند عام ١٣٩٣هـ .

ابن حجر (ت٨٥٢هـ) : الإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى :

- الإصابة فى تمييز الصحابة ، ومعه الاستيعاب ، تحقيق : طه محمد الزينـــى، ط الأولى ١٣٩٧هـ - القاهرة .

- تقريب التهذيب ، تحقيق : محمد عواد ، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ ، دار الرشـيد ، سوريا .

- تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة ، مصورة عن دار المحاسن بالقـــاهرة عام ١٣٨٦هـ .

- تهذيب التهذيب ، مصورة عن الطبعة الأولى الهندية عام ١٣٢٥هـ بحيدر آباد .

- لسان الميزان ، الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ، مؤسسة الأعلمى بيروت .

الحمصى : محمد بن سلام الحمصى

- طبقات فحول الشعراء ، تحقيق د. محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى بالقاهرة.

ابن خياط (ت ٢٤٠هـ) : أبو عمر خليفة بن خياط العصفرى

- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى ، ط دار العلم ومؤسسة الرسالة ببيروت ، ط الثانية ١٣٩٧هـ .

الدار قطنى (ت ١٣٨٥ هـ) : على بن عمر الدار قطنى

- الضعفاء والمتروكين ، تحقيق : موفق بن عبد الله بن عبد القادر ، ط مكتبة المعارف ، الرياض ، ط الأولى عام ١٤٠٤هـ .

الدينورى (ت ٢٨٢هـ) : أبو حنيفة أحمد بن داود .

- الأخبار الطوال ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، وجمال الدين الشيال ، ط المغنى ببغداد ، الطبعة الثانية .

الذهبى (ت ٧٤٨هـ) : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان

- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام ، تحقيق : د. عمر عبد السلام ، طبعة السعادة بمصر عام ١٣٦٧هـ .

- دول الإسلام ، تحقيق فهيم شلتوت ، ومحمد مصطفى إبراهيم ، ط الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٧٤م .

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وحسين الأسد ، طبعة مؤسسة الرسالة ، ط الثانية ١٤٠٢هـ .

- المغنى فى الضعفاء ، تحقيق : د . نور الدين عتر .

- ميزان الإعتدال ، تحقيق : محمد على البجــــاوى ، ط دار المعرفــة بــيروت ، مصورة عن الطبعة الأولى .

الرازى (ت ٣٢٧هـ): عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن أدريس التميمى

- الجرح والتعديل ، ط مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، ط الأولى .

ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) : محمد بن سعد بن منيع الكاتب

- الطبقات الكبرى ، طبعة بيروت المصورة عن الطبعة المصرية .

- الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك ، تحقيق د. عبد العزيز بن عبد الله السلومى ، ط الأولى ، مكتبة الصديق بالطائف ١٤١٦هـ .

ابن شبه (ت ٢٦٢هـ) : أبو زيد عمر بن شبه النميرى البصرى

- تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، ط الأصفهانى بجــده عــام ١٣٩٣هـ .

الطبرى (ت٣١٠هـ) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى

- تاريخ الطبرى المسمى بتاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضــل ، ط دار المعارف بمصر ، ط الثانية .

ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد

- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ومعه كتاب الإصابة ، الطبعة الأولى ، مطبعـة السعادة بالقاهرة عام ١٣٢٨هـ .

ابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ) : احمد بن محمد الأندلسى

- العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة عام ١٣٨٥هـ بالقاهرة .

ابن عساكر (ت٥٧١هـ) : الحافظ أبو القاسم على بن الحسن

- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق / نشاط غزاوى ، مطبعة دار الفكر بدمشق .

العقيلى : أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد

- الضعفاء الكبير ، تحقيق د. عبد المعطى أمين قلعجى ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت .

ابن العماد (ت١٠٨٩هـ) : أبو فلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط دار المسيرة ببيروت عام ١٣٩٩هـ .

أبو الفرج الأصفهانى (ت٣٥٦هـ) : على بن الحسن بن محمد القرشى

- الأغانى ، تحقيق الأستاذ على مهنا ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

الفاسى (ت٨٣٢هـ) : تقى الدين محمد بن أحمد الحسن الفاسى المكى

- العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق : فؤاد السيد ، طبعة القاهرة ١٣٨٥هـ .

ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى

- الإمامة والسياسية « منسوب إليه » تحقيق / طه محمد الزينى ، ط القاهرة ، مؤسسة الحلبى .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى .

- البداية والنهاية ، تحقيق : مجموعة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - دار الريان للتراث بالقاهرة .

المزى : الحافظ جمال الدين المزى

- تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، تحقيق د. بشار عــواد ، ط الثانيــة مؤسســة الرسالة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

المسعودى (ت ٣٤٥هـ) : أبو الحسن على بن الحسين بن على

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين ، ط دار الفكر بـيروت عام ١٣٩٣هـ ط الخامسة .

المشهدانى : د. محمد جاسم المشهدانى

- موارد البلاذرى عن الأسرة الأموية فى أنساب الأشراف ، طبعة مكتبة الطـــالب الجامعى بمكة المكرمة .

ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد

- لسان العرب ، تحقيق / عبد الله على الكبير وآخرون ، ط دار المعارف بمصر .

ابن النديم : محمد بن إسحاق بن النديم البغدادى

- الفهرست ، طبعة دار المعرفة بيروت عام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

ياقوت (ت ٦٢٦هـ) : ابن عبد الله الحموى الرومى

- معجم البلدان ، طبعة صادر بيروت عام ١٤٠٤هـ .

خطط الراشدين فى البحر المتوسط

د. عبد العزيز بن إبراهيم العمرى(*)

غدت الدولة الإسلامية بعد امتدادها فى عصر الخلفاء الراشدين إلى مصر والشام تحكم مناطق مطلة على البحر الأبيض المتوسط ، تعد من أكثر الأماكن المطلة عليه أهمية ، وبالتالى فإنها اضطرت لعمل خطط خاصة بأملاكها وقواتها ورعاياها فى المنطقة وكانت هذه الدولة فى بداية أمرها وخصوصا فى عصر عمر رضى الله عنه لا ترغب فى خوض غمار البحر واضطرت للتخطيط فيما يتعلق بأملاكها الساحلية عن طريق الدفاع والقوات البرية ، إلا أن هذه السياسة والخطط تعرضت للتغيير وخصوصا فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه وذلك بعد تزايد الخطر البحرى الرومى ، والهجوم المتكرر على المدن الساحلية فى مصر والشام ، مما اضطر معه عثمان رضى الله عنه وبمساعدة قيادات الدولة الإسلامية للعمل على إيجاد قوات بحرية رادعة تقف فى وجه بحرية الروم بل وتهددها فى عقر دارها . وعملت دور الصناعة فى مصر والشام على تجهيز الأساطيل الإسلامية وما تستلزمه من احتياجات فى خطة منتظمة استفاد فيها المسلمون من الأقباط فى مصر والنصارى فى الشام ، الذين لم يترددوا فى تقديم خبراتهم للجيوش الإسلامية فى ميدان التجهيز والملاحة ، فى مقابل التسامح والبذل الذى قام به المسلمون فى تلك المناطق ، حيث شعر أولئك بالأمان فى العمل مع المسلمين لأنفسهم ولبلدانهم وشعوبها . وقد أعدت الجيوش الإسلامية فى البحر فى فترة وجيزة، وأبدى المسلمون تطوعهم للتجنيد فى الجهاد البحرى كما كانوا فى البر ، وجاهدوا بحرا فى مواقع مختلفة ، حيث تمكنوا من فتح قبرص وأرواد ونزلوا فى رودس وهددوا سواحل اوربا وأصبحت لهم السيطرة البحرية ، وخصوصا بعد موقعة ذات الصوارى . واستبسل عدد من الصحابة والتابعين فى تلك التحركات

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض .

البحرية ، التى شارك فيها النساء مع الرجال ، والتى رعتها الدولة الإسلامية ، وهكذا فإن المسلمين فى عصر الراشدين خططوا للجهاد فى البحر كما فعلوا فى البر .

والمصادر المختلفة فى التاريخ الإسلامى تتحدث عن تلك الروايات التى نستشهد بها فى الحديث عن تلك الخطط والإنجازات ، فى مراحلها وتغيراتها المختلفة ، كما أن مصادر التاريخ البيزنطى تتحدث عن نفس الموضوعات بما يخدم الباحث فيها ، ويمكننا أن نقول باختصار إن المسلمين ترددوا فى التخطيط والغزو البحرى فى البحر المتوسط فى خلافة عمر نظرا لظروف واقعية كان يدركها عمر أكثر من غيره ، تتعلق بالقدرات والاستعداد . وحينما زالت هذه الظروف فى خلافة عثمان غير الخطة . وغزا المسلمون البحر وأصبح لهم قواعدهم وتجهيزاتهم الخاصة ، وصرف عثمان عليها الكثير من بيت مال المسلمين ، ساعده على ذلك القواد وعامة المسلمين بما لديهم من قناعات مؤصلة فى الجهاد البحرى وشرعيته وأهميته، ونجح عثمان رضى الله عنه وجيشه فى قهر الروم فى البحر فى وقت قهرهم المسلمون فى البر . وهكذا فإن المسلمين فى عهد الراشدين ببساطتهم وواقعيتهم خططوا فأنجزوا وعملوا فاعجزوا واجتهدوا فقادوا ونزلوا البحر وانتصروا فيه وسادوا فى سواحل البحر المتوسط كما سادوا فى سواحله الشرقية والجنوبية .

عصر الراشدين

يعد العصر النبوى بداية التأسيس لدولة الإسلام وإقامة المجتمع المسلم فى بقعة من ارض الله ، وكانت البداية الواقعية لهذا المجتمع وتأسيس كيانه المستقل من الهجرة النبوية وتكوين قاعدته فى المدينة المنورة فمنذ ذلك اليوم وكيان الدولة الإسلامية قائم يسوسه الرسول ﷺ .

كانت البداية بسيطة لا تتجاوز المدينة المنورة بل لا تكاد تسيطر عليها جميعا وأخذ نور الله يتم فى المدينة ، وأخذت دولة الإسلام تمتد خارجها تدريجيا بالجهاد والسلم حتى صارت معظم بلاد العرب خاضعة لرسول الله ﷺ وخصوصا بعد فتح مكة حيث دخل الناس فى دين الله أفواجا[١] ، لقد كان عصر النبوة المبارك ودولته القائمة بقيادة الرسول ﷺ مقدمة لعصر الراشدين ، كما أن الرسول ﷺ قرن بين العصرين[٢] .

ولذلك فإن عصر الراشدين يعد أميز العصور الإسلامية على الإطلاق بعد عهد النبى ﷺ وقد أجمعت الأمة على ذلك خلال العصور المختلفة ، وبالتالى فإن أحداثه لها أهميتها الخاصة فى التشريع والقياس والتاريخ[٣] .

ويبتدأ عصر الراشدين ببيعة ابى بكر الصديق رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة النبوية[٤]. وينتهى باستشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب – رضى الله عنه – فى اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة أربعين للهجرة النبوية[٥] .

وقد انشغل المسلمون فى اول خلافة أبى بكر بالقضاء على المرتدين فى بلاد العرب وإخماد الفتن التى آثاروها وإعادة الوحدة لبلاد العرب تحت راية الإسلام[٦]، كما كانت بداية الفتوح فى خلافة أبى بكر – رضى الله عنه – ضد فارس والروم.

فكان لهذا العصر سماته المميزة ، حيث خاض المسلمون جهادا قويا ضد المجاورين لبلاد العرب من المجوس فى فارس ، والروم وأتباعهم فى الشام ومصر وكان جزء من هذا الصراع مع نصارى العراق والشام ، وخصوصا من وقف منهم مع الفرس أو الروم .

وقد نتج عن هذا الجهاد امتداد الإسلام إلى أماكن جديدة وتضاعف رقعة الأراضى المحكومة من قبل الراشدين وخصوصا فى عهد عمر – رضى الله عنه – ومن جاء بعده ، وتبع ذلك تعدد الشعوب واللغات ، والاختلاط بحضارات ونظم كانت سائدة فى العديد من الأقاليم التى تم ضمها للدولة الإسلامية ، كما أن الراشدين أطلعوا على تلك النظم وعرفوا الأساليب المدنية والعسكرية المختلفة التى كانت سائدة فيها من دواوين وبريد ودور أموال وضرب للعملات ، وتنظيمات إدارية وعسكرية ، وغير ذلك مما يصعب حصره ، فأفادوا مما رأوه لا يعارض جوهر الإسلام وقواعد العدل فيه ، وبالتالى فإن هذا العصر تميز بالانفتاح على الحضارات القديمة السائدة فى المناطق التى سيطر عليها المسلمون ومع هذا الانفتاح فإن المسلمين بقوا على ثوابتهم ، بل ونشروها فى المجتمعات المفتوحة ، ولم يجمدوا على ما يقبل التغيير والتحسين فحسنوها إلى الأفضل ، فنمت الدولة والمجتمع ، وتطورت أساليبهم الإدارية والعسكرية لتستوعب النمو فى رقعة الدولة والزيادة فى الرعية، والتغير فى الظروف فكانوا عامل نمو وانضباط لمجتمع جديد.

وعندما حدثت الفتنة الكبرى فى أخره أدت إلى استشهاد أمير المؤمنين عثمان ابن عفان – رضى الله عنه – ، وما تلى ذلك من أحداث امتدت طيلة خلافة على ابن أبى طالب – رضى الله عنه – لكنها لم تمنع المسلمين من سد ثغورهم أمام الروم وغيرهم فى البر والبحر(٧) .

البحر المتوسط الموقع والأهمية :

يعرف هذا البحر عند العلماء العرب ببحر الشام أو بحر المغرب أو بحر الروم(٨) ويكسب أهميته من عدة أمور منها ما يرتبط به من أنشطة بشرية مختلفة

وعلاقات دولية متعددة ، وما يرتبط بذلك من خصائص اجتماعية واقتصادية وحضارية متنوعة[٩] ، ومن هذا المنطق فإن البحر المتوسط يعد أهم البحار في العالم منذ القدم ، حيث تقع عليه أقدم الحضارات فى مصر والشام وجنوب أوربا وغرب بلاد الأناضول ، وقد تميز هذا البحر بامتداده الواسع من الشرق إلى الغرب، وباستيعاب عدد من المدن التجارية ذات الحضارة المميزة عبر التاريخ مثل الإسكندرية ومدن الشام الساحلية وبعض المدن الأوربية الهامة وعلى رأسها القسطنطينية ، كما تقع فى هذا البحر العديد من الجزر والمدن المأهولة ذات النشاط البشرى الاقتصادى والعلمى والحضارى المختلف ، التى لها تأثير على مجريات الأحداث فى العالم عبر العصور هذا فضلا عن انتعاش الزراعة والتجارة على جوانبه المختلفة وبالتالى فإن أهمية هذا البحر واضحة جلية عبر العصور[١٠] ، وتبرز الأهمية لهذا البحر كلما زاد الصراع بين الحضارات الواقعة على جوانبه المختلفة[١١] ، أو نشبت المعارك والحروب فيما بينها ، ويمكننا أن نعتبر هذا البحر تاريخيا أنشط البحار ، وما تسميته بالبحر المتوسط إلا لتوسطه الفريد بين القارات والحضارات ، يقول عنه ابن خلدون : (ويسمى البحر الرومى والبحر الشامى نسبة إلى أهل عدوته والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومى وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله)[١٢] .

وكانت القوافل عبر العصور تربط البحر المتوسط بالتجار فى بلاد العرب وفارس وغيرها ، وقد راودت بعض الحكام فكرة ربطه ببحر القلزم (الأحمر) عن طريق قناة مائية وكان من هؤلاء هارون الرشيد ، الذى فكر فى هذه القناة (التى حفرت بعد ذلك بعشرات القرون وسميت قناة السويس) فمنعه من ذلك بعض مستشاريه بقوله : « كان يختطف الروم الناس من الحرم وتدخل مراكبهم إلى الحجاز »[١٣] .

وقد ورد عند المفسرين للقرآن الكريم ما يؤيد هذه التسمية فقد قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ والبحر المسجور ﴾[١٤] أنه البحر المتوسط : « إن هذه البحر بركة يعنى بحر الروم وسط الأرض والأنهار كلها تصب فيه والبحر الكبير يصب فيه »[١٥] .

العرب والبحرية :

قبل الدخول فى الحديث عن البحرية فى عصر الراشدين لابد من معرفة الأوضاع التى كانت عليها بلاد العرب فيما يتعلق بالبحرية سواء قبل الإسلام مباشرة أم قبل عصر الراشدين خلال العصر النبوى ، حتى يتبين لنا المستوى الذى كان عليه العرب والمسلمون قبل عصر الراشدين فى هذا المجال . تحيط البحار ببلاد العرب من جهاتها الثلاث ، وبالتالى فقد كانوا على صلة بالبحر قبل الإسلام ، إلا أن الحكم على العرب بشكل عام فى المعرفة البحرية سلبا أو إيجابا يعد بعيدا عن الواقع ، ولذلك فإنه لابد من التفريق بين الأقاليم المختلفة من بلاد العرب فى مستوى المعرفة بالبحر وفنونه .

ففى مناطق الخليج فى الشرق نجد أن أهل البحرين وعمان على دراية بالبحر منذ العصور القديمة[١٦] ، حيث كانت لهم صلات بحرية قوية ببلاد فارس فى الناحية الأخرى من الخليج ، وكذلك ببلاد الهند وما وراءها ثم تأتى اليمن فى المقلم الثانى بحكم موقعها الجغرافى وعلاقاتها بالحبشة وامتداد تلك العلاقة إلى الشرق ببلاد الهند وما وراتها[١٧] .

أما أهل الصحراء فى وسط الجزيرة فكانوا عديمى الخبرة بالبحر وركوبه ومختلف أموره ، بحكم موقعهم وعدم حاجتهم لتلك المعرفة .

وأما أهل الحجاز وتهامة فقد كانت لهم معرفة محدودة بالبحر ، حيث كانت لديهم بعض الموانئ القريبة من المدن ، والتى كان أهلها يركبون البحر ويتصلون

بالعمل فيه على نطاق ضيق مثل ميناء الشعيبة قرب مكة المكرمة ، الذى كانت تمر به بعض سفن الروم ، المتوجهة إلى الحبشة ، حيث ذكر تحطم إحدى هذه السفن بالقرب من الشعيبة[١٨] ، قبل البعثة النبوية بقرابة خمس سنوات ، وكانت هذه السفينة تحمل الأخشاب وبعض مواد البناء التى اشتراها أهل مكة فكانت عونا لهم فى بناء الكعبة[١٩] .

كذلك تدل الأخبار المتفرقة على أن الذين هاجروا من أصحاب النبى ﷺ إلى الحبشة — ركبوا البحر إما من بعض المواقع فى تهامة (الساحل الحجازى) أو من سواحل اليمن[٢٠] ، حيث كان لليمن نشاط بحرى مع الحبشة ومع الهند ، فى عصور مختلفة قبل الإسلام[٢١] .

كما كان من أحكام الإحرام بالحج والعمرة تحريم الصيد البرى وإباحة صيد البحر مما يدل على معرفتهم بالبحر والصيد ويقول الشاعر طرفة بن العبد[٢٢] .

كأن حدوج المالكية غدوة   خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أو من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طورا ويهتدى

يشق حباب الماء حيزموها بها   كما قسم الترب المفايد باليد[٢٣]

ولا شك أن الشاعر العربى عمرو بن هند[٢٤] كان مبالغا حينما قال :

ملأنا البر حتى ضاق عنا   وموج البحر نملؤه سفينا[٢٥]

وهو وإن كان مبالغا فى ذلك إلا أن فيه دليل على الوجود البحرى ومعرفة العرب للسفن قبيل الإسلام بل وتمييزهم بين أسمائهم وأنواعها .

ويقلل ابن خلدون من مهارة العرب البحرية مقارنة بغيرهم وقبل امتداد الإسلام واستفادتهم من خبرة غيرهم فيقول : « أن العرب لبداوتهم لم يكونوا مهرة

فى ثقافته وركوبه ، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته »[٢٦] .

ولا شك فى أن معظم ما نسب للعرب من تقدم فى علوم البحار يعود للعصور الإسلامية ، حيث أن معلوماتهم فى هذا الجانب قبل الإسلام تعد محدودة مقارنة بغيرهم من الأمم الأخرى وبما حصلوا عليه بعد الإسلام واحتكاكهم بالأمم الأخرى . واهتمامهم بهذا الجانب .

المعرفة البحرية فى العصر النبوى :

نزل القرآن على رسول الله ﷺ للناس كافة ، وجاءهم بعلوم الدين والدنيا وقد ورد الحديث عن البحر فى القرآن الكريم فى اثنين وأربعين موضعا مشيرا إلى فوائده وأهميته فى النقل والاتصال وما فيه من سفن يقول تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾١٦٤ البقرة .

ويقول تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾ ٣٢ إبراهيم .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ ٦٥ الحج .

كما قال تعالى : ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ ٢٤ الرحمن .

كما تحدث الكتاب العزيز عن منافع البحار المختلفة فى قوله تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ١٤ النحل .

ويقول تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وتـــرى الفلـــك فيـــه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ١٢ فاطر .

كما قال تعالى : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغـــوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ١٢ الجاثية .

كذلك أشار القرآن الكريم إلى الملاحة فيه وما يحتاج البحار مــــن الأهتـــداء والدلالة على الطريق بقوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فـــى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ ٩٧ الأنعام .

ويقول تعالى : ﴿ ومن آياته الجوارى فى البحر كالإعلام * إن يشـــأ يســـكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور * أو يوبقـــهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴾ ٣٤ الشورى .

وأشار إلى الرياح وأهميتها فى الملاحة وأنها من رحمة الله لأهل البحر فـــى قوله تعالى : ﴿ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشـــرا بيـــن يدى رحمته أئلة مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ ٦٣ النمل .

وأشار إلى الموج وظلمات البحر فى قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات فـــى بحـــر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضـــها فـــوق بعـــض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ ٤٠ النور .

كما تحدث القرآن عن إفساد الناس فى البحر كإفسادهم فى البر وذلـــك فـــى سورة الروم (وهذا البحث يتعلق ببحر الروم) أو بحر الشام يقول تعالى : ﴿ ظـــهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الـــذى عملـــوا لعلـــهم يرجعون ﴾ ٤١ الروم .

التوجيه النبوى وأثره فى خطط المسلمين البحرية :

كان الرسول ﷺ يتحدث لأصحابه باستمرار عن ما ستناله هذه الأمة من فتوح وما ستسيطر عليه من مواقع مختلفة ، وكان بهذا يوجه أنظارهم لهذا الأمر بل ويدعوهم بطريقة مباشرة وغير مباشر للمشاركة فيما سيحصل من فتح بحرى وغيره ، وفى تصورى أن هذا وإن كان إخبارا بالغيب لا ينطق به الرسول من عنده ، إن هو إلا وحى يوحى إلا أنه كان ذا أثر بالغ فى التخطيط لغزو البحر ، ومنه ما يتعلق بالبحر المتوسط الذى ورد على لسان رسول الله ﷺ بالاسم أو الإشارة تسمية وصدقه واقع الأحداث ، ومن أشهر ذلك ما رواه البخارى فى (باب ما قيل فى قتال الروم) عن أم حرام أنها سمعت النبى ﷺ يقول : (أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا قالت ام حرام قلت، يا رسول الله أنا فيهم قال أنت فيهم ثم قال النبى ﷺ أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فقلت أنا فيهم يا رسول الله قال لا)(٢٧) .

ولا شك فى أن هذا الحديث، كان دافعا للصحابة للغزو فى البحر والتخطيط له سواء غزو الروم عامة من البحر أو غزو القسطنطينية خاصة ، وهى أهم قواعد الروم على البحر المتوسط ، وهذا الحديث من معجزات رسول الله ﷺ(٢٨) .

وقد وردت ألفاظ فى تسمية البحر المتوسط بتسمية أخرى منها قوله : (أناس من أمتى عرضوا على يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرة)(٢٩) .

وقد استلفتت هذه الرواية وغيرها نظر البخارى فوضع بابا فى صحيحه سماه (باب ركوب البحر) . كما وضع مسلم فى صحيحه بناءا على هذه الرواية بابا سماه (باب فضل الغزو فى البحر)(٣٠) .

وقد ذكر ابن المبارك فى كتابه الجهاد أن رسول الله ﷺ قال : « إنكم ستجندون أجنادا وتكون لكم ذمة وخراج وسيكون لكم على سيف البحر مدائن

وقصور فمن أدرك ذلك فاستطاع أن يحبس نفسه فى مدينة من تلك المدائن أو قصر من تلك القصور حتى يموت فليفعل » . وقال : « ومن نزل منزلا يخيف فيه المشركين ويخيفونه حتى يدركه الموت كتب به كأجر ساجد لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة وأجر قائم لا يقعد إلى يوم القيامة وأجر صائم لا يفطر »(٣١) .

كما أن رسول الله ﷺ قال : «من لم يدرك الغزو معى فعليه بغزو البحر »(٣٢) .

ولم يقتصر الحديث النبوى على ركوب البحر للجهاد والغزو فقط بل ورد ما يدل على طلب التجارة فى البحر من خلال بعض الأحاديث مما دفع البخارى لوضع باب فى صحيحه وضع له عنوانا سماه (باب التجارة فى البحر)(٣٣) .

كما وضع بابا سماه (باب ما يستخرج من البحر)(٣٤) .

خطط الراشدين فى البحر المتوسط

عهد أبى بكر الصديق :

كان عصر ابى بكر الصديق قصيرا جدا مقارنة ببعض الخلفاء الراشـــدين ، وقد انشغل رضى الله عنه بقتال المرتدين من العرب ، وما أن فرغ منهم حتى وجـه أجناد المسلمين للقتال ضد فارس والروم فى وقت واحد ، وكـانت معظـم جـهوده موجهة للقتال البرى . ومع أنه – رضى الله عنه – خطط لفتح الشام بما لها مـن سواحل على البحر المتوسط إلا أن تلك الخطط لم تتم فى فترة خلافته ، حيث كـان المسلمون والروم يعدون لمعركة اليرموك الحاسمة التى غيرت مجرى الأحداث فـى بلاد الشام بما فيها المواقع الساحلية ، ولا تظهر لنا الروايات أخبارا تذكر عن نشـاط للمسلمين فى بحر الشام (المتوسط) خلال فترة ابى بكر لبقائـهم فـى الأطـراف الجنوبية من الشام وعدم وصولهم للساحل خلال خلافة أبى بكر – رضى الله عنـه – ونكاد نجزم إن الموقف البحرى للمسلمين لم يتغير عن ما كانت عليه العرب فـى الجاهلية وزمن النبى ﷺ .

عهد عمر بن الخطاب :

امتدت الدولة الإسلامية فى أيام عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – إلـى أصقاع مختلفة من بلاد الشام ومصر ، ومن ذلك شواطئ البحر المتوسط الشـرقية المرتبطة ببلاد الشام ، وشواطئ مصر الشمالية ، وبالتالى كـان مضطـرا للعمـل والتخطيط فى البحر المتوسط – على شواطئه فى مصر والشـام – حيـث اهتـم بتحصين الموانئ والسواحل .

والحديث العملى عن خطط المسلمين لركوب البحر مجاهدين يبدأ مع عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – سواء منها ما يتعلق ببحر الروم أم بالبحار والخلجـان الأخرى التى كانت تدخل فى نطاق الدولة الإسلامية أيام عمر بن الخطاب ، فتذكـر

الروايات وقائع مختلفة أدت لوقوع جماعات من المسلمين في أخطار ومهالك بحرية. وهذا يعني ابتداء وجود تخطيط لهذا الأمر ، وممارسة بحرية من قبل أمراء عمر حيث قام بعضهم بالعبور من عمان إلى السند فقد روى البلاذرى قال : ولى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عثمان بن أبى العاص الثقفى[٣٥] البحرين وعمان سنة خمس عشرة فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ومضى إلى عمان فأقطع جيشاً إلى تانه بالهند[٣٦] . فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك فكتب إليه عمر يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود وإنى أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم[٣٧] .

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب بعث سنة عشرين للهجرة النبوية علقمة بن مجزز[٣٨] ، فى أناس إلى الحبشة يقاربون الثلاثمائة رداً على إحدى غاراتهم البحرية[٣٩] ، فأصيبوا فى البحر[٤٠] .

ولا شك فى أن هذه الحوادث وغيرها جعلت عمر يتردد فى حمل المسلمين على ركوب البحر ، ولعله كان على قناعة بأنهم لم يستعدوا بعد ، ولم يكسبوا الخبرة اللازمة لهذا الأمر ، وبالتالى فهم غير مؤهلين لذلك ، ليس على الدوام ، بل فى تلك الأيام التى حاول فيها معاوية بن أبى سفيان أميره على الشام إقناعه بهذا ، فقد نقل المؤرخون ما دار بين عمر ومعاوية من مراسلات حيث (ألح معاوية على عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى غزو البحر) .

وكان لهذا الطلب دوره فى دراسة عمر للموضوع والتخطيط له واستشارته أهل الرأى من أمرائه ، الذين عايشوا المواقع البحرية وعرفوا أخبارها وما يدور فيها . وكان من هؤلاء أميره فى مصر عمرو بن العاص فكتب إليه : (صف لى البحر وراكبه فإن نفسى تنازعنى إليه ...) . فكتب إليه عمرو إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق[٤١] .

ولا شك في أن جواب عمرو لعمر كان له تأثيره في اتخاذ قرار مرحلي حاسم حيث أن عمر لما قرأ الرسالة كتب إلى معاوية : (لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا)[٤٢] .

وكان لقرار عمر ما يتبعه من خطط تنفيذية سلبا أو أيجابا ، حيث كتب لأمرائه منع ركوب البحر ، وتؤكد الروايات التزام معاوية وغيره من أمراء المناطق الواقعة على بحر الروم بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٤٣] ، ولم يجرؤ أحد منهم على مخالفته مع أن بعضهم خاض مغامرات بحرية قبل الأمر ، منهم عرفجة بن هرثمة[٤٤] ، وقصته أن العلاء بن الحضرمى عامل عمر على البحرين وجهه في البحر فعبره إلى أرض فارس سنة اربع عشرة للهجرة[٤٥] ففتح جزيرة مما يلي فارس . فأنكر عمر ذلك لأنه لم يستأذنه وقال غررت المسلمين وعاقبه بطرده من البحرين وأمره أن يلحق بالكوفة[٤٦] .

وعلى كل فإن عمر رغم تردده في ركوب البحر إلا أنه سعى بكل جهده لحماية الثغور البحرية وخطط لهذا الأمر واجتهد رأيه في تعيين الأمراء وتحصين الثغور وتجنيد السواحل[٤٧] .

وكان المسلمون ينظرون نظرة خاصة لمن مات مرابطا في الثغور البحرية كالإسكندرية وغيرها[٤٨] . ولذلك فإن عمرو بن العاص جعل قسما كبيرا من جيشه مرابطا بالساحل بعد فتح الإسكندرية الثانى[٤٩] . وكان عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة (غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية)[٥٠] . كما كان كثير من المتطوعة يحرص على المرابطة في الثغور البحرية أكثر من غيرها[٥١] .

وكان لهذا التصرف ما يبرره فقد حرص الروم على التغلب على بعض السواحل في بلاد الشام آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان -رضى الله عنهما[٥٢].

ولا شك فى أن هناك ترابطا بين الثغور البحرية فى الشام والثغور فى مصر بل إن البعض يشير إلى أن مما شجع المسلمين على حرب الروم فى الإسكندرية زمن عمر وإصرارهم على فتحها ، فتح قيسارية فى الشام(٥٣) .

ومن هنا يمكننا القول : أن عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يعتمد فى خططه فى البحر المتوسط على مدافعة الروم وتحصين المواقع الإسلامية عليه ، ولذا عين أمراء محددين لسواحل الشام مسؤولين عن الدفاع عنها ، أثناء زيارته للشام فى السنة السابعة عشر للهجرة(٥٤) .

ومن الملفت للنظر أن ترتيبات عمر لأمراء الساحل فى الشام جاءت بعد رسالة معاوية التى يطلب الأذن له فى الغزو فى البحر(٥٥) .

ومن ناحية أخرى فإن الصحابة عرفوا التجارة بالبحر وذهبت بعض أموالهم فيه زمن النبى ﷺ(٥٦) ، كما مارسوا ذلك زمن أبى بكر الصديق ، وكان من سياسة عمر - رضى الله عنه - إتاحة الفرصة لتجار المسلمين للتبادل مع تجار البحر الآخرين فى البحر المتوسط ، حيث ثبت أن بعض الصحابة كانوا يتعاطون التجارة فيه زمن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد أورد ابن عساكر رواية قال فيها : « كان أصحاب نبى الله يتجرون فى بحر الشام إلى الروم منهم طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد »(٥٧) .

كذلك أشتهر عن عمر - رضى الله عنه - أنه أول من حمل الطعام فى السفن(٥٨) .

ولا شك فى أن نظام العشور ، الذى يتم التعامل به مع التجار الذين يمرون ببلاد المسلمين كان له نصيب من التطبيق مع تجار البحر المتوسط الذين كانوا يعبرون بلاد الإسلام ، حتى أن بعض القاطنين بنواحى فلسطين من الروم والنبط يصلون إلى المدينة للتجارة زمن عمر - رضى الله عنه -(٥٩) .

وكان الروم يعاملون تجار المسلمين بمثل هذا النظام .

ومن هنا يمكننا القول إن عمر لم يخطط للأساطيل الإسلامية التى أسست بعد عصره – رضى الله عنه – فى الوقت الذى لم يتجاهل المصالح الأمنية لشواطئ المسلمين على البحر المتوسط .

عهد عثمان :

عند الحديث عن خلافة عثمان – رضى الله عنه – لابد من التأكيد على أنه سار على طريقة عمر فى تحصين الثغور وحمايتها وتجنيدها ، (لما استخلف عثمان بن عفان – رضى الله عنه – كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل)[٦٠] .

وينبغى التأكيد على أن عثمان لم يكن وحده المخطط ، بل كان معه عدد كبير من الصحابة ممن تدربوا على يد رسول الله ﷺ ، وممن تولى المسئوليات المختلفة فى عهد عمر بن الخطاب وفى عهد أبى بكر الصديق – رضى الله عنهما – وقد تلقى كثير منهم أحاديث فى فضل غزو البحر ، فقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : غزوة فى البحر أحب إلى من قنطار متقبلا[٦١] .

بل أن هناك روايات عن بعض الصحابة تدل على تفضيلهم للشهادة فى البحر وأنه بأجر شهيدين ، وأن من فاته الغزو مع النبى ﷺ - فعليه الغزو فى البحر لعظم أجره[٦٢] .

وكان من أشد أمراء عثمان – رضى الله عنه – حماسة لركوب البحر معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنهما –[٦٣] الذى سبقت له عدة محاولات لإقناع عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – بركوب البحر فلم ينجح فى ذلك فلما استقرت الأمور لعثمان بن عفان – رضى الله عنه – كتب إليه مكررا المحاولة (يستأذنه فى غزوة قبرص ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها فكتب إليه أن قد شهدت

ما رد عليك عمر – رحمه الله – حين استأمرته فى غزو البحر)[٦٤] ، وكـــان رد عثمان فى بداية الأمر هو إتباع سياسة عمر فى المنع من ركوب البحـــر المتوســط والجهاد فيه رغم محاولات معاوية المتكررة . لكن معاوية لم ييأس وكـــرر الأمـــر سنة سبع وعشرين طالبا الأذن من عثمان ، وهذا يعنى محاولة إعادة النظـــر فـــى الخطة التى سار عليها عمر وألزم عثمان بها نفسه فى صدر خلافته . ولا شك فـــى أن عثمان بحث الأمر مع بعض مستشاريه قبل أن يغير رأيه ويكتب لمعاويـــة ردا على رسالته: « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فأركبه مأذونا لك وإلا فلا »[٦٥] .

ومن المؤكد أن عثمان حينما أصر على ركوب معاوية البحر بأهله كان يريـد التأكد والتأكيد على سلامة جند المسلمين من الخطر الطبيعى النـــاتج عـــن الجـــهل بالإبحار . أما الخطر الناتج عن الجهاد والقتال ففى نظـــر عثمـــان وغـــيره مـــن الصحابة أمر مقبول ولا يمكن التهرب منه . (فركب البحر من عكا ومعه مراكـــب كثيرة وحمل امرأته)[٦٦] .

كان عثمان حريصا على أن من يغزو فى البحر يكون مختارا لذلـــك غـــير مجبر عليه ، ولذلك أكد على معاوية فى كتابه (لا تنتخب الناس ولا تقـــرع بينـــهم خيرهم فمن أختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ، ففعل)[٦٧] .

ولا شك فى أن تخطيط عثمان شمل الرجال والعدة والقواعد ، كما تم تنفيـــذ العديد من الأنشطة المرتبطة بما خطط له فى البحر المتوسط .

التجنيد البحرى :

على أن توجه عثمان – رضى الله عنه – للنشاط البحرى كان يتطلب جنـــد معدين لهذا الأمر كما تطلب عدة خاصة من سفن الحرب ، وما يرتبط بكل ذلك مـــن آلات وعدد . ولا شك ان الغزو فى البحر كان من أهداف المجاهدين المسلمين منـــذ سمعوا الرسول ﷺ يخبر بغزو المسلمين فى البحر ويرغب فيه ، وبالتالى كان جمـــع

الجند للغزو فى البحر فى عصر الراشدين ميسرا نظرا لأنهم شبوا على يد رسـول الله ﷺ وتشبعوا بتعاليمه ، فضلا عن أنهم لمسوا أمثلة للنشاط البحرى فـى البلاد التى فتحوها بعد ذلك وبخاصة فى مصر والشام . لذلك نرى بعض رجال الحديث بل معظمهم يفردون فى كتبهم أبوابا خاصة لغزو البحر وثواب الجهاد فيـه فعنـد البخارى (باب ركوب البحر)(٦٨) ، وعند مسلم (باب فضل الغزو فى البحـر)(٦٩)، كما تحدث ابن مبارك، فى كتاب الجهاد بإسهاب عن الغزو فى البحر وفضل الشـهادة فيه(٧٠) . كذلك أورد أبو داود من الأحاديث فى هذا الجانب(٧١) ، وقـد روى عـن النبى ﷺ أنه قال : « « خمس من قبض فى شئ منهن فهو شهيد القتيل فى سـبيل الله شهيد والغريق فى سبيل الله عز وجل ... الحديث »(٧٢) ، فسر ابن مبارك هـذا الحديث على أن الغريق مرتبط بالجهاد البحرى .

وقد اعتمد التجنيد البحرى فى زمن عثمان على ميدأ التطوع وعـدم إكـراه الناس عليه وذلك وفقاً لرسالة عثمان وشرطه على معاوية حينما أذن له بالغزو فـى البحر (لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فأحملـه وأعنه)(٧٣) .

وتدل النصوص على مشاركة النساء فى ركوب البحر بمصاحبة المجـاهدين فيه (وكان الناس يغزون بنسائهم فى المراكـب)(٧٤) ولـهن دور فـى المسـاعدة والإعداد لما يحتاجه المجاهدون من طعام أو شراب أو دواء وكن بالطبع بمصاحبـة أزواجهن أو محارمهن(٧٥) ، مستترات عن الرجال . وقد بحث الفقهاء هذه القضيـة فرأى بعضهم جواز ركوبهن فى السفن الكبيرة التى لا يضطر الرجال فيها للإطـلاع على عورات النساء ولا شك فى أن ركوب النساء السفن زمن الراشدين هو المسـتند للفقهاء فى بحث القضية(٧٦) .

ولعل مما شجع الجند على ركوب البحر زمن عثمان — رضى الله عنـه — وجود عدد كبير من الصحابة ممن تطوع للجهاد فى البحر فـى سـبيل الله ، مـن

هؤلاء أبو أيوب الأنصارى – رضى الله عنه – وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى ، وأم حرام بنت ملحان ، وغيرهم من أصحاب النبى ﷺ[٧٧] .

وكانوا من أحرص الناس على توفير الأمن لراكب البحر فقد اورد من صحب أبا أيوب الأنصارى فى غزوة بحرية أنه قال : « صعدت به على سطح أجلح[٧٨] فنزل . وقال : كدت أن أبيت الليلة ولا ذمة لى » كما ورد عن النبى ﷺ أنه قال : « من بات على إنجار[٧٩] فوقع منه فمات برئت منه الذمة ومن ركب البحر حين يرتج يعنى يغتلم[٨٠] فهلك برئت منه الذمة »[٨١] .

التجهيزات البحرية :

لا شك فى أن المسلمين حينما ركبوا البحر فى بدايات عصر عثمان كانوا من أقل الناس خبرة به إذ أنهم لم يكونوا بمستوى الروم ولا قريبين منهم فى الخبرة لكن دخول أقوام كثيرة من أهل الشام ومصر فى الإسلام زمن عمر وعثمان – رضى الله عنهما – ، أكسب المسلمين خبراء بحريين ذوى مكانة عالمية ، كما أن هؤلاء بدخولهم فى الإسلام كانوا من أهل الحماسة له ، لأن دخولهم جاء عن قناعة تامة ، ولم يجبر أحد منهم على ذلك . وقد استفاد المسلمون من غير المسلمين فيما يتعلق بالإعداد البحرى وصناعة السفن وما يتعلق بها من الحرف المختلفة ولعل تسامح المسلمين مع من لم يكونوا على دينهم كان سببا فى مثل هذا التعاون[٨٢] ، وقد اشتهرت بلاد الشام ومصر بوجود دور لصناعة السفن فيها قبل الإسلام ، وبعد فتح تلك البلاد أصبحت تلك الدور بكامل عددها تحت سيطرة الدولة الإسلامية وخصوصا ما كان ملكا لدولة الروم على أن المسلمين لم يكونوا على خبرة فى التعامل معها فى بداية الأمر وبالتالى اضطروا لاستخدام غيرهم مقابل أجر فى الغالب ، حيث كان الكثير من سكان مصر والشام يقبلون العمل مع المسلمين طلبا للرزق أو غير ذلك . هذا إلى أن القبط فى مصر رغبوا فى مساعدة المسلمين ضد الروم عن طواعية فى أكثر من موضع[٨٣] . ولدينا من الشواهد ما يدل

على تعاونهم مع المسلمين وأنهم كانوا يعملون فى سفن المسلمين أثناء معركة ذات الصوارى[٨٤]، كما تؤكد المصادر مشاركة الموالى فى غزوة ذات الصوارى[٨٥] بل إن بعض المصادر تشير إلى أنه كانت لهم مراكب خاصة شاركت المسلمين فى المعركة[٨٦] وبالتالى فمن المرجح أنهم شاركوا فى صناعة السفن وما يلزم البحرية الإسلامية فى مصر من تجهيزات زمن الخليفة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – .

وقد سيطر المسلمون على أماكن عديدة على سواحل الشام ومصر كانت مؤهلة لبناء السفن وتجهيز الأساطيل ، كما أن المواد اللازمة لصناعة السفن وعلى رأسها الأخشاب والمعادن كانت تتوفر فى جبال الشام ، وفى الأطراف الشمالية منها وفى مناطق مصر المختلفة[٨٧] ، بل إن البعض يرجع أسباب معركة ذات الصوارى إلى محاولة البيزنطيين منع المسلمين من الوصول إلى مناطق الأخشاب الصالحة لصناعة السفن على سواحل الأناضول[٨٨] .

ومع توفر المواد الخام والخبرة اللازمة كان من المنطقى توجه المسلمين لإعداد ما يحتاجونه بأنفسهم لتنمية أساطيلهم ، ويرى البعض أنه : (نتيجة لهذه الانتصارات تقدم العرب إلى شواطئ البحر المتوسط حيث طوروا قوتهم البحرية وشنوا هجوما على قلب الإمبراطورية البيزنطية)[٨٩] . ويقول آخر : « لم تبدأ البحرية البيزنطية حقا إلا فى عهد هرقل فإن قوة العرب البحرية النامية كانت تستلزم إجراء مضادا ، كما أن المغيرين على الإمبراطورية بلغوا من الكثرة حدا جعل السفر البرى من الصعوبة حيث كان من المستحسن فيما نرجح اللجوء إلى الطرق البحرية المحروسة بالجند »[٩٠] ، وقد اشتهرت مواقع معينة بتصنيع السفن أيام عثمان – رضى الله عنه – هى بمثابة قواعد بحرية قائمة بذاتها ، كما كان يتم التنسيق بينها عند الحاجة لذلك .

القواعد البحرية

الإسكندرية :

هى مدينة قديمة من أهم مدن العالم القديم والحديث ، لها مكانتها التجارية والسياسية والعسكرية عبر العصور ، عريقة فى بناء السفن وتجهيزها منذ أقدم العصور وفيها من الإمكانات وعند أهاها من الخبرة ما جعلها من أهم مدن العالم فى تصنيع السفن قبل الفتح الإسلامى وبعده(٩١) . ولا شك فى أن المسلمين استفادوا مما فيها من التجهيزات السابقة بعد السيطرة عليها ، ولعل خروج الأسطول المسلم منها قبيل موقعة ذات الصوارى مما يبرهن على أهميتها ، وعلى التجهيزات القائمة فيها للأسطول الإسلامى فى بداية عهده فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه . كما أن قيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح أمير مصر من قبل عثمان – رضى الله عنه – لها أكبر شهادة على دور الإسكندرية وأهلها فى الإعداد للأسطول المسلم وكانت الإسكندرية تتعرض باستمرار لهجمات من الروم خلال عصر عمر وعثمان رضى الله عنهما . فى محاولة لاستعادتها(٩٢) مما يدل على أهميتها الكبرى فى رسم السياسة الحربية للروم فى تلك الفترة ، وعلى مكانة هذه المدينة فى الخطط البحرية فى البحر المتوسط لدى كل الأطراف .

ويكثر الحديث عن دور صناعة السفن فى الإسكندرية فى العصور الإسلامية اللاحقة لعصر الراشدين عموما إلا أن النصوص لا تسعفنا فيما يرتبط بعصر الراشدين ، وإن كان من المؤكد قيام هذه الدار بدورها ونشاطها قبل وبعد عصر الراشدين ، واستمرارها فى عصر الراشدين من باب أولى .

طرابلس الشام :

تعد طرابلس الشام من أهم الموانئ البحرية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط . وكانت من أقربها إلى دمشق وحمص قاعدتى الشام فى عصر الخلفاء

الراشدين ، كما كانت طرابلس مركزا بحريا هاما للأساطيل الرومية ، إعدادا وتجهيزا ومعسكرا . ولذلك تمسكوا بها أكثر من غيرها(٩٣) . وقد حرص المسلمون على فتحها منذ أيام عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لكن الفتح لم يتم إلا سنة ٢٥هـ فى بداية خلافة عثمان بن عفان – رضى الله عنه –(٩٤) . ومنذ تلك الفترة وطرابلس تحتل مكانتها الخاصة فى الإعداد للقوى الإسلامية البحرية فى عصر الراشدين وما بعده .

وكان لطرابلس نشاط فى بناء السفن وتجهيزها فى زمن عثمان بن عفان ، حيث أن أميره على الشام معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – كان يتابع ذلك عن كثب(٩٥) ، وكان لطرابلس دورها فى معركة (ذات الصوارى) حيث خرج منها عدد كبير من السفن التى شاركت فى هذه المعركة(٩٦) .

عسقلان :

مدينة ساحلية هامة على بحر الروم(٩٧) ، وهى من أهم مدن الشام فى زمن الفتح وكانت مركزا بحريا هاما حاول الروم المحافظة عليها أطول فترة ممكنة ، حتى تمكن المسلمون من فتحها سنة ٢٣هـ على يد معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – فى آخر خلافة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه(٩٨) .

ولأهميتها فإنها تسمى(عروس الشام)(٩٩)،كان عبد الله بن عمر يسميها (ذروة سنام الشام)(١٠٠) . ومنذ فتحها دخلت عسقلان فى عداد القواعد البحرية الإسلامية فى عصر الراشدين وما تلاه ، ولعل قربها من مصر جعلها من أكبر مراكز التنسيق والاتصال بين أساطيل الشام وأساطيل مصر عبر العصور الإسلامية .

عكا :

مدينة ساحلية فى فلسطين تعد من أهم موانئ بحر الروم(١٠١) ، ومن أهم مدن فلسطين(١٠٢) ، وتعد ميناء لبيت المقدس ، بها قوات بحرية رومية عبر العصور .

تمكن شرحبيل بن حسنة – رضى الله عنه – من فتحها فى خلافة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه[١٠٣] ، كما أهتم بها المسلمون في زمن عثمان وجعلوها قاعدة عسكرية ونقل إليها معاوية بن أبى سفيان فى خلافة عثمان عددا كبيرا من صناع السفن ، وجهزها بالأخشاب من لبنان ، وجعلها أهم مراكز صناعة السفن فى الشام فى خلافة عثمان – رضى الله عنه[١٠٤]– وقد ركب معاوية البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة فى أول غزوة بحرية لقبرص[١٠٥] .

وهناك مراكز بحرية أخرى اشتهرت زمن عثمان ، كانت على ساحل بحر الروم منها بيروت وصور ، وكان بها بعض المرابطة من أصحاب النبى ﷺ منهم سلمان الفارسى – رضى الله عنه – وغيره من الصحابة[١٠٦] ، كما كان فى بعضها دور لصناعة السفن .

ومن خلال استعراض هذه القواعد البحرية ، نلاحظ أنه كانت فى آخر عهد عثمان بن عفان – رضى الله عنه – قواعد بحرية ذات أهمية كبرى فى الموقع والتجهيزات فى مصر والشام ، وكانت كافية للدفاع عن السواحل الإسلامية فى مصر والشام ، كما استعدت تلك القواعد بأساطيل بحرية أصبحت سفنها كافية للحفاظ على سواحل المسلمين والقيام بفتوح جديدة فى البحر المتوسط[١٠٧] .

النشاط العسكرى البحرى :

اعتمدت الدولة الإسلامية حتى آخر خلافة عمر – رضى الله عنه – على سياسة الدفاع عن مواقعها وثغورها فى البحر المتوسط ، وكان معاوية – رضى الله عنه – يحاول إقناع عمر بالمبادرة بالهجوم عن طريق البحر إلا أنه لم ينجح فى ذلك ، وما أن حصل معاوية على الأذن من عثمان بركوب البحر حتى كانت الأنشطة البحرية العسكرية المختلفة التى احتاجت إلى تخطيط وتنفيذ ومنها :

فتح قبرص (٢٨هـ — ٦٤٩م) :

هى جزيرة بحرية قبالة ساحل الشام ، وتعد من أهم جزر بحر الروم وكـانت من قواعد الأسطول البيزنطى التى تهدد الشام باستمرار(١٠٨) ، وقد اهتـم معاويـة لفتحها منذ أيام عمر — رضى الله عنه(١٠٩) — إلا أن الخليفة منعه من ذلك ، حتـى إذا أذن له عثمان — رضى الله عنه — بذلك ، خرج سنة ٢٨هـ(١١٠) من عكا ومعه أهله ، وعدد من الصحابة(١١١) . منهم عبادة بن الصامت الذى خـرج بزوجتـه أم حرام فى هذه الغزوة فاستشهدت خلالها(١١٢) .

وقد انتهت هذه الغزوة بفتح الجزيرة عنوة ، مما اضطـر أهلـها لمصالحـة المسلمين على جزية يدفعونها ، وعلى شـرط إطـلاع المسـلمين علـى أخبـار الروم(١١٣). وهذا الشرط كان بلا شك يخدم القوات الإسلامية فى البحـر المتوسـط فالمعلومات من أهم أسس التخطيط والممارسة العسكرية ، وبالتالى فإن هذا الشـرط يعد رافدا للخطط الإسلامية فى البحر المتوسط فى مرحلة من المراحل .

على أن أهل قبرص أخلوا بشروطهم وبالتالى تكرر غزو المسلمين للجزيـرة سنة ٣٣هـ ، وأدبوا أهلها الذين ساعدوا الروم ، وأقاموا فيها حامية إسـلامية مـن ١٢ ألف مقاتل(١١٤) ، وهذا يعنى تغيير الخطة فيما يتعلق بقبرص وذلـك بتحويلـها إلى قاعدة بحرية إسلامية ، بدلا من الاكتفاء بكونها مجرد حليفة بناء على المعـاهدة السابقة ، كذلك يعد هذا تغييرا فى خطط المسلمين فى هذه الجزيرة بعد أن اتضحـت أهميتها .

ولتعـدد معاهدات المسلمين مع أهل قبرص عبر العصـور ، واختـلاف الشروط معهم فإن الفقهاء المسلمين بحثوا موضوعها بدقة(١١٥) ، نظرا لأن الفقـهاء هم الذين يصدرون الأحكام فى التعامل مع الأراضـى المفتوحـة وفقـا لوضعـها الشرعى .

فتح جزيرة أرواد :

أرواد جزيرة صغيرة تبعد عن الساحل السورى حاليا عشرات الكيلو مترات ، وكانت فى عصر عثمان – رضى الله عنه – مدينة مزدهرة ، وتشكل خطرا على المسلمين لأنها ذات موقع بحرى هام[١١٦] يمكن أن يستغله الروم لضرب المسلمين على سواحل الشام ، وقد استولى عليها المسلمون بقيادة معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – عند عودتهم من قبرص سنة ٢٨هـ ، كما تشير إلى ذلك المصادر البيزنطية[١١٧] .

ولعل ترك معاوية لهذه الجزيرة حتى عودته من قبرص يعنى تخطيطا عسكريا بحريا رائعا ، إذ أن الاستيلاء على قبرص وراء أرواد يعد فى الوقت نفسه حصارا لأرواد ومنعا للإمدادات عنها وتمهيدا لفتحها ، كما أن المسلمين باستيلائهم على هذه الجزيرة كسبوا موقعا عسكريا بحريا جديدا فى الوقت الذى زالت منه أقدام عدوهم .

وتتحدث المصادر العربية بإسهاب عن فتح أرواد سنة ٥٤هـ[١١٨] فى خلافة معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – ولعل ذلك يعنى استيلاء الروم عليها مرة أخرى وإعادة فتحها ، كما حصل فى العديد من المواقع ، وبالتالى فإن فتحها على ما يبدو كان ذيلا لفتح قبرص ولذلك لم تشر له المصادر العربية .

الهجوم على رودس وكريت (٦٥٤م) :

رودس جزيرة هامة فى بحر الروم[١١٩] ، وتعد من قواعد الروم البحرية الهامة فى الصراع المبكر على البحر المتوسط[١٢٠] . وكذلك الحال بالنسبة لكريت .

وقد قوى الأسطول الإسلامى وبلغ أوج نشاطه فى آخر خلافة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – فأصبح يهدد سواحل أوروبا الجنوبية ، والجزر المقابلة

لإيطاليا ، خصوصاً قبيل وبعد معركة ذات الصوارى التى انتصر فيها المسلمون على الإمبراطور البيزنطى . وقد ثبت أن معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – قد نزل برودس فى زمن عثمان – رضى الله تعالى عنه – ومعه بعض الصحابة – رضى الله عنهم[١٢١] – وتؤكد المصادر البيزنطية هذا الهجوم[١٢٢] ، إلا أن فتح هذه الجزيرة والاستقرار بها كان سنة ٥٣هـ فى أثناء خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه[١٢٣] ، كما جرى إعادة فتحها سنة ٥٩هـ[١٢٤] .

موقعة ذات الصوارى(٣١-٦٥٥م) :

وقعت هذه المعركة البحرية سنة ٣١هـ وشارك فيها[١٢٥] الأسطول الإسلامى الشامى والأسطول المصرى ، حيث التقوا بأسطول الروم الذى يقوده الإمبراطور البيزنطى قسطنطين بن هرقل بنفسه وسط البحر المتوسط[١٢٦] ، وكانت وجهته سواحل مصر ، إلا أنه فوجئ بتحرك الأساطيل الإسلامية من قواعدها البحرية فى الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان ، ومن قواعدها البحرية فى الإسكندرية بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح[١٢٧] ، مما يدل على التخطيط والتنسيق التام بين هذه القواعد البحرية وقوادها[١٢٨] ، كما يدل على تحرى أخبار العدو ومتابعته والإعداد له والتخطيط المسبق . وقد شارك فى هذه المعركة بعض الصحابة – رضى الله عنهم[١٢٩] – وعندما دارت المعركة قبالة سواحل الأناضول[١٣٠] ، شهدت تنسيقاً بين سفن المسلمين رائعاً وتخطيطاً حربياً وحماسة فى القتال فائقة حتى نصر الله المسلمين على الروم نصراً مؤزراً . وكان فى سفن المسلمين بحارة من غير المسلمين ، من أقباط مصر ونصارى الشام[١٣١] ، إلا أنه لم يكن لهم دور فى القتال وإنما كانوا ملاحى السفن وخبرائها .

وتعد هذه المعركة من أشهر المعارك البحرية عبر التاريخ ، فهى أول معركة بحرية كبرى يخوضها المسلمون وينتصرون فيها انتصاراً حاسماً غير مجرى الأحداث فى البحر المتوسط حتى اعتبرها بعض المؤرخين البيزنطيين نظيراً

لانتصار المسلمين البرى فى اليرموك[١٣٢] ، وأرجع أرشيبالد انتصار المسلمين فى المعركة إلى أنه (جاء لخطط غير عادية إذ ربطوا سفنهم بعضها ببعض بسلاسل ثقيلة ، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم)[١٣٣] .

والواقع أن انتصار المسلمين فى ذات الصوارى كان دافعاً لمزيد من التجديد والتغيير فى الخطط البحرية للمسلمين ، الذين أصبحوا أسياد البحر المتوسط بعد تلك المعركة بعد أن كانوا يعتمدون على السياسة الدفاعية فيه[١٣٤] ، كذلك كان لهذه المعركة تأثيرها على مستقبل المسلمين فى البحر المتوسط ، وإن كان هذا قد تأخر قليلاً بسبب مقتل عثمان – رضى الله عنه – ، وما حدث بعد ذلك من اضطراب ، إلا أن معاوية نفسه بعد استقرار الأمور له بالخلافة عاد ليستغل نتائج معركة ذات الصوارى[١٣٥] .

تهديد القسطنطينية :

أما القسطنطينية فقد كان التخطيط لفتحها من أهم أهداف المسلمين منذ أن بشرهم الرسول ﷺ بفتحها أكثر من مرة[١٣٦] ، ومنها قوله : لتفتحن القسطنطينية على يد رجل فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش)[١٣٧] ، كما قال ﷺ: « أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم »[١٣٨] .

وفى ضوء ذلك يرجح البعض حرص المسلمين على إنشاء الأساطيل لتحقيق هذا الهدف ، وقد قام المسلمون بنشاط بحرى متكرر فى زمن عثمان كان بعضه موجه ضد القسطنطينية عاصمة الروم وما حولها من سفن بحرية[١٣٩،١٤٠] .

وتذهب بعض المصادر إلى تأكيد وصول أساطيل المسلمين فى زمن عثمان – رضى الله عنه – إلى سواحل الأندلس[١٤١] ، وتهديدها لأوربا فى إطار خطة بحرية من المسلمين للالتفاف على القسطنطينية من الشرق والغرب . يقول الطبرى : « وسرح العبدين على الجند ورماهما بالرجال وسرحهما إلى الأندلس وأمرهما وعبد الله بن سعد بالاجتماع على الأجل »[١٤٢] .

قواد البحر زمن عثمان

معاوية بن أبى سفيان :

يعد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أهم قواد البحر والمخططين له زمن عثمان بن عفان ، وهو صاحب المحاولات فى إقناع عمر ثم عثمان من بعده فى ركوب البحر(١٤٣) . كان يغزو بنفسه ويصطحب معه أهله ، وتؤكد المصادر أنه أول من ركب البحر من أمراء المسلمين وقادتهم فى خلافة عثمان – رضى الله عنه(١٤٤) – ، بالتالى فإن معاوية يعد أكثر المخططين لغزو البحر المتوسط فى زمن الخلفاء الراشدين(١٤٥) ، وقد سار على نفس الخطط التى وضعت زمن عثمان حينما أصبح خليفة للمسلمين .

عبد الله بن سعد بن أبى السرح :

كان قائدا عسكريا وسياسيا لمصر فى خلافة عمر وعثمان بن عفان ، وهو من المجاهدين الفاتحين فى البر ، قاد سفن المسلمين فى ذات الصوارى ، وتعرض للخطر أكثر من مرة .

عبد الله بن قيس الجاسى :

كان أحد القواد المشهورين فى الشام التابعين لمعاوية بن أبى سفيان زمن عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وقد عينه عثمان قائدا للأساطيل البحرية فى سواحل الشام ، فكانت له غزوات استطلاعية متعددة ، إذا غامر بنفسه فى جزر البحر المتوسط فى أكثر من خمسين غزوة بحرية حتى صارت الروم تخشاه استشهد وهو متنكر فى أحد تلك الاستطلاعات البحرية(١٤٦) .

فضالة بن عبيد الأنصارى :

صحابى جليل شهد أحد وما بعدها مع النبى ﷺ(١٤٧) ، كما شهد فتوح الشام فى زمن أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – ، وأصبح من قضاة الشام فى خلافة معاوية بن أبى سفيان وبها توفى فى خلافة معاوية(١٤٨) .

بسر بن أرطاة :

كان من قضاة الشام فى خلافة عمر ، وكذلك فى خلافة عثمان[١٤٩] جاهد فـى العديد من المعارك البرية والبحرية[١٥٠] ، حتى أصبح مـن أشـهر قـواد البحـر وخصوصاً فى خلافة معاوية[١٥١] ، وقد توفى سنة ٥٣هـ[١٥٢] .

واثلة بن الأسقع الكنانى :

من نبلاء الصحابة له أحاديث فى كتب الصحاح[١٥٣] ، من مجاهدى المسلمين فى بلاد الشام فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه – شهد فتح معاوية لقبرص وغيرها .

عبد الله بن بشر المازنى :

صحابى جليل بايع النبى ﷺ[١٥٤] شارك فى فتوح الشام ، وغزو البحر فـى زمن عثمان[١٥٥] ، توفى بحمص[١٥٦] ، فى خلافة الوليد بن عبد الملك[١٥٧].

شداد بن أوس بن ثابت الأنصارى :

صحابى جليل شهد بعض الغزوات مع النبى ﷺ[١٥٨] ، كما شهد الفتوح فـى زمن أبى بكر وعمر– رضى الله عنهما[١٥٩] – ، وشهد بعض الغزوات البحرية مـع معاوية بن أبى سفيان فى زمن عثمان بن عفان – رضى الله عنه[١٦٠] – ، اشـتهر بالعلم واثنى عليه كثير من الصحابة[١٦١] ، أصبح من القواد المشهورين فى خلافـة معاوية توفى سنة ٥٣هـ فى الشام بدمشق[١٦٢] ، وقيل بعد ذلك[١٦٣] بفلسطين[١٦٤].

جبير بن نفير الحضرمى :

كان جاهلياً ، فأسلم فى خلافة أبى بكر[١٦٥] ، وعد من أكـابر التـابعين[١٦٦] شارك فى الجهاد فى زمانه وزمن عمر رضى الله عنهما – غزا البحر فـى زمـن

عثمان – رضى الله عنه – وعد من القادة[١٦٧] ، توفى فى حمص[١٦٨] زمـــن عبـــد الملك بن مروان سنة ٨٠هـــ[١٦٩] .

عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن عبد القيس الفهريين :

نسبت لهما الروايات قيادتهما لحملات بحرية فى خلافة عثمان رضى الله عنه تجاه الأندلس ، وأن هدف تلك الحملة كما صرح به عثمان رضـــى الله عنـــه هـــو الالتفاف على القسطنطينية وفتحها من الخلف[١٧٠] ، وتحتاج هذه الروايات إلى مزيد من الدراسة والتروى ، والنظر الفاحص فيها .

عهد على بن أبى طالب :

انشغل على بن أبى طالب رضى الله عنه بالنزاع مع معاوية رضى الله عنـــه مما منعه من السيطرة على الشام ، وبالتالى لم يكن بيده التخطيـــط أو التنفيـــذ لأى نشاط بحرى فى المتوسط من سواحل الشام . أما مصر فقد كانت فـــترة انضمامـــها لعلى رضى الله عنه قصيرة جداً إذ انشغل أمراؤه بأحداث داخلية كثيرة منعتهم مـــن أى نشاط بحرى على سواحلها الشمالية ، ويبدو أن المسلمين استمروا فى الســـيطرة البحرية فى المتوسط فى خلافة على عن طريق أمراء مصر والشام فى تلك الفـــترة وكانوا فى الغالب مرتبطين بمعاوية الذى بذل جهده لحماية الثغور البرية والبحريـــة التى تقع تحت سيطرته فى تلك الفترة .

المعاهدات فى البحر المتوسط :

تعد معاهدة المسلمين مع أهل قبرص أشهر المعاهدات فى البحـــر المتوســـط زمن الخلفاء الراشدين . ذلك أنه بعد استيلاء المسلمين على الجزيرة « أذعن أهلـــها فصالحهم على سبعة آلاف ومائتى دينار يؤدونها فى كل عام ، وصالحـــهم الـــروم على مثل ذلك ، فهم يؤدون خراجين . واشـــترطوا أن لا يمنعـــهم المســـلمون أداء الصلح مع إلى الروم واشترط عليهم المسلمون أن لا يقاتلوا عنهم من أرادهـــم مـــن

ورائهم وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم فكـان المسـلمون إذا ركبـوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرس ولم ينصروا عليهم »(١٧١) .

ويتضح من شروط هذه المعاهدة أن المسلمين لم يطلبوا مـن أهـل قـبرص التدخل العسكرى لصالح المسلمين عند الحاجة ، وإنما طلبوا منهم عـدم مسـاعدة الأعداء ، وهذا يعنى الوقوف على الحياد فى الجانب العسكرى أما جانب المعلومات والاستخبارات فإنه بموجب هذه المعاهدة يلتزم أهـل قـبرص بـإمداد المسـلمين بالمعلومات عن أعدائهم ، وعن تحركاتهم المختلفة . وقد وافق المسلمون على دفـع أهل قبرص الأموال للروم ولم يمانعوا فى ذلك ، وبالتالى فإن المفترض فـى أهـل قبرص أن يكونوا قد أرضوا الروم بالمال ، والمسلمين بالمـال والمعلومـات ، وأن يؤمنوا بلادهم فى هذه الحالة من الطرفين ، وهذه المعاهدة عقـدت سـنة ٢٨هـ واستمرت فترة من الوقت ، إلا أن أهل قبرص على ما يبدو لـم يوفـوا بشـروط المعاهدة للمسلمين .

« فلما كان سنة اثنتين وثلاثين أعانوا الروم على الغزاة فى البحر بمراكـب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين فى خمسمائة مركب ففتح قـبرص عنوة فقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم »(١٧٢) .

ولا شك فى أن استمرار المسلمين فى معاهداتهم مع أهل قبرص بعد تأديبـهم كان جزءا من خطة عامة تجاه قبرص وغيرها من الجزر البحرية فى المتوسط .

أثر خطط الراشدين على من بعدهم :

لا شك فى أن التحركات البحرية وما سبقها من تخطيط فى خلافة عثمـان – رضى الله عنه – كان لها دور فى الأحداث التى جرت بعد ذلك وخصوصـا فـى عصر بنى أمية ، حيث أن الإعدادات الحربية البحرية وقواعدها المختلفة آلت لدولـة بنى أمية ، فقام الخليفة معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – بالسير على نفـس

الخطط السابقة ، خصوصا أنه كان من صانعي تلك الخطط . ولذلك استمر في دعم الأساطيل البحرية وتجهيزها بالعتاد والرجال ، كما استمر في فرض السيطرة البحرية ، بتحركات الأساطيل البحرية وفتوحها المختلفة في جزر البحر المتوسط . وتبعه في ذلك بقية خلفاء بني أمية ، حتى هددوا القسطنطينية نفسها واستولوا على عدد من الجزر البحرية فيما لا يتسع المجال لذكره في هذا البحث ، كما أنهم نظروا نظرة خاصة لتطبيق المعاهدة التي عقدت مع أهل قبرص وشارك العلماء في النظر في هذه المعاهدة وتطبيقها طوال عصر بني أمية والعصور اللاحقة(١٧٣) .

كما أن ما تم من تحقيق تفوق للمسلمين في البحر المتوسط زمن عثمان بنيت عليه الدول الإسلامية المطلة على المتوسط مكانتها العسكرية في ذلك البحر ، حيث استفادت من تلك الإنجازات ، وتحركت لمد نفوذها في مناطق جديدة في صقلية وجنوب إيطاليا والأندلس وغيرها حتى صارت السيطرة البحرية في المتوسط طيلة العصور الوسطى للبحرية الإسلامية في مصر والشام عبر الدول المختلفة .

* * *

وبعد ، فإنه من خلال هذا البحث يتبين أن ما تم في زمن الراشدين من نشاط بحري لم يكن امتداداً تاريخياً لما كان عليه الوضع قبل الإسلام حيث أن هذه المرحلة تعد جهاداً مركزاً ومخططاً مع قوى بحرية مختلفة في مناطق جديدة تمكن المسلمون من السيطرة عليها وتوجيهها لتحقيق أهداف وغايات الدولة الإسلامية ، وحماية مواقعها الجديدة . وقد تفاوتت جهود الراشدين في هذا الأمر حيث نرى تركيز عمر – رضي الله عنه –على التحصين والدفاع عن ثغور المسلمين في البحر المتوسط وشحنها بالمقاتلة باستمرار ، أما عثمان فمع السير على خطة عمر – رضي الله عنهما – إلا أنه خطا خطوة جديدة ببناء الأساطيل الإسلامية في عدد من القواعد البحرية في بلاد الشام ومصر ، كما بادر بالهجوم على مواقع الروم في البحر المتوسط واستولى على بعض الجزر وهدد مواقع أخرى في بلاد الروم ،

منها جزر متصلة بأوربا اتصالا مباشرا ، كما يتضح دور معاوية بن أبـــى ســفيان وعبد الله بن سعد وغيرهم من القواد فى الجهود المبذولة لتقوية الأسطول الإسـلامى أيام عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ، وأما خلافة على بن أبى طالب - رضـى الله عنه - فقد شغل فيها عن بحر الروم ومنع من الوصول إليه ، وذلك بمنعه مـــن مد نفوذه إلى الشام ، وسلخ مصر ، فى وقت مبكر من خلافته ، وبالتالى فإنـــه لــم تتضح له خطة معينة فى البحر المتوسط بسبب الظروف التى سادت فترة خلافته .

* * *

الهوامش

(١) انظر البخارى (فتح البارى) جـ١٦ /١٣٤ .

(٢) ابن ماجه ، سننه ، باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين جـ١/١٧ .

ورواه الإمام أحمد فى مسند الشاميين ، باب حديث العرباض بن سارية جـ٤/١٢٦ .

(٣) ابن ماجه ، سننه ، باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين جـ١ / ١٥ .

(٤) خليفة بن خياط ، تاريخه ص ٩٤ .

(٥) خليفة بن خياط ، تاريخه ص ١٩٨ .

(٦) انظر : الكلاعى الأندلسى (حروب الردة) تحقيق أحمد غنيم .

(٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٢٤ .

(٨) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/٢١ ، ٣٤٥ .

(٩) للتوسع حول الموضوع انظر : فرنان بردويل ، البحر المتوسط المجال والتاريخ ، ترجمة يوسف شلب الشام ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٠م .

(١٠) أرشيبالد ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص١٦ .

(١١) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص٧٢ .

(١٢) المقدمة ص ٢٥٢ .

(١٣) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، جـ٩ / ٢٨٩ . السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، جـ٢ / ٢٨٦ .

(١٤) سورة الطور : الآية ٦ .

(١٥) ابن كثير ، تفسيره ، جـ٤ /٤٧٧ ، القرطبى ، تفسيره ، جـ١٩/٢٣١ .

(١٦) سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٥٦ .

(١٧) نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ص ٢٦٦ ، أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ٢٢ .

(١٨) الشعيبة : قرية على شاطئ البحر الأحمر مقابل مكة المكرمة ، وهى ميناؤها منذ القدم وقبل أن تعرف جدة فى العصور المتأخرة . وقد زرتها بنفسى وتبعد عن مكة

قرابة ١٠٠ كيلو متر إلى الغرب على طريق الليث (انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان جـ٣ /٣٥١)

(١٩) ابن هشام ، السيرة النبوية، جـ١/١٩٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٢ /٤٤ .
ابن فهد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، جـ١/١٤٦ ، الصالحى الشامى ، سبل الهدى والرشاد ، جـ٢/٢٢٨ .

(٢٠) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٢١٥ ، السهيلى ، الروض الأنف ، جـ٢ / ٢٥٠ ، وانظر جواد على ، جـ٧/٢٥٩

(٢١) انظر : سعاد ماهر ، البحرية الإسلامية ، ص ٦٠ .

(٢٢) شاعر جاهلى فحل هجاء يخشاه الناس ، من أصحاب المعلقات المشهورين ، ولد بالبحرين ، وتنقل بينها وبين العراق ونجد ، قتل بسبب شعره . انظر : يحيى الخشاب (طرفة بن العبد حياته وشعره) ١٩٩٧ ، وانظر : الانبارى ، شرح المعلقات السبع ، ص ١١٥ .

(٢٣) الأنبارى ، شرح المعلقات القصائد السبع ، ص ٣٥ ، الألوسى ، بلوغ الأرب جـ٣/٣٦٥ . جواد على ، المفصل ، جـ٧/٢٥١ . المالكية ، والعدولية : من أنواع السفن المعروفة عند العرب (المصدرين السابقين).

(٢٤) هو عمرو بن هند ، ويسمى عمرو بن منذر بن ماء السماء أحد ملوك العرب فى الحيرة قبل الإسلام من بنى تغلب . (يحيى شامى ، طرفة بن العبد والأنبارى ، شرح القصائد السبع ص ٤٢٦ .

(٢٥) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١٣ /٢٠٩ . الزبيدى ، تاج العروس جـ٩/٢٣٦ . الأنبارى ، شرح المعلقات السبع ، ص ٤٢٦ . وانظر إلى مزيد من الشواهد الشعرية: أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ٢٤ .

(٢٦) المقدمة ، ص ٢٥٣ .

(٢٧) البخارى ، صحيحه ، جـ٣/١٠٦٩ .

(٢٨) (البخارى باب من زار قوما فقال عندهم) . جـ٥ /٢٣١٦ .

(٢٩) البخارى ، (باب فضل من يصرع فى سبيل الله فمات فهو منهم) جـ٢/١٠٣٠ .

(٣٠) مسلم ، صحيحه جـ٣/١٥١٨ .

(٣١) عبد الله بن المبارك ، كتاب الجهاد جـ١ /١٤٤ .

(٣٢) ابن مبارك ، كتاب الجهاد جـ١/١٥٤ .

(٣٣) صحيح البخارى ، جـ٢/٧٢٧ .

(٣٤) صحيحه ، جـ٢/٥٤٤ .

(٣٥) هو عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبد الله بن همام الثقفى أبو عبد الله نزيل البصرة أسلم فى وفد ثقيف فاستعمله النبى ﷺ على الطائف ، خطبهم بعد وفاة النبى ﷺ ومنعهم من الردة ، وأقره أبو بكر ثم عمر ثم استعمله عمر على عمان والبحرين سنة خمس عشرة ، ثم سكن البصرة حتى مات بها فى خلافة معاوية سنة خمسين ، وقيل سنة إحدى وخمسين . (ابن حجر ، الإصابة ، جـ٤/٤٥١ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٥/٥٠٨) .

(٣٦) تانة ، من قرى الهند القريبة من بمباى (سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ص٦٢) .

(٣٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ٢ /٤٢٠ .

(٣٨) هو علقمة بن مجزز بن الأعور الكنانى ، صحابى جليل ، كان يؤمره رسول الله ﷺ اشتهر بجهاده فى بلاد الشام زمن أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – توفى سنة ثلاث وعشرين للهجرة النبوية ، (الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ / ٤٤٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧/١٤٣ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٤ /٥٥٩) .

٣٩) البكرى ، معجم ما استعجم ، جـ٢ /٦٣٢ .

(٤٠) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٥١٧ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٤ /٥٥٩ ، عبد الرزاق ، المصنف جـ٥/٢٨٤ .

(٤١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ /٢٨٥ .

(٤٢) الطبرى ، تاريخه جـ٢ /٦٠٠ .

(٤٣) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(٤٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٥٣ .

وعرفجة بن هرثمة صحابى جليل كان من قواد الفتح أيام أبى بكر وعمر لـــه نكايـــة شديدة فى العدو شارك فى القضاء على المرتدين واشـــتهر بفتحـــه للموصـــل ومـــا جاورها (ابن حجر ، الإصابة ، جـ٤/٤٨٥) .

(٤٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٤/٣٦٢ .

(٤٦) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢/٢٢٧ .

(٤٧) عبد الله بن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١/١٤٤ .

(٤٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١/١٦٣ .

(٤٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١/١٦٧ .

(٥٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١/١٦٧ .

(٥١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣/١٤٦ .

(٥٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ٢/١٣٣ .

(٥٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١/١٦٤ .

(٥٤) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٤٩١ .

(٥٥) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٠٢ .

(٥٦) انظر : الطبرانى ، كتاب الدعاء ، ص ٢١ .

(٥٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ٢٥/٥٧ .

وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل من العشرة المبشـــرين بالجنـــة من أصحاب النبى ﷺ .

(٥٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٣ /٢٨٢ .

(٥٩) انظر : القاسم بن سلام ، الأموال ، ص ٦٤١ .

(٦٠) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٤ .

(٦١) ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١/١٥٧ .

(٦٢) ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١/١٥٤ .

(٦٣) انظر : السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .

(٦٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(٦٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(٦٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(٦٧) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ / ٦٠١ .

(٦٨) صحيحه ، جـ٣ / ١٠٦٠ .

(٦٩) صحيحه ، جـ١٥١٨/٣ .

(٧٠) كتاب الجهاد ، جـ١٥٥/١ .

(٧١) سنن أبى داود ، جـ٦/٣

(٧٢) ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١٥٤/١ .

(٧٣) الطبرى ، تاريخه ، جـ٦٠١/٢ .

(٧٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١٦٩/١ .

(٧٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩٧/٣ .

(٧٦) فتح البارى ، جـ٧٨/١١ — ٧٦ .

(٧٧) انظر: البخارى ، صحيحه ١٠٦٠/٣ ، الأدب المفرد ، أبو داود ، سننه ، جـ٦/٣، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢٢٧/٢.

(٧٨) السطح الذى لا جدار له ، وكل ما لا جدار له من هودج أو سفينه أو غير ذلك : (انظر : لسان العرب ، جـ٤٢٥/٢) .

(٧٩) إنجار : يقصد به السطح ، ويقصد به مرساة السفينة ، كما يأتى بمعنى سطح السفينة (ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١٩٤/٥) .

(٨٠) (الإغتلام) الارتفاع ومجاوزة الحد المعهود ، ولعل المقصود به شدة اضطراب البحر وعلو موجه (انظر : الجزرى ، النهاية فى غريب الأثر ، جـ٣٨٢/٣) .

(٨١) البخارى ، الأدب المفرد ، ص ٤٠٨ .

(٨٢) انظر : أرشيبالد ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٨٨ .

(٨٣) انظر : المقريزى ، الخطط ، جـ١٦٦/١ .

(٨٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١٨/٣ .

(٨٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ٢٧٢/٥٢ .

(٨٦) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٢٠

(٨٧) انظر : نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ص ٣٧٠ – ٣٨٢ .

(٨٨) ارشيبالد ، القوى البحرية والتجارية فى حوض المتوسط ، ٩٢ ، السيد عبد العزيز سالم والسيد الباز العرينى ، البحرية الإسلامية جـ١/٦ .

(٨٩) رتشارد أ. ساليفان ، ورثة الإمبراطورية الرومانية ص ٧٠ .

(٩٠) ستيفن رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ١٧٦ .

(٩١) نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ٣٤١ .

(٩٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ / ١٦٧ ، سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ص٧٧ ، نخبة من الباحثين ، تاريخ البحرية المصرية ، ص٢٨١ ، السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية ، ص ١٤١ .

(٩٣) تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص ٨٩ .

(٩٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٣ ، عمر تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص٩٢ .

(٩٥) نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ص٣٥٧ .

(٩٦) تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص ١٠١ .

(٩٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٦٢ .

(٩٨) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٥٨٨ ، وانظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٤٨ .

(٩٩) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٤/١٢٢ .

(١٠٠) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢/١٢٢ .

(١٠١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٦٢ .

(١٠٢) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/١٤٨ .

(١٠٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٢٣ .

(١٠٤) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٨ .

(١٠٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

(١٠٦) انظر الذهبى ، سير أعلام البنلاء ، جـ١/٥٥ ، جـ٢ /١٨٨ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/٥٢٥ .

(١٠٧) انظر : السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، ص ٢٦ .

(١٠٨) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٤/٣٠٥ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٦٥ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٣٢ ، العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ص٨٠.

(١٠٩) العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٢ .

(١١٠) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٠٠ .

(١١١) لمعرفة بعض أسماء الصحابة الذين شهدوا هذه الغزوة مع معاوية — رضى الله عنهم — انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ص ١٥٧ ، الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٠٠ .

(١١٢) البخارى ، صحيحه ، جـ٣/١٠٣٠ ، ١٠٦٠ ، مسلم ، صحيحه ، جـ٣/١٥١٨ ، أبو داود ، سننه ، جـ٣/٦ ، ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، جـ١ / ١٥٧ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ ، ابن حجر ، فتح البارى ، جـ١١/٧٨-٧٦.

(١١٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٨ ، الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ / ٦٠٢ .

(١١٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٨ ، الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ / ٦٠٢ .

(١١٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(١١٦) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٨٧ .

(١١٧) نخبة من الأساتذة ، البحرية المصرية ، ص ٢٨٤ ، العدوى ، الأمويون البيزنطيون ، ص٨٩ .

(١١٨) الطبرى ، تاريخه ، جـ٣ /٢٤١ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/٢٢٨ .

(١١٩) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١/٢٢٨ ، البكرى ، معجم ما استعجم جـ٢/٦٨٣ .

(١٢٠) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٣/٧٨ .

(١٢١) ابن المبارك ، الجهاد ، جـ١/١٥٥ .

(١٢٢) انظر : نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ص ٢٨٥ ، السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص١٤٢ العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص٩١.

(١٢٣) الطبرى ، تاريخه ، جـ٣/٢٣٨ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٢٣٧ .

(١٢٤) خليفة بن خياط ، تاريخه ، جـ٢/٢٢٧ ، ٢٢٩ .

(١٢٥) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ /٦٢٠ .

(١٢٦) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٢٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧/٣١٢ .

(١٢٧) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ٣ /٣٤ .

(١٢٨) انظر : العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٩٦ .

(١٢٩) ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ /١٣٧ .

(١٣٠) يرجح البعض أن المعركة كانت بسبب محاولة السيطرة على أماكن الأخشاب الصالحة لصناعة السفن (انظر : السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية جـ١/٦) .

(١٣١) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣/١١٨ .

(١٣٢) نخبة من الأساتذة ، تاريخ البحرية المصرية ، ص ٢٨٨ .

(١٣٣) القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ، ص ٩٢ .

(١٣٤) سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٨٤ .

(١٣٥) السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .

(١٣٦) الإمام أحمد بن حنبل ، جـ٤ /٣٠٣

(١٣٧) الإمام أحمد بن حنبل ، جـ٤/٣٣٥

(١٣٨) البخارى ، صحيحه ، جـ٣/١٠٦٩ .

(١٣٩) كان من أمراء أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - فى حرب المرتدين (الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٢٦٦) .

(١٤٠) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢ ، ٦٠١ .

(١٤١) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٥٩٧ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧/١٥٢ .

(١٤٢) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٥٩٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧/١٥٢ .

(١٤٣) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٧٣ .

(١٤٤) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٠١ .

(١٤٥) العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٧٤ .

(١٤٦) كان من أمراء أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – فى حرب المرتدين (الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٢٦٦) .

(١٤٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨/٧٨ ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، جـ٢/١٧ .

(١٤٨) ابن سعد ، الطبقات ، ٧/٤٠١ .

(١٤٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨/١٤٥ .

(١٥٠) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ٣ /١١٤ .

(١٥١) الطبرى ، تاريخه ، جـ٣/٢٠٧ ، خليفة بن خياط ، تاريخه ، جـ٢/٢١٨ .

(١٥٢) ابن زبر الربعى ، مولد العلماء ووفياتهم ، جـ١/١٥٥ .

(١٥٣) الذهبى ، تذكرة الحفاظ ، جـ١/٤٥ .

(١٥٤) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، جـ٦/٢٤ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٧/٢٢٢.

(١٥٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ .

(١٥٦) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥/٥٠ .

(١٥٧) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، جـ٢/٢٢٥

(١٥٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨/٧٨ .

(١٥٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٢ / ٣٥٥ .

(١٦٠) البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ ص ١٥٩ .

(١٦١) ابن حجر ، الإصابة ، جـ٣ /٣١٩ .

(١٦٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٧ /٤٠١ .

(١٦٣) ابن حبان ، مشاهير علماء الأمصار ، ١/٥٠ .

(١٦٤) ابن زبر الربعي ، مولد العلماء ووفياتهم ، جـ١/١٦٢ .

(١٦٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٧/٤٤٠ .

(١٦٦) الذهبى ، المعين فى طبقات المحدثين ، جـ٢/٣٢

(١٦٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، جـ ص ١٥٩ .

(١٦٨) الذهبى ، تذكرة الحفاظ ، جـ١/٥٢ .

(١٦٩) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٧/٤٤٠ .

(١٧٠) الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٥٩٨.

(١٧١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٨ .

(١٧٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٨ ، وانظر : الطبرى ، تاريخه ، جـ٢/٦٢٠.

(١٧٣) انظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم (ت ٦٣٠هـ) .

- أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى (د. ت .)

- الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٥ .

أرشيبالد : ر. لويس

- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة شفيق غربال ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

الألوسى : محمود شكرى

- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، تحقيق محمد بهجت الأثرى ، ط٣ القاهرة ، ١٣٤٢هـ .

الأنبارى : أبو بكر محمد بن القاسم (ت ٣٢٨هـ)

- شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣م .

البخارى : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (١٩٤ - ٢٥٦هـ)

- صحيح البخارى ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ .

- الأدب المفرد ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ط٣ ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ١٤٠٩هـ .

بردويل : فرنان

- البحر المتوسط فى المجال والتاريخ ، ترجمة يوسف شلب الشام ، ترجمة وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٩٠ .

البكرى : عبد الله بن عبد العزيز الأندلسى (ت ٤٦٧هـ)

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٣هـ .

البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧١هـ) .

- فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ١٣٩٨هـ .

تدمرى : عمر عبد السلام

- تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصور (عصر الصراع العربى البيزنطى والحروب الصليبية) مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩٨هـ .

الترمذى : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ - ٢٧٩هـ)

- الجامع الصحيح (سنن الترمذى) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت لبنان (ب . ت) .

ابن حبان : محمد بن أحمد التميمى البستى (ت ٣٥٤هـ)

- صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٤هـ .

- مشاهير علماء الأمصار ، تحقيق على محمد البجاوى ، دار الجيل ، بيروت ١٤١٢هـ .

ابن حجر : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ)

- الإصابة فى تمييز الصحابة ط ١ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٨هـ .

ابن حنبل : الإمام أبى عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ)

- المسند ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة (د. ت) .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، (ت ٨٠٨هـ)

- المقدمة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٩١هـ .

خليفة بن خياط : بن أبى هبيرة الليثى العصفرى (١٦٠ - ٢٤٠هـ)

- التاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، ط٢ ، دار طيبة ، الرياض ١٤٠٢هـ .

ابن الجزرى : المبارك بن محمد بن عبد الكريم ، أبو السعادات (٦٠٦هـ) .
- النهاية فى غريب الأثر ، تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطباخى ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) .
أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستانى
- سنن أبى داود ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) .
الذهبى : الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٨٣٧هـ)
- سير أعلام النبلاء ، ط١ ، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ، ١٤٠٥هـ .
رنسيمان : ستيفن
- الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، راجعه زكى على ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٣م .
ابن زبر الربعى : محمد بن عبد الله بن احمد
-تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ، تحقيق عبد الله أحمد الحمد ، دار العاصمة ، الرياض ، ١٤١٠هـ .
الزبيدى : محب الدين محمد مرتضى الحسينى (ت ١٢٠٥هـ)
-تاج العروس من جواهر القاموس ، ط١ ، القاهرة ، ١٣٩٦هـ .
سالم : السيد عبد العزيز ، وأحمد مختار العبادى .
- تاريخ البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، الجزء الأول البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، مؤسسة شباب الإسكندرية ، ١٩٧٩م .
ساليفان : رتشارد أ. ساليفان
- ورثة الإمبراطورية الرومانية ، ترجمة جوزيف نسيم ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٥م .
ابن سعد : محمد بن منيع الهاشمى ، مولاهم - كاتب الواقدى - (ت ٢٣٠هـ)
- الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت (ب.ت)

السهيلى : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله

- الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، تعليق طه عبد الرؤوف سعد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٨م .

السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ)

- تاريخ الخلفاء ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٧١م .

شامى : يحيى

- طرفة بن العبد (حياته وشعره) ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٧م .

ابن شبه : أبو زيد عمر بن شبة النميرى البصرى (ت ٢٦٤هـ)

- تاريخ المدينة ، ط١ ، تحقيق محمود شلتوت ، نشر السيد حبيب ، المدينة المنورة ١٣٩٣م .

الصالحى الشامى : محمد بن يوسف (ت ٩٤٢هـ)

- سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد ، تحقيق مجموعة من العلماء ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٤٠٤م .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)

- تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧م .

- جامع البيان فى تفسير القرآن (تفسير الطبرى) ، دار الفكر ، بيروت لبنان ١٤٠٥م .

عبد الرزاق : أبو بكر بن همام الصنعانى .

- المصنف ، تحقيق حبيب عبد الرحمن الأعظمى ، المكتب الإسلامى ، بيروت ١٤٠٣م .

عبد العليم : أنور

- الملاحة البحرية وعلوم البحار عند العرب ، عالم المعرفة ، الكويت ١٣٩٩م .

العدوى : إبراهيم أحمد

- الأمويون والبيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية) ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ١٣٧٢هـ .

العرينى : السيد الباز

- الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٢م .

ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن (٤٩٩- ٥٧١هـ)

- تاريخ دمشق ، مركز التراث ، الأردن ، عمان ١٤١٩هـ .
- تاريخ دمشق ، تراجم النساء ، تحقيق سكينة الشهابى ، ط١ ، دمشق ١٩٨٢م .

على : جواد

- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٨م .

ابن فهد : عمر بن محمد (ت ٨٨٥هـ)

- إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق فهيم شلتوت ، مركز البحث العلمى ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٤هـ .

القرطبى : محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح

- الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق أحمد عبد العليم البردونى ، ط٢ ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٤١١هـ .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ)

- البداية والنهاية ، ط٣ ، مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٨م .
- تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠١هـ .

النسائى : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على (٢١٤ -٣٠٣هـ)

- السنن الكبرى ، تحقيق عبد الغفار البندارى وسيد حسن ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١١هـ .

النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ - ٧٣٣هـ)

- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، دار الكتب الوطنية ، القاهرة (ب. ت).

ابن ماجه : الحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (٢٠٧ - ٢٧٥هـ)

- سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، دار الفكر ، بيروت (د. ت) .

ماهر : سعاد .

- البحرية فى مصر الإسلامية وأثارها الباقية ، دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧م.

ابن المبارك : عبد الله أبو عبد الرحمن الحنظلى مولاهم (ت ١٨١هـ)

- كتاب الجهاد ، تحقيق ، نزيه حماد ، الدار التونسية ، تونس ١٩٧٢م .

مجموعة من العلماء :

- المعجم الوسيط ، إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، طبعته المكتبة الإسلامية ، استانبول (د.ت) .

مسلم : الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى (ت ٢٦١هـ)

- الجامع الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، (د.ت) .

المقريزى : أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ)

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بـ (الخطط المقريزيه) ، دار صادر ، بيروت (د.ت) .

- الجامع الصحيح (صحيح مسلم) ، دار الآفاق ، بيروت (د.ت) .

ابن منظور : محمد بن مكرم بن على (ت ٧١١هـ)

- لسان العرب ، دار صادر ، بيروت (د.ت) .

نخبة من الأساتذة : **المتخصصين بجامعة الإسكندرية .**

- **تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، الإسكندرية ١٩٧٣م .**

ابن هشام : **أبو محمد عبد الملك المعافرى (٢١٣هـ)**

- السيرة النبوية ، **تعليق طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة شقرون ، القاهرة (د. ت).**

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ)

- معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت لبنان (د. ت)

اليعقوبى : أحمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٢هـ)

- تاريخ اليعقوبى ، دار صادر بيروت ١٣٧٩هـ .

المحاولات العربية لفتح القسطنطينية

فى العصر الأموى

د. صلاح حسن العاوور(*)

يمثل ظهور الإسلام نقلة حاسمة فى تاريخ العرب ، إذ حقق لهم وحدتهم السياسية ، وجعل منهم أمة قوية موحدة مرهوبة الجانب ، تغلبت فى عصر الفتوحات زمن الخليفتين الراشدين أبى بكر وعمر على أمم عريقة فى الحضارة ، لها نظمها الإدارية والاقتصادية المنظمة . وأحس العرب بعد أن فتحوا بلادا تطل على البحر المتوسط بضرورة اصطناع سياسة بحرية لمواجهة غارات الروم البحرية ، أصحاب السيطرة البحرية على هذا البحر . ولم يكن الخليفة عمر بن الخطاب يرهب البحر ويخشاه أو يشفق على المسلمين من ركوبه ، كما يزعم البعض ، ولكنه كان بعيد النظر ، سديد الرأى فالعرب كانوا حديثى عهد بما بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط . والعدو الذى يواجهونه هم الروم أو البيزنطيون خصم عنيد متمرس فى شؤونه وثقافته متدرب على ركوبه وخوض مياهه[1] . وكان أن أدرك الخليفة عمر أن العرب فى ذلك الدور المبكر لا يستطيعون مجاراة الروم فى البحر لقلة خبراتهم البحرية[2] .

وقد علل ابن خلدون سبب امتناع العرب فى أوائل العصر الإسلامى من ركوب البحر بقوله[3] : (والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا فى أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والفرنجة لممارستهم أحواله ومزاياهم فى التغلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النوتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت

(*) مدير مركز خان يونس – جامعة القدس المفتوحة .

ممارساتهم البحر وثقافته استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه فأنشأوا فيه السفن والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وامطوها العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس) .

ومن أمثلة القصص والروايات التى نسبت إلى عمر بن الخطاب والتى يفهم منها كراهيته لركوب البحر وتخوفه منه ، ما هو سائد عند جمهور مؤرخى المسلمين من أن العرب لم يكونوا محبين لركوب البحر فى يوم من الأيام . وهذا قول خاطئ إذا ما أخذ على إطلاقه .

والواقع أن عمر كان بما جبل عليه من روية يستهدى المنطق السليم وهو يكبح جماح قواده عن الغزوات التى قد يبدو له فيها ولو نذر يسير من مخاطرة بأرواح المسلمين . ولم يكن سلوكه هذا مقصوراً على الحروب البحرية فحسب ، بل كان كذلك بالنسبة للحروب البرية ، فقد عارض أيضًا من قبل ما عرضه عليه عمرو بن العاص من فتح مصر رغم أن طريق الغزو كان برّا . فعمر من حرصه على سلامة المسلمين كان يخشى أن يتسع نطاق الغزو إلى حدود لا يمكنه الدفاع عنها . وجريًا على السياسة الحميدة التى أنتهجها المسلمون وهى الشورى فى أمور الدولة العليا ، فقد رأى عمر أن يعرف آراء قادة المسلمين فى طلب معاوية غزو قبرص ، وهى غزوة بحرية ، وفيها من المخاطرة ما يستوجب الدرس والروية ، خاصة أنه لم يكن لدى العرب فى ذلك الوقت عدد كاف من السفن ينازلون به الأسطول البيزنطى إذا التقوا به[٤] .

وكان الصراع شديدا بين الدولة الإسلامية الفتية والإمبراطورية البيزنطية العتيدة ، وخاصة عقب فتح الشام ومصر ، فجهز البيزنطيون فى سنة ٢٥هـ — ٦٤٥م حملة بحرية من ثلاثمائة سفينة بأمر الإمبراطور قسطنطنين بن هرقل

« كونستانز الثانى » فى سرية تامة ، واستطاعوا استرجاع ثغر الإسكندرية بقيادة ما نويل .. وكانت مصر آنذاك تحت إمرة مندوب عمرو بن العاص وهو عبد الله ابن سعد أبى سرح . ولكن سرعان ما جهز عمرو عقب عودته للبلاد حملة برية استعاد بها الإسكندرية من أيدى البيزنطيين .

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان فى الواقع مؤسس البحرية الإسلامية إذ فطن إلى أهمية الأسطول البحرى لحماية الثغور ورد هجوم البيزنطيين من البحر(٥) .

وكان أول من قام بغارة بحرية من شواطئ شبه الجزيرة هو عثمان بن العاص الثقفى والى البحرين ، فقد أبحر من عمان فى غارة جريئة على ساحل الهند « تانة » بالقرب من بمباى ، كما اتجه أخوه إلى خور « الديبل » عند مصب نهر السند ، ولما رجع جيش عثمان الثقفى من تانة كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بذلك ، فكتب إليه عمر : (يا أخا ثقيف حملت دودا على عود ، وأنى أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم)(٦) . وأراد العلاء بن الحضرمى خليفته فى ولاية البحرين أن يظهر جرأته وأقدامه فعبر إلى فارس وتوغل فيها بعيدا حتى اصطخر فارس ، وكان ذلك بتحريض من أهل ولايته فجمع لذلك اثنتا عشر ألفا من المسلمين وركب البحر . وعلى الرغم من أن المسلمين عادوا إلى البصرة محملين بالغنائم إلا أن الحملة باءت بالفشل وفقد المسلمون سفنهم التى عبروا بها الخليج إلى فارس . فلما علم الخليفة بأمر تلك الحملة غضب على العلاء غضبا شديدا لأنه قام بها دون إذن منه لذا قرر عزله(٧) .

طلب معاوية بن أبى سفيان إلى عمر بن الخطاب وألح فى أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحرا لقربها منه ، إذ كان يشغل وقتئذ ولاية الشام ، طلب عمر إلى والى مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر وراكبه ، على اعتبار أن مصر من الأمم التى مارست ركوب البحر وعرفت فنونه كما عرفت أخطاره ومخاوفه منذ العهد الفرعونى ، فكتب عمرو يقول : (يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقا

كبيرًا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء ، أن ركد أحزن القلــوب وإن ثــار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة هم فيه كدود على عــود إن مــال غرق وإن نجا برق)[٨] . فلما جاء عمر هذا الكتاب كتب إلى معاوية يمنعـــه مــن ركوب البحر قائلاً : (لا والذى بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبــدًا . إنــا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شئ على الأرض ، يستأذن الله فى كل يــوم وليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فكيف أحمــل الجنــود فــى هــذا الكــافر المستصعب . وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم فإياك أن تعرض وقد تقدمـــت إليك وقد علمت ما لقى العلاء منى ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك)[٩] .

وعلى الرغم من سياسة الحذر والحيطة التى انتهجها عمر فى ركوبه البحــر الأبيض المتوسط فإنه لم يتوان عن تسيير حملة بحرية فى البحـــر الأحمــر ضــد الأحباش ردا على هجماتهم على السواحل الغربية[١٠] .

ففى سنة ٢٠هـــ / ٦٤١م أرسل عمر علقمة بن مجزر فى حملة بحرية عــبر البحر الأحمر إلى الحبشة ليذب عن المسلمين ويدفع عنهم هجمات علـــى الشــاطئ الحبشى وقد استبسل المسلمون فى الحرب .

ولكن هذه الحملة منيت بخسارة جسيمة وغرقت السفن كلها ، وبســـبب هــذه الكوارث المتتابعة صمم الخليفة ألا يقوم بأى عمل بحرى قــائلا : (لا يســألنى الله عز وجل عن ركوب المسلمين البحر أبدا)[١١] .

ومع ذلك فقــد بدأت الملاحة النهرية للمســلمين فى عهد عمـــر ، فالخليفــة أمر عمرو ببناء سفن لتحمل الغلال ومحصولات أخرى إلى المدينة قــائلا : (إن الله قــد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخير والطــعام وقــد ألقى فى روعـــى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتـــح الله عليــهم مصــر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يســيل فى البحـــر

فهو أسهل لما يزيد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد)[١٢] .

ولما تلكأ عمرو فى تنفيذ ما أمر به الخليفة رد عليه عمر قائلاً : (إلى العاص بن العاص فقد بلغنى كتابك ... وأيم الله لتفعلن ... أو لأبعثن من يفعل ذلك)[١٣] .

ويقال إنما دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من قبط مصر فعافاه عمرو من الضرائب مكافأة له ، فشق قناة ملاحية طولها ٦٩ ميلاً تصل بين النيل والبحر الأحمر ، وسميت خليج أمير المؤمنين ، وحينما اجتاحت المجاعة شبه الجزيرة العربية لعبت هذه القناة دوراً هامًا فى نقل القمح من مصر إلى الجزيرة العربية فقد أفرغت عشرون سفينة محملة بمنتجات مصر حمولتها فى ميناء الجار قرب المدينة المنورة ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه حاضرًا مرحبًا بهذه السفن عند وصولها[١٤] .

ولكن حين أراد عمرو بن العاص أن يجعل الإسكندرية حاضرة مصر كتب عمر يقول له : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف . فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم براحلتى حين أقدم إليكم قدمت .

ولعل فى ذكر البحر والفلك التى تجرى فيه بما ينفع الناس فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ما يشعر بأن من العرب من كانوا يعرفون ركوب البحر .

فقد ورد القرآن الكريم ٢٨ آية عن الفلك والبحر والملاحة منها فى سورة النحل ما يؤدى معنى الصيد واستخراج اللؤلؤ ونقل التجارة والركاب : { وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون }[١٥] .

ومنها ما يتعلق بالملاحة الفلكية مثلما جاء فى قولــــه تعــالى : { وعلامــات وبالنجم هم يهتدون }[١٦] .

وفى سورة الأنعام : { وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات الـبر والبحر)[١٧].

كما صور القرآن حال المسافرين فى بحر مضطرب لجى فى ســـورة النــور فى قوله تعالى : { أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج مـــن فوقــه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله لــه نورا فما له من نور)[١٨] .

وقوله تعالى : { مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان }[١٩] .

وقوله سبحانه وتعالى : { ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا مـــن فضله أنه كان بكم رحيما }[٢٠] .

فهذه الآيات الكريمة تشير فيما تشير إليه إلى تسخير البحر وتذليله وجريــــان الفلك فيه بطلب فضل الله كالربح بالتجارة واستيراد محصـــولات الأمــم الأخــرى وغير ذلك من المصالح الدينية والدنيوية ، وهذا كله يتطلب السفر وركوب البحر .

وكذلك جاء ذكر البحر وركوبه فى الأحاديث النبوية فى سبيل نشــر الدعــوة الإسلامية ، فقد روى الجاحظ بن السنى عن الحسين بن على رضى الله عنه عــــن الرسول ﷺ فيما يذكره راكب البحر إلى الجهاد جهاد الكفار قال : { أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا البحر أن يقولوا بسم الله مجراها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيــم وما قدروا الله الحق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويــات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون }[٢١] .

سياسة معاوية البحرية :

يرجع الفضل الأعظم فى إنشاء الأسطول العربى الإسلامى إلى معاوية بـــن أبى سفيان ، عامل الشام فى خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بـــن عفـــان ، الذى فطن إلى أهمية الأساطيل فى الدفاع عن السواحل أثناء قيام أخيه يزيد بغـــزو مدن الساحل فقد تعرض للكثير من المتاعب فى فتح بعض تلك المـــدن كقيســـارية وطرابلس وعسقلان . أما قيسارية فقد عجز عمرو بن العاص عن فتحها ، إذ كـانت تتلقى الإمدادات من البحر ، فتولى معاوية فتحها قسرا فى شوال ١٩هـــ — ٦٤٠م بعد أن كان قد يأس من ذلك .

وأما طرابلس فقد استعصت على المسلمين فى ولاية يزيد بـــن أبـــى ســـفيان لمناعتها ووثاقة تحصيناتها ، وكان فتحها يستلزم حصارا بريا وبحريا قـــد يطـــول أمده كما حدث فى حصار قيسارية الذى دام ما يقرب من سبع سنوات من جمـــادى الأولى سنة ١٣هـــ إلى شوال سنة ٢٠هـــ فاضطر يزيد إلى إرجاء فتـــح طرابلـــس حتى تتوفر لديه الإمكانيات[٣٣] . أما عسقلان فقد فتحها صلحا بعد كيـــد ، وأســـكنها الروابط ووكل بها الحفظة . فلما توفى يزيد بن أبى سفيان فى طاعون عمواس آلـــت ولاية الشام إلى أخيه معاوية الذى كان يشاركه فى فتوحه لمدن الساحل .

أطل المسلمون على مياه البحر المتوسط من شواطئ طويلـــة ، تمتـــد مـــن طرسوس شمالا إلى برقة جنوبا ، وتواجه فى هذه المياه أعداء ألداء ، دأبـــوا علـــى الإغارة على هذه الشواطئ الإسلامية وقض مضاجعهم بها .

أدرك معاوية بثاقب نظره المقومات الضرورية اللازمة لبقاء المســـلمين فـــى حوض هذا البحر ، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله . فالبحر المتوسط يعتبر منذ أقـــدم التاريخ المحور الذى دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى مـــن أجـــل السيطرة والسلطان وكان بقاء الدولة المنتصرة رهنا بسيطرتها على مياه هذا البحـــر وما له من مراكز استراتيجية هامة . فتطلع معاوية إلى أبعاد مخـــالب البـــيزنطيين

التى كانت تتحفز لتنشب مرة أخرى فى شواطئ الشام ، وعمد إلى الاستيلاء على الجزر القريبة من مقر ولايته والتى كانت قواعد للأساطيل البيزنطية ، تخرج منها لتسديد ضرباتها حيثما تشاء إلى أرض المسلمين[٣٣] .

وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام الحجر الأساسى فى صرح العمليات البحرية الأموية فيما بعد ، وفاتحة المجد البحرى الإسلامى على الإطلاق . وتجلت الخطوط الرئيسية لهذا البرنامج البحرى الذى رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص مبينا له شدة خطورة هذا المعقل البيزنطى على سلامة مدن الشام ، إذ جاء فى خطابه : (يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص) ، وختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر طالبا السماح له بغزو هذه الجزيرة فرفض عمر طلبه[٣٤] .

ولكن معاوية لم يكن بالوالى الذى يغمض عينه تماما عن أى خطر يلوح فى الأفق مهددا ولايته وأرض الإسلام . فكتب إلى عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هى عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع القوية ، إذ كانت الخطة التى اتبعت فى الفتوحات على عهد عمر هو أن المسلمين كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث فى شئ منها حدث من قبل العدو ، سربوا إليها الإمداد . فكان هذا الأسلوب المتبع يتطلب العناية بحالة المدن الساحلية لتصبح مهيأة لإقامة الجند الإسلامى ، وتمكنه من الدفاع عنها . ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لإصلاح حال السواحل بما يراه كفيلا لسلامتها[٣٥] .

وامتثل معاوية لما أمره به عمر ، فحصن الثغور الإسلامية وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون بها طوال فصل الصيف ، ويتولون حراستها فى المناظر والأبراج والمناور ، وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القطائع والأخائذ . وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام سلسلة متصلة من التحصينات التى ترابط فيها

حاميات مرابطة تنقسم كل منها إلى عرافات أى مجموعات وكل عرافة تتألف مـــن مائة رجل. وكانت هذه التحصينات مزودة فى أعلاها بمواقيـــد يشـــعلها الحـــراس والقائمون بالدفاع عن الساحل عند اقتراب سفن الأعداء منه ليلاً[٣٦] .

وبهذا حصن معاوية المدن الساحلية وزودها بالقوات المحاربة ، بما يجعلـــها قواعد فى المستقبل تنقل منها الجنود بحرًا إلى أى مكان يشاء . ووضع لهذه المـــدن نظامًا عرف بالرباط وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بـــها الجنـــد والركبـــان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو . واعتنى معاوية بهذا النظام حتـــى أصبـــح جزءًا مرتبطًا أشد الارتباط بالجهاد . حيث اجتـــذب الربـــاط إليـــه كـــل الأتقيـــاء المتحمسين العاملين دائمًا على إعزاز الإسلام ونصرته .

فأصبحت الرباط حصونًا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المنـــاطق المعرضـــة لاغارات الأساطيل البيزنطية ، وملجأ يحتمى بها الأهالى فى المناطق التى يدهمـــها العدو . وقد خصص حاميات فى الرباط لإنذار الأهالى فى المناطق الســـاحلية بـــأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية فى مياه الإقليمية . فكان الحصـــن فى الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ومخازن للأســـلحة والمـــؤن ، وبـــرج للمراقبة . ثم لم يلبث الرباط أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قـــاعدة للـــهجوم وشن الغارات[٣٧] .

ولما قويت شوكة المسلمين بعد ذلك وتوســـعت فتوحاتـــهم وزادت خبرتـــهم بالبحر وفنونه كتب معاوية إلى عثمان يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص .

ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها ، فرد عليه ينهاه عن ذلك كما نهاه عمر بـــن الخطاب من قبل ، ويأمره بتحصين السواحل وشحنها وإقطـــاع مـــن ينزلـــه إياهـــا القطائع ففعل .

وفى بداية خلافة عثمان تغلب البيزنطيون على بعض سواحل الشام ، فقصد لهم معاوية حتى افتتحها ، ثم رمها وشحنها بالمقاتلة ، ومنحهم القطائع[٢٨] .

فتح قبرص سنة ٢٨هـ :

وفى سنة ٢٧هـ أعاد معاوية طلبه موضحًا أهمية البحر مهونًا ركوبه فأذن له عثمان وأوصاه : (فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونًا لك وإلا فلا ، ولا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه)[٢٩] . وقد نفذ معاوية أمر الخليفة وحمل معه امرأته فأخته بنت قرظة وجماعة من الصحابة فيهم أبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى ، وفضالة بن عبيد الأنصارى ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت الذى حمل معه زوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية . وأعدت السفن لنقل القوة العربية على ساحل عكا ، وهناك أقام معاوية بعض الوقت رمم خلاله تحصينات عكا وصور ، ثم أبحرت الحملة إلى قبرص فى ربيع سنة ٢٨هـ ، وكانت هذه الحملة أول غزو للمسلمين فى البحر ، ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها . وما كادت السفن العربية ترسو إلى ساحلها حتى أذعن أهل قبرص بالطاعة للمسلمين ، وبعث حاكمها يطلب الصلح، فصالحه معاوية على جزية سنوية يؤديها له أهلها ، واشترط عليهم أن يلتزموا موقفًا حياديًا فى الصراع العربى البيزنطى ، وأن يبلغوا المسلمين بسير عدوهم من البيزنطيين .

فلما كانت سنة ٣٢هـ أعان أهل قبرص البيزنطيين على الغزو فى البحر بسفن قدموها لهم فغزاهم معاوية فى سنة ٣٣هـ فى خمسمائة سفينة ، وافتتح قبرص فى هذه المرة عنوة ، ثم أقرهم على صلحهم[٣٠] .

وعاد معاوية إلى الشام منتصرًا ، مدونًا أول سطر فى سجل النشاط البحرى الإسلامى وحقق فوزًا باهرًا فى ميدان جديد ، رفع به من روح المسلمين المعنوية ، وأزال ما اتصف به العرب من تهيب لركوب المياه ، واظهر أنهم فى سبيل عزة

الإسلام وأرضه يذللون سائر العقبات . كذلك برهن معاوية بانتصاره علـــى أهـــالى قبرص أن سياسته البحرية قامت على أسس وطيدة لا بد أن يؤتى أكلها ، حيث كـان خضوع قبرص لمطالب معاوية بداية طريق جديد سلكه المسلمون مظفرين .

وهكذا بدأ نشاط بحرى إسلامى اتسم بطابع الغارات سنويا ، صيفـــا وشـــتاءا «الصوائف والشواتى » على الجزر البيزنطية ، التى يخشى خطرها ، أو التى قـــد ينبعث منها ضرر يحيط بأرض الإسلام . وأثبت المسلمون فى هذه المرحلة المبكـرة من تاريخهم البحرى فهما جيدا لطبيعة الجزر البيزنطيـــة فـــى البحـــر المتوســط الشرقى، إذا رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به مـــن مراكـــز اســتراتيجية هامة، ولشل حركات البيزنطيين البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولذا سارت الغارات الإسلامية على هذه الجـــزر وفـــق خطـــوات منظمـــة مرسومة تهدف أولا إلى تأمين سلامة البلاد الإسلامية من الجزر القريبـــة مباشـــرة من أراضيهم ، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التى تتحكم فى أكبر عـــدد مـــن المضايق البحرية لسد الطريق فى وجه الأساطيل البيزنطية . وأظهر أمراء البحـــار المسلمون فى سبيل تنفيذ هذه الأهداف من المهارة والجلد ما رفعهم إلـــى مصـــاف كبار رجال البحار الذين عرفهم التاريخ .

وقد استرعى نظر المسلمين أثناء إغارتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعـــى أرواد بالقرب من ساحل الشام بين مدينة جبلة وطرابلس وكـــان أهلـــها يحـــترفون القرصنة . وكان أن عقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيـــرة بالاستيلاء عليها وأعد حملة لمهاجمتها سنة ٢٩هـــ أى فى العام التالى لعودته مـــن جزيرة قبـــرص بعد إغارته الأولى عليهـــا . واســـتطاع المســلمون أن يـــنزلوا بأرض الجزيرة ، ولكن رفض الأهالى الإذعان لهم والتسليم ، واعتصمـــوا بقلعـــة

الجزيرة . وهكذا عاد المسلمون إلى دمشق مصممين على تأديب أهالى هذه الجزيرة فى العام التالى .

وفى العام التالى هاجم المسلمون جزيـــرة أرواد بقـــوة كبـيرة ، وأحرقـــوا العاصمة وقلعتها ، وألزموا جميع أهاليها بإخلاء الجزيرة تماما جزاءا على عنـــادهم الذى تجلى فى مقاومتهم الشديدة فى المرة السابقة . ولم يكن فى هذا التصرف الـــذى اتخذه المسلمون شئ من التعسف ، وإنما جاء وليد بعد نظرهم وفهمهم لطبيعة سكان هذه الجزيرة ، ووسائلهم التى اعتمدوا عليها لإنهاك مهاجميهم . فكان أهـــالى أرواد يتجنبون دائما الهزائم القاصمة ، ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام بالمياه حتى يزول الخطر المحيق بهم ، ولذا قضى المسلمون نهائيا على هذه الجزيرة ومنعتـــها ، وأمنوا ما قد يجيش بنفوس أهاليها من عدوان ، ولا سيما بعد أن كشفوا القناع عـــن نواياهم فى وضوح وجلاء[٣١] .

إعادة فتح قبرص عام ٣٣هـ / ٦٥٣ – ٦٥٤م :

وفى عام ٣٣هـ / ٦٥٣م قام المسلمون بـــهجوم ثـــان علـــى قـــبرص لأن القبارصة لم يرعوا شروط الصلح التى فرضها معاوية ، وكانت تهمتهم أنهم أعاروا الإمبراطور سفنا ، فخرج إليهم أسطول إسلامى يتكون من خمسمائة ســـفينة تحـــت إمرة أبى الأعور ، ولكن السكان عندما سمعوا بهذا النبأ اعتصموا بالتلال ، وبقـــى أبو الأعور أربعين يوما فى كونستانتيا حتى أذعن له الأهالى ووعدهم أن يؤمنـــــهم على حياتهم ، وعاد إلى سوريا ومعه الغنائم الوفيرة بعد أن ترك وراءه قـــوة مـــن أثنى عشر ألـــف رجل فى مدينة شيدت لهم خصيصا وثبت شروط الجزيـــة التـــى فرضت عليهم فى المرة الأولى وقد شيد المساجد فى هذه الجزيرة[٣٢] .

فتح رودس سنة ٣٣هـ / ٦٥٣ – ٦٥٤م :

وفى سنة ٣٣هـ / ٦٥٣ – ٦٥٤م اتجه الأسطول الإسلامى نحو رودس أهم جزر بحر إيجه ، وأعلاها مكانة فى الدولة البيزنطية من حيث نشاطها البحـــرى ،

وحركة صناعة السفن بها . فهذه الجزيرة أول حلقة فى سلسلة أرخبيل بحر إيجة من ناحية الشرق ، وتمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى على بعد أثنى عشر ميلا تقريبا من الساحل لآسيا الصغرى . وأهلها هذا الموقع لأن تكون خطرا جاثما على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى ، وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور الشامية .

وكانت هذه الحملة تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدى ، الذى استطاع أن يستولى على الجزيرة عنوة ، وأسس المسلمون فيها رباطا لهم يدافعون منه عن الشام ، وأمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة ، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها وبلغ من اهتمامه بحماية رودس أنه كان يجدد أفرادها دائما ، ويسحب الذين قضوا بالجزيرة مدة طويلة ليبقى على بأس الحامية وقوتها . وآثر معاوية أن يحيط المسلمين فى رودس بالجو الإسلامى الدينى ، ويعلى راية الإسلام بين سائر أهاليها ، فأرسل إليها فقيها يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن ويفقههم فى الدين .

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجة وسد منافذه الرئيسية فى وجه السفن البيزنطية ، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين . وعمل على تحقيق ذلك بالاستيلاء على جزيرة إقريطش (كريت) ، إذ تسيطر هذه الجزيرة تماما على بحر إيجه ، الذى يشبه طرفه الجنوبى فوهة قربة تمتد اقريطش عبرها بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلا ، وتقسم الجزيرة هذه الفتحة إلى مدخلين تتحكم فى كل منهما . وأرسل معاوية جنادة الذى استولى على رودس لفتح هذه الجزيرة الهامة ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لمهاجمة الشام. على أن جنادة لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها[٣٣] .

ونستطيع القول أن هذه الحملات دعمت سيادة العرب على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط . فقد أدرك الإمبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة أن الأسطول الإسلامى صار قوة عظيمة فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن دولة الروم لن تستطيع بعد الآن إخراج العرب من الديار التى حلوا بها على شاطئ هذا البحر ، فصرفوا النظر نهائيًا عن فكرة استرداد البلاد التى كانت تابعة لهم من يد العرب ، وفضلوا الاعتراف بالأمر الواقع .

معركة ذات الصوارى ٣٤هـ / ٦٥٥م :

كان النجاح البحرى الذى حققه المسلمون فى قبرص ورودس وكريت وأرواد حافزًا شجع معاوية بن أبى سفيان على توسيع خططه البحرية لتأمين أرض الدولة الإسلامية وإزاحة أى شبح بيزنطى يحتمل أن يهدد أمنها .

فاتجه نظره إلى القسطنطينية المحرك الذى يدير شؤون الدفاع البحرى عن الجزر البيزنطية فى البحر المتوسط فهى الرأس المدبر للتنظيم البحرى للدولة البيزنطية .

وأدرك المسلمون ألا استقرار لفتوحاتهم إلا بالاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وإدخالها فى حظيرة الإسلام ، كما تم لهم من قبل الاستيلاء على المدائن عاصمة الدولة الفارسية .

وانقسمت الإدارة البيزنطية البحرية إلى قسمين لكل منهما اختصاصاته ، ومظاهر تعاونه مع بعضها البعض بما يكفل صد أى عدوان يقع على أراضى الدولة البيزنطية . فكان هناك نوعان من الأساطيل التابعة للإدارة البحرية البيزنطية، الأولى أساطيل تابعة للأقاليم والمقاطعات التى تنتظمها الدولة البيزنطية، والثانية أساطيل خاصة بالعاصمة نفسها .

وكان التعاون بين الأسطولين البيزنطيين إبان غارات معاوية البحرية غير وثيق لفساد الأحوال فى العاصمة البيزنطية ، وامتلائها بالمؤامرات والدسائس ولكن ما كاد الإمبراطور قنسطانز الثانى ينفرد بالعرش ويبلغ سن الرشد ، حتى عمد إلى مقاومة نشاط معاوية البحرى[٣٤] ، فعمل على بث روح الحياة والنشاط فى أسطول العاصمة لشد أزر أساطيل الولايات ، استعداداً لمناهضة حركات معاوية المقبلة .

وكان معاوية على رأس القوات البرية المتجهة إلى مدينة قيصرية فى قبادوقيا فى آسيا الصغرى . أما الأسطول الإسلامى المكون من سفن شامية ومصرية فكان بقيادة عبد الله بن أبى السرح الذى ألقى مرساه بالقرب من ساحل ليكيا عند فوينكس حيث بلغه هناك نبأ اقتراب أسطول بيزنطى على رأسه الإمبراطور نفسه يهدف صد تقدمه .

ودلت استعدادات الأسطول البيزنطى على أن قنسطانز الثانى صمم على وضع حد لاتساع الفتوحات الإسلامية وكسر شوكتها نهائيًا ، على حين دلت المجهودات التى بذلها معاوية فى إعداد أساطيله على صدق عزيمة المسلمين فى الجهاد أرض الإسلام ، وإظهار التعاون الوثيق بين قوات مصر والشام البحرية فى هذه المرحلة المبكرة من دخولها فى حظيرة الإسلام[٣٥] .

والتقى الجمعان فى البحر وكانت الرياح غير ملائمة فقضى المسلمون والبيزنطيون ليلتهما انتظاراً لما يسفر عنه الصباح ، وأخذًا يستعدان فيها ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات المسلمون ليلتهم يصلون ويدعون الله على حين قضى البيزنطيون ليلتهم يضربون بالنواقيس . وفى صبيحة اليوم التالى دارت المعركة .

وقد هال المسلمين منظر البحر الذى امتلأ سفنا بيزنطية . ويروى الطبرى رواية على لسان مالك بن أوس بن الحدثان أحد رجال المسلمين قال[٣٦] : (كنت معهم فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا

فأرسينا ساعة ، وأرسوا قريبًا منا ، وسكنت الريح عنا فقلنا : الأمن بيننا وبينكم . قالوا : ذلك لكم ولنا منكم ، ثم قلنا : إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر . قال : فنخروا نخرة واحدة ، وقالوا : الماء فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم فقاتلنا أشد القتال ، ووثب الرجال على الرجال يضربون بالسيوف على السفن ويتواجئون بالخناجر ، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما) .

وهكذا اشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم فى معركة عنيفة ، بعد أن ربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض وحولوا المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية وقام عبد الله بن سعد بصف المسلمين على نواحى السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ، ويأمرهم بالصبر والثبات فكان القتال شديدًا ، وقتل من الجانبين أعدادًا هائلة وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين ، ولم ينج من الروم إلا من تمكن من الهرب[٣٧] .

(وأقام عبد الله بذات الصوارى أياما بعد هزيمة القوم ، ثم أقبل راجعًا)[٣٨].

وبهذا الانتصار الرائع ثبتت للمسلمين السيطرة على حوض البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين ، ويعتبر هذا الانتصار حدًا فاصلاً فى تاريخ البحر المتوسط ، ذلك أن قنسطانز كان يرمى إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية فى مهدها، ولو أنه وفق فى ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقى على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين[٣٩] .

غير أن معاوية لم يفد من هذا النصر الذى أحرزه فى متابعة الغزو البحرى ، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥هـ ، ومناوءة على بن أى طالب من أجل الظفر بالخلافة عن مواجهة البيزنطيين ، أما هؤلاء فقد اغتنموا ذلك لتدعيم جبهتهم ، ثم وجهوا هجوما عاتيا على سواحل الشام فى سنة ٤٩هـ . ويبدو أن

البيزنطيين سببوا بهذا الهجوم خسائر كبيرة للمسلمين حملت معاوية على إقامة دار لصناعة الأسطول فى عكا ، لتنتج له سفناً بدلاً من الاعتماد على دار صناعة مصر وحدها ، فأمر بجمع الصناع والنجارين فجمعوا .ورتبهم على السواحل ، وظلت عكا دار الصناعة فى الشام إلى أن نقلت فى زمن بنى مروان إلى صور[٤٠].

ومنذ أن أسست دار الصناعة بعكا حتى أخذ المسلمون يشكلون خطرًا متزايدًا على البيزنطيين ، فقد استعمل معاوية على البحر القائد العربى عبد الله بن قيس الذى غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة .

والجدير بالذكر أن هذه الموقعة قد دارت بالقرب من ساحل ليكيا ، والسبب الذى دعا المسلمين إلى الاقتراب من هذا الساحل بآسيا الصغرى أن المسلمين كانوا يسعون إلى الحصول على مصدر جديد للأخشاب الجيدة اللازمة لصناعة السفن ، مثل خشب البلوط الصلد اللازم لصناعة الصوارى والقرايا والأقواس ، وخشب التنوب الكليكى الذى ينمو فى آسيا الصغرى ، والعرعر الشبيه بشجر الأرز ، ونستدل على هذا الرأى بأن كلمة ذات الصوارى لم تطلق نسبة إلى كثرة صوارى السفن ، كما يزعم فريق من المؤرخين المسلمين[٤١] ، ولكن نسبة إلى موضع بهذا الاسم استنتاجًا من قول الطبرى[٤٢] : (فركب فى مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصوارى ، فلقوا جموع الروم فى خمسمائة مركب أو ستمائة) ، وقوله أيضًا : (وأقام عبد الله بذات الصوارى أياما بعد هزيمة القوم) ، ولا يمكن أن يسمى موضع بهذا الاسم إلا لكونه مصدراً لأخشاب تصنع منها الصوارى .

ومن هذا الوقت لم تتعرض قوة المسلمين لأى تهديد خطير وأصبحت مصر والشام فى مأمن من هجمات الروم ولو أن بعض المدن الساحلية ما فتئت تتعرض لغارات فردية لم يكن لها تأثير على الوضع العام للمسلمين .

محاولات الأمويين فتح القسطنطينية

المحاولة الأولى لفتح القسطنطينية (٥٤ – ٦٠هـ / ٦٧٣ – ٦٧٩م) :

لم ينتهز معاوية فرصة النصر في معركة ذات الصواري ويهاجم القسطنطينية لأن أسطول المسلمين منى بخسائر لا يستهان بها ، ولذلك نبذ فكرة حملة القسطنطينية ذاك العام ، وفي ساعة النصر الحيوية قتل الخليفة عثمان ، وصاحب ذلك قلاقل داخلية ورأى معاوية أنه من الأفضل عقد هدنة مع الامبراطور قنسطانز الثاني سنة ٣٨هـ / ٦٥٩م وتعهد فيها معاوية بأن يدفع مائة ألف دينار . ولكن سرعان ما رفض المسلمون دفع هذه الإتاوة بعد ذلك ، مما أدى إلى فتح الطريق أمام حملات جديدة أمكن للقوة البحرية الإسلامية أن تلعب دورها فيها[٤٣] .

والواقع أن فتح القسطنطينية كان هدفًا ترنو إليه أفئدة المسلمين ، إذ كانت هذه المدينة حاضرة البحر المتوسط الكبرى ومركزًا للتجارة وسوقًا ودارًا للمقاصة لجزء كبير من العالم المتحضر ، وقد بشر الرسول ﷺ بفتح القسطنطينية وأخبر أن الله سبحانه وتعالى سيغفر الذنوب جميعًا لجنود أول جيش يحاصرها ويفتحها ، فقال ﷺ : (أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم)[٤٤] .

وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يضرب ضربة قوية يقسم بها ظهر الامبراطورية البيزنطية وذلك بالاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية وخيل إليه أن سقوط العاصمة سيجعل الإمبراطورية كلها تخر له كما خرت من قبل إمبراطورية الفرس بعد سقوط عاصمتها المدائن . ولم يكن ثمة ما يتوقع معاوية من أجله الفشل فقد اختبر المسلمون قوة بيزنطة في الميادين المختلفة وجمع الخليفة المعلومات الكافية عن تحصينات المدينة ومواطن الضعف فيها وأعد لهذا الأمر الجليل عدته .

وكان أن وجه معاوية عنايته إلى الأسطول فأكثر من دور صناعة السفن في الشواطئ السورية والمصرية فتضاعف إنتاج السفن وبلغ عددها في أيامه ألفًا

وسبعمائة سفينة ذوات أحجام مختلفة وبعد أن تم تجهيز الجيش أخذ يشن على الـروم حربا شعواء رتب فيها الشواتي والصوائف حتى لا يترك للبـيزنطيين فـترة مـن الزمن يريحون فيها جندهم وتيسيرا لذلك الصدام المستمر نقل ميدان تجهيز الجنـد من الجابية إلى معسكر دابق القريب من الحدود .

ومهد معاوية للحروب التى خاضتها قواته البحرية والبرية حول القسـطنطينية نفسها فيما بين عامى ٥٤ — ٦٠هـ بحملات استطلاعية بريـة وبحريـة متتابعـة بقصد دراسة الطرق المؤدية إلى الحاضرة البيزنطية .

ففى سنة ٤٩هـ أرسل حملة برية لغزو القسطنطينية بقيادة سفيان بن عـوف ثم أردف به ابنه يزيد بعد ما أصاب المسلمين جوع ومرض شديد وقد اشرك فـى هذه الحملة تحت قيادة يزيد بن معاوية كبار الصحابة مثل ابن عباس وابـن عمـر وابن الزبير وأبا أيوب الأنصارى .

فأوغلت الحملة فى بلاد الروم حتى بلغ المسلمون القسطنطينية واشتبكوا مـع البيزنطيين فى قتال عنيف وتفانى المسلمون فى القتال ، واستشهد من أبناء الصحابـة عبد العزيز بن زرارة الكلابى فلما بلغ خبر استشهاده معاوية قال : والله هلك فتـى العرب[٤٥] . وفى هذه الواقعة توفى أبو أيوب الأنصارى وهو يحاصر القسـطنطينية فدفن بالقرب من سورها ، وعاد يزيد بعد ذلك مع جيشه إلى الشام فى نفس العام .

لقد أصبح قبر أبى أيوب الأنصارى مثار قصص وأشعار تدعـو المسـلمين لمعاودة الحصار وفتح القسطنطينية حتى لا يبقى البطل أبو أيوب وحيدا فى مدفنـه بتلك البقاع[٤٦] .

فمعاوية منذ أن كان واليا كان يحلم بفتح القسطنطينية ولمـا تولـى منصـب الخلافة أراد أن يضع هذا الحلم موضع التحقيق لذلك بدأ بالعمل من حيث انتهى قبل عشرة سنوات حين اضطر لعقد صلح مع البيزنطيين ، وكما رأينا فقد احتل العـرب

آنذاك قبرص ورودس وكيوس خلال الفترة الأولى من معاركهم البحرية مع بيزنطة، وبعد أن تسلم معاوية الخلافة أكمل احتلال هذه السلسلة من الجزر الموصلة إلى القسطنطينية باحتلال جزيرة كزيكوس « أرواد » التى تقع بجوار العاصمة البيزنطية مباشرة . وهكذا أصبح للعرب قاعدة للانقضاض على القسطنطينية لا يفصلها عن الهدف إلا مسافة قصيرة . وقبل أن يوجه معاوية الضربة القاضية لبيزنطة ، احتل قسم من أسطوله أزمير وذلك سنة ٥٣هـ / ٦٧٢م كما احتل قسم آخر من هذا الأسطول شواطئ ليسيا وكيليكيا(٤٧) .

واتخذ المسلمون أرواد مقرًا لإدارة حملتهم على القسطنطينية . فكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية ، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين رأس هبدومون التى تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة ، وبين رأس كيكليبيوس الواقعة بالقرب من باب الذهب . واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من شهر إبريل إلى سبتمبر تتخلله مناوشات بين أساطيل وجنود المسلمين والبيزنطيين من الصباح إلى المساء ، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطى المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام .

واستطاعت المدينة أن تصمد أمام الحصار طيلة هذا الوقت لأن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع ملأ خزائنها بالمؤن والعتاد ، وأصلح أسوارها قبل هجوم المسلمين بزمن يسير . على أن المسلمين أظهروا من المثابرة والجد ما أثار قلق سكان القسطنطينية . إذ فى شهر سبتمبر عادت السفن والجند الإسلامى إلى مقرها بجزيرة كزيكوس تقضى بها فصل الشتاء وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة . وبمطلع الربيع عادت السفن الإسلامية محملة بالجند لحصار القسطنطينية برًا وبحرًا على النحو السالف ، وأذاقت حاميات المدينة أشد أنواع الضنك والإرهاق . وقد اقتصرت العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين

على الربيع والصيف فقط طيلة السنوات السبع التى استغرقتها عملية حصار القسطنطينية فى هذه المرة .

وكان البيزنطيون قد جهزوا سفنا مزودة بآلات خاصة تقذف نوعًا من النار لا يطفئها الماء ، وإنما يزيدها اشتعالاً ، واستطاعوا أن يحرقوا كثيرًا من السفن الإسلامية بهذا السلاح الجديد . على أن هذا السلاح لم يثن المسلمين عن عزمهم ، ولم يفت فى عضدهم ، أو يبعث فى نفوسهم القنوط ، إذ تابعوا الحصار كلما تهيأت لهم العوامل الطبيعية من اعتدال المناخ أثناء الربيع والصيف .

وساهم كثير من القادة الأمويين فى إدارة عمليات هذا الحصار ، فخلف القائد عبد الرحمن بن خالد شخصية أخرى كبيرة ، وهو سفيان بن عوف واشترك ولى العهد يزيد بن معاوية فى حصار القسطنطينية كذلك ، حتى أن هذه الشخصيات الهامة ألهبت روح الجند الإسلامى حماسة ، وشجعته على متابعة النضال طيلة السنوات السبع . ولكن فى نهاية تلك الفترة أحس معاوية بن أبى سفيان دنو أجله ، وأن صالح الدولة الإسلامية العام يحتم سحب قواته المرابطة أمام القسطنطينية(٤٨).

ومن ثم دخل معاوية فى مفاوضات مع الدولة البيزنطية تمهيدًا لسحب قواته المحاصرة للقسطنطينية وإعادتها إلى قواعدها بالشام .

وكانت الدولة البيزنطية تتلهف لإنهاء حالة الحرب مع الدولة الإسلامية ، إذ أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا ، من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاء وفطنة . وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموى ، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه . ونجحت مفاوضاته فى عقد صلح بين الطرفين مداه ثلاثون سنة . وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة برًا وبحرًا أمام القسطنطينية تلم شملها للعودة إلى الشام ، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة(٤٩) .

ونستطيع أن نجمل الأسباب التى أدت إلى فشل المسلمين فى فتح القسطنطينية فى عهد معاوية بن أبى سفيان إلى :

استخدام المدافعين عن القسطنطينية النار الإغريقية ذلك السلاح البحرى المرعب الذى لا ينطفئ بملامسته الماء ، فأوقع أضرار جسيمة بسفن الأسطول الإسلامى .

وتحصينات المدينة الطبيعية لا يتيسر التغلب عليها ، وأيضًا الأسوار البرية التى أقيمت فى القرن الخامس الميلادى ، وتكونت من جدار داخلى وآخر خارجي أقوى ما عرف فى الأزمنة الغابرة ، وكانت الأسوار الداخلية على بعد بضع ياردات خلف الأسوار الأمامية ، وأعلى منها حتى يمكن قذف النار الإغريقية من أربع مستويات مختلفة على المحاصرين .

أما أسوار البحر ، فكانت أقل مناعة لعزلتها ، ولكن الأسطول البيزنطى كان يحميها ، ولو أن هذا الأسطول لم يكن متفوقًا على الأسطول الإسلامى إلا أنه كان رابضًا فى مأمن فى القرن الذهبى تحميه السلسلة العظيمة التى مدت عبر المدخل ، لذا لم يقدم المهاجمون على مهاجمة واجهة المدينة من جهة البحر حيث يكونون عرضة من هجوم مضاد من المراكب البيزنطية التى يمكن إرسالها من القرن الذهبى .

إن القسطنطينية لم تكن فى موقع مكشوف بل كان يحميها بحر الأرخبيل وجزائره وخلجانه ، هذا من ناحية ومن ناحية الأخرى حماها بحر مرمرة ومن بعده البحر الأسود . هذا فى حين كانت مراكز القوة العربية البحرية فى مصر وسورية وإفريقية مكشوفة(٥٠) .

هذا بالإضافة إلى أن أسوار القسطنطينية المنيعة وما فوقها من أبراج دأب الروم على حفظها وصيانتها .

وحملات المسلمين فقدت بشكل شبه دائم عنصر المفاجأة ، فسكان شمال بلاد الشام مع أجزاء كبيرة من الجنوب كانوا يدينون بنفس العقيدة التى كانت تدين بها بيزنطة لذلك كانت بيزنطة تعرف دائمًا وبشكل مسبق أخبار الحملات وغاياتها وما لها وما عليها وكانت بيزنطة تملك من المقدرة ما يمكنها من الاستعداد التام قبل وصول الخطر بوقت كاف .

يضاف إلى ذلك ضعف الخطط الإسلامية التى رسمت لفتحها حيث أن المسلمين صرفوا معظم جهدهم من الجهة الآسيوية وكان عليهم أن يقوموا بعزل القسطنطينية من الجهة الأوروبية حتى يمنع عنها العون الأوروبى ، كما فعل آل عثمان فيما بعد.

وقابل هذا الضعف فى الخطط الإسلامية استبسال الروم فى الدفاع عن مدينتهم لأنهم اعتقدوا أن الأمر أصبح بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت فما بعد ذلك الخطر الداهم الذى يكاد ينتزع قلب دولتهم شئ يلهب الحماس ويزيد الحمية خاصة بعد أن وجدوا أنفسهم أمام عدو يعمل لنشر عقيدة تغاير عقيدتهم وليس وراءهم من يستطيع أن يحمى العقيدة المسيحية آنذاك فاتخذت الحرب فى نظرهم صبغة دينية فاستبسلوا فى الدفاع .

هذا كله فضلاً عن عوامل طبيعية ، منها هبوب رياح عاتية على الأسطول الإسلامى أثناء سيره بالقرب من سواحل آسيا الصغرى دمرت عدداً كبيرًا من سفنه وتفشى المرض فى المسلمين المرابطين فى بلاد لم يألفوا الإقامة فى مثل مناخها البارد .

وكان البيزنطيون يملكون ما يلزم لصناعة الأساطيل من أخشاب وحديد وغير ذلك ، واستطاعوا أن يحولوا دون حصول المسلمين على ما يلزمهم منها . لذا جددوا أسطولهم باستمرار .

المحاولة الثانية لفتح القسطنطينية (٩٨ — ٩٩هـ / ٧١٧ — ٧١٨م) :

وبدأ التأهب للحصار الثانى منذ بداية عهد الوليد بن عبد الملك ، الذى تـــابع سياسة تقوية الأسطول الإسلامى وعمل على تنسيق التعاون بيـــن القوتيـــن البريـــة والبحرية وخلق مناخ طيب للعمليات الحربية ضد الإمبراطورية البيزنطية ، واتخـــذ من منطقة الثغور بآسيا الصغرى مجالاً لتدريبات قواته ، كما أنه اهتم بـــالصوائف والشواتى البحرية ليقض مضجع الروم البيزنطيين ويمـــهد للـــهجوم الكبـــير علـــى القسطنطينية[٥١] .

وجعل الوليد هدف تحركاته الحربية الأولى الاستيلاء على المعـــاقل الهامـــة الواقعة فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية فحـــاصر مدينـــة طوانـــة — مفتاح الطريق الهام بين الشام والبسفور والذى تسلكه الجيوش الإسلامية فى طريقـها لمهاجمة القسطنطينية وتمكن من فتحها بعد عامين من الحصار الشديد .

واستمر المسلمون فى شن غاراتهم على مدن آسيا الصغرى فنشروا الذعـــر والخوف فى صفوف الجيش البيزنطى واستولوا على معاقل هامـــة بـــالقرب مـــن البسفور .

ولكن هذه الحملات لم تكن إلا حملات استطلاعية تمهد للزحف الأكبر علـــى القسطنطينية .

وكان أن بدأ المسلمون فى تجهيز جيش عظيم لفتح القسطنطينية بقيادة مســلمة ابن عبد الملك فعلمت بيزنطة بذلك فأوفد الإمبراطور أنسطاس سفارة إلـــى دمشـــق لتتباحث مع الدولة الإسلامية فى شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكنه زود الســـفارة البيزنطية بتعليمات سرية تقضى التجسس على مدى استعداد المســـلمين الحربـــى ، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينية . وكان رئيس هـــذه الســـفارة

رجلاً حصيفًا يدعى دانيال حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره .

ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق شاهدت عظمة المسلمين فى عاصمتهم ، ونشاط الخليفة فى أعداد الجيوش لتوجيهها ضد القسطنطينية ، فعادت السفارة تحمل إلى الإمبراطور البيزنطى صدق عزيمة المسلمين على الجهاد ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة ، ونفذ أنسطاس تعليمات السفارة ، فأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة ، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، ثم ملأ خزائن الإمبراطورية بكميات هائلة من القمح وغيره من الحاجات التى يتطلبها المدافعون عن المدينة ، واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ووضع وسائل الدفاع عليها(٥٢) .

ولكن وفاة الوليد أدت إلى إرجاء إنفاذ الحملة إلى مقصدها .

فلما تولى سليمان الخلافة أخذ يجهز الجيوش للسير إلى القسطنطينية ومهد لذلك بغزوه بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزارى على بلاد الروم فى سنة ٩٧هـ(٥٣) .

وفى العام التالى حشد سليمان قوات كثيفة برية وبحرية وزودها بمقادير هائلة من المؤن والأقوات والسلاح لحرب طويلة الأمد بقيادة أخيه مسلمة وأمره بأن يتوجه إلى القسطنطينية وأن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره .

وترك الخليفة سليمان عاصمته وأقام فى دابق بالقرب من حلب ليكون أقرب إلى ميدان القتال . (فلما نزل دابق أعطى الله عهدًا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية)(٥٤) .

ولما توغل مسلمة فى آسيا الصغرى هابه الروم فاتصل به قائد أرمنى اسمه ليو الأيسورى كان يتطلع للوصول إلى العرش الامبراطورى فاتفق ليو مع مسلمة

على خطة تتيح للمسلمين فتح القسطنطينية وما كاد يصل إلى القسطنطينية حتى غرر بهم وخدعهم بعد أن تحايل على تجريدهم من كل أقواتهم وتوج إمبراطورا على القسطنطينية باسم ليو الثالث الأيسورى فى مارس سنة ٩٨هـ / ٧١٧م .

نصب مسلمة المنجنيق وضرب القسطنطينية بعنف وشدد الضغط عليها وحفر حول معسكره حفيرا عميقا وانتسف المزارع القريبة ومنع الأقوات من التسرب إلى داخل القسطنطينية .

أما الأسطول فقد رابطت قطعه حول المدينة بقيادة سليمان بن معاذ الأنطاكى وتمكن هذا الأسطول الذى بلغ ١٨٠٠ سفينة من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود ولكن عاصفة عاتية حطمت عددا كبيرا من السفن وسلط البيزنطيون نيرانهم اليونانية على الأسطول الإسلامى .

ومع ذلك فقد واصل مسلمة بعناد محاصرة المدينة وشدد الضغط عليها ، (وعمل بيوتا من خشب ، فشتا فيها ، وزرع الناس ... وأكلوا من الزرع فأقام مسلمة بالقسطنطينية قاهرا لأهلها معه وجوه أهل الشام)[٥٥] .

وبرهن المسلمون بهذا الثبات طوال الشتاء القارس أنهم أولو بأس وعزم صادق فى الجهاد ، وأنهم حريصون على رفع راية الإسلام فى كل مكان .

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك من الشام ومصر .

واستخدم المسلمون النفط ، واستعانوا بنوع أشبه بالمدفعية فى حصار القسطنطينية وأبلى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية وحبهم للاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام .

ولكن ما أن حل الشتاء ببرده وثلجه حتى هلك عدد كبير من الجند المسلمين ونفقت معظم الخيول والدواب ، وعدمت الأقوات ، ومات قائد الأسطول الإسلامى

سليمان الانطاكى مما أدى إلى اضطراب فى صفوف البحرية الإسلامية ، وأصاب المسلمين قحط وضنك شديد حتى أكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق ، وكل شئ غير التراب وسليمان مقيم بدابق(٥٦) .

توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك – رحمه الله – والجيش الإسلامى محاصرا القسطنطينية وتولى الخليفة عمر بن عبد العزيز بعده الذى رأى أنه يجب أن يكون هناك فترة هدوء واستقرار لتدعيم الصرح الإسلامى وتنظيم الدولة وتأمين حدودها فأرسل إلى مسلمة فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨م بعد حصار دام سنة كاملة يطلب منه العودة بجيشه وأسطوله إلى الشام ، ووجه إليه خيلا عتاقا وطعاما كثيرا، وحث الناس على معونتهم(٥٧) .

وهكذا عادت الجيوش الإسلامية إلى قواعدها بعد أن أدت رسالتها فى إعزاز دولة الإسلام ، وحملت عاصمة البيزنطيين وأباطرتها على التخلى عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة فى استعادة سالف أراضيهم التى دخلت فى رقعة الإسلام .

* * *

وقد صرفت أحداث الحصار الأموى للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقية ، واعتبروا حماية هذا الإقليم فى المرتبة الثانية بالقياس عن الدفاع عن عاصمتهم . وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية ، حيث جعلوا من شمال إفريقية ركنا هاما من أركان الدولة الإسلامية القوية الأوتاد وأثبت العرب المسلمون للروم أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قبضة البحرية الإسلامية وضرباتها الشديدة .

وترك الخلفاء الأمويون بحملاتهم المتكررة على القسطنطينية سجلا حافلا بجهودهم فى نصرة الإسلام ، وحافزا جعل خلفاءهم من الدولة الإسلامية يتطلعون للاستيلاء على هذه العاصمة . وظلت رسالتهم ماثلة حتى حققها شعب إسلامى فتى،

هم الأتراك العثمانيون بعد انقضاء سبعة قرون تقريبًا على الحملة الأموية الكبرى زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك .

فشرف الله تعالى هذه المدينة بالفتح الإسلامى سنة ١٤٥٣م على يد القائد العثمانى البطل محمد الثانى « الفاتح » لتصبح فيما بعد عاصمة للدولة الإسلامية العثمانية المترامية الأطراف .

مراجع البحث

(١) العبادى ، د. أحمد مختار ، ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ٢جـ ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية سنة ١٩٧١م ، جـ٢ ص١٤ – ١٥

(٢) العبادى : جـ٢ ص١٥

(٣) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : المقدمة ٢جـ ، تحقيق د. على عبد الواحد ، القاهرة ، جـ٢ ص٦٢٨

(٤) ماهر د. سعاد : البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، وزارة الثقافة المصرية، نشر دار الكتاب العربى ، القاهرة سنة ١٩٦٧م ، ص٦٤ .

(٥) عبد العليم ، د. أنور : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، مجلة عالم المعرفة ، إصدار المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت عد ١٣ ، يناير ١٩٧٩م ، ٩١

(٦) البلاذرى ، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) : فتوح البلدان ، القاهرة سنة ١٩٣٢م ، ص٣٧

(٧) البلاذرى : ص٤٦٤

(٨) المقريزى ، تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، ٢جـ ، طبعة بولاق القاهرة سنة ١٢٧٠هـ ، جـ٢ ص١٩٠

(٩) المقريزى ، جـ٢ ص١٩٠

(١٠) ماهر : ص٥٦

(١١) المقريزى ، جـ٢ ص١٩٠

(١٢) ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢١٤هـ) : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة سنة ١٩١١م ، ص١٦٣

(١٣) ابن عبد الحكم : ص١٦٥

(١٤) اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب (ت ٢٨٤هـ) : تاريخ اليعقوبى ، ٢جـ ، دار صادر بيروت لبنان (د. ت) ، جـ٢ ص١٧٧

(١٥) سورة النحل : الآية ١٤

(١٦) سورة النحل : الآية ١٦

(١٧) سورة الأنعام : الآية ٩٧

(١٨) سورة النور : الآية ٤٠

(١٩) سورة الرحمن : الآية ١٩ - ٢٢

(٢٠) سورة الإسراء : الآية ٦٦

(٢١) رواه .

(٢٢) سالم ، د. السيد عبد العزيز : طرابلس الشام فى التاريخ ، الإسكندرية ، سنة ١٩٦٧م ، ص٣٢

(٢٣) العدوى ، د. إبراهيم أحمد : الأمويون والبيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية) ، الدار القومية للطباعة والنشر ط٢ ، القاهرة سنة ١٩٦٣م ، ص٨١

(٢٤) الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) : تاريخ الرسل والملوك ، ١١ج ؛ ط٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٧م ، جـ٤ ص٢٥٨

(٢٥) البلاذرى : ص١٣٤

(٢٦) العبادى : جـ١ ص١٦

(٢٧) العدوى : ص٨٣ - ٨٤

(٢٨) البلاذرى : ص١٥٠

(٢٩) الطبرى : جـ٤ ص٢٦٠

(٣٠) البلاذرى : ص١٨١

(٣١) العدوى : ص٩٤ - ٩٦

(٣٢) البلاذرى : ص١٥٣

(٣٣) البلاذرى : ص٢٢٤

(٣٤) العدوى : ص١٠١

(٣٥) العدوى : ص١٠٣

(٣٦) الطبرى : جـ٤ ص٢٩٠

(٣٧) ابن عبد الحكم : ص٢٥٥ - ٢٥٨

(٣٨) الطبرى : جـ٤ ص٢٩٢

(٣٩) عثمان ، فتحى : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، ٣جـ ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٦٧م ، جـ٢ ص٣٣٨

(٤٠) العبادى : جـ٢ ص١٩

(٤١) انظر ابن عبد الحكم : ص٩٠ ، والكندى : الولاة ، ص١٣ ، والمقريزى : جـ٣ ص١٦٥، وابن تغى : جـ١ ص٨٠

(٤٢) الطبرى : جـ٤ ص٢٩٠

(٤٣) اليعقوبى : جـ٢ ص٢٥٨

(٤٤) صحيح البخارى ، كتاب الجهاد ، باب ٩٣

(٤٥) ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن محمد الشيبانى (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ ، بيروت سنة ١٩٦٥م ، جـ٣ ص٤٥٩

(٤٦) شلبى ، د. أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ٢ ص١١٥

(٤٧) عاقل ، د. نبيه : الإمبراطورية البيزنطية ، دمشق سنة ١٩٧٠م ، ص١١٤ - ١١٥

(٤٨) العدوى : ص١٧٣ — ١٧٤ .

(٤٩) العدوى : ص١٧٥

(٥٠) أرشيبالد ، د. لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ — ١١٠٠م) ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٦٠م ، ص٢١ - ٢٢

(٥١) عواد ، د. محمد أحمد : الجيش والأسطول الإسلامى فى العصر الأموى ، ط١ ، الأدبية للطباعة والنشر ، الخليل سنة ١٩٩٤م ، ص٢٧١

(٥٢) العدوى : ص٢١٥

(٥٣) ابن الأثير : جـ٥ ص٥٣١

(٥٤) الطبرى : جـ٦ ص٥٣١

(٥٥) الطبرى : جـ٦ ص٥٣٠

(٥٦) الطبرى : جـ٦ ص٥٣١

(٥٧) الطبرى : جـ٦ ص٥٥٣

التاريخ السياسى لمدينة أستجة الأندلسية

منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر الدولة الأموية

د. إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا(*)

تقـديم :

أقبل المؤرخون المحدثون على الكتابة فى التاريخ المحلـى لمـدن الأندلـس وأولوه جانبًا كبيرًا من عنايتهم ، دفعهم إلى ذلك – لاسيما الأسبان منهم – شـعورهم بالتفاخر بهذه المدن التى ينتمون إليها ، وكذلك إعجابهم الشديد – خاصة مؤرخـى العرب – بتاريخ هذه المدن فى العصر الإسلامى وحرصهم علـى إبـراز أمجـاد إسلامية تكمن فى هذا التاريخ . ولقد لفت نظرى الدور الهام الـذى لعبتـه مدينـة أستجة الأندلسية منذ الفتح الإسلامى حتى نهايـة عصـر الدولـة الأمويـة علـى الصعيدين السياسى والحضارى . ومع ذلك فلم يوجـه المؤرخـون لـهذه المدينـة العظيمة ما تستحقه من اهتمام ، فلم يفردوا لها بحثًا قائمًا بذاته ، وكل ما كتب عنـها لا يعدو نتفًا متفرقة فى ثنايا الحديث عن تاريخ الأندلس العـام . وهـى كتابـات لا تتناسب مع الدور الهام الذى لعبته أستجة فى تاريخ وحضـارة الأندلـس . ولـهذا خصصت هذا البحث لدراسة تاريخها السياسى خلال تلك الحقبـة المشـار إليـها . وتجدر الإشارة إلى أنه جرت العادة عند الجغرافيين المسلمين فيما يتصل بـالأندلس أن يكتفوا بذكر المدن كناية عن الكور التى هى قواعدها ، رغم ما يسببه ذلك مـن أخطاء واضحة لأن الكورة فى الأندلس – كما سنرى – كانت تضم أكثر من مدينـة كبيرة ، وليست كل مدينة كورة .

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية .

١ – الموقع الجغرافى للكورة والمدينة والأسماء التى سميت بها :

تعتبر كورة أستجة فى قول[١] ، أو إستجة فى قول آخر[٢] ، من أشهر كـــور الأندلس[٣] ، وتقع مدينة أستجة مركز الكورة على مسافة ٣٠ ميلاً جنـــوب غربـــى قرطبة[٤] ، وفى منتصف الطريق على وجه التقريب بين قرطبة وإشبيلية ، وتبلـــغ المسافة ما بين حصن شنت ياله أحد حصون قرطبة إلى أستجة غربًا خمسة عشـــر ميلاً[٥] ؛ كما أن المسافة بينها وبين مرشانة تصل إلى عشرين ميلاً ، وبينها وبيـــن قرمونة خمسة وأربعين ميلاً[٦] ، وتتصل أحوازها بأحواز كورة رية مـــن ناحيتـــها الشمالية الغربية[٧] . ومدينة أستجة من بناء الرومان ، أقيمت على الضفة اليســـرى لنهر شنيل Genil أحد روافد الوادى الكبير[٨] ، وتطل علىالرصيف الأعظم الـــذى شيده الرومان بشبه جزيرة أيبريا Via Augusta[٩] ، وهو الطريق الذى عرف عند العرب بالمحجة العظمى ، وتقع المدينة فى وادى شديد الحـــرارة ، ولذلـــك أطلـــق عليها اسم « مقلاة إسبانيا » El Sarten de Espana[١٠] .

ولقد أطلق مؤسسوها الرومان عليها اسم أستجى Astigi[١١] . وأغلب الظـــن أنها أنشئت فى عصر يوليوس قيصر . ويدعم هذا التخريج أنه كـــان كمـــا يذكـــر الرازى من البناة العظام الذين تنسب إليهم اعمال معماريـــة وإنشـــاءات عمرانيـــة جليلة، فهو الذى أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس ، وزعموا أنه « وجه أربعة مـــن أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحد منهم مدينة فى الجهة التى ولاه عليها وســـماها باسمه وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك »[١٢] ، وهو الذى أمـــر بإنشاء الرصيف الأعظم الذى كان يخترق موسطة الأندلس إلـــى جنوبـــها ، وهـــو الرصيف الذى كانت أستجة تطل عليه[١٣] ، وأخيرا فإن إحدى الأقضيـــة الأربعـــة لولاية باطقة Baetica الرومانية فى شبه الجزيرة الأيبيرية – والتى أصبحت مقـــر أسقفية أستجة القوطية – كانت مستعمرة رومانيـــة تنســـب إليـــه وتســـمى Julia Augusta Firma[١٤] ، أى « بصمة يوليوس قيصر » .

وتشير بعض النصوص العربية إلى أن مدينة أستجة قبل الفتح الإسلامى كانت بلدًا فى غاية الحصانة والمنعة ، إذ كان يطوقها سور مزدوج ، فابن حيان يذكر أن سورها المحيط بها قد عقد بسورين أحدهما صخر أبيض والثانى صخر أحمر بأجمل صنعة وأحكم بناء ، وردم وسوى ، ووضع فى مواضع الشرفات من المرمر صور بنى آدم من كل الجهات تواجه القاصد نحوها فلا يشك الناظر أنها رجال وقوف »[١٥] . وكان ينفتح فى هذا السور عدة أبواب ، احتفظ لنا الحميرى بأسماء بعضها فى العصر الإسلامى ، منها باب القنطرة فى الجانب الشرقى المطل على نهر شنيل ، وباب أشونة الذى ينفتح فى الركن الجنوبى للسور ، وباب رزق فى الجهة الغربية ، وباب السويقة فى القطاع الشمالى من السور[١٦] ، ولعله سمى بذلك لوجود سوق صغير بجواره . ويذكر أحد الدارسين أن من أبواب أستجة أيضًا باب رضى ، غير أنه لا يعرف من هو هذا الرضى[١٧] . ولعل هذا الباب هو باب رزق الذى ذكره الحميرى . ويبدو أن الرومان والقوط أمهروا أستجة بكثير من المنشآت المعمارية ، غير أن أغلبها اندثر وعاثت بها حوادث الأزمان ، فالحميرى يذكر « وباستجة آثار كثيرة ورسوم تحت الأرض موجودة »[١٨] . ومع ذلك فقد تبقت بعض هذه الآثار حتى العصر الإسلامى مثل سورها المنيع ، وكنائسها[١٩] ، وأديرتها العديدة[٢٠] ، وقنطرة نهر شنيل[٢١] .

وتجدر الإشارة إلى أن عامة الأندلس كانوا ينطقون اسم المدينة تارة أسجة (بفتح الهمزة وتشديد السين)[٢٢] . وإسجة (بكسر الهمزة والسين) تارة أخرى[٢٣]. والصواب كما يذكر ابن هشام اللخمى أستجة (بفتح الهمزة وسكون السين وكسر التاء المثناة بعدها وفتح الجيم)[٢٤] . ويلاحظ أن التسمية العربية الصحيحة لاسم المدينة توافق اسمها القديم الذى أطلقه عليها الرومان (أستجى Astigi) . فى حين أن الرسم الإسبانى الحالى لاسم المدينة Ecija يطابق نطق العامة فى العصر الإسلامى[٢٥] . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى تأثير الألفاظ

الأعجمية التى دخلت لغة العامة فى الأندلس عن طريق جيرانهم أصحاب اللغتين القشتاليةِ والبربرية[٢٦] . ومن المرجح أن كلاً الرسمين كان متداولاً على ألسنة الخاصة حتى أواخر العصر الإسلامى فى الأندلس . ويؤيد ذلك أن ابن حيان وابن الخطيب استعملاهما فى كتاباتهما عن المدينة ، فتارة يذكرانها أستجة ، وتارة أخرى يرسمانها أسجة[٢٧] . ومعنى اسم أستجة عند سكان شبه الجزيرة الأيبيرية « جمعت الفوائد »[٢٨] . ولعل مرجع ذلك ثراؤها وتنوع مصادر ثروتها الاقتصادية وكثرة مرافقها[٢٩] ، أو لأنها جمعت فوائد البر والبحر ، فقد كانت واسعة العمران منفسحة البطحاء ، كما أنها كانت تطل على نهر شنيل[٣٠] ، الذى كان صالحًا للملاحة فىقسمه الواقع أسفلها[٣١].

ونستدل من النصوص القليلة الواردة فى المصادر العربية وتتعلق بتاريخها السابق على الفتح الإسلامى ، أن أهلها كانوا يميلون دائمًا إلى إثارة الشغب والإنحراف عن الحكام وشق عصا الطاعة وإعلان العصيان والثورة عليهم . ويبدو أن هذا الاتجاه لم يكن قاصرًا على تاريخها القديم ، بل استمر سمة واضحة فى تاريخها الإسلامى ولذلك وصف الحميرى أهلها بقوله « لم يزل أهلها فى جاهلية وإسلام على انحراف وخروج عن الطاعة »[٣٢] .

٢ – الفتح الإسلامى لأستجة :

تتفق الروايات التاريخية على أن لذريق Rodrigo ملك إسبانيا كان مشغولاً بإخماد ثورة قام بها البشكنس Vascos سكان نبرة فى أقصى شمال البلاد[٣٣] . فى الوقت الذى عبرت فيه قوى المسلمين الزقاق ونزلت فى شعبان ٩٢هـ / يونيو ٧١١م ، بقيادة طارق بن زياد بالساحل الجنوبى لشبه الجزيرة الأيبيرية عند جبل كالبى الذى عرف منذ ذلك الحين بجبل طارق Gibraltar[٣٤] ، وتمكنت من السيطرة على حصن قرطاجنة الذى يقع بسفحه[٣٥] ، والجزيرة الخضراء التى اتخذها طارق بن زياد قاعدة عسكرية لحماية جنده فى حالة الانسحاب[٣٦] . ولما

بلغت لذريق هذه الأخبار ترك نبرة وبادر بالزحف جنوبا إلى قرطبة ، وحشد قوات كثيفة العدد ومعدات هائلة لملاقاة المسلمين ، ودارت بين الجيشين معركة ضارية على وادى لكة Guadalete من كورة شذونة استغرقت ثمانية أيام (٢٨ رمضان - ٥ شوال ٩٢هـ / ٢٦ يوليو ٧١١م) وانتهت بانتصار حاسم للمسلمين ، بعد أن مزقوا شمل جيش القوط ، واختفى لذريق من أرض المعركة ، وفرت جموع كثيرة من قواته ولاذت بمدينة أستجة(٣٧) . عندئذ تقدم طارق واستولى على معسكر لذريق وغنم غنائم كثيرة يصعب تقديرها ، فجمعها وأخرج خمس بيت المال ، ثم قسم الباقى على جنده ، فامتلأت بها أيديهم(٣٨) ، فلما بلغ أهل العدوة المغربية خبر هذا الانتصار وسعة المغانم تدفقت جموعهم إلى الأندلس « وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق »(٣٩) .

تضخم جيش طارق بمن انضم إليه من المجاهدين والمغامرين العرب والبربر من أهل العدوة المغربية ، وتقدم إلى مضيق الجزيرة ، ثم تحرك إلى مدينة أستجة(٤٠) . ولعل طارق استخدم الجادة الرومانية القديمة التى كانت تخرج من قادش وتمر بإشبيلية واستجة ثم قرطبة وهذا يفسر سرعة وصوله إلى أستجة على ظهور الخيل التى غنمها من القوط بعد انتصاره عليهم فى وادى لكة(٤١) . ومما يؤيد هذا التخريج أن اجتياز مضيق الجزيرة كان يشكل فى حد ذاته خطرا كبيرا على قوات المسلمين ، كما أن أستجة كانت تقع على مسافة ١٦٠كم من مخرج هذا المضيق(٤٢) . ويبدو أن السبب السريع وراء تحرك المسلمين السريع نحو أستجة ، أنها أصبحت تؤلف مركز مقاومة القوط الأول بعد هزيمتهم فى وادى لكة ، فقد بلغ طارق بن زياد عن طريق العيون والجواسيس أن عددا عظيما من فلول القوط قد تحصن فيها ، فخشى أن تصبح أستجة مركزا للمقاومة القوطية ويستفحل أمرهم ويحاولون رد قواته مما يعرض جيشه للخطر ويعرقل تقدم مسيرته الظافرة .

التحمت قوات المسلمين مع حشود القوط التى تجمعت فى أستجة ، دارت معركة عنيفة أبلى فيها القوط بلاء حسنًا وتفانوا فى قتال المسلمين وصد هجماتهم ، وتمكنوا فى بداية الأمر من تمزيق صفوفهم ، والفتك بأجنادهم ، ويعلق الرازى على شراسة هذا القتال وكثرة ما تكبده المسلمون فيه من خسائر فادحة فى الأرواح بقوله « ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حربًا مثلها »(٤٣) ، وربما يرجع السبب فى استبسال القوط فى القتال وعظم مقاومتهم إلى أنهم كانوا يعلمون أن هذه المعركة من المعارك الحاسمة التى يمكن أن يتقرر على نتيجتها مصير شبه الجزيرة كلها ، وهذا ما دفعهم إلى الاستماتة فى المقاومة والصمود ، وحول معركة أستجة إلى موقعة حاسمة فى تاريخ الفتح الإسلامى للأندلس ، وتعذر على المسلمين أن يحرزوا فيها نصرًا سهلاً(٤٤) . ويبدو أن طارق أعاد تنظيم قواته وحمل على أهل أستجة والقوط حملة قوية زحزحتهم عن مواقعهم ، فدارت عليهم الدائرة ، وانسحبوا من ساحة المعركة إلى داخل مدينتهم وتحصنوا بأسوارها المنيعة أملاً فى النجاة من بطش المسلمين ، وتنكيلهم برجالهم ، فأقام طارق على حصارهم مدة(٤٥) .

وكان غرور صاحب مدينة أستجة وسوء تدبيره وعدم حرصه على توفير الحماية الكافية لأمنه وسلامته أثناء حصار المسلمين لمدينته ، وراء إذعان أهلها لطارق ونزولهم على أمره . فقد ورد فى بعض المصادر العربية أن صاحب أستجة خرج بمفرده إلى نهر شنيل لقضاء بعض حاجاته والاغتسال ، واتفق أن طارق بن زياد أتى لنفس الحاجة ، فوثب عليه طارق وكان لا يعرفه ، فصرعه وقاده إلى معسكره أسيرًا ، فبقى أهل أستجة بلا أمير ، حتى صالح طارق أميرهم وأطلق سراحه مقابل تسليم المدينة والدخول فى طاعة المسلمين وأداء الجزية لهم(٤٩) . وربما كانت هذه الرواية إحدى القصص الخيالية التى يعمد بعض المؤرخين إلى دسها بين سطور مصنفاتهم تشويقًا للقارئ ، وما أكثر هذه الروايات الخيالية التى ملأت صفحات تاريخ الفتح الإسلامى للأندلس ، وأعتقد أن أهل أستجة هم الذين

التمسوا الصلح من طارق والاستسلام مقابل الحصول على الأمان لأرواحهم وأموالهم . ولقد دخل المسلمون أستجة صلحاً ، وتم ذلك عن طريق عهد يعتبر أول عهد عقد بين المسلمين والمغلوبين فى إسبانيا .

ويذكر بعض المؤرخين المحدثين أن طارق احتاج لمساعدة يليان فى قتال أهل أستجة ، فلم يتردد الأخير فى ذلك وخف إليه مسرعًا(٤٧) . ويبدو أن الأمر اختلط على هؤلاء ففهموا أن مجئ يليان إلى طارق وهو فى أستجة إنما كان بهدف المساعدة فى فتحها ، بينما كان يليان كما ذكر الرازى فى الجزيرة الخضراء عندما فتح طارق أستجة ، ولم يأت إلى أستجة إلا بعد فتحها(٤٨) . وتجدر الإشارة إلى أن سافدرا يسوق خبرًا غريبًا لا يستند فيه على أى مصدر موثوق به ، فقد ذكر أن تدمير Teodomiro صاحب مدينة تدمير وأحد كبار رجال لذريق دخل فى طاعة المسلمين عند نزولهم إسبانيا دون أن يعتنق الإسلام وتعاون معهم ، وقاد جماعة من المسلمين سارت لفتح أستجة(٤٩) . والأرجح أن تدمير الذى كان ينوب عن لذريق فى حكم البلاد أثناء غيابه فى غزو البشكنس ، شارك معه فى معركة وادى لكة ، ولما وقعت الهزيمة على القوط وفر لذريق من أرض المعركة ، كر تدمير عائدا إلى قاعدته بشرق الأندلس لحمايتها من أى هجوم قد يشنه المسلمون ، وظل بها يرقب الأحداث إلى أن توجه إليه عبد العزيز بن موسى فى عام ٩٥هـ / ٧١٤م ، فسلمه بلده صلحا ودخل فى طاعته(٥٠) .

وهكذا فرق المسلمون بقايا قوات القوط ، واستولوا على مدينة أستجة الحصينة مركز المقاومة القوطية العتيدة ، فهبت رياح النصر على المسلمين وانفتحت أمامهم أبواب إسبانيا ، ويغلب على الظن أن عسكر المسلمين أصابهم الإعياء والإرهاق الشديد بعد هذه المعركة ، لاسيما وأنهم كانوا يواصلون المعارك مع فلول القوط وحامياتهم فى مدن الأندلس ولم ينالوا القدر الكافى للراحة منذ نزولهم أرض إسبانيا . ولعل ذلك كان سببا فى نزول طارق على عين ماء من نهر

شنيل على مسافة أربعة أميال من أستجة طلبا للراحة والاستعداد للخطوة التاليـــة ، فسميت العين عين طارق[٥١] . ولقد التبس الأمر على المستشرق الإســباني بــدرو شالميتا فاعتقد خطأ أن طارق بن زياد نزل في هذا المكان قبـــل الاســتيلاء علـــى أستجة ، وظل به شهرا أو أكثر حتى ظفر بصاحبها وأسره[٥٢] .

ولعل نزول المسلمين عند عين طارق بأستجة طلبا للراحة أوعز إلى القـــوط أنهم باقون في بلادهم بعد أن غنموا كل هذه الغنائم وتعمقوا فـــى ســيطرتهم علـــى جنوب الأندلس وأنهم لن يمتثلوا طريف بن مالك في حملته على جزيرة طريـف[٥٣]، وأنهم ينوون مواصلة الزحف للاستيلاء على بقية بلادهم ، « فســـقط فـــى أيديـــهم وتطايروا عن السهول إلى المعاقل ، وصعد ذوو القـــوة منـــهم إلـــى دار مملكتـــهم طليطلة »[٥٤] . وأدرك يليان أن الظروف أصبحت مهيأة أمام المسلمين للاســـتيلاء على معظم قواعد الأندلس التي أخلاها أهلها وفروا عنها إلى المعاقل وإلى طليطلـة، كما يبدو أنه قد شعر بخطورة تجمع رؤساء القوط في عاصمتهم طليطلة . ولذلـــك قدم يليان على طارق من الجزيرة الخضراء حيث كان يقيم منذ فتحها[٥٥] ، وشــجعه على الاستمرار في الفتح ، ونصحه بأن يوزع كتائب من جيشه في بعــوث جانبيـــة يعاونون أدلاء من رجال يليان لفتح أقاليم الجنـــوب والموســطة ، ويمضـــى هـــو بالجيــش الرئيسي إلى طليطلة ليفتحها قبل أن يلتف القـــوط حــول زعيــم جديــد ويحكمون الدفاع عنها ، فيصعب الأمر على طارق بعد ذلك[٥٦] .

ولا نشك في أن طارق كان يخطط لفتـــح مدينـــة قرطبـــة قـــاعدة جنـــوب الأندلس[٥٧] ، إلا أنه امتثل لنصيحة يليان ووضع على الفور خطة القتـــال ، فـــاتخذ من أستجة قاعدة لانطلاق قواته لفتح بلاد الأندلس ، وتوزيع فـــرق مـــن عســـاكره منها، فبعث مغيث الرومي إلى قرطبة ، وبعث فرقة أخرى إلـــى مالقـــة ، وأرســـل فرقة ثالثة إلى إلبيرة ، وسار هو بمعظم قواته من استجة إلى طليطلة – عبر كـــورة جيان Jaen – ونجح في دخولها والاستيلاء عليها[٥٨] . ومما لا شك فيه أن طـــارق

ترك حامية كبيرة العدد من جنده في استجة لحفظها ، نظرا لأهميتها ، وخشية أن ينقلب أهلها ضد الفاتحين الجدد ، أو أن تهاجمها قوة من القوط وتتحصن بها وتتخذها قاعدة لمقاومة المسلمين من جديد ، لاسيما بعد رحيل معظم القوات الإسلامية عنها لفتح بقية أقاليم الأندلس .

٣ – الوضع الإدارى لكورة أستجة :

استكمل موسى بن نصير ومن بعده ابنه عبد العزيز بن موسى فتح بلاد الأندلس[٥٩] .

واهتم ولاة الأندلس بعد موسى بن نصير بتنظيم البلاد إداريا ، فاعتمدوا التقسيم الإدارى القديم الذى كان قائما منذ العصر الرومانى ، مع بعض التعديل الذى استلزمته الظروف السياسية الجديدة وما اضطروا إلى اقتباسه من التنظيمات الإدارية بالمشرق الإسلامى . وكانت أستجة وفقا للتقسيم الإدارى الرومانى الذى عرف بتقسيم قسطنطين فى القسم السادس وقاعدته إشبيلية[٦٠] ، وكان هذا التقسيم يقضى بتجزئة إسبانيا إلى ستة أقسام كل قسم منها يتبعه عدد من المدن التى يتبعها بدورها عدة أقاليم[٦١] . كما كانت أستجة وفق التقسيم الكنسى لإسبانيا زمن القوط مركزا لأسقفية أستجة التابعة لمطرانية باطقة وقاعدتها إشبيلية ، وكان هذا التقسيم الكنسى هو نفسه التقسيم الإدارى[٦٢] . وظل هذا الوضع قائما حتى الفتح الإسلامى، فأخذ الفاتحون هذا التقسيم وأسبغوا عليه طابعا إداريا ، ثم أدخلوا عليه بعض التعديلات التى اقتضتها ظروف الدولة الجديدة .

ففى أعقاب الفتح اعتبر المسلمون الأندلس كله – كما كان فى النظام القديم – مدنا ذات أحواز تابعة للولايات الكبيرة[٦٣] . ورغم ظهور مصطلح الكورة[٦٤] ، لأول مرة فى الأندلس فى عام ١٢٥هـ/٧٥٢م[٦٥] ، وتقسيم جنوب الأندلس إلى كور مجندة ، واعتراف يوسف الفهرى بهذا الوضع القائم حين تقلد إمارة البلاد فى

عام ١٢٩ - ١٣٨هـ ، فإنه - الفهرى - عندما أعاد تنظيم الأندلس إداريا ، قسم البلاد إلى ولايات كما كانت فى التقسيم الرومانى مع إدخال بعض التعديلات على حدودها ، فأصبحت ولاية الأندلس وهى ولاية باطقة القديمة تقع بين نهر وادى يانة والبحر المتوسط ، وكانت أستجة من أشهر قواعد هذه الولاية(٦٦) . واستلزمت الأحوال السياسية للدولة الأموية فى الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل بأن يكتفى المسلمون بوحدات إدارية صغيرة بدلا من الأقسام الرومانية الكبيرة ، فقسموا البلاد إلى كور يتبع كل منها عدد من المدن ، وتتبع كل مدينة أقاليمها وقراها وحصونها(٦٧) . وقد عمم نظام الكور على جميع نواحى الأندلس عدا نواحى الثغور، فقد ظلت حتى نهاية الخلافة الأموية مدنا عسكرية ذات أحواز . وساهمت هذه الوحدات الإدارية الصغيرة فى تبسيط السلم الإدارى ، مما ساعد على ضبط الأمن وربط المال(٦٨) .

وفى ظل هذا التقسيم الإدارى الإسلامى أصبحت أستجة كورة عظيمة من كور الأندلس الغربية(٦٩) ، فقد كانت تشتمل على أقاليم وأراضى واسعة(٧٠) ، حددها الحميرى بخمسة أقاليم(٧١) . ولقد طرأ على حدود كورة أستجة بعض التغيير فى العصر الإسلامى . ولعل سبب ذلك يرجع إلى التعديلات الإدارية التى أدخلها بعض الحكام على التقسيم الإدارى لعدد من كور الأندلس ، لاسيما تلك الكور التى كانت تشتمل على مدن عظيمة وأقاليم كبيرة مثل أستجة . فبعض الجغرافيين يذكرون أن إقليم تاكرنا Takurna كان يدخل ضمن حدود كورة أستجة(٧٢) . ويذكر الرازى أن مدينة رندة Ronda كانت تابعة لإقلم تاكرنا من كورة أستجة(٧٣) . وتجدر الإشارة إلى أن مدينة تاكرنا كانت تشتمل على قسمين كبيرين ، الأول منهما يعرف باسم إقليم السهل ، وقد عرف بذلك لقربه من أستجة ، أما القسم الآخر فكان يعرف باسم إقليم الجبل لقربه من جبال تاكرنا(٧٤) . ومن المرجح أن تاكرنا كانت جزءا هاما من كورة أستجة منذ الفتح الإسلامى للأندلس حتى السنوات الأولى من عصر

الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) . وبعد ذلك ، وفى أثناء عصر الأمير محمد نفسه ، فيبدو أنها انفصلت عنها ويؤيد ذلك ما ذكره ابن حيان عن عدد الفرسان المستنفرين من كور الأندلس المختلفة لغزو جليقية فى عام ٢٥١هـ/٩٧٦م، فقد ساهمت أستجة بألف ومائتى فارس ، فى حين استنفر من تاكرنا مائتين وتسعة وتسعين فارسا(٧٥) ، ولو أن تاكرنا كانت تابعة لأستجة حينئذ لما ذكرها ابن حيان كوحدة إدارية منفصلة تساهم بهذا العدد من الفرسان . ويقدم ابن حيان دليلا جوهريا على صحة ما ذهبنا إليه من أن تاكرنا انفصلت إداريا عن أستجة وأصبحت كورة مستقلة قائمة بذاتها منذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، فكلما تعرض للحديث عنها فى السفر الخاص بعصر عبد الرحمن بن محمد - الناصر - من كتابه المقتبس يصفها بالكورة ، كذلك كان يميز حاكم كورة أستجة عن حاكم كورة تاكرنا ، وذلك فى سجل الولايات والعزل الذى كان يذيل به تأريخه لكل عام من سنى حكم الناصر(٧٦) . وأضيف إلى ما سبق أن ذكرته أن الحميرى يذكر أن مدينة تاكرنا كانت تنسب إليها الكورة - كورة تاكرنا - وذلك بعد أن كان قد ذكر أن إقليم تاكرنا كان مضافا إلى أستجة ، فلا يعقل أن يقصد كورة أستجة بالطبع(٧٧) . وتجدر الإشارة إلى أن عبد الرحمن بن محمد أنشأ حصنا يعرف بالمدينة بالقرب من لماية ، ليضيق به على المنتزين فى قلعة ببشتر ، وأصبحت لماية والحصن الجديد تابعين لكورة تاكرنا(٧٨) .

وكان حصن أشونة Osuna أحد أقاليم كورة أستجة ، وكان حصنا عظيما عامرا بالسكان ، وكان يقع على مقربة من أستجة من جهة الجنوب(٧٩) . ولا يبعد عنها إلا بنحو ١٤ ميلا(٨٠) ، وتبلغ المسافة من أشونة إلى مدينة بلشانة عشرين ميلا(٨١) ، غير أن تبعية أشونة لكورة أستجة كانت تتغير من وقت إلى آخر ، ويبدو أنها انفصلت عنها منذ بداية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى وأصبحت كورة قائمة بذاتها شأنها شأن تاكرنا وبالذات منذ عام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م ، عندما

خرج الأمير عبد الرحمن بن محمد من قرطبة ليتفقد أحوال البلاد ويستطلع أمر رعاياه القائمين على الطاعة . فقصد تاكرنا و « وصل نظره فيها بالنظر فى كورة أشونة وما يليها»(٨٢)، ويؤكد ابن حيان استقلال أشونة إداريا عن أستجة وذلك عندما ذكر اسم واليها منفصلا عن اسم والى كورة أستجة(٨٣) . ولقد أضيف إلى أشونة بعض المدن والحصون بعد أن أصبحت كورة مستقلة بذاتها ، فالإدريسى يصف إقليم أشونة بعد حديثه عن أستجة بقوله « وفيه حصون عامرة كالمدن منها لورة وأشونة . وهو إقليم صغير »(٨٤) كذلك يشير الحجارى إلى أن أشونة كانت كورة قائمة بذاتها(٨٥) .

ويتضح من إحدى روايات ابن بشكوال أن كل من أستجة وتاكرنا وأشونة كانت وحدات إدارية قائمة بذاتها ، فيذكر أن المنصور محمد بن أبى عامر قلد عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن المشاط قضاء عدة كور مثل أستجة ، وأشونة ، وتاكرنا وقرمونة ، ومورور ، جمعهن له ، ثم صرفه عنهن بعد ذلك(٨٦) .

ومن أقاليم كورة استجة أيضا وفقا لما ذكره ابن الفرضى إقليم أشبرة Espera ، وكان هذا الإقليم يضم عدة قرى من بينها قرية تعرف باسم بلاط أبى العجنس . ولعلها عرفت بذلك نسبة إلى أبى العجنس الزاهد الأستجى لأنها كانت موطنه(٨٧) .

وتجدر الإشارة إلى أن المؤرخ الإسبانى المستشرق دون خواكين بالبيه يرى أننا لا نستطيع أن نخلط بين إقليم أشبرة الذى ذكره ابن الفرضى ، وحصن أشبرة الذى يقع على مقربة من حصن أركش Arcos de la Frontera ، لأنه – أشبرة – سيصبح فى هذه الحالة تابعا لكورة شذونة التى تتبعها أركش بالفعل(٨٨) . وواضح أن الأمر التبس على المستشرق الإسبانى الكبير ، فالنص الذى اعتمد عليه وهو لابن حيان لا يؤدى إلى هذا التخريج ، فلقد فهم دون خواكين بالبيه أن حصن أشبرة يقع بالقرب من أركش التابعة لكورة شذونة ، بينما يذكر ابن حيان فى سياق حديثه

عن غزوة الأمير عبد الرحمن بن محمد بالصائفة فى عام ٣٠١هـ/٩١٣م التى تجول فيها على كور الموسطة والجنوب الخارجة على طاعته ، أن الأمير عبد الرحمن بعد أن نازل حصن أركش ودخل حصن شلبر أكمل « النظر فى شد كورة شذونة » ، وبعد ذلك بنى حصن أشبرة ليضيق به على حصن أقوط ، القريب من ببشتر قاعدة الثائر عمر بن حفصون وابنه سليمان من بعده[٨٩] . ولما كانت أستجة تمثل الحصن الشمالى الغربى لببشتر قبل افتتاحها ، ففى تصورى أن الأمير عبد الرحمن بن محمد جعل هذا الحصن الذى شيده حديثا تابعا لكورة أستجة . وهذا يوافق ما ذكره ابن الفرضى الأستجى . كذلك أمدنا ياقوت الحموى بنص على جانب كبير من الأهمية يؤيد رواية ابن الفرضى ذكر فيه أن أشبورة – بضم الهمزة وسكون الشين – ناحية بالأندلس من أعمال أستجة[٩٠] .

ومن الجدير بالذكر أن نص ابن حيان المشار إليه سابقا ، يتضمن ما يشير إلى أن الأمير عبد الرحمن بن محمد عندما شيد حصن أشبرة على حصن أقوط ، قلد جميل بن عقبة البلوى واليا عليه ، و« صير معه فيه عدة كثيفة من الفرسان والبربر الطنجيين والرجالة الملحقين والعدة التامة من الأطعمة والأسلحة »[٩١] .

وغم أن ابن الفرضى قد أمدنا برواية قيمة تتعلق بطبوغرافية كورة أستجة ، إلا أنه عاد وأوقعنا فى حيرة من أمرنا عندما ذكر أن أحد أهالى أستجة « توفى بضيعته بأستجة من إقليم طليطلة ودفن بها » ، وكانت وفاته فى عام ٣٥٤هـ[٩٢]، وسبب حيرتنا أننا لا نعلم فيما ورد فى كتب الجغرافية الأندلسية موضعا باسم طليطلة غير مدينة طليطلة قاعدة الثغر الأوسط التى تبعد عن أستجة بمسافة بعيدة . ولعل هذه الحيرة هى التى دفعت خواكين بالبيه إلى وضع علامة استفهام بعد إشارته لرواية ابن الفرضى السابقة دون تعليق[٩٣] . كما أن اسم مدينة طلياطة وهى أقرب فى حروفها إلى اسم طليطلة الذى ذكره ابن الفرضى تبعد بمسافة كبيرة عن استجة ، كما أنها تتبع كورة إشبيلية[٩٤] .

ومع ذلك فإننى أميل إلى الأخذ برواية ابن الفرضى عن وجود ناحية باسم طليطلة ضمن حدود كورة أستجة ، يدفعنى إلى ذلك عدة اعتبارات :

١ - جرت العادة فى الأندلس على إطلاق اسم أحد الأعلام الجغرافية على عدة مواضع فى أماكن مختلفة والأمثلة على ذلك كثيرة[٩٥] .

٢ - أن ابن الفرضى كان يتمتع بملكة الكتابة فى الجغرافية ووصف البلدان ، فقد كان يزمع - كما ذكر فى مقدمة كتابه - تأليف معجم للتراجم على البلدان[٩٦] . فلا يعقل والأمر كذلك ألا يميز بين طليطلة وبين أقاليم كورة أستجة .

٣ - أن ابن الفرضى كان من أهالى أستجة ، كما كان قاضيا لها فى دولة الخليفة محمد المهدى الأولى عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م[٩٧] ، كما كان معاصرا لصاحب الترجمة الذى توفى فى إقليم طليطلة عام ٣٥٤هـ .

ومن نواحى أستجة أيضًا بلاط أبى عطاء الذى كان ينسب إلى أبى عطاء الأستجى زعيم القبائل العربية القيسية بها[٩٨] . وكذلك كانت قرية مقريانة من قرى أستجة المشهورة[٩٩] . ولقد كانت بعض أقاليم أستجة التى تحدثنا عنها متصلة بأعمال قرطبة[١٠٠] . وربما كان قرب كورة أستجة من قرطبة ، واتصال أقاليمهما فيما بينهما ، سببًا وراء اعتقاد بعض الجغرافيين بأن كورة أستجة نفسها كانت من أعمال قرطبة ، فالحجارى يذكر أن مملكة قرطبة كانت تضم أحد عشرة كورة من بينها كورة أستجة[١٠١] .

وتعددت عناصر السكان فى أستجة فى العصر الإسلامى ، فقد استقرت فيها أغلب العناصر السكانية والأجناس التى شكلت خريطة الأندلس البشرية من عرب وبربر ومولدين وموالى ومستعربين . وكانت الأزد ، والأنصار ، وخولان ، وبنى مراد والكنديين من أهم القبائل اليمينة العربية التى استقرت فى أستجة[١٠٢] ، ومن أشهر القبائل العربية القيسية التى استوطنت أستجة نصر ، وباهلة ، وبنى مرة ،

وسليم ، وتميم ، وبعض بنى أمية[١٠٣] . وقد نزل هؤلاء العرب فى أخصب مناطق كورة أستجة وأطيبها خاصة الفحوص الخضراء لوادى شنيل . أما البربر فقد استوطنوا أستجة ونزل بعضهم كقبيلة هوارة بجوار العرب فى المناطق الخصبة[١٠٤] ، ونزل بنو عبد الوهاب الصنهاجيين وقبيلة مصمودة بأشونة[١٠٥] ، كما استقر عدد كبير من البربر فى مرتفعات تاكرنا مثل بنى الخليع من قبيلة مديونة[١٠٦] . وكانت أستجة مركزا رئيسيا للمولدين ، وكان معظمهم يسكن فى بوادى أستجة مختلطين مع بقية عناصر السكان بها كما يذكر ابن الفرضى[١٠٧] . وكان يسكن أستجة جماعات كبيرة من المستعربين الذين آمنهم المسلمون على دينهم وأموالهم وأبقوا لهم كنائسهم وأديرتهم .

٤ – التاريخ السياسى لأستجة :

(أ) عصر الولاة (٩٥ – ١٣٨هـ/٧١٤ – ٧٥٦م) :

لعبت القبائل العربية والبربرية التى استقرت فى كورة أستجة دورا هاما ومؤثرا فى تاريخ الأندلس خلال عصر الولاة ، فقد شاركت فى حدثين هامين وحاسمين من أحداث هذا العصر وأعنى بهما الصراع على الزعامة السياسية بين العرب القيسية واليمنية فى الأندلس ، والمساهمة فى مساندة الأمير عبد الرحمن بن معاوية فى صراعه ضد يوسف الفهرى والى الأندلس حتى ظفره بالإمارة فى عام ١٣٨هـ/٧٥٦م ، والجدير بالملاحظة أن دور عرب وبربر أستجة فى هذين الحدثين كان قاصرا على المشاركة الفعالة فى الحرب بالعتاد والجند فحسب ، علما بأن معظم المعارك التى خاضتها القيسية ، وعبد الرحمن الداخل لم تمس كورة أستجة .

قلد حنظلة بن صفوان صاحب أفريقية أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ولاية الأندلس فى عام ١٢٥هـ/٧٤٣م[١٠٨] ، لكى يضع حدا للفتنة المحتدمة بين

أهل الأندلس البلديين وعرب الشام الطارئين ، وفى أول عـــهده توسـم فيــه أهــل الأندلس خيرا ، فقد أمر بإطلاق سراح أسرى العرب البلديين والبربر الذين قدمــــهم ثعلبة بن سلامة العاملى الوالى قبله إلى مصارة قرطبة ليبيعهم كعبيـــد فـــى ســـوق النخاسة ، فأطلقوا على جنده الذين اصطحبهم معه من أفريقية عسكر العافيـــة(١٠٩) . واجتمع على أبى الخطار أهل الشام والعرب البلديين ، ودانت له الأندلس بالطاعـــة بعد أن وحد كلمة المسلمين بعد الفرقة ، واجتث جذور الفتنة بما اتخذه من إجراءات حاسمة، فاستقامت حال الناس فى البلاد واطمأنوا إلى معاشهم(١١٠) . غـــير أن أبـــا الخطار لم يلبث أن انحرف عن طريق الإصلاح عندما تعصب لقومه اليمنية ومـــال إليهم واعتزل القيسية ، وأساء إلى الصميل بن حاتم الكلابى زعيـــم القيســـية(١١١) ، إساءة بالغة ، ولعل الخصومة القائمة بين الرجلين ترجع إلى النفـــرة القديمـــة بيـــن القيسية واليمنية ، بالإضافة إلى ما ذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن الصميـــل كان يفوق الأمير بالنجدة والسخاء ، فاغتم أبو الخطار به وأراد كسره(١١٢) . وانتـــهز فرصة قدوم الصميل إليه يشكوه غبنا لحق بأحد القيسية كان أبو الخطار قـــد جـــار عليه فى حكم له ، فتعمد أبو الخطار إهانته وأمر رجاله بسبه ولكزه ، فخرج مـــن القصر غاضبا دون أن يقيم عمامته واتجه رأسا إلى داره بعدوة النهر قبلى قرطبـــة ، وقد قر عزمه على إثارة قومه على اليمنية ، فدعا خيار قومه ، وشكا إليهم ما لقيـــه عند أبى الخطار ، وبحث معهم السبيل التى يستطيعون بها أن يغسلوا هذه الإهانـــة ويدركوا ثأرهم من اليمنية(١١٣) .

ويتضح من الروايات أن سلطان الصميل على قومه بلـــغ مبلغـــا عظيمـــا ، وكانوا يطيعونه فى كل ما يأمرهم به ، فقد أجابوه إلى دعوته للثـــأر مـــن اليمنيـــة والعمل على عزل أبى الخطار من ولاية الأندلس ، وقالوا له « نحن تبع لك »(١١٤). ولقد أحكم الصميل التدبير لتنفيذ مخططه ، فلم يمانع فى أن يتعامل مع منافسيه مـــن القبائل القيسية الأخرى فى سبيل تحقيق أهدافه ، فذهب إلى استجة يســـترضى أبـــا

العطاء القيسى زعيم قبيلة غطفان بها ويسأله النصـــرة . ولعلـه أدرك أهميـة أن يتعاون مع أبى العطاء الأستجى ؛ فقد كان يناظره فى الرياسة ويحسده على زعامـة القيسية بعد رحيل كبار ساداتهم عن الأندلس ، بالإضافة إلى عظم مكانته بين قومـه فى أستجة تلك المكانة التى تجعلهم يأتمرون بأمره ويرجحون كفة الحـــزب الـذى يناصرونه . فأراد الصميل ألا يوسع هوة الخلاف بينهما بتجاوزه له وعدم التعـاون معه كما أشار عليه بعض أصحابه ، خوفا من أن ينقلب قيسية أسـتجة ويشـعلونها حربا عليه ويعضدون جانب أبى الخطار ويفسدون تدبير الصميل ، ولقد عبر أحـد أنصار الصميل عن هذا الرأى بقوله « الرأى أنك تأتى أبا عطاء وتشد أمـرك بـه فإنه تحركه الحمية وينصرك ، وإن تركته مال إلى أبى الخطار وأعانه عليك ليبلـغ فيك ما يريد »[١١٥] .

عاهد أبو العطاء الأستجى الصميل على قتـال أبـى الخطـار وأمـر أهلـه وأصحابه فى أستجة بنصرته ، وسار الصميل مـع جنـد أسـتجة نحـو مـورور للاستعانة ببعض القبائل اليمنية المناوئة لأبى الخطار ، فتحالفوا مع ثوابة بن سـلامة الجذامى من جند فلسطين على حربه على أن يكون له أمر الأندلس ، فوافقهم علـى ذلك لإنحرافه عن أبى الخطار لعزله إياه عن إشبيلية ، وأجابتهم كذلك قبـائل لخـم وجذام فى شذونة وإشبيلية ولبلة وباجة ، وهكذا « تساربت المضريـــة إلـى أبـى العطاء والصميل فاستغلظ أمرهم »[١١٦] . ولما علم أبـــو الخطـار بذلـك خـرج لمحاربتهم ، والتقى الجمعان بالقرب من وادى لكة ، فهزمهم ثوابة وأسـره وقتـل أكثر عسكره ، ثم دخل ثوابة قصر الإمارة بقرطبة وأبو الخطار معه يرسـف فـى قيوده ، وتولى إمارة الأندلس بتدبير الصميل فى عام ١٢٧هـ/٧٤٥م[١١٧] . وبعـد أن استتب الأمر لثوابة فى قرطبة انصرف عنه سادات العرب إلى منازلـهم عـدا الصميل الذى علت منزلته فى السيادة بقرطبة ، وأصبح الأمر كله له ، وانصـرف أبو العطاء القيسى مع قواته من قرطبة عائدين إلى موطنهم أسـتجة[١١٨] . وهكـذا

ساهم عرب أستجة مساهمة فعالة فى حسم الصراع لصالح حزب الصميل ، لتعلو بذلك كلمة القيسية فى الأندلس ويكون لهم السلطان الفعلى فى البلاد .

ومن المرجح أن الصميل ظل على علاقته الطيبة بقيسية أستجة خلال عصرى ثوابة بن سلامة العاملى ويوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى تولى الأندلس بعده فى ربيع الآخر ١٢٩هـ/٧٤٧م(١١٩) . ويؤيد هذا التخريج مشاركتهم هم وغيرهم من القيسية تحت قيادته ويوسف الفهرى فى معركة شقندة فى عام ١٣٠هـ/٧٤٨م ، عند تجدد الصراع بين القيسية واليمنية بسبب تطلع أبى الخطار – الذى فر من أسر ثوابة بن سلامة – إلى السلطان من جديد ، وفى هذه المعركة التى لم « يك بالمشرق ولا بالمغرب حرب أصدق منها جلادا ولا أصبر رجالا»(١٢٠) ، انهزمت اليمنية ، وقتل منهم خلق كثير ، وهرب أبو الخطار ثم قتل حين ظفر به(١٢١) ، كما أسرت القيسية عددا كبيرا من اليمنية فأمر الصميل بقتل سبعين رجلا منهم ، وتشفع أبو العطاء الأستجى لبقيتهم ، فأمر الصميل بعد أن هدده أبو العطاء بالانقلاب عليه « برفع السيف وأمن الناس على يدى أبى عطاء بعد بلاء طويل »(١٢٢) . وهكذا يتضح أنه رغم مشاركة أستجة فى هذا الصراع المحتدم بين العصبيتين اليمنية والقيسية ، ورغم تعصبهم لقيسيتهم ، إلا أن زعيمهم أبا العطاء رفض أسلوب التشفى والوحشية الذى مارسه الصميل بإقدامه على قتل الأسرى ، وساهم أبو العطاء فى حقن دماء إخوانه فى العروبة ، فقد كان يخاف من هذه الفتنة العظمى على بوار الإسلام فى الأندلس(١٢٣) . كما يتبين عظم مكانة أبى العطاء بين القبائل القيسية فى الأندلس ، وخشية الصميل من سطوته هو وعرب أستجة ، رغم أنه كان يعتبر الحاكم الفعلى للأندلس والمحرك الرئيسى لأحداثها .

وتجدر الإشارة إلى أن عرب أستجة لم يشاركوا فى بقية أحداث عصر الولاة خاصة مساندة الصميل زعيم القيسية الذى حاصره اليمنية فى سرقسطة رغم استنجاده بهم ، بسبب وفاة أبى عطاء القيسى ، وعدم وجود زعيم كفء يخلفه فى

رئاستهم ، ويعلق المؤرخ المجهول على ذلك بقوله « وكانت غطفان تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، ولم يكن لهم رأس يجمعهم كان قد هلك رأسهم أبو عطاء »[١٢٤] .

وينفرد ابن القوطية بخبر يشير إلى تعضيد بربر كورة أستجة لعبد الرحمن ابن معاوية عند عبوره إلى الأندلس في ربيع الأول عام ١٣٨هـ/٧٥٦م ، فيذكر أنه عندما وصل إلى بنى الخليع نبأ دخوله الأندلس ووصوله إلى كورة رية ، خرجوا إليه فى قوة من أربعمائة فارس ليكونوا فى طليعة قواته فاشتد بهم ساعده[١٢٥] . ولعل ولاء بنى الخليع للخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥هـ/٧٢٠ – ٧٢٤م) كان وراء إسراعهم بمساندة الأمير الأموى الذى كان يسعى لإحياء دولة بنى أمية فى الأندلس . كما يبدو أن مساندة بربر تاكرنا وغيرهم من القبائل البربرية الموالية لبنى أمية كانت عاملا هاما فى انتصاره على الفهرى وظفره بولاية الأندلس[١٢٦] .

(ب) عصر الإمارة الأموية :

واجه الأمير عبد الرحمن بن معاوية كثيرا من الثورات الداخلية والأخطار الخارجية التى كانت تتهدد دولته الناشئة ، ويتمثل ذلك فى بعض الثورات التى قام بها البربر والعرب القيسية واليمنية على السواء . وكانت أستجة من بين المناطق التى خرجت عليه عند قيام حيوة بن ملامس الحضرمى الإشبيلى بالثورة فى عام ١٤٤هـ/٧٦١م ، بسبب الهزيمة القاسية التى أنزلها الأمير عبد الرحمن الداخل بالثائر عبد الغفار اليحصبى زعيم اليمنية بغرب الأندلس ومقتل ثلاثين ألفا من الثوار[١٢٧] . ثار حيوة بن ملامس وخلع طاعة الأمير عبد الرحمن الداخل رغم الصداقة التى كانت بينهما[١٢٨] وتغلب على إشبيلية وأستجة وكثيرا من نواحى غرب الأندلس ، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره[١٢٩] .

ومن المرجح أن حيوة بن ملامس استولى على أستجة أملا فى أن يتقوى بمن فيها من عرب يحصب ليساندوه على الثأر لهزيمة زعيمهم القاسية ومقتل إخوانهم

اليمنية . ومن الأسباب التى دفعته إلى الاستيلاء عليها أيضًا – فى تصورى – موقعها الاستيراتيجى المتميز على مقربة من قرطبة وحصانة أسوارها التى تيسر لمن يتحكم فيها مغاورة قرطبة ومهاجمتها والاستيلاء عليها والقضاء على عبد الرحمن الداخل . وأيا ما كان الأمر فقد توجه عبد الرحمن لمقابلة حشود حيوة بن ملامس ونشبت بين الفريقيين معارك عنيفة دامت بضعة أيام ، استماتت حيوة ورجاله خلالها فى القتال وتصدوا بضراوة شديدة لهجمات قوات عبد الرحمن ، ولكن عبد الرحمن واصل هجماته بعنف حتى تحقق له النصر فى القتال وانهزم حيوة وأصحابه ، ففر إلى ناحية فريش الواقعة شمالى قرطبة(١٣٠) ، وأرسل إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان ، فأمنه(١٣١) .

وفى عام ١٧٨هـ/٧٩٤م ، اندلعت فتنة خطيرة فى تاكرنا عندما أعلن سكانها البربر الثورة على الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (١٧٣–١٨٠هـ) ونبذوا الطاعة ، ثم هاجموا الإقليم واستباحوه وعاثوا فيه فسادًا وقطعوا الطريق وهددوا أمن المنطقة وقتلوا وسبوا عددًا كبيرًا من أهلها(١٣٢) ، فأراد الأمير هشام الرضا أن يقضى على هذه الفتنة دون أن يستخدم القوة لردع هؤلاء المتمردين ، فابن عذارى يذكر أنه أعذر إليهم ، فأبوا الانصياع إليه(١٣٣) ، ولعل مناعة حصونهم ووعورة مسالكها كانت وراء تماديهم فى التمرد ، وإصرارهم على الثورة. ومن المرجح أن الأمير هشام ساءه أن يمعن هؤلاء الثوار فى عنادهم وتمردهم ، ولم يسعه إلا كبح جماحهم وإخماد ثورتهم والحيلولة دون معاودتهم الثورة مرة أخرى فى هذه المنطقة وتطهيرها منهم بتغريبهم عنها . فالرواية تذكر أنه سير جيشا كثيفا بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله ، فهاجم الثوار وأخمد ثورتهم دون رأفة وأباد جموعهم قتلا وأسرا ، وخرب نواحيهم وضياعهم ، ولاذت فلولهم الباقية بمدينتى طلبيرة(١٣٤) ، وترجيلة(١٣٥) ، فدخلوا فى غمار قبائلها البربرية وبقيت تاكرنا خرابا طوال سبع سنوات(١٣٦) .

وفى عام ١٨٣هـ/٧٩٩م ، كانت أستجة مسرحا لفصل جديد من فصول الصراع بين الأمير الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ) وعمه سليمان بن عبد الرحمن الداخل الذى لم ييأس رغم هزائمة المتكررة من محاولة دخول قرطبة والسيطرة على الحكم . فبعد عبوره من العدوة المغربية فى عام ١٨٢هـ/٧٩٨م ، زحف إلى قرطبة فى حشود هائلة من البربر فى شوال من نفس العام ، فتصدى له الأمير الحكم على مقربة منها فى موضع يسمى فنجيط وأنزل به هزيمة نكراء ، وولى سليمان على إثرها الأدبار ، وتتبع الحكم فلول قواته فاعتصم بالأوعار والجبال ومع ذلك لم تفت هذا الهزيمة فى عضده ، فقد أعاد تنظيم قواته البربرية وزحف بها إلى أستجة فى صفر ١٨٣هـ ، فسار إليه الحكم والتقى الفريقان بالقرب من أستجة ، ودارت بينهما معارك ضارية استمرت عدة أيام ، وانتهت بهزيمة سليمان للمرة الثانية وفر مع أصحابه إلى ماردة Merida يستعد فيها لكرة أخرى(١٣٧) .

وفى اعتقادى أن سليمان بن عبد الرحمن خرج إلى أستجة لحصانتها ولإعجابه الشديد بموقعها الفريد بالقرب من قرطبة . ويبدو أنه كان ينوى اتخاذها قاعدة ينطلق منها نحو الحاضرة . غير أن الأمير الحكم بن هشام لم يمهله كثيرا حتى يستولى عليها ويشتد بها أمره وباغته بهجوم ساحق انتهى بهزيمة مخزية ألحقها بقوته .

وفى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) عادت تاكرنا إلى الثورة من جديد ، ولعل قبضة الأمير الحكم الربضى القوية على البلاد وسرعة مباغتته الثوار فى عقر دارهم ، جعلت أهالى تاكرنا التى عمروها بعد سنوات من تخريبها على أيدى قوات هشام الرضا ، يلوذون بالطاعة . ومن المرجح أن انشغال الأمير عبد الرحمن الأوسط عند توليه الإمارة فى قمع الثورات المحلية الخطيرة التى اندلعت فى بداية عهده ، ومواجهة غارات النصارى فى

الشمال ، بالإضافة إلى طبيعة هؤلاء البربر الثائرة التى جعلتهم يجنحون دائما إلى الثورة والخروج عن الطاعة محتمين بمعاقلهم الحصينة ، كل هذه الأسباب دفعت أحد زعماء البربر ويدعى طوريل إلى الثورة على الأمير عبد الرحمن الأوسط فى عام ٢١١هـ/٨٢٦م ، فوجه إليه الأمير قائده عبد الرحمن بن معاوية بن غانم على رأس جيش كثيف ، فظفر به وأخمد ثورته[١٣٨] . غير أن بربر تاكرنا ما لبثوا أن عاودوا الثورة على الحكومة المركزية فى أواخر عهد عبد الرحمن الأوسط (فى عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م) فجرد إليهم جيشا ضخما قاتلهم وألحق بهم الهزيمة[١٣٩] .

وتجدر الإشارة إلى أن أستجة تعرضت لإحدى الكوارث الطبيعية فى يناير عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م وتتمثل فى سيلين خطيرين اجتاحا مجرى نهر الوادى الكبير ورافده وادى شنيل اعتبرا من أمهات السيول التى تعرضت لها البلاد ، فطغى النهر مدة ، وخرب حنيتين من حنايا قنطرة أستجة ، ودمر السدود وأبطل عددا من أرحائها المقامة عليه[١٤٠] . ومن المرجح أن الأمير عبد الرحمن الأوسط اهتم بترميم هذه القنطرة ، فقد نشطت فى عهده فنون البناء والتعمير ، وإليه ينسب تأسيس مدينة مرسية وتوسيع جامع قرطبة والمسجد الجامع بإشبيلية ، واهتم بإقامة الجسور والقناطر[١٤١] .

ويبدو أن أستجة نعمت بالهدوء والاستقرار فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، فلم يرد فى المصادر ما يشير إلى اندلاع فتن أو قيام ثورات فيه مما يؤكد تمسك أهلها بطاعة الأمير الجديد . ويؤيد هذا التخريج أنها ساهمت مثل غيرها من كور الموسطة بألف ومائتى فارس وهو عدد لا بأس به من الأجناد والمطوعة الذين استنفرهم الأمير للصائفة التى جردها بقيادة ابنه عبد الرحمن والوليد بن عبد الرحمن الوزير صاحب المدينة إلى جليقية فى عام ٢٥١هـ/٨٦٥م[١٤٢] . ولقد أولاها الأمير محمد اهتمامه ، فأصلح مسجدها الجامع ، واهتم بأمر القضاء فيها[١٤٣] .

(جـ) أستجة إبان ثورة عمر بن حفصون :

يذكر الرازى أن السياسة التعسفية التى انتهجها ولاة الأمير محمد بن عبد الرحمن مع أهالى كور الموسطة والجنوب - رية والجزيرة وتاكرنا - أدت إلى ظهور الخلاف فيها ، فاستهان أهلها بالأمير واجترأوا على رجاله وسارعوا إلى معصيته ، فكانت ثورتهم هذه مقدمة لثورة عمر بن حفصون[١٤٤] ، التى اندلعت فى قلعة ببشتر بكورة رية فى عام ٢٦٧هـ/٨٨٠م[١٤٥] ، وطال أمدها بحيث « طمت على جميع فتن الأندلس بعمومها وامتداد أيامها ، ورفع أهل الشر رؤوسهم نحوها»[١٤٦]. ولقد تأثرت استجة بشدة بثورة عمر بن حفصون ، فقد تأرجحت خلالها بين الثورة على حكومة قرطبة والإذعان والطاعة لها ، فكلما استولى عليها عمر بن حفصون سارع الأمير عبد الله بن محمد باستردادها نظرًا لخطورة موقعها وأهميته الاستراتيجية . فقد كان ابن حفصون يتخذها قاعدة عسكرية وحصنًا أماميًا ينطلق منه للإغارة على قرطبة ، وظلت هكذا حتى فتحها الأمير عبد الرحمن بن محمد وهدم أسوارها وأعادها إلى حظيرة الحكومة المركزية .

وفى أعقاب وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣هـ/٨٨٦م) تمكن الثائر عمر بن حفصون فى عهد خلفه الأمير المنذر (٢٧٣-٢٧٥هـ) من توسيع نفوذه بالاستيلاء على الحصون المجاورة فى كورتى رية والجزيرة وتاكرنا ، كما دخلت فى طاعته عدة حصون بدون قتال ، فقد افتتن أهلها من المولدين والمستعربين بدعواه إلى الأخذ بثأرهم وتحريرهم من عبودية العرب[١٤٧] . « فكان ابن حفصون لا يورد هذا على أحد إلا أجابه وشكره ، فكانت طاعة أهل الحصون بهذا الوجه»[١٤٨] . وبعد أن تظاهر بالطاعة للأميرعبد الله عدة شهور ، عاد ونكث عهده فى عام ٢٧٥هـ/٨٨٨م ، وأغار على كورة رية والكور المجاورة لها ، وأضرم البلاد سعيرًا وقطع السبيل ، وأخرج قائده حفص بن المرة وكان شديد المراس والتمرد فى خيل كثيفة للإغارة على أستجة وأشونة ، كما شملت غارته هذه نواحى

قرطبة حتى هم أهلها بالجلاء عنها ، وضجوا إلى الأمير مما أصابهم من جـــوره ، فأخرج الأمير عبد الله قائده عبد الملك بن مسلمة الباجى فى جيش كثيف ، فـــالتقى مع قوات ابن حفصون فى موضع من كورة أستجة بين حيزهـــا وحـــيز أشـــونة ، فدارت الدائرة على القوات الحكومية ، وقتل قائدها[١٤٩] .

ولقد ترتب على معركة أستجة تعاظم قوة ابن حفصون ، واستفحال وخطـــورة دعوته ، كما أسفر انتصاره على القوات الحكومية عن إعلان هدفه الحقيقـــى وهـــو منابذة الأمير والسعى لهدم سلطانه . ومن نتائج هذا الانتصار أيضًا تطلـــع نفـــوس الناس إلى الفتنة وتفاقم العلاقات بين العرب من جهة والمولدين والمســـتعربين مـــن جهة ثانية ، فظهرت بينهم النعرات والسخائم العصبية فى كل جهة من جهات البـــلاد وتسافكوا الدماء ودانوا بالاستباحة ، وتحزبت المسالمة مع المولدين والمســـتعربين « فصار جميعهم إلبا على العرب قائمين بدعوة عمر بـــن حفصـــون »[١٥٠] . التـــى أصحبت دعوة صارخة للشعوبية .

ولقد اكتوت أستجة بنيران هذه الفتنة ، فقد استنتجنا من بعض النصـــوص أن المولدين ثاروا على العرب فى أستجة ووقع بينهم قتال شديد ، انتهى بهزيمة العـــرب وقتل منهم عدد كبير . كما اتضح لنا أن هذه الفتنة دفعت بعض عرب أستجة إلـــى الفرار منها أمام عداء المولدين الشديد لهم . فابن الفرضى يذكـــر أن جـــده نصـــر الأزدى قتل فى الفتنة التى كانت بين المولدين والعرب بأستجة ، مما دفع أسرته إلى الرحيل عنها والانتقال إلى موضع آخر[١٥١] ، كما خرج تميم بن علاء بن عـــاصم التميمى (توفى قبل عام ٣٠٠هـــ) من أستجة زمن الفتنة ، ونزل بقرية بريشة مـــن قرى شذونة[١٥٢] . ولعل النكبات التى حلت بكثير من أفاضل العرب وخيارهم إمـــا بالقتل أو التشريد فى هذه الفتنة ، هو ما دفع البعض إلى أن يطلق قولا صار مثـــلا شعبيا يصور أوضاع العرب فى أستجة ، فقالوا : « أستجة البغى مذكـــورة باللعنـــة والخزى ، يذهب خيارها ويبقى شرارها »[١٥٣] .

وفى عام ٢٧٦هـ/٨٨٩م استعاد الأمير عبد الله بن محمد عدة حصون من كورة رية كانت تدين بالطاعة لعمر بن حفصون ، وشحنها بالمقاتلة ، ثم غزا حصن ببشتر ، فأفسد ما حوله من غلات وثمار ، وعاد بعدها إلى قرطبة . ويبدو أن هذه الغزوة لم تفت فى عضد الثائر ، فقد استغل عمر بن حفصون عودة الأمير إلى قرطبة وخرج فى جيشه إلى ناحية أستجة ، فتحالف مع بنى الخليع بتاكرنا ، واستولى على حصون أشونة ، فانتهز أهل أستجة على ما يبدو فرصة وجوده فى كورتهم وأعلنوا العصيان والخروج عن طاعة الأمير عبد الله والانضواء إلى عمر ابن حفصون ، ثم إنهم لم يترددوا بعد ذلك فى دعوة عمر بن حفصون إليهم وأدخلوه مدينتهم(١٥٤) . انزعج الأمير عبد الله من استيلاء عمر بن حفصون على أستجة وغيرها من الحصون ، وجرد إليه جيشاً بقيادة عمه المنذر بن عبد الرحمن الأوسط ، فبادر عمر بن حفصون بالاعتذار عما فعله ، واختلق الأعذار لما اقترفه، وسأل الأمير تجديد الأمان له وأن يوليه على ما تحت يده ، وأرسل إليه ذلك كله مع رجلين من قريش كان أصابهما بأستجة فوافق الأمير على ذلك وولاه على رية دون بقية الحصون الأخرى(١٥٥) .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : هل رجع ابن حفصون عن أستجة أم ظل متمسكاً بها ؟! ، يرى الأستاذ محمد عبد الله عنان اجتهاداً دون الاستناد على مصدر معلوم أن جيش المنذر بن عبد الرحمن رد عمر بن حفصون عن أستجة(١٥٦) . والواقع أن رواية ابن حيان السابقة لم تشر إلى وضعية أستجة بعدما استأمن عمر ابن حفصون الأمير عبد الله . غير أنه من المرجح أن أستجة ظلت تابعة لسلطان ابن حفصون ، بل أعتقد أنه اتخذها قاعدة عسكرية لعملياته الحربية ، وكان ينطلق منها للإغارة على قرطبة وتضييق الخناق عليها وترويع أهلها . ويؤيد هذا التخريج نص لابن حيان نقله عن الرازى فى أحداث عام ٢٧٨هـ/٨٩١م ، ذكر فيه أن عمر بن حفصون تجرأ على إفساد مضرب الأمير عبد الله الذى أبرزه فى شقندة -

الربض القبلى من قرطبة – تمهيدًا لغزوه ، فقال « فبلغ من جرأة اللعين عمر بن حفصون أن أسرى من مدينة أستجة عمله ليلاً حتى وقف بفج المائدة المطل على باب قرطبة بقبليها وأرسل أصحابه لإفساد مضرب الأمير عبد الله »[١٥٧] . وفى موضع آخر يقول ابن حيان نقلاً عن معاوية بن هشام الشبينسى تعليقًا على هذا الحدث « ركب – عمر – إلى قرطبة فى سرية ثقيلة خرج بها من حاضرته مدينة أستجة وهم يومئذ فى طاعته ...»[١٥٨] . وتجدر الإشارة إلى أن عمر بن حفصون عمل على تحصين أستجة وتقويتها ، كما شحنها بصنوف كثيرة من آلات الحرب والقتال[١٥٩] .

جد الأمير عبد الله فى الخروج إلى قتال عمر بن حفصون فى عام ٢٧٨هـ/٨٩١م ، بعد أن اشتدت شوكته واستفحل واضطهد الرعية بأقاليم قرطبة عندما كان يغير عليهم من حصن بلاى Poley « فيتصل صيحة الروع منه بالمدينة وأرباضها ، ويفزع أهلها فى كل حين فيلحق بالسلطان الغضاضة حتى صير حضرته كطرف من أطراف الثغر »[١٦٠] . واشتبكت قوات قرطبة مع قوات عمر من جنده ، واضطر إلى الاحتماء بحصن بلاى والامتناع بداخله مع بعض رجاله الذين ما لبثوا أن خرجوا من الحصن فارين على وجوههم وكان فى طليعة هؤلاء الفارين أتباعه من أهل أستجة ، فلم يجد ابن حفصون مفرًا بعد انفضاضهم من حوله سوى الفرار إلى ببشتر وترك حصن بلاى ، فاستولت عليه القوات القرطبية وضبطته[١٦١] . وعلى إثر ذلك زحف الأمير عبد الله وقواته إلى مدينة أستجة قاعدة ابن حفصون وكان قد لاذ بها معظم الفارين من حصن بلاى ، فنازلهم بالقتال ، فامتنعوا داخل أسوارها ، فحاصرهم حصاراً شديدًا ولم يتردد فى قذفهم بالمنجنيق وتدمير تحصينات المدينة ، فلما أشرفوا على الهلاك سألوه الأمان على أن يعودوا إلى طاعته ، وأبرزوا أطفالهم ونساءهم بأعلى الأسوار ، فأجابهم الأمير وأمنهم

بعدما أخذ رهائن من وجوههم ، وأقام على المدينة عاملاً من قبله ، ثم مضى إلى ببشتر وأرشذونة فاستعادها ، ومنها قفل عائدًا إلى قرطبة(١٦٢) .

وهكذا استطاع الأمير عبد الله أن يحد من شوكة عمر بن حفصون وأن يضع حدًا مؤقتًا لطغيانه ، وأن يعيد الأمن والأمان لأهل قرطبة بالاستيلاء على حصن بلاى ومدينة أستجة . وكان فتح أستجة حدثًا عظيمًا أثار قرائح الشعراء فقرحت نظمًا حسنًا ، ومن القصائد الحسنة فى فتح أستجة ووصف النصر الباهر الذى أحرزه الأمير عبد الله قصيدة لأحمد بن محمد بن عبد ربه أولها(١٦٣) :

هو الفتح منظومًا على أثره الفتح ... وما فيهما عهد ولا فيهما صلح

سوى أن صفحًا كان من بعد قدرة ... وأحسن مقرون إلى قدرة صفح

سل السيف والرمح الردينى عنهما ... فتسمع ما ينبى به السيف والرمح

ومن المرجح أن طاعة بعض أهالى أستجة لم تكن خالصة للأمير عبد الله ، وأنهم اضطروا إلى الإذعان له كما رأينا ليتخلصوا من حصاره الشديد لمدينتهم . كما يبدو أن عصبيتهم المولدة كانت أقوى من ولائهم لحكومة قرطبة ، يؤكد ذلك أن رجالهم الذين انضموا إلى الجيش النظامى وشاركوا فى بعض غزواته إلى إشبيلية وقرمونة فى عام ٢٨٢هـ/٨٩٥م ، هربوا من صفوف الجندية إلى أحد الثوار المولدين المنتزين على الأمير عبد الله ، فابن حيان يذكر أن ابن سالم الأستجى هرب فى عدة من رجال أستجة إلى الخبيث طالب بن مولود أثناء قتاله له على حصن منت فيقى ، وقد تأثر جيش الإمارة تأثرًا شديدًا لفرارهم ، إلا أن أحمد بن هاشم قائد الجيش أعاد تنظيم قواته وهاجم بها الثائر فى حصن آخر من حصونه وهو حصن أقوط ، وهزمه وقتل من رجاله – ومنهم أهل أستجة الفارين إليه – سبعين رجلاً ، فطلب الثائر الأمان فأمنه قائد الجيش بعد أن توثق منه(١٦٤) .

ومع ذلك فقد ظلت أستجة فى حوزة الأمير عبد الله منذ أن افتتحها فى عـــام ٢٧٨هــ حتى عام ٢٨٤هــ (٨٩١ - ٨٩٧م) . فقد استغل عمـــر بـــن حفصـــون انشغال عسكر الإمارة بقيادة أبان بن الأمير عبد الله فى قتال ابن خصيـــب المولـــد الثائر بحصن منت ميور Montemayor من كورة لبلة Niebla(١٦٥) ، فـــى ربيـــع الأول ٢٨٤هــ/مايو ٨٩٧م ، وجمع جموعه وزحف على أستجة واســتولى عليـــها للمرة الثانية فى نفس العام . فأدرك الأمير عبد الله خطورة سقوط أستجة فى يد ابــن حفصون فى الوقت الذى غابت قواته عن قرطبة الحاضرة فأرسل كتابـــا يســتعجل عودة قواته بسبب أستجة ، فقفل العسكر(١٦٦) . وتذكر الرواية أن القوات الحكوميـــة التى عادت من لبلة بسبب الاستيلاء على أستجة ، لـــم تمكـــث بقرطبـــة إلا أيامـــا تجهزت خلالها لغزو ابن حفصون فى الغزوة المعروفة بالجزيرة(١٦٧) ، ومع ذلك لم تغزو أستجة .

ومن المرجح أن ابن حفصون أحكم سيطرته على أستجة ، فلم يستطع الأمـــير منازلته بها كما أنها استعادت مكانتها كقاعدة عسكرية منيعة لابن حفصون ، كـــان يخرج للإغارة منها على قرطبة(١٦٨) . ورغم الهزيمة القاسية التى منى بـــها ابــن حفصون أمام جيش الإمارة بقيادة أحمد بن أبى عبدة فى (إستبة) الواقعة جنوبـــى أستجة فى عام ٢٨٩هــ/٩٠٢م ، وكان ابن حفصون يهدف إلى القضاء على القوات الحكومية عند أستجة ، ثم مهاجمة قرطبة والاستيلاء عليها(١٦٩) ، فلم تستطع القوات الحكومية استرجاع استجة وظلت تحت سلطان ابن حفصون بقية عهد الأمير عبـــد الله . ولعل بقاء أستجة فى حوزة المولدين فترة طويلة خلال ثورة ابن حفصـــون ، ما دفع العوام إلى إطلاق بعض الأمثال الشعبية التى تعبر عن هجائهم وتحقيرهم لها ولأهلها ، وقالوا : « ذكرت المدن ، قامت أستجة تجن »(١٧٠) أى تزهـــو وتختـــال بالثورة على حكومة قرطبة .

وبعد وفاة الأمير عبد الله فى ربيع الأول ٣٠٠هـ/٩١٢م ، تولى حفيده عبد الرحمن بن محمد إمارة الأندلس . وفى مستهل ولايته عمد إلى إخماد نيران الفتن واستنزال أهل العصيان المنتزين فى معظم أنحاء البلاد . وكانت أستجة كما رأينا شوكة فى جنب الحكومة المركزية لقربها من قرطبة ، كما كان أهلها يميلون دائمًا إلى الشقاق والنفاق ، وطالما خرجوا على طاعة أمير البلاد ، ولذلك فقد ركز لها عبد الرحمن بن محمد منذ توليه الإمارة معظم طاقته ، فجرد إليها حملة كثيفة بقيادة الحاجب بدر بن أحمد فى جمادى الأولى ٣٠٠هـ/٩١٢م ، وأمده بالقائد أحمد بن محمد بن حدير فى قوة من الحشم ، فحاصر الجيشان أستجة ، فلما عاين أهلها ضخامة الجند أدركوا صعوبة المقاومة وأن الأمير جاد فى استنزالهم ، ولذلك أعلنوا طاعتهم وطلبوا الأمان ، فأمنهم الحاجب بدر بن أحمد ودخل مدينتهم فى ١١ من جمادى الأولى ٣٠٠هـ/ ٩١٢م(١٧١) .

وأعتقد أن الأمير عبد الرحمن بن محمد أراد أن يضمن ولاء أهل أستجة وعدم خروجهم عن الطاعة . يتضح ذلك من سياسة الترهيب والترغيب التى اتبعها معهم ، فقد أمضى أمانهم وصفح عن جرائمهم ونظر فى مصالحهم ، كما ألحق فرسانهم وحماتهم فى ديوان العطاء وأقطعهم القطائع الواسعة ، ومن جهة أخرى فقد أمر بهدم أسوارها وتسويتها بالأرض ، وهدم قنطرة نهرها ليعزلها عن بقية المناطق الثائرة وتصبح بذلك عاجزة عن التمرد والعصيان ، وترك فيها القائد أحمد ابن محمد بن حدير فى قوة من جنده لحفظ الأمن بها ، واستعمل عليها حمدون بن بسيل ، « فسكنت الحال بها ، وتوطدت الطاعة فيها »(١٧٢) . وكان لفتح أستجة أهمية كبيرة للأمير عبد الرحمن بن محمد ؛ فقد كانت مقدمة الفتوحات لأهم المدن الخارجة عن الطاعة ، « وتوالت فتوح الجهات بعدها ، فكانت كسلك القلادة انقطع فهوت درره تترى » ، ولذلك فقد أرسل الأمير عبد الرحمن بن محمد كتب الفتح بشأنها إلى الآفاق ، ونظم الشعراء فى فتحها قصائد كثيرة ، ومنهم عبد الله بن

يحيى بن إدريس ، وأحمد بن محمد بن عبد ربه وغيرهما[١٧٣] ، ومن شعر ابن عبد ربه فى فتحها[١٧٤] :

ألا إنه فتح يقر له الفتح فأوله سعد وآخره نجح

سرى القاعد الميمون خير سرية تقدمها نصر وتابعها فتح

ألم تر أروى بإستجة العدا فلقوا عذابا كان موعده الصبح

ومبالغة فى الاحتراز من انتقاض أستجة والمناطق المجاورة لها على طاعته، أمر الأمير عبد الرحمن بن محمد قائد الحشم سعيد بن عبد الوارث فى عام ٣٠١هـ/٩١٣م ، بأن يتجول بعسكره ما بين أستجة وتاكرنا[١٧٥] . ولعل الأمير كان يرغب فى أن يجعل من هؤلاء الجند فرقة طوارئ تكون على أهبة الاستعداد لمواجهة أى تمرد قد يحدث فى أستجة ، وتساعد حاميتها على سحقه فور وقوعه .

(د) أستجة فى عصر الخلافة الأموية :

تمكن الأمير عبد الرحمن بن محمد الذى تلقب بالناصر لدين الله فى عام ٣١٦هـ / ٩٢٨م ، من القضاء على الفتن والثورات وسحق المتمردين ، وأعاد للبلاد وحدتها ويتضح من الروايات أن جهوده فى هذا الصدد حققت نجاحا باهرا ، فظلت أستجة على طاعة الأمويين ، ولم تخرج عن الطاعة مرة أخرى[١٧٦] . ويذكر ابن حيان أن الخليفة عبد الرحمن الناصر مر عليها فى عام ٣١٦هـ/٩٢٨م. فى طريقه لضبط ببشتر التى كان قد فتحها فى عام ٣١٥هـ/٩٢٧م. ولعله قصدها - أستجة - فى طريقه لينظر فى أحوال أهلها ، ويستوثق من طاعتهم. ويبدو أنه لم يتوقف بها طويلا ، فقد خرج من قرطبة فى النصف من المحرم ووصل إلى ببشتر بعد ٥ أيام (٢٠من المحرم)[١٧٧] . مما يؤكد استتباب الأمور بها وتمسكها بطاعته . ولقد أولى الخليفة الناصر عنايته الشديدة بأهالى أستجة ، فقد أدى لأهلها الكثير من الخدمات وأعمال البر فأمر ببنيان سقاية ماء لشرب أهلها ، فتم ذلك على يد واليها أمية بن محمد بن شهيد فى المحرم من عام

٣١٨هـ/٩٣٠م[١٧٨] . وتجدر الإشارة إلى أن ابن حيان احتفظ لنا بأسماء بعض ولاة أستجة فى عهد الخليفة الناصر[١٧٩] .

ظلت أستجة تنعم بالهدوء والاستقرار فى عصرى الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) ، وابنه الخليفة هشام المؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ) ، ولم تقع بها حوادث ذات أهمية ، وكل ما وصلنا عنها خلال هذه الفترة لا يعدو مشاركة وجوه رجالها فى المناسبات الدينية وحفلات الاستقبال التى كان يقيمها الخلفاء للشخصيات الهامة ، ويستدعون لحضورها بياض وأعلام رجال الكورة . ففى عام ٣٦٠هـ / ٩٧٢م ، استدعى الخليفة المستنصر وجوه وأعلام الكور لمشاهدة دخول يحيى بن على بن حمدون وبنى خزر الزناتيين القادمين برأس زيرى بن مناد الصنهاجى ورؤوس أعيانه[١٨٠] ، فجاء وجوه أهل أستجة وشهدوا هذا الحفل . وكانت هذه الاحتفالات مناسبة لكى يتفقد الخليفة المستنصر أحوال هذه الكور والاطمئنان على سير ولاتهم ، فابن حيان يذكر أن الخليفة استمع من « كبيرهم وصغيرهم ما ذكروه مما استخبرهم عنه من سير عمالهم ، فكافأ المشكور منهم سعيه ، وقارض المذموم منهم بسيئة »[١٨١] . ولم يكتف الخليفة المستنصر بسؤال وجوه أهل الكور الذين يحضرون احتفالاته بقرطبة عن أحوال بلدانهم فحسب ، وإنما كان يرسل مبعوثين من كبار رجال الدولة إلى هذه البلاد للقيام بهذه المهمة ، ففى عام ٣٦٢هـ/٩٧٤م، بعث عبد الملك بن المنذر بن سعيد صاحب الرد بقرطبة إلى الكور الغربية ومنها أستجة « لمطالعة رعاياها وتعرف أحوالهم ، والكشف عن سير أعمالهم فيه »[١٨٢].

ويبدو أن أهالى أستجة استغلوا فرصة وجودهم فى حضرة الخليفة أو قدوم هذه البعثات الرسمية إلى بلدهم للسؤال عن أحوالهم ، ورفعوا إلى الخليفة الحكم المستنصر شكواهم من سوء معاملة القاضى أصبغ بن قاسم الأستجى لهم ، فعزله عنهم . وربما تبين للخليفة بعد ذلك أن القاضى لم يكن بهذا السوء الذى صوره له أهالى أستجة ، وأن سبب شكواهم منه شدته وصرامته فى أحكامه ، فقد كان زاهدا

ورعا ، فلم يلبث أن أعاده إلى منصبه . ولم « يزل يلى صلاتهم وأحكام قضائهم إلى أن توفى وكلهم يسئ الثناء عليه والقول فيه »(١٨٣) .

كذلك استدعى الخليفة الحكم المستنصر بياض الرعية من أهل كور الأندلس للحضور إلى قرطبة لحضور حفل استقبال القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى(١٨٤) ، بعد عودته ظافرا من المغرب فى عام ٣٦٤هـ/٩٧٦م ، فحضر وجوه أهل أستجة هذا الاحتفال ، وبعدها انطلقوا عائدين إلى بلدهم وظلوا يتحدثون مع غيرهم عن فخامة هذا الحفل وجلالة يومه(١٨٥) .

وكان أهالى أستجة يشاركون مثل غيرهم من أهل الأندلس فى الحملات التى كان يجردها الخليفة الحكم المستنصر لحرب الممالك المسيحية فى شمال إسبانيا ، ففى عام ٣٦٤هـ/٩٧٦م ، خرج صاحب الشرطة الوسطى إلى كور الغرب لاستنفار أهلها للتطوع فى جيش الصائفة التى يجردها الخليفة إلى نصارى جليقية الذين أغاروا فى هذا الوقت على أهل الثغور الشرقية فأجابوه(١٨٦) .

ولقد اهتمت السيدة صبح البشكنسية أم الخليفة هشام المؤيد ، وكذلك المنصور محمد بن أبى عامر بأهل أستجة ، فأقاما الكثير من أعمال البر والخير بأستجة . ففى عام ٣٦٧هـ/٩٧٨م ، أمرت السيدة صبح صاحب الشرطة وقاضى كورة أستجة أحمد بن عبد الله بن موسى ببناء سقاية بأستجة ، فتم البناء فى ربيع الآخر من نفس العام(١٨٧) . كما أمر ابن أبى عامر ببناء قنطرة على نهر شنيل بأستجة ، وأنفق عليها أموالا عظيمة ، فعمت بها منفعة أهل أستجة ، حيث سهلت لهم هذه القنطرة الطرق والشعاب الصعبة ، واعتبر ابن عذارى بناء هذه القنطرة من أعمال البر والتقوى التى تقدم المنصور بها إلى الله زلفى(١٨٨) .

(هـ) أستجة فى زمن الفتنة :

لم يمر وقت طويل حتى تحولت الثورة التى قام بها الأمويون بزعامة محمد بن هشام بن عبد الجبار على العامريين فى ١٦ جمادى الآخر ٣٩٩هـ / ١٥

فبراير ١٠٠٩م إلى فتنة دموية رهيبة . ولقد فجرت هذه الفتنة الأوضـاع الداخليـة فى الأندلس وأحيت الأحقاد الدفينة بين عناصر المجتمع الأندلسى الذى انقسم إلـى ثلاث طوائف متناحرة فيما بينها ، الطائفة الأندلسية والطائفـة البربريـة (البربر الطارئين منذ عصرى الحكم المستنصر والمنصور العامرى) والطائفة الصقلبيـة ، ونتج عن الصراع بينهم وقوع البلاد فريسة للفتن والاضطرابات والتفتت السياسى ، مما أدى إلى انهيار الخلافة وانتزاع السلطة من الأمويين وانتقالـها إلـى بعض الأسرات العربية والبربرية والعناصر الصقلبيـة أيضـا فيمـا عـرف بدويـلات الطوائف(١٨٩) . ويعلق الأمير عبد الله الزيرى على أحوال الأندلس إبان هذه الفتنـة بقوله : « فلما تمت الدولة العامرية ، وبقى الناس لا إمام لـهم ، ثـار كـل قـائد بمدينته، وتحصن فى حصنه بعد تقدمه النظر لنفسه ، واتخاذه العساكر ، وادخـاره الأموال ، فتنافسوا على الدنيا وطمع كل واحد فى الآخر »(١٩٠) .

ولقد تأثرت أستجة مثل معظم مدن الأندلس بأحداث هذه الفتنة ، فعقب نجـاح الثوار فى الإطاحة بالعامريين ، تقلد محمد بن هشام الخلافة وتلقب بالمهدى ودانـت له البلاد ، وكانت أستجة حينئذ على طاعة المهدى وتخضع لسلطانه ومن مظـاهر ذلك ، قيامه بتعيين قياداتها الإدارية والقضائية ، فالحجارى يذكر أن الخليفة المـهدى قلد ابن الفرضى قضاء مدينة أستجة(١٩١) .

ورغم أن المصادر المتاحة لدينا لم تأت على ذكر أستجة خلال أشد سـنوات الفتنة ضراوة ودموية وهى الفترة الممتدة من فشل انقلاب الرشـيد علـى الخليفـة المهدى فى شوال ٣٩٩هـ/يونيو١٠٠٩م إلى دخول البربر مع سـليمان المسـتعين قرطبة للمرة الثانية فى شوال ٤٠٣هـ / إبريل ١٠١٣م(١٩٢) . إلا أننا نـرى أنـها قاست مثل غيرها من كور الجنوب والموسطة من ويلات هذا الصراع العنيف بيـن الأندلسيين والبربر ، فقد اجتاح البربر فى إحدى غزواتهم التخريبية عقب رحيلـهم عن مدينة الزهراء فى شعبان ٤٠١هـ/إبريل ١٠١١م ، مدنا قريبـة مـن أسـتجة

وتمتد أحوازها بأحواز أستجة مثل جيان ، ومالقة ، وقبرة[١٩٣] . كما خربوا أحواز قرطبة نفسها ، وكانت هذه الأحواز تختلط بأحواز قبرة وأستجة . فلا يعقل والأمر كذلك ألا تتعرض أستجة لمثل ما تعرضت له جاراتها ، خاصة وأنها كانت كثيرة الثمار والبساتين ، ولها أعمال كثيرة تزيد على ألف قرية[١٩٤] ، في وقت كان البربر يعانون فيه من قلة الأقوات والميرة . ويؤيد وجهة نظرنا هذه أن ابن الأبار يعلق على هذه الغزوة بقوله « وسليمان أثناء ذلك يجوس خلال الأندلس ، ورجاله ومن معهم من البربر ينهبون ، ويقتلون ، ويقفرون المدائن والقرى بالسيف ، وينهبون كل ما يجدون من الأموال »[١٩٥] . كذلك يذكر ابن الخطيب أن البربر بعد استيلائهم على الزهراء فى ٤٠١هـ/١٠١١م ، خربوا كور الأندلس الجنوبية واتصل التخريب بأحواز قرطبة[١٩٦] . كذلك يؤكد هذا التخريج أن أهالى أستجة لم يأمنوا على أنفسهم خلال هذه الفتنة ، ولذلك سارعوا بوضع بلدهم تحت حماية أبى عبد الله محمد بن عبد الله البرزالى صاحب قرمونة الذى أعلن الاستقلال بها عن حكومة قرطبة فى عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م[١٩٧] . وكان هذا الزعيم قد ضبط قرمونة وجمع رجالها ، ورتب جنودها ، وأحسن إلى أهلها ونشر العدل فيهم ، فعمرت قرمونة وجهاتها وحاشى البربر حوزتها ولم يهاجموها من أجله ، ولذلك طمع أهالى أستجة أن يشملهم بحمايته ، فألقوا بأمورهم إليه وبايعوه « فأمنت بأمنه وكثر خيرها بيمنه »[١٩٨] .

وتجدر الإشارة إلى أن أستجة ظلت تابعة لبنى برزال أصحاب قرمونة[١٩٩]، ثم انتقلت تبعيتها إلى باديس بن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة منذ عام ٤٣٩هـ/١٠٤٩م[٢٠٠] . وهذا منذ عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م ، فقدت أستجة مكانتها المتميزة كولاية كبرى منذ الفتح الإسلامى لها وطيلة عصر الدولة الأموية ، وأصبحت مجرد مدينة تابعة تبحث عن الأمن والحماية فى ظل التبعية لأمير من أمراء الطوائف . والواقع أن تاريخ أستجة فى عصر الطوائف يكتنفه بعض الغموض ، فلا توجد سوى إشارات قليلة عنها فى هذا العصر ، وربما كان فقدانها لأهميتها السياسية وراء قلة هذه الإشارات .

ملحق

أسماء بعض ولاة أستجة فى عصر الدولة الأموية

م	اسم الوالى	اسم الأمير أو الخليفة الذى تولى فى عهده	مدة ولايته
١	حمدون بن بسيل	الأمير عبد الرحمن بن محمد(١)	٣٠٠هـ -
٢	أمية بن محمد بن شهيد	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٢)	٣١٧ - ربيع الآخر ٣١٨هـ
٣	مالك بن محمد الزجالى	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٣)	ربيع الآخر ٣١٨هـ-٣١٩هـ
٤	سعيد بن أبى القاسم	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٤)	٣١٩ - ٣٢٢هـ
٥	عمر بن أحمد	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٥)	٣٢٢ - ٣٢٣هـ
٦	يحيى بن محمد	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٦)	٣٢٣ - ٣٢٤هـ
٧	عبيد الله بن موسى	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٧)	٣٢٤ - ٣٢٦هـ
٨	طرفة بن عبد الرحمن	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٨)	٣٢٦ - ٣٢٨هـ
٩	محمد بن طرفة	الخليفة عبد الرحمن الناصر(٩)	٣٢٨ - ٣٢٩هـ
١٠	سليمان بن أيوب	الخليفة عبدالرحمن الناصر(١٠)	٣٢٩هـ -

(١) - (١٠) ابن حيان ، المقتبس ، شـالميتا ، ص٧٤ ، ٢٥٣ ، ٢٨٤ ، ٣١٥ ، ٣٧٧ ، ٣٩١ ، ٣٢٩ ، ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٦٢ ،
Una cronica Anonima, p. 65; Levi – Provncal, Inscriptions Arabes, P. 36, Meouak (M.) Deux Familles d'Origine affranchip au service de L'Etat hispano-Umayyade, Les Banu Durri et Banu Tarafa, R. Anaquel Vol. II, Madrid, 1991, P. 188.

يتضح من دراسة هذا الملحق الحقائق التالية :

(١) أن حمدون بن بسيل كان أول وال لأستجة لأمير الجماعة عبد الرحمن بن محمد ، بعدما كانت تتأرجح بين الطاعة والعصيان خلال ثورة ابن حفصون .

(٢) أن مدة ولاية معظم هؤلاء الحكام كانت لا تتجاوز العام الواحد . وكانت هذه هي سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى دأب على تغيير حكام الولايات وإبدالهم .

(٣) أن مدة بعض ولاة أستجة تجاوزت العام ، فقد ظل كل من سعيد بن أبى القاسم ، وعبيد الله بن موسى ، وطرفة بن عبد الرحمن مدة تراوحت ما بين ٣ – ٤ أعوام .

(٤) تعاقب على ولاية أستجة بعض ولاة من بيت واحد ، فقد تولى محمد بن طرفة ولاية أستجة بعد عزل أبيه طرفة بن عبد الرحمن عنها .

الهوامش

(١) ابن هشام اللخمى ، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، تحقيق خوسيه بيريث لاثارو ، مدريد ١٩٩٠ ، م٢ ، ص٢٤٨ ؛ ابن حيان ، المقتبس ، نشر بدرو شالميتا ، مدريد ١٩٧٩ ، ص٥٤ – ٥٦ ، مجهول ، فتح الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، مدريد ١٩٩٤ ، ص٢٠ . ولقد رسمها بعض المؤرخين بكسر الهمزة والتاء وفتح الجيم « إستجة » (راجع : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة – بيروت ١٩٨٢ ، ص٣٥ ؛ مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة، بيروت ١٩٨١، ص١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧٨ ، م٤ ، ص٢٩١ ؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربى ،بيروت ، ١٩٧٨ ، م١ ، ص١٧٤ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، م١ ، ص٢٦٠ ، ٤٠٩.

(٢) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، تحقيق لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، جـ٢ ، ص٢٩٥ . ويذكر ابن الشباط أن إستجة بكسر الهمزة ويقال بفتحها (ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، مدريد ، ١٩٧١ ، ص١٧٣) ؛ ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف،ط٣، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، جـ١ ، ص١٠٤ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، ط٣ ، دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ ، جـ٢ ، ص٥١ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، جـ١ ، ص١٠١ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، نشره ليفى بروفنسال ، ط٢ ، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨ ، ص١٤ ،

Joaquin Vallve, la division territorial de la Espana Musulmana, Madrid, 1986, p. 331.

(٣) الإصطخرى ، المسالك والممالك ، نشر دى غويه ، ليدن ، ١٩٢٧ ، ص٤١ – ٤٢ ، المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، نشر دى غويه ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ص٢٢٤ ؛

Levi Provencal, L'Espagne Musulmane au Xe Siecle, Paris 1932, p. 117.

(٤) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ؛ الرشاطى وابن الخراط ، الأندلس فى كتاب اقتباس الأنوار وفى اختصار اقتباس الأنوار ، تحقيق إميليو مولينا وبوسك فيلا ، مدريد ، ١٩٩٠ ، ص١٠١ . ويذكر الإدريسى (صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، نشر دوزى ودى غويه ، ليدن ، ١٨٩٤ ، ص٢٠٥) أنها تقع على بعد ٣٥ ميلا من قرطبة .

Levi Provencal, la description de l'Espagne d'Ahmed Al-Razi, R. Al-Andalus, Vol. XVII, Madrid 1953, p. 99.

(٥) الإدريسى ، نفس المصدر ، ص٢٠٥.

(٦) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥ ، ١٥٨ . وقرمونة Carmona مدينة أندلسية قديمة البناء ، يحدها من الشرق قرطبة ، ومن الغرب إشبيلية ، وهى على سفح جبل يحيط بها سور من الحجارة قديم البناء ، وقربها فحص عريض يضم عدداً كبيراً من القرى ، وبها حمامات ودار صناعة ، وهى الآن مركز إدارى فى مقاطعة إشبيلية (عن وصفها راجع : ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٢ ، الرشاطى ، نفس المصدر ، ص١٨١ ؛ الحميرى ، نفسه ، ص١٥٨ – ١٥٩) .

(٧) ابن غالب ، فرحة الأنفس، ص٢٩٥؛ Joaquin Vallve, Op. Cit., p. 331. ورية Rayya من أعظم حواضر الأندلس ، وهى تتصل بأحواز الجزيرة الخضراء ، وتقع فى قبلى قرطبة ، وهى كثيرة الخيرات ، ومدنها كثيرة ، وحصونها حامية ، ومن مدنها أرشذونة ، وكانت حاضرتها وقاعدة كورتها ، ومالقة وهى مدينة أولية تطل على البحر المتوسط (عن وصفها راجع : ابن غالب، نفس المصدر ، ص ٢٩٤ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس، ص٧٩).

(٨) ابن غالب ، نفسه ، ص٢٩٥ ؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، م١ ، ص١٧٤ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص١٤١ ؛ تسيبولد ، إستجة ، مقال بدائرة المعارف الإسلامية ، نشر إبراهيم زكى خورشيد وزميلاه ، دار الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ، م٣ ، ص٢٣٥ . ونهر شنيل هو نهر غرناطة الكبير ، تكون من ذوبان الثلوج بجبالها ، وهو أحد روافد الوادى الكبير ، ومساحة مجراه خمسون فرسخا ، وقد ورد عند بعض الجغرافيين باسم سنجل وسنجيل ، ويقول ابن الشباط إنه سأل بعض أهل الأندلس عن اسمه ، فلم يعرفوا الاسم الأول (سنجل) وعرفوا الثانى ، وقالوا عنه شنيل . ويقال فى تفسير شنيل إنها مركبة من الشين وتعنى عند أهل المغرب (الألف) ، ومن لفظ (نيل) نهر مصر ، فمعنى شنيل إذن ألف نيل كما يذكر ابن الخطيب (ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ؛ الزهرى ، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، نشر بمجلة الدراسات الشرقية ، دمشق ١٩٦٨ ، ص١٦٧؛ ابن الكردبوس ، نفس المصدر ، ص١٧٣ ؛ المقرى نقلا عن ابن الخطيب ، نفح الطيب ، م١ ، ص١٤٨ ؛

Levi Provencal, la description, pp. 99, 101.

(٩) يقصد بالرصيف عند أهل الأندلس الطريق الرومانى القديم ، ولقد عمموا هذا المصطلح على كل طريق معبد مرصوف . ولقد كان بأيبيريا طريق قديم يعرف بطريق هرقل Via Herculea كان يربط أربونة بقرطاجنة ، فأوصله الإمبراطور الرومانى أوغسطس بطريق آخر يمتد من شاطبة مارا بجنجالة إلى قسطلونة ، ومنها إلى قرطبة ، وكان الرصيف الرومانى يتفرع عند قرطبة إلى فرعين أحدهما على الضفة اليمنى والآخر على الضفة اليسرى من نهر بيطى (الوادى الكبير) ، ثم يمتد هذا الطريق من قرطبة إلى أستجة ومنها إلى إشبيلية وينتهى عند قادش Cadiz . ولقد استخدم المسلمون هذه الجادة الرومانية عند الفتح ، ولكنهم بعد ذلك أهملوا بعض أجزاء منها ، وأجروا تعديلات تتفق مع مصالحهم السياسية والاقتصادية ، فأهملوا الطريق المؤدى إلى قادس ، واستبدلوه بطريق يمتد من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء، وقد كان هذا الطريق أيضا طريقا رومانيا قديما، كان يربط قرطبة بقرطاجنة الجزيرة.

وتجدر الإشارة إلى أن قرطبة كانت ملتقى شبكة الاتصالات بين إقليم باطقة الروماني وما يليه جنوبًا (عن الرصيف الروماني وشبكة الطرق القديمة في أيبريا انظر : حسين مؤنس ، الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٢٨٧ – ٢٨٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، الإسكندرية ١٩٨٤ ، جـ١ ، ص١٦٤ – ١٦٥ ؛

Torres Balbas, la via Augusta, y el Arrecife Musulman, R. Al-Andalus, Vol. XXIV, Madrid, 1959, pp. 441-448.

(١٠) تسيبولد ، إستجة ، م٣ ، ص٢٣٥.

(١١) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ، ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص١٤١ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٤ ؛ تسيبولد ، إستجة ، م٣ ، ص٢٣٥.

(١٢) المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٤٨١.

(١٣) المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٠٣.

(١٤) تسيبولد ، أستجة ، م٣ ، ص٢٣٥.

(١٥) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٦ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٤ – ١٥ ؛

Joaquin Vallve, la division territorial, p. 332.

(١٦) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥.

(١٧) التهامى الراجى الهاشمى ، الأبواب فى الأندلس ، مجلة المناهل ، الرباط ، المغرب ، ١٩٧٨ ، العدد الثالث عشر ، ص٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠.

(١٨) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥.

(١٩) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٦ ، ويذكر الحميرى (نفس المصدر ، ص١٥) أن كنيسة أستجة الكبرى كانت تقع بجوار مسجدها الجامع .

(٢٠) من بين هذه الأخيرة كما يذكر صاحب تقويم قرطبة ذلك الدير الذى يقع فى شمالها ودفن به قرشين . ولعله أحد كبار الرهبان بأستجة .

Dozy, le Calendrier de cordoue de L'annee961, Leiden1873, p.106.

(٢١) ابن حيان ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود على مكى ، بـــيروت ، ١٩٧٣ ، ص٥.

(٢٢) ابن هشام اللخمى ، المدخل إلى تقويم اللسان ، م٢ ، ص٢٤٨.

(٢٣) الزجالى ، أمثال العوام فى الأندلس ، دراسة وتحقيق محمد بـــن شـــريفة ، فـــاس، ١٩٧٥ ، ق٢ ، ص٢١٨.

(٢٤) ابن هشام اللخمى ، نفس المصدر ، م٢ ، ص٢٤٨ . وقد ورد الاسم عنـــد الدكتـــور عبد العزيز الأهوانى (ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحـــن العامـــة ، مجلة معهد المخطوطـــات العربيـــة ، م٣ ، جـــ١ ، القـــاهرة ١٩٥٧، ص١٤٢) «أستجة» بتشديد الجيم ، وفى كل من مخطوطتى الكتاب بدون تشديد الجيـــم (ابـــن هشام اللخمى ، نفسه ، م٢ ، ص٢٤٨ ، هـــ٥٨) .

(٢٥) الزجالى ، أمثال العوام ، ق٢ ، ٢١٨.

(٢٦) الأهوانى ، نفس المرجع ، ص١٣٧.

(٢٧) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٢١٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعـــلام ، نشـــر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ ، ق٢ ، ص٨٨ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلـــس ، نشر وتحقيق لويس مولينا ، مدريد ، ١٩٨٣ ، جـــ١ ، ص٦٩.

(٢٨) ابن حيـــان ، المقتبس ، شـــالميتا ، ص٥٦ ؛ الحميرى ، صفة جزيـــرة الأندلـــس ، ص١٤.

(٢٩) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٦.

(٣٠) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلـــس ، ص٤١ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، جـــ١، ص٦٩.

(٣١) تسيبولد ، أستجة ، م٣ ، ص٢٣٥.

(٣٢) الحميرى ، نفس المصدر ، ص١٤.

(٣٣) أخبار مجموعة ، ص١٧ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص١٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٣١ ، ٢٥٥ . ويرجح سافدرا أن تكون هذه الثورة مفتعلة وتمت بتدبير من أعداء الملك « يليان وحزب غيطشة » لشغل أنظاره عن عمليات نزول القوات الإسلامية بإسبانيا (حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص٧٠ ، هـ٣ ؛ أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ط١ ، الإسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص٣٠ ؛

Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1882, p. 65.

(٣٤) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ن ص١٢ ، ٤٦ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٩ ؛ أحمد مختار العبادى ، نفس المرجع ، ص١٩ – ٢٢ . وكان هذا الجبل يسمى قديمًا Mans Calpe وهو اسم فينيقى معناه مغارة أو تجويف ، ولعل المقصود بها تلك المغارة الكبيرة التى يشتمل عليها ، وتسمى اليوم بمغارة سان ميجل، وفى العصر الإسلامى سمى هذا الجبل بأسماء متعددة مثل الصخرة ، وجبل طارق ، ثم جبل الفتح على عهد عبد المؤمن بن على الموحدى ، غير أن اسم طارق غلب عليه آخر الأمر ، فصار يعرف به (مجهول ، فتح الأندلس ، ص١٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص٤٦ ، هـ١٢ ؛ عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد زينهم محمد ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص٢٩٦ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص١٥٩ – ١٦٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢) .

(٣٥) قرطاجنة Cartagena تقع عند سفح جبل طارق ، وهى مدينة قديمة أولية وبها آثار كثيرة ، وتعرف بقرطاجنة الجزيرة تمييزًا لها عن قرطاجنة الخلفاء بكورة تدمير ، وبمرسى قرطاجنة الجزيرة نهر يعرف بوادى الرمل يصب فى البحر المتوسط (الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥١) .

(٣٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص١٢٨ ؛ ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٣٥ ؛ أخبار مجموعة ،

ص١٧؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص ١٧ - ١٨ ؛ حسين مؤنس، فجـر الأندلـس ، ص٦٩ ؛

Chalmeta (p.), Invasion -e- Islamizacion, Madrid 1994, p. 131.

والجزيرة الخضراء Algeciras أو جزيرة أم حكيم تقع على مقربة من جبل طـارق في أقصى جنوب الأندلس ، وهى شرق من شذونة ، وتواجـه مدينـة سـبتة علـى الساحل المغربى ، ومرساها أيسر الموانـئ الأندلسـية للجـواز إلـى المغـرب ، وللخضراء سور حجارة عظيمة البناء ، وكانت فى العصر الإسلامى مدينـة وفـيرة الخيرات (عن وصفها راجع ، ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٤ ، الحمـيرى ؛ صفة جزيرة الأندلس ، ص٧٣ - ٧٥ ؛

Levi Provencal, la description, pp. 97-98.).

(٣٧) ابن عبدالحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص١٣٩ ؛ ابن القوطيـة ، تـاريخ افتتـاح الأندلس ، ص٣٥ ؛ أخبار مجموعة ، ص١٨ ؛ مجهول ، فتـح الأندلـس، ص١٩ - ٢٠ ؛ الزهرى ، كتاب الجغرافية ، ص٢١٤ ؛ ابن الكردبوس ، تـاريخ الأندلـس ، ص٤٨ ؛ المقرى ، نفح الطيـب ، م١ ، ص٢٣١ - ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ - ٢٥٩ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٧٠ - ٧٥ . وعن هذه الوقعـة وتحديـد مكانها التى دارت فيه من كورة شذونة راجع: أحمد مختـار العبـادى ، دراسـات ، ص٢٩ - ٣٥ ؛ عبد الواحد ذنون طه ، نظرة عصرية لعملية عبور مضيـق جبـل طارق ومعركة كورة شذونة ، الموصل ، ١٩٨٧ ، ص١٧ ؛

Saavedra, Op. Cit., pp. 68-69, Chalmeta, Op. Cit., pp. 134-137.

وشـذونة Sidona كورة جليلـة القـدر تتصـل بأحواز كورة مورور ، ولها أقاليم كثيرة ، ومن مدنها قادس ، وشريش وهى حاضـرة الكورة ، وعمل شذونة خمسـون ميـلا فى مثلها ، وهى من الكور المجنـدة ، نزلها جند فلسطين من العرب ، وقـد لجأ إليها أهل الأندلس فى عام ١٣٦هـ عندما قحطت البلاد (وعن وصفها راجـع : ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٤ ؛ ياقوت ، معجـم البلـدان ، م٣ ، ص ٣٢٩ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٠٠-١٠١ ؛

Levi Provencal, la description, pp. 96-97.

(٣٨) فتح الأندلس ، ص٢٠ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص٤٨.

(٣٩) المقرى نقلا عن الرازى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٥٩ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٢٧٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، الإسكندرية ١٩٨٤ ، ص١٦١ ؛

Chalmeta, Ibid., p. 137.

(٤٠) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٣٥ ؛ أخبار مجموعة ، ص١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٨ ؛

Chalmeta, Ibid., pp. 138, 144.

وتجدر الإشارة إلى أن كل من الرازى وصاحب فتح الأندلس ذكر أن طارقا توجه إلى شذونة بعد الانتصار فى وادى لكة ، ثم افتتح عدة مدن فى غرب الأندلس مثل مورور ، وقرمونة ، وإشبيلية وذلك قبل أن يتجه نحو أستجة ويفتحها (فتح الأندلس ، ص٢٠ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٣٦٠ ولا شك أن فى ذلك خلط لأحداث حملتى طارق بن زياد وموسى ابن نصير ، لأننا سوف نرى أن موسى يتولى افتتاح هذه المدن الأخيرة عقب جوازه إلى الأندلس فى العام التالى (٩٣هـ) لاستكمال فتح الأندلس والجيوب الجانبية .

(٤١) يذكر الرازى أن المسلمين ركبوا جميعا خيل القوط ، حتى أنه لم يبق فيهم راجل ، وفضلت عنهم الخيل (المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦١) .

(٤٢) إسماعيل الأمين ، العرب لم يغزوا الأندلس ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ١٩٩١ ، ص٣٠.

(٤٣) أخبار مجموعة ، ص١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٨ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠.

(٤٤) Chalmeta, Invasion e Islamizacion, p. 146.

(٤٥) يحدد المؤرخ المجهول صاحب فتح الأندلس ، مدة الحصار بشهر (فتح الأندلـــس ، ص ٢٠ ؛ تسيبولد ، أستجة ، م٣ ، ص٢٣٥) فى حين حددها ابن الشباط بعدة أشـهر (ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص١٤١) .

(٤٦) فتح الأندلس ، ص٢٠ ؛ ابن الكردبوس برواية ابن أبى الفياض ، تاريخ الأندلـــس ، ص١٤١ ، ١٧٣ ، المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠ ، السيد عبد العزيز ســالم ، تاريخ المسلمين ، ص٨٢ ؛ شاكر مصطفى ، الأندلس فى التاريخ ، دمشـــق ١٩٩٠ ، ص٢٢ ؛

Alvarez de Morales (C.), Aproximacion a la Figura de Ibn Abi-L-Fayyad y su historia, Cuadernos de Historia del Islam, No. 9, Granada, 1978, p. 44, Chalmeta, Op. Cit., p. 148.

(٤٧) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٧٦.

(٤٨) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٩.

(٤٩) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص١١٢ – ١١٣

Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, pp. 88-89.

(٥٠) العذرى ، ترصيع الأخبار ، نشر عبد العزيز الأهوانى ، مدريـد ، ١٩٦٥ ، ص٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٠ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٤ ؛

Guichard, Al-Andalus, Estructura Antropolgica de un Sociedad Islamica en Occidente, Barcelona 1976, p. 343; Alvarez de Moralez, Op. Cit., pp. 45-46.

(٥١) أخبار مجموعة ، ص١٩ ؛ ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص١٤٠ ؛ ابن الأثـير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ .

(٥٢) Chalmeta, Op. Cit., p. 147.

(٥٣) عندما بعث موسى بن نصير مولاه أبا زرعة طريف بن مـالك علـى رأس حملـة استطلاعية لغزو جنوب الأندلس فى رمضان (٩١هـ) نزل بالجزيرة التى نسبت إليـه فيما بعد (جزيرة طريف) ثم نهض منها وأغار على الجزيرة الخضراء ، فأصـاب

بها سبيا كثيرا ومالا جسيما ، ثم رجع سالما إلى العدوة المغربية (أخبار مجموعة ، ص١٦ – ١٧ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص١٦ ؛ المقرى برواية ابن حيان ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٢٩) .

(٥٤) أخبار مجموعة ، ص١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٩ – ١٠ ؛ المقرى ، نقلا عن الرازى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠ ؛ Chalmeta, Ibid, p. 147.

(٥٥) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٠ .

(٥٦) يذكر الرازى أن يليان قال لطارق بن زياد « قد فضضت جيش القوم ، ودوخت حاميتهم ، وصيرت الرعب فى قلوبهم ، فأصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى ، ففرق جيوشك فى البلدان بينهم ، وأعمد أنت إلى طليطلة بمعظمهم ، وأشغل القوم عن النظر فى أمرهم ، والاجتماع إلى أولى رأيهم » (المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص١٦٢ ؛ Saavedra, Op. Cit., p. 76; Chalmeta, Ibid, p. 148.

(٥٧) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، جـ١ ، ص٢١.

(٥٨) أخبار مجموعة ، ص١٩ – ٢٠ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٢٢ – ٢٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص١٢٢ – ١٢٣ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٠ – ١١ ؛ ابن الخطيب ،الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠١ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٠ – ٢٦٤ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٧٨ ؛ أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ،الإسكندرية بدون تاريخ ، ص٧٣ ؛ إسماعيل الأمين ، العرب لم يغزوا الأندلس ، ص٣٣ ؛ شاكر مصطفى ، الأندلس فى التاريخ ، ص٢٢؛ Saavedra, Op. Cit., p. 78; Chalmeta, Ibid, pp. 149-153.

وتجدر الإشارة إلى أن د. مؤنس (نفس المرجع ، ص٧٧) يرى أن المسلمين لم يفتحوا مالقة وإلبيرة إلا فى ولاية عبد العزيز بن موسى ، أما هذه الجيوش التى وجهها طارق من أستجة فلا تعدو مجرد سرايا صغيرة إلى هذه النواحى لمجرد الاستطلاع . ولعل د. مؤنس اعتمد فى ذلك على رواية معاوية بن هشام الذى ذكر

نفس هذا الرأى (ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١، ص١٠١ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٧٥) .

(٥٩) عبر موسى بن نصير المجاز إلى الأندلس على رأس جيش كبير من العرب فى عام ٩٣هـ/٧١٢م ، وافتتح عددا من المدن الهامة فى غرب الأندلس مثل شذونة وقرمونة ، وإشبيلية ، وماردة ، وغيرها ، وبعد عودته إلى المشرق استكمل ابنه عبد العزيز فتح جنوب غرب الأندلس وبعض مناطق من شرق الأندلس مثل تدمير (ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٣٥ - ٣٩ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٢٤ - ٢٨؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٢٤ - ٣٢ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٢٦٩ - ٢٨٠) .

(٦٠) البكرى ، جغرافية الأندلس وأوربا ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص٦٤ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٥٤٢.

(٦١) العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص٢٠ ؛ البكرى ، جغرافية الأندلس وأوربا ، ص٥٩ - ٦٤.

(٦٢) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٥٧٠.

(٦٣) يتضح ذلك من إشارات أوائل الجغرافيين العرب مثل ابن خرداذبة ، واليعقوبى ، والهمدانى ، والاصطخرى ، والمقدسى (حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص٥٧٥ - ٥٧٦) .

(٦٤) لم يكن مصطلح الكورة فى بلاد الإسلام محددا بالشكل الذى نتصوره كإقليم أو مديرية بالمفهوم الحديث ، وأدق تعريف للكورة هو قول ياقوت الحموى ، « والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها » (معجم البلدان ، م١ ، ص٣٦ - ٣٧) ويتفق ابن الشباط مع ياقوت فى تعريفه للكورة فيقول عنها « وهى عبارة عن الصقع والناحية » (ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص١٧١) وعلى هذا فالكورة تقسيم إدارى له زمام واسع يشتمل على عدة مدن وأقاليم وقرى وأجزاء - مساحات الأرض المخصصة للرعى -

وحصون (ياقوت ، نفسه ، م٢ ، ص١٣٢ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٥٧٧ - ٥٧٨) .

(٦٥) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٤٤ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠٣.

(٦٦) محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ع١ ، ق١ ، ص١٣٢

(٦٧) أكد ذلك ابن حوقل (صورة الأرض ، طبعة ليدن ١٩٣٨ ، ص١١٦) فقد ذكر عن الأندلس « وفيها مدن يزيد بعضها على بعض فى المحل والجباية والارتفاع والولاة والقضاة والمخلفين على رفع الأخبار ، ويقال لأحدهم مخلف ، وليس بها مدينة غير معمورة ذات رستاق فسيح إلى كورة » .

وقد أحصى ليفى بروفنسال سبعا وعشرين كورة فى الأندلس غير الثغور .

Levi Provencal, L'Espagne Musulmane, pp. 116-117.

(٦٨) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٥٥٤ - ٥٥٥.

(٦٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص٢٢٤ ؛ ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص١٠٠.

(٧٠) ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص١٧٤.

(٧١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥ ،

Joaquin Vallve, la division Territorial, p. 332.

(٧٢) ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ؛ ابن الخراط ، اختصار اقتباس الأنوار ، ص١٢٨ ؛ الحميرى ، نفس المصدر ، ص٦٢.

(٧٣) الحميرى ، نفسه ، ص٧٩،

Levi Provencal, la description p. 99.

(٧٤) ابن الخراط ، نفس المصدر ، ص١٢٨.

(٧٥) ابن حيان ، المقتبس ، مكى ، ص٢٧٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٠٩ ؛

Levi Provencal, l'Espagne Musulmane, au Xe, p. 134.

(٧٦) ابن حيان ، المقتبس ، شـالميتا ، ص١٨١ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٨٥ ، ٣١٥ ، ٤٦٢ ، ٤٨٩ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٨٣ ، ١٩٤.

(٧٧) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص٦٢ . وقد وصف ابـن سـعيد (المغـرب، جـ١ ، ص٣٣٠) تاكرنا بأنها قصبة (قاعدة) كورة تاكرنا .

(٧٨) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٩٤.

(٧٩) الرشاطى ، الأندلس فى اقتباس الأنوار ، ص١٥ ؛ الإدريسى ، نزهـة المشـتاق ، ص٢٠٦ ؛ ياقوت الحموى ، معجـم البلـدان ، م١ ، ص٢٠٢ ؛ وتقـدر المصـادر العربية المسافة بينهما بمسيرة نصف يوم .

(٨٠) بالقياس إلى معلومة أوردها الحميرى أن مسافة ١١٠ ميلا تعادل مسيرة أربعة أيـام (نفس المصدر ، ص٢٣ ، مادة إصطبة) فإن مسيرة نصف يوم تقدر بحوالـى ١٤ ميلا تقريبا .

(٨١) الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص٢٠٦.

(٨٢) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص١٨١.

(٨٣) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٣٥٥ ، ٣٩١ ، ٤٨٩.

(٨٤) الإدريسى ، نفس المصدر ، ص١٧٤.

(٨٥) ابـن سـعيد ، المغـرب ، جـ١ ، ص٣١٧ . ويـرى د. مؤنـس (الجغرافيـة والجغرافيين، ص١٥٩) أن بهذه الرواية بعض التجاوز ، فإن أشونة لم تكن كـورة ، وإنما كانت مدينة كبيرة فحسب .

(٨٦) ابن بشكوال ، الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القـاهرة ، ١٩٦٦، ق١ ، رقم ٦٧٨ ، ص٣٠٧.

(٨٧) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القـاهرة ، ١٩٦٦ ، ق١ ، رقم ٩١٢ ، ص٣٠٨.

(٨٨) Joaquin Vallve, la division territorial, p. 332.

(٨٩) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٨٨.

(٩٠) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، م١ ، ص١٩٥ . وتجدر الإشارة إلى وجود إقليم يسمى الأشبورة وكان تابعا لطليطلة (ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٨٩) ؛ كما وجدت قرية تسمى أشبرة ، من قرى سرقسطة (ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة ، نشر عزت العطار ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جـ١، رقم ٨٠٢ ، ص٢٩٥) .

(٩١) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٨٨.

(٩٢) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، رقم ٣٩٠ ، ص١٢٥.

(٩٣) Joaquin Vallve, la division territorial, p. 332.

(٩٤) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٢٨.

(٩٥) هناك شنتبرية الشرق وشنتبرية الغرب ، أيضا هناك حصن من حصون سرقسطة يعرف بحصن المرية (ابن حيان ، المقتبس ، ص٣٦٠ - ٣٦١) وهو يماثل اسم ثغر المرية الذى مصره عبد الرحمن الناصر على الساحل الجنوبى الشرقى من الأندلس ، وهناك قرطاجنة الجزيرة ، وقرطاجنة الخلفاء، بل إن هناك موضعين باسم واحد داخل حدود الكورة الواحدة مثل طرجيلة الشيخ وطرجيلة الثانية فى كورة جيان (المقتبس ، ص٣٥٨) وإقليم الفحص فى كل من طليطلة وإشبيلية (ابن غالب ، نفسه ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٣) ، ومرسانة بكورة إشبيلية ، ومرسانة أحد حصون المرية (الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٨١) . والأمثلة كثيرة .

(٩٦) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، ص١ ؛ حسين مؤنس ، الجغرافية والجغرافيين ، ص٩٩ .

(٩٧) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص١٠٤.

(٩٨) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٨.

(٩٩) الخشنى ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، نشر ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا ، مدريد ، ١٩٩٢ ، ص٣٣٦.

(١٠٠) ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص١٧٤.

(١٠١) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص٤٥٥ - ٤٥٦ . ويذكر المقرى (نفح الطيب ، م١ ، ص٥٤١) « وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليلة » .

(١٠٢) الخشنى ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، ص ٢٣ ؛ ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، تراجم ١٤ ، ٩٩ ، ٤٦٣ ، ٨٢٨ ، ٩٢٦ ؛ العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص٥ ؛ الحميدى ، جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، رقم ٢٨٢ ، ص١٥٥ ؛ ابن بشكوال، الصلة ، تراجم ٥١٣ ، ٥٨٠ ، ٨٩٢ ؛ ابن الآبار ، التكملة لكتاب الصلة ، جـ١ ، رقم ١٠٠٤ ، ص٣٦٨ - ٣٦٩ ؛ مصطفى أبو ضيف ،القبائل العربية فى الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ ، ص ٤٥٤ ، ٤٧٠ ؛

Guichard, Al-Andalus, p. 343.

(١٠٣) الخشنى ، نفس المصدر ، ص٤٠ ، ٧٥ ، ٢٢٠ ؛ ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، تراجم ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٥١ ، ٣٠٦ ، ٦٥١ ، ١٠٩٤ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٥ ، دار المعارف ، مصر ١٩٨٢ ، ص٢٠٧ ، ٢٦٩ - ٢٧٠ ؛ ابن بشكوال ، الصلة ، ق ١ ، رقم ١٤١٠ ، ص٦٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩١.

(١٠٤) الخشنى ، نفسه ، ص٢٣٤ ؛ ابن الفرضى ، نفس المصدر ، ق١ ، رقم ٧٧٨ ، ص٢٥٧.

(١٠٥) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٥٠٠ - ٥٠٢ ؛

Guichard, Al-Andalus, pp. 369-370.

(١٠٦) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٤٨ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٥٠٠ ؛

Guichard, Al-Andalus, p. 388.

(١٠٧) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، رقم ٩٩٧ ، ص٣٣٩.

(١٠٨) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٤٥٧.

(١٠٩) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٤٨ – ٤٩ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٣ – ٣٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص١٦١.

(١١٠) أمر أبو الخطار بتغريب رؤساء الفتنة عن الأندلس ، ومنهم سلفه ثعلبة بن سلامة العاملى ، فخرجوا عن الأندلس ، وآمن ابنى عبد الملك بن قطن والى الأندلس الأسبق الذى كان قتله سببًا مباشرًا فى اندلاع الصراع بين البلديين والشاميين ، كما فرق جند الشام عن قرطبة وأنزلهم فى كور الأندلس ، ليقضى على عوامل الاضطراب بها ، « وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة ، وبقى البلديون والبربر على غنائمهم لم ينتقصهم شيئًا » (ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٤٣ – ٤٤ ؛ أخبار مجموعة ، ص٤٩؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٥٨ – ٦٠ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠٢ – ١٠٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، نفس المرجع ، ص١٦١) .

(١١١) كان جده شمر من أشراف عرب الكوفة ، ثم لحق بالشام فأقام فيها ، وعند خروج كلثوم بن عياض القشيرى غازيًا إلى المغرب ، خرج معه الصميل مع بعض أشراف الشام ، ثم دخل الأندلس فى طالعة بلج بن بشر ، وكان الصميل شجاعًا ، نجدًا ، جوادًا ، كريمًا ، إلا أنه كان أميًا ، وكانت له فى قلب الدول وتدبير الحروب أخبارًا مشهورة ، وتوفى فى سجن الأمير عبد الرحمن بن معاوية فى عام ١٤٢هـ (عن الصميل بن حاتم راجع : ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، رقم ٥٩٤ ، ص١٩٨ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٤ ؛ ابن الآبار ، الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ ، جـ١ ، ص٦٧ – ٦٨ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤) .

(١١٢) أخبار مجموعة ، ص٥٧ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤.

(١١٣) أخبار مجموعة ، ص٥٧ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩٠ – ٢٩١ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٢٦٤ ؛ عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس، ع١ ، ق١ ، ص١٢٧ ؛ مصطفى أبو ضيف ، القبائل العربية ، ص١٠٠.

(١١٤) إخبار مجموعة ، ص٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩١ ؛ ابن عـــذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤.

(١١٥) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩١ ؛ المقـــرى ، نفح الطيب ، م٣ ، ص٢٣ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٢٦٥.

(١١٦) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٢.

(١١٧) أخبار مجموعة ، ص٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، م٤ ، ص٢٩١ ؛ ابن عـــذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٤ – ٣٥ ؛ المقرى ، نفـــح الطيـــب ، م٣ ، ص٢٣ – ٢٤ ؛ حسين مؤنس ، نفسه ، ص٢٢٦.

Guichard, Al-Andalus, p. 347.

(١١٨) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٣.

(١١٩) تولى يوسف الفهرى ولاية الأندلس بتقديم الصميل بن حاتم له ، وكان الأندلســيون طلبوا منه أن ينظر لهم فى وال يوليه عليهم بعد وفاة ثوابة بـــن ســلامة ، نظـرًا لانشغال الخليفةمروان بن محمد آخر الأمويين بالمشرق عنهم وبعده عنـــهم (ابـــن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٣٦ ؛ المقرى نقلاً عن الرازى ، نفح الطيـــب ، م٣ ، ص٢٥) .

(١٢٠) المقرى برواية ابن حيان ، نفح الطيب ، م٣ ، ص٢٥ ؛ عنان ، المرجع الســابق ، ع١ ، ق١ ، ص١٣١ ؛

Aguado Bleye, Manual de la historia de Espana, Madrid, 1947, t. I, pp. 400-401.

(١٢١) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦١ ؛ ابن عذارى، البيان ، جـــــ٢ ، ص٣٦ – ٣٧ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م٣ ، ص٢٦ ؛ مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٧ .

(١٢٢) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٦١ . ويذكر صاحب فتح الأندلس (ص٦٨) أن أبـا العطاء تشفع فى الأسرى ، غير أن الصميل رفض وقال له « بـــهذا عـــزك وعـــز قومك » ، فقام إليه مرة أخرى بعد قتل بعض الأسرى ، وهدده بأنه إن لـــم يكـــف عن مواصلة قتل الأسرى ليدعون دعوة شامية ضد الصميل، فوافق على شـــفاعته .

غير أن ابن عذارى يرى أن الصميل ضرب أعناق الأسرى جميعًا (البيان ، جـ٢ ، ص٣٧) .

(١٢٣) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٤٩.

(١٢٤) مجهول ، فتح الأندلس ، ص٦٤ – ٦٥.

(١٢٥) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٧٧ . وينكر المؤرخ المجهول أن عبد الرحمن بن معاوية هو الذى كاتب الأجناد العرب والبربر يدعوهم إلى مساندته (أخبار مجموعة ، ص٢٧٧ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٦٨٠ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص١٨٧) .

(١٢٦) شارك بعض موالى عبد الرحمن بن معاوية من البربر فى هذه المعركة وأبلوا فيها بلاء حسنًا وكان على رأسهم عاصم العريان الذى كان قائدًا لرجالته ، وإبراهيم بن شجرة الأورى قائد فرسان البربر فى موقعة المصارة (ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٥٠ ؛ مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٨١) .

(١٢٧) لمزيد من التفاصيل عن ثورة عبد الغفار اليحصبى بإشبيلية ومحاولته الاستيلاء على قرطبة راجع : ابن القوطية ، نفسه ، ص٥٢ – ٥٤ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٥٠ – ٥١ ؛ عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس، ع١ ، ق١ ، ص١١٠؛
Levi Provencal, Historia de Espana Musulmana, Madrid, 1957, p. 74.

ورغم المبالغة فى عدد قتلى اليمنية فى هذه المعركة فإن ذلك يدل على عظم هذه الثورة وخطورتها . ولقد كانت هاتان الثورتان حلقة من حلقات الصراع الذى احتدم بين الأمير عبد الرحمن الداخل وبين العناصر اليمنية فى غرب الأندلس ، لأنهم لم يتمكنوا من السيطرة على البلاد من خلاله كما كانوا يخططون بمؤازرتهم له للإحاطة بالصميل ويوسف الفهرى ، كما ساءهم أن يوقفهم عن الانتقام من القيسية والتشفى منهم ، واعتبروا موقفه هذا تعصبًا لمضريته (مجهول ، أخبار مجموعة ، ص٨٣ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص٦٨٦) .

(١٢٨) كان حيوة بن ملامس من جند حمص الذين نزلوا بإشبيلية ، وكان فى طليعة الذين ناصروا الأمير عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس (ابن القوطية ، نفسه ، ص٤٨) وارتبط معه بصداقة وطيدة ، وكانت له عند الأمير منزلة عالية ، فالحميدى يذكر أن الداخل نظم أبياتًا شعرية امتدح فيها خلق حيوة وجوده ووفائه منها :

ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها   إذا غاب عنها حيوة بن ملامس

أخو السيف يقرى الضيف حقًا يراهما   عليه ، وينفى الضيم عن كل بائس

(الحميدى ، جذوة المقتبس ، رقم ٣٨٩ ، ص١٩٨ ؛ ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ١ ، ص٣٦ – ٣٧) ويذكر الرازى أن حيوة بن ملامس روى للأمير عبد الرحمن بن معاوية عن حنش الصنعانى التابعى أن ملك بنى أمية لا يزال إلى خروج الدجال ، فأقطعه الأمير قطيعة معروفة (ابن الآبار، التكملة ، جـ١ ، رقم ٧٥٦ ، ص٢٨٢.

(١٢٩) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٥١.

(١٣٠) تقع فريش شمال غربى قرطبة ، وتتصل أحوازها بأحواز فحص البلوط ، وكانت تشتهر بأشجار القسطل ومعادن الرخام والحديد ، ولها عدة أقاليم منها لواتة ، والمرج وموالى موسى ، والسند ، وقسطنطينة ، وهى مدينة أولية من بناء الرومان ، وقد اندثرت فريش اليوم ولم يبق فى بقعتها سوى حصن قديم يسمى قلعة الحديد Castilla del Hierro (عن وصفها راجع: ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٤٣) .

(١٣١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٥١ ؛ عنان ، دولة الإسلام ، ع١ ، ق١، ص١٦١ ؛ مصطفى أبو ضيف ، القبائل العربية ، ص١٥٢ ؛ حمدى عبد المنعم محمد حسين ، التاريخ السياسى لمدينة إشبيلية فى العصر الأموى، الإسكندرية ، ١٩٨٧ ، ص٤٣ ؛ وتجدر الإشارة إلى أن حيوة بن ملامس وعبد الغفار اليحصبى سيعاودان الثورة على الأمير عبد الرحمن الداخل مرة أخرى فى

إشبيلية عام ١٥٤هـ ، ولكنه سيهزمهم ويقتل منهم ستة آلاف رجل (العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص١٠١) ؛

Bosch Vila (Jacinto), Historia de Sevilla, Sevilla 1984, pp. 39-40.

(١٣٢) ابن الأثير ، الكامل ، م٥ ، ص٩٩ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٦٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، تحقيق أحمد كمال زكى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، جـ٢٣ ، ص٣٥٧ ؛ عنان ، نفسه ، ع١ ، ق١ ، ص٢٢٧.

(١٣٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٦٤.

(١٣٤) تقع طلبيرة Talavera على مسافة سبعين ميلاً من طليطلة ، وهى مدينة قديمة أزلية تطل على نهر تاجة ، وكانت أقصى ثغور المسلمين ، ولذلك كانت تتوجه منها الجيوش الإسلامية إلى قشتالة وجليقية ، وتعتبر قلعتها من أرفع قلاع المسلمين حصانة (عن وصفها راجع : الإدريسى ، المصدر السابق ، ص١٨٧ ؛ الحميرى ، نفس المصدر ، ص١٢٧ – ١٢٨) .

(١٣٥) ترجيلة أو ترجالة Trujilo مدينة كالحصن كما يذكر الجغرافيون ، وهى من أعمال كورة ماردة ، وبينها وبين قرطبة مسيرة ستة أيام للراكب ، وكانت يغلب على أهلها التلصص والخداع ، وقد استولى عليها النصارى فى عام ٦٣٠هـ (عن وصفها راجع : ابن غالب ، نفسه ، ص٢٩٠ ؛ الإدريسى ، نفسه ، ص١٨٧ ؛ الحميرى ، نفسه ، ص٦٣) .

(١٣٦) ابن الأثير ، الكامل ، م٥ ، ص٩٩ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٦٤ ؛ النويرى ، نفسه ، جـ٢٣ ، ص٣٥٧ – ٣٥٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢١٥ – ٢١٦ ؛ حمدى عبد المنعم محمد حسين، ثورات البربر فى الأندلس فى عصر الإمارة الأموية ، الإسكندرية ١٩٩٣ ، ص ٢٩ – ٣٠ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 94; Guichard, Al-Andalus, p. 372.

(١٣٧) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٧٠ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٣، ص٣٦٢ ؛ ويذكر الأستاذ عنان (المرجع السابق ، ع١ ، ق١ ، ص٢٣٣) نقلاً عن القطعة المفقودة من المقتبس لابن حيان الخاصة بعصرى الحكم الربضى وابنه

عبد الرحمن ، أن الأمير عبد الله بن عبد الرحمن كان مشاركًا لأخيه سليمان في هذه المعارك ، وأنه فر بعدها إلى بلنسية حتى آمنه الأمير الحكم (حمدى عبد المنعم ، ثورات البربر ، ص ٣١ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 100.).

(١٣٨) ابن الأثير ، الكامل ، م٥ ص٢١٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٥٢؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢٣٠ ؛ حمدى عبد المنعم ، ثورات البربر ، ص٣٩ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 132; Guichard, Al-Andalus, pp. 372-373.

(١٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، م٥ ، ص٢١٥.

(١٤٠) ابن حيان ، المقتبس ، مكى ، ص٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٨٩ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٣ ، ص٢٨٥ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، جـ١ ، ص١٤٥

(١٤١) المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٣٤٧.

(١٤٢) ابن حيان ، المقتبس ، مكى ، ص٢٧١ – ٢٧٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٠٩ . ولم يحدد ابن الخطيب (أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٥) عدد الفرسان المستنفرين من كل كورة كما فعل سابقوه ، وإنما ذكر العدد الإجمالى وهو ١٥ ألف فارس ومن بينهم أستجة .

(١٤٣) الخشنى ، قضاة قرطبة ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة – بيروت ، ١٩٨٢ ، ص٩٠.

(١٤٤) هو عمر بن حفص (المعروف بحفصون) بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذبيان بن فرغلوش بن أذفونش ، كان من مسالمة أهل الذمة ، أصله من كورة تاكرنا من عمل رندة ، وكان الذى أسلم من أجداده هو جعفر المعروف بالأسلمى ، وكان عمر ابن حفصون إمام ثوار الأندلس وكبيرهم منذ أواخر عهد الأمير محمد حتى مستهل ولاية عبد الرحمن بن محمد (الناصر) ، وقد استفحل خطره فى عهد الأمير عبد

الله (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) ، واتخذ فى البداية حصن ببشتر بكورة رية قاعدة له ، ثم استولى على عدة مدن وحصون أخرى من بينها أستجة التى اتخذها فى وقت من الأوقات قاعدة لعملياته العسكرية وحاضرته (راجع : ابن عذارى ، البيان ، ج٢ ، ١٠٦ ؛ الونشريشى ، المعيار المغرب ، نشر وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٨١ ، جـ١ ، ص١٠٩ ؛

Joaquin Vallve, De Nuevo Sobre Bobastro, R. At-Andalus, vol. XXX, Madrid 1965, p. 147.

(١٤٥) ببشتر Bobastro ، حصن فى غاية المناعة والحصانة من أعمال كورة رية ، يقع إلى الشمال من مربلة ، وهو على مسافة ثمانين ميلاً من قرطبة ، وكان هذا الحصن قاعدة للنصارى ، وكان يقوم على صخرة صماء ، ولهذا الحصن قرى كثيرة ، وحصون خطيرة (عن وصفه انظر : ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩٥ ؛ الإدريسى ، المصدر السابق ، ص٢٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، م١ ، ص٣٣٣ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص٣٧؛

Levi Provencal, la description, p. 99; Joaquin Vallve, Op. Cit., p. 145.

(١٤٦) ابن حيان ، المقتبس ، مكى ، ص٣٩٣.

(١٤٧) كان ابن حفصون يقول للمولدين والبربر والمستعربين « طال ما عنف عليكم السلطان ، وانتزع أموالكم ، وحملكم فوق طاقتكم ، وأذلتكم العرب واستعبدتكم ، وإنما أريد أن أقوم بثأركم ، وأخرجكم من عبوديتكم » ، ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١١٤ ؛ العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص١٧٠ ؛ محمد عيسى الحريرى ، حركات المولدين فى الجنوب الأندلسى فى عصر الإمارة الأموية بالأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٨٥، ٥٣ ؛

Joaquin Vallve, Ibid., p. 146.

(١٤٨) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١١٤.

(١٤٩) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٥١ ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢٦٠ ؛ أمين توفيق الطيبى ، عمر بن حفصون ، نشأته وبداية ثورته فى

إمارتى محمد بن عبد الرحمن وابنه المنذر ، أحد أبحاث كتاب « دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والأندلس » ، ليبيا – تونس ، ١٩٨٤ ، ص١٢٥؛

Levi Provencal, Historia, p. 235; Joaquin Vallve, Ibid., p. 148.

(١٥٠) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٥١ ؛ أمين توفيق الطيبى ، عمر بن حفصون ، ص١٢٧.

(١٥١) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق٢ ، رقم ١٦٢٨ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ ق١ ، رقم ٣٠٦ ، ص٩٩.

(١٥٢) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق٢ ، رقم ١٦٢٨ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ ق١ ، رقم ٣٠٦ ، ص٩٩.

(١٥٣) ابن حبيب (عبد الملك) ، كتاب التأريخ ، نشر خورجى آجوادى ، مدريد، ١٩٩١ ، ص١٥٢ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١١٤ ؛

Avila (Maria Luisa), la sociedad Hispanomusulmana Al Final del Califato, Madrid, 1985, pp. 80-81, nota 3.

(١٥٤) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٥٤ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٢٢ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، جـ١ ، ص١٥٤ ؛ عنان ، المرجع السابق ، ع١ ، ق١ ، ص٣٢٤ ؛ محمد عيسى الحريرى ، حركات المولدين ، ص٦٤ – ٦٥.

(١٥٥) أبن حيان ، المقتبس ، أنطونية ، ص٥٤ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٣١.

(١٥٦) عنان ، نفسه ، ع١ ، ق١ ، ص٣٢٤.

(١٥٧) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٩٤.

(١٥٨) ابن حيان ، نفس المصدر ، ص١٠٢ – ١٠٣ ؛ محمد عيسى الحريرى ، حركات المولدين ، ص٦٨.

(١٥٩) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٣٢.

(١٦٠) ابن حيان ، نفسه ، ص١٠٢ ؛ وحصن بلاى من أمنع حصـــون قــبرة Cabra ، وكان يقع على بعد خمسين كم جنوب غرب قرطبة ، وقد أفرط ابن حفصـــون فـــى تقويته وتحصينه وجعله مركزًا للسيطرة على كورة قبرة كلها ، وتقوم فى موضـــع بلاى اليوم قرية صغيرة تعرف باسم Aguilar de la Frontera (انظـــر : ابـــن حيان ، المقتبس ، مكى ، ص٥٥٦ ، تعليق رقم ٣٨٠ ؛ عنان ، دولة الإســلام ، ع١ ، ق١ ، ص٣٢٤ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 236.

(١٦١) لمزيد من التفاصيل عن معركة بلاى راجع : ابـــن عـــذارى ، البيـــان ، جــــ٢، ص١٢٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـــ٢٣ ، ص٣٩٥ ؛ ابن الخطيـــب ، أعمـــال الأعلام ، ق٢ ، ص٣١ ، ٣٥ ؛ إبراهيم القادرى بوتشيش ، أثر الإقطاع فى تـــاريخ الأندلس السياسى ، الرباط ، ١٩٩٢ ، ص٢٧٥

(١٦٢) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٩٦ – ٩٧ ؛ ابن عـــذارى ، البيـــان ، جـــ٢ ، ص١٢٣ – ١٢٤.

ولقد حدد ابن الخطيب تاريخ معركتى بلاى وأستجة بعام ٢٧٧هـــ (أعمال الأعــلام ، ق٢ ، ص٣٦) ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢٦١ ؛ عنـــان ، نفس المرجع ، ص٣٢٥ ؛

Joaquin Vallve, De nuevo sobre Bobastro, p. 149.

(١٦٣) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص٩٧.

(١٦٤) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص١١١ – ١١٢ . وكـــان طـــالب ابـــن مولود صنيعة للإمام عبد الله ، وكان قد بنى حصنى أقوط وجبل الحجـــارة، فقلـــده الأمير عبد الله ولايتهما (العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص١١٤) .

(١٦٥) لبلة تعرف بالحمراء ، وهى مدينة قديمة تقع فى غرب الأندلس على مقربـــة مـــن إشبيلية وبينها وبين المحيط الأطلنطى ستة أميال ، وكانت تجمع بين خيرات الـــبر والبحر ، وبها ثمانية أقاليم ، ولها سور منيع عقد على أربعة تمـــاثيل ، وانفــردت بهذه البنية من بين سائر المدن (عن وصفها راجع : العذرى ، نفســـه ، ص ١١٠

- ١١١ ؛ ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٩١ - ٢٩٢ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ؛

Levi Provencal, la description, pp. 91-92; Castro (F. R.), Nièbla Musulmana, Huelba, 1993, pp. 83-97.

(١٦٦) ابن حيان ، المقتبس ، ملشور أنطونية ، ص١١٩ - ١٢٠ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٣٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص٢٦٢ ؛ بوتشيش ، أثر الإقطاع ، ص٢٧٥ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 238; Castro, Niebla Musulmana, pp. 47-196.

(١٦٧) ابن حيان ، نفسه ، ص١٢٠.

(١٦٨) ابن حيان ، نفسه ، ص١٣٩.

(١٦٩) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص١٢٠ ؛ عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس ، ع١ ، ق١ ، ص٣٣٧.

(١٧٠) الزجالى ، أمثال العوام ، ق٢ ، رقم ٩٦٣ ، ص٢١٨

(١٧١) إبن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٤ - ٥٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٦٠ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 263.

(١٧٢) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٤ - ٥٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٦٠ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥ ؛

Anonimo, Una Cronica anonima de Abd Al-Rahman III, Al-Nasir, Granada-Madrid, 1950, p. 34; Avila (M. L.), Op. Cit., pp. 80-81.

(١٧٣) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٥٥ - ٥٦ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٦٠ ؛ عنان ، ع١ ، ق٢ ، ص٣٧٥ ؛ حسين مؤنس ، موسوعة تاريخ الأندلس ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، جـ١ ، ص٢٧٣.

(١٧٤) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥.

(١٧٥) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٧٧.

(١٧٦) تذكر ماريا لويسا آبلا أن أستجة لم تعد تلعب دوراً مهمًا في تاريخ الأندلس (Avila (M. L.), La Sociedad Hispanomusulmana, p. 81) . ولعلها تقصد تاريخ الأندلس السياسي ، فسوف نرى أنها رغم فقدانها لأهميتها السياسية بقية عصر الخلافة إلا أنها سوف تسهم بدور عظيم في حضارة البلاد خلال نفس هذه الحقبة ..

(١٧٧) ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص٢١٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١٩٦ ؛ مؤنس ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص٣٠٨ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 274.

(١٧٨) Levi – Provencal, Inscriptions Arabes, d' Espagne, Paris, 1931, p. 36.

(١٧٩) انظر الملحق بأسماء ولاة أستجة في آخر البحث .

(١٨٠) يحيى بن علي بن حمدون الجذامي بن الأندلسي ، كان جده الأكبر عبد الحميد هو الداخل إلى الأندلس من الشام واستقر بالبيرة . أما جده حمدون فقد دخل في خدمة الفواطم بالمغرب ، وازداد أبوه علي بن حمدون حظوة عندهم وشيد لهم مدينة المسيلة بالجزائر وتولاها ابنه جعفر من بعده ، وتحالف هو ويحيى مع بني خزر أمراء زناتة الموالين لبني أمية ، على حرب زيري بن مناد الصنهاجي ، فقاتلوه وانتصروا عليه وحزوا رأسه ، بعدها خاطب جعفر بن علي الخليفة الحكم المستنصر معتصمًا بدعوته ، فأذن له بالعبور إلى الأندلس ، ثم لحق به أخوه يحيى ، فأقاما مكرمين عند الحكم المستنصر، إلى أن سعى بهما إليه ، فسجنهما في الزهراء فتشفع لهما عبد الملك بن منذر بن سعيد ، فعفا عنهما ، وأعادهما إلى سابق حالهما (عن يحيى بن علي بن حمدون راجع : ابن حيان ، المقتبس ، الحجي ، ص٤١ ، ٥٦ – ٥٧ ؛ ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ١ ، ص٣٠٥ – ٣٠٨ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٢٤٢ – ٢٤٣ ؛ مجهول ، مفاخر البربر ، نشر ليفي بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ ، ص٥ – ٨ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 389.

(١٨١) ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص٥٦ – ٥٧ ؛

Levi Provencal, Historia, p. 389.

(١٨٢) ابن حيان ، نفس المصدر ، ص١٠٠.

(١٨٣) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ق١ ، رقم ٢٥٥ ، ص٨٠.

(١٨٤) كان من كبار موالى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأبرز شخصيات الموالى في عصره وعصر ولده الخليفة الحكم المستنصر ، وتولى قيادة جيش الثغر ، وأعاد بناء مدينة سالم بأمر الخليفة الناصر فى عام ٣٢٥هـ/٩٤٦م ، ولعب غالب الناصرى دوراً هامًا فى القضاء على ثورة الحسن بن كنون الإدريسى ضد النفوذ الأموى فى المغرب فى عام ٣٦٣هـ/٩٧٤م ، وعند عودته إلى الأندلس حمل معه الحسن بن كنون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ، فعقد الخليفة المستنصر هذا الاستقبال له (عن غالب الناصرى راجع : ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص١١٦ – ١٤٤ – ١٥١ ، ١٧٨ – ١٨٢ ، ١٩٤ – ٢٠٠ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص١١٣ – ١١٤ ، ٢٤٦ – ٢٤٨ ؛ حمدى عبد المنعم محمد حسين ، فارس الأندلس غالب الناصرى ودوره فى حوادث المغرب والأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م٣٧ ، ١٩٨٩ ، ص١١ – ٥٠) .

(١٨٥) ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص٢٠٠ – ٢٠١.

(١٨٦) ابن حيان ، المقتبس ، الحجى ، ص٢١٦.

(١٨٧) Levi – Provencal, Inscriptions Arabes, p. 37, Espagne Musulmane au Xe p. 93.

(١٨٨) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٢٨٨ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٨٨ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، م١ ، ص٤٠٩.

(١٨٩) إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا ، الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، نوقشت بآداب الإسكندرية ، ١٩٩٣ ، ص٤١٠؛

Wasserstein (David) The Rise and Fall of the Party-Kings, Princeton, New Jersey, 1985, p. 62.

(١٩٠) الأمير عبد الله الزيرى ، كتاب التبيان ، تحقيق أمين توفيق الطيبي ، منشورات عكاز ، الرباط ، ١٩٩٥ ، ص٥٨.

(١٩١) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص١٠٤.

(١٩٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث الدامية راجع : إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا ، المرجع السابق ، ص١٧٦ - ٢٧١ والمصادر والمراجع المذكورة هناك.

(١٩٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص١٠٢ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس، ص٥٩.

(١٩٤) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٥ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، ص٦٩.

(١٩٥) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص٧ ؛ إبراهيم عبد المنعم سلامة ، نفسه ، ص٢٥٢ - ٢٥٣ ؛

Wasserstein, The Rise and Fall of the Party-Kings, p. 66; Scales (P.), The Fall of the Caliphate of Cordoba, Leiden, New York 1994, p. 79.

(١٩٦) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٢٦ ؛

Levi - Provencal, Historia, p. 470.

(١٩٧) ينتسب بنو برزال إلى قبيلة زناتة البربرية ، وكانوا ينزلون بالمغرب في منطقة الزاب حول مدينة المسيلة ، وصاروا شيعًا لبنى على بن حمدون الأندلسى ،وانتقلوا إلى الأندس بواسطة جعفر بن على بن حمدون للخدمة فى جيش الخليفة الحكم المستنصر . ولقد لعبوا دوراً هامًا فى انتقال الخلافة لابنه هشام المؤيد ، ثم صاروا بطانة للمنصور العامرى وأولاده من بعده ، وشاركوا كغيرهم من القبائل البربرية الوافدة حديثًا إلى الأندلس فى أحداث الفتنة ، واستقرت شعبة منهم فى جيان ، أما غالبيتهم فقد استقلوا بقرمونة (عن بنى برزال راجع : ابن حزم ، جمهرة أنساب

العرب ، ص٤٩٨ ؛ ابن حيان ، المقتبس ، الحجي ، ص٤٤ ، ٥٦ ، ١٩١ – ١٩٢ ؛ ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص٢٤٢ – ٢٤٣ ، ٢٦٨ ؛ ابن خلدون ، العبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣ ، م٧ ، ص١١٢.

Idris (H. R.), Les Birzalides de Carmona, R. Al-Andalus, vol. XXX, Fasc I, Madrid, 1965, pp. 49-52.

(١٩٨) ولقد بايعته أيضًا أشونة والمدور لنفس السبب الذى بايعته أستجة من أجله (ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص٢٦٨ ، ٣١١ – ٣١٢ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٧٢ ؛ محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص١٤٩ ؛ حمدى عبد المنعم محمد حسين ، دولة بنى برزال ، قرمونة ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص٥٦ – ٥٧ ؛

Idris, Op. Cit., pp. 50-52; Viguera (M. J.), Los Reinos de Taifas, Al-Andalus en el Siglo XI, Espasa Calpe, Madrid, 1994, p. 50; Scales The Fall of the Caliphate of Cordoba, p. 178.

(١٩٩) بعد وفاة أبى عبد الله البرزالى فى عام ٤٣٤هـ ، بايعت أستجة وغيرها لابنه المستظهر عزيز بن محمد « فسار فيها بسيرة أبيه وزاد فى إحسانه لهم » (البيان ، جـ٣ ، ص٣١٢) .

(٢٠٠) ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص٢٣٠ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٦٤ ؛

Wasserstein, Op. Cit., p. 129.

ولعل اضطراب أحوال المستظهر البرزالى عندما بدأ المعتضد بن عباد (٤٣٩ – ٤٦٤هـ) فى مضايقته وإرهاقه بغزو أراضيه وانتساف زروعه، كان وراء قيام صاحب غرناطة باستقطاع أستجة من أملاك البرزالى ، وبسط سلطانه عليها .

مصادر ومراجع البحث

(أ) المصادر العربية :

(١) ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، التكملة لكتاب الصلة ، نشر عزت العطار ، مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد ، ١٩٥٦م.

(٢) ـــــــــــ ، الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥م.

(٣) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨هـ/١١٨٣م ، الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

(٤) البكرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق د. عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، ١٩٦٨ م.

(٥) ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد) ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م ، الكامل فى التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨م.

(٦) ابن حبيب (عبد الملك) ت ٢٣٨هـ/٨٥٢م ، كتاب التأريخ ، نشر خورخى آجوادى ، مدريد ، ١٩٩١م.

(٧) ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م ، فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، القاهرة، ١٩٧٤م.

(٨) ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد) ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م ، جمهرة أنساب العرب ، نشر عبد السلام هارون ، ط٥ ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٩) الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م جذوة المقتبس فى أخبار علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

(١٠) الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٧٠٥هـ أو ٧٠٩هـ/١٣٠٦م ، ١٣٠٩م ، صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر بروفنسال ، ط٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨م.

(١١) ابن حوقل (أبو القاسم) ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م ، صورة الأرض، ليدن ، ١٩٣٨م.

(١٢) ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين) ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م ، المقتبس فى تأريخ رجال الأندلس، نشره ملشوز أنطونية ، باريس ، ١٩٣٧م.

(١٣) ــــــــــــــ ، المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، نشره د. عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، ١٩٦٥م.

(١٤) ــــــــــــــ ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق د. محمود على مكى ، بيروت ، ١٩٧٣م.

(١٥) ــــــــــــــ ، المقتبس ، نشر بدرو شالميتا ، مدريد ، ١٩٧٩م.

(١٦) الخشنى (أبو عبد الله محمد بن الحارث) ت ٣٦١هـ/٩٧٢م ، قضاة قرطبة ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٨٢م.

(١٧) ــــــــــــ ، أخبار الفقهاء والمحدثين ، دراسة وتحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا مدريد ، ١٩٩٢م.

(١٨) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، ق٢ ، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤م.

(١٩) ــــــــــــ ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى القاهرة ، ١٩٧٣م.

(٢٠) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م ، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ المغرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبنانى ، مكتبة المدرسة ، بيروت ، ١٩٨٣م.

(٢١) الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد) ت ٥٤٨هـ/١١٥٥م ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشر دوزى ودى غويه ، ليدن ، ١٨٩٤م.

(٢٢) الرشاطى (أبو محمد) ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م ، وابن الخراط الإشبيلى، ت ٥٨١هـ/١١٨٦م ، الأندلس فى كتاب اقتباس الأنوار وفى اختصار اقتباس الأنوار ، تحقيق إميليو وبوسك فيلا ، مدريد ، ١٩٩٠م.

(٢٣) الزجالى (أبو يحيى عبيد الله بن محمد) ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م ، أمثال العوام فى الأندلس ، تحقيق محمد بن شريفة ، فاس ، ١٩٧٥م.

(٢٤) الزهرى (أبو عبد الله محمد بن أبى بكر) عاش فى ق٦هـ/ ق١٢م ، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، نشر بمجلة الدراسات الشرقية بدمشق، ١٩٦٨م.

(٢٥) الزيرى (الأمير عبد الله) كان حيًا ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ، مذكرات الأمير عبد الله الزيرى ، تحقيق د. أمين توفيق الطيبى ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ١٩٩٥م.

(٢٦) ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، ط٣ ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٨م.

(٢٧) الاصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم) ت ٣٤٦هـ/٩٥٨م ، المسالك والممالك، نشر دى غويه ، ليدن ، ١٩٢٧م.

(٢٨) ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) كان حيًّا ٧١٢هـ/١٣١٢م ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م.

(٢٩) العذرى (أحمد بن عمر بن أنس) ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تجقيق د. عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥م.

(٣٠) ابن غالب (محمد بن أيوب) عاش فى ق٦هـ/ق١٢م ، فرحة الأنفس، نشر د. لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، جـ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

(٣١) ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد) ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م ، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

(٣٢) ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر) ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت، ١٩٨٢م.

(٣٣) ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك) عاش فى ق٦هـ/ق١٣م ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، مدريد ، ١٩٧١م.

(٣٤) المراكشى (عبد الواحد بن على) ت ٦٦٩هـ/١٢٧٠م ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد زينهم محمد ، القاهرة ، ١٩٩٤م.

(٣٥) المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى) ت ٣٧٨هـ/٩٨٨م ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق دى غويه ، ليدن ، ١٩٠٦م.

(٣٦) المقرى (أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد) ت١٠٤١هـ/١٦٣١م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ م.

(٣٧) مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٨١م.

(٣٨) مجهول ، مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤م.

(٣٩) مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، مدريد ، ١٩٨٣م.

(٤٠) مجهول ، فتح الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، مدريد ، ١٩٩٤م.

(٤١) النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢هـ/١٣٣١ ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٣ ، تحقيق أحمد كمال زكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠م.

(٤٢) ابن هشام اللخمى (أبو عبد الله محمد بن أحمد) ت ٥٧٧هـ/١١٨١م، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، دراسة وتحقيق خوسيه بيريث لاثارو، مدريد ، ١٩٩٠م.

(٤٣) الونشريشى (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد) ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب ، نشر وزارة الأوقاف المغربية ، الرباط ١٩٨١م.

(٤٤) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) ، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م ، معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٩٧٨

(ب) المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة :

(١) بوتشيش (دكتور إبراهيم القادرى) ، أثر الإقطاع فى تاريخ الأندلس السياسى من منتصف القرن الثالث الهجرى حتى ظهور الخلافة ، منشورات عكاظ ، الرباط ، ١٩٩٢م.

(٢) تسيبولد ، أستجة ، مقال بدائرة المعارف الإسلامية ، نشر إبراهيم خورشيد وزميلاه ، دار الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٣) حسين (دكتور حمدى عبد المنعم محمد) ، التاريخ السياسى لمدينة إشبيلية فى العصر الأموى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٨م.

(٤) ــــــــــــ ، فارس الأندلس غالب الناصرى ودوره فى حوادث المغرب والأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م٣٧ ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م.

(٥) ـــــــــــــ ، دولة بنى برزال ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

(٦) ـــــــــــــ ، ثورات البربر فى عصر الإمارة الأموية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٩٣م.

(٧) الحريرى (دكتور محمد عيسى) ، حركات المولدين فى الجنوب الأندلسى فى عصر الإمارة الأموية بالأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٨٥م.

(٨) سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣م.

(٩) ـــــــــــــ ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٤م.

(١٠) أبو ضيف (دكتور مصطفى) ، القبائل العربية فى الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ .

(١١) طه (دكتور عبد الواحد ذنون) ، نظرة عصرية لعملية عبور مضيق جبل طارق ومعركة كورة شذونة ، الموصل ، ١٩٨٧م.

(١٢) الطيبى (دكتور أمين توفيق) ، عمر بن حفصون ، نشأته ثورته فى إمارتى محمد بن عبد الرحمن وابنه المنذر ، أحد أبحاث كتاب « دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والأندلس » ، ليبيا – تونس ، ١٩٨٤م.

(١٣) العبادى (دكتور أحمد مختار) ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية ، ١٩٦٨م.

(١٤) ـــــــــــــــــ ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، نشر مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، بدون تاريخ .

(١٥) عنان (محمد عبد الله) ، دولة الإسلام فى الأندلس ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٨م.

(١٦) ـــــــــــــــــ ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ط٣ ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٨م.

(١٧) أبو العلا (دكتور إبراهيم عبد المنعم سلامة) ، الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بآداب الإسكندرية ، ١٩٩٣م.

(١٨) مصطفى (دكتور شاكر) ، الأندلس فى التاريخ ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ١٩٩٠م.

(١٩) مؤنس (دكتور حسين) ، فجر الأندلس ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٩م.

(٢٠) ـــــــــــــــــ ، الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ط٢ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٦م.

(٢١) ـــــــــــــــــ ، موسوعة تاريخ الأندلس ، فكر وتاريخ وحضارة وتراث ، ط١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

(٢٢) الأمين (دكتور إسماعيل) ، العرب لم يغزوا الأندلس ، رياض الريس للكتب والنشر لندن ، ١٩٩١م.

(٢٣) الهاشمى (التهامى الراجى) ، الأبواب فى الأندلس ، مجلة المناهل ، عدد ١٣ ، الرباط ، ١٩٧٨م.

(٢٤) الأهوانى (دكتور عبد العزيز) ، ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمـــى فى لحن العامة ، مجلة معهد المصطلحات العربية ، م١ ، جـ١ ، القـاهرة ، ١٩٥٧م.

المراجع الأوربية الحديثة :

1- Aguado Bleye (P.), Manual de la Historia de Espana, t. 1, Madrid, 1947.

2-Alvarez de Morales (C.), Aproximacion a la figura de Ibn Abi –L-Fayyad y su Historia, Cuadernos de Historia del Islam, No. 9, Granada, 1978.

3- Anonimo, Una Cronica anonima de Abd Al-Rahman III, Al-Nasir, ed. Levi - Provencal, Gacria Gomez, Granada - Madrid, 1950.

4- Avila (Maria Luisa), la Sociedad Hispanomusulmana Al Final del Califato, Madrid, 1985.

5- Bosch Vila (Jacinto), Historia de Sevilla, La Sevilla Islamica, Sevilla, 1984.

6- Castro (Fatima Roldan), Niebla Musulmana, Siglos VIII – XIII, Huelba, 1993.

7- Chalmeta (Pedro), Invasion E Islamization, ed. Mapfre, Madrid, 1944.

8- Dozy (R.), Le Calendrier de cordoue de l'annee 961, Leiden 1873.

9- Guichard, (Pierre), Al-Andalus, Estructura Antropolgica de un Sociedad Islamica en Occidente, Barcelona 1976.

10- Idris (H. R.), Les Birzalides de Carmona, R. Al-Andalus, vol. XXX, Fasc I, Granada Madrid, 1965.

11- Levi - Provencal, Inscription Arabes, d' Espagne, Paris, 1931.

12- -------------, L'Espagne Musulmane au Xe Siecle, Paris 1932.

13- ------------, la description de l'Espagne d'Ahmed Al-Razi, R. Al-Andalus, Vol. XVII, Madrid 1953.

14- --------------, Historia de Espana Musulmana, ed Romon Menendez Pidal, Madrid, 1957.

15- Meouak (M.), Deux Familles d'Origine affranchip au service de L'Etat hispano-Umayyade, Les Banu Durri et Banu Tarafa, R. Anaquel Vol. II, Madrid, 1991.

16- Saavedra, Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid 1882.

17- Scales (Peter), The Fall of the Caliphate of Cordoba, Leiden, New York 1994.

18- Torres Balbas, La Via Augusto, y el Arrecife musulman, R. Al-Andalus, vol. XXIV, Madrid, 1959.

19- Vallve, (Joaquin), De nuevo sobre Bobastro, R. Al-Andalus, vol. XXX, Madrid 1965.

20- ------------, la division territorial de la Espana Musulmana, Madrid, 1980.

21- Viguara (Maria Jesus), Los Reinos de Taifas, Al-Andalus en el Siglo XI, ed Espasa Calpe, Madrid, 1994.

22- Wasserstein (David), The Rise and Fall of the Party-Kings, Princeten, New Jersy, 1985.

وزراء العصر العباسى الأول

١٣٢ - ٢٣٢ هـ

د. فايزة إسماعيل أكبر[*]

مقـــــدمة :

ليس المقصود من هذه الدراسة تعريف القارئ بماهية منصب الـــوزارة ، أو إعطاء القارئ ترجمة عن حياة وزراء هذا العصر، فقد ألفت فى هـــذا الموضـــوع العديد من الكتب والبحوث المتأنية ، وإنما الهدف الذى قصدنـــاه مـــن وراء هـــذه الدراسة هو إلقاء الضوء على الدور الذى لعبه أشهر وزراء هذا العصر فى مختلـف الجوانب العامة مما أحدث تغييرًا فى أوضاع المجتمع الإسلامى ؛ سواءً سياسيًا ، أم اقتصاديًا ، أم إداريًا ، أم اجتماعيًا .

ونظام الوزارة واحد من النظم السياسية الهامة فى الإسلام ، بل هو أهم النظم السياسية بعد الخلافة ، إلا أن منصب الوزارة – كمؤسسة مستقلة لـــها صلاحيـات معينة – لم يعرف إلا فى العصر العباسى . وفى ذلك يقول ابن طباطبا « الـــوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس . فأما قبل ذلك فلم تكـــن مقننة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشـــية ، فإذا حدث أمر استشار بذوى الحجا والآراء الصائبة ، فكل منـــهم يجـــرى مجـــرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزيـــر « وزيـــرًا » ، وكان قبل ذلك يسمى « كاتبا أو مشيرا »[١] .

فكلمة « وزير » كانت تعنى عند العرب فى صـــدر الإســـلام « المـــؤازر أو المعين » ، ولم يتعد هذا الاصطلاح المشاورة والمؤازرة بالرأى والعمل .

(*) أستاذ مشارك – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الملك عبدالعزيز – جدة .

وعندما أصبحت الخلافة ملكًا في بني أمية احتاج خلفاؤهم إلى من يستشيرونهم في أمور الدولة ويستعينون بهم في أمور القبائل والعصائب، واصطناع الأحزاب منهم فاختاروا بعض البارزين من ذوي الرأي والسياسة ليقوموا بمثل هذا العمل، فكان هؤلاء يقومون بمهام المعاونين والمستشارين والكتاب، لأن الوزارة كمنصب أو رتبة سياسية لم يكن قد تقرر أمرها بعد بصورة رسمية حتى أن بني أمية كانوا ينكرون أن يطلق على كتابهم ومعاونيهم لقب « وزير »، وفي ذلك يقول المسعودي : كانت ملوك بني أمية تنكو أن يخاطب كاتبًا لها بالوزارة وتقول : الوزير مشتق من الوزارة . والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة[٢] ولا يستثني من هذا إلا زياد بن أبيه ؛ إذ لقبه بعض الناس « بالوزير » في عهد معاوية بن أبي سفيان[٣] .

ويظهر من هذا أن العباسيين هم الذين عرفوا المعنى السياسي للوزارة وإن لم تظهر أهميتها في أوائل هذا العصر أيضًا . فقد عرف أبو سلمة الخلال أحد أركان الدعوة العباسية باسم وزير آل محمد إلا أنه لم يتمتع بصلاحيات أو سلطات كاملة في جميع الدواوين، كما أنه لم يظهر للوزارة أبهتها ورونقها في عهد أبي جعفر المنصور .

وباستقرار نظام الخلافة وتطور النظم الإدارية تطورت سلطة الوزير في تصريف شئون الحكم، ولم تكن صلاحيات من تولوا هذا المنصب محدودة، بل كانت تتوقف على مدى سلطة الخليفة من قوة وضعف، فبعض الوزراء تمتع بصلاحيات وسلطات إدارية واسعة وبعضهم لم يعط إلا سلطات محدودة حتى إن الماوردي صنف الوزارة صنفين رئيسين :

أولهما : وزارة التفويض الذي يمارس فيها الوزير صلاحيات الخليفة كاملة في الإدارة فيما عدا ثلاثة أمور، هي حق تعيين ولي العهد، أو عزل الخليفة، أو عزل من عينه الخليفة .

الثانى : وزارة التنفيذ ، وتأتى فى مرتبة تالية لوزارة التفويض وتقتصر فيها سلطات الوزير على تنفيذ أوامر الخليفة وقراراته(٤) .

ونظرًا لأهمية منصب وزير التفويض فإن هناك شروطًا يجب توافرها فيمن يلى هذا المنصب ، وهى غير معتبرة فيمن يلى منصب وزارة التنفيذ وهى :

- الحرية .
- الإسلام .
- العلم بالأحكام الشرعية .
- المعرفة بأمرى الحرب والخراج .

ولا أدل على أن منصب الوزارة يعد من أهم مناصب الدولة بعد منصب الخلافة ، من أن أصحاب هذا المنصب شاركوا الخليفة فى صنع القرار السياسى وتركوا بصمات واضحة فى النواحى السياسية ، والإدارية والاقتصادية ، والاجتماعية والفكرية . كما استغل بعضهم هذه الرتبة لأغراض معينة ولعل أشهر من استغل هذه المرتبة لأغراض سياسية خاصة هو أبو سلمة الخلال ؛ أول الوزراء العباسيين من حيث الترتيب الزمنى .

(أ) نشاط أبى سلمة الخلال السياسى قبل تسلم بنى العباس السلطة :

قاد أبو سلمة الخلال الدعوة للعباسيين فى الأعوام الخمسة الأخيرة قبل تسلم بنى العباس السلطة ، وهو أول من تلقب بالوزارة فى العصر العباسى . كان فارسى الأصل ، واسمه : حفص بن سليمان الهمذانى الخلال مولى بن الحارث بن كعب من العراق(٥) ، وقد اتفق أغلب المؤرخين القدامى على أنه كان من مياسير أهل الكوفة ، وكان يعمل بالصيرفة . أما تلقيبه بالخلال – نسبة إلى الخل – فربما

يعــود إلى أن منزله بالكوفة كان فى حارة الخلالين[٦] . تعرف أبــو ســلمة علــى الدعوة العباسية عن طريق « بكير بن ماهان » ، رئيس الدعاة بالكوفــة ، وأهمــهم على الإطلاق ، نظرًا لطول المدة التى قضاها فى رئاسة الدعوة ، وإخلاصــه لــها وتفانيه فى خدمتها[٧] .

ولعل أول عمل جدى قام به أبو سلمة فى خدمة الدعوى العباسية هو تكليفــه من قبل بكير بن ماهان بالذهاب إلى خراسان ليهيئ أنصار وشيعة العباسيين هنــاك ليوم الثورة المرتقب ، وقد طلب منه أن يأمر الشيعة بتسويد الثياب ، وأعطاه ثلاثــة رايات سود ؛ واحدة لمن بمرو من الشيعة ، والأخرى لمن بجرجــان ؛ وأن يبعــث بالثالثة إلى ما وراء النهر . واستطاع أبو سلمة أن يؤدى عمله بكفاءة عاليــة ، وأن يبث دعاته ورسله . وكانت مدة إقامته فى خراسان أربعة أشهر رجع بعدهــا إلــى الكوفة ، فكان بذلك أول من أدخل الرايات السود إلى خراسان وعمل علــى نشــر الدعوة بها[٨] .

وبعد وفاة بكير بن ماهان سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م تسلم أبو سلمة قيادة الدعــوة بناء على توصية ابن ماهان[٩] . واتخذ من الكوفة مركزًا له كما فعل ابن ماهان من قبل ، وذلك لوقوعها فى منتصف الطريق بين الحميمة فــى الأردن مقــر إبراهيــم الإمام وبين خراسان . وأخبر إبراهيم الإمام شيعته بخراسان أنه عيــن أبــا ســلمة الخلال كبيرًا للدعاة بالكوفة ، وأمرهم بطاعته[١٠]. وقد عمل أبو سلمة فــى خدمــة الدعوة العباسية بكل إتقان وإخلاص ، وبذل أموالاً طائلة من أجل إظهارها ، وذلــك فى أكثر مراحلها حرجًا . وكثيرًا ما كان يتردد على خراسان مشرفًا على أمورهــا هناك مصطحبًا معه أبا مسلم الخراسانى .

وهكذا استمر أبو سلمة داعيًا مخلصًا لإبراهيم الإمام فى الكوفة حتــى وقــع الأخير فى يد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذى أمر بقتله فى حران .

وفى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة العباسية لعب أبو سلمة دوراً سياسيًا مهمًا وبارزًا ، فما أن انتصرت الجيوش الخراسانية فى خراسان ودخلت العراق حتى أرسل أبو سلمة إلى محمد بن خالد بن عبد الله القسرى أن يعلن الدعوة بالكوفة مظهرًا السواد شعار العباسيين .

وكان أن مضى محمد بن خالد إلى قصر الإمارة فدخله ، ودعا الناس إلى البيعة للرضا من آل محمد ، بعد أن هرب صاحب الشرطة الموالى للأمويين إلى واسط ملتحقًا بابن هبيرة والى الأمويين على العراق(١١) . وبعد ذلك طلب أبو سلمة من الحسن بن قحطبة قائد القوات الخراسانية أن يدخل الكوفة ، فدخلها يوم الجمعة ١٠ محرم ١٣٢هـ/٣٠ أغسطس ٧٤٩م . وأقبل الحسن إلى أبى سلمة وسلم إليه الرئاسة ، وخاطبه باسم « وزير آل محمد » وبايعه أهل خراسان وأهل الكوفة ، وأضحى بذلك صاحب السلطة الفعلية والممثل الشرعى لآل محمد . ثم خطب أبو سلمة وهنأ القواد والجنود من أهل خراسان بالنصر وأعلن الإمامة الهاشمية دون أن يسمى الخليفة بالاسم(١٢) .

(ب) دور أبو سلمة السياسى والإدارى بعد ظهور الدعوة العباسية بالعراق :

وبعد هذا الانتصار الذى حققه أبو سلمة فى الكوفة وتسلمه جميع السلطات الفعلية بوصفه الممثل الشرعى لآل محمد ، رحل إلى حمام أعين على بعد ثلاثة فراسخ من الكوفة وعسكر بها . ومن هناك أخذ بتنفيذ سلطاته ومسئولياته ، فبدأ بتأسيس الدواوين وتعيين العمال عليها ، ووجه القواد إلى النواحى ليقاتلوا فلول الجيوش الأموية بها(١٣) . وفرق العمال فى البلدان ليضبطوا أمورها .

أما فيما يتعلق ببيت المال والخزائن فقد حمل ما فيها إلى المعسكر وأخرج اعطيات الجند منها . وأنفذ عمال الخراج إلى الأقاليم فجبا الخراج(١٤).

ومن معسكره بحمام « أعين » أخذ أبو سلمة يصدر الأوامر ويراسل أبا مسلم الخراسانى فى مستجدات الأمور ، ويدير شئون الثورة باسم الدعوة للإمام القائم من بنى العباس دون أن يسمى الخليفة(١٥) .

حاول أبو سلمة وللمرة الثانية أن يلعب دوراً سياسيًا بارزًا وخطيرًا على مسرح الأحداث . فكما كان له دوره الذى لا يستهان به فى قلب الحكم الأموى، أراد كذلك قلب الحكم العباسى إلى علوى فى أشد أوقات تاريخ الدعوة العباسية حرجًا . فعندما وصل أبو العباس وآل بيته إلى الكوفة فى صفر سنة ١٣٢هـ سبتمبر ٧٤٩م ، لم يستقبلهم أبو سلمة وأبقاهم خارج المدينة منكرًا قدومهم بقوله : (خاطروا بأنفسهم وعجلوا) وكتم أمرهم عن جميع القواد ، ورفض أن يدفع لهم نفقات الانتقال[١٦] .

ويتفق أغلب مؤرخينا الثقاة على انحراف أبى سلمة فى هذه الفترة عن العباسيين ، ورغبته فى استغلال الدعوة لصالح العلويين ، فاليعقوبى يرى أن سبب إخفاء أبى سلمة العباس وآل بيته (أنه دبر أن يصير الأمر إلى آل أبى طالب)[١٧]، بينما يرى المسعودى أن أبا سلمة حين بلغه مقتل إبراهيم الإمام أضمر الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية لآل أبى طالب ، (لأنه خاف انتقاص الأمر وفساده عليه)[١٨] . أما الجهشيارى فيذكر (أنه لما صح عند أبى سلمة موت إبراهيم الإمام لقى رجالاً من شيعة علىّ فناظرهم على نقل الأمر إلى ولد علىّ)[١٩] ، أى أنه لما درس أحوال بنى العباس لم يجد فيهم من يصلح أن يتولى إمامة المسلمين ، كما أشار الطبرى ، ومؤلف كتاب أخبار الدولة العباسية إلى أن تنكر أبى سلمة لأبى العباس وأهل بيته وتضيقيه عليهم[٢٠] .

على أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل ، إذ لم ترض تلك الأطراف قبول دعوة أبى سلمة الخلال ، وبذلك وقع أبو سلمة ضحية سوء تقديره ، وعدم بعد نظره .

وكان أبو سلمة الخلال فى تلك الأثناء يتغيب عن أبى العباس وأهل بيته، وكان كلما أرسل إليه أبو العباس ليسأله عن موعد ظهورهم يطلب منه التريث ، ويخبره بأن الوقت لم يحن بعد . وبقوا على هذه الحالة أربعين يومًا. وكذلك كان

يفعل مع الخراسانيين عندما يسألونه عن الإمام[٢١] ، إلى أن اكتشف الخراسانيون عن طريق أبى الجهم بن عطية الباهلى وعدد من القادة الآخرين مكان اختفاء أبى العباس وبايعوه وأعلنوا اسمه خليفة للدولة الجديدة .

وبعد فشل أبى سلمة فى جهوده التى بذلها لنقل الخلافة إلى العلويين وجد نفسه فى مأزق حرج ، فلا هو عباسى كما كان مع إبراهيم الإمام ، إذ أن قادة الثورة لم يكونوا مستعدين أن يتنازلوا عن سلطاتهم التى أحرزوها ، وكانوا على يقين من أنه لتأمين استمرار نجاح ثورتهم لا بد من التمسك بالعباسيين ، أصحاب الدعوة ، ومبايعة أبى العباس إمامًا لدولتهم الناشئة . كما أنه لم يجد من العلويين من ينصره ويأخذ بيده[٢٢] .

ولم يكن أمام أبى سلمة ، الذى تمت مبايعة أبى العباس له دون علمه ، إلا أن يقبل بالأمر الواقع ويبايع الخليفة ، مبررًا موقفه بأنه كان يحاول تمهيد الأمور لاستقامة الأمر[٢٣] . وتقبل السفاح عذره قائلاً : (عذرناك يا أبا سلمة غير مفند ، وحقك لدينا معظم وسابقتك فى دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة)[٢٤].

ويبدو مما تقدم أن أبا سلمة – بصفته الرئيس الفعلى للحكومة المؤقتة بالكوفة – كانت تقع على عاتقه مسئولية اختيار إمام جديد بعد موت إبراهيم الإمام ، ترضى عنه جميع الأطراف الهاشمية ، والخراسانية ، وقادة الثورة . لهذا ظل لمدة شهرين يبحث عن شخص قادر على استقطاب جميع هذه الأطراف ، لأن أبا العباس فى رأى أبى سلمة لم يكن الشخص المناسب لتولى هذا المنصب .

وعلى الرغم من معرفة أبى العباس بكل ما فعله أبو سلمة لإبعاده عن منصب الخلافة ، إلا أنه استوزره وأقر تلقيبه بوزير آل محمد . وقد أجمع المؤرخون على اكتساب الخلال لهذا اللقب قبل فترة الدعوة إلا أنهم اختلفوا حول الصلاحيات التى ترتبت على منحه ، فبعضهم يرى أنه كان لقبًا تشريفيًا أطلق على الخلال نظير خدماته ، وبعضهم يرى أنه كان ينطوى على مسئوليات محدودة .

وإذا دققنا النظر فى طبيعة المهام التى مارسها الخلال والمسئوليات التى تقلدها فى الفترة ما بين مقتل إبراهيم الإمام وتولى أبى العباس الخلافة نرى أنه كان صاحب السلطة الفعلية فى الكوفة . وقد اعترف بسلطته هذه جميع أنصار الدعوة . وذكر الجهشيارى أنه (عسكر فى حمام أعين قرب الكوفة وأقام بها ووزع عماله على السهل والجبل ، وصارت الدواوين بحضرته والكتب تنفذ منه وترد عليه)(٢٥)، بمعنى أنه أسس دواوين جديدة ، وقام بتعيين العديد من الولاة والعمال على الأقاليم، وجهز بعض الجيوش للقيام ببعض العمليات ، إلا أن سيطرته على الجيش لم تكن كاملة ، لأنها بقيت فى يد أبى الجهم بن عطية الباهلى ، مندوب أبى سلمة السياسى الذى رافق جيش قحطبة(٢٦) .

أما عن سلطاته وصلاحياته خلال توليه الوزارة بعد تولى أبى العباس الخلافة فيبدو أن ديوان الخراج ، وديوان الجند لم يكونا داخلين فى سلطته ، لأن الخليفة كان قد قلدهما لخالد بن برمك(٢٧) . ولا ريب فى أن هذين الديوانين كانا من أهم الدواوين فى الدولة ، فالأول يشرف على جباية الخرج ، المصدر الرئيسى لدخل الدولة ، بينما ينظم الثانى السجلات المتعلقة بمصروفات الجند، وهى أهم باب فى مصروفات الدولة آنذاك(٢٨) . وكثيرًا ما وقع الصدام بين سلطة أبى العباس وسلطة وزيره أبى سلمة ، لعدم تحديد صلاحيات الثانى ، الذى كان يرغب فى السيطرة على الجهاز الإدارى كله . وقد ذكر الثقاة من مؤرخينا (بأن أبا سلمة كان ينفذ الأمور من غير مؤامرة ، أى دون مشاورة وأنه كان يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين)(٢٩) .

وبعد أن ثبت أبو العباس أقدامه فى الحكم أحس بأن الفرصة مواتية له بأن يتخلص من وزيره ومنافسه السياسى الخطير . فكتب إلى أبى مسلم الخراسانى فى خراسان يستشيره فى قتل أبى سلمة ، فوافقه أبو مسلم على ذلك ، وأرسل رجاله

من خراسان لينفذوا عملية القتل فى رجب سنة ١٣٢هـ فبراير ٧٥٠م ، وأعلن رسميًا أن الخوارج اغتالته[٣٠] ، وقد كان للمنافسة بين العملاقين أبى مسلم الخراسانى وأبى سلمة الخلال دور كبير فى التعجيل بالتخلص من الخلال[٣١] .

وهكذا قتل أول من وقع عليه لقب الوزارة فى الدولة العباسية ، ولم تغفر له سابقته فى الدعوة وإسهاماته من الناحية السياسية فى قلب حكم الدولة الأموية ، وإسهاماته الجليلة فى خدمة الدعوة العباسية ، حيث أنفق كثيرًا من أمواله الخاصة على رجالها[٣٢] إلا أن هذه الجهود والخدمات لم تشفع له عند أبى العباس .

اختلف المؤرخون على من احتل منصب الوزارة بعد أبى سلمة الخلال، فقيل أن أبا الجهم بن عطية الباهلى هو الذى تسلم مسئوليات الوزير دون اتخاذ اللقب[٣٣]، وكان المهيمن على الجيش خلال تولى أبى سلمة الوزارة . وبعد مقتل أبى سلمة أصبح من المقربين من الخليفة ، وبمثابة حاجبه ومستشاره[٣٤] . وبذلك يكون قد جمع بين السيطرة على الجيش والسيطرة على الإدارة دون أن ينال لقبًا معينًا ، أو مرتبة سياسية أو إدارية معينة .

وقد بقى أبو الجهم رجلاً موثوقًا به ومقربًا من الخليفة أبى العباس مدة خلافته، فهو الذى أخرج أبا العباس من موضعه الذى أخفاه فيه أبو سلمة ، وقام بأمره حتى بويع ، ولكنه لم ينل تلك الثقة من قبل أبى جعفر المنصور ، فقد اتهمه أبو جعفر بأنه جاسوس لأبى مسلم الخراسانى ، وأنه يكاتبه بأخباره فتخلص منه بالسم[٣٥] .

على أن بعض المؤرخين يرون بأن أبا العباس بعد مقتل أبى سلمة استوزر خالد بن برمك وزارة تنفيذ . غير أنه رفض أن يسمى « وزيرًا » ، لأنه شؤم على صاحبه[٣٦] ، قد خلف أبا سلمة فى جميع مهامه ومسئولياته بالإضافة إلى إشرافه

على ديوان الجند ، وديوان الخراج والغنائم ، وفى الواقع أن إشراف خالد على الشئون المالية يرجع إلى ما قبل تولى أبى العباس الخلافة ، فقد تقلد خالد خراج ما يفتحه جيش قحطبة بن شيب الطائى من البلاد . كما أشرف على الغنائم وتوزيعها بين الجند ، وعرف عنه أنه كان عادلاً فى توزيعها ، فأرضى بذلك جميع أهل خراسان حتى وصفه الجهشيارى « بأن ما من أحد من أهل خراسان إلا وكان عليه يد ومنة ، لأنه قسط الخراج فاحسن فيه إلى أهله »[٣٧] ، ويبدو أن أبا العباس أراد الاستفادة من خبرة خالد فى الشئون المالية ، إضافة إلى خبرة قومه فى الناحية الإدارية، فأقره على ما كان تحت يده من الغنائم ، ثم قلده ديوان الخراج وديوان الجند . وظل خالد شخصًا موثوقًا به عند الخليفة يستشيره فى الأمور العظيمة ويعمل بنصائحه وبتدبيره[٣٨] .

فلما ولى أبو جعفر المنصور الخلافة أبقى خالدًا فى منصبه مدة فكان خير سند له فى تثبيت دعائم حكمه ، وفى إخماد الفتن والثورات[٣٩] . كما كانت له جهود بلرزة فى الإصلاح الإدارى ، فهو أول من ثبت الدواوين فى دفاتر بعد أن كانت تثبت فى صحف[٤٠] . وكان أول من سمى المستسمحين الذين يدخلون على الوزير لطلب العفو والسماح « بالزوار » ، وكانوا قبل ذلك يسمون بالسّؤال ، لأنه كان يستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف[٤١] .

ويبدو أن لخالد بن برمك دوراً سياسيًا مهمًا فى خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدى ابن المنصور .

إلا أن أبا جعفر عزل خالدًا من جميع مهامه وقلد أبا أيوب سليمان بن مخلد الموريانى وزارته . وولى خالد ولاية فارس لمدة سنتين ، ثم عزله عنها بسبب وشاية أبى أيوب الموريانى . فصادر أبو جعفر أملاكه وألزمه بدفع ثلاثة ملايين درهم[٤٢] . ثم عفا عنه بعد ذلك وولاه الموصل سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م وظل خالد

واليًا عليها ، حتى توفى المنصور ، فأبقاه المهدى عليها ، وكانت وفاة خـــالد ســـنة ١٦٣هـ/٧٧٩م فى أوائل خلافة المهدى(٤٣) .

أبو أيوب سليمان بن مخلد الموريانى :

يبدو أن أبا جعفر المنصور استفاد من تجربة أخيه أبى العباس مع وزيره أبــى سلمة الخلال ، فعمد إلى اتباع سياسة إدارية صارمة نجحت فـــى تحديـــد ســـلطات وزرائه . فبعد أن تخلص من أبى الجهم بن عطية ، وأبعد خالد بن برمك ، تــــردد المنصور فى اتخاذ وزير ، خوفًا من تضخم نفوذه . وكان معظم وزراء المنصـــور فى أعمالهم أقرب إلى الكتاب والمساعدين الإداريين منهم إلى الوزراء .

وفى ذلك يقول صاحب الفخرى « فلم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاســـتبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، وكانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالــون على وجل منه وخوف فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق »(٤٤) .

ولعل أبرز من ظهر على مسرح الأحداث من وزراء المنصور هو أبو أيــوب الموريانى ، وهو فارسى الأصل من موريان من قرى الأهواز . وكـــان ذا خــبرة إدارية بشئون العراق ، كما كان ضليعًا فى الكيمياء ، والطب والفلك، والرياضيــات، والسحر ، ولكنه لم يكن متمكنًا فى الفقه والشريعة الإسلامية(٤٥) .

وترجع مقدرة أبى أيوب الإدارية وخبرته بالشئون المالية إلى أواخـــر العـــهد الأموى ، فقد عمل كاتبًا لأمير الأهواز سليمان بن حبيب بـــن المـــهلب بـــن أبـــى صفرة(٤٦) . كما كان مستخدمًا فى الديوان فى ولاية يوسف بن عمر ، على العـــراق فى عهد هشام بن عبد الملك(٤٧) .

أما عن كيفية اتصاله بالعباسيين ، فقد حدث ذلك عندما كان أبو أيوب كاتبًـــا لسليمان بن حبيب بن المهلب . عندما قلد سليمان هذا أبا جعفر كـــورة ايـــذج بيـــن

خوزستان وأصبهان ، كان على أبى جعفر أن يرسل بعض الأموال إليه ، إلا أنه احتجزها لنفسه فقبض عليه سليمان وأمر بضربه، فخلصه أبو أيوب منه وكان ذلك بداية اتصال أبى أيوب بالمنصور(٤٨) .

وعندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة رأى أن ينتفع بخبرة المورياني الطويلة بشئون العراق الإدارية والمالية ، وفى نفس الوقت مكافئته على ما أسداه إليه من معروف ، فاستدعاه ، وأسند إليه بعض الأعمال . فكان أول عمل إدارى لأبى أيوب فى خلافة المنصور هو النيابة عن عبد الملك بن حميد ، كاتب المنصور، فى حال غيابه عن مجلس الخليفة . وحدث أن مرض عبد الملك بداء النقرس فلزم داره وقام أبو أيوب بالعمل نيابة عنه ، وقد وفق فى أدائه ، مما زاد منزلته عند المنصور ، حتى قلده وزارته ، والإشراف على الدواوين وتدبير شئون الدولة(٤٩) . ومما يدل على علو منزلته عند المنصور أنه عين جميع أهله وأقربائه فى المناصب الإدارية(٥٠) .

ونفى جواتياين صفات الوزارة وما يترتب عليها من صلاحيات عن أبى أيوب على الرغم من إبرازه حجم قوة مركزه بقوله : « ونستطيع أن نبرز قوة مركز أبى أيوب لو عرفنا حشد الموظفين الذين حشدهم المنصور ليحلوا محله فى المهام التى كان يشغلها بعد عزله »(٥١) ، مستندًا فى ذلك على رواية الجهشيارى بأن المنصور بعد عزل أبى أيوب عين ثلاثة مكانه ليقوموا بعمله، أحدهم للخاتم ، والثانى لشئون الخلافة العامة والمراسلات الخاصة ، والثالث لإدارة ضياعه(٥٢) . وحصر جواتياين بذلك عمل أبى أيوب الأساسى فى تقديم الخدمات الشخصية للخليفة وتشمل :

- مصاحبة الخليفة فى المناسبات العامة .

- العمل كمستشار خاص له .

- النظر في البريد الخلافي، والإشراف على الإنشاء .

- النظر في ضياع الخليفة الخاصة[٥٣] .

والحقيقة أن الجهشياري أطلق لقب وزير على أبي أيوب في عدة مناسبات[٥٤]، ولم يحصر سلطاته في المهام التي حددها جواتياين ، إذ ذكر في عدة مواضع الصلاحيات الوزارية التي منحها المنصور لأبي أيوب مثل تقليده للدواوين مع الوزارة . واستطاع أن ينال حظوة كبرى عند المنصور ، وأن يكون له نفوذ في الدولة حتى أنه عين جميع أقربائه في المراكز الإدارية، إضافة إلى جباية الخراج[٥٥] ، كما كان يشارك المنصور في اتخاذ القرارات السياسية ومنها :

القضاء على أعداء أبي جعفر ، فهو الذي طمأن أبا مسلم الخراساني عندما أراد المنصور أن يتخلص منه ، حتى يتمكن من القبض عليه . كما كان له دور إيجابي في القضاء على عبد الجبار الأزدي والي خراسان ، وفي العفو عن سفيان ابن معاوية قاتل عبد الله بن المقفع[٥٦] .

وهكذا نرى أن أبا أيوب لم يكن كاتبًا أو مستشارًا خاصًا لدى المنصور ، وإنما كان نفوذه وسلطاته أكبر من ذلك بكثير ، حتى أصبح مهابًا عند الخاصة من أهل بيت الخلافة وعند العامة ، فهم يلجئون إليه لقضاء حوائجهم ، وإذا بدرت منهم بادرة يلتمسون العفو من المنصور على يديه .

استمرت علاقة المورياني بالمنصور وثيقة جدًا إلى أن بدأت سموم الوشاية تعمل عملها في نفس المنصور ، وبدأ المنصور يشك في إخلاص المورياني ، ووفائه له نتيجة لسعاية الربيع بن يونس حاجب المنصور وأبان بن صدقة كاتب أبي أيوب ، وكان في نفسهما شيء منه . فقد نجح الاثنان في إبلاغ أبي جعفر عن أدق تفاصيل تحركات المورياني وأقربائه الذين عينهم في المناصب لجمع الثروات الضخمة وابتزازهم للأموال .

ويبد أن الموريانى استغل واردات الدولة المالية من جباية وخراج والنظر فى ضياع وممتلكات الخليفة الخاصة لصالحه الخاص ، ومن ذلك :

- احتكاره لرخص المواد الغذائية فى سواد الكوفة والبصرة طمعًا فى الربح(٥٧) .

- أخذه مبلغ ثلاثمائة درهم لإصلاح ضيعة ابن الخليفة (صالح المسكين) بالقرب من الأهواز فأخذ المال ولم يصلحها(٥٨) .

- المتاجرة باسمه، ومركزه، ومن ذلك بيع اسمه لصاحب ضيعة من الأهواز بمبلغ من المال، يقدر بمائة ألف درهم فى كل سنة، وذلك حتى يرهبه العمال والناس فلا يعتدون على ضيعته(٥٩) .

- مشاركته هو وأخوه خالد فى الأرباح مع العمال الذين يعينهم على الجباية، حتى قيل بأن الأموال التى كانت تجمع من جباية الأهواز كان يذهب نصفها لبيت المال والآخر يذهب إلى بيت مال خالد شقيق أبى أيوب(٦٠) .

وعندما تحقق للمنصور سوء تصرفات وزيره وأعوانه وابتزازهم للأموال ، أمر بعزل الموريانى عن الوزارة ، كما عزل جميع أقربائه وسجنهم وصادر أموالهم وضيق عليهم سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م . وبقى الموريانى فى السجن حتى مات فى السنة التالية سنة ١٥٤هـ/٧٧١م .

وبعد عزل أبى أيوب قلد أبو جعفر الفضل بن سليمان الطوسى الخاتم ، وقلد أبان بن صدقة ديوان الرسائل ، وقلد صاعدًا مولاه النظر فى ضياعه وممتلكاته الخاصة ، كما ولى ديوان خراج البصرة ونواحيها عمارة بن حمزة، وديوان خراج الكوفة وأرضها عمرو بن كيلغ(٦١) .

وهكذا يبدو أن توليه أبى أيوب الموريانى الوزارة كانت تجربة أبطلها المنصور بعد ذلك ، إذ أنه لم يعين أحدًا مكانه ، واستمر كعادته يمارس السيطرة المباشرة على شئون دولته .

أشهر وزراء مرحلة الاستقرار وأثرهم على النواحى الاقتصادية والسياسية :

١ - أبو عبيد الله معاوية بن يسار وأثره على النواحى الاقتصادية :

عرف عهد المهدى بأنه بداية عهد الاستقرار والازدهار للدولة العباسية، لأن والد المنصور ترك له دولة آمنة مستقرة مليئة خزائنها بالأموال[٦٢] . ففى عهده نمت المؤسسات الإدارية ورسخ النظام الوزارى ، فازدهرت نتيجة لذلك الحياة الإدارية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وبدأ منصب الوزارة يتخذ معالمه وتتسع صلاحيات الوزراء . وقد منح المهدى الوزراء سلطات واسعة واعتمد عليهم بشكل كبير ، وكان يتم تعيينهم وفقًا لكفاءتهم الإدارية والكتابية .

ومن أشهر وزراء المهدى أبو عبيد الله معاوية بن يسار الأشعرى الطبرانى ، وهو جد محمد بن عبد الوهاب الكاتب[٦٣] ، أصله من فلسطين ، حيث خدمت أسرته الإدارة الأموية ، وكان والده كاتبًا لقائد جند الأردن فى طبرية .

ومن هنا جاءت نسبة الطبرانى إلى أبى عبيد الله[٦٤] .

واختار المنصور أبا عبيد الله بن يسار لتربية ابنه المهدى ، وأن يكون كاتبًا له ، يقول صاحب الفخرى « أن المنصور كان قد عزم على أن يستوزره ، ولكنه آثر به ابنه المهدى وأوصاه بأن يمتثل لمشورته »[٦٥] .

إن اختيار المنصور أبا عبيد الله معاوية بن يسار لتربية ابنه وولى عهده « المهدى » يرجع إلى خبرة أبى عبيد الله وأسرته فى الشئون الإدارية . وكذلك إلى علمه وحسن تصرفه ، فقد نال أبو عبيد الله فى صغره نصيبًا كبيرًا من العلوم المختلفة ، مما كان له أثره فى حسن تصرفه وإبداعه فى تنظيم الشئون الإدارية والمعاملات الاقتصادية . لازم أبو عبيد الله مولاه المهدى طيلة فترة ولايته للعهد ، فقد رافقه فى حملته على خراسان سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م ، وأقام معه فى الرى مدة طويلة عمل أثنائها على تدبير شئونه الإدارية والمالية بكل حرية وكفاءة[٦٦] . كذلك

استعان به المنصور فى أخذ البيعة للمهدى من عيسى بن موسى ، وفى كتابته نص تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد للمهدى[٦٧] .

وبعد وفاة المنصور أخذ أبو عبيد الله البيعة العامة من الناس فى بغداد للمهدى . فكان طبيعيًا أن يقلده المهدى وزارته ودواوينه سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م نظير كفاءته وإخلاصه[٦٨] . ويعد أبا عبيد الله من أكثر وزراء العصر العباسى إنجازًا من الناحية المالية . فكان على عكس سلفه أبى أيوب الموريانى ، شديد الحرص على بيت المال ، يشير على المهدى بالاقتصاد فى النفقة ، وعدم الإسراف[٦٩] . كما كان عفيفًا يحب الخير ويحض عليه ، ويعطف على المحتاجين إلا أنه يؤخذ عليه أنه كان شديد التكبر والتيه[٧٠] .

وعلى الرغم من قصر مدة وزارة أبى عبيد الله إلا أنه أنجز عدة إصلاحات إدارية ومالية لم يعمل بها من قبل ، واحتذى بها من جاء من بعده، يقول عنه ابن طباطبا « أنه كان مقدمًا فى صناعته فاخترع أمورًا » . فمن هذه الأمور إصلاحاته الإدارية والمالية والتى منها أنه[٧١] :

- رتب ديوان الخراج وقرر قواعده .

- أول من صنف كتابًا فى الخراج وتبعه آخرون بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج .

- نظم جباية الأموال .

- نقل الخراج من المساحة إلى المقاسمة .

وقد تم وضع نظام المقاسمة سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م ، وكان الخراج يؤخذ بالنقد وعلى مساحة الأرض ، زرعت أم لم تزرع . فرأى أبو عبيد الله أن تطور الظروف يستلزم إجراء تعديل هذا النظام . لأن إهمال الولاة الأمويين كان قد أدى إلى خراب السواد وتدهور الزراعة ، فأشار على المهدى بنظام المقاسمة[٧٢] . الذى يقوم على جعل أرض الخراج من المساحة على الجريب إلى المقاسمة على الإنتاج، وكان على النحو التالى :

« النصف على الأراضى التى تسقى سيحًا[٧٣] والثلث على الأراضى التى تسقى بالدوالى ، والربع على تلك التى تسقى بالدواليب.. ولا شيء عليهم سوى ذلك»[٧٤] . أما خراج الكروم والنخيل والشجر فإنه بقى على النظام القديم ، ولكنه روعى فيه القرب من الأسواق والموانئ ، إضافة إلى جودة الحاصل أو رداءته ، فقلل بذلك من عسف الجباة[٧٥] .

ومن ضمن سياسة أبى عبيد الله معاوية بن يسار المالية اهتمامه بتحسين وإصلاح الأراضى الزراعية ، لما للعلاقة الوثيقة بين الزراعة وواردات الخراج وغيره من الضرائب الأخرى . وقد أشار الوزير على الخليفة المهدى بأن تكون نفقات الإرواء من إنشاء شبكات الإرواء والتصريف وبناء السدود ، وعمل القناطر وسد الشقوق وحفر الأنهار وتقوية الضفاف، من بيت المال[٧٦]. ويبدو أن هذا النظام لم يستمر طويلا ، فعندما أمر المهدى بحفر نهر الصلة وإحياء ما على ضفتيه من الأراضى وجعل نفقتها صلة لأهل الحرمين فإن نفقات حفر هذا النهر دفعت من بيت مال المسلمين ، إلا أن المهدى بعد ذلك أمر بمضاعفة الضريبة المفروضة على المزارعين المستفيدين من حفر هذا النهر لمدة خمسين سنة تعويضا لبيت المال عن تلك النفقات[٧٧] .

وكما كانت إسهامات أبو عبيد الله معاوية بن يسار إسهامات عظيمة فى خدمة الاقتصاد الإسلامى كذلك كانت كفاءته الإدارية والكتابية . فقد كان المهدى يستعين به أثناء جلوسه للمظالم ، ويشاوره فى تعيين ولاة الأقاليم . وكان يخصه بكتابة الرسائل المهمة الصادرة عنه ، فهو الذى كتب إلى الأقاليم نيابة عن المهدى كتاب تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد إلى موسى الهادى ، وكذلك فعل عندما أخذت البيعة لهارون وليا ثانيا للعهد[٧٨] . وهو الذى قام بتحرير كتاب يأمر فيه عمال الخراج برفع العذاب عن أهل الخراج الذين كانوا يعذبون بصنوف العذاب من السباع والزنابير عندما لا يستطيعون إيفاء ما عليهم من أموال وطالب عمال الخراج بأن يعاملوهم معاملة الغرماء[٧٩] .

ظل أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، مقربًا من المهدى ومحط ثقته، إلا أن شدة تكبره وتخطيه حدود سلطاته ، وتدخله فى أمور لا تعنيه نفرت منه الخليفة ، وأصبح عرضة للمنافسين له والوشاة ، ومن لهم مصلحة فى إبعاده عن منصبه . وكان الربيع بن يونس من أشد هؤلاء المنافسين لأبى عبيد الله ، ولم يجد الربيع سبيلاً إلى طعن أبى عبيد الله فى شخصه ، وذلك لكفاءته وتقدمه فى صناعته وورعه ، وتقواه ، ولكنه وجد السبيل إلى ذلك فى اتهام أحد أبنائه بالزندقة ، واقنع المهدى بذلك ، فأمر المهدى بقتله وكان ذلك سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م(٨٠) .

وبعد هذه الحادثة صرف المهدى أبا عبيد الله عن وزارته ، مكتفيًا بجعله على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل سنة ١٦٧هـ/٧٨٣م فقلده الربيع بن يونس(٨١) . وما زال أبو عبيد الله يؤدى عمله فى بلاط الخليفة بكل أمانة وإخلاص إلى أن طلب المهدى من الربيع أن يحجبه عنه استحياءً منه بسبب إقدامه على قتل ولده . فانقطع بداره ، واضمحل أمره ولم يطل العمر به إذ توفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م(٨٢) .

٢ - يعقوب بن داود وسياسة المصالحة مع العلويين :

هو يعقوب بن داود بن عمرو بن عثمان بن طهمان ، مولى بنى سليم(٨٣) ، فارسي الأصل ، نشأ فى بيئة اشتغل أفرادها بالكتابة ، فقد خدم والده وأعمامه الأمويين ، واشتغلوا كتابًا فى الديوان فى خراسان حتى ولاية نصر بن سيار . وعرف بشغفه بالأدب وصنوف العلم(٨٤) . وبعد قيام الدولة العباسية لم يطمع أفراد هذه الأسرة فى خدمة بنى العباس ، لاتصالهم ببنى أمية وعدم ثقة العباسيين بهم . فتقربوا من آل الحسن واعتنقوا المذهب الزيدى وطالبوا بالخلافة لمحمد بن عبد الله بن الحسن « النفس الزكية » طمعًا فى أن يكون لهم دولة يعيشون فى كنفها . وكان يعقوب هذا يجول فى البلاد منفرداً تارة ، وأحياناً أخرى مع إبراهيم بن عبد الله فى طلب البيعة لمحمد النفس الزكية . فلما قتل محمد وأخوه إبراهيم وفشلت ثورتهما على يد المنصور سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م توارى يعقوب وأخوته . فطلبهم

المنصور حتى ظفر بهم وحبس يعقوب فى السجن طوال عهد المنصور لأكثر من عشر سنوات[٨٥] . وعندما تولى المهدى الخلافة أمر بإطلاق سراحه من السجن بعد أن عفى عن أغلب السجناء السياسيين[٨٦] .

أما عن كيفية اتصال يعقوب بالخليفة المهدى وحصوله على ثقته ، ومن ثم اختياره وزيرا له ، فقد أرجعتها المصادر إلى أسباب سياسية ، وهى ميول يعقوب العلوية ، وقربه من الشيعة ومعرفته بهم ، ولكنها تختلف فى تفسير ذلك[٨٧] ، ولكن مهما يكن من اختلاف تفسيرات المؤرخين حول كيفية وصول يعقوب بن داود إلى الخليفة المهدى ، فإن جميعها تدل على أن تقريب يعقوب كان له هدف سياسى محدد وهو السعاية بآل على .

وبذلك حظى يعقوب برضى الخليفة فأعطاه لقبا فريدا من نوعه هو « الأخ فى الله » وخط ذلك فى خطاباته ومراسلاته الرسمية التى كانت تحفظ ضمن أوراق الخلافة ، وأخرج توقيعات تثبت فى الدواوين وأسبغ عليه مبلغ مائة ألف درهم[٨٨] .

واستطاع يعقوب فى وقت قصير أن يحوز على ثقة الخليفة فكان يدخل عليه وقتما يشاء ، ويقدم له النصائح فى أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العزاب ، وفكاك الأسرى والمحبوسين والقضاء على الغارمين، والصدقة على المتعففين[٨٩] .

ولا شك فى أن تلقيب المهدى « يعقوب بن داود » بلقب «الأخ فى الله» له مغزاه السياسى، فقد أراد المهدى أن يستغل ظروف يعقوب واتصالاته بالعلويين ، ليكسب جانبهم ويرصد تحركاتهم وأنشطتهم، وليأنس العلويين بحكمه من جهة ثانية.

ولتسهيل مهمة يعقوب فى سياسة المصالحة مع العلويين منحه المهدى سنة ١٦١هـ/٧٧٨م سلطات سياسية كبيرة ، مثل حق تعيين أمناء له فى جميع الولايات، ومنح هؤلاء الأمناء سلطة على الولاة أنفسهم « فكان لا ينفذ للمهدى كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك»[٩٠].

ولم يزل أمر يعقوب يرتفع ويعلو عند المهدى حتى استوزره وفـوض إليـه أمـر الخلافة ، أى أنه وزره وزارة تفويض ، وأصـدر مرسـومًا رسـميًا بذلـك سـنة ١٦٣هـ/٧٧٩م ، فازدادت منزلة يعقوب علوًا ، حتى أخذ يقرب الزيدية وأتى بـهم من كل ناحية ، وولاهم مناصب الدولة ليس فى العراق وحدها وإنمـا فـى جميـع الولايات(٩١) .

على أن سياسة المصالحة هذه لم تأت بالنتائج المرجوة منها ، وذلك لأمـور منها :

أولاً : لأن الخلافات بين العلويين والعباسيين كانت عميقة جـدًا ، فـالعلويون لـم يستسيغوا سياسة المصالحة كما أنهم لم يثقوا بيعقوب ، واعتـبروه شـخصًا انتهازيًا ، ولم يسلم عيسى بـن زيـد نفسـه رغـم التـأكيدات والجوائـز والضمانات التى حصل عليها من الخليفة عن طريق المهدى(٩٢) .

ثانيـًا : أثارت الصلاحيات الكبيرة التى منحها يعقوب لأمنـاء وموظفـى الزيديـة عداء أصحاب البريد وولاة الولايات ، فأخذوا يوغرون صدر المهدى علـى يعقوب ، معللين ذلك بأن ميله للعلويين هـو الـذى جعلـه يمنحـهم تلـك الصلاحيات(٩٣) .

وبذلك بدأت علاقة المهدى تتبدل تجاه يعقوب شيئًا فشـيئًا ، ووجـد حسـاده الفرصة سانحة للتخلص منه خاصة عندما أطلق يعقوب سراح أحد العلويين الذيـن عهد بهم المهدى لديه ، وهربه(٩٤) . فأمر المهدى بسجن يعقوب وطرد جميع أمنائه، فظل فى السجن حتى وفاة المهدى والهـادى ، وأطلق سراحه الرشيد بعد أن شـفع له يحيى بن خالد البرمكى ، فاخرج من السجن بعد أن ذهب بصره وعمى فطلـب أن يجاور فى مكة ، وأقام بها حتى توفى هناك سـنة ١٨٧هـ/٨٠٣م . وكـانت وزارته للمهدى حوالى خمس سنوات(٩٥) .

وكان يعقوب ينتقد إسراف المهدى ، وتبذيره للأموال ، وكان كثيرًا ما يشير عليه بالاقتصاد فى النفقات ، وحفظ الأموال ، ولا يتورع عن وصف عمله صراحة بالسرف قائلاً له فى أحد المواقف التى استشاره فيها : « هذا يا أمير المؤمنين السرف » .

كما أنه كان ينتقد بعض تصرفاته وجلوسه فى مجالس الغناء واللهو وإنفاقه ٥٠ مليون درهم من بيت مال المسلمين على بناء منتزه . وبلغ من ضيقه أن طلب منه إعفاءه من منصبه قائلاً : « ليس على هذا استوزرتنى ، ولا على هذا صحبتك، أبعد الصلوات الخمس فى المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ ، وتسمع السماع[٩٦] . وقد اتهم المهدى بصرف وتبذير جميع الأموال التى ادخرها والده المنصور فى خزينة الدولة ، وتقدر بتسعمائة وخمسين مليونًا من الدراهم[٩٧] .

البرامكة وزراء الرشيد :

وفى عهد هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ) توضحت أعمال الوزارة وتحددت صلاحيات الوزير ، وصارت الدواوين تسجل وتراقب ، ولها أصحاب متخصصون وفروع منسقة . ولعل من أبرز العناصر التى ساهمت فى تنظيم الوزارة والدواوين أسرة آل برمك ، التى لعبت دورًا خطيرًا فى هذه الحقبة من الزمن . فلقد هيمن على الوزارة يحيى بن خالد البرمكى وأولاده، واستأثروا بالنفوذ والسلطان . ولقد كان لهذه الأسرة أثر واضح وفعال فى المجتمع الإسلامى ، مما يستوجب منا أن نلقى الضوء على نشاطها فى عصر بنى العباس .

تؤكد الروايات المختلفة على أن أصول البرامكة يرجع إلى الفرس ، وأن هذه الأسرة كانت لها وجاهة قبل دخولها الإسلام .

ويقال أنهم اعتنقوا الإسلام على المذهب الشيعى فى عصر الدولة الأموية بعد أن فتح المسلمون أواسط آسيا ، وأن برمك أسلم زمن عبد الملك بن مروان وكان رجلاً عالمًا بالطب والتنجيم[٩٨] .

وأول من اتصل من البرامكة بالعباسيين هو خالد بن برمك جد هذه الأسرة الذى لعب دوراً مهمًا فى النواحى الإدارية فى عهد كل من السفاح ، وأبى جعفر المنصور ، وشيء من خلافة المهدى ، حتى توفى سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م « كما سبق وأن أشرت إلى ذلك » ، أما أشهر شخصية فى أسرة البرامكة فكانت شخصية يحيى ابن خالد ، الذى عرف بمهارته وحسن إدارته لشئون الدولة قبل أن يتولى وزارة هارون الرشيد . ذلك أنه حاز على ثقة المنصور فولاه سنة ١٥٨هـ/٧٧٥م على « أذربيجان » ، و«أرمينية» قائلاً له : « أردتك لأمر من الأمور واخترتك لثغر من الثغور »[٩٩] فبقى واليًا عليها حتى وفاة المنصور .

وقد ازدادت منزلة يحيى شرفًا فى عهد الخليفة المهدى ، عندما عهد إليه بتربية ابنه هارون ، فقام بأداء هذه الرسالة خير قيام ، ثم أسند إليه المهدى الإشراف على دواوين هارون ، وجعله كاتبًا له بعد أن ولى المهدى أبنه الرشيد ولاية المغرب من الأنبار إلى إفريقيا سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م[١٠٠] . وقد استمر يحيى فى إخلاصه لهارون طيلة فترة حكم أبيه المهدى ، وخلافة أخيه الهادى ، الذى أراد خلعه من ولاية الحكم ، وجعلها لابنه جعفر من بعده .

وحرص يحيى البرمكى دومًا على حث هارون على التمسك بحقه فى ولاية العهد ، وعدم الاستجابة لرغبة الهادى[١٠١] ، وظل يسانده حتى وصل إلى سدة الخلافة ، مزوداً إياه بالخبرات التى كانت تنقصه . ذلك أن هارون ولى الخلافة وهو فى مقتبل العمر ، تعوزه الكفاءة والخبرة فى إدارة الشئون العامة[١٠٢] .

وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك عوامل أسرية وعاطفية ربطت هارون بيحيى وأسرته ، فقد رضع هارون من زوج يحيى ، فأصبح أولاد يحيى أخوته فى الرضاعة ، كما تربى وتهذب على يدى يحيى ، الذى كان يسهر على خدمته وراحته ، معرضًا حياته للخطر ، فنزل بذلك يحيى من نفس هارون منزلة عظيمة ، حتى أنه كان يناديه بـ (يا أبت) . وقد عبر عن حفظه للجميل الذى أسداه له يحيى - حين ثبته على التمسك بحقه إلى أن وصل واعتلى كرسى

الخلافة - بقوله عندما بويع بالخلافة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م : (يا أبت أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته إليك فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإننى غير ناظر معك فى شئ)[١٠٣] .

إذا فلا غرو بعد ذلك وعجب فى أن يسلم هارون عنان الأمور فى الدولة ليحيى وأسرته حتى قيل إن هارون سلم لهم خاتم الدولة ، فتداولوه بينهم بين سنة ١٧٣ إلى ١٨٠هـ[١٠٤] وبذلك أصبحت ليحيى سلطة تكاد تكون مطلقة ، فكانت له إدارة الدواوين كلها مع الوزارة[١٠٥] . وكان يحيى أول أمير من الوزراء حمل لقب وكانت الكتب التى تنفذ من ديوان الخراج باسمه ، ولم تكن تنفذ إلا عن الخليفة[١٠٦] ، وهى بدعة استنها الرشيد تجعل الوزير بمثابة النائب عن الخليفة .

وقد ساعد يحيى فى إدارة شئون الدولة ، ولداه الفضل وجعفر ، مدة سبعة عشر عاما من ١٧٠هـ-١٨٧هـ/٧٨٦م-٨٠٣م وقد باشروا فى هذه المدة جميع النواحى الإدارية ، والعسكرية ، والمالية ، والعلمية ، والأدبية[١٠٧] حتى أن الفضل كان يلقب « بالوزير الصغير » فى حين لقب جعفر « بالسلطان »[١٠٨] . وبذلك هيمن يحيى وأبناؤه على دولة الرشيد وحياته فى بداية عهده ، حتى أنهم كانوا يقيمون معه فى قصر الخلد[١٠٩] . لهذا فإن جميع الأمور التى كانت تجرى باسم الرشيد فى بداية عهده طبعت بطابع البرامكة ، فهم الذين يديرون أمور الدولة ، وهم الذين يحلون المشاكل وهم الذين يتصدون للأعمال ، فى حين أن الرشيد حرر نفسه من جميع هذه المسئوليات الإدارية ، وتسلم قيادة الجيوش لمحاربة البيزنطيين.

وبينما كان اهتمام الرشيد منصبا على تأمين الحدود الشمالية مع البيزنطيين ، كان يحيى يشرف على الأمور الداخلية ، ويستقل تدريجيا عن الخليفة فى الرأى ، ويختار بنفسه معاونيه فى الإدارة ، ويهيمن على كتاب الدواوين ، ويراقب أعمالهم فى الدواوين المركزية[١١٠] ، حتى قيل (إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد

خمسة وعشرين رئيسًا من بين صاحب سيف وصاحب قلم[١١١] . أما ولاة الأقـــاليم فكان يعينهم بعد أن يكتفى ظاهريًا باتباع رأى الخليفة)[١١٢] .

من ذلك أنه عين ابنه الفضل سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م على ولاية المشرق ، وهى الجهات الواقعة غربى إيران « منطقـــة الجبـــال ، طبرســـتان ، أرمينيـــة توســـى وأذربيجان » ، لأن الأوضاع لـــم تكن مستقرة بها ، خاصة بعدما التجأ إليها يحيـــى ابن عبد الله العلوى الـــذى فـــر من موقعة فـــخ سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م وقام بثورتـــه فى بلاد الديلم فى بحر قزوين سنة ١٧٥هـ/٧٩١م[١١٣] . وقد نجح الفضل بعد فترة قصيرة فى إخماد نيران هـــذه الثورة باللين ، ودون سفك دمـــاء ، بعدمـــا أقنـــع يحيى بقبول الصلح ، وكتب له الرشيد أمانًا بشـــهادة القضاة والفقـــهاء . وكـــان أن سلم يحيى نفسه ، وحمله الفضل إلى الرشيد . فازدادت بذلك منزلة الفضـــل علـــوًا لدى الرشيد الذى أكرمه أشد إكرام ، وأجزل له العطاء[١١٤] .

وفى سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م أضيفت خراسان إلى ولاية الفضل من أجل تجنيـــد قوات جديدة ، إلا أنه لم يذهب إليها حتى سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م[١١٥] . وقد اســـتطاع الفضل خلال فترة ولايته القصيرة على المشرق أن يقـــوم بأداء مهمته خير قيـــام. وبفضل جهوده وسياسته الحكيمة وصلاته الواسعة نجح فى إقناع أمـــراء المنطقـــة المحليين ، وجماعة الدهاقين ، فى أعـــداد الجند المطلوبين . فكون جيشًـــا عظيمًـــا قوامه ٥٠,٠٠٠ ألف جندى أطلق عليه اسم «العباسية» ، أرسل منهم عشـــرين ألفًـــا إلى بغداد وأبقى الباقين فى خراسان[١١٦]. ويبدو أن الفضـــل أراد أن يجعـــل مـــن العشرين ألف جندى الذين أرسلهم إلى بغـــداد جيشًا خاصًا بـــه وبأســـرته يحميـــهم ويأتمر بأمرهـــم ، ويقف فى وجه الفئة الأخرى من الجند ، وهم الأبناء الذين كـــانوا معروفين بعدائهم لسياسات البرامكة[١١٧] .

والواقع إن الفضل أولى اهتمامًا بالغًا لمنطقة خراسان والمشرق أثناء ولايتـــه عليها ، فهو بالإضافة إلى تكوينه جيش العباسية زاد رواتب الجند وبنـــى مســـاجد ورباطات كثيرة ، وحفر قناة بلخ ، وأمر بهدم معبد النوبهار ، فلم يقدر عليه لإحكـــام

بنائه فهدم منه جزءًا بنى عليه مسجدًا . وأرسل حملة بمساعدة الدهاقين لفتح بلاد كابل فاقتحمها ، وغنم منها غنائم كثيرة . وقاد حملة ضد مملكة أشروسنة . ومما يدل على عظم مكانة الفضل في خراسان أنه استطاع أن يعلن ولاية العهد لمحمد ابن الرشيد ، ويلقبه بالأمين ، ويأخذ البيعة له من الخراسانين ، قبل أن يتمكن الرشيد من فعل ذلك في بغداد(١١٨) . وهذا يعني أن إعلان ولاية العهد للأمين تمت في المناطق الشرقية أولاً بفضل تدبير الفضل ، ومن ثم أعلنت البيعة في بغداد والمناطق الأخرى رسميًا رغم معارضة الكثير من الهاشميين .

وبهذا يتضح الدور السياسي والإداري الجاد الذي مارسه الفضل في البلاط العباسي . وقد يرجع ذلك لطبيعته الجدية فقد أثر عنه أنه كان لا يشرب النبيذ ، وكان يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي لما شربته(١١٩) .

كذلك عهد يحيى لابنه جعفر بولايات عدة ، ولكنه لم يذهب بنفسه إلى هذه الولايات ، وإنما كان يرسل إليها من ينوب عنه . ففي سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م ، ولي جعفر على المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية بما فيها مصر ، فلم يذهب إليها وولاها من قبله عمر بن مهران كاتب الخيزران(١٢٠) .

وفي سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م ولي على خراسان فانتدب محمد بن الحسن بن قحطبة لينوب عنه فيها(١٢١) . وفي نفس السنة أرسل جعفر إلى الشام لتهدئة العصبية القبلية التي هاجت بين أهلها ، وتفاقم أمرها ، فاستطاع جعفر أن يضع حدًا للاضطرابات فسكنت الفتنة ، بعد أن أدب المتمردين ونزع السلاح من القبائل وأعاد الأمن إلى المنطقة(١٢٢) .

ويبدو أن هذه هي المرة الوحيدة التي أدى فيها جعفر مهمة خارج مدينة السلام . فقد اقتصر عمل جعفر على ملازمة الرشيد ومنادمته لسماحة أخلاقه، فكان لا يفارقه أبدًا . وقد عبر جعفر للرشيد عن حزنه العميق لبعده عنه فترة ذهابه إلى الشام لتهدئة الأوضاع فيها(١٢٣) . ولعل إيثار الرشيد له وثقته به جعلته أكثر

البرامكة نفوذاً ذلك أن الرشيد أشركه معه فى كثير من المهام الخاصة ، والتى تعد من واجبات الخليفة الرئيسية ، كالنظر فى المظالم ، والإشراف على البريد ودور الضرب وصك العملة ، والطرز فى جميع المناطق ، بل أكثر من ذلك ظهر اسم جعفر مكتوبًا على كل القطع النقدية فى المشرق والمغرب(١٢٤) .

كذلك عهد الرشيد إليه بتربية وتأديب ابنه عبد الله المأمون ، كما عهد من قبل بتربية ابنه محمد الأمين إلى الفضل . فتمكن بذلك جعفر من الحصول على الوصاية على المأمون ، وأشار على الرشيد بتوليته العهد بعد أخيه الأمين ، وكان له دور فى تثبيت حق المأمون وكتابة العهد وتعليقه فى جوف الكعبة(١٢٥) .

وهكذا يبدو أن ظرف ، وفصاحة ، وذكاء وتأدب جعفر ، وسهولة أخلاقه جعلته أكثر حظًا عند الرشيد من بقية إخوته ، وأكثر إدلالاً . وقد أبدى والده يحيى للرشيد مخاوفه من الصلة الشخصية التى كانت تجمع بينه وبين ابنه جعفر قائلاً له « يا أمير المؤمنين ، أنى أكره مداخل جعفر ، ولست آمن من أن ترجع العاقبة على فى ذلك منك ، فلو أعفيته واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحسب إلى ، وآمن عليه عندى »(١٢٦) .

ولكن منادمة جعفر للرشيد فى مجالسه ، وبقاءه فى بغداد بالقرب منه لم تمنعه من أداء الأعمال الموكولة إليه على خير وجه . وقد عرف عن جعفر أنه كان فصيحًا بليغًا لبقًا عالمًا بالآداب ، والتاريخ والفقه ، لأن أباه كان قد ضمه إلى القاضى أبى يوسف الحنفى ليعلمه ويفقهه(١٢٧). وقد ذكر عنه أنه فصل فى يوم واحد ، عندما كان يجلس للمظالم مع الرشيد ، فى ألف قضية خاصة ، ووقع عليها، ولم يخرج فى شئ منها عن أحكام الفقه ، ولم تكن أى واحدة منها ضد العدالة(١٢٨).

على أن أهم ما يميز سياسة يحيى وأبنائه هى سياستهم المالية ، فقد اتسمت هذه السياسة بدقة شديدة لا تنظر إلا فى مصالح الخزينة المركزية التى امتلأت بثروات ضخمة لا تقدر بثمن . ولعل أكبر دليل على نجاح سياستهم المالية فى ملأ

خزينة الدولة بالأموال الطائلة هى قائمة الخراج التى أوردها الجهشيارى فى كتابه الوزراء[١٢٩] .

ذلك أن البرامكة اتبعوا أساليب صارمة فى جمع الضرائب لتعويض ما لحق بالخزينة من خسائر أيام خلافة المهدى ، وإن كانت الضرائب فى أحيان كثيرة تجمع بطريقة تعسفية غير شرعية . ففى بداية وزارة يحيى فرضت ضريبة العشور الإسلامية على معتنقى الإسلام فى السواد ، إضافة إلى ما كانوا يدفعونه بناء على نظام المقاسمة الذى عمل به فى أيام المهدى . ولما كان ذلك يعنى عقوبة على اعتناق الإسلام فإنه سرعان ما أبطل[١٣٠] . ومن أساليبهم المتشددة فى جمع الضرائب أنهم كانوا يطالبون الناس بدفع الضريبة كاملة مع جميع المتأخرات « البقايا » ، فتولى مطالبتهم فى دار السلام عبد الله بن الهيثم بن سام ، الذى لم يتوان عن استخدام القوة التى تصل أحياناً إلى التعذيب ، وذلك لإجبارهم على دفع الضرائب أو البقايا ، كما عينوا من أجل ذلك فى جميع الولايات موظفين للقيام بهذه المهمة[١٣١] . ففى اليمن مثلاً أقام حماد البربرى فيها ثلاث عشرة سنة ، وسام أهلها سوء العذاب حتى صاح قوم منهم بالرشيد وهو بمكة : اعزل عنا حماداً البربرى ، إن كنت تقدر . فامتنع الرشيد عن عزله فى البداية ، ولكنه ما لبث أن عزله بعد ذلك . والظاهر أن عزله تم بعد القضاء على البرامكة[١٣٢] .

وفى الموصل استطاع يحيى بن سعيد الحرشى تحصيل جميع المتأخرات إلى جانب الضرائب التى فرضت على الدواجن والماشية ، فبلغت ستة ملايين درهم[١٣٣] . وفى أذربيجان التى تم إعفاء أهلها من دفع الضريبة على أراضيهم تشجيعًا لهم للاستيطان فى المناطق الحدودية صاروا يطالبون من قبل عمال البرامكة بدفع هذه الضريبة[١٣٤] . وطالت هذه الإجراءات المشددة شمال أفريقية فلم ينج أهلها من صرامة البرامكة وموظفيهم . ومن أجل ضمان ولاء أفريقية ، عين البرامكة هرثمة بن أعين حاكمًا عليها . وكان هرثمة من أهم الشخصيات العسكرية التى ترتبط برباط وثيق مع البرامكة ، وجعلوا تحت قيادته

عدداً من جند العباسية ، الذين كان الفضل بن يحيى قد جندهم من الشرق ، فوصلها سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م وعمل على تهدئة الأوضاع بها[١٣٥] . فلما بلغ طرابلس أعطى جندهم أرزاقهم الفائتة وآمنهم وعمل مثل ذلك فى القيروان التى وصلها سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م وبعد أن استقرت الأوضاع فى أفريقية رجع هرثمة إلى العراق سنة ١٨١هـ/٧٩٧م فاستخلفه جعفر بن يحيى البرمكى على الحرس[١٣٦] .

وقد اضطربت الأوضاع فى أفريقية بعد عودة هرثمة ، ووجدت حكومة بغداد صعوبة فى الاحتفاظ بها ، وحكمها حكمًا مباشرًا بسبب المنافسات بين القوات المجندة من البربر والعرب فى المنطقة ، والقوات الخراسانية من جهة وتوسعات إدريس بن عبد الله العلوى الذى أراد فرض سلطانه على المغرب كله من جهة أخرى[١٣٧] فقرر الرشيد - ووزراؤه البرامكة بعد مشاورة هرثمة بن أعين - إبقاء جند العباسية الذين تركهم هرثمة هناك بصورة دائمة ، وتعيين إبراهيم بن الأغلب واليًا عليهم ، والاعتراف به أميرًا مستقلاً استقلالاً ذاتيًا ، على شرط أن تستغنى ولاية أفريقية عن المعونة المالية التى كانت تدفع من مصر ، وتقدر بحوالى مائة ألف دينار سنويًا ، وأن يدفع مقابل ذلك أربعين ألف دينار سنويًا إلى خزينة الدولة فى بغداد[١٣٨] . وكان هذا الإجراء بدون شك كسبًا جديدًا لخزينة الدولة .

وبينما انتهج البرامكة سياسة شديدة فى جمع الضرائب فى كافة أنحاء الدولة فى عهد الرشيد ، نراهم يتعاطفون مع أهل المشرق ، خاصة فى جمع الضرائب . فالفضل بن يحيى لكى ينجح فى تجنيد القوات العسكرية التى عرفت باسم «العباسية» زاد فى أعطيات الجند والقادة ، ووصل الكتاب بعشرة آلاف درهم . ولكنه عندما وجد أن هذه العطاءات التى بذلها للجند والقواد والكتاب غير كافية عمل على إحراق دفاتر البقايا ، أى عمل على إلغاء متأخرات الضرائب كلها ، وإلى إحراق السجلات حتى لا يُطالبوا بهذه المتأخرات بعد ذلك[١٣٩] .

وهكذا أدت سياسة البرامكة المالية المميزة إلى امتلاء خزينة الدولة بالأموال، مما رفع من شأنهم فى نظر الرشيد . وكما عمل البرامكة على ملئ خزينة الدولة

عملوا أيضًا على ملئ خزينة الرشيد الخاصة ، وذلك عن طريق مصادرة الأراضي المهجورة التي تركها أصحابها بسبب عبء الضرائب ، والأراضي التي مات عنها أصحابها بدون ورثة ، وأراضي بني أمية ، حتى ممتلكات بعض أفراد العائلة العباسية التي مات عنها أصحابها صادروها وأضافوها إلى خزائن الرشيد وعائلته(١٤٠) .

وإلى جانب ذلك خص البرامكة أنفسهم بثروات هائلة ، ولم يحرموا أنفسهم ولا أصحابهم من هذا النشاط لابتزاز الأموال ، فهم يمتلكون أحسن البقاع ، وأجمل الأبنية ، وهذا جعفر يعمر قصرًا في بغداد أنفق عليه أموالاً طائلة تقدر بعشرين مليون درهم(١٤١) . وذكر أنه كانت لديه بركة في داره أخفى فيها أربعة آلاف دينار، وزن كل دينار مائة دينار ودينار(١٤٢) . وكان للبرامكة ممتلكات وأراض كثيرة في البصرة ، وقيل إنهم كانوا لا يتورعون عن إبدال قنوات المياه لتنظيف بعض الأراضي السبخة العائدة لهم دون التفكير في الأذى الذي يصيب الأراضي الأخرى(١٤٣) . وقد بلغت واردات البرامكة السنوية من الأموال ثلاثين مليونًا وستمائة وستين ألف دينار غير ضياعهم ودورهم(١٤٤) . وعن طريق هذه الثروات الضخمة التي حصلوا عليها استطاعوا أن يكونوا علاقات ممتازة مع الخاصة والعامة ، وذوي الحاجات عن طريق الهبات والأعطيات التي كانوا يعطونها بسخاء، حتى كثر على أبوابهم أصحاب الحاجات وتغنى بهم الشعراء . والظاهر أن علاقاتهم الجيدة مع الخاصة والعامة هي التي حدت من انتقادات الجماهير لهم ولأعمالهم .

وهكذا ظلت أسرة البرامكة تدير أمور الدولة وتحتل المنزلة العظيمة لدى الرشيد لمدة سبعة عشر عامًا ، وإن تفاوتت هذه المنزلة في هذه المدة ، حتى حصل الانقلاب الخطير في سياسة الرشيد تجاههم، فأمر بقتل جعفر في صفر سنة ١٨٧هـ/فبراير ٨٠٣م وسجن يحيى والفضل ، وقبض على أموالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق(١٤٥) . وعلى الرغم من أننا لا نعرف تفاصيل الوضع الذي أدى

إلى هذا الانقلاب ، لأن الرشيد نفسه تكتم فى إظهار ذلك ، فأفسح بذلك المجال أمام الرواة والمؤرخين ومن تعرض لتاريخ هذه الأسرة بأن يؤولوها تأويلات وصور مختلفة .

وقد أتهم البرامكة بأن لهم ميولاً علوية ، فهم يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحة الرشيد . وهى تهمة عند العباسيين أشد من تهمة الزندقة التى أودت بحياة ابن وزير المهدى . ذلك أن هذه التهمة تشكل خطرًا جسيمًا على سلامة الدولة . وقد استغلت حادثة إطلاق جعفر البرمكى سراح الثائر يحيى بن عبد الله العلوى أسوأ استغلال من قبل أعداء البرامكة . وهناك عدد من الروايات التى تحاول إثبات انحياز البرامكة إلى العلويين وأنهم يفضلون أن يعتلى عرش الخلافة واحد منهم(١٤٦) وهى روايات يصعب على الباحث المدقق تصديقها ، لأن البرامكة لم يكونوا لينالوا تلك المنزلة الرفيعة التى حصلوا عليها فى عهد الرشيد لو تولى أحد العلويين عرش الخلافة .

ويمكن القول بأن موقف البرامكة المتميز بالمرونة والعطف تجاه العلويين كان يتماشى تمامًا مع المناخ الفكرى والسياسى فى أواخر عهد الرشيد ، والذى كان يمثله حلقات المثقفين ويشجعه البرامكة ، بعقدهم الندوات والاجتماعات لسماع الآراء والمناقشات الفكرية المختلفة . ذلك المناخ الذى تميز بالتسامح والمرونة تجاه العلويين(١٤٧) .

ونحن فى الحقيقة لسنا بصدد ذكر الأسباب التى أدت إلى نكبة البرامكة والتى لم يخلُ من ذكرها كتاب من كتب التاريخ .

وقد تولى أمور بلاط الرشيد - بعد نكبة البرامكة - الفضل بن الربيع ، الذى حاول قدر المستطاع أن ينال مركزًا أو حظوة مثل ما ناله البرامكة ، ولكن دون جدوى فهو لم يكن على مستوى البرامكة فى الكرم ، ولا فى ذكائهم ، أو سعة نفوذهم ولا حسن تدبيرهم(١٤٨) . ولا شك فى أن القضاء على هذه الأسرة كان

خسارة على الدولة العباسية وخاصة من ناحية النظم الإدارية. فقد أورد المؤرخـون روايات عديدة عن الفراغ الذى تركه البرامكة بعد القضاء عليهم .

وقد ندم الرشيد على إيقاعه بالبرامكة لما رآه من إهمال عماله وموظفيه الذين لم يستطيعوا سد ما تركه البرامكة من فراغ فى جميع مناحى الدولة وأثر عنه قولـه (لا آمن الله من أغرانى بقتل البرامكة ، ما رأيت رخاء بعدهم، ولا وجدت لـذة ولا راحة)[١٤٩] . وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء نيتهم لأعادهم إلـى مناصبهم وإلى مكانتهم التى كانوا عليها . وكان يقول (حملونـا علـى نصحائنـا وكفاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم فلما صرنا إلى ما أرادوا منا لم يغنوا عنـا شيئًا)[١٥٠] .

وقد شغل الفضل بن الربيع المكانة الأولى فى بـلاط الرشـيد بعـد اختفـاء البرامكة عن المسرح السياسى . وبعد موت الرشيد أصبح مـن أبـرز شـخصيات حزب الأمين فى الفتنة التى حدثت بينه وبين أخيه المأمون ، وعينه الأمين وزيـرًا له .

وزارة الفضل بن سهل وأثرها فى تأسيس خلافة المأمون :

لم ينته دور البرامكة بنكبتهم وإنما تركوا فى الإدراة ربائبهم وصنائعهم وهـم آل سهل ، وهى أسرة فارسية تنسب إلى بلدة سرخس فـى خراسـان[١٥١] . وكـان سهل بن زادا نفروخ - أب هذه الأسرة - من أبناء ملوك فارس المجوس، أسلم فـى أيام الرشيد ، واتصل بيحيى البرمكى وعمل قهرمانا له ، وكان ذلك بدايـة اتصـال آل سهل بالبرامكة[١٥٢] . ثم أحضر سهل ابنيه الفضل والحسن وقدمـهما للبرامكـة وعرفهما بيحيى بن خالد ، الذى أعجب بالفضل وذكائه وطموحه وعمـق فهمـه ، خاصة عندما نقل له كتابًا من الفارسية التى كان يتقنها إلى العربية ، وطلب منـه أن يعتنق الإسلام حتى يستطيع أن يدخله فى خدمته . فوافق الفضل وأسلم علـى يـد المأمون سنة ١٩٠هـ/٨٠٦م . ومن ذلك الوقت أصبـح أبنـاء سـهل ملازمين

للبرامكة يعملون فى خدمتهم ويأخذون عنهم أمور السياسة والإدارة ، حتى نكب البرامكة ، فلزم الفضل المأمون وعمل كاتبًا ومستشارًا له[١٥٣] .

وقد اتصف الفضل بن سهل بالذكاء وشدة الطموح فاسترعاه اتزان المأمون وتعقله ونجابته فتوقع له الخلافة ، فلازمه من أجل ذلك فى حياة أبيه. وبعد وفاة الرشيد لعب دورًا سياسيًا فى ضم الخلافة إليه ، لأنه كان يعلم تمامًا بأنه لن يكون له شأن وأسرته وحزبه ، إذا آلت الخلافة إلى أخيه الأمين .

وأكبر دليل على شدة طموح الفضل وإصراره على ضم الخلافة إلى المأمون هو تحريضه للمأمون على الذهاب إلى خراسان فى معية والده الرشيد سنة ١٩٢هـ/٨٠٨م لمواجهة ثورة رافع بن الليث . محذرًا إياه عن البقاء فى بغداد مع أخيه الأمين ، لأنه كان يعلم أن الرشيد مريض وقد يواتيه الأجل وهو فى طريقه إلى خراسان ، فيخلعه الأمين من ولاية العهد[١٥٤] . وقد أثبتت الأحداث بعد نظر الفضل بن سهل ؛ إذ لم يمض وقت طويل حتى توفى الرشيد فى الطريق ، ودفن فى مدينة طوس سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م[١٥٥] ، وبدأت بوادر النزاع تظهر بين الأخوين الأمين والمأمون . وكان الرشيد قبل خروجه إلى خراسان قد استخلف على بغداد ابنه الأمين ، وجعل معه يحيى بن سليم يدبر أموره، فاصطحب معه إسماعيل بن صبيح ، وأيوب بن أبى سمير والفضل بن الربيع ، وجعل الفضل بن سهل على كتابة المأمون والقائم على أموره[١٥٦] . وبعد أن وصل الرشيد إلى طوس وقبل وفاته بثلاثة وعشرين يومًا أرسل ابنه المأمون إلى مرو ، ومعه قسم من الجند لمحاربة رافع بن الليث ، بينما بقى هو ووزيره الفضل بن الربيع وبقية الجيش والأموال فى طوس . وعندما أحس بدنو أجله أوصى أن يسير بقية الجيش إلى المأمون لمساعدته .

ولم ينفذ الفضل بن الربيع ولا قادة الجيش وصية الرشيد ، بل غادروا طوس إلى بغداد لاحقين بالخليفة الجديدة الأمين . وقد تذرع الفضل بحجة أنه لا يدع ملكًا حاضرًا لآخر لا يدرى ما يكون من أمره[١٥٧] . فلما علم المأمون بذلك غضب

وجمع من معه من قواد أبيه وشاورهم فأشاروا عليه بقتالهم وردهم إليه . وخالفهم الفضل بن سهل ، وقال للمأمون : بعدم استخدام القوة وإرسال وفد إلى الفضل بن الربيع يذكره بالبيعة ويطالبه بالوفاء لوصية أبيه[١٥٨] .

وبذلك بدأ يظهر دور الفضل بن سهل على أنه المحرك الأساسي للفتنة التي وقعت بعد ذلك بين الأخوين الأمين والمأمون ، حتى أن بعض المؤرخين يرجعون جميع ما حدث من أحداث في تلك الفترة إلى الفضل ، ويغيبون دور المأمون تمامًا[١٥٩] والحقيقة أن المأمون كان موفقًا بوجود الفضل بن سهل وأخيه الحسن في خدمته ، وهم الذين تدربوا على يد البرامكة . وكما وقف يحيى البرمكي خلف الرشيد حينما أراد أخوه الهادى خلعه من ولاية العهد ، وقف الفضل بن سهل خلف المأمون وسانده وأزره في ساعات ضعفه حاثًا له على التمسك بحقه في ولايته مطمئنًا له بقوله : (فكيف بك وأنت نازل في أخوالك ، وبيعتك في أعناقهم . اصبر وأنا أضمن لك الخلافة)[١٦٠] .

وقد عرف له المأمون فضله ومنحه سلطات واسعة لإدارة أموره المالية والحربية في هذه الفترة المبكرة والحرجة من أمارته على خراسان ، فأقدم الفضل على خفض نسبة الضرائب في المنطقة إلى الربع مما كان له أكبر الأثر في ولاء الأهالي والتفافهم حول المأمون بقولهم : (ابن اختنا وابن عم نبينا)[١٦١] . ونتيجة لهذه السياسة المالية المتسامحة ، وبما كان لآل سهل من صلات مميزة مع أمراء المنطقة ، استطاع الفضل أن يجند عددًا كبيرًا من الجند الخراسانيين وأن يُبرز على الساحة قادة جدد من أبناء المنطقة ، أمثال طاهر بن الحسين ، الذى قاد قوات المأمون لمحاربة بغداد فيما بعد .

وتظهر الروايات المتعددة براعة الفضل ودهائه وحسن إدارته في تثبيت مركز المأمون أمام مكائد أخيه الأمين الذى عزم على خلعه . ففي سنة ١٩٥هـ/٨١٠م عندما خلع الأمين المأمون من ولاية العهد ونهى عن الدعاء له

على المنابر ، رد الفضل بن سهل على هذا الإجراء بأن أطلق على المأمون لقب « إمام » توطيدًا لسلطته بإضفاء صفة دينية عليه .

وبعد ذلك حشد الفضل بن سهل الجيوش الكبيرة من أهالى خراسان الذين توافدوا من كل صوب وحدب ، وجعل على قيادتهم طاهر بن الحسين ، بعد حصوله على امتيازات عديدة ، وسارت الجيوش متجهة إلى الرى[١٦٢] . ومن ناحيته أشرف الفضل بن الربيع على تجهيز وإعداد جيش الأمين ، وجعل على قيادته عليًا بن عيسى بن ماهان - أحد أبرز رؤساء الأبناء - بعد أن عقد له على كور الجبل كلها نهاوند ، وهمذان ، وقم ، وأصفهان[١٦٣] . وقد بالغ الفضل بن الربيع فى تجهيز الجيش بالعدة والسلاح ، وأعطى الجند مالاً عظيمًا ، كما أجزل العطاء لقائده على بن عيسى فأعطاه مائتى ألف دينار ، وأعطى ولده خمسين ألف دينار[١٦٤] .

وقد أثار تعيين على بن عيسى بن ماهان على قيادة الجيش الموجه لمحاربة المأمون الغضب الشديد فى نفوس الخراسانيين ، لأنهم لم ينسوا ظلمه وسوء معاملته لهم عندما كان واليًا على خراسان فى عهد الرشيد، فأصروا على محاربته والاستماتة فى قتاله . وقيل إن للفضل بن سهل يدًا فى تعيين على بن عيسى بن ماهان إذ أوعز إلى أحد عيونه وجواسيسه فى بغداد بأن يزين للفضل بن الربيع تعيين على بن عيسى على قيادة الجيش ، لأن هذا التعيين سوف يثير أهالى خراسان ضده لبغضهم وكرههم له[١٦٥] .

زحف على بن عيسى بجيشه البالغ أربعين ألفًا ، وقيل خمسين ألفًا من الأبناء والأعراب إلى الرى ، حيث التقى بجيش طاهر[١٦٦] . وقد بدأ تفوق جيش الأمين واضطراب بعض ملوك خراسان فى تلك الفترة مما أثار أمام المأمون موقفًا صعبًا حتى أنه فكر جديًا فى الهرب واللجوء إلى ملك الترك والتخلى عن الخلافة ، لولا مساندة الفضل بن سهل الذى أشار عليه أن يمنح بعض هؤلاء الملوك الاستقلال الذاتى ، وأن يتنازل لبعضهم عن الجزية ، وأن يتودد للبعض الآخر بالهدايا والتحف .

كما نصحه بالتريث فإن نجحت خططه مع الثائرين عليـــه مـــن ملـــوك المنطقـــة وانتصرت قواته على قوات أخيه فذلك الذى يأمل وإلا فليلتجئ إلى ملك الترك(١٦٧).

وكان لهذه النصائح وقعها فى قلب المأمون ، ونجحت خطط الفضل بن سهل، فهدأت ثائرة الملوك العجم ، وانتصرت قواته على قوات أخيه فى الـــرى انتصـــاراً ساحقًا ، وقتل على بن عيسى ، وتراجع جيشه إلى بغداد فى حالـــة ســـيئة ، فلمـــا وصلت رسل طاهر إلى الفضل بن سهل تخبره بالنصر دخل على المـــأمون وســـلم عليه بالخلافة ولقبه بأمير المؤمنين(١٦٨) .

وبعد مقتل على بن عيسى بن ماهان أرسل الأمين جيشًا آخـــر بقيـــادة عبـــد الرحمن بن جبلة الأنبارى يقدر بحوالى عشرين ألفًا من الأبنـــاء(١٦٩) . كمـــا أدرك المأمون المصاعب التى يواجهها طاهر فأرسل له فرقة قوية من جند العباسية بقيـــادة هرثمة بن أعين الذى كان أحد قواد الرشيد(١٧٠) . فتقـــابل الفريقـــان فـــى همـــذان واقتتلوا، ولم يزل يقاتل حتى قتل(١٧١) .

وعندما بلغ المأمون ، خبر هزيمة عبد الرحمن بن جبلة ومقتله ، رفـــع مـــن منزلة الفضل بن سهل ، وجعله مسئولاً أمامه عن الإدارة المدنية والعسكرية لكـــل المنطقة الممتدة من همذان إلى التبت ، ومن الخليج إلى بحر الديلم (بحر قزويـــن)، ولقبه «ذو الرئاستين » أى رئاسة الحرب ورئاسة التدبير ، وجعل عمالتـــه ثلاثـــة ملايين درهم فى السنة . وكان ذلك فى رجب سنة ١٩٥هـ/ ٨١٠م وهـــو التـــاريخ الذى أصبح فيه الفضل بن سهل وزيرًا رسميًا للمأمون ، كما أطلق عليـــه لقـــب « الأمير » ، فى حين ولى أخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج(١٧٢) .

ثم تابع الأمين بعد ذلك إرسال الجيوش لمنع طاهر بن الحسين مـــن الزحـــف إلى بغداد فوجه أحمد بن يزيد بن مزيد الشيبانى فى عشـــرين ألـــف رجـــل مـــن الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة فى عشرين آخرين من الأبنـــاء(١٧٣) . ثـــم اتبع ذلك بمحاولة أخرى يائسة لإنقاذ جيشه من الهزائم المتتالية بأن عين عبد الملـــك

ابن صالح على الشام والجزيرة يستعين بجنودها ، ولكن هذه المحاولات ذهبت سدى ، ولم تواجه جيوش طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين - وهما فى تقدمهما نحو العراق - مقاومة تذكر وحاصرا بغداد حصاراً شديدًا وضيقًا على أهلها الذين قاوموا الحصار لعدة أشهر ، ومن بينهم الأبناء الذين كانوا يدافعون عن مدينتهم بضراوة لشعورهم بأنهم يخوضون معركتهم الأخيرة . وعندما شعر الفضل بن الربيع بضعف موقف الأمين هرب تاركًا خليفته يلقى مصيره وحده . وفى ذلك يقول المسعودى (واستتر الفضل لما تبين من اختلال أمر محمد ووهاء أمره فقام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح)[١٧٤] .

ولكن يبدو أن طاهر وهرثمة لم يكونا متفاهمين حتى فى فترة الحصار الشديدة . فهرثمة كان يريد نوعًا من التفاهم مع أهالى بغداد المحاصرين ، بينما كان طاهر معارضًا هذه السياسة . والواقع أن الأمين عندما أحس بسوء التفاهم هذا حاول استغلاله لصالحه ، فأرسل إلى هرثمة بطلب الأمان ، فأجابه هرثمة إلى ذلك وأقسم له أن يقاتل دونه إن أراد المأمون التخلص منه بقتله . على أن الأمين لم ينجح فى الوصول إلى معسكر هرثمة ، إذ غرق قاربه فى النهر وقتل على يد جنود طاهر ، واجتز رأسه ، وأبلغ بذلك المأمون الذى أصبح خليفة دون منازع[١٧٥] .

وفى هذه الأثناء وجه المأمون ؛ بإيعاز من الفضل بن سهل ، الحسن بن سهل إلى بغداد لينوب عنه ، بعد أن عينه واليًا على ما افتتحه طاهر من كور الجبال ، والعراق ، وفارس ، والأهواز ، وكذلك الحجاز واليمن . وبينما أبعد طاهر بن الحسين إلى الجزيرة الفراتية بحجة قمع ثورة نصر بن شبث العقيلى ، كما أمر هرثمة بن أعين بالتوجه إلى خراسان[١٧٦] . وعمل فى الوقت نفسه على إبقاء المأمون فى مرو ، وقطع الأخبار عنه ، وعاقب من حاول إخباره بما يجرى فى بغداد ليصرف الأمور حسب سياسته المخطط لها[١٧٧] .

على أن تعيين الحسن بن سهل على العراق لقى معارضة شديدة من العراقيين عامة ، وأهل بغداد خاصة بما فيهم الأبناء ، الذين أدركوا أن تعيين

الحسن بن سهل واليا ونائبا عن المأمون فى بغداد معناه القضاء على نفوذهم وسلطاتهم ، ومكانتهم ، التى ظلوا متمتعين بها لسنوات عديدة . كذلك أثار بقاء المأمون فى مرو واتخاذها عاصمة له ووقوعه تحت تأثير الفضل بن سهل غضب الهاشميين فى العراق من عباسيين وعلويين ، فعمت الفتن والاضطرابات فى أغلب مناطق الدولة العباسية . وأدى موقف الأبناء العدائى وأهالى بغداد من الحسن بن سهل وجيشه إلى إرغامه على ترك بغداد وسحب قواته منها[١٧٨] . كما أدى غياب المأمون عن بغداد عاصمة آبائه وأجداده ، وعدم وجود سلطة قوية بها إلى قيام ثورات علوية بجوار الكوفة وفى مكة واليمن[١٧٩] .

ومن أجل إرضاء العلويين أغرى الفضل بن سهل ، المأمون بتولية أحد العلويين وليا للعهد من بعده ، فوقع اختياره على على بن موسى الكاظم ولقبه « بعلى الرضا » ، كما أمر الجند بأن يتركوا لبس السواد ويلبسوا الثياب الخضر[١٨٠]. إلا أن هذه الخطوة الجرئية لم تقنع خصوم المأمون من العلويين ، وأدت فى النهاية إلى ازدياد الاضطرابات فى بغداد . وأخيرا تنبه المأمون لسياسة الفضل بن سهل كما تنبه من قبل والده الرشيد لسياسة البرامكة ، وأدرك أن ثورة أهالى بغداد ونقمة أهل بيته عليه ومبايعتهم لعمه إبراهيم بن المهدى ما هى إلا بسبب قبوله رأى الفضل بالبقاء فى مرو ، والابتعاد عن مقر حكم العباسيين ببغداد ، وتعيين على الرضا وليًا لعهده . فاتخذ أجرأ خطوة فى حياته ؛ إذ قرر الرحيل والانتقال إلى بغداد وأخذ على الرضا معه ، وكان ذلك سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م . وفى طريق العودة تخلص المأمون من وزيره الفضل بن سهل ، ومن ولى عهده على الرضا[١٨١] .

وصل المأمون إلى بغداد بعد سنتين من خروجه من مرو فوصلها عام ٢٠٤هـ/٨١٩م . وبعد وصوله بمدة وجيزة تخلص من كل ما يشير إلى تحوله إلى المذهب الشيعى ، فرجع إلى لبس السواد شعار العباسيين وطرح عنه لباس الخضرة، إلا أنه تمسك بلقب الإمام الذى ظل الخلفاء العباسيون اللاحقون يتمسكون به[١٨٢] .

وبعد أن تخلص المأمون من الفضل بن سهل استوزر أخاه الحسن بن سهل ولقبه بذى الكفايتين استرضاء لعائلة آل سهل ، وإبعاد شبهة قتل الفضل عنه . وتزوج « بوران » ابنة « الحسن » فى عرس حافل سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م(١٨٣) .

وقد أنفق الحسن على زواج ابنته من المأمون مبالغ عظيمة ، يذكر أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فى كل رقعة مكتوب فيها عطية ، دار أوضيعة ، أو جارية ، أو فرس ثم نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم .

وفرش للمأمون حصيرًا منسوجًا بالذهب ، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة . كما نثرت جدة العروس على المأمون ألف درة كانت فى صينية ذهب، وأشعل بين يديه شمعة عنبر ، وزنها مائة رطل. وكان مبلغ ما أنفقه الحسن على هذا العرس خمسين مليون درهم(١٨٤) . إلا أن الحسن لم يلبث أن مرض بعلة تسمى « السوداء » سببها حزنه وجزعه على موت أخيه، ولزم منزله(١٨٥) .

والواقع أن سياسة آل سهل مثلت انقلابًا على التقاليد العباسية وإدخال كل ما هو فارسى إلى البلاط العباسى . من ذلك أن الفضل بن سهل تشبه بوزراء الأكاسرة ، فكان يجلس على كرسى مجنح ، ويحمل فيه حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت يوضع الكرسى ، وينزل عنه فيمشى ويحمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلم الفضل ويعود فيقعد عليه(١٨٦) . كذلك تبع تعيين على الرضا وليًا للعهد طرح لبس السواد رمز العباسيين ، ولبس الخضرة لون لباس كسرى والمجوس .

وبعد مرض الحسن بن سهل استخدم المأمون غيره من الوزراء ، من أهمهم أحمد بن أبى خالد أحد قادة الأبناء الذين قاوموا سياسة آل سهل فى العراق ، مع إخلاصهم ووفائهم للمأمون(١٨٧) .

وقد ظل أحمد فى خدمة المأمون حتى وفاته عام ٢١١هـ/٨٢٦م، ولكنه رفض أن يعين رسميًا فى منصب وزير أو كاتب(١٨٨) . ويبدو أن تعيين المأمون

لهذا الرجل فى هذا المنصب الحساس كان له مغزاه السياسى ، وهو المصالحة والتفاهم مع طبقة الأبناء الذين كونوا شريحة مهمة فى طبقات المجتمع العراقى .

أشهر وزراء نهاية العصر العباسى الأول :

استخدم المعتصم عدداً من الوزراء من بينهم الفضل بن مروان الذى كان نصرانيًا من أهل البردان(١٨٩) ، إلا أنه وصف بأنه كان عاميًا لا علم عنده ولا معرفة ، ردئ السيرة جاهلاً بالأمور ، قليل المعرفة بالعلم حسن المعرفة بخدمة الملوك(١٩٠) . ويرجع السبب فى تعيين المعتصم له فى منصب الوزارة أنه كان كاتبه قبل توليه الخلافة ، وأنه قام بأمر البيعة له فى بغداد ، وضبط الأمور فيها حتى عاد المعتصم ، الذى كان يرافق المأمون فى غزوته الأخيرة لبلاد الروم التى توفى فيها. وعلى الرغم من صفة الجهل التى اتصف بها الفضل بن مروان إلا أنه تمكن من السيطرة على أمور الخلافة واحتل منزلة عظيمة لدى المعتصم ، ومنح سلطات.وصلاحيات واسعة(١٩١) . ولكن المعتصم ما لبث أن عزله من منصبه فى رجب سنة ٢٢١هـ/ يوليو ٨٣٦م بعدما تبين له جهله وتحكمه فى الإدارة وبيت المال . فأمر بحبسه وصادر أمواله ثم أعفاه ، فأخذ الفضل ينتقل فى البلاد مدة من الزمن حتى مات أيام المستعين سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م(١٩٢) .

وبعد أن عزل المعتصم الفضل بن مروان استعان بالتجار فى إدارة شئون الدولة خاصة المالية منها ، وذلك لما لهم من قوة اقتصادية فعين محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات أحد أغنى تجار بغداد وزيرًا له(١٩٣). وقد عرف بابن الزيات، لأن جده أبان كان يجلب الزيت من موطنه إلى بغداد ليتاجر فيه، وأصله من جيل(١٩٤) . وكان والده تاجرًا موسرًا فنشأ ابنه فى رغد من العيش فاتجه لدراسة العلوم والآداب ، ونال من ذلك حظًا عظيمًا ساعده على القيام بأعباء الوزارة خير قيام طيلة عهد المعتصم وابنه الواثق .

ومن أعماله المالية أثناء وزارته إلغاء ضريبة العشر على السفن الواردة من وإلى موانئ الخليج(١٩٥) ، عبر المحيط الهندى من شرق أفريقية ، وجنوب آسيا

وجنوبها الشرقى والشرق الأقصى . ويبدو أن هذا التدبير كان بالدرجة الأولى في مصلحة الأغنياء والتجار أمثال ابن الزيات نفسه ، لأنه لم يؤد إلى خفض الأسعار ، ولم يستفد منه عامة الشعب والفقراء ، لأنها كانت تتاجر بالسلع الكمالية .

وبعد وفاة الواثق استوزره المتوكل ، واستمر ابن الزيات في خدمة المتوكل أربعين يومًا ، نكبه بعدها وصادر أمواله وعذبه حتى مات في سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م ، بعد أن ظل في منصب الوزارة اثنتي عشرة سنة[١٩٦] .
ويعد ابن الزيات - رغم عيوبه التى تميزت بالقسوة وعدم الرحمة وعدم محبة الناس له لقسوته في جمع الضرائب - آخر وزراء العصر العباسي الأول الأفاضل ، العلماء ، وكان الوزير الوحيد الذى وزر وزارة واحدة لم يقطعها صرف أو عزل لثلاثة خلفاء متتابعين[١٩٧] .

*   *   *

وهكذا نرى من خلال هذه الدراسة الدور الهام الذى لعبه وزراء هذا العصر على مسرح الأحداث فى الفترة الممتدة من سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م إلى سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م . وخير دليل على ذلك الدور الذى لعبه البرامكة وزراء الرشيد ، حتى ارتفع شأنهم وتولوا مناصب الدولة وعلا سلطانهم فلم يعد يحتملهم الخليفة ، مما حدا به إلى نكبتهم فى النهاية .

كذلك الدور الذى لعبه بنو سهل فى التأثير على المأمون حتى استطاعوا أن يحققوا آمال الشعوبيين والشيعة بتحويل الخلافة إلى آل علي رضي الله عنه ، وكيف أدى ذلك إلى بيعة على الرضا بولاية العهد، وانتهاء الأمر بمقتل الفضل بن سهل وعلى الرضا .

كل هذا يبرز أهمية الدور الذى لعبه وزراء العصر العباسى فى سياسة بني العباس ، وأثر ذلك كله على المجتمع الإسلامى .

الهوامش

(١) ابن طباطبا ، فخر الدين بن محمد بن على ، الفخرى فى الآداب السلطانية ، بيروت ، دار بيروت ١٣٨٥هـ ، ص١٥٣ .

(٢) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، بيروت ، دار ومكتبة الهلال ، ١٩٨١ ، ص٣١٠ .

(٣) الكروى ، نظام الوزارة ، ص٢٤ .

(٤) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د. ت ، ص٢٥ - ٣٣ .

(٥) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٣ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، حققه إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، د. ت ، جـ٢ ، ص١٩٥ .

(٦) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٩٦ .

(٧) كان أبو سلمة صهراً لبكير بن ماهان ، فهو زوج ابنته ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، جـ٤، ص١٦٠ .

(٨) مؤلف مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، تحقيق عبد العزيز الدورى ، بيروت، دار الطليعة ١٩٧١ ، ص٢٤٥ .

(٩) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٦٠ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٤ .

(١٠) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت، دار سويدان ، د. ت ، جـ٧ ، ص٣٢٩ .

(١١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص٤٠٠ ، مؤلف

مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٦٧ - ٣٦٨ . البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨٣ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤١٧ .

(١٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص٤٠٠ ، مؤلف مجهول ، تاريخ الدولة العباسية، ص٣٧٤ - ٣٧٥ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨٣ ، الطبرى تاريخ ، جـ٧ ، ص٤١٨ .

(١٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤١٨ - ٤١٩ .

(١٤) مؤلف مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٣٧٦ .

(١٥) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة مصطفى ألبانى الحلبى ، د. ت ، ص٨٤ .

(١٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٢٣ - ٤٣٠ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٥ .

(١٧) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، بيروت ، دار صادر ، د. ت ، جـ٢ ، ص٣٤٩ .

(١٨) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الخامسة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، جـ٣ ، ص٢٦٨ .

(١٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٦ .

(٢٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٢٤ - ٤٣٠ ، مؤلف مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٤٠٤ .

(٢١) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨٤ .

(٢٢) محمد أحمد برانق ، الوزراء العباسيون ، القاهرة ، المطبعة النموذجية ، جـ١ ، ص٨٢ .

(٢٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨٥ ، اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢، ص٣٥٠ .

(٢٤) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٧ .

(٢٥) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٥ – ٨٦ .

(٢٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١٨١ .

(٢٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٧ – ٨٩ .

(٢٨) صالح أحمد العلى ، معالم بغداد الإدارية والعمرانية ، ط١ ، بغداد ، دار الشئون الثقافية العامة ، ١٩٨٨ ، ص١٢٩ .

(٢٩) ابن قتيبة الدينورى ، الإمامة والسياسة ، تحقيق طه محمد الزينى ، بيروت ، دار المعرفة ، د. ت ، جـ٢ ، ص١٢٠ ، أو حنيفة الدينورى ، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، بغداد ، مكتبة المثنى ، د. ت ، ص٣٧٠ .

(٣٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٠ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٥ .

(٣١) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٨٤ .

(٣٢)المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٨٤ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٤ .

(٣٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٧١ ، الوزراء ، ص١٣٦ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٦ .

(٣٤) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٣٦١ .

(٣٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص٢٥٣ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٣٦ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٦ ، يذكر المسعودى بأن المنصور استوزر ابن عطية الباهلى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٩٨ .

(٣٦) المسعودى ، التنبيه والأشراف ، ص٣١٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢١٩ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٦ .

(٣٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٧ .

(٣٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٥ .

(٣٩) حسن أحمد محمود ، وآخرون ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ط٥، القاهرة ، دار الفكر العربى ، د. ت ، ص١٠٥ .

(٤٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٩ .

(٤١) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٠ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٥٧ .

(٤٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٣ .

(٤٣) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥١

(٤٤) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٧٤ .

(٤٥) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٧ .

(٤٦) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٧٦ .

(٤٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص٣٢٥ .

(٤٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٨٩ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٩٨ .

(٤٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٧ .

(٥٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص ٩٧ .

(٥١) س. د. جواتياين ، دراسات فى التاريخ والنظم الإسلامية ، تعريب د. عطية القوصى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ١٩٨٠ ، ص٨٩ - ٩٠ .

(٥٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٤ .

(٥٣) س. د. جواتياين ، دراسات فى التاريخ والنظم الإسلامية ، ص٩٠ .

(٥٤) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٧ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١١٨ .

(٥٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص٣٤٦ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٩٧ ، ١١٧ .

(٥٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٠٧ ، ١١٢ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ، ط٢ ، بيروت دار الكتاب العربى ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، جـ٤ ، ص٣٥٣ ، ٣٦٧ .

(٥٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١١٧ .

(٥٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١١٨ .

(٥٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١١٨ .

(٦٠) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص٣٢٦ .

(٦١) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٤ .

(٦٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٨ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٢٢ .

(٦٣) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٢٢ .

(٦٤) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٦ .

(٦٥) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٢ .

(٦٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٧ .

(٦٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٢٦ - ١٢٧ .

(٦٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص ١٤١ .

(٦٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص ١٥٨ .

(٧٠) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٢ - ١٨٣ .

(٧١) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٢ .

(٧٢) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٢ .

(٧٣) السيح : السقى بدون كلفة ولا مشقة من ماء السماء . والسيح الماء الجارى انظر ابن منظور ، لسان العرب، بيروت ، دار بيروت ، د. ت ، جـ٢ ، ص٤٩٢ .

(٧٤) الماوردى ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د. ت ، ص١٨٩ ، ضيف الله يحيى الزهرانى ، موارد بيت المال فى الدولة العباسية ، ط١ ، مكة ، الفيصلية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الكتاب الأول ، ص٢٤٧ .

(٧٥) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص١٨٩ - ١٩٠ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٢ .

(٧٦) قدامه بن جعفر ، كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، فرانكفورت ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م ، ص٢٠١ ، ضيف الله الزهرانى ، موارد بيت المال ، ص٢٤٠ - ٢٤١ .

(٧٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٢٨٩ - ٢٩٠ ، ضيف الله الزهرانى ، موارد بيت المال ، ص٢٤١ .

(٧٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٤٥ .

(٧٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٤٢ - ١٤٣ .

(٨٠) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٣ .

(٨١) الجهشيارى ، ص١٥٦ .

(٨٢) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٢٢ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٤ .

(٨٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١١٧ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٢٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٥ .

(٨٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٤ - ١٥٥، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٥ .

(٨٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٥ .

(٨٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١١٧ .

(٨٧) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٥ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٥ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٤ .

(٨٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١١٩، ١٥٦ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٥ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥، ص٥٢ .

(٨٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١١٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٥٢.

(٩٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٣٦ .

(٩١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٦ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٦ ، ١٥٨ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٨٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٦٦ .

(٩٢) فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، ط٢ ، بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٧ ، ص١٥٦ .

(٩٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٦ .

(٩٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٧ ، ١٥٩، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٦٠ - ١٦١ .

(٩٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٦٠ ، ١٦٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٦١ .

(٩٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٥٧ ، ١٦٠ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٩ - ١٦٠ .

(٩٧) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٥٨ .

(٩٨) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٣٠٨ ، أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٠ ، ص٨٢ .

(٩٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٦ .

(١٠٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص١٨٦ .

(١٠١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٠٨ ، ابن طباطبا الفخرى ، ص١٩٨ .

(١٠٢) س. د. جواتياين ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ص٩٧ .

(١٠٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص ٢٣٣ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٧٧.

(١٠٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص ٢٣٥ ، ٢٦٥ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٧٩ ، ٢٠٧ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٠٥ .

(١٠٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص ٢٣٥ .

(١٠٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٧٨ .

(١٠٧) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٩٨ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ط٣ ، مكة ، المكتبة التجارية ، ١٤١٤ - ١٩٩٤ ، جـ١ ، ص١٩ .

(١٠٨) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٠٥ ، ابن خلدون ، المقدمة ، جـ١ ، ص٢٥٢ .

(١٠٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٨٩ ، صالح أحمد العلى ، معالم بغداد الإدارية والعمرانية ، ص٣٧ - ٣٨ .

(١١٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ٢١١ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص١٩٨ .

(١١١) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ١ ، ص١٩ .

(١١٢) فاروق عمر ، الجذور التاريخية للوزارة العباسية ، ط١ ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص١١٢ .

(١١٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٤١ .

(١١٤) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٠٨ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٤٢، ٢٤٣ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٩٠ .

(١١٥) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٠٧ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٥٥، ٢٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٩٦ .

(١١٦) يذكر الطبرى أن عدد الجند بلغ ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف جندى وهو بلا شك عدد مبالغ فيه ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٥٧ .

(١١٧) الأبناء هم أحفاد الخراسانيين الذين أتوا مع الجيش القادم من خراسان عند قيام الدولة العباسية .

(١١٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٤٠ - ٢٤١ .

(١١٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٩٤ .

(١٢٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٥٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٩٠ .

(١٢١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٦٦ .

(١٢٢) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١٠ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٦٢- ٢٦٣ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٠٨ ، ابن الأثير ، الكامل، جـ٥ ، ص١٠٣ .

(١٢٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٦٣ ، ٢٦٥ .

(١٢٤) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٠٤ .

(١٢٥) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢١١ ، عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ... ط٣ ، بيروت دار الطليعة ، ص١٢٧ .

(١٢٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٢٥ ، عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص١٢٦ .

(١٢٧) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٣٢٩ .

(١٢٨) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٠٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٣٢٩ .

(١٢٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٨١ ، ٢٨٨ .

(١٣٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٣٦ .

(١٣١) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١٥ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٧٢ .

(١٣٢) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١٢ - ٤١٣ .

(١٣٣) الأزدى ، تاريخ الموصل ، تحقيق على حبيبه ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ص٢٨٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٠٣ .

(١٣٤) M. A. Shaban, Islamic history, Cambridge Univ. Press 1976, Vol. II, p. 33-34.

(١٣٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٥٦ .

(١٣٦) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٩٦ ، ١٠٣ .

(١٣٧) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص٩٥ ، ١٠٤ .

(١٣٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٠٤ .

(١٣٩) الجهشيارى ، الوزراء ، ص١٩١ .

(١٤٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٣٧ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص١٤٩، ١٥٦ ، ١٦٣ .

M. A. Shaban, Islamic history, Vol. II, p. 36.

(١٤١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٩١ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١، ص٣٤٤ ، الدميرى ، كمال الدين ، حياة الحيوان ، بيروت ، دار الفكر ، د. ت ، جـ٢ ، ص١٢٨ .

(١٤٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٤١ .

(١٤٣) فاروق عمر ، الجذور التاريخية للوزراء ، ص١٢١ .

(١٤٤) توفيق سلطان اليوزبكى ، الوزارة نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٣٧٠/١٩٧٠ ، ص٧٦ .

(١٤٥) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٢١ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٢٧٨، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٧٧ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٣٤ – ٢٣٥ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢١٠ .

(١٤٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٤٣ .

(١٤٧) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٧٧ ، فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسى ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٧ ، الطبعة الأولى ، ص١٣٠-١٣٢ .

(١٤٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٣٧ .

(١٤٩) الأربلى (عبد الرحمن سنبط قنتو) خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، القاهرة ، ١٨٨٥ ، ص١٠٧ .

(١٥٠) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٥٨ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٢٨ .

(١٥١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٢٠ ، جـ٤ ، ص٤١ .

(١٥٢) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٩ - ٣٠ ، ابن طباطبا ، الفخرى، ص٢٢١.

(١٥٣) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٣١ .

(١٥٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٣٨ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٦٦ .

(١٥٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٤٤ .

(١٥٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٦٦ .

(١٥٧) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٧٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٣٥ .

(١٥٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٧١ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٣٥ - ١٣٦ .

(١٥٩) د. عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، ط٣ ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٤ ، جـ١ ، ص٢٩٤ .

(١٦٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٧٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٧٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٣٦ .

(١٦١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٧٢ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٢٧٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٣٧ .

(١٦٢) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٨٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤١ .

(١٦٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٨٩ .

(١٦٤) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩٠ .

(١٦٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤٣ .

(١٦٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩١ ، ٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل، جـ٥، ص١٤٣ ، ابن الوردى ، زين العابدين بن مظفر ، تاريخ ابن الوردى ، ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، جـ١ ، ص٢٠١.

(١٦٧) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٠٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤٠ .

(١٦٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤٥ ، ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، جـ١ ، ص٢٠٢ .

(١٦٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤١٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٤٦ .

(١٧٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٣٩٤ .

(١٧١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤١٤ .

(١٧٢) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٢٤ ، الجهشيارى ، الوزراء ، ص٣٠٥ – ٣٠٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٥٠ .

(١٧٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٢٣ .

(١٧٤) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص٣١٨ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٣٢ .

(١٧٥) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٤٨٠ ، ٤٨٨ ، المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص٣١٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٦٣ ، ١٦٥ .

(١٧٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص١٧٢ .

(١٧٧) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢١٨ .

(١٧٨) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٤٣ – ٥٤٤ ، المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص٣١٨ .

(١٧٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٢٨ ، ٥٤٠ .

(١٨٠) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٥٤ .

(١٨١) الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٦٥ ، ٥٦٨ ، المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص٣١٩ .

(١٨٢) ابن طيفور ، أبى الفضل أحمد بن طاهر ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية، بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٣٨٨ – ١٩٦٨ ، ص٢ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨، ص٥٧٥ .

(١٨٣) ابن طيفور ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ، ص١١٣ ، ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٢٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢٨٧ .

(١٨٤) ابن طيفور ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ، ص١١٤ – ١١٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢٨٧ – ٢٨٩ ، الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، جـ١ ، ص٢٨١ .

(١٨٥) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٢٣ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٢٣ .

(١٨٦) الجهشيارى ، الوزراء ، ص٣١٦ .

(١٨٧) ترجع أصول عائلة أبى خالد إلى مرو الروذ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٨ ، ص٥٣٠ .

(١٨٨) ابن طيفور ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ، ص١١٨ – ١١٩ .

(١٨٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٥ .

(١٩٠) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص٢٣٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٥ .

(١٩١) الطبرى ، تاريخ ، جـ١ ، ص٢٠ - ٢١ .

(١٩٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٢٧ .

(١٩٣) الطبرى ، تاريخ ، جـ٩ ، ص٢٠ ، ١٦٠ - ١٦١ .

(١٩٤) جبل قرية جنوبى بغداد ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٢٠٢ .

(١٩٥) اليعقوبى ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٤٨٣ ، الطبرى ، تاريخ ، جـ٩ ، ص١٥٠ .

(١٩٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ٩ ، ص٢٠ ، ١٥٨ - ١٥٩ .

(١٩٧) الطبرى ، تاريخ ، جـ٩ ، ص٢٠ .

القَبَالات فى المغرب والأندلس

القرن (٣ - ٦ هـ/ ٩ - ١٢ م)

أصولها التشريعية وتداعياتها التاريخية

د / صلاح أحمد عبد خليفة(*)

التعريف بالقَبَالات :

القَبَالة بالفتح كلمة عربية بمعنى الكفالة أو الضمان والإلتزام[١] وهى مصدر وإسم للفعل قَبِل أى كَفِل وضَمِن فيُقال قَبِل تَقَبل قَبَالة أو تقبل العامل تقبيلاً أو قَبَالة[٢]، وجمعها قَبَالات[٣] ، وإسم المشتغل بالقبالات مُتَقَبِّل وهو من التزم ضمان أو كفالة عملاً أو ديناً وغير ذلك[٤] .

وقال الزمخشرى " كل من تقبل بشئ وكتب عليه بذلك فالكاتب الذى يكتب القَبَالة بالفتح والعمل قِبَالة بالكسر لأنه صناعته»[٥] .

ولم يأتنا فى المعاجم العربية سوى ذلك عن هذه الكلمة ومعناها ، إلا أن الكلمة كانت شائعة الاستعمال لدى المؤلفين العرب من الفقهاء والمؤرخين باشتقاقاتها المختلفة ، فاستعملت للدلالة على نظام التقبيل ، فقيل " قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار أو قبالة مبتولة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار[٦] " .

كما أطلقت على قيمة القبالة من النقود سواء كانت ذهباً أو فضة فيقال " لا يبرئ المتقبل فلان من شئ القبالة المذكورة حلول نجم.. [٧] أو أن المتقبل فلان " دفع القبالة متطوع»[٨] « أو تدفع كل شهر أو كل عام عند انقضائه »[٩]. " وإن توالت الأمطار ومنعته الزراعة فيوضع عنه من القبالة ما يقع من الشهور "[١٠] وهكذا .

كما جاء فى المصادر من اشتقاقات الكلمة غير المُتَقَبِّل كلمة المُقَبِّل[١١] أى الطرف الثانى فى القبالة وهو الشخص المالك للعين المراد تقبيله .

(*) كلية الآداب - جامعة المنيا.

أما عن معانى الكلمة غير الكفالة والضمان والإلتزام فقد جاءت كثيراً بمعنى الكراء فيقال " تقبيل فلان ... قبالة " وإن شئت قلت اكترى فلان .. كراء وكتب ذلك كثيراً فى العقود والوثائق الخاصة بالقبالات فى المغرب والأندلس بالنسبة للأراضى والدور والحمامات والحوانيت وغيرها[١٢] .

وعندما بَدأ فى تقبيل الضرائب الغير مشروعة صارت الكلمة تُطلق بدل كلمة ضريبة فبدلاً من أن يقال مثلاً ضريبة اللهو (قيل « قبالة اللهو » أى أن القبالة صارت مرادفة للضريبة)[١٣] .

وبمرور الوقت ومع الاستغراق فى استعمال نظام التقبيل استعملت كلمة القبالة للدلالة على كل الضرائب غير المشروعة . وفى هذه الحالة كانت تأتى دائماً فى صيغة الجمع فيقال مثلاً " أسقط القبالات " [١٤] " هذه القبالات التى فيها الجور على المسلمين "[١٥] . " وقبالات ما تؤدى على كل ما يباع فى الأسواق " [١٦] ، وشرط عليه أن « يقطع (١٧) القبالات » وهكذا. ويبدو أن استعمال حكومات دول المغرب أهل الذمة فى جباية هذه القبالات دفعت دوزى[١٨] لاستخراج معنى آخر للقبالة وهو العهد أو الصلح أو الذمة فجعل (أهل القبالة) ترادف (أهل الذمة) .

ويجب أن نشير أخيراً إلى أن البعض حاول إرجاع الكلمة واستعمالها إلى أصول غير العربية مثل الأنجلوسكسونية التى أخذتها عن اللاتينية القديمة أو الإيطالية أو الأسبانية القديمة » ولكن دوزى وزميله دحضا كل تلك المحاولات مدخلين الكلمة فى قاموسيهما عن الكلمات الأسبانية والبرتغالية ذات الأصل العربى[١٩] .

الأصول التشريعية للقبالات :

يشير البعض إلى أن نظام القبالات نظام قديم عملت به شعوب العالم القديم من قرطاجنيين ويونانيين ورومان[٢٠] .

وكانت هذه الأمم كثيراً ما ضمنت الخراج وفرس[٢١] لمجموعة من الأهالى أو بعض أفراد المجتمع ذوى الجاه واليسار والغنى والثروة ، أو حتى للجباة

العاملين فى الحكومة ، وكان هؤلاء يعجلون الأموال لخزينة الدولة ثم يجمعونها بعد ذلك بما يتيسر لهم من وسائل بدون تدخل الحكومة[٢٢] .

وتدل مواقف الرسول ﷺ أذاء هذا النظام على وجوده عند العرب ومن التعاملات الفردية بين أفراد المجتمع العربى قبل الإسلام وخاصة فى الأراضى الزراعية .

فقد ورد عنه ﷺ قال « إياكم والقبالات فإنها صغار وفضلها رباً »[٢٣] وروى عنه ﷺ أنه نهى عن القبالات فجاء على لسان نافع بن خديج قوله « نهانا الرسول ﷺ« عن أمر كان لنا نافعا وأمر رسول الله ﷺ على الرأس والعين ، نهانا أن نتقبل الأرض ببعض خرجها »[٢٤] أى ما يفهم منه أن الرسول ﷺ نهى عن القبالات وكره التعامل بها للصحابة .

وربما من يقرأ ما ورد عن بعض الصحابة فى هذا الأمر يتأكد من ذلك أى نهى الرسول عن القبالات .. إذ ورد عن عبد الله بن عباس قوله «القبالات حرام»[٢٥] وعن عبد الله بن عمر قوله « القبالات ربا »[٢٦] . ولكن لو أمعنا النظر فى أحاديث رسول الله وما روى عنه وكذلك أقوال الصحابة ثم ربطناها بمناسباتها التى قيلت فيها لعرفنا وجه الحقيقة فى القبالات ، ولوجدنا أن الرسول ﷺ وصحابته لم يقصدوا القبالات عامة وإنما حرم الرسول ﷺ ونهى صحابته عن القبالات الفاسدة لما فيها من الضرر لطرفى القبالة ، وتأسى به صحابته والتابعين فى هذا الأمر ، مما ساعد على ارساء الأصول التشريعية لنظام القبالات فى الإسلام .

فالرسول عندما نهى عن القبالات لم يكن يقصد إلا القبالات الفاسدة التى شاعت بين الناس فى الجاهلية وفى زمانه ﷺ حيث ظلم فيها المتقبلون لأن أرباب الأراضى كانوا يشترطون الشروط الفاسدة ويتخيرون من الأرض المكترية أو المقبلة أحسنها تكون خالصة لهم عندما ينضج المحصول ويستثنون من الأرض أماكن يظنون أنها أكثر إفادة من باقى الأرض فعندما سأل الرسول ﷺ الصحابة ما

كانوا يفعلون بمحاقلهم قال أحدهم وهو رافع بن خديج « نؤاجرها على الربيع[٢٧] وعلى الأوسق من التمر والشعير قال ﷺ لا تفعلوا ، أزْرَعوها أو إزْرِعوها أو أمسكوها » قال رافع سمعاً وطاعة[٢٨] وروى عن نافع أيضاً قال « حدثنى عماى أنهم كانوا يكرون الأرض على عهد النبى ﷺ بما ينبت على الأربعاء أو شئ يستثنيه صاحب الأرض فنهى النبى ﷺ عن ذلك[٢٩] ويفسر الإستثناء من الأرض حديث أخر روى عن رافع بن خديج أيضاً قال « كنا أكثر الأنصار حقلاً فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما خرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا عن ذلك أى الرسول ﷺ[٣٠] وفى لفظ أخر لهذه الرواية التى تفصّل الاستثناء فى الكراء والقبالة « كنا أكثر أهل الأرض مزدرعاً كنا نكرى الأرض بالناحية منها تسمى لسيد الأرض قال : فربما يصاب ذلك وتسلم الأرض وربما تصاب الأرض ويسلم ذلك فنهينا »[٣١] ، أى من جانب الرسول ﷺ ولم يكن الاستثناء فقط فى الأرض البيضاء وإنما كان ذلك فى المزارع وكرائها فيروى « أن الناس كانوا يؤاجرون المزارع على عهد الرسول ﷺ على المَاذِيانَات[٣٢] وإقبال الجداول[٣٣] وأشياء من الزرع فيهلك هذا ويسلم هذا أو يسلم هذا ويهلك هذا ولم يكن للناس كرى إلا هذا فلذلك زُجر عنه»[٣٤] أى زجرهم الرسول عن هذه المؤاجرات .

وفى رواية أخرى « أن الناس كانوا يكرون المزارع فى زمان النبى ﷺ بالمَاذِيانَات وما يسقى الربيع وشئ من التبن فكره الرسول ﷺ كرى المزارع بهذا ونهى عنه »[٣٥] .

والمتأمل لما نهى عنه الرسول ﷺ من القبالات والأكرية يرى أنها لصالح الطرفين ، إذ هى قبالات فاسدة والأرض فيها تقبلت أو المزارع كريت على شئ مجهول لا يعلم له رأس ولا ذنب كما يقولون وهو على هذا الحال يفضى إلى الغرر والجهالة . وفى النهاية يؤدى إلى النزاع والتخاصم والشجار بين الطرفين كما جاء فى حديث سعد بن أبى وقاص الذى قال « إن أصحاب المزارع فى زمن الرسول

ﷺ كانوا يكرون مزارعهم بما يكون على السواقى وما سعد الماء مما حول النبت ، فجاءوا رسول الله ﷺ فاختصموا فى بعض ذلك فنهاهم أن يكروا بذلك(٣٦) .

أما ما فيه خير للمسلمين فأقره الرسول ﷺ فى الأكرية والقبالات ، فقد أقر ﷺ كراء الأرض وقبالتها بالشئ المضمون كالذهب والفضة فقد جاء فى حديث سعد ابن أبى وقاص أن النبى ﷺ عندما نهى المتخاصمين عن الكراء بالإستثناء قال لهم « أكروا بالذهب والفضة»(٣٧) ورافع بن خديج الذى روى معظم الأحاديث الواردة بشأن قبالة الأرض فى عهد الرسول قال بعدما ذكر نهى رسول الله ﷺ عن القبالات الفاسدة « أما الشئ المعلوم المضمون فلا بأس به»(٣٨) ، وعندما سئل رافع ابن خديج بعدما أخبر عن نهى رسول ﷺ عن قبالة الاستثناء فكيف هى بالدينار والدرهم ؟ قال : ليس بها بأس بالدرهم والدينار(٣٩) وقد علق صاحب الفتح(٤٠) أن نافع قال ذلك ربما باجتهاده أو بالتنصيص ، على جوازه أو علم أن النهى عن كراء الأرض وقبالتها ليس على إطلاقه بل إذا كان بالشئ مجهول ونحو ذلك فاستنبط جواز كراء الأرض بالذهب والفضة ، وينقل - أى صاحب الفتح-(٤١) أن الصحابة أجمعوا على جواز كراء الأرض بالذهب والفضة واتفاق فقهاء الأمصار عليه .

ومما سبق يفهم أن الصحابة اتضحت لديهم الصورة الصحيحة التى يجب أن تكون عليها القبالات فى الأرض ، فلا بد أن تكون الأرض المتقبلة من الأرض البيضاء التى لا زرع فيها ولا أشجار مثمره ، لأن مثل تلك الأشياء تدخل تحت أنظمة إسلامية أخرى فى المعاملات مثل المزارعة والمساقاه ، كما يجب أن تتقبل الأرض بشئ معلوم مضمون ، لا بشئ مجهول أو بشئ مما تخرجه الأرض المتقبلة(٤٢ - ٤٤) .

ويروى عن ابن عباس قال : « إن أفضل ما أنتم صانعون أن تستأجروا الأرض البيضاء من السنة إلى السنة (٤٥ — ٤٦) » .

وعبد الله بن عباس نفسه جاءه رجل فقال له أتقبل منك الأبله(٤٧) بمائة ألف، فضربه ابن عباس مائة وصلبه حيا(٤٨) . فابن عباس - الذى عرفنا سلفا - أنه قال

« القبالات حرام » لم يكن إذا يقصد كل القبالات بل قال بكراء الأرض من السنة إلى السنة ويعاقب رجلاً عقاباً شديداً أراد أن يتقبل منه ضيعته على نهر الأبله بمائة ألف دينار لأنه طلب منه قبالة فاسدة شرحها لنا أبو عبيد فى كتابه الأموال(٤٩) قائلاً « معنى هذه القبالة المنهى عنها أن يتقبل الرجل النخل والشجر والزرع النابت قبل أن يستحصد ويدرك وهو مفسر فى حديث روى عن سعيد بن جبير عن الرجل يأتى القرية فيتقبلها وفيها النخل والشجر والزرع والعلوج فقال « لا يتقبلها فإنه لا خير فيها « قال أبو عبيد(٥٠) . إنما أصل كراهة هذا أنه بيع ثمر لم يبد صلاحه ولم يخلق بشئ معلوم وقد علق ابن قيم(٥١) على ذلك بقوله « وهذا الذى ذهب إليه أبو عبيد هو المعروف عند الأئمة الأربعة وجعلوا كراء الشجر بمنزلة بيع الثمر قبل أن يبدو صلاحه .

ومع أن الأصل فى إجازة الشجر بالدرهم والدينار لا يدخلها ربا ، كما يقول ابن القيم(٥٢) فإن الفقهاء الأربعة منعوها ليس من أجل موضوع الربا بل الواضح من حديث ابن عباس أن الطالب للقباله لم يطلب منه إجارة الشجر بل يتقبل القرية بما فيها ويدفع له مالاً معلوماً ، فهذه هى القبالات المحرمة التى اتفق عليها الصحابة لا التى فعلها عمر بن الخطاب وأقره عليه جميع الصحابة، وهذا يفسر لنا أيضاً ما سبق وأن أشرنا إليه من قول ابن عمر أن القبالات ربا، فالمقصود بالربا هنا أن الرجل يستأجر الضيعة بكل ما فيها من زرع وشجر وعلوج وما فيها من بيوت وحوانيت وغير ذلك ، فذلك يتضمن أنواعاً من المحذور ورغم ذلك فعله بعض الناس وسموه كراء(٥٣) .

إلى هذا الحد تحرى الصحابة والتابعون صحة القبالات فلم يكن هناك سوى مخالفات فردية حرص الفقهاء على تلافيها ، ماستطاعوا إلى ذلك سبيلاً حتى كان الملك لبنى أمية الذين قلبوا الخلافة وبساطتها إلى ملك عضوض حرص على الأبهة وإظهار هيبة السلطان ، ولذا حرصوا على جمع الأموال بشتى الطرق فهبط مستوى الإدارة المالية للدولة من الناحية الشرعية ، فلم تعد تتحرك وفق القرآن

والسنة وهدى الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام ، ووقعت التجاوزات المالية والمخالفات الصريحة سواء كان ذلك فى موارد بيت المال مثل الغنائم والجزية والخراج والعشور أو النفقات التى زادت من أجل مظاهر الترف والأبهة المحدثة ، وقد نال نظام القبالة حيزا من المخالفات حيث قفزت من المخالفات الفردية إلى تجاوزات تحت سمع وبصر الدولة ، ونذكر فى ذلك رسالة أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة تصور ما نال أهلها من شدة وبلاء وجور من أحكام وسنن خبيثة سنتها عليهم عمال السوء ويأمره « بأن يعدل ويحسن فى جباية الخراج ولا يحمل الخراج أجور الضرابين ولا مذيبى الفضة ولا يأخذ هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن المصحف ولا دراهم النكاح أى خراج البغايا »(٥٤) ورغم إصلاحات الخليفة عمر بن عبد العزيز المالية إلا أن الأمور عادت لمسارها الغير عادى من القبالات كما سنرى واستمر فى عهد بنى العباس ووصل الأمر غايته بقبالة وتضمين الخراج بل تضمين خطط الدولة مثل القضاء والحسبة والشرطة كذلك(٥٥) .

وصار هناك متقبلون محترفون لما يتقبل من الخلافة ولنأخذ مثلا تضمين الخراج حيث لجأت الخلافة إلى هذا النظام من أجل ضمان إيرادات الخراج لسد النفقات المتزايدة فعهدت به لمتقبلين أو ملتزمين كانوا يسددون قيمة الخراج على ناحية أو إقليم لخزينة الدولة مقدما ، ليقوم المتقبل بتحصيل هذا المبلغ من الإقليم بعد ذلك .

وإلى هذا الحد يمكن أن تكون القبالة صحيحة إذا التزم المتقبل بجباية ما دفعه لخزينة الدولة ولكن الواقع كان غير ذلك فلم يكن المتقبل يتوقع إلا الربح الوفير ويحرص على مصلحته أكثر من إهتمامه بدافعى الخراج وخاصة الجشعين من ذوى السلطة فى الدولة كأن يكونوا عمالا للخراج أو ولاة أقاليم والذين تنافسوا على تقبل الخراج فيذكر أنهم تزايدوا فى تقبل ضياع الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢م) فتقبلها ابن المثنى فروخ فزاد عليه متقبل أخر

يعرف بحسان النبطى ألف ألف درهم (مليون) فسلمت إليه الضياع[٥٦] . وشاع هذا النظام فى العصر العباسى شيوعاً كبيراً ورغم أن الخلفاء كانوا يشترطون على المتقبلين عدم العسف والجور وجمع الخراج بالحسنى ، أو يأتى عرض ذلك من المتقبلين أنفسهم مثلما رفع شخص يدعى محفوظ بن سليمان أن يضمن خراج مصر عن أخره بغير عصا ولا سوط ، فولاه الرشيد الخراج[٥٧] ، إلا أن ذلك لم يحدث وحدثت تعديلات كثيرة على دافعى الخراج من جانب المتقبلين ، ولذا كره الفقهاء تقبيل الأراضى الخراجية وعدم جوازها وذلك لأن المتقبل يجب أن يكون أميناً يستوفى ما وجب ويؤدى ما حصل فهو إذا يؤدى الأمانة فلا يضمن نقصاناً ولا يملك زيادة[٥٨] .

ولذا نجد القاضى أبا يوسف فى كتابه الخراج - الذى وضعه رداً على أسئلة من الخليفة هارون الرشيد - ينهى عن تقبيل الخراج لما فيه من ضرر شديد على أهل الخراج وخزينة الدولة وذلك لأن المتقبلين يحملونهم « ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم لما يجحف بهم ... وفى ذلك خراب البلاد وهلاك الرعية »[٥٩] والمتقبل لا يبالى بذلك من أجل « صلاح أمره فى قبالته»[٦٠] ومن ثم صار يجمع أكثر مما تقبل بكثير حتى وإن كان ذلك « بشدة على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج»[٦١] .

ثم اقترح على الخليفة إن جاء أهل إقليم ومعهم رجل منهم موسر يستطيع تحمل خراج الإقليم وضمانه وقالوا هم : هذا أخف علينا ، نظر من ذلك فإن كان فيه صلاحاً لأهل الإقليم ضمن وأشهد عليه ، ولكن لا بد من إخضاعه تحت إشراف الدولة عن طريق أمير من قبل الخليفة يثق بدينه وأمانته ويجرى عليه الرزق من بيت المال ، فيمنعه من الظلم والتعدى[٦٢] .

والحقيقة وجدنا لما اقترحه القاضى أبو يوسف صدى فى حادثة تقبل سيسر بخراسان التى رضى أهلها بتقبل محمد بن العباس لها بعد أن يعطوه رقبتها ويكونوا

معه مزارعين له فيها نظير أن يكفيهم الصعاليك ويعزهم فى أماكنـــــهم بالحمايـــة ، فقبلها له المأمون وأمره بتقويتهم ومعونتهم على عمارتها(٦٣) .

وفيما عدا ذلك لم يردعن تنظيم القبالات والتشدد فى مراقبة المتقبليـــن شـــيئاً وسارت القبالات فى طريقها دون مراقبة للمتقبلين ، ولم يستفد الخلفاء من نصـــــائح الفقهاء لأن همهم الأكبر الحفاظ على موارد الدولة المالية بغض النظر عما يحـــدث للرعية ، ومن ثم سار التقبيل أساسياً فى جباية الخراج فى القرن الثالث الـــهجرى / التاسع الميلادى وبعده والدلائل كثيرة على ذلك منها ما يذكره ابن خردانبه(٦٤) مـــن أن الفضل بن مروان تقبل الأهواز بتسعة وأربعين مليوناً مـــن الدراهـــم وتقبـــل آل طاهر خراسان وضمنوا توريد ٤٤ مليون درهم لخزينة الدولة(٦٥) ، كما تؤكد وثـــائق وأوراق البردى العربية شيوع هذا النظام من الجباية بمصر(٦٦) بالإضافة إلـــى مـــا ذكره المقريزى(٦٧) عن تقبيل الخراج قبل نظام الأقطاع فى عصره .

وهكذا فتح الباب لجشع المتقبلين وضاعت صرخات القضاة والفقـــهاء أمثـــال أبى يوسف أدراج الرياح رغم ما أظهروه من فساد المتقبلين الـــذى لا يرضـــاه الله الذى نهى عن الفساد فقال «لا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها» وقال أيضـــاً : «إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفســـاد »(٦٨). والخلاصة التى نخرج بها من هذه الإطلالة على نظام القبالات بعد عصر الخلفـــــاء الراشدين أن هذا النظام تعرض لظروف قلبته رأساً على عقب ، فلـــم تعـــد هنـــاك المخالفات الفردية التى كانت أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشـــدين وإنمـــا اتســـعت مفاسده تحت سمع وبصر الخلافة ومن هذا صار النظام فى واد والتشريع فـــى واد أخر ومن ثم صار إصلاحه مهمة ثقيلة وعبأ ينوء به كاهل الفقهاء خصوصـــاً مـــع إقرار الخلفاء بهذا النظام . فماذا كان عليه حال القبالات فـــى المغـــرب والأندلـــس وماذا كان موقف الفقهاء من هذا النظام ؟

- القبالات فى المغرب والأندلس :

عرفت بلاد المغرب والأندلس نظام القبالات منـــذ زمـــن مبكـــر لارتباطـــها بالخلافة الأموية التى طبقت كما علمنا نظام تضمين أراضى الخـــراج مـــن أجـــل

ضمان موارد بيت المال . ولكن نظراً للظروف السياسية وتقلباتها في المغرب والأندلس ، تعرض نظام القبالات في الأراضي لمستجدات لم تكن موجودة في المشرق ، وذلك راجع في الحقيقة لإختلاف وضعية أراضي المغرب والأندلس عن أراضي المشرق ، وخصوصاً أراضيالسواد في العراق التي ارتبطت بها كل الأخبار الواردة عن القبالات[٦٩] ولم يعد نظام القبالات مقصوراً على تقبل الأراضي الزراعية سواء على المستوى العام - وأقصد بين الدولة والمتقبلين - أو الأفراد بل تقبلت الضرائب المفروضة على الرعية وبالذات الضرائب غير الشرعية حتى لاحظنا في النهاية أن كلمة قبالة صارت مرادفة للضريبة غير الشرعية[٧٠] ولذا صار لزاماً علينا الإشارة أولاً إلى وضعية الأراضي في المغرب والأندلس ، والأسباب التي أدت إلى فرض ضرائب جديدة على الرعية ، لإن ذلك سيساعدنا على وضع تصور عام وشامل لنظام القبالات في المغرب والأندلس .

أما بالنسبة لأوضاع الأراضي في العدوتين ، فقد تعرض لها بالبحث عدد من المحدثين[٧١] دون أن يصلوا إلى نتيجة محددة بشأنها أو تحديد ماهيتها : هل كانت أراضي خراج عنوية أو خراج مصالحة أو أرض عشرية. وذلك في الحقيقة راجع إلى استغلاق الأمر على المؤرخين والفقهاء القدامى والمعاصرين أنفسهم لهذه الفترات أو القريبين منها[٧٢] بحيث صارت أحكامهم متضاربة في هذا الأمر مما أدى إلى البلبلة بين المحدثين .

ومن هنا لا يسعنا التعويل على الواقع التاريخي الذي أثبت أن أراضي العدوتين لم يكن لها حكم السواد بالعراق أو بلاد الشام ، وإنما كانت أقرب في أوضاعها بأراضي مصر ، فوجدت هناك الأراضي المفتوحة عنوة والثانية المفتوحة صلحاً والثالثة التي أسلم عليها أصحابها[٧٣] أي هناك الأراضي الخراجية العنوية والصلحية وأراضي العشر . ويثبت الواقع التاريخي أيضاً أن هذه الأوضاع الثلاثه لم تستمر طويلاً نتيجة لتغير الأحداث والظروف السياسية وبالذات في الأراضي الخراجية . التي وصل خراجها بانتظام إلى عاصمة الخلافة في المشرق (دمشق) حتى قامت الفتن والثورات البربرية أواخر العصر الأموي ، وبدا أمام

الخلفاء إمكانية ضياع هذا المورد المالى ، وبالتالى التأثير على النفقات التى تزايدت فى هذه الفترة نتيجة الفتن والثورات فى كل النواحى ، فحرصوا خلال هذا الجو المشحون على الاحتفاظ بخراج الأرض فتساهلوا مع الرعية بالمعاملة التى جعلت معظم مالكى رقاب الأرض يشعرون بأنهم مالكوها ، ولم تبد الخلافة أو من يمثلها فى المغرب أية محاولة لممارسة حقوق الدولة بالنسبة لهذه الأراضى(٧٤) ومع مرور الأيام وتبدل الأحوال السياسية صارت هذه الأراضى أملاك خاصة توارثها الخلف عن السلف وصارت لهم حرية البيع والشراء وممارسة كافة أنواع المعاملات الخاصة بالأرض ، مما يعنى فى النهاية شيوع الملكية الخاصة وغلبتها على الأراضى فى المغرب . ولكن ليس معنى ذلك اختفاء أراضى الخراج نهائياً من المغرب ، فقد تكررت كثيراً كلمة الخراج وجبايته فى المصادر(٧٥) . وقيام الدول المتعاقبة فى المغرب بمحاولات لإصلاح النظام الجبائى فى المغرب يدل على وجود بقايا لأراضى الخراج(٧٦) على الأقل حتى عصر الموحدين(٧٧) مما يعنى لدينا وجود أراضى تملكها الدولة وعملت على تنظيمها والعناية بها لاستخدام مواردها فى النفقات على مصالحها المختلفة بجانب الموارد الأخرى مثل أراضى االعشر التى استمرت هى الأخرى فى المغرب (٧٨) .

وفى الأندلس بقيت أراضى العشر(٧٩) كما هو الحال فى المغرب أما الأراضى الخراجية سواء كانت المغنومة أو المصالح عليها ، فتعرضت لتغيرات أدت إلى تقلصات ثم تلاشيها وذلك نتيجة لإقطاعات الجند المتكررة كثيراً من جانب خلفاء بنى أمية(٨٠) ، ومن ثم صارت أملاكاً خاصة متوارثة(٨١) .

والخلاصة أن الأراضى فى العدوتين غلبت عليها الملكيات الخاصة سواء كانت كبيرة أو صغيرة . وبمرور الوقت أفرز لنا هذا نوعية من الأراضى لها أهمية في دراستنا هذه . وهى أراضى الأحباس التى هى فى الأساس قطع استجزأت من الأراضى الخاصة كهبات وصدقات أوقف ريعها على الدور العامة

والفقراء والمرضى ، وغير ذلك . وقد ظلت هذه الأراضى طيلة العصور الوسطى يحافظ عليها ولاة الأمر من أجل أهدافها السامية(٨٢).

ويبدو أن هذا الوضع للأراضى فى المغرب كان أحد الأسباب الرئيسية التى دفعت الحكام لفرض ضرائب غير شرعية على الرعية لسد العجز الناتج عن قلة أراضى الخراج وما يجبى من أراضى العشر والزكاة فكثرت أنواع هذه الضرائب وتعددت مسمياتها مثل المراصد واللوازم والمغارم أو الفرائض والعشور أو حتى الخراج(٨٣) ، إلا أن اسم القبالات أو القبالة كان أظهرها وأكثرها استخداماً حتى صار شيئاً فشيئاً علماً على كل هذه الضرائب وثبت ذلك تماماً فى العصر المرابطى حيث دخلت كل هذه الضرائب فى إطار التقبيل من أجل أن تضمن الدولة دخل ثابت لا تتكلف الكثير فى جبايته(٨٤) .

وعلى أساس ما سبق يمكننا دراسة القبالات فى المغرب والأندلس مقسمين إياها إلى قسمين رئيسين :

أولاً : القبالات العامة .   ثانياً : القبالات الخاصة .

أولاً : القبالات العامة :

تلك التى كانت من قبل الدولة أو من يمثلها من ديوان الخراج أو ديوان القضاء إلى أفراد يستطيعون القيام بمؤونتها المالية ، بحيث يكون كفيلاً بتحصيل أموالها بنفسه بعد أن يدفع قيمتها لخزينة الدولة ، فيستفيد الحكام من تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين ما دفعه وما حصله . كانت هذه القبالات العامة تتم وفق مراسيم ونظم متبعة طبقتها الحكومات من أجل إكسابها الصبغة الشرعية . وقد أمدنا كتاب الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام لابن سهل الجيانى(٨٥) بمعلومات قيمة ترسم لنا نفس الصورة التى وجدناها فى مراسيم تقبيل أراضى فى مصر فى العصر الفاطمى وقبله ذكرها المقريزى فى كتابه الخطط(٨٦) فالموضوع

واحد فى كلا القطرين وإن اختلفت المسميات بعض الشيئ وكذلك الأشياء المتقبلة حيث صارت فى الأندلس غير مقصورة على الأراضى الخراجية وأموالها .

ونظراً لاختلاف صيرورة الأراضى فى كلا البلدين من حيث الوضع التشريعى ، وجدنا أن الأرض العامة بمصر أو أراضى الخراج كثيرة ، ولذا ظل النظر فيها لديوان الخراج[٨٧] ، بينما فى الأندلس كانت الأراضى الخراجية نادرة أو غير موجودة فحلت محلها كما علمنا أراضى عامة أخرى تمثلت فى أراضى الأحباس التى أوكل النظر فيها لديوان القضاء ،[٨٨] أى صار الإشراف عليها من قبل القاضى وأعوانه كصاحب الأحباس .

ولا خلاف فى ذلك بينهما حيث أشرف على الأولى جهة إدارية مالية هدفها حفظ أموال الدولة وعلى الثانية جهة دينية مالية لها أيضاً نفس الهدف ولكن الأموال ليست للدولة بل للمحبس عليهم أو سبل الحبس الأخرى ، فعلى كليهما تحمل مسئولية هذه الأموال .

ومثلما كان يجلس متولى الخراج بمصر فى مسجد عمرو بن العاص ثم جامع أحمد بن طولون ثم القصر الفاطمى حيث انتقل إليه مكان جلوسه بعد ذلك ، وظل يمارس نشاطه هناك حتى نهاية الدولة الفاطمية[٨٩] فإن القاضى فى الأندلس كان يجلس فى مسجد قرطبة الجامع أو حتى داره فى الوقت الذى تنتهى فيه أملاك الأحباس فى الأندلس من أراض ودور وحوانيت وغيرها للقبالات . وينقل ابن سهل عن الفقيه ابن العطار الوثائقى أنه شاهد القاضى وكيف كان يزاول عمله فى قبالة الدور والحوانيت والفنادق المحبسة على المساجد وغيرها . فكان يعقد جلسة عامة لذلك كل عام فى ذى الحجة بعد عيد الأضحى بثمانية أيام[٩٠] ويجمع حوله الراغبين فى القبالات من القادرين وغيرهم[٩١] بعد أن سمعوا الدلال ينادى عليها فى الأماكن العامة والأسواق[٩٢] .

وكما يحدث بمصر عند متولى الخراج من مزايدات علـــى تقبـل الأراضـــى بالذات فإن تلك المزايدات كانت تحدث عند القاضى فى الأندلس بمجـــرد أن يعلـن الدلال عن تقبل الأرض أو الدار ويعلن عن قيمة القبالة وربما لترغيب الناس أكـــثر فى الإقبال على المزايدة كان الدلال يعلـن مواصفـات الأرض والـدور وغيرهـا وميزاتها . وقد يكون ذلك بتوجيه من القاضى حتى لا يكون هناك شبهة تغريـــر أو غش كأن يقول مثلاً إن « من يتقبل الجنة الفلانية يبلغ الأثمـــان العظيمـة » وفـى أخرى « لو حصل من هذا الثلث أو الربع لكان حسناً »[٩٣] أو أن البعض كان يـأتى جلسة القاضى وهو يقصد تقبل ملك أو عيناً محدداً لعلمه بميزاته ، فمنيـــة العجـب مثلاً جنوب قرطبة تغالى الناس فيها لقربها من المدينة وخصوبة أرضها وعظيم مـا يتمنون من وراء الاهتمام بها[٩٤] .

وعندما تنتهى جلسة القاضى ويعرف كل شخص قبالتـــة مـن أرض أو دور يُكتب عقد بين المتقبل وبين متولى أمر الأحباس والناظر فيها يعرف أيضـــاً باسـم القبالة ، توضح فيه الشروط الصحيحة فـــى القبالـة وتحديـد مكانـــها وحدودهـا ومواصفاتها ، وكذلك قيمة القبالة ومدتها التى كره الفقهاء على ما سنعلم[٩٥] طـــول مدتها حتى لا تندرس الأملاك المحبسة بمرور الزمن .

على أية حال نستطيع من خلال المعلومات والأخبـــار الـواردة عـن هـذه القبالات العامة أن نصنفها إلى :

١ - قبالات أراضى الخراج .

٢ - قبالات الأحباس .

٣ - قبالات ضرائب التجارات والصنائع .

١ - قبالات أراضى الخراج :

ذكرنا من قبل أن أراضى الخراج كانت قليلة ببلاد المغرب واختفت من بـلاد الأندلس بمرور الأيام ولذا سنكتفى هنا بالحديث عن بلاد المغرب وتقبـل أراضيـها ولا شك فى أن نظام التضمين طبق فى المغرب منذ زمن مبكر بإعتبار تلك البـلاد

مناطق تابعة للخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية اللتين أقرتا هذا النظام وعملتا بـــه لضمان تدفق الأموال على خزينة الدول كما أسلفنا .

وإذا كنا فى الفترة الأولى نعدم الأدلة الكافية على شيوع نظام قبالة الأراضـى الخراجية فى المغرب ، فإنه ورد إلينا خبر عن طريق المصادر المشـرقية الفقهيـة تؤكد شيوع نظام القبالة فى المغرب ، وذلك عن طريق عبد الرحمن بن زيــاد بـن أنعم القاضى الأفريقى ، الذى قال لعبد الله بـن عمـر (رض) أنـا نتقبـل الأرض فنصيب من ثمارها ، فقال له ابن عمر : ذلك الربا العجلان[٩٦] وبغض النظر عـن صحة القبالة من عدمها فإن ذلك يثبت أن أهل أفريقية عرفوا نظام القبالة منذ زمـن مبكر[٩٧] .

ذلك أن نظام الضمان أو القبالات فى الأراضى كان شائعاً لدى الفـاطميين ، حيث تخبرنا سيرة الأستاذ جوذر أن المبالغ الكبيرة التى كان يحصل عليها المتقبلـون من كور المغرب المختلفة تسببت فى تكالب المتقبليـن علـى ضمـان الأقـاليم ، عارضين الأموال الكبيرة ، فلما تطاول المتقبلون من العمال إلى الزيادة على جعفـر ابن على فى عمله بالمسيلة كتب الاستاذ جوذر بذلك رقعة إلى المعز لدين الله يقـول فيها « يا مولاى ... هذا بلد كثر القول فيه وتطاول المتقبلون إليه فـالواجب عقـده على من طلبه ولا يذهب مال مولانا خسارة»[٩٨] ويفيدنا ابن حوقل[٩٩] أن إقليم برقة كان العمل فى أراضيه بنظام القبالة والضمان ، رغم نفيه هذا النظام عن بقية بـلاد المغرب[١٠٠] .

ولا شك فى أن الفاطميين تركوا هذا النظام لخلفائهم من الزيريين فـى بـلاد المغرب لضمان خراج البلاد الذى كان يصلهم وهم فـى القـاهرة بانتظـام[١٠١] ، وساروا هم أنفسهم على ذات النظام فى أراضى مصر كما يخبرنا المقريزى[١٠٢] .

٢ - قبالات الأحباس :

تكونت مادتها مما يجود به الخـيرون مـن أراض زراعيـة[١٠٣] ودور[١٠٤] وحمامات[١٠٥] وفنادق[١٠٦] وأرحاء[١٠٧] وحوانيت[١٠٨] وأفران[١٠٩] تكون حبسا علـى ما يحدده رب الحبس ، سواء كان ذلك للإنفاق على إصلاح الدور العامة كالمسـاجد

وترميمها ، أو فداء الأسرى من المسلمين ، أو الانفاق على الكتاتيب ومعلميـــها أو على طلبة العلم من الفقراء ، أو الأربطة والحصون فى مناطق الثغور أو الانفـــاق من ريعها لإطعام الفقراء والمساكين أو العناية بالمرضى مـــن فقــراء المســلمين . وكان هذا التحبيس يثبت فى وثيقة(١١٠) يسجل فيها اسم المحبس والمحبـــس عليـــهم واسم مادة الحبس ، مع تحديد دقيق لمكانه فى المدينة أو أرباضها ، وبيان حـــدوده من الجهات الأربع محددة مدة الحبس ، وفى النهاية يذكر شهود الحبس .

وكان النظر فى هذه الأحباس فى البداية للقاضى ، ثم بعد ذلك - نظراً لكــثرة الأحباس وخصوصاً فى الأندلس - خصص لها وظيفة مســـتقلة عــرف متوليــها بصاحب الأحباس أو ناظر الأحباس . وما لبث هو الآخر أن زادت مشاغله وكـثرت أعماله فصار هناك من يختص بحبس الخواص وآخر بحبس العوام (١١١) بل إن مـن كثر حبسه الخواص كان يعين للإشراف على أحباسه صاحب أحباس لاعمـــل لــه سواها(١١٢) . وكان كل هؤلاء يعملون تحت نظر القاضى وإشــرافه(١١٣) وشــاغلهم الأول المحافظة على الأملاك المحبسة من الدرس والعدم أو الإزالة حتى لو اقتضـى منه التنسيق والاتصال بأرباب الخطط الأخرى كالمحتسب مثلاً(١١٤) .

وكانوا يديرون هذه الأحبـــاس حسبمـــا يرون مـــن مصلحـــة أربابـــها أو المحبـــس عليهم فى إطـــار ما اشترط المحبـــس . ومـــــن ضمـــن طـــرق الاستفادة بهذه الأحباس لصالح المحبس عليهم كان نظام القبالة الذى نحن بصـــدده ، فقد كان يعلن عن هذه الأشياء المحبسة كل عام فيـــأتى إليـــها الفقـــراء والأغنيـــاء لقبالتهـــا. ويبدو أن الإقبال عليها كان ضعيفا ، ولذا اجتهد القضاة فـــى اسـتمالة متقبليها حتى يتشجعـــوا على قبالتها(١١٥) ، ومن ثم يتمكن المحبـــس عليـــه مـــن العيش فى سلام ، لأن تلك الأشياء المحبسة كانت المورد الوحيد لمعيشتهم ، وحتـــى يتمكن الناظـــرون فى الحبس من فداء الأســـرى وتمويـــل المرابطيـــن وإصـــلاح المساجد وعـــلاج المرضى . ومن أجل المحافظة على سير الأمور بانضباط كـان ناظر الحبس يجتمـــع دورياً مع الكتاب والجباة للأموال من المتقبلين أو غـــيرهم والشهود لتقويم ريع هـــذه الأحباس ، ســواء ما كان يجبى منها شهرياً أو سنوياً

ومعرفة المنصرف منها على المرتبات ووجوه الصرف على المحبس عليـــهم قبـل ذلك ، وتحديد المتبقى من المبلغ الكلى[١١٦] والحفاظ عليه خوفا من العقوبة التى كان ينالها صاحب الأحباس إذا أهمل أو فرط فى أموال الحبس[١١٧] .

بقى أن نذكر أن هذه الأحباس كانت طيلة العصر الإســلامى فــى المغــرب والأندلس وحرصت الدول المتعاقبة عليها وزيادتها من أجل أداء رسالتها الســامية . وقد ذكرت لنا كتب الوثائق والسجلات نماذج عديـــدة لقبالــة هــذه الأحبــاس[١١٨] موضحة كنهها ، كما وصفنا سابقا . وقد بقى لنا عند ابن سهل مثال تطبيقى لأمــلاك ودور وأفران وحمامات قبلت فى مدينة قرطبة. وكذلك تقبيل عدد من الجنات مـــن جهاتها المختلفة ، فقبلت بعض الجنان فى جهاتها الغربية وجهاتها الشرقية ، وكـــان أشهرها جنان منطقة الرملـــة وجهاتـــها الجنوبيـــة « القبليـــة » وأشــهرها منيـــة العجب[١١٩].

٣ – قبالات الضرائب :

عرفنا فيما سبق كثرة الضرائب المفروضة على التجــارات ، ســواء كــانت داخلية أو خارجية ، وتعدد مسمياتها فى بلاد المغرب والأندلس ، وعلمنـــا أن تلــك الضرائب قد تقبلت حتى صارت كلمة القبالة تعنى فى النهاية. ضريبة غير شــرعية. وضريبة التجارة التى أقرها الإسلام كانت العشور وهى تفــرض علـــى التجـــارات الصادرة والواردة إلى البلدان الإســـلامية والتـــى يمكـــن أن نشـــبهها بـــالضرائب الجمركية. ولم تكن هذه الضرائب فى عهد الرسول ﷺ ولا على عهد خليفته أبـــى بكر ، وذلك لأن الدولة كانت فى دور النشأة والتكوين . ولكنها وضعت فـــى عـــهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب الذى امتدت الفتوحات الإسلامية فى عـــهده شــرقا وغربا ، فاتسع سلطان المسلمين وضمت الدولة ذميين ، قاموا بالأعمـــال التجاريـــة داخليا وخارجيا ، واستفادوا من مرافق الدولة وخدماتها ، وجنـــوا مـــن وراء ذلـــك الأرباح الطائلة . هذا إلى إن امتداد حدود الدولة الإسلامية أدى إلى كثرة الداخليـــن

إليها من رعايا الدول المجاورة للتجارة ، وهم الذين إطلق عليهم فى الفقة الإسلامى إسم « الحربيون وأهل الهدنة »[١٢٠] .

ومن المنطقى أن تستفيد الدولة وتنتفع بجزء مما يجنيه هؤلاء التجار ، ومقابل الأمان والاستفادة من مرافق الدولة الإسلامية وخدماتها . ومن هنا اجتهد الخليفة عمر بن الخطاب فى وضع عشور التجارة على هؤلاء التجار ، ولم يكره أحد من الصحابة ذلك فصار إجماعا[١٢١] . ويذكر أن السبب المباشر فى فرض عشور التجارة هذه ما كتبه أبو موسى الأشعرى إلى الخليفة عمر من أن تجار المسلمين إذا أتوا أرض الحرب يأخذون منهم العشر ، فكتب إليه الخليفة أن يأخذ من الحربين كما يؤخذ من المسلمين ، وزاد على ذلك ، أن يأخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين ربع العشر ، وليس فيما دون المائتين من الدراهم[١٢٢] وكانت هذه العشور تؤخذ مرة فى السنة نقدا أو عينا[١٢٣] ولا تؤخذ من غير مال التجارة الذى يجب أن يبلغ النصاب . وكان يعطى لدافعها براءة أو حجة بأدائها حتى لا يعشر ثانية[١٢٤] وصار الأمر على هذا الحال من التجارة الداخلية والخارجية حتى استجدت ضرائب أخرى موازية للعشور ، بل إن العشور خرجت عن مسارها الصحيح فأخذت أكثر من مرة فى السنة ، وزيد فى نصابها وأخذت على تجارات محرمة مثل الخمر والخنازير . ويبدو أن ذلك هو الذى دفع العادل عمر بن عبد العزيز إلى تصحيح هذه الأوضاع فأمر بأن تلغى كل الضرائب الإضافية التى اختلطت أمرها بالعشور تحت مسميات مختلفة مثل الفائدة والمائدة[١٢٥] ولكن شدد على أكثرها شيوعا ، وهو المكس ، وقال عنه بأنه ليس بالمكس ولكنه البخس . وأمر بتدمير مراكز جبايتها أو بيوتها[١٢٦] متبعا فى ذلك سنة الرسول ﷺ حيث كانت هذه المكوس موجودة قبل الإسلام ، إذ كان عمال الدول يأخذونها من التجار عند الانتقال من بلد لأخر أو مدينة لأخرى . وكان جامعها يعرف باسم المكاس أو العاشر وقد ذكر ذلك أبو عبيد فى كتابه الأموال[١٢٧] قائلا « كان المكس له أصل فى الجاهلية يفعله ملوك العرب والعجم جميعا فكانت سنتهم أنه يأخذوا عشر أموالهم إذا مروا بها عليهم » فأبطل الرسول ﷺ وذم المكاس

أو العاشر وحرض على قتله[١٢٨] ولكن بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز عـادت هذه الضرائب مرة أخرى نظراً للحاجة الملحة إلى الأموال ، وانتشرت فـى العـالم الإسلامى بمعرفة الخلافتين الأموية والعباسية .

وفى المغرب والأندلس صارت تلك الضرائب الإضافية من الموارد الأساسية لخزينة الدولة ، بل لقد شددت دول المغرب والأندلس فى جبايتها مقـداراً وتكـراراً فى العام الواحد وأساءوا إلى الناس فى جبايتها عن طريق المتقبلين الذين أسند إليـهم جباية هذه الضرائب من أجل ضمان إمتلاء خزينة الدولة وقد وجدت هذه القبـالات فى عهد الأغالبة . وظلت حتى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢م أى عنـد ظـهور الدعـوة الفاطمية فلما بلغ خبرها إبراهيم الثانى الأغلبى ذعر منها فأظهر التوبة والندم علـى ما فرط منه ، وكف عن الظلم ، وأراد أن يستميل قلـوب العامـة ، وأن يرضـى الخاصة من أجل صرف الجميع عن إجابة الداعى الفاطمى « فأسرع برد المظـالم وأسقط القبالات وأمر بأخذ العشر حبا »[١٢٩] وإذا كان هوبكنز Hopkins[١٣٠] أمكنـه تصديق ابن حوقل الذى جاب المغرب من أقصاه إلى أدناه على حد قوله ، فـى أن بلاد المغرب فى زمن الفاطميين لم تعرف نظام القبالة وأن جميعـها كـانت تعمـل بنظام الأمانة فى جباية الأموال[١٣١] فإننا لا نستطيع قبول ذلك مع ما تجمع لدينا مـن معلومات تفيد بوجود نظام القبالات على الأرضين والضرائب قبل الفاطميين وأثنـاء عهدهم القصير بالمغرب ، خصوصاً وأن هذا النظـام كـان شـائعاً فـى البلـدان الإسلامية شرقاً وغرباً ، وأخذ الفاطميون به فى المغـرب ومصـر بعـد انتقالـهم إليها[١٣٢] وابن حوقل[١٣٣] نفسه يؤكد « أن برقة قد تقبلت » وهـذا أبـو عبـد الله الشيعى داعيـة الفاطميـين ومقيم دولتهم فى المغرب عندما أتت إليه الأمـوال من طبنة نقدا أمر أن تفرق علـى أصحابه ، وقال لمن أتاه بمال الخراج « هـذا مال لاخير فيه ولا قبالة ولا خـراج على المسلمين فى أموالـهم »[١٣٤] وربمـا يكون ذلك دعاية يتكسب بها مودة الناس وقلوبهم ولكن الخبر يؤكـد وجـود نظـام القبالات .

ويحكى أن الفقيه الزاهد المعروف بالسدرى(١٣٥) دخل على عبيد الله المهدى ، وكان عنده أحد خدمه المعروف بالبغدادى ، فقال للسدرى « إن أمير المؤمنين كثير العفو ، فقال له السدرى أتكذب عليه فى وجهه ؟ فرد عبيد الله كيف كذب ياشيخ ؟ قال : سماك بأمير المؤمنين ولو كنت أمير المؤمنين ما أمرت بسبب السلف وأظهرت الخمر والقبالات والمراصد ومنالة السد « فأمر عبيد الله بضرب عنقه(١٣٦) ويروى لنا المالكى فى رياضة(١٣٧) أن أخوين من الأندلس ورداً إلى المهدية تاجرين ، ومع أحدهما نوع من البسط يعرف باسم الليود غالى الثمن لم يستطع هذا الأندلس أن يدفع قبالتها « فأودع السجن حتى « يقبل » أخير فمن الأدلة على شيوع القبالات فى عصر الفاطميين إنكار الثائر أبى يزيد مجلد بن كيداد من جملة ما أنكره على الفاطميين فرضهم القبالات على الناس ، ففى حواره مع المنصور (٣٣٣ - ٣٤١هـ / ٩٤٥ - ٩٥٢م) الذى قبض عليه وسأله عن سبب خروجه قال أبو يزيد: كان أبو القاسم - يعنى والد المنصور - كريما ، حوله قوم سوء هجنوة فسأله المنصور بماذا ؟ فقال بعد أن استحثه المنصور : هذه القبالات التى فيها الجور على المسلمين ، فقمت منكراً لذلك ، أريد إصلاح أمور الناس قال المنصور فهل علمت أن ذلك عن رأى أمير المؤمنين وأمره ؟ فقال لا أعلم إلا أنهم قد فعلوا؟(١٣٨) ولا شك فى أن الزيريين الذين خلفوا الفاطميين فى المغرب حرصوا على جباية مثل هذه الضرائب الإضافية بذات الطريق ، وسلكوا وسائل مستحدثة لعدم إفلات التجار من دفع هذه الضرائب . من ذلك مثلاً نجد المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤ هـ/١٠٦٣-١١٠٨م) عندما أعاد بناء أسوار القيروان، وليقينه بأهمية المدينة تجارياً، رأى الإستفادة من الصادر منها والوارد إليها بأقصى حد ممكن ، فقام سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م بربط القيروان بضاحيتها صبرة بحائطين متوازيين تاركاً بينهما حيزاً صغيراً كالفصيل . ومن ثم صار لا سبيل لتاجر أو وراد كى يدخل المدينة إلا هذا الفصيل ولا يمر به إلا بعد دفع المكس بمدينة صبرة(١٣٩) .

أما ملوك زناته فى المغرب الأقصى فبعد أن تبدلت أحوالهم ولم يعد يأتيهم المدد من الأندلس وبعد أن ظهر المرابطون على مسرح الأحداث السياسية والذى أثر عليهم تأثيراً بالغاً فى الناحية الإقتصادية وبعد أن كانوا المتحكمين فى طرق

التجارة بين الجنوب والشمال والشرق وجنوا من وراء ذلك أموالاً طائلة ، نازعهم المرابطون فى هذا الأمر وانتزعوا منهم فى النهاية هذه الموارد الضخمة فاضطربت حياتهم الاقتصادية(١٤٠) واشتد الغلاء وتبدل الرخاء بالشدة وعدمت الأقوات ، مما أدى بالزناتيين إلى اتخاذ إجراءات شديدة وقاسية للحصول على الأموال من استعمال القوة مع التجار والسطو على المنازل . وفرضوا على الناس المغارم والمكوس الجائرة فى تجاراتهم ، مما أدى إلى أن يتطلع الناس إلى من يخلصهم من هذا البلاء والشقاء ، فوجدوا ضالتهم المنشودة فى المرابطين . فلما دخل عبد الله بن ياسين سجلماسة سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م « أحرق الدور التى كانت تباع فيها الخمور وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية »(١٤١) وأصلحوا من أحوالها(١٤٢) .

أما على الجانب الآخر أى فى الأندلس ، فقد ضربت على الرعية غير الضرائب الشرعية من زكاة وعشر وجزية على المعاهدين ضرائب غير شرعية كفانا مؤنة البحث فيها بروفنسال(١٤٣) من المعاون والمغارم وغيرها ويكفى أن نؤكد دراسته هذه بالقول بأنها فرضت منذ زمن مبكر استنادا إلى ما ذكره ابن الخطيب(١٤٤) من أن الحكم الربضى (١٨٠ – ٢٠٦هـ/ ٧٩٦– ٨٢٢م) فرض على الناس المعاون والمغارم بل سوغ لأحد المعاهدين افتراضها على المسلمين . وقد تثبلت هذه الضرائب جميعا وخصوصا ما كان يفرض منها على المبيعات فى الأسواق(١٤٥) ويتأكد هذا بما أورده ابن حوقل(١٤٦) ، من أن سكة دار ضربه – أى الناصر لدين الله (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ / ٩١٢ – ٩٦١م) – على الدنانير والدراهم فى كل سنة مائة ألف دينار . هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده وجواليه ، وما يقبض من الأموال الوافرة على المراكب الوارده إليهم والصادرة عنهم والرسوم على البيوع فى الأسواق « ويؤكد بروفنسال(١٤٧) أن قبالة مثل هذه الضرائب قد أضرت بالرعية لجشع المتقبلين الذين حرصوا على أموالهم بطريقة واضحة وزادوا عند جمعها كثيرا بل تغالوا فى ذلك .

ولا شك فى أن ملوك الطوائف أكثروا من فرض الضرائب على الرعية لاحتياجهم الشديد للأموال من أجل تلبية أطماعهم فى التوسع على حساب إخوانهم من الملوك المجاورين ، أو تلبية نفقات مظاهر الترف الذى انغمسوا فيه ، وأخيراً من أجل أداء الجزية المضروبة عليهم من جانب الفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة(١٤٨) . وتعددت مسميات هذه الضرائب من معاون ومكوس ومغارم(١٤٩) فاختصت احدى هذه المغارم باسم مغارم الإقطاع(١٥٠) وكانت هناك ضريبة أخرى تسمى بالقطيع تؤدى كل شهر على الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس وعلى كل خلية شيئاً ما(١٥١). وينبأنا الأمير عبد الله أخر ملوك بنى زيرى بغرناطة (٤٦٥ - ٤٨٣هـ / ١٠٧٣ - ١٠٩٠م) أن الرعية جأرت بالشكوى ليوسف بن تاشفين من كثرة هذه الضرائب وسوء جبايتها(١٥٢). ولا ريب كذلك فى أن ملوك الطوائف قبلوا هذه الضرائب لضمان وصولها إليهم . ويذكر فى ذلك أن يوسف بن تاشفين عندما ساءت علاقته بملوك الطوائف ونوى إسقاطهم ألزم المعتمد ابن عباد ملك إشبيلية (٤٦١ - ٤٨٤ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٩١م) - فى سبيل إصلاحه - الرباط والمجاهدة ، وأن « يقطع القبالات فى بلاده »(١٥٣) هذا بالإضافة إلى قبالات الأسواق إذا يقول ابن حزم(١٥٤) أنهم « فرضوا قبالات ما تؤدى على كل ما يباع فى الأسواق » وفسر ذلك فى موضوع أخر وأسماها بالجزية ، كناية عن ظلم هؤلاء للرعية والجزية هى التى يأخذها المتقبلون من المسلمين فيما يباع فى أسواقهم على الصابون والملح والدقيق والزيت والجبن وعلى سائر السلع(١٥٥) .

ولم يكتف ملوك الطوائف بتقبيل الضرائب غير الشرعية ، بل اتجهوا من أجل الحاجة الملحة للأموال لتقبيل خطط الدولة وأهم المرافق بها ، كدور السكة التى ضربت لكل منهم سكته الخاصة به وقد أورد لنا ابن بسام(١٥٦) أن دار السكة بالمرية قد تقبلت وأن متقبلها كان يدعى أحمد القيسى .

وقد إستفادت دول المغرب والأندلس من نظام التقبيل فاحتفظوا بخزائنهم ملأى ولبوا مطالبهم المعيشية كملوك بل تعدوها إلى الترف الفاحش وأرضوا أنفسهم

فى ذلك . على أنهم بالمقابل أسخطوا الرعية التى لم يعملوا لها حسابا . وزادوا سخطهم بأسنادهم – فى أحيان كثيرة – قبالة هذه الضرائب إلى متقبلين من أهل الذمة من النصارى واليهود ، مثل قوس بن انتيان فى عهد الحكم الربضى(١٠٧) أو ذلك اليهودى الذى تقبل السوق فى إحدى القرى بأفريقية واحتكر صناعة الخبز فى هذه القرية فلا يعمل فها أحد الخبز سواه(١٥٨) .

وهذه النقطة بالذات ربما تفسر لنا ما أثبته المستشرق دوزى فى معجمه(١٥٩) أن من معانى الكلمة العهد أو الذمة فيقال أهل القبالة فهم أهل الذمة أى صارتا مترادفتين . وربما يزيد ذلك تأكيدا أنه بعد إنقلاب السياسة الجبائية إلى الأسوأ فى الدور الثانى من حكم المرابطين للمغرب والأندلس استعملوا النصارى فى جباية القبالات كما ذكر صاحب الحلل الموشية(١٦٠) .

هكذا جاءت دولة المرابطين ووجدت فى المغرب والأندلس القبالات معمول بها بما فيها من ظلم للرعية . ولأن سياستها المالية خصوصا فى ميدان الجباية قامت على أساس متين من الناحية الدينية طبقا للشرع(١٦١) فى ميدان الأموال ، فإنها قضت على تلك التجاوزات الجبائية والضرائب الزائدة ، التى فرضتها الدول قبلها ، فيذكر أن عبد الله بن ياسين كان يأمر أصحابه بالصلاة والزكاة وأداء العشر ، ونظم المناطق التى صارت فى قبضة المرابطين ، وأمر أتباعه بأخذ الزكاة والعشر فقط من أهلها مثلما ذكرنا سلفا. وعندما افتتح مدينة سجلماسة أحرق دور الخمور ، ووضع المكوس ، وأسقط المغارم ومحا ما أوجب الكتاب والسنة « محوة »(١٦٢) وقد استمرت هذه السياسة الجبائية الشرعية فى عهد يوسف بن تاشفين ، إذ منع المكوس ولم يرض بما هو خارج عن الشرع(١٦٣) ، ولم يأخذ سوى الزكاة والعشر والصدقات ، مما أدى فى النهاية إلى تنشيط الحركة التجارية وانخفاض الأسعار وإستقرار الأمن الاقتصادى والرخاء المادى ، بحيث صارت أيامه « أيام دعة ورفاهية ورخاء ، فلم يعد هناك رسم مكس ولا معونة ولا خراج فى بادية ولا حاضرة »(١٦٤) « ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية »(١٦٥) ولا قبالات ،

بعد أن رفعها استجابة لنداء الرعية ، وخصوصا فى الأندلس[١٦٦] . ورغم أن ابن أبى زرع عمم تلك الأقوال فى السياسة الجبائية وتأثيرها الحسن على أحوال الناس فى دولة المرابطين بصفة عامة[١٦٧] ، إلا أن المصادر الأخرى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن ذلك انطبق فقط على الفترة الأولى – فترة التكوين والتوسع لدولة المرابطين – أما بعد عهد يوسف بن تاشفين ، فقد تغيرت الأوضاع بسبب اتساع مساحة الدولة ، وتضاعف جيوشها ، وثقل مسئولياتها ، واتساع نطاق الجهاد ، بحيث لم تعد تلك الموارد الشرعية المتواضعة تكفى لمواجهة الأعباء الكبيرة . ومن هنا لجأ المرابطون إلى فرض المعاون على الرعية التى ربما تكون شرعية حتى هذا الوقت ، ولكن شيئا فشيئا ومع مرور الأيام اتسع نطاق هذه المعاون وزادت قيمتها وتعددت أسماؤها[١٦٨] بحيث صارت عبئا ثقيلا على الرعية الذين لمسوا حرص المرابطين على جباية مثل هذه الضرائب وفرضها على كل شئ[١٦٩] ، وفى أى مكان ، فى الموانئ والمراسى[١٧٠] والأسواق ، حتى على دخول المدن[١٧١] والمرافق العامة مثل القناطر[١٧٢] وزاد من وطأتها على الرعية أن المرابطين استعملوا فى جمع هذه المغارم النصارى الذين أطلق عليهم صاحب الحلل[١٧٣] « الروم » من أجل إحكام جمعها وزاد الطين بلة حرص المرابطين الشديد على جمع هذه الأموال معجلة دون انتظار جبايتها فأعادوا نظام القبالة الذى سرى مسرى النار فى الهشيم ، فصار كل شئ متقبلا فى عهدهم ، ويصور لنا الإدريسى[١٧٤] ذلك بقوله « وأهل مراكش يأكلون الجراد ، ويباع منه بها كل يوم الثلاثون حملا فما دونها وفوقها بقبالة عليه . وكانت أكثر الصنع بمدينة مراكش متقبلة ، عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والصفر والمغازل . وكانت القبالة على كل شئ يباع دق أو جل ، كل شئ على قدرة ».

ويذكر ابن عبدون أن هذا النظام كان عاما وشاملا ، وليس فى العاصمة أو المغرب فقط ، بل شمل الأندلس كذلك . ويعطينا تفاصيل أكثر عن هذا النظام وجشع المتقبلين ، فالقبالات لم تكن فى الأسواق الكبرى فقط ، بل كانت فى السويقات والرحاب ، إذا كان يؤخذ على كل شئ يباع فيها مكس حدد هو قيمته لمن

تقبل تلك الأماكن(١٧٥) ، حتى البيع فى الدور الذى لجأ إليه فقراء الناس من أجل التعيش أخذ عليه قبالة سواء كان زيتا أو طعاما(١٧٦) ؛ وهو ما يفهم منه أن المتقبلين لهذه الأسواق والمراكز التجارية الأخرى لم يتركوا شيئا يباع صغيرا أو كبيرا إلا أخذوا عليه قبالة حتى وصلوا إلى بيوت الفقراء وفرضوا عليهم القبالات . بل أكثر من هذا أدى بهم الجشع إلى أن يأخذوا على الوارد إلى الأسواق القبالة مرتين ، من الجلابين مرة ومن المشترين مرة أخرى فالضحية التى يأتى بها الجلابون من الريف والبادية كان يؤخذ عليها قبل دخول المدينة قبالة ، وعندما كان يتم بيعها يؤخذ عليها قبالة أخرى من مشتريها وهو ما حذر منه ابن عبدون(١٧٧) .

ومن أجل هذا كانت القبالات مصدرا للغنى الفاحش السريع ، فلجأ إليها من طمع فى ذلك ، وقد كانت الفرصة متاحة حتى ولو بدأ الفرد بتقبل سلعة غذائية واحدة أو سويقة أو صنعة واحدة ثم يتسع فى قبالاته التى ربما شملت سوقا كاملا أو قرية كاملة . وتخبرنا إحدى نوازل الونشريسى(١٧٨) ، أن شخصا تقبل القرسطون(١٧٩) فى السوق بسبعين دينارا فقط فاغتنى من ذلك ثم ما لبث أن وسع قبالته فشملت سوق الخضر ومعه أشياء أخرى بأربعمائة دينار وجمع من ذلك أموالا كثيرة عدت فى نظر زوجته التى لم يدخل بها وأخيها وأمها أموالا حراما ، ورفعوا بذلك إلى الفقهاء يشتكون من هذا المسلك ويريدون فسخ عقد الزواج .

وبناء على ما سبق يمكننا القول أن نظام القبالات بعد يوسف بن تاشفين صار العمود الفقرى للسياسة الجبائية فى عهد المرابطين ، وتمسك به حكامهم من أجل ضمان تدفق الأموال على خزينة الدولة لسد حاجاتها الضرورية وغير الضرورية « الكمالية « ، وأن هذا النظام تغيرت ملامحه تماما بعد أن اتسع نطاقه والتوت دروبه وتعددت مساربه بفضل جشع المتقبلين ، وإغضاء الحكام طرفهم عن ذلك ، مما أدى فى النهاية إلى ظلم بين للرعية التى أثقل المرابطون وجباتهم من المتقبلين كاهلها بمبتدعات هذا النظام التى حرص أذيال المرابطين من الثوار على تطبيقها كلية بل والزيادة فيها وهذا ابن مردنيش(١٨٠) ربيب هذا الجو الذى أنهمك فى ميدان

البطالة واللهو والجأه الخروج عن الجماعة والأنفراد بنفسه فى شرق الأندلس إلى الاحتماء بالنصارى (صاحب برشلونة وملك قشتاله) كان يدفع لهما فى السنة الواحدة خمسين ألف مثقالا مرابطيا[١٨١] وكون جيشا من مرتزقة النصارى ، وبنى لهم منازل وحانات للخمور ، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة[١٨٢] ، فمن أين كان يأتى بأموال لكل ذلك ؟ يقول ابن الخطيب[١٨٣] « إنه أجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم » ووجد ضالته المنشودة — من أجل تحقيق سياسته الخاطئة ومسلكه المشين — فى نظام القبالة بعد أن وضع الضرائب والمغارم والمكوس على كل شئ قبلها لمتقبلين قساة مفترين[١٨٤] . ولم تنج من الضرائب حفلات الأعراس والملاهى ، حتى قال ابن الخطيب[١٨٥] « فكانت قبالاتها غريبة ». ومن طريف ما يحكى فى ذلك أن رجلا من أهل شاطبة صودرت ضويعته بها فر أثناء غزو ابن مردنيش لها إلى مدينة مرسية واضطرته الظروف أن يعمل عند الناس فى البنيان بها . وبينما هو يسير يوما فى السوق إذا به يرى قوما من أهل بلده وقرابته ، ففرح بهم وعزم عليهم بالمبيت عنده ، فرضوا وذهب هو واشترى لحما وشرابا إكراما لهم ، وعمل ذلك وأكلوا وضربوا دفا . فلما كان الصباح إذا به يسمع نقرا عنيفا على الباب فسأل من أنت ؟ قال أنا الطرقون — الذى بيده قبالة اللهو — وأنتم ضربتم البارحة الدف ، فأعطنا حق العرس الذى عملت . فقلت والله ما كانت لى عروس، فأخذت وسجنت حتى أفتديت[١٨٦] . ولا شك أن وصول الأمر إلى هذا الحد من الظلم والقسوة قد ساعد الموحدين كثيرا فى إنجاح دعوتهم وقيام دولتهم ، إذ أنكر هؤلاء المصامدة خلاصهم مثل هذه الأشياء إنكارا شديدا حيث أن دعوتهم رفعت منذ بدايتها شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن ثم استغلوا هذه المناكير[١٨٧] التى سادت أرجاء دولة المرابطين أو مابقى من دولة صنهاجة فى المغربين الأوسط والأدنى ، وأبدوا سخطهم عليها وإنكارهم لها . وكان من بينها الضرائب والمكوس وقبالاتها التى كانت من أظهر الأشياء التى جذبوا بها قلوب العامة وغيرها ضد حكام صنهاجه فى المغرب والأندلس ، والذين وجدوا من ناحيتهم فى هؤلاء — المصامدة من الجور الواقع عليهم ، وخصوصا التعديات فى

الضرائب وجبايتها . وقد وضح هذا منذ بداية الدعوة على يد مهدى الموحدين محمد بن عبد الله بن تومرت الذى بدأ مشوار دعوته كمحتسب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فعندما كان فى أكرسيف قصده العامة وشكوا إليه أن وزير يحيى بن فانو قتل له نعامة فأغرمهم بها ألف مثقال ، فذهب من فوره إلى يحيى وأعلمه بذلك ، فأمر يحيى بدوره الوزير بغرم ما أخذ من الناس من المظالم ، ونودى فى المكان كله من له مظلمة من الوزير فله النصفة ، ولا غرامة فى النعامة بعد ذلك(١٨٨) .

وعندما جاء المهدى ومن معه ليعبروا وادى أم الربيع ، منعوا حتى يعطوا المكس ، فصاح عليهم المهدى قائلا « وأى سبيل للمسلمين وأنتم تقطعونها وهذا غير جائز فى الشرع »(١٨٩) .

وما أن ظهرت الدعوة الموحدية حتى بدأت ألسنة دعاتهم تلهج بنقض الموحدين ما ابتدعه الحكام فى المغرب والأندلس من أنواع القبالات ، كدعاية لمسلكهم الرشيد ومسلك هؤلاء الحكام المشين ، حتى الكتب التى كان يرسلها حكامهم بعد ذلك إلى الكور والمدن للولاة والخاصة والعامة ، كان لابد فيها من ذكر مآثرهم فى القضاء على تلك المأثم والبدع فى الضرائب من أجل إثبات مصداقيتهم أمام الناس . ومن ذلك رسالة بعث بها عبد المؤمن بن على (٥٢٤ - ٥٨٨ هـ / ١١٣٠- ١١٦٣م) إلى جميع الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة فى الأندلس (١٦ ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ) قال فيها « وكان مما بعثنا - وفقكم الله تعالى - على تنبيهكم وأذكاركم وإيقاظكم للنظر فى تلك المصالح وإشعاركم ما ألفيناه ، بحضرة مراكش - حرسها الله - من بعض تلك الأنواع مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع، كنوع القبالة وما يجرى مجراها من وجوب الإزالة والإحالة ، فانكرنا ما كان نكيرا وأزلنا بعون الله ما كان محذورا بالشرع محظورا »(١٩٠) وذلك بعد أن ذم المرابطين وسلوكهم فى جباية الضرائب وإنكاره لما كانوا يفعلونه بقوله : « ولقد ذكر لنا فيما ذكر من تلك المظالم المستغرقة للآثام الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم .. يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط إبلاغا فى الانتهاء بكثرتها وإمحاشا ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إيغارا للصدور وإيحاشا . وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل

أصلحكم الله تعالى عن هذه الأمثال والأشباه .... وقد ذكر لنا فـــي أمـــر المغـــارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسى وغيرها ما رأينا أنه أعظـــم الكبـــائر جرمـــا وإفكا فإنا لله وإنا إليه راجعون »(١٩١) ويهدد فى الرسالة نفسها من يحـــاول فـــرض مثل هذه الأشياء على الرعية قائلا « ولئن تقل إلينا والله الشاهد - أن نوعا من هـــذه الأنواع المحرمة أو صنفا من تلك الأصناف المظلمة يتولاه أحد هنالك من البشـــو أو يأمر بشئ من ذلك الفعل المستنكر ، لنعاقبنه بمحو أثره عقابا يبقى أثره عظة لمـــن أتعظ وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ »(١٩٢) .

وفى رسالة أخرى إلى أهل قسنطينة (سنة ٥٤٧ هـــ / ١١٥٢ م) يحدثـــهم عن فتح بجاية ومحاولته إقامة الشرع وقطع أثار الظلمة وإجراء الأمور كلها علـــى المنهج الشرعى ، ويذكر لهم ما كان بتلك النواحى من مكوس وقبالات قائلا « وقـــد كان بهذه الأصقاع من آثار أهل الاختلاف والابتداع مـــا علمتـــوه مـــن القبـــالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع »(١٩٣) ويفخر بأن تلك الضرائب قد قطعـــت تماما بفضل الموحدين قائلا « ولما من الله على أهل البلد بما من به مـــن التســـليم والتأمين .. انقطعت عنهم أسباب الظلم بانقطاع أهله وسدت عنهم أبـــواب البـــاطل كثرة وقلة ، فلا يطلبون إلا ما توجبه السنة وتطلبه ، ولا يلزمون - ومعـــاذ الله - مكسا ولا مغرما ولا قبالة »(١٩٤) .

ويبدو أن مساعى الموحدين فى هذا المجال كانت جادة حقيقة بحيـــث أشـــاد المؤرخون والرحالة بمسلكهم فى ذلك . يذكر الإدريسى تعقيبا على شيوع القبـــالات فى العصر المرابطى :

« فلما ولى المصاميد - يقصد الموحدين - وصار الأمـــر إليـــهم ، قطعـــوا القبالات بكل وجه ، وأراحوا منها ، واستحلوا قتل المتقبلين لـــها ، ولا تذكـــر الآن القبالة ذكرا فى شئ من بلاد المصامدة »(١٩٥) .

ثانيا : القبالات الخاصة :

نقصد بها تلك التى كانت تعقد بين أفراد المجتمع على ما يمتلك أحدهما مـــن أملاك ويتقبلها منه الآخر . وأحيانا - ترد هذه القبالات فى المصـــادر وخصوصـــا الفقهية بمعنى الكراء(١٩٦) . شملت هذه القبالات ، الأراضـــى الزراعيـــة ، والـــدور

والفنادق والحمامات والجنان والملاحات والأرحـــاء والأفـــران ومعـــاصر الزيـــت ومضارب الطوب والحوانيت وغيرها .

ووجود هذه القبالات فى المغرب والأندلس قديم بدليل مــــا ورد عــن عبــد الرحمن بن زياد الإفريقى وقبالة الأرض الزراعية(١٩٧) ، كما أن وثائق ابن العطــار القرطبى التى احتوت نماذج عديدة من وثائق وعقود لهذه القبالات تؤكد شيوع هـــذه المعاملة الإسلامية فى عصر بنى أمية(١٩٨) ويؤكد كتاب ابن مغيث الطليطلـــى فـــى علم الشروط استمرارها فى المغرب والأندلس فى عصر ملوك الطوائف والعـــدوة المغربية(١٩٩) ، كما تثبت فتاوى ابن رشد(٢٠٠) ووثائق المراكشـــى(٢٠١) ، واحتســـاب ابن عبدون(٢٠٢) على المتقبلين ، وفتاوى الونشريســـى(٢٠٣) ، أنـــها صـــارت مـــن المعاملات الإسلامية الأساسية فى المغرب والأندلــس خـــلال عصـــر المرابطيـــن والموحدين(٢٠٤) .

وكان من عادة المسلمين التوثيق فى المعاملات الإسلامية ، وتحـــرى الدقـــة المتناهية فيما يثبت فى الوثائق . ولذا لجأوا إلى الفقهاء الموثقين لكتابة وثيقة القبالـــة لمعرفة ما لهم وما عليهم فى القبالة . وقد حفظت لنا كتب الوثائق والسجلات العديـــد من النماذج لهذه الوثائق(٢٠٥) مما ساعدنا كثيرا فى معرفة أشـــكال هـــذه القبـــالات الخاصة وأنواعها والشروط التى يجب توافرها فى القبالة الصحيحة ، علـــى ســـنة المسلمين فى قبالاتهم .

ومن خلال تلك الوثائق علمنا أن العقد يكون شاملا مواصفات العين المتقبلـــة كاملة . فبعد معاينة العين أو الملك من المتقبل يحدد للموثق موقع العين ليثبته فـــى العقد ، كأن يكون خارج المدينة فيحدده فى أى ناحية أو ربـــض ، أو كـــان داخـــل المدينة فبأى حومة أو درب (٢٠٦) . ثم بعد ذلك تثبت حـــدود العيـــن مـــن الجـــهات الأربع، ويحدد اسم مالكها إذا كانت أملاك خاصة ، ثم يؤتى على مكونـــات العيـــن بالمساحة أولا وما تحويه هذه المساحة من إشغالات . فالدور بما فيها مـــن منـــازل وحجرات وأشجار وآبار(٢٠٧) ، والفنادق بما فيها من منافع وحقوق ومرافق داخلـــة فيه وخارجة عنه(٢٠٨) ، والحمامات وما تحويه من حقوق ومنافع ومرافـــق داخلـــة

وخارجة ومصاطب ورخام وبنيان وقدور ، وبئر سانيتة وصهريجه وسقائفه المعـدة للزبل ومجارى مياهه وغيرها[٢٠٩] ، والجنان بقاعاتـها وبنيانـها ودارهـا المعـدة للسكنى ، والبئر والصهريج والجزءالتابع لها من سـواد الأرض[٢١٠] ، والملاحـات بأحواضها التى يكون فيها مرافق الملاحة سواء كانت أقبيـة أو سـواقى ، وبـئر الملاحة إن كان هناك بئر[٢١١] ، والأرحاء التى يحدد موقعها على النهر الفلانى ثـم ما تشمله من سد النهر وأحجارها ومنافعـها وأسـرتها وبيتـها وقنواتـها ومحـط وارداتها[٢١٢] ، والأفران بما لها من حقوق ومنـافع مـن قبـو ومصـاطب وآلات وموضع حطب[٢١٣] ومعاصر الزيت بمنافعها ومرافقـها وقصاريـها وأحواضـها وبركتها[٢١٤] ، ومضارب الطوب بجميع حقوقها ومنافعها[٢١٥] والحوانيت التى يحـدد مكانها فى سوق العطارين أو السعافين أو غير ذلك ومرافقها الداخلة فيها والخارجـة عنها ومصطبتها وألواح غلقها[٢١٦] وهكذا . ثم تحدد مدة القبالة فى العقد علـى مـا يتفق الطرفان كأن تكون سنة أو سنتين أو أكثر ، مبينة بدايتها بشهر كذا مـن سـنة كذا ، ونهايتها كذلك[٢١٧] ويكتب بعد ذلك المبالـغ المتفق عليه لقبالة العين بالدينـار أو الدراهم ، وكيف ستؤدى هل بالشهر أو بالسنة أو بالشهرين أو الثلاثة أو الأربـع أو النصف سنة أو السنة حسب طبيعة العين المقبلة أو ظروف المتقبـل ، ورضـى صاحب العين[٢١٨] وإذا تم الاتفاق على المدة ومبلغ القبالـة لابـراءة للمتقبـل فـى التخلص من أدائها على الوجه الذى اتفقا عليه[٢١٩] وإذا أدى المتقبل جزءا من القبالة مقدما أو حتى دفعها جملة واحدة وبالذات فى العين المضمونة[٢٢٠] يوضح ذلك فـى العقد وإذا كانت القبالة من النوع الذى يتعرض للجوائح يمكن للمتقبل دفـع القبالـة تطوعا منه[٢٢١] ، كل هذه الأمور تبين فى عقود القبالات .

ليس معنى ذلك أن كل الناس ذهبوا إلى الموثقين وعقدوا القبالات كتابة ، بـل منهم من اتفق مشافهة دون كتابة وثيقة أو كتب وثيقة ، ونسى أن يسجل بـها كـل محتويات الشئ المقبل . ومن هنا حدثت بعض المشاكل من القبالات ورفعـت إلـى الفقهاء من أجل الإفتاء فيها وتبين وجه الحق ليعرف كل ذى حق حقه فى القبالـة ، وهذا يجرنا إلى موضوع غاية فى الأهمية لهذا البحث ألا وهو موقف الفقهاء مـن القبالات بصفة عامة .

الفقهاء والقبالات :

عرفنا أن الرسول ﷺ كان أول من أصلح من هذا النظام وبين للناس في زمانه حلال القبالات من حرامها . ولكن نظام التقبيل بدأ بعده يخرج قليلاً عن إطار الشرع الإسلامي عن طريق المخالفات الفردية التي سهل حلها من جانب الصحابة والفقهاء من التابعين ، بعد تبيانها للناس . ونجحوا في ذلك إلى حد كبير ، لتمسكهم بهدى رسول ﷺ وما أن إتسع نظام التقبيل بعد تغير أحوال المسلمين وانقلاب الخلافة إلى ملك متوارث واحتياج الحكام إلى الأموال احتياجاً شديداً - كما علمنا - حتى ثقلت مهمة الفقهاء بعد أن خرج نظام القبالات عن مساره الصحيح وتبدلت أحواله تحت سمع وبصر الحكام . ومن أجل الإصلاح قصد الفقهاء في البداية الخلفاء وأولي الأمر بتوجيهاتهم في صورة نصائح تبين وجه الحقيقة في هذا الموضوع وقد جسد لنا موقف الفقهاء القاضي أبو يوسف(٢٢٢) الذي أخذ على عاتقه مهمة تصحيح المسار في نظام التقبيل فبين للخليفة هارون الرشيد ما كان يفعله المتقبلون في أهل الخراج من حيث زيادته وطريقة جبايته الفظة وسوء المعاملة ، وحذر الخليفة من مغبة هذا الأمر وأن ذلك سوف يفضي إلى خراب الأرضين وإنكسار الخراج ، وأعلنها صراحة أمام الخليفة كراهيته للتقبيل ليس من أجل النظام نفسه وإنما لأنه لا يأمن المتقبل ، فأوصى أن يتقبل المتقبل خراج ناحية من النواحي ترضى أهل الخراج أنفسهم ، وأن يسير المتقبل في الجباية سيرة حسنة ، وأن يكون صادقاً وأميناً لا يأخذ أكثر مما دفع ، ومن أجل تحقيق ذلك يعين معه أمير يراقبه ويدفع لهذا الأمير من بيت المال ، حتى لا يتوطأ مع المتقبل ، لوحاد هذا المتقبل عن جادة الصواب ، فيمنع به الظلم عن الرعية ولا يحملوا ما لا طاقة لهم به .

ولا يعلم هل طبق هارون الرشيد ما نصح به قاضيه أم لا ولكن واقع الأحداث فى دولة بنى العباس يثبت أن تلك النصائح صارت سامية وصفحات ناصعة فى كتاب الخراج لأبى يوسف ، يقتضى بها الفقهاء ويدرسونها للاقتداء بها عند الحاجة والضرورة ، أما النظام نفسه فسار فى طريقه ولم يقتصر على الخراج فقط ولكن شمل خططاً هامة فىالإدارة(٢٢٣) .

وإذا كان هذا الموضوع قد تمخض عن موقف أولى الأمر ، بغض الطرف عن التجاوزات الشرعية وتجاهلهم نصائح الفقهاء ، فماذا كان موقف فقهاء المغرب والأندلس من هذا النظام ؟

اتجه فقهاء المغرب والأندلس فى محاربة الأهواء والبدع نحو الالتزام بما جاء به القرآن والسنة كنصوص ثابتة ، مطبقين فى السنة ما روى عن الإمام مالك بن أنس إمام المدينة الذى لم يحفظ لأحد من أهل العلم بالمغرب الإسلامى مثلما حفظ له بعد أن أخذت البلاد بمذهبه . وصار موطأ الإمام وعلمه الذى دونه علماء وفقهاء المغرب والأندلس الأوائل الذين تتلمذوا على يد الإمام وسمعوا منه مباشرة(٢٢٤) ، أساس الفتوى والتطبيق فى المجتمع .

بالنسبة للقبالات فقد كان موقف فقهاء المغرب والأندلس بصفة عامة موقفاً صلباً فى تطبيق أحكام الشرع على مذهب الإمام مالك ، وأسفرت جهودهم فى نهاية الأمر عن حمل المجتمع على السير بمنهج وشرع قويم فى نظام القبالات على المستوين العام والخاص .

الفقهاء والقبالات العامة :

يمكننا معالجة موقف الفقهاء من القبالات العامة على محورين :

الأول : بيان الفقهاء وجه الحق فيها والمحافظة على الشرع من خلال حفظ حق طرفى القبالة ، وذلك بالنسبة لقبالات الأحباس .

الثانى : الاحتساب على المتقبلين فى الضرائب :

أما بالنسبة للمحور الأول ، فقد نجح الفقهاء فى مهمتهم الشرعية أيما نجاح ، وساعدتهم الظروف فى ذلك حيث كان لهم الحق فى نظر الأراضى المحبسة بالمغرب والأندلس ، وذلك عن طريق القاضى ومعاونيه الفقهاء ثم فى وجهة نظر صاحب الأحباس ، وكان فقيها أيضاً[٢٢٥] لذا أفتوا وطبقوا فى الحياة العملية دون تدخل من الحكام وأولى الأمر فى ذلك . وزادهم حرصاً على تطبيق أحكام الشرع أن تلك الأحباس كانت متصلة بفقراء المسلمين ومساكينهم ومرضاهم وأماكن عبادتهم ، لذا نجدهم يحافظون عليها من جور أولى الأمر[٢٢٦] ، ومن متقبليها الذين طمعوا فيها لطول مكثهم فى قبالتها . وكانت هذه النقطة مثار جدل وخلاف بين الفقهاء فى المغرب والأندلس بسبب اختلاف ما نقله الرواة المغاربة والأندلسيين عن الإمام مالك فى أملاك الأحباس ، وبالذات إذا كانت القبالة لأقوام بأعيانهم ، ولكن الجميع أقر فى النهاية بأن قبالتها لا تجوز إلا لعامين أو نحوها ، وهذا ما نقله ابن القاسم عن مالك[٢٢٧] . وتأكد ذلك بما نقله أشهب عن مالك من أنه لا تجوز قبالة أقوام باعيانهم لمدة طويلة ، كأن تكون عشرين عاماً أو خمس وعشرين عاماً[٢٢٨] والهدف من وراء ذلك حرص الفقهاء على المحبس عليهم من الفقراء والمساكين ، لأنه ربما يموت خلال المدة الطويلة بعضهم فتنتقض القبالة بذلك ولا يحصل ابنه على شئ حتى تنتهى مدة القبالة . أما فى المدة القصيرة فيكون فى إمكانهم إدخال الابن فى هذه الأحباس[٢٢٩] ولذا نقص الفقهاء فى فتاويهم كراء أملاك الأحباس للمدة الطويلة . وأمامنا أمثلة تطبيقية على ذلك فقد أفتى ابن سهل عندما سئل فى إشبيلية من جماعة من أهل بطليوس عن أرض محبسة على نساء كانت فى أيديهن، اكروها لجماعة على خمسين عاماً، وغرسها المكترون فلما مضى من الكراء ثمانى سنوات قامت النساء

بطلب فسخ الكراء ، فأجاب بنقض الكراء وفسخه لطول المدة وخروجها عن المعروف[٢٣٠] . كذلك أفتى ابن القطان فى جنة بجهة الزهراء شرقى قرطبة تقبلت لثلاثة عشر عاماً بفسخ القبالة لطول المدة[٢٣١] .

وقد استحسن الفقهاء كذلك فى الأحباس المخصصة للمساجد والمرضى والمساكين قصر المدة ، كأن تكون أربع سنوات لا أكثر ، وذلك خوفاً من أن تندرس لطول مكثها فى أيدى متقبليها[٢٣٢] . ورأى أهل البصر بالزراعة وأمورها أن هذه المدة أقصىما يبقى الزبل فى الأرض من عمل المتقبل[٢٣٣]. كذلك حرص البعض الأخر من أهل الاحتياط أن لا تقبل تلك الأراضى لمن يجاورهم مخافة أن يتحيف عليها[٢٣٤] ، ولا من ذى قدرة خوفاً من ضمها إلى أملاكه[٢٣٥]. وقد جرى العمل على ذلك فى الأندلس اقتداء بعمل أهل قرطبة فى ذلك[٢٣٦] .

ومن ناحية أخرى نجد القائمين على هذه الأملاك المحبسة من القضاة ومعاونيهم حريصين على ألا يتركوها دون استغلال ، مما يفقدها فائدتها بالنسبة للمحبس عليهم ، لذا إما يسلموها للمحبس عليهم ولهم حرية التصرف إما بزراعتها أو تقبيلها[٢٣٧]، وإما إنهم تساهلوا فى كثير من الأحيان مع متقبليها دون تفريط فى حقوق المحبس عليهم مثلما كان يحدث بقرطبة التى اعتاد قضاتها الإحسان إلى متقبلى أملاك الأحباس سواء كانت أراضى ودور وحوانيت أو غير ذلك[٢٣٨]؛ وبالذات إذا اشتكوا وضيعة أو جائحة من جراء الجيوش المحاربة أو حشرات الأرض أو توالى القحط أو غير ذلك . فكانوا يسقطون عنهم أقساط ونسباً من القبالة حسب إجتهادهم وظروف العين المتقبل، حتى صار ذلك كالشرط من متقبلى أملاك الأحباس بقرطبة ، فعندما كانوا يقيموا حجتهم فيما نزل بهم يسقط عنهم مثلما حدث فى عهد القاضى ابن بشر الذى أسقط عن متقبلى جنات الأحباس فى الجهة الشرقية من قرطبة

الثلث ، وذلك بسبب جائحة الخشخاش وامتناع السناية ، واسقط على متقبلـــى الجنات الغربية من قرطبة الربع بسبب جائحـــة القنليـــات والخشـــخاش[٢٣٩]. وهكذا، تجنبا لمشكلة ترك المتقبلين لهذه الجنات ، كره بعض الفقـــهاء ذلـــك عندما شاورهم القاضى ابن الصفار عارضاً عليهم قضية إسقاط جـــزء مـــن قبالة المتقبلين لأراضى وأملاك الأحباس فى قرطبة وقالوا « بكثرة ما أســقط عليهم » وقال أحدهم « ولست أتقلد أن يوهب لهم للاستيلاف إلا من نصـــف العشر إلى العشر وهذا أقصى ما خبرته فى عمرى وأدركته فى سنى »[٢٤٠].

ويبدو أن حرص قضاة قرطبة على تقبيل هـــذه الأمـــلاك ومعرفتـــهم بمصلحة المحبس عليهم جعلهم يتساهلون بأقصى ما يســتطيعون حتـــى فـــى ضوابط القبالات الصحيحة شرعاً ، وذلك من أجل تشجيع الناس على التنافس فى قبالتها .

وقد دفع ذلك بعض الفقهاء مثل ابن دحون القرطبى[٢٤١] إلى القول فى صراحة أنها « أمور محدثة وأن هذه القبالات مع هذه الأحوال فاسد وغـــرر ولا يجوز » وينصح ابن الصفار القاضى المستشير بفسخ ما بقى مـــن مـــدة القبالة . ويبدو أن تساهل قضاة قرطبة والقـــائمين علـــى الأحبـــاس مـــــع المتقبلين ومحاولة استئلاف قلوبهم قد أثار حفيظته غيرة على الحق ، وبالذات لأنهم عينوا مشرفين لمعاينة الجوائح النازلة فى أمـــلاك الأحبـــاس ، فقـــال للقاضى « واحمل الناس على ما كان عليه السلف فى أثبات حوائجهم ، فليـس يأتى آخر هذه الآمة بخير ما كان عليه أولها »[٢٤٢] . ولكن القضاة والقـــائمين على الأحباس ساروا فى طريقهم مجتهدين فى تقبيل أملاك الأحبـــاس علـــى العادة الجارية عندهم ، مستشهدين بمن سبقهم من القضـــاة وإحســانهم إلـــى متقبلى جنات الأحباس ، وذلك لما يرونه من رغبة الناس فـــى قبالتـــها[٢٤٣] ونصح الفقيه ابن الشقاق[٢٤٤] القاضى المستشير ابن الصغار بقوله « ينبغـــى

أن تسلك فيهم سبيل من تقدمك من الرفق بـهم والإحسان إليـهم ، وعلى المعهود فيك فإن ذلك من النظر فى الأحباس ، وبذلك ترتفع قبالاتها ويتنافس فيها »[٢٤٥] وشجعه الفقيه ابن سلمون المسيلى القرطبى[٢٤٦] بفتواه التى تقـر الاجتهاد فى مثل تلك المسائل قائلاً « إنها مسألة إجتهاد من جـانب القضـاة والرأى لا يجوز نقضها »[٢٤٧] .

أما بقية الأملاك المحبسة من دور وحمامات . فقد سعى فيـها فقـهاء قرطبة بذات السبيل ، فحطوا عنهم من القبالات عند تعـذر عمـارة الـدور لمكروه نزل بالبلد أو الدار ، خاصة وقد رجع الحط إلى نظر القاضى الـذى كان يحدد مقداره وقيمته ، ومعه الناظر فى الأحباس ، مثلما كان يحدث مـع متقبلى الحمامات الذين شكوا يوماً إلى القاضى عبد الرحمن بن محمـد بـن فطيس[٢٤٨] قلة الموردة – أى الواردين عليـهم – وتعـذر الحـرق لتوالـى الأمطار . فشاور القاضى من حضر من الفقهاء وأهل العلم ، وبعدهـا قـرر إسقاط القبالة عن متقبلى الحمامات شهراً واحداً[٢٤٩] ، وذلك حتى لا تنفسـخ القبالة وتظل هذه الحمامات دون متقبلين مما يضر بـالمحبس عليـهم مـن الفقراء والمساكين أو حتى دور العبادة .

الثانى : الاحتساب على متقبلى الضرائب :

وقف الفقهاء فى المغرب والأندلس بما لهم من مكانة علميـة ودينيـة واجتماعية أمام الحكام فى سبيل الضرائب الزائدة التى أشرنا إليها قبل ذلـك، بل منهم من شهر ذلك فى وجه الحكام وبالذات إذا استعان بهم النـاس فـى سبيل رفع الظلم عنهم . فهذا حفص بن عمر الجـزرى[٢٥٠] قصـده النـاس ليتوسط عند الحاكم الأغلبى (أبو العباس عبـد الله بـن إبراهيـم الأغلبـى (٢٨٩- ٢٩٠هـ /٩٠٢- ٩٠٣م) ليسقط عنهم تلك الضريبة الثقيلـة التـى فرضها على كل زوج من الحيوانـات يحـرث ، وكـان مقدارهـا ثمانيـة

دنانير[٢٥١] ، والتى ضاق بها الناس ذرعاً فأخذ حفص الناس ودخل على أبى العباس وقال له « أيها الأمير اتق الله الذى إليه مصيرك وأرحم شبابك هذا ، وأحذر على وجهك الجميل النار ، وخفف عن الناس ، وأسقط عنهم ما وضعت على الأزواج من هذه الدنانير » . فأبى وقال : « لا أحط شيئاً » . فاجتمع حفص بالناس وصلوا ودعوا عليه فمات[٢٥٢] . وكانت هذه الضرائب من نقاط الضعف فى دولة بنى الأغلب بأفريقية استغلها أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين وتظاهر هو نفسه بالتعفف عن مثل هذه الأموال وجمعها[٢٥٣]. ولكن ما هى إلا سنوات حتى عادت السيرة فى فرض هذه الضرائب الزائدة من قبل الفاطميين ، بل زادوها عما كانت ، وتدخل الفقهاء من أجل محوها . ويكفينا أن نتذكر هنا موقف الزاهد الفقيه السدرى الذى واجه عبيد الله المهدى ونفى عنه إمراة المؤمنين بسبب هذه الضرائب وسب السلف[٢٥٤] . كما ضرب الفقهاء المثل للعامة بعدم المبادرة فى تأدية هذه الضرائب والمكوس ، فنجد إسماعيل بن رباح الجزرى[٢٥٥] الذى أراد مرة أن يشترى دابة من القيروان فقيل له « أنهم يأخذون ربع درهم على الباب » فرجع وقال « والله لا أشترى من هنا وليس بى ما ذكرتم ولكن يقال فلان أعطى حق الباب فيرون أنه حلال »[٢٥٦] .

كذلك شاعت هذه الضرائب الزائدة عند الزيريين ملوك زناته بالمغرب، وملوك الطوائف فى الأندلس ، فاستغاثت الرعية فى كل هذه المناطق بالمرابطين لما علموا أنهم لا يأخذون سوى العشر والزكاة والصدقات فقط . ووسطوا فى استغاثتهم هذه الفقهاء الذين أفتوا بعدم صلاحية هؤلاء الحكام - على الأقل فى الأندلس - [٢٥٧] لما يرتكبون فى حق الرعية. ولكن تلك السيرة الحسنة فى الجباية لم تدم طويلاً وترسم أمراء المرابطين سيرة من سبقهم فى فرض ضرائب زائدة كثيرة ، تعددت أسماؤها توسعوا

فى تقبيل هذه الضرائب والمكوس حتى صار كل شئ فى دولة المرابطين مقبلاً[٢٥٨] . وكان أن أنبرى الفقهاء - بعد تفشى هذا النظام وعدم قدرتهم على تغييره ورد الأمور إلى نصابها - للإصلاح من نظام القبالات ، وجعله شرعياً ، وذلك عن طريق الاحتساب أو الأمر فيه بالمعروف والنهى عن المنكر فى تحصيل الأموال التى يسددها المتقبلون لخزينة الدولة ، والتى كانوا يجمعونها من الناس بالشدة وسوء المعاملة والتحايل والزيادة . وقد جسد لنا ابن عبدون موقف الفقهاء من المتقبلين وجشعهم ، فاحتسب أولاً على الذين يتعاملون مباشرة مع الناس مثل صاحب الباب الذى يأخذ منهم رسم الباب فقد جرت عادته أن يغلق الأبواب مبكراً ويأخذ من الناس أكثر من الواجب . وكانت عندهم الرغبة الشديدة فى الزيادة والشطط وإبتدعوا من أجل ذلك أبواباً من الظلم وتسببوا فى أكل أموال الناس بالباطل . والعجيب أن ابن عبدون يقول « يجب أن يحد للبواب ما يأخذ ممن يدخل عليه » وكان الأولى نهيه عن قطع رسم الباب نهائياً[٢٥٩] .

أما القباض وأعوانهم من العاملين مع المتقبلين فقد وصفوا بأنهم «لصوص عارفون بوجوه المكر والشر» ولذا يجب ألا يقبضوا من الناس إلا « بميزان العدل وصنوج الحق وكيل القسط » فلا زيادة ولا حيف ، كما يجب أن يأخذوا بالحسنى وأن لا يهينوا أحداً ولا يتعدوا على أحد[٢٦٠] .

أما المتقبل نفسه الذى تعرض لنقد المجتمع ونبذه قبل الفقهاء فقد شن عليه ابن عبدون[٢٦١] حملة تدل على سوء سيرة المتقبلين فى ذلك العصر وتدنى مكانتهم الاجتماعية بسبب إقبالهم على هذا العمل الذى يدفع بصاحبه إلى المفاسد وطلب الحرام . فوصمه بكل نقيصة وقال عنه « هو شر خلق الله وهو بمنزلة الزنبور الذى خلق للضرر لا للنفع فهو يجرى ويسعى لضرر المسلمين أبداً . ويفتح أبواب الضرر عليهم ويغلق أبواب الخير والنفع عنهم ،

ملعون من الله ومن الناس أجمعين »[٢٦٢] وأنه « لا ذمة له ولا ديـــن »[٢٦٣] وأنه « هو الملعون بحق »[٢٦٤] وقد أنزله بمنزلة الشـــرطى المنبـــوذ وقـــال «يجب ألا يترك أحد من المتقبلين .... بزى كبار الناس ولازى رجل خير بل يجب أن يمقتوا ويهجروا ولا يسلم عليهم ... ويجب أن تكون لـــــهم علامـــة يعرفون بها على سبيل الخزى لهم »[٢٦٥] كما أدخلـــهم فـــى زمـــرة حـــزب الشيطان الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكـــر الله « أولئـــك حـــزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون »[٢٦٦] ومـــا ذلـــك إلا لجشـــع المتقبلين وتعديهم على حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل بادعائـــهم أن مـــا يأخذونه للسلطان[٢٦٧] . والواضح أن الحكام غضوا الطـــرف عمـــا يفعلـــه المتقبلون بالناس وتركوا لهم الحبل على الغارب ، أو تركوا أمرهـــم للوزيـــر صاحب المدينة . ويبدو أنه كان يحدث تفاهم بين الطرفين ليكون المتقبل حـــواً فى جباية أمواله بطريقته ، ولذا قال ابن عبدون[٢٦٨] « يجب أن يحد لـــه مـــا يؤخذ ولا يترك ذلك لاختياره هو أو حتى يصطلح عليه مع الوزيـــر ، إلا أن يكون ذلك بحكم القاضى » . ولذا ينصح ابن عبدون القاضى[٢٦٩] أن يحد لـــه فإذا أخذ مكس الرحاب فلا يأخذ على الفقير إلا نصف مد بالكيل ، ومن حمـــل الدقيق نصف رطل بالكيل ، ويكون على المائة ربع من الفحم شئ معلـــوم لا يتجاوزه[٢٧٠] ، وفى السوق حبة على الكبش . ويجب ألا يأخذ قبالة ممن يبيـــع فى داره طعاماً أو زيتاً لأن السلطان أخذ أعشار أثمانها من قبل[٢٧١] وحـــذر من يشترى أضحية أن يدفع عليها قبالة لإنها قد أخذت مـــن الجلابيـــن[٢٧٢] . ويبدو أن المتقبلين اشتطوا فى أخذ قبالات البهائم والدواب ، لـــذا قـــال ابـــن عبدون « يجب أن يكون ما يغرم فى القبالة على الدابة والبهيمة معلوماً لئـــلا يزاد فى ذلك كل وقت[٢٧٣] ».

ولكى ينضبط عمل المتقبل ويرفع الظلم والحيف عن الرعيـــة لجشـــع المتقبلين ، نصح ابن عبدون القاضى « أن يستحلفه - أى المتقبل - ويحد لـــه ما يصنع فى تصرفه ولا يتركه يتحكم فى أموال الناس باختياره أو ما يـــراه صواب من أجل منفعته الخاصة[٢٧٤] . وإذا اخطأ وعرف خطـــأه يغلـــظ لـــه القاضى القول والتوبيخ[٢٧٥] » . ويرتب له الوزير بحضرته أى القاضى مـــا يأخذ من الأشياء قبالة معلومة ولا يزيد عليها ولا ينقص ، ومتى تعدى ذلـــك أدب وسجن ونكل[٢٧٦] . ويجب أن يعين عليه من يرقبه ويتفقد أمره فى كـــل وقت من أجل أموال الناس ولا يترك أمره مهملاً أبداً »[٢٧٧] . وأخيراً ينصـــح ابن عبدون أن يعمل زمام أى دفتر بين يدى القاضى ويرفع هذا الزمام بمـــا فيه من قبالات إلى السلطان ويعرض عليه ، ثم ينقـــح مـــن قبـــل الســـلطان والقاضى . ويجب أن يرفق القاضى بالمسلمين فى ذلك . فإذا تم الاتفاق علـــى ما تقبل وانحسرت الأشياء المتقبلة فى هذا الزمام ، تكون عند المشرف منـــه نسخة وعند القاضى أخرى وعند المتقبل أخرى ، لا يزاد فيـــها . ويراقـــب المتقبل من خلال هذا الزمام وتتابع سيرته فى تطبيقه[٢٧٨] .

ولكن أمر المتقبل فى العصر المرابطى لم تقومه تلك النصـــائح ، ولا أثرت فيه توعية الناس ، وذلك لما تمتع به المتقبل من حرية ، فصار يفعـــل ما يشاء ويجمع الأموال أضعافاً مضاعفة ظلماً وعدواناً . ولذلك احتاج الأمـــر إلى فقهاء يغيرون المنكر بالقوة ويطبقون شرع الله على مثل هـــؤلاء بـــذات الطريقة . وكان أن وجد أهل المغرب والأندلس الخلاص من هؤلاء المتقبليـــن للضرائب أو المتقبلين العموميين عند المصامدة أو الموحدين الذيـــن - كمـــا علمنا آنفاً - ألغوا كل تلك القبالات من العدوتين . ولكى يمحوا تماماً أثر هـــذا النظام استحلوا قتل المتقبلين العموميين .

الفقهاء والقبالات الخاصة :

سارت القبالات بين الأفراد فى المجتمع المغربى والأندلسى فى مسارها الشرعى الصحيح بعكس القبالات العامة ، وذلك بفضل جهود الفقهاء وقد ساعدهم فى ذلك لجوء الناس إليهم سائلين مستفسرين فى مثل تلك المعاملات الإسلامية التى تحروا فيها الحلال . وكذلك حاجة هؤلاء إلى الفقهاء للتوثيق وكتابة العقود الخاصة بالقبالات . ومن حسن الحظ أن الفقهاء المفتين كان أغلبهم من كتاب الوثائق والشروط(٢٧٩) ، ومن ثم أبانوا للخاصة والعامة من خلال هذا العمل المزدوج الحلال والحرام فى القبالات ، وما تصح به القبالة وما يفسدها . ولم نجد فيما نجد بين أيدينا من وثائق تخص القبالات وثيقة واحدة تخلو من العبارات التالية « قابلة صحيحة بلا شروط ولا ثنيا ولا خيار » قبالة مبتولة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار أو « أن هذه القبالة على سنة المسلمين فى قبالاتهم » أو « سنة المسلمين فى قبالتهم الجائزة بينهم»(٢٨٠) مما يدل على تطبيق دقيق لسنة الرسول ﷺ فى القبالات ، حيث نهى عن الشروط المجحفة بالمتقبل أو المالك أو التى فيها ضرر أو غرر لأحد الأطراف . ونهى عن الاستثناء من العين المتقبل لصالح أحد الطرفين أو أن يختار صاحب العين – وبالذات الأرض – أماكن معينة عند القبالة يخص بها نفسه دون المتقبل(٢٨١) .

رغم ذلك فإن أمر القبالات لم يخلو من أخطاء أدت إلى منازعات ومشاكل بين طرفى القبالة ، استدعت الاستبيان والاستفسار من الفقهاء من أجل تطبيقها صحيحة وإزالة محل الخلاف بين الطرفين ، والذى كان مبعثه فى أغلب الأحيان الجهل بأحكام الشرع فى المعاملات بصفة عامة .

على كل حال جاء فى كتب الفقه بالإضافة إلى كتب الوثائق والسجلات ما ساعدنا كثيراً على تتبع جهود الفقهاء لحل مشاكل القبالات بين الناس وجعلها مطابقة للشرع .

وقد اختلفت هذه المسائل باختلاف العين المتقبل حيث كان لكل عين مشاكله الخاصة به ، ففى الجنات أو الجنان ، لإنها كانت تضم الأراضى البيضاء والأشجار المثمرة ومكونات أخرى من البيوت المعدة للسكنى والآبار واختلاف مساحات الأرض البيضاء المغروسة بالأشجار المثمرة . كثرت مشاكلها واستغلق أمرها على الخواص والعوام ، وخلطوا بالذات بين القبالة والمساقاة، مثل ذلك الذى اكترى جنانا بثلاثين ديناراً ، وفى الجنان شجرتان وعنب وأرض بيضاء ، والشجر أكثره غلة من البياض ، وسموا ذلك بينهما قبالة .

ولكنه بعد أن تقاضى الثلاثين ديناراً أحس بمكروه ذلك العمل ورفع إلى ابن لبابه الفقيه يستفسر عن ذلك ، فأفتاه بأن ذلك لا يجوز فيه الكراء ، وإنما يصح فيه المساقاة . وإن كان الأمر تم بينهما فالواجب قبالة الأرض البيضاء وكيل الثمرة إن كانت يبست . وإن كان أكلها رطبة فيعاملوا فيها معاملة المساقاة(٢٨٢) . كذلك أظهر الفقهاء أنه لايجوز لمتقبل الجنان اشتراط الثمرة إلا أن يكون تبعاً لها الثلث فأقل . وضربوا الأمثلة على ذلك لتفسيرها فجمعوا ثمن قبالة الجنة بيضاء من غير الثمرة ، مع ثمن الشجر على المتوسط كما حدث قبل ذلك ، وثمن مجهود المتقبل فى العام من المؤنة حتى تباع ، ويسقط ثمن هذا المجهود من ثمن ثمرة الشجر . عندئذ تكون القبالة صحيحة وجائزة فيقولون كم تساوى قبالة هذه الجنة البيضاء من غير ثمرة قيل ستين (مثقالا) ثم يقال كم تساوى ثمرة شجرها على المتوسط على ما عرف فيما مضى ؟ قيل أربعين مثقالا ثم يسئل أهل البصر بالزراعة كم يساوى سقى المتقبل لها فى العام ومؤنته فيها إلى أن تباع قيل : عشرة مثاقيل ، فتسقط العشرة من الأربعين ثمن الثمرة ، وتبقى ثلاثون تضيفها إلى الستين التى هى قبالة الأرض البيضاء فتكون تسعين ، فتكون الثلاثين عندئذ

هى الثلث وتكون القبلة جائزة وصحيحة(٢٨٣) وإن كان ذلك أزيد من الثلث لم يجز أن يتقبل السواد مع الأرض ، وتدخل الأشجار حينئذ فى حكم المساقاة والأرض فى حكم القبالة بالنقد(٢٨٤) .

كذلك أوضح الفقهاء أنه لا يجوز اشتراط النقد فى قبالة الجنان التى تسقى بالآبار ، إلا أن تكون هذه الآبار مأمونة لا ينضب ماؤها فى أى وقت من أوقات السنة(٢٨٥) ويجوز للمتقبل قبالة الجنان بآبارها دون آلة إذا كان ذلك برضى المتقبل ، على أن يأخذ آلته عند انقضاء القبالة(٢٨٦) . وأن تهورت البئر أثناء القبالة فالواجب على صاحب الجنان إصلاحها ، فإن أبى يصلحها المتقبل ويخصم ذلك من قيمة القبالة ، ولكن بشرط أن ينفق كراء سنة بلا مزيد عليها(٢٨٧) . وإذا كانت البئر تغور مياها ويؤثر ذلك على المتقبل، فإنه يسقط من القبالة قيمة المدة التى تغور فيها مياه البئر ، لما يحدث ذلك من تأثير ضار على الزرع(٢٨٨) . وكذلك إن توالت الأمطار ومنعته من الزراعة والانتفاع بقاع هذه الجنان فيوضع عنه من القبالة على قدر نفاق الشهور وكسادها(٢٨٩) . ومن طريف ما يحكى فى قبالات الجنان أن رجلين تقبلا جنانا مشتركين وغرسا فيها ، وأباح أحدهما للآخر أن يغرس فى أطراف الأحواض والشجر ، ففعل الثانى وغرس بصلا ، فلما بلغت القلع ندم الآخر وأراد أن يدخل معه فيما غرس ، فقصدا الفقهاء للفتوى فأجيبا : ليس له فى ذلك سبيل فلا يأخذ من البصل ولكن له أن يمنعه من الغرس فيما بعد أو أن يستقل بشئ(٢٩٠) .

أما عن الأرجاء أو الطواحين ،، فقد أجمع الفقهاء على أن تكون سليمة قائمة تعمل مستوفية الآلة عند قبالتها ، وأن تكون على الأنهار المأمونة ولا تخرب أسدادها ولا قنواتها(٢٩١) ، وإن يقبلها المتقبل بهذا الشكل ، سليمة طاحنة . وجميع ما ينفق فى إصلاحها على المقبل . ولا يجوز أن يشترط على المتقبل فى ذلك إلا ما كان يسيرا ، مثل إصلاح المغازل والحديد

والأمشاط . ولا يتعدى الإصلاح الدرهمين أو الثلاثة(٢٩٢) . وأجمع الفقهاء أيضاً على أن الأرحى إذا لم تكن مأمونة من نقصان الماء بسبب القحط أو زيادته لكثرة الأمطار أو خراب سدها بسبب السيل ، فإنه لا يجوز اشتراط النقد فيها ، إلا أن يتطوع المتقبل بذلك . ويحق له عندئذ القيام على صاحب الرحى عند حدوث ما يمنع الطحن من نقصان الماء وزيادته ، ويحط عنه القبالة التى توقفت فيها الأرحى عن الطحن(٢٩٣) . ومن ناحية المقبل لا يجوز له أن يشترط إسقاط القيام من جانب المتقبل بزيادة الماء أو نقصانه . وإذا حدث هذا فلا بد من فسخ القبالة(٢٩٤) . وقد أنكر ابن حبيب ما أحدثه أهل الأندلس من الاستثناء فى القبالات قائلاً : والذى أحدث أهل الأندلس فى اكراء الأرجاء أن يقول المكرى إنما أكريتك البيت وقناة الرحى ، ولا أكريك سانية ولا مطاحن ولا شئ من الأداة ، فتلك مغرة واحتيال(٢٩٥) . ولكن أجاز - وغيره - أن يتقبل الشخص منصب الرحى ، ويقيم هو الآلة كلها من ماله، ويرجع بيت الرحى عند انقضاء القبالة إلى المقبل فارغاً ، وإن كان لصاحبها فيها آلة ودخلت فى القبالة تكتب فى الوثيقة وتوصف(٢٩٦) . أما عن مدة قبالة الأرحاء فقد نقل المراكشى(٢٩٧) ، أن الرحى المأمونة لا بأس باكترائها وتقبلها المدة الطويلة ، ما عدا تلك التى تطحن فى فترة معلومة والتى لا تجوز قبالتها إلا فى وقت استقامتها للطحن ، حيث يعلم أن ماءها لا ينقطع عنها ولا يتبدل حالها .

واشتد انتقاد الفقهاء فى الأندلس على بعض فقهاء طليطلة الذين كانوا يعقدون قبالات غير جائزة بالتحايل ، حتى يبرءوا المقبل من كل شئ ، فيشترطون على المتقبل ضمان جميع ما لزمه حتى ولو كان فيه غرر ويعفوا ربها من القيام بإصلاح أى شئ يفسد . فقال الفقهاء بأن ذلك لا يجوز ، وغرر كبير لا يدرى مبلغه(٢٨٩) .

وأمامنا بعض الأمثلة التطبيقية عن تطبيق الشرع وحماية الطرفين من الظلم والتعدى ، سواء كان ذلك عن قصد أو عن جهل بأمور المعاملات . من ذلك مثلاً ما عرض على فقهاء قرطبة ، من أن الفقيه محمد بن دحون عقد وثيقة فى قبالة رحى تتعذر شتاء وتستقيم صيفاً ، فأجابوا بأن القبالة فى هذه الحالة لا تجوز لأن الرحى غير مأمونة[٢٩٩] . وسئل ابن رشد عن المتقبلين للأرحى إذا قل الواردون للطحن ، فهل يحط ذلك من القبالة أم لا ؟ فأجاب إذ حدث ذلك لجهد أصاب المكان وما شابه ذلك كان ذلك عيباً فيما تقبل ، فيكون عندئذ مخيراً بين أن يتمسك بقبالته أو ردها . فإن سكت لا تسقط عنه القبالة التى لا تسقط إلا بجلاء أهل ذلك الموضع وتصير الرحى معطلة لا تطحن بسبب الفتن[٣٠٠] .

وأخيراً يجب أن نذكر أن فقهاء المغرب والأندلس أجازوا للناس قبالة الأرحاء بالطعام الموصوف ، أو الدقيق الموصوف ، كأن يقول الموثق بعد اتفاق الطرفين على ذلك « وكذا مدياً شطرها قمح أحمر ريون فاخر ممتلئ طيب غاية الطيب وشطرها شعير أبيض يابس فاخر ممتلئ نقى طيب غاية الطيب يكيل كذا يؤديها المتقبل فلان على تنجيم كذا ، الخ[٣٠١] .

وأظهروا للناس فى قبالات الفنادق أن القبالات تحط عن المتقبلين للفنادق فى أحوال الفتنة وجلاء الناس وقلة الواردين على الفنادق[٣٠٢] وفى حالة سير الأمور بطبيعتها نجد الناس يختلفون على أشياء بسيطة مثل زبل الحيوان المستخرج من الفندق . ويبدو أنه كان مهماً فى عمليات الزراعة ، ولذا نجد أكثر الناس يشترطون تسلمه محدداً بكيل[٣٠٣] . ولذا وجب على الفقهاء تبين وجه الحق فيه وأفتوا بأنه شئ مجهولاً وإذا اشترط المقبل ذلك فسخ الكراء بين الطرفين[٣٠٤] إلا أن يتطوع به المتقبل بعد العقد ، عندئذ لا بد له من الوفاء بالتزامه على أساس أن التطوع فى المجهولات لازم له[٣٠٥] .

وفى قبالة الأفران ، ومن أجل أن تكون قبالتها صحيحة ، يجب أن يكون الفرن طابخاً[٣٠٦] فإذا انهدم من بنيانه ما يضر بالقبالة لم يجبر المتقبل على بنائه ،

ويقع ذلك على رب الفرن ، وإن رفض وتمادى يغرم القبالة وتفسخ[٣٠٧] . ونفس الشئ إذا انهدم القبو أو بعضه ، يلزم صاحب الفرن بإصلاحه[٣٠٨] . ويحط الكراء عن المتقبل إذا عم البلد الغلاء أو الجوع وهرب الناس، ولم يعد يطبخ فى الفرن أحد . وبهذا جرى العمل فى الأندلس[٣٠٩] . وأخيراً فى العلاقة بين صاحب الفرن والمتقبل أجاز الفقهاء أن يشترط صاحب الفرن على المتقبل أن يطبخ فى الفرن بدون أجرة يدفعها[٣١٠] .

أما الحوانيت فأبانوا فيها - مثل العيون الأخرى - شروط صحة القبالة ، وأجازوا لمن يتقبلها أن يقبلها بدوره لشخص آخر . ولكن شرطوا ألا يضر ذلك بالعين لأنه ربما قبلها لشخص غير ثقة يضر بحيطانها[٣١١] . فإذا تقبل قصار حانوتا وأراد أن يقبله لنجار ، وكانت صناعة النجارة أضر بالحانوت من صناعة القصار، عندئذ لصاحب الحانوت أن يفسخ عقد الكراء[٣١٢] ، ومن المشاكل التى عرضت على الفقهاء بخصوص قبالة الحوانيت ما عرض على ابن رشد من أن المكترى إذا ضعفت تجارته لضعف الناس وقلة التجارة والمعاملة لضعف أحوالهم هل يحط ذلك من القبالة أم لا؟ فأفتى بأن ذلك ليس بجائحة تحط من القبالة[٣١٣] .

وأجاز الفقهاء النقد فى قبالة معاصر الزيت ، على أن يحدد تحديدا دقيقا ويوصف وصفا تاما مع تحديد أمد القبالة بأجل معلوم[٣١٤] .

وفى الملاحات التى كثر حديث الفقهاء عنها أجازوا قبالتها بالنقد والعين ، وبالذات من الملح ، وذلك لأن الملح لا يخرج منها وإنما يتولد بجلب المياه إلى الأحواض وتركه للشمس[٣١٥] . وقد اشترط بعض الفقهاء أن يكون شرب الملاحة مأمونا لكى تصح القبالة[٣١٦] . وقد نقل صاحب العقد المنظم[٣١٧] أن قبالة الملاحة تجوز بكل ما يؤكل ويشرب . وأفتى ابن رشد أن قبالة الملاحة تجوز بالدنانير والدراهم والعروض نقدا إلى أجل جائز ، لا اعتراض فيه وعليه ، فإن قبالة الملاحة عند الفقهاء تجوز بالفضة والذهب والعروض والسلع[٣١٨] . ويجب أن نذكر هنا أن فقهاء الأندلس أفتوا بذلك بناء على ما جاء فى العتبية حتى أن ابن

العطار(٣١٩) ، قال :« لولا الرواية فى العتبية لكان القياس ألا تجوز »« وذلك على الرغم مما رواه ابن زياد عن مالك أنه قال « اكره أن يعطى الرجل للرجل ملاحته مع النصف أو الثلث أو الربع أو بعض ما يخرج منها »(٣٢٠) ولا تفسير سوى تمسك أهل المغرب والأندلس بالعتبية واعتمادهم عليها فى الغالب .

وفى قبالة الحمامات التى احتسب فيها ابن عبدون(٣٢١) على المتقبل إذا كانت ملكاً للسلطان وصارت متقبلة ، ونصح الذين يتقبلونها من المتقبلين العموميين – مثل غيرها من الحوانيت والأرحاء أو القوارب – أن يجروا الحكم فيها على ما توجبه السنة ، ولا يقبل زيادة يفرضها عليه المتقبل العمومى، ويتمسك بقبالته حتى تنتهى مدتها ، ويحمل القاضى مسئولية ذلك أن حدث ، كما ينصح متقبلى الحمامات من النساء(٣٢٢) بالا يجلسن للتقبيل ، لأن المكان موضع تمنع وزنى . ونهى تماماً عن أن يتقبلن فنادق التجار والغرباء ويجلسن فيه لأن ذلك عين الزنا(٣٢٣) ، ونجد الفقهاء بعد توضيح شروط صحة القبالة بكتابة الوثيقة ، يجيزون لرب الحمام أن يشترط على المتقبل أن يؤدى إليه كل يوم جمعة فى مدة القبالة كذا بيضة من بيض الدجاج السالم الطرى ، وأن يدخل هو وأهله الحمام المذكور كل يوم جمعة مثلاً أو أحد ، فى مدة القبالة . وعلى المتقبل إعداد الحمام لهم وكل ما يحتاجونه(٣٢٤) ، وأفتى ابن حبيب بجواز ذلك لأنه شئ ليس بالمجهول طالما عرف المتقبل ذلك ، وعرف أولاد صاحب الحمام وأهل بيته فى قلتهم وكثرتهم(٣٢٥) . وقد قال الفقهاء بأحقية متقبل الحمام فى أن يتقبل أيضاً موضوع قعوده فى الحمام المسمى بالطفال، والذى يباع فيه أشياء يستعملها الواردون على الحمام وهو موضع حفظ ثيابهم . كذلك ويوجد فيه موضع قعود المتقبل وكراسى وأشياء أخرى فيها منافع للواردين على الحمام للاحتفاظ بحاجاتهم(٣٢٦) .

أما قبالة الدور فقد كثرت مشاكلها لكثرة مرافق الدور والأشياء التابعة لها ، مثل الأشجار والعرصات وحجرات المرحاض والآبار . لذا وجب على الفقهاء توضيح أمور الشرع ووضع الأمور فى نصابها وتبين وجه الحق فيما يظهر من

مسائل فى مثل هذه الأشياء . فإذا كان فى الدار شجرة أو شجرات يجوز لرب الدار اشتراطها ، وأن تكون ثمرتها له طوال مدة القبالة(٣٢٧) وإذا لم يكن هناك شروط خاصة بحجرة المرحاض فتنظيفها وكنسها على رب الدار (٣٢٨) . ولكن يجوز له اشتراط ذلك على المتقبل ، خصوصا إذا كانت هذه الحجرة فارغة عند بداية القبالة(٣٢٩) . وروى بعضهم أن تنقية حجرة المرحاض على المتقبل إلا أن تكون فى دور الفنادق فإنها تكون على أربابها(٣٣٠) .

وإذا تقبل الشخص الدار على أنها سليمة وانهدم فيها ما أضر به فيكون على صاحبها إصلاحه ، ولكن إذا لم يضر وكان ما انهدم بسيطا فعلى المتقبل إصلاحه . ولا يحط ذلك من القبالة ولكن يجوز له فسخ القبالة ، وأن شاء أصلحه واستمر فى قبالته(٣٣١) .

أما عن الآبار داخل الدور فلا تنفسخ القبالة لذهاب ماء البئر ونضوبه كلية ، بل تسقط عن المتقبل من القبالة ما يقع فيها على الشهور التى ذهب فيها الماء على قدر نفاق الشهور وكسادها . ويلزم المتقبل ما بقى من مدة القبالة ، إلا أن يكون قد تفاسخا قبل ذلك(٣٣٢) .

وإذا اشترط رب الدار على المتقبل أن لا يعمل فيها نارا لقدره وخبزه وعمل المتقبل ذلك فاحترقت الدار أو جزء فيها ، فهو ضامن لذلك وعليه إصلاحها . وأما إذا تشارطا فى ذلك وعمل فيها المتقبل واحترقت فلا ضمان عليه(٣٣٣) ، هذا وقد أجاز الفقهاء القبالة للنصارى واليهود ، وذلك إذا لم يعمل فيها ما يضر المجتمع الإسلامى ، كعمل وبيع الخمور أو إظهار دعارة وفسق ، كالزمر وضرب الطنابير، أو حتى تغيير لهدف القبالة وهو السكنى إلى تخصيصها للعبادة كأن تحول الدار إلى كنيسة لها ناقوس(٣٣٤) .

هذا جانب من مجهودات الفقهاء من أجل خدمة الشرع أولا والمجتمع بعد ذلك ، حاولوا فيها بكل الطرق من اتباع واجتهاد وتصحيح وتبيين وتطبيق ووضع حلول لمشاكل الناس فى القبالات أن يعيدوها - أى القبالات - إلى سيرتها الأولى

وأصولها فى عهد الرسول ﷺ وأصحابه . يتضح من خلال العرض السابق لموقف الفقهاء من القبالات سواء كانت العامة أو الخاصة أن مجهوداتهم هذه قد أثمرت بالنسبة للقبالات الخاصة ، وسهل لهم ذلك أنهم كانوا القدوة والمثل الذى لجأ إليه الناس من أجل تحرى الحلال فى معاملاتهم ، فوجدوا العون على تطبيق الشرع وإقامته ، وكانت النتيجة قبالات تنفذ بين الأفراد على أسس من الدين متينة . لهذا استمرت فى المغرب والأندلس كمعاملة إسلامية يعمل بها الناس ويحرسها الفقهاء .

أما القبالات العامة فقد بذلوا فى سبيل تصحيح مسارها وتسخيرها لخدمة الناس جهوداً كبيرة ، ونجحوا فيما كانوا يتصرفون فيه نقصد قبالات أملاك الأحباس . ولكن الضرائب احتاجت إلى وقت طويل ومجهود متواصل لإصلاحها ، خصوصاً مع وجود الحماية والعون من الحكام الذين كانوا عطشى للأموال – كما أوضحنا من قبل – ففرضوا الضرائب المتعددة . ولضمان وصولها إلى خزائنهم قبلوها وجمعوها تعجيلاً من المتقبلين ، وتركوا لهم جمعها كما يشاءون دون رقابة أو حساب ، فاستفحل أمرهم وأرهقوا الرعية كما رأينا . ولم يوقفهم كما رصدنا تظلم تاجر أو صانع أو أوامر وتعليمات حاكم أو نصح واحتساب فقيه،حتى جاء الموحدون وأخذوا على عاتقهم تغيير المنكر بالقوة،وأفلحوا فى قبالات الضرائب وتتبعوا المتقبلين واستحلوا قتلهم، فلم يعد لهم ولا لقبالاتهم أثر فى المغرب والأندلس.

خاتمة

إن قضاء الموحدين على المتقبلين وإلغائهم نظام القبالات العمومية ، لا يعنى أن هذا النظام الجبائى قد استبعدته النظم السياسية للدول الإسلامية التى تلت الموحدين فى حكم المغرب والأندلس ، وإنما ظل هذا النظام تحت مسميات أخرى ، فوجدنا الاسم القديم وهو المكاس ثم الملتزم وهو مرادف المتقبل . كما ورد اسم قبالة وقبالات لا لتدل على النظام بل على أنها ضريبة من جملة الضرائب الموجودة آنذاك ، مثلما وردت فى العصر المرينى عند ابن أبى زرع[٣٣٥] والعمرى[٣٣٦] الذى ذكر أن السلطان المرينى أبا سعيد (٧١٠ - ٧٣٢هـ / ١٣١٠ - ١٣٣١م) أحل قبالة عامة تسمى الضمان محل جميع الضرائب البلدية ، أى أن اسم المتقبل والقبالات توارت وطغى عليها أسماء أخرى استعمل لذات النظام ، فوجدنا بدل المتقبل المكاس الذى جزم هوبكنز[٣٣٧] بأنه فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى لا يعنى سوى ملتزم المكوس . فى حين استعمال الالتزام بدلا من القبالات لدلالة على ضمان المال لخزينة الدولة .

ومن ناحية أخرى نجد أن نظام الالتزام تأرجح بين التطبيق والإلغاء ، وذلك حسبما يتراءى للحكام صلاحيته من عدمها . فنجد مثلا السلطان المرينى أبا الحسن (٧٣٢ - ٧٤٩هـ / ١٣٣١ - ١٣٤٨ م) يروى عنه ابن مرزوق[٣٣٨] أنه قام بإلغاء نظام الالتزام فى تحصيل جبايتها . ومن هنا امتدت أيديهم وكثرت عاديتهم وظلمهم فإذا زجروا اعتلوا بالالتزام « فاستقبح السلطان الفعل والاسم فإلغى اللقب والنظام وأسند إليهم الجباية عن طريق الأمانة » .

وما لبث أن عاد هذا النظام . ويبدو أنه اقتصر على جباية أموال الضرائب فى المدن الكبرى ذات المكانة التجارية كفاس ومراكش ، فيذكر بروفنسال[٣٣٩] أن حصيلة هذه الضرائب كانت فى ازدياد ، ويجبى منها مبالغ طائلة ، لأنه كان يعهد بجبايتها بطبيعة الحال إلى من يتقدم بأكبر عطاء ، فكان أمرها لا يخلو من الوقوع فى الحيف . وينقل عن ابن فضل الله أن ارتفاعا فى حصيلتها حدث فى منتصف

القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى بلغ مقداره ١٥٠ ألف دينار فى فاس ومراكش . وصل إلى ٨٥٦ ألف دينار لمدينة مراكش فقط .

على أية حال فإن تمسك حكام المغرب باستخدام نظام الالتزام فى الجباية ليدل على تراجع مكانته ، فلم تعد كما كانت فى عصر المرابطين مثلاً . كما أن قلة المعلومات الواردة عن هذا النظام تؤكد أن دوره صار ثانوياً فى النظام المالى ببلاد المغرب فى فترة ما بعد المرابطين .

أما فى الأندلس فيذهب بعض المحدثين[٣٤٠] باستمرار العمل بنظام القبالات بعد عصر الموحدين ، حيث يقولون أنه كان فى العصر النصرى ضرائب معينة تعطى إلتزاماً لمن يسمى بالمتقبل ويسمى هذا الالتزام قبالة .

الواقع إنه رغم كثرة الضرائب وتنوعها خلال العصر النصرى[٣٤١] إلا أنه لم يرد نص يؤكد ما قاله المحدثون ، وإنما جل الاعتماد عندهم على دخول الكلمة إلى الإسبانية والبرتغالية مما يدل على استمرار العمل بنظام القبالات فيما بعد عصر الموحدين[٣٤٢] . ورغم وجاهة هذا الاجتهاد إلا أن انتقال الكلمة إلى الإسبانية لا يعنى تواصل العمل بهذا النظام فى الأندلس ، خصوصاً أن الكلمة والنظام نفسه شقا طريقهما إلى لغات أخرى وبلدان أوربية غير إسبانيا والبرتغال . فإذا كانت الكلمة انتقلت إلى الإسبانية والبرتغالية بمنطوقها العربى Alcabala[٣٤٣] فقد انتقلت إلى الإيطالية برسم Cabella أو Caballa[٣٤٤] وإلى الفرنسية على شكل la Gabella[٣٤٥] بل إن محاولة البعض إيجاد أصل إنجلوسكسونى لكلمة القبالة يعنى لدينا انتقال هذا اللفظ العربى من أوربا إلى إنجلترا . ألا يعنى هذا فى النهاية أن الكلمة والنظام نفسه وصلا إلى أوربا وإنجلترا[٣٤٦] بوسائل أخرى غير انتقالهما عبر بقاء العمل بهما فى الأندلس . ونرجح أن ذلك تم من خلال الصلات السياسية والعلاقات التجارية بين المغرب والأندلس من ناحية وأوربا من ناحية أخرى خلال الفترة من القرن الثالث إلى السادس الهجرى / التاسع إلى الثانى عشر الميلادى وهى نفس الفترة التى شاع فيها نظام القبالات فى المغرب والأندلس .

ومن المفارقات العجيبة أن هذا النظام ما كاد يخبو ويتراجع دوره في النظـــام المالي في المغرب والأندلس منذ أواخر القرن السادس الـــهجري / الثـــاني عشـــر الميلادي إلا وبدأ ازدهاره في أوربا وبالذات في فرنسا التي تعرض بها لإصلاحـــات كثيرة[٣٤٧] وكانت نهاية هذا النظام على يد نابليون الذي تقول عنه دكتـــورة زينـــب عصمت راشد[٣٤٨] « كان من أحسن وأفضل آثار نابليون على فرنسا ، ما أوجد من نظام دقيق في جمع الضرائب تجعل القائمين عليها وعلى تحصيلـــها مـــن رجـــال الحكومة مسئولين أمامه مسئولية تامة مباشرة » .

الهوامش

(١) راجع : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري : لسان العرب ، مجلد ١١ دار صادر ، بيروت ، سنه١٩٥٦ . ص ٥٤٤ .

(٢) نفسه . (٣) نفسه .

(٤) بطرس البستاني : محيط المحيط ، قاموس مطول للغة العربية ، مكتبة لبنان، بيروت سنه١٩٨٣ . ص٧١٣ .

(٥) نفسه . (٦) راجع الملحق آخر البحث .

(٧) راجع مثلا : عبد الله بن عبد الواحد الفهري : السفر الثامن من المسائل والوثائق المجموعة من كتب الفقهاء ، مخطوط مدرسة الدراسات العربية ، بمدريد ، رقم ١١ ، ورقة ٧٦ أ ، ٨٥ب محمد بن أحمد الأموي المعروف بابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات ، تحقيق شالميتا وكورينطي مدريد سنه١٩٨٣ ص ١٩٣ وغيرها ، أحمد بن مغيث الطليطلي : المقنع في علم الشروط ، تحقيق ف - خ سادابا ، مدريد سنه ١٩٩٤ ص ٢٢١ وعبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق د/حسين مؤنس ، القاهرة سنه١٩٩٧ ، ص٤٣٧ .

(٨) الفهري : المصدر السابق ورقة ٧٨ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٢ ، ص٢٢٦ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٤١ .

(٩) الفهري : المصدر السابق ص٨٥ أ ، ٨٥ ب ، ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٩ ، ص٢٠١ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٥٩، ٤٦٠ ، ٤٦١ .

(١٠) الفهري : المصدر السابق ورقة ٧٨ب ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٤٢ ، ٤٤٣.

(١١) راجع : ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١ ، ٢٢٢، ٢٢٦ ، المراكشي المصدر السابق ، ص٤٥٩ ، ٤٦١ .

(١٢) راجع مثلا : الفهري : المصدر السابق ورقة ٧٢ ب ، ٧٤ ب ، ٧٥ أ وغيرها ، ابن العطار : المصدر السابق ، ص١٩٣ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٦ .

(١٣) راجع ابن الخطيب السليماني : الإحاطة بأخبار غرناطة ، مجلد ٢ تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة سنه١٩٧٤ ،ص١٢٥ .

(١٤) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، جـ١ ، تحقيق ج . س . كولان ، أ. بروفنسال ، بيروت سنه ١٩٨٣ ، ط٣ ، ص١٣١ .

(١٥) الداعي ادريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الاخبار تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت سنه١٩٨٥ ط١ ص٤٤٧ .

(١٦) ابن حزم الأندلسي : الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى ، تحقيق إحسان عباس ، القاهرة سنه١٩٦٠ ، ص٢٧٦ - ٢٧٧ .

(١٧) الأمير عبد الله بن بلقين الزيري : مذكرات الأمير عبد الله اخر ملوك بني زيري بغرناطه ، المسماة التبيان ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مصر بدون ص١٦٩ .

(١٨) Dozy . R: Supplement aux Diccionnores Arabes Tome 2. Beuroute 1963 P.305

(١٩) Dozy et W.H.Engelman : Glassaire des mots Espagnoles et Portugais dérives de L'arabe. Beirut. 1974 PP. 74-5

(٢٠) يعقوب أرتين : الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية ، تعريب سعيد عمـــون ، ط بولاق سنه١٣٠٦هـ ص٤٥ هامش .

(٢١) ورد خير يستنتج منه وجود هذا النظام عند الفرس قبل الإسلام وبـــالذات فـــى جباية الخراج راجعه عند : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى : فتوح البلدان ، تحقيق عبــد الله أنيس الطباع ، عمر أنيس الطباع ، بيروت سنه١٩٨٧ ، ص٦٥٠ - ٦٥١ .

(٢٢) يعقوب أرتين : المرجع السابق .

(٢٣) راجع ابن منظور : لسان العرب .م١١ ص٥٤٤ .

(٢٤) انظر . أحمد بن شعيب النسائى : سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين الســـيوطى ، جـ٧ ، دار الحديث ، القاهرة سنة١٩٨٧ ص٣٥ .

(٢٥) راجع أبو عبيد القاسم بن سلام : كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، القـــاهرة سنة ١٩٦٨ ط ١ ص١٠٠ ، محمد بن أبى بكر بن سعد بن حريز الدمشقى المعـــروف بابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، جـ١ ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، بـــيروت سنة ١٩٩٥ ط١ ، ص٩٦ .

(٢٦) نفس مصادر الحاشية السابقة .

(٢٧) هو النهر الصغير ينبت حوله الأعشاب يستفيد بها صاحب الأرض من غير تعب وجمعه أربعاء .

(٢٨) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى : متن البخارى ، بحاشية الســندى ، القــاهرة ، بدون ، جـ٢ ، ص٤٨ - ٤٩ ، أحمد بن على بن حجر العسقلانى : فتح البارى بشــرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، ج٥ ، تحقيق محمد فؤاد عبــد الباقى ، وعبد العزيز بن عبد الله بن باز ، دار الفكر ، القاهرة ، بدون ص٢٢ .

(٢٩) البخارى : المصدر السابق ص٤٩ ، العسقلانى : المصدر السابق ص٢٥ ، محمد بـــن على الشوكانى : نيل الأوطار ، شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار ، جــــ٥، القاهرة ، بدون ، ص٢٧٥ .

(٣٠) الشوكانى : نيل الأوطار ، جـ٥ ص٢٧٥ ، راجع كذلك بالفـــاظ مختلفـة البخــارى : المصدر السابق ص٤٧ ، العسقلانى : فتح البارى ، جـ٥ ص١٥ .

(٣١) البخارى : المصدر السابق ص٤٦ ، العسقلانى : المصدر السابق ، ص٩ . الشـوكانى : المصدر السابق ص٢٧٥

(٣٢) الماذيانات هى ماينبت على حافة النهر ومسايل المياه ، وهى تطلق فى الأصـــل علـى مسايل المياه وسمى بها ما ينبت عليها وكانت الكلمة مستعمله فى اقليـــم الســواد قبـل افتتاحه راجع ، الشوكانى : المصدر السابق ص٢٧٦

(٣٣) أى أوائل وبدايات السواقى أى الأنهار الصغيرة راجع : المصدر السابق .

(٣٤) المصدر السابق ص٢٧٥ (٣٥) نفسه .

(٣٦) رواه البخارى وأحمد وابن ماجة وأبو داود ، راجع الشوكانى المصدر السابق ص٢٧٥

(٣٧) نيل الأوطار ، جـ٥ ، ص٢٧٩ ، فتح البارى ، جـ٥ ، ص٢٥ .

(٣٨) رواه مسلم وأبو داود والنسائى ، راجع الشوكانى : المصدر السابق ص٢٧٥

(٣٩) البخارى : المصدر السابق ص٤٩ .

(٤٠) العسقلانى : الفتح ، جـ٥ ، ص٢٦ . (٤١) نفسه .

(٤٢) البخارى : المصدر السابق ، العسقلانى : المصدر السابق ص٢٥ .

(٤٣) العسقلانى : المصدر السابق ص٢٦ .

(٤٤) وذلك رغم مافيها من شجر ونخيل فجعلها تابعة للأرض البيضاء وأخذ الأجـــرة عليـــها ويبدو أنها كانت أقل من الثلث الذى إشترطه الفقهاء بعد ذلك لتصح القبالة ، فقد اجتـــهد

سيدنا عمر فى ذلك ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة وتلقوها بالتسليم والإقرار . راجع أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الدمشقى المعروف بابن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هدى خير العباد ، جـ٥ ، تحقيق ، شعيب الأرنووط ، عبد القادر الأرنووط بيروت سنة١٩٨٧ ، ط ١٥ ص٨٢٨ .

(٤٥) البخارى : المصدر السابق .

(٤٦) أبو عبيد : كتاب الأموال ، ص٩٩ ، ابن قيم : أحكام أهل الذمة جـ١ ، ص٩٥ .

(٤٧) الأبلة : مدينه قديمة بالعراق تقع بالقرب من البصرة على شاطئ شهر دجلـه الغربـى وبعد افتتاحها أمر سيدنا عمر بن الخطاب بحفر نهرها فصار شمالها وعمرها المسلمون فصارت حسنه الديار واسعة العمارة ، مليئة بالبساتين وعامرة بمياسير الناس حتى عدت من جنات الدنيا . راجع : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الأول ، بيروت سنة١٩٩٥ ط٢ ص٧٦-٧٨ ، الحميرى : الروض امعطار فى خبر الأقطار . تحقيق احسان عباس ، بيروت سنه١٩٨٤ ط٢ ، ص ٨ – ٩ .

(٤٨) أبو عبيد : كتاب الأموال ص٩٩ – ١٠٠ ، ابن قيم : المصدر السابق ص٩٦

(٤٩) ص١٠٠ .

(٥٠) نفسه .

(٥١) أحكام أهل الذمة جـ١ ص٩٦ .

(٥٢) المصدر السابق ص٩٨ .

(٥٣) نفسه .

(٥٤) أبو عبيد : الأموال ص٦٥ – ٦٦ .

(٥٥) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ١ ، مراجعه حسين مؤنـس ، القـاهرة سنة١٩٦٨ ، ص٢٣٤ .

(٥٦) محمد ضياء الدين الريس : الخـراج والنظـم الماليـة للدولـة الإسـلامية ، القـاهرة سنة ١٩٧٧ ، ط٤ ، ص٢٦٩ .

(٥٧) تقى الدين أحمد بن على المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار بذكـر الخطـط والآثـار المعروف بالخطط المقريزية ، جـ١ ، دار صادر ، بيروت بـدون ص٣٠٩ الريـس : الخراج والنظم المالية ص٥٠٧ .

(٥٨) وربما أن ذلك إستجابة لما قاله ابن عباس " إياكم والقبالات فانها صغار وفضلها ربـا وفسر ابن منظور ذلك بأن يتقبل الشخص بخراج أو جباية أكثر من أعطى فذلك الفضـل ربا ، راجع لسان العرب م ١١ ص٥٤٤ .

(٥٩) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضى : كتاب الخراج ، المطبعـة السـلفية ، القـاهرة سنة ١٣٤٦هـ ، ص١٢٦ .

(٦٠) نفسه .

(٦١) نفسه .

(٦٢) المصدر السابق ص١٢٦ – ١٢٧ .

(٦٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٣٦ .

(٦٤) عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبه : المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، بدون ص٤٢ – ٤٣ .

(٦٥) الريس : المرجع السابق ص٥٠٨ .

(٦٦) حيث ورد أسماء بعض المتقبلين مثل مزاحم بن إسحاق ، راجـع إدوارد جروهمـان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، السفر الثانى ترجمة حسن ابراهيم حسـن ، مراجعه عبد الحميد حسن ، القاهرة سنة ١٩٩٤ ط٢ لوحه رقم ٨:٩ ص٥٦ . كمـا ورد لفظ المتقبل مرات مثل " متقبل البقط والمقبوض " لوحة رقم ٤ ص٣٧ " المتقبل بطوخ " ص٣٩ .

(٦٧) المقريزى : كتاب المواعظ والإعتبار ص٨٥ .

(٦٨) هذا ما استشهد به القاضي أبو يوسف من القرآن على فساد المتقبلين راجع : كتاب الخراج ص١٢٦ .

(٦٩) راجع أبو عبيد : الأموال ص٩٩ وما بعدها ، أبو يوسف : الخراج ص١٢٥ وما بعدها ، ابن قيم : أحكام ،جـ١ ، ص٩٤ وما بعدها وغيرها

(٧٠) راجع ما سيأتي ص١٧ وما بعدها .

(٧١) راجع : حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة سنة ١٩٥٩ ، ص٦١٤ وما بعدها ، حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، القاهرة بدون ص١٧٦- ١٧٨ ، الحبيب الجنحاني : دراسات في التاريخ الإقتصادى والاجتماعى للمغرب الإسلامي ، بيروت سنة ١٩٨٦ ، ط ٢ ص١٠٧ وما بعدها. عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى في المغرب الإسلامى فى خلال القرن السادس الهجرى ، بيروت ، القاهرة سنة١٩٨٣ ص١٢٩ وما بعدها . راجع كذلك رسالتنا : عامة قرطبة منذ بداية الفتنه حتى نهاية عهد المرابطين ص١٣٨ وما بعدها ،،

P. Gluchard : Al Andalus. Estructura Anteropolegica de una Socidad Eslamica en accidente. Barcelona. 1976. P317 FF .

(٧٢) راجع آراء كل من المالكي وابن عذارى عن أفريقية وابن مزين وابن حزم عن الأندلس عند مؤنس : فجر الأندلس ص٦١٤ . راجع كذلك رسالتنا : عامة قرطبة ص١٣٨ وما بعدها .

(٧٣) راجع فى هذا الموضوع : ج.ق.ب هوبكنز : النظم الإسلامية في المغرب فى القرون الوسطى ، ترجمة أمين توفيق الطيبى ، ليبيا - تونس سنة١٩٨٠ ، ص ٧٤ وما بعدها . ، الحبيب الجنحانى : المرجع السابق ص١١٦ وما بعدها ، أما عن الأندلس فتثبت الأحداث أن جنوب الاندلس قد فتح عنوة راجع رسالينا : عامة قرطبة ص١٣٨ - ١٣٩ ، وأن الطريق الذى سار فيه موسى بن نصير عند فتح الأندلس أسلم كثير من أهل مدنه ومجتمعاته على يد موسى وساروا مواليه راجع رسالتنا : موالى بن أمية في الأندلس ص٩١ هامش ٤ . فى حين صولح أهل منطقة أوريوله أو تدمير على يد عبد العزيز بن موسى - راجع : مجهول أخبار مجموعه فى فتح الأندلس وذكر أمرائهم رحمهم الله والحروب الواقعه بينهم ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، القاهرة ، بيروت سنه١٩٨١م ص٢٢ ، الضبى : بغيه الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، القاهرة سنه١٩٦٧ ، ص٢٧٤ .

(٧٤) هوبكنز : المرجع السابق ص٧٥ .

(٧٥) راجع : ابن عذارى : البيان ، جـ١ ، ص١٣١ ،١٤٢ ، ١٧٣ عبد الواحد المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد زينهم عزب ، القاهرة سنة١٩٩٤ ص٢١٣ - ٢١٤ . ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينه فاس ، الرباط سنة١٩٧٣ ص١٦٧ ، أحمد بن عبد الوهاب النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٢٤ ، تحقيق حسين نصار ، عبد العزيز الإهوانى ، القاهرة سنة١٩٨٣ ص١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ، ١٧٧

(٧٦) من ذلك ما عمله عبيد الله المهدى عندما حل بالمغرب ولم يعجبه النظام الجبائى الموجود فأمر بتعديل الأرض لوضع الخراج عليها ، راجع محمد بن الحارث الخشنى : طبقات علماء أفريقية ، تحقيق محمد زينهم عزب ، القاهرة سنه١٩٩٣ ، ص٤٢ ، ابن عذارى : البيان ، جـ١ ص١٧٣ .

(٧٧) فيذكر لنا المراكشى عن أبى يعقوب يوسف الموحدى وجوده وكان الذى يسهل عليه بذل الأموال مع ما جبل عليه من ذلك سعه الخراج وكثره الوجوه التى يتحصل منها الأموال

، ثم يتحدث عن جهات المغرب المختلفة وما يجبى من الخـراج ، راجـع : المعجـب ص٢١٣ – ٢١٤ .

(٧٨) راجع : النويري : نهاية الأرب جـ٢٤ ، ص١٢٦ ، ابن عذارى : المصدر السـابق ، ابن أبى زرع : المصدر السابق ص١٣٧ .

(٧٩) الأمير عبد الله : التبيان ، ص١٢٠ ، ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، القـاهرة ، بدون ، ص١٠٤ وابن الخطيب السليمانى : إعمال الإعلام أو تاريخ أسبانيا الإسـلامية ، تحقيق بروفنسال ، بيروت سنة١٩٥٦ ص ٢٤ (٨٠) راجع : عامة قرطبـة ص١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ .

(٨١) راجع : محمد بن حارث الخشنى : أخبار الفقهاء والمحدثين ، تحقيـق ماريـا لويسـا ، ولويس مولينا ، مدريد سنه١٩٩٢ ص٢٨٨ .

(٨٢) عن الأحباس في المغرب راجع إشارة ابن عذارى : البيان جـ١ ص١٨٨ ؛ أما عـن الأحباس في الأندلس فقد وردت إلينا معلومات وافية وعالجها البعض في أبحاث خاصـة بها مثل كمال السيد أبو مصطفى : الأحباس في الأندلس ، ضمن بحـوث فـى تـاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي ، الأسكندرية سنة١٩٩٣ ص١٥٧ وما بعدهـا . ومحمد عبد الوهاب خلاف : خطة الأحباس في الأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعـة القاهرة ، العدد ٥٣ سنة ١٩٩٢ وما بعدها .

(٨٣) للمزيد عن هذه الضرائب راجع هوبكنز : المرجع السابق ص ٨٩ وما بعدها .

(٨٤) الأدريسى : نزهه المشتاق فى اختراق الافاق ، المجلـد الأول القـاهرة سـنة ١٩٩٤ ، ص٢٣٦ ، ابن عبدون الإشبيلى : رسالته فى الحسبة ضمن ثـلاث رسـائل مـن أداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ص٣٠ ، ٣١ ، ابـن عذارى : المصدر السابق ص١٣١ وغيرها .

(٨٥) قام بتحقيقه وحصل به على درجة الدكتوراه من جامعه كمبلوتنسى بمدريد سنة ١٩٧٣ ، نصوح نجار وقد وردت المعلومات التى تخص مراسم القبالات والتقبيل فى موضوعيـين أحدهما حدده لنا محمد عبد الوهاب خلاف بورقة ٣١١ مـن المخطـوط الـذى يملكـه والموضوع الآخر ورد فى الرسالة التى حققت الكتاب فى المجلد الثالث ، السفر الرابع ، الباب الثالث والعشرين المسألة رقم ٧٦٥ وقد عالج هذه المسألة قبل ذلك .

Thami. El Azemmori : les Nawzel de Ibn Sahl. secion relative AlEhtesab en Hespris Tumide. vol 1973 P 25. F.F.

ثم الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف ضمن وثائق فى شئون الحسبة فى الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام لابن سهل ، القاهرة سنة١٩٨٥ ص٦٢ وما بعدها .

(٨٦) المعروف بالخطط المقريزية ص٨١ وما بعدها .

(٨٧) المقريزى : المصدر السابق ص٨٢ .

(٨٨) راجع ابن سهل : مسألة ٧٦٥ ، خلاف المرجع السابق ص٦٣ ،

El Azemmori : les Nawzel P 25.

(٨٩) المقريزى : المصدر السابق .

(٩٠) ابن سهل : الأعلام بنوازل الأحكام أو الأحكام الكبرى ورقة ٣١١ نقلا عـن خـلاف : المرجع السابق .

(٩١) حيث كان يقبل فقراء الناس ومحاويجهم لقبالة أرض ودور الأحبـاس لرخـص قبالتـها راجع ابن سهل : الإعلام تحقيق نصوح مسألة ٧٦٥ ، خلاف : وثائق فى شئون الحسبة ص٧٦ ،

ElAzemmori : Ibid P 29

(٩٢) ابن سهل : المصدر السابق ، خلاف : المرجع السابق ص٧٠
El : Azemmori : Ibid P 27 .

(٩٣) نفس مصادر الحاشية السابقة .

(٩٤) ابن سهل : المصدر السابق ، خلاف : المرجع السابق ص٨٠
El Azemmori : Ibid P 30 .

(٩٥) راجع ما سيأتي ص٢٧ - ٢٨ .

(٩٦) انظر أبو عبيد : كتاب الأموال ص٩٩ ، ابن قيم ومناقشته القيمة لهذا الحديث في : أحكام أهل الذمة جـ١ ، ص٩٥ وما بعدها .

(٩٧) إذ كان عبد الرحمن هذا أول مولود للمسلمين بافريقية وتوفى ما بين سنتي ١٥٦ - ١٦٢هـ على إختلاف المصادر في ذلك . راجع ترجمته كاملة عند أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي : كتاب رياض النفوس في طبقات علماء أفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، حـ١ ، تحقيق بشير البكوش مراجعه محمد العروسي المطوى ، بيروت سنة ١٩٩٤ ، ط٢ ص١٥٢ وما بعدها . ومصادر ترجمته الأخرى في هوامش هذه الصفحات .

(٩٨) طبع الكتاب بالقاهرة سنة١٩٥٤ راجع ص١٢٩ ، ١٤٠ .

(٩٩) صورة الأرض ص٩٤ .

(١٠٠) نفسه .

(١٠١) يذكر في سبيل المحافظة على أموال بلاد المغرب أن المعز لدين الله أوصى بلقين بن زيرى أن لا يرفع المغرم عن الرعية ، راجع ابن الخطيب ، إعمال أو تاريخ اسبانيا ص٢٢٨ .

(١٠٢) المصدر السابق ص٨٥ .

(١٠٣) سواء كانت ضياعا لزراعة المحاصيل أو جنات للفاكهة راجع : وثيقة جنات الأحباس بقرطبة عند ابن سهل : الأعلام تحقيق نصوح مسألة ٧٦٥ ، خلاف : المرجع السابق
El Azemmori : Ibid P 30

(١٠٤) ابن سهل : المصدر السابق ، ابن العطار : كتاب الوثائق ص٢٣٤، خلاف : المرجع السابق ص٦٧ ، ٩٦
El Azemmori : Ibid P 27 – 28

(١٠٥) ابن سهل : المصدر السابق ، ابن العطار : المصدر السابق ، خلاف المرجع السابق ص٦٨
El Azemmori : Ibid P28

(١٠٦) ابن سلمون الكناني : العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم من العقود والأحكام ، المطبعة البهية ، مصر ، بدون ص٢٨٦ .

(١٠٧) أبو محمد هارون بن أحمد الشاطبي : الدر الموضوعة في المسائل المجموعة ، مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد رقم ٢١٥٧٣ ، ورقة ٦٥ أ ، ابن العطار : المصدر السابق .

(١٠٨) الشاطبي : المصدر السابق ، ابن العطار : المصدر السابق .

(١٠٩) ابن العطار : المصدر السابق .

(١١٠) راجع نماذج من هذه الوثائق عند ابن العطار : المصدر السابق ص٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩٥ ، ٦٢٢ .

(١١١) عن هذا الموضوع راجع ، خلاف : خطة الأحباس ص١٩٢ وما بعدها .

(١١٢) نفسه .

(١١٣) نفسه .

(١١٤) الجرسيفي : رسالته في الحسبة ، ضمن ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق بروفنسال ، القاهرة سنة١٩٥٥ ، ص١٢٤ .

(١١٥) ابن سهل : المصدر السابق .

١١) أحمد بن يحيى الونشريسى : المعيار المعرب والجامع المغرب فـى فتـاوى علمـاء إفريقية والأندلس والمغرب جـ٧ تحقيق مجموعه من الفقهاء بإشراف د/محمد حجى ، بيروت سنة ١٩٨١ ، ص٣٠٢ .

١١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، القسم الثانى ، القاهرة سنة١٩٦٦ ص٩٤ .

١١) الفهرى : المصدر السابق ورقة ٨٤ أ ، ب ، الشاطبى : المصدر السابق ورقة ٦٥ أ ، ابن العطار : المصدر السابق ص١٨٢ - ١٨٣ ، ابـن مغيـث : المصـدر السـابق ص٢٣٤ .

١١) راجع وثيقة نازلة جنات الأحباس بقرطبة عند ابن سهل : المصدر السـابق ، خـلاف المرجع السابق ص٦٤ ، ٨٠ El Azemmori : Ibid P26

١٢) أى أهل بلاد الحرب من التجار راجع ابن قيم : أحكام ، جـ١ ، ص١٢٤ وما بعدها .

١٢) ابن قيم : المصدر السابق ص١٢٤ .

١٢) أبو عبيد : الأموال ص٧٠٨ .

١٢) ولا تؤخذ عينا إذا فرض وسمح لهم بالدخول بالخمر والخـنزير راجـع ابـن قيـم : المصدر السابق ص١٣٠ .

١٢) ابن قيم : المصدر السابق ص١٢٣ .

١٢) راجع : ابن قيم : المصدر ص١٢٥ ، قطب محمد إبراهيم : السياسة المالية لعمر بـن عبد العزيز ، القاهرة سنة١٩٨٨ ، ص١١٢ .

١٢) أبو عبيد : المصدر السابق ص٧٠٤ ، ابن قيم : المصدر السابق .

١٢) المصدر السابق ، راجع كذلك ابن قيم : المصدر السابق .

١٢) أبو عبيد : المصدر السابق ص٧٠٥ ، ابن قيم : المصدر السابق .

١٢) ابن عذارى : البيان ، جـ١ ص١٣١ ، راجع كذلك ، ابن الخطيب السليمانى : إعمـال الإعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الأسلام أو تاريخ المغـرب العربـى فـى العصر الوسيط ، تحقيق العبادى والكتـانى الـدار البيضـاء سـنة١٩٦٤ ، ص٣٤ . هوبكنز : النظم الإسلامية ص٩٥ ، عبد العزيز الثعالبى : تاريخ شمال أفريقيـا مـن الفتح الإسلامى إلى نهاية الدولة الأغلبية ، جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس ، مراجعة حمادى الساحلى ، بيروت سنة١٩٨٧ ص٢٥٢ ، محمد الطـالبى : الدولـة الأغلبية ، التاريخ السياسى (١٨٤ - ٢٩٦ هـ / ٨٠٠-٩٠٩م) تعريـب المنجـى الصيادى ، مراجعة حمادى الساحلى ، بيروت سنة ١٩٩٥ ، ط٢ ، ص٣٥٩ .

١٣) المرجع السابق ص١١٤ . (١٣١) راجع صورة الأرض ص٩٤ .

١٣) المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٨٥ . (١٣٣) المصدر السابق .

١٣) ابن عذارى : المصدر السابق ص١٤١ - ١٤٢ .

١٣) وهو أبو عبد الله محمد عبد الله السدرى ، عرف بالخير والصلاح والعبـادة و جـهاده ضد بنى عبيد مشهود ومعروف راجع ترجمته ، المالكى : رياض النفوس ، جـ٢ ، ص١٦٦ وما بعدها .

١٣) المالكى : المصدر السابق ص١٧٣. (١٣٧) المصدر السابق ص٤٤٥ .

١٣) الداعى إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ص٤٤٦ - ٤٤٧ .

١٣) راجع أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب . تحقيق دىسلان ، الجزائر سنة ١٩١١ ، ص٢٥ .

١٤) للمزيد عن هذا الموضوع راجع د/حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين صفحـة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة سـنة١٩٩٦ ط٢ ص٨٠ - ٨٢ ، الجنحانى : دراسات ص٩٤ ، ٩٦،٩٧ .

(١٤١) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ، جـ٢ ص١٢٨ .

(١٤٢) عبد الرحمن بن خلدون : تاريخة المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، مجلد ٦ ، بيروت ، لبنان سنة١٩٩٢ ، ط ١ ص٢١٧ .

(١٤٣)
Live Provençal : España Musulmana Hasta La caida del califato de córdoba (711 – 1031 J.c.) Traducción Por E.G. Gomez en Historia de España. Dirigida Por. R.M.Pidal. Tercera parte .Instituciones y cultura. Madrid 1950 PP 20 – 21 .

(١٤٤) إعمال الإعلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية ص١٥ .

(١٤٥) Provencal : Ibid P 22

(١٤٦) صورة الأرض ص١٠٤ . (١٤٧) OP . Cit

(١٤٨) راجع الأمير عبد الله : التبيان ص٦٩ – ٧٠ ، ١٠١ ، ١٢٤ – ١٢٥ .

(١٤٩) راجع ابن خلدون : المقدمة ص٣٨٨ ، جـ٦ ص٢٢١ ، الأمير عبد الله : المصدر السابق ص١٢٠ .

(١٥٠) الأمير عبد الله : المصدر السابق ص١٠٩ .

(١٥١) ابن حزم الأندلسى : الرد على ابن النغزيلة ص١٧٦ .

(١٥٢) الأمير عبد الله : المصدر السابق ص١٠٩ ، ١٢٠ .

(١٥٣) المصدر السابق ص١٦٩ .

(١٥٤) المصدر السابق ص١٧٦ – ١٧٧ . راجع كذلك .
Pedro Chalmeta El Señor del Zoco en España Edad media y moderna. Madrid 1973. p219

(١٥٥) ابن حزم : المصدر السابق ص١٧٧ .

(١٥٦) ابن بسام الشنتريني : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، دار الثقافة ، بيروت سنة١٩٧٩ ص٦٦١ .

(١٥٧) ابن الخطيب : إعمال أو تاريخ إسبانيا الإسلامية ص١٥ .

(١٥٨) المالكى : رياض النفوس ، جـ٢ ص٢٧٣ . (١٥٩) Supplement. T2. P 305

(١٦٠) مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، الدار البيضاء سنة١٩٧٩ ، ص٨٤ .

(١٦١) مجهول : نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الرباط سنة١٩٣٤ ص٥٢ .

(١٦٢) راجع ما سبق ص ١٩ .

(١٦٣) ابن أبى دينار القيروانى : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس تحقيق محمد الشمام ، تونس سنة١٩٦٧ ، ط٢ ، ص١٠٧ .

(١٦٤) ابن أبى زرع : المصدر السابق ص٣٧ . (١٦٥) المصدر السابق ص٩٤ .

(١٦٦) راجع الأمير عبد الله : المصدر السابق ص١٢٠ .

(١٦٧) المصدر السابق ص٩٤ .

(١٦٨) فصارت هناك المكوس والمغارم واللوازم والوظائف السلطانية بمعنى الضرائب العامة أو التعتيب الخاص ببناء الأسوار ، كل ذلك نتيجة الأزمة المالية الخانقة راجع عز الدين موسى : النشاط الأقتصادى ص١٦٦ – ١٦٧ .

(١٦٩) الأدريسى : نزهة المشتاق م ١ ص٢٣٥ ، الحميرى : الروض المعطار ص٥٤١ .

(١٧٠) أبو بكر بن على الصنهاجي المكنى بالبيذق : أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط سنة١٩٧١ ،ص٢٦ .

(١٧١) ابن عبدون : رسالته ص٣٣ .

(١٧٢) يفهم ذلك من أن الخليفة الموحدى أبي يعقوب يوسف حرص على تسبيل الطرق وتأمين الناس ومن أعمالة فى ذلك أنه بنى جسرا على وادى إشبيلية وأحكم صنعته لعبور الناس والعساكر وجعلها سبيلا للمسلمين ولم يفرض عليها قبالة : راجع ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة أو تاريخ المغرب والأندلس فى عهد الموحدين ، تحقيق عبد الهادى التازى ، بيروت سنة١٩٨٧ ط٣ ص١٦٦ ، ٣٧٢ وهو ما كان يفعلة المرابطون وحدث أن أرادوا أخذ المكس من مهدى الموحدين عندما أراد عبور وادى أم الربيع راجع البيذق : المصدر السابق .

(١٧٣) مجهول : الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ، ص٨٤-٨٥ .

(١٧٤) المصدر السابق .

(١٧٥) رسالته ص٣٠ .

(١٧٦) المصدر السابق ص٣١ .

(١٧٧) نفسه .

(١٧٨) الونشريسى : المعيار ، جـ٣ ، ص٢٧٦ - ٢٧٧ .

(١٧٩) نعتقد أنه تقبل الضريبة المفروضة على الوزانين فى السوق ، لأن الكلمة فى العربية قرسطون أو قلسطون تعنى الميزان أو القبان ، والميزان بالذات للدراهم راجع : Dozy Supplement T 2 P 335

(١٨٠) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد مردنيش ، ولد ٥١٨ بطرطوشة واختلف المؤرخون فى أصلة هل هو من العرب أو غيرهم وإن كان الدكتور مؤنس يجزم بأصله الأسبانى وأنه دخل فى ولاء الجذاميين وأن صفات ابن مردنيش وسلوكه تؤكد ذلك وقد كان والده متوليا لأفراغه من قبل المرابطين وعمه عبد الله بن محمد صهر ابن عياض أحد أمراء شرق الأندلس ومن خلال هذه العلاقة وصل ابن مردنيش إلى إمارة شرق الأندلس عن أصله وسيرته راجع ابن الخطيب : الإحاطة بأخبار غرناطة م٢، ص١٢١ وما بعدها ، ابن الخطيب : إعمال الأعلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٦٠ وما بعدها ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ٢ ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة سنة١٩٨٥ ط٢ ص٢٣٢-٢٣٣ وهامش رقم ١ ص٢٣٢ . راجع كذلك ابن صاحب الصلاة : المصدر السابق ص٦٥ وما بعدها ، ومحمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، العصر الثالث ، عصر المرابطين والموحدين القسم الأول عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية ، القاهرة سنة١٩٩٠ ط٢ ، ص٣٦٥ وما بعدها ، مراجع عقيلة الغناى : قيام دولة الموحدين ، بنغازى سنة١٩٨٨ ، ص١١٧ وما بعدها : هشام أبو رميلة : علاقة الموحدين بالممالك النصرانية والدولة الإسلامية فى الأندلس عمان سنة١٩٨٤ ص١٠٧ وما بعدها

Codera . F: Decadencia y Desaparicion de los Almoravides en España. Zoragoza. 1899 P 111 FF.

(١٨١) ابن الخطيب : الإحاطة م٢ ، ص١٢٤ .

(١٨٢) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ابن الخطيب : إعمال الأعلام أو تاريخ إسبانيا ص٢٦١

(١٨٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، م٢ ، ص١٢٤ .

(١٨٤) المصدر السابق ص١٢٤ - ١٢٥ .

(١٨٥) المصدر السابق ص١٢٤ .

(١٨٦) المصدر السابق ص١٢٤ - ١٢٥ .

(١٨٧) هذا اللفظ استعمله المراكشى ليدلل به على كثرة المفاسد وعوامل الضعف التى بدأت

في الظهور بعد يوسف بن تاشفين في دولة المرابطين مما أدى في النهاية إلى سقوطها على يد الموحدين راجع المراكشي : المعجب ص١٥٤ .

(١٨٨) البيذق : أخبار المهدي ص٢٢ . (١٨٩) المصدر السابق ص٢٦ .

(١٩٠) ابن القطان المراكشي : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان تحقيق د/ محمود علي مكي ، بيروت ص٢٠٢ -٢٠٣ .

(١٩١) ابن القطان : المصدر السابق ص١٩٣ . (١٩٢) المصدر السابق ص١٩٤ .

(١٩٣) ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، رباط الفتح سنه١٩٤١ ص٢١

(١٩٤) المصدر السابق ص٢٢ . (١٩٥) راجع الحميري : الروض المعطار ص٥٤١ .

(١٩٦) راجع مثلا ترادف الكلمتين عند الفهري : السفر الثامن ، ٧٢ ب ، ٧٣ ب ، ٧٤ ب ، ٧٥ أ ، وغيرها كثير ، أبو محمد هارون الشاطبي : الدر الموضوعة في المسائل المجموعة ص٦٤ أ ، ٦٥ أ وغيرها ، ابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات ص١٩٣ ، ص٢٠١ وغيرهما ، ابن مغيث : المقنع في علم الشروط ص٢٢١ ، ٢٢٧ وغيرها : عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ص٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ وغيرها كثير .

(١٩٧) راجع ما سبق ص ١٤ .

(١٩٨) المصدر السابق الذكر . (١٩٩) المصدر السابق الذكر .

(٢٠٠) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي : فتاوى ابن رشد ، ثلاث مجلدات تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ، بيروت سنة١٩٨٧ ، الطبعة الأولى .

(٢٠١) المصدر سابق الذكر . (٢٠٢) راجع رسالته في الحسبة ص٣٠ وما بعدها .

(٢٠٣) المسماه : المعيار المغرب في ذكر فتاوى علماء إفريقية الأندلس والمغرب سابقة الذكر

(٢٠٤) نقول الموحدين هنا لإن الموحدين لم يتدخلوا في مثل هذه القبالات الخاصة لأنها بين أفراد المجتمع الذين لهم حرية التصرف في أموالهم ، كما أن هذه القبالات صحيحة شرعا ولا تقبل سوى تدخل الفقهاء ومشايخ العصر لتوضيح صحيحها من سقيمها .

(٢٠٥) راجع الملحق اخر البحث .

(٢٠٦) راجع الفهري : المصدر السابق ورقة ٧٤ ب ، ٧٥ ب ، ٧٧ أ ، ٨٤ أ ٨٥ الخ ، ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠١ إلخ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ الخ ، المراكشي : وثائق ص٤٤١ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ إلخ .

(٢٠٧) وذلك مما يجوز إشتراطة كتابة في الوثيقة راجع : ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٣ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٩ ، ٢٣١ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٢٦ ، ٤٢٧ .

(٢٠٨) الفهري : المصدر السابق ورقة ٧٤ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٣٤ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٣ .

(٢٠٩) راجع الفهري : المصدر السابق ص٧٦ أ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٦ .

(٢١٠) الفهري : المصدر السابق ص٧٧ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٥ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٤١ .

(٢١١) الفهري : المصدر السابق ص٨٥ أ ، ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٩ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٥٩ .

(٢١٢) الفهري : المصدر السابق ص٨٥ ب ، ابن العطار : المصدر السابق ص٢٠١ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١، المراكشي : المصدر السابق ص٤٦١ .

(٢١٣) ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٣٣ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٩ .
(٢١٤) الفهري : المصدر السابق ص٨٤ أ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٥٩ .
(٢١٥) الفهري : المصدر السابق ص٨٤ أ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٥٧ .
(٢١٦) المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٤ .
(٢١٧) راجع الفهري : المصدر السابق ص٧٤ أ ، ٧٦ أ ، ٧٧ ب ، ٨٤ أ إلخ ، ابن العطار المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٧ - ٤٣٩ - ٤٤١ - ٤٦٧ إلخ .
(٢١٨) راجع مصادر الحاشية السابقة .
(٢١٩) الفهري : المصدر السابق ص٧٦ أ ، ص٨٥ ب ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢١ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٣٦ ، ٤٦١ وغيرهما .
(٢٢٠) كما هو الحال في الدور راجع الفهري : المصدر السابق ص١٩٢ - ١٩٣ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٨ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٢٥ ، ص٤٢٦
(٢٢١) راجع مثلا ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٢ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٤٥ .
(٢٢٢) راجع : كتاب الخراج ص١٢٦-١٢٧ . (٢٢٣) راجع ما سبق ص ٧ .
(٢٢٤) مثل ابن القاسم وعبد الملك بن حبيب شارح الموطأ ومؤلف الواضحة ومحمد بن أحمد العتبي مؤلف العتبية أو المستخرجة ويحيى بن يحيى الليثي وغيرهم كثيرين .
(٢٢٥) راجع ما سبق ص ١٤ - ١٦
(٢٢٦) إذ استغل البعض ما وصلوا إليه من جاه وسلطان فجاروا على تلك الأحباس مثل ابن السقاء القرطبي الذي أثرى على حساب أراضي الأحباس بقرطبة وغيرها راجع ابن سهل : الأعلام ، جـ٢ ص٣ مسأله ٥٩٨ ، محمد عبد الوهاب خلاف : وثيقة في اغتصاب ابن السقاء قيم دولة ابن جهور لأموال بيت مال المسلمين في قرطبة مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأندلس مجلة أوراق ، العدد ٥ ، ٦ مدريد سنة١٩٨٢ - ١٩٨٣ ص٩٩ وما بعدها .
(٢٢٧) الفهري :المصدر السابق ورقة ٨٤ب ، أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي : الأحكام ، تحقيق الصادق الحلوي ، بيروت سنة١٩٩٢ ص٢٥٩ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٤ ، المراكشي : المصدر السابق ص٤٥٨ .
(٢٢٨) الفهري : المصدر السابق ، المالقي : المصدر السابق ، المراكشي : المصدر السابق .
(٢٢٩) نفس مصادر الحاشية رقم ٢٢٧ .
(٢٣٠) ابن سهل : الإعلام ورقة ٣١١ نقلا عن خلاف ، الونشريسي : المعيار جـ٧ ص٤٣٧ .
(٢٣١) ابن سهل : المصدر السابق .
(٢٣٢) الفهري : المصدر السابق ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٤ ، المالقي : المصدر السابق ص٢٥٩ ، ٢٦٠ ، المراكشي : المصدر السابق .
(٢٣٣) نفس مصادر الحاشية السابقة .
(٢٣٤) الفهري : المصدر السابق ، المراكشي : المصدر السابق .
(٢٣٥) المراكشي : المصدر السابق .
(٢٣٦) راجع الفهري : المصدر السابق ، المالقي : المصدر السابق ، ابن مغيث : المصدر السابق .
(٢٣٧) راجع الفهري : المصدر السابق ص٨٤ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٤ ، المراكشي المصدر السابق ص٤٥٧ .
(٢٣٨) راجع عن هذا ما سبق ص ١٥ - ١٦ .

(٢٣٩) نوازل ابن سهل جـ٣ س٤ب ٢٣ مسأله ٧٦٥ ، خلاف : وثائق فى شئون الحسبة ص٦٤ ElAzemmori : Ibid P.27

(٢٤٠) قال بذلك الفقيه الحسن بن أيوب المعروف بابن الحداد المتوفى سنة٤٢٥هـ ابن سهل : المصدر السابق ، خلاف : المصدر السابق ص٦٧ ، نصوح نجار : المرجع السابق El Azemmori : Ibid .P.27

(٢٤١) وهو عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموى من الفقهاء الحافظين للرأى على مذهب الإمام مالك عارفا بالشروط مشاورا توفى سنة٤٣١ راجع ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، القاهرة سنة١٩٦٦ ص٢٦٧ .

(٢٤٢) ابن سهل : المصدر السابق مسألة ٧٦٥ ،خلاف المرجع السابق ص٧١ El Azemmori : Ibid.P27

(٢٤٣) خلاف المرجع السابق ص٧٣ ، El Azemmori : P.28

(٢٤٤) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن الشقاق وصف بأنه أحفظ أهل زمانه للمسائل كان يعقد الوثائق وحاز الرئاسة فى الشورى والفتيا تولى القضاء فى بعض الكور ونال الوزارة توفى سنة٤٢٦هـ راجع ابن بشكوال : الصلة القسم الأول ص٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢٤٥) ابن سهل : المصدر السابق خلاف : المرجع السابق .

(٢٤٦) أصله من عدوة المغرب تولى الشورى بقرطبة وكان لا يحسن سوى المسائل وتوفى بقرطبة سنة٤٣١ راجع ابن بشكوال : الصلة ق٢ ، ص١٤٦ .

(٢٤٧) ابن سهل : المصدر السابق ،خلاف المرجع السابق ص٧٦ .

(٢٤٨) يكنى أبا المطرف تولى القضاء مقرونا بولاية الصلاة والخطبة ثم الوزارة لمدة قصيرة وقد كان صلبا فى أحكامه من أجل الحق ونصره المظلوم توفى سنة٤٠٢هـ راجع ترجمته عند ابن بشكوال : كتاب الصلة القسم الأول ص٣٠٩ - ٣١٣ ، الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، القاهرة سنة١٩٦٧ ص٣٥٦ وللمزيد راجع : رسالتنا : موالى بنى أمية ص١٠٤ هامش ٦ .

(٢٤٩) ابن سهل : المصدر السابق مسألة ٧٦٥ ، خلاف : المرجع السابق ص٧٣ .

(٢٥٠) كان رجلا صالحا فاضلا عاصر الأمير الأغلبى عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (١٩٦ - ٢١٠هـ) وكان له إجابات وكرامات راجع ترجمته المالكى : رياض النفوس ،جـ١ ، ص٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢٥١) المالكى : المصدر السابق ص٣٣٢ .

(٢٥٢) راجع المالكى : المصدر السابق ، راجع كذلك النويرى : نهاية الأرب جـ٢٤ ، ص١٠٦ - ١٠٧ ويذكر ابن الأثير أنه فرض على كل فدان ثمانية عشر دينارا كل سنه فضاق الناس لذلك وشكا بعضهم لبعض راجع : الكامل فى التاريخ ، المجلد الخامس ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، بيروت سنه ١٩٩٥ جـ١ ، ص٤٣٣ .

(٢٥٣) راجع ما سبق ص١٨ - ١٩ .

(٢٥٤) المالكى : رياض جـ٢ ، ص١٧٣ .

(٢٥٥) كان رجلا فاضلا مستجاب الدعوة مغيرا للمنكر أصله من جزيرة شريك ثم سكن القيروان وتوفى غريقا سنه ٢١٢هـ وله فضائل ومناقب كثيرة ، راجع ترجمته المالكى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٣٣٣ وما بعدها .

(٢٥٦) المصدر السابق ص٣٣٧ .

(٢٥٧) راجع ما سبق ص ٢١ - ٢٢ .

(٢٥٨) راجع ما سبق ص٢٢ - ٢٣ .

(٢٥٩) ابن عبدون رسالة ص٣٣ .

(٢٦٠) راجع المصدر السابق ص٧ .

(٢٦١) راجع ما سبق ص٢٣ .

(٢٦٢) ابن عبدون : المصدر السابق ص٣٠ .

(٢٦٣) ابن عبدون : المصدر السابق ص٣١

(٢٦٤) نفسه . (٢٦٥) المصدر السابق صـ٥١ .
(٢٦٦) نفسه (٢٦٧) المصدر السابق صـ٣١ .
(٢٦٨) المصدر السابق صـ٣٠ . (٢٦٩) نفسه
(٢٧٠) نفسه . (٢٧١) المصدر السابق صـ٣١ .
(٢٧٢) نفسه . (٢٧٣) نفسه .
(٢٧٤) المصدر السابق صـ٣٠ . (٢٧٥) نفسه .
(٢٧٦) نفسه . (٢٧٧) المصدر السابق صـ٣١ .
(٢٧٨) المصدر السابق صـ٣١-٣٢ ؛ P.Chalmeta:El Señor del *zoco p220*
(٢٧٩) أمثال يحيى بن يحيى الليثي وابن حبيب وسحنون وابن مزين ومحمد ابن لبابه وقاسم بن محمد ويحيى بن أيوب وأحمد بن سعيد الهندى ومحمد بن أحمد العطار والوتد وابن الملون وابن أبي زمنين وغيرهم وابن مغيث الذى أمدنا بهذه المعلومة راجع : كتاب المقنع في علم الشروط صـ٧ .
(٢٨٠) راجع الملحق . (٢٨١) راجع ما سبق ص٣ – ٤ .
(٢٨٢) راجع الونشريسي : المعيار م٨ صـ٢٦٧ .
(٢٨٣) الفهرى : السفر الثامن ورقة ١٧٨أ – ب ، ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٧٧ ، المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين صـ٤٤٢ .
(٢٨٤) ابن مغيث : المصدر السابق .
(٢٨٥) راجع الفهرى : المصدر السابق صـ٧٨ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٢٦ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٤١ .
(٢٨٦) الفهرى : المصدر السابق ، ابن مغيث : المصدر السابق ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٤٢ .
(٢٨٧) نفس مصادر الحاشية السابقة .
(٢٨٨) الفهرى : المصدر السابق ورقة ٧٨ب ؛ المراكشي : المصدر السابق صـ٤٤٢ .
(٢٨٩) الفهرى : المصدر السابق ، المراكشي: المصدر السابق صـ٤٤٢-٤٤٣
(٢٩٠) أبو هارون الشاطبي : الدر الموضوعة ورقة ٦٥ أ .
(٢٩١) الفهرى : المصدر السابق ورقة ٨٦ أ ، ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٢١ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٢ .
(٢٩٢) ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٢٢ ؛ المراكشي : المصدر السابق صـ٢٦٤ .
(٢٩٣) الفهرى : المصدر السابق ورقة ٨٦أ ؛ المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٢ .
(٢٩٤) نفس مصادر الحاشيه السابقة .
(٢٩٥) راجع الفهرى : ورقة ٨٦ ب ؛ المراكشي : صـ٤٦٣ .
(٢٩٦) المراكشي : صـ٤٦٥ . (٢٩٧) المصدر السابق صـ٤٦٢ .
(٢٩٨) ابن مغيث : المصدر السابق صـ٢٢٣
(٢٩٩) الونشريسي : المصدر السابق صـ٢٨٧ .
(٣٠٠) راجع : فتاوى ابن رشد ، السفر الثالث صـ١٢٨٢-١٢٨٣ ، الونشريسي : المصدر السابق صـ٢٨٧-٢٨٨ ، راجع كذلك : الفهرى : المصدر السابق ورقة ٨٨ أ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٧ ؛ ابن سلمون الكناني : العقد المنظم صـ٢٨٤
(٣٠١) الفهرى : المصدر السابق ، ورقة ١٨٨أ ، الرشاطى : المصدر السابق ، ورقة ٦٦أ ، المراكشي : المصدر السابق صـ٤٦٧ – ٤٦٨ .

(٣٠٢) ابن رشد : المصدر السابق ، الونشريسى : المصدر السابق .
(٣٠٣) راجع الفهرى : ورقة ١٧٥أ ، ابن مغيث : صـ٢٣٢ ، المراكشى : ٤٣٤
(٣٠٤) نفس مصادر الحاشية السابقة . (٣٠٥) ابن مغيث : المصدر السابق .
(٣٠٦) المراكشى : صـ٤٤٠ . (٣٠٧) ابن مغيث صـ٢٣٤ .
(٣٠٨) نفسه . (٣٠٩) نفسه .
(٣١٠) نفسه . (٣١١) ابن مغيث صـ٢٣٣ .
(٣١٢) المراكشى صـ٤٣١ .
(٣١٣) ابن رشد : المصدر السابق صـ١٢٨٤ ، ابن سلمون الكنانى : العقد المنظم صـ٢٨٤
(٣١٤) الفهرى : المصدر السابق ورقة ٨٤ أ ، المراكشى : المصدر السابق صـ٤٥٩ .
(٣١٥) ابن العطار : كتاب الوثائق والسجلات صـ٢٠٠ ، المراكشـى : المصـدر السـابق صـ٤٦٠ ، ابن سلمون : المصدر السابق صـ٢٨٢ .
(٣١٦) المراكشى : المصدر السابق . (٣١٧) ابن سلمون : المصدر السابق .
(٣١٨) ابن العطار : المصدر السابق ، المراكشى : المصدر السابق .
(٣١٩) المصدر السابق . (٣٢٠) ابن سلمون : المصدر السابق ص٢٨٣
(٣٢١) رسالته ص٣١ .
(٣٢٢) وهو ما يدل على مشاركه النساء في التقبيل بما يؤل إليهن من أملاك وأموال ، راجـع أيضا : المالقى : الأحكام ص١١٦ – ١١٧ .
(٣٢٣) رسالته ص٤٩ .
(٣٢٤) راجع الفهرى : المصدر السابق ورقة ٧٦ أ ، المراكشى : المصدر السابق ص٤٣٧ .
(٣٢٥) المراكشى : المصدر السابق ورقة ٧٦ب ، المراكشى : المصدر السابق .
(٣٢٦) راجع الفهرى : المصدر السابق ورقة ٧٦ب ، المراكشى : المصدر السابق .
(٣٢٧) راجع ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٩٩ ، المراكشى : المصدر السابق ص٤٢٦ .
(٣٢٨) ابن العطار : المصدر السابق ص١٩٣ ، ابن مغيث : المصدر السابق ، المراكشـى : المصدر السابق ص٢٢٩ .
(٣٢٩) ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٢٩ .
(٣٣٠) راجع ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٣٠ ، المراكشى : المصدر السابق .
(٣٣١) انظر تفاصيل ذلك عند ابن مغيث : المصدر السابق ص٣٢٠ .
(٣٣٢) راجع هذا الباب ، المراكشى : المصدر السابق ص٤٣٠ .
(٣٣٣) ابن مغيث : المصدر السابق ص٢٣٠ .
(٣٣٤) للمزيد راجع المراكشى : المصدر السابق ص٤٣٢ – ٤٣٣ .
(٣٣٥) الأنيس المطرب ص٣٧٥ .
(٣٣٦) راجع بروفنسال : سلسلة محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها ص٨٢ .
(٣٣٧) النظم الإسلامية ص١١٥ .
(٣٣٨) Ibn Marzuq : El Musnad, Hechos Memorables De Abu -L-Hasan, sultan de los Beni Merines, Estudio, Trudacción, Anotacion, indices, Anotados por Maria. J. Viguera, Madrid 1977. P234 .
راجع كذلك محمد عيسى الحريرى : تاريخ المغرب الإسلامى والأندلس فى العصر المرينـى ، الكويت سنه١٩٨٧ ط٢ ، ص٢٧٩ .
(٣٣٩) نفس المرجع السابق .
(٣٤٠) راجع أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصـر بنـى الأحمـر ، الإسكندرية ١٩٩٧ ص٢٦٩ .

(٣٤١) راجع : الطوخى : المرجع السابق صـ٢٦٣ وما بعدها .
Rachel Arié : España Musulmana . siglos . (VIII- XV) en Historia de España . dirigida por . M.T . de Lara , Madrid 1993 P78 - 9 - . Miguel Cruz Hernndez : El Islam de Al Andalus,Historia y Estructura de su realidad social. Madrid . 1992 P300

(٣٤٢) الطوخى : المرجع السابق صـ٢٦٩، بروفنسال : المرجع السابق .

(٣٤٣) راجع : Dozy et Engelman : Glassaire P75

(٣٤٤) Op .Cit

(٣٤٥) بروفنسال : المرجع السابق Dozy - Engelman : Ibid . P75 . ومن الجدير بالذكر هنا أن الكلمة انتقلت إلى فرنسا واستعلمت فى البداية كما كانت العالم الاسلامى أى على الضرائب المتنوعة ثم اقتصرت بعد ذلك على ضريبة عرفت بضريبة عرفت بضريبة الملح ، راجع د/ زينب عصمت راشد : تاريخ أوربا الحديث (القرن التاسع عشر) القاهرة بدون جـ٣٤ هامش ١

(٣٤٦) Dozy - Engelman : Ibid P75

(٣٤٧) بروفنسال : المرجع السابق ، زينب عصمت راشد : المرجع السابق صـ٣٤ وما بعدها .

(٣٤٨) المرجع السابق صـ٣٦ .

ملحــق

قبالة مضرب الكموب

تقبل فلان بن فلان من فلان بن فلان جميع مضرب الكموب الذي بناحية كذا في
بموضع كذا وحدوده كذا بجميع حقوقه ومرافقه قبالة صحيحة بتلا
بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار يعمل فيه كل يوم كذا وكذا كموبة بمقدار عرفاه
وتواصفاه مدة خمسة أشهر أولها شهر كذا من سنة كذا بكذا وكذا
فإن كان دفع الكراء قلت دفع المتقبل جميعه وافيا فقبضه منه
إلى المقبل فلان وقبضه المقبل فلان على الصفة المذكورة وأبرأه منه
ونزل المتقبل في المضرب المذكور وصار بيده ليصنع فيه ما ذكرناه له
وكان على المقبل فلان بن ... المتقبل فلان في عمل القعرة المذكورة مثل
الكموب وإن لم يدفع قلت وكان على المتقبل فلان بن ... المتقبل فلان
في ... الكراء منه دون ... عند انقضاء شهر على سنة
المسلمين في قبالاتهم ... إلى آخره

● - الفهرى : السفر التامن ورقة ٨٤ أ

وثيقة قبالة جنان ●●

تقبّل فلانّ بن فلان من فلان بن فلان ٢١٤٧ جميع الجنّة . وإن شئت قلتَ الجنان على المجاز ، ثمّ ٠ تقول : التي بموضع كذا وحدّها ٢١٤٨ كذا ، بقاعتها وبنيانها وبئر سانيتها وصهريجها وسوادها كلّه ٢١٤٩ ، // إذ هو تبع لبياضها ، قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار ، عرفا قدرها ومبلغها ، لأربعة أعوام أوّلها شهر كذا (من عام كذا) ، بكذا وكذا يؤدّي المتقبّل { فلان } عند انقضاء كلّ عام منها ما ينوبه ، وذلك كذا وكذا ، بعد أن تواصفا ما يبزر في هذه الجنّة (المذكورة) ٢١٥٠ وعلما أنّ ثمرة كلّ عام ٢١٥١ من الأعوام ٠ المذكورة من ثمرات الجنّة المذكورة تطيب قبل انقضائها ، ونزل المتقبّل فلان في الجنّة المذكورة لأوّل قبالته ، وآلة بئر السانية تامّة ، وليس على المتقبّل ٢١٥٢ فلان من إقامة ذلك شيء إلاّ ما خفّ مثل المشط أو المغزل أو شحم ، وعلى فلان صاحب الجنان ٢١٥٣ ما عظمت مؤنته ، ولها في قبالتها هذه سنّة المسلمين ٢١٥٤ في قبالتهم الجائزة بينهم . شهد على إشهاد فلان المقبّل والمتقبّل فلان ٢١٥٥ على ٠ أنفسهما ، وتمضي إلى التأريخ . وتقول : هذا الكتاب نسختان .

فإن قدّم المتقبّل شيئا من القبالة ٢١٥٦ وجعله لآخر سنة من المدّة المذكورة قلتَ بعد قولك وكذا : وقدّم المتقبّل فلان من القبالة المذكورة ٢١٥٧ ما وجب منها لآخر سنة من المدّة المذكورة ، وقبض المقبّل فلان ذلك منه ، ونجّم عليه باقي القبالة على كلّ عام ٢١٥٨ كذا أو أوّل كلّ شهر ٢١٥٩ كذا ، وتمضي إلى التأريخ .

●● - ابن مغيث : المقنع صـــ ٢٢٥ — ٢٢٦

وثيقة قبالة رحى ●

تقبّل فلان بن فلان الفلانيّ من فلان بن فلان الفلانيّ [2096] ، وإن شئتَ قلتَ : اكترى فلان بن فلان (من فلان) جميع الرحى السانية أو الرحيين السانيتين [2097] التي أو اللتين في بيت واحد على سدّ واحد على نهر كذا بموضع كذا ، وحدّها كذا ، بحقوقها وسدّها وأحجارها ومنافعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها ، وآلتها وأسرّتها (وبنيانها) [2098] ومنصبها وقنواتها ومحطّ واردتها ، قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولاخيار ، عرفا قدرها ومبلغها : لعام واحد أوّله كذا ، بكذا وكذا منجّمة [2099] على المتقبّل فلان على قدر شهور العام المذكور يؤدّي عند انقضاء كلّ نجم منها ، وانقضاؤه بانقضاء شهر كذا [2100] ، ما ينوبه من القبالة المذكورة ، وذلك كذا وكذا ، ولا براءة للمتقبّل فلان من شيء من القبالة المذكورة بحلول نجم وانصرام غيره إلاّ بإقرار المقبّل [2101] بالقبض منه أو بيّنة عادلة [2102] تقوم له على الأداء ، وهو مصدَّق في الاقتضاء دون يمين تلزمه في دعوى « القضاء » ، ونزل المتقبّل (فلان) في الرحى المذكورة وصارت بيده طاحنة قائمة تامّة الآلة ليستوفي أمد قبالته ، ولها في ذلك سنّة المسلمين في قبالاتهم ومراجع أدراكهم [2103] . شهد على إشهاد المقبّل فلان والمتقبّل فلان على أنفسهما ، وتمضي إلى التاريخ .

● - ابن مغيث : المصدر السابق صـ ٢٢١

وثيقة قبالة أحباس ●●

تقبّل فلان بن فلان من فلان بن فلان جميع (الأملاك) [2137] المحبّسة عليه (التي) بموضع كذا ، بحقوقها ومنافعها ، لثلاثة أعوام أوّلها كذا . (بكذا وكذا) ، قبالة صحيحة بلا شرط ولاثنيا ولا خيار ، عرفا قدره ومبلغها ، وتبني على ما تقدّم وتمضي إلى التاريخ .

●● - ابن مغيث : المصدر السابق صـ ٢٢٤

قبالـة معاصـر الزيتـون بالزيـت

تقبل فلان بن فلان من فلان بن فلان جميع معصرة زيت الماء أو اليد التى بقرية كذا من إقليم كذا من عمل موضع كذا وحدودها كذا بمنافعها ومرافقها وقصاربها

وأحواضها وبركتها وحقوقها كلها الداخلة فيها والخارجة عنها قبالة صحيحة عرفا قدرها ومبلغها بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار لعام أوله كذا أو لكذا وكذا عاماً أولها كذا بكذا وكذا ربعًا من زيت الكارمت أخضر صاف نقى عذب طيب غاية الطيب زيت الزيتون اللجين أو من زيت اليد الأخضر الطرى الطيب الغاية في الطيب أو من الزيت المطبوخ الصافى الطيب الغاية فى الطيب يؤدى المتقبل جميعها إلى المقبل فلان فى أول شهر كذا أو عند انقضاء المدة المذكورة أو يؤدى أول كل شهر منها كذا وكذا كما يذكر فى تنجيم الذهب والفضة ثم تقول: ونزل فيها قائمة الآلة طاحنة وتبنى [٨٤ ب] على ما تقدم وتجوز قبالة المعاصر بالزيت الموصوف إلى أجل. ●

● - المراكشى : وثائق صــ٤٥٨ -- ٤٥٩

قبـالة المـلّاحة●●

تقبل فلان بن فلان من فلان بن فلان جميـع الأحواض التي بملّاحة قرية كذا من عمل كذا وحدود جميع الأحواض كذا بمنافعها ومرافقهـا الداخلة فيها والخارجة عنها وأفنيتها وسواقيها ونصيبيها من شرب بئر هذه الملّاحة بعد معرفتهما بقدر ما تعاقدا فيه القبالة [المذكورة] ومعرفة الشرب (I) ، قبالة صحيحة بلا شرط ولا ثنيا ولا خيار كذا وكذا شهرا أولها [شهر] كذا ، أو لعام أوله كذا ، بكذا وكذا دينار دراهم ، فإن كان دفعها المتقبل ذكرت ذلك ، وإن كانت منجّمة أو تدفع قبالة كل شهر أو كل عام عند انقضائه ذكرت ذلك ، ثم قلت « وفلان مصدّق في الاقتضاء دون يمين تلزمه في دعوى القضاء ، ونزل المتقبل فلان في الأحواض المحدودة وصــارت بيده » ، فإن كانت القبالة بملح قلت « بكذا وكذا مديا من ملح أبيض حرش طيب ، وهو الغليط ، أو دقيق أبيض نقي طيب غاية [الطيب] بكيل كذا يدفعه المتقبل فلان الى المتقبل فلان عند انقضاء أمد القبالة » ، ثم تكمل الوثيقة على ما تقدم .

●● - ابن العطار : كتاب الوثائق و السجلات صــ١٩٩

المصـــادر والمراجــــــع

أولاً :- المصــــادر

- **ابن الأبار** (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنســـى ت ٦٥٨ هـــ / ١١١٩م)
كتاب الحلة السيراء جزءان تحقيـق د/ حسـين مؤنـس . القـاهرة ســـنه ١٩٦١ط١.
- **ابن أبى دينار** (أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى) ت ١١١٠/ هـــــ / ١٦٩٨ م) : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس - تحقيق محمد الشــــمام ، تونس ســنه ١٩٦٧ طـ٢ .
- **ابن أبى زرع** (أبو الحسن على بن عبد الله كان حيا ٧٢٦ هــ / ١٣٣٥م)
: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب . ومدينة فـاس ، الرباط سنه ١٩٧٣ .
- **ابن الأثير** (أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبـد الكريـم بـن عبـد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ت ٦٣٠ هــ /١٢٣٢م)
: الكامل فى التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقـــاق ، دار الكتـب العلميـة ، بيروت سنه ١٩٩٥ طـ٢ .
- **ابن بســام** (أبو الحسن على بن بسام الشنترينى ت٥٤٢ هــ / ١١٤٧م)
: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القســم الاول ، دار الثقافــة. بـيروت سنــــه ١٩٧٩.
- **ابن بشكوال** (أبو القاسم خلف عبد الملك بن مسعود الأنصارى ت ٥٨٧هــ / ١١٨٣م)
: كتاب الصلة ، قسمان ، المكتبة الأندلســية ، ٤ الـدار المصريـه للتـأليف والترجمة ، القاهرة سنـــه ١٩٦٦ .
- **ابن بلقين** (الأمير عبد الله بن بلقين الزيرى آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة)
: مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى (٤٦٩ - ٤٨٣هــ) المســماة كتاب التبيان ، نشر وتحقيق ليفى بروفنسال سلســـلة ذخــائر العــرب ١٨ ، مصر بدون .
- **ابن حزم** (الإمام أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حـــزم ت ٤٥٦هــــ/ ١٠٦٣ م)
: الرد على ابن النغريله اليهودى ورسائل أخرى ، تحقيق د/ إحسان عبـاس ، دار العروبة ، القاهرة سنه ١٩٦٠م .
- **ابن حوقل** (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبى ت ٣٨٠ هــ / ٩٩٠م)
: صورة الأرض ، دار الكتاب الاسلامى ، القاهرة ، بدون .

- **ابن خرداذبة** (عبيد الله بن عبد الله المعروف ، بـــابن خرداذبـــه ت حوالـــى ٣٠٠ هـ / ٩١٢
: كتاب المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بيروت ، بدون .
- **ابن الخطيب** (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علـــى بـن أحمـد السليمانى ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م)
: كتاب إعمال الإعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملـــوك الإســـلام أو تـــاريخ اسبانيا الاسلامية ، تحقيـــق ليفـــى بروفنســـال ، دار المكشـــوف ، بـــيروت سنه ١٩٥٦ .
-...........: كتاب إعمال الإعلام أو تاريخ المغرب العربى فى العصر الوســـيط تحقيق أحمد مختار العبادى ، ومحمد الكتانى ، الدار البيضاء سنه ١٩٦٤ .
-...........: الإحاطة بأخبار غرناطة ، المجلد الثانى . تحقيـــق محمـــد عبـــد الله عنان مكتبة الخانجى ، القاهرة سنه ١٩٧٤ م .
- **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد بنى جابر بن إبراهيـــم بـــن محمـــد بـــن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ت ٨٠٦ هـ / ١٤٠٦م)
. كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر فى أيام العرب والعجـــم والـــبربر ومـــن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، أجزاء دار الكتب العلميـــة ، بـــيروت ١٩٩٢ط ١
-**ابن رشد** (أبو الوليد محمد بن أحمـــد بـــن أحمـــد بـــن رشـــد القرطبـــى ت ٥٢٠هـ ١١٢٩م)
: فتاوى ابن رشد ، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور المختار بن الطـــاهر التليلـــى ، ثلاث مجلدات ، دار الغرب الإسلامى بيروت سنه ١٩٨٧ ط١ .
- **ابن سلمون** (أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن سلمون الكنانى)
: كتاب العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم مـــــن العقـــود والأحكـــام ، بهامش كتاب تبصرة الحكام لابن فرحون المالكى المطبعة البهيـــه : مصـــر ١٣٠٢هـ
- **ابن سهل** (أبو الأصبغ عيسى بن سهل بـــن عبـــد الله الاســـدى الجيـــانى ت ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م)
: كتاب الأحكام الكبرى المسماة " الإعلام بنـــوازل الأحكـــام " تحقيـــق نقـــدى ودراسة نصوح نجار ، دكتوارة جامعة كمبلوتنسى مدريد ١٩٧٣ سنه ،غـــير منشورة .
- **ابن صاحب الصلاة** (أبو مروان عبد الملك بن محمد بن محمد بـــن ابراهيـــم الباجى ت ٥٩٤هـ / ١١٩٨م)
: تاريخ المن بالإمامة أو تاريخ بلاد المغرب والأندلس فى عـــــهد الموحديـــن ، تحقيق عبد الهادى التازى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه ١٩٨٧ ط٣

- **ابن عبدون** (محمد بن أحمد بن عبدون التجيبى)
: رسالته فى القضاء والحسبة ، ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة سنه ١٩٥٥ .
- **ابن عذارى**(أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشى ت٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م .
: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، الجزءان الأول والثانى ، تحقيق ، ليعى روفنسال وج . س . كولان دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٣ط٣ .
- **ابن العطار** (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن عبيد الله الأموى ت ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩م)
: كتاب الوثائق والسجلات ، تحقيق بدروشالميتا وف - كورينطى ، معهد المو تقين المجريطى ، المعهد الإسبانى العربى للثقافة ، مدريد سنة ١٩٨٣.
- **ابن الفرضى** (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م) .
: تاريخ علماء الأندلس ، المكتبة الأندلسية ،٢،الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة. سنه ١٩٦٦ .
- **ابن القطان** (أبو محمد حسن بن على بن محمد بن عبد الملك الكتامى، منتصف السابع الهجرى) .
:نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، تحقيق محمود على مكى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه ١٩٩٠ط ١ .
- **ابن قيم الجوزيه** (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى المشهور بابن قيم ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠ م)
: زاد المعاد فى هدى خير العباد ، الجزء الخامس ، تحقيق شعيب اللأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط ، بيروت سنه ١٩٨٧ .
- .... : أحكام أهل الذمة ، الجزء الاول ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، الأسكندرية ، بيروت سنه ١٩٩٥ ط١ .
- **ابن مغيث** (أحمد بن مغيث الطليطلى ت ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧م)
: المقنع فى علم الشروط ، تحقيق وتقديم . فرانسيسكو سادابا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربى ، مدريد سنة ١٩٩٤ .
- **ابن منظور**(جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ت ٧١١هـ / ١٣١١م)
: لسان العرب المجلد ١١ ، دار صادر ، بيروت سنة ١٩٥٦ .
- **أبو عبيد** (الحافظ الحجة أبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م)
: كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة سنه ١٩٦٨ ،ط١

- **أبو يوسف** (أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضى فـــى عصـــر الرشــيد)
كتاب الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة سنه١٣٤٦هـ .
- **إدريــس** (الداعى إدريس عماد الدين ت ٨٧٢ هـ / ١٤٨٨م)
: تاريخ الخلفاء الفاطمين بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ، تحقيق محمد اليعلاوى ، دار الغرب الاسلامى بيروت سنه ١٩٨٥ طـ١
- **الإدريسى** (محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسى . مـــن أهل القرن السادس)
: نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق ، مجلدان ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٩٤ هـ .
- **البخــارى** (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م
: متن البخارى بحاشية السندى ، دار إحياء الكتب العربية بدون .
- **البكــرى** (أبوعبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمـــد بـــن أيــوب بـــن مصعب البكرى ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م)
: المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دي سلان الجزائـــر،ســنة ١٩١١م
- **البلاذرى** (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)
: فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، عمر أنيس الطباع ، بيروت سنه ١٩٨٧ م
- **البيذق** (أبو بكر بن على الصنهاجى المكنى بالبيذق كان حيا منتصف القـــرن السادس الهجرى)
: أخبـــار المـــهدى بـــن تومـــرت وبدايـــة دولـــة الموحـــدن ، تحقيـــــق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط سنه ١٩٧١ .
- **الجرسيفى** (عمر بن عثمان الجرسيفى)
: رسالته فى الحسبة ، ضمن ثلاث رسائل فـــى آداب الحســبة والمحتســب تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة سنه ١٩٥٥ .
- **الجوذرى** : (أبو على منصور العزيزى الجوذرى)
: سيرة الاستاذ جوذر ، القاهرة سنه ١٩٥٤ .
- **الحميرى** (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الصنـــهاجى ، عـــاش فى القرن السابع البحرى / الثالث عشر الميلادى)
: الروض المعطار فى خبر الأقطـــار ، تحقيـــق إحســان عبــاس بــيروت ١٩٨٤طـ٢ .
- **الخشــنى** (أبـــو عبـــد الله محمـــد بـــن حـــارث بـــن أســد القـــيروانى ت ٣٦١هـ/ ٩٧١ م)

: أخبار الفقهاء والمحدثين ، دراسة وتحقيق ماريا - ل - آبيلا ولويس مولينا ، المجلس الأعلى للابحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربى ، مدريد سنة ١٩٩٢ .

-........: طبقات علماء أفريقية ، تقديم وتحقيق محمد زينهم عزب ، مكتبة مدبولى ، القاهرة سنه ١٩٩٣ طـ ١ .

- **الشاطبى** (أبو محمد هارون بن أحمد الشاطبى)

: الدر الموضوعة فى المسائل المجموعة ، مخطوط ، المكتبة الوطنية مدريد رقم ٢١٥٧٣ .

- **الشوكانى** (قاضى القضاة محمد بن على بن محمد بن محمد عبد الله الشوكانى الصنعانى ت ١٢٥٥هـ / ١٨٣٤م)

: نيل الأوطار بشرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار ، المجلد الخامس ، مكتبة دار التراث ، القاهرة بدون .

- **الضبى** (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى ت ٥٩٩هـ /١٠٢٣م)

: بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، المكتبة الأندلسية ، دار الكاتب العربى ، القاهرة سنه ١٩٦٧ .

- **العسقلانى** (أحمد بن على بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

: فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، المجلد الخامس ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، دار الفكر ، بدون .

- **الفهرى** (الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد الفهرى ت ٤٦٢هـ / ١٠٦٩ م)

: السفر الثامن من المسائل والوثائق المجموعة من كتب الفقهاء ابن أبى زمنين وابن العطار وابن الهندى وموسى بن أحمد ، مخطوط مدرسة الدراسات العربية مدريد رقم ١١٠

- **المالقى** (أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبى المالقى ت ٤٩٧هـ / ١١٠٣ م)

: الأحكام ، تقديم وتحقيق الصادق الحلوى ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت سنه ١٩٩٢ طـ ١

- **المالكى** (ابو بكر عبد الله بن محمد المالكى المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)

: كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية و زهادهم ونساكهم وسيرمن أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، جزءان تحقيق بشير البكوش ، محمد العمروسى المطوى دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه ١٩٩٤ طـ ٢ .

- **مجهول** : الحلل الموشية فى ذكــــر الأخبـــار المراكشـــية ، الـــدار البيضـــاء سنه ١٩٧٩ .
- **مجهول** : نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوســـطى ، تحقيـــق ليفـــى بروفنسال ، الرباط سنه ١٩٣٤ .
- **مجهول** : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكـــر أمرائـــها - رحمـــهم الله - والحروب الواقعة بينهم ، حقيقه وقدم له ووضع فهارســـه إبراهيـــم الابيـــارى ، القاهرة ، بيروت سنة ١٩٨١ طـــ ١
- **المراكشى** (محيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن على الراكشى ت ٦٤٧هـــــ / ١٢٤٩ م)
: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تقديم وتحقيق محمد زينـــهم عـــزب ، دار الفرجانى ، القاهرة سنه ١٩٩٤ .
-.........: وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق حسين مؤنس ، مكتـــبة الثقافـــة الدينية ، القاهرة سنه ١٩٩٧ طـــ ١ .
- **المقريزى** (تقى الدين ابى العباس أحمـــد علـــى المقريـــزى ت ٨٥٤ هـــــ / ١٤٤١م)
: كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المسمى بالخطط المقريزيـــه ، الجزء الاول ، دار صادر بيروت ، بدون .
- **النسائى** (أحمد بن شعيب النسائى ت ٣٠٣ هـــ / ٩١٥ م)
: سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الديـــن الســـيوطى الجـــزء الســـابع ، دار الحديث ، القاهرة ١٩٨٧ م .
- **النويرى**(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكرى ت٧٣٢ هـــ/١٣٣٦ م)
: نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزء ٢٤ ، تحقيق حسين نصار ، مراجعـــة عبد العزيز الأهوانى ، القاهرة سنه ١٩٨٣ م .
- **الونشريسى** (أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحـــد بنـــى علـــى ت ٦١٤ هـــ / ١٢١٧م
: المعيار المغرب والجامع المغرب فى فتـــاوى علمـــاء أفريقيـــة والأندلـــس والمغرب . أجزاء ، تحقيق مجموعة من الفقهاء تحت إشـــراف الدكتـــور / محمد حجى دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه١٩٨١ م.

ثانيـــا : المراجـــع

- **أحمد محمد الطوخى (دكتور)** : مظاهر الحضارة فى الأندلـــس فـــى عصـــر بنى الاحمر ، الاسكندريه سنه ١٩٩٧م .
- **بروفنسال (ليفى)** : سلسلة محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها، ترجمـــة محمد عبد الهادى شعيره ، مراجعة عبد الحميـــد العبـــادى ، والقـــاهرة ســـنه ١٩٥١ .

: مجموع رسائل موحديه من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنيـــة ، مطبوعــات معــهد العلوم العليا المغربية ، رباط الفتح سنه ١٩٤١ .

- **جروهمان (أدوارد)** : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية الســـفر الثـانى ترجمة حسن ابراهيم حسن ، مراجعة عبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٩٤ طــ ٢ .

- **جورجى زيدان** : تــاريخ التمــدن الإســلامى ، الجــزء الأول ، مراجعــة دكتــور حسين مؤنس ، القاهرة سنه ١٩٨٦ .

- **الحبيب الجنحانى** (دكتور) : دراسات فى التاريخ الاقتصادى و الاجتماعى للمغـرب الإسلامى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت سنه ١٩٨٦ .

- **حسن أحمد محمود** (دكتور) : قيام دولة المرابطين ، صفحة مشــرقة مــن تــاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، دار الفكر العربى ، القاهرة سنه ١٩٩٦ طــ ٢ .

- **حسين مؤنس** (دكتور) : فجر الأندلس ، دراسة فى تاريخ الأندلس منذ الفتح حتــى قيام الإمارة الأموية ٧١١ - ٧٥٦ م القاهرة سنه ١٩٥٩ .

- ....: فتح العرب للمغرب ، مكتبه الثقافه الدينية ، القاهرة بدون .

- **زينب عصمت راشد** (دكتور) : تاريخ أوربا فى العصر الحديــث ، القــرن التاســع عشر ، دار الفكر العربى القاهرة بدون .

- **صلاح أحمد عيد** (دكتور) : موالى بنى أمية فى الأندلس وأثرهم فى الحياة السياســية والاقتصادية والاجتماعية ١٣٨ - ٣٦٦ هــ / ٧٥٦ -٩٧٦ م ، ماجستير آداب المنيـا سنه ١٩٩١ ، غير منشورة

- ....: عامة قرطبة منذ بداية الفتنة حتى نهاية عهد المرابطين ٣٩٩ - ٥٤٣هــــــ / ١٠٠٩ - ١١٤٨م ، دكتوراه آداب المنيا سنه ١٩٩٦ غير منشوره .

- **عبد العزيز الثعالبى** : تاريخ شمال أفريقيا من الفتح الإسلامى إلــــى نهايــة الدولــة الأغلبية جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس مراجعــــة حمــادى الســاحلى ، بيروت سنة ١٩٨٧ .

- **عز الدين أحمد موسى** (دكتور) : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى خـــلال القرن السادس الهجرى ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ١٩٨٣ طــ ١ .

- **قطب محمد ابراهيم** : السياسة المالية لعمـــر بــن عبــد العزيــز ، القــاهرة ســنه ١٩٨٨ م .

- **كمال السيد أبو مصطفى** (دكتور) : الأحباس فى الأندلس ضمن بحوث فى تـــاريخ وحضارة الأندلس فى العصر الإسلامى ، الاسكندرية سنه ١٩٩٣ م .

- **محمد ضياء الدين الريس** (دكتور) : الخراج والنظم الماليــه للدولــة الاســلامية ، القاهرة سنه ١٩٧٧ ، طــ ٤ .

- **محمد الطالبى** : الدولة الأغلبية ، التــاريخ السياســى ١٨٤ - ٢٩٦ هـــ / ٨٠٠ - ٩٠٩م . تعريب المنجى الصيادى ، مراجعة حمادى الساحلى دار الغرب الاســلامى سنه ١٩٩٥ طــ ٢ .

- **محمد عبد الوهاب خلاف** (دكتور) : وثائق فى شئون الحسبة فى الأندلس مستخرجه من مخطوط الأحكام لابن سهل ، مراجعة د / محمود على مكى م . مصطفى كامل إسماعيل . القاهرة سنه ١٩٨٥ طـ ١ .
- ....: وثيقة فى إغتصاب أبن السقاء قيم دوله ابن جهور لأموال بيت مال المسلمين مستخرجة من مخطوط الاحكام الكبرى للقاضى أبى الاصبغ عيسى بن سهل الأسدى الأندلسى . مجلة أوراق . العدد الخامس والسادس مدرية ١٩٨٢ - ١٩٨٣ .
- ....: خطة الأحباس فى الأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة العدد ٥٣ لسنه ١٩٩٢ ، الخاص بالحضارة الأندلسية .
- **محمد عبد الله عنان** : دولة الإسلام فى الاندلس ، العصر الثالث ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، القسم الاول ، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية ، القاهرة سنه ١٩٩٠ طـ ٢ .
- **محمد عيسى الحريرى** (دكتور) : تاريخ المغرب الإسلامى والأندلس فى العصر المرينى . دار القلم ، الكويت سنه ١٩٨٧ طـ ٢ .
- **مراجع عقيله الغناى** (دكتور) : قيام دولة الموحدين ، بنغازى سنه ١٩٨٨
- **هشام سليم أبو رميله** (دكتور) : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدولة الاسلامية فى الأندلس ، عمان الأردن سنه ١٩٨٤ طـ١
- **هوبكنز (ج - ف - ب)** "دكتور" : النظم الاسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ، نقله عن الانجليزية دكتور أمين توفيق الطيبى ، ليبيا ، تونس سنه ١٩٨٠ م .
- **يعقوب أرتين** : الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية ، تعريب سعيد عمون ، المطبعه الاميرية بولاق سنه ١٣٠٦ هـ .

- **Chalmeta (pedro)** : El señor del zoco en España , Edad Media Y Moderna instituto Hispano- Arabe de cultura Madrid 1973 .
- **Codera (D. Francisco)**: Decadencia y Desaparicion de los Almoravidés en España , Zaragoza . 1899 .
- **Dozy (R) :** supplement aux Dicionares Arabes tome 2 , Beuroute 1963 .
- **Dozy et Engelman (w- H)** : Glassaire des mots Espagnols et Porugais . derives l' Arabe . Beirute 1974
- **El Azemmori (Thami)** : Les Nawzel de Ibn sahl section Relative Al Ehtsab , in Hespris tomada , vol xiv 1973 .
- **Guichard (pierre)** : Al Andalus,Esturctura Antropologica de una sociedad Islamica en accidente , Barcelona , 1973
- **Hernandez (Miguel Cruz)** : El Eslam de Al Andalus .

Historia y Estructura de su realidad social, Madrid , 1992
- **Ibn Marzuq :** El mus nad,Hechos memorables de Abu l-Hasan -, sultan de los Beni Marians , Estudio , Traduccion , Anotacion , Indices, Anotados , por Maria . j . Viguera . Madrid 1977 .,
- **Provençal (live) :** España Musulmana Hasta la Caida del califato de Córdoba (711 – 1031j . c) Traduccion Por E.G Gomez en Historia de España , Dirigida por R.M Pidal , Tercera parte , instituciones y cultura . Madrid 1950
- **Rachel Arié :** España Musulmana siglos VIII- XV vol III en Historia la Espana , dirigida por Manuel Tunón de Lara , Madrid , 1993 .

ابن ظفر الصقلى ومكانته العلمية

د. على محمد سعيد الزهرانى(*)

يتطلب البحث فى مجال الحياة العملية لشخص ما من أعلام الحضارة الإسلامية جهدا خاصا وبحثا مضنيا فى بطون الكتب ، وخاصة كتب السير والتراجم والأعلام. ومع ذلك فان هذا النوع من الدراسات ممتع وشيق لان البحث فى تاريخ العلوم عند المسلمين يدخل على النفس الاعتزاز بمآثر أولئك العلماء الأفذاذ الذين أبدعوا في كل مجال وأصبحوا مشاعل تنير الطريق للبشرية جمعاء. هذا فضلا عما فى هذا النوع من الدراسات من شحذ للهمم لإبراز دور المسلمين فى النهوض بمستوى الحضارة البشرية مما عاد بالنفع على مختلف الأمم والشعوب .

وفى هذه الدراسة نتعرض لأحد أولئك الأعلام الكبار الذين كان لهم أكبر الأثر فى تاريخ الحضارة الإسلامية بما قدمه من مؤلفات عظام ، فى شتى المجالات ونقصد بهذا العلم ابن ظفر الصقلى[1] وهو عالم طويل الباع ، متنوع الثقافة ، ومع ذلك فانه لم يحظ بانتباه الباحثين – فيما أعلم – اللهم إلا ببعض البحوث عن منهجه فى التفسير ، ومن ذلك كتابه " سلوان المطاع فى عدوان الأتباع)[2] .

وقد بدأت هذه الدراسة بالحديث المختصر عن العصر الذى عاش فيه ابن ظفر الصقلى من الناحيتين السياسية والعلمية ، وأعقبت ذلك بالحديث عن اسمه وكنيته ولقبه ومولده ونشأته .

ثم تحدثت بعد ذلك عن رحلاته وتنوع مصادر ثقافته . وأعقبت ذلك بالحديث عن صفاته وثناء العلماء عليه . وبعد ذلك كان الحديث عن تلاميذه ومذهبه .

(*) أستاذ مساعد ورئيس قسم الحضارة والنظم الإسلامية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة .

وعندما انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن مؤلفاته أوضحت ما هو موجود منها وما هو مفقود ، مع ذكر نماذج من بعضها ليتعرف القارىء على بعض ما تتضمنه تلك المؤلفات •

وأخيرا ذكرت بعضا من شعر ابن ظفر الصقلى ، ثم ختمت هذه الدراسة بالحديث عن وفاته ، فقائمة المصادر والمراجع .

الحالة السياسية فى عهده :

عاش ابن ظفر الصقلى فيما بين سنتيى ٤٩٧هـ/١١٠٣م - ٥٦٥هـ/١١٩٦م . وقد ولد فى صقلية حسب قول أكثر المترجمين له - كما سيتضح ذلك لاحقا - وكانت صقلية فى هذه الفترة خاضعة للنورمان [٣] • الذين استطاعوا إخراج المسلمين منها بعد فترة من الصراع والفوضى •

وكانت بداية حكم النورمان الفعلى لجزيرة صقلية فى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م• حيث بسط الملك روجر النورمندى نفوذه على جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع من بقى من المسلمين [٤] •

أما عن دولة الخلافة (الدولة العباسية) فقد كانت عندئذ فى حالة ضعف مكن السلاطين السلاجقة[٥] من السيطرة على خلفائها ، بل وصل بهم الأمر بعد أن أصبحوا أكبر قوة عسكرية فى المشرق الإسلامى إلى أسر خليفة عباسى [٦] وخلع آخر [٧]، وخضعت لهم البلاد واتسعت رقعة دولتهم إلى أن توفى السلطان مسعود[٨]، و بوفاته لم تقم لهم قائمة بعد ذلك •

وقد حاول الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله[٩] أن يعيد مركز الخليفة وهيبته• ونجح بتأييد ومساعدة وزيره عون الدين يحيى بن هبيره [١٠]والتفاف العامة حوله، فى حكم العراق من أقصى الكوفة إلى حلوان ومن حد تكريت إلى عبادان[١١].

وكان ذلك فى الفترة التى ضعف سلطان الدولة الفاطمية ، المتمركزة فى مصر ، حيث تمكن الأيوبيون من إسقاطها[١٢] .

أما فى المغرب الإسلامى فقد تمكن الموحدون من إسقاط دولة المرابطين سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧ م [١٣] .

ولم يسلم العالم الإسلامى فى تلك الفترة من الحروب والمناوشات مع الإفرنج، حيث كان الإفرنج يستغلون فترات الصراع والانقسام فى العالم الإسلامى فيغيرون عليه . وقد تركزت هجمات الإفرنج على بلاد الشام والأندلس وإفريقية ، حتى تمكنوا من الاستيلاء على مدينة المهدية[١٤] سنة ٥٣٤هـ / ١١٤٨ م.[١٥] وكان ذلك السقوط سببا من أسباب خروج ابن ظفر الصقلى منها إلى الأندلس كما سيأتى بيانه لاحقا.

أما عن الحياة العلمية فى عصره :

وقد سبق أن ذكرنا أن ابن ظفر ولد سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣م. فى صقلية التى كانت عندئذ خاضعة للحكم النورمندى . وهنا نلاحظ أن الحضارة الإسلامية ظلت نشطة فى جزيرة صقلية ، تحت حكم النورمان ، كما استمرت اللغة العربية تشارك غيرها من اللغات كاليونانية واللاتينية فى الحياة اليومية ، وفى الدراسات العلمية ، حتى أن بلاط حكام صقلية النورمان كان يعج بالمتكلمين بالعربية ، من علماء ووزراء وخاصة وغيرهم . بل زاد الأمر على ذلك أن بعض الحكام النورمان كانوا يتكلمون العربية ويصدرون بها مراسيمهم[١٦] .

بل لقد اختص البلاط النورمندى بعضا من مشاهير العلماء المسلمين فى محاولات شتى[١٧] . وكانت الحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الازدهار والاتساع . ففى المغرب والأندلس اهتم المرابطون والموحدون بالعلم والعلماء ، وشجعوا كل ما من شأنه رفعة العلم وأهله . يقول المراكشى عن على بن يوسف [١٨]. " اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما "[١٩] .

أما مؤسس دولة الموحدين ابن تومرت[٢٠] ، فقد كان من أعيان علماء عصره، وهو القائل عن العلم " أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكسب ، وانفس ما

يدخر ، وأحسن ما يعمل به : العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وانفس الذخائر ، وأحسن الأعمال " (٢١) .

هذا بينما كان السلاجقة فى الشرق قد أدركوا أن العلم هو سياج الدولة وعمادها ، وان العلماء هم مشاعل الحضارة ورواد الأمة ، فعملوا على تشجيع العلوم ، وبنوا المدارس والخوانق والربط لطلاب العلم ، وأكرموا العلماء ، وأحسنوا وفادتهم(٢٢) .

ولهذا فقد كانت قصور السلاطين ومجالسهم عامرة بعلماء الدين والشعراء والأدباء ورواد العلم والمعرفة (٢٣) كما حرص سلاطين السلاجقة على ارتباط الحكماء والأطباء بهم ، وانقطاعهم إلى قصورهم(٢٤) .

أما الفاطميون فقد اتخذوا من قصورهم مجالس للعلماء ، وأكثروا من تنظيم الدروس لإقناع الناس بدعوتهم ، وشرح قواعد مذهبهم وبنوا دور العلم ، وشيدوا المكتبات ، ليجعلوا من القاهرة وهى عاصمة دولتهم ، مركزا علميا ينافس عاصمة الخلافة العباسية فى بغداد(٢٥) .

اسمه ونسبه وكنيته ومولده :

ترجم لابن ظفر الصقلى عدد كبير من المؤرخين ، وكتاب السير، والمعاجم ، حيث كان نشاطه الفكرى ، وتنقلاته بين أقطار الدولة الإسلامية شرقا ، وغربا محل اهتمام الرحالة ، واللغويين ، والنحاة ، والفلاسفة ، وجميع المهتمين بأدب المراسم ، والمواعظ ، والوصايا ، والحكم ، والأمثال .

وقد ذكر المترجمون له أن اسمه : محمد بن أبى محمد ، وقيل : اسم أبيه محمد وقيل : عبد الله بن محمد بن ظفر . ويكنى بأبى عبد الله ، وأبى جعفر ، وأبى هاشم ، ويلقب بحجة الدين ، وحجة الإسلام وبرهان الدين (٢٦).

رحلاته وتنوع مصادر ثقافته :

مال ابن ظفر منذ سنى عمره الأولى إلى حب الأسفار ولقاء العلماء والشيوخ، فكان لكثرة أسفاره فى البلدان أثره الواضح على تنوع مصادر ثقافته ، حيث تنوعت مناهلها ، وبدا ذلك واضحا فى كثرة مؤلفاته وتعدد موضوعاتها .

وكانت الرحلة فى طلب العلم فى ذلك العصر هى الدافع الأول لكثرة الأسفار، فيترك الطالب بلدته بعد أن يحصل ما لدى علمائها ، ويتوجه إلى مراكز العلم المنتشرة فى انحاء العالم الإسلامى ، ويكابد مشاق السفر وأخطاره ، وربما قطع الواحد منهم آلاف الأميال لمجرد قراءة كتاب واحد ، أو لسماع حديث واحد[٢٧] .

ويقرر ابن خلدون فى مقدمته أهمية الرحلة فى طلب العلم ، وانه لابد منها لاكتساب الفوائد ، والكمال بلقاء الشيوخ ، فيقول : (الرحلة فى طلب العلم ، ولقاء المشيخة ، مزيد كمال فى التعليم)[٢٨] .

وكان ابن ظفر الصقلى أحد أبناء صقلية الإسلامية ، الذين جالوا فى البلدان طلباً للعلم ، وقد تحدثت المصادر عن أسفاره ورحلاته ، فذكرت انه سافر إلى مكة المكرمة ، وبها بدأ تعليمه ، إذ يذكر ابن خلكان أن نشأته كانت بمكة [٢٩] وبها بدأ تعليمه[٣٠] ثم بعد ذلك رحل ابن ظفر إلى مصر ، وفيها كان اللقاء بعلمائها وشيوخها، وعلى رأسهم العلامة أبو الطاهر السلفى[٣١] . الذى كان مقصد الكثير ممن وفدوا على مصر ، حيث كانت المدرسة المسماة باسمه ، مركزاً ثقافياً لتبادل الأفكار والمعلومات ، وللسماع ومنح الإجازات ، ولابد أن يكون ابن ظفر قد استفاد من اللقاء بأبى الطاهر وان يكون أحد العلماء الذين ترددوا على مدرسته أثناء فترة إقامته بمصر ، ومن هؤلاء العلماء المشهورين الذين التقى بهم فى مصر ، أبو بكر الطرطوشى[٣٢] . المعروف بابن رندقة ، وقد التقى به ابن ظفر بالإسكندرية . وقد استفاد ابن ظفر من كتابات وتعليقات الطرطوشى فى كتابه (سراج الملوك) ، وانتفع بها ونقل منها فى كتابه (سلوان المطاع) .

ولا نستطيع أن نحدد الفترة الزمنية التى قضاها ابن ظفر فى مصر ، حيث سكتت المصادر عن ذلك ، فلم تشر إلى تاريخ دخوله مصر ، أو خروجه منها ، وانما ذكرت انه سافر من مصر إلى المغرب، وأقام بالمهدية ، إلى أن استولى عليها الإفرنج النورمان من المسلمين سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م[٣٣] .

ومهما يكن من أمر ، فان إقامة ابن ظفر الصقلي في المغرب ليست محـــددة تحديدا دقيقا في المصادر وكل ما أكدته المصادر انه خرج من المغرب بعد ســـقوط المهدية وكان قد جاوز منتصف العقد الخامس من عمره ، وبالتـــالي فـــان تكوينـــه الثقافي قد اكتمل ، وأصبح له شخصيته الثقافية التي تمكنه من التأليف وتجعل لـــه شهرة واسعة عند القادة والحكام وفي أوساط المثقفين وطلبة العلم . ولكن ذلـــك لـــم يكن على الدوام في المغرب فسقوط المهدية ، جعله يخرج كما خـــرج غـــيره مـــن العلماء وطلاب العلم منها .

وكان أن توجه ابن ظفر إلى الأندلس[٣٤] التي كانت زاخرة بالعلماء والأدبـــاء فكان اللقاء بها مع الشيوخ الأفذاذ ، حيث استفاد ابن ظفر منهم وأفاد .

ومن أشهر أولئك الذين التقى بهم ابن ظفر في الأندلس ، ابـــن العربـــي[٣٥] ، وهو أحد علماء القراءات والتفسير وقد استفاد ابن ظفر من علمه ونقل عنـــه كمـــا نص على ذلك ابن ظفر في كتابه (ينبوع الحياة)[٣٦]وهو كتاب في التفسير ، والـــذي يظهر لنا انه على الرغم من قصر المدة التي مكثها ابن ظفر في الأندلس قبل وفـــاة ابن العربي فان اللقاءات بينهما كانت مثمرة بدليل ما تضمنه كتاب (ينبوع الحيـــاة) من نقولات مباشرة عن ابن العربي[٣٧] .

كذلك التقى ابن ظفر في الأندلس بعالمها ، ابن الدباغ[٣٨]واستمع إليه ، وأخـــذ منه ، وخاصة في المجال الذي برز فيه ابن الدباغ ، حيث كان عالما بـــالحديث ، وأسماء الرجال وأزمانهم وثقاتهم وضعفائهم ، وأعمارهم وآثارهم[٣٩] .

وفي الأندلس التقى ابن ظفر بعلامة الأندلس في الحديث والفقه والأدب ، ابـــن مسرة القرطبي[٤٠]، وأخذ عنه ، واستفاد منه[٤١] .

وهكذا أضاف ابن ظفر إلى علمه وثقافته شيئا من ثقافة علماء أهل الأندلـــس، وخاصة أولئك المشاهير في فنون شتى ، ولا أظن أن ابن ظفر اقتصر فـــي لقائـــه بعلماء الأندلس على ما أشرنا إليه آنفاً ، وإنما أولئك هـــم الذيـــن أشـــارت إليـــهم المصادر ، وقد تكون سكتت عن آخرين ، ولم تتعرض لهم .

وبعد الأندلس ، عاد ابن ظفر إلى مسقط رأسه (صقلية) وفيها زاول نشاطه الفكرى فى البحث والدروس والتأليف ، حيث أخرج بعض مؤلفاته بها مثل (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) وكتاب (أساليب الغاية فى أحكام آيه)[٤٢] ، وهذا ما سوف نفصل الحديث عند حديثنا عن مؤلفاته لاحقاً .

ولم يستقر الحال بابن ظفر فى بلده صقلية ، فتركها ورحل إلى الشرق ، حيث استقر فترة من الزمن فى بغداد ، ثم غادرها إلى دمشق [٤٣]، وقد انفرد الفاسى فى العقد الثمين بذكر خبر دخوله إلى بغداد ودمشق ولم يذكر ذلك أحد غيره ممن ترجم لابن ظفر [٤٤] .

ثم بعد ذلك كله وجد ابن ظفر بغيته فى حلب ، حيث استقر بها فترة من الزمن[٤٥] ، أخرج فيها بعض مؤلفاته ، وأهمها كتابه فى تفسير القران الكريم (ينبوع الحياة) [٤٦]والذى سنتحدث عنه لاحقاً .

ولعل أهم ما يميز إقامة ابن ظفر فى حلب ، انه اتخذ من مدرسة ابن أبى عصرون[٤٧] مقرّا له للتدريس ، واللقاء بالشيوخ وطلاب العلم[٤٨] فكان نتيجة ذلك أن أخرج بعض مؤلفاته ، بحلب كما سبق وان أشرنا إلى ذلك آنفاً .

وقد تأثر ابن ظفر ، كما تأثر غيره من العلماء والشيوخ وطلاب العلم ، بالفتنة التى حدثت فى حلب بين أهل السنة والشيعة[٤٩] . ونهبت كتبه فيما نهب ، وفقد بذلك بعضاً من مؤلفاته ، فآثر الرحيل من حلب واتجه إلى حماه وفيها ظل بقية حياته ، حيث أجرى له فيها راتب حكومى ، فعاش عيشة الزهاد فقيراً ، ومع ضيق الحال فقد كتب بقية مؤلفاته بها[٥٠] .

صفاته وثناء العلماء عليه :

وبناءاً على نشأة ابن ظفر ، ورحلاته ، ومؤلفاته الكثيرة فى شتى المجالات ، ولقائه بالعلماء والشيوخ وطلاب العلم ، أثنت عليه المصادر ووصفته بالزهد والورع ، والتقلل من متاع الدنيا ، وأشادت بذكائه وسرعة بديهته ، وتحمله للمشاق

فى سبيل العلم ، كما تحدثت عن صلاحه وتقواه ، ومكانته لدى طلاب العلم ومـــدى إقبالهم عليه فى أى مكان يحل فيه ، ولم تذكره بسوء فلم تطعن فى دينه ، ولم تقــدح فى عدالته ، فهذا أسامه بن منقذ التقى به ونقل عنه ووصفه بأنه : (كان من خيـــار المسلمين فى دينه وعلمه)[٥١] أما العماد الأصفهانى فقد قال عنه : (كان إمام وقتـــه فى التفسير والأدب)[٥٢] ووصفه ياقوت بـــ(النحوى اللغوى الأديب)[٥٣] . وقـــال عنه القفطى انه : (يلقب بالحجة)[٥٤] ، وذكر ابن خلكان انه ينعت (بحجة الديــن) وانه (أحد الأدباء الفضلاء)[٥٥] ، أما الذهبى فقد وصفه بـــ (العلامـــة البـارع ، حجة الدين)[٥٦] وقال عنه الصفدى انه (أحد الأدباء الفضلاء)[٥٧] .

ووصفه الفاسى بأنه (مشهور بالعلم والخير والعبـــادة)[٥٨] . وانـــه اشـــتهر بتذكيره للناس فى المساجد حيث كان يلقى فيهم الخطب والمواعظ[٥٩] أما ابن حجـــر فقد وصفه بـــ (الأديب المشهور)[٦٠] . أما السيوطى فقد ذكر انه كان : (صالحـــاً ورعاً زاهداً مشتغلاً بما يعنيه)[٦١] .

تلاميذه :

لابد أن يكون لابن ظفر الصقلى تلاميذ كثيرون ، وذلك لكثرة أســـفاره فـــى البلدان ، فمنهم من أخذ عنه وانتفع بعلمه بطريقة مباشرة عن طريـــق اللقـــاء بـــه والدرس عليه ، أو بطريقة غير مباشرة عبر مؤلفاته. والمصادر لم تذكر كثيراً عـــن تلاميذه ، ولعل ذلك يعود إلى عدم وصوله إلى شهرة أقرانه الذيـــن عاشـــوا فـــى عصره كأبى الطاهر السلفى ، وابن أبى عصرون . ومع ذلك فان ما سنذكره مـــن تلاميذه ليدل دلالة واضحة على مكانته المرموقة ، كما أننا سنشير لاحقاً عند حديثنـا عن مؤلفاته إلي العلماء الذين استفادوا من مؤلفاته ونقلوا عنها ، وهذا بدوره يؤكـــد لنا مدى المكانة العلمية المرموقة لابن ظفر الصقلى .

فمن تلاميذه :

(١) أبو المواهب ، الإمام الحافظ الحسن بن هبة الله بن محفـــوظ ، الربعـــى التغلبى ، من الملازمين للحافظ ابن عساكر ، رحل فى البلدان وجمع معجم شـــيوخه

فى ستة عشر جزءاً ، ومن مؤلفاته (فضائل الصحابة) و (عوالي ابـــن عيينـــه) و(فضائل القدس) و(رباعيات التابعين) . وقد التقى بابن ظفر بحماه، وسمع منـــه وتوفى سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م[٦٢] .

(٢) القاضى أبو المحاسن عمر بن على القرشى ، الزبيرى الدمشقى ، وهـــو فقيه حافظ ، له رحلة فى البلدان لطلب العلم ، التقى بابن ظفر الصقلى وسمع منـــه وأخذ عنه ، وتوفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م[٦٣] .

(٣) أبو البركات محمد بن على بن محمد الانصارى الشافعى ، تولى القضـاء بأسيوط زيادة على عشرين سنة ، وبحماه مده ثمان سنين ، ألـــف كتابــاً ســماه : (عيون الأخبار وغرر الحكايات والأشعار) وجمع أربعين حديثا عن أربعين شـــيخاً فى أربعين مدينة ، وخرج معجم النساء [٦٤] .

التقى بابن ظفر وسمع منه ، وقرأ عليه وبتلاوة منه مباشرة سنة ٥٦٥ هـــ / ١١٦٩ م٠ كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع)[٦٥] . وكانت وفاته ســنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م[٦٦] .

(٤) القاضى الأمين ، شرف الدين ، عز القضاه ، أبو الرضـــا محمـــد بـــن سليمان بن الحسن ، وقد ذكر فى مقدمة كتاب (سلوان المطاع) انه ممـــن التقـــى بابن ظفر وأخذ عنه كتاب (سلوان المطاع) [٦٧].

(٥) الحسن بن عبد الرحيم بن أحمد بن مجـــون ، الشـــريف ، أبـــو محمـــد القناوى، المالكى ، اشتهر بحسن الخط وجماله ، فكتب كثيراً من كتـــب الأدب مـــن بينها كتاب ابن ظفر ، (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) [٦٨].

(٦) ابن قدامه ، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه المقدســـى ، ولد بجماعيل من أرض فلسطين سنة ٥٤١هـــ / ١١٥٦ م وسافر فى البلدان لطلـــب العلم ولقاء الشيوخ[٦٩] . فالتقى بابن ظفر وسمع منه [٧٠].

وهو صاحب كتاب (المغنى) وكتاب (الكافى) و (المقنــع) و (روضــة الناظر) وتوفى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م[٧١] .

هؤلاء هم بعض تلاميذ ابن ظفر ، وليسوا جميعهم لان شخصية علمية بحجـم ابن ظفر الصقلي لابد وان يكون له تلاميذ وأتباع كثيرون ، ولكن المصادر لم تشـر إليهم • أو أنها أشارت إلى أكثرهم ، ولكن فيما اطلعت عليه من مصادر لـم أجـد غير هؤلاء •

مذهبه :

ابن ظفر الصقلي مالكى المذهب ، حيث ورد اسمه ضمن الجزء الثالث فــى أوزاع المسالك لتعريف أصحاب مالك ، أما أبو الحسن القطيعى فــى ذيـل تــاريخ بغداد ، فقد ذكر انه درس الفقه الشافعي . ويذكر الفاسى انه جمـع بيـن الأمريـن وبالتالي تنتفى المعارضة[٧٢] .

ولعل الذى يؤكد ذلك انه يعرض فى كتابــه (ينبـوع الحيـاة) آراء الإمـام الشافعي وأقواله جنباً إلى جنب مع آراء الإمام مالك فى تفسـيره ، وخاصـة عنـد حديثه عن آيات الأحكام [٧٣] .

مؤلفاته :

يحتل ابن ظفر الصقلي موقعاً مرموقاً بين أقرانه من العلماء والشيوخ وذلــك يرجع إلى علمه وسعة اطلاعه وكثرة مؤلفاته وتنوعها حيث شملت كثيراً من الفنون فى التفسير والتوحيد والفقه واللغة والأدب والوعظ والتذكير وغير ذلك مــن فنــون التأليف •

وقبل أن نستعرض مؤلفات ابن ظفر الصقلي فانه يجدر بنا أن نشير إلى مــا ذكر من وصف لمؤلفاته عند من ترجم له :

فقد قال العماد الأصفهاني عن مؤلفاته : (وله التصانيف الحسنة ، والمجموعات المدونة) .[٧٤]

وقال عنه أيضاً : (كان شخصاً عزيزاً وقد برز في العلوم على علماء عصره تبريزاً) .[٧٥]

وامتدح القفطي مؤلفات ابن ظفر قائلاً : (وصنف التصانيف الجميلة في أنواع الآداب) .[٧٦]

كما وصف ابن خلكان مؤلفاته بأنها : (تصانيف ممتعة)[٧٧] . كما قال:(بأنها تواليف ظريفة مليحة)[٧٨] .

وفيما يلي قائمة بمؤلفات ابن ظفر التي أشارت إليها المصادر والمراجع .

١ - كتاب في تفسير القرآن الكريم عرف باسم (ينبوع الحياة) وقد ذكرته جميع مصادر ترجمته[٧٩]، قال عنه القفطي ممتدحاً : (وفسر القرآن تفسيرا جميلا في مصنف سماه (الينبوع)[٨٠] أما ابن حجر فقد قال عن (ينبوع الحياة) بعد أن نسبه إلى مؤلفه ابن ظفر : (وأورد فيه أحاديث فيها تحريف وزيادة فكأنه يذكر من حفظه)[٨١].

وقد قام أحد الباحثين في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بدراسة منهج ابن ظفر في التفسير من خلال كتابة (الينبوع) . كما أشرنا إلى ذلك سابقاً .[٨٢] والكتاب يتكون من عدة أجزاء خطية متفرقة في خزانات الكتب في دول العالم[٨٣].

كما انه يوجد من هذا الكتاب أجزاء متفرقة بالمكتبة الآصفية بالهند وذلك تحت رقم (٤٩١) تفسير[٨٤].

أما عن أهم مميزات تفسير ابن ظفر[٨٥] فهي كثيرة منها انه يجمع الكلام عن القراءات في المقطع الذي يريد تفسيره في مكان واحد قبل أن يشرع في التفسير،

مع نسبة كل قراءة إلى راويها ، وتوجيه بعضها إذا دعت الضرورة إلى ذلـــك ، وهذه الميزة قل من يشاركه فيها ٠

كما أن ابن ظفر فى تفسيره قد أهتم بالتفسير بالمأثور وأكثر منـــه ، وقدمـــه على غيره ، واستخدمه للكشف عن معانى المفردات وتوضيح الآيات ٠

ومن مميزات هذا الكتاب أيضاً انه اشتمل على الكثير من الأحاديث النبويـــة حيث يعتمد عليها عند تقديم قول على قول ٠

واشتمل الكتاب أيضاً على عرض بعض علـــوم القـــرآن كأســـباب الـــنزول والناسخ والمنسوخ ، والمكى والمدنى ، واعتنى ابن ظفر فى كتابه بآيات الأحكـــام ، وذكر ما يستنبط منها ، وبيان أدلتها من الكتاب والسنة ، وذكر أقوال الفقـــهاء فـــى ذلك وأدلتهم ٠

كما اهتم باللغة فذكر معانى المفردات واستعمالاتها ، مستدلاً على ذلك بـأقوال علماء اللغة وبالشواهد الشعرية ٠ كما انه يذكر بعض الأوجه الإعرابية التى لابـــد منها لبيان معانى الآية ٠

وابن ظفر فى كتابه الينبوع نجد انه يعزو الأقوال إلى أصحابها . سواء فـــى مجال التفسير أو الحديث ، أو الفقه ، أو الأحكام ، أو القصص والأخبار ٠

وكتاب بأهمية كتاب ابن ظفر لابد وان يكون له تأثير فى العلماء مـــن بعـــده حيث ينقلون منه ويعتمدون عليه ، وسوف نورد هنا مثـــالين لذلـــك ، فنجـــد أن الزركشى(٨٦) فى كتابه : (البرهان فى علوم القرآن) ينقل عن ابن ظفر من كتابـــه: (الينبوع) ٠

كما أن ابن حجر العسقلانى قد أكثر من النقل من كتاب ابن ظفر ، وضمـــن ذلك كتابه (العجاب فى بيان الأسباب) (٨٧) .

٢- كتاب أساليب الغاية فى أحكام آية[٨٨] ، وهو كتاب مفقود أشارت إليه أغلب مصادر ترجمته ، وتحدثت عنه مؤلفاته فى كتابه (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) قائلا عنه : (وهو كتاب ضمنته أحد عشر أسلوبا تفضى بسالكها إلى العلم بالظاهر المستنبط من قول الله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق)[٨٩] .

٣- كتاب (إكسير كيمياء التفسير)[٩٠] . وهو كتاب مفقود لا نعرف عنه إلا اسمه من خلال ما ذكرته بعض مصادر ترجمته .

٤- (فوائد الوحى الموجز إلى فرائد الوحى المعجز)[٩١] ، وهو كتاب مفقود، وقد أشار إليه مؤلفه فى كتابه (ينبوع الحياة) فى التفسير ، ويتبين من ذلك انه كتاب قد ذكر فيه كلاماً عن أسماء الله وصفاته حيث نجد أن ابن ظفر عند تفسيره لقول الله تعالي (وربك الغنى ذو الرحمة)[٩٢] قال : (وذو الرحمة : اسم من أسمائه الحسنى وكذلك ذو الجلال ، ذو الفضل ، و ذو المعارج ، و ذو الطول ، و ذو العرش ، ولم يختلف عربيان فى أن الأذواء أسماء . وقد بينت هذا فى الكتاب المسمى : (فوائد الوحى)[٩٣] .

كما ذكر فى موضع آخر من تفسيره اختلاف العلماء فى لفظ الجلالة : هل هو مشتق أم لا ؟ . ثم قال : (وقد بينت هذا وغيره فى الوحى الموجز)[٩٤] .

٥- كتاب (البرهانية فى شرح الأسماء الحسنى)[٩٥] وهو كتاب مفقود .

٦- (أرجوزة فى الفرائض والولاء)[٩٦] . وهى مفقودة أيضاً .

٧- (الجنة فى اعتقاد أهل السنة)[٩٧] . وهو كتاب مفقود .

٨- (التشحين فى أصول الدين)[٩٨] . وهو مفقود .

٩- (الخوذ الواقية والعوذ الراقية) وهو كتاب فى الوعظ والإرشاد[٩٩] وهو مفقود.

١٠ - (العادات) وهو كتاب فى الاعتقاد[١٠٠] . وهو مفقود .

١١- (كشف الكشف فى نقض الكتاب المسمى بالكشف)[١٠١] . مفقود أيضاً ،

١٢- (مالك الأذكار فى مسالك الأفكار)[١٠٢] .

١٣- (المنشيء فى الفقه) على مذهب الإمام مالك رحمه الله[١٠٣] . وهو مفقود ،

١٤- (نصائح الذكرى)[١٠٤] وهو كتاب فى الوعظ وقد نقل عنه القرطبى[١٠٥] فى كتابه (التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة)، ومن ذلك قوله فى باب (ما جاء أن الميت يحضر الشيطان عند موته ، وجلساؤه فى الدنيا وما يخاف من سوء الخاتمة)، فقال : (حكى ابن ظفر فى كتاب النصائح له قال : يونس ابن عبيد رحمه الله تعالي بزازاً ، وكان لا يبيع فى طرفى النهار ، ولا فى يوم غيم ، فأخذ يوماً ميزانه فرضه بين حجرين فقيل له : هلا أعطيته الصانع فأصلح فساده؟ فقال : لو علمت فيه فساداً لم أبقيت من مالي قوت ليلة ، قيل له : فلم كسرته ؟ قال حضرت الساعة رجلاً احتضر ، فقلت له : قل لا اله إلا الله ، فامتعض ، فألححت عليه ، فقال : أدع الله لى ، فقلت : أفما يمنعك إلا من قولها ؟ فقال : نعم، قلت : وما كان عملك به ؟ قال : ما أخذت ولا أعطيت به إلا حقاً فى علمى ، غير انى كنت أقيم المدة لا أفتقده ولا أختبره ، فكان يونس بعد ذلك يشترط على من يبايعه أن يأتى بميزان ويزن بيده وإلا لم يبايعه)[١٠٦] .

وقد ذكر المقريزى فى كتابه المقفى أن لابن ظفر إلى جانب كتاب (نصائح الذكرى) كتاب آخر باسم (رياض الذكرى)[١٠٧] ،

١٥- (الإشارة إلى علم العبارة)[١٠٨] ، وهو كتاب فى تعبير الرؤيا ، حيث ذكر ذلك مؤلفه فى تفسيره (ينبوع الحياة) وذلك عند تفسيره لقول الله تعالي : (يا صاحبى السجن أما أحد كما فيسقى ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان)[١٠٩] ، حيث تكلم عن الرؤيا وأورد

حديثاً عن تعبير النبى ﷺ لرؤيا المرأة التى أتت تسأله عن رؤياهـــا[١١٠] . ثـــم قال بعد ذلك : (وقد أحسنت الكلام على هذا الحديث وغيره مـــــن الأحـــاديث النبوية فى علم التعبير وأفعمت بذلك كتاباً صغير الحجم عظيم الجد على طـالب هذا العلم فسميته الإشارة إلى علم العبارة)[١١١] .

١٦- (أعلام النبوة) وهو كتاب مفقود[١١٢] ٠

١٧- (الأنباء عن الكتاب المسمى بالإحياء)[١١٣] ٠ وهو مفقود ٠

١٨- (معاتبة الجرىء على معاقبة البرىء)[١١٤] ٠ وهو مفقود ٠

١٩- (ملح اللغة) وهو كتاب فيما اتفق لفظـــــه واختلـف معنـــاه علـــى حـــروف المعجم[١١٥] ٠ وهو كتاب مفقود أيضاً .

٢٠ - (القواعد والبيان) فـــى النحـــو[١١٦] وهـــو كتـــاب مختصـــر كمـــا ذكـــر المقريزى[١١٧] وهو كتاب مفقود .

٢١- الاستنباط المعنوى[١١٨] وهو كتاب مفقود ٠

٢٢- الاشتراك اللغوى[١١٩] ٠ وهو كتاب مفقود ٠

٢٣ – وقد ذكرت بعض المصادر أن الكتابين السابقين إنما هما كتاب واحـــد[١٢٠] ٠ وذلك على خلاف ما ذكرته بعض المصادر الأخرى التى ترجمت لابن ظفـــــر الصقلى ، والتى عدتهما كتابين منفصلين ٠

٢٤- (بيان الصور فى الميقات) وهو كتاب مرتب على عشرين بابا يســـتعان بـــه على معرفة الأوقات بالآلة[١٢١] . وهو مقدمة فى الميقات أوله (أما بعد: حمـــداً لله لا يحاط بمعلوماته ٠٠٠٠٠)[١٢٢] ٠ وهو كتاب مفقود .

٢٥- (بيان القدر بين سنه وشهور ومنازل وقمر) وهو مختصر على عشرين بابـــاً فى علم الميقات[١٢٣] وهو كتاب مفقود ٠

٢٦- (مثنى الاستئناف للمعونة والإشراف) وقد ذكره مؤلفه فى كتابه (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع)[١٢٤] ، وهو كتاب مفقود ،

٢٧- (الجود الواصب) وهو كتاب انفراد بذكره المقريزى ولم أجده عند غيره[١٢٥] .

٢٨- (الحاشية على درة الغواص) للحريرى[١٢٦] . وقد ذكر حاجى خليفة فى (كشف الظنون)[١٢٧] ، أن هذه الحاشية هى ضمن مجموعة حواش ، حاشية لأبى محمد عبد الله ابن برى[١٢٨] . وحاشية لابن ظفر الصقلى ، وأخرى لعبد الله ابن أحمد النحوى ، المعروف بابن الخشاب[١٢٩] .

وفيما يتعلق بحواشى ابن برى وابن ظفر على درة الغواص فقد قام بتحقيقها وإخراجها الدكتور أحمد طه سلطان فى عام ١٤١١هـ/١٩٩٠م[١٣٠] .

وكتاب (درة الغواص فى أوهام الخواص) من الكتب التى لها مكانة كبيرة عند العلماء والكتاب والأدباء ، إذ يعالج أخطاء وأوهام شاعت على السنة الخاصة من العلماء والشعراء ،

وقد طارت شهرة هذا الكتاب فى الآفاق ، وولع به كل غيور يتمنى أن تبقى اللغة العربية قوية نقية ، كما كان العرب الخلّص يتكلمون بها فى قلب الجزيرة وبواديها فى عصرى الجاهلية وصدر الإسلام . وبعد أن اتسعت دائرة الإسلام فسحت اللغة العربية صدرها لاستعمال الكلمات المولّده التى شاعت على ألسنة الكتاب والشعراء وضمت إلى معجمها الأصلى الألفاظ الأعجمية المعربة التى عربها العرب وحولوها عن ألفاظ العجم لتصبح ألفاظاً عربية ،

وقد أدرك ابن ظفر كل ذلك فسلك فى حواشيه على درة الغواص المسلك الموافق لقانون اللغة ، فصوب كثيراً مما خطأه الحريرى ، والتمس لذلك التصويب وجهاً مما جاء فى القرآن الكريم ، أو وردت به القراءة القرآنية ، أو نطقت به

الأحاديث النبوية ، أو مما انشده الفصحاء من شعراء العربيــة ، أو مــن اســتعمال العلماء الموثوق فى روايتهم ، أو مما ورد فى بعض اللغات واللهجات التى تكلمــت بها القبائل العربية(١٣١) .

وتلك الحواشى على (درة الغواص) والتى حاشية ابن ظفر إحداها ، كــانت قد ساهمت بقدر كبير فى تذليل الكثير من العقبات أمام الكتاب والعلماء المشـــتغلين باللغة . ذلك أن تلك الحواشى ذات قيمة علمية نظرا لكثرة شواهدها وتصحيح نسبة بعض الأبيات إلى قائليها .

كذلك مما يعزز قيمة تلك الحواشى على (درة الغواص) أن حواشـــى ابـــن برى وابن ظفر هى الأصل الذى اعتمد عليه الشهاب الخفاجى(١٣٢) . فـــى تـــأليف كتابه : (شرح درة الغواص فى أوهام الخواص) فقيمة هذا الكتاب الحقيقية تكمـــن فيما نقله الخفاجى من حواشى ابن برى وابن ظفر على درة الغواص .

ذلك أن الخفاجى لم يقتبس من الحواشى فحسب ، بل ضمن شرحه الحواشـــى بأكملها ، واستفاد من آراء برى وابن ظفر ومن تعليقاتهما على كلام الحريرى إفــادة كبيرة(١٣٣) .

ويجدر بنا هنا ونحن نتكلم عن ابن ظفر وجهوده العلمية أن نشير إلى أمثلـــة من حواشيه على درة الغواص . فمن ذلك حاشية على قول المؤلف : (وعلى آلــه) حيث قال ابن ظفر : (قوله وعلى آله ، مرغوب عنه ، لان الإضمار يرد الكلم إلى أصولهن كثيرا ، وأصل آل : أهل ، بدليل قولك فى تصغيره أهيل ، والوجـــه أن تقول: وعلى أهله ، إلا أن تظهر فتقول وعلى آل محمد(١٣٤) .

ومن ذلك حاشية على قول الحريـــرى : (يقولـــون : إذا أصبحـــوا ســـهرنا البارحة وسرينا البارحة والمختار ....) حيث قال ابن ظفر : (أكثر ما فى هـــذا

إذا سلم قيل انه عدول عن المختار إلى الجائز فلا يسمى غلطاً ، وإلا فانه تحكم لا شاهد علية[١٣٥] .

ومن ذلك أيضا حاشية على نص الحريرى بعد قول الله تعالى : (وفتحت أبوابها)[١٣٦] ،من أن هذه الواو تسمى واو الثمانية ،

حيث قال ابن ظفر : (ما ذكره فى الواو من قوله (وفتحت أبوابها) منقول، ولكنه غير ظاهر الوجه ، لأنه لا عدد فيه نصياً ولا استنباطاً ، وهذه الواو هى الحالية كواو قولك : خرجت ودخل فلان ، أى فى حال دخوله ، والمراد انهم جاؤوها وهى مفتحة الأبواب فدخلوها ولم ينتظروا أن تفتح لهم ، وذلك لكرامتهم وأما وفد النار فانهم وقفوا على النار عندما جاؤوها حتى فتحت أبوابها إهانة لهم ، وليبغتوا بمشاهدة عذابها[١٣٧] .

٢٩ - (شرح المقامات الحريرية)[١٣٨] وتذكر المصادر أن ابن ظفر قد شرح المقامات فى شرحين أحدهما مختصر والآخر مطول[١٣٩] .

(وشرح المقامات الحريرية) تسميه بعض المصادر (التنقيب على ما فى المقامات من الغريب)[١٤٠] ، وهذه التسمية هى التى وردت فى النسخة الخطية منه الموجودة بمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى تحت رقم(٤٦٩) أدب ورقم(٤٧٠) أدب وهى مصورة عن الزاوية الحمزاوية بالمغرب والتى تحمل رقم(٤٦) وعن دار الكتب المصرية برقم (٧٤٤١ أدب).

كما أن من هذا الكتاب وبهذا الاسم نسخه خطية فى خزانة ابن يوسف العمومية بمراكش تحت رقم (٢) مجاميع (٦٢) وتقع فى إحدى وتسعين ورقة وعدد اسطر الصفحة الواحدة فيها سبعة وثلاثون سطرا ومن (شرح المقامات) لابن ظفر الصقلى نسخ خطية بالمكتبة الأصفية بالهند تحت رقم (٤١ ، ١٤٦) وأيضا بجاريت ١٧٥١ رقم (١)[١٤١] ، وقد ذكر القفطى انه رأى كتاب (شرح المقامات)

لمؤلفه ابن ظفر وانه كان فيه بعض التصحيف ، حيث قال (ورأيت له شرح المقامات ، وقد صنفها لأهل المغرب وقد نقل ألفاظها من نسخة سقيمة فصحف وشرح التصحيف)[١٤٢] ثم أن ابن ظفر كان يعلم ذلك ويعتذر من ذلك التصحيف إذ يقول القفطي : (وسمعت انه كان يعتذر من ذلك إذا قيل له : ويقول هو أمر أحدثه العجلة وبعد الدار)[١٤٣] .

وابن ظفر الصقلي يذكر في بداية شرحه للمقامات أن الذى أخبره بها أبو الطاهر السلفي عن مؤلفها الحريري[١٤٤] . لكن ابن خلكان يرى عدم صحة هذا القول فيذكر أن أبا الطاهر السلفي رأى الحريري في جامع البصرة وحوله حلقة من الناس يأخذون عنه المقامات . فسأل السلفي عن الحريري فقيل له: أن هذا قد وضع شيئا من الأكاذيب ، وهو يملي على الناس فتكتبه ولم يعرج عليه[١٤٥] .

٣٠ – (خير البشر بخير البشر)[١٤٦] . وهو كتاب يتحدث فيه مؤلفه عن التبشير بظهور النبي محمد ﷺ استنادا إلى التوراة والإنجيل والي أقوال أحبار اليهود ، وكهان العرب .

وهذا الكتاب مطبوع طبعة حجرية قديمة في القاهرة مؤرخة بنسبة ١٢٨٠ هـ . ومنه نسخ مخطوطة في الاسكوريال برقم (١٥٢١) وفي باريس برقم (١٩٥٩) وفي القاهرة برقم ٧/ ٥٢٠) ورقم (٥/ ١٧٤).

ومنه نسخة مختصرة بعنوان (المختصر في خبر سيد البشر) وهذه النسخة في الموصل برقم (١٠٦ و ٩٠ و ٦)[١٤٧] . وهي تكون من اختصار المؤلف ابن ظفر أو أن احدا قام باختصار الكتاب المذكور .

٣١ – أنباء نجباء الأبناء)[١٤٨] وقد أشار إليه مؤلفه ابن ظفر في كتابه (سلوان المطاع) حيث قال عنه : (وهو كتاب انتظمت فيه درر أنباء نجباء الأنباء فأود عته صبره منها ما عز مطلبه وبهرت حكمته وحسن أدبه)[١٤٩] .

والكتاب تسميه بعض المصادر (درر الغرر فى أنباء نجباء الأبناء) وقد تختلف التسمية ، فى نسخة المخطوطة من نسخة إلى أخرى فنسخته فى الاسكوريال عنوانها (الغرر والدرر فى نجباء الأولاد) وهى تحمل الرقم (٢/١٥٢١) و(٢/١٧٠٢)[١٥٠] .

والكتاب منه نسخ خطية كثيرة فى مكتبات العالم ومنها باريس برقم (٢١٢، ٢١٣، ٦٠٣٢)٠ وليبزج برقم (٦٦٤)٠ وما نستر برقم (٦٧٠)[١٥١] .

ومن هذا الكتاب نسخة خطية مختصرة عنوانها (درر الغرر فى أبناء الأبناء) وهى محفوظة فى برلين تحت رقم (٩٥٠٦ ، ٩٥٠٧)٠ وفى المتحف البريطانى تحت رقم (١١٣٩)[١٥٢] .

وهناك نشره قديمة للكتاب باعتناء مصطفى محمد القبانى ، صادرة عن مطبعة التقدم بمصر[١٥٣].

ومما جاء فى مقدمة هذا الكتاب قول المؤلف :[١٥٤] ٠ « فهذا كتاب أودعته من أنباء نجباء الأبناء ، وما هو كشررة من ضرام[١٥٥] بل كقطرة من رهام[١٥٦]، لأنى قصدت به تلقيح همة غلام ، وتنقيح فطنة كهام ٠[١٥٧] إلا أنى اجنيت قارئيه من هذا النوع الذه وأطيبه وأحليته أسرء وأعجبه ، مضربا فى الغالب عما سجع به الحمام هاتفا وهمع به[١٥٨] ٠ الغمام واكفا ٠[١٥٩] لأن النفوس طلعة إلى الفائق العجيب مولعة بالرائق الغريب ذى المتناول والقريب» ٠

والكتاب فى مجمله يميل إلى القصص الأدبى مع أسلوب بلاغى جيد ويستشهد بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة كما يتضمن بعض الحكم والأمثال من أقوال العرب ٠

والكتاب بدأه مؤلفه بذكر الحديث عن الرسول ﷺ ثم قسمه بعد ذلك إلى أربعة أقسام وقد ورد ذكر ذلك فى مقدمة المؤلف حيث قال[١٦٠] ٠ افتتحته بذكر

سيدنا المصطفى ﷺ للتيمن بذكره والتشرف بالإيماء إلى شرف قدره ، ثم صنفت بأثر ذلك ما عمدت لذكره أربعة أصناف وهى غرر عوالي[١٦١] . ثم نخب توالي ثم نكت كرائم ثم فقر خواتم ، فالصنف الأول فى ذكر عشرة ممن كرمهم الله بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصنف الثاني فى ذكر رجال من ذريات الصحابة رضى الله عنهم . وغيرهم والصنف الثالث فى ذكر ممن اتسم بالعبادة واشتهر بالزهادة والصنف الرابع فى ذكر رجال سادوا فى عصر الجاهلية من العرب ورجال من ملوك فارس .

ومما نجده فى هذا الكتاب أن مؤلفه يعمد فى نهاية ذكره لخبر ما إلى تفسير الألفاظ اللغوية الغريبة التى اشتمل عليها الخبر وذلك تحت عنوان (تفسير ألفاظ لغوية اشتمل عليها هذا الخبر)[١٦٢] .

٣٢ – (سلوان المطاع فى عدوان الاتباع) وهو كتاب ذكرته جميع مصادر ترجمته[١٦٣] . واختلفت فيما بينها فى اسم عنوانه فمثلا نجد أن عنوانه فى هدية العارفين: (سلوان المطاع فى عدوان الطباع فى قوانين الحكمة ونوادر أخبار السلاطين)[١٦٤] . كما أن الذى قام بترجمة إلى اللغة الفارسية أجرى عليه تبديلا بتقديم وتأخير وإضافة وسماه: (رياض الملوك فى رياضات السلوك) وفى ذلك يقول حاجي خليفة : (وقد ترجمه جماعة وفى ترجمته بالفارسية ... تصرف صاحبه بتقديم بعض الحكايات وتأخيرها[١٦٥] .

ومع هذا الاختلاف فى عنوان الكتاب إلا أن أكثرها يقررا ن تسمية (سلوان المطاع فى عدوان الإتباع) هى التسمية الحقيقية للكتاب .

والكتاب طبع ثلاث مرات طبعات قديمة ، الطبعة الأولى كانت فى القاهرة سنه ١٢٧٨ هـ والثانية فى تونس ١٢٧٩ هـ، والثالثة فى بيروت سنه ١٣٠٠هـ[١٦٦] .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدد من اللغات الأوربية فقد نقله ميخائيل امـــارى صاحب كتاب (تاريخ مسلمى صقلية) إلى اللغة الإيطالية ونشره سنه ١٢٦٨هـــ/١٨١٥م وسنه ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م ٠ ثم ترجـم إلى الإنجليزيـة ونشـر بلنـدن سنه ١٢٦٨هـ/١٨٥١م ٠ كما ترجم الكتاب إلى اللغـة التركيـة حيـث قـام بترجمته قره خليل أفندى زاده المتوفى سنه ١١٦٨هـ/١٧٥٤م ٠ وطبعـت هـذه الترجمة فى إستانبول سنه ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م ٠[١٦٧] ٠ وكتاب (سلوان المطـاع) قال عنه العماد الإصفهانى : « طالعته فوجدته كتابا مفيدا مشتملا على حسن معنـى ولفظ وذكر تنبيه ووعظ » ٠[١٦٨] وقد أهداه مؤلفه إلى أحد القـادة المسـلمين فـى صقلية سنه ٥٥٤هـ/١١٥٩م ٠ حيث قال ابن ظفر : (فان مما أفضى بـى إليـه اضطراب الاغتراب وانتياب الاكتئاب ، أن أظفرنى الله سبحانه وتعالي وله الحمـد بمؤاخاة مقيل عثرات السادة السراة ، وممل أنفس الحسدة حسرات سـيد السـادة وقائد القادة أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم على بن علوى القرشى[١٦٩] ٠ بـارك الله فيما الهمـه كسبه وكان وليه وحسبه ... ولما كـانت الـهدايا تـزرع الحـب وتضاعفه وتعضد الشكر وتساعفه أحببت أن أهـدى إليه هدية فائقة رائقة لتكـون عنده نافقة وبقدره لائقة فلم أجد لذلك إلا العلم الذى شغفه حبا والحكمة التى لم يـزل بها صبا ، والأدب الذى استوعبه مولودا وكسبا واستعمره حليا وقلبا ....)[١٧٠] ٠

وابن ظفر يقول عن كتابه هذا انه كتاب (عمدت فيه إلـى أمثلـة اسـتأثر خـواص الملوك ببضـاعتها ، ومنعتهم الغيرة عليهـا مـن إذاعتـها فتوسـعت بالتعبير بألفـاظى عنها والتخيير بعلمى لهـا والتفنن بقـوى فطنتى فيها ، توسـعا لا يحظره شـرع ولا ينبوعنه سمع ، حتى إذا عادت أهلتها بـدورا رائعـة ٠٠٠ نفثت فى صدرها أرواح الأخلاق الزكية وكسوت جسومها حلل الآداب الملوكيـة ، وتوجت رؤوسها تيجان الهمم الأبية وقلدت عواتقـها سـيوف المكـايد الحربيـة ، وصدرتهـا بأى من التنزيل المحكم وأحاديث عن المصطفى ﷺ إلى ما يلى ذلـك

من منثور الحكم وموزونها وأبكار الآداب وعيونها فبرزت روضة للقلوب والأسماع ورياضة للعقول والطباع[١٧١] .

ومن خلال هذا العرض الموجز لبعض ما جاء فى مقدمة ابن ظفر فانه تتضح معالم هذا الكتاب ومضامينه وسبب تسميته بسلوان المطاع فى عدوان الاتباع ، ذلك أن ابن ظفر أراد بإهدائه هذا الكتاب إلى ذلك القائد العربى أن يسلبه عما هو فيه من ضيق بسبب استيلاء النورمان على صقلية بعد أن كانت بلدا إسلاميا عامرا[١٧٢] ولذا نجد أن ابن ظفر يعرف (السلوان) الوارد فى كتابه قائلا : (والسلوان جمع سلوانه ، وهى خرزة تزعم العرب أن الماء المصبوب عليها إذا شربه المحب سلا : قال الراجز :

لو أشرب السلوان ما سليت ‏‏ ‏‏ مابى غنى عنكم وان غنيت[١٧٣]

ومن هذا المنطلق نجد أن ابن ظفر قد ضمن كتابه هذا خمس سلوانات عبارة عن خمسة خصال وتلك السلوانات أولاها فى التفويض والثانية فى التأسى والثالثة فى الصبر والرابعة فى الرضا والخامسة فى الزهد .

وبنظرة سريعة على هذه السلوانات نجد أن سلوانة التفويض قد بدأها بشرح معنى التفويض فى الأمور مستشهدا بقوله تعالي :

(فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا)[١٧٤] . وقولى تعالي " وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)[١٧٥] . ثم أكد على أهمية الاستخارة فى صرف البلاء واللطف فى مكروه القضاء .

ثم بين حقيقة التفويض بقوله : (واعلم رحمك الله واياى أن حقيقة التفويض هو التسليم لأحكام الحكيم وهو الذى دل عليه مصطفاه محمد ﷺ بقوله تعالي :

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[١٧٦] . وأس التفويض والباعث عليه إنما هو اعتقاد انه لا يكون من

الخير ولا من الشر إلا ما أراد الله تعالي كونه ولا يصح التفويض ممن لـــم يعتقـد ذلك ويتدين به)[١٧٧] .

وابن ظفر يدلل عل تلك المفاهيم فى التفويض بقصص وعبر من التـــاريخ ، وكذلك بحكايات رمزية على ألسنة الحيوانات لترسخ تلك المفاهيم التى أرادها[١٧٨] .

أما السلوانة الثانية وهى التأسى فقد بدأها بذكر عدد من الآيات القرآنيـــة ذات الدلالة على التأسى وذكر أن التأسى مما أدب الله به رسول الله ﷺ بل مما افترضـه الله عليه ٠ وأضاف ابن ظفر قائلا: (ومعنى التأسى عند الأئمة أن تنظر إلى أســى غيرك ، أى حزنه وانه مثل أساك ، أى مثل حزنك فتصبر، والأسى هـــو الحـــزن ولا يعجبنى هذا وهو عندى مأخوذ من قولهم أسوت الجرح والجريـــح أى دوايتــه والأسى هو عندى الطبيب المداوى فكأن معنى التأسى والتداوى بـــالصبر والأســوة اسم من هذا ، والتأسى تفعل ولو كان على ما ذهبوا إليه لكان معنى التأسى التحــزن تقول : أسيت أى حزنت وتأسيت أى تحزنت) ٠[١٧٩]

ولتثبيت معنى التأسى ذكر المؤلف إلى جانب الآيات من القرآن الكريم بعضـاً من الأحاديث النبوية والأشعار والأمثال والحكايات الواقعية والخيالية[١٨٠] ٠

أما فيما يتعلق بالسلوانة الثالثة فهى تلك المتعلقة بالصبر الـــذى هـــو ثمــرة التأسى وقد بدأها بذكر قوله تعالي مخاطبا نبيه ﷺ : « واصبر وما صبرك إلا بــالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون »[١٨١] .

ثم ذكر بعد ذلك خبر غدر رؤساء قريش بالرسول ﷺ وذلك فى اجتماعـــــهم بدار الندوة ثم تبع ذلك بذكر المنثور والمنظوم من الحكم فى الصبر[١٨٢].

أما السلوانه الرابعة فهى سلوانة الرضا ٠ وقد بدأها بالقرآن الكريم مستشـــهدا بقولة تعالي : (فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذ ا هم يســخطون)[١٨٣] وذلك للدلالة على من سخط من قسمة الله وتقديره وحكمته وتدبيره٠

ثم بين ذلك أن من لم يرض سيحرم من الفضائل وقد استشهد على ذلك بقول الله تعالي : (ولو أنهم رضوا ما أتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله أنا إلى الله راغبون)[١٨٤] .

واستطرد المؤلف فى ذكر فضائل الرضا وذلك بذكر أحاديث نبوية ونظم ونثر من أقوال الحكماء ثم ذكر قصصا واقعية وأخرى خيالية فى ذات المعنى .[١٨٥]

ويختم ابن ظفر كتابه بذكر السلوانة الخامسة وهى سلوانة الزهد وقد بدأها بالقرآن الكريم حيث استشهد بقوله تعالي : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه)[١٨٦] .

ثم ذكر بعد ذلك خبرا نبويا فى الزهد ثم ما قيل فى الزهد من حكم نثرا كان أو نظما ثم أشار إلى بعض القصص الواقعة والخيالة التى تؤيد ما ذهب اليه من مدح الزهد والزهاد[١٨٧].

والي جانب الخصال الخمس المذكورة فانه يوجد فى كتاب (سلوان المطاع) كثيرا من الأقوال والحكم حول سلوك الملوك وعلاقتهم بوزرائهم ورعيتهم فهو يحض الملوك على العدل والرفق بالرعية ، والتحلى بالحزم والاحتراس من العدو واجتناب الحرص والشره المفضيان إلى البغى واحترام العهود والمواثيق ، والحفاظ على أركان الشريعة .

كما ذكر ابن ظفر أن الوزير يقوم بدور أساسى فى نجاح سياسة الملك أو فشلها ولذلك يجب أن يكون متصفا بالدهاء والحزم وسداد الرأى، والحكمة والعلم بالديانات واللغات والتبحر فى العلوم والخبرة فى المكايد .

أما الرعية فذكر انه ينبغى معاملتها برفق والتودد إليها بالعدل وأمن السبل وإنصاف المظلوم[١٨٨] . وقد اقتبس المصنفون فى الأخلاق والسياسة والتاريخ كثيرا من كتاب ابن ظفر (سلوان المطاع) فقد نقل عنه أبو حمو موسى بن

يوسف.[١٨٩] ثلاث قصص هى أطول ما ورد فى (سلوان المطاع) من الحكايات وضمنها كتابه (واسطة السلوك فى سياسة الملوك) .[١٩٠]

كما نقل عنه سبط ابن الجوزى[١٩١] معظم ما جاء فى (السلوان) من آيات قرآنية وأحاديث وحكم وقصص وضمنها كتابه (كنز الملوك فى كيفية السلوك)[١٩٢] بل أن كتاب سبط ابن الجوزى المذكور لا يعدو أن يكون إعادة لسلوان المطاع لابن ظفر الصقلى مع بعض تغييرات وزيادات ضيئلة[١٩٣] . كما انه قسم الكتاب على نفس تقسيم ابن ظفر الصقلى فى سلواناته الخمس . وهذا المؤرخ يحيى بن خلدون .[١٩٤] قد ضمن كتابه (بغية الرواد فى إخبار ملوك بنى عبد الواد) بعض القصص الواردة – فى سلوان المطاع .

وبعد هذا العرض الموجز لملامح كتاب (سلوان المطاع) لابن ظفر الصقلى فإنه يتأكد للمطلع عليه أنه كتاب فى نصائح الملوك له قيمة عالية إذ انه يحتوى على مبادىء عامه فى السياسة والأخلاق والآداب تصلح أن تكون مرجعا لكافة المهتمين بهذا الجانب . ويبدو أن هذا النوع من التأليف قد شغل بال كثير من العلماء والأدباء والمفكرين ذلك أن ابن ظفر قد سبق إلى هذا النوع من التأليف ثم تلاه آخرون فألفوا فى ذات الاتجاه .[١٩٥] وابن ظفر فى كتابه (سلوان المطاع) اعتمد على تجاربه الشخصية وعلى كتب الأدب والوصايا والمواعظ والتاريخ ، وتلك فى مجملها شكلت ما يحتويه كتاب ابن ظفر (سلوان المطاع)[١٩٦] .

وبعد هذا العرض لمؤلفات ابن ظفر الصقلى يتأكد لنا أنه كان صاحب باع كبير فى معارف شتى . لذلك لقى قبولا كبيرا عند طلاب العلم وخاصة بعد أن استقر فى حماه حيث (صادف فيها قبولا) كما أشار إلى ذلك ياقوت .[١٩٧] و(أمه الطلبة بها)[١٩٨] . وكان (شخصا عزيزا قد برز فى العلوم على علماء ، عصره تبريزا)[١٩٩] . ولتنوع مؤلفات ابن ظفر نجد أن القفطى قد استجاز روايتها من ولد ابن ظفر حيث يقول : (وأدركت ولده بحلب فى حاضرها يعلم الصبيان وهو أكسد من باقل ، لا ينقل عنه من أهلها ناقل ، واستجزت منه رواية كتب أبيه

التى رواها عنه ، وكتب لى ذلك بخطه ، وهو عندى ثم مات رحمه الله فى حدود سنة ستمائة بعدها بقليل)[٢٠٠] .

وهذا التنوع فى معارف ابن ظفر جعلت المصادر أحيانا مع المفسرين ومرة أخرى مع اللغويين والنحويين وثالثة مع الأدباء ، إلا أن السيوطى يذكر انه كان « أعلم باللغة من النحو »[٢٠١] . ولعل الذى يؤيد ما ذكرته المصادر من أن أبا اليمن زيد بن الحسن الكندى[٢٠٢] . قال : « أحلت برزق لى على ديوان حماه ، فسرت لأجل ذلك فلما حللتها جمع الجماعة بينى وبين الحجة (أى ابن ظفر الصقلى) .

وجرت بيننا مناظرة فى النحو واللغة ، فأوردت عليه مسائل فى النحو لم يمش فيها . وكان حاله فى اللغة تقريبا . فلما كاد المجلس أن يتقوض قال الحجة : الشيخ تاج الدين أخبر منى بالنحو ، وأنا أخبر باللغة منه . فقلت : الأول مسلم ، والثانى ممنوع، وقمنا عن المجلس »[٢٠٣] .

شعره :

أجمعت مصادر ترجمة ابن ظفر الصقلى على أنه كان يقول الشعر ولكن شعره لم يتجاوز المقطوعات الصغيرة، وهو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر ، ولا يخرج شعره عن موضوعات الوعظ والزهد، والصبر والتضرع إلى الله، والأخلاق الحميدة .

وشعر ابن ظفر الصقلى هو أحد ميادين إبداعاته ونشاطه الفكرى وقد تناثرت أشعاره فى كثير من مؤلفاته بل لا يكاد يخلو منها مؤلف واحد، كما ذكرت بعض المصادر نماذج من أشعاره[٢٠٤] .

ومن تلك النماذج قوله فى شخص عزيز عليه : .[٢٠٥]

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم ... بأنك محمول وأنت مقيم

ألا أن شخصا فى فؤادى محله ... واشتاقه شخص على كريم

ومن أقواله فى الزهد والتفويض : .(٢٠٦)

أيـا من يعول فى المشكلات — على مـا رآه ومـا دبـره
إذا أستشكل الأمر فأبرأ بـه — إلى من يـرى منـه مالـم تره
تكن بين عطف يقيك الخطوب — ولطـف يهون مـا قـدره
إذا كنت تجهل عقبى الأمـور — ومالـك حـول ولا مقـدره
فلم ذا العنى وعلام الأسـى — ومـم الحذار وفيما الشـره

ومن شعره فى الصبر قوله : .(٢٠٧)

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه — ويعرف عند الصبر فيما يصيبه
ومن قل فيما يتقيه اصطبـاره — فقد قل فيما يرتجيه نصيبـه

ومن شعره فى التوكل قوله : .(٢٠٨)

ببسـم الله يفتتـح العليـم — وبالرحمن يعتصـم الحليـم
وكيف يلومنى فى حسن ظنـى — بربى لائـم وهـو الرحيـم

ومن شعره فى الرضا قوله(٢٠٩) :

يا مفرعى فيما يجـىء — وراحمى فيما مضـى
عندى لما تقضيـه ما — يرضيك من حسـن الرضا
ومن القطيعة استعيـذ — مصـرحا ومعـرضا

ومن نصائحه الشعرية أيضا قوله : .(٢١٠)

دنياك دار غـرور — ومتعـه مستعـارة
ودار لبس وكسـب — ومغنـم وتجـاره
ورأس مالـك نفـس — فأحذر عليها الخسـارة
ولا تبعهـا بالأكـل — وطيب عيـش وشـاره
فإن مـلك سليـمان — لا يفـى بشـراره

أما فيما يتعلق بخاتمة ابن ظفر فقد كانت فى مدينه حماه ، حيث قضى فيـــها أخر أيام حياته بعد أن استقر به المقام فيها على فقر وعوز لا يتفق والمكانة العلميـة التى اشتهر بها . وقد بلغت به الحاجة انه زوج ابنته فى حماه بغـير كـفء ، وان ذلك الرجل سافر بها وباعها فى بعض البلدان[٢١١] . وقد أجرى له راتب من ديوان حماه ولكنه كان دون الكفاف[٢١٢]. ويؤكد هذه الحالة التى كان عليها ابن ظفر فـى حماه ما ذكره . القفطى من « أن نور الدين محمود بن زنكى[٢١٣] . قد خوطـب فى تقرير رزق له يستعين به على إفادة العلم بحماه ، فاقتضت مكارمه أن يطلق لـه فى كل شهر سبعين قرطاساً . عليها سبع دراهم فضة فى كل شهر .[٢١٤] وهذا يعـد قليلا فى حق شخصية علمية كبيرة كشخصية ابن ظفر الصقلى هذا مـع افتراضنـا بصحة ما ذكره القفطى .

وتوفى العلامة ابن ظفر الصقلى فى مدينة حماه على خلاف فى تاريخ الوفـاة بين المصادر التى ترجمت له إلا أن أغلبها قد حددت تاريخ وفاته بسنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م[٢١٥] . وبعضها ذكر أنها كانت سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م . أو سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م[٢١٦] . أو سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م[٢١٧] .

الهوامش

(١) نسبة إلى جزيرة صقلية ، وهى تقع فى حوض البحر المتوسط ، وهى أكبر جزر ذلك البحر ، وتقع إلى الجنوب من إيطاليا. وتتميز بموقع استراتيجى ٠ وقد حاول المسلمون فتحها منذ سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م، ولم تنجح تلك المحاولات إلا فى عهد دولة الأغالبة سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م ، وعلى يد القائد أسد بن الفرات والذى تمكن من فتح جزيرة صقلية ٠ واستمر حكم المسلمين لها إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ؛ الزهرانى ، على بن محمد، الحياة العلمية فى صقلية الإسلامية إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، معهد البحوث العلمية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٧١ هـ / ١٩٩٦ م، ص ٣١ ٠

(٢) قدم الباحث صالح بن عبد الرحمن الفايز رسالة ماجستير بعنوان (ابن ظفر الصقلى ومنهجه فى التفسير من خلال كتابه الينبوع) وذلك فى الجامعة الإسلامية بالمدينة سنة ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م٠

أما الباحث محمد أحمد دمج فقد اعتنى بكتابه (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) ونشرته مؤسسة عز الدين ببيروت سنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م٠

(٣) النورمان : هم من بلاد اسكندناوه ، وخاصة السويد والنرويج واشتق أسم إقليم نورمانديا منهم ، وهو الإقليم الذى يقع فى غرب فرنسا حيث استقروا ، وقد نبذوا الوثنية ، واعتنقوا الديانة المسيحية ٠ ومعنى اسمهم : رجال الشمال ٠ أى انهم جاءوا من أقاصى أوروبا الشمالية ٠ مارتينو ، ماريو مورينو ، المسلمون فى صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٩٨ م، ص ١٧ ٠

(٤) ابن الأثير ، عزالدين على بن محمد الشيبانى ، الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ج١٠ ، ص ١٨٧ - ١٨٩ ٠

(٥) يرجع السلاجقة فى أصولهم إلى مجموعة من القبائل التركية التىعرفت باسم " الغز" دفعتهم الظروف الاقتصادية والسياسية فى أواسط آسيا وبلاد المشرق إلى التنقل بحثا عن أسباب العيش الرغيد ، واستقروا فى إقليمى ما وراء النهر

وخراسان • وعرفوا بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم سلجوق الذى أسلم واعتنق المذهب السنى • عسيرى ، مريزن سعيد ، الحياة العلمية فى العراق فى العصر السلجوقى ، مكتبة الطالب الجامعى مكة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ص٧٦•

(٦) هو المسترشد بالله الفضل ابن احمد • تولى الخلافة سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م، وتوفى سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م• ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٦ •

(٧) هو الراشد بالله بن المسترشد بالله (أبو جعفر منصور) تولى الخلافة سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م ، وتوفى سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م• ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٤٠ - ٤١ •

(٨) أبو الفتح المسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى • أصبح سلطاناً سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م، كان منهمكاً باللعب واللهو ، توفى سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م• ابن كثير ، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشى ، البداية والنهاية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، جـ ١٢ ، ص ١٣٠ •

(٩) هو أبو عبد الله بن محمد بن المستظهر بالله بن المقتدى بأمر الله بن القائم بأمر الله• بويع بالخلافة سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م، وقد عظم سلطانه واشتدت شوكته ، وكان حليماً شجاعاً ، توفى سنة ٥٥٥ هـ / ١١١٦٠ م• ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٤١ •

(١٠) أبو المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة ، كان عالماً باللغة والأدب والحديث • من مؤلفاته " الإفصاح وشرح معانى الصحاح " وكتاب " العبادات فى الفقه على مذهب الإمام أحمد " ، توفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م • ابن خلكان ، شمس الدين أحمد ابن محمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، د• ت، جـ٦ ، ص ٢٣٠ •

(١١) مريزن عسيرى ، الحياة العلمية فى العراق ، ص ٩٥ - ٩٦ •

(١٢) كان ذلك على يد صلاح الدين الأيوبى الذى ثبت أقدامه فى مصر ، وأزال المخالفين له ، وأضعف أمر الخليفة الفاطمى العاضد •

وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش • ثـم قطـع صـلاح الديـن الخطبة للعاضد ، وخطب للخليفة العباسى المستضىء • وبموت العاضد سـنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، انتهت الدولة الفاطمية • ابن الأثـير ، الكـامل ، جــ ١١ ، ص ٣٦٨ – ٣٦٩ •

(١٣) وكان ذلك سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م، حين تمكن عبد المؤمن بن على التومرى مـن محاصرة مراكش وقتل أخر ملوك المرابطين ، إسحاق بن على بـن يوسـف بـن تاشفين • ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٧٦ ، ١٨٧ •

(١٤) المهدية : مدينة بافريقية ، اختطها المهدى الفاطمى فنسـبت إليـه ، بينـها وبيـن القيروان مرحلتان •
الحموى ، ياقوت بن عبد الله ، معجم البلدان ، دار صادر بـيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م• ج٥ ص ٢٩٩ •

(١٥) كان سقوط المهدية فى عهد آخر أمراء بنى زيرى الحسن بن على بن يحى بن تميم الزيرى ، وذلك أن روجر النورمندى حاصر مدينة المهدية ودك أسوارها وحاميتـها إلى أن استسلمت ، وفر حاكمها وكثير مـن أهلـها ، ودخلـها بـدون مقاومـة ، واستمرت كذلك إلى أن استردها عبد المؤمن صاحب مراكش سـنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م•
ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ص١٢٥ ، ص ٢٤١ ، ابن كثير ، البداية والنهايـة ، ج ١٢ ، ص ٣٢٣ •

(١٦) كرد، محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربيـة ، لجنـة التـأليف والترجمـة والنشر القاهرة • ١٣٦٥ / ١٩٤٦ م، ج١، ص ٢٨٥ •

(١٧) نذكر من هؤلاء على سبيل المثال ، الشريف الإدريسى صـاحب كتـاب (نزهـة المشتاق فى اختراق الآفاق) – الذى عاش فى بلاط الملك النورمندى روجر الثـانى وتحت رعايته • وصنع له خريطة كروية للأرض من الفضة • وقد أطلـق عليـه اسم " استرابون العرب " حميده ، عبد الرحمن ، أعلام الجغرافيـن العـرب ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ م• ص ٣١٨ •

(١٨) السلطان أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين البربرى ، ملك المرابطين توج سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م٠ كان شجاعا عالما مجاهدا عادلا ورعا صالحا ، توفى سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م٠ الذهبى شمس الدين محمد بن أحمد ، سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م٠ ج٢٠ ، ص ١٢٤ ٠

(١٩) المراكشى ، عبد الواحد ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، اعتناء محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ ، ص ١٧١ ٠

(٢٠) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت البربرى المصمودى ، المدعى انه علوى حسنى . كان شجاعا مهيبا ، غاويا فى الرياسة والظهور ، فصيحا فى العربية والبربرية ٠ توفى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م٠
الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٥٣٩ ٠

(٢١) الفايز ، ابن ظفر ومنهجه فى التفسير ، ص ١٨ ٠

(٢٢) مريزن عسيرى ،الحياة العلمية فى العراق ، ص ١٧٣ ٠

(٢٣) الحموى ، ياقوت بن عبد الله ، معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، د٠ت٠ ج٨ ص ٥٤ ٠

(٢٤) البيهقى ، أبو الحسن على بن زيد، تاريخ حكماء الإسلام ، اعتناء وتحقيق محمد كرد على ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق طبعة مصورة عن الطبعة الأولى ،١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م، ص٧ ٠

(٢٥) حسن إبراهيم حسن ٠ تاريخ الإسلام السياسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٣٨٧هـ /١٩٦٧ م، ج٤ ، ص ٤٢٠ .

(٢٦) الحموى ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص٤٨ ٠ القفطى ، على بن يوسف ، أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار الفكر العربى ج٣، ص٧٤ ٠ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج٤، ص٣٩٥ ٠ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ٥٢٢ . الصفدى ، صلاح الدين خليل بن ايبك ، الوافى بالوفيات ، اعتناء مجموعة من الباحثين ، دار فرانز شتايز ، فيسبادن ، (١٣٩٢/ ١٩٧٢م) ج١، ص ١٤١ ٠ الفاسى تقى الدين أحمد بن محمد الحسنى ،

العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق ، فؤاد سيد ، القاهرة ، (١٣٩٢ / ١٩٧٢ م) ج٢ ، ص ٣٤٤ . ابن حجر ، أحمد بن على العسقلانى ، لسان الميزان ، بيروت ، دار الفكر ، (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) ج٥ ، ص ٤٢٠ . الداوودى ، محمد بن على بن أحمد ، طبقات المفسرين ، تحقيق ، على محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) ج٢، ص١٦٧ .

(٢٧) منير الدين أحمد ، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجرى ، ترجمة ، سامى الصقار ، الرياض ، دار المريخ (١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م.) ص ٦٥ .

(٢٨) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى ص ٥٤١ . ومن الأجدر بنا أن نضيف هنا انه نظرا لأهمية الرحلات العلمية فى تاريخ المسلمين التعليمى ، فلقد صنف فيها عدد من العلماء ، كالخطيب البغدادى ، المتوفى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م. والذى كتب كتابا سماه : (الرحلة فى طلب الحديث) والكتاب مطبوع عدة طبعات ، ونشرته عدد من دور النشر ، وكذلك أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرح النباتى الأندلس ، المتوفى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩م. الذى ألف كتابا سماه : (الرحلة) العسيرى ، مريزن سعيد، الحياة العلمية فى العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٤٨ .

(٢٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٣٠) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ص٤٢٠ .

(٣١) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٤٢٠ ، وأبو الطاهر هو : العلامة المحدث الحافظ أحمد بن محمد الأصبهانى السلفى : نسبة إلى جده إبراهيم سلفه ، ولد بأصبهان على خلاف بين سنتى ٤٧٢ - ٤٧٦ هـ / ١٠٧٩ - ١٠٨٣ م.
من علماء الحديث والفقه واللغة ، لم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله . ألف (معجم السفر) الذى يشتمل على أكثر من ألفى شيخ . توفى بعد أن عمر مائة سنة أو زيادة وذلك سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م. ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ص١٠٥ ، الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ص ٥ .

(٣٢) أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن سليمان القرشي الفهرى الأندلسي الطرطوشى، فقيه مالكي ، ومحدث ، ومفسر وأديب ، رحل إلى الكثير من البلدان وسكن الشام مده واستقر فى الإسكندرية وقام بالتدريس وقصده الطلاب من كل مكان من أشهر مؤلفاته (الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف) وكتاب (شرح رسالة الشيخ ابن أبى زيد) كانت ولادته سنة ٤٥١ / ١٠٤٩ م٠ ووفاته سنه ٥٢٠ / ١١٢٦ م بالإسكندرية ٠ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٢٦٢ ، ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ج٥، ص ٢٣١ ٠

(٣٣) السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن ، بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر القاهرة ج١ ص ١٤٢ ٠ الداوودى ، طبقات المفسرين ،ج ٢ ص ١٦٧ ٠

(٣٤) الفاسى ، العقد الثمين ج٢ ص ٣٤٦ : الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ص ٢٤٧ .

(٣٥) ابن العربى : محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى ، من أهل إشبيلية ٠ إمام علامة، حافظ ، قرأ القرآن وتعلم القراءات والتفسير والفقه والأصول من مؤلفاته ، أحكام القرآن وغير ذلك ٠ توفى سنه ٥٤٣ / ١١٤٨ م٠ ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن على المدنى الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، تحقيق وتعليق، محمد الأحمدى أبو النور دار التراث للطبع والنشر ٠ القاهرة ١٩٧٢ م٠ ج٢ ص ٢٥٢ ٠ السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن ، طبقات المفسرين ، مراجعة لجنة من العلماء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣ / ١٩٨٣ ص ٩٠ .

(٣٦) ابن ظفر الصقلى ينبوع الحياة ، مخطوط ، رقم ٥٠٦ تفسير ، معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى ، ج١ ورقة ٢٢٠ ٠

(٣٧) الفاسى ، العقيد الثمين ، ج٢، ص ٣٤٦ ، الداوودى ، طبقـــات المفســـرين ، ج٢ ، ص ٢٤٧ ٠

(٣٨) أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر اللخمـــــى ، المعـــروف بـــابن الدباغ ، هو أحد الأئمة المهرة المتقنين ولى خطابة مرسية من قضاء دانية ، كــــان سمحا مؤثرا نزه النفس ، توفى سنة ٥٤٦هـــ / ١١٥١ م٠
ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك ، الصلة ، الـــدار المصريـــة للتـــأليف والترجمة ، مطابع سجل العرب ، ج٢ ص ٦٨٢ ٠
الضبى ، أحمد بن يحيى بن أحمد ، بغية الملتمس فى رجال أهـــل الأندلـــس ، دار الكتاب العربى، ١٩٦٨ ص ٤٩١ ، الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٢ ، ص٢٢٠.

(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة ، ج٢ ، ص ٦٨٣ ٠

(٤٠) أبو مروان عبد الملك بن مسرة بن فرج بن خلف اليحصبى ، من أهل قرطبة ومـــن مفاخرها وأعلامها جمع الله له الحديث ، والفقه والأدب ، والخط الحسن والفضـــل والدين والورع ، وكان على منهاج السلف توفى فى ســـنة ٥٥٢ / ١١٥٧ م٠ ابـــن بشكوال ، الصلة ، ج٢ ، ص ٣٦٦ ٠

(٤١) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٤٦ ، الداوودى ، طبقـــات المفســـرين ، ج ٢ ص ٢٤٧ ٠

(٤٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ص ٣٩٥ ٠

(٤٣) ذكر ذلك الفاسى نقلا عن القطيعى فى (نيل تاريخه لبغداد) وعن القطب الحلبـــــى فى تاريخ مصر ٠

(٤٤) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ ٠

(٤٥) السيوطى ، بغية الوعاه ، ج١، ص ١٤٢ ٠

(٤٦) الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص ١٦٧ ٠

(٤٧) ابن أبى عصرون هو : شيخ الشافعية ، وقاضى القضاة ، وعالم أهل الشام شـــرف الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن على بن أبى عصـــرون التميمى الموصلى ٠ ولد سنة ٤٦٢ هـــ / ١٠٩٨ م. كان من الصـــالحين والعلمـــاء

العاملين . بنى له الملك نور الدين محمود بن زنكى المدارس فـــى حلـب وحمـاه وحمص وبعلبك • وبنى لنفسه مدرستين بدمشق وحلب • ومـــن أهـم مؤلفاتــه : (صفوة المذهب على نهاية المطلب) وكتــاب (الانتصــار) وكتــاب (المرشـد) وغيرها. توفى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩م . وعن ابن عصرون ومدرسـته انظـر : ابن أبى جراده ، كمال الدين عمر بن أحمد ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيـق سهيل زكار ، دمشق ، دار الكتاب العربى ، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م) جـــ٢ ، ص ٤٧٦ ، ابن خلكان وفيات الأعيان ج٣ ص ٥٣ ، الذهبى ، سير أعلام النبــلاء ، ج ٢١ ص ١٢٥ ، السبكى تاج الدين أبو النصر عبد الوهــاب بـن علــى ، طبقــات الشافعية الكبرى ، بيروت ج٤ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، النعيمى ، عبـد القــادر بـن محمد الدمشقى ، الدارس فى تاريخ المدارس ، نشر وتحقيــق جعفـر الحسـنى ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ج١ ، ص ٣٩٨ • جـــوده ، صــادق أحمـد دادود، المدارس العصرونية فى بلاد الشام ، بيروت مؤسسة الرسـالة (١٤٠٦ - ١٩٨٦) س ١٧ ، ١٦٢ •

(٤٨) ياقوت ، معجم الأدبــاء ، ج ١٩ ، ص ٤٨ ، السـيوطى ، بغيــة الوعــاه ، ج١ ، ص١٤٢ •

(٤٩) ابن أبى جراده ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج٢ ، ص٤٨٦ - ٤٨٧ •

(٥٠) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣، ص٧٥ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ج١ ، ص ١٤١

(٥١) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٣٣ •

(٥٢) العماد الأصفهانى ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى ، جريدة القصر وخريــدة العصر ، قسم شعراء الشام • تحقيق شكرى فيصل المطبعة الهاشــمية ، دمشـق، ١٣٨٣ / ١٩٦٣ م• ص ٤٩ •

(٥٣) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٨ •

(٥٤) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ، ص ٧٤ •

(٥٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٣٩٥ •

(٥٦) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٢٢ •

(٥٧) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٤١ ٠

(٥٨) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٤٤ ٠

(٥٩) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٤٦ ٠

(٦٠) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥، ص ٤٢٠ ٠

(٦١) السيوطى ، بغية الوعاة ، ج١ ، ص ١٤٢ ٠

(٦٢) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج١ ، ص ٢٦٤ ، ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٣٧٢ ٠

(٦٣) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٢١ ، ص ١٠٥ ، الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢، ص ٣٤٤ ٠

(٦٤) الصفدى ، الوافى بالوفيات، ج٤،ص١٧١ .

(٦٥) ابن ظفر، سلوان المطاع، المطبعة التونسية ، ١٢٧٩ هـ ، ص٢ .

(٦٦) الصفدى، الوافى بالوفيات، ج٤، ص١٧١ ٠

(٦٧) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص٢ ٠

(٦٨) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١٢، ص ٦٧ ٠

(٦٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٩ .

(٧٠) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٣٧٢ ٠

(٧١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٩٩ ٠

(٧٢) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٩٧ ٠

(٧٣) الفايز ، ابن ظفر ومنهجه فى التفسير ، ص ٢٨ ٠

(٧٤) العماد ، الخريده ، قسم الشام ، ج٣ ، ص ٤٩ ٠

(٧٥) العماد ، الخريده ، قسم الشام ، ج٣ ، ص ٦٠ ٠

(٧٦) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ، ص ٧٤ ٠

(٧٧) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ ٠

(٧٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ص ٣٩٦ ٠

(٧٩) من ذلك على سبيل المثال : ياقوت ، معجم الادباء ، ج١٩ ، ص ٤٨ ، القفطــــى ، أنباه الرواه ، ج٤،ص٧٤ ٠ ابن خلكـــان ، وفيـــات الأعيـــان ، ج٤ ، ص ٣٦٩ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ص ٢٠٢٥ ٠

(٨٠) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣، ص٧٤ ٠

(٨١) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٤٢٠ ٠

(٨٢) وكانت تلك الدراسة للباحث صالح بن عبد الرحمن الفايز ، وهى عبارة عن رســـالة ماجستير عنوانها : (ابن ظفر الصقلى ومنهجه فى التفسير من خلال كتابه الينبـــوع) وذلك فى العام ١٤١٠ هـــ / ١٩٩٠م٠

(٨٣) الفايز ، صالح عبد الرحمن ، ابن ظفر الصقلى ومنهجه فى التفسير ، ص ٧١ ٠

(٨٤) بروكلمان ، كارل ، تاريخ الأدب العربى ، نقلة إلى العربية السيد يعقـــوب بكـــر ، وراجعة رمضان عبد التواب ، القاهرة ، دار المعارف ، ج ٦ ، ص١٦٣ ٠

(٨٥) الفايز ، ابن ظفر ومنهجه فى التفسير ، ص ٢٧٦ .

(٨٦) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشى الشافعى ، رحـــل فـــى طلب العلم ، كان فقيها ، أصوليا ، أديبا ، فاضلا ، توفى سنة ٧٩٤هـــــ/١٣٩١م . السيوطى ، حسن المحاضره فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضـــل ابراهيم القاهرة ، دار إحياء الكتـــب العربيـــة ١٣٨٧ هــــ / ١٩٦٧ م٠ ج١ ، ص ٤٣٧: ابن العماد أبو الفلاح عبد الحى الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت ، دار الفكر د٠ت٠ ج٦ ، ص ٣٣٥ ٠

(٨٧) الفايز ، ابن ظفر ومنهجه فى التفسير ، ص ٢٧٤ ٠

(٨٨) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤١ ، السيوطى ، بغيـــة الوعـــاة ، ج١ ، ص ١٤٢ ٠ بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج٦ ، ص ١٦٣ ٠

(٨٩) سورة المائدة آية رقم ٦. وانظر أيضا ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١٦ ٠

(٩٠) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤٢ ، الداوودى ، طبقات المفســـــرين ، ج٢ ، ص ١٦٨ ٠

(٩١) الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص ٢٤٦ ٠

(٩٢) سورة الأنعام آية رقم ١٣٣ .

(٩٣) ابن ظفر ، ينبوع الحياة، مخطوط ، معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ، ج٢ ، ورقة (٩٢).

(٩٤) ابن ظفر ، ينبوع الحياة ، ج٥ ، ورقة ١١١ ، الفايز ، ابن ظفر ومنهجه في التفسير، ص٥٧ .

(٩٥) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على ، المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوى ، بيروت ، دار الغرب الإسلامى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ج٧ ، ص ١٥٩ ، الداوودى، طبقات المفسرين ج٢، ص٢٤٧ .

(٩٦) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٩ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ج١، ص١٤٢ ، السيوطى ، بغية الوعاه ، ج١، ص١٣٢ .

(٩٧) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ص١٤٢ ، الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢، ص ٢٤٧ .

(٩٨) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤٢ ، الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ص ٢٤٧ .

(٩٩) الوافى بالوفيات ، ج١، ص١٤٣، الداوودى ، طبقات المفسرين، ج٢، ص٢٤٧ .

(١٠٠) الداوودى، طبقات المفسرين، ج٢، ص٢٤٧ ، وقد سماه المقريزى كتاب (المعادات) انظر المقفى الكبير . ج٧، ص١٥٩ .

(١٠١) المقريزى ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ .

(١٠٢) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ ، ص١٤٢ .

(١٠٣) الداوودى ، طبقات المفسرين ،ج٢ ، ص٢٤٦ .

(١٠٤) الصفدى ، الوافى بالوفيات، ج١،ص١٤٢ .

(١٠٥) القرطبى : هو محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الانصارى الخزرجى الأندلسى، أبو عبدالله ، من كبار المفسرين، من مؤلفاته : (الجامع لأحكام القرآن) و (الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) و (التذكار فى أفضل الأذكار) . توفى سنة ٦٧١ / ١٢٧٣ م . المقرى ، أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق ، يوسف الشيخ محمد البقاعى ، بـــيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٦ / ١٩٨٦ م٠ ج٢، ص ٤١٣ ٠ الزركلى ، الأعلام ،ج٥ ، ٣٢٢ ٠

(١٠٦) القرطبى ، شمس الدين محمد بن أبى بكر بن فرج الأنصارى ، التذكرة فى أحــوال الموتى وأمور الآخرة ٠ خرج أحاديثه أبو سفيان محمود بن منصور البسطويســى ، المدينة المنورة ، دار البخارى للنشر والتوزيـــع ١٤١٧ / ١٩٩٧ م٠ ج١ ص ٧٠- ٧١ ٠

(١٠٧) المقريزى ، المفقى ، ج٧ ، ص ١٥٩ ٠

(١٠٨) الصفدى ،الوافى بالوفيات ، ج١، ص١٤٣ ، الداوودى ، طبقات المفســرين ، ج٢، ص ٢٤٧ ٠

(١٠٩) سورة يوسف : الآية رقم ٤١ .

(١١٠) مضمون هذا الحديث أورده ابن ظفر فى ينبـــوع الحيـــاة ، ج٣ ورقـــة ١٨ ب ٠ وبالرجوع إلى كتب الحديث لم أجد ما يقاربه إلا ما ذكره الدرامى فى باب الرؤيـــا عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها والتى ذكرت قصة المرأة التى كانت تـــأتى إلى الرسول ﷺ ليعبر لها رؤياها المتكررة ٠ انظر الدرامـــى، أبـــو محمـــد عبـــد الرحمن بن الفضل ، السنن ، عناية محمد احمد وهمان ، نشـــر دار إحيـــاء الســـنة النبوية ، ج٢، ص ١٣١ ٠

(١١١) ابن ظفر ، ينبوع الحياة ، ج٣ ، ورقة ١٨ ب ٠

(١١٢) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١، ص١٢٦ ٠ البغدادى ، إسماعيل باشا ، هديـــه العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفيـــن ، بـــيروت ، دار الكتـــب العلميـــة ، ١٤١٣ / ١٩٩٢ م، ج٦ ، ص ٩٦ ٠ أمارى ميخائيل ، المكتبة العربية الصقليـــة ، لبيسك ١٨٥٧م٠ طبعة بالأوفست فى مكتبة المثنى ببغداد ص ٧٠٠ ٠

(١١٣) المقريزى ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ ٠

(١١٤) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، المقريزى ، المقفى ، ص ١٥٩.

(١١٥) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤٢ ، كحاله ، عمـــر رضـــا ، معجـــم المؤلفين ، بيروت دار إحياء التراث العربى ، ١٣٧٦ / ١٩٥٧ م ج١ ، ص ٢٤١.

(١١٦) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج ١٩ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص١٤٢ ، كحالة ، معجم المؤلفين ، ج١٠ ، ص٢٤١ .

(١١٧) المقريزى ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ .

(١١٨) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٩ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص١٤٢ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ١٠١ .

(١١٩) الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص١٧١ ، الزركلى ، الأعلام ، ج٦، ص٢٣١ .

(١٢٠) المقريزى ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ١٠١ .

(١٢١) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١، ص ٢٦١ ، البغدادى ، هدية العارفين ، ج٦، ص ٩٥ .

(١٢٢) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ٢٦١ .

(١٢٣) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ٢٦١ .

(١٢٤) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، تحقيق محمد دمج ، ص ١٦ .

(١٢٥) المقريزى ، المقفى ، ج٧ ، ص ١٥٩ .

(١٢٦) أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى ، منسوب إلى صناعة الحرير أو بيعه ، ولد بالمشان بالقرب من البصرة ، كان أديبا فاضلا فصيحا ، قرأ العربية على ابى الحسن بن فضال المجاشعى ، والفقه على أبى إسحاق الشيرازى من مؤلفاته (المقامات) المشهورة . توفى سنه ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م.
القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣ ، ص ٢٣ ، السيوطى ، بغية الوعاه ، ج٢، ص ٢٥٧.

(١٢٧) كشف الظنون ، ج١ ، ص ٧٤١ .

(١٢٨) ابن برى : هو العلامة أبو محمد عبد الله بن برى بن عبد الجبار المقدسى النحوى، أمام وقته فى النحو كان مقصد الطلاب من الآفاق وعالما باللغة وشواهدها. من مؤلفاته (جواب المسائل العشر) و (حواش على الصحاح) توفى سنه ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م. الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ج٢١ ، ص ١٣٦ .

(١٢٩) ابن الخشاب هو : أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد البغدادى ، العالم المشـــهور فى الأدب والنحو والتفسير والحديث ويضرب به المثل فى العربية وقد شرح كتـاب (الجمل) لعبد القاهر الجرجانى ، وشرح (اللمع) لابن جنى ٠ توفى ســنه ٥٦٧ هـ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٣، ص١٠٢ ، الذهبى ، سير أعلام النبــلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٢٣ ٠

(١٣٠) الكتاب طبعة مطبعة الأمانة بالقاهرة سنه ١٤١١هـ / ١٩٩٠ م٠

(١٣١) حواشى ابن برى وابن ظفر على درة الغواص فى أوهام الخــواص للحريـرى ، دراسة وتحقيق ، أحمد طه سلطان القاهرة، مطبعة الأمانة ، ١٤١١هـــ/١٩٩٠م . ص ٤ ٠

(١٣٢) الشهاب الخفاجى هو : أحمد بن محمد بن عمر ، شهاب الدين المصرى ، قـاضى، ولد ونشأ بمصر ، تولــى القضاء فى مصر ٠ له مؤلفات كثيرة منها (شفاء العليـل) و (نسيم الرياض) و (ديــوان الأدب) توفــى ســنه ١٠٦٩ هـــ / ١٦٥٩ م٠ الزركلى ، الإعلام ، ج١ ص ٢٣٨ ٠

(١٣٣) حاشية ابن برى وابن ظفر على درة الغواص ، ص ٥ ٠

(١٣٤) حاشية ابن برى وابن ظفر على درة الغواص ، ص ٤ ٠

(١٣٥) الحاشية على درة الغواص ، ص٢٣ ٠

(١٣٦) سورة الزمر آية رقم ٣٧ ٠

(١٣٧) الحاشية على درة الغواص ، ص ٤٤ ٠

(١٣٨) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣ ، ص ٧٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيــان ، ج٤ ، ص ٣٩٦ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤٢ ٠

(١٣٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ص ٣٩٦ ، الصفــدى ، الوافــى بالوفيــات ، ج١، ص ١٤٢ ٠

(١٤٠) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٩ ، السيوطى ، بغيـــة الوعــاه ، ج١، ص ١٤٣، الداوودى ، طبقات المفسرين ، ج٢ ، ص ١٧٢ ، حاجى خليفـــة ، كشــف الظنون ، ج٢ ، ص ١٧٨٨ ٠

(١٤١) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج٥، ص ١٤٧ ٠

(١٤٢) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣ ، ص ٧٥ ٠

(١٤٣) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣، ص ٧٥ ٠

(١٤٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٣٩٦ ٠

(١٤٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ٣٩٦ ٠

(١٤٦) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٩، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ٣٩٦، الذهبى ، سير إعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٢٢ ؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ص ٧٢٧ .

(١٤٧) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج٦، ص ١٦٢ ٠

(١٤٨) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٩، الصفدى، الوافى بالوفيات ، ج١، ص ١٤١، طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ، ج١ ، ص ٢١٥ ٠

(١٤٩) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١١٧ ٠

(١٥٠) بروكلمان، تاريخ الأدب العربى ، ج٦ ، ص ١٦٢ ٠

(١٥١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربى ، ج٦ ، ص ١٦٢ ٠

(١٥٢) المرجع السابق ، ج٦، ص ١٦٢ ٠

(١٥٣) المرجع السابق ، ج٦، ص ١٦٢ .

(١٥٤) ابن ظفر ، ابناء نجباء الابناء ، اعتناء مصطفى القبانى ، د٠ت٠ ص ٥- ٦ ٠

(١٥٥) الضرام: دقاق الحطب الذى يسرع اشتعال النار فيه ومنه قولهم : ضرمت النار وتضرمت ، واضطرمت وقيل: الضرام من الحطب كل مالم يكن له جمر ٠ ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٢، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ٠

(١٥٦) الرهام : جمع الرهمة بالكسر: أى المطر الضعيف الدائم الصغير القطر ٠ يقال : أرهمت السماء إرهاما: أى امطرت ، وأرهمت السحابة : أى اتت بالرهام ٠ ابن منظور ، المصدر السابق ج١٢، ص ٢٥٧ ٠

(١٥٧) كهام: كهم الرجل وكهم يكهم كهامة ، فهم كهام وكهيم ، وتكهم : بطؤ عن النصرة والحرب ورجل كهام : ثقيل مسن ، وسيف كهام : أى لا يقطع ، ولسان كهيم : أى كليل عن البلاغة . ابن منظور ، المصدر السابق ج١٢، ص ٥٢٩ ٠

(١٥٨) همع: همع الدمع والماء ونحوهما ، أي سال • المصدر السابق ج٨، ص ٣٧٥ •

(١٥٩) الغمام : جمع غمامة ، أي السحاب ويقال سحاب أغم ، أي لا فرجه فيه • وواكفا من قولهم : وكف الدمع والماء وكفاووكيفا ووكوفا : إذا كانت تسيل قليلا قليلا • المصدر السابق ، ج١٢، ص ١٤٤ و ج ٩ ،ص ٣٦٢ •

(١٦٠) ابن ظفر ، أنباء نجباء الأنباء ، ص ٦ •

(١٦١) غرة الشيء: أوله وأكرمه ، ويقال : غرة قومه : أي سيدهم • كما يقال : فلان غرة من غرر قومه • أي شريف من أشرافهم • ابن منظور ، لسان العرب ، ج٥، ص ١٥ –١٦ •

(١٦٢) ابن ظفر ، أبناء نجباء الأبناء ، ص ٤٨ ، ص٥٠ ، ص ٥١ ، ص ٦٥ •

(١٦٣) من ذلك : ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٩ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص ١٤١، الأدنه وى ، أحمد بن محمد ، طبقات المفسرين ، تحقيق سليمان بن صالح الخزى ،المدينة المنورة ، مكتبة العلوم والحكم ١٤١٧هـ/١٩٩٧م . ص١٨٨

(١٦٤) البغدادى ، هدية العارفين ، ج٦ ،ص ٩٤ – ٩٥ •

(١٦٥) كشف الظنون ، ج٢، ص ٩٩٨ •

(١٦٦) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج٦، ص ١٦١ •

(١٦٧) بروكلمان ، المرجع السابق ، ج٦، ص ١٦١ – ١٦٢ •

(١٦٨) العماد ، الخريده ، فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٠٥ •

(١٦٩) لم اعترى له على ترجمه • كما أن هذا التاريخ لم تكن فيه صقلية تحت حكم المسلمين إذ أنها سقطت فى أيدى النورمان ولا وجود لقادة مسلمين فيها ، إلا إذا كان أميرا اسميا فقط ، وتحت رعاية الحكام النورمنديين •

(١٧٠) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١١٤ ، ١١٦ •

(١٧١) ابن ظفر ، المصدر السابق ، ص ١١٧ •

(١٧٢) الدورى ، تقى الدين عارف ، سقوط صقلية فى يد النورمان ، مجلة آداب المستنصرية ، العدد الثامن ، ١٩٨٤ م• ص ٣٤٣ •

(١٧٣) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١١٧ ، أما عن معنى السلوان كما ورد فى معاجم اللغة فقد ذكر الفيروز ابادى أن : السلوان بالضم : العسل ، كالسلوى ، ومنه خرزة تدفن فى الرمل فتسود فيبحث عنها ويسقاها الإنسان فتسليه أو هو دواء يسقاه الحزين فيفرحه ، القاموس المحيط ، ج٤، ص ٣٤٦ .

(١٧٤) سورة النساء آية رقم ١٩ .

(١٧٥) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

(١٧٦) سورة التوبة آية رقم ٥١ .

(١٧٧) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(١٧٨) ومن تلك القصص قصة مؤمن آل فرعون التى وردت فى صورة غافر والصراع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ، وبين الأمين والمأمون . وغير ذلك من الأحداث التى أراد منها المؤلف دعم آرائه وأفكاره فيما يتعلق بسلوانه التفويض .

(١٧٩) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١٦٣- ١٦٥ .

(١٨٠) من ذلك ذكره لما روى عن النبى ﷺ من انه قال: (انظروا إلى ما هو اسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فأنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) . ومن كلام المؤلف عن هذا الحديث قوله : أنه أمر لمن كان فى نعمة دقيقة ، بأن ينظر إلى من هو فى نعمة أدق منها . وأمر لمن كان فى بلاء ، أن ينظر لمن كان فى بلاء اشد من بلائه .. ثم قال : وإنما كان هذا الخبر بليغا فى باب التأسى ، ص ١٦٦- ١٦٧ .

(١٨١) سورة النحل آية رقم ١٢٧ .

(١٨٢) سلوان المطاع ، ص ٢٠٣ .

(١٨٣) سورة التوبة آية ٨٥ .

(١٨٤) سورة التوبة آية ٥٩ .

(١٨٥) سلوان المطاع ص ٢٤٥ .

(١٨٦) سورة طه آية ١٣١ .

(١٨٧) سلوان المطاع ، ٢٨٣ ٠
(١٨٨) عبد الحميد حاجيات ، نظرية بن ظفر الصقلى فى أخلاق الملوك ، مجلـة أوراق ، عدد ٤-٥-٦ ، ص ٥٠ ٠
(١٨٩) أبو حمو موسى (الثانى) بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحى بن يغمرا سن بـن زيان ٠ مجدد الدولة (العبد الوادية) فى تلمسان ٠ وكان ملوك بنـى حفـص قـد أعانوه على استرداد ملكه من بنى مرين ٠ توفى مقتولا فى معركة ضد ابنه عبـد الرحمن وذلك سنه ٧٩١هـ /١٣٨٩ م٠ كحالة ، معجم المؤلفيـن ، ج١٣،ص ٥٠ -٥١ ، الزركلى ، الإعلام ، ج١٧، ص ٣٣١ - ٣٣٢ ٠
(١٩٠) عبد الحميد حاجيات ، بن ظفر ونظريته فى اخلاق الملوك ، مقال ، ص ٥٠ ٠
(١٩١) أبو المظفر شمس الدين يوسف ابن قزاوغلى بن عبد الله ٠ ابن بنت الأمـام عبـد الرحمن ابن الجوزى ، عالم واعظ ، مؤرخ ، من مؤلفاته الكثيرة (الانتصار لائمـة الأمصار) و(ايثار 'الإنصاف فى مسائل الخلاف) و(معادن الابريز) وغير ذلـك توفى سنه ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م٠ الذهبى ، سير إعلام النبـلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٦، ٢٩٧ ٠
(١٩٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، تحقيـق إحسـان عبـاس ، بيروت ، دار الشروق ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م٠ ، ص ٣٥ ٠
(١٩٣) كتاب (كنز الملوك) لسبط ابن الجوزى ٠ موجز فى السياسة على منوال كتابـه الآخر (جوهرة الزمان) وله تسمية أخرى بعنوان (مختصر جوهرة الزمـان) ٠ وقد طبع الكتاب بعناية غوسطا فيتسم وزود بمقدمات وتعليقات وذلك سـنه ١٩٧٠ م٠ فى السويد ٠ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، مقدمة المحقق، ص ٣٥ ٠
(١٩٤) أبو زكريا يحيى بن محمد بن محمد بن الحسين بن خلدون الحضرمـى ، المغربى ، ولد بتونس، وسكن فاس ، وقتل بتلمسان ٠ كان كاتبا للإنشاء فى دولـة بنى عبد الواد ٠ ومن مؤلفاته كتاب (أيام أبى حمو الشامخة الاطواد) فى جزءيـن وقد كانت وفاته سنه ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م٠ كحالة ، معجم المؤلفيـن ج ١٣ ، ص ٢٢٨ ، الزركلى ، الإعلام ، ج٧، ص ٣٣٢ ٠

(١٩٥) ومن ذلك فى العصر الإسلامى نجد أن هذا النوع الأدبى قـد ازدهـر بعـد نقـل وترجمة بعض الآداب الفارسية إلى اللغة العربية مثل (كليلـة ودمنـه) و(الأدب الكبير) لابن المقفع ، وكتاب (سير ملوك العجم) لابن المقفع أيضا • وكذلك مـن خلال كتابات الجاحظ فى (التاج) و (المحاسن والأضـداد) • وفـى العصـر العباسى ظهر هذا النوع من التأليف ومن أمثلة ذلك كتـاب (إحسـان المحاسـن) (لأبى حسن الرخجى) وكتاب (الإشارة إلى أدب الـوزارة) للمـرادى • وكتـاب (سراج الملوك) للطرطوشى • وكتاب (الشهب اللامعة فى السياسة النافعة) لابـن رضوان •وكتاب (آداب السياسة بالعدل) للمبارك الخازندار البدرى • ابن ظفـر سلوان المطاع ، ص ٥٧ •

(١٩٦) على أن أهم المصادر التى اعتمد عليها ابن ظفر فى كتابه (سلوان المطاع) هـى (كتاب تاريخ غرر السير) للثعالبى • و(تـاريخ الطـبرى) و (تـاريخ بغـداد) ومؤلفات المسعودى (مروج الذهب ، وأخبـار الزمـان ، والتنبيـه) ومؤلفـات الماوردى (أدب الدنيا والدين ، وتسهيل النظر ، والأحكـام السـلطانية) واعتمـد كذلك على بعض مؤلفات الغزالي ومنها (أحياء علوم الدين ، والتـبر المسـبوك) وكتب مسكويه (تهذيب الأخلاق ، والحكمة الخالدة) • وكتاب (التاج فى أخـلاق الملوك للجاحظ) • واعتمد كذلك على كتاب (السياسة) لابن حزم • وهذه ليسـت كل مصادر ابن ظفر فى (السلوان) وإنما هى أمثلة عليها • ابن ظفـر ، سـلوان المطاع ، ص ٧٥ –٧٦ •

(١٩٧) معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٨ •

(١٩٨) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ، ص ٧٤ •

(١٩٩) العماد الأصفهانى ، الخريده ، فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٠٥ •

(٢٠٠) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ، ص ٧٤ •

(٢٠١) بغية الوعاه ، ج١، ص ١٤٣ •

(٢٠٢) أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندى ، الملقب ، تاج الديـن، البغدادى المولد والمنشأ ، الدمشقى الدار والوفاه • نحوى اديب ، أوحد عصره فـى

فنون الآداب وعلو السماع . له كتاب مشيخة على حرف المعجم . أخذ عن مجموعة من الشيوخ ومنهم ابن الخشاب وأبو منصور الجو اليقى . توفى سنه ٦١٠هـ / ١٢١٣ م. ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٢ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٢٠٣) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣، ص ٧٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج٤ . ، ص ٣٩٦ .

(٢٠٤) على سبيل المثال ما نجده عند العماد الإصفهانى فى (الخريدة) وعند القفطى فى (أنباه الرواه) وعند ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) والصفدى فى (الوافى بالوفيات).

(٢٠٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤، ص ٣٩٦ .

(٢٠٦) ابن ظفر ، سلوان المطاع ، ص ١٢٨ .

(٢٠٧) ابن ظفر ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

(٢٠٨) السيوطى ، بغية الوعاة ، ج٢، ص ١٤٣ .

(٢٠٩) ابن ظفر ، سلوان المطاع، ص ٢٤٩ .

(٢١٠) ابن ظفر ،المصدر السابق ، ٢٨٩ .

(٢١١) القفطى ، أنباه الرواة ، ج٣ ،ص ٧٤ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٤ ، ص ٣٩٧ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، ج١، ص ١٤٢ .

(٢١٢) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٤٨ .

(٢١٣) هو الملك العادل نور الدين محمد بن زنكى بن آقسنقر ، صاحب الشام ، كان ملكا عادلا ، مجاهدا ، بنى المدارس فى بلاد الإسلام . واشتهر بأعمال البر ، وتوفى سنه ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م. الذهبى ، سير إعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٣١ .

(٢١٤) أنباه الرواه ، ج٣ ، ص ٧٥ -٧٦ ، وهنا أنقل تعليق القفطى على هذه الحالة - وان كنت أرى فيها نوعا من التحامل - حيث قال : (وهذا غاية ما يكون من الخسة ، وأهل حماه قوم لا يعرفون كرما ، ويعدون البذل مغرما ، فبقى فى غمرات الفقر شطر عمره)

(٢١٥) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج١٩، ص ٤٨ ، ابن خلكان ، وفيـــات الأعيـــان ، ج٤ ، ص ٣٩٧ ، الذهبي ، سير إعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٥٢٣ ، الصفدى ، الوفيـــات ، ج١ ، ص ١٤١ ، الفاسى ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٣٩٦ .

(٢١٦) القفطى ، أنباه الرواه ، ج٣، ص ٧٤ ، الفاسى ، العقد الثمين نقلا عن القطيعى فـــى ذيل تاريخ بغداد . ج٢ ، ص ٣٩٦ .

(٢١٧) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج٥ ، ص ٤٢١ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر المخطوطة :

ابن ظفر الصقلي ، حجة الدين محمد بن أبى محمد ، ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م . ينبوع الحياة ، مكة المكرمة ، معهد البحوث العلمية ، جامعة أم القرى ، الجزء الأول رقم (٥٠٦) تفسير .

ثانيا : المصادر العربية المطبوعة :

- ابن أبى جراده ، كمال الدين عمر بن أحمد ، ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ط١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .
- ابن الأثير عز الدين على بن محمد الشيبانى ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، الكامل فى التاريخ ، بيروت ، دار صادر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
- ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك ، ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ، الصلة ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة مطابع سجل العرب ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٦م .
- ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .
- ابن حجر ، الإمام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى ، ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م . لسان الميزان ، بيروت ، درا الفكر ، ط١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٧٨م .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م . المقدمة ، بيروت دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الرابعة ، د. ت .

- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، ت٦٨١هـ/١٢٨٢م ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

- ابن ظفر ، حجة الدين محمد بن أبى محمد الصقلى ، ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م .

(أ) سلوان المطاع في عدوان الأتباع ، تحقيق محمد أحمد دمج ، بيروت ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م . وطبعة أخرى باعتناء أبو أحمد بن عبد المجيد ، نشر أسعد طرابزونى الحسينى ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م . وطبعة تونس المؤرخة سنة ١٢٧٩هـ .

(ب) حاشية ابن ظفر على درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ، تحقيق أحمد طه سلطان، القاهرة ، مطبعة الأمانة ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

(جـ) أنباء نجباء الأنباء ، بيروت ، دار الآفاق ، د. ت .

(د) خير البشر بخير البشر، القاهرة ، د. أ. ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

- ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ، ت ١٠٨٩هـ/١٧٧٥م ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ، دار الفكر ، ط١ ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

- ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد اليعمرى المدني ، ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م . الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة دار التراث ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

- ابن كثير ، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي ، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م ، البداية والنهاية ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، ت ٧١١هـ/١٣١١م ، لسان لعرب بيروت ، دار صادر ، د. ت .

- ابن منقذ ، أبو المظفر مجد الدين أسامة بن مرشد الشيزرى ، الاعتبار ، تحقيق قاسم السامرانى ، الرياض ، دار الأصالة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- الأدنة وى ، احمد بن محمد ، من علماء القرن الحادي عشر الهجري ، تحقيق سليمان بن صالح الخزى ، المدينة المنورة ، مكتبة العلوم والحكم ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

- البيهقى ، أبو الحسن على بن زيد ، ت ٥٦٥هـ/١١٧٠م . تاريخ حكماء الإسلام ، اعتناء محمد كرد على ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .

- حاجى خليفة ، مصطفى بن عبد الله ، ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م . كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، اعتناء محمد شرف الدين ورفعت بيلكه ، استانبول ١٣٦٠-١٣٦٢هـ / ١٩٤١-١٩٤٣م .

- الحموي ، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي ؛ ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م . معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م . معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، د. ت .

- الدارمى ، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام ، ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م ، السنن ، اعتناء محمد أحمد دهمان ، دار إحياء السنة ، د. ت .

- الداوودى ، شمس الدين محمد بن على بن أحمد ـ ت ٩٤٥هـ/١٥٣٨م . طبقات المفسرين، تحقيق على محمد عمر ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

- الدميرى ، كمال الدين محمد بن موسى ، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥هـ حياة الحيوان القاهرة ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م .

- الذهبي ، الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، بيروت ، دار الرسالة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- سبط ابن الجوزي ، يوسف بن قزاوغلي ، ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦هـ ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، القاهرة ، دار الشروق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي ، ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م . طبقات الشافعية الكبرى ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة ، د.ت.

- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م .

(أ) طبقات المفسرين ، مراجعة لجنة من العلماء ، بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

(ب) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٨هـ/١٩٦٧م .

- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م الوافي بالوفيات، اعتناء مجموعة من الباحثين ، ألمانيا ، دار فرانز شتايز بفيسبادن ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره ، ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، د. م. دار الكتاب العربي ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

- طاش كبرى زاده ، أحمد مصطفى ، ت ٩٦٨هـ/١٥٦٠م . مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوع العلوم ، مراجعة وتحقيق كامل بكرى و عبد الوهاب أبو النور ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة د. ت .

- العماد الأصفهاني ، أبو عبد الله محمد بن محمد صفى الدين ، ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، دمشق ، المطبعة الهاشمية ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

- الفيروز ابادى مجد الدين محمد بن يعقوب ، ت ٨١٧هـ/١٤١٤هـ ، القاموس المحيط ، بيروت ، المؤسسة العربية ، دار الجبل للطباعة والنشر د. ت .

- القرطبي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن فرج الأنصاري ، ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م ، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، خرج أحاديثه أبو سفيان محمود بن منصور البسطويسى ، المدينة المنورة ، دار البخاري للنشر والتوزيع ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

- القزوينى ، زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م . عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، القاهرة ، مطبعة المعاهد . د ت .

- القفطى ، الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف ، ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار الفكر ، بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- المراكشي ، عبد الواحد بن على ، ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، اعتناء محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي ، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٤٩م .

- المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ، ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعى ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- النعيمى ، عبد القادر بن محمد ، ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م . الـدارس فـي تـاريخ المدارس ، تحقيـق جعفـر الحسـنى ، القـاهرة ، مكتبـة الثقافـة الدينيـة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

ثالثا : المراجع العربية الحديثة :

- بروكلمان ، كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .

- البغدادى ، إسماعيل باشا ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عـن أسامي الكتب والفنون ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- جوده ، صادق أحمد داوود ، المدارس العصرونية في بلاد الشـام ، بـيروت ، مؤسسة الرسالة ، دار عمار ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، القاهرة ، مكتبة النهضة الحديثـة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

- الدوري ، تقى الدين عارف الدوري ، سقوط صقلية وانتـهاء السـيادة العربيـة عليها ، مقال ، مجلة آداب المستنصرية ، العدد الثامن ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

- الزركلى ، خير الدين الزركلى ، الأعلام ، القاهرة ، بيروت ، دار العلم للملاييـن ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

- الزهرانى ، على بن محمد ، الحياة العلمية في صقليـة الإسـلامية مـن سـنة ٢١٢هـ/٤٨٤هـ ، مكة المكرمة ، مطبوعات معهد البحوث العلمية بجامعـة أم القرى ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

- عبد الرحمن حميده ، أعـلام الجغرافييـن العـرب ، دمشـق ، دار الفكـر ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- عبد الحميد حاجيات ، نظرية ابن ظفر في أخلاق الملوك من خلال كتابه سلوان المطاع ، مقال بمجلة أوراق ، العدد ٤- ٥- ٦ ، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد .

- العسيرى ، مريزن سعيد ، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقى ، مكة المكرمة ، مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

- مارتينو ، ماريو مورينو ،المسلمون في صقلية ، بيروت ، منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

- منير الدين ، أحمد ، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري ، مستقاة من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ترجمة سامى الصقار ، الرياض ، دار المريخ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- ميخائيل امارى ، المكتبة العربية الصقلية ، طبعته بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة ليبسك ، ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م .

السياسة الأمنية للسلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الأول
وأثرها على التقدم الاقتصادى لبلاده
دراسة تحليلية

د. نورة عبد الله بادياب[*]

مرت دولة سلاجقة الروم كغيرها من الدول بمراحل عديدة خلال تاريخها ابتداء من مرحلة التأسيس والبناء (٤٧٤ - ٦٠٧هـ/١٠٨١ - ١٢١٠م) مروراً بمرحلة النضج والازدهار (٦٠٧ - ٦٣٤هـ/١٢١٠ - ١٢٣٧م) وانتهاء بمرحلة الضعف والانهيار (٦٣٤ - ٧٠٠هـ/١٢٣٧ - ١٣٠٣م) .

ومهما يمكن أن يكتب أو يقال عن صعوبة مرحلة التأسيس والبناء ، إلا أن دور النضج والازدهار كان الدور الأكثر عطاء ، وهو الدور الذى ترك بصماته الواضحة فى تاريخ تلك المنطقة ، فلا غرو أن يطلق على ذلك الدور اسم « العصر الذهبى »[١] .

ولقد لعب السلطان علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦ - ٦٣٤هـ/١٢١٩ - ١٢٣٦م) الذى كان ألمع وأكثر سلاطين سلاجقة الروم تميزًا - دوراً بارزًا فى ذلك العصر حتى استحق لقبى السلطان العظيم ، وسلطان العالم[٢]. فالسياسة الأمنية التى اتبعها بمنطق سليم وصارم بهدف حفظ أمن السلطنة وتنمية الحياة الاقتصادية فيها ، جعلت اسمه يخلد فى التاريخ كأعظم رجل سياسة عرفته آسيا الصغرى فى العصور الوسطى (القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى) وهو عصر نهوض الاقتصاد ونمو العلاقات التجارية .

وقد اتبع علاء الدين كيقباد فى سبيل تنفيذ هذه السياسة كل الوسائل الممكنة الدبلوماسية ، والحربية ، واستطاع إحراز الكثير من النجاحات فى الميادين الخارجية والداخلية مما كان له أثره فى ازدهار الوضع الاقتصادى لبلاده .

(*) جامعة الملك عبد العزيز - جدة .

ففى الميدان الخارجى وعلى الحدود الغربية لم تشـــكل إمبراطوريـــة نيقيـــة البيزنطية[٣] خطرًا حقيقيًا أو تهديدًا مباشرًا لسلاجقة الروم بل على العكـــس كـــانت تشـــكل ترسًا ضد الصليبين اللاتينين الذين كانوا يعدون الأعداء الغربييـــن للـــروم البيزنطيين بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م[٤] .

واستمر التقارب والوفاق بين سلاجقة الروم وإمارة نيقية البيزنطيـــة طـــوال عهد كيكاوس الأول وأخيه كيقباد الأول ، بل زاد هذا التقارب بين الطرفيـــن عنـــد مجئ الغزو المغولى لآسيا الصغرى[٥] .

وهكذا لم يكن هناك خطر يذكر من جهة الحدود الغربية مما وافـــق خطـــط السلطان كيقباد الأول الذى كان يرغب فى استمرار رفاهية وأمـــان شـــعبه علـــى الحدود الغربية وعدم رغبته فى أن تعيش فى اضطراب[٦] .

أما بالنسبة للحدود الأخرى لدولته فقد كانت سلطنة ســـلاجقة الـــروم بحكـــم موقعها الجغرافى ممرًا لكثير من الطرق التجارية العالميـــة ، فضـــلاً عـــن تملـــك سلاجقة الروم لكثير من المراكز الهامة الواقعة على الطرق التجارية الكبيرة ، لـــذا كان من الطبيعى أن يبذل علاء الدين كيقباد من الجهود ما يحقق بـــه الإشـــراف على تجارة العبور وذلك بتأمين هـــذه الطرق وبالتكفل بدفـــع كـــل مـــا يمكـــن أن يعرض لها من خطر .

وبناء عليه انطلقت السياسة الأمنية وفق خطوات صائبة منذ توليـــه العـــرش وارتكزت على أساس حماية سواحل بلاده أولاً باعتبار أن المنـــافذ البحريـــة التـــى اكتسبها سلاجقة الروم هى موانئ مهمة تخدم تجارة العبور مـــن نـــاحيتى الشـــمال والجنوب ، فضلاً عن حرصه الكبير واهتمامه البالغ بحماية طرق التجـــارة البريـــة ومحطاتها وهو ما دفعه إلى الاتجاه بعزيمة نحو شرق بـــلاده (الحـــدود الشـــرقية لدولته) .

قام علاء الدين كيقباد بمجرد جلوسه على العرش ، وبتوجيـــه مـــن بعـــض أمرائه ، بفتح حصن كالونوروس وقلعة آلاره على الساحل الجنوبى لبـــلاده والتـــى

كان من الممكن أن تكون محور ارتكاز للقبارصة والفرنج الآخرين ، وغير اسـمها إلى العلائية (العلايا) . وأنشأ فيها ترسانة بحرية لخدمة أسطوله ولحماية أنطالية[٧] . وتم بذلك تأمين الساحل الجنوبى لبلاده .

كذلك هيأ فتح علائية وتأمين أنطالية الطريق لإقامة علاقات تجارية عن طريق البحر مع قبرص وسورية ومصر[٨] . ووصل إلى الأراضى السلجوقية. التى أصبحت تمثل عصب تجارة العبور فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى ، التجار البروفانسيون والبنادقة والمصريون الذين كانوا يمارسون تلك التجارة بين سينوب وقونية وقبرص والإسكندرية والجزيرة ويحملون مختلف البضائع من الشعير والصوف والجلود والحرير والخام المشغول بل وحتى المجوهرات والفراء والرقيق وغيرها من البضائع الثمينة[٩] . وزاد كيقباد الأول من عظم أهمية الطرق التى تمر عبر أراضى دولته بتأسيس نوع من نظام تأمين الدولة وفرض ضرائب جمركية معقولة[١٠].

وقد تابع علاء الدين كيقباد الأول اتخاذ التدابير الفعالة الهادفة لحماية طرق التجارة الدولية (العبور) فقام بعد فتح علائية وفى الفترة بين ٦٢٣ - ٦٢٥هـ بعدة حملات عسكرية لإعادة الأمن والاستقرار لبعض المناطق التى تعرض فيها التجار لبعض عمليات القرصنة .

ويذكر المؤلفون فى هذا الشأن أن ثلاثة من رعايا السلاجقة دخلوا على خيمة السلطان علاء الدين كيقباد أثناء تواجده فى قيسارية يشكو أحدهم من مشكلة قرصنة تعرض لها من جانب الروم والقبجاق عبر الخزر سرقوا فيها كل أمواله التى أضاع حياته من أجلها ثم جاء شخص آخر يشكو من اضطراب أمن الطرق المتجهة والقادمة من حلب وخاصة عند عبورها ولاية تكفور[*] بلاد

(*) تكفور : لقب عام يقصد به كل من جلس على عرش مملكة أرمينية الصغرى ، مثلما لقب إمبراطورية الدولة البيزنطية بالأشكرى ، ومالك الحبشة بالحطى والنجاشى . ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص٥٥ ، مطبعة العاصمة ، مصر، ١٣٢١هـ . وسعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص٢٣٩ ، بيروت ، ١٩٧٧م .

سيس(*) ليفون(*) الأرمنى(١١) Lifon . حيث سرق الكفار أمواله. وأخيرا جاء شخص ثالث من أهالى انطالية يتحدث عن سرقة الفرنج لسفينته التجارية وفيها أمواله وأموال أصدقائه وقاموا بأسرهم(١٢) . فأثارت هذه الحكايات مشاعر السلطان وأمر بتطييب قلوبهم بسرعة وصرف أموالا لهم من خزائنه(١٣) . وأمر رجاله بالتحقيق حول هذه الوقائع وتقديم التعويضات للمتضررين ، ثم التفت جهة أمرائه قائلا : (الروم إن لم تغز غزت) ، وهو مثله المشهور ، وأضاف قائلا « نحن مسؤولون عن إعاشة هذه الشعوب فى أمن وسلام »(١٤) .

وهكذا أذن علاء الدين كيقباد للقوة العسكرية بالتدخل لحل تلك المشاكل، فأرسل حملة بقيادة الأمير حسام الدين جوبان(*) إلى القرم على رأس قوة بحرية تحوى العديد من السفن وبالتحديد صوب سغداق وذلك فى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ، وتمكن الجيش السلجوقى من احتلالها فى سنة ٦٢٥هـ(١٥) . وكان التجار الذين شكوا إلى السلطان مع الأمير ، فاستعاد جميع ما نهب من أموالهم ومتاعهم ورده إليهم(١٦) . ومد الأمير نفوذه إلى الداخل واستطاع فرض سيطرته على ممالك القبجاق والإمارات الروسية(١٧) . وفرض عليهم الجزية والخراج وأنشأ السلاجقة جامعا هناك ، وعينوا قاضيا وخطيبا ومؤذنا للجامع ومجموعة من الحراس(١٨) . ثم ركبوا السفن المحملة بالغنائم وعادوا إلى سينوب وقسطمونى(١٩) .

(*) سيس : هى عاصمة أرمينية الصغرى . سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص٢٣٩ .

(*) ليفون : أحد الألقاب التى اختارها المسلمون لملك أرمينية الصغرى وكذلك ابن لاون وهو تحريف للفظ ليون أو ليو أول ملوك أرمينية الصغرى . سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص٢٣٩ .

(*) حسام الدين جوبان : أمير قسطمونى ، وزعيم التركمان الأوج الذين اشتهروا بالبسالة وشدة المراس وكان مشهورا بذكائه وبطولته وكثرة أتباعه وجنده .

Osman Turan: Selcuklulan Zamaninda, p. 358.

وكان يلزم القيام بحملة ضد الأرمن فى قليقية لوقوع هجمات علـــى التجـــار والقوافل القادمة من الجنوب وفقدان الطريق لأمنه وأمانه . والمعـــروف أن قليقيـــة كانت تشكل خطرا شديدا على المسلمين نظرا لطبيعتها الجغرافية الوعرة إذ يصعـب غزوها عن طريق بلاد الشام(٢٠) . كما كان فى مقدور القوى المعادية التى تســيطر على قليقية شن الغارات على أعمال حلب والعودة عبر بوابات قليقيـــة والتحصـــن بمعاقلها الجبلية . وذلك مثل ما حدث فى عهد علاء الدين كيقباد من اعتـــداء علـــى التجار القادمين من حلب عبر أراضى قليقية . فقام علاء الدين بجمع جنـــوده فـــى قيصرية استعدادا لحملة ضد الأرمن واستخدم التركمان الذين تجمعوا بأعداد كبـــيرة على الحدود . واتجه الجيش السلجوقى إلى قليقية . بقيادة الأميرين مبـــارز الديـــن جاولى الجاشنكير(*) والأمير كومنانوس موزد الرومى(٢١) .

وقرر الاثنان الاستيلاء على كل القلاع التى تصادفهما فـــى طريقـــهما إلـــى أرمينية ورفع أعلام السلطنة عليها . ووصلوا بعد فترة وجيزة إلى أقوى وأحصـــن القلاع وهى شينشن Cincin فأمر الجاشنكير جاولى الجنود بفرض الحصار علـــى هذه القلعة الشهيرة ، مما اضطر الأهالى إلى طلب المساعدة والعـــون مـــن ليـــون الأرمنى ، وأرسل ليون رسالة مؤثرة إلى الفرنج يطلب فيها العون، ويشـــعل فيـــها الغيرة والتعصب المسيحى فأرسلوا له من الجند والمدد مـــا لا يحصـــى . وتقـــابل الجيش الأرمنى مع الجيش الإسلامى ، وثبت المسلمون وأطلقوا رماحـــهم ونبالـــهم على الأعداء الكفرة ، وقتلوا وأسروا منهم الكثير ، وهرب ليفون ونفر ممن معـــه ، وغنم غنائمهم المسلمون . فما كان من أهالى القلعة بعد هذه الهزيمة إلا أن أرســـلوا أحد رهبانهم يطلب الصلح ، فأجابه إليه الأمير الجاشنكير مبارز الديـــن ، وعقـــدت معاهدة أمان ، أخلى بموجبها الأرمن القلعة ورحلوا . ورفعت أعلام السلطنة علـــى

(*) الجاشنكير : الأمير الذى يقوم بتذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفـا من أن يدس عليه فيه سم . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشـــا ، جــــ٥ ، ص٤٦٠

أبراج القلعة ، وبعثت البشائر للسلطان . وطلب قواد الحملة الإمدادات والمؤن لمواصلة الفتوحات فى أرمينية مما أوقع الرعب فى قلوب الأرمن الذين بعثوا إلى الأمراء بطلب الصلح مقابل دفع الجزية ضعفين ، وإمداد جيش المسلمين بألف وخمسمائة من الجند المشاة للمشاركة فى الحرب والقتال ، وضرب اسم السلطان علاء الدين كيقباد الأول على العملات النقدية التى تسك(٢٢) .

وبعث الأمراء رسالة ثانية إلى السلطان يبلغونه أمر العرض الجديد وكانوا قد أتموا فتح كل القلاع الأرمينية . فقام السلطان بإرسال فرمان ورسالة تتضمن الشكر لملك الأمراء والأمير كومنا نوس على جهودهم كما كتب عهد أمان عفى فيه عن اخطاء ليون . وطلب منه أولاً تقديم كل التعويضات للتجار الذين اغتصبت أموالهم من طرف اغنياء ورجال شعب القلاع التى تمكن قواد كيقباد من فتحها مع الزيادة ودفع الجزية مضاعفة(٢٣) . كما أمر أن يسلم أمر هذه الولاية وما فيها من قلاع إلى أحد أمرائه وهو الأمير قمر الدين وأن يعود الأمراء مبارز الدين جاولى وكومنانوس إلى مقر السلطنة لشرح مجريات الحرب ، كما أمر أن يعود الجند إلى أوطانهم للراحة(٢٤) .

وفى الوقت الذى كان فيه ملك الأمراء حسام الدين جوبان يقوم بفتح سغداق ومبارز الدين جاولى وكومنانوس بفتح أرمينيا . كان واحدًا من أقدم عبيد السلطنة وهو الأمير مبارز الدين أرتقش حاكم أنطالية يتخذ طريقه نحو الساحل الجنوبى وتمكن من فتح ما يقرب من أربعين قلعة . وعلى الرغم من أنه لاقى مقاومة شديدة من الفرنج إلا أنه تمكن من هزيمتهم خاصة عندما زادت حدة المعركة ، ثم أجبرهم على إخلاء القلاع ، فهرب معظمهم فى جنح الليل واضطر بقية أهالى القلاع أن يطلبوا الأمان عندما شعروا بعجزهم(٢٥) وبعد أن أكمل مبارز الدين ارتقش السيطرة على الساحل أرسل إلى السلطان بأخبار هذه الفتوحات وطلب منه السماح للقيام بحملة على جزر الفرنج (قبرص) . ولكن السلطان لم يجبه إلى طلبه ، واكتفى بتوجيه الأوامر إلى ارتقش لإعادة دفع وسداد كل حقوق التجار بل وزيادتها

ثم عودة الجند إلى بلادهم . وعاد مبارز الدين ارتقش إلى قيصرية ليعـرض علـى السلطان أعمال الفتوحات التى قام بها ، ولاقى من إكرام السلطان الشئ الكثير[٢٦] .

وهكذا استطاع علاء الدين كيقباد خلال حملاته العسكرية أن يحقق عدة أهداف خدمت النواحى الاقتصادية لدولته .

أولها : حماية منافذ الدولة البحرية وتأمينها مـن الناحيتين الجنوبية والشمالية بتأسيس ميناء علائية على البحر المتوسط ، وبالاستيلاء على سغداق على ساحل البحر الأسود . مما أدى إلى تزايد كثافة وحركة السفن التجارية المحملة بالبضائع المختلفة وتشجيعها على الإبحار والرسو فى تلك الموانئ بأمان . بما فيها سفن الدول المسيحية مـن بنادقة وبروفنساليين وحتى اللاتين[٢٧] .

ثانيها : تأمين التجار على أرواحهم وأموالهم بتأديب الدول التى كان أفرادها مـن روم وأرمن يمارسون القرصنة ، وإجبارهم على تعويض التجار الذين سرقت بضائعهم وسفنهم ، بل إننا نجد كيقباد يؤسس نوعا من نظام تأمين الدولة أو الضمان الحكومى الذى لم تعرف تفاصيله ، وذلك عن طريق دفع تعويضات من خزينة الدولة للتجار الذين يتضررون مـن فقدان وضياع بضاعتهم وأموالهم ويتعرضون لهجمات القراصنة والأشقياء[٢٨] . فأمن التجار واستمروا فى ممارسة نشاطهم التجارى عبر أراضى الدولة السلجوقية الآمنة بشكل ملحوظ فى عهده وأصبحت المدن السلجوقية ملتقى لنشاط أولئك التجار على اختلاف جنسياتهم ، ومراكز لتصريف بضائعهم .

ثالثها : تأمين مصادر الجزية ، حيث أنه من المعروف أن الجزية كانت تمثل مصدرا من المصادر المالية لدولة سلاجقة الروم الإسلامية[٢٩] . لذلك حرص كيقباد على تحصيلها وقد أجبرت السيطرة السلجوقية على المناطق والقلاع التى فتحت خلال عمليات التأديب ، حكام تلك المناطق على إبداء

مظاهر الخضوع والتبعية ليس فقط بسك اسم السلطان علـــى العملــة ، أو بتقديم المساعدات العسكرية ، وإنما أيضا بتأدية الجزيــة بــل ومضاعفتــها أيضا . ويظهر ذلك واضحا عندما سمع كيقباد بعصيان أمير العلايا وخيانتـه وسعيه لتسليم القلعة للفرنج القبارصة ، « فغضب السلطان غضبــا شـديدا وجمع معيته ، ووصل إلى علائية خلال شهر . وبعد التحقق من الأخبـــار التى وصلت له تبين بالفعل أن حاكم القلعة كان ظالما وخائنا حيــث شــهد عليه الأئمة والحفاظ وشرحوا مقاصده السيئة . فــأصدر الســلطان كيقبــاد الأوامر بتوقيع أقصى العقوبة به وبالذين يقومون بنفــس الخيانــة ، والتــى تنص على تقطيع جسده وتعليقه على أبراج القلعة . فلما بلغت أخبار هـــذه العقوبة الرادعة مسامع ملوك وأمراء الساحل ، قاموا بجمع الجزية والخراج طواعية وأرسلوها لأعتــاب الســلطان »[٣٠] . كمــا كــانت طرابــيزون وإمبراطورية نيقية البيزنطيتان تدفعان الجزية لســلاجقة الــروم ، وكــانت المبالغ الكبيرة التى التزم إمبراطور طرابيزون بدفعها لدولة الســلاجقة قــد زادت من قوة وثراء دولة سلاجقة الروم وظل أباطرة طرابيزون يدفعـــون الجزية لسلاجقة الروم حتى الغزو المغولى سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م .

سياسة علاء الدين كيقباد نحو المناطق الشرقية وأثرهـــا علــى النواحــى الاقتصادية لدولته :

أولى سلاجقة الروم منذ بداية حكمهم اهتماما بالمناطق التـــى تقــع شــرقى دولتهم، وازداد هذا الاهتمام فى بداية القرن الثالث عشر الميـــلادى . وأمــا عــن الأسباب التى دفعتهم إلى التوجه نحو الشرق فيبدو أنها غامضة إلى الحد الذى دفــع بالمؤرخ الفرنسى كلود كاهن أن يطرح التساؤلات الآتية :

١ - « هل كان الأمر يتعلق بإرادة توسعية طبيعية دفعتها للاســتفادة مــن تشــرذم الدول المنافسة لها كما هو شأن كل دولة قوية ؟ » .

٢ - « لقد قاموا بتوحيد شرق آسيا الصغرى لصالحهم ، فهل كانوا يريدون أن يضيفوا إليه كل الدول التى يقطن بها جزء من السكان الأتراك أم كانوا يريدون إبطال الدسائس التى يمكن أن تحاك بداخلها ؟ » .

٣ - « هل كانوا يعتقدون بأنه كلما اتسع نطاق دورهم العازل أمكنهم القضاء على الهجمات المتوقعة بشكل أفضل ؟ »(٣١) .

ومع أخذ كل التساؤلات التى طرحها كلود كاهن فى الاعتبار ، إلا أنه يبدو أنه أغفل طرح التساؤل الأكثر أهمية والتساؤل الذى يدور حول احتمال وجود أطماع اقتصادية لدى سلاجقة الروم فى توجهاتهم نحو الشرق ، وعلى الأخص فى عهد السلطان علاء الدين كيقباد الأول الذى كان يمثل ذروة التقدم الاقتصادى لسلاجقة الروم .

وبما أن المراكز التجارية لسلاجقة الروم والتى كانت تخدم تجارة العبور خلال حكم كيقباد الأول كانت تقع شرقى طريق انطالية - سينوب(٣٢) ، فإنه من المرجح أن كيقباد الأول فى سياسته الشرقية كان يهدف إلى إيجاد طوق أمنى يحمى الطريق التجارى وما يقع عليه من محطات ومدن تجارية . ولكى ندرك مدى أهمية العامل الاقتصادى فى توجيه سياسة كيقباد نحو الشرق ، كان لا بد من إلقاء الضوء على الأهمية الاقتصادية التى تمتعت بها المدن الواقعة على الحدود الشرقية لدولته سواء كانت تلك المدن تتبع سلاجقة الروم أو تتبع غيرها من الدول المجاروة .

وهنا كان لا بد من الاكتفاء بعدد المراكز الإدارية الأساسية التى كانت موجودة فى يد سلاجقة الروم عندما اعتلى كيقباد الأول العرش . وذلك لعدم وجود خرائط تشير إلى كل تفصيلات الحدود والتى يمكن مقارنتها بالخرائط العصرية . وكانت المراكز الإدراية الهامة تشمل قونية ، هرقلة ، نيكده ، آقسرا ، قيسارية ،

البستين ، ملطية ، سيواس ، طوقات ، أماسية ، سينوب ، قسطمونى ، قير شـهر ، أنقرة ، آقشهر ، اسبرطه ، انطالية(*) .

ولقد شكلت معظم المدن السلجوقية فى آسيا الصغرى مراكز تجارية هامة وحيوية خدمت الحركة التجارية الداخلية ، وحركة تجارة المرور ، خاصة تلك المدن التى كانت تقع فى النواحى الشرقية للدولة ، مثل سيواس ، قيسارية ، ملطية وآقسر ، وغيرها .

كذلك ارتبطت تلك المدن السلجوقية مع غيرها من المدن التجارية الشرقية الواقعة فى منطقتى الجزيرة والشام . ومن المعروف أن تلك المدن الشرقية سواء ما كان منها فى آسيا الصغرى أو فى الجزيرة أو فى الشام عرفت بشهرتها الاقتصادية وغمرت بالأسواق التجارية إما لوقوعها على الطرق التجارية ، أو لوفرتها الاقتصادية من الناحيتين الزراعية والصناعية . ويعتبر هذا تفسيرا منطقيا لسياسة الاهتمام والحرص الشديدين اللذين أولاهما السلطان كيقباد لكل من : سيواس ، أرزنجان ، أرزن الروم ، خلاط ، آمد ، بل وحتى حلب .

وفى ضوء ذلك يمكن القول أن السياسة الشرقية لعلاء الدين كيقباد الأول كانت تدور فى المقام الأول حول حماية طرق تجارة العبور أو المرور التى شكلت المدن الشرقية جزءا مهما منها .

أما بالنسبة لسيواس التى كانت تمثل قصبة التجارة السلجوقية فقد لعبت دورا هاما فى تنمية الاقتصاد السلجوقى ، حيث كانت مركزا تجاريا حيويا تتفرع منه الطرق الداخلية نحو أماسية وتوقات ، وآقسراى وقيسارية ، وقونية العاصمة ، ومنها إلى أنطالية وعلائية على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وهو طريق التجار البروفانسيون والبنادقة والمصريون . هذا علاوة على الارتباط الذى كان بين سيواس وتجار القرم عن طريق موانئ سينوب وسامسون . فقد قامت فى

(*) انظر مواقع هذه المدن على خريطة رقم (١) .

عصر علاء الدين كيقباد الأول (فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى) « حركة تبادل تجارى كبرى بين السكان المسلمين فى آسيا الصغرى وبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين من جهة ، وبين سكان جنوب روسيا (القفجاق) من جهة أخرى . وكان تجار بلاد الروس والموصل يتقابلون عادة فى سيواس بأعداد كبيرة تكفى لتشكيل قوافل ، يمضون بها صوب البحر الأسود عبر إقليم سلاطين سلاجقة الروم عن طريق سينوب وسامسون ويعبرون البحر ليصلوا إلى جنوب بلاد الروس(٣٣) .

وكانت مدن سلاجقة الروم فى ذلك الوقت ترتبط بالشرق الأقصى بواسطة الطرق المارة من فارس وتبريز(٣٤) . وكان أشهر تلك الطرق طريق يربط بين تبريز قاعدة إقليم أذربيجان وأهم مدنه التجارية وبين قونية ، ويبدأ من تبريز فى اتجاه الشمال الغربى إلى مدينتى أرزن الروم وأرزنجان اللتين كانتا تقومان بحراسة هذا الطريق الهام من جهة الشرق(٣٥) . ومنها إلى الغرب حتى سيواس ، ومنها فى اتجاه الجنوب الغربى إلى مدينة قيسارية ، ومنها إلى الغرب مع ميل للجنوب إلى قونية العاصمة . ويستخدم هذا الطريق فى نقل منتجات الشرق كالتوابل ، والبخور ، وسكر الهند ، وخزف الصين ولآلى الخليج العربى إلى بلاد سلاجقة الروم ، كما كان هناك طريقين آخرين يتجهان نحو سيواس أحدهما من بلاد الجزيرة ، والآخر من بلاد الشام ، وهو الطريق الذى يرتاده التجار السوريون(٣٦) ، ويربط بين حلب وقيسارية وهو الذى أعطى أهمية وحيوية كبيرة لمنطقة الإسكندرونة(٣٧) وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية حلب فى تلك الفترة حيث كانت المركز التجارى المتوسط بين الشرق والغرب، وأصبحت فى العصور الوسطى تحتل أعظم مدخل للتجارة الشرقية(٣٨) . وكانت البضائع التى تأتى من البلاد الشمالية عن طريق موانئ سينوب وسامسون وطرابيزون توزع على مدن سواحل البحر المتوسط وحلب ومنها إلى بقية العالم الإسلامى(٣٩) . وأهم هذه البضائع تتمثل فى الفراء والرقيق(٤٠). كما شكل الصابون سلعة تجارية هامة كانت تصدر من حلب إلى

سلاجقة الروم هذا عدا عن كونها سوقا مهما لحجر الشب(*) الذى كان يصدر إليها من سيواس[٤١] . وما يهمنا فى الموضوع أن حلب كانت أكثر الممالك الأيوبية الشامية فى ذلك الوقت تأثرا بمجاورة دولة سلاجقة الروم ، نظرا لوقوعها فى شمال الشام ومجاورتها لها ، فضلا عن تداخل الثغور الشامية والجزرية بين المملكتين حيث كان بعضها يتبع مملكة حلب وبعضها الآخر يتبع دولة سلاجقة الروم . وتظهر أهمية المناطق الشرقية فى احتوائها أيضا على الثروات المنجمية التى اهتم سلاجقة الروم بتنميتها واستغلالها منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى فى أرجاء الدولة ، مثل الحديد والنحاس والفحم وحجر الشب ، وكانت معظم هذه المواد الخام تتوافر فى المناجم الواقعة فى المناطق الشرقية من الدولة فحجر الشب كان يتوافر فى المناطق الواقعة حول سيواس ، واشتهرت ديار بكر بمناجم النحاس. كما تجدر الإشارة إلى سلعة اقتصادية أخرى اشتهرت بها المناطق الشرقية ألا وهى السمك المجفف الذى اشتهرت به بحيرة خلاط وأرجيش وهو من أهم الصادرات إلى بلاد الروم ومنها إلى الشواطئ الشمالية على البحر الأسود .

وهنا نود أن نشير إلى أنه على الرغم من أن سلاجقة الروم أصبحوا فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر بلدا مصدرا ، إلا أن استيراداتهم ظلت تزيد على صادراتهم[٤٢] . وإذا ألقينا نظرة على مستوى البضائع التى كان سلاجقة الروم يستوردونها من البلدان الشرقية وأهميتها فى تلك الفترة لأمكننا أن نضيف عاملا آخر من عوامل اهتمام السلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد بتأمين المناطق الشرقية وإنعاش طرق التجارة التى تمر عبرها ، فلم يقتصر سلاجقة الروم على استيراد القطن من مصر وإنما كانت حماة وحلب تقومان أيضا بتصدير القطن الجيد

(*) الشب : يعتبر حجر الشب من المعادن الهامة التى تنتجها سلطنة سلاجقة الروم . وكان هذا الحجر يستخدم على نطاق واسع فى صناعات العصور الوسطى كالأدوية والصباغة ودباغة الجلود . وأشهر محاجره فى آسيا الصغرى ، فى آقسراى ، وسيواس ، والوباد ، وقراحصار وكوتاهيه .

لسلاجقة الروم ، أما الأنواع الأجود منه والممتازة فتأتى من أرمينية الصغرى ، وتصدر إليهم بغداد الصوف الناعم الخفيف الجيد الصنع والذى يستعمله السلاجقة لعمائم سلاطينهم ووزرائهم ، ويأتيهم من بغداد أيضا المسك وأعواد الند والعنبر ، أما الحرير الممتاز والباهظ الثمن فيأتى من الصين ، ويأتيهم السجاد من بلاد فارس وخاصة من شيراز وبلاد ما وراء النهر ، أما الأحجار الكريمة التى شغف بها السلطان ورجال بلاطه فتأتى من آسيا الوسطى . وتقدم لهم جورجيا الخيول الأصيلة ، ويأتى الفراء بكميات كبيرة من روسيا[٤٣] .

وإذا رجعنا إلى الخريطة[*] يتضح لنا أن الحد الشرقى لدولة سلاجقة الروم عندما تولى كيقباد العرش كان يقوم على الفرات الأعلى حيث تقع مدينة ملطية (التى كانت تمثل قاعدة الثغور الجزرية) ، أهم مدن الولايات الشرقية، التى تقع شمال الجبل الدائر[٤٤] شرقى الفرات حيث تلتقى سلسلة جبال بنطس مع جبال طوروس الأرمنية[٤٥] .

وكانت تلك التضاريس الجبلية المحيطة بالحدود الشرقية لسلاجقة الروم أحد العوامل النى دفعت سلاجقة الروم لمحاولة التوسع عبر جبالهم فى السهول الزراعية الخصبة لشمال الشام وديار بكر[٤٦] . وقد أغرى خصب تلك الأراضى السلطان علاء الدين كيقباد الأول للتقدم نحوها بقصد استغلالها وتهيئتها لتكون أماكن مناسبة لتوطين التركمان[٤٧] ، إذ أنه أدرك ضرورة الاهتمام بقضية توطين تلك الجماعات التركمانية والاستفادة منها فى زراعة تلك المناطق وتنمية قدراتها الاقتصادية ، وجذب التركمان للعيش فيها بقصد الحد من خطر انسياحها داخل الأراضى السلجوقية ، وحماية الطرق التجارية ومناطق الزراعة الغنية من أعمالها التخريبية . وكأن كيقباد استشف ما قد يحدث من اضطرابات على يد أولئك التركمان من جهة الشرق خلال حياته وبعد مماته مثلما فعل الخوارزميون

(*) انظر خرطية رقم (١ ، ٢) .

والتركمان الإيوانية وغيرهم من أعمال السلب والنهب وتخريب طرق التجارة ومحطاتها وما فعله التركمان أتباع البابا إسحاق من حركة وعصيان وتمرد وتخريب لأراضى سلاجقة الروم بعد وفاته[٤٨] . فضلا عما سيحدث على يد أبناء تلك العشائر التركمانية من تغييرات سياسية لخريطة آسيا الصغرى .

وبناء عليه يمكن القول أن قضية توطين التركمان الذين كانوا يندفعون من الحدود الشرقية إلى داخل الأراضى السلجوقية فى آسيا الصغرى ، كانت هدفا وغاية من أهم أهداف وغايات السلطان كيقباد فى توجيه سياسته نحو الشرق ، وهو ما سيتضح خلال صفحات البحث .

كما كان اهتمام سلاجقة الروم بالجهات الشرقية نابعا من إدراكهم لأهمية مياه نهر الفرات الذى يخرج من أراضيهم ويمتد حتى يصب فى خليج فارس سواء من ناحية نقاء وصحة مياهه ، أم من ناحية صلاحية استخدامه كوسيلة طيبة للنقل والمواصلات[٤٩] .

ومن البديهى أن يكون السلطان علاء الدين كيقباد قد أدرك أهمية نهر الفرات الاقتصادية والاستيراتيجية ، فحرص كل الحرص على تحقيق نوع من الرقابة والإشراف على المدن والمحطات التجارية التى تقع عليه أو بالقرب منه بحكم أنها مواقع هامة تخدم تجارة العبور التى تهم سلاجقة الروم ، إضافة إلى أنها تمثل أسواق تجارية لها ثقلها الاقتصادى بما تمتعت به من موارد زراعية وصناعية وهذا يضيف سببا آخر لاهتمام علاء الدين كيقباد وحرصه على أمن كل من أرزنجان ، أرزن الروم ، بل وحتى حلب فى الشام ، فكلها من المدن التى منحها الفرات أهمية استراتيجية واقتصادية لا تخفى علىأحد .

ولعل فى استعراض امتداد نهر الفرات ومواقع هذه المدن منه ، ما يعزز القول بأهمية الفرات فى خدمة تجارة العبور . كما يؤيد القول بأن الفرات أعطى لتلك المدن بالفعل أهمية اقتصادية كبرى حيث منحها الخصب والرخاء ووفرة

المزروعات ، كما منحها أهمية استراتيجية بجعلها محطات ليس فقط للطرق التجارية البرية ، وإنما أيضا على الطريق النهرى للفرات والذى يصل إلى بلاد سلاجقة الروم .

فمدينة أرزن الروم التى تعتبر آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق[٥٠] ، بها منبع الفرات الذى ينبع من شرقيها وشماليها[٥١] . ثم يقطع نهر الفرات بلاد الروم ويمر بالقرب من ملطية (بينها وبينه ميل) ، ثم يجرى ما بين ملطية وسميساط[*] (وهى على غرب الفرات) فيعطف إلى جهة الجنوب ويمر بسميساط ويحمل من هناك السفن والأطواف إلى بغداد[٥٢] ثم يعطف بأخذ إلى الجنوب حتى يصل إلى بالس ويمر بنصيبين والرقة والرحبة وهيت والأنبار ويأخذ منه نهر عيسى الذى ينتهى إلى مدينة السلام (بغداد) ثم يمر حتى يصب فى دجلة ، وأكثر ماء الفرات يصب فى البطائح ، ثم يمر حتى يقع فى خليج أيلة فى بحر الهند (البحر الفارسى)[٥٣] . وهكذا يمكن الاستدلال على أن نهر الفرات كان طريقا حيويا من طرق المواصلات بين الشرق الأقصى وبلاد سلاجقة الروم .

أما أرزنجان فتقع غربى أرزن الروم (بين سيواس وأرزن الروم) فى ضفة الفرات اليمنى حيث تجرى مياهه خلفها[٥٤] . والطريق التى بين أرزن الروم وأرزنجان كلها مروج ومراعى[٥٥] ، ويتوافر فيها معدن النحاس ، وهى ذات هواء طيب[٥٦] .

ويمر الفرات أيضا فى عمل حلب من حد ملطية إلى أن يتجاوز الرقة – كما أوضحنا – وهو إذا انتهى إلى الشام ودخل فى أرضها تصب فيه أنهار متعددة من أعمال حلب منها النهر الأزرق وهو دون الدرب على حد بلاد الروم من الشام[٥٧] ، وكان مدخلا لبلاد سلاجقة الروم استغله الكامل فى الدخول لغزو سلاجقة الروم سنة

(*) سميساط : من بلاد الشام ، وهى على الفرات وفى الغرب عن قلعة الروم وفى الشمال عن حصن منصور ومأوها من الفرات ، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٦٧.

٦٣٢هـ[٥٨] ، كما استخدم علاء الدين كيقباد نهر الفرات للعبور بزوارقه وجنوده إلى الضفة اليمنى لبسط نفوذه حتى أواسط امتداد نهر الفرات[٥٩] كما سيتضح لاحقا ، مما يؤكد أهمية الفرات فى المواصلات وتأثير ذلك على أمن دولة سلاجقة الروم السياسى والاقتصادى . كما يجب ألا نغفل حقيقة هامة وهى أن سلاجقة الروم كبقية الشعوب التركية - حتى وقتنا الحاضر - يعلقون أهمية كبرى على نوعية مياه الشرب التى يستعملونها . وكانت هذه المهمة معقدة وصعبة خاصة فى فترات الجفاف ، لصعوبة نقل الماء من الفرات والمشاكل المعقدة المتعلقة به . فعندما سقط عز الدين كيكاوس الأول فى قيرشهر(*) اضطر رئيس السقاة لجلب مياه الشرب من الفرات على الرغم من طول المسافة التى تبلغ حوالى ١٥٠ ميلا[٦٠] . مما يؤكد القول بأن نهر الفرات قد لعب دورا هاما لدى سلاجقة الروم من ناحية كونه أيضا منبعا مائيا لأفضل مياه صحية للشرب ، كغيره من أنهار آسيا الصغرى وينابيعها[٦١] التى انتشرت فى عصر السلاجقة انتشارا ملحوظا . لذلك كان من الطبيعى أن يولى السلطان كيقباد اهتماما كبيرا للمحافظة على سلامة وأمن واستقرار المنطقة التى ينبع منها نهر الفرات ، وكذلك أمن المناطق التى يجرى خلالها ويخترقها لما لذلك من أهمية فى خدمة النواحى الاقتصادية والاستراتيجية لبلاده .

ولا بد أن نذكر هنا عاملا آخر يعتبر من أهم العوامل التى وجهت كيقباد للاهتمام بتأمين الحدود الشرقية لبلاده . ألا وهو التهديد المغولى القادم من الشرق . إذ أن المغول بتماديهم فى الهجوم على دول الجوار مثل القبجاق والكرج كانوا قد أوقعوا الفزع والرعب فى البلاد السلجوقية والعراق والجزيرة وحتى فى بلاد الشام.

(*) قير شهر : مدينة كبيرة ذات مبانى جميلة تقع على بعد ثمانين ميلا غرب قيصرية وكانت ذات شأن .

Hamd Allah Mustawfi of Qazwin: Nuzhat AL-Qulub, p.10.

وأخذت تلوح فى الأفق مخاطر الدمار الذى ألحقته هجمات المغول بالديار التى اجتاحوها[٦٢] .

لذلك ركز علاء الدين كيقباد اهتمامه صوب الشرق الذى يهدد دولته بخطر مرعب ، فأنشأ كأول تدبير أمنى أسوار وقلعة سيواس وقونية وذلك فى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م[٦٣] .

ولقد أفلح علاء الدين كيقباد بتحصينه لسيواس وغيرها من المدن الشرقية لبلاده ، إذ حدث ما كان متوقعا من جهة الشرق . فقد مثلت سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٣م نقطة فاصلة فى تاريخ آسيا الصغرى ، أو بالأحرى فى تاريخ سلاجقة الروم ومستقبلهم ، حيث حدث أن تقدمت الفرق العسكرية المغولية برئاسة شرماغون نويين[*] نحو سيواس وقتل الكثير من البشر وأسر الكثير منهم أيضا ، كما قام بتخريب العديد من المناطق حتى وصولا إلى منطقة (ابن راحت) القريبة من سيواس . إلا أنهم بعد هذا الهجوم عادوا مسرعين . وقام السلطان علاء الدين كيقباد بعد علمه بحوادث التخريب والفوضى التى قام بها جحافل المغول باتخاذ مجموعة من الإجراءات الرامية إلى زيادة تحصين الحدود الشرقية لدولته مثل القيام ببناء وتحصين المزيد من القلاع لمواجهة هذا الهجوم المحتمل . وقد أدرك المغول مدى قوة هذا السلطان وشهرته مع الأيام وأرسلوا له مبعوثا من طرفهم هو السفير شمس الدين عمر القزوينى ، وأراد المغول بذلك أن يصدقوا على سلطنة علاء الدين بإرسال سفيرهم ، كما أراد ضمنا أن يدخلوه تحت تبعيتهم[٦٤] . وشمل كيقباد السفير ببالغ الرعاية وأحاطه بمظاهر التكريم وأخذ يعد الهدايا لإرساله للمغول، واستطاع علاء الدين كيقباد بهذا التصرف الحكيم أن يجنب بلاده خطورة بالغة شهدتها العهود التالية بعد وفاته .

(*) نويان ونويين : هو اللقب الذى يعنى فى لغة المغول كبار الشخصيات وأقارب السلاطين والحكام .

انظر خليل أدهم : قيصرية شهرى ، ص٥٧ .

وقد زادت هذه الحادثة من إصرار علاء الدين كيقباد الأول على الاهتمام بالمناطق الشرقية وتحصينها وإعمارها وحشد الجموع التركمانية المقاتلة فيها وكان هدفه تهيئة تلك المناطق اقتصاديا وعسكريا حتى تستطيع مقاومة الأخطار التى قد تتعرض إليها حتى لا تتأثر بالتالى طرق تجارة العبور الشرقية ويحفظ علاء الدين كيقباد الشريان الرئيسى لاقتصاد دولته من مخاطر الاضطراب وعدم الاستقرار .

ملامح السياسة الشرقية للسلطان علاء الدين كيقباد الأول :

كانت سياسة السلطان علاء الدين كيقباد الأول الشرقية تقوم على أساس تحقيق المصلحة العامة ، مما يعنى أنه طالما كانت تلك المناطق تنعم بالاستقرار السياسى الذى ستنعكس آثاره بطبيعة الحال على تحقيق الأمن الاقتصادى ، فإن كيقباد لم يكن يحرك ساكنا ، سواء كانت تلك المناطق تابعة للأيوبيين كحلب ، خلاط ، أو لبنى منكوجك(*) كأرزنجان ، أو للأراتقة كآمد ، أو لأبناء عمومته كأرزن الروم . أما عندما كانت تلوح فى الأفق بوادر النزاع والاضطراب السياسى الذى ستنعكس آثاره السلبية على أمن الطرق والمحطات التجارية مثل ما حدث من نزاع بين الأيوبيين ، والتجاء للخوارزمين ، فإنه كان يقوم بتسيير جيوشه فى سبيل إعادة الأمن والاستقرار للمنطقة . وبمقارنة ودراسة التحركات العسكرية لعلاء الدين كيقباد الأول نحو الشرق يتضح أنها كانت تمتاز عن تحركات بقية أسلافه من سلاجقة الروم فى أنها لم تتم فى سرعة أو تهور ، وإنما كانت تحركات متأنية ومدروسة فكان كيقباد الأول يختلف فى سياسته تلك عن أخيه كيكاوس الأول الذى اتسمت سياسته الشرقية بالتسرع وعدم الحكمة ، مما أدى إلى فشل حملته على حلب واضطراره إلى الفرار . ويعلق المؤرخ ابن الأثير على فراره قائلا : « وإنما فعل هذه لأنه صبى غر لا معرفة له بالحرب »(٦٥) .

---

* بنومنكوجوك : من التركمان الذين استقروا وكونوا إمارات خاصة بهم فى غربى الفرات حيث فتحوا ارزبجان وكماخ وديوركى وقره حصار .

وكشفت كذلك سياسة كيكاوس الأول تجاه الشرق عن عدم إدراكـــه للخطـــر الصليبى الذى كان يحيط بالدولة الأيوبية ، فهو لم يتعاون معها ، بل كـــان عـــامل تهديد للنفوذ الأيوبى فى شمال الشام ، الأمر الذى شغل جزءا كبـــيرا مـــن القـــوات الأيوبية للتصدى لخطر سلاجقة الروم . ولقـــد دفـــع ســـوء تصرفـــه ذاك بعـــض المؤرخين إلى إتهامه بالقسوة والظلم بل والخيانة أيضا فيقول عنه أبو شـــامه وابـــن تغرى بردى : « إنه كان جبارا ، ظالما ، سفاكا للدماء » ولما عاد إلى بلـــده مـــن كسرة الأشراف له بحلب أتهم خوفا من أمراء دولته بأنهم قصروا فى قتال الحلبييـــن فسلق بعضهم فى القدور ، وجعل آخرين فى بيت فأحرقهم فأخذه الله بغتـــه فمـــات فجأة سكران ، وقيل ابتلى فى بدنه فتقطع »[٦٦]. بل أتهمه أبو شامه بأنه « هو الـــذى أطمع الفرنج فى دمياط »[٦٧] ، بينما أشاد معظم المؤرخين بشخصية عـــلاء الديـــن كيقباد وامتدحوه ، قال سبط بن الجوزى : « كان عاقلا شجاعا مقداما جوادا ، وهـــو الذى كسر الخوارزمى وكسر الكامل واستولى على بلاد الشرق »[٦٨] .

وقال عنه ابن العبرى : « كان السلطان علاء الدين كيقباد ممتازا بين ملـــوك زمانه بمنظره المخيف وذكائه المفرط وشخصه النقى المـــنزه عـــن كـــل الأهـــواء الرديئة خلافا لملوك العرب المعتادين الانغماس فيها . وكان المجرمون يهابونه جـــدا إذ كان صارما فى أحكامه وقد أخضع لسلطانه مدنا واصقاعا عديدة »[٦٩] . كما قال عنه ابن بيبى : « استطاع علاء الدين كيقباد، بعون من الله تعالى أن يحول سـلطنته إلى العلو والرقى حيث حقق الانتصارات الحربية وأنشأ القلاع العظيمـــة والأبـــراج العالية»[٧٠] .

وقال عنه الذهبى : « كان شجاعا ، مهيبا ، وقورا ، سعيدا ، هزم خـــوارزم شاه واستولى على عدة مدائن » و« كان فيه عدل وإنصاف فى الجملة »[٧١] . كمـــا قال القرمانى : « كان ملكا مهابا وقورا يحب الغزو »[٧٢] . ويضيف أبو شامة وابن تغرى بـــردى : «كان عادلا منصفا مـــهيبا مـــا وقـــف لـــه مظلـــوم إلا وكشـــف ظلامته»[٧٣].

وقد كان لتلك الصفات العالية من العدل والأنصاف والقوة والشجاعة والذكاء والبعد عن الأهواء وحب الغزو آثارها الواضحة على القرارات التي اتخذها والأعمال التي قام بها ، سواء كانت تلك الأعمال تتعلق بسياساته الخارجية أم الداخلية ، بما فيها قراراته تجاه النواحي الشرقية لبلاده .

١ - سياسته نحو آمد(*) :

لا تخفى أهمية آمد في كونها محطة تجارية بالغة الأهمية تقع على الطريق التجاري الموصل بين الشام وأرمينية وسلاجقة الروم[٧٤] . وكان أهلها يتاجرون مع جهات كثيرة شملت الشام والعراق والجزيرة والموصل وبلاد سلاجقة الروم وأرمينية وفارس (أذربيجان) والجهات الشمالية المتطرفة القريبة من بلاد الخزر، كما شملت مصر أيضا[٧٥] . كما كان لآمد أهمية اقتصادية كبرى ففيها تتوافر مناجم النحاس خاصة في أرغن Ergani شمال غرب آمد ، والتي كانت تعمل وتنتج في عهد السلاجقة[٧٦] . ولم يتدخل علاء الدين كيقباد الأول في شئون آمد أو غيرها من الممالك الشرقية حتى سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م . فبعد أن اتم فتح علائية سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م ، وتمكن من التخلص من أمرائه الطامعين في السيطرة والحكم في سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م ، وقام بتأديب الأرمن في قليقيه وغيرهم من الأمم المسيحية على السواحل ، بقى بقونية يصيف بها تاره وبقيسارية تارة أخرى ، ويشتى بانطالية وعلائية[٧٧] .

فلما كانت سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م أثارت الخلافات بين الأيوبيين ، وهجمات الخوارزميين والتركمان ، خوف كيقباد الأول على أمن وسلامة النواحي الشرقية وخاصة آمد التي كانت تتمع بأهمية اقتصادية كبيرة . إذ لا يخفى ما فعله الخوارزميون في نفس السنة ٦٢٣هـ عندما حاصروا خلاط وهي مفتاح البلاد

---

* آمد : من مدن ديار بكر على غربى دجلة كثيرة الشجر والزرع ، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٨٧ .

السلجوقية ، من سوء سيرة ونهبهم البلاد وما فيهم من الفساد مدوا أيديهم فى النهب وسبى الحريم وقتلوا من أهل خلاط قتلى كثيرة ، وهو ما ينفى القول بأن الخوارزميين كانوا درعا يقى هجمات المغول لأنهم أضعفوا البلاد ونهبوها[٧٨] . وفى نفس سنة ٦٢٣هـ قام التركمان الأيوانية بقطع الطريق فى الجهات الشرقية بالقرب من تبريز ، وأخذوا من تجار أهلها شيئا كثيرا[٧٩] . ثم حدث أن دب النزاع بين المعظم الأيوبى صاحب دمشق وبين أخيه الكامل صاحب مصر ، واستنجد المعظم خلال هذا النزاع بالخوارزمية ، بينما استنجد الكامل بفردريك الثانى (الصليبى) . وانضم إلى جانب المعظم والخوارزمية صاحب آمد الملك مسعود الأرتقى الذى كان يطيع الأشرف الأيوبى صاحب الجزيرة ، ثم أطاع جلال الدين خوارزمشاه ، واتفق معه على قتال الملك الأشرف الأيوبى الذى كان بينه وبين علاء الدين كيقباد مصادقة . فأرسل إليه الأشرف يحركه على بلاد صاحب آمد ، فوجدها علاء الدين كيقباد فرصة سانحة للتحرك وحماية أمن تلك المناطق .

وبدراسة التحركات العسكرية لعلاء الدين كيقباد تجاه آمد وديار بكر نجد أنها لم تتم فى سرعة وتهور وإنما كانت سياسة مدروسة ومتأنية ومسببة. فلم يتسرع كيقباد بإرسال حملة عسكرية لتأديب صاحب آمد الأرتقى قبل أخذ موافقة الملك الكامل الأيوبى ملك مصر .

بل يبادر بإرسال سفارة إلى الكامل فى مصر بهدية جليلة فى نفس سنة ٦٢٣هـ[٨٠] حرصا منه على استمرار حسن العلاقات مع الأيوبيين والاتحاد معهم ضد الغزاة، ثم سار علاء الدين كيقباد بنفسه إلى ملطيه وسير الأمير ابن مبارز الدين جاولى وأسد الدين كنداصطبل (إياس المجنون) إلى بلاد صاحب آمد للاستيلاء على بعض قلاعها منها شمشكازاد[*]

(*) شمشكازاد : قلعة ومدينة فى بلاد الجزيرة بين آمد وخلاط . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٢٩٤.

والكختا(*) ، وكان هذان الموقعان من المواقع الهامة لاحتوائهما على مناجم النحاس الذى يستخدم فى العديد من الصناعات الهامة ، فحاصروهما ، وتم استدعاء عمال المناجم قبل الاستيلاء عليهما[٨١] ، حفاظا على حياتهم . وتمكن الأمير مبارز الدين جاولى من الاستيلاء عليهما بالأمان بعد محاصرة شديدة[٨٢] . ويبدو أن استيلاء قوات علاء الدين كيقباد على هذين المصدرين المهمين لإنتاج خام النحاس كان سببا فى مسارعة الملك مسعود الارتقى إلى مراسلة الملك الأشرف الأيوبى ومصالحته للعمل على إقناع كيقباد بإعادتهما للاراتقة . فأرسل الأشرف إلى السلطان كيقباد يطلب منه العودة وترك بلاد مسعود ، فغضب السلطان وقال لرسول الأشرف : « قل لصاحبك لم أكن نائبا للأشرف يأمرنى وينهانى »[٨٣] . ولما عاد الرسول إلى الأشرف ، أنجد الملك الأشرف الملك مسعود بعشرة آلاف وحاول مواجهة جيش كيقباد ، لكن الهزيمة لحقت به وأسر مقدم جيشه ، وتابع جيش كيقباد تقدمه وفتح حصن منصور(*) أيضا الذى كان على مقربة من الفرات[٨٤] ، مما أضطر الملك مسعود الأرتقى أن يرسل رسولا إلى السلطان كيقباد معه هدايا جليلة ، يطلب الصلح والصفح عما مضى ، ويلتزم أموالا يؤديها فى كل سنة ويخطب له فى جميع بلاده، فأجابه كيقباد إلى طلبه وترك ما بقى من بلاده فى يده . وقال لرسول مسعود: « إذا كان قد وقع ضرر لكم من طرفنا ، فإن هذا المأخذ راجع إلى جهل وخطأ الملك مسعود . وطالما أنه قد جاء يقدم اعتذاره فنحن أيضا بطريق العفو والصفح ونتغاضى عن قصور وأخطائه »[٨٥] . وهذا يثبت أن السلطان علاء الدين كيقباد فى سياسته نحو الشرق ، لم يكن يطمع فى الاستيلاء وتوسيع نفوذه بقدر ما كان يهدف إلى إعادة الأمن والاستقرار والحيوية الاقتصادية للمنطقة وكان تحرك

(*) قلعة الكختا : هى من بلاد الجزيرة ، وهى قلعة عالية البناء ولها بساتين ونهر وبينها وبين ملطية يومين . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٦٣ .

(*) حصن منصور : من ثغور الجزيرة هو وملطية ويحاذى الفرات حدة الجنوبى وينحدر النهر الأزرق إلى شمال غرب حصن منصور / كى لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية، ص٢١٥٥ .

كيقباد نحو تلك الحصون يوحى بإدراكه لأهمية تلك الحصون من الناحية الاقتصادية فحصنى كختا وشمشكازاد من المناطق الغنية بمناجم النحاس ، والنحاس من المواد الخام الهامة فى صناعة الأوانى النحاسية وسك العملة النحاسية لذلك رفض كيقباد تسليمهما عندما طلب الأشرف ذلك . أما حصن منصور فكان يقع شمالى النهر الأزرق وجنوبى الفرات بين ملطية وسميساط[٨٦] . فهو إذا محطة مهمة تصل بين ملطية وسميساط الواقعتين على نهر الفرات ، مما يجعله يلعب دورا فى الطريق التجارى بين ديار بكر والشام وسلطنة سلاجقة الروم ، وباستيلاء كيقباد عليها يكون قد حقق نوعا من الاستقرار للطريق التجارى الموصل إلى بلاد الشام عن طريق الفرات .

٢ – سياسته نحو أرزنجان :

سبق أن أوضحنا أن أرزنجان من المدن الاقتصادية الهامة على نهر الفرات وهى من المدن التى حرص كيقباد على استمرار أمنها واستقرارها ، واستطاع كيقباد بمساعدة الأشرف الأيوبى بسط نفوذه على الضفة اليمنى وحتى أواسط امتداد نهر الفرات مخترقا بذلك التحصينات التى أقامها دواد شاه ليصل إلى أرزنجان[٨٧] . وكانت أرزنجان بيد فخر الدين بهرامشاه من بنى منكوجك لمدة ستين سنة بذلوا الطاعة خلالها لسلاطين الروم من السلجوقية وتقربوا إليهم بالمصاهرة . ولما مات فخر الدين ملك ابنه علاء الدين داود ، الذى كان عالما فى النجوم والحكمة والطب، ولكنه كان غافلا فى تدبير الملك وجاهلا فيه[٨٨] . فقبض على كثير من أمراء دولته وصادر أموالهم وأملاكهم ، بل تمادى فى التشدد معهم حتى وصل به الأمر إلى حد إصدار أوامره بحبسهم أو بإعدامهم مما أضطر بعضهم إلى الهروب من وطنه خوفا من الموت ، واتجهوا إلى سلطان سلاجقة الروم كيقباد الأول وشكوا له سوء أفعال علاء الدين فأكرمهم السلطان ، وبعث سفيره إلى علاء الدين داود شاه يطلب إطلاق سراح بقية الأمراء وإعادة أموالهم وأملاكهم ، فتردد علاء الدين

داود فى البداية ولكنه ما لبث أن أطلق سراحهم بعد ما هدده سفير السلطان بلهجة جافة[٨٩] .

وقدم أولئك الأمراء على السلطان كيقباد فأكرمهم وأقطع كل واحد منهم إقطاعًا من الأراضى الزراعية المثمرة . ولما بلغ ذلك علاء الدين داود شاه أدرك خطورة الوضع بزيادة نفوذ أمرائه وتماديهم . فأسرع بالذهاب إلى السلطان ومعه مجموعة كبيرة من الهدايا القيمة فأكرمه السلطان وقرره على ملكه بارزنجان وسيره إليه ومعه الكثير من الهدايا والأموال[٩٠] .

لما وصل علاء الدين داود شاه إلى أرزنجان حرضه قرناء السوء على الاستنجاد بالملك الأشرف الأيوبى وجلال الدين خوارزمشاه وركن الدين جهانشاه صاحب ارزن الروم ، ضد السلطان السلجوقى كيقباد فلما بلغ ذلك إلى السلطان كيقباد غضب غضبًا شديدًا ، وأرسل سرًا الأمراء والجنود إلى حدود قلعة كماخ وارزنجان ، بينما سار هو بنفسه بجيش ضخم عن طريق سيواس إلى ارزنجان وتمت السيطرة على القلاع بسرعة حسب أوامر السلطان ، حتى لا يستطيع علاء الدين داود شاه اللجوء إليها والتحصن بها . ووضع كيقباد الجنود أمام أبواب القلاع لحراستها ولم يقدر علاء الدين داود شاه على مقابلته ولم ينجده من أولئك الملوك فأضطر إلى طلب العفو من السلطان ، فصفح عنه السلطان كيقباد وأقطعة إقطاعا من الأرض فى منطقة آقشهر بالقرب من قونية يطلق عليها الآن اسم الغين Ilgin ، وأرسله هو وحاشيته ورجاله سويا إلى آقشهر[٩١] . ودخل كيقباد ارزنجان وتمت تصفية الوضع فيها ، وسلم أمرها إلى ابنه غياث الدين كيخسرو الثانى ، وعين مبارز الدين أرطقش أتابكاً له[٩٢] .

وقد أتضح من خلال مجريات أحداث فتح ارزنجان أن السلطان علاء الدين كيقباد لم يكن يهدف من جراء توجهه إلى ارزنجان تحقيق أى نوع من أنواع التوسع العسكرى أو فرض القوة ، وإنما كان يهدف إلى إعادة الأمن والاستقرار

التى كانت تنعم به سابقا ، قبل تولى علاء الدين داود الذى أساء معاملته لكبار الأمراء وقتلهم ومصادرة أملاكهم مما أدى إلى انتشار الاضطراب . فلما تقدم علاء الدين داود شاه ملك ارزنجان بالاعتذار للسلطان كيقباد الأول ، عفى عنه السلطان وأقره على بلاده . كما أن تسيير كيقباد لجيوشه لم يكن نتيجة تهور أو تسرع أو وليد لحظة غضب ، وإنما كان تحركا مدروسا ومسببا فقد كان السبب عظيما والخطر ملوحا ، وذلك حينما استخف ملك ارزنجان بتعهده الذى عقده مع السلطان كيقباد ، وحاول أن ينفض تبعيته وينضم إلى الخوارزميين[٩٣] الذين عاثوا فى البلاد التى دخلوها فسادا وتخريبا ، مما أضطر كيقباد إلى التحرك عسكريا للقضاء على ذلك الخطر ، والحفاظ على أمن المنطقة وحيويتها .

٣ – ارزن الروم :

أدرك السلطان علاء الدين كيقباد أهمية أرزن الروم الاستراتيجية والاقتصادية لسلاجقة الروم لذلك ظل ثابتا على نفس السياسة التى اتبعها تجاه مدن الشرق فلم يحاول التدخل فى شئون أرزن الروم إلا عندما اتجه صاحبها لمساعدة جلال الدين خوارزمشاه للاستيلاء على خلاط والتى كانت للملك الأشرف ملك دمشق. وهنا لاح الخطر وكان يتوجب على كيقباد سرعة التدخل عسكريا لإنقاذها، فخلاط هى مفتاح بلاد الروم[٩٤] . لكنه أدرك أنه لن يستطيع مواجهة جيش جلال الدين الخوارزمى وحيدا ، خاصة بعد وصول الأخبار إليه بما فعله ذلك الجيش بخلاط وتمكنه من الاستيلاء عليها فى سنة ٦٢٧هـ[٩٥] . وكان لا بد له من أن ينسق مع الأيوبيين لإشتراكهم معه فى التعرض لهذا الخطر . فألح فى طلب مساعدة الكامل الأيوبى وأخيه الأشرف، ويصور ابن الأثير حرص كيقباد وشدة الحاحه بقوله : «وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين ، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق ، فحضر عنده ، ورسل علاء الدين إليهما

متتابعة ، يحث الأشرف على المجئ إليه والاجتماع به ، حتى قيل أنه فى يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف من علاء الدين خمسة رسل »(٩٦) .

وقد أثبت كيقباد أنه كان حريصًا على المصلحة العامة ونشر الأمن فى جميع المناطق الشرقية سواء كانت تابعة له أم للأيوبيين الذين تداخلت حدودهم مع حدوده فى منطقة الجزيرة ، فعندما أحس كيقباد أن الخوارزميين يسببون اضطرابًا شاملاً فى اقتصاد منطقة الجزيرة بما يقترفونه من أعمال الفساد والتخريب للطرق التجارية سارع بالتحالف مع الأيوبيين ، وقدم عساكره ونفسه لإنقاذ البلاد ، موضحًا عدم وجود أى أطماع له فى المنطقة فبعد أن سقطت خلاط فى يد الخوارزميين أرسل كيقباد سفارتين أحدهما إلى الأشرف الأيوبى والأخرى إلى أخيه الكامل تضمنت السفارة الأولى التى أرسلها للأشرف قوله : « والآن فبلادى وأموالى بحكمك فتصل بالعساكر إلى قرشهر وتتجرد وحدك وتصل إلى عندى بقيسارية نتفرج ونحظى بخدمتك ونصل أنا وأنت إلى العسكر بالعساكر ، فوالله لا قنعت لك بخلاط بل بجميع البلاد »(٩٧) . وأرسل السفارة الثانية إلى الكامل الأيوبى يخبره فيها، بأنه جهز خمسة وعشرين ألفا إلى ارزنجان وعشرة آلاف إلى ملطية وقال له: « وأنا حيث تأمر ، فطاب قلب السلطان بذلك ، فكان مهتمًا لأمر الخوارزمى»(٩٨) .

ويتضح من خلال ذلك حرص كيقباد على التحالف مع الأيوبيين فى وقت عصفت بالمسلمين القوى الغازية من صليبيين ومغول ، فى الوقت الذى انساحت فيه جماعات التركمان الخوارزمية يخربون وينهبون مدن الجزيرة الغنية الخصبة والتى تداخلت حدودها مع حدود سلاجقة الروم والأيوبيين .

وقد استطاع كيقباد بحكمته وحسن سياسته أن يحقق المصلحة العامة التى كان يرمى إليها فنجح فى أيامه الأولى فى إقامة علاقات ود مع السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى ، وأخذ السفراء يغدون ويروحون لتقوية تلك الصداقة ، إلا أن

هجوم الأخير على خلاط التى كانت تحت حكم الأشرف الأيوبى حليف كيقباد . وتكوين علاقة بين الخوارزمى وبين جهانشاه أمير أرزن الروم الذى ساعده فى حصار خلاط قد أوجد الشكوك لدى كيقباد بخصوص سياسة جلال الدين ، فأرسل إليه أحد سفرائه وهو التون آبا وبصحبته العديد من الهدايا من أجل أن يصرف النظر عن احتلال خلاط ، إلا أنه لم يستجب لطلب كيقباد ودخلت جماعاته خلاط ونهبوها وخربوها وقتلوا الكثير من أهلها ، مما أضطر كيقباد والذى كان حريصا على أمن خلاط ، أن يتحد مع الأيوبيين لدرء الخطر الخوارزمى ، وتمكنوا من هزيمته فى رمضان سنة ٦٢٧هـ/ اغسطس ١٢٣٠م فى مكان يعرف بياسى جمن (من أعمال أرزنجان)(٩٩) .

وبعد هزيمة جلال الدين الخوارزمى أسر صاحب أرزن الروم ، وأحضر عند ابن عمه علاء الدين كيقباد ، فأخذه وقصد أرزن الروم ، فسلمها صاحبها إليه هى وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها . وكان حرص علاء الدين كيقباد على أمن أرزن الروم ، انطلاقا من حرصه على حماية الطريق التجارى لسلاجقة الروم، فكانت أرزن الروم تحمى حدود سلاجقة الروم كما أنها كانت من المناطق الغنية بمراعيها ومواشيها التى تصدر إلى فارس عن طريق تبريز .

وقد فرض اضطراب أحوال التجارة على يد الخوارزميين الذين احتلوا خلاط وعاثوا فيها فسادا ، وكذلك إغارة التركمان الأيوانية على الطرق ، ضرورة تحرك كيقباد . فقد حدث أن انتهز التركمان الأيوانية فرصة انشغال الخوارزمية واخذوا ينهبون أذربيجان ، ويقطعون الطريق ، وبلغ من طمعهم أنهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز ، وأخذوا من تجار أهلها شيئا كثيرا ، ومن جملة ذلك قطعان الماشية التى أشتراها تجار أرزن الروم وقصدوا بها تبريز ، فلقيهم الأيوانية قبل

وصولهم إلى تبريز ، فأخذوا جميع ما معهم ، ومن جملته عشرون ألف رأس من الغنم(١٠٠) . وهو عدد كبير يدل على كثرة قطعان الماشية التى كانت تصدر من أرزن الروم إلى تبريز ، ومدى اتساع تلك التجارة بين البلدين .

ولم يقتصر النجاح الذى حققته سياسة كيقباد على إلحاق الهزيمة بالخوارزميين وإخضاع أرزن الروم ، بل لقد حققت تلك السياسة نتائج بعيدة الأثر وعظيمة الفائدة ، وتمثلت فى استمالة جماعات الخوارزميين الفارة بعد هزيمة جلال الدين ، من تتبع المغول . والعمل على توطينهم وتثبيتهم فى قائمة جنده ، واستخدامهم فى استرداد بعض المناطق فى أرمينية والاستيلاء على خلاط . ونجح بذلك فى اتقاء خطرهم وشرهم ، وإبعادهم عن أملاكه ، والحد من انسياحهم داخل الأراضى السلجوقية .

كما اعتقد كيقباد أنه يمكنه تحقيق عملية رابحة لدعم الدفاع عن الأراضى الشاسعة التى يحلتها عن طريق توطين الخوارزميين فيها واستغلالهم فى إعادة إحياء تلك الأراضى التى كانت قد خربت من جراء هجمات التتار والخوارزمية أنفسهم(١٠١) .

٤ – خلاط :

خاف كيقباد على خلاط خاصة عندما بلغه تعرض المملكة الأرمنية لغارات المغول المتكررة وانتهاز بعض القوات الخوارزمية الفرصة لتقوم بالتخريب وأعمال النهب وقطع الطريق(١٠٢) . كما استشعر كيقباد من السلطان الكامل بعد استيلائه على أمد والتطلع إلى بلاده ، فبادر إلى فرض سيطرته عليها(١٠٣) . وانتهز رجوع الكامل إلى مصر وانشغال الأشرف بملاهيه(١٠٤) ، فأرسل الأمير كمال الدين كاميار الذى تمكن من الاستيلاء على خلاط سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م(١٠٥) ، كما

استولى على بعض القلاع المحيطة بها ، وشرع فـــى عمارتـــها بعـــد أن خربـــها الخوارزميون والتتار ، وأعاد إليها الأهالى الفلاحين الذين هربـــوا ، ووزع عليـــهم البذور والأسمدة والمواشى والغلال ، وأعفاهم من قسم من الضرائب كمـــا أصلـــح قلاعها وحصونها ، ومصادر مياهها . وعاشت هذه النواحى حالة مـــن الاســـتقرار والرفاهية وتوسعت الحركة التجارية ، فقام قسم من التركمان بـــالتوطن فـــى تلـــك النواحى[١٠٦] . ولما اقطعها لأحد أمرائه العقلاء الشجعان ذوى الخبرة وهو ســـنان الدين قايماز أمره باستمالة الخوارزميين الذين يفدون إلى تلك البـــلاد . واســـتطاع قايماز استمالة أميرهم قيرخان واقنعه بطاعة السلطان والدخول فى خدمته فأكرمـــهم ورتب لهم جميع لوازمهم ، وأقطع ارزنجان لقيرخان وعاشوا فى نواحـــى أخـــلاط وارزنجان وانتظمت أحوالهم[١٠٧] . وحقق كيقباد بذلك هدفا من أهداف توجهه إلـــى الشرق ، ألا وهو توطين التركمان للحد من خطرهم والاستفادة منـــهم فـــى إحيـــاء الأراضى الزراعية .

وحدث أن بدأت فى تلك الفترة المنافسة بين كيقباد والكامل الأيوبـــى حـــول منطقة الجزيرة خاصة بعد أن استولى الكامل على آمد وحصن كيفا واخضع حكـــام الجزيرة له سنة٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، فأصبح للعاهلين حدود مشتركة أخذ يعمل كـــل واحد منهما على تعديلها لصالحه .

ويبدو أن الكامل فى اتجاهه نحو الجزيرة كان يهدف إلـــى الســـيطرة عليـــها وعلى بلاد الشام وانتزاعهما من اقربائه الأيوبيين ويمنحهم بدلا عنها بلاد ســـلاجقة الروم التى كان يخطط للاستيلاء عليها[١٠٨] . فخرج مع أخيه الأشرف فـــى ســـنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م نحو بلاد الروم ، وطلب خروج العزيز صاحب حلب لمؤازرتهم،

إلا أن كيقباد سارع بمراسلة العزيز[١٠٩] واقناعه بعدم الخروج بنفسه خوفًا على حلب من دخولها فى خضم النزاع ، وهى من المدن التى حرص كيقباد على المحافظة على استمرار أمنها وسلامتها لدورها المهم فى تجارة المنطقة .

وعلى الرغم من نجاح الكامل فى عبور الفرات إلى بلاد سلاجقة الروم عن طريق خرتبرت « حصن زياد » إلا أنه فشل فى التوغل داخل البلاد بسبب وعورة المنطقة من جهة واستعداد جيش كيقباد من جهة أخرى ، مما أدى إلى ارتداد الجيش الأيوبى . واستخدم كيقباد الفرات أيضًا للعبور إلى الضفة الشرقية التى كانت تقوم عليها شحنة لحراستها[١١٠] ، فعبره هو وجنوده بالزوارق من ناحية ملطية ووصل إلى خرتبرت (حصن زياد) وكان يريد تأديب صاحبها الذى أرشد الكامل الأيوبى للدخول إلى بلاده عن طريق خرتبرت[١١١] فأحتل المدينة وطلب أهلها الأمان[١١٢] .

بل لقد حاول كيقباد الاستيلاء على الرها وحران سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م منتهزًا عودة الكامل إلى بلاده من غير طائل ، وتقاعد ملوك بنى أيوب عنه . وإنما اهتم كيقباد بهما لما تتمتعان به من أهمية اقتصادية حيث تقعان على أطراف الفرات الشمالية حيث تلتقى طرق المواصلات التى تربط بلاد الشام بالجزيرة والعراق وآسيا الصغرى . لكن الكامل تمكن من استعادتهما سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م[١١٣] .

والذى يهمنا هو أن هذه المحاولات من قبل كيقباد تدل بوضوح على حرصه الشديد على منطقة الفرات وإدراكه لأهميته كطريق حيوى للمواصلات بين بلاده وبقية بلدان الجزيرة والشام .

كما استمر اهتمامه بأمن منطقة حلب حتى آخر أيام حياته ، فقام وكف غارات التركمان عن حلب فى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م وأرسل إلى زعماء حلب

يتعهد بحماية الملك الصغير الناصر يوسف ويعرض عليهم مساعدته ونصره ومنع من يقصده أو يتعرض لبلاده بأذى أو فساد[١١٤] .

وعندما جمع قنغز (أمير من أمراء التركمان) جمعًا كثيرًا من التركمان بعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب ، « وعاث فى البلاد وأطراف حلب من ناحية قورس ، ونهب ضياعًا متعددة ، وكان يغار ويدخل إلى بلاد الروم ، فخرج إليه عسكر حلب فكسرهم ونهبهم فتخوف المقدمون بحلب أن يكون ذلك بأمر سلطان الروم ، فسيروا إليه رسولاً فى معناه فأنكر ذلك وأمره برد ما أخذه من بلد حلب فرد بعضه ، وانكف عن العبث والفساد »[١١٥] .

وهكذا استطاع كيقباد بحسن سياسته التى اتبعها فى جذب وتوطين الجماعات التركمانية ، أن يحقق نوعًا من السيطرة عليهم وتسييرهم حسب أوامره ، فكف غاراتهم ، واستخدمهم فى إحياء الأراضى الزراعية الخصبة التى سبق لهم أن خربوها مما عاد بالنفع على الحياة الزراعية ومنتجاتها التى انعشت الحياة الاقتصادية كما استطاع بإيثاره سياسة تحقيق المصلحة العامة ونشر الأمن والاستقرار فى جميع المناطق ومحاولته تجنب سياسة الاستيلاء والتوسع العسكرى أن يكسب ثقة وود حكام وملوك الشام والجزيرة ، فبادر الأشرف صاحب دمشق وأهالى حلب وكاتبوا السلطان صاحب الروم ليكون معهم عندما تنكروا للكامل ، وطلبوا مساعدته لمنعه من بلاد الشام ، وانضمت كلمة ملوك الشام على مخالفة الملك الكامل ، واخذوا يعتمدون على السلطان السلجوقى فى مواقفهم ضد السلطان الكامل[١١٦] . ولو كان علاء الدين كيقباد يطمع فى الاستيلاء على مدن الجزيرة والشام بغرض ضمها لبلاده كما فعل الكامل لما انتظمت كلمة ملوكها وإمرائها على الانضمام إليه والتحالف معه .

سياسة علاء الدين كيقباد الأمنية الداخلية وأثرها فى إنعاش اقتصاد بلاده :

لم يقتصر اهتمام علاء الدين كيقباد فى سبيل تحقيق الأمن الاقتصادى لدولتـه على الاهتمام بتأمين طرق التجارة الخارجية ، وإنما نراه يوجه اهتماماته أيضًا نحـو تحقيق الأمن الداخلى لبلاده . فقد آمن كيقباد بوجوب اتباع سياسة أمنية داخلية تكفـل تنمية مقدرات الدولة وثرواتها الداخلية . فأنشأ لحمايـة التجـارة الداخليـة سلسـلة عظيمة من الخانات تقدم كل أنواع الخدمات المجانية للقوافل التجارية التى تمر عبر أراضى الدولة(١١٧) .

وبلغ من حرص كيقباد على أمن تلك الخانات ، وسلامة القوافل التى تـأوى إليها ، أنه لم يقتصر على حراسة تلك القوافل عن طريق جعلها فى خفـارة قـوات مسلحة ، أو إيجاد نقاط للأمن على طول تلك الطرق ، ولكننا نجده يحـرص علـى بناء تلك الخانات بطريقة تجعلها شبيهة بالقلاع ومزودة بكل وسائل الدفـاع اتقـاء لإنقضاضات التركمان البدو المفاجئة(١١٨) .

ومن أهم الخانات التى انشئت فى عهد كيقباد الأول خان السلطان الذى كـان من أعظم الخانات شهرة وأكثرها روعة وهو يقع على طريق قونيه آقسراى بمدخلـه الفخم وزخارفه الجميلة ، وخدماته التجارية والاجتماعية والثقافية . وهنـاك أيضًـا خان ارطقوش وقادن وسعد الديـن وكلـها أنشـئت فـى عـهد كيقبـاد ولنفـس الأغراض(١١٩) .

استثمار أموال الأمراء فى إنشاء الأسوار وتحصين المدن :

لما اعتلى علاء الدين كيقباد العرش ، كان المغول يجتاحون آسيا الصغـرى ، فقام بإجراء الاحتياطات الأمنية الداخلية اللازمة لمواجهة هذا الخطـر القـادم مـن الشرق . وأصدر أوامره على الفور لامرائه بإنشاء قلاع وأسوار المـدن الشـرقية

وسيواس وقيسارية وارزنجان . وكان علاء الدين كيقباد يهدف من بنـــاء الأســـوار والقلاع وتحصين المدن إلى تحقيق هدفين مهمين :

أولهمـــا : حفظ الأمن والاستقرار لتلك المدن بما يكفل سلامة أرواح الناس وحفـــظ أموالهم من الاعتداءات الخارجية كالغزو المغولى القادم من الشـوق ، أو من الغارات وأعمال النهب والسلب التى كان يقوم بـــه التركمـــان بيـن الحين والآخر .

وثانيهما : استحداث سياسة جديدة تهدف إلى الحد من نفوذ أمراء دولتـــه الأغنيـــاء المبذرين المتسلطين ، الذين كانوا يهددون اقتصـــاد الدولـــة بتبذيرهـــم الأموال فى إقامة الحفلات وإنفاق الأموال فى قنوات لا ترجـــع بالفـــائدة على الدولة ، فضلاً عن أن هذه الثروات قد جعلت للأمراء مكانة ربمـــا زادت أحياناً على مكانة السلطان كما شجعتهم على المعارضة ومحاولـــة فرض إرادتهم وسيطرتهم على الأمور .

ولما تولى علاء الدين كيقباد الحكم وجد أمراء أقوياء يتمتعون بنفوذ سياســـى واقتصادى واضح ، وقد تجمعت لدى الأمراء الكبار أمثال الأمير سيف الدين أيبـــك والأمير مبارز الدين بهرامشاه أمير المجلس ، والأمير زين الدين بشاره ، والأمـــير بهاء الدين قوطلوغا ، عدة عوامل شجعتهم على الخروج عن طاعـــة الســلطان ، والسير نحو طريق السيطرة والتحكم فى أمور السلطنة ، وكان مـــن ضمـــن تلـــك العوامل طول المدة التى عاشوها فى خدمة الدولة ، وتضخـــم ثرواتـــهم الماليـــة ، ووجود دعم وتأييد وتعاطف من أفراد الشعب نتيجة كرمـــهم واغداقـــهم عليـــهم . ووصل الأمر إلى أنه فى الوقت الذى كان يصرف فى مطبخ السلطان عدد ثلاثيـــن رأساً من الماشية لعموم السرايا والشعب والعبيد ، كان الأمير ســيف الديـــن ايبـــك الجاشنكير يذبح كل يوم عدد ثمانين من الماشية فى مقر إقامته(١٢٠) .

وقد أدرك كيقباد بثاقب نظره خطورة الوضع وخاف من استفحاله ، فقرر أن يستفيد من أموال أولئك الأمراء ويستثمرها بما يعود على الدولة بالخير والرفاهية ، وتحقيق الاكتفاء الذاتي فأصدر فور توليه العرش الأوامر إلى مائة وأربعين من أمرائه ببناء مائة وأربعين برجا فوق سور العاصمة قونية ، وبهذا الشكل أصبحت قونية كاملة التحصين في سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م(١٢١) . كما أنفقوا جزءًا كبيرًا من أموالهم على إنشاء المنازل والقصور في قونية(١٢٢) .

كذلك أمر السلطان كيقباد الأمراء بأن يبنوا في علائية على ساحل البحر المتوسط أبراجًا على غرار قلاع قونية فبنوها وساهموا كذلك في بناء ترسانة ميناء علائية وتحصيناتها المتعددة . كما بنوا فيها العديد من المنازل والقصور(١٢٣) .

حاول كيقباد أن يقدم على فكرة السيطرة والحكم المطلق للدولة ، بعد إتمام فتح علائية وكان الهدف من وراء ذلك الحد من نفوذ أمرائه وكبار رجال دولته ، فكانت له إرادة لا تتزعزع في إبقاء الأمراء على ولائهم له . وحدث أن أشار عليهم بتعمير أسوار سيواس بنفس طريقتهم في إنشاء أسوار المدن الأخرى ، ليستنفذ بذلك ما بقي من أموالهم ، لكن يبدو أن الأمراء لم يستطيعوا تحمل ذلك ، وقاموا بتدبير مؤامرة ضد السلطان . ووشى أحدهم إلى السلطان بذلك الخطر ، فما كان من السلطان إلا أن أمر بقتل المتآمرين جميعهم . وقد تم ذلك في قيسارية في يوم الاثنين ٤ جماد الأول ٦٢٠هـ/١٢٢٣م . كما عزل بقيتهم وعين مماليكه في مناصبهم ، « فساد الأمن والرفاهية في البلاد في عهده وانعدم الظلم ، فلم يبق أي شخص يظلم الضعفاء أو الفقراء »(١٢٤) .

ومما يؤكد حرص السلطان على عدم ضياع أموال أولئك الأمراء ومحاولة الاستفادة منها لتنمية الأحوال الاقتصادية لبلاده ما قاله ابن بيبى : « أنه على أثر التخلص من الأمراء أرسل النواب إلى منازلهم حيث قاموا بمصادرة كل أموالهم

وثرواتهم ، ثم وضع الشمع والأختام عليها ، وخصصوا لها حراسة لأجل الحفاظ عليها »[١٢٥] . ويتابع ابن بيبى : « وبعد إعفاء علاء الدين كيقباد عن أقارب وأهالى الأمراء امتلأت خزائن الدولة بالنقود والمجوهرات الثمينة وفتحت المدن والقلاع الواقعة على الحدود وأطراف الدولة »[١٢٦] .

واستمرت سياسة كيقباد فى الاستفادة من أموال بقية الأمراء فى عمليات الأعمار والإنشاء فى البلاد المفتوحة أيضًا ، من ذلك إرساله الأمراء إلى خلاط للمساهمة فى إعادة أعمارها بعد أن خربها الخوارزميون ، وقام بتوجيه الأمراء لتأمين مادة الجبس نظرًا لحاجة المنطقة لها فى إصلاح وترميم القلاع التى تعرضت للتخريب فقام الأمراء بتأمين الجبس من مناطق « عادل جواز » ، وأقام كل أمير على نفقته الخاصة فرنًا كبيرًا لبدء العمل . وتم بناء ألف فرن خلال عدة أيام وقامت الجمال والحمير بنقل الجبس إلى الأماكن التى تحتاج للإصلاح ، وتمت عملية الأعمار بنجاح كبير . ووزع الأمراء الأراضى الزراعية ، والبذور والمواشى على الأهالى، واعفوا المزارعين من الضرائب ، مما كان له أثره فى عودة الكثير من أهالى البلاد المهجرين إلى بلادهم . ولم تمض فترة قصيرة حتى نال الجميع مرادهم من الأمن والهدوء وإعمار البلاد ، وتشجعت بقية القلاع المحيطة بخلاط على الدخول فى معية السلطان كيقباد[١٢٧] .

وهكذا استطاع كيقباد بانتهاجه لتلك السياسة المستنيرة الذكية والصارمة أن يبعد بلاده عن خضم الأزمات السياسية ، فالبلاد فى حالة نهوض اقتصادى ولا تحتمل وجود أزمات داخلية ، وإنما هى بحاجة لهدوء سياسى لتحقيق ما كان يصبو إليه من تقدم اقتصادى وعمرانى .

وكان أن نجحت سياسته فى اجتذاب أموال الأمراء واستثمارها فى تنمية الدخل القومى للدولة والاستفادة منها فى تحصين المدن ، وتعبئة الجيوش ، وإنشاء

القلاع والترسانات على الحدود الساحلية والداخلية ، وإعادة أعمار البــلاد وإقامــة المنشآت الفخمة من مساجد ومدارس ونزل وغيرها .

وإذا كان المؤرخ ابن العبرى ينتقد سياسة كيقباد مع أمرائه ويصفه بالقســوة والشدة فى معاملة أمرائه(١٢٨) ، إلا أنه ما يلبث أن يستحسن سياسته تلك بقولــه : « وكانت الدولة السلجوقية قبله محلولة بسبب الخلف الواقع بين أولاد قلج أرسلان فلما وليها علاء الدين أعاد جدتها وجدد ناموسها وألقى الله هيبتــه فــى قلــوب الخلــق فأطاعوه واتسع ملكه جدًا »(١٢٩) ، كما قال : « وكان المجرمون يهابونه جــدًا ، إذ كان صارمًا فى أحكامه وقد أخضع لسلطانه مدنًا واصقاعًا عديدة »(١٣٠) .

ويعلق المؤرخ عثمان توران على سياسة كيقباد نحو أمرائه بقوله : « ونتيجة للصراع الذى دام بين كيقباد والأمراء بشأن النفوذ والسيطرة ، فقد كان أمرًا معلومًـا أن يقوم أحد الأطراف بأبعاد الطرف الآخر .. وقد فاز وكسب الجولــة الســلطان الشاب صاحب الذكاء والقدرة والإرادة .. ولم تتعرض الدولة للضعف خــلال هــذا الصراع ، بل كانت هذه الفترة من الفترات الزاهرة فى إدارة الدولة »(١٣١) .

وهذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك نجاح السياسة الأمنية التى اتبعــها كيقبــاد لتحقيق الأمن والاستقرار الداخلى لبلاده ، مما ساعده على تحقيق حلمه فــى جعــل بلاده من أعظم الدول المتقدمة اقتصاديًا فى القرن السابع الهجرى / الثــالث عشــر الميلادى .

* * *

وبعد ، فإنه يتضح من خلال البحث أن السلطان علاء الديــن كيقبــاد الأول أدرك منذ بداية توليه عرش سلاجقة الروم أن الاستقرار الاقتصادى هو أهم عــامل فى بقاء دولته ، وظل تحقيق الأمن الاقتصادى لبلاده هاجسه طوال فــترة حكمــه . لذلك اتبع سياسة أمنية خارجية وداخلية ارتكزت على عدة أسس وخطوات صائبــة

آتت ثمارها فى تحقيق التقدم الاقتصادى الذى شهدته دولته فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى .

وكان تأمين تجارة العبور التى اعتبرت عصب الاقتصاد السلجوقى أهم الأهداف التى حققتها تلك السياسة وقد اتبع كيقباد فى سبيل تنفيذها الخطوات التالية:

١ – حماية المنافذ البحرية لسواحل بلاده الشمالية والجنوبية باعتبارها مراكز مهمة خدمت تجارة السلاجقة وذلك عن طريق إرسال حملات عسكرية لاستحداث موانئ وترسانات جديدة لحماية الساحل الجنوبى (علائية) والساحل الشمالى (حملة صغداق) ولتأديب المعتدين من القراصنة والدول التى تأويهم .

٢ – عقد اتفاقيات تجارية مع تجار دول البحر المتوسط المشتغلين بتجارة العبور تضمنت فقرة تتعلق بتأمين أولئك التجار فى البر والبحر ، وتعويضهم أموالهم التى فقدوها بإجبار المعتدين على دفعها أو مضاعفتها، بل ودفعها من خزينة الدولة بما يشبه نظام التأمين أو الضمان الحكومى فى الوقت الحاضر .

٣ – توفير الأمن للمناطق الشرقية التى تعتبر الشريان الرئيسى لتجارة العبور والتى تربط بين شرق العالم الإسلامى وغربه ، وذلك بإتباع سياسة تحقيق المصلحة العامة .

٤ – المحافظة على الأهمية الاقتصادية لنهر الفرات لكونه منبعًا مائيًا وطريقًا حيويًا، وذلك بحماية المدن والمحطات الواقعة عليه أو بالقرب منه ، سواء فى آسيا الصغرى ، أو فى الجزيرة ، أو فى شمال الشام ، ما دامت تلك المدن تلعب دوراً فى تجارة العبور . فكانت خطوة أمنية هامة حفظت التوازن الاقتصادى فى المنطقة من التخلخل والاضطراب .

٥ – إنشاء النزل الآمنة على طول طرق القوافل التجارية الداخلية بقصد حماية التجار وبضائعهم ، وتنشيط حركة العبور .

ولم يكن إنشاء النزل الخطوة الوحيدة التى اتخذها كيقباد لتحقيق الأمن للطـرق الداخلية إذ أدرك كيقباد أهمية المحافظة على الأمن الداخلى لبلاده كخطـوة هامـة لتحقيق الازدهار الاقتصادى لبلاده ، فرأى أهمية القضـاء علـى أيـة بـوادر أو محاولات قد تصدر بغرض المعارضة الداخلية من قبل أمرائـه الأقويـاء والذيـن شجعتهم ثرواتهم الضخمة على التآمر ضد السلطان ، مما شكل خطرًا كبيرًا علـى الاستقرار الداخلى للدولة . فوجه بضرورة استثمار أمـوال كبـار رجـال الدولـة لمساعدة حكومته فى بناء الجيش والترسانات ، وبناء الأسوار وتحصيـن المـدن ، وغيرها من المنشآت الهامة ، والمساعدة فى استصلاح الأراضى الزراعية .

وهكذا تمكن كيقباد أن يتخذ خطوات أمنية اقتصادية بالغة الأهمية تدل علـى عقلية مستنيرة ، وكأنى به رجل من رجالات السياسـة والاقتصـاد فـى الوقـت الحاضر، فأدرك أهمية توجيه القطاع الخاص فى تنمية موارد الدولـة والنـهوض باقتصادياتها بل وسد العجز فى ميزانياتها .

كذلك ظهرت حنكة كيقباد السياسية فى التعامل مع قضية جوهرية وهامـة ، ألا وهى قضية توطين التركمان التى أثبتت الأحداث خطورتها على سياسة سـلاجقة الروم . ونجح فى احتوائهم بقصد الحد من خطـر اندفاعـهم وانسـياحهم داخـل الأراضى السلجوقية . وذلك بالعمل على توطينهم والاسـتفادة منـهم فـى إعمـار الأراضى الزراعية خاصة على الحدود الشرقية المشهورة بخصوبتها وكأن كيقبـاد قد استشف ما سيحدث على يد أولئك التركمان من تغيير لخريطة آسـيا الصغـرى على يد أبناء العشائر التركمانية الذين كونوا الإمارات العشر فـى القـرن التـالى (القرن الرابع عشر الميلادى) .

هذا بالإضافة إلى حرص كيقباد على تـأمين مصـادر الجزيـة والاهتمـام بتحصيلها وتأديب من رفض تأديتها لكونها مصدراً هامًا من مصادر دخـل الدولـة السلجوقية .

الهوامش

(١) عثمان توران : الأناضول فى عهد السلاجقة والإمارات التركمانية ، ترجمة د. علـــى محمد الغامدى ، ص٢١.

(٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٨٦ ، ابن العبرى : تاريخ مختصـــر الـدول ، ص٢٥٠.

(٣) إمارة نيقية البيزنطية إحدى الممالك البيزنطية التى قامت فى آســـيا الصغـرى بعـد سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين كما قامت إمارة بيزنطية فى طرابيزون وأخرى فـى ابيروس .

(٤) عن سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين سنة ١٢٠٤م ، انظـــر فلـهار دويـن – فتـح القسطنطينية ، ترجمة حسن حبشى .

(5) C. Cahen: Pre ottoman Turkey; p. 275.

(6) Herbet Jansky: Selcuklu sultanlarinadan Birinci Alaeddin Keıkubadin Emniyet politikasi p.119.

(٧) انظر للباحثة (الفتح الإسلامى لحصن كالونوروس وتحويله لميناء علائية الإسـلامى) بحث منشور فى مجلة المؤرخ المصرى العدد ٢١ ، يناير ١٩٩٩م .

(8) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri Ve Anadoluda Islamiyt in yayilisi, Istanbul, p.171.

(٩) ف. هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص٣١٠ .

Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri, p.171.

(10) Islam Tarihi Kultur Ve Medeniyeti, Vol. 1, p. 17, Istanbul, 1988.

(١١) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ أ .

(١٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٩ .

(١٣) المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ أ .

(١٤) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٩ .

(١٥) المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب ، انظر المزيد عن فتح سغداق : ابـــن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٢٠ – ١٢٨ .

(١٦) المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(17) Islam Ansiclopedies, cilt 6, Meb, Istanbul, 1977, p. 649.

(١٨) ابن بيبى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(18) Islam Ansiclopedies, cilt 6, p. 649. Meb, Istanbul, 1977.

(٢٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٢٣٩ .

(٢١) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٢٨ ، ١٢٩ . المولوى : صحائف الأخبـــار ، ورقة ٥٧٩ ب ، ويذكر المولوى أن كومننوس موزد الرومى كان حمـــا الســلطان غياث الدين كيخسرو .

(٢٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣٠ .

(٢٣) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣٠ .

المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(٢٤) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣٠ .

(٢٥) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣١ .

(٢٦) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣١ .

المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(27) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri., P. 171.

(٢٨) تمارا رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص١٢٠ .

(٢٩) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ص٩١ ، ٩٢ .

(٣٠) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٦٤ .

(٣١) كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد الشـــيخ ، ط١ ، ص٢٣٣ ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

(31) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri., P. 171.

(٣٣) ف. هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصــــور الوســطى ، ص٣٠٥ ، ٣٠٦.

(32) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri, p.171.

(٣٥) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أناضول .

(٣٦) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ص٩٤ ، ١٥٢ .

(37) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri, p.171.

(٣٨) كامل الغزى : تاريخ حلب ، جـ١ ، ص١٤٥ .

(39) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri, p.171.

(٤٠) ف. هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص ٣٠٦

(٤١) C. Cahen: Pre ottoman Turkey; p. 161 .

(٤٢) تمارا رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص١٢٧ .

(٤٣) تمارا رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص١٢٨ .

(٤٤) ابن سعيد : كتاب الجغرافية ، ص١٧١

(٤٥) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أناضول .

(٤٦) نيكيتا ايليسيف : الشرق الإسلامى فى العصر الوسيط ، ترجمة منصور أبو الحســن ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص٤٨٦

(٤٧) تجمعت أكثر تلك العشائر التركمانية بصورة رئيسية فى منطقة الحدود بين ســلطنة سلاجقة الروم وجيرانها فى شرق وجنوبى شرقى آسيا الصغرى حيث وجدوا تلــك المنطقة مناسبة لمعيشتهم الرعوية . Claud Cahen: Op. Cit. P. 145.

(٤٨) بابا إسحاق : هو شيخ حركة البابائية الشهير وهو تركمانى الأصل ، أعلن بالاتفــاق مع مريديه راية العصيان على غياث الدين كيخسرو الثــانى (٦٣٤ - ٦٤٤هــ/ ١٢٣٦ - ١٢٤١م) سلطان سلاجقة الروم فى عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م ، أنضم إليــه

الكثير من التركمان الذين كانوا يقطنون مناطق الحدود فى دولة سلاجقة الروم انظر عن حركة البابائية ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص٢٢٧ – ٢٣١ .

(٤٩) لم يغفل الجغرافيون والمؤرخون الحديث عن أهمية نهر الفرات فعن فضل الفرات وصحة مياهه يقول ابن العديم : (كل ماء فى نهر فطير إلا ماء فرات فإنه حمير لكثرة اختلاط الأهوية به وتكسير المهدزاسات له وهذه المهدزاسات عملت لتكسير حدة المياه ، قلت وإلى زمننا هذا نختار ماء الفرات للخلفاء على ماء دجلة) . ابن العديم : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، م١ ، مخطوط مطبوع بالتصوير ، ص٣٦٩. وروى أن أربعة أنهار من الجنة : النيل والفرات وسيحان وجيحان . وروى عن على رضى الله عنه ، أنه قال : (يا أهل الكوفة ، إن نهركم هذا يصب إليه ميزابان من الجنة) وروى عن جعفر بن محمد الصادق أنه شرب من الفرات فحمد الله وقال : ما أعظم بركته ، لو علم الناس ما فيه من البركة لضربوا على حافتيه القباب ولولا ما يدخله من الخطائين ما اغتمس فيه ذو حاجة إلا برأ). القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٤٢١ (دار صادر : بيروت) . وعن أهمية نهر الفرات كطريق حيوى ومهم لنقل البضائع بين شرق العالم الإسلامى وغربه يقول الدمشقى : « يسمى الفرات أحد الرافدين يعنون دجلة معه وسميا بذلك لأنهما تجريان فى جانبى بغداد . دجلة من الشرق والفرات من الغرب . فتأتى المراكب إلى بغداد فى دجلة من الصين فما بعده ومن اليمامة فما بعدها ومن الهند والزنج وما بعدها . وتأتى الأكلاك أيضا إلى بغداد فى الفرات من أرمينية وأذربيحان فما بعده ومن الروم والشام ومن المغرب ومصر وما بعدها .

انظر نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص٩٣ .

(٥٠) ابن سعيد المغربى : كتاب الجغرافية ، ص١٨٧ .

(٥١) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٣٨٥ .

(٥٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص١٧٤ . ابن العديم : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، م١ ، ص٦٣٤ . القزوينى : آثار البلاد ، ص٤٩٤ .

(٥٣) المسعودى : التنبيه والأشراف ، ص٥٢ – ابـــن العديـــم : بغيـــة الطلـــب ، م١ ، ص٦٣٥ – الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص٩٣ ، ٩٤ .

(٥٤) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٣١ ،

Hamd Allah Mustawfi; Nuzhat AL-Qulub geographical part, London, 1915, p. 90.

(٥٥) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٣٨٥ .

(٥٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٥٠ .

(٥٧) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جـ٣ ، ص٣٦٤ – المقدســـى : أحســـن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص٢٠ .

(٥٨) انظر ص٢٧ من البحث .

(٥٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٨١ ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٥٤ .

(٦٠) تمارا رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ص١٠٩ .

(٦١) يصف القزوينى بلاد الروم « بلاد واسعة من أنزه النواحى وأخصبها وأكثرها خـيرا وعجائب ذكرت فى مواضعها .. مياهها من أعذب المياه وأخفها ، وهواؤها أصـــح الأهوية وأطيبها » آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٥٣٠ .

وتوضح تمارا رايس ، ص١٢ أنه كان لاهتمام السلاجقة بمياه الشـــرب والأمـــور الطبية أثر كبير فى الاستفادة من ينابيع المياه وأنه كان للســـلاجقة حمامـــات فـــى منطقة قير شهر مما يدل على وجود ينابيع بها . لكن يبدو أن الجفاف عندما يصيـب هذه الينابيع يضطر السقاة لجلب المياه من الفرات الذى يمثل منبعـــا مائيـــا دائمـــا لسلاجقة الروم .

(٦٢) خليل أدهم : قيصرية شهرى ، ص٥٧ .

(63) Herbet Jansky: Selcuklu sultanlarinadan Birinci Alaeddin Keykubadin Emniyet politikasi p.120.

(٦٤) خليل أدهم : قيصرية شهرى ، ص٦٠ .

(٦٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٢ ، ص٣٤٩ .

(٦٦) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين ، ص٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ط٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤م/ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ، ص٢٢٣ ، ٢٢٤ ، دار الثقافة ، القاهرة .

(٦٧) أبو شامة : تراجم رجال القرنين ، ص٢٩٨ .

(٦٨) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ، جـ٨ ، ص٧٠٣ ، ط١ ، حيدر أباد ، الهند ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م / ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٥٠ .

(٦٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٨٣ .

(٧٠) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص٣١ .

(٧١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ص٢٤ ، ط٨ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .

(٧٢) القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، ص٢٩٤ .

(٧٣) أبو شامة : تراجم رجال القرنين ، ص٢٨٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٤ ، ص٢٨٧ .

(74) Osman Cetin: Selcuklu Mussesleri Ve Anaddua, p.172.

(٧٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٢ ، ص١٠١ / ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ١٠ ، ص٤٤ / ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، جـ٢ ، ص٣٧٩

(٧٦) C. Cahen: Pre ottoman Turkey; p. 16.

(٧٧) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٨ ب .

(٧٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦٠ .

(٧٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦٢ .

(٨٠) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٢٢١ ، ط٢ ، تصحيح محمد مصطفى زيادة .

(٨١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦٠ .

(٨٢) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(٨٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص١٩٠ – ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٥ ، ص٣٥٨ .

(٨٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص ١٥٥ .

(٨٥) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٢٣ / المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٨ ب .

(٨٦) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٢٦٩ .

(87) The Encyclopaedia of Islam, vol. IV, p. 817.

(٨٨) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٣ / المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٩٧ ب .

(٨٩) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٣ .

(٩٠) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٤ .

(٩١) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٥٠ .

(٩٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٥٠ .

(٩٣) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٨ .

(94) The Encyclopaedia of Islam, vol. IV, p. 817.

(٩٥) يصف ابن الأثير تملك الخوارزميين لخلاط وما فعلوه بقوله : « وخربوا خلاط ، وأكثروا القتل فيها ومن سلم هرب فى البلاد ، وسبوا الحريم ، واسترقوا الأولاد ، وباعوا الجميع » ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦٠ .

(٩٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٩١ .

(٩٧) ابن نظيف : التاريخ المنصورى ، ص٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٩٨) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٢٣٨.

(٩٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٩١ – ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٤٩ .

Osman Turan: Selcuk Devri Vakfiyeleri, Altun Aba, Belleten, XL, Ankara, 1947, p.198.

(١٠٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٢ ، ص٤٦٢ .

(١٠١) نيكيتا ايليسيف : الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى ، ص٤٨٨ .

(١٠٢) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٨٦ ، ١٨٧ .

(١٠٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٧٧ .

(١٠٤) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٩ ب .

(١٠٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٧٨ . ويذكره المقريزى سنة ٦٣١هـ ، السلوك : جـ١ ، ص٢٤٢ .

(106) Islam Ansiklopedesi, 6 cilt, Meb, Istanbul, 1977.

(١٠٧) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٥٨١ أ .

(١٠٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٣٢٤ .

(١٠٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٧٦ .

(١١٠) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٥٤ .

(١١١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٧٨ ، ٨٠ .

(١١٢) إبن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٨١

(١١٣) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص٢٢٠ / سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٦٩٤ . كانت حران تقع فى وسط المنعطف الكبير بالجانب الغربى لنهر الفرات ، وهى محطة كبرى على الطريق المؤدى من الموصل إلى حلب ، وكان لها دور تجارى بالنظر إلى عدد التجار الحرانيين الذين كانوا يوجدون فى

بغداد وسوريا ، بل وحتى فى عدن والصين . كلود كاهن : الشرق والغرب زمـن الحروب الصليبية ، ص٢٤٩ .

(١١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص١٣١ .

(١١٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص١٣٠ .

(١١٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص١٣٠ .

(117) S. Vryonis: The decline of medieval hellenismin Asia minor and the process of Islamzation from the eleventh through the fifteenth century, p. 221-222 – Islam Ansikliop, idisi 6 cilt, Meb, p. 659. Istanbul, 1977.

للمزيد عن الخانات التى أنشئت فى آسيا الصغرى فى عهد سلاجقة الـروم وما تقدمه من خدمات انظر :

Osman Turan, Selcuk kervan Saraylari, Belleten 37, Aukara, 1946.

(١١٨) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ص٨٧ .

(١١٩) للمزيد عن أوصاف وخدمات هذه الخانات انظر أوقطاى أصلان آبا : فنون الـترك وعمائرهم ، ترجمة أحمد عيسى (اسطمبول ، مركز الأبحاث والتاريخ والفنـون والثقافة الإسلامية ، ١٩٨٧م) . نورة بادياب : قونية عاصمة سـلطنة سـلاجقة الروم ، رسالة دكتوراه ، لـم تنشـر ، جامعـة أم القـرى ، مكـة المكرمـة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

(١٢٠) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٢ .

(121) Anonim: p. 29. / Osman Turan, Selcuklular Zamaninda Turkiyes p.339.

(122) Anonim: p. 29.

(123) Anonim: p. 29.

(124) Anonim: p. 30.

(١٢٥) إبن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٣ .

(١٢٦) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١١٧ .

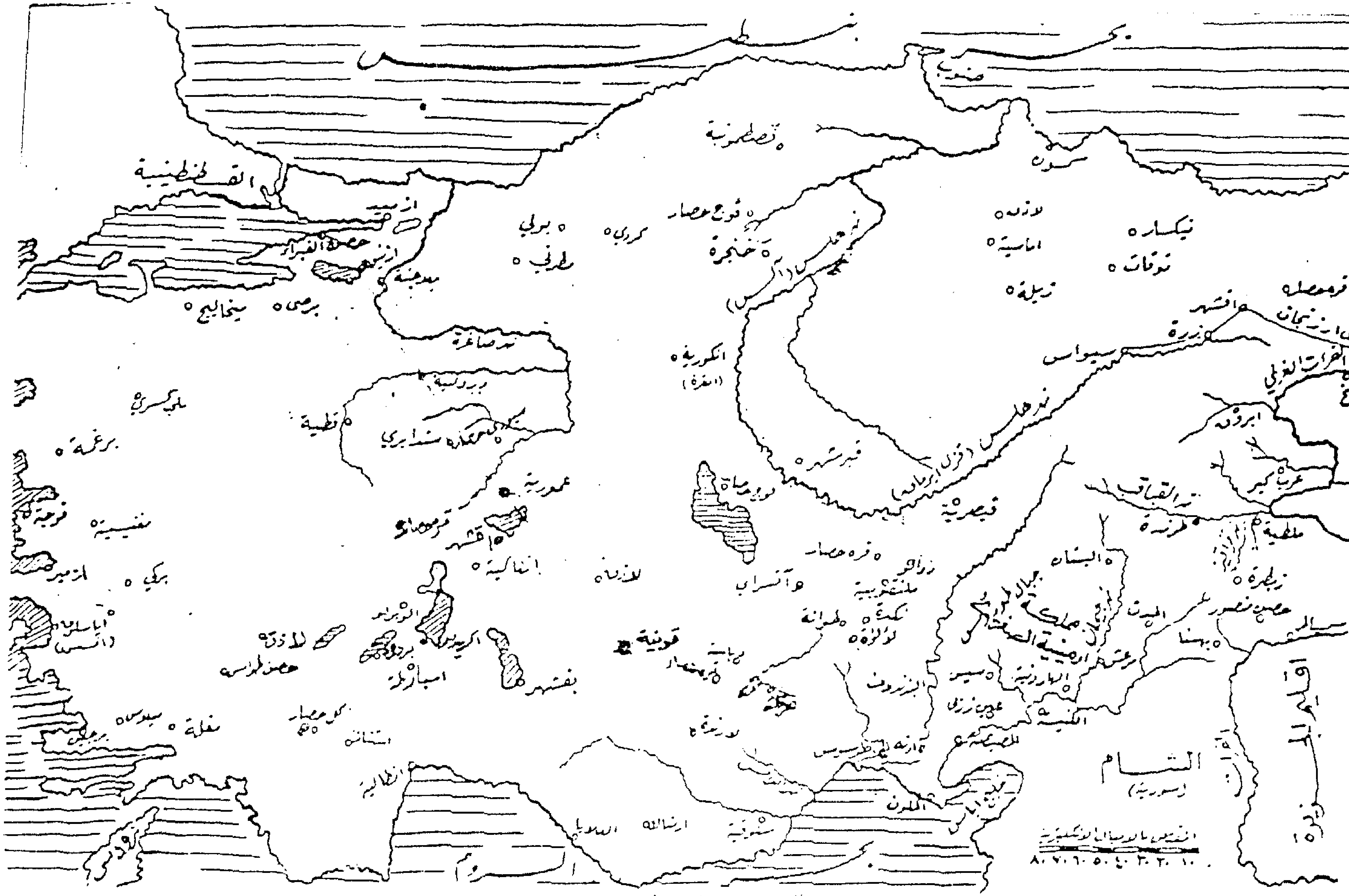
(١٢٧) ابن بيبى : مختصر سلجوقنامة ، ص١٨٦ ، ١٨٧ .

(١٢٨) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٥٠ .

(١٢٩) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٥٠ .

(١٣٠) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص٢٨٣ .

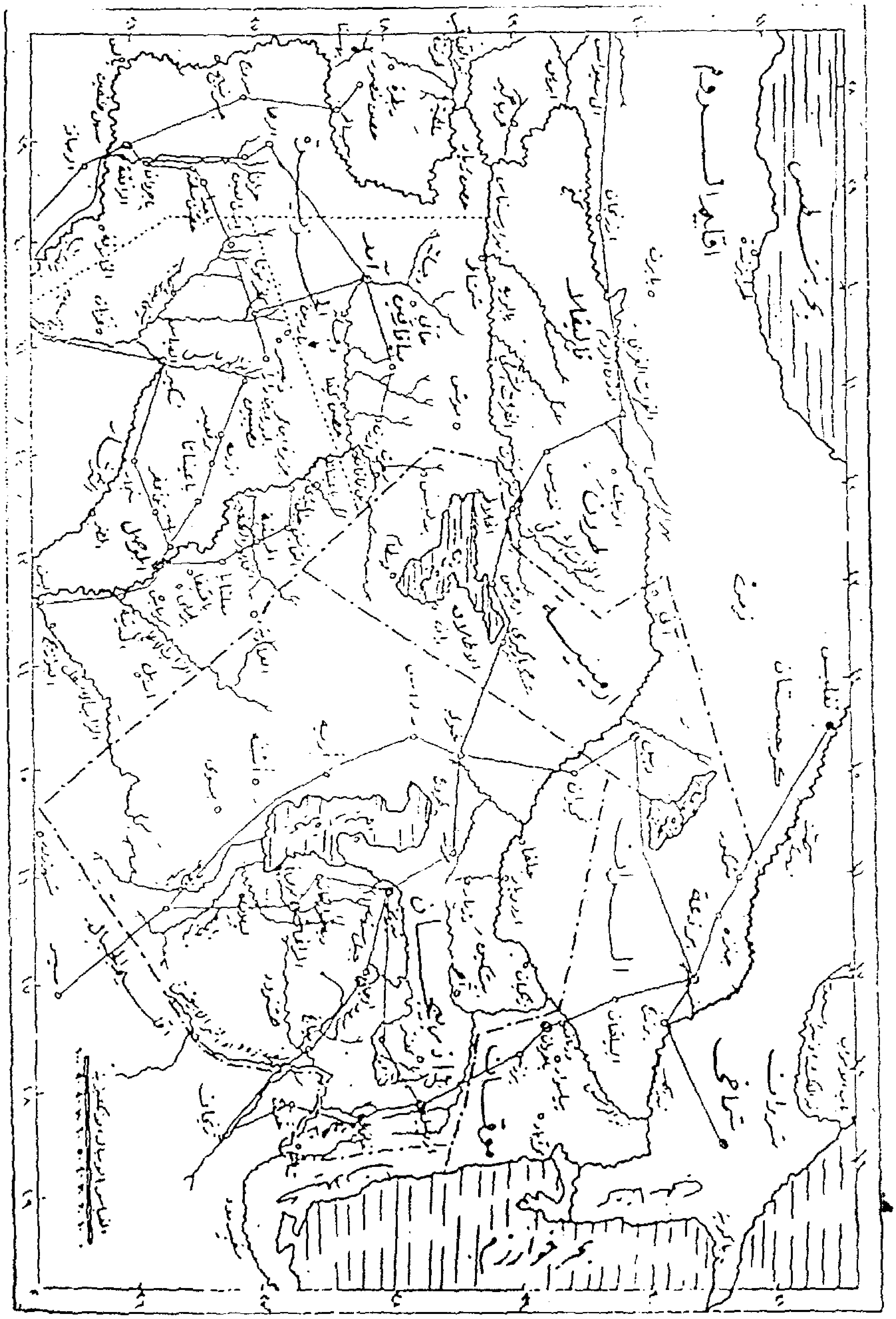
(131) Osman Turan: Selcuklular Zamaninda Turkiye, p.342.



بلاد الروم

نقلاً عن كى لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية

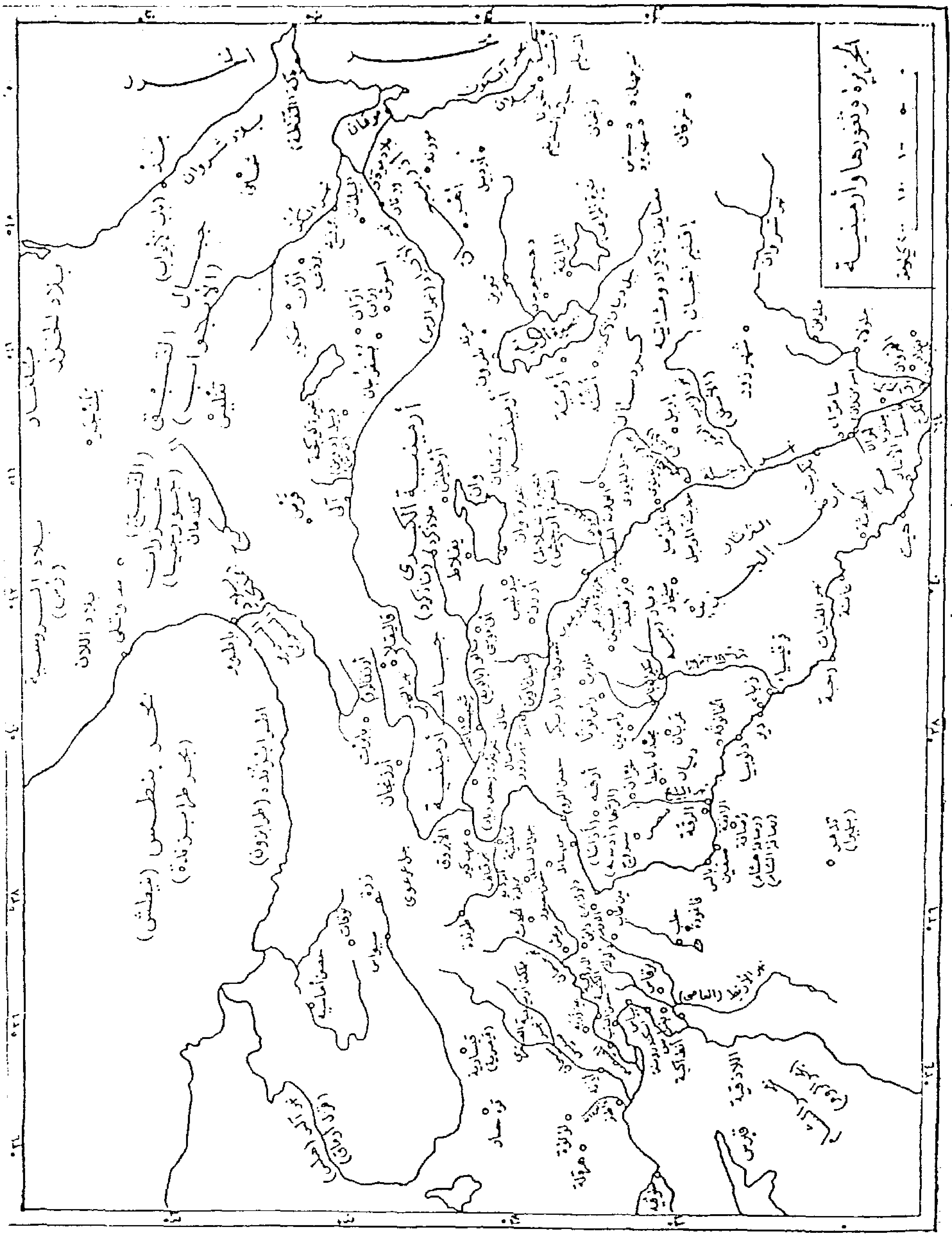
خريطة رقم (٢)



اقليما الجزيرة واذربيجان، مع أقاليم الحدود الشمالية الغربية

خريطة توضح طرق المواصلات والتجارة بين حدود سلاجقة الروم الشرقية وبلاد الجزيرة وفارس والكرج.

خريطة رقم (٣)



نقلاً عن : د. ماجد والبنا : (الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى)

خريطة توضح مخرج نهر الفرات وامتداده وأهم المدن والمحطات الواقعة على طريقه

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

١ – ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) : الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٢ – الأدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى الحسنى المعروف بالشريف الادريسى ، ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

٣ – ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

٤ – ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م

٥ – تمارارايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الداقوقى ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٨م .

٦ – ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاو على التركى الشهير بسبط ابن الجوزى ، ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ، جـ ٨ ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد ، الهند ، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

٧ – ج. م. هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

٨ – حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٠م .

٩ – ابن حجر العسقلانى (ت ٥٨٢هـ) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت ، (د. ت) .

١٠ – الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى ، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان ، بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

١١ – ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة مولى أمير المؤمنين ، ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) : المسالك والممالك ، طبعة ليدن ، ١٨٨٩م.

١٢ – دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتاوى وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس ، طبعة دار الفكر ، ١٩٣٣م .

١٣ – الدمشقى (شمس الدين أبى عبد الله محمد أبى طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى شيخ الربوة) : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، دون تاريخ ، دون مكان نشر .

١٤ – الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز ، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء ، الطبعة الثامنة ، مؤسسة الرسالة: بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

١٥ – ابن سعيد المغربى (أبو الحسن على بن موسى المغربى ، ت ٦٨٥هـ/٨٢٦م) : كتاب الجغرافية ، تحقيق إسماعيل العربى ، بيروت، ١٩٧٠م .

١٦ - أبو شامة : (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، ت ٦٥٥هـ) : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤م .

١٧ - ابن العبرى (أبو الفرج جمال الدين غريغوس الملطى، ت٦٨٣هـ/١٢٨٦م):

- تاريخ الزمان ، ترجمة الأب إسحاق أرمله ، دار المشرق : بيروت ، ١٩٨٦م .

- تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الأولى ، (د. ت) .

١٨ - ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ، ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، نشر فؤاد سزكين ، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، فرانكفورت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٩ - زبدة الحلب فى تاريخ الحلب ، تحقيق سامى الدهان ، المعهد الفرنسى بدمشق للدراسات العربية .

٢٠ - على محمد الغامدى : بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، الطبعة الأولى ، مكتبة الطالب الجامعى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

٢١ - أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) : تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٢٦٧هـ/١٨٤٠م - المختصر فى أخبار النشر ، بيروت ، بدون تاريخ.

٢٢ - ابن فضل الله العمرى (القاضى شهاب الدين ، ت ٧٤٩هـ/١٣٥٠م): التعريف بالمصطلح الشريف ، مطبعة العاصمة ، مصر ، ١٣١٢هـ .

٢٣ - ف. هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .

٢٤ – القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى ، ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م) : أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، المكتب التجارى للطباعة والنشر ، بيروت ، (د. ت) .

٢٥ – القزوينى : (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت (د. ت) .

٢٦ – القلقشندى (أبو العباس بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩١٩ – ١٩٢٢م .

٢٧ – كامل حسين محمد مصطفى الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ، حلب ، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م .

٢٨ – كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد الشيخ ، الطبعة الأولى ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

٢٩ – كى لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٣٠ – محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، دار الكتاب العربى ، (د. ت) .

٣١ – المقريزى (أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة.

٣٢ – المولوى (أحمد بن لطف الله المولوى الشهير منجم باشى ، كان حيا سنة ١١٣٦هـ) : صحائف الأخبار فى وقائع الإعصار ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باسطمبول ، رقم ١٢٤٥/١

٣٣ – ابن نظيف الحموى (أبو الفضائل محمد بن على بن نظيف عاش فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى) : التاريخ المنصورى (تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان)، تحقيق أبو العيددودو، دمشق ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٣٤ – نيكيتا ايليسيف : الشرق الإسلامى فى العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن، دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٣٥ – ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ٤، وجـ٥، تحقيق حسنين محمد ربيع وسعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب ١٩٧٧م.

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية :

١ – إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات سلجوقيه، قسطنطينة، ١٣٠٩هـ.

٢ – ابن بيبى (الحسين بن محمد بن على المنشى الجعفرى، ت ٦٨٠هـ/١٢٨١م) : مختصر سلجوقنامة، منشور فى تواريخ آل سلجوق، نشرة هوتسما فى سلسلة.

Recueil de textes relatifs a L,histoire des Seldjoucides, vol, IV, Leide, 1902.

٣ – خليل أدهم : قيصرية شهرى (مباتى إسلامية وكتابة لرى تاريخ عثمانى انجى كليانى، العدد ٥، اسطنبول، ١٣٣٤هـ).

٤ – مؤلف مجهول : تاريخ آل سلجوق، نشرة فريدون نافذ أوزلك باسم Anonim فى سلسلة.

Anadolu Sedcukhlari Devleti Tarihi III Ankara, 1952.

٥ – المستوفى القزوينى (حمد الله ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م) : نزهة القلوب ، ترجمة الجزء الجغرافى (لسترانج G. Lestrange) بعنوان :

Hamd Allah Mustawfi of Qazwin Nuzhat AL-Qulub.

(The Geographical part), London, 1915.

6- Cahen, Claud: pre ottoman Turkey (translated from the french by J. Jone Williams) Sidawick, Jackson, London.

7- Cambridge history of Islam, vol. I. Cambridge, 1970.

8- Cetin, Osman: Selcuklu Mussesleri Ve Anadolude Islamiyetin Yayilisi, Marifet Yayinlari, Istanbul.

9- The Encyclopaedia of Islam, volume IV, leiden, E. J. Brill, 1978.

10- Islam Ansiclopedies, cilt 6, Istanbul, 1977.

11- Islam Tarih Kultur Ve Medeniyeti, Vol. 1. Istanbul, 1988.

12- Jansky, Herbet: Selcuklu sultanlarinadan Birinci Alaeddin Kekubadin Emniyet politikasi, Istanbul.

13- Turan, Osman:

- Altun Aba ve vakfiyesi, Belleten, XL, Ankara, 1947.
- Mubarizeddin Er-Tokus ve vakfiyesi (Selcuk Devrivak Fiyesi, Belleten, XL, Ankara, 1947).
- Selcuklular Zamaninda Turkiye, Istanbul, 1980.

14- Vryonis, Seperos, Jr: The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the process of Islamization of from the eleventh through the fifteenth century, London, 1971.

التنافس الدولي في الخليج
منذ بداياته إلى فرض الحماية البريطانية

د. عمر بن صالح بن سليمان العمري(*)

المبحث الأول

الخليج في العصر الحديث

من المعروف أن تاريخ العالم الإسلامي في العصر الحديث ارتبط كثيراً بتاريخ ومصير الدولة العثمانية : الدولة التي حملت لواء الدفاع عن الأراضي الإسلامية ومقدساتها فترة طويلة من الزمن ، وبخاصة بعد أن نال سلاطينها شرف لقب الخلافة الإسلامية .

ونتيجة لذلك يمكن القول أن تاريخ العالم الإسلامي في العصر الحديث والمعاصر مر بحقبتين تاريخيتين رئيسيتين :

الأولى منهما تبدأ مع بدايات العصر الحديث ؛ وبالذات مع قيام الدولة العثمانية ، مرورا بضمها لمعظم بقاع العالم الإسلامي ، ومن ثم حملها لواء الدفاع عن ممتلكات الدولة الإسلامية . وتنتهي تلك الفترة بانتهاء الحرب العالمية الأولى التي دخلتها الدولة العثمانية وهي تئن بالعديد من الويلات والمشكلات الداخلية والخارجية التي جعلت العالم ينظر إليها على أنها الرجل المريض . تلك الحرب التي كانت ، فيما يبدو ، مسمارا مهما وأخيرا دق في نعش الدولة العثمانية التي سقطت بعد ذلك بقليل لتقسم تركتها بين الدول الاستعمارية التي خرجت منتصرة في هذه الحرب العظمى .

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك - كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وتبدأ الفترة الثانية : بقيام عدد كبير من الدول والكيانات السياسية فى بلـــدان العالم الإسلامى على أنقاض تلك الدولة من جانب ، وفى ظلال الزخم الاســتعمارى الهادر آنذاك من جانب آخر .

ولعل من المسلم به تاريخيا وجغرافيا أن منطقة الخليج فى العصــر الحديــث تمثل ركنا من أركان العالم الإسلامى الكبير ، وبالتالى فإن ذلك يفترض أن يدخلـــها فى نطاق تاريخ الدولة العثمانية بمراحلها التاريخية المختلفة ، خاصة خلال الفـــترة الذهبية لتلك الدولة الكبرى ، التى انتظم تحت لوائها معظم بقـــاع وشـــعوب العـــالم الإسلامى فى آسيا وأفريقية وأوربا .

وبالرغم من كل ذلك إلا أن المتتبع لتاريخ الخليج وبلدانـــــه يلحــظ أن هــذه المسلمات التاريخية وإن كانت قد انطبقت على تاريخ كثـــير مـــن منـــاطق العـــالم الإسلامى ، فإنها لم تنطبق بتلك الدقة على تاريخ الخليج ، وذلك لارتبـــاط تـــاريخ الخليج وبلدانه بعدد من الموضوعات والسمات والأحداث التى جعلت مـــن التـــاريخ للخليج وبلدانه نمطا يختلف فى مساره عن ذلك النمـــط التـــاريخى لبلـــدان العـــالم الإسلامى فى العصر الحديث . وتأتى تلك القضايـــا والأحـــداث تحـــت محوريـــن رئيسيين .

المحور الأول : طبيعة التكوين والتطورات السياسية التى شهدتها دول الخليـج فى تلك المرحلة .

والمحور الثانى : هو أحداث التنافس الاســـتعمارى بيـــن الـــدول الأوربيـــة للسيطرة على منطقة الخليج ، تلك المحاولات والأحداث المتعاقبة التى جرت الدولـــة العثمانية إلى عدد من المحاولات العسكرية تصحبها جهود سياسية لإثبات الوجـــود فى المنطقة . وكان من أواخرها التحركات العثمانية أمام النفـــوذ البريطـــانى فـــى أواخر القرن التاسع عشر والتى انتهت أخيرا ، وبكل أســـف ، بـــالإقرار بـــالتفوق البريطانى فى المنطقة ، ذلك التفوق الذى كانت بوادره قد ظهرت قبل ذلـــك بمـــدة

طويلة منذ أن استطاعت بريطانيا التى استخدمت أسلوب العصا والجزر أو الترغيب والترهيب مع دول المنطقة ، أن تدخل دول المنطقة العربية الواحدة تلو الأخرى تحت مظلة الحماية (أو الاستعمار) البريطانى ، والذى استمر إلى مطلع الستينات من القرن العشرين حين فضلت بريطانيا سياسة الانسحاب التدريجى من المنطقة ، خاصة وقد اطمأنت ، فيما يبدو ، إلى ضمان استمرار ورعاية مصالحها الباقية فى الخليج بانتقال مقاليد الأمور فى المنطقة لغيرها من القوى الكبرى ، وهى الولايات المتحدة الأمريكية .

ولذلك فلعل من المناسب لدراسة تاريخ التنافس الدولى فى الخليج أن نتتبع فى البداية التطورات السياسية لبعض بلدان المنطقة لمعرفة الأرضية التى تحرك الاستعمار وجال فيها ، لننتقل بعد ذلك إلى المحاور الأخرى من الدراسة والتى تهدف إلى تتبع جذور ذلك التنافس الاستعمارى الأوربى وتطوره فى الخليج ، وموقف الدولة العثمانية من تلك التحركات الاستعمارية الأوربية فى المنطقة ، بدءاً بالغزو البرتغالى ، ومروراً بالغزو الهولندى ، والغزو الفرنسى . ثم ننتقل بعد ذلك إلى محور آخر فى هذه الدراسة ، نتتبع من خلاله تطورات الغزو البريطانى فى الخليج ، لنعرف ، وبشكل مجمل ، كيف سارت بريطانيا فى تحركاتها وتنافسها مع الدول الأوربية الأخرى ، أو مع بلدان المنطقة ، إلى أن نصل بعد ذلك إلى المحور الأخير فى هذه الدراسة ، وهو المحور الذى سوف يساعدنا فى معرفة وتتبع العوامل المختلفة التى من خلالها استطاعت بريطانيا ، فى نهاية السباق الاستعمارى، أن تتفوق بل وتسيطر تماما على تلك الأوضاع الاستعمارية الملتهبة ، خاصة بعد أن استطاعت بريطانيا بأساليبها المتعددة أن تفرض على دول الخليج الواحدة تلو الأخرى ما عرف بمعاهدة الحماية ، أو بالأحرى ما يمكن أن يسمى بمعاهدات (الاستعمار المشروط) على نحو ما سيأتى بيانه فى المباحث الآتية من هذه الدراسة بإذن الله تعالى .

المبحث الثاني

ملامح التاريخ السياسي لبلدان الخليج

وفى هذا المبحث سنحاول أن نتتبع بعض ملامح التطورات السياسية فى بلدان الخليج العربية منذ بداية حركة الاستعمار الأوربى فى المنطقة إلى أن خضعت هذه البلدان للحماية البريطانية . والهدف من هذا العرض التاريخى ليس الدراسة التفصيلية لتاريخ هذه التطورات السياسية فى المنطقة ، فهذه لها مواقعها الأخرى من الدراسات التاريخية المتخصصة ، وإنما الهدف من ذلك هو تكوين خلفية تاريخية أو تصور شامل للأوضاع الداخلية فى بلدان الخليج وتطوراتها السياسية لتعين الباحث على بسط أوضح للصورة العامة لبلدان المنطقة أمام القارئ، كى يسهل عليه تتبع المحاور الرئيسية الأخرى فى هذه الدراسة ، أى المحاور أو المباحث التى تتصل بتطورات التنافس الاستعمارى فى منطقة الخليج منذ بداياته إلى فرض الحماية البريطانية على بلدانه .

أولاً : تاريخ عمان :

كانت عمان فى القرن الخامس عشر الميلادى تحكم من قبل الملوك النبهانيين، ثم تولى الحكم فيها أسرة اليعاربة التى برزت فى الساحة بوصول البرتغاليين إلى الخليج ومقاومة العمانيين لها . فبعد سلسلة من الحروب الأهلية استقر رأى العمانيين فى عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م على تولية ناصر بن مرشد اليعربى إماماً لعمان . وما أن استقرت الأمور له حتى أعلن الحرب على البرتغاليين ، حيث قاد عدداً من الحملات الناجحة إلا أنه لم يكمل المسيرة ، حيث انتقل إلى رحمة الله فى عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م ، قبل مدة قصيرة من قطف الثمرة وتحقيق الغاية[٣] .

ولم يأت عام ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م ، أى بعد حوالى سنة من وفاة ناصر بن مرشد إلا وقد طرد البرتغاليون من البلاد بفضل الحملات المتوالية التى قادها سلطان بن سيف ابن عم ناصر وخليفته فى الحكم[٤] .

ومنذ ذلك الحين انطلقت عمان فى حركة كبيرة لتطوير ودعم قوتها البحرية والتجارية . وتعاقب على الحكم فى عمان كل من بلعرب بن سلطان بن سيف الذى تولى فى أعقاب وفاة والده عام ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م ، والذى دخل فى حرب أهلية مع أخيه سيف فتوفى منتحراً عام ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م ، فحل أخوه سيف مكانه فى الحكم منذ ذلك الحين إلى عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م(٥) . وفى عهد الإمام سيف بلغت قوة عمان البحرية ذروتها واستطاع العمانيون نتيجة لذلك أن يضموا بعض السواحل الشرقية فى أفريقية لتشكل بذلك النواة للدولة العمانية الكبرى(٦) .

وفى الوقت الذى كانت فيه عمان تتقدم وتتقوى وتتسع فإن هناك عوامل أخرى بدأت تعصف بالحكم اليعربى ، حيث دخل اليعاربة فى خلافات وحروب أهلية أدت إلى انقضاء حكمهم وقيام حكم عمانى آخر من قبل أسرة البوسعيديين(٧) . وكانت انطلاقة هذه الأسرة التى تحكم عمان إلى يومنا الحاضر قد بدأت على يد الإمام أحمد بن سعيد الذى حكم البلاد منذ عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م وظل فى الحكم إلى وفاته عام ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م(٨) ، لتدخل البلاد مرة أخرى فى صراع داخلى حول السلطة لم تستقر الأمور فيه إلا عام هـ ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م بتولى سعيد بن سلطان الذى استطاع أن يعيد للبلاد استقرارها ونفوذها ، والذى ظل يحكم البلاد قرابة نصف قرن وبالتحديد إلى وفاته عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م(٩) . ففى عهد السيد سعيد : « اتسعت رقعة الممالك العمانية ، وضمت فيما ضمته زنجبار ، وأجزاء أخرى فى شرقى أفريقية والساحل الجنوبى لفارس ، وقد حققت تجارة عمان فى شرق إفريقية ازدهارا ملحوظا كما تحولت عمان إلى سوق دولية ، ومنطقة تجارة حرة ، تقصدها السفن لنقل السلع والمنتجات منها إلى مناطق الخليج الأخرى»(١٠) .

وفى الوقت الذى كانت الدولة العمانية قد بلغت أوج مجدها فإن بوادر التدهور كانت تسرى فى داخل عمان ، حيث تضافرت عدة عوامل مختلفة أدت إلى ذلك ، مثل الخلافات العائلية ، والتدخلات الخارجية ، مما وضع على كاهل السيد

سعيد أعباء مالية كبيرة زادت من حالة التدهور فى البلاد ، ودفعت بالسيد سعيد إلى محاولة كسب صداقة بريطانيا التى كانت سيدة الموقف فى المحيط الهندى(١١) ، والتى بدأ نفوذها فى عمان وفى غيرها من مناطق الخليج يزداد شيئاً فشيئاً ، خاصة وقد استفحلت الخلافات الأسرية فى عمان بعد وفاة السيد سعيد ، فانقسمت الدولة العمانية فى عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٢م إلى شقين أسيوى تحت زعامة ابنه ثوينى وأفريقى تحت زعامة أبنه ماجد .

ولم يهنأ ثوينى بحكم البلاد كثيراً إذ تعرضت البلاد لموجة من الاضطرابات السياسية نتيجة للخلافات الأسرية وللتدخلات الخارجية بجانب أحد أطراف النزاع ، وتوفى ثوينى نتيجة لذلك إذ اغتيل عام ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م من قبل ابنه سالم الذى دخل هو الآخر فى صراع مع عزان بن قيس الذى قتل هو أيضاً على يد تركى بن سعيد الذى تولى السلطة منذ عام ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١م إلى وفاته عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م ، حيث خلفه ابنه فيصل فاستمر فى الحكم إلى وفاته عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م(١٢) .

وفى عهد فيصل دخلت عمان فى اتفاقية الحماية مع بريطانيا فى شعبان من عام ١٣٠٨هـ / مارس ١٨٩١م ، وهى المعاهدة التى قيدت عمان فى علاقاتها الخارجية ، حيث « تحتم على السلطان وورثته وخلفائه ألا يتصرفوا بالتنازل أو الرهن أو البيع أو السماح باحتلال أى من أقاليم مسقط أو عمان أو توابعها .. إلا للحكومة البريطانية »(١٣) .

ثانياً : مشيخات الساحل العمانى :

يعتمد أساس التشكيل السياسى فى الساحل العمانى على حلفين قبليين كبيرين هما : حلف القواسم فى القسم الشمالى ، وحلف بنى ياس فى القسم الجنوبى من المنطقة العربية المطلة على الساحل الغربى من الخليج والتى تعرف الآن بدولة الإمارات العربية المتحدة .

ويرجع أساس تلك التحالفات التى أفرزت هذه المجموعة من التشكيلات السياسية فى منطقة الساحل العمانى إلى عدد من العوامل هى باختصار : التحالفات العربية التى هبت وتناصرت لمقاومة الغزو البرتغالى فى المنطقة . ثم انهيار ذلك الوجود الذى خلف فراغا سياسيا نتج عن عدم وجود قوى كبرى فى المنطقة ، خاصة مع انهيار دولة اليعاربة ، واغتيال نادر شاه ، وعدم جدية الدولة العثمانية فى السيطرة على المنطقة .

وأمام هذه العوامل ونتيجة لتلك التحالفات برز إلى الساحة عدد من التشكيلات السياسية التى اختص كل فريق منها بقسم معين من هذه المنطقة التى مرت بعدة أسماء اصطلاحية ، حيث عرفت مثلا بمشيخات الساحل العمانى ، نسبة إلى موقعها الجغرافى ، كما عرفت كذلك بمشيخات الساحل المتصالح ، لمعاهدات التصالح التى عقدت فيما بينها تحت إشراف السلطات البريطانية فى الخليج .

وتتكون هذه المشيخات أو الإمارات من سبع إمارات هى : أبو ظبى ، دبى ، والشارقة ، ورأس الخيمة ، وأم القوين ، وعجمان ، والفجيرة ، وقد شكلت تلك المشيخات أو الإمارات فى الساحل الشرقى للخليج المعروف بالساحل العمانى ، أو ساحل المشيخات المتصالحة والتى توحدت فيما بينها سياسيا وإداريا بعد استقلالها لتشكل ما يعرف حاليا بالإمارات العربية المتحدة .

ويبدو أن الظروف الدولية المتشابهة قادت هذه المشيخات العربية إلى الوحدة الحالية ، إلا أن تحقيق ذلك لم يكن أمرا يسيرا ، حيث مر بعدد من المراحل التاريخية . وكانت المرحلة الأولى قد بدأت ، على ما يبدو ، عندما واجهت تلك المشيخات ظروفا سياسية متشابة إلى حد كبير فى علاقاتها المشتركة مع الدولة صاحبة النفوذ الأقوى فى المنطقة ؛ وهى بريطانيا . ويأتى على رأس تلك الظروف تعرض تلك القوى إلى الضغوط البريطانية المتتالية والتى أجبرت هذه الوحدات

السياسية العربية فى الخليج إلى الدخول الواحدة تلو الأخرى فى فلك النفوذ ، ومن ثم فى إطار الحماية البريطانية .

وكانت نقطة التحول الكبرى بالنسبة لمشيخات الساحل العمانى فى تاريخ علاقاتها مع بريطانيا قد بدأت فى مطلع القرن التاسع عشر حين وجهت بريطانيا حملتين بحريتين كان الهدف منهما القضاء على قوة القواسم فى رأس الخيمة القوة التى تأثرت كثيراً بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فجاهدت ضد الوجود البريطانى فى الخليج ، وبلغت تلك الحملات ذروتها فى نهاية العقد الثانى من القرن التاسع عشر حين قامت بريطانيا ، بحجة ضرب ما أسمته بالقرصنة ، بتوجيه ما يعرف بالحملة البريطانية الثالثة على القواسم ، وهى الحملة البحرية التى نتج عنها ضرب وإحراق وتدمير رأس الخيمة فى بادرة أشبه ما تكون بتوجيه إنذار غير مباشر للغالبية الباقية من القوى العربية الأخرى فى المنطقة لتبادر واحدة تلو الأخرى فى الدخول بما يعرف بمعاهدة السلام العامة مع بريطانيا فى عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م(١٤) .

وتطورت تلك العلاقات حين أشرفت بريطانيا على عقد معاهدات مشتركة بين تلك المشيخات بالدخول فى معاهدات تصالح بحرى فيما بينها تحت إشراف المقيم البريطانى ، بدأت بمعاهدة عام ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م ، (١٥) ثم تطورت هذه المعاهدة إلى معاهدات صلح بحرى لمدة أطول بلغت عشر سنوات . وفى عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م جددت المعاهدة بمعاهدة الصلح البحرى الدائم والتى جاءت لتؤكد على بنود المعاهدات السابقة التى تعطى لبريطانيا الحق فى الإشراف على العلاقات التعاهدية والمرجعية عند الخلافات بين مشيخات الساحل المتصالح ، ثم تلا ذلك عقد عدد من المعاهدات المتشابهة بين بريطانيا وبعض تلك المشيخات مثل معاهدات التلغراف وما سمى بمكافحة تجارة الرقيق وتسليم الغاصة ، وغير ذلك من المعاهدات التى فى مجملها تصب فى مصلحة الوجود البريطانى وتزيد من

عوامل تفوقه على منافسيه فى المنطقة . وتوجت بريطانيا معاهداتها مع مشـــيخات الساحل العمانى المتصالح فى مطلع العقد الأخير من القرن التاسع عشر حين قادتـــها الواحدة تلو الأخرى لتوقيع معاهدات الحماية البريطانية فى شـــعبان ١٣٠٩هـــ / مارس ١٨٩٢م . (١٦) وهى المعاهدات التـــى أعطـــت بريطانيـــا حـــق الإشـــراف والسيطرة المطلقة على الشئون الداخلية والسياسة والعلاقات الخارجيـــة للمشـــيخات الموقعة عليها ، والتى ظلت بريطانيا بموجبها تدير هذه الشؤون إلى أن بدأت هـــذه الدول تنال استقلالها فى الستينات من القرن العشرين أى بعد حوالى ســـبعين عامـــا من الاستعمار البريطانى المغلف بطابع الحماية .

ثالثا : تاريخ الكويت :

كانت الكويت تسمى القرين ، والقرين تصغير قرن ، والقـــرن هـــو التـــل أو الأرض العالية . والكويت تصغير كوت والكوت هو القلعـــة أو الحصـــن . ومـــن المتفق عليه تاريخيا أن القرين أو الكويت خضعت لنفوذ بنى خالد منذ أن انـــتزعوا السلطة فى شرق الجزيرة العربية من العثمانيين فى عهد براك بن حميد الذى تولـــى زعامة بنى خالد ما بين ١٠٨٠ - ١٠٩٣هـ / ١٦٦٩ - ١٦٨٢م . وفى ظل الأمن الخالدى ، نشأت الكويت ونمت ، بعد أن بنى فيها براك بن غرير كويتـــه ، الـــذى اتخذه مصيفا(١٧) . كما طغى اسم الكويت منذ ذلك الحين على الاسم السابق للمنطقة. وتزامنت نشأة الكويت ونموها مع حركة نمو عدد من المدن الأخرى فـــى الخليـــج كانت هى الأخرى نواة لدول قامت فيما بعد .

ويعزو الدكتور أبو حاكمة ، فى دراسة تاريخية عن الكويت ، نمـــو الكويـــت وازدهارها إلى ثلاثة عوامل مشتركة لخصها بقوله : « أما العـــامل الأول : فـــهو ضعف الفرس والأتراك ، وانعدام نفوذ كل من الدولتين فى الخليج مما أتاح الفرصة للمدن الصغيرة النامية أن تتطور دون خوف من خطر قوة أكبر منها ، قد تتدخـــل

في شئونها الداخلية وتفرض عليها سلطانها ، وبذلك تحد من حريتها في الحركة والكسب والنمو .

أما العامل الثاني : فهو وقوع الكويت في منطقة النفوذ الخالدي في شرق الجزيرة العربية ، وقد رأينا حرص بني خالد على استتباب الأمن والسلام في المنطقة حتى تزدهر التجارة . وازدهار التجارة كان بالطبع الركن الأساسي لنهضة الكويت وتقدمها ... وأما العامل الثالث : فهو النشاط التجاري الملحوظ للشركات التجارية الأوربية ، ونقل البضائع بحراً عن طريق الخليج وبراً بالطريق الصحراوي . وليس هناك أدنى ريب في أن الكويت قد استفادت فائدة كبيرة من المساهمة في هذه التجارة وقد بدا أثر ذلك واضحاً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . »[١٨] .

وعلى العموم فقد ظلت الكويت تحت سلطة بني خالد منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الثامن عشر حين بدأ الضعف والخلاف والنزاع على السلطة يدب في عضد بني خالد فخفت بذلك قبضتهم على القبائل والمدن الخاضعة لهم[١٩] . وكان انسلاخ الكويت عن سلطتهم قد تم في ١١٦٥هـ / ١٧٥٢م حين اختار سكان الكويت صباح الجابر من العتوب « وفق الطريقة العربية العشائرية من لدن أهل الكويت لتصريف شؤون المدينة والفصل فيما قد يقع بين سكانها من خلافات»[٢٠] .

الكويت تحت حكم آل صباح :

ينسب آل صباح إلى صباح الجابر أول حكام الكويت من العتوب ، والعتوب ينسبون إلى قبيلة عنزة إحدى القبائل الكبرى في الجزيرة العربية ، وأطلق عليهم اسم العتوب لأنهم عتبوا ، أي ارتحلوا من مساكنهم في الهدار قرب وادي الدواسر في داخل الجزيرة العربية إلى مناطق الخليج . ومن العتوب كذلك آل خليفة حكام البحرين وغيرهم من الأسر المعروفة مثل الجلاهمة[٢١] . كما نسب إليهم بعض أفخاذ أخرى من القبائل العربية التي تحالفت معهم وتصاهرت فشكلت ما يعرف

تاريخيا بالعتوب[٢٢] . ولذلك يقول عنهم ابن سند فى تاريخه : « بنو عتبة ولهم فى عنزة نسب . والذى يظهر أنهم متباينو النسب لم تجمعهم فى شجرة أم ولا أب ولكن تقاربوا فنسب بعضهم إلى بعض »[٢٣] .

وكانت هجرة العتوب من الهدار فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادى ، ويعود السبب فى ذلك إلى السعى فى طلب الرزق ، وإلى الخلافات التى حدثت بينهم وبين الدواسر فآثروا الهجرة على البقاء . وكانت سواحل قطر هى المنطقة الأولى التى استقر فيها العتوب ، حيث أقاموا ما يقرب من ثلاثين عاما فى ظل قبيلة آل مسلم التى خاضعة هى الأخرى لنفوذ بنى خالد . وللتنافس الاقتصادى والسياسى مع آل مسلم اضطر العتوب إلى الهجرة شمالا إلى البصرة ثم إلى القرين حيث استقروا هناك منذ مطلع القرن الثامن عشر لتزايد نفوذهم تدريجيا خاصة مع ضعف بنى خالد .

وكان الاتفاق بين العتوب (آل خليفة ، وآل الصباح ، والجلاهمة) على أن يمتهنوا حرفة التجارة والزراعة وتقسم الأرباح فيما بينهم على أن يقوم فرع آل الصباح بأعمال الحكومة وفرع الجلاهمة بأعمال البحر فيما تسند التجارة لفرع آل الخليفة[٢٤] . ولذلك اختار العتوب صباح بن جابر حاكما عليهم عام ١١٦٥هـ / ١٧٥٢م . ويبدو أن ذلك يمثل الانطلاقة الحقيقة لتأسيس مشيخة آل صباح ، لا سيما وأن عبد الله بن صباح تسلم الزعامة خلفا لأبيه بعد وفاته فى عام ١١٧٥هـ / ١٧٦٢م ، مما أدى إلى هجرة الفرعين العتبيين الآخرين - آل خليفة وآل جلاهمة - إلى سواحل قطر مرة أخرى بحثا عن مصادر دخل أفضل وتحقيق مكاسب سياسية جديدة ، حيث تمكن فرع آل خليفة من تأسيس مشيختهم أو دولتهم على الساحل القطرى من الخليج حتى انتقلوا منه إلى البحرين الجزر فيما بعد ، ومن جهة أخرى فإن ذلك التطور فى العلاقات بين الأطراف الثلاثة ، جاء إيذانا غير مباشر لآل

صباح بالانفراد فى حكم الكويت التى استمرت تحت حكم أسرة آل صباح بدون انقطاع ، منذ ذلك الحين إلى يومنا الحاضر[٢٥] ، إذ تعاقب على الحكم فى الكويت منذ ذلك الوقت إلى يومنا الحاضر ثلاثة عشر حاكماً جميعهم من أسرة آل صباح ، إلا أن ستة منهم حكموا قبل فرض الحماية البريطانية وهم : صباح الأول ، وحكم من ١١٦٦-١١٧٨هـ/١٧٥٢-١٧٦٤م ، ثم عبد الله الأول بن صباح ، وحكم من ١١٧٨-١٢٣٠هـ/١٧٦٤-١٨١٥م ، ثم جابر الأول بن عبد الله وحكم من ١٢٣٠-١٢٧٦هـ/١٨١٥-١٨٥٩م ، ثم صباح الثانى بن جابر وحكم من ١٢٧٦-١٢٨٣هـ/١٨٥٩-١٨٦٦م ثم عبد الله الثانى بن صباح وحكم من ١٢٨٣-١٣١٠هـ/١٨٦٦-١٨٩٢م ثم أخوه محمد بن صباح وحكم من ١٣١٠-١٣١٤هـ/١٨٩٢-١٨٩٦م . وتلا الحاكم السادس سابع الحكام من آل صباح وهو أخوه مبارك بن صباح الذى حكم فى الفترة ما بين ١٣١٤-١٣٣٣هـ/ ١٨٩٦ - ١٩١٥م[٢٦] .

وخلال فترة حكم هؤلاء الحكام السبعة مرت الكويت بعدد من الأحداث السياسية ، والمعاهدات والعلاقات الخارجية التى يطول الحديث عنها ، والتى لا يتسع المقام للدخول فى تفصيلاتها ، وما يهمنا منها هو أن الكويت فى عام ١٣١٦هـ / يناير من عام ١٨٩٩م أى فى عهد الحاكم السابع من أسرة آل صباح وهو الشيخ مبارك الصباح دخلت فى معاهدة الحماية مع بريطانيا ، وهى المعاهدة التى أعطت بريطانيا رسميا الحق المطلق فى الإشراف على الشؤون الداخلية والخارجية للكويت[٢٧] ، وذلك على غرار من سبقها من الدول الخليجية الأخرى. وقد ظلت بريطانيا فى الكويت على ذلك الحال إلى أن نالت الكويت استقلالها فى الستينات من القرن العشرين[٢٨] .

رابعًا : البحرين فى عهد آل خليفة :

سبق الحديث بأن آل خليفة كانوا أحد الفروع الثلاثة الرئيسية للعتوب الذين هاجروا من الجزيرة العربية إلى الخليج وشكلوا تحالفاً فيما بينهم ، الأمر الذى أدى إلى تأسيس مشيخة العتوب فى القرين (الكويت) تحت زعامة صباح الجابر عام ١١٦٥هـ / ١٧٥٢م .

وينتمى آل خليفة إلى قبيلة عنزة وينسبون إلى خليفة بن محمد الذى كانت له زعامتهم فى بداية نزولهم القرين . وفى عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م توفى خليفة فانتقلت الزعامة إلى ابنه محمد الذى كان صغير السن آنذاك فعاش فى كنف عمه الشيخ صباح بن جابر ، وزوّجه ابنته مريم التى أنجبت له ابنه خليفة بن محمد آل خليفة . وفى عهد محمد بن خليفة هاجر آل خليفة من الكويت إلى الزبارة على إثر خلافاتهم السياسية مع فرع الصباح ، والعداء مع كعب ، كما كان للعوامل الاقتصادية أثر فى دفعهم إلى الهجرة واختيار الزبارة بالذات بحثاً عن مصادر دخل أفضل ، بالقرب من مغاصات اللؤلؤ . وفى عهد محمد بن خليفة ازدادت الأسرة نفوذا والمدينة اتساعاً ونمواً ، واستمر محمد فى زعامته إلى أن توفى عام ١١٨٦هـ/١٧٧٢م ، حيث خلفه ابنه الأكبر خليفة بن محمد . وفى عهد خليفة تضافرت عدد من العوامل الداخلية والخارجية مثل ، استقرار الأوضاع فيها ، وخراب البصرة ، ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، واضمحلال قوة بنى خالد، وغير ذلك من العوامل التى زادت من تقدم الزبارة وتطورها ، وفى الوقت نفسه أدت هذه التطورات إلى نشوب بعض الخلافات بين آل خليفة وجيرانهم فى المنطقة.

وحين توفى الشيخ خليفة فى رحلته للحج عام ١١٩٧هـ/١٧٨٣م كان أخوه أحمد بن محمد آل خليفة الذى بويع فى الإمارة من بعده قد نجح فى ضم البحرين (الجزر) إلى الزبارة لتتشكل بذلك دولة آل خليفة من الزبارة وما حولها من البر

المعروف (بقطر) ، إضافة إلى البحرين الجزيرة وما جاورها من جزر . وفى عهد الشيخ أحمد (الفاتح) بلغت الزبارة عصرها الذهبى ، وتوافد عليها رجال العلم والأدب ، وقصدها رجال المال والتجارة ، كما بلغت البحرين (الجزر) حالة من النشاط التجارى ، إذ سرعان ما أصبح للمهاجرين العرب أسطول تجارى ، وقاموا بعمليات نقل البضائع بين موانئ الخليج المختلفة . وقد فضل الشيخ أحمد الإقامة فى الزبارة واكتفى برحلة صيفية كل عام إلى الجزر . واستمر على ذلك إلى حين وفاته عام ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م حيث خلفه ابنه الشيخ سلمان الذى اتسم بالعدل والحزم ، فأحبته الرعية ، ودانت له القبائل . وقد انتقل بعائلته وحاشيته للإقامة فى البحرين - الجزيرة - منذ عام ١٢١٢هـ/١٧٩٧م لينتقل بذلك مركز الثقل فى الدولة إلى الجزر البحرينية على حساب البر القطرى(٢٩) .

وفى عهد الشيخ سلمان تعرضت البحرين لبعض الضغوط الخارجية ، خاصة من مسقط وبريطانيا ، واضطر البحرينيون - كغيرهم من بعض مشيخات الخليج الأخرى - إلى توقيع معاهدة السلام العامة مع بريطانيا فى ربيع الثانى من عام ١٢٣٥هـ/فبراير ١٨٢٠م ، وهى المعاهدة التى وضعت أسس الهيمنة البريطانية على المنطقة ، حين أعطت بريطانيا حق التفتيش والإشراف على السفن الخليجية ، ومتابعة المخالفين منهم بالقوة(٣٠) . وقد استمر الشيخ سلمان فى الحكم رسمياً إلى أن توفى عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م ، حيث خلفه الشيخ عبد الله بن أحمد الذى آلت إليه أمور الزعامة منذ أواخر عهد أخيه ، والذى استطاع أن يواصل حكم البلاد وسط عدد من الصعاب تمثلت فى محاولات أبناء أخيه انتزاع السلطة من يده ، كما تعرضت البلاد فى عهده لمحاولات جديدة من كل من مسقط وفارس ومحمد على باشا حاكم مصر - لبسط السيطرة على البحرين وفق مخططه الرامى لتكوين دولة كبرى ، وقد اضطر الشيخ عبد الله إلى الدخول فى اتفاقية مع محمد على رغم التحذيرات البريطانية له ، مما كلفه حكمه بعد ذلك حيث سعى البريطانيون إلى تنحيته عن الحكم واستبداله بشيخ آخر من آل خليفة ، وعن ذلك تقول المصادر

البريطانية : « إننا نعتبر أنفسنا بعيدين عن ود واحترام شـيخ البحريـن وسـنكون سعداء بسماعنا أن جزيرته فى حوزة شيخ آخر تربطه علاقة ودية معنا »(٣١) .

ووجدت بريطانيا فرصتها فى الخلاف الذى نشأ بين الشيخ عبـد الله وبيـن محمد بن خليفة فقامت باصلاء ناره لتحقيق هدفين : الأول: إسقاط الشيخ عبـد الله . والثانى : إضعاف البحرين وبالتالى إتاحة الفرصة لبريطانيا لمزيد من التدخل فـى شؤون البحرين وفرض مزيد من التعهدات . وبناءً على ذلك وقفت بريطانيـا إلـى جانب محمد بن خليفة فى نزاعه مع الشيخ عبد الله الذى اضطر بعـد عـدد مـن المعارك مع خصمه إلى مغادرة البلاد وبالتالى انفرد الشيخ محمد بن خليفة بالسـلطة منذ عام ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢م . ومع ذلك فإن الشيخ عبد الله لم ييأس واستمر فـى محاولاته استعادة السلطة ، ورغم وفاته عام ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م فـإن النـزاع استمر على السلطة بين الشيخ محمد وبين أبناء الشيخ عبد الله ، ولم يتوقف إلا عـام ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣م وبوساطة من الحاكم السعودى الإمام فيصل بن تركى(٣٢) .

ونتيجة لتدخل عدد من الأطراف فى شؤون البحرين مثل بريطانيا ، والدولـة العثمانية ، وفارس عادت الصراعات السياسية إلى الساحة فى البحرين من جديـد، وأسفر عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م عن تطورات من أبرزها دخول البحرين فى اتفاقيـة مع بريطانيا أعطتها مزيد من حق التدخل فى شؤون البحريـن ووضعـت النـواة لاتفاقيات الحماية فيما بعد ، وانسلاخ قطر عن البحرين ، والصراع علـى السـلطة بين الأخوين محمد بن خليفة وعلى بن خليفة ، ذلك الصراع الذى أدى إلـى مقتـل الأخير عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م . وكان أن تدخلت بريطانيا مباشرة فى العام نفسـه ، فقامت بنفى عدد من زعماء البحرين وعلى رأسهم الشيخ محمد بن خليفة ومن ثـم العمل على تنصيب الشيخ عيسى بن على حاكماً على البحرين(٣٣) .

وخلال عهد الشيخ عيسى بن على الذى استمر إلى عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م استطاعت بريطانيا أن تطلق يدها فى شؤون البحرين ، خاصة بعد أن نجحت فـى

توقيع معاهدتى الحماية البريطانية عام ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م وعام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م(٣٤) . وهى على غرار معاهدات الاستعمار المبطن بستار الحماية التى وقعتها بريطانيا مع غالبية بلدان الخليج فى تلك الفترة ، والتى أعطت بريطانيا منذ ذلك الحين حق الهيمنة والإشراف الكامل على الشؤون الداخلية والخارجية لدولة البحرين التى لم تتحرر من قيودها إلا فى الستينات من القرن العشرين حين نالت استقلالها وفق سياسة بريطانيا العامة فى الخليج(٣٥) .

خامسًا : تاريخ قطر :

كانت الأراضى القطرية ، كما مر بنا عند الحديث عن تاريخ العتوب فى الكويت وفى البحرين ، هى المقر الذى استقر فيه العتوب قبل انطلاقهم للكويت ، كما كانت الأراضى التى استقر فيها آل خليفة فى بداية تأسيس دولتهم بعد ذلك . وكانت السواحل القطرية كذلك هى المراكز التى انطلق منها آل خليفة لضم الجزر البحرينية إلى دولتهم تلك . وظلت الحواضر القطرية تحت سيادة آل خليفة لتشكل جزءاً مهماً وكبيراً من دولتهم حتى بعد استقرارهم فى جزر البحرين ونقل مقر الحكم إليها ، حيث عيَّنَ آل خليفة آلَ ثانى حكاماً لهم فى قطر .

وترجع أسرة آل ثانى حكام قطر إلى فرع من قبيلة الوهبة ، والتى هى فى الأصل من تميم ، وقد هاجر آل ثانى من بلدة اشيقر فى أقليم الوشم بنجد إلى الأراضى القطرية فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى ، واستقروا فى البداية فى الرويس ، ثم فى الزبارة ، وانتهى بهم المقام فى الدوحة حيث انتقلت إليهم زعامتها فى منتصف القرن تقريباً . ويرجع وصولهم لتلك المكانة إلى مركزهم المالى الذى نجم عن اشتغالهم بتجارة اللؤلؤ ، من تحركاتهم السياسية التى اكتسبوها من عملهم وكلاء لآل سعود فى جمع الزكاة من بعض القبائل هناك ، ثم عملهم حكاماً على قطر من قبل آل خليفة(٣٦) .

واستمر آل ثانى يحكمون قطر باسم آل خليفة متحينين الفرصة للاستقلال بحكم المنطقة وتأسيس إمارة خاصة بهم ، خاصة مع تنامى مركزهم الاجتماعى والسياسى فى المنطقة فى ظل انشغال آل خليفة عن السواحل القطرية وشؤونها على إثر الخلافات الداخلية فيما بين زعماء أسرة آل خليفة فى البحرين .

ونتيجة لتلك الزعامة المتنامية وتطلع آل ثانى إلى الانسلاخ بقطر عن البحرين، شهد عام ١٢٨٣هـ / ١٨٦٧م والعام الذى يليه بعض الأحداث السياسية التى عجلت بذلك وحسمت الأمر لصالح آل ثانى . فمع اشتداد حدة النزاع ، وبعد أن ظلت ترقب الوضع لفترة أزهق خلالها الكثير من الدماء بين المسلمين ، تدخلت بريطانيا وفرضت على الفريقين عدداً من الاتفاقيات والمعاهدات التى عقدت عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م ، ومن أبرزها الاتفاقية بين قطر وبريطانيا ، والاتفاقية بين البحرين وقطر(٣٧) ، وكان من نتائج تلك الاتفاقيات إعطاء قطر الصفة الرسمية للانسلاخ عن البحرين واعتبارها دولة منفردة منذ ذلك الحين(٣٨) .

وظل الشيخ محمد بن ثانى الذى وقع الاتفاقيات المذكورة والذى أنشأ الدولة الجديدة لقطر حاكماً على الدولة إلى قبيل وفاته بسنتين ، وبالتحديد إلى عام١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م ، حيث خلفه فى الحكم ابنه الشيخ جاسم ، الذى يقول عنه الدكتور عبد العزيز المنصور فى أحد الدراسات التاريخية التخصصية عن قطر : بأنه يمثل «روح الصلابة فى الإصرار على تحقيق خلق إمارة قطر أمام الصراعات الدولية والمحلية ، فتاريخه هو فى الحقيقة تاريخ قطر من خلال تاريخ شعبها وقبائلها والقوى المؤيدة لها »(٣٩) .

وقد استمر الشيخ جاسم فى حكم قطر ، بالرغم من تقدمه فى السن ، إلى وفاته عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م ، حيث خلفه فى الحكم ابنه الشيخ عبد الله الذى يبدو أنه لم يكن على درجة حزم والده إذ استطاعت بريطانيا فى عهده أن تحقق ما لم تصل إليه من نفوذ فى عهد والده(٤٠) . وفى عهد الشيخ عبد الله بن جاسم

اضطرت قطر إلى الدخول فى معاهدة الحماية البريطانية فـــى عــام ١٩١٦م(٤١) ، وهى على غرار معاهدات الحماية التى كانت بريطانيا قد فرضتها على بقية بلـــدان الخليج العربية ، وبمعنى آخر فقد كانت هى المعاهدة التى أطلقت يد بريطانيـــا فـــى استعمار قطر من خلال السيطرة على الشؤون القطرية الداخلية والخارجية متظللـــة بستار الحماية ، التى استمرت إلى السبعينات من القرن التاسع عشر ، حيـــن نـــالت قطر استقلالها على غرار ما جرى آنذاك فى بلدان الخليج الأخرى(٤٢) .

المبحث الثالث

تطورات التنافس الدولى فى الخليج

بعد التعريف على مجمل تاريخ الأوضاع السياسية وتطوراتها فى بلدان الخليج فى العصر الحديث والمعاصر حتى فرض الحماية البريطانية عليها ، سنتتبع بالدراسة فى هذا المبحث جذور التنافس الدولى فى الخليج وتطوراته منذ بداياته إلى أن استطاعت بريطانيا أن تعلن تفوقها من خلال فرضها معاهدات الحماية مع بلدان الخليج العربية .

وحرصاً من الباحث على التسلسل والحصر التاريخى للموضوع ، قدر الإمكان ، فسوف نتبع فى هذه الدراسة تتبع المحاولات الاستعمارية الأوربية مرتبة بحسب تدرجها التاريخى ، بدءً بالغزو البرتغالى ، ومروراً بالغزو الهولندى ، والفرنسى ، ثم انتهاء بالغزو البريطانى فى مراحله الأولى ، مع الإشارة إلى أن تداخل الأحداث وترابطها قد يستدعى كسر هذه القاعدة من حيث التدرج التاريخى أو الالتزام الموضوعى ، خاصة حينما يكون الحديث عن بعض المواقف العثمانية من تلك المحاولات الاستعمارية الأوربية للخليج ، أو حينما يكون الحديث عن بعض المحاولات أو المواقف الأوربية من الغزوات والمحاولات الاستعمارية المنافسة لها .

البرتغاليون والخليج :

بالرغم من أن عدداً من المصادر والدراسات الأوربية تشير إلى أن البرتغاليين استهدفوا من رحلة فاسكو دى جاما ، ومن غيرها من الرحلات البرتغالية المتشابهة التى جاءت قبلها أو جاءت بعدها ، الإسهام فى حركة الكشوف الجغرافية، التى يدعون بأنها تمثل حركة علمية تهدف إلى إثراء الإنسانية بالمزيد

من المعلومات عن العالم الذى نعيش فيه(٤٣) ، إلا أن الأحداث والشواهد التاريخية التى أعقبت تلك التحركات تدل على غير ذلك ، وتثبت أن البرتغاليين استهدفوا من تحركاتهم هذه غايات أبعد من ذلك الهدف الظاهرى . ذلك أنه يبدو أن تحركاتهم خارج أوربا وصوب الشرق كانت بداية لمرحلة جديدة فيما يعرف باسم ذيول الحروب الصليبية ، حيث وضعت تلك التحركات البرتغالية المسار الجديد لتلك الانطلاقة الاستعمارية الصليبية الأوربية الموجهة ضد العالم الإسلامى آنذاك ، والتى انتهت بتكبيل بلدان العالم بقيود الاستعمار عبر مرحلتين من مراحل الاستعمار ، سميت الأولى الاستعمار القديم ، وهى المرحلة التى برزت فيها البرتغال كواحدة من أعتى قواها الأوربية ، وسميت الثانية بمرحلة الاستعمار الجديد التى برزت فيها قوى أوربية أخرى كان لها نصيب الأسد من أوطان العالم الإسلامى العريض .

ومن خلال الشواهد التاريخية فإن الأهداف البرتغالية ، فى مرحلة الاستعمار القديم ، يمكن إيجازها بعدد من الأهداف المحصورة بين الأهداف الصليبية ، والاستعمارية السياسية ، والاقتصادية .

أما الأهداف الصليبية فقد برزت حين اعتبر البرتغاليون أنفسهم جنوداً للصليب فى محاربة المسلمين ، والتنسيق فى ذلك بينهم وبين نصارى الحبشة ، والدعوة لنشر التنصير فى أراض جديدة ، وإصرارهم على تثبيت شارة الصليب فى سائر المبانى التى يقيمونها أو يستولون عليها ، والتماسهم من البابا أن يسميهم سادة الفتح لبلاد الكفار (المسلمين) ، وقيامهم بالتمثيل بمن يقع فى أيديهم من أسرى المسلمين برسم شارة الصليب على أجسادهم ، وجدع أنوفهم ، وبقر بطون الحوامل ... إلى غير

ذلك من الأعمال التى تدل فى مجملها على تطرف الروح الصليبية التى كانت توجه تلك التحركات البرتغالية فى ذلك الوقت(٤٤) .

كذلك برزت الأهداف الاستعمارية السياسية من خلال بعض التطبيقات العملية التى تدل على تخطيط البرتغاليين للاستقرار الطويل فى المناطق التى توجهوا إليها ، مثل إنشاء القواعد والقلاع الحربية فيها ، وإنشاء منصب نائب الملك فى الهند عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م فى خطوة مهمة لتأسيس امبراطورية برتغالية استعمارية فى آسيا وأفريقية(٤٥) .

أما الأهداف الاقتصادية فتتضح من حرص البرتغاليين على ضرب المسلمين، بالسعى لإيجاد طرق تجارية جديدة تغنيهم عن الطرق التجارية التقليدية بين الشرق والغرب والتى كانت تقع تحت سلطة المسلمين ، كذلك حرصهم على الإفادة من موارد الشرق ، خاصة تجارة التوابل التى كانت تمثل التجارة الرائجة فى ذلك الوقت(٤٦) .

وقد نجح البرتغاليون فى تحقيق كثير من أهدافهم تلك ، خاصة حينما توجهوا تحركاتهم بعبور طريق رأس الرجاء الصالح لينفتح الطريق أمامهم للوصول إلى أطراف العالم الإسلامى فى الشرق بعيداً عن قلب العالم الإسلامى ودفاعاته . وعلى تلك الأسس كانت تحركات البرتغاليين فى الخليج خطوة مرحلية مهمة فى حركتهم الاستعمارية الكبرى فى مشرق العالم الإسلامى . متنقلين من مكان إلى آخر .

وقد اعتبر نجاح البرتغاليين فى السيطرة على هرمز عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م نقلة مهمة فى تاريخ الغزو البرتغالى للمنطقة ، نظراً لأهميتها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية(٤٧) ، حيث اتخذها البرتغاليون مقراً لإدارة شؤونهم فى الخليج وقاعدة للانطلاق إلى مناطق الخليج الأخرى(٤٨) التى بدأت تتساقط الواحدة تلو الأخرى أمام الزحف البرتغالى الذى لم يتوقف إلا عام ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م ،

حين تحتمت المواجهة بينهم وبين العثمانيين لتدخل المنطقة فـــى مرحلـــة تاريخيـــة جديدة من مراحل الصراع الدولى فى الخليج(٤٩) .

العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج :

كانت دولة سلاطين المماليك قد حملت لواء الدفاع عن بلاد العالم الإســـلامى فى بعض مناطق التحركات البرتغالية فى العالم الإسلامى ، لا ســيما فـــى منطقـــة البحر الأحمر . وقد أدت تلك الوقفات المملوكية دوراً فاعلاً فى صـــد المحـــاولات البرتغالية للوصول إلى المناطق الواقعة بالقرب مـــن المقدســـات الإســلامية فـــى الحجاز، ولذلك كان لسقوط دولة المماليك عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م أصداءً بعيدة فـــى شتى أنحاء العالم الإسلامى تخوفاً من وقوع المسلمين فريسة فى أيدى النصـــارى . ويبدو أن تلك المخاوف سرعان ما تبددت حينما فرض العثمـــانيون أنفســـهم علـــى الساحة قوة رئيسة لحمل لواء الدفاع عن أراضى المسلمين ومقدساتهم ؛ بل وحمـــل لواء الجهاد إلى داخل أوربا الصليبية ليصل الإسلام وممتلكاته إلى أراض جديدة لـــم تكن ضمن ممتلكات المسلمين من قبل(٥٠) .

ففى شرق العالم الإسلامى كان سقوط دولة المماليك تكليفاً وإذاناً للعثمـــانيين أن يواصلوا دور المماليك وأن يتولوا أمر الدفاع عن مقدسات المسلمين وأراضيـــهم، خاصة وقد دانت لهم بلاد الشام ومصر والحجاز وبعض مناطق اليمـــن . وكـــانت المواجهة بين الطرفين قد تمت فى البداية فى مناطق البحر الأحمر ، إلا أن طبيعـــة الصراع واستراتيجياته الحربية تطلبت أن لا يتوقف العثمانيون عند ذلك الحد ، بـــل إن المصلحة كانت تقتضى متابعة فلولهم شرقاً . وهكذا كانت المواجهة الحقيقية بيـــن العثمانيين والبرتغاليين فى الخليج قد حدثت عام ٩٤٥هـــــ/١٥٣٨م حينمـــا جـــهز السلطان العثمانى أسطولاً ضخماً بقيادة سليمان باشـــا حـــاكم مصـــر الـــذى تـــابع البرتغاليين فى البحر الأحمر ثم تعقبهم فى الخليج إلـــى أن وصـــل بـــالقرب مـــن مسقط(٥١) .

وشهدت الساحة بعد ذلك مرحلة كر وفر بين العثمانيين والبرتغـــاليين ، لـــم تحسم فيها الغلبة لأى منهما ، وإن كان من ثمارها تعطيل المد البرتغالى إلى شـــمال الخليج وحصره فى نطاق قواعد ومناطق محدودة من الخليج ، وإعلان كثـــير مـــن الحكام المحليين فى الخليج ولاءهم للسلطان العثمانى الذى خلع عليهم لقب ســــنجق بك(٥٢) .

وبمعنى آخر فإن تلك التحركات العثمانية فى الخليج وإن لم تكن حاسمة فـــى مسألة الصراع العثمانى البرتغالى إلا أنها كانت تمثل المســـمار الأول فـــى نعـــش الوجود البرتغالى فى الخليج الذى بدأ يتضاءل بعد ذلك شيئاً فشيئاً، خاصة بعد حالـــة الوهن التى أصابت البرتغاليـــن بعد أن خضعت البرتغال لأسبانيا عام ١٥٨٠م(٥٣).

وقد استمرت حالة الضعف البرتغالى تتزايد يوماً بعد يـــوم إلـــى أن انتـــهى الوجود البرتغالى فى الخليج بسقوط قاعدتهم فى هرمز عام ١٠٣١هـــــ / ١٦٢٢م على إثر التحالف الإنجليزى الصفوى(٥٤) ، الأمر الذى أدى إلى تغير مراكز القـوى وأدخل المنطقة مرحلة تاريخية جديدة من مراحل التنافس الدولى فى الخليج زاد مـــن حدتها دخول أطراف أخرى جديدة مثل الهولنديين والفرنسيين الذين خاضوا مرحلـــة صراع على السيادة ضد الإنجليز .

الهولنديون والخليج :

لم يتح تخلص الإنجليز من البرتغاليين الفرصة لهم بالانفراد على الساحة فـــى الخليج ، ففى الوقت الذى كانت البوادر تشير إلى نهاية البرتغاليين فإنها من جـــانب آخر كانت تعلن عن قدوم قوة أوربية عاتية ، وكان الهولندوين هم هذه القوة الذيـــن دلفوا إلى ساحة الصراع بكل قوة .

فبعد انتهاء السيطرة الأسبانية على هولندا عام ١٠٠٤هـــــ / ١٥٩٥م اتجـــه الهولنديون لتطوير بلادهم لتكون دولة بحرية وتجارية كبرى(٥٥) . وكان من ذلـــك

تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية The Dutch East India Company عام ١٠١٠هـ/١٦٠٢م . وطبقاً لقانون التجارة الهولندى فإن التجارة الهولندية فى الشرق كانت مقصورة على تلك الشركة التى أصبحت المنافس الرئيسى للبرتغاليين فى تجارة التوابل فى الشرق(٥٦) . وعن طريق شركة الهند الشرقية الهولندية انطلق الهولنديون فى الخليج حيث أنشأوا محطة تجارية فى بندر عباس عام ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥م ليدخلوا فى مرحلة تنافس مع الإنجليز الذين كانوا قد دخلوا إليها حديثاً(٥٧) .

وعلى الرغم من حدة التنافس الهولندى الإنجليزى فى بندر عباس إلا أن المركز الهولندى كان أكثر فعالية ونجاحاً من المركز الإنجليزى ، مما أعطى الهولنديين فرصة فى التوسع فى تجارة التوابل من الشرق الأقصى فى الوقت الذى لم تحقق الشركة الإنجليزية فيه نجاحاً مماثلاً(٥٨) . وتعزو المصادر الإنجليزية تلك النجاحات الهولندية فى الشرق عموماً وفى الخليج خاصة إلى استخدام الهولنديين أسلوب الترغيب والترهيب . وهكذا دفع الهولنديون رشوة لاستمالة السلطات المحلية، ودفعوا أعلى الأثمان لشراء السلع الفارسية فى محاولة لسحب البساط من تحت أقدام الإنجليز . وفى الوقت نفسه استخدم الهولنديون أسلوب القوة لفرض بعض الشروط التجارية من جانب آخر مما اضطر الشاه إلى الموافقة على شروطهم التى كان من أبرزها رخصة شراء الحرير فى أى جزء من فارس مع تصديره معفياً من الجمارك(٥٩) . وقد ساعدهم فى تطبيق تلك السياسات الدعم القوى من الحكومة الهولندية على عكس الحكومة الإنجليزية التى يبدو أنها تركت الشركة الإنجليزية تعتمد على نفسها فى تلك المرحلة(٦٠) .

ونتيجة للتفوق الهولندى فى فارس اضطر الإنجليز إلى مغادرة بندر عباس والرحيل إلى البصرة ، ولم يأت عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م إلا وكان النفوذ الهولندى فى الخليج قد بلغ أعلى درجاته . وتوج الهولنديون موقفهم بطرد البرتغاليين من مسقط عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م ، وبانتصاراتهم على الساحة الأوربية فى حروبهم

مع الإنجليز عام ١٠٦٣هـ / ١٩٥٣م ، مما أصاب التجارة الإنجليزية فى الخليج بشلل شبه تام جعلهم يفكرون فى البحث عن مؤطئ قدم آخر بعيداً عن الهولنديين .

وعلى العموم لم يتمكن الإنجليز من النهوض من تلك الصدمة والتخلص من حالة الضعف أمام الهولنديين إلا بقدوم الفرنسيين إلى الساحة ليعود بذلك التوازن النسبى مرة أخرى بين الدول الأوربية سواء فى أوربا أم خارجها ، وليدخل الخليج مرحلة تاريخية أخرى جديدة من مراحل التنافس الأوربى للسيطرة على ذلك الإقليم(٦١) .

ومع تزايد الصراع الحربى بين فرنسا من جهة وهولندا وأسبانيا من جهة أخرى وفقدان الفريق الأخير قطعاً عديدة من أساطيله التى دمرها الفرنسيون ، اضطر الهولنديون إلى الارتماء فى أحضان الإنجليز وعقدوا معهم معاهدة سلام فى عام ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م لتوحيد الجهود أمام الفرنسيين(٦٢) . ولم يأت عام ١١٠١هـ/١٦٨٨م إلا وقد أصبحت المصالح الهولندية فى أوربا خاضعة للمصالح الإنجليزية ، وبدأ الهولنديون بذلك يفقدون مراكز نفوذهم فى الخليج تدريجياً لصالح شركة الهند الشرقية الإنجليزية(٦٣) . واعتبرت الزيارة التى قام بها الشاه لمقر الوكالة الإنجليزية فى أصفهان عام ١١١١هـ / ١٦٩٩م تتويجاً محلياً وإقراراً بالتفوق الإنجليزى على الهولنديين(٦٤) ، لا سيما بعد أن فشل الهولنديون فى إقناع الشاه بالقيام بزيارة مماثلة لمقر وكالتهم فى بندر عباس ، بل زاد الطين بلة حين أمر بإيقاف العمل فى بناء القلعة الهولندية التى كانت تحت الإنشاء آنذاك(٦٥).

وهكذا فقد تكاثرت الصعاب على الهولنديين بعد ذلك ، وبدأوا ينزحون تدريجياً عن المنطقة ويركزون وجودهم فى جزيرة خارج خاصة ، فنجحوا فى عقد اتفاقية استئجار لها مع حاكم ميناء ريق ، وبنوا قلعة فيها استعداد لمرحلة طويلة من الإقامة فيها . وشرع الهولنديون بعد ذلك فى نقل معظم نشاطاتهم ووكالاتهم فى

الخليج إلى الجزيرة ، ووضعوا خططاً طويلة المدى لمسخ هويـــة الجزيـــرة العربية وتركيبتها السكانية بالعمل على توطين عدد مـــن العوائـــل الصينيـــة فيها[٦٦] . وبالرغم من كل ذلك إلا أن الهولنديين اضطروا فى النهايـــة إلـــى مغادرة الجزيرة والخليج نهائياً فى عام ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م ، والتوجه إلـــى مناطق شرق آسيا لعجزهم عن الوقوف أمام تحركات الســـلطات المحليـــة ، وضعفهم أمام النفوذ الإنجليزى المتزايد فى المنطقة ، خاصـــة وأن المـــردود الاقتصادى من تلك النشاطات الهولندية فى خارج لم يكن ليغطى النفقات التـــى أنفقت على تأمين الاستقرار[٦٧] وباضمحلال الوجود الهولندى وقبله البرتغـــالى انحصر التنافس الأوربى فى الخليج بين القوتين الكبريين فرنسا وإنجلـــترا ، فدخلتا فى مرحلة صراع كانت الغلبة فى النهاية للإنجليز على نحو ما ســـيأتى تفصيله لاحقاً .

الفرنسيون والخليج :

عند مقارنة فرنسا بالدول الاستعمارية الأوربية الأخـــرى كالبرتغـــال وإنجلترا وهولندا فإننا نجدها قد تأخرت نسبياً فى إقامة علاقات مـــع الشـــرق عامة والخليج خاصة . ذلك أن المحاولات الفرنسية الأولى لم تفلح فى إقامـــة شركة تجارية للشرق على غرار الشركتين الإنجليزية والهولندية[٦٨] ، ولذلـــك ظل النشاط الفرنسى فى الخليج والمحيط الهندى فى بداياته محصـــوراً فـــى بعض المناورات الشخصية المنبعثة من روح التنصير ، وإن كانت لا تخلـــو من بعض الأهداف السياسية[٦٩] .

وفى عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م تأسست شركة الهند الشـــرقية الفرنســـية بناءاً على مرسوم أصدره لويس الرابع عشر استجابة لنصيحة وزير ماليتـــه كولبرت[٧٠] . ومن خلال هذه الشركة انطلـــق الفرنســـيون فـــى نشـــاطاتهم

الرسمية فى الشرق . وكانت مدغشقر المحطة الرئيسية الأولى للفرنسيين فى تحركاتهم تلك ، حيث اتخذوها قاعدة بعد أن غيروا اسمها إلى دوفين . ومن هناكِ أرسل الفرنسيون بعثات إلى فارس حصلوا من خلالها على بعض الحقوق التجارية ، مثل التصريح بافتتاح وكالة فرنسية فى بندر عباس عام ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م وحق الإعفاء من الرسوم التجارية لمدة ثلاث سنوات(٧١) . وبالرغم من ذلك فقد ظل النشاط الفرنسى محدوداً ، ويصف أحد التقارير حالة الفرنسيين فى بندر عباس آنذاك بقوله : « الفرنسيون فى هذا الميناء كشأنهم فى كل مكان أخر ليس لهم عمل يعملونه ، ولولا ما يحصل عليه مترجمهم هناك من ربح من تجارة الهند لما استطاعوا تدبير قوتهم..(٧٢)» .

وكان من أسباب ضعف الفرنسيين الموقف الأوربى الموحد ضدهم داخل أوربا ؛ وما تم من حلف بين هولندا وإنجلترا مما أدى إلى تدهور الأوضاع الفرنسية ليس فى أوربا فحسب بل وفى مناطق وجودها خارج أوربا مثل الخليج ، لدرجة أنهم اضطروا إلى إغلاق وكالتهم فى بندر عباس عام ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م(٧٣) .

واستمر نشاط الفرنسيين محدوداً إلى أن أعيد افتتاح الوكالة الفرنسية فى بندر عباس فى عهد نادر شاه عام ١١٤٨هـ / ١٧٣٥م حينما استطاعت فرنسا أن تسترد أنفاسها ، وأن تحيى نشاطاتها التجارية عقب الخسائر التى لحقت بها . ورغم الامتيازات التى أعطيت للفرنسيين فى بندر عباس إلا أن نشاطهم كان محدوداً . ويعود السبب فى ذلك إلى تحالف الهولنديين والإنجليز ضدهم خوفاً من منافستهم فى المنطقة(٧٤) .

وبعد أن استقرت أحوال الفرنسيين في بندر عباس بدأوا في مد نشاطهم إلى غيرها من مناطق الخليج ، فافتتحوا وكالة تجارية في البصرة تزامناً مع افتتاح قنصليتهم فيها عام ١١٥٢هـ / ١٧٣٩م[٧٥] . ويبدو أن الوضع في البصرة لم يكن أحسن حالاً منه في بندر عباس لدرجة أن المقيم الفرنسي في البصرة قد اضطر لترك وظيفته في الميناء حين تأخرت مخصصاته المالية عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م ، ولم يتم تعيين مقيم بدلاً عنه إلا في عام ١١٦٩هـ / ١٧٥٥م[٧٦] . وفي تلك الفترة كان التنافس الأوربي في الخليج على أشده ، حيث بلغ حد الصراع الحربي بين تلك الدول . وكان ذلك انعكاساً لحالة التنافس بين هذه الدول داخل أوربا نفسها فلم تكن حرب السنوات السبع مثلاً والتي اشتعلت بين فرنسا وإنجلترا عام ١١٧٠هـ / ١٧٥٦م قاصرة على ساحات القتال في أوربا بل توسعت لتشمل ممتلكات ومناطق نفوذ البلدان خارج أوربا بما في ذلك منطقة الخليج[٧٧] .

ومن أمثلة ذلك ما حدث في بندر عباس عام ١١٧٣هـ / ١٧٥٩م حينما قامت أربع قطع من الأسطول الفرنسي متسترة بالأعلام الهولندية بالهجوم على الوكالة الإنجليزية في بندر عباس وأجبرتها على الاستسلام بموجب معاهدة وقعت بين الطرفين[٧٨] ، مما اضطر الإنجليز إلى نقل وكالتهم إلى البصرة في العام نفسه[٧٩] . وكان خروج فرنسا خاسرة في حرب السنوات السبع يعني قلب الموازين مرة أخرى لصالح بريطانيا . حيث تنازلت فرنسا بموجب اتفاقيات الصلح عن سائر ممتلكاتها في الهند لصالح بريطانيا .

وبعد أن استقرت الأحوال في فرنسا وأفاقت من صدمتها عادت من جديد للعمل على استرداد ما فقدته من ممتلكات ، وأخذوا يعدون العدة

ويضعون الخطط لزحزحة الإنجليز عن تلك الممتلكات والحلـــول مكانــهم . وكانت الخطة الفرنسية ترمى إلى استرداد مناطقهم فى الهند باعتبارها مفتــاح الشرق ولب كنوزه . وجرت الخطة على البدء فى المناطق التى تعتبر مفتاحـاً للهند[٨٠] .

وكانت الخطوات العملية لذلك قد بدأت بالعمل الجـــدى علـــى إقامـــة العلاقات الفرنسية العمانية ، وكانت التحركات الفرنسية تتـــم عـــن طريـــق قنصلها فى بغداد ووكلائها فى جزر الموريشيوس[٨١] . ولحرص الفرنســـيين على توطيد العلاقات مع مسقط فقد بادروا إلى تقديم اعتذارهم لعمان حينمـــا ساءت العلاقة بين الطرفين عام ١١٩٥هـ / ١٧٨١م إثر حادثـــة احتجـــاز السفينة الفرنسية فى مسقط[٨٢] .

وهكذا سار الفرنسيون فى محاولاتهم لإرساء قواعدهـــم فـــى الخليـــج تدريجياً وبأساليب هادئة كى لا تثير منافسيهم الإنجليز. وفاز الفرنسيون عـــام ١١٩٩هـ / ١٧٨٥م بعقد اتفاقية تجارية مع مسقط أتاحت للفرنســـيين فتـــح وكالة تجارية لهم فيها[٨٣] فى الوقت الذى رفض الســـلطان العمـــانى طلبـــاً إنجليزياً مماثلاً . ويفسر بعض المؤرخين قبول سلطان مسقط عقد الاتفاقيـــة وفتح الوكالة بأن المردود التجارى المتوقع سيكون لصـــالح عمـــان حيـــث اشترط أن يكون امتياز نقل البضاع بين الخليـــج والمســـتعمرات الفرنســـية مقصوراً على السفن العمانية[٨٤] .

ومع ازدياد التنافس الدولى بين بريطانيا وفرنسا ونشوب حرب جديـــدة بينهما عام ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م زادت فرنسا من تعلقها بالخليج ونظرت إليـــه نظرة جديدة باعتباره قاعدة مهمة فى حالة قيامها بحملة على الـــهند ؛ الـــدرة البريطانية فى الشرق . وفى الوقت الذى أرسلت بعثة إلى فـــارس لاكتشـــاف

المزيد عن الطرق إلى الهند قامت فرنسا بإنشاء قنصلية لــها فــى مســقط ، وعينت للمنصب بوشمان وهو أحد الجغرافيين الذين كانوا علىاطلاع بالعــالم العربى وبالطرق إلى الهند . وجاء فى التعليمات إليه :

« إن قنصلية مسقط إنما أنشئت للتجسس على حركة الإنجليز فى الـهند بدراسة الأحوال الداخلية فى هذه البلاد ، وكذلك دراسة الطرق التى يمكـن أن يستخدمها غزو فرنسى للشرق»(٨٥) .

ويبدو أن بوشمان فشل فى مهمته حينما عجز عن الوصول إلى مسقط. ويعود السبب فى ذلك إلى مروره بالأستانة لاستئذان العثمــانيين فــى أمــر تعيينه(٨٦) ، ومن ثم تأخره فى الوصول إلى مسقط قبـــل الحملــة الفرنســية النابليونية على مصر والتى أدت إلى ردود فعل العالم العربـــى والإســلامى ضد فرنسا والفرنسيين ألقت بظلالها على تحركـــات بوشــمان(٨٧) ، وكــان أقصى ما تمكن بوشمان من تحقيقه هو الفرار من حلب إلى مصر(٨٨) . أمـــا عن الخطوة الفرنسية باستطلاع الطرق إلى الهند عبر فارس فلم تسفر هـــى الأخرى عن نتائج إيجابية تذكر عدا بعض التوصيات التى قدمها أفراد البعثــة إلى الحكومة الفرنسية ، مثل توصيتهم باستخدام السفن الفرنسية لنقل البضــائع فى الخليج ، والتوصية بنقل الممثل الفرنسى من بغداد إلى البصرة للإشــراف على العمليات التجارية فى الخليج عن قرب ، والتوصية بتجنب تنفيـــذ أيــة عمليات حربية فى جزيرة خارج لعزلتها(٨٩) .

وهكذا يمكن القول باختصار أن تلك التحركات الفرنسية فـــى الشــرق عامة وفى الخليج خاصة لم يكتب لها الثبات ولا النجـــاح . ولعــل الســبب الرئيسى فى ذلك يعود فى المقام الأول إلـــى التحركــات الإنجليزيــة ضــد الفرنسيين فى الشرق والتى كان لها دور ليس فى إفشـــال تلــك التحركــات

الفرنسية فى الخليج فحسب بل وفى تثبيت الأقدام الإنجليزية فى الخليج على نحو ما سيأتى تفصيله لاحقاً .

بريطانيا والخليج :

ارتبط تاريخ العالم الإسلامى فى العصر الحديث فى كثير من المواقع بالوجود البريطانى ، حيث شكل الغزو البريطانى لبلدان العالم الإسلامى ، بصوره المختلفة ، الكثير من الأحداث والتغيرات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والتى تركت ، فى مجملها ، بالتضافر مع عوامل أخرى داخلية وخارجية ، أثراً بارزاً على تاريخ كثير من بلدان العالم الإسلامى فى العصر الحديث ، بل ربما كان ذلك الأثر ظاهراً على الهوية الإسلامية والعربية لهذه البلدان ، الأمر الذى قادهم فى أخر المطاف إلى أن يصبحوا أمة ممزقة مهانة ، تقبع فى ذيل الأمم بعد أن كانوا فى يوم من الأيام هم قادة الركب فى العالم .

وتعتبر منطقة الخليج أولى مناطق العالم العربى ، فى جسم الأمة الإسلامية ، التى عملت بريطانيا على إخضاعها . وقد تنوعت وتطورت المصالح البريطانية فى الخليج يوماً بعد آخر ، مما جعلها تصر على البقاء فى المنطقة أطول مدة ممكنة ، وتستميت فى سبيل ذلك ، إلى أن اضطررت فى النهاية أن تغلب مصلحة الانسحاب على مصلحة البقاء ، ومن ثم فلا غرابة أيضاً إن كانت منطقة الخليج هىآخر منطقة فى البلدان العربية انفرج عنها هذا الكابوس ولو ظاهرياً .

وعلى العموم فإن التحركات الإنجليزية الاستعمارية تعود إلى وقت مبكر فى العصر الحديث ، وبالتحديد إلى عام ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م حينما حققت إنجلترا انتصاراً حربياً على الأسطول الأسبانى فى معركة الأرمادا

التى حققت للإنجليز قدراً كبيراً من الأمن القومى لينطلقوا بعد ذلك فى مرحلة المغامرات والنشاط البحرى والتجارى شرقاً وغرباً(٩٠) .

وكانت التحركات البريطانية فى الشرق خلال تلك المرحلة قد بدأت على شكل تحركات شخصية يقوم بها بعض التجار فى مناطق الهند ، ويبدو أن تلك الخطوات كانت عديمة الفائدة ، إذ لم تؤد إلى نتائج تذكر فى تثبيت النفوذ الإنجليزى إلا فى مطلع القرن السابع عشر ، أى بعد تأسيس الشركة الإنجليزية الشرقية(٩١) .

ففى عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠م توج الإنجليز خطواتهم فى الشرق بتأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية بموجب مرسوم ملكى من الملكة اليزابيث Elizabeth كان عبارة عن وثيقة رسمية تمنح الشركة الحق المطلق فى احتكار التعامل التجارى فى الشرق للشركة باسم The Governor & Company of Merchants of London Trading to The East Indies(٩٢) « رئيس وأعضاء شركة لندن للتجار المتاجرين فى جزر الهند الشرقية » . وهى ما عرف اصطلاحا باسم « شركة الهند الشرقية الإنجليزية »(٩٣) . ومنذ ذلك الحين انطلقت الشركة تحت حماية أسطولها الخاص بها ودخلت فى تنافس محموم فى الشرق مع من سبقها أو من لحقها من الدول الأوربية الأخرى المنافسة ، لترعى المصالح البريطانية فى تلك المناطق بمختلف مستوياتها الاقتصادية والسياسية ، وتنوع ميادينها فى آسيا بحيث أصبحت هى الممثل والراعى الرسمى لمصالح بريطانيا خلال قرنين ونصف ، أى خلال القرنين السابع والثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر .

وكانت الهند هى الميدان الأول للتنافس الإنجليزى البرتغالى فى الشرق ويبدو أن بداية النهاية للبرتغاليين قد بدأت حين استطاع الإنجليز أن يمكنوا

لأنفسهم وأن يضعوا لهم موطئ قدم قوية فيها ، خاصة حينما نجحوا في تأسيس وكالة لهم في سورات عام ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م[٩٤] . ومن سورات في الهند انطلقت التحركات الإنجليزية في الخليج بحثاً عن الأسواق والموارد الاقتصادية . وبدأت العلاقات الرسمية بين الشركة وحكومة فارس عام ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م حينما أصدر الشاه فرماناً أعطى الإنجليز ، ممثلين بالشركة ، الحق بتأسيس وكالة لهم في جاسك[٩٥] ، ثم في أصفهان وشيراز عام ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م ، ومنذ ذلك الحين أخذ الإنجليز يعملون على تثبيت أقدامهم في المنطقة ، ودخلوا في سبيل ذلك في صراع مع القوى الأوربية الأخرى التي سبقتهم إلى المنطقة ، مثل البرتغاليين والهولنديين ، والقوى التي لحقتهم فيها مثل الفرنسيين ، وقد سبق الحديث عن جزء من أحداث تلك المرحلة عند الحديث عن أوضاع البرتغاليين والهولنديين في الخليج . كما دخل الإنجليز في الوقت نفسه في صراع آخر مع القوى المحلية في الخليج بشقيه الفارسي والعربي . ولم ينته القرن التاسع عشر إلا وقد استطاع الإنجليز أن يتفوقوا على جميع تلك القوى الدولية منها والمحلية وأن يكونوا أصحاب السيادة في الخليج لا سيما وقد نجحوا في إجبار القوى المحلية الواحدة تلو الأخرى على توقيع معاهدات الحماية مع بريطانيا ، تلك المعاهدات التي سميت من جانب آخر بالمعاهدات المانعة لأنها أقفلت المنطقة أمام القوى الدولية الأخرى وحصرت السيادة فيها للبريطانيين وحدهم .

المبحث الرابع

السيطرة البريطانية على الخليج

أولاً : دوافع السيطرة وعوامل النجاح فى فرضها :

لم يكن التفوق البريطانى فى الخليج وليد الصدفة أو نابعاً من فـــراغ ، بل أن ذلك كان ثمرة للتخطيط وللعمل المتواصل من البريطانيين لتحقيق تلــك الغاية ، وقد ساعدهم لبلوغ أهدافهم عدد من الأمور التى تراوحت مـــا بيـــن عوامل كانت دافعة للبريطانيين على الإصرار والمضى قدماً فى سبيل تحقيــق أهدافهم ، أو عوامل أخرى يسرت لهم التفوق على تلك القوى ومن ثم تحقيــق السيطرة على الخليج .

وكان من أبرز تلك العوامل : تنوع المصالح البريطانية فـــى الخليـــج وتجددها ، وتفوق القوة البحرية لبريطانيا مع اســـتخدام أســلوب الــترغيب والترهيب ، وحسن وضبط التنظيم الإدارى البريطانى فى الخليج ، وضعــف الجبهة الداخلية وتنازعها مع استخدام سياسة فـــرق تســد ، وفشــل الــدول الاستعمارية الأخرى ، ضعف الدولة العثمانية فى الخليج ، ثم أخـــيراً نجــاح بريطانيا فى سياسة التحالفات وعقد المعاهدات .

وسنعرض فيما يلى لهذه العوامل وأثرها فى نجاح بريطانيا فى تحقيــق أهدافها فى السيطرة على منطقة الخليج .

١ - تنوع المصالح البريطانية وتجددها فى الخليج :

كان تنوع وتجدد المصالح البريطانية فى الخليج عـــاملاً مــهماً مـــن العوامل التى دفعت بريطانيا فى التوجه إلى الخليج ومـــن ثـــم دفعتــها إلـــى الإصرار على تحقيق التفوق والاستقرار فيه لفـــترة طويلـــة لرعايـــة تلـــك

المصالح المتنوعة والمتجددة . وقد تركزت المصالح البريطانية فـــى البدايـــة بجانبين :

الجانب الأول : جانب اقتصادى يتمثل فى رغبة البريطانيين الإفادة مـن أسواق منطقة الخليج وما حولها فى تسويق المنتجات التى كان البريطــــانيون يتاجرون بها ، أو استغلال ما فى منطقة الخليــــج مــن مقــدرات ومــوارد اقتصادية فى ذلك الوقت ، والتى يأتى فى طليعتها اللؤلؤ والحرير .

وكان الجانب الثانى فى ذلك الوقت هو الجانب الأمنـــى الاســتراتيجى والذى يتمثل فى حرص بريطانيا على حماية الهند وهى درة التاج البريطــانى فى الشرق ، وذلك باتخاذ الخليج خطا دفاعيا متقدما للدفاع عن ممتلكاتها فـــى الهند ؛ أى اعتبار الخليج الخط الذى يجب أن تتكسر عنده أية محاولة دوليـــة منافسة للوصول إلى الهند درة المستعمرات البريطانية .

وعلى مدى القرن التاسع عشر تضاعفت أهمية هذين العاملين الســابقين وأضيف إليهما عامل آخر لا يقل عنهما أهمية ، وهو الموقـــع الاســتراتيجى المهم للخليج بالنسبة للمصالح البريطانية المتجددة فى تلك الفترة ، وبخاصـــة حين أصبح الخليج بسواحله حلقة مهمة وخيارا عمليا وحيـــدا فـــى السلســلة التلغرافية ؛ الذى تستطيع بريطانيا من خلاله أن تصل مستعمراتها فى الشــرق بالوطن الأم بريطانيا بشبكة من الاتصالات التلغرافية التى نشطت بريطانيـــا فى مدها آنذاك ، فعمدت إلى عقد عدد من المعاهدات الخاصـــة بـــالتلغراف وحماية منشآته مع عدد من دول المنطقة . وبالإضافة إلى ذلك فقـــد ازدادت أهمية الخليج للبريطانيين قبيل نهاية القرن مع تطور وسائل النقل البحرى بعـد استخدام السفن البخارية فى النقل .

وأمام هذه المتغيرات والمستجدات ولمواكبة التطورات كانت التحركات البريطانية متجددة فى محاولة واضحة منهم لاستغلال موانئ الخليج وبعض الجزر الخليجية مستودعات ومحطات لتزويد السفن البخارية بالفحم ، كما أصرت بريطانيا على التمسك فى موقفها المتفوق فى الخليج ، وعقدت معاهدات جديدة تحقق تلك المصالح وتضمن تسييرها ، مثل اتفاقيات التلغراف واتفاقيات الحماية وغيرها .

وفى القرن العشرين أضيف إلى تلك العوامل السابقة عوامل أخرى جديدة ضاعفت من إصرار بريطانيا على التمسك بزمام الأمور فى الخليج ، والرفض القاطع لمحاولات التدخل الدولية من جديد ، والوقوف بحزم أمام تلك المحاولات الدولية باتخاذ أى موطئ قدم فى الخليج ، وكان على رأس تلك العوامل الجديدة العامل الاقتصادى باكتشاف النفط وانتاجه فى الخليج ، والعامل الاسترتيجى حين أصبح الخليج منطقة ترانزيت مهمة فى طرق المواصلات الجوية بين الشرق والغرب ، وأمام تلك العوامل المتجددة والمتنوعة لم يكن مستغربا أن تصر بريطانيا على البقاء فى الخليج أطول فترة ممكنة وأن يكون الخليج آخر المناطق العربية التى نزح عنها الاستعمار البريطانى ولو ظاهرياً .

ثانياً : فشل الدول الاستعمارية الأخرى :

قيل فى الأمثال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » . وسبق القول أن دولاً أوربية استعمارية أخرى نافست بريطانيا فى محاولات السيطرة على المنطقة ، مثل البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين ، ورأينا أن الفشل فى الاستقرار فى المنطقة واستعمارها كان ملازماً لتلك الدول الأوربية ، مقارنة بالنجاح الذى حققه البريطانيون فيما بعد .

ويبدو أن فشل تلك الدول الاستعمارية فى سياساتها فى الخليج كان عاملاً مهماً فى تحقيق التفوق البريطانى فى الخليج ، حيث كانت فائدة بريطانيا فى هذا الجانب مزدوجة ؛ فمن ناحية كان فشل الدول الأوربية الأخرى فى السيطرة والاستقرار فى الخليج قد أتاح فرصة أكبر لبريطانيا لتواصل سياستها المرسومة والراسخة فى السيطرة على المنطقة .

ومن جانب آخر فإن سياسة العنف والبطش التى صاحبت تحركات بعض تلك الدول فى المنطقة قد ولد لدى القوى والشعوب المحلية شعوراً بالكراهية والنفوذ ضد الدول الأوربية الأخرى ، وهذا بدوره جعل الفرصة متاحة أمام بريطانيا للدخول فى أحلاف واتفاقيات مع القوى المحلية ، ليس رغبةً فى البريطانيين بقدر ما كانت محاولة منهم للتخلص من حالات الجور والظلم التى تعرضوا لها من تلك الدول الأوربية الأخرى .

وعلى صعيد آخر فى مجال التنافس الأوربى وحركات الصراع بين هذه الدول ، يبدو أن آثار الصراع فى الميدان الأوربى بين هذه الدول قد انعكست على سير الأوضاع العامة فى المستعمرات الأوربية خارجها . فالصراع الحربى بين فرنسا وهولندا وأسبانيا فى أواخر القرن السابع عشر كان يصب فى مصلحة بريطانيا التى استطاعت أن تعيد توازنها فى الخليج بعد أن أصبحت المصالح الهولندية فى أوربا خاضعة للمصالح الإنجليزية ، مما جعل الهولنديين يفقدون مراكزهم فى الخليج تدريجياً لصالح الإنجليز .

وكذلك فإن خروج بريطانيا منتصرة فى حرب السنوات السبع مع فرنسا (١٧٥٦ - ١٧٦٣م) مثلاً ، كان له دور فى تفوق بريطانيا فى المشرق ، حيث تنازلت فرنسا بموجب معاهدات الصلح الموقعة فى باريس عن جميع ممتلكاتها فى شبه الجزيرة الهندية[٩٦] .

وهذا بدوره زاد من قوة البريطانيين فى الخليج ، حيث خلا الميدان لهم تدريجيا لإحكام قبضتهم عليه نتيجة لضعف القوى الأوربية الأخرى المنافسة لهم ، وهكذا فإن أى تفوق للبريطانيين فى أوربا كانت آثاره تظهر سريعا على مسرح الأحداث فى المناطق التى كانت تتنافس عليها القوى الأوربية خارج أوربا .

ثالثا : قوة بريطانيا البحرية :

اعتمدت بريطانيا فى تحركاتها الاستعمارية عامة على قوتها البحرية ، ولذلك كانت مستعمراتها إما مناطق بحرية أو شواطئ قريبة من البحار . وعن ذلك يقول بسمارك ؛ أحد القادة الألمان : « إن لبريطانيا جيشا لو أرسلت إليه الشرطة الألمانية لاعتقلته ، هذا فى الوقت الذى كانت بريطانيا تسيطر بأساطيلها على العالم »[٩٧] .

ويبدو أن الخليج لم يكن بمعزل عن هذا التميز والنهج الحربى البريطانى بحكم طبيعته الجغرافية ، حيث كان لبريطانيا منذ أن اتجهت إلى الخليج فيلق بحرى دائم فى الخليج . وكان آمر هذا الفيلق مسئولا عن الدفاع عن المصالح البريطانية فى الخليج وما حوله بشكل أو آخر عن طريق المقيم البريطانى فى الخليج أمام حكومة الهند البريطانية وبالتالى أمام الأسطول الهندى البريطانى ، أو أمام الأسطول الملكى البريطانى وبالتالى أمام الحكومة المركزية فى لندن[٩٨] .

ومن خلال استعراض مسيرة الصراع فى الخليج سواء بين القوى الاستعمارية نفسها أو بين هذه القوى والقوى المحلية ، يمكن القول بأن المصالح والنفوذ البريطانيين كانا يمثلان انعكاسا واضحا لمدى القوة البحرية البريطانية فى الخليج سلبا وإيجابا ، وأن البحرية البريطانية كان لها دور فى

ترجيح النفوذ البريطانى فى الخليج فى كثير من الأحداث ، وبالتالى فقد كان لها الكلمة الفصل فى فرض النفوذ البريطانى فى الخليج حين اضطرت القوى المحلية إلى الرضوخ للضغوط البريطانية وتوقيع معاهدات الحماية معها فى ظل تواجد القوة البحرية البريطانية وضغوطها(٩٩) .

رابعاً : التنظيم الإدارى البريطانى فى الخليج :

كان للتنظيم الإدارى لأجهزة الحكم والسياسة البريطانية فى منطقة الخليج دور مهم فى متابعة التخطيط والتنفيذ لتسيير السياسات البريطانية الرامية إلى تحقيق المصالح البريطانية فى الخليج وبالتالى النجاح فى فرض هيمنتهم على المنطقة .

وكان على رأس الهرم الإدارى البريطانى فى حكم هذه المنطقة نيابة عن الحكومة البريطانية فى لندن أو فى الهند ما يعرف اصطلاحاً باسم «المقيم البريطانى» أو « المعتمد البريطانى » الذى كان يدير الشؤون البريطانية من خلال ما يعرف اصطلاحاً باسم « المقيمية البريطانية » التى اتخذت من بوشهر على الساحل الفارسى للخليج موقعاً لها منذ عام ١٧٦٣م وظلت فى موقعها إلى أن انتقلت إلى البحرين فى عام ١٩٤٧م(١٠٠) .

ونظراً للمهام الإدارية والسياسية التى اضطلع بها المقيم ، فقد أطلق عليه بعض المؤرخين (الملك المتوج فى الخليج) دلالة على ما كان يتمتع به من مركز سياسى وحربى وإدارى كبير(١٠١) . وقد توزع وتغير ارتباط المقيم البريطانى إدارياً بالجهات الرسمية البريطانية بين فترة وأخرى ، تبعاً للتطورات الاستعمارية البريطانية ، وصدى أيضاً لتغير المصالح البريطانية سواء فى الهند أو فى الخليج ، ففى فترات ارتبط المقيم البريطانى فى الخليج بالأجهزة البريطانية فى الهند ، وفى أحيان أخرى بالحكومة المركزية فى لندن ، متنقلاً بين عدد من أجهزتها المختلفة ، مثل وزارة الخارجية ، ووزارة المستعمرات ، ووزارة الهند وغيرها .

أما من الناحية العسكرية فقد تنوعت علاقة المقيم بين الأسطول البريطاني في الهند والأسطول البريطاني في لندن . كما كانت ، في الوقت نفسه ، للمقيم البريطاني علاقات وارتباطات رسمية ، وتعاون وتنسيق مستمر مع الأجهزة البريطانية الرسمية المشابهة في طهران ، وبغداد ، والبصرة ، وعدن ، والقاهرة . إضافة إلى ذلك فقد كان للمقيم ارتباط بالأجهزة البريطانية المحلية المنتشرة في بلدان الخليج ، وتتلخص هذه الرابطة ، في قيام المقيم بالإشراف المباشر على إدارة هذه المكاتب البريطانية في بلدان الخليج حيث كان يتبع للمقيم عدد من الأجهزة والوكالات البريطانية أو الوطنية التي انتشرت في بلدان الخليج المختلفة والتي كانت تخضع لإشراف المقيم المباشر وإدارته وتكمل المهام الملقاة على عاتقه في هذه البلدان كجزء مهم من مسؤوليته الكبرى والأعم ، وهي القيام على رعاية المصالح البريطانية المتنوعة والمتجددة في المنطقة(١٠٢) .

خامسا : ضعف الجبهة الداخلية وتنازعها :

من خلال ما سبق الحديث عنه في المبحث الثاني من هذا البحث عن تطورات التاريخ السياسي لبلدان الخليج خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي يلحظ بأن التنازع والصراع بين البلدان بعضها بعضا ، أو النزاع بين القيادات داخل البلد الواحد كان سمة ظاهرة من سمات تاريخ المنطقة . كما لوحظ كذلك بأن الصراع الداخلي كان سببا رئيسيا في الجبهة الداخلية وتفتتها في وجه القوى الاستعمارية ، وعلى رأسها الاستعمار البريطاني الذي حقق من وراء ذلك خطوات واسعة للتمكين لنفسه في الخليج .

ومما يبدو من تتبع تاريخ الوجود البريطاني وتحركاته في المنطقة أن الساسة البريطانيين أفادوا من هذه الظاهرة فائدة كبيرة ووظفوها في سبيل تمكين أقدامهم في منطقة الخليج وزادوا في إسعار نارها عن طريق سياسة « فرق تسد » التي

أجادوا رسم خططها وأحسنوا تنفيذ خيوطها بين القوى المحلية على مختلف مستوياتها .

وسنكتفى هنا بإيراد بعض الأمثلة التى توضح أثر هذا العامل ودوره فى تمكين البريطانيين من التسلل إلى المنطقة ومن ثم ترسيخ أقدامهم فيها وفرض هيمنتهم عليها بعد ضرب القوى المحلية بعضها ببعض أو استغلال الخلافات فيما بينها بالوقوف إلى جانب طرف ضد الآخر فى سبيل ضمان تحقيق المصالح البريطانية فى المنطقة .

فمن الأمثلة على ذلك وقوف السلطة فى عمان إلى جانب البريطانيين فى حملاتهم ضد رأس الخيمة منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى أن ضربت رأس الخيمة ووقعت معاهدة السلام العامة عام ١٨٢٠م . وكان الدافع وراء ذلك الموقف العمانى الرغبة فى كسب ود البريطانيين للوقوف إلى جانبهم فى صراعهم مع بلدان الساحل العمانى ، وفى تطلعاتهم للسيطرة على البحرين[١٠٣] . وتكررت المواقف العمانية الناتجة عن الصراع بين القوى المحلية أكثر من مرة خلال القرن التاسع عشر . وكان أبرز الأمثلة فى ذلك استغلال بريطانيا الصراع بين أبناء السلطان سعيد بعد وفاته عام ١٨٥٦م فى التعجيل بفصل أجزاء الدولة إلى شطرين : أفريقى مكون من زنجبار وما حولها ، وآسيوى مكون من البلد الأم عمان فى الخليج[١٠٤].

ومن الشواهد الأخرى لهذا العامل الأثر السلبى الذى خلفه الصراع بين بعض القوى المحلية فى البحرين من أسرة آل خليفة ، ذلك النزاع الذى كان سبباً رئيسياً فى ضعف الجبهة الداخلية وسقوطها فى قبضة البريطانيين بإعلان التدخل والوقوف إلى جانب الشيخ على بن خليفة ومن بعده الشيخ عيسى بن على . وكان من أبرز الآثار لذلك أن اضطر حكام البحرين إلى توقيع عدة معاهدات مع بريطانيا مثل معاهدة ١٨٦١م ومعاهدة ١٨٦٨م، ومعاهدة ١٨٨٠م، ومعاهدة الحماية فى عام ١٨٩٢م والتى رسخت النفوذ البريطانى فى البحرين وجعلت له اليد المطلقة فيه[١٠٥].

وعلى النهج نفسه استغلت بريطانيا الصراع بين آل خليفة فى البحريـــن وآل ثانى حكامهم فى قطر فى التعجيل بسلخ قطر من البحرين وإقراره رسمياً بسياســة فرض الأمر الواقع بعد توقيع معاهدة عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م مع شيخ قطر(١٠٦).

كما رأينا من خلال ما سبق من مباحث أن العامل نفسه كـــان واحـــداً مــن الأسباب الرئيسية التى أضعفت موقف شيخ الكويت ودفعت به إلى توقيـــع معـــاهدة الحماية مع بريطانيا عام ١٨٩٩م ، وهكذا كان هذا العامل أشبه ما يكـــون بـــالثغرة التى نفذت بريطانيا من خلالها إلى داخل البلدان الخليجية .

سادساً : ضعف مواقف الدولة العثمانية :

بالرغم من ما مر سابقاً من مواقف إيجابية مبكرة للدولة العثمانية فى الوقـوف فى وجه الغزو البرتغالى فى منطقة البحر الأحمر والخليج ، فإن المتتبـــع لمواقـــف الدولة العثمانية بعد ذلك يلحظ ضعف الإعداد الحربى عند الدولة العثمانية وترددهـــا فى اتخاذ القرارات وعدم الحزم فى التنفيذ .

ومن أبرز ما يلحظ فى ذلك : ضعف الأسطول العثمانى فى منطقة الخليـــج ؛ المنطقة البحرية التى يعتمد من يريد السيطرة عليها على تواجد فيلق بحرى بشـــكل دائم ، وهو ما لم يكن يتوفر للعثمانيين الذين كانوا يعتمدون فى تحركاتهم الحربيـــة فى الشرق على القوة البرية أكثر من اعتمادهم على الأساطيل البحرية .

كذلك يلحظ على العثمانيين أن غالبية قراراتهم وتحركاتهم فى الخليـــج كـــانت نابعة من اجتهادات شخصية من بعض القادة والولاة فى المنطقة ، أكثر من كونـــها قرارات نابعة من السلطات العليا ، ولعل مما زاد الأمر سوءاً أن تلك الاجتـــهادات كانت كثيراً ما تجابه بالرفض والقبول من السلطات العليا فى الدولـــة خوفـــاً مـــن تصادمها مع المصالح العثمانية الأخرى خاصة فى أوربا(١٠٧) .

وكان مما يزيد هذه المواقف سلبية وضعفاً ما كان يجرى على العكـــس مـــن ذلك فى الجانب البريطانى حيث كان البريطانيون فى الخليج ، وكما سبق الحديـــث

عن ذلك ، قد تفوقوا فى إعداد القوة البحرية ، كما كـــان رجالاتـــهم فـــى الخليـــج يتحركون وفق مبادئ وسياسات ثابتة لا تتغير بتغير الأشخاص . وكان يؤازر ذلـــك كله حزم فى تطبيق القرارات باستخدام ما يناسب كل ذلك من أساليب « الـــترغيب والترهيب » التى مكنتهم فى النهاية من تحقيـــق تفوقـــهم فـــى المنطقـــة بفـــرض المعاهدات ذات الأهداف المتنوعة والتى وصلت ذروتها بفرض معاهدات الحمايـــة على بلدان المنطقة الواحدة تلو الأخرى .

سابعاً : سياسة عقد التحالفات والمعاهدات :

كانت سياسة عقد التحالفات من العوامل المهمة التى مكنت بريطانيا من تقويـــة نفوذها وضرب بعض القوى ببعضها . وكانت أولى التحالفات الإنجليزية قد تمـــت في وقت مبكر من مراحل الوجود الإنجليزى فى الخليـــج ، وبـــالتحديد فـــى عـــام ١٠٣١هـــ/ ١٦٢٢م . ففى ذلك العام كان الإنجليز قد دخلوا فى تحالف حربى مـــع فارس لتوحيد القوى ضد البرتغاليين . ويمكن القول أن ذلك التحـــالف كـــان بدايـــة النهاية للوجود البرتغالى فى الخليج ، حيث نجـــح هـــذا التحـــالف فـــى حصـــار البرتغاليين وضربهم فى هرمز وإجبارهم على الخروج منها .

وعلى الخط السياسى نفسه ولتحقيق أهداف مشابهة فى التحالف مـــع القـــوى المحلية أمام القوى الأوربية الأخرى المنافسة استطاع البريطانيون عقد اتفاق بينـــهم وبين حاكم مسقط عام ١٢١٣هـــ / ١٧٩٨م . وجاء في الاتفاق المكون من ســـبعة بنود العمل على توثيق العلاقات بين البلدان وعدم السماح للفرنســـيين والـــهولنديين بإقامة مراكز تجارية لهم فى عمان وتوابعها طالما أن الحرب قائمـــة بينـــهم وبيـــن الإنجليز ، وفصـــل الطبيب الفرنسى من خدمة إمام مسقط ، ومنع السفن الفرنســـية من الإقامة فى المرفأ الذى تتواجد به السفن الإنجليزية . إضافة إلى النـــص علـــى وقوف حاكم عمان إلى جانب بريطانيا فى حالة نشوب حرب بينها وبين فرنسا فـــى المياه الإقليمية العمانية .

ويبدو أن سياسة عقد الأحلاف والمعاهدات قد أدت نتيجة ملموسة فى سبيل التفوق البريطانى فى الخليج ، ولذلك فقد سارت بريطانيا فى هذه السياسة قدماً خلال الفترات اللاحقة وعقدت العديد من المعاهدات والاتفاقيات مع القوى المحلية .

وكانت تلك المعاهدات قد تحولت تدريجياً فى صورتها وأسلوب عقدها من تحالف وتعاهد بن طرفين بينهما شىء من التوازن وتبادل المنافع النسبيين إلى اتفاقيات ، فى غالبها تعلن عن تفوق الطرف البريطانى وإملاء شروط منه على الطرف الآخر الذى كان يشعر بشىء من الغبن والدونية عند توقيع الاتفاق الذى كان هو الخيار الوحيد أمامه فى كثير من الظروف .

ومن أجل ذلك فقد استخدمت بريطانيا فى سبيل عقد المعاهدات ما كان الموقف يتطلبه من أساليب « فرق تسد » ومن أساليب « الترغيب والترهيب » وغير ذلك من أساليب فرض الأمر الواقع إلى أن استطاعت فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى أن تلزم القوى المحلية أن تتهافت إلى توقيع معاهدات الحماية الواحدة تلو الأخرى تلك المعاهدات التى بموجبها استظلت دول المنطقة تحت مظلة الحماية البريطانية فى كثير من شؤونها الداخلية وفى كامل سياساتها الخارجية والتى قطعت فى الوقت نفسه الطريق أمام أى قوة أخرى فى محاولات اتخاذ أى موطئ قدم لها فى الخليج .

ثانياً : فرض الحماية البريطانية :

بالرغم من أن القاطرة البريطانية كانت مسبوقة بغيرها من قاطرات الاستعمار الأوربية عند بداية السباق بين الدول الاستعمارية فى الخليج ، إلا أن هذه القاطرة استطاعت أن تغير من موقعها تدريجيًا ، إلى أن أصبحت فى المقدمة بعد حوالى قرنين من بداية السباق الاستعمارى ، وبالتحديد فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر . ولولا بعض المحاولات اليائسة من الدولة العثمانية أو من فرنسا أو ألمانيا فى تلك الفترة لأمكن القول أن هذه القاطرة البريطانية كادت تكون القاطرة

الوحيدة فى ساحة السباق الاستعمارى فى الخليج ، خاصة بعد أن نجح الساسة البريطانيون ، وبعد مراحل طويلة من التنافس والصراع المتنوع مع القوى الخارجية والقوى الإقليمية والقوى المحلية ، فى فرض عدد من المعاهدات ، توجتها بمعاهدات الحماية البريطانية ، مع بلدان الخليج العربية الواحدة تلو الأخرى ، وهى المعاهدات التى مكنت بريطانيا من أن تفرض سيطرتها التامة على هذه البلدات تحت ستار الحماية البريطانية .

وكانت جذور التجربة الأولية لمعاهدات الحماية البريطانية فى الخليج ، وكما سبق الحديث عن شىء من ذلك فى مباحث هذه الدراسة ، قد انطلقت وطبقت فى البحرين، حينما نجحت بريطانيا فى عقد معاهدة مع الشيخ عيسى بن على حاكم البحرين عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م ، وهى معاهدة تتضمن مجموعة من التعهدات من قبل حاكم البحرين أو من يخلفه « بالامتناع عن الدخول فى أية مفاوضات أو عقد أية معاهدات من أى نوع كانت مع أية حكومة أو دولة عدا بريطانيا ، وعدم السماح لأية حكومة – عدا بريطانيا – بإقامة علاقات دبلوماسية أو قنصلية أو إعطاء تصريح بإنشاء مستودعات لتخزين الفحم فى الأراضى البحرينية إلا بعد موافقة من الحكومة البريطانية (١٠٨) .

ويبدو أن نجاح البريطانيين فى فرض تلك المعاهدة والنتائج الملموسة التى حصل البريطانيون عليها من خلال تلك المعاهدة ، رغم تركيزها على قضية المستودعات للفحم ، قد شجع الساسة البريطانيين على تعميم التجربة السابقة وبالتالى فرض معاهدات الحماية البريطانية بشكل أوضح وأعمق وأعم مع عدد من بلدان الخليج بعد ذلك بحوالى عشر سنوات . ورغم ذلك فإن بريطانيا ، وعلى ما يبدو ، رأت عدم الاستعجال فى فرض معاهدات الحماية وفضلت إدخال هذا النهج الجديد من معاهدات الحماية فى تجربة قبل تعميمها على بقية البلدان الخليجية . ولذا فقد اكتفت فى أول الأمر بعقد معاهدة الحماية البريطانية التى وقعت على هذا النهج

الجديد فى الخليج مع سلطان عمان فى التاسع من شعبان ١٣٠٨هـ / العشرين من مارس ١٨٩١م(١٠٩) .

وبعد عام كامل تقريباً من هذه المعاهدة ، وكما يبدو من سير الأحداث ، رأت الحكومة البريطانية فعالية هذه المعاهدة ومناسبة تعميم التجربة الجديدة فى عدد من المشيخات الخليجية الأخرى . وكانت مشيخات الساحل العمانى المتصالح والبحرين هى المناطق الجديدة المستهدفة للدخول فى هذه المعاهدات الجديدة . حيث وقع شيوخ كل من أبو ظبى ودبى وعجمان والشارقة ورأس الخيمة على التوالى على معاهدات الحماية مع تالبوت ؛ المقيم البريطانى فى الخليج خلال الفترة من ٦- ٩ شعبان ١٣٠٩هـ / ٥ - ٨ مارس ١٨٩٢م . وقد أطلقت هذه المعاهدة يد بريطانيا فى تسيير شؤون هذه المشيخات الداخلية والخارجية ، حيث تعهد الشيوخ باسم أنفسهم ومن يرثهم أو يخلفهم « ألا يوقعوا أية اتفاقية أو يدخلوا فى أية علاقة بدولة أجنبية سوى بريطانيا العظمى ،وألا يسمحوا لوكيل دولة أجنبية أخرى بالبقاء فى أراضيهم دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية ، وألا يمنحوا أى جزء من أراضيهم سواء عن طريق البيع أو الإيجار أو الرهن أو التنازل أو غير ذلك لاحتلال أية دولة أجنبية باستثناء بريطانيا العظمى »(١١٠) .

ومن الساحل المتصالح توجه تالبوت إلى البحرين مباشرة حيث تمكن بعد أسبوع من توقيع معاهدة الحماية البريطانية مع الشيخ عيسى بن على حاكم البحرين فى الرابع عشر من شعبان ١٣٠٩هـ / ١٣ مارس ١٨٩٢م ، وبموجب هذه المعاهدة استطاعت بريطانيا التصدى لجميع المحاولات الفارسية والعثمانية المتكررة للتدخل فى شؤون البحرين ، ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد ، فمع تزايد المصالح البريطانية فى المنطقة لم تتورع بريطانيا كذلك عن إدارة كثير من الشؤون المحلية فى البحرين ، ومن أجل ذلك عينت مستشاراً بريطانياً فى البحرين منذ عام ١٩٢٦م ، كما أتخذت من البحرين قاعدة لإدارة شؤونها فى المنطقة منذ

عام ١٩٤٧م حينما قررت نقل المقيمية البريطانية من بوشهر على الساحل الفارسي للخليج إلى البحرين(١١١) .

وعلى غرار المعاهدات السابقة قامت بريطانيا وقبيل نهاية القرن التاسع عشر بضم الكويت إلى هذه السلسلة من البلدان الواقعة تحت الحماية البريطانية . ويبدو أن الظروف التى كانت تجرى فى الكويت كانت دافعة وميسرة ، فى آن واحد ، لبريطانيا فى التعجيل بعقد هذه المعاهدة ، حيث كانت الكويت فى تلك الفترة مسرحا لصراع محلى بين آل صباح أنفسهم ، كما كانت الكويت تمثل نقطة نهاية لمنطقة تنافس دولى كبير بين عدد من القوى الكبرى آنذاك ، مثل ألمانيا وفرنسا وروسيا والدولة العثمانية ، خاصة فى ظل التفكير فى مد خط سكة حديد بغداد إلى الكويت ، وفى ظل تلك الظروف قامت بريطانيا باستغلال الظروف لصالحها وتوقيع معاهدة الحماية مع الشيخ مبارك الصباح فى رمضان من عام ١٣١٦هـ / يناير ١٨٩٩م(١١٢) . وهى معاهدة مشابهة تماما لمعاهدات الحماية البريطانية التى كانت بريطانيا قد عقدتها مع بلدان الخليج الأخرى قبل ذلك بحوالى عشر سنوات وذلك وفقا لأهداف بريطانيا وسياستها العامة فى الخليج الرامية للسيطرة على بلدان الخليج ، ومنع القوى الدولية الأخرى من اتخاذ موطئ قدم فيه باعتباره الخط أو النقطة الأولى التى يجب أن تتكسر عندها أية محاولات دولية للوصول إلى الهند درة التاج البريطانى فى المشرق .

ويوضح الدكتور أحمد أبو حاكمه ظروف عقد هذه المعاهدة بقوله : « يجب أن نقرر هنا أن الظروف السياسية الدولية هى التى أملت على بريطانيا أن توقع اتفاقية ٢٣ يناير لعام ١٨٩٩مع الشيخ مبارك ، وماتلاها من اتفاقيات . ففى العقد الأخير من القرن التاسع عشر حصل تقارب كبير بين روسيا وفرنسا ، مما أفقد بريطانيا سيادتها البحرية على البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك حصل تقارب كبير أيضا بين القيصر ولهلم ، قيصر المانيا والسلطان عبد الحميد ، وبدا واضحا أن

بريطانيا إذا أرادت أن تحتفظ بسيطرتها على الخليج العربى لابـــد مــن أن تغلــق موانيه فى وجه أساطيل الدول الغربية الثلاث المذكورة ، ولن يكون ذلك بدون عقــد اتفاقيات مع الحكام المحليين على شاطئ الخليج العربى ، أى أن بريطانيـــا قــامت بعقد تلك الاتفاقيات مع بلدان الخليج العربى حرصاً على مصلحة الإمبراطورية أولاً وقبل كل شيء »[١١٣] .

ورغــم عقد اتفاقية الحماية البريطانية مع الكويت فإن بريطانيا كانت تمـــرر ما ترى فيه مصلحة لها أو على أقل تقدير مـــا لايتعــارض مـع مصالحــها مــن الاتفاقيات الكويتية مع بعض الأطراف والقوى الخارجية . ولذلك ففى الوقت الــذى منعت فيه بريطانيا الكويت فى عام ١٩٣٦م من عقد اتفاقية مع العراق لمــد الميــاه من شط العرب خوفاً من وقوع الكويت تحت التأثير العراقى[١١٤] فإنها لم تمـــانع ، مثلاً خلال فترة سريان المعاهدة من دخول الكويت فى بعض العلاقات والمعــاهدات السياسية أو التجارية التى لم تكن تؤثر على تلك المصالح البريطانية . ومن ذلــك ، مثلا ، معاهدات النفط المتتالية مع عدد من الشركات العالمية المختلفة التــى بــدأت منذ عام ١٩٤٦م ، وكذلك وقعت الكويت معاهدة دفاع مشترك مع المملكة العربيـــة السعودية عام ١٩٤٧م ، كما دخلت الحكومة الكويتية بعد ذلك فى عدد من الاتفاقات والنشاطات الدولية الأخرى التى استندت على جهود جامعة الدول العربية وميثاقــها والتى قادتها فى النهاية إلى الاستقلال[١١٥] .

وكانت قطر هى المحطة الأخيرة التى توقف عندها قطار معاهدات الحمايـــة أو الاستعمار البريطانى فى الخليج ، حيث دخل الطرفان البريطانى والقطرى فـــى هذه المعاهدة فى محرم عام ١٣٣٥هـ / نوفمبر ١٩١٦م[١١٦] .

وبتوقيع المعاهدة مع قطر على نسق هذه المعاهدات ؛ أى معاهدات الحمايـــة البريطانية السابقة مع عمان ومشيخات الساحل والبحرين والكويت أكملت بريطانيـــا مسلسل هيمنتها وسيطرتها على منطقـــة الخليـــج ، خاصـــة وقـــد خلـــت الســـاحة

للبريطانيين من المنافسين لهم هناك ، بعد الانسحاب التدريجى للمنافسين الأوربيين الذين حاولوا يائسين منافسة بريطانيا آنذاك مثل فرنسا وألمانيا والاتحاد السوفيتى ، وبانتهاء المواقف العثمانية والوجود العثمانى ؛ ليس فى منطقة الخليج فحسب ، بل باضمحلال الوجود العثمانى على مختلف الساحات بسقوط الدولة العثمانية وقيام الجمهورية التركية على أنقاضها والتى حصرت نفوذها وقوتها فى الحدود الجغرافية لتركيا الحالية ، واقتسام أراضيها بين بعض القوى العالمية وبالذات فرنسا وبريطانيا التى حظيت من ذلك بنصيب وافر فى شمال الخليج حين فرضت سيطرتها الاستعمارية على العراق ، لتكمل بذلك هيمنتها التامة على منطقة الخليج من جنوبها إلى شمالها بعد مراحل من الصراع والتنافس الاستعمارى الطويل . ولتستمر بريطانيا بعد ذلك ضاربة أطنابها فى منطقة الخليج مستظلة بظلال معاهدات الحماية منذ عقدها إلى مطلع الستينات من القرن العشرين ، حين بدأت بلدان المنطقة وشعوبها تتطلع لنيل استقلالها والمناداة بالانسحاب البريطانى الذى أصبح وجوده يعتمد كثيراً على مظلة الحماية العسكرية ، فكانت بريطانيا أمام خيارين « إما التوسع فى الوجود العسكرى أو الانسحاب »(١١٧) ، وحيث أن الوجود العسكرى كان يكهل عاتق الحكومة البريطانية فى ظل سياسة « تخفيض نفقات الدفاع وذلك لمواجهة خططها الاقتصادية الداخلية وفى أوربا »(١١٨) .

وفى ظل تلك المتغيرات الجديدة فضل البريطانيون اتخاذ قرار الانسحاب من الخليج وفق سياستهم الجديدة فى الخليج « وهى تغيير الأسلوب القديم ، بانسحاب القوات البريطانية ، وإنهاء المعاهدات التى لم تعد مناسبة للعصر ، ثم المحافظة على مصالح بريطانيا الاقتصادية ، بعقد معاهدات صداقة فى الإمارات على أسس تلائم روح العصر »(١١٩) . ولتبادر بلدان الخليج بعد ذلك إلى إعلان استقلالها الواحدة تلو الأخرى ولتدخل المنطقة وبلدانها فى حقبة تاريخية جديدة هى حقبة المحاولات الوحدوية التى كانت قد جرت عبر مراحل متدرجة بدأت فى ظل الحماية البريطانية وبدأت ثمارها تتضح عند قرار الانسحاب البريطانى .

وبالرغم من تلك العلاقات التعاهدية بين بريطانيا وبين تلك المشيخات ، وبين تلك المشيخات بعضها ببعض إلا أن الوحدة فيما بينها ظلت غائبة خاصة وأن بريطانيا كانت تغذى عوامل الفرقة وفق مبادئ « فرق تسد » ، حيث كانت «النزاعات المحلية والقبلية والإقليمية تعمق فيما بين العرب مما سهل على الاستعمار مهمة استغلالها والسيطرة عليها لصالحها »(١٢٠) . ولذلك فإن بعض المحاولات الوحدوية المتكررة من قبل بعض أبناء الإمارات لوضع اتحاد فيدرالي منذ الثلاثينات من القرن العشرين إلى الستينات من القرن نفسه لم يكتب لها النجاح، لعدة أسباب ، منها الأسباب الاقتصادية ، مثل قلة الموارد ، ومنها الأسباب السياسية، مثل الموقف البريطاني ، حيث إن بريطانيا صاحبة النفوذ القوى في المنطقة كانت تعارض « جميع الصيغ الاتحادية من هذا القبيل لما يتسبب من تهديد لوجودها في المنطقة ، ولم تشهد الإمارات العربية أي محاولات وحدوية باستثناء الاتحاد الفيدرالي الذى تم بين الشارقة والفجيرة عام ١٩٦٠ ، ولكنه لم يستمر سوى بضعة أشهر »(١٢١) .

وجاءت بوادر الانسحاب البريطاني من الخليج بعد ذلك لتحرك المحاولات الوحدوية الخليجية من جديد ولتدفع بها خطوات إلى الأمام ، وبدأت تلك المحاولات الجديدة بالتحالف الثنائي بين دبي وأبو ظبي في الثامن عشر من شهر فبراير من عام ١٩٦٨م ، ثم تلاشى ذلك التحالف مباشرة حين جرت محاولات الاتحاد التساعي الذى ضم قطر والبحرين إضافة إلى إمارات الساحل السبع .

وكان مصير هذا التحالف الفشل لعدة أسباب أبرزها : غموض اتفاقية الاتحاد خاصة حول الاختصاصات التى تدخل في نطاقه ، والتمثيل في المجلس الوطني الاستشاري ، ونظام التصويت في المجلس الأعلى ، ومسألة التفرغ للمناصب الوزارية ، والخلاف حول العاصمة الاتحادية ، ونظام القوات المسلحة ، والخلافات

حول تبعية اختصاص المواصلات لكل إمارة ، ثم أخيراً الخلاف حول المساهمة فى ميزانية الاتحاد .

ونتيجة لتلك الخلافات وعدم الوصول إلى اتفاق بين هذه الدول فقد اتجهت قطر والبحرين إلى الاستقلال عن الاتحاد المقترح . ومن جانب أخر فإن قرار الانسحاب البريطانى قد قاد الدول السبع الباقية إلى الجدية فى مباحثاتها الاتحادية والإصرار بالخروج بالاتحاد إلى النور رغم انسحاب قطر والبحرين .

وهكذا وبعد عدة اجتماعات أعلن ستة من حكام الإمارات السبع هم حكام : أبو ظبى ، ودبى ، والشارقة ، وعجمان ، وأم القرين ، والفجيرة قيام اتحاد سداسى فيما بينهم وتشكيل دولة باسم « الإمارات العربية المتحدة » وذلك فى الثامن عشر من يوليو عام ١٩٧١م . وجرى الاتفاق فى الوقت نفسه على اختيار الشيخ زايد آل نهيان حاكم أبو ظبى رئيساً للدولة لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد ، واختيار أبو ظبى عاصمة مؤقتة للدولة كما جرى الاتفاق على أن يكون التصويت على قرارات الاتحاد بالأغلبية بشرط أن يكون ضمنها صوتا أبو ظبى ودبى ... الخ . ووفق ذلك تم بالفعل إعلان قيام الدولة والعمل بدستورها المؤقت اعتباراً من الثانى من ديسمبر عام ١٩٧١م . ولم تمض عدة أيام على ذلك حتى بادرت رأس الخيمة إلى الانضمام إلى الاتحاد فى الثالث والعشرين من الشهر نفسه وليتحول اتحاد الإمارات العربية إلى اتحاد سباعى ،[١٢٢] ولتبقى بقية دول الخليج العربية الأخرى على وضعها السياسى المنفرد ، ذلك الوضع الذى جعل كل منها يشعر بنوع من العزلة المصحوبة بالضعف فى مواجهة الرياح العاتية والقوية القادمة من الساحل الشرقى للخليج وبالتحديد من إيران الدولة القوية فى المنطقة ، وما تزامن مع ذلك من رياح أخرى وهى الرياح القادمة من شمال الخليج وبالتحديد من العراق التى اتخذت بعض الخطوات السياسية والعسكرية التى أججت الموقف وزادته تعقيداً ، حتى كادت هذه المتغيرات أن تعصف بأمن المنطقة وتهدد بعض دولها بالزوال .

ونتيجة لهذه الظروف والمتغيرات ، ولتشابه بلدان الخليج العربية في كثير من الظروف والتطورات السياسية والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، التي ظهرت بعض ملامحها من خلال التاريخ المشترك ، الذي حاولت هذه الدراسة تتبع مساراته عبر العصر الحديث والمعاصر ، لم يكن من المستغرب أن تسعى هذه الدول الخليجية بالإضافة إلى المملكة العربية السعودية الشقيقة الكبرى لبلدان الخليج العربية ، والتي هي الأخرى تتشابه في كثير من تلك الظروف والثوابت والمتغيرات مع بقية بلدان الخليج العربية التي تناولت هذه الورقة تاريخها ، أقول لم يكن مستغرباً أن تسعى هذه الدول مجتمعة إلى محاولة التقارب فيما بينها ، ذلك التقارب الذي تجسد مؤخراً في اتفاق هذه الدول وبالتحديد في عام ١٤٠١هـ / ١٩٨١م على الانضواء تحت مظلة وحدوية هي مظلة « مجلس التعاون لدول الخليج العربية»[١٢٣] والذي بتأسيسه دخلت بلدان الخليج في مرحلة تاريخية جديدة لاتزال ملامحها تحتاج إلى مزيد من الدراسات التاريخية التي لم يأت أوانها بعد ، والذي قد تعتبر مثل هذه الدراسة التي بين أيدينا أساساً مهماً قد تبني عليه مثل هذه الدراسات المنتظرة في المستقبل ، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

الخاتمة والنتائج :

من خلال هذه الدراسة عن تاريخ التنافس الاستعماري في الخليج وبلدانه العربية في العصر الحديث يمكن التوصل إلى عدد من الحقائق التاريخية الآتية :

١ - يلحظ تشابه الظروف والتطورات السياسية في غالبية بلدان المنطقة في العصر الحديث إلى حد كبير ، من حيث التزامن في حركة تأسيس المشيخات أو الإمارات العربية الحاكمة في بلدان الخليج .

٢ - تشابه الأنظمة الحاكمة في الخليج باعتمادها على نظم الحكم الأسري المتوارث. ومن الملاحظ كذلك أن حكم هذه الأسر قد استمر لفترات طويلة ، أي أنه امتد منذ أن بدأت حركة تأسيسها في القرن السابع عشر الميلادي إلى

يومنا الحاضر ، وذلك بالرغم مما اعترى هذه البلدان من غزو استعمارى خارجى ومن صراع إقليمى ، وبالرغم مما جرى فيها من تقلبات سياسية واجتماعية واقتصادية متعددة ، وبالرغم مما ساد غالبية بلدان العالم العربى الأخرى من تغيير جذرى فى أنظمة الحكم على إثر الموجة الثورية العارمة التى انتشرت فى كثير من بلدان العالم العربى فى أعقاب حركة الاستقلال الذى نالته الدول العربية والذى تزامن مع موجة الحركات الثورية فى العالم .

٣ - تشابه تاريخ بلدان الخليج العربية ، من حيث كثرة النزاعات والصراعات الداخلية بين أفراد الأسر الحاكمة فيها ، الأمر الذى أضعف هذه الدول ، فكان لذلك أثر كبير فى وقوع هذه البلدان فريسة سهلة تحت التسلط الاستعمارى .

٤ - تشابه تاريخ بلدان الخليج ، وذلك من حيث التطورات السياسية فى كثير من جوانب علاقاتها الخارجية بين بعضها البعض ، أو بينها وبين الدول الأخرى ذات المصالح فى المنطقة .

٥ - تشابه تاريخ بلدان الخليج ، وذلك من حيث تزامن تعرضها للغزو الخارجى بدءا بالغزو البرتغالى ، وانتهاء بوقوعها فى النهاية فريسة للسيطرة البريطانية، بل نزيد على ذلك بوقوعها فى الوقت الحاضر تحت تأثير النفوذ الأمريكى الذى يبدو أنه حل محل البريطانيين فى المنطقة .

٦ - وأخيرا يلحظ من خلال هذه الدراسة تشابه التطورات السياسية فى تاريخ بلدان الخليج العربية ، وذلك من حيث تزامنها فى حركات نيل الاستقلال من نير الاستعمار البريطانى وتزامنها فى الحصول عليه .

الهوامش

(١) سورة البقرة ، آية ١٢٠ .

(٢) سليمان بن أحمد بن أيوب ، المعجم الكبير ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ١٤٠٤/ ١٩٨٣م ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٣) للمزيد عن حياة الإمام ناصر بن مرشد انظر : حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، ص ٢٦٢ - ٢٨٤ .

(٤) للمزيد عن جهاد العمانيين ضد الغزو البرتغالى وانتصارات الإمام سلطان بن سيف انظر : ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٨٤ - ٢٩٠ ، وانظر : سالم ابن حمود السيابى ، عمان عبر التاريخ ، أربعة أجزاء ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص٢٣٣ - ٢٣٨ .

(٥) للمزيد انظر : ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٩٣ - ٢٩٦ .

(٦) وزارة الإعلام والثقافة فى سلطنة عمان ، عمان وتاريخها البحرى ، مسقط ١٩٧٩م ، ص ٦٤ - ٧٠ وانظر : , Ahmed Hamoud Almaamiry
Oman And East Africa 3rd ed , New Delhi, 5891, p. 61 - 64 .

(٧) للمزيد عن أحداث تلك الفترة وما حدث فيها من صراعات انظر : ابن رزيق، الفتح المبين ، ص ٣٢٠ - ٣٤٧ ، وانظر : السيابى ، عمان عبر التاريخ ، ج ٤ ، ص٨٢ - ١١٠ .

(٨) انظر : ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٣٥٠ - ٣٨٧ .

(٩) نال تاريخ السيد سعيد مكانة عالية بين الدراسات التاريخية العمانية نظراً لدوره وجهوده فى مسار التاريخ العمانى بشقيها العمانى والأفريقى ، وللاطلاع على بعض الدراسات التى خصصت عن تاريخ السيد سعيد انظر : الكتاب الخاص بحياة السيد سعيد من تأليف حميد بن محمد بن رزيق ، سيرة

السيد الهمام سعيد بن سلطان ابن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى اليمنى الأزدى ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م . ومن الدراسات الأجنبية انظر : رودلف سعيد روت ، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ - ١٨٥٦ ، ترجمة عبد المجيد القيسى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة ١٩٨٣م . وانظر : فينزور ، تاريخ السيد سعيد سلطان عمان ، ترجمة الدكتور محمود فاضل ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ١٩٨٨م .

(١٠) اف سي ولكنسون ، عمان تاريخاً وعلماء ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، الطبعة الثانية ١٩٨٠، ص ١٩ .

(١١) عن علاقة عمان ببريطانيا فى عهد السيد سعيد انظر : سمير محمد على أبو ياسين ، العلاقات العمانية البريطانية ١٧٩٨ - ١٨٥٦ ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، البصرة ١٩٨١م .

(١٢) تلا فيصلاً ابنه تيمور الذى استمر فى الحكم إلى أن تنازل لولده سعيد بن تيمور فى عام ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م . وفى عهد فيصل وابنه سعيد كادت عمان أن تنقسم إلى بلدين حين اضطر فيصل فى عام ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠م إلى توقيع اتفاقية السيب مع بعض المنازعين للسلطة من عمان الداخلية بحيث تكون سلطنة مسقط على الساحل تحت حكمه ، وإمامة عمان فى الداخل تحت حكم الإمام محمد بن عبد الله الخليل . إلا أن ابنه سعيداً تدارك الوضع فيما بعد وبمعونة من بريطانيا وأعاد توحيد البلاد تحت حكمه عام ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م . وبالرغم من جهود تيمور فى إعادة الوحدة للبلاد وتزايد الدخل المادى للبلاد على إثر تصدير النفط إلا أنه لم يوجه اهتماماً كافياً « بترقية أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مما اضطر بعض المخلصين بالتعاون مع ولده قابوس إلى أبعاد السلطان سعيد عن الحكم وتولى ولده

قابوس فى عام ١٣٩٠هـ /١٩٧٩م ، والذى أخذ يعمل بسرعة علـــى ترقيـــة أحوال البلاد فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافيـــة » . للمزيد انظر : إسماعيل ياغى ، ومحمد شاكر ، تـــاريخ العـــالم الإســـلامى الحديث والمعاصر ٨٩٧- ١٤٠٠هـــ ، الجزء الأول ، الجناح الآســيوى ، ص ٥٣ .

(١٣) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج٢ ، ص٨٢٢ ، وللاطلاع علـــى النص العربى لمعاهدة الحماية البريطانية مع عمان انظر : ملحـــق رقـــم (٤) ص ٩٦٢ ، ٩٦٣ .

(١٤) للمزيد عن معاهدة السلام العامة وظروف عقدها ونصوصها انظر :

I. O. R, L-P & S20 C248, Precis Of Correspondence Regarding Affairs Of the Persian Gulf.

وانظر : لوريمر ، دليل الخليـــج ، القســـم التـــاريخى ، ج ٢ ، ص ١٠٢٢ - ١٠٢٧ .

(١٥) للمزيد عن معاهدة ١٨٣٥ م وظروف عقدها انظر : لوريمر ، دليل الخليـــج ، القســـم التاريخى ، ج٢ ، ص ١٠٥٥ - ١٠٦٧ . وانظـــر : عبـــد العزيـــز عبد الغنى إبراهيم ، علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، مطبوعات دارة المـــــلك عبد العزيز ، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٢٤١-٢٥٦ ، ٤٢٩ -٤٣١.

(١٦) للمزيد عن معاهدات الحماية البريطانية مع مشيخات الساحل العمانى انظـــر : لوريمر ، دليل الخليـــج ، القســـم التـــاريخى ، ج٢ ، ص١١١٧ - ١١٢١ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ .

(١٧) أحمد مصطفى أبو حاكمه ، تاريخ الكويت الحديـــث ١٧٥٠ - ١٩٦٥م ، ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٤ م ، ص١٧ - ٢١ .

(١٨) المرجع السابق ، ص٤١ .

(١٩) عبد العزيز الرشيد ، تاريخ الكويت ، تعليق عبد العزيز الرشيد ، ص ٢٠ .

(٢٠) أبو حاكمه ، تاريخ الكويت ، ص ٢٧ .

(٢١) عبد العزيز الرشيد ، تاريخ الكويت ، ص ٣١ .

(٢٢) عبد الله آل خليفة وعلى أبا حسين ، من تاريخ العتوب فـــى القـــرن الثـــامن عشر، بحث مقدم إلى مؤتمر البحرين عـــبر التـــاريخ ١٩٨٣م ، المجموعـــة الأولى ، ص ١٤ .

(٢٣) عثمان بن سند ، سبائك العسجد فى أخبار أحمد نجل رزق الأسعد ، بومبـــاى ١٣١٥هـ ، ١٨ .

(٢٤) عمر العمرى ، التطور السياسى ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٧١ .

(٢٦) خلف مباركاً ابنه جابر الثانى من ١٣٣٣ - ١٣٣٥هـ / ١٩١٥ - ١٩١٧م، ثم تلاه أخوه سالم بن مبارك وحكـــم مـــن ١٣٣٥ - ١٣٤٠هـ / ١٩١٧ - ١٩٢١ م ، وتلاه أحمد بن جابر الثانى من ١٣٤٠ - ١٣٦٩هـ / ١٩٢١ - ١٩٥٠م ، ثم عبد الله الثالث بن سالم مـــن ١٣٦٩ - ١٣٨٥هـ / ١٩٥٠ - ١٩٦٥م ، وتلاه أخوه صباح الثالث بن ســـالم مـــن ١٣٨٥ - ١٣٩٨هـ / ١٩٦٥ - إلى أخر يوم فى عام ١٩٧٧م حيث خلفه الحاكم الحالى الشيخ جـــابر الثالث بن أحمد منذ عام ١٣٩٨هـ / بداية عام ١٩٧٨م .

للمزيد عن تاريخ الكويت بعد مبارك الصباح انظر : أبـــو حاكمـــه ، تـــاريخ الكويت ، ص ٣٤١ - ٣٧٥ .

(٢٧) للمزيد عن معاهدة الحماية البريطانية مع الكويت انظـــر : ميمونـــة الخليفـــة الصباح ، الكويت فى ظل الحماية البريطانية ، الطبعة الأولـــى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٢٠ - ٢٧ .

(٢٨) منذ عام ١٩٦٠م ضاعفت الحكومة الكويتية من ممارسة ســـلطاتها وحقوقـــها تمهيداً لاستقلالها ، ومن ذلك إقرار بريطانيا لها بممارسة الحقـــوق القضائيـــة على الكويتيين وعلى المقيمين الأجانب على حد سواء حيث كـــانت القضايـــا التى تتعلق بالرعايا الأجانب قبل ذلك تحـــال إلـــى محكمـــة تابعـــة للمعتمـــد

البريطاني ، كما أصدرت قانون النقد الكويتي وافتتحت الحكومة الكويتية كذلك عدداً من القنصليات أو البيوت التابعة لها في البلدان العربية ، كما أنشأت تلك الدول ممثليات رسمية لها في الكويت وفي يونيو من العام نفسه ومع تزايد المطالبة بالاستقلال وإلغاء معاهدة ١٨٩٩م وافقت الحكومة البريطانية على ذلك ، ودخل الطرفان بمفاوضات أنهت تلك المعاهدة واستبدلتها بمعاهدة جديدة من أبرز ما فيها « أن تستمر العلاقات بين البلدين مشوبة بروح الصداقة ، وأن لا يؤثر إلغاء اتفاقية ١٨٩٩ على استعداد حكومة صاحبة الجلالة البريطانية مساعدة حكومة الكويت إذا طلبت هذه المساعدة ... » وقد عرفت هذه المعاهدة بمعاهدة « المساعدة » التي اعتبرت بداية لاستقلال الكويت ، حيث اتجه الكويتيون بعد ذلك إلى استكمال التنظيمات الداخلية ، وتشكل مجلس تأسيسي وضع دستور الدولة ، وحولت الإدارات الحكومية إلى وزارات «وصدر الدستور الكويتي في نوفمبر ١٩٦٢ حيث نص على أن الكويت دولة عربية مستقلة كاملة السيادة وشعبها جزء من الأمة العربية ودينها الإسلام ولغتها الرسمية العربية والحكم وراثي في ذرية الشيخ مبارك». ومنذ ذلك الوقت عملت الحكومة الكويتية على السير في البلاد وفق تلك المبادئ ودخلت الكويت في حركة تنموية كبيرة جعلتها في مصاف الدول الحديثة، وفي الوقت نفسه دخلت الكويت في علاقات صداقة وتعاون مع عدد من الدول العربية والإسلامية والأجنبية ، كما وقعت في الوقت نفسه في خلافات سياسية معظمها حدودية مع جاراتها ، وبالذات في عدد من المشكلات مع العراق ، تلك الأزمات التي بلغت ذروتها عام ١٩٩٠م لتتسبب في الأزمة العراقية الكويتية التي عرفت بأزمة الخليج التي يبدو أنها قد أعادت الاستعمار المغلف إلى المنطقة من جديد حين أدخلت المنطقة بمرحلة تاريخية جديدة مكنت للقوى الكبرى وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية من فرض كامل هيمنتها على بلدان المنطقة .

وللمزيد عن المعاهدات الكويتية والنصوص المقتبسة : انظر : عبد الرحمن يوسف بن حارب ، الخليج العربى والتطورات السياسية ١٩١٤ - ١٩٧١ ، دار الثقافة العربية ، الشارقة (د. ت) ، ص ٣٣ - ٥٣ .

(٢٩) انظر تفصيلات تاريخ آل خليفة فى الكويت وهجرتهم إلى الزبارة وضمهم جزر البحرين فى : عمر العمرى ، التطور السياسى للبحرين ، ص ٥٧-٧٤.

(٣٠) للاطلاع على النص العربى للمعاهدة انظر : عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، ص ٤٢٥ - ٤٢٧ .

(31) (P. R. O.) , F . O . 371 , 17825 . Historical Memorandom On Bahrain .

(٣٢) انظر التفصيلات فى عمر العمرى ، التطور السياسى للبحرين ، ص ١٥٧ - ١٨١ .

(٣٣) انظر التفصيلات فى المرجع السابق ، ص ١٨٢ - ٢٣٠ .

(٣٤) للاطلاع على ظروف عقد معاهدة الحماية مع البحرين ونصوص المعاهدة انظر :

(P. R. O.), F. O. 371, 17825. Historical Memorandom On Bahrain

وانظر : (I. O. R) L - P & S20c 241, Precls Of Bahrain Affairs .

(٣٥) عند وفاة الشيخ عيسى بن على عام ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م خلفه على الحكم فى البحرين ابنه الشيخ حمد الذى استمر إلى وفاته عام ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م ، وخلال عهده بدأت البحرين بإنتاج وتصدير النفط بكميات تجارية ، وكان لذلك آثاره الكبيرة على نواحى الحياة وبالذات الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، كما شهد عهده بداية التحولات السياسية فى المنطقة بتنامى قوة ونفوذ الولايات المتحدة الأمريكية على حساب بريطانيا ، ومن ذلك حصول أمريكا على حق استخدام البحرين قاعدة لقيادة أسطولها فى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الثانية . وفى عام ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م توفى الشيخ حمد فخلفه على الحكم ابنه الشيخ سلمان الذى أبعد المستشار البريطانى من

البحرين عام ١٣٧٧هـ وبدأ يتطلع إلى استقلال البلاد ، ولكن ذلك لم يتم إلا فى عهد خلفه الشيخ عيسى بن سلمان الذى تولى الحكم فى أعقاب وفاة أبيه عام ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، فاتخذ عدداً من الخطوات العملية الدولية لإقناع بريطانيا بترك البلاد ونيل الاستقلال ، وتم للبحرين ذلك عام ١٣٩١هـ / ١٩٧١م على إثر استفتاء قامت به الأمم المتحدة لتنطلق البحرين بعد ذلك إلى مجال أرحب فى البناء الداخلى وفى العلاقات السياسية والنشاط الدولى . وقد استمر الشيخ على رأس الحكم إلى أن وافته المنية فى أواخر عام ١٤١٩هـ ليتسلم الحكم من بعده ابنه وولى عهده الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة الذى يعمل على مواصلة دور والده فى قيادة البلاد فى خطوات التنمية الشاملة على مختلف الأصعدة .

للمزيد عن تاريخ البحرين خلال هذه الفترة انظر : أمل إبراهيم الزيانى ، البحرين بين الاستقلال السياسى والانطلاق الدولى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٢٦٣ - ٢٧١ .

وانظر : حسن موسى ، البحرين بين النضال الوطنى والديموقراطى ١٩٢٠ - ١٩٨١م ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، ص٢٨- ٣٧ .

(٣٦) انظر تفصيلات ذلك فى : عمر العمرى ، التطور السياسى ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣٧) للمزيد انظر : (P. R. O), F. O. 371 , 17825 . Historical Memorandom On Bahrain . وانظر : وثائق التاريخ القطرى (٢) من الوثائق البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ - ١٩٤٩م ، إعداد قسم الوثائق بمكتب الأمير ، الدوحة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص٩ - ١١ .

(٣٨) انظر تفصيلات ذلك فى : عمر العمرى ، التطور السياسى ، ص ٢١٤ - ٢٢٦ .

(٣٩) عبد العزيز المنصور ، التطور السياسي لقطر في الفترة ١٨٦٨ - ١٩١٦م، منشورات دار ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٠هـ ، ص٢٥ .

(٤٠) يصف الدكتور عبد العزيز المنصور ، وهو أحد المتخصصين في تاريخ قطر عهد الشيخ عبد الله بقوله : « كان الشيخ عبد الله معروفاً بعلاقاته الطيبة مع بريطانيا وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة طوال الحرب العالمية الأولى ، ولقد منح بعد انتهاء الحرب وساماً بريطانياً ... ولعل أهم الأحداث التي شهدتها قطر في عهد الشيخ عبد الله والتي كان لها أبلغ الأثر في التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للإمارة هو اكتشاف النفط الذي نقل قطر من عهد إلى عهد بينهما بون شاسع . وبشكل عام يمكننا القول بأن الشيخ عبد الله بدأ حكمه والمجتمع القطري يعيش حياته التقليدية القائمة أساساً على الغوص وحياة البادية ، وانتهى حكمه وقد وضعت قطر قدميها على عتبات عهد جديد عهد النفط بكل آثاره العميقة » . انظر عبد العزيز المنصور التطور السياسي لقطر ١٩١٦ - ١٩٤٩، منشورات دار ذات السلاسل ، الكويت ١٩٧٩م ، ص ١٢ .

(٤١) للمزيد انظر : وثائق التاريخ القطري (٢) من الوثائق البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ هـ - ١٩٤٩م ، إعداد قسم الوثائق بمكتب الأمير ، ص ١٦ - ١٩ .

(٤٢) استمر الشيخ عبد الله في الحكم إلى عام ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م حينما اعتلت صحته فتنازل لابنه علي الذي حدثت في عهده زيادة هائلة في البترول نتج عنها ارتفاع في مستوى المعيشة وزيادة في العمران .وظل الشيخ علي حاكماً إلى عام ١٣٨٠هـ ، حينما اضطر للتنازل عن الحكم لابنه أحمد ، كما عين الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني ولياً للعهد ونائباً للحاكم الجديد . وفي عام ١٣٩١هـ أعلن استقلال قطر عن الحماية البريطانية ، كما دخل الاثنان في تنافس على السلطة انتهى بانفراد الشيخ خليفة بالسلطة وتولى الحكم في عام ١٣٩٢هـ واستمر الشيخ حمد في الحكم إلى عام ١٤١٦هـ حينما قام عليه

ابنه الشيخ خليفة بن حمد بحركة اضطر فيها الشيخ حمد إلى مغـــادرة البــلاد وتولى بموجبها ابنه مقاليد السلطة وحكم البلاد حيث لازال كذلك .

للمزيد انظر : إسماعيل ياغى ومحمود شاكر ، تاريخ العالم الإسـلامى ، ج١ ، ص٦٢ .

(٤٣) عبد العزيز محمد الشناوى ، المراحل الأولى للوجود البرتغالى فــى شــرقى الجزيرة العربية ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شـــرق الجزيــرة العربية ، قطر ١٩٧٦م ، ج٢ ، ص٦١٥ .

(٤٤) أحمد العنانى ، البرتغاليون فى البحرين وما حولها خلال القرنيـــن الســادس والسابع عشر ، البحرين ١٩٨٣م ، المجموعة ١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٤٥) عبد العزيز الشناوى ، المراحل الأولى ، ص ٦١٦ .

(46) Donald Hawley, Trucial States , London 1970, pp. 68 - 71 .

(٤٧) عن هرمز وأهميتها والوجود البرتغالى انظر : إبراهيم بشمى ، مملكة هرمــز الفقاعة الذهبية ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الأيام ، البحرين ، ص ٢٨ – ٣٤ .

(٤٨) أحمد بوشرب ، مساهمة المصادر والوثائق البرتغاليـــة فــى كتابــة تــاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، من البحوث المقدمـــة إلى مؤتمر البحرين عبر التاريخ ، البحرين ١٩٨٣ م ، المجموعـــة الأولـــى ، ص ١٢١ .

(49) Donald Hawley , The Trucial States , p. 73 .

(٥٠) للمزيد عن جهاد المماليك ضد البرتغاليين انظر : نوال حمـــزه الصـــيرفى ، النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشـــر الميلادى ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٤٠٣هـــ / ١٩٨٣م ، ص ١٠٢ – ١١١ .

(51) Donald Hawley , The Trucial States, p. 73 .

(٥٢) صالح أوزبران ، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ، ترجمة وتعليق عبد الجبار ناجي ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، البصرة ١٩٧٩م ، ص٥٢ ، ٥٣ .

(٥٣) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص١٨ - ٢٢ .

(٥٤) فالح حنظل ، العرب والبرتغال في التاريخ ٩٣ - ١١٣٤هـ / ٧١١ - ١٧٢٠م ، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م ، ص٤٨٩ - ٤٩٧ .

(٥٥) حسن أحمد إبراهيم ، المطامع الأوربية في الخليج من مطلع القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية ، قطر ١٩٧٦م . ج٢ ، ص٨٩٥ .

(56) B. J. Slot, The Dutch East India Company, From Collection Papers Submitted to Bahrain Through The Ages Conference, Bahrian 1983, Part 1, p. 252.

(٥٧) حسن إبراهيم ، المطامع الأوربية ... ، ص ٨٩٥ .

(58) Donald Hawley, The Trucial States, p. 76.

(٥٩) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص٦٩ .

(60) Donald Hawley, The Trucial States , p. 76.

(61) Arnold Wilson, The Persian Gulf, London 1959, p. 164.

(62) Arnold Wilson, The Persian Gulf, pp.167-168.

(٦٣) مصطفى عقيل الخطيب ، التنافس الدولي في الخليج ١٦٢٢ - ١٧٦٣، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٦٤) المرجع السابق ، ص١٧٨ ، ١٧٩ .

(٦٥) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص١١٤ .

(٦٦) مصطفى النجار ومحمد وصفي أبو مغلي ، جزيرة خارج من جزر الخليج العربي، منشورات مركز دراسات الخليج ، البصرة ١٩٨٣م ، ص ١٥-٣٨.

(٦٧) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ج١ ، ص٢٤٥ .

وانظر : مصطفى النجار ، ومحمد أبو مغلي ، جزيرة خارج ، ص٤٢ .

(٦٨) صالح محمد العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسى فى الخليج ١٧٩٨ - ١٨١٠م ، مطبعة العانى ، بغداد ١٩٧٩م ، ص٣٥ .

(٦٩) مصطفى الخطيب ، التنافس الدولى ، ص ٢٤٤ .

(٧٠) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص٨٠ .

(٧١) صالح العابد ، موقف بريطانيا ، ص٣٦ .

(٧٢) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص١١٩ .

(٧٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص٢١٩ .

(٧٤) مصطفى الخطيب ، التنافس الدولى ، ص٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٧٥) مارتنفيل اوتركوسيه ، النشاط الفرنسى فى البصرة ١٧٣٩ - ١٧٤٥ ، ترجمة مركز دراسات الخليج العربى ، البصرة ١٩٨٠م ، ص ١٠ - ١٦ . وقد كان مارتنفيل هذا هو أول قنصل فى البصرة ، وكان يشرف عليها مع بندر عباس التى لم يكن يعالج أمورها بصورة مباشرة حيث كان يستدعى الإبحار بينهما حوالى خمسة عشر يوماً . انظر : مارتنفيل ، ص٤١ .

(٧٦) مصطفى الخطيب ، التنافس الدولى ، ص ٢٥٧ .

(٧٧) قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، بيروت ١٩٦٥م ، ص٣٨٩ .

(٧٨) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص١٦٨ - ١٧٨ .

(٧٩) قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٨٠) المرجع السابق ، ص٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٨١) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ج١ ، ص٢٤٦ .

(٨٢) صالح العابد ، موقف بريطانيا ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٨٣) قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، ص٣٩١ .

(٨٤) صلاح العقاد ، الاستعمار فى الخليج الفارسى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٦م ، ص٣٢ .

(٨٥) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص٦٢ ، ٦٣ .

(٨٦) جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقية ١٧٤١ - ١٨٦١، مكتبة القاهرة الحديثة ، ص ١٠٧ .

(٨٧) جون كيلي ، بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومي والثقافة ، عمان ١٩٧٩م ، ج١ ، ص٩٤ .

(٨٨) العقاد ، الاستعمار ، ص٣٥ .

(٨٩) المرجع السابق نفسه .

(٩٠) لوريمر ، دليل الخليج ، التاريخي ، ج١ ، ٢٣ .

(91) Hurewitz, J. C., The Middle East & North Africa In World Politics, A Documanary Record, Vol. 1, European Expnsion 1535-1914, London 1975, p. 5.

(92) Kaye, John William, The Administration of the East India Company, London 1853, pp. 109-111.

(٩٣) لوريمر ، دليل الخليج ، التاريخي ، ج١ ، ص٢٣ .

وانظر : مصطفى الخطيب ، التنافس الدولي ، ص١٣٢ .

(٩٤) لوريمر ، دليل الخليج ، التاريخي ، ج٣، ص١٢٦٩ ، ١٢٧٠ .

(95) Tuson, Penlop, The Records of the British Residency & Agencies in the Persian Gulf (I. O. R.) London, 1979, p. 173.

(٩٦) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ٣٥ ، ٦٣ .

(٩٧) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، السلام البريطاني في الخليج العربي ١٨٩٩ - ١٩٤٧ ، دار المريخ ، الرياض ١٤٠٢هـ ، ص٥٧ .

(٩٨) عمر العمري ، التطور السياسي للبحرين ، ص٢٧٤ .

(٩٩) للمزيد عن الدور الحربي للبحريةالبريطانية فيصراع القوى في الخليج انظر:

Omer Al-Omery, The Resident in the Gulf : British Power in Transition.

(100) Penelope Tuson The Records of the British Residency & Agencies in the Persian Gulf (I. O. R.) London, 1979, p. 1,2.

(١٠١) عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم ، حكومة الـــهند البريطانيـــة والإدارة فـــى الخليج العربى ١٨٥٨- ١٩٤٧م ، دار المريخ الرياض ، ص١٣٥ .

(١٠٢) للمزيد عن التنظيمات الإدارية فى الخليج انظر بعض الدراســات الخاصـــة بذلك مثل : عبد العزيز عبد الغنى إبراهيـــم ، حكومـــة الـــهند البريطانيـــة والإدارة فى الخليج العربى . وانظر دراسة للباحث :

Omer Al-Omery, The Resident in the Gulf : British Power in Transition 1858-1872, Ph.D Thesis, Department of History, University of Essex, May 1989.

وانظر كذلك دراسة أخرى للباحث بعنوان ، كتابـــات المبعوثيـــن الأجـــانب مصدراً لتاريخ الخليج دراسة فى النموذج البريطانى مـــن خـــلال ســـجلات المقيم البريطانى فى الخليج ، الرياض ١٤١٧هـــ .

(١٠٣) للمزيد عن الصراع بين عمان والبحرين والموقف البريطانى منه انظـــر : عمر العمرى ، التطور السياسى للبحرين ، ص٧٧ - ١٠٥ .

(١٠٤) عن انفصال زنجبار وعمان ودور بريطانيا فى ذلك انظـــر : بـــدر الديـــن عباس الخصوصى ، دراسات فـــى تـــاريخ الخليـــج العربـــى ، ج٢ ، ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٨هـــ / ١٩٨٨م ، ص١٥ - ٣٤ .

(١٠٥) للمزيد عن هذا الموضوع وعن المعاهدات بين بريطانيا والبحرين وظـــروف عقدها انظر : عمر العمرى ، التطور السياسى للبحريـــن ، ص٢٠٧ ، ٢٢٣ ، ٢٩١ ، ٣١٧

(١٠٦) عن انسلاخ قطر عن البحرين ودور بريطانيا فى ذلـــك انظـــر : المرجـــع السابق ، ص٢١٤ - ٢٣١ .

(١٠٧) للمزيد عن الموقف العثمانى فى الخليج انظر : عمـــر العمـــرى ، التطـــور السياسى ، ص٢٧٣ - ٢٧٧ .

(١٠٨) للمزيد عن هذه المعاهدة وظروف عقدها انظر : المرجع السابق ، ص ٢٨١ - ٣٩٤ .

(١٠٩) لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٢ ، ص٨٢٢ ، وللاطلاع على النص العربى لمعاهدة الحماية البريطانية مع عمان انظر : لوريمر ، جـ٢ ، ملحق رقم (٤) ص ٩٦٢ ، ٩٦٣ .

(١١٠) المصدر السابق ، ج٢ ، ص١١٢٠ ، وللاطلاع على النص العربى لمعاهدة الحماية البريطانية مع عمان انظر : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ملحق رقم (٨) ص ١١٩٣ ، ١١٩٤ .

(١١١) للمزيد عن الوضع فى البحرين فى ظل الحماية البريطانية انظر : أمل الزيانى ، البحرين بين الاستقلال السياسى والانطلاق الدولى ، ص ٧٩ - ١٠٦ .

(١١٢) للمزيد عن معاهدة الحماية البريطانية مع الكويت انظر : أحمد أبو حاكمه ، تاريخ الكويت ، الملحق رقم ٤ ، المعاهدات والمقاولات البحارية فيما بين حاكم الكويت والدولة البهية القيصرية ، ص٤٠٨ .

(١١٣) المرجع السابق ، ص٣٢٠ .

(١١٤) ميمونة الخليفة الصباح ، الكويت فى ظل الحماية البريطانية ، ص٣١٥ - ٣٢٥ .

(١١٥) عبد الرحمن يوسف بن حارب ، الخليج العربى والتطورات السياسية ، ص٣٣ ، ٥٣ .

(١١٦) للاطلاع على كامل النص العربى والنص الإنجليزى لمعاهدة الحماية مع قطر انظر : وثائق التاريخ القطرى (٢) من الوثائق البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ - ١٩٤٩م ، إعداد قسم الوثائق بمكتب الأمير ، الدوحة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص١٢ - ١٧ ، ٢٢١ - ٢٢٧ .

(١١٧) أمل الزياني ، البحرين بين الاســـتقلال السياســـي والانطـــلاق الدولـــي ، ص١٩٤ .

(١١٨) المرجع السابق ، ص١٩٣ .

(١١٩) المرجع السابق ، ص١٩٥ .

(١٢٠) محمد حسن العيدروس ، دولة الإمارات العربية المتحدة من الاستعمار إلـــى الاستقلال ، ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٩هـــ ، ص٢١٠ .

(١٢١) المرجع السابق ، ص٢١٢ .

(١٢٢) المرجع السابق ، ص٢١٥ – ٢٢٥، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(١٢٣) للمزيد عن تاريخ المجلس وظروف تأسيسه انظر : عبد الله بشارة ، مجلـس التعاون : أهدافه ، ظروف نشأته ومستقبله ، الرياض ١٩٨٩م ، ص١–١٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : مصادر ومراجع باللغة العربية :

- إبراهيم بشمى ، مملكة هرمز .. الفقاعة الذهبية ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الأيام، البحرين (د . ت) .
- أحمد مصطفى أبو حاكمه ، تاريخ الكويت الحديث ١١٦٣ - ١٣٨٥هـ / ١٧٥٠- ١٩٦٥م ، الطبعة الأولى ، ذات السلاسل الكويت .
- أحمد بوشرب ، مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية فى كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر البحرين عبر التاريخ ، البحرين ١٩٨٣م .
- أحمد العنانى ، البرتغاليون فى البحرين وما حولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، البحرين ١٩٨٣م ، المجموعة ١ .
- إسماعيل ياغى ، ومحمد ياغى ، ومحمد شاكر ، تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ٨٩٧ - ١٤٠٠هـ ، الجزء الأول ، الجناح الأسيوى .
- أمل إبراهيم الزيانى ، البحرين بين الاستقلال السياسى والانطلاق الدولى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- اف سي ولكنسون ، عمان تاريخاً وعلماء ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .
- بدر الدين عباس الخصوصى ، دراسات فى تاريخ الخليج العربى ، ج٢ ، ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

- حسن أحمد إبراهيم ، المطامع الأوربية فى الخليج من مطلع القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية ، قطر ١٩٧٦م .

- حسن موسى ، البحرين بين النضال الوطنى والديموقراطى ١٩٢٠ - ١٩٨١م ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م .

- حميد بن محمد رزيق ، سيرة السيد الهمام سعيد بن سلطان ابن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى اليمنى الأزدى ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى ، منشورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- ج . ج . لوريمر ، دليل الخليج ، ترجمة قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر ، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر ، مطابع على بن على ، الدوحة (ب . ت) .

- جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد فى عمان وشرق أفريقية ١٧٤١ - ١٨٦١، مكتبة القاهرة الحديثة .

- جون كيلى ، بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومى والثقافة ، عمان ١٩٧٩م .

- رودلف سعيد روت ، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١- ١٨٥٦ ، ترجمة عبد المجيد القيسى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة ١٩٨٣م .

- سالم بن حمود السيابى ، عمان عبر التاريخ ، أربعة أجزاء ، منشـــــورات وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- سليمان بن أحمد بن أيوب ، المعجم الكبير ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصـــــل ١٤٠٤ / ١٩٨٣ .
- سمير محمد على ابوياسين ، العلاقات العمانيـــة البريطانيـــة ١٧٩٨ - ١٨٥٦، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، البصرة ١٩٨١م .
- صالح اوزبران ، الاتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربى ، ترجمة وتعليـق عبد الجبار ناجى ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، البصرة ١٩٧٩م .
- صالح محمد العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسى فى الخليـــج ١٧٩٨ - ١٨١٠م ، مطبعة العانى ، بغداد ١٩٧٩م .
- صلاح العقاد ، الاستعمار فى الخليج الفارسى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعـــة الأولى ، القاهرة ١٩٥٦م .
- صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، مكتبة الأنجلـــو المصريـــة القاهرة ١٩٧٤م .
- عبد الرحمن يوسف بن حارب ، الخليج العربى والتطورات السياســية ١٩١٤ - ١٩٧١ ، دار الثقافة العربية ، الشارقة (د. ت.) .
- عبد العزيز المنصور ، التطور السياسى لقطـــر فى الفـــترة ١٨٦٨ - ١٩١٦م ، منشورات دار ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٠هـ .
- عبد العزيز المنصور ، التطور السياسى لقطر ١٩١٦ - ١٩٤٩ ، منشـورات دار ذات السلاسل ، الكويت ١٩٧٩م .

- عبد العزيز محمد الشناوى ، المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرقى الجزيرة العربية ، من البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية ، قطر ١٩٧٦م .

- عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم ، السلام البريطانى فى الخليج العربى ١٨٩٩ - ١٩٤٧ ، دار المريخ ، الرياضى ١٤٠٢هـ .

- عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم ، حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى ١٨٥٨ - ١٩٤٧م ، دار المريخ الرياض .

- عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- عبد العزيز الرشيد ، تاريخ الكويت ، وضع حواشيه وأشرف عليه يعقوب عبد العزيز الرشيد ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (ب. ت.) .

- عبد الله بشاره ، مجلس التعاون ؛ أهدافه ، ظروف نشأته ومستقبله ، الرياض ١٩٨٩م .

- عبد الله آل خليفة وعلى أبا حسين ، من تاريخ العتوب فى القرن الثامن عشر ، بحث مقدم إلى مؤتمر البحرين عبر التاريخ ١٩٨٣م ، المجموعة الأولى .

- عثمان بن سند ، سبائك العسجد فى أخبار أحمد نجل رزق الأسعد ، بومباى ١٣١٥هـ .

- عمر بن صالح العمرى ، التطور السياسى للبحرين ، ١٢١٥ - ١٣٠٩هـ/ ١٨٠٠-١٨٩٢م ، الطبعة الأولى ، مطابع دار الفكر بيروت ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

- عمر بن صالح العمرى ، أوراق المبعوثين الأجانب مصدرا لتــاريخ دراســة فى النموذج البريطانى من خلال سجلات المقيم البريطانى فى الخليــج ، الريــاض ١٤١٧هـ .
- فالح حنظل ، العرب والبرتغال فى التاريخ ٩٣-١١٣٤هـــ/٧١١-١٧٢٠م ، منشورات المجمع الثقافى ،، أبو ظبى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- فينــزور ، تاريخ السيد سعيد سلطان عمان ، ترجمة الدكتور محمود فــاضل، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ١٩٨٨م .
- قسم الوثائق بمكتب الأمير ، وثائق التاريخ القطرى (٢) من الوثائق البريطانيـة والعثمانية ١٨٦٨ - ١٩٤٩ ، الدوحة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- مارتنفيل اوتركوسيه ، النشاط الفرنسى فى البصرة ١٧٣٩ - ١٧٤٥ ، ترجمــة مركز دراسات الخليج العربى ، البصرة ١٩٨٠م .
- محمد حسن العيدروس ، دولة الإمارات العربية المتحــدة مــن الاســتعمار إلى الاستقلال ، ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٩هـ .
- مصطفى عقيل الخطيب ، التنافس الدولى فى الخليج ١٦٢٢ - ١٧٦٣ ، المكتبـة العصرية ، بيروت .
- مصطفى النجار ومحمد وصفى أبو مغلى ، جزيرة خارج من جزر الخليج العـربى ، منشورات مركز دراسات الخليج ، البصرة ١٩٨٣م .
- ميمونة الخليفة الصباح ، الكويت فى ظل الحماية البريطانيــة ، الطبعـة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- نوال حمزة الصيرفى ، النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، مطبوعات دارة الملــك عبــد العزيــز ، الريــاض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- وزارة الإعلام والثقافة فى سلطنة عمان ، عمان وتاريخها البحـــرى ، مســـقط ١٩٧٩م .

مصادر ومراجع باللغة الإنجليزية :

- (P. R. O) , F . O . 371 , 17825 . Historical Memorandom On Bahrain.
- (I. O. R) L - P & S20c 241, Precls Of Bahrain Affairs .
- (I. O. R), L - P& S20 C248, Precis Of Correspondence Regarding Affairs Of the Persian Gulf .
- Arnold Wilson , The Persian Gulf , London 1959 .
- Ahmed Hamoud Almaamiry , Oman And East Africa 3rd ed , New Delhi, 1985.
- B . J . Slot , The Dutch East India Company , From Collection Papers Submitted to Bahrain Through The Ages Conference , Bahrian 1983, Part 1 .
- Donald Hawley, The Trucial States , London 1970 .
- Hurewitz, J. C. , The Middle East & North Africa In World Politics , A Documanary record, Vol. 1, European Expnsion 1535-1914, London 1975.
- Kaye, John William, The Administration of the East India Company, London 1853.
- Omer Al-Omery, The Resident in the Gulf : British Power in Transition 1858-1872, Ph.D Thesis, Department of History, University of Essex, May 1989.
- Penelope Tuson, The Records of the British Residency & Agencies in the Persian Gulf (I. O. R.) London, 1979.
- Tuson, Penlop, The Records of the British Residency & Agencies in the Persian Gulf (I. O. R.) London, 1979.

العلماء والأئمة فى عمان

أضواء على بعض مظاهر الحياة السياسية فى العصور الحديثة

د. سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمى(*)

المقدمة

يسلط هذا البحث الضوء على بعض مظاهر الحياة السياسية فى عمان فى التاريخ الحديث اعتبارا من القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر للهجرة، الموافق القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين للميلاد ، وبخاصة دور العلماء فى الحياة السياسية وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة من حيث دور العلماء فى تنصيب الإمام أو خلعه ، أو فى معارضته إن بلغ حد الخلع أو تخطى واجباته ، أو علاقتهم بالسلطان أو الملك .

لقد قام علماء عمان بهذا الدور فى الحياة السياسية باعتبارهم جزء من أهل «الحل والعقد » الذين لهم الحق فى تنصيب الحاكم ومراقبته ، بوصفهم أهل الشورى ولهم مكانة كبيرة فى المجتمع الإسلامى ، وأنهم قدوة أهل زمانهم ، يتحلون بالحكمة والزهد والعفة والتواضع والقدوة الحسنة .

ذلك أن العصر الحديث اعتبارا من مطلع القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد شهد مجموعة من الأئمة العمانية — بعد أن كانت الإمامة قد اختفت طيلة ثلاثة قرون ونصف القرن . وبجانب هؤلاء الأئمة وجد علماء أفذاذ قادوا المسيرة الفكرية والسياسية فى المجتمع العمانى ، وشهدت عمان بهم أزدهارا حضاريا كبيرا ، لمسنا جانبا منه خصوصا فى فترة دولة اليعاربة

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد – كلية الآداب جامعة السلطان قابوس .

(١٠٣٤هـ/١٦٢٤م – ١١٦٢هـ/١٧٤٩م) الذين نجحوا فى تحرير عمان من وطأة الاستعمار البرتغالى ، كما شهدت عمان أيضًا نهضة كبيرة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر للميلاد أبان عهد السيد سعيد بن سلطان البوسعيدى (١٢١٩هـ/١٨٠٤م – ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م) .

وتتمحور هذه الدراسة حول الإمامة فى عمان وتطورها التاريخى ، ثم تركز على دور العلماء فى الحياة السياسية وذلك من خلال العناصر التالية :

١ – الإمامة والخلافة .

٢ – أهل الحل والعقد .

٣ – الإمامة فى عمان .

٤ – علاقة العلماء بالأئمة .

أولاً : الإمامة والخلافة :

إن موضوع الإمامة والخلافة القصد منه حفظ الدين وسياسة الدنيا ، أى وظيفة دنيوية وأخروية ، يقول الماوردى (ت : ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) فى كتابه المشهور « الأحكام السلطانية » إن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالإجماع »[1] .

ويقصد الماوردى من ذلك أن مكانة الإمام أو الخليفة ومبايعته على أنه رئيس للمسلمين ينظر فى أمور دنياهم ويرعى إدارة زمانهم وحفظ الدين وتطبيقه ، ومنزلة هذا الإمام من المسلمين من الناحية الدنيوية كمنزلة النبى محمد ﷺ منهم ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق تنفيذ شرائع الدين بإقامة الحدود ومعاقبة المنحرفين عن الجادة ، كما أن الإمام يجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية .

إن انتخاب الإمام أو الخليفة واجب على الأمة وهى على الكفاية . والمسلمون متفقون على وجوبها ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا الخوارج[٢] الذين يرون أن انتخاب الإمام جائز وليس بواجب ، ووافق رأيهم بعض مشايخ المعتزلة . ويتفق رأى الأباضية مع مذاهب أهل السنة الأربعة فى وجوب اختيار الإمام وفرضيته . ويتجلى ذلك على لسان كثير من علماء الأباضية وكتبهم الفقهية ، وهذا الشيخ خميس بن سعيد بن على الشقصى يذكر فى كتابه « المنهج »[٣] أن اختيار الأمام فرض من فرائض الله فيقول : « الإمامة فرض من فرائض الله وواجب من واجباته وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط على الباقين »[٤] .

ويستدل العلماء على فرضية الإمامة بالقرآن والسنة الشريفة وإجماع المسلمين ، إما بالقرآن الكريم وإما بالسنة الشريفة ففى القرآن الكريم يقول الله تعالى : « اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »[٥] وإلى قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفكم فى الأرض »[٦] وإلى قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فأحكم بين الناس بالحق »[٧] . وهناك نصوص قرآنية أخرى مما لم نورده تشير إلى اختيار الإمام وهو لا محالة كما فهمه الصحابة وطبقوه .

أما الاستدلال من السنة الشريفة فلقول الرسول الكريم : « اطيعوا ولاة أموركم »[٨] وقال : « ولا تعصى إمامًا عادلاً »[٩] « من أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى »[١٠] « من مات وليس عليه إمام فميتته ميته جاهلية »[١١] « ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »[١٢] « لا يزال هذا الدين قائمًا حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش »[١٣] .

أما الاستدلال بالإجماع فهو فعل المهاجرين والأنصار فى اختيارهم الخلفاء الراشدين ، وكفاح المسلمين فى تثبيت خلفاء بنى أمية وبنى العباس يؤكد هذه الشرعية[١٤] .

ولذا اجمع علماء الأمة الإسلامية على وجوب الإمامة ولكنهم اختلفوا فيمـــن أولى بها . والأصل فى الخلافة عند المسلمين راجعة إلى اختيار أهل الحل والعقـــد الذين هم العلماء والرؤساء ووجوه الناس .

ومكانة الإمام عظيمة بين المسلمين حيث أنـــه لا يمكــن أن تطبــق أحكــام الشريعة بدونه ، فهذا الشيخ أحمد الكندى يذكر أهمية هذا الدور وينســب للعلامــة موسى بن على بن عزرة الأزكوى السامى[١٥] قولاً جاء فيه « لا يجهز جيــش ولا تعقد راية ولا يؤمن خائف ولا يقام حد ولا يحكم بحكم غير مجتمع عليه إلا بإمـــام وهى عند القدرة عليها والإمكان الإمامة منها[١٦] . ويقول الشيخ أبو المؤثر الصلــت ابن خميس « وإن من دين الله الإمامة وهى حق الله واجبة علـــى عبــاده لإقامــة الحدود وإنصاف المظلوم والحكم بين الناس »[١٧] ويقول الصائغى[١٨] « إن الإمامــة فريضـــة والعقد فيها وسيلة[١٩] وفى قول آخر « أن الإمامة سنة ، قبــل أن يثبــت العقد ، فإن ثبت العقد كانت فريضة[٢٠] .

والإمامة عند الأباضية فرض من فرائض الله الواجبة على العباد وهى فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، ويقوم بـــها أهــل الحــل والعقــد المتواجدين مع الإمام المتوفى أو إن لمسوا من أنفسهم القدرة فى مكان ما صالحًـــا وهم مخولون فى اختيار الإمام ويشترط أن لا يقل عددهم عن ستة رجال[٢١] .

من هذه النصوص وغيرها مما لم نذكره نفهم أن على الأمـــة فــرض فــى اختيار الإمام لكى يدير أمور الدولة ويسوسها ويمنع الظلم ويفصل بين المتخـاصمين ويدفع المضار ، وعلى حد قول ابن خلــدون (ت: ٨٠٨هـــ/١٤٠٥م) « جلــب المصالح الدنيوية ودفع المضار »[٢٢] إلى آخر المهام الموكولة علـــى كــاهل هــذا الإمام . ونستجلى من الأباضية كلام الشيخ أبى المؤثــر الخروصـــى (ت : أوائــل القرن ٤هــ) « وإن من دين الله الإمامة وهى حق الله واجب على عبـــاده لإقامــة الحدود ، وإنصاف المظلوم والحكم بالعدل بين الناس عامة . فإذا ظهر المســلمون

اجتمع فى الأرض فقهاؤها وأهل الفضل منــــهم ، واجتــهدوا لله فـــى النصيحـــة ، واختاروا رجلاً طاعته لله لا لطاعتهم(٢٣) .

وكلمة الإمام والخليفة والأمير ، هى فى الواقع ألفاظ مترادفة تعنى الحـــاكم ، وإن كانت فى القرون التالية لعصر الرسالة أخذت مفهومًا جديدًا . وكان الأصل هــو الأمير ، فقد وردت على لسان أهل السقيفة « منا أمير ومنكم أمير أو نحن الأمــراء وأنتم الوزراء » ولذلك تلقب بعض الخلفاء بلقب أمير المؤمنين . والكلمات الثــلاث لها مدلولاتها فلتراجع فى ذلك قواميس اللغة وموسوعاتها ، كما اتخذ بعض الخلفـــاء من بنى أمية وبنى العباس ألقابًا بجـــانب أســمائهم كالنــاصر والقــائم والمــهدى والهادى... إلخ .

ويختار أهل الحل والعقد خليفة من المسلمين إذا توفرت فيه صفــات الخليفـــة وهى العلم والعدالة والكفاية والحرية وسلامة الحواس والأعضاء والنسب القرشى .

وقد اختلفت المذاهب الإسلامية فى صفة العلم ومقــداره وشــرط القرشــية ، حيث اكتفت بعض المذاهب بأن يكون الخليفة عالمًا بشئون الدين والأحكـــام بينمـــا اشترطت البعض بالعالم المجتهد كما جاء على لسان ابن خلدون « ولا يكتفى مـــن العلم إلا أن يكون مجتهدًا لأن التقليد نقص والإمامة تستدعى الكمال فى الأوصـــاف والأحوال »(٢٤) ، ويقول عبد القاهر البغدادى (ت : ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) « وأقل ما يكفيه منه أن يبلغ فيه مبلغ المجتهدين فى الحلال والحرام وفى سائر الأحكام »(٢٥) .

والحقيقة أن هذا الشرط يصعب تحقيقه ولذلك لم تأخذ الأمة بهذا الشرط فـــى اختيار خلفائهم من بنى أمية أو من أتى بعدهم . ومن أنصار هذا الرأى العلامة ابــن حزم الأندلسى الذى يرى أن هذا الشرط من المستحبات ، فقال : « ثم يســتحب أن يكون عالمًا بما يخصه من أمور الدين من العبادات والسياســـة والأحكـــام مؤديًـــا للفرائض كلها لا يخل بشئ منها مجتنبًا لجميع الكبائر سرًا وجهرًا ... »(٢٦) .

أما الشرط الثانى الذى اختلف فيه فهو النسب القرشى ، إذ اجتمعت الأمة على هذا الشرط إلا الخوارج والأباضية الذين يرون أنه يجوز اختيار الخليفة من قريش أو غيرهم إن توفرت فى الخليفة الشروط المناسبة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تخلص أهل السنة من هذا الشرط حينما فقدت قريش القدرة والشوكة . فهذا ابن خلدون يقول : « ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التى يقوى بها على أمره لأنه إذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية » ويقول : « وبما أن الغلبة والنفوذ كانتا لقريش بعد وفاة الرسول (ص) فمن الضرورى أن تكون الخلافة فيهم وقتئذ»[٢٧] . ويضيف الأباضية شروط ثانوية مهمة أوجزها الشيخ الكندى فى أنه يجب على الإمام أن يكون عادلاً ، حكيمًا، شجاعًا ، شريفًا ، قادرًا على نشر العدالة بين الناس والسهر على حقوقهم ومصالحهم ، وأن يحكمهم بالعدل التام حسب الشريعة الدينية ، ولا ينبغى للإمام أن يكون حسوداً ولا مقعدًا ولا كذابًا ، ولا مخلفًا، ولا حقودًا ، ولا بخيلاً ، وعجولاً ، ولا مبذرًا ، لاغدارًا ، ولا مكارًا[٢٨] .

ولا يعنى هذا أن الأباضية يرفضون الإمام من قريش إنما يؤكدون أن الأفضلية يجب أن يكون من قريش ، فإن تعذر فمن غيره . ويقول الشيخ أحمد الكندى نقلاً من كتاب التمهيد لبعض الأباضية قال : يجب أن يكون على أوصاف منها : أن يكون قرشيًا من الصميم لقول النبى ﷺ : الأئمة من قريش ، وليس من صفاته أن يكون معصومًا ، ولا عالمًا بالغيب ، ولا أفرس الأمة وأشجعهم ، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط ، دون غيرهم من قريش »[٢٩] ، ولعله يشير إلى رأى الشيعة الذين يحصرون الخليفة فى بنى هاشم من سلالة فاطمة وعلى (رضى الله عنهما) .

ثانيًا : أهل الحل والعقد :

تنعقد الإمامة بأمرين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد ، والأخر بعهد من الإمام (ولاية عهد) . ويقول البقلانى (ت : ٤٠٣هـ/١٠١٢م) فى هذا الصياغ « ويصير الإمام إمامًا بعقد من يعقد له لإمامته من أفاضل المسلمين الذين هم أهل

الحل والعقد والمؤتمنون فى هذا الشأن »[٣٠] . وأهل الحل والعقد هم العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يعقد عليهم الرأى والمشورة ويتيسر اجتماعهم فى مركز الحكم . فهؤلاء يتمتعون بالسلطة الشرعية على الأمة وهم باختيارهم لشخص وتنصيبه إماما يتخلون عن سلطتهم الشرعية ويفوضونها إليه .

واشترط الماوردى عدة شروط فى أهلية أهل الحل والعقد وهى العدالة والعلم وصاحب رأى وحكمة[٣١] . وقد اختلف فى عدد أهل الحل والعقد الذين تنعقد بهم الإمامة . فقيل تنعقد بواحد إذا كان من أهل الاجتهاد[٣٢] ، وقيل تنعقد باثنين من أهل الورع والاجتهاد[٣٣] ، وقيل تنعقد بستة من أهل الصلاح والمشورة وأهل الرأى[٣٤] . وهنالك طائفة من المسلمين يرون بعدد غير محدد وأنها تنعقد بواسطة علماء الأمة[٣٥] . أما الأباضية فيشترطون فى أهل الحل والعقد أن لا يقلون عن خمسة رجال من خيار الأمة معتمدين على حصر الخليفة عمر بن الخطاب فى أهل الشورى الستة[٣٦] ولكن أيضا يجيزون بواحد . يقول السيد الفقيه مهنا البوسعيدى « وثبتت الإمامة بغير عقد إذا وقع التراضى به من الخاصة من أهل العلم ، والحل والعقد ، فإذا خرج رجل وحده وبذل نفسه لله وأنكر المنكر ، فله أن يجبر أهل الفساد والمعاصى على الرجوع إلى الحق ويقاتلهم على ذلك »[٣٧] .

والعلماء الذين هم جزء من أهل الحل والعقد ، وهم قدوة الأمة ، خصهم الله عز وجل بميزات فقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات »[٣٨] وقال : « وما يستوى الأحياء ولا الأموات »[٣٩] . وقال المفسرون أن المقصود بالأحياء فى الآية هم العلماء أو العقلاء والأموات هم الجهال[٤٠] . وقال الرسول الكريم ﷺ فى حقهم « إن العالم يستغفر له من فى السموات والأرض والحيتان فى جوف الأرض ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، لأن العلماء ورثة الأنبياء ومصابيح الهدى وأمناء الله على وحيه ما لم يركنوا إلى الدنيا »[٤١] .

واتباع العلماء واجب ، لأن الله تعالى جعلهم حجة فـــى الأرض بينـــه وبيـــن عباده ، فقال تعالى : « فأسلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »(٤٢) ، وقال : « قـل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٤٣) ، وهناك نصوص كثيرة ترفع من مكانة العالم . وفى المقابل قال رسول الله فيهم : « هلاك أمتى من رجلين ، عـــالم فاجر ، وجاهل متعبد » وقال : « أشر الناس العلماء إذا فســـدوا » وروى عــن رسول الله ﷺ من طريق أنس بن مالك أنه قال : « إن مثل العلمـــاء فـــى الأرض كمثل نجوم السماء يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فإذا انطمست النجوم يوشـــك أن تضل الهُداة »(٤٤) .

هؤلاء هم العلماء الذين يستقيم بهم الدين والدنيا ، ويعتمد عليهم فـــى اختيـــار الأئمة ومراقبتهم عن الزلل والطغيان وظلم الرعية والإنفراد فـــى الـــرأى. وســـار الأباضية على هذا المنهاج فى تقديم علمائهم وتبوأوا مكانة عظيمة فى نفوس الأمـــة حيث وجوب الاحترام والتوقير والطاعة . ونص المشرع الأباضى علـــى مراقبـــة الإمام الضعيف فيقول : « لا يقبض (الإمام) مالاً ، ولا يأمر بإنفاقه ، ولا يولـــى واليًا ولا يأمره بذلك ، ولا يخرج جيشًا ، ولا يأمر بذلك ولا يحكم بحكم ولا يـــأمر بذلك ، إلا بمشورة المسلمين أهل العلم والورع »(٤٥) ، ولهذا يرى علماء الأباضيـــة أن « الشورى على الإمام فرض، فإن تركها كفر ، عالمًا كان أم ضعيفًا(٤٦) .

وقد تتبعنا علاقة العلماء بالأئمة ودورهم فى الحياة السياسية منذ قيام الإمامـــة الأباضية الأولى فى عام ١٣٢هـ/٧٤٨م وحتى أوائل القرن العشـــرين فوجدنـــا أن أهم ما قاموا به فى الحياة السياسية يتلخص فى النقاط التالية :

١ — اختيار الأئمة وتنصيبهم وفق قواعد الدين .

٢ — مراقبة سير الإمام ومعارضته إن حاد عن الجادة .

٣ — خلع الأئمة وعزلهم إن وجب ذلك .

٤ – القيام بشؤون القضاء والفتاوى والتدريس والخطب أيام الجمع والأعياد وفي المناسبات الأخرى مثل : الزواج والنوازل والكوارث ... إلخ .

٥ – قيادة الجيوش للذود عن الدين والوطن وحوزة الإسلام ومنجزات الوطن.

٦ – قبول توبة الإثمة أن اقترفوا ذنبا لا يصل حد العصيان أو الكبيرة .

وأصبحت من التقاليد المتبعة والمراسيم المتخذة عند الأباضية أن لا تتم أية بيعة دون وجود علماء مجتهدين يتولوا أمر البيعة للإمام المنتخب ، ويقوم أبرزهم بذلك(٤٧) . والأمثلة كثيرة على ما استعرضناه من الواقع التاريخي العماني ، فهذا العلامة خميس بن سعيد الشقصي قد رشح الإمام ناصر بن مرشد اليعربي في عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م ، وهم الذي نصبه إماما بعد الموافقة على ترشيحه من جملة العلماء ، قيل أنهم بلغوا زهاء أربعين عالما ، بالإضافة إلى أعيان الرستاق وأشرافها . كما أن الشيخ قاد للإمام ناصر الجيوش ضد البرتغاليين ، وفي الوقت نفسه كان رئيسا للقضاء ومفتيا عاما ، وفوق ذلك خصص وقتا للتصنيف وترك عدة مؤلفات من ضمنها كتاب « منهج الطالبين » في أكثر من عشرين مجلدا ، فضلا عن الجلوس للتدريس . والشئ الذي يجب ملاحظته أن علماء عمان يرون أنه لا يجوز عزل الإمام أو خلعه إلا إذا أخل الإمام بواجباته الشرعية تجاه ربه وأمته ووطنه ، أو إذا أصابه العجز أو الكبر الشديد ولم يستطع تسيير إدارة إمامته ، يقول الشيخ أحمد الكندي في هذا الصدد « ليس للإمام أن يخلع نفسه بغير حدث ، ولا للرعية أن تخلع إمامها بغير حدث وإنما ذلك منهم بغي وخطأ »(٤٨) ، وفي هذه الحالة يقوم العلماء برده عن ذلك « فإن تاب رجع إلى إمامته وولايته معهم . فإن أصر ولم يتب من حدثه ذلك كان للمسلمين عزله ، فإن كره أن يتوب ولا يعتزل ، حل لهم دمه وجهاده »(٤٩) . كما أنهم يجيزون العيش مع مخالفيهم من الحكام وكذلك يجيزون الحاكم العادل من سلاطينهم ويقول الشيخ معمر : « إمام المسلمين سواء جاء بطريقه الشورى او بغيره ، إذا كان عادلا تجب طاعته والخروج عنه

فسق . وإذا جار ، جاز البقاء تحت حكمه ولا يطاع فى معصية وجاز الخروج عنه[٥٠] .

ثالثًا : الإمامة فى عمان :

بدأ العمانيون فى تنصيب أئمتهم وفق رأى الأباضية فى الإمامة اعتباراً من عام ١٣٢هـ/ ٧٤٨م ، وذلك حينما انتخبوا الإمام الجلندى بن مسعود بن جيفر بن الجلندى . وسار هذا الإمام فى العمانيين سيرة حسنة ، ولكن إمامته لم تدم أكثر من سنتين وبضعة أشهر ، حيث قضى على هذه الإمامة القائد العباسى خازم بن خزيمة التميمى عام ١٣٤هـ/٧٥١م[٥١] . وكان الخليفة العباسى أبو العباس أرسل خازم إلى جزيرة « ابن كاوان » للقضاء على ثورة الخوارج الصفرية بها بزعامة شيبان ابن عبد العزيز اليشكرى ، الذى هرب بعد هزيمته إلى عمان ، حيث تصادم مع جيش الإمام وانتهى الأمر بقتله . وبعد فترة من الوقت قدم خازم لاحقًا اليشكرى ، فوجده قد قتل ، فتفاوض خازم مع الإمام الجلندى حول الخضوع وإعلان الولاء للخليفة العباسى . ولكن المفاوضات تعثرت وانتهت بالتصادم وقتل الإمام الجلندى فى معركة جلفار الثانية ، وأصبحت عمان ولاية عباسية[٥٢] .

وكان ان اختفى منصب الإمامة فى عمان قرابة ثلاثة وأربعين عامًا ، حيث حكم راشد بن النظر بن جعفر بن سعيد الجلندى ، بالإشتراك مع ابن عمه محمد بن الزائدة بن جعفر بن سعيد الجلندى كولاة لبنى العباس . وبعد هزيمة راشد بن النظر فى معركة المجازة عام ١٧٧هـ/٧٩٣م على يد علماء الأباضية بقيادة محمد بن المعلى الكندى ومؤيديهم ، نجح العلماء برئاسة العلامة موسى بن أبى جابر الأزكَوى (ت : ١٨٠هـ/٧٩٧م) ، وبشير بن المنذر السامى (ت : ١٧٨هـ/٧٩٥م) فى تنصيب محمد بن عبد الله بن أبى عفان إمامًا فى عام ١٧٧هـ/٧٩٣م ، ومن ثم قامت الإمامة الثانية التى استمرت حتى ٢٨٠هـ/٨٩٣م[٥٣] .

وسبب زوال الإمامة الأباضية الثانية هو الشقاق الذى حدث بين العمانيين على إثر خلع العلامة موسى بن موسى بن على بن عزرة (ت : ٢٧٨هـ/٨٩١م) للإمام الصلت بن مالك من إمامته فى عام ٢٧٣هـ/٨٨٦م لكبر سنه ، وقيل لضعف بصره وسمعه ، ومعاناته من ألم المفاصل ، ورفض مؤيدوه هذا العزل الذى انتهى بقتل العلامة موسى بن موسى ، فاستعان انصاره بالخليفة العباسى المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق (٢٧٩هـ/٨٩١م — ٢٨٩هـ/٩٠١م) الذى أناط هذه المهمة إلى واليه على البحرين (الإحساء) محمد بن نور لنصرة هؤلاء الموتورين ، ونجح الوالى محمد فى القضاء على إمامة عزان بن تميم الخروصى الذى تسبب فى قتل الشيخ موسى بن موسى(٥٤) .

وهكذا استعادت الإمامة مكانتها بعد سنتين ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه : الإمامة-الأباضية الثالثة ، وذلك عندما نجح أهل نزوى فى قتل واليهم أبا أحمد البحيرة ،وانتخاب محمد بن الحسن الخروصى(٥٥) إماما لنزوى . ولكن هذه الإمامة لم تكن بنفس القوة التى كانت لسابقتيها لكونها لم تفرض سلطتها على كل مكان ، بل شاركها ولاة العباسيين (بنى سامة : ٢٨٠هـ — ٣١٧هـ ، وبنى وجيه : ٣١٧هـ — ٣٥٥هـ) فضلا عن القرامطة الذين تدخلوا فى شئون عمان على فترات مختلفة(٥٦) .

وقد تلاشت الإمامة الأباضية الثالثة عام ٣٤٢هـ/٩٥٣م بعد موت الإمام راشد بن الوليد الكندى ، على الرغم من أن ثمة علماء قديرين ظهروا فى هذه الفترة ، أمثال العلامة أبو عبد الله محمد بن روح بن عربى الكندى ، وأخيه مخلد ابن روح ، والعلامة الكبير ذائع الصيت أبو سعيد محمد بن سعيد الكدمى ، والعلامة أبو إبراهيم محمد بن سعيد الأزكوى ، والشيخ عبد الله بن محمد بن أبى المؤثر ، والعلامة الأصولى أبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة السليمى ، والعلامة أبو الحسن على البسوى وغيرهم(٥٧) .

انقطعت الإمامة مدة ٦٥سنة حتى قامت عام ٤٠٧هـ/١٠١٦م حينما نصب الإمام الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك ، واستمرت هذه الإمامة التى يمكن أن نطلق عليها الإمامة الأباضيه الرابعة حتى عام ٥٧٩هـ/١١٨٣. ويبدو لى أنه فى بداية القرن ٦هـ/١٢م كانت هنالك إمامتين : الأولى فى نـزوى ، والثانية فى الرستاق ، لذا أفضل أن أطلق على هذه الإمامة اسم «الإمامة المزدوجة »(٥٨) .

ومن علماء الإمامة الرابعة البارزين العلاقة القاضى محمد بن إبراهيم ابن سليمان الكندى صاحب كتاب بيان الشرع فى ٧٢ مجلدًا(٥٩) والذى يقول الشيخ سيف ابن حمود البطاشى فى حقه : « إن العلماء الذين جاءوا بعد تأليف بيان الشرع كلهم عيال عليه يستمدون منه ويعترفون بفضله »(٦٠) .

والشيخ القاضى أبو الحسن بن على بن نصر الهجار ، والشيخ الفقيه أبو على الحسن بن أحمد بن محمد بن عثمان النزوى ، والشيخ محمد بن موسى بن سليمان الكندى صاحب كتاب الكفاية(٦١) ، والشيخ أحمد بن عبد الله بن موسى بن سليمان الكندى صاحب كتاب « المصنف »(٦٢) ، والشيخ أبو على الحسن بن سعيد بن قريش النزوى الذى عاصر الإمام الخليل بن شاذان الخروصى (٤٠٧هـ/١٠١٦م - ٤٢٥هـ/١٠٣٣م) والشيخ محمد بن خالد ، والعلامة الفقيه النسابة أبو المنذر سلمة بن مسلم العوتبى(٦٣) ، وغيرهم كثيرون لا يسعنا ذكرهم ، لكن على ما يبدو أن الحياة الفكرية انتعشت فى هذه الإمامة لكثرة توافر من العلماء(٦٤) ، والتصنيفات التى تركوها .

وبعد عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، أى بعد انتهاء الإمامة الرابعة (المزدوجة) ، لم نجد للأئمة أى ذكر حتى عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م . وهذه الفترة هى فترة دولة بنى نبهان الأولى التى أطيح بها عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م . وبلغت سنوات حكم النباهنة فى حكمهم الأول ٣٢٥سنة تقريبًا . ومن أهم الأحداث التى تعرضت لها عمان خلال هذه الفترة انفصال السواحل العمانية من تبعية السلطان النبهانى إلى سلطة الملك الهرمزى فى عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م . ولم يتمكن العمانيون من استعادة هذه

السواحل إلا عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م حينما طرد العمانيون البرتغاليين من مسقط في عهد الإمام سلطان بن سيف اليعربي ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م – ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م)[٦٥].

وفي عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م تم إحياء الإمامة ، وهي التي يمكن أن نطلق عليها الإمامة الأباضية الخامسة ، حيث انتخب العمانيون عدداً من الأئمة :

١ – الإمام الحواري بن مالك (٨٠٩هـ/١٤٠٦م – ٨٣٢هـ/١٤٢٨م) .

٢ – الإمام مالك بن الحواري (٨٣٢هـ/١٤٢٨م – ٨٣٨هـ/١٤٣٤م) .

٣ – الإمام أبو الحسن محمد بن خميس (٨٣٨هـ/١٤٣٤م – ٨٤٦هـ/١٤٤٢م).

وبموت الإمام أبي الحسن هذا انقطعت الإمامة حتى عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م حين نجح العلامة الفقية محمد بن سليمان الناعبي في تنصيب الإمام عمر بن الخطاب الخروصي إمامًا لعمان ، ثم من بعده عدد من الأئمة ، ولكن قبل نهاية القرن حدث انقطاع آخر للإمامة استمر عشر سنوات، وذلك حينما نجح سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني في استعادة السلطة وطرد الإمام ، لكن هذا السلطان أطيح بهّ عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م حينما انتخب محمد بن إسماعيل الحاضري إمامًا ، ومن بعده ابنه بركات بن محمد في عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م ، وتنتهي هذه الإمامة باستيلاء السلطان سلطان بن محسن بن سليمان النبهاني على نزوى عام ٩٦٤هـ/١٥٥٧م ، وهو الذي نجح في أن يكون لنفسه ثم لورثته ملكًا . وعرفت دولته بالدولة النبهانية الثانية، واستمرت حتى عام ١٠٢٦هـ/١٦ – ١٦١٧م حينما نجح الشيخ ناصر بن ناصر بن قطن الهلالي في طرد السلطان نبهان بن فلاح بن محسن بن سليمان النبهاني من عاصمته « ينقل » والاستيلاء عليها . ولكن الشيخ ناصر لم يتملك عمان بل تفرقت المدن العمانية في أيدي رؤساء القبائل والولاة السابقين والأعيان ، فساد الظلم، وانعدم الاستقرار الأمني والسياسي والاجتماعي ، وبغت القبائل على بعضها البعض[٦٦] .

وبعد ثماني سنوات من ذلك اجتمع أولو الفكر والرأى والمشورة بزعامة الشيخ خميس بن سعيد الشقصى ونصبوا حفيد سلطان الرستاق الأمير ناصر بن مرشد بن مالك بن أبى العرب اليعربى إمامًا ، وذلك فى عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤ ، وهو أول أئمة دولة اليعاربة التى حكمت عمان لمدة أكثر من ١٢٩سنة .

تعاقب على دولة اليعاربة أحد عشر إمامًا ، كلهم من اليعاربة عدا الشيخ محمد بن ناصر بن عامر الغافرى الذى كان على كرسى الإمامة بين عامى ١١٣٧هـ/١٧٢٤م و ١١٤٠هـ/١٧٢٨م . ولكن دولة اليعاربة انهارت عام ١١٦٢هـ/١٧٤٩م(٦٧) وانتقل منصب الإمامة إلى أسرة آل بو سعيد عام ١١٦٢هـ/١٧٤٩م .

وكان نصيب أسرة آل بو سعيد من الأئمة ثلاثة أئمة ، هم :

١ — الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد البورسعيدى (١١٦٢/١٧٤٩ — ١١٩٨/١٧٨٣) .

٢ — الإمام سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد (١١٩٨/١٧٨٣ — ١٢٢٥/١٨١٠) .

٣ — الإمام عزان بن قيس بن عزان بن قيس (١٢٨٥/١٨٦٨ — ١٢٨٧/١٨٧١).

وفى عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م نجح العلماء ورؤساء القبائل بقيادة الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمى فى إحياء الإمامة ، وتم انتخاب سالم بن راشد بن سليمان الخروصى إمامًا فى مدينة تنوف واستمرت إمامة القرن العشرين حتى منتصف الخمسينات من هذا القرن(٦٨) .

* * *

وبعد هذا العرض لتطور منصب الإمامة التى كانت تختفى تارة ، وتظهر فى أكثر الأحيان ، نجد أن عدد الأئمة المشهورين بلغ ٦٤ إمامًا ، وكان من نصيب العصور الحديثة ٢٧ إمامًا ، منهم : ١٠ أئمة من اليعاربة ، وثلاثة من آل بو سعيد،

وواحد من بنى غافر ، والبقية من القبائل الأخرى ومن بنى خروص ، وقد صاحب هؤلاء الأئمة جملة من العلماء اجتهدوا فى إقامة العدل وانصاف الناس وتسيير إدارة الدولة والحفاظ على منصب الإمامة. وهم يمثلون مجلسًا تشريعيًا عبر عصور الإمامة الأباضية لعمان ، أو على حد قول الدكتور غباش « ويستخلص بوضوح من التاريخ العمانى أن العلماء ، أهل الحل والعقد ، ضمير المجتمع وممثليه ، لعبوا دورًا مركزيًا فى تخليد نظام الإمامة . وفضلاً عن دورهم كمرشدين روحيين للمجتمع وكقضاة وكحراس لتطبيق مبدأ الشورى والعدالة الاجتماعية إلى غير ذلك يعود إليهم . وكانوا الأمناء المتميزين على ثقافة بلادهم السياسية من خلال أعمالهم النظرية والفقهية والتاريخية »[٦٩] .

رابعًا : علاقة العلماء بالأئمة :

وفى مطلع القرن ٩هـ/١٥م تم إحياء الإمامة الأباضية بعد انقطاعها منذ عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م . وبرز فى النصف الأول للقرن الخامس عشر للميلاد جملة من العلماء ، قاموا بدور بارز فى الحياة السياسية فى عمان ، سواء على مستوى الأئمة أو سلاطين بنى نبهان ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر[٧٠] :

١ — الشيخ سليمان بن راشد بن صقر العدوى .

٢ — الشيخ سليمان بن أحمد بن مفرج بن أحمد (ت : ٨٦٩هـ/١٤٦٤م)[٧١] .

٣ — الشيخ مفرج بن أحمد بن مفرج بن أحمد .

٤ — الشيخ أحمد بن مفرج بن أحمد بن مفرج بن أحمد[٧٢] .

٥ — الشيخ ورد بن أحمد بن مفرج بن أحمد بن مفرج بن أحمد (ت : ٨٧٤هـ).

٦ — الشيخ صالح بن محمد .

٧ — الشيخ صالح بن وضاح بن محمد المنحى (ت : ٨٧٥هـ/١٤٧٠م) .

٨ — سلالة آل مداد الذين امتد عطاؤهم فى العلم والعمل إلى وقت طويل .

وقد نال الشيخ ورد بن أحمد شهرة كبيرة بين علماء عمان ، شأنه شأن أبيــه أحمد بن مفرج الذى رشحه العلماء فى خلافة والده فى رئاسة القضـــاة والعلمــاء . وكان الشيخ ورد من جملة العلماء الذين استفتاهم السلطان سليمان بن مظفـــر بــن سليمان (ت : ٨٧١هـ/١٤٦٦م) فى إقامة صلاة الجمعة بمدينة نزوى ، فلم يــروا إجازة ذلك[٧٣] . وقد خلف الشيخ ورد فى رئاسة القضاء الشيخ محمد بن سليمان بن أحمد .

والحقيقة فإن قوة العلماء واجتهادهم فى تنصيب الأئمة إذا لم تكــن مدعومــة من قوة سياسية وعسكرية كما يطلق عليها ابن خلدون فى نظريته « العصبيــة» أو القبلية ، فلا يمكن أن تستقيم الإمامة أو تستمر . ومن استقرائنا للتــاريخ يمكــن أن ندلل على صحة ذلك بوقائع تاريخية ، فهذا الإمام الجلندى ابن مسعود توفرت فيــه الدعامة العصبية حيث أنه من نسل بيت ملكى ، ولهذا فقد ألتف معه الازد والنـــاس تبع لهم . وكذلك كان فى أئمة اليعاربة ، فقد اختير ناصر بن مرشد على أساس أنــه من أحفاد سلطان الرستاق الذى داومت أسرته على إمارة الرستاق وتملكتـــها منــذ قرون . ويعود فشل إمامة عزان بن قيس إلى تقاعس القبائل عــن نصرتــه حيــث تحامل على القبائل وتشدد معهم ، وما كان يمكن أن تقوم إمامة القرن العشرين لــولا تعهد القبائل ودعم أنصارها من العلماء .

أما العلماء الذين قاموا بدور مشهور فى الحياة السياســية ، تداولتــه كتــب التأريخ والفقة والأدب فى الفترة التى نعالجها ، وهى من القــرن الخـامس عشــر للميلاد وحتى القرن العشرين أى حوالى ستة قرون فهم :

١ – الشيخ محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج (ت : أواخر القرن : ١٥م) .

هذا العلامة من بيت علم وفضل ، وقد سبق أن أشرنا إلـــى والــده وأخوتــه وأبناء أخوته وعمومته قبل قليل ، وهو من كبار العلماء ، وآلت إليه رئاسة العلمــاء فى الربع الأخير من القرن ٩هـ/١٥م حيث نصب لهذا الغرض بعد وفــاة الشــيخ

ورد بن أحمد فى عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ، يقول السالمى : « إنه فى سنة خمس وسبعين وثمانمائة يوم الخميس عند غروب الشمس لخمس ليالى مضين من المحرم نصب محمد بن سليمان بن أحمد للحكم بين الناس(٧٤). وقد اختير الشيخ محمد لهذه الوظيفة ، وهى بمنزلة قاضى القضاة ورئاسة العلماء بعد ثمانية أيام من موت العلامة ورد بن أحمد الذى كان على رأس هذا المنصب الكبير(٧٥) . وهذا يعنى أن دور العلماء كان جلى سواء فى عهد الأئمة أو الملوك والسلاطين .

ويتجلى دور الشيخ محمد فى الحياة السياسية فى قيامه بانتخاب الإمام عمر ابن الخطاب الخروصى (٨٨٥هـ/١٤٨٠م — ٨٩٤هـ/١٤٨٨م) ، والمصادقة على مصادرة أموال بنى نبهان عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م . كما يتجلى فى حرص الشيخ محمد على منصب الإمامة ، والحفاظ عليها والكفاح من أجل استمرارها حتى أنه تولى بنفسه هذا المنصب عدة مرات ، وذلك اعتباراً من عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م، فقد نصب نفسه إمامًا بعد موت الإمام عمر بن الخطاب على سبيل الإنابة حتى يتمكن العلماء من اختيار إمام . وفور تنصيب الإمام عمر الشريف تنحى الشيخ محمد مكتفيًا بمنصبه كقاضى القضاة .

ولم يلبث الشيخ محمد بن سليمان أن عاد لمنصب الإمام على سبيل الإنابة بعد اعتزال الإمام الشريف ، وبعد انتخاب الإمام أحمد بن عمر بن محمد الربخى اعتزل الشيخ للمرة الثانية . ثم عاد لهذا المنصب للمرة الثالثة بعد موت الإمام أبى الحسن بن عبد السلام . ولكن الأحوال فى هذه المرة لم تكن فى صالحه حيث نجح السلطان سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى — الملك والشاعر المشهور — فى القضاء على قوة الإمام ، وأغلب الظن أن الشيخ محمد مات أو قتل أو توارى عن الأنظار لقلة المؤيدين له . حيث أن المصادر التاريخية وغيرها لزمت الصمت ولم تذكر كيف كانت نهايته(٧٦) .

هذا هو الدور الذى قام به العلامة محمد بن سليمان فى الحياة السياسية فى عمان خلال الربع الأخير من القرن ٩هـ/١٥م ، فقد حرص على المحافظة على

نظام الإمامة ، واجتهد فى حث العلماء على التمسك بنظامها وهى تحتضر تحت ضربات النباهنة ورأيناه يتبوأ منصب الإمامة على سبيل الإنابة أكثر من مرة ريثما يجتمع أهل الحل والعقد من العلماء وأهل الصلاح والمشورة والرأى فى اختيار مرشح لهذا المنصب وهو على رأسهم ، ولم يستبد برئاسة الإمامة دون مشورة من علماء عصره وأهل الرأى .

٢ – أحمد بن مداد بن عبد الله (ت : النصف الثانى من ق : ١٠هـ / ١٦م) .

كان العلامة أحمد بن مداد من بيت علم وحظت أسرته بمكانة كبيرة خلال قرن ونصف ، فقد كان والده العلامة مداد بن عبد الله بن مداد من جملة العلماء الذين عقدوا البيعة للإمام محمد بن إسماعيل (٩٠٦هـ/١٥٠٠م / ٩٤٢هـ/١٥٣٥م) ، كما يعتبر أخوه عبد الله بن مداد من أكابر علماء النصف الأول من القرن ١٠هـ/١٦م[٧٧] .

وبرز دور الشيخ أحمد فى معارضته للإمام محمد بن إسماعيل وابنه الإمام بركات بن محمد (٩٤٢هـ/١٥٣٥م – ٩٦٤هـ/١٥٥٧م) ، حيث يرى أن إمامتهما غير ثابتة ، وأنهما سلكا بالإمامة سلوكًا مخالفًا للسلف ، وفى نظره أنهما انتزعا الإمامة من مستحقيها وأنه يتبرأ منهما ومن إمامتهما . يقول الأزكوى فى الكشف : « كان الفقيه أحمد بن مداد يتبرأ من الإمام محمد بن إسماعيل وولده بركات بن محمد . وذلك أن الشيخ أحمد كان يستنكر ما قام به الإمام محمد من جبايته الزكاة من رعيته بالجبر من غير حماية لهم ... »[٧٨] .

وبعض العلماء المعاصرين للشيخ أحمد كالعلامة عبد الله بن عمر بن زياد الشقصى قاضى الإمام بركات بن محمد يعذرون الإمام محمد وابنه بركات ويحتجون له بحجج[٧٩] . ويعلق الشيخ عبد الله السالمى على رأى الشيخ أحمد وتحامله الشديد على الإمامين فيقول : « أنه ليس لغيره أن يقلده فى البراءة من

محمد بن إسماعيل وإنما ذلك خاص بمن صح عنده علم الحدث وتوب الإمام منه فلم يتب وأصر على فعله »[٨٠] .

ولكن على مايبدو أن الشيخ أحمد لم يقبل حجج المدافعين عن سلوك الإمامين وطريقهم فى تحصيل الزكاة والضرائب الأخرى ، حيث تعتمد فلسفته على أن هذه المسألة ليست بموضع رأى ولا اجتهاد ، وأخذت القضية مسارا سياسيا حيث عمد الشيخ أحمد على خلع الإمام بركات وتنصيب إمام آخر هو عمر بن قاسم الفضيلى إماما بدلا منه ، يقول الأزكوى على لسان الشيخ أحمد: « ... إجازة الإمام للإمام العدل الولى عمر بن قاسم الفضيلى أيده الله ونصره وإبطال إمامة بركات بن محمد المشهور فى السيرة ، فأعينونا عليه واشهدوا بالحق والصدق ولو على أنفسكم»[٨١].

والقضية فى رأينا ، التى تشدد فيها الشيخ أحمد أن الإمامين محمد وبركات كانا يواجهان ضغوطا خارجة لتحصيل هذه المبالغ لدفع الضرر الذى هو أكبر ، حيث أن السواحل العمانية تحت يد البرتغاليين الذين يفرضون الضرائب الباهظة على المواطنين ، وكذلك كان ملوك بنى جبر فى منطقة الإحساء لهم هيمنة على عمان وكانوا يحصلون الخراج من عمان . ولهذا كان الإمام يساعد العمانيين فى محنتهم ويدفع لهؤلاء الخراج لكف ضرر هؤلاء وهؤلاء .

وأخذت القضية تزداد تعقيدا حيث أن المعارضين من العلماءلأراء الشيخ أحمد وكذلك المعارضين للسلطان سلطان بن محسن بن سليمان النبهانى الذى أطاع بإمامة بركات بن محمد ، قاموا بانتخاب أئمة آخرين ، وأصبح هناك أكثر من إمام على الساحة السياسية . وهكذا فشل هؤلاء الأئمة كما فشل العلماء فى اتخاذ موقف موحد لمواجهة عدوهم المشترك وهو السلطان النبهانى . وانتهى الأمر بانتزاع السلطان النبهانى مدينة نزوى منهم ، وأصبحت عمان خلال الستينات والسبعينات من القرن ١٠هـ مسرحا لنزاعات ، مما أدى إلى اختفاء دور الأئمة ، وتشتت العلماء فى البلدان . ولم يجتمع شملهم على رأى واحد لنحو ٧٠ سنة قادمة .

٣ – خميس بن سعيد الشقصى (ت : النصف الثانى من ق: ١١هـ/١٧م) .

الشيخ خميس بن سعيد بن على من أهالى الرستاق ، آلت إليه رئاسة العلماء، كان قدوة زمانه ، له كلمة مسموعة مع الرعية والأمراء . وقد رأى بأم عينيه الأهوال والفتن والتشتت بين العمانيين والتى أعقبت انهيار دولة بنى نبهان الثانية (١٥٥٧/٩٦٤ – ١٦١٧/١٠٢٦) واختلال الأمن وافتراق الأمة العمانية فضلاً عن وجود الاستعمار البرتغالى المسيطر على السواحل . فتشاور الشيخ خميس مع أقرانه من العلماء فى توحيد عمان بعد أن افترقت مدنها بين رؤساء القبائل وأعيانها السياسيين . وقرروا إعادة الإمامة لأنها تجمع الوحدة الوطنية وتصهر الضغن القبلية . وقد ساعد هؤلاء العلماء فى تحقيق هدفهم موت سلطان الرستاق السلطان مالك بن أبى العرب بن سلطان اليعربى ، واختلاف بنيوه وأهل الرستاق حول من يخلفه . فأستغل الشيخ خميس الموقف الحرج ومكانته بين الجميع . فاجتمع مع أهالى الرستاق والأمراء ، وكان ممن حضر الاجتماع من العلماء الشيخ صالح بن سعيد الزاملى المعولى(٨٢) ، والشيخ مسعود بن رمضان بن محمد النبهانى(٨٣) ، ومحمد بن عمر بن أحمد بن مداد ، وغيرهم من العلماء الذين قدر عددهم الشيخ السالمى بما يربو على الأربعين عالمًا(٨٤) .

وقد رشح الشيخ خميس لمنصب خلافة السلطان الراحل حفيده الأمير : الشاب المؤمن ناصر بن مرشد بن مالك بن أبى العرب اليعربى ، ذلك ليس بصفته وريثًا للسلطان الراحل ، ولكن ليكون إمامًا لعمان كافة ، وأناط إليه مهمة توحيد عمان وتطهير أرضها من دنس المستعمرين البرتغاليين .

وكان الإمام ناصر بن مرشد ربيبًا للشيخ خميس الشقصى ، حيث أن الشيخ تزوج أم ناصر حينما ترملت ، وتربى الإمام ناصر فى كنف الشيخ خميس والذى بذل الجهد فى نصرته ودعمه وحض الناس لدعمه ، كما كان الشيخ خميس خير معين للإمام فقد قاد له الجيوش ، وهو الذى أرغم البرتغاليين على توقيع معاهدة الصلح معه . وكانت بنودها واضحة أنها فى جانب العمانيين(٨٥) .

ولا نعدو الحقيقة حينما نقول أن الشيخ خميس هو المؤسس الحقيقـــي لدولـــة اليعاربة ، وذلك بفضل تفانيه فى خدمتها وما قام به من أعمال مخلصة جليلة : فـــهو قاضى القضاة ، وهو المدرس ، وهو المفتى ، وهو المؤلف الذى ترك لنا مؤلفـــات تنبئ عن مكانته العلمية ومقامه المرموق علما وسياسة وقيادة. وعبر عـــن مكانـــة الشيخ خميس محقق كتابه « منهج الطالبين وبلاغ الراغبين » الشيخ سالم بن حمـــد الحارثى حيث قال : « صاحب السيف والقلم، ذى الهمة والهمم ، البحـــر الزاخـــر الذى يقال فى حقه : كم ترك الأول للآخر »[٨٦] .

٤ – عدى بن سليمان بن راشد بن حسن الذهلى (ت : ١١٣٤هـ/١٧٢٢م) .

هو من علماء الرستاق المشهورين ، ومن آلت إليه رئاسة العلماء فى عمـــان فى عهده . كان الشيخ عدى من الذين عقدوا البيعة للإمام سلطان بـــن سـيف بـــن سلطان (١١٢٣هـ/١٧١١م – ١١٣١هـ/١٧١٨م) . وكان معه جملة من العلماء نذكر منهم[٨٧] : ناصر بن خميس بن على الحمراشدى ، وخلف بن سنان بن خلفـــان الغافرى ، وناصر بن سليمان بن مداد الناعبى ، وسليمان بن محمـــد بـــن ربيعـــة المربوعى ، و خلف بن محمد بن الشيخ خميس بن سعيد الشقصى ، وكان العلمـــاء برئاسة الشيخ عدى وهو الذى عقد البيعة للإمام سلطان بن سيف بن سلطان[٨٨] .

ويبرز دور هذا العالم فى الحياة السياسية فى الصراع الذى نشب علـــى إثـــر موت الإمام سلطان بن سيف عام ١١٣١هـ/١٧١٨م حيث تدخـــل الشـــيخ عـــدى بجانب العلماء وبعض أسرة اليعاربة رافضا مبايعة سيف بن سلطان الذى لم يتجاوز ١٢ ربيعـــا ورفض طلب وجوه القبائل الذين يطالبون بتنصيب سـيف فـــى مكـــان أبيه ويقول الشيخ الأزكوى – الذى عاصر هذه الأحداث – عن الخـــلاف الواقـــع حول اختيـــار سيف إماما خلفا للإمام الراحل ، وتدخل الشيخ عـــدى بـــن ســـليمان بدهائه وحنكتـــه لتفريق العـــوام ووجـــوه القبائل من مزاحمتهم لحصن الرســـتاق : « فاختلف عند ذلك اليعاربة ورؤساء القبائل الذين فى قلوبهم العصبية والحميـــة ، وأرادوا أن يكون مكانه ولده سيف وهو صغير لم يراهق ، وأراد أهل العلم وبنـــت

الإمام سيف ابن سلطان « السيدة سعادة » أن تكون الإمامة لزوجها مهنا بن سلطان (بن ماجد اليعربى)»...[٨٩] .

هذا الصراع كاد يؤدى إلى تصادم بين مؤيد ومعارض فى هذه البيعة ، وقيل إن بعضهم أشهر السلاح واستعد للقتال . وكان الشيخ عدى إلى جانب عمة سيف السيدة سعادة ضد المطالبين بتنصيب سيف ، ورأى الشيخ عدى أن الأمر سيؤدى إلى ما لا تحمد عقباه ، فعمل حيلة لتسكين المعارضين ، ولكى يفرق الجمع خوفا من الفتنة . ذلك أنه قام وأحضر الطفل سيف أمام الحشود وناداهم بقوله « هذا سيف أمامكم » بفتح الألف ، يعنى « قدامكم » ، ولعله كان يستهدف بذلك إقناع القوم بأن سيف حقًا طفل لا يملك أمره فكيف يملك أمر غيره[٩٠] .

وعلى ما يبدو أن هذه الحشود فهمت من قول الشيخ عدى أن سيفًا إمامًا بكسر الألف . فعند ذلك نادوا سيف بالإمامة وضربت المدافع إظهاراً وإشهاراً لذلك الحدث العظيم . ولم يستطع الشيخ ولا غيره منعهم حينئذ ، ونجحت الحيلة التى استخدمها الشيخ عدى فى ذلك ، إذ تفرق القوم إلى أوطانهم . وبعد فترة قصيرة عقد الشيخ عدى بن سليمان البيعة لمهنا بن سلطان بن ماجد بن مبارك بن بلعرب اليعربى ، وتنصيبه إمامًا لعمان[٩١] .

وبهذه البيعة بدأت الصراعات على السلطة ، حيث أعتبر أهل الرستاق ومؤيديهم أن الشيخ عدى قد خدعهم ولهذا طالبوا بخلع مهنًا ، وانتهى الأمر لصالحهم ، حيث خلع الإمام مهنا ، ثم قتلوه ، ثم أن الشيخ عدى قبل توبة الوصى على سيف وهو يعرب بن الإمام بلعرب بن الإمام سلطان من جميع الأفعال التى ارتكبها بما فى ذلك قتل الإمام مهنا . وبعد التوبة وقبولها نصب يعرب إمامًا . فثارت الضغائن وأنتشر أصحاب الأهواء والمطامع يثيرون الاضطرابات ، ولكن لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل امتد إلى حروب أهلية وتدخلت قوى أجنبية لصالح هذا الإمام أو ذلك ، وقتل فيها جمع كبير من العمانيين وعلى رأسهم الشيخ القاضى عدى بن سليمان نفسه ومعه القاضى سليمان بن خلفان ، وسحبهما أهل الرستاق مقتولين فى أحياء المدينة فى يوم عرفة من عام ١١٣٤هـ/ أكتوبر ١٧٢١م وفقدت عمان أربعة أئمة شهداء تحت ظلال السيوف قتلاً وصبراً[٩٢] .

٥ – ناصر بن سليمان بن محمد بن مداد (ت : الثلاثينات من ق : ١٨ م).

الشيخ ناصر من بيت علم وفضل ، وقد تبوأت أسرته مكانة علمية ، وقد أشرنا إلى هذا البيت حينما ذكرنا الشيخ أحمد بن مداد بن أحمد فى القرن السادس عشر للميلاد ، وأمتد عطاء هذه الأسرة إلى القرن الثامن عشر للميلاد.

وقد مر بنا ذكر هذا العالم الذى اشترك فى بيعة الإمام سلطان بن سيف عام ١١٢٣هـ/١٧١١م . وكان الشيخ ناصر قد عقد البيعة لشيخ محمد بن ناصر الغافرى كإمام دفاع وقد حاول ، الآخر الاستعفاء من ذلك فى عام ١١٣٧هـ/١٧٢٤م ، لكن الشيخ ناصر بن سليمان – قاضى نزوى ، والشيخ عبد الله بن محمد بن بشير بن مداد – والى نزوى – أصرا على اختيار الشيخ محمد الغافرى فى هذا المنصب ، وذلك لمكانة الشيخ الغافرى السياسية بين القبائل ولبراعته العسكرية ، وكان لا يزال الغافرى يخوض حربا مع الشيخ خلف بن مبارك الهنائى ، وكان رأى العلماء أن الشيخ خلف هذا باغ على العمانيين وعلى الشيخ الغافرى الذى كان وصيا على سيف بعد موت الإمام يعرب بن بلعرب بن سلطان عام ١١٣٥هـ/١٧٢٣م ، ولهذا فإن الغافرى مؤهل لهذا المنصب القيادى وليس الدينى(٩٣) .

على أية حال قبل الشيخ الغافرى المنصب وقام بواجبه كإمام بدعم من العلماء وصد هجمات الهناوية لمدة أربع سنوات عجاف عانى منها المواطن العمانى معاناة شاقة حتى لقى الإمام محمد الغافرى حتفه هو وغريمه الشيخ خلف الهنائى فى معركة واحدة بصحار عام ١١٤٠هـ/١٧٢٨م ، وقد عقد المؤرخ السيابى مقارنة بين الإمام محمد بن ناصر الغافرى وبين الصحابى الجليل خالد بن الوليد بن المغيرة حيث أن كلاهما لم يهزم فى معاركه التى خاضها ، ويروى عن الإمام محمد الغافرى أنه قال وهو بصحار بعد أن انسحب مناصروه عنه : « إن هذه الساعة ليست لنا ولا لهم إلا ما شاء الله»(٩٤) . وكان بالفعل انتصارا للفريقين .

ولكى يطفئ الشيخ ناصر بن سليمان نار الفتنة التى أصابت العمانيين منذ عشر سنوات ويحد من سفك الدماء ، عقد البيعة بالإمامة لسيف بن سلطان وهو فى هذا الوقت قد بلغ من العمر ما يؤهله أن يكون إمامًا حيث كان له ولاية من ولاية أبيه . وكان ذلك فى ١٠ شعبان ١١٤٠هـ/ ٢٣ مارس ١٧٢٨م ، وقيل إن العلماء قد بايعوا سيف تقية[٩٥] . ويعلل الشيخ السالمى موقف الشيخ ناصر فى تنصيبه لسيف إمامًا بقوله : « وإنما قدموه إمامًا لتقدم ولايته بسبب ولاية أبيه ، فإن أباه كان إمام المسلمين ، وكانت ولايته على رعيته واجبة ، وأطفاله تبع له فى ذلك حتى يبلغوا ويحدثوا حدثًا يخرجهم من الولاية عند المسلمين . وقيل إن البالغ منهم يكون فى الوقوف حتى يعلم منه حال يوالى عليه أو يعادى عليه ، فتمسك القاضى (ناصر بن سليمان) بأول القولين نظرًا منه للأمة وطلبًا للسداد ومحاولة لجمع الشمل »[٩٦] .

وبهذا العمل والاجتهاد أطفأ الشيخ ناصر بن سليمان نار الشقاق ولو لمدة قصيرة حيث ثارت الفتنة من جديد بعد أربع سنوات[٩٧] .

٦ - الشيخ سعيد بن بشير بن محمد الصبحى (ت : ١١٥٠هـ/١٧٣٧م).

الشيخ سعيد الصبحى من علماء النصف الأول من القرن ١٢هـ/١٨م ، شارك الشيخ سعيد فى أحداث هذه الفترة ، وتوضح رسالته التى ذكرها السالمى[٩٨] أنه لم يحضر عقد إمام الإمام سلطان بن سيف عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م ، ولكنه ألزم نفسه بطاعة الإمام سلطان ، باعتبار أن إمامته ثابتة بلا كراهية ولا تقية من الجميع .

والشيخ سعيد الصبحى له فتاوى كثيرة فى كتب الفقة نقلها كثيرون عنه وقد جمعت فى مجلدين كبيرين ، جمعهما الشيخ سالم بن حمد الحارثى ابقاه الله تعالى ، وقد كان الشيخ سعيد الصبحى ضريرًا[٩٩] .

وكان الشيخ الصبحى أول من نادى بأن شرب القهوة العربية حلال ، ولا يرى فيها التحريم كما كان معروفًا فى عصره . وتلقى الشيخ سعيد الصبحى اعتراضات كثيرة على فتواه ، حتى جاء بعد نصف قرن من الزمان من يؤيد رأيه وهو السيد مهنا بن خلفان البوسعيدى (ت : ١٢٥٠هـ/١٨٣٢م) والشيخ أبو نبهان جاعد بن خميس الخروصى (ت : ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م) حيث انتشر شرب القهوة خلال القرن التاسع عشر انتشارًا كبيرًا حتى أصبحت من مظاهر الكرم العربى وعاداته .

أثار الشيخ سعيد الصبحى قضية سهلة وصعبة فى الوقت نفسه ودخل بها فى معترك الحياة السياسية ، حيث آلت إليه رئاسة العلماء بعد وفاة الشيخ ناصر بن سليمان . وكان ذلك عندما طلب الإمام سيف بن سلطان بن سيف (١١٤٠هـ/١٧٢٨م – ١١٤٥هـ/١٧٣٢م) زيادة مخصصاته الشهرية من الشيخ سعيد الصبحى . وكان الشيخ سالم بن راشد البهلوى – والى نزوى – ووكيل مال الدولة يؤيدان الإمام سيف فى طلب الزيادة . ولكن الشيخ الصبحى رفض هذه الزيادة ، وحجته فى ذلك أن هذه المخصصات فرضت منذ أيام الإمام ناصر بن مرشد (١٠٣٤هـ/١٦٢٤م – ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م) – منذ مائة عام وعشرة أعوام – ولا يجوز زيادتها . فاحتج الإمام سيف على ذلك ، وأدعى أن العلماء قد وافقوا على زيادة مخصصات الإمام محمد بن ناصر الغافرى (١١٣٧هـ/١٧٢٤م – ١١٤٠هـ/١٧٢٨م) ، والتى كانت أكثر من مخصصاته الحالية ، وأنه يكفيه ما كان للإمام محمد الغافرى(١٠٠) .

وقد استعرض الشيخ سالم بن حمود السيابى هذه القضية التى أدت إلى القطيعة بين الإمام سيف وعلمائه . وتوصل أن أمر « المعاش منوط بنظر المسؤولين فى الدولة من خيار المسلمين الذين إليهم الحل والعقد منذ عهد الإمام الجلندى (١٣٢هـ/٧٤٨م – ١٣٤هـ/٧٥١م) ، عملا بتقدير الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأن الإمام بمنزلة الأجير فى بيت المسلمين ليس له أكثر

عن حاجته الخاصة »[١٠١] ، وانتهى الشيخ السيابى إلى القول : « أما أمر المعــاش فيختلف باختلاف الأوقات غلاء ورخصًا كما قرره فى نفقة من لا يملك أمره ونفقــة المرأة على زوجها ، ونفقة الأولاد على أبيهم ، وأن ذلك موكول إلى نظر الحــــاكم الشرعى ، فيجارى فيه حالة الوقت ، فإن الأحوال تتحول من حال إلى آخر»[١٠٢].

ويتضح من هذا السياق أن السيابى كأنه أراد بقوله أن الشيخ الصبحى لم يقدر الأمور وأحوالها ولم يراع المتغيرات ، فهو فى حكم المجتهد المخطئ ولـــهذا أثـــار قضية أدت إلى تنافر الإمام من العلماء .

وكان أن تغيرت أحوال الإمام سيف بعد أن رفض طلبـــه ، وغضـــب علـــى العلماء ، ورأوا منه أنه غير السيرة والسلوك ، ولم يستجب لـــهم ولـــم يعرهـــم أى اهتمام ، كما أنه لم يقربهم فى مجلسه ، وكان ذلك سبب تغير العلماء علـــى الإمـــام سيف ، ومن ثم قرروا خلع الإمام سيف من الإمامة لأسباب ، منها : أنـــه انحـــرف عن سلوك وأخلاق المنصب ، وأنهم غـــير راضيـــن بســـيرته ومعاملتـــه للعلمـــاء والرعية. فاقتضى الحال عزله وتنصيب ابن عمه بلعرب بـــن حمـــير بـــن الإمـــام سلطان بن سيف وذلك سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م[١٠٣] .

وهكذا قام صراع بين الإمامين : المخلوع والمنصب ، مما اســتدعى الأمــر الاستعانة بقوى أجنبية من السند وبلاد فارس كالزدجال والبلوش والفرس من قبـــل الإمام المخلوع سيف بن سلطان . ولكن هذه القوى جرت وبالاً على عمان ، ولـــم تنصر الإمام المستغيث بها ، إنما عملت السلب والنهب والاغتصاب والأســـر فـــى العمانيين ، وقد بيعت كرائم العمانيين وفتياتهم فى أسواق النخاسة فى شيراز والمدن الهامة فى إيران ، وذلك خلال أعوام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م و ١١٥١هـ/١٧٣٨[١٠٤].

ولكى يلم العمانيون الشمل حقنًا للدماء تنازل الإمام بلعرب عن الإمامة ، لمـــا رآه من الفظائع التى ارتكبها الجيش الفارسى فى العمانيين ، لصالح الإمام المخلـــوع سيف بن سلطان ، مما خفف من الأضطرابات السياسية والاجتماعية والاقتصاديـــة ، وعادت القوى الأجنبية إلى أوطانها ، وظل هذا الوضع لمدة أربع سنوات فى هـــدوء وسكينة .

وبعد شئ من الاستقرار قام العلماء بتنصيب إماما جديدا حيث أنهم لم يرضوا بحكم الإمام سيف الذى خلعوه منذ عام ١١٤٥هـ/١٧٣٢ ، وأن الإمام بلعرب بن حمير قد خلع نفسه دون مشاورة العلماء وأنه اكتفى بالمصالحة مع ابن عمه الإمام سيف(١٠٥) .

أما أحوال عالمنا الشيخ سعيد بن بشير الصبحى صاحب الترجمة، فلم يمهله القدر ليرى المصائب التى آلت إليها عمان ، إذ مات فى بداية عام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م قبل وصول حملات الفرس على عمان . وهكذا لم يقدر الشيخ أحوال عمان وطلبات الإمام سيف وذلك حرصا منه على أن لا يبتدع نظاما جديدا يكون قاعدة لمن يأتى من بعده ، كما فعل فى تحليل شرب القهوة.

٧ – حبيب بن سالم أمبو سعيدى (ت : النصف الثانى من ق ١٣هـ/١٨م) .

كان الشيخ حبيب بن سالم بن سعيد ضريرا ، وقد عوضه الله بقلب حافظ نبيه ، وآلت إليه رئاسة العلماء والقضاء فى نزوى بعد الشيخ الصبحى ، وعليه تدور أمور الدولة ، وكان من العلماء المعاصرين له الشيخ سالم بن راشد البهلوى – والى نزوى – والشيخ الفقية راشد بن سعيد الجهضمى ، والشيخ محمد بن ناصر الحراصى والشيخ محمد بن عامر الكندى والشيخ محمد بن خلف بن محمد بن خميس الشقصى والشيخ سالم بن خميس بن عمر العبرى (ت : ١١٦٠هـ/١٧٤٧) والشيخ ناصر بن خميس بن على الحمراشدى والشيخ الفقية محمد بن راشد بن عامر المعولى (ت :

١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) مؤلف كتاب قصص وأخبار فى جـرت عمـان وكتاب « المهذب فى عين الأدب » وكتاب « التهذيب » .

وقد علمنا أن الفرس قد عاثوا فساداً فى عمان وأن الإمام سيف قد مات عام ١١٥٦هـ/١٧٤٣م حسرة وحزناً كما أن الإمام سـلطان بـن مرشد استشهد هو أيضاً فى نفس العام ، واستمر والى صحـار الشـيخ أحمد بن سعيد البوسعيدى يصارع الفرس حتى نجح فى إخراجهم مـن عمان عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م ، وصارت منطقة الباطنة بما فيها مسقط والرستاق خاضعة لأحمد بن سعيد ، بينما نجح بلعرب بن حمير أن يقنع العلماء فى نزوى فى تنصيبه إماماً ثانياً فى عـام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م حيث سبقت له بيعة ولكنه تنازل عنها عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م ، كمـا أشرنا سابقاً ، وابتعد عن موطن الصراع الفارسى العمانى معتكفاً فـى وادى بنى غافر .

ويبدو أن العلماء اقتنعوا بحجته وأنه لم يحدث حدثاً يخرجه عـن الولاية فجددت له البيعة فى يوم ٢٠ ربيع الآخـر ١١٥٧هـ/مـايو ١٧٤٤م(١٠٦) .

ويتشكك الشيخ السالمى فى بيعة بلعرب الثانية ، ولكن هذا التشكك يمكن أن يزول حينما نجد فى كتاب تاريخ عمان المقتبس مـن كشـف الغمة – تحقيق عبد المجيد القيسى – ما يؤكد وقوع البيعة ، حيث يذكـو أن البيعة كانت فى يوم ٢٠ ربيع الآخر ١١٥٧هـ/ مايو ١٧٤٤م(١٠٧) .

قام الإمام بلعرب بن حمير بعد تنصيبه إماماً بمصـادرة أمـوال الإمام سيف بن سلطان وأدخلها فى بيت المال ، وقد عارضه فى ذلـك

شيوخ بني خروص كالشيخ محمد بن خميس بن مبـــارك الخروصـــى والشيخ سعيد بن محمد بن راشد الخروصى[١٠٨] ، ولكن لم تجـد هـذه المعارضة القبول ، بل نجد أن الشيخ حبيب بن سالم وعلمـــاء نــزوى يؤيدون المصادرة رافضين شفاعة واعتراض مشايخ بنى خروص[١٠٩].

لم يلبث أن استبد الإمام بلعرب بالرأى ، ولـــم يلتفـت لنصـــائح العلماء ، وذهب إلى ابعد من ذلك حيث أودع بعضهم السجن بمن فيـهم الشيخ حبيب بن سالم ، والشيخ محمد بن سالم بن صالح الندابى ، وهلك بعض العلماء فى سجنه كالشيخ نجاد بن سالم عام ١١٦٠هـــ/١٧٤٧م والشيخ عامر بن سليمان الريامى ، ولهذا رأى العلماء أن بلعرب بـــاغ غير كفء لا يستحق الاستمرار فى إمامته ، ولذلك قرروا خلعه ، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ حبيب بن سالم – الــذى كتـب وثيقـة الخلـع– ومعــه جملـة مــن العلمــاء وكــان ذلــك فـــى عـــام ١١٦١هـ/١٧٤٨م[١١٠] .

ولم يصغ الإمام بلعرب لهذا الخلع ، واعتبر أنه لا أهميـــة لـــه ، وظل على هذا الحال لمدة عام بأكمله حتى نجح بنو غافر فى إخراجـــه من نزوى إلى الظاهرة حيث تم القبض عليه هناك من قبل مؤيدى الشيخ أحمد بن سعيد البوسعيدى وأودع السجن ، وتفرق عنه حراسه حفاظـــا على أرواحهم[١١١] ، ثم أطلق صراحه ، واتخذ فلــج البـيزيلى مكانـــا لإقامته .

وبعد ذلك اجتمع العلماء بالرستاق برئاسة الشيخ حبيب بن ســـالم أمبو سعيدى ، والشيخ محمد بن راشد المعولى وغيرهم مـــن العلمـــاء

وقرروا عقد البيعة لأحمد بن سعيد إماما لعمان وذلك فى ليلة الأثنين ٢٣ من جمادى الآخر ١١٦٢هـ/١٠ يوليو ١٧٤٩[١١٢] .

٨ - جاعد بن خميس بن مبارك الخروصى (١١٤٧/١٧٣٥ - ١٢٣٧/١٨٢١) .

الشيخ أبو نبهان جاعد بن خميس من بيت علم ورئاسة ، فقد حظيت أسرته بمكانة اجتماعية مرموقة ، وبلغ الشيخ جاعد مكانة عالية بين أقرانه وعرف بالرئيس[١١٣] . وكان أحد أخوته من العلماء الذين عارضوا الإمام بلعرب بن حمير فى مصادرة أموال الإمام سيف فى عام ١١٦٠هـ/١٧٤٧م وهو الشيخ محمد بن خميس بن مبارك الخروصى[١١٤] .

ونبغ الشيخ أبو نبهان جاعد بن خميس فى عدة علوم ، وله مؤلفات كثيرة فى الفقة واللغة العربية والأدب كما كان يقرض الشعر[١١٥] .

عارض الشيخ أبو نبهان جاعد الإمام سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد (١١٩٨هـ/١٧٨٣م - ١٢٢٥هـ/١٨١٠) ، ومنعه من تنفيذ حكم الشرع فى قضية حدثت فى مدينة نزوى عام ١١٩٨هـ/١٧٨٣م ، مؤيدا أهل نزوى شاهرا عصى الطاعة للإمام ، ومن هنا تنافر معه وحدث شقاق بينهما استمر مدة طويلة ، وطالت ذريته . ويبدو أن الشيخ أبا نبهان لم ير صحة بيعة الإمام أحمد بن سعيد ولا بيعة ابنه الإمام سعيد . فقد طعن هو وابنه ناصر بن جاعد فى صحة إمامتهما . وكانت وجهة نظرهما فى ذلك أن البيعة كانت على غير مشورة من المسلمين ،

ولأنه كان عقدا مشكلا لأنه كان بعد التغلب على ملكهم (أى ملك اليعاربة) ولأن الشيخ حبيب والشيخ محمد بن عامر ليسا ممن يلزم المسلمين عقده[١١٦] .

ونحن لو تتبعنا القضية نجد أن رأى الشيخ جاعد بن خميس فى إمامة الإمام أحمد وإمامة ابنه سعيد بن أحمد قد جانب الصواب ، لأن الشيخ سعيد بن أحمد الكندى – معلم الشيخ جاعد – هو الذى خاطب الإمام أحمد بالإمامة . وكان الشيخ سعيد الكندى قدوة أهل زمانه فى الورع والعلم وتشد إليه الركاب طلبا لعلمه فى نزوى ، ويؤكد هذا الرأى الشيخ نور الدين السالمى[١١٧] . كما أن الشيخ راشد بن سعيد الجهضمى – وهو من جملة العلماء الذين خلعوا الإمام بلعرب بن حمير فى عام ١١٦١هـ/١٧٤٨م – قد افتى يثبوت إمامة الإمام أحمد بن سعيد ، فقد وردت هذه الفتوى فى مخطوطة « المنثور فى العلم المنثور » للشيخ عبد الله بن سعيد بن عبد الله المسكرى وجاء فى الفتوى :

« سئل رحمه الله (الفقيه العالم النزيه راشد بن سعيد الجهضمى السمدى) عن الإمام أحمد بن سعيد أهو ثابت الإمامة ويجوز تسليم الزكاة إليه وإلى عماله والمسير عنده لحرب من أراد حربه من المسلمين ؟ قال : إنى لم أحضر العقدة لمن ذكرت ، ولكن أشتهر معنا عن طريق السماع بتواتر الأخبار أن المشايخ أهل الرستاق ومن قدر الله من أهل نزوى وإزكى ، أقاموا هذا الشخص المذكور إماما لهم ولكافة المسلمين بعد أن استتابوه على شروط شرطوها عليه ، والتوبة مقبولة

إذا أتت على جميع أفعال التائب من المعاصي على الوجه الثابت في دين الله وصدقها التائب بقول وفعل . والعقدة إذا وقعت من أهلها على الوجه الثابت في دين الله فهي ثابتة على من حضر أو غاب وليس لحاضر أن يرجع ولا غائب أن يختار . والإمام إذا أثبتت إمامته بإجماع المسلمين واجبة طاعته ولازمة نصرته وتسليم الزكاة إليه وإلى عماله وحرمت عداوته ما استقام على طاعة الله ورسوله وعمل بكتاب الله ، والله أعلم »(١١٨) .

جاءت فتوى الشيخ راشد بن سعيد الجهضمي واضحة جلية ولهذا لم يلتفت إلى طعن الشيخ أبي نبهان جاعد بن خميس وابنه ناصر بن جاعد خصوصا أن الشيخ راشد الجهضمي معاصرا للأحداث ومشاركا فيها وربما منعه مانع عن المشاركة في العقدة ، ولأن الشيخ ابا نبهان كان حينئذ صغيرا عندما عقدت البيعة ، فهو من مواليد عام ١١٤٧هـ/١٧٣٥م وتمت البيعة في ١١٦٢هـ/١٧٤٩م أي أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، بينما ابنه ناصر من مواليد ١١٩٢هـ/١٧٧٨م ، أي ولد بعد ثلاثين سنة من البيعة ، والراجح أن الشيخ جاعد وابنه ناصر كانا على خلاف مع الإمام سعيد بن الإمام أحمد قبل الإمامة وبعدها ، مما جعل الشيخ أبا نبهان يتحامل على الإمام أحمد وابنه الإمام سعيد وجر الأخير عليه جيوشا لمحاربته . ونضيف إلى ذلك أن الإمام سعيد كان غير مرغوب من قبل القبائل الغافرية حيث كان يميل إلى الهناوية ، وأنه كان على خلاف مع أخوته خصوصا السيدان سيف وسلطان أبناء الإمام أحمد . وكان الشيخ أبو نبهان مدعوما من الأخوين(١١٩) .

وقد نسب إلى الشيخ أبى نبهان جاعد أنه اشترك فى اجتماع بالرستاق برئاسة ابناء الإمام أحمد لعزل الإمام سعيد وتنصيب السيد قيس بن الإمام حاكم صحار إمامًا . وكان هذا الاجتماع بعد موت السيد حمد بن الإمام سعيدعام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢ ، وكان على رأس العلماء المشاركين بهذا الاجتماع الشيخ ناصر بن محمد بن خلف بن محمد بن خميس بن سعيد الشقصى(١٢٠) . كما أشار ابن رزيق لهذا الاجتماع وذكر أن الإمام سعيد بعد أن قدم للمجتمعين أصول الضيافة دعاهم للخروج من الرستاق ، وهددهم إن لم يستجيبوا لأوامره مما أدى إلى فشل هذا الاجتماع(١٢١) .

وكان لأبناء الإمام أحمد محاولة أخرى فى مدينة نخل فاجتمعوا بواليها الشيخ محمد بن سليمان بن عدى اليعربى ، ولكن لم يكتب لهذا الاجتماع النجاح أيضًا(١٢٢) .

وعلى أية حال ، انتهى الأمر بأبناء الإمام أحمد بأن جلسوا للمصالحة فى مدينة بركاء وتقاسموا السلطة فى عمان على أن يحكم الإمام سعيد الرستاق وتوابعها ، وأن يظل السيد قيس بن الإمام أحمد حاكمًا لصحار ، بينما يحكم السيد سلطان مسقط والمناطق الداخلية من عمان ، وبقية الأخوة تبع لهم(١٢٣) .

ولم تنته العداوة بين الشيخ أبى نبهان جاعد بن خميس والإمام سعيد، فقد استمرت الحروب بينه وبين الإمام سعيد ثم من بعده أخيه طالب بن الإمام الذى حكم الرستاق فى عام ١٢٣٦/١٧٢٠م حتى توسط السيد سعيد بن سلطان بينهما ، وأكرم السيد سعيد ابنه ناصر الذى عينه

قاضيا فى زنجبار وبهذا اسدل الستار عن هذا الخصام الذى دام أكثر من ربع قرن .

٩ – سعيد بن خلفان بن أحمد الخليلى (١٢٢٦/١٨١١ – ١٢٨٧/١٨٧١) .

الشيخ سعيد بن خلفان علامة كبير ومصنف بارع ، قاد علماء عمان بعد وفاة العلامة جاعد بن خميس ، وهو أحد رجال الإمام عزان بن قيس (١٢٨٥/١٨٦٨ – ١٢٨٧/١٨٧١) ، لقبه العلماء بالمحقق ، وكانت له مصنفات كثيرة ، وفتاوى منتشرة فى كتب الفقه ، جمع بعضها الشيخ محمد بن خميس السيفى فى كتاب «تمهيد قواعد الدين»(١٢٤) .

وللشيخ سعيد محاولات فى إعادة الإمامة فى القرن ١٣هـ/١٩م ، ومن هذه المحاولات أنه فى عام ١٢٦٢/١٨٤٦ دعاه السيد حمود بن عزان بن قيس بن الإمام أحمد حاكم الرستاق (١٨٣٢ – ١٨٥٠م) وسلمه حصون الرستاق وصحار والخابورة وغيرها . وأناط إليه هذه المدن لكى يدير شئونها وفق الشريعة والقصد فى الظاهر إحياء الإمامة(١٢٥) .

وكان السيد حمود بن عزان – فى الحقيقة – يرمى من عمله هذا أن يحظى بكرسى الإمامة فى الرستاق ولكنه يحتاج إلى دعم العلماء له، لهذا قرر الاعتزال من إمارته فى الرستاق تاركا الشيخ سعيد الخليلى ومن معه من العلماء يديرون شئون الإمامة ريثما يتفقوا على إمام منتخب .

ولهذا اجتهد الشيخ سعيد الخليلي وبدأ يكاتب أخوانه من علماء عمان يدعوهم إلى الحضور لأجل التشاور لأجل إعادة الإمامة[١٢٦] .

وكان أهم العلماء الذين تعقد عليهم الراية ومن الذين يعدون من أهل الحل والعقد والمشورة هم : الشيخ حمد بن خميس السعيدى والشيخ جميل بن خميس السعدى[١٢٧] ، والشيخ خميس بن جاعد بن خميس الخروصى ، والشيخ سلطان بن محمد البطاشى والعلاقة خميس بن راشد ابن سعيد العبرى (ت :١٢٧١هـ/١٨٥٨م) ، والسيد الزاهد سيف بن محمد بن عبد الله البوسعيدى والشيخ على بن ناصر بن محمد بن حمير النبهانى الريامى (ت : ١٢٦٤هـ / ١٨٤٧)[١٢٩] .

اجتمع هؤلاء العلماء وقرروا ترشيح السيد الزاهد سيف بن محمد البوسعيدى ، ولكنه اعتذر ، فرشحوا الشيخ خميس بن جاعد الخروصى ولكنه أيضا اعتذر عن قبول منصب الإمامة . وبعد ذلك تقدم الشيخ سيف بن مالك بن الإمام سيف بن سلطان اليعربى لترشيخ نفسه له ، ولكن يبدو أن الشيخ سعيد الخليلى والعلماء رفضوا ترشيحه ، لأنه - من وجهة نظرهم - لم يكن كفئا لها ، ثم اجتمعوا مرة ثانية ، واشاروا بالإمامة للسيد حمود بن عزان والذى اشترط عليهم أمورا لم يقدروا على الوفاء بها على حد قول الشيخ نور الدين السالمى[١٣٠] ، وأعادوا الاقتراح بتولى الإمامة إليه مرة ثانية ، لكن السيد حمود رفض، واعتزل الاجتماع خوفا أن يجبروه على ذلك ، وفى النهاية فشل مسعاهم[١٣١] .

ونستشف من نصيحة الشيخ خميس بن راشد العبرى إلى الشيخ سعيد الخليلى وسلطان البطاشى أنه غير راض بإحياء الإمامة فى هذا

الوقت ، وأن الشيخ خرج من الاجتماع ، ويقول الشيخ إبراهيم بن سعيد العبرى « وعاصر العلامة الشيخ المحقق سعيد بن خلفان الخليلى رضى الله عنه وطلبه للحضور معه ومع من اجتمع لديه من علماء المسـلمين وفضلائهم ببلد الرستاق عند اجتماعهم وعزمهم على تقديم السيد حمـود بن عزان بن قيس إماما لهم وللمسلمين ، فوافقهم أولا ثم انخزل عنـهم ولم يقبل الإمامة وسار عنـهم إلـى صحـار فتفرقـوا علـى غـير فائـدة»(١٣٢).

وقد أورد الشيخ السالمى ملخصا عن هذه النصحة التى تعبر عـن وجهة نظر الشيخ العبرى إذ يقول : « فى هذه الأيام النـاصر معـدوم لأنى أرى القائمين بالمساجد المريض والأعرج والسقيم والعمى والجابن عن الحرب ، وأخبركم عن السادة الذين نسلهم من أولاد (الإمام) أحمد بن سعيد (بن أحمد البوسعيدى) قلوبـهم مطمئنـة بـالحصون فـى أيديهم »(١٣٣) .

فالشيخ خميس لا يرى إحياء الإمامة فى عمان خلال هذه الفترة ، وكانت عمان فى عز مجدها فلسلطانها السيد سعيد بن سلطان جمع فـى حكمه بين عمان وشرق أفريقية . ويعلل الشيخ خميس بأن قيام الإمامـة يحتاج إلى دعم مادى ومعنوى وقوة تكافح من أجلها ، وهم يفتقرون إلى هذه القوة . وتابع الشيخ نصيحته الصادقة موجها حديثة إلى الشيخ سعيد والشيخ سلطان البطاشى فيقول : « وأنتما عملتما التعزيز والقيود وأخـذ الزكاة ، وقد كان الذى بيده الأمر أقوى عشيرة .. وأمراء القبائل معـهم رغبة ورهبة » .

والحقيقة أن النصيحة طويلة تدعو إلى عدم تنصيب الإمامة في الوقت الحاضر ويشير الشيخ خميس إلى السيد سعيد بن سلطان – سيد عمان – والسيد حمود بن عزان – حاكم الرستاق – بالخير والصلاح بقوله : « إلى أن ظهر الملك سعيد بن سلطان والسيد حمود بن عزان فعملا في الرعية بميزان البصيرة وإصلاح الفريقين » .

وفى النهاية حذر الشيخ خميس بن راشد العبرى الشيخ الخليلى وزميله الشيخ البطاشى بقوله : « وإنهم (يقصد بذلك حكام آل بو سعيد) سيعزلون رؤسكما نساؤهم والخدم قبل أولادهم ونسل أجدادهم ... لأن كلا منهم يطلب الملك لنفسه دون غيره . والنفس أسلم لها مسكنها في الخيام والفيافى والقفار عن سكن الحصون التى لم تحرز بالأمناء ولا تكافح عنها الأمراء والأولياء »(١٣٤) .

وعلى أية حال فإن هذه المحاولة فشلت رغم أن الشيخ سعيد بذل جهداً كبيراً واضطر السيد حمود – الذى دعا العلماء لأحياء الإمامة – فى النهاية إلى طردهم من حصونهم بعد أن تركها فى أيديهم سنتين . ولهذا أفصح الشيخ خميس عن الهدف الذى يرمى إليه السيد حمود هو أن يكشف السيد خلل هؤلاء العلماء مع الناس حتى يكثر عليهم الموشى والحساد(١٣٥) .

والمحاولة الثانية للشيخ سعيد بن خلفان الخليلى لإعادة الإمامة كانت فى عام ١٢٨٥هـ/١٧٦٨م ، حينما اتحد كل من الشيخ صالح بن على بن ناصر الحارثى ، زعيم الهناوية والسيد عزان بن قيس بن عزان حاكم الرستاق . أى حنما اتحدت أرادة السلطة السياسية والعلماء

بطلب قبلى نجحت أهدافهم وتحققت أمانيهم . وقد قرر الشيخ صالح والسيد عزان أن يجردوا السلطان سالم بن ثوينى (١٨٦٦م - ١٨٦٨م) من سلطته . فقاد الشيخ سعيد الخليلى الثورة وانضم إليهم العلامة محمد بن سليم الغاربى السعدى ، وكانت النتيجة هى استيلاؤهم على السلطة وتنصيب السيد عزان بن قيس بن عزان إماما على عمان . ولكن هذه الإمامة لم تمكث أكثر من سنتين وذلك لتشدد العلماء فى إدارة البلاد مما اضطر القبائل الغافرية وبعض الهناوية الانسحاب من دعم الإمام والوقوف أمام هذا التشدد ووازرت السيد تركى بن سعيد ، وانتهى الأمر بقتل الإمام . ومن ثم قتل الشيخ سعيد عام ١٢٨٧هـ/١٨٧١م ، وأسدل الستار على الإمامة فى القرن التاسع عشر للميلاد (١٣٦) .

١٠ - الشيخ عبد الله بن حميد السالمى (١٢٨٦/١٨٦٩ - ١٣٣٢/١٩١٤) .

علامة ، وفقيه وشاعر ومصنف ، كان ضريرا منذ صباه ، لقب بنور الدين ، التحق الشيخ السالمى بمدرسة الشيخ صالح بن على بن ناصر الحارثى (١٢٥٠/١٨٣٤ - ١٣١٤/١٨٩٦) بمدينة القابل بالشرقية بعد أن هاجر إليها من مسقط رأسه بلدة الحوقين إحدى قرى ولاية الرستاق فى عام ١٣٠٨/١٨٩٠(١٣٧) .

واستوطن الشيخ عبد الله الشرقية ، وتزعم رئاسة العلماء فى عمان خلال العشرين السنة الأولى من القرن الرابع عشر للهجرة ، فصار علامة زمانه وفريد أوانه بدون منازع ، ومرجعا للناس فى

الفتوى والأحكام ، ووفد إليه كل راغب علم من شتى بلاد عمان وأصبح له تلاميذ وأتباع ومدرسة كبيرة . له مؤلفات كثيرة فى الفقه والحديث والسير والتاريخ ، ومن أبرز كتبه فى التاريخ كتابه « تحفة الأعيان » - الذى نعتمد عليه فى بحثنا هذا[١٣٨] .

نظر الشيخ السالمى إلى مشاكل عصره السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية ، وفكر فى الحلول لهذه المشاكل خصوصًا الصراعات القبلية وانعدام الصلة بين الحاكم والمحكوم . وفوق هذا وذلك تدخل العنصر الأجنبى فى عمان ، والذى كبل السلطان فيصل بن تركى بن سعيد (١٣٠٥/١٨٨٨ - ١٣٣١/١٩١٢) باتفاقيات ومعاهدات تقيد حركته أمام أوضاع عمان واقتصادها . وكان الشيخ السالمى يهدف إلى إعادة الإمامة وانتخاب إمام قادر على أن يحل هذه المشاكل وينشر العدل والأمن فى عمان ، ويخفف من وطأة الهيمنة الأجنبية .

بدأ الشيخ السالمى بعرض أفكاره على السلطان فيصل ، حيث قابله فى مسقط أثناء سفره لإداء مناسك الحج وعودته عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م . وشرح الشيخ أفكاره والغاية من ذلك : لم شمل القبائل وتوحيدها واستتباب الأمن ووضع حد للصراعات القبلية والمشاكل الاقتصادية . وفى النهاية اقترح على السلطان فيصل أن يتولى منصب الإمامة . ولكن السلطان فيصل لم يأخذ هذه الأفكار بمحمل الجد ، ووعده بالتفكير فى هذا الموضوع ، وأنه سيرسل له الجواب مع وزيره سليمان ابن سويلم بن سالمين حين يزور الشرقية عام

١٣٢٥هـ/١٩٠٧م . لكن الوزير سليمان حين قام بالزيارة إلى الشرقية، وقابل الشيخ عيسى بن صالح بن على الحارثى – الذى خلف والده فـى زعامة الهناوية – لم يتطرق إلى موضوع الإمامة ، كما أنه لـم يقـابل الشيخ السالمى ، بل اكتفى بما حققه من تحسين العلاقة بيـن السـلطان فيصل والشيخ عيسى بن صالح الحارثى ، والذى زاد الطين بله أن هـذا الوزير لقى حتفه وتم اغتياله عند مروره فى وادى العق أثناء عودته من الشرقية فى ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م ، وكان رد فعل السلطان فيصـل هـو تشدده على العمانيين فقد غضب لمقتل وزيره سليمان بن سويلم بواسطة السيابيين وأخذ يعد حملاته العسكرية لتأديبهم(١٣٩) .

فكر الشيخ السالمى – بعد ذلك – فى القيام بجولة سـياحية فـى شمال أفريقية وارسل رسائله إلى علماء الأباضية هناك يخبرهم بما عزم عليه . وكان يهدف من هذه الجولة جمع التبرعـات الماليـة لإعـادة الإمامة، حيث ورد ذلك فى خطبته لعيد الفطـر المبـارك مـن عـام ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، إذ أعلن أنه سيقوم بأداء مناسك الحـج . ولكـن الشيخ عيسى بن صالح الحارثى ومن معه من العلماء رفضوا السماح له بالقيام بهذه الجولة ، وربما فهموا مغزاها واحتجوا عليه بأنهم فى حاجة إليه وإلى علمه . وحاول عبثا إقناعهم واستعان ببعض الفقهاء ومؤيديـه لإقناع الشيخ عيسى ولكن كل المحاولات لم تنجح . ويبـدو أن الشـيخ عيسى أصبح لا يؤيد عودة الإمامة بعد أن تحسنت علاقتـه بالسـلطان على يد الوزير سليمان كما مر ذكره(١٤٠) .

ولكي ينسى مرارة ذلك قام بزيارة في داخلية عمان يستطلع فيها قابلية أفكاره مع زعماء القبائل وانصاره من العلماء ، وخلال هذه الجولة وجد الشيخ السالمي التأييد والدعم من الشيخ حمير بن ناصر بن سليمان النبهاني الريامي – زعيم الغافرية ورئيس الجبل الأخضر – كذلك وجد التأييد من بعض الهناوية : العبريين وبني هناه المعادين للسلطان فيصل ، واتفق الشيخ السالمي مع هؤلاء على القيام بهذا الأمر بعد سنة من ذلك حيث يحتاج الأمر إلى التشاور[١٤١] .

وفي عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م حضر الشيخ السالمي ومؤيدوه من العلماء والأنصار من الشرقية إلى مدينة تنوف حيث مقر الشيخ حمير ابن ناصر النبهاني حسب الاتفاق السابق ، وقيل أن الشيخ السالمي صحبه من العلماء ما يربو عن ٧٠ عالما . وبعد التشاور على مدى ثلاثة أيام اقتضى الرأى عقد البيعة للشيخ سالم بن راشد بن سليمان الخروصي ، وكان تلميذا للشيخ السالمي وصهرا له ، وأنه مستوف شروط الإمامة[١٤٢] وأنه من قبيلة بني خروص التي معظم أئمة عمان منها .

وافق الجميع على بيعته ، وتم ذلك ، وبهذا تحققت طموحات السالمي وتم إحياء الإمامة بعد انقطاع دام أكثر من ٤٤ عاما ، واستمرت هذه الإمامة في داخلية عمان حتى أواخر الخمسينات من القرن العشرين . ولكن لم يشهد الشيخ السالمي أدوار تطور هذه الإمامة فقد توفي بعد سنة من تنصيب الإمام سالم[١٤٣] .

هذا هو الدور الذى قام به الشيخ السالمى فى الحياة السياسية ، وكان بجانبه علماء فطاحل أسهموا معه فى إحياء الإمامة ، ونذكر منهم العلاقة عامر بن خميس المالكى (١٢٨٠/١٨٦٣ - ١٣٤٦/١٩٢٧)، والشيخ أبو زيد عبد الله بن محمد الريامى (١٣٠١/١٨٨٣ - ١٣٦٤/١٩٤٤) ، والشيخ محمد بن سالم بن زاهر الرقيشى (١٣٠٢/١٨٨٤ - ١٣٨٧/١٩٦٧) ، والشيخ الجليل ماجد بن خميس بن راشد العبرى (١٢٥٢/١٨٣٦ - ١٣٤٦/١٩٢٧م) وغيرهم[١٤٤] .

* * *

هكذا حرص علماء عمان - فى فترة البحث - على المحافظة على أركان الدولة الإسلامية ودعمها وتكريس نظام الإمامة وحماية الدين وأهله ، وتحملوا فى سبيل ذلك المشاق والصعاب دون كلل ، حتى أن بعضهم لقى حتفه من أجل المحافظة على أركان الدولة . وإذا كان الباحث قد استعرض جهود عشرة علماء خلال هذه الفترة فإن هذا لا يعنى أن هذا الدور اقتصر على هؤلاء العلماء العشرة إطلاقا ، وإنما وراء هؤلاء العلماء جمع غفير من العلماء .

ومما يؤكد أن العلماء - فى فترة الدراسة - كانوا يرون بصفة عامة أنه بالإضافة إلى انشغالهم بالعلم ، فإن عليهم دورا فى الحياة السياسية ، بل واجبا عليهم أن يوفوه حقه ، فبالإضافة إلى هذا الدور السياسى الذى استعرضناه فى هذا البحث ، فقد ترك هؤلاء العلماء جملة من المصنفات ، لا تزال مرجعا لكل طالب علم فى شتى الفنون العلمية، الأدبية .

ولا يعنى هذا أن كافة العلماء كانوا منشغلين بالحياة السياسية فـــى مجتمعهم ، فقد رأينا من العلماء من ثابر من أجل إحياء رسم الإمامــة ، والوحدة الوطنية فى ظل حكم إسلامى وشورى وفق إطـــار الشــريعة الإسلامية الغراء ، فى حين وجدنا من العلماء من تشدد فى اتباع الشرع ونصوصه الحرفية دون أن يقيم مشاكل المجتمع ومقتضياته السياســية والإدارية ، ولم ينظر إلى ما يثيره من معارضة أو بطلان إمامه ومـــا سيترتب على ذلك من فتن ومصائب .

ففى القرن الخامس عشر للميلاد وجدنا الشيخ محمد بن ســـليمان يكافح من أجل بقاء الإمامة ويدعم الإئمـــة ، ويحـــافظ علـــى كيانـــها ووحدتها، بينما نجد فى القرن التالى أن الشيخ أحمد بن مداد يعـــارض الأئمة ويقدح فى سلوكهم ولا يبالى بما يثيره من معارضات . ولهذا أيده بعض الناس وانتخب إمامين فى وقت واحد لتحقيق أهدافـــه ، وكـــانت النتيجة – كما ذكرنا – أن فقدت الإمامة رسمها وانفض النــــاس نحـــو حكومة ملكية استغل مؤسسها أوراق العلماء وتداخلهم واختلافهم ، وفاز بنو نبهان بالاستيلاء على نزوى ، وتبعهم الناس الذين يبحثـــون عـــن الأمن والأمان فى المجتمع العمانى .

هذا بينما نجح العلامة خميس بن ســـعيد الشــقصى فـــى عـــام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م فى توحيد كلمة أهل الحد والعقد وجرهم إلى انتخاب ناصر بن مرشد اليعربى إمامًا لعمان ، فالتفت قبائل عمان وعلماؤهـــا حول هذا الإمام ونصرته ، بينما شهد القرن ١٨م جملة مـــن العلمـــاء اختلف دورهم بين التشدد فى تنفيذ الأحكام الدينية وبين اتخاذ الوســطية

والاعتدال دون الاهتمام بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العمانى . وبالتالى عصفت بعمان موجة من التشدد والفتن والاضطراب ذهبت فى نهايتها بدولة اليعاربة (١٦٢٤م - ١٧٤٩م) ، وأتت هذه الأوضاع بأسرة آل بوسعيد حينما نجح مؤسسها أن يحرر عمان من الاحتلال الفارسى . وكاد الأمر يعود إلى اضطرابه فى نهاية القرن حينما ثار أهل نزوى وأيدهم الشيخ أبو نبهان جاعد بن خميس الخروصى حول عدم تطبيق حكم القصاص فى نزوى على بعض الفتوة، ثم امتد إلى معارضة الإمام سعيد بن الإمام أحمد ومحاولة عزله أو خلعه . وانتهى الأمر إلى حكمة ابن الإمام الذى نقل عاصمة والده من الرستاق إلى مسقط ليدير البلاد من هناك بحكمة وليونه بعيدا عن تشدد والده والعلماء المعارضين له .

وأفرز القرن التاسع عشر أحد العلماء البارزين حول إحياء الإمامة فى اربعينات ذلك القرن . ولكن محاولاته فشلت فى جر العلماء إلى رأيه ، فتقاعسوا عن نصرته لأمور رأوها وأسباب غير مواتيه لتحقيق الهدف . ولكن حينما اتفقت الإرادة السياسية مع أغراض العلماء وهدفهم المنشود ، نجح فى إحياء الإمامة فى نهاية الستينات ، ولكن تلك الإمامة انهارت بسرعة حيث اتصفت بأن العلماء فشلوا فى إدارة شئونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فضاقت الرعية بهم وتهاون الناس عن نصرتهم ، وفى النهاية زالت الإمامة بقتل الإمام وقتل مديرها الشيخ سعيد الخليلى مسموما فى قلعة الجلالى .

واستهل القرن العشرين للميلاد بصراع بين القبائل وســـلطانها ، بسبب الظروف الاقتصادية والصراعات القبلية والنفوذ الأجنبى وهيمنته على السلطان . وقام الشيخ نور الدين السالمى بتضيق فجوة الصراعات وتقريب وجهات النظر بين الحاكم والمحكوم ، ولكنه فشل فى أن ينـــال ثقة السلطان . ولكنه نجح أن يجمع حوله ٧٠ عالما وزعيمـــى القبـــائل العمانية الشيخين حمير بن ناصر النبهانى والشيخ عيـــس بـــن صـــالح الحارثى . وبالتالى تم إحياء الإمامة فى ١٩١٣م فاســـتمرت لمـــدة ٤٥ عاما حتى تلاشت ، بعد أن سحبت القبائل تأيدها للإمام .

هوامش الدراسة

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية . ص : ٥ .

(٢) انظر فى ذلك ابن حزم . الفصل جـ١ ، البغدادى ، عبد القاهر بن طاهر . أصول الدين . الجرجانى ، شرح المواقف . جـ٨ .

(٣) الشيخ خميس الشقصى من علماء القرن السابع عشر ومن المؤيدين للإمامة ناصر بن مرشد (١٦٢٤ – ١٦٤٩) انظر أخباره فى : دليل أعلام عمان ؛ ابن رزيق ، الفتح المبين : ٢٦٢ .

(٤) الشقصى ، خميس بن سعيد . منهج الطالبين وبلاغ الراغبين . جـ٨ ص : ٤٢ ؛ انظر أيضًا الكندى ، أحمد . المصنف : ١٠ : ٢٣ .

(٥) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٦) سورة النور : الآية ٢٤ .

(٧) سورة ص : الآية ٣٨ .

(٨) الحارثى ، مالك بن سلطان . نظرية الإمامة عند الأباضية : ٥ .

(٩) الكندى ، أحمد بن عبد الله . المصنف : ١٠ : ٢٣ .

(١٠) مختصر صحيح مسلم : رقم الحديث : ١٠٦١ : ٢٧٧ .

(١١) صحيح مسلم : جـ١٢ : ص : ٢٤١ .

(١٢) صحيح مسلم : جـ٦ : ص : ٢٢ .

(١٣) صحيح مسلم :جـ٦ : ص : ٣ – ٤ .

(١٤) انظر : العمشاوى ، محمد سعيد . الخلافة الإسلامية . الصمد ، حمد محمد . نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين ؛ عطوان ، حسين . الفقهاء والخلافة فى العصر الأموى .

(١٥) الشيخ موسى بن على بن عزرة (٧٩٢/١٧٧ - ٨٤٨/٢٣٤) انظر أخبـاره دليل أعلام عمان: ١٥٥ - ١٥٦ ؛ البطاشى ، إتحاف الأعيان: ١ :١٨٢-١٩٠

(١٦) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٤

(١٧) الخروصى ، أبو المؤثر . الأحداث والصفات : ٦٠

(١٨) الشيخ سالم بن سعيد الصائغى من علماء عمان فى النصف الثانى من القـرن الثامن عشر للميلاد .

(١٩) الصائغى ، سالم ين سعيد ، كنز الأديب وسلافة البيب . مخطوطة .

(٢٠) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٢٧

(٢١) الشقصى ، المرجع السابق . جـ٨ : ص : ٤٢

(٢٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد . المقدمة . ص : ٢١١

(٢٣) الخروصى ، أبو المؤثر الصلت بن خميس . الأحداث والصفات : ٦٠ -٦١

(٢٤) ابن خلدون . تاريخ . جـ١ : ص : ١٩٣

(٢٥) البغدادى ، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر . أصول الدين . ص : ٢٧٧

(٢٦) ابن حزم . أبو محمد على بن أحمد الظاهرى . الفصل . جـ٤ ، ص :١٦٦

(٢٧) ابن خلدون . تاريخ . جـ١ : ص : ١٩٤ - ١٩٦

(٢٨) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٦٥ - ٦٦ ؛ انظر أيضا الحضرمى . أبـو إسحق بن قيس . مختصر الخصال .

(٢٩) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٧٨ - ٧٩

(٣٠) البقلانى ، أبو بكر محمد بن الطيب . التمهيد فى الرد الملحدة .. إلـخ . ص : ١٦٤ وما بعدها .

(٣١) الماوردى ، المرجع السابق : ص : ٣ - ٤

(٣٢) الأشعرى ، مقالات الإسلاميين . ص : ٤٦٠ ، البقلانى ، المرجع السابق . ص : ١٦٤ ؛ البغدادى ، المرجع السابق . ص : ٢٨٠

(٣٣) الأيجى ، المواقف : ٤٠٠ ؛ القلقشندى . ماثر الأناقة : جـ١ : ٤٣

(٣٤) الماوردى ، المرجع السابق : ٤٠

(٣٥) الماوردى ، المرجع السابق : ٧ ؛ ابن حزم . الفصل : ٤ : ١٦٧

(٣٦) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ١٠٠ - ١٠١ ، غباش ، حسين عبيد . عمان : الديمقراطية الإسلامية (١٥٠٠ - ١٩٧٠) ص : ٧٣

(٣٧) البوسعيدى ، مهنا بن خلفان . كتاب لباب الآثار : ٦ : ٣٤٦

(٣٨) سورة المجادلة : الآية ١١

(٣٩) سورة فاطر : الآية ٢٣

(٤٠) القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن : ٧ : ٢١٧

(٤١) انظر الشقصى ، المرجع السابق جـ١ : ٤٠

(٤٢) سورة النحل : الآية ١٦

(٤٣) سورة الزمر : الآية ٩

(٤٤) الآجرى . أخلاق العلماء : ٢٩

(٤٥) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٨٠

(٤٦) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٨١

(٤٧) هاشم ، مهدى طالب . الحركة الأباضية فى المشرق العربى : ٢٩٤

(٤٨) الكندى ، المرجع السابق : ١٠١٠ : ٢٢٩

(٤٩) الكندى ، المرجع السابق : ١٠ : ٢١٥

(٥٠) معمر ، على بن يحيى . الأباضية بين الفرق الإسلامية ٢ : ١٩٧

(٥١) الأزكوى ، كشف اللغمة : ٣٩ - ٤٠

(٥٢) السالمى . تحفة الأعيان : ١ : ٩٦ ؛ هاشم ، حركة الأباضية فى المشرق .

(٥٣) المعولى محمد بن راشد ، قصص وأخبار جرت فى عمان : ٦٤ - ٦٦

(٥٤) ابن رزيق ، حميد بن محمد . الفتح المبين : ٢٣٦ - ٢٣٧

(٥٥) الأزكوى ، كشف اللغمة : ٥٧

(٥٦) الأزكوى ، كشف اللغمة : ٥٨ ؛ السيابى ، عمان عبر التاريخ : ٢ : ١٩٩ - ٢٠٠ ؛ مايلز ، الخليج : ١١٤ - ١٤٢

(٥٧) البطاشى ، سيف بن حمود . إتحاف الأعيان : ١ : ٢٠٢ - ٣٠٠ ، الحارثى، سالم بن حمد ، العقود الفضية : ٢٥٦ - ٢٥٨

(٥٨) الأزكوى ، كشف اللغمة : ٦٩ - ٧٠ ؛ السالمى ، تحفة الأعيان : ١ : ٢٩٥ وما بعدها .

(٥٩) دليل أعلام عمان : ١٤٣ ، البطاشى ، إتحاف الأعيان : ١ : ٢٣٦

(٦٠) البطاشى ، المرجع السابق : ١ : ٢٣٦

(٦١) البطاشى ، المرجع السابق : ١ : ٢٥٢

(٦٢) دليل أعلام عمان : ٢٨ ، البطاشى ، المرجع السابق : ١ : ٢٥٣

(٦٣) دليل أعلام عمان : ٨٢ ، البطاشى ، المرجع السابق : ١ : ٢٧٣

(٦٤) انظر حول ذلك ابن مداد: ٢٢ - ٢٣؛ الحارثى . العقود الفضية: ٢٧٧-٢٧٨

(٦٥) الأزكوى ، المرجع السابق : ٧٠ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ١ : ٣٢٣ - ٣٢٤ ؛ الحارثى ، عبد الله . بنو نبهان .

(٦٦) الأزكوى ، المرجع السابق : ٧٠ ؛ ابن قيصر ، سيرة ناصر بن مرشد ؛ ابن رزيق ، الفتح المبين : ٢٢١

(٦٧) الأزكوى ، المرجع السابق : ٧٠ ؛ ابن قيصر ، سيرة ناصر بن مرشد ؛ ابن رزيق ، الفتح المبين ؛ السيار ، عائشة . دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا ؛ عوض ، عبد العزيز . دراسات فى تاريخ الخليج : ٢ : ٦١ وما بعدها .

(٦٨) السالمى ، محمد . نهضة عمان . لاندن . عمان منذ ١٨٥٦ مصيرا ومسيرا . شهداد . إبراهيم محمد إبراهيم . الصراع الداخلى فى عمان خلال القرن العشرين .

al-Hashimy, S. M. Imam Salim b. Rashid and Imamate Revival in oman 1331/1913-1338/1920.(thesis, Ph. D. . Unpublished, University of Leeds, 1994.

(٦٩) غباش ، حسين عبيد . عمان : الديمقراطية الإسلامية (١٥٠٠ – ١٩٧٠). ط.١ : بيروت : ١٩٩٧ : ٣٤٧ .

(٧٠) انظر البطاشى عن علماء هذه الفترة : المرجع السابق : ٢ : ٥ – ٩ .

(٧١) البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ٦ – ٧ ؛ دليل أعلام عمان : ١٤٦ .

(٧٢) الشيخ أحمد كان من أكابر علماء عصره وممن تصدر للفتوى والقضاء والمقدم فى رياسة العلماء آنذاك ولا غرابة أن نرى كتاب منهاج العدل وهو فى ٣ مجلدات يحتوى فتاوى هذا العالم ، فهو قاضى السلطان سليمان بن مظفر بن سليمان بن مظفر بن نبهان النبهانى (ت : ٨٧١هـ/١٤٦٦م) انظر البطاشى : المرجع السابق : ٢ : ٧ – ١٢ .

(٧٣) ابن مداد : ٥٤ ؛ البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ١٩ وما بعدها ؛ دليل أعلام عمان : ١٦٩ .

(٧٤) السالمى ، عبد الله . تحفة الأعيان : ١ : ٢٧٠ .

(٧٥) السالمى ، عبد الله . تحفة الأعيان : ١ : ٢٧٠ .

(٧٦) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٢٠ ؛ المعولى ، قصص وأخبار : ٨٤ ؛ البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ١٣ .

(٧٧) البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ٧٦ ؛ دليل أعلام عمان : ٢٩ .

(٧٨) الأزكوى ، المرجع السابق : ٧٥ وما بعدها .

(٧٩) البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ٧٥ ، ١٩٧ وما بعدها .

(٨٠) السالمى ، تحفة الأعيان : ١ : ٣٨٤ .

(٨١) الأزكوى ، المرجع السابق : ٨٠ . انظر أيضا البطاشى ، المرجع السابق : ٢ : ٧٧ ، السالمى ، تحفة الأعيان : ١ : ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(٨٢) السالمى ، تحفة الأعيان : ٢ : ٣ ؛ دليل أعلام عمان : ٩٥ .

(٨٣) السالمى ، تحفة الأعيان : ٢ : ٣ ؛ دليل أعلام عمان : ١٥٢ .

(٨٤) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٣ .

(٨٥) انظر أخبار الشيخ خميس فى : ابن قيصر ، سيرة الإمام ناصر بن مرشد ؛ الأزكوى ، كشف الغمة : صفحات مختلفة ؛ السالمى ، اللمعة : ٢٥ ؛ السيابى، إسعاف الأعيان : ٢٤ ؛ دليل أعلام عمان : ٥٩ .

(٨٦) الشقصى ، خميس بن سعيد . منهج الطالبين : ١ : المقدمة : ٥ - ٨ .

(٨٧) يذكر الشيخ السالمى فى التحفة : ٢ : ١١٠ - ١١١ أنه حصل على رسالة قد بعثها سعيد بن بشير الصبحى لإخوانه يذكر فيها العلماء الذين عقدوا البيعة الإمام سلطان بن سيف .

(٨٨) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٦٩ .

(٨٩) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٦٩ .

(٩٠) ابن رزيق . الفتح المبين : ٣٠١ .

(٩١) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٧٠ ؛ ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٠١ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١١٤ - ٥

(٩٢) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٧٦ ؛ المعولى ، قصص وأخبار : ١٣٦ ؛ ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٠١ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١١٨

(٩٣) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٩٠ ؛ المعولى ، قصص وأخبار : ١٥٤ ؛ ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٢٠ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٣٤

(٩٤) السيابى ، عمان عبر التاريخ ٢ : ٨٦

(٩٥) الأزكوى ، المرجع السابق : ٣٩٥ ؛ المعولى ، قصص وأخبار : ١٥٥ ؛ السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٠

(٩٦) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٠

(٩٧) ابن رزيق ، المرجع السابق : ٢٢٦

(٩٨) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١١٠ - ١١١

(٩٩) انظر الصبحى ، سعيد بن بشير . الجامع الكبير . تحقيق سالم بن حمد الحارثى مطبوعات وزارة التراث القومى والثقافة ١٩٨٦

(١٠٠) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٢

(١٠١) السيابى ، عمان عبر التاريخ : ٤ : ٨٩

(١٠٢) السيابى ، عمان عبر التاريخ : ٤ : ٩١

(١٠٣) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٤

(١٠٤) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٤ - ١٤٧

(١٠٥) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٤٨

(١٠٦) الأزكوى ، المقتبس : ١٤٩

(١٠٧) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦٠

(١٠٨) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦١

(١٠٩) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦١ - ١٦٣

(١١٠) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦٦ - ١٧٠

(١١١) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦٦ - ١٧٠

(١١٢) البطاشى ، سيف بن حمود ، الطالع السعيد نبذ من تاريخ الإمام أحمد بن سعيد : ١١٤

(١١٣) الحارثى ، عبد الله بن سالم . أضواء : ٣١ - ٣٣ ؛ دليل أعلام عمان : ٤٦ ؛ الهاشمى ، سعيد بن محمد . أبو نبهان جاعد بن خميس الخروصى (ثقافته : شيوخه وتلاميذه) .

(١١٤) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦١

(١١٥) الخصيبى ، محمد بن راشد . شقائق النعمان : ١ : ١٣٩ - ١٤٨ ؛ الهاشمى ، المرجع السابق ؛

(١١٦) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٦٩

(١١٧) نفسه : ٢ : ١٧٨

(١١٨) المسكرى ، عبد الله بن سعيد . المنثور فى علم المنشور . ورقة ٩

(١١٩) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ١٨٨

(١٢٠) الأزكوى ، المقتبس . ١٦٣

(١٢١) ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٩٢ ، السيابى ، المرجع السابق : ٤ :١٨٥

(١٢٢) ابن رزيق ، المرجع السابق : ٣٩٢

(١٢٣) السيابى ، المرجع السابق : ٤ : ١٨٤ - ١٨٥

(١٢٤) انظر عن أحوال الشيخ سعيد ، المنتدى الأدبى ، قراءات فى فكر الخليلى : ٣٢ ، ٩٠ – ٩٥ ، ١١١ – ٢٠٩ ؛ الحارثى ، عبد الله . أضواء ٤٦ –٤٨؛ دليل أعلام عمان : ٧٩

(١٢٥) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٨ ، ابن رزيق ، المرجع السابق:٥٤٨

(١٢٦) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٨

(١٢٧) الشيخ جميل بن خميس مؤلف كتاب « قاموس الشريعة » فى ٩٢ مجلدًا ويعتبر من أكبر الكتب العمانية فى الفقة الأباضية . طبع منه حتى الآن ١٩ مجلدًا .

(١٢٨) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٨ – ٢١٩ ؛ ابن رزيق ، المرجع السابق : ٥٤٨ – ٥٤٩

(١٢٩) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٩

(١٣٠) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢١٩

(١٣١) العبرى ، إبراهيم بن سعيد . تبصرة المعتبرين فى تاريخ العبريين . مخطوطة ورقة ١٤٠

(١٣٢) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٢٠

(١٣٣) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٢١

(١٣٤) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٢٣

(١٣٥) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٢٧ وما بعدها .

(١٣٦) السالمى ، المرجع السابق : ٢ : ٢٧٨ – ٢٨٣

(١٣٧) انظر سيرة الشيخ السالمى فى كتاب ابنه محمد بن عبد الله السالمى ، نهضة الأعيان : ٩٩ – ١٢٦

(١٣٨) دليل أعلام عمان : ١١٢ - ١١٣ ؛ الحارثى ، أضواء ٧٨ - ٨٢ ؛ المنتدى الأدبى ، قراءات فى فكر السالمى : ٤٤ - ٦٣ ، ٩٢ - ١١٤

(١٣٩) الحارثى ، محمد . نهضة الأعيان : ١٣٦ - ١٣٧

(١٤٠) al-Hashimy, S. M. Imam Salim b. Rashid

(١٤١) السالمى . محمد . نهضة الأعيان : ١٢٨ - ١٢٩

(١٤٢) السالمى . محمد . نهضة الأعيان : ١٦٧ - ١٦٨

(١٤٣) السالمى . محمد . نهضة الأعيان : ١٣٠ - ١٣٩ ،

al-Hashimy, S. M. Imam Salim b. Rashid

(١٤٤) انظر سيرة هؤلاء العلماء فى : السالمى . محمد . نهضة الأعيان فى صفحات مختلفة ، دليل أعلام عمان : حسب تسلسل الأسماء .

المصادر والمراجع

- ابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد . الفصل فى الملـــل والأهــواء والنحــل . ط. ٣ ، بيروت : ١٩٨٨

- ابن خلدون ، عبد الله بن محمد . مقدمة ابن خلدون . دار الجيل . بيروت ؟

- ———— ، تاريخ ابن خلدون . دار إحياء التراث العربى . بيروت ؟

- ابن رزيق ، حميد بن محمد . الشعاع الشائع باللمعان . مسقط : ١٩٧٨

- ———— ، الفتح المبين فى سيرة البوسعيديين . مسقط : ١٩٨٤

- ابن قيصر ، عبد الله بن خلفان . سيرة الإمام ناصر بن مرشد . وزارة التراث القومى.

- ابن مداد . عبد الله . سيرة ابن مداد . وزارة التراث القومى ، العـــدد : ٥٦ . يوليــو : ١٩٨٤

- الآجرى ، أخلاق العلماء .

- الأزكوى ، سرحان بن سعيد . كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة . تحقيق أحمد عبيدلــى. دلمون للنشر . قبرس : ١٩٨٥

- ———— ، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمــة . تحقيق عبد المجيد القيسى . ط : ٢ ، مسقط : ١٩٨٦م .

- الأشعرى ، أبو الحسن على بن إسماعيل . مقالات الإسلاميين واختلاف المصليــن . ط: ٣ ، ١٩٨٠

- اطفيش ، محمد بن يوسف . شرح كتاب النيل وشفاء العليل . جـ : ١٤ . مســـقط : ١٩٨٩

- الإيجى : أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد . المواقف فى علم الكلام . عالم الكتـــب ، بيروت : ؟

- البطاشى ، سيف بن حمود . إتحاف الأعيان . ٢جـ ، مســـقط : جـــ١ : ١٩٩٢ ، جـ٢ : ١٩٩٤

- ــــــــــــــــ ، الطالع السعيد نبذ من تاريخ الإمام أحمد بن سعيد . مسقط : ١٩٩٧

- البغدادى ، أبو المنصور عبد القاهر بن طاهر . أصول الدين . ط. ١ استنبول : ١٩٢٨

- البقلانى ، أبو بكر محمد بن الطيب . التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة . القاهرة : ١٩٤٧

- البوسعيدى ، مهنا بن خلفان . كتاب لباب الآثار . مسقط : ١٩٨٥

- الجرجانى ، على بن محمد . شرح المواقف . ط. ١ القاهرة : ١٩٠٧

- الحارثى ، سالم حمد . العمود الفضية . مسقط : ١٩٨٣

- الحارثى ، عبد الله بن سالم . أضواء على بعض أعلام عمان قديمًا وحديثًا . مسقط : ١٩٩٤م

- الحارثى ، مالك بن سلطان . نظرية الإمامة عند الأباضية . ط. ١ . مسقط : ١٩٩١

- الحضرمى ، أبو إسحاق بن قيس . مختصر الخصال . مسقط : ١٩٨٣

- حلمى ، مصطفى (د) . نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى . دار الدعوة ، الإسكندرية.

- الخروصى ، أبو المؤثر الصلت بن خميس . كتاب الأحداث والصفات . تحقيق جاسم ياسين محمد الدرويش . ط. ١ مسقط : ١٩٩٦

- الخصيبى ، محمد بن راشد . شقائق النعمان على سموط الجمان فى أسماء شعراء عمان . ٣جـ . ط. ١ ، مسقط : ١٩٨٤

- خليفات ، عوض محمد . الأصول التاريخية للفرقة الأباضية . مسقط ١٩٨٨

- ــــــــــــــــ ، نشأة الحركة الأباضية . عمان ١٩٧٨

- الخطيب ، عبد الكريم . الخلافة والإمامة . ط. بيروت : ١٩٧٥

- درويش ، مديحة أحمد (د) . سلطنة عمان فى القرنين ١٨ و ١٩ . ط.١ ، جدة : ١٩٨٢

- دليل أعلام عمان . جامعة السلطان قابوس . ط.١ مسقط : ١٩٩١

- الرفاعى ، أنور ، الإسلام فى حضارته ونظمه . ط: ٣ ، دار الفكر ، دمشق : ١٩٨٦

- الزركلى ، خير الدين . الأعلام . ط.٦ بيروت : ١٩٨٤

- السيابى ، سالم بن حمود . إسعاف الأعيان فى أنساب أهل عمان . دمشق : ١٩٦٥

- ———————— ، عمان عبر التاريخ . ٤ مجلدات ، وزارة التراث القومى ، مسقط.

- ———————— ، العنوان . دمشق ، ١٩٦٥

- السالمى ، عبد الله بن حميد . تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان . مسقط : ١٩٨١

- ———————— ، اللمعة المرضية من أشعة الأباضية . وزراة التراث القومى ، ١٩٨١

- السالمى ، محمد بن عبد الله . نهضة الأعيان بحرية أهل عمان .

- السعدى ، جميل بن خميس . قاموس الشريعة . مسقط : ١٩٨٣

- السيار ، عائشة على . دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا . ط. ١ ، بيروت : ؟

- الشقصى ، خميس بن سعيد . منهج الطالبين وبلاغ الراغبين . تحقيق سالم بن حمد الحارثى . ط: ١ ، وزارة التراث القومى والثقافة ، مسقط : ١٩٧٩م .

- الشمرى ، عبد الله محمد . الفهرست المفيد فى تراجم أعلام الخليج . الخبر : ١٤١٣هـ

- شمس الدين . الشيخ محمد مهدى . نظام الحكم وإدارة فى الإسلام . ط. ٢ بيروت : ١٩٩١

- شهدات ، إبراهيم محمد (د) . الصراع الداخلى فى عمان خلال القرن العشرين . ط.١ الدوحة : ١٩٨٩

- الصبحى ، سعيد بن بشير . الجامع الكبير .

- الصمد ، محمد بن حمد . نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين . ط.١ بيروت : ١٩٩٤

- عبد الرازق ، على . الإسلام وأصول الحكم . نقد وتحقيق د. ممدوح حقى . بيروت:؟

- العبرى ، إبراهيم بن سعيد . تبصرة المعتبرين فى تاريخ العبريين . مخطوطة .

- عطوان ، حسين . الفقهاء والخلافة فى العصر الأموى . ط. ١ بيروت : ١٩٩١

- العمشاوى ، محمد سعيد . الخلافة الإسلامية . ط. ١ ، القاهرة : ١٩٩٢

- عوض ، عبد العزيز (د) . دراسات فى تاريخ الخليج العربـــى الحديـث . بـيروت ١٩٩١

- غباش ، حسين عبيد غانم (د) . عمان : الديمقراطيـة الإسـلامية : ١٥٠٠ - ١٩٧٠ ترجمة د. انطوان حمصى . ط. ١ بيروت : ١٩٩٧

- الفارسى ، ناصر بن منصور . نزوى عبر الأيام . نادى نزوى . ط: ١ ، ١٩٩٤م

- قاسم ، جمال زكريا . الخليج العربى . ٤ مجلدات ، طبع فى سنوات مختلفة .

- ــــــــــــ ، دولة بوسعيد فى عمان وشرقى أفريقيا . القاهرة .

- القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى ، الجامع لأحكام القرآن . جـ٧ ، ط. ١ دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٨٨

- القشيرى ، الإمام مسلم بن الحجاج . صحيح مسلم . بيروت : ؟

- ــــــــــــ ، مختصر صحيح مسلم . شرح ومراجعة : سعيد اللحـام بـيروت : ١٩٩١

- القلقشندى ، أحمد بن محمد . مآثر الإناقة فى معالم الخلافة . تحقيـق : عبـد السـتار فراج. عالم الكتب . بيروت : ؟

- الكندى ، أحمد بن عبد الله . المصنف . جـ:١٠ مسقط : ١٩٨٣

- الكندى ، محمد بن إبراهيم . بيان الشرع . جـ : ٤ مسقط : ١٩٨٤

- كيلى ، جون . بريطانيا والخليج الفارسى ١٧٩٥ - ١٨٧٠ ، مجلدين (مترجم) .

- لاندن ، روبرت جيران . عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا مصيرا . وزارة التراث القومى .

- لويمر ، ج . ج . دليل الخليج . ١٤ مجلدا (مترجم) .

- مايلز ، س.ب . الخليج بلدانه وقبائله . (مترجم) .

- الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد . الإحكام السلطانية . بيروت : ١٩٧٨

- مجهول المؤلف . تاريخ أهل عمان . تحقيق سعيد عاشور .

- المسكرى ، عبد الله بن سعيد . المنثور فى العلم المنشور . مخطوطة : بمكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدى .

- معمر ، على يحيى . الأباضية بين الفرق الإسلامية . مسقط : ١٩٨٦

- المعولى ، أبو سليمان محمد بن عامر . قصص وأخبار جرت فى عمان .

- المنتدى الأدبى . قراءات فى فكر السالمى (حصاد ندوة عن السالمى) . مسقط : ١٩٩٢

- ———————— ، قراءات فى فكر الخليلى (حصاد ندوة عن الخليلى) . مسقط : ١٩٩٤

- هاشم ، مهدى طالب . الحركة الأباضية فى المشرق العربى . ط. ١ بغداد : ١٩٨١

al-Hashimy, S. M. Imam Salim b. Rashid and Imamate Revival in Oman 1331/1913-1338/1920, (thesis, Ph. D. Unpublished, University of Leeds, 1994.

- الهاشمى ، سعيد بن محمد . أبو نبهان بن خميس الخروصى : ثقافته : شيوخه وتلاميذه. بحث قدم إلى ندوة إحياء ذكرى أبى نبهان : ١٤ - ١٦ ديسمبر ١٩٩٦ . المنتدى الأدبى السيب .

- وزارة الإعلام . عمان فى التاريخ . لندن : ١٩٩٥

- وزارة التراث القومى . حصاد ندوة الدراسات العمانية : نوفمبر ١٩٨٠ . ١٠جـ .

- يوسف ، محمد خير رمضان . تتمة الأعلام للزركلى . ٢جـ ، ط. ١ بيروت ١٩٩٨

الملاحــق

(أ) قائمة بأسماء العلماء مع الأئمة :

القرن الخامس عشر

١ – الشيخ محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج اليحمدى الازدى

الإمام عمر بن الخطاب ابن محمد الخروصى (١٤٨٠/٨٨٥ – ١٤٨٠/٨٩٤)

القرن السادس عشر

٢ – الشيخ أحمد بن مداد بن عبد الله بن مداد الناعبى

الإمام محمد بن إسماعيل الإسماعيلى (١٥٠٠/٩٠٦ – ١٥٣٥/٩٤٢)

الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل الإسماعيلى (١٥٣٥/٩٤٢ – ١٥٥٦/٩٦٤)

القرن السابع عشر

٣ – الشيخ الفقيه العلامة خميس بن سعيد بن على الشقصى

الإمام ناصر بن مرشد بن مالك اليعربى (١٦٢٤/١٠٣٤ – ١٦٤٩/١٠٥٩)

القرن الثامن عشر

٤ – الشيخ عدى بن سليمان بن راشد بن حسن الذهلى (ت : ١١٣٤هـ/١٧٢٢م)

الإمام سلطان بن سيف بن سلطان اليعربى (١٧١١/١١٢٣ – ١٧١٨/١١٣١)

الإمام مهنا بن سلطان بن ماجد اليعربى (١٧١٨/١١٣١ – ١٧٢١/١١٣٤)

٥ – الشيخ ناصر بن سليمان بن محمد بن مداد الناعبى

الإمام محمد بن ناصر بن عامر الغافرى (١٧٢٤/١١٣٧ – ١٧٢٨/١١٤٠)

الإمام سيف بن سلطان بن سيف اليعربى (١٧٢٨/١١٤٠ – ١٧٣٢/١١٤٥)

٦ – الشيخ سعيد بن بشير بن محمد الصبحى (ت : ١١٥٠هـ/١٧٣٧م)

الإمام سيف بن سلطان بن سيف اليعربى (١٧٢٨/١١٤٠ – ١٧٣٢/١١٤٥)

٧ - الشيخ حبيب بن سالم بن سعيد بن محمد أمبوسعيدى

الإمام بلعرب بن حمير بن سلطان اليعربى (١١٥٨/١٧٤٥ - ١١٦٢/١٧٤٩)

الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد البوسعيدى (١١٢٣/١٧٤٩ - ١١٩٨/١٧٨٢)

٨ - الشيخ جاعد بن خميس بن مبارك الخروصى (١١٤٧/١٧٣٥ - ١٢٣٧/١٨٢١)

الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد البوسعيدى (١١٢٣/١٧٤٩ - ١١٩٨/١٧٨٢)

الإمام سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى (١١٩٨/١٧٨٢ - ١٢٢٥/١٨١٠)

القرن التاسع عشر

٩ - الشيخ سعيد بن خلفان بن أحمد بن صالح الخليلى(١٢٢٦/١٨١١ - ١٢٨٧/١٨٧١)

الإمام عزان بن قيس بن عزان بن قيس بن الإمام(١٢٨٥/١٨٦٨ - ١٢٨٧/١٨٧١)

القرن العشرين

١٠ - الشيخ عبد الله بن حميد بن سلوم السالمى (١٢٨٦/١٨٦٩ - ١٣٣٢/١٩١٤)

الإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصى (١٣٣١/١٩١٣ - ١٣٣٨/١٩٢٠)

(ب) أئمة عمان خلال العصور الحديثة :

١ - الإمام عمر بن الخطاب بن محمد الخروصى (١٤٨٠/٨٨٥ - ١٤٨٠/٨٩٤)

٢ - الإمام محمد بن سليمان بن محمد بن مفرج (١٤٨٠/٨٩٤ - ؟)

٣ - الإمام عمر بن الشريف (؟ - ؟)

٤ - الإمام أحمد بن محمد الربخى (؟ - ؟)

٥ - الإمام أبو الحسن بن عبد السلام (؟ - ؟)

٦ - الإمام محمد بن إسماعيل الإسماعيلى (١٥٠٠/٩٠٦ - ١٥٣٥/٩٤٢)

٧ - الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل الإسماعيلى (١٥٣٥/٩٤٢ - ١٥٥٦/٩٦٤)

٨ - الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الله القرن المنحى (١٥٥٩/٩٦٧ - ؟)

٩ - الإمام عمر بن قاسم الفضيلى (؟ - ؟)

١٠ - الإمام عامر بن راشد بن محمد بن سعيد (١٥٦٨/٩٧٦ - ؟)

١١ - الإمام ناصر بن مرشد بن مالك اليعربى (١٦٢٤/١٠٣٤ - ١٦٤٩/١٠٥٩)

١٢ - الإمام سلطان بن سيف بن مالك اليعربى (١٦٤٩/١٠٥٩ - ١٦٨٠/١٠٩١)

١٣ - الإمام بلعرب بن سلطان بن يوسف اليعربى (١٦٨٠/١٠٩١ - ١٦٩٢/١١٠٤)

١٤ - الإمام سيف بن سلطان بن سيف اليعربى (١٦٩٢/١١٠٤ - ١٧١١/١١٢٣)

١٥ - الإمام سلطان بن سيف بن سلطان اليعربى (١٧١١/١١٢٣ - ١٧١٨/١١٣١)

١٦ - الإمام سيف بن سلطان بن سيف اليعربى (١٧١٨/١١٣١ - أكثر من مرة)

١٧ - الإمام مهنا بن سلطان بن ماجد اليعربى (١٧١٨/١١٣١ - ١٧٢١/١١٣٤)

١٨ - الإمام يعرب بن بلعرب بن سلطان بن سيف (١٧٢١/١١٣٤ - سنة واحدة)

١٩ - الإمام محمد بن ناصر بن عامر الغافرى (١٧٢٤/١١٣٧ - ١٧٢٨/١١٤٠)

٢٠ - الإمام سلطان بن مرشد بن عدى اليعربى (١٧٤١/١١٥٤ - ١٧٤٤/١١٥٦)

٢١ - الإمام بلعرب بن حمير بن سلطان اليعربى (١٧٤٥/١١٥٨ - ١٧٤٩/١١٦٢)

٢٢ - الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد البوسعيدى (١١٢٣/١٧٤٩ - ١١٩٨/١٧٨٢)

٢٣ - الإمام سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى (١١٩٨/١٧٨٢ - ١٢٢٥/١٨١٠)

٢٤ - الإمام عزان بن قيس بن عزان بن قيس (١٢٨٥/١٨٦٨ - ١٢٨٧/١٨٧١)

٢٥ - الإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصى (١٣٣١/١٩١٣ - ١٣٣٨/١٩٢٠)

٢٦ - الإمام محمد عبد الله بن سعيد الخليلى (١٣٣٨/١٩٢٠ - ١٣٧٣/١٩٥١)

٢٧ - الإمام غالب بن على بن هلال الهنائى (١٣٧٣/١٩٥٣ - ١٣٧٥/١٩٥٥)

نقشان كتابيان يؤرخان لعمارة
دار الحميدية بمكة المكرمة

د. عادل بن محمد نور غباشي(*)

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة نقشين كتابيين يؤرخان لعمارة دار « الحميديـة » التي اتخذها الوالي العثماني مقرا للولاية في البلد الحرام منذ عام ١٣٠٢ هـ ، وتدور هذه الدراسة حول ثلاثة محاور ، اختص الأول منها ببيان تاريخ بناء الدار وسبب تسميتها بالحميدة وصفة بنائها وأهمية موقعها بين أحياء البلد الحرام . وتناول المحور الثاني النقشين الكتابيين موضوع الدراسة من حيث التعريف بهما وقراءتهما، وبيان صيغة كل منهما والملحوظات الفنية . أما المحور الثالث فعالج التعريف بالأسماء والألقاب الواردة في النقشين ، وخلصت الدراسة إلى عد هذه الدار أحد الدور المهمة في البلد الحرام باعتبارها مقرا للولاية حيث لم تبن دار للولاية بمكة قبلها ، مما يكشف عن عناية العثمانيين بتطوير مركز الوالي في الحجاز .

أولا : تاريخ البناء وأهمية الموقع :

بناء على مقررات مؤتمر لندن في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م . أرغم محمد علي باشا على الخروج من الجزيرة العربية والشام والاكتفاء بحكم مصر ، فاستعاد العثمانيون قوتهم في الحجاز[١] ، وأخذوا في تثبيت دعائم حكمهم بنقل مقر حكم والي الحجاز إلى مكة المكرمة[٢] ، وقاموا باستئجار مبنى لهم فيها ليكون مقرا للحكم[٣] ، مما يظهر أهمية بناء دار لهذه الوظيفة تكون بديلا عن استئجار أخرى ، ربما كانت غير ملائمة لتحقيق وظيفتها .

(*) أستاذ مشارك بقسم الحضارة والنظم الإسلامية – جامعة أم القرى .

وتعددت الروايات فى تاريخ بناء دار الحكم (الحميدية) ، حيث تذكر إحداهـا أنها من بناء والى الحجاز عثمان نورى باشا دون تحديد سنة لذلـك[٤] ، وورد فـى أخرى أنها « أنشئت فى أول عـهد السلطان عبد الحميد الثـانى[٥] »، سـنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م[٦] ، وكذا فى مطلع القرن الرابع عشر للهجرة[٧] ، وفـى سـنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م[٨] ، ونظراً لورود هذا التاريخ فى النقشين موضـوع الدراسـة (اللوحتان رقما ١ ، ٢) أرقاماً (١٣٠٢هـ) وتاريخاً بحساب الجمل ، نرجـح أن يكون ذلك التاريخ هو تاريخ إتمام البناء . وقد جاء التاريخ بحساب الجمل كما يلى:

النقش الأول الشطر الثانى من السطر الثالث :

٣٤٠ ٩٠ ٦٦ ٤٩٤ ٣١٢ = ١٣٠٢

نصر من الله وفتح قريب

النقش الثانى بعد السطر الثالث بعد كلمة أرخ :

٧٨ ٧١ ٩٠ ١٣٢ ٦٤٧ ١٣٣ ١٥١ = ١٣٠٢

أرخ المجد ونادى فى العلا أدخلوها بسلام آمنين

أما عن تاريخ بدء أعمال البناء فيرجح أنها بدأت بعد تعيين نورى باشا والياً على الحجاز فى شهر جمادى الآخرة أو رجب أو شعبان عام ١٢٩٩هـ/ ٩ إبريـل أو مايو أو يونيو ١٨٨٢م ؛ لتعدد روايات المؤرخين فـى الإشـادة بجـهوده فـى بنائها[١٠] ، وورود اسمه فى النقشين ، منشـئاً ومشـيداً لـهذه الـدار (اللوحتـان رقما ١،٢)، وبعد بنائها استخدمت مقراً للوالى وأقسـام الدوائـر الحكوميـة وإدارة التحريرات وإدارة الحرم الشريف ، علاوة على اسـتخدامها مقـراً لإقامـة فرقـة العساكر النظامية[١١] ، وأطلق عليها اسم (دار الحميدية) نسبة للسلطان عبد الحميد الثانى[١٢] (١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ/١٨٧٦ - ١٩٠٩م) .

وبعد أن يسر الله للملك عبد العزيز ضم مكة إلى حكمه عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م اجتمع في بهو هذه الدار بعلماء البلد الحرام والمجاورين ، وألقى فيهم خطاباً بين فيه عظمة دين الإسلام وواقع حال أهله[١٣] ، ثم استخدمت مجمعاً للدوائر الحكومية فكان منها الشرطة ، المحكمة المستعجلة ، كاتب عدل ، مجلس الشورى ، الأحوال المدنية ، مديرية المعارف ، مديرية الأوقاف ، مكتبة وزارة الخارجية[١٤] ، واستمرت في أداء وظيفتها إلى أن تم إزالة بنائها ؛ للإفادة من أرضها في توسعة المسجد الحرام عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م[١٥] .

وفيما يخص صفة بنائها فلم نعثر – حتى الآن ١٤١٩هـ/١٩٩٩م على حد علمنا – على مخطط للمسقط الأفقي لهذه الدار . وبناءً على تحديد أبعاد محيطها الخارجي في خارطة مصلحة المساحة المصرية التي أعدت عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م ، يمكن القول بأن دار الحميدية أخذت شكلاً مستطيلاً طوله ٥٧م وعرضه ٢١م (شكل رقم ٢) ، ووصفها بعض المؤرخين بأنها مكونة من طابقين[١٦] ، متسمة بضخامة بنائها[١٧] .

ومن خلال صفة أبعاد محيطها كما سبق بيانه (شكل رقم ٢) وصورها الفوتوغرافية ، اللوحات ٣ ، ٤ ، ٥) يمكن التعرف على بعض ملامح بنائها كما يلي :

١ – تتكون الدار من طابقين كما سبق بيان ذلك في رواية تاريخية .

٢ – لما كانت الأبعاد الخارجية للمبنى على شكل مستطيل وكان ارتفاعه طابقين ، فقد أثر ذلك على تصميم الواجهات ، فأخذ كل منها شكلاً مستطيلاً ، حددت ملامحه بأفاريز رأسية وأفقية نتج عنها تحديد مواقع النوافذ والأبواب ، فكان ذلك من أهم الأساليب في كسر ملل الإحساس بالأفقية .

٣ – استخدم الخشب في عمل النوافذ ذات القلاب ، لدخول الضوء والهواء عند الحاجة .

٤ – استخدم العقد المدبب لتحلية مدخل الدار ، وكرر ذلك فى نافذة كبيرة فى الـدور العلوى تقع فوق المدخل مباشرة ، مما جعل العناصر المعمارية وحدة تزيد مـن تناسق وانسجام الواجهات .

٥ – أفاد المعمار من الفراغات المحيطة بموقع الدار : فعمد إلى فتح النوافــذ فــى الواجهات الأربع ، مما أضفى على المبنى جمالاً ، وسهل حركة مرور الــهواء من الجهات الأربع لتبريد المبنى وتكييفه بما يتفق مــع منــاخ مكــة المتســم بالحرارة فى معظم فصول السنة .

٦ – تم تجصيص المبنى خارجياً مما يجعلنا نرجح تنفيذ ذلك داخلياً .

٧ – استخدمت الزخارف المجسمة على شكل عنصــر كأســى فــوق الأركــان ، وأنصاف أعمدة وتيجان تحف بالنوافذ ، وجامة تتفرع منها فروع نباتية فــوق النوافذ ، وأفاريز أفقية متدرجة تفصل بين الطابق الأرضى والعلــوى وكذلــك بين دروة السطح والطابق العلوى ، ولا يظهر من اللوحات مادة الزخرفـة ، إلا أننا نرجح أن تكون من الجص .

أما عن أهمية موقع الدار ، فيظهر من وقوعها فى أجيــاد بمقــابل الضلــع الجنوبى للمسجد الحرام ، وبالتحديد أمام باب هانئ (شكل رقم ٢) ، حيث كان يقع أمام هذة الدار من جهة المسجد الحرام دار فخمة تحول بين دار الحكومة (الحميدية) والمسجد الحرام ، وتمنع موظفى الولاية من رؤية الكعبة المشرفة ، وبالبحث عنــها وجد أنها بنيت بغير حق فى موضع كان يشغله مسجد صغير ، فأرضى الوالى أهـل الدار وأمر بهدمها[١٨] . وفيما يلى استعرض لبيان مميزات موقع دار الحميدية فــى أجياد :

١ – يعد حى (أجياد) من أجمل أحياء مكة المكرمة : لاشتماله على تلال جبليــة مشرفة على المسجد الحرام ، وتميزه بسعة طرقه وكثرة بيوتــه المتطــورة ،

التى كان يسكنها – غالبا – موظفو الولايـــة مـــن الأتـــراك وفـــى مقدمتـــهم الوالى[١٩]، مما ترتب عليه سهولة انتقال الموظفين من بيوتهم إلى مقر عملـــهم فى دار الحكومة (الحميدية) .

٢ – تميز موقع دار (الحميدية) فى (أجياد) بقربه من مواقع الثكنات العسـكرية ، وقلعة أجياد ، ومخيمات العساكر ، وميدان الاستعراض العسكرى ، وعدد مـــن المصالح الحكومية[٢٠] ، ومقر إقامة الشريف أمير مكة فى (الغزة)[٢١] ، ممـــا سهل عملية الإشراف عى العساكر والاتصال بأمير مكة فى وقت قصير .

٣ – جاء موقع الدار على أهم شوارع مكة فى ذلك العصر ، حيث كان يبـــدأ مـــن منطقة الشيخ محمود وحارة الباب مارا بباب العمرة والتكية المصرية وشـــارع المسعى والقشاشية وسوق الليل إلى ناحية مكة من جهة المعلاه[٢٢] ، (شـــكل رقم ١) ، وهذا يعنى سهولة الوصول إلى (الحميدية) من معظم أحياء مكـــة المكرمة ، علاوة على أن ذلك ربما لفت قاصدى بيت الله الحرام إلى رؤيتـــها ، فأعطى الحكومة واجهة إعلامية فى ذلك العصر .

٤ – كانت أرض الدار فضاء ملك الدولة[٢٣] ، مما وفر ثمنها ، وجـــاء متفقـــا مـــع ضعف الموارد المالية التى كانت تعانى منها الدولة فى ذلك الوقت[٢٤] .

ثانيا : التعريف بالنقشين وقراءتهما[٢٥] :

النقش الأول :

الموقـــع : كان النقش مثبتا فوق الباب الشرقى لدار (الحميدية)[٢٦] ، وهو محفـوظ حاليا بمتحف آثار الحرم المكى الشريف .

مادتـــــه : رخام .

أبعـــــاده: ٤١,٥سم × ٤١,٥ سم

عدد أسطره: ثلاثة أسطر انقسم كل منها إلى خرطوشين مستطيلين حليت أركانـــــها بأشكال ربع دائرية .

خطـــــه : ثلث نفذ بطريقة الحفر البارز .

مضمونه : تأسيسى .

تاريخـــه : ١٣٠٢هـــ .

لوحــــــة : ١

نصـــــــه :

١ – دار حوت بسعد[٢٧] سلطاننا	عبد الحميد كل حسن وطيب
٢ – أشادها بحــــى أم القـــرى	عثمان وإلينا بشكل عجيب
٣ – بشرى لنا قد جاء تاريخهـــا	نصر من الله وفتح قريب
	١٣٠٢[٢٨] ف

النقش الثانى :

الموقــــــع : كان النقش مثبتاً فوق الباب الغربى لـــدار (الحميديـــــة)[٢٩] ، وهـــو محفوظ حالياً بمتحف آثار الحرم المكى الشريف .

مادتـــــــه : رخام .

أبعـــــــاده : ٤١,٥سم × ٤١,٥ سم .

عدد أسطره : ثلاثة أسطر انقسم كل منها إلى خرطوشين مستطيلين حليت أركانـــها بأشكال ربع دائرية .

خطـــــه : ثلث نفذ بطريقة الحفر البارز .

مضمونه : تأسيسى .

تاريخـــه : ١٣٠٢هـ .

لوحـــة : ٢

نصـــه :

١ - دار سلطان الورى عبد الحميد بدت[٣٠] كالبدر فى البيت الأمين

٢ - شادهـا عثمـان والينـا الذى توج الأحكام بالعدل المبين

٣ - أرخ المجد ونادى فى العـلا ادخلوها بسلام آمنين

١٣٠٢ حرره فخرى[٣١]

وبناءا على ما سبق جاء تاريخ بناء الدار فى صورة أبيات شعرية حوت مـدح المنشئ والمنشأة ويظهر من أبيات النقش الأول أنها بلغت مبلغا عاليا مـن الحسـن والجمال ، فالشاعر لم يكتف بوصف الدار بالحسن بل جعلها تحويه كله . وفى لفـظ الاحتواء ما يوحى بأن الجمال صفة متمكنة منها ، ويتأيد هذا بجعلها تحتوى « كـل » حسن وطيب ، ولفظ « كل » من ألفاظ العموم والشمول فالدار بما احتـوت مـن مظاهر الجمال بدت وكأنها استأثرت بكل شكل من أشكال الحسن والطيب .

وفى وصف بنائها بأنه عجيب ، ما ينبئ عن تفردها فى الحسن والجمال بيـن مثيلاتها من الدور . وقد رأى فى هذا البناء رمزا للبشرى بالخير والنصر وهو مـا عبر عنه فى البيت الأخير بالاقتباس القرآنى ﴿ نصر من الله وفتح قريـب ﴾[٣٢] ، وهو ما يسمى بالاقتباس فى علم البديع ، وقد وفق الشاعر توفيقا عظيما فـى هـذا الاقتباس ؛ لاتفاق مضمونه مع حساب الجمل الذى ورد فيه تاريخ البناء كمـا بينـا ذلك سابقا .

أما النقش الثانى فيبدو أكثر إتقانا فى الصنعة من الأول ، والشاعر لم يكتـف فى أبياته بذكر الحسن والجمال وإنما شبهها بالبدر . وهو رمز الوضـاءة والرفعـة

والشهرة ، ثم أثنى على بانيها بعدله الذى شبهه بالتاج فوق هامة الأحكام (توج الأحكام بالعدل المبين) والتاج أيضا رمز الجمال والرفعة . ونرى فى وصف هذا السلطان بأنه يؤرخ المجد أى يبدأ المجد بحكمه ، وينادى فى العلا وهى ما علا وسما من مآثر وأمجاد ، ما يبين أنه سلطان رفيع المنزلة عالى الشرف فى رأى كاتب الأبيات وتضمن الشطر الأخير من البيت الثالث اقتباسا قرآنيا ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾[٣٣] ، وقد وفق الشاعر فى ذلك لاستكمال تاريخ حساب الجمل كما سبق بيانه ، ودلالتها التى تنبئ عن رضا الشاعر بعهد السلطان لما رآه من مظاهر خير وأمان .

وتأتى الصيغة الشعرية فى هذين النقشين التأسيسيين امتدادا لأعمال سابقة ولاحقة فى البلد الحرام[٣٤] .

أما الملحوظات الفنية فنتتبعها كما يلى :

يظهر أن الذى خط النقشين شخص واحد جاء توقيعه على النقش الأول فى السطر الثالث مجاورا للتاريخ بحرف « ف » ، وفى النقش الثانى فى السطر الثالث مجاورا للتاريخ باسم « فخرى » ، ويزكى ذلك وقوع النقشين على مبنى واحد ، جاء النقش الأول فوق الباب الشرقى للدار والآخر فوق الباب الغربى للدار ، وتأريخ النقشين بزمن واحد وهو عام (١٣٠٢ هـ) ، علاوة على اتفاقهما من حيث الإخراج الفنى بما يلى :

١ - استخدم الخط الثلث[٣٥] فى كتابه النقشين بأسلوب واحد .

٢ - إحاطة كل من النقشين بإطار مستطيل ، لم تظهر أطرافه كاملة لتغطيتها بإطار جصى عمل حديثا ، لتثبيت النقش على جدار متحف آثار الحرم المكى الشريف، وتم تقسيم كل من النقشين إلى خراطيش بكل منها شطر من بيت شعرى ، وقد فصل بينها بخطوط مستقيمة تتقابل فى منطقة زخرفية هندسية

منتهية بأشكال أرباع دوائر يتوسطها وردة ثمانيـــة البتــلات وفــى الجوانــب والأركان أنصاف الشكل الهندسى والوردات .

٣ – اتفق النقشان من حيث استخدام الألوان ، فجاءت الكتابة باللون الأبيض علـــى أرضية خضراء فاتحة اللون ، أما إطارات الأسطر وزخرفتها فجاءت بيضاء.

٤ – لم ترد الهمزات فوق أحرف كلمات النقشين ، ويظهر ذلك فى النقش الأول فـى كلمتى « اشادها » و « أم » فى السطر الثانى ، وفى النقش الثانى فى كلمـــة « الأمين » فى السطر الأول ، وكلمة « الأحكام » فى السطر الثانى ، وكلمـــة « أرخ » فى السطر الثالث .

٥ – لم ترد نقطتا حرف الياء المنتهية فى كلمات النقشين . ويظهر ذلك فى النقـــش الأول فى كلمة « بحى » فى السطر الثانى ، وفى النقش الثانى فى كلمة «فــى» فى السطر الأول ، وكلمة « الذى » فى السطر الثانى ، وكلمة « فـــى » فـــى السطر الثالث .

٦ – وردت حركات الإعراب على النقشين ، مما يسهل قراءة كل منـــهما لمـــن لا يتقن العربية ، خاصة وأن موضع النقشين كـــان علـــى مبنـــى (الحميديـــة) المجاور للمسجد الحرام والذى يســـتقبل المســلمين علـــى اختــلاف لغاتـــهم وأجناسهم.

٧ – اتفق النقشان من حيث جودة وإتقان الخط الذى جاء بدرجة واضحـــة دقيقـــة ، خاصة من حيث النسب الجمالية للحروف وتناسق أحجام الكلمات ، كما يظـــهر أن الخطاط باستخدامه الخط الثلث فى كتابة النقشين لم يخرج عن المألوف فـــى مكة المكرمة ، التى شاع فيها هذا النوع من الخطوط فى العصـــر العثمـــانى ، سواء فى كتابة اللوحات التأسيســـية[٣٦] أم فـــــى نسيـــج كســـوة الكعبـــة المشرفة[٣٧] .

ثالثا : الأسماء والألقاب الواردة فى النقشين :

- عبد الحميد :

هو السلطان عبد الحميد الثانى بن عبد المجيد الأول بن محمود الثانى ينتهى نسبه إلى أرطغرل بن سليمان شاه جد سلاطين آل عثمان[٣٨] ، وقد ولد السلطان عبد الحميد الثانى فى عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م[٣٩] ، وتولى الخلافة فى ١١ - ٨ - ١٢٩٣هـ/٣١ - ٨ - ١٨٧٦م ، واستمر بها إلى أن تم خلعه فى ٧-٤-١٣٢٧هـ/٢٧ - ٤ - ١٩٠٩م[٤٠] ، وتوفى عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م[٤١] . وكان عمره عند تسلمه السلطة٣٤ عاما ، والدولة العثمانية محفوفة بالمخاطر الجسام والثورات مشتعلة فى بلاد الروم ، ولقد جابه السلطان عبد الحميد مصاعب كثيرة فى دولته الكبيرة حيث بلغت ديونها أكثر من ٢٥٢ مليون ليرة عثمانية . وفى عهده وقعت الحرب مع روسيا عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م رغم بذله جهودا كبيرة بغية تفاديها ، إلا أنها أسفرت عن خسائر فادحة للدولة والأمة ، فأوشك الروس على احتلال استانبول، وراح ضحية ذلك خلق كثير ، وفقدت الدولة مساحات كبيرة من الأراضى[٤٢] .

واشتهر عن هذا السلطان موقفه الإسلامى العظيم برفض إعطاء فلسطين لليهود لتأسيس وطن قومى ، رغم الإغراءات المالية التى قدمت له . ومن العبارات المنسوبة إليه فى هذا الشأن قوله : « انصحوا هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية فى هذا الموضوع ، إنى لا أستطيع أن اتخلى عن شبر واحد من الأرض ، فهى ليست ملك يمينى ، بل ملك شعبى لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، وإذا مزقت إمبراطوريتى يوما فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، أما وأنا حى فإن عمل المبضع فى بدنى لأهون على من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتى . وهذا أمر لا يكون ، أنى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة[٤٣] » . كما ينسب لهذا السلطان

العديد من المشروعات الحضارية ، منها إنشاء المدارس فى كثير من الولايات ، وعمل خطوط السكك الحديدية من دمشق إلى المدينة المنورة[٤٤] ، وتمت فى عهده العديد من الأعمال المعمارية فى الحجاز ، منها أعمال تجديد معمارية فى المسجد الحرام[٤٥] ، والمسجد النبوى الشريف[٤٦] ، وبناء دار الضيافة عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م لاستقبال فقراء الزوار فى البلد الحرام[٤٧] ، علاوة على الأعمال التى قام بها والى الحجاز عثمان نورى باشا . كما سنتحدث عنها لاحقا .

- عثمان :

هو عثمان نورى باشا عين واليا على الحجاز من قبل الدولة العثمانية فى شهر جمادى الآخرة أو رجب أو شعبان عام ١٢٩٩هـ[٤٨] / إبريل أو مايو أو يونيه ١٨٨٢م ، وكان قبل ولايته قومندان[٤٩] ، العساكر العثمانية فى الطائف[٥٠] ، ثم رقى إلى رتبة وزير عام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م[٥١] .

وقد اتصف بالذكاء والحكمة والشهامة[٥٢] ، والفضل والإقدام وفعل الخير فى كل ما ينفع البلاد والعباد[٥٣] ، ومما جاء عنه أنه « أنبل الولاة الذين عرفتهم مكة وأحزمهم ، ومن محبى الإصلاح[٥٤] » وأورد محمد على مغربى صفة عدل هذا الوالى شعرا بما يلى[٥٥] :

أجرى الحكومة فى وادى الحجاز بما قدما تحلى به الفاروق واتشحا

وقام بالقسط بين القوم مجتهدا وعن طريق الهدى والحق ما جنحا

فأصبح العدل منشورا بهمته وأصبح الظلم مخذولا مطرحا

وهذه الصفات النبيلة جعلته يقف لأمير مكة الشريف عون الرفيق باشا[٥٦] ، من أخذ أموال فرضها باسم « المكوس » على الأعراب والحجاج ، ورفض تدخل الأمير فى الإشراف على أعمال لجنة عين زبيدة لجمع التبرعات والصرف منها على إصلاح مرافق المياه فى البلد الحرام ، فاحتد الصراع بينهما ، فاستمال الأمير

جماعة من أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ورفعوا شكوى كيدية إلى السلطان عبد الحميد الثانى فصدر أمره عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧ بنقل الوالى إلى اليمن(٥٧) ، وفيها واجه الكثير من أهل الخير والشر ، وأخلص فى عمله فوصف بالعدل والإصلاح والتواضع والزهد وحب الخير فلقبوه « بالفقيه » ؛ ونظرا لمحاربته للرشوة والظلم ، قدمت فيه شكاوى كيدية أدت إلى صدور أمر السلطان عبد الحميد الثانى بنقله إلى مكة المكرمة للمرة الثانية عام ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م ثم عاد إلى اليمن(٥٨) بناء على شكاوى كيدية أيضا ، فعلق إبراهيم رفعت على ذلك بقوله : «كان خليقا بأمير المؤمنين أن يتبين فى قول الشريف كما أمر الله إليه فى كتابه وأن لا يحكم على متهم إلا بعد استجوابه واستماع قوله(٥٩) » .

ومما يظهر اهتمام الوالى بالحجاز وتقديمه كل ما ينفع البلد الحرام تتبع أعماله فى إصلاح المرافق وبناء المنشآت التى يعود نفعها على المسلمين فى البلد الحرام ، فشملت أعمال الترميم والإصلاح ، ترميم القنوات لإيصال مياه العيون إلى مكة المكرمة ، وترميم موارد المياه داخل البلد الحرام وخارجه(٦٠) ، وفى المسجد الحرام عمل على إزالة بناء قبة السقاية وقبة الفراشين ليسهل على المسلمين رؤية الكعبة المشرفة من جهة الرواق الشرقى ، والإفادة من موضعها فى تهيئة المكان للمصلين والطائفين(٦١) ، كما قام ببناء مدرسة صغيرة مجاورة للمنارة الواقعة عند باب علي عرفت باسم « موقت خانة » ووضعت فيها الساعات الموقوفة لمواقيت المسجد الحرام ، وأعاد بناء مقام الحنبلى ، وأصلح محراب مقام الحنفى(٦٢) ، وأعاد بناء قلعة هندى(٦٣) ، وعمر قلعة أجياد(٦٤) ، ، وأصلح طريق الصعود إلى غار جبل ثور بمكة(٦٥) . أما أعمال البناء فشملت إنشاء دار المطبعة بمكة المشرفة ، وقد جهزها بالآلات اللازمة ، فاستخدمت للطبع باللغتين العربية والتركية ، وبناء دار (الحميدية) موضوع هذا البحث ، وثكنة عسكرية لتكون مقرا للجنود ، ودارا للبريد والتلغراف(٦٦) ، ومركز شرطة فى الصفا عرف باسم « كركول الصفا » و«كركون الصفا» و « قراغول الصفا » ، ومستشفى وبازان (صهريج ماء)

الخيف بمنى[٦٧] ، وحديقة بجرول لتكون منتزها لأهل مكة وعامة المسلمين[٦٨] ، وعمل على إيصال مياه عين الوزيرية إلى جدة[٦٩] ، وبنى سور ينبع[٧٠] .

- فخرى :

ود توقيع اسمه صريحا على النقش رقم (٢) ورمز له بحرف (ف) على النقش رقم (١) ، ولم ترد ترجمته ضمن قائمة أسماء الخطاطين التى أوردها الكردى[٧١] ، وبذا فإن النقشين أضافا توقيع خطاط عمل فى البلد الحرام فى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة ؛ مما يعنى إضافة اسمه إلى القائمة المشار إليها .

ويظهر من تاريخ النقشين فى عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م ، أن هذا الخطاط كان معاصرا لكبار الخطاطين فى الحجاز ومنهم[٧٢] .

١ - الشيخ فرج بن سليمان بن على غزاوى المتوفى سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م تقريبا.

٢ - الشيخ سلميان بن فرج غزاوى من مواليد سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م تقريبا ، والمدرس للخط بمدرسة الفلاح منذ عام ١٣٣٠هـ/١٩١١م .

٣ - محمد أفضل هروى الذى كتب البسملة وأسماء الخلفاء الأربعة على باب على بالمسجد الحرام سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨١م ، وله وكتابات على مسجد الشيخ رحمت الله الملاصق للمدرسة الصولتية بمكة المكرمة عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م وكذلك أعمال فنية أخرى فى عام ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م[٧٣] .

وحيث إن دار (الحميدية) احتلت مكانة مهمة لمجاورتها للمسجد الحرام ووظيفتها وأعطى للخطاط فخرى فرصة الكتابة عليها ؛ فمن المرجح أن ذلك يشير إلى مدى الأهمية الكبيرة التى احتلها هذا الخطاط بين أقرانه فى ذلك العصر ، علاوة على أن ورود الحرف الأول « ف » رمزا لاسمه فى النقش الأول ، ينم عن مدى ثقة الخطاط فى عمله وشهرته وذياع صيته بين الناس .

- أم القـــرى :

اسم من أسماء مكة ورد فى قوله تعالى : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾[٧٤]، وترجع هذه التسمية إلى أربعة أقوال[٧٥] :

أولا : أن الأرض دحيت من تحتها لأنها أقدم الأرض .

ثانيا : أنها قبلة يؤمها جميع الأمة .

ثالثا : أنها أعظم القرى شأنا .

رابعا : أن فيها بيت الله تعالى . ولما جرت العادة أن بلد الملك وبيته مقدمـــا علـــى جميع الأماكن ، سمى أما لأن الأم متقدمة .

البيت الأمين :

لم ترد هذه الصيغة ضمن أسماء مكة المكرمة ، ووردت باسم «البلد الأميـن» و« البيت العتيق »[٧٦] ، ويظهر من النص أن المقصود « بالبيت الأمين » مكة .

أما الألقاب الوادة فى النقشين فهى « سلطان[٧٧] » و « والى »[٧٨] ، وهمـــا من الألقاب المعروفة التى شاع استخدامها فى العصر العثمـــانى[٧٩] ، وورد لقـب مركب « سلطان الورى » ، ويظهر منه التعظيم للسلطان ، لأن الورى لها معـــان عديدة ، ومما يتفق منها مع سياق النقش ومدح السلطان أن الورى يعنـــى الخلـق ، فتقول العرب : ما أدرى أى الورى هو أى أى الخلق هو ، قال ذو الرمة :

وكائن ذعرنا من مهاة ورامح   بلاد الورى ليست له ببلاد[٨٠]

وقد سبق أن نعت السلطان عبد الحميد الأول « بسلطان البسيطة والـــورى » فى نقش كتابى لعمارة مبنى بئر زمزم بمكة المكرمة سنة ١٢٠١هـ/١٧٨٦م[٨١] .

الخاتمة

١ – اتضح من النقشين أن تاريخ بناء دار الحميدية يرجع إلى عام ١٣٠٢هـ ، مما رجح بعض الروايات التاريخية على البعض الآخر ، وعليه أمكن الترجيح بأن يكون ذلك تاريخ تمام البناء . أما تاريخ بدء العمل فرجحت الدراسة أن يكون بعد تعيين عثمان نورى باشا واليا على الحجاز فى شهر جمادى الآخرة أو رجب أو شعبان عام ١٢٩٩هـ/ إبريل أو مايو أو يونيه ١٨٨٢م .

٢ – تم تأكيد تاريخ البناء فى النقشين بذكره أرقاما (١٣٠٢هـ) وبحساب الجمل.

٣ – تعد دار الحميدية أول دار بنيت بمكة المكرمة لتكون مقرا لحكم والى الحجاز فى العصر العثمانى .

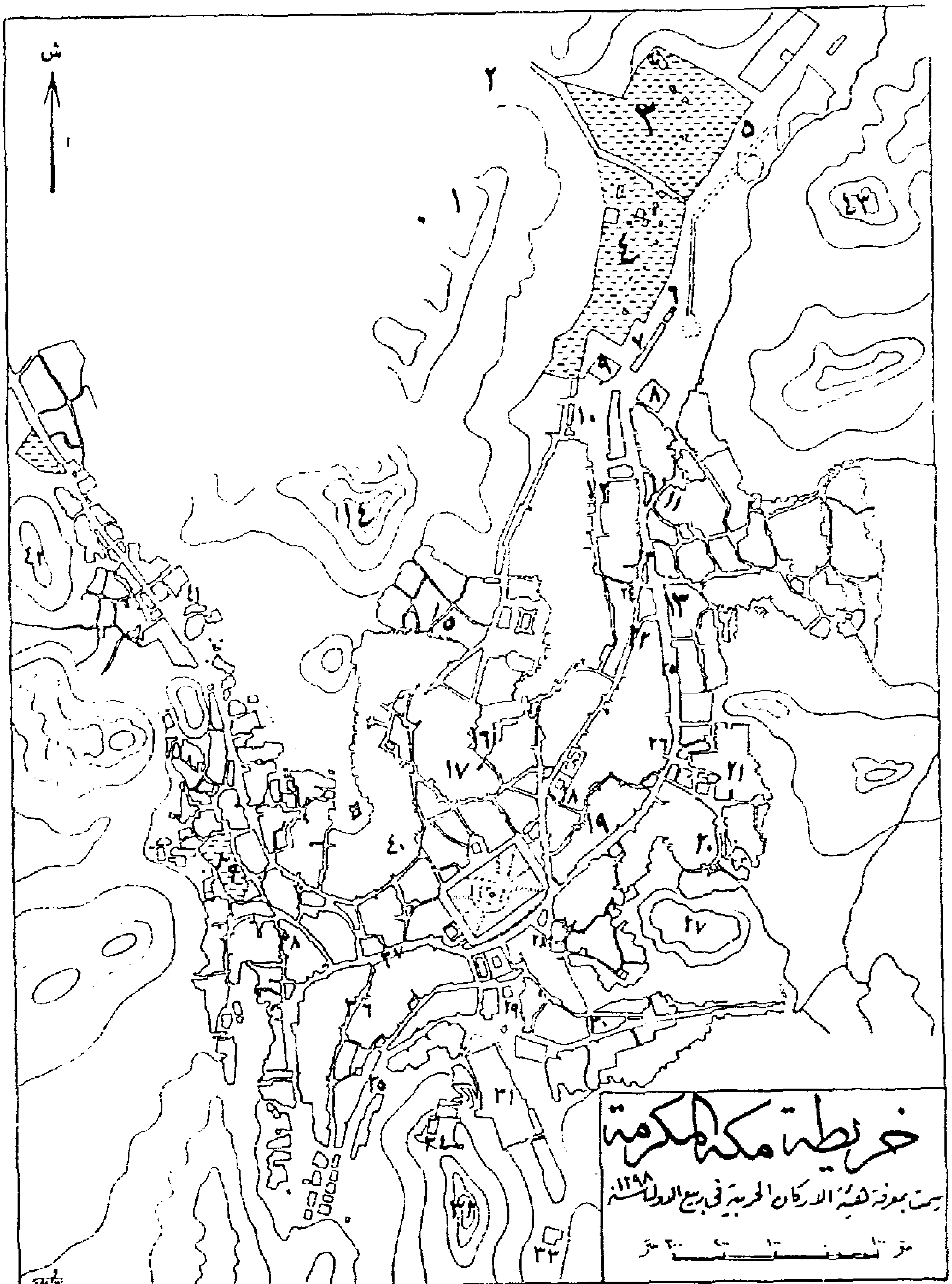
٤ – أكدت الدراسة على أداء الدار لوظيفتها بعد بنائها إلى أن تمت إزالتها للإفادة من أرضها فى توسعة المسجد الحرام عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م .

٥ – حوى النقشان وصفا بليغا لحسن جمال الدار، وظهر ذلك واضحا فى لوحاتها الفوتوغرافية ، التى كشفت عن عناية المعمار بإخراج الواجهات فى شكل لوحة زخرفية .

٦ – حالف التوفيق – بمشيئة الله – اختيار موقع الدار ، فجاءت مجاورة للمسجد الحرام ، فى أجمل أحياء مكة ، وعلى أهم شوارعها لارتباطه بسكن الموظفين وباقى أحياء البلد الحرام .

٧ – ظهر من قراءة النقشين وتتبع أسلوب الخط ، أنهما كتبا بخط الثلث بأسلوب رفيع المستوى وفق موازين الخط ، وورد توقيع الخطاط باسم « فخرى » فى النقش الثانى ورمز إلى اسمه بأول حرف من اسمه « ف » فى النقش الأول ، مما يشير إلى مدى ثقته فى عمله وشهرته بين الناس ، وحيث أننا لم نعثر على ترجمته فى قائمة أسماء الخطاطين فى الحجاز ، فإن النقشين أضافا اسما جديدا إلى القائمة .

٨ – جاء اهتمام والى الحجاز عثمان نورى باشا ببناء دار الحميدية ضمن سلسلة أعمال البناء والإصلاح التى قام بها فى البلد الحرام .

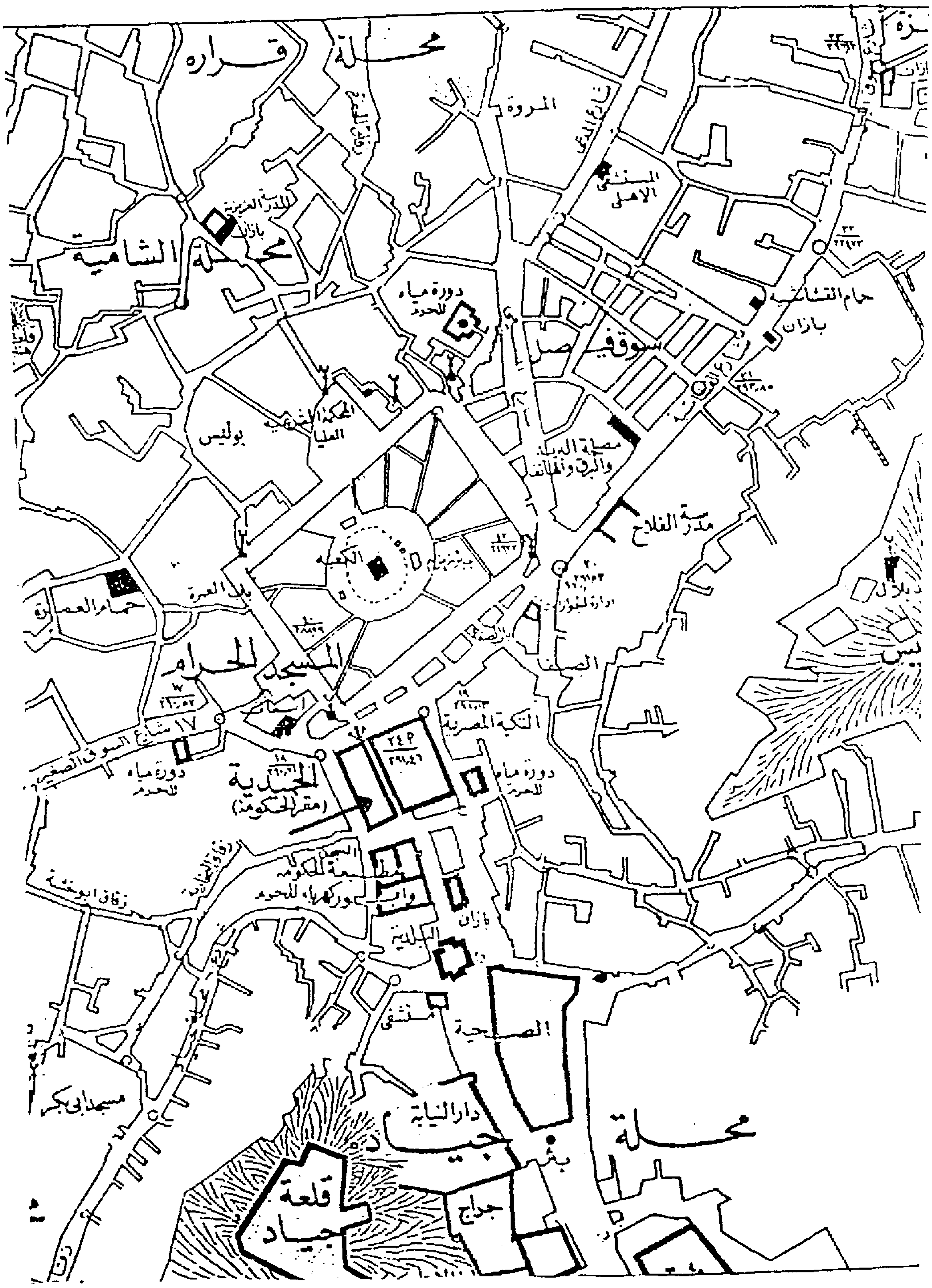


١ - جبل عباري .
٢ - جبل العتبة .
٣ - مقبرة المعلاة .
٤ - مقبرة المعلاة .
٥ - طريق عرفات .
٦ - مسجد الجن .
٧ - زقاق المعلاة .
٨ - بركة الشام .
٩ - بركة المصري .
١٠ - ميدان الحلقة .
١١ - شعب عامر .
١٢ - السليمانية .
١٣ - الغزة .
١٤ - جبل هندي .
١٥ - الفلق .
١٦ - ميدان القرارة .
١٧ - القرارة .
١٨ - عمارة فامهكى .
١٩ - القشاشية .
٢٠ - شعب علي .
٢١ - سوق الليل .
٢٢ - النقا .
٢٣ - زقاق شعب عامر .
٢٤ - زقاق الحجابة .
٢٥ - زقاق الغزة .
٢٦ - سوق الليل .
٢٧ - جبل قبيس .
٢٨ - الصفا .
٢٩ - ميدان اجياد .
٣٠ - اجياد .
٣١ - خرابة .
٣٢ - جبل اجياد .
٣٣ - تكية السنوسي .
٢٤ - قلعة اجياد .
٢٥ - زقاق بحرق بين اجياد .
٣٦ - المسفلة .
٣٧ - السوق الصغير .
٣٨ - الشبيكة .
٣٩ - مقبرة الشبيكة .
٤٠ - الشامية .
٤١ - جرول .
٤٢ - جبل الحفاير .
٤٣ - جبل السودان .

شكل رقم (١)

خارطة مكة المكرمة ويظهر بها الطريق الرئيسي من حارة الباب إلى المعلاة

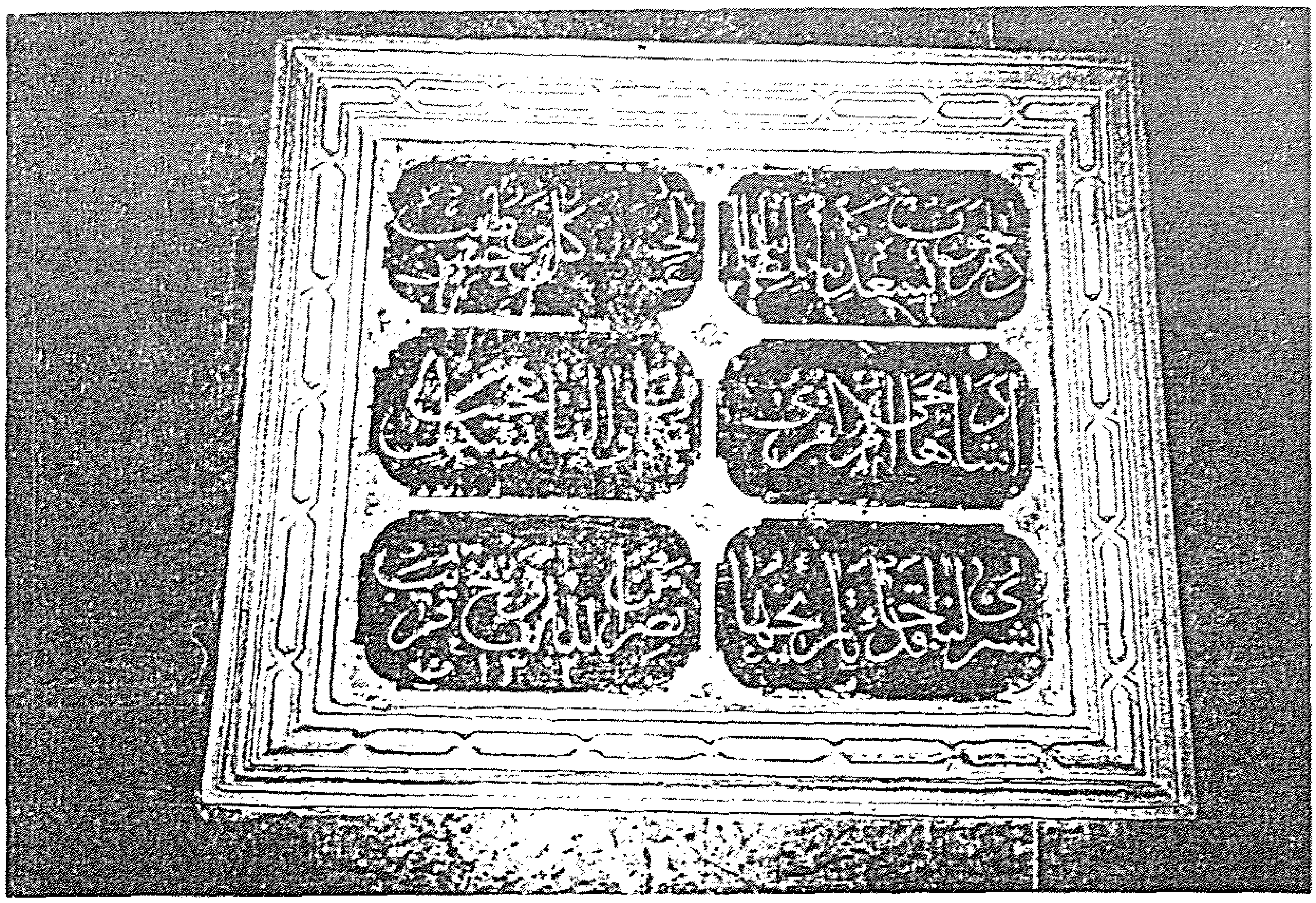
عن غباشي ، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة



شكل رقم (٢)

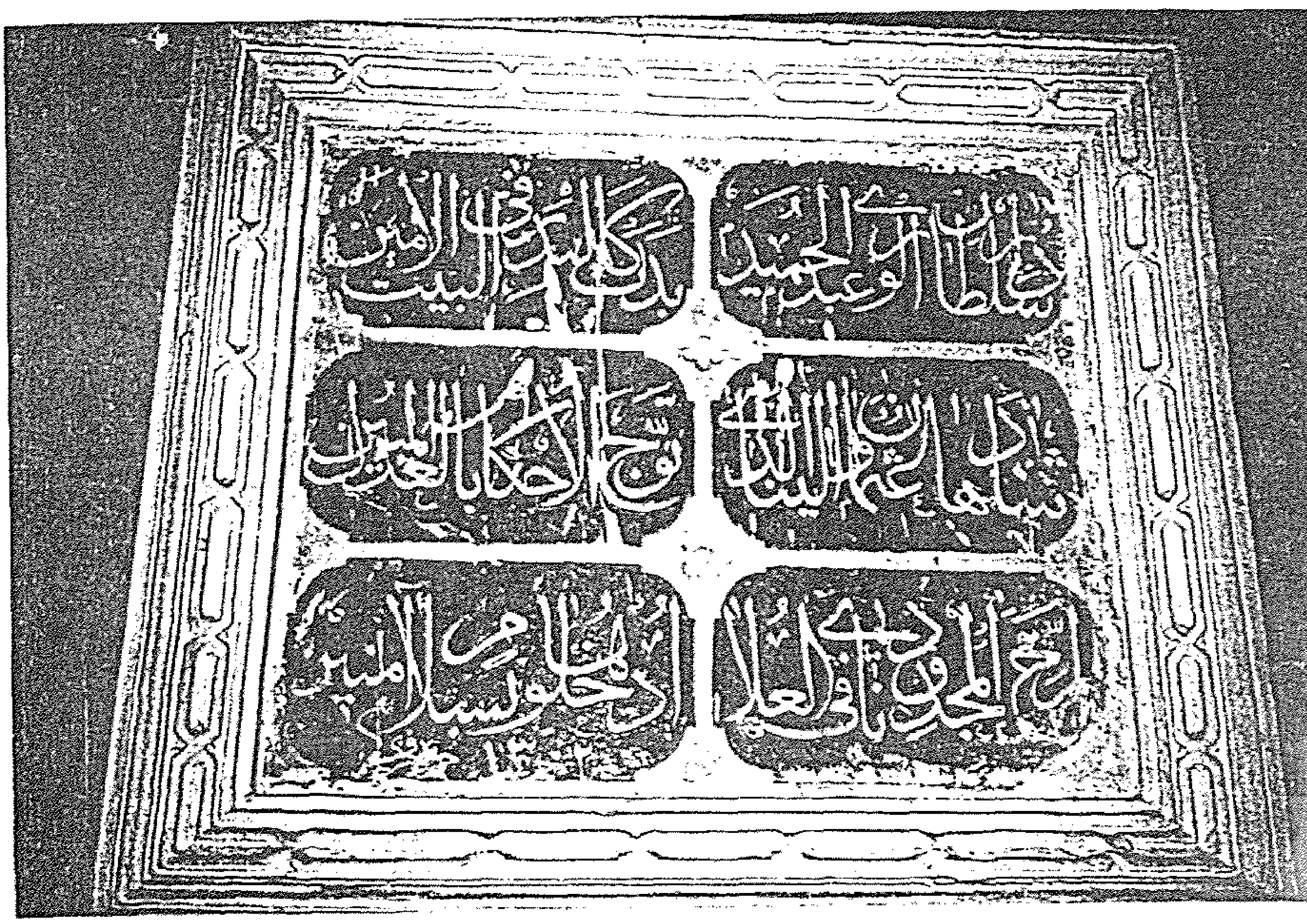
موقع دار الحميدية عن خارطة مصلحة المساحة المصرية

(١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) مقياس الرسم $\frac{1}{5000}$



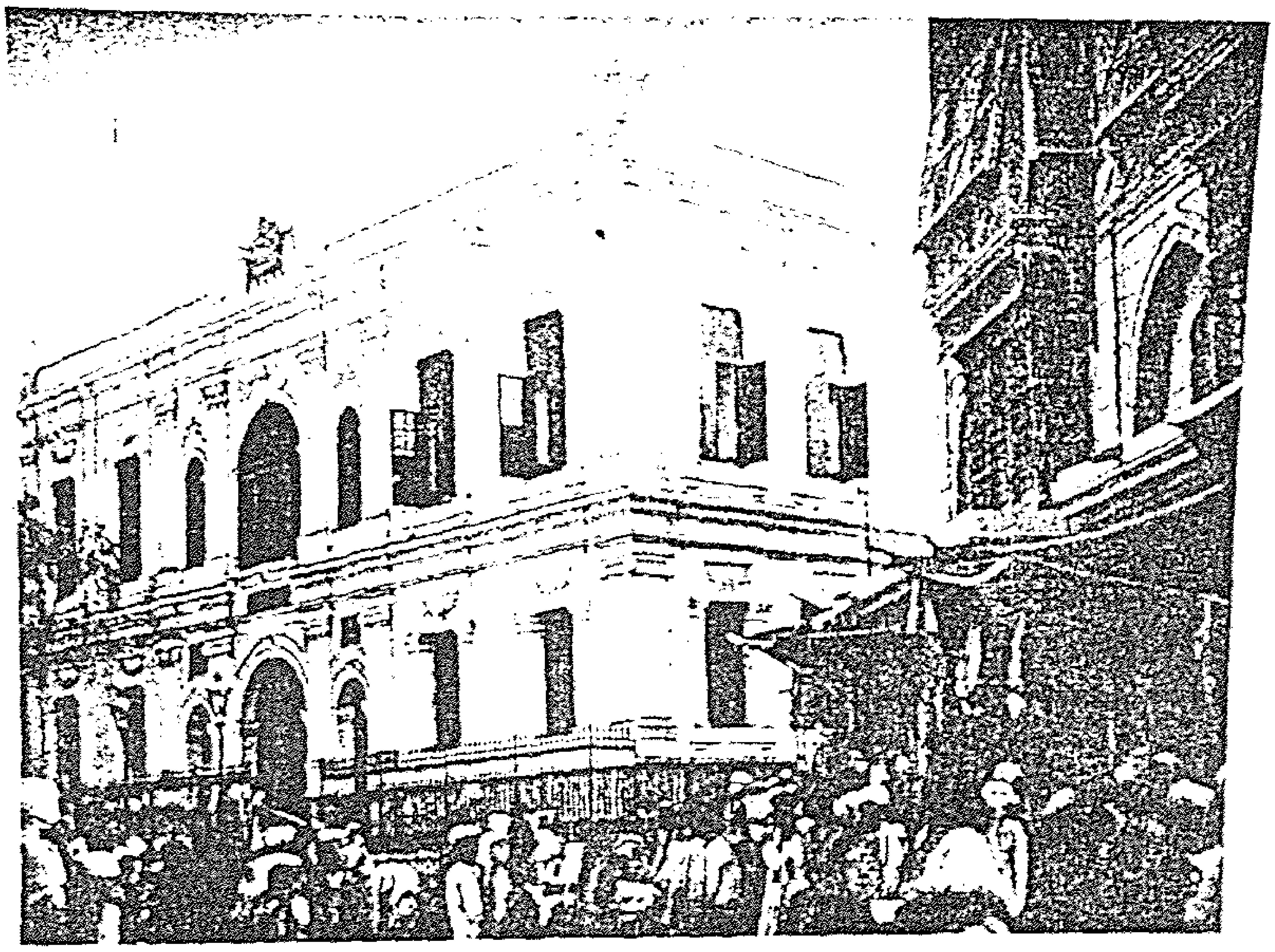
لوحة رقم (١)

نقش رقم (١) كان مثبتاً فوق الباب الشرقي لدار الحميدية وهو محفوظ حالياً بمتحف آثار الحرم المكي الشريف .



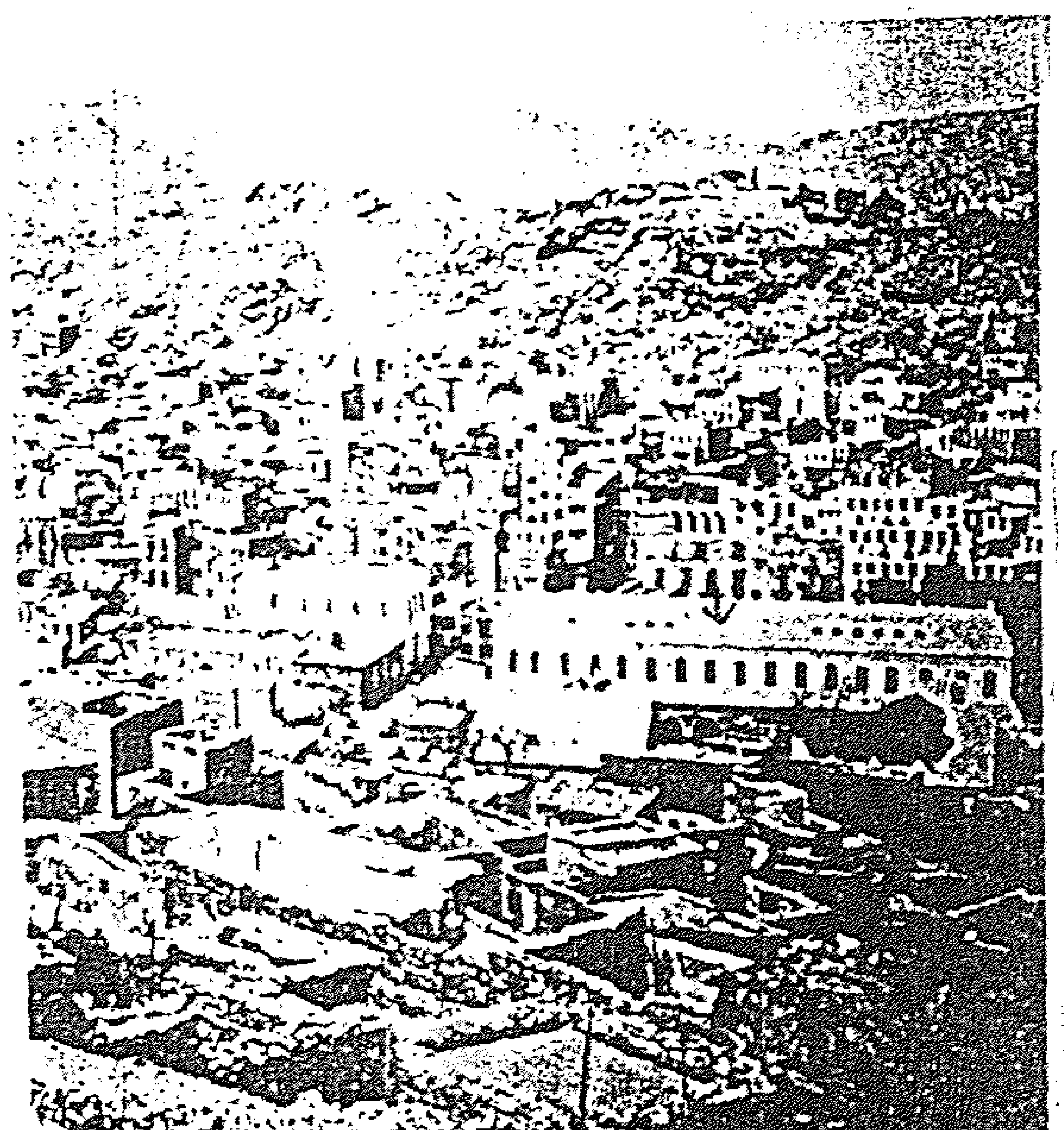
لوحة رقم (٢)

نقش رقم (٢) كان مثبتاً فوق الباب الغربي لدار الحميدية وهو محفوظ حالياً بمتحف آثار الحرم المكي الشريف .



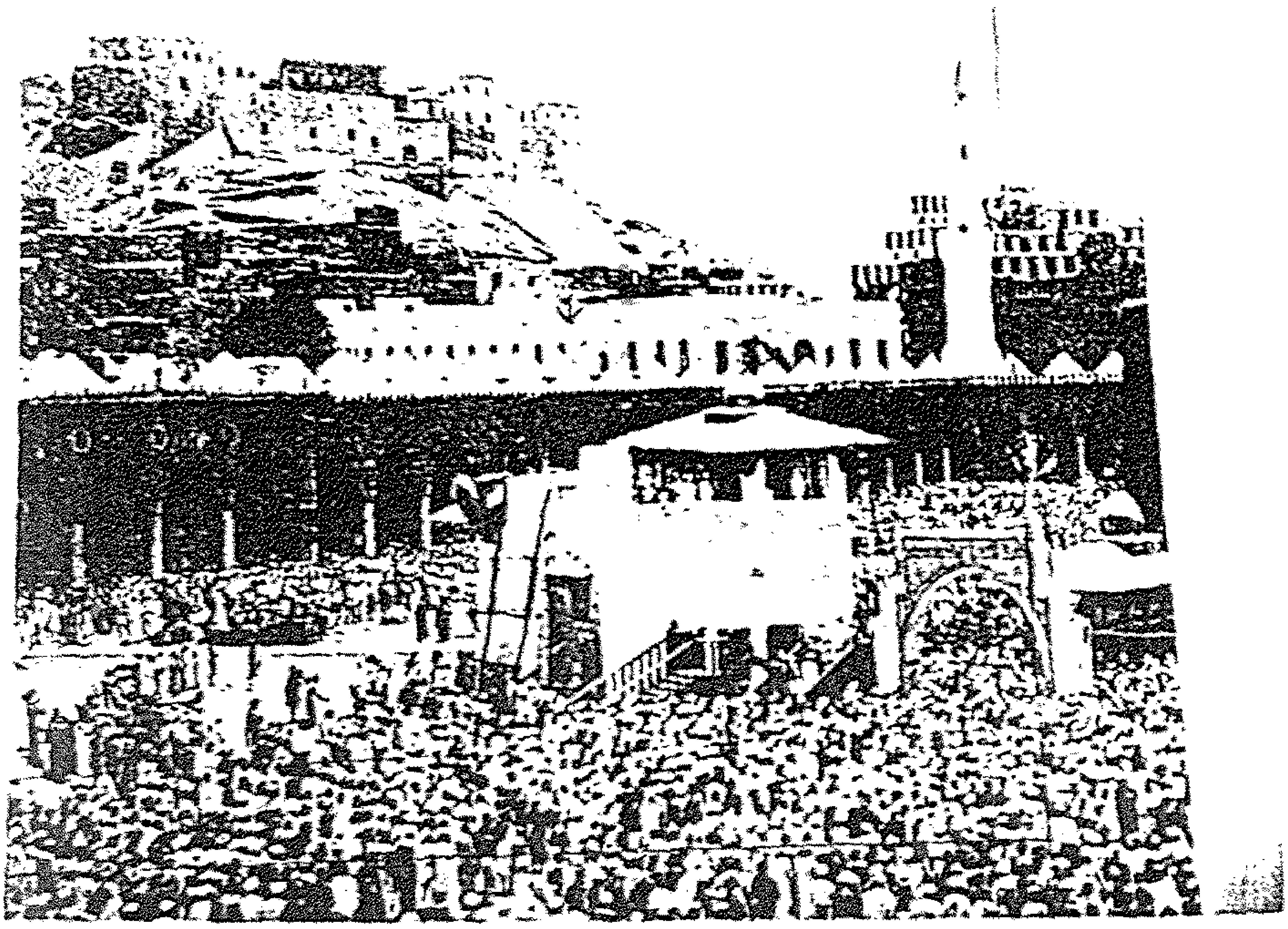
لوحة رقم (٣)

مبنى الحميدية من الجهة الشمالية الشرقية عن انجلو بيشي ، مكة المكرمة منذ مائة عام .



لوحة رقم (٤)

مبنى الحميدية من الجهة الجنـوبية عن انجلوبيشي ، مكة المكرمة منذ مائة عام .



لوحة رقم (٥)

مبنى الحميدية يطل على الرواق الجنوبي للمسجد الحرام .

عن وليام فيسي ، المملكة العربية السعودية في عيون أوائل المصورين

الهوامش

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، ط٢ (بـيروت: دار النفائس ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٤٦٣ – ٤٧٦ ، الروقى عايض بن خـزام ، حروب محمد على فى الشام وأثرها فى شبه الجزيرة العربية ، ط٢ (مكة المكرمـة : جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية ، ١٤١٩هـ ، ص ٤٢٥- ٤٦٤ .

(٢) السباعى ، أحمد ، تأريخ مكة ، ط٦ (مكة المكرمة : مطبوعات نادى مكـة الثقـافى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٥٦٣ .

(٣) رفيع ، محمد عمر ، مكة فى القرن الرابع عشر الهجرى ، ط١ (مكـة المكرمـة : منشورات نادى مكة الثقافى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ٢٣٣ .

(٤) صادق ، محمد باشا ، دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج ، ط١ (مصـر: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المعزية ، ١٣١٣هـ) ص ٦٥ ، رفعـت ، إبراهيم ، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينيـة (د. ن. د. ت) جـ١ ص ١٧٩ ، الكردى ، محمد طاهر ، كتاب التاريخ القويم لمكة وبيـت الله الكريم ط١ ، (مكة المكرمة ، مكتبة النهضـة الحديثـة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢ م) ، جـ٦ ص ٣٣٧ .

(٥) رفيع ، مكة ، ص ٢٣٣ .

(٦) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ، ط٢ (مكة المكرمة : المطبعة الميريـة) ص ١٢٩، البتنونى ، محمد لبيب ، الرحلة الحجازية ، ط٣ (الطائف : مكتبة المعارف ، د. ت) ص ٥٧ ، غازى الهندى ، عبد الله بن محمد ، إفادة الأنام بذكر أخبار البلـد الحـرام (مكة المكرمة ، مخطوط مصور بمكتبة الحرم المكى الشريف رقـم ١٢٣٩، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤١) جـ٣ ص ٢١٦ .

(٧) السباعى ، تأريخ مكة ، ص ٥٩٤ .

(٨) المكى ، محمد أمين ، خلفاى عظام عثمانية حظرتتـــك حرميـــن شــريفيندكى آثــار مبرورة ومشكورة هما يونلرندن « الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمـــان فى الحرمين الشريفين » . ترجمة من التركية إلى العربية غير منشورة للدكتور ســعد الدين عثمان أونال (الطبعة العثمانية ١٣١٨هـ) ، ص ٨ من الترجمة ، مغربـــى ، محمد على ، أعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضيــة ، ط١ (القاهرة : مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر ، ١٤١٠هـــ / ١٩٩٠م) جـ٣ ص ١٢٩ .

(٩) انظر ترجمته فى الأسماء والألقاب الواردة فى هذا البحث .

(١٠) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٩ ، صادق ، دليـــل الحــج ، ص ٦٥ ، البتنونى ، الرحلة ،ص ٥٧ ، رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٧٩ ، الكردى ، التــاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٧ ، السباعى ، تاريخ مكة ، ص ٥٩٤ ، رفيـــع ، مكـــة ، ص ٢٣٣ ، مغربى ، أعلام ، جـ٣ ص ١٢٩ .

(١١) المكى ، خلفاى عظام ، ص ٨ ، ٩ من الترجمة

(١٢) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٩ ، غازى الهندى ، إفادة الإنـــام جـــ٣ ص ٢١٦ ، الكردى ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٧ ، رفيع ، مكة ، ص ٢٣٣.

(١٣) صحيفة أم القرى ، عدد رقم ١ الجمعة ١٤٤٣/٥/١٥هـ .

(١٤) مقابلة فى علم ١٤١٩هـ/١٩٩٩م مع الأستاذ حامد بن حسن مطاوع رئيس تحريـــر صحيفة الندوة سابقا والكاتب المعروف فله خالص الشكر والتقدير .

(١٥) المملكة العربية السعودية ، الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبـــوي الحرمان الشريفان التوسعة والخدمات خلال مائة علم ، ط١ (جـــدة : دار عكـــاظ للطباعة والنشر ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٣٨ .

(١٦) المكى ، خلفاى عظام ، ص ٨ من الترجمة .

(١٧) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٩ ، غازى الهندى ، إفادة الإنام جـ٣ ص ٢١٦ – ٢١٧.

(١٨) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٩ – ١٤٠ ، غازى الهندى ، إفادة الإنام جـ٣ ص ٢١٦ –٢١٧ .

(١٩) البتنونى ، الرحلة ص ٣٨ ، رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٧٩ .

(٢٠) رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٧٩ – ١٨٢ .

(٢١) صادق ، دليل الحج ، ص ٥٨ .

(٢٢) صادق ، دليل الحج ، ص ٥٨ ، البتنونى ، الرحلة ، ص٣٩ .

(٢٣) المكى ، خلفاى عظام ، ص ٨ ، ٩ من الترجمة .

(٢٤) سبق بناء دار (الحميدية) ضعف موارد الدولة العثمانية وكثرة ديونها التى كان من أسبابها الحرب مع روسيا ، انظر : المحامى ، تاريخ ، ص ٦٢٧ – ٦٢٨ ، ٦٦٠ ، عبد الحميد الثانى ، السلطان ، مذكراتى السياسية ١٨٩١ – ١٩٠٨م ، ط٣ (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ص ١١ – ١٢ .

(٢٥) قرأ هذين النقشين إبراهيم رفعت عام ١٣١٨هـ /١٩٠٠م دون تصورهما أو تقديم دراسة عنهما ، وورد خطأ فى قراءته وسقطت بعض الكلمات من القراءة كما سنبين ذلك خلال قراءتنا للنقشين . وأشار إلى وجود نقشين آخرين بدار «الحميدية» أحدهما على الباب الجنوبى المتوسط نصه « دائرت حكومت سنية » ، والآخر على الباب الجنوبى الجانبى نصه :« دائرة فرقة عسكرية » ، ولم نعثر عليهما . رفعت ، مرآة ، جـ١ ص١٧٩ – ١٨٠ .

(٢٦) رفعت ، مرآة ، جـ١ ، ص ١٧٩ .

(٢٧) قرأها إبراهيم رفعت « لسعد » والصواب ما أثبتناه ، انظـــر : رفعــت ، مــرآة ، جــ١ ص ١٨٠ .

(٢٨) لم يرد التاريخ وحرف « ف » في قراءة إبراهيم رفعت ، انظـــر رفعـــت ، مـــرآة جــ١ ص١٨٠ .

(٢٩) رفعت مرآة ، جــ١ ، ص١٨٠ .

(٣٠) أضاف إبراهيم رفعت كلمة « قد » قبل كلمة بدت في السطر الأول ، والصواب مـا أثبتناه. رفعت ، مرآة ، جــ١ ، ص١٨٠ .

(٣١) لم يرد التاريخ وعبارة « حرره فخرى » في قراءة إبراهيم رفعت والصواب مـــا أثبتناه . انظر : رفعت ، مرآة ، جــ١ ، ص ١٨٠ .

(٣٢) من آية رقم « ١٣ » سورة الصف .

(٣٣) من آية رقم « ٤٦ » سورة الحجر .

(٣٤) عن النقوش التأسيسية التي وردت في صيغة أبيات شعرية في البلد الحرام انظـــر : غباشي ، عادل بن محمد نور ، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمـــــة والمشـــاعر المقدسة في العصر العثماني دراسة حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكــة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤١٠هـــــ) ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥١٣ ، الحـــارثي ، ناصر بن علي ، محمد أفضل هروي وأعماله الفنية بمكة المكرمـــــة فـــي أواخـــر العصر العثماني (مجلة العصور ، المجلد السادس، الجزء الثـــاني ، ١٩٩١م) ص ٣٣٠ .

(٣٥) الخط الثلث : خط متطور عن خط النسخ وسمي بذلك ، لأنه في حجم يساوي ثلـــث خط النسخ الكبير الذي كان يكتب به على الطومار ، وهو الدرج أي الملف المتخـــذ من البردي أو الورق وكان يتكون من عشرين جزءا يلصق بعضـــها ببعـــض فـــي وضع أفقي ثم يلف على هيئة أسطوانة ، وكان سدس الدرج يسمى الطومار ، وكـــان

يكتب عليه بخط نسخي كبير عرف بخط الطومار ومنه تولد الخط الثلث ، وقد لعب خط النسخ (المحقق) والثلث دورا بارزا على العمائر والمخطوطات العثمانيـــة . انظر : مرزوق ، محمد عبد العزيز ، الفنون الزخرفية الإســـلامية فـــى العصـــر العثمانى (مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م) ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٣٦) الحارثى ، ناصر بن على ، أعمال الخشب المعمارية فـــى الحجـــاز فـــى العصـــر العثمانى ، دراسة فنية حضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة (مكة المكرمـــة : جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، الفعر ، محمد فهد عبـــد الله ، الكتابات والنقوش فى الحجاز فى العصـــر المملوكـــى والعثمـــانى ، رســـالة دكتوراه غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤٠٦هـــ/١٩٨٦م) ص ٣٣٦ ، ٣٧١ ، ٤٢٠ .

(٣٧) مؤذن ، عبد العزيز عبيد الرحمن ، كسوة الكعبة وطرزهـــا الفنيـــة منـــذ العصـــر العثمانى ، رسالة ماجستير غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القـــرى ١٤٠٠ — ١٤٠١هـ) جـ١ ص ٣٦٦ ، ٣٦٨ .

(٣٨) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية ، ص ٧٧٧ ، ٧٧٨ .

(٣٩) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ٣٦ ، عبد الحميد الثانى ، مذكراتى ، ص١١.

(٤٠) محمد فريد ، تاريخ ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٧٠٨ ، عبد الحميد الثانى ، مذكراتـــى ، ص ١١ ، ١٥ .

(٤١) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى ، ص ١٥ .

(٤٢) محمد فريد ، تاريخ ، ص ٦٢٧ — ٦٧٦ .

(٤٣) عبد الحميد الثانى ، مذكراتى ، ص ١١ ، ١٢ ، ٣٧ ، الشـــناوى ، عبـــد العزيـــز محمد ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليـــها (القـــاهرة : مكتبـــة الأنجلـــو المصرية ، ١٩٨٠ م ، جـ٢ ص ٩٨٨ — ٩٩١ ، ١٠٦٥ — ١١٢١ ، حســـون ،

علـى ، تـاريخ الدولـة العثمانيـة ، ط١ (دمشـق : المكتـب الإسـلامى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ص ١٧١ — ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٧ .

(٤٤) حسون ، تاريخ ص ٢٠٤ — ٢٠٦ .

(٤٥) سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٢٨ — ١٣٠ ، المكى ، خلفـاى عظـام ، ص ١ —١٤ من الترجمة .

(٤٦) الشهرى ، محمد هزاع ، المسجد النبوى فى العصر العثمانى ، دراسـة معماريـة حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكـة المكرمـة : جامعـة أم القـرى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤٧) غباشى ، عادل بن محمد نور ، دار الضيافة بمكة المكرمة فى عصر السلطان عبـد الحميد الثانى دراسة تاريخية أثرية (مجلة جامعة أم القرى ، السنة الثامنة ، العـدد العاشر ١٤١٥هـ) ص ٢١٣ — ٢١٧ .

(٤٨) سالنامة ، الحجاز سنة ١٣٠٣هـ ، ص ١٣٩ ، كردى ، التاريخ القويـم ، جـ٦ ص ٣٣٦ ، مغربى أعلام ، جـ٣ ص ١١٢ .

(٤٩) بعد إجراء التنظيمات فى الدولة العثمانية أصبح قـادة أقسـام المشـاة ووحداتـهم المختلفة يتألفون من عدة أورطات (وحـدات) يرأسـهم الرئيـس الأول (بـاش قومندان) . انظر : شوكت محمود ، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانيـة منـذ بداية تشكيل الجيش (دار طلاسى للدراسات والترجمة والنشر ١٩٨٨م) ص ٤٤.

(٥٠) كردى ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٦ .

(٥١) سالنامة ، الحجاز سنة ١٣٠٣هـ، ص ١٣٩ .

(٥٢) رفعت ، مرآة ، جـ١ ، ص ١٩٧ .

(٥٣) كردى ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٥٤) رفيع ، مكة ، ص ٢٣٣ .

(٥٥) مغربي ، أعلام ، جـ٣ ص ١١٧ .

(٥٦) تولى إمارة مكة المكرمة في ١٢٩٩/١١/٢٤ وبقي بها إلى أن توفي في جمادى الأول عام ١٣٢٣هـ . ابن سرور ، الشريف مساعد بن منصور آل عبد الله ، جدول أمراء مكة المكرمة منذ فتحها إلى الوقت الحاضر ، ط١ (مكة المكرمة : مطبعة النهضة الحديثة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ص ٤٥ .

(٥٧) رفعت، مرآة ، جـ١ ص ١٩٧ ، كردي ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٥٨) الواسعي ، عبد الواسع بن يحيى ، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، ط٤ (صنعاء : الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ص ٢٦٦ – ٢٦٩ .

(٥٩) رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٩٧ .

(٦٠) غباشي ، المنشآت ، ص ٢٣٤ – ٢٤٠ ، ٢٧٧ – ٢٧٩ ، ٣٠٦ .

(٦١) المكي ، خلفاى ، جـ٣ ص ١٢١ .

(٦٢) .

(٦٣) عجيمي ، هشام بن علي وعادل بن محمد نور غباشي ، قلعتا لعلع وهندي بمكة المكرمة دراسة تاريخية أثرية (مجلة العصور ، المجلد الثامن ، الجزء الأول ١٩٩٣م) ص ٢١٣ .

(٦٤) المكي ، خلفاى عظام ، ص ١٠ من الترجمة ، مغربي ، أعلام ، جـ٣ ص ١٢٩.

(٦٥) كردي ، التاريخ القويم ، جـ٦ ص ٣٣٧ .

(٦٦) رفيع ، مكة ، ص ٢٣٣ .

(٦٧) مغربى ، أعلام ، جـ٣ ص ١٢١ ، ١٢٩ .

(٦٨) رفعت ، مرآة ، جـ١ ص١٩٧ .

(٦٩) غباشى ، عادل بن محمد نور ، إيصال مياه عين الوزيرية إلى مدينة جدة فى بداية القرن الرابع عشر للهجرة (بحث تحت الطبع – بمشيئة الله – بمجلة كلية الآثار جامعة القاهرة) ص ٤ ، ٥ من الطباعة الأولى .

(٧٠) رفعت ، مرآة ، جـ١ ص ١٩٧ .

(٧١) الكردى ، محمد طاهر ، تاريخ الخط العربى وآدابه ، ط١ (المطبعة التجارية الحديثة بالسكاكينى ، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) ص ٢١١ – ٢٦٥ .

(٧٢) الكردى ، تاريخ الخط ، ص ٢٥٣ ، ٣٧٢ .

(٧٣) الحارثى ، محمد أفضل هروى ، ص ٣١٩ – ٣٢٤ .

(٧٤) من آية رقم (٦٢) سورة الأنعام .

(٧٥) الفاسى ، أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد بن على ، شفاء الغرام باخبار البلد الحرام (بيروت – لبنان : دار الكتب العلمية ، د. ت) جـ١ ص ٤٨ ، ٤٩ الخوارزمى ، محمد بن إسحاق ، إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق ، تحقيق مصطفى محمد حسين الذهبى ، ط١ (مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م) جـ١ ص ٧٢ ، محب الدين الطبرى، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر ، القرى لقاصد أم القرى ، ط٣ (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ٦٥١ .

(٧٦) الفاسى ، شفاء جـ١ ص ٤٨ – ٥٣ ، الخوارزمى ، إثارة ، جـ١ ص٧١ – ٧٤، محب الدين الطبرى ، القرى ، ص ٦٥٠ – ٦٥١ ، عوض الله السيد أحمد أبو

الفضل ، مكة فى عصر ما قبل الإسلام ، ط٢ (الرياض : مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ص ٣٣ – ٣٦ .

(٧٧) ورد فى اللغة من السلاطة بمعنى القهر ، ومن هنا أطلق على الوالى ، وقد ورد اللفظ فى آيات قرآنية عديدة بمعنى الحجة والبرهان ، ثم أطلق عل عظماء الدولة ، وأصبح لقبا عاما بعد أن تغلب الملوك بالشرق على الخلفاء ، ثم صار يطلق على الولاة المستقلين تمييزا لهم عن غيرهم من غير المستقلين ، وفى العصرين المملوكى والعثمانى أصبح هذا اللقب يطلق على رئيس الدولة سابقا لاسمه . انظر: الباشا حسن ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ط١ (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٨م) ص ٣٢٣ – ٣٢٩ .

(٧٨) أطلق على أمير القطر وحاكمه ، وعرف الوالى منذ صدر الإسلام واستمر نظام استخدام الولاة فى جميع العصور الإسلامية . انظر : الباشا ، حسن ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م) جـ٣ ص ١٣٠٨ – ١٣٠٩ .

(٧٩) غباشى ، المنشآت ، ص ٥١٨ ، ٥١٩ ، شوكت ، التشكيلات ، ص ٤٨ ، ٤٩.

(٨٠) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، ط١ (بيروت: دار صادر ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) جـ١٥ ، ص ٣٩٠ .

(٨١) غباشى ، المنشآت ، ص ٥١٣ .

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – ابن سرور ، الشريف مساعد بن منصور آل عبد الله ، جدول أمراء مكة المكرمة منذ فتحها إلى الوقت الحاضر ، ط١ (مكة المكرمة : مطبعة النهضة الحديثة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) .

٣ – ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، ط١ (بيروت دار صادر ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) .

٤ – أنجلو بيشى ، مكة المكرمة منذ مائة عامة (لندن : دار ايميل للنشر ، د. ت)

٥ – الباشا ، حسن ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ط١ (القاهرة: دار النهضة العربية ، ١٩٧٨م) .

٦ – ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية (القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م) .

٧ – البتنونى ، محمد لبيب ، الرحلة الحجازية ، ط٣ (الطائف : مكتبة المعارف ، د. ت) .

٨ – الحارثى ، ناصر بن على ، أعمال الخشب المعمارية فى الحجاز فى العصر العثمانى « دراسة فنية حضارية » ، رسالة ماجستير غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) .

٩ – ، محمد أفضل هروى وأعماله الفنية بمكة المكرمة فى أواخر العصر العثمانى • مجلة العصور ، المجلد السادس ، الجزء الثانى ،١٩٩١م).

١٠ – حسون ، على ، تاريخ الدولة العثمانية ، ط١ (دمشق : المكتب الإسلامى ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) .

١١ – الخوارزمى ، محمد بن إسحاق ، إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق ، تحقيق مصطفى محمد حسين الذهبى ، ط١ (مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) .

١٢ – رفعت ، إبراهيم ، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحـــج ومشـــاعره الدينية (د. ن. د. ت) .

١٣ – رفيع ، محمد عمر ، مكة فى القرن الرابع عشـــر الـــهجرى ، ط١ (مكـــة المكرمة : منشورات نادى مكة الثقافى ، ١٤٠١هـــ/١٩٨١م .

١٤ – الروقى ، عايض بن خزام ، حروب محمد على فى الشام وأثرها فـــى شـــبه الجزيرة العربية ، ط٢ (مكة المكرمة : جامعة أم القـــرى) معـــهد البحـــوث العلمية ، ١٤١٩هـــ) .

١٥ – سالنامة الحجاز سنة ١٣٠٣هـــ ، ط٢(مكة المكرمة : المطبعة الميرية) .

١٦ – السباعى ، أحمد ، تاريخ مكة ط٦ (مكة المكرمة : مطبوعات نـــادى مكـــة الثقافى ١٤٠٤هـــ/١٩٨٤م) .

١٧ – الشناوى ، عبد العزيز محمد ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليـــها ٠ القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠م) .

١٨ – الشهرى ، محمد هزاع ، المسجد النبوى فى العصر العثمانى دراسة معمارية حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القـــرى ، ١٤٠٧هـــ / ١٩٨٧م) .

١٩ – شوكت ، محمود ، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية منذ بداية تشـــكيل الجيش العثمانى حتى سنة ١٨٢٥م ، ترجمه عن اللغة التركية يوســـف خيســـة ومحمود عامر ط١ (دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ١٩٨٨م) .

٢٠ – صادق ، محمد باشا ، دليـــل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فـــج، ط١ (مصر : المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المعزية ، ١٣١٣هـــ).

٢٢ – عبد الحميد الثانى ، السلطان ، مذكراتـــى السياســـية « ١٨٩١ – ١٩٠٨م » ط٣ (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م) .

٢٣ - عجيمى ، هشام بن على وعادل بن محمد نور غباشى ، قلعتا لعلع وهندى بمكة المكرمة دراسة تاريخية أثرية (مجلة العصور ، المجلد الثامن ، الجوء الأول ، ١٩٩٣م) .

٢٤ - عوض الله ، السيد أحمد أبو الفضل ، مكة فى عصر ما قبل الإسلام ، ط٢ (الرياض : مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠١هـ/١٩٨١) .

٢٥ - غازى الهندى ، عبد الله بن محمد ، إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام (مكة المكرمة ، مخطوط مصور بمكتبة الحرم المكى الشريف رقم ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢) .

٢٦ - غباشى ، عادل بن محمد نور ، إيصال مياه عين الوزيرية إلى مدينة جدة فى بداية القرن الرابع عشر للهجرة (بحث تحت الطبع - بمشيئة الله - بمجلة كلية الآثار جامعة القاهرة) .

٢٧ - ————— ، دار الضيافة بمكة المكرمة فى عصر السلطان عبد الحميد الثانى دراسة تاريخية أثرية (مجلة جامعة أم القرى ، السنة الثامنة ، العدد العاشر ، ١٤١٥هـ) .

٢٨ - ————— ، المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة فى العصر العثمانى دراسة حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، ١٤١٠هـ) .

٢٩ - الفاسى ، أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد بن على ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (بيروت - لبنان : دار الكتب العلمية ، د. ت) .

٣٠ - الفعر ، محمد فهد عبد الله ، الكتابات والنقوش فى الحجاز فى العصر العثمانى دراسة فنية حضارية ، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) .

٣١ - فيسى ، وليام وجيليان غرانت ، المملكة العربية السعودية فى عيون أوائل المصورين ، ط٢ (الرياض : التراث ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) .
٣٢ - الكردى ، محمد طاهر ، تاريخ الخط العربى وآدابه ، ط١ (المطبعة التجارية الحديثة بالسكاكينى ، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) .
٣٣ - ———————— ، كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، ط١ (مكة المكرمة : مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .
٣٤ - المحامى ، محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، ط٢ (بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) .
٣٥ - محب الدين الطبرى ، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر ، القرى لقاصد أم القرى ، ط٣ (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) .
٣٦ - مرزوق ، محمد عبد العزيز ، الفنون الزخرفية الإسلامية فى العصر العثمانى (مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م) .
٣٧ - مغربى ، محمد على ، أعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية ، ط١ (القاهرة : مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) .
٣٨ - المكى ، محمد أمين ، خلفاى عظام عثمانية حظرتنك حرمين شريفيندكى آثار مبرورة ومشكورة هما يونلرندن « الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان فى الحرمين الشريفين » ترجمة غير منشورة من اللغة التركية للدكتور سعد الدين عثمان أونال (الطبعة العثمانية ١٣١٨هـ) .
٣٩ - المملكة العربية السعودية ، الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوى ، الحرمان الشريفان التوسعة والخدمات خلال مائة عام، ط١ (جدة : دار عكاظ للطباعة والنشر ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) .

٤٠ - مؤذن ، عبد العزيز عبيد الرحمن ، كسوة الكعبة وطرزها الفنية منذ العصر العثمانى ، رسالة ماجستير غير منشورة (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ١٤٠٠هـ - ١٤٠١هـ) .

٤١ - الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى ، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ط٤ (صنعاء : الدار اليمينة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) .

٤٢ - مقابلة فى عام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م مع الأستاذ حامد بن حسن مطاوع رئيس تحرير صحيفة الندوة سابقًا والكاتب المعروف فله خالص الشكر والتقدير .

٤٣ - سبق لى أن قمت بتصوير النقشين موضوع الدراسة عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ولم أتمكن من أخذ أبعادهما ، وقد تيسر لزميلى الدكتور ناصر بن على الحارثى الإطلاع على النقشين عام ١٤١٨هـ وأمدنى بأبعادهما فله خالص الشكر والتقدير .

علماء الأندلس ودورهم فى التصدى للقوى الأسبانية المسيحية فى عصر الطوائف

أ. د. سحر السيد عبد العزيز سالم(*)

مقدمة :

تعددت الدراسات التاريخية التى تصدت لتحليل وتعليل أسباب انـــهيار دولـــة الإسلام فى الأندلس . وتجمع أغلب المدارس التاريخية علـــى أن تعـــدد العنـــاصر السكانية التى تكون منها المجتمع الأندلسى ، وتنافرها ، كان من أهم وأبـــرز هـــذه العوامل ، فمن عرب قيسيه ويمنية ، إلى بربر ، ومـــن صقالبـــة ومولديـــن إلـــى مستعربين ويهود . وكانت هذه العناصر السكانية متنازعة متصارعة ، تميـــل إلـــى التكتل فى بؤرات عمرانية خاصة بها(١) . وقد ساعد على ذلك ، الطبيعة الجغرافيـــة لأسبانيا ، فالسلاسل الجبلية التى تمتد من الشرق إلى الغرب ومن الشمال الشـــرقى إلى الجنوب الغربى ، قسمت البلاد فى حقيقة الأمر إلى مناطق شبه مستقلة تفصـــل بينها الحواجز التى كان من الصعب على الحكومات المركزية فى الأندلس اجتيازهـا مما ساعد على تشجيع النزعات الانفصالية(٢) .

هذا إلى جانب سوء سياسة حكام الدولة الأموية فى الأندلس وتخبطها وعـــدم ثباتها على مبدأ واحد إزاء العناصر السكانية المختلفة . ولتوضيح ذلـــك يمكننـــا أن نقسم عصر الدولة الأموية إلى مرحلتين أساسيتين من حيث سياسة حكامها ،وتبـــدأ المرحلة الأولى منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢هـــ) وحتـــى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) ، وهى المرحلة التى الـــتزم فيـــها أمراء بنى أمية سياسة التعصب والتحيز للعنصر العربى علـــى حســـاب الأجنـــاس الأخرى مما أدى إلى تذمر العناصر السكانية غير العربيـــة كـــالبربر والمولديـــن ،

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

فاندلعت ثوراتهم بداية من ثورة البربر فى رندة فى عهد الأمير هشام الرضـــا[٣] ، وثورة مولدى طليطلة فى سنة ١٨١هـ فى عهد الأمير الحكم الربضـــى (١٨٠ - ٢٠٦هـ)[٤] .

وقد تأججت نيران هذه الثورات فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسـط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ)[٥] ، عندما تحالف المولدون مع البربر ، غير أن هذه الفتن لم تنجـح فى تهديد كيان الدولة الأموية بداية من عهد الأمير محمـــد (٢٣٨ - ٢٧٣هـــ) حيث تمزقت الوحدة الأندلسية ، واقتصر سلطان بنى أمية على قرطبة . وقد تغيرت هذه السياسة الأموية باعتلاء عبد الرحمن الناصر الحكم (٣٠٠ - ٣٥٠ هـــ) ، فبعد قضائه على الثورات والمنتزين وإعلانه الخلافة سنة ٣١٦هـ ونجاحه فى لـم شمل الأندلس ، بدأ سياسة جديدة قوامها إضعاف العصبية العربية فى جيشه أى أنـه مال إلى اتخاذ سياسة جديدة تختلف عن سياسة المرحلة السابقة ، وأتصور أنه كـان يرغب بذلك فى إزالة الحواجز النفسية التى تكونت لدى العناصر السكانية الأندلسـية غير العربية ، فكان إن استكثر من عنصر جديد فى جيشه وهـــو الصقالبـة ، ثـم استكمل المنصور محمد بن أبى عامر المضى فى هذه السياسة عندما اعتمد علـــى عنصرى الصقالبة والبربر ونظم الجيش بأن قسمه إلى فرق تتمثل القبائل فـــى كـل منها ، رغبة منه فى إزالة العصبية العرقية ، ولكن ذلك آثار الأحقاد فـــى نفـوس العرب فتفجرت براكين غضبهم فى عهد ابنه عبد الرحمن شنجول ،وكان ذلك سـببا فى اندلاع الفتنة وقيام الحرب الأهلية ومن ثم انهيار وسقوط الخلافة الأمويـــة فـــى الأندلس وانفراط عقدها وقيام عصر دويلات الطوائف[٦] .

أما ثالث عوامل انهيار دولة الإسلام فى الأندلس فهو فى اعتقادى أهـــم هـــذه العوامل وأخطرها على الإطلاق ،ويتمثل فى استعانة المسلمين المتحاربين بـــالعدو الأسبانى فى الشمال ، على بعضهم البعض . ومن المعروف إن حركة الاســـترداد المسيحى الأسبانى La Recon Quista بدأت فى الظهور بوضوح منذ عصر الـــولاة

(٩٧ - ١٣٨هـ) ، وبدأت سياسة الأسبان فى محاربة المسلمين ، تتخذ كل الأساليب مشروعة كانت أو غير مشروعة ، وأخذت هذه السياسة تتلون وتتشكل طبقاً للمصالح الأسبانية ، فإذا كانت مصلحة حركة الاسترداد فى التحالف مع عنصر أندلسى مسلم ضد آخر ، مضى الأسبان فى هذا الطريق حتى النهاية ، وكان مسلمو الأندلس فى استعانتهم على بعضهم البعض بالأسبان ، يتغافلون عن إدراك أبعاد المخطط الأسبانى الحقيقية.

وتجسدت هذه السياسة الأسبانية بجلاء فى عصر الدولة الأموية حين استعان الثوار المولدون والبربر بالأسبان على أمراء الدولة الأموية والحكومة المركزية فى قرطبة أمثال عمر بن حفصون وابن مروان الجليقى وسعدون السرنباقى[٧] . وازداد الأسبان مضيا فى سياستهم تلك عندما وجدوها قد أثمرت ثمارها من إضعاف كيان المسلمين وتفتيته ، فوجدناهم ينتهزون فرصة قيام الحرب الأهلية واندلاع الفتنة[٨] وانهيار الخلافة الأموية ليتدخلوا بقواتهم العسكرية لمساندة الأطراف الأندلسية المتطاحنة على بعضها البعض طمعاً فى مزيد من الضعف للمسلمين .

وكان المسلمون فى سبيل الحصول على تلك المعونة العسكرية الأسبانية يتنازلون عن الأراضى والمدن الإسلامية تباعاً للأسبان .

وتزايد تدخل الممالك الأسبانية المسيحية فى السياسة الأندلسية فى عصر ملوك الطوائف عندما أخذت كل دويلة من دويلات الطوائف تستعين على جارتها المسلمة بالمساعدات الأسبانية . ولعل مأساة سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون فى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، رغم كل ما قدمه ملكها السابق المأمون بن ذى النون للملك الفونسو السادس خير مثال على ذلك[٩] . كما سجل الهجوم النورمندى على مدينة بربشتر فى سنة ٤٥٦هـ وعيثهم فى المدينة فساداً ، ونبحهم وأسرهم أهلها ، بداية لهوان المسلمين وزوال هيبتهم فى شبه القارة الأيبيرية ثم جاء سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون ليسطر

البداية الفعلية والحقيقية لضياع الإسلام فى الأندلس . وكانت طليطلة هى الضحيـــة الأولى بين دويلات الطوائف وممالكها ، لخلافات حكام هذه الدويـــلات واسـتعانة ملوكها بالأسبان ، فقد قامت هذه الدويلات على أسس عنصرية وعرقية ، وكـــانت الحروب بينها ، وبذ ل الإتاوات لملوك أسبانيا المسيحية استرضاء لهم ولمعونتـــهم العسكرية ، هى السمة الوحيدة المشتركة فى السياسة الخارجية لدويلات الطوائف .

وتشير المصادر إلى أن الصدمة زلزلت نفـــوس بعـض ملـوك الطوائـف المسلمين فى أعقاب سقوط طليطلة ، ويأتى على رأسهم المتوكل عمر بن الأفطـس ملك بطليوس وغرب الأندلس ، وكذلك المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، فقــد شــعرا بالأخطار الأسبانية التى باتت تهدد مملكتيهما خاصة وأن الفونســو الســادس ملـك قشتالة وليون بدأ يرسل إليهما برسائل التهديد والوعيد ، وبدأت نذر الشر تقترب من بقية دويلات الطوائف فكان إن بدأ المتوكل عمر بـــن الأفطـس بـالدعوة لوحـدة المسلمين فى الأندلس وتناسى الخلافات مستخدما بعض وزرائه من الأدباء والكتـاب فى الدعوة للم الشمل ، كما أخذ يستغيث بيوسف بن تاشفين أمير المرابطيـــن فـى المغرب فى ذلك الوقت . كذلك قام المعتمد بن عباد بالاستنجاد بالمرابطين وذهـــب بنفسه إلى يوسف بن تاشفين طالبا منه المعونـــة العســكرية المرابطيـة لمواجهـة الأخطار الأسبانية ، فكان العبور المرابطى إلى الأندلس فى العـام التـالى لسـقوط طليطلة ، وتعاونت الجيوش الأندلسية مع الجيـــوش المرابطيـة لتحقـق مجتمعـة انتصارا إسلاميا كبيرا فى موقعة الزلاقة الأولى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م .

تقييم للبيئة العلمية فى الأندلس فى عصر دويلات الطوائف :

ما نريد أن نطرحه فى هذا البحث يتمحور ويتمركز حول فكرة أساسية وهـى دور علماء الأندلس فى عصر الطوائف إزاء هذه الأوضـــاع السياســية المترديـة للمسلمين فى الأندلس ومدى مشاركتهم فى هذه الأحداث الخطـيرة وموقفـــهم مـــن

الصراعات السياسية بين الدويلات الإسلامية المختلفة واستعانة المسلمين بعضهم على بعض بالقوى الأسبانية المسيحية .

ونتساءل من خلال هذا البحث ، هل أدى علماء الأندلس الدور المنوط بهم كحملة أقلام نزيهة ، وكأمناء على مصلحة الدين والأمة . وهل كان هؤلاء العلماء على مستوى المسئولية المطلوبة منهم كرجال علم ودين ؟

وفى البداية ، لابد من تحديد أنواع العلماء ، والعلوم التى كانت شائعة فى الأندلس فى عصر الطوائف ، فهذه العلوم تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

أولهما : العلوم الدينية ... وتشمل الفقه والحديث والتفسير والقراءات .

ثانيهما : العلوم اللسانية ... مثل العلوم اللغوية والنحوية والأدب والشعر والتاريخ العام .

وثالثهما : العلوم الدنيوية ... كالفلك والرياضة والطب والجغرافية والهندسة وعلوم النبات والزراعة(١٠) .

ونلاحظ أنه كان لبعض الفقراء على وجه الخصوص ومن بعدهم الشعراء والأدباء والمؤرخين ، دور بارز فى إدارة دفة الأحداث فى هذه الحقبة التاريخية . وبوجه عام فإننا نقسم العلماء سواء كانوا فقهاء أو أدباء أو مؤرخين أو شعراء فى أى عصر من العصور ، إلى نوعين ، النوع الأول منهم ، يكرس كل فنونه وطاقاته لخدمة نفسه وذاته ودنياه(١١) . والنوع الأخر وهو ما يعنينا فى هذا البحث هو الذى يكرس علمه وإبداعاته لخدمة قضايا أخلاقية ومبادئ عليا سامية .

وإذا ما أردنا تقييم نسبة كل نوع إلى الآخر فى عصر الطوائف ، لوجدنا بطبيعة الحال إن النوع الثانى الذى يقضى حياته متبحراً فى العلم من أجل خدمة قضية أخلاقية أو مبدأ سامى مترفعاً عن أى منصب يقربه من ذوى المال والسلطان والجاه ، متحرراً بفكره من أغلال السلطة ، كان أقل عدداً بكثير إذا ما قورن

بهؤلاء العلماء الذين استغلوا علمهم وأخضعوه وطوعوه لطموحاتهم من أجل الوصول إلى ما يصبون إليه ، ومن أجل تحقيق مصالحهم الشخصية ومن ذلك على سبيل المثال ، فئة الشعراء المنافقين الذين ظهروا فى عصر الطوائف ومن هؤلاء شاعر امتدح حديقة رؤوس القتلى التى أقامها المعتضد بن عباد ملك إشبيلية للقتلى من أعدائه قائلا :

جلاء للعين مبهجة للنفوس   حدائق اطلعت ثمر الرؤوس[١٢]

وأيضا تلك الأبيات الشعرية التى وصف بها الشاعر أبو بكر الدانى ما كان يدفعه ويؤديه المعتمد بن عباد من إتاوة وجزية لالفونسو السادس ملك قشتالة وليون بقوله :

فىنصرة الدين لا أعدمت نصرته   تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع[١٣]

وقد عرف شعراء أمثال ابن شرف القيروانى وأبو عبد الله الحداد بأنهم من تلك النوعية التى تتخذ من الشعر والأدب وسيلة للوصول إلى ما يرجونه من منازل عالية[١٤] .

وفيما يتعلق بالنوع الأخير من علماء الأندلس ، الذى اهتم بقضايا مجتمعه ، وكرس علمه وقدراته الإبداعية لخدمة مصلحة أمته ودينه ، والذى كان كما سبق وإن أشرنا يمثله قلة قليلة من الفقهاء ويليهم عدد من الشعراء ، فإنهم جديرون بأن نفرد لدورهم . هذه الدراسة المستقلة ، إكبارا لهذا الدور العظيم وإجلالا لهم نظير ما تحملوه من صعاب ومشاكل هددت حياتهم فى كثير من الأحيان وأن كانت هذه الجهود التى قام بها هؤلاء العلماء لم تسفر فى نهاية الأمر عن إنقاذ دولة الإسلام فى الأندلس ، فقد أنهار الكيان الإسلامى والحضارة الإسلامية فى أسبانيا بعد ثمانية قرون من عمر الزمان ، ولكن شرف المحاولة التى قام بها هؤلاء العلماء لجديرة بأن نتوقف أمامها وقفة قصيرة لإلقاء الضوء عليها كتجربة إنسانية شريفة فى هذه اللحظات الحرجة من تاريخ الإسلام فى الأندلس .

اتخذت مقاومة هؤلاء العلماء الأندلسيين لخطر القوى المسيحية الأسبانية ثلاثة صور تدرجت فى أهميتها وقوتها وفى مدى إيجابيتها وفاعليتها ، أما الصورة الأولى فتمثلت فى قيام طائفة من علماء الأندلس بنقد سياسة ملوك الطوائف نقداً شديداً ، أثار غضب هؤلاء الملوك فى كثير من الأحيان مما هدد حياة هذه الطائفة من العلماء ، ثم تطورت الأمور ، وتخطت المقاومة مجرد النقد السياسى ، عندما جند بعض العلماء الأندلسيين أنفسهم وحياتهم للتجوال فى جميع أنحاء الأندلس لوعظ الناس وحث الحكام على تناسى خلافاتهم ولم شمل المسلمين ، فكانت هذه هى الصورة الثانية من صور المقاومة التى أبداها علماء الأندلس تجاه الخطر الأسبانى وفيما يتعلق بالصورة الثالثة أو الأخيرة من صور هذه المقاومة فتتمثل فى جهاد بعض العلماء بالنفس والروح فى سبيل قضية الدين والأمة الإسلامية بالمشاركة فى المعارك الحربية ضد الأسبان واستشهاد بعضهم فى هذه المعارك .

١ - الصورة الأولى من صور مقاومة علماء الأندلس للخطر الأسبانى وتتمثل فى النقد السياسى لملوك الطوائف :

كان لفقهاء الأندلس فى عصر الطوائف دور رائد وبارز فى نقد الأوضاع السياسية آنذاك ، ولعلنا نجد اسم الفقيه الشاعر أبو حفص عمر بن الحسين الهوزنى يتصدر قائمة أسماء فقهاء هذا العصر من حيث انصهاره فى قضايا أمته الأندلسية ودينه ، ولكفاحه الأدبى ، وتكريسه قلمه لخدمة الأهداف الأخلاقية السامية .

لقد آمن الفقيه أبو حفص عمر الهوزنى بأن من يحمل القلم فهو يحمل أمانة مقدسة لابد من الحفاظ عليها . وكان جديراً بحمل هذه الأمانة إلى أقصى الحدود ، فقد انتهت به شجاعته الأدبية فى نقد الأوضاع السياسية الإسلامية المتردية آنذاك إلى أن يدفع حياته ثمناً لهذه الأمانة والشجاعة .

فقيهنا أبو حفص عمر بن الحسين الهوزنى ، فقيه ، ومحدث وشاعر وأديب(١٥) ، ذكره ابن بسام فى الذخيرة ، والحجارى فى المسهب ، ولد فى عام

٣٩٢هـ ، ورحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج فى عام ٤٤٤هـ ، وزار مصر وسمع بالحجاز ، كتاب صحيح البخارى ، وعنه أخذه أهل الأندلس ، وعندما رجع من رحلته المشرقية استقر بإشبيلية وسكنها وخدم ملكها المعتضد بن عباد .

وقد فضل الهوزنى مصلحة أمته على مصلحته الشخصية ، فكان لا يكف عن نقد سياسة المعتضد بن عباد الذى عرف بقسوته وحروبه مع جيرانه من الملوك والأمراء المسلمين وميله لابتلاع الممالك الإسلامية الصغيرة المجاورة له ، فكان الهوزنى يصرح بما يعتمل فى نفسه من ألم إزاء تطاحنه مع جيرانه المسلمين وتقاتله معهم ، وقد فاضت آلامه عندما رأى الجنود الفرنج من النورمنديين يتغلبون على مدينة برشتر فى ٤٥٦هـ/١٠٦٤م ويكتسحون تلك المدينة المسلمة وينكلون بأهلها ، فخاطبه برسالة ينتقد فيها أحوال ملوك المسلمين ومنهم المعتضد نفسه ، ويحضه فيها على الجهاد وقد بعث له بهذه الرسالة من مدينة مرسية ومنها قوله :

أعباد جل الرزء والقوم هجع ... على حالة مامثلها يتوقع

فلق كتابى من فراغك ساعة ... وإن طال فالموصوف للطول موضع

إذا لم أبث الداء رب شكاية ... أضعت وأهل للملام المضيع[١٧]

كما وصله بنثر فيه قوله « ما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها ولا أرجأ الدليل من أناط الأمور بأربابها ، ولرب أمل بين أثناء المحاذير مدمج ومحبوب فى طى المكاره مدرج ، فانتهز فرصتها فقد بان من غيرك العجز وطبق مفاصلها فقد أمكنك الحز ولا غرو أن يستمطر الغمام فى الجدب ويستصحب الحسام فى الحرب ... »[١٨] .

وله أيضاً :

صرح الشر فلا يستقل ... إن نهلتم جاءكم بعد عل

بدء صعق الأرض رش وطل ... ورياح ثم غيم أبل

خفضـوا فالداء رزء أجـل   واغمـدوا سيفا عليكـم يسـل

وقد ضاق المعتضد بن عباد ملك إشبيلية ذرعا بهذا الفقيه من جـراء تدخلـه المستمر فى السياسة ، ومطالبته له بما ليس بالهين ، فهذا الفقيه كان غيـورا علـى مصالح دينه وأمته ، آمن بضرورة تبليغ الرسالة لذويها ، لكن هذه المبادئ ، وهـذه القيم ، إن حمدها له جمهور الشعب ، فإن المعتضد بن عباد لـم يحمدهـا لـه لأن سياسته كانت تتجه وتميل إلى مهادنة الأسبان إلى درجـة تقديـم الإتـاوات وبـذل الأموال استرضاء لهم ، ولهذا فقد قرر المعتضد إخراس هذا اللسان وكسر هذا القلم الأمين إلى الأبد فاستدعاه إلى قصره بإشبيلية وقام بقتله بنفسه فى يوم الجمعـة ١١ ربيع أول سنة ٤٦٥هـ ودفنه فى قصره بثيابه وقلنسوته وهال عليـه الـتراب دون غسل ولا صلاة[١٩] .

ومما سبق يتبين لنا ، إن شجاعة هذا الفقيه وحرصه على قضايا دينه وأمتـه ، وأن آراءه الثورية ودعوته ملكه إلى لم الشمل ، ونقده لسياسته المتحالفة مع الأعـداء ضد جيرانه المسلمين ، كانت السبب وراء إنهاء حياته بـهذه الصـورة المأسـاوية ومقتله[٢٠] .

ولم تنته قضية أبى حفص عمر الهوزنى عند هذا الحد ، فقد نشأ ولـده أبـو القاسم ويداخله الرغبة فى الثأر لمقتل أبيه من بنى عباد ، ولهذا فقد كان سـببا مـن اسباب محاربته دولة المعتمد عباد بن المعتضد قاتل أبيه ، فكان أبو القاسم الـهوزنى ممن حرضوا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين على إزالـة ملـك هـذه الأسـرة العبادية[٢١] .

كذلك كان للفقيه المحدث الشاعر أبى محمد عبد الله بن فـرج بـن غزلـون اليحصبى المعروف بأبى العسال الطليطلى دور كبـير فـى نقـد سياسـة ملـوك الطوائف، وقد عرف ابن العسال الطليطلى بـالزهد واشـتهر بالكرامـات وإقامـة الدعوات[٢٢] ، كما كان من اشهر مفسرى القرآن الكريم فى عصره إلى جانب نبوغ

صيته كشاعر مجيد ، وكان يميل إلى الابتعاد عن أصحاب السلطان وكثيراً ما كـان يلزم بيته منكباً على علمه[٢٣] .

وكان ابن العسال ممن تأثروا وتألموا لمأساة بربشتر ، وانشد فيـها قصيـدة عبر فيها عن آلامه وأحزانه وانتقد ملوك الطوائف فى أبياتها ومنها :

ولقد رمانا المشركون باسهم ... لم تخط لكـن شانهـا الأصحاء

هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لـم يبـق لا جبل ولا بطحاء

جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... فـى كل يوم غـارة شعواء

ماتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحماتنا فـى حربهـم جبنـاء

كم موضع غنموه لم يرحم به ... طفـل ولا شيـخ ولا عـذراء[٢٤]

وهو صاحب الشعر الشهير بعد سقوط طليطلة فى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م فـى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون :

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم ... فمـا المقـام بهـا إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وارى ... ثوب الجزيرة منسولاً مـن الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنـا ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط[٢٥]

من جادر الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وقد رحل ابن العسال إلى غرناطة بعد سقط طليطلة وعاش بها حتـى وفاتـه فى سنة ٤٧٨هـ ، وقد نيف على الثمانين عاماً[٢٦] .

كذلك تبرز أسماء أخرى لبعض الفقهاء الأندلسيين الذين فقدوا حياتهم أيضـاً على أيدى أصحاب السلطان ، ثمناً لجرأتهم وشجاعتهم الأدبية ، ونقدهـم لسياسـة

ملوكهم آنذاك ، منهم الفقيه الشهير محمد بن جهور بن محمد من أسرة أبـــى عبـدة التى أفردت لها منذ عامين دراسة خاصة .

ولد محمد بن جهور بن أبى عبدة سنة ٣٩١هـ ، وكان فقيها مجيدا ، يقـــرأ القرآن ويجوده ويحفظه ، وقد انتهت حياته معتقلا فى سجن مدينة شلطيش من قبـل المعتمد بن عباد فى سنة ٤٦٢هـ(٢٧) .

كذلك يبرز اسم الفقيه عمر ابن حيان بن خلف بن حيـــان القرطبـــى ، ابـــن المؤرخ الكبير ، ابن حيان ، الذى انتهت حياته بالقتل على يد المأمون الفتــــح بـــن محمد بن عباد فى مدينة المدور فى سنة ٤٧٤هـ الذى مثل بجثته ابشع تمثيـل(٢٨) ، لفصاحته ويقظته ودوره البارز فى نقد الأوضاع السياسية فى ذلك العصر مثل والده المؤرخ العظيم الذى سنشير فى الصفحات التالية ، إلى دوره الكبير فى هذا المجـال عند حديثنا عن دور مؤرخى الأندلس فى النقد السياسى .

وإذا ما انتقلنا بالحديث عن فقهاء الأندلس إلى الحديث عن شعراءها ودورهـم فى نقد الأوضاع الإسلامية المتردية فى عصر الطوائف فإننا نطالع اســم الشــاعر الأديب أبا القاسم خلف بن فرج الالبيرى المعروف بالسميسر الـــذى وصــف فـــى المصادر الأندلسية بأنه كان باقعة عصره وأعجوبة زمانه ودهره ، اختص فى شعر القدح والهجاء ، وقد هجا ملوك غرناطة مما هدد حياته بالخطر فهرب إلى المعتصم ابن صمادح بالمرية ، ورغم ذلك فإن ابن صمادح لم يسلم من هجاتـــه(٢٩) . ومـــن نماذج شعره الذى انتقد من خلاله سياسة ملوك الطوائف بالأندلس قوله :

نـــاد الملوك وقل لهم ... مـــاذا الذى أحدثتـم

أسلمتـــم الإسلام فى ... أســر العــدا وقعدتم

وجب القيـــام عليكم ... إذ بالنصـــارى قمتم

لا تنكروا شق العصا ... فعصا النبى شققتـم

وقال :

رجـــوناكـم فمـــا انصفتمونا وأملناكـــم فخذلتمونـــــا

سنصبر والزمان لـــه انقلاب وأنتـــم بالإشارة تفهمونـــا

وقال فى الأمير عبد الله ابن بلقين ، أمير غرناطة فى عصر الطوائــف وقــد رآه يحصن نفسه من جيرانه المسلمين .

يبنى على نفســـه سفاهـــا كأنـــه دودة الحريـــر(٣٠)

ولعل أشهر أبيات شعرية ، هى تلك التى قيلت فى نقد وهجاء ملوك الطوائـف وسياساتهم ، استهانة بهم واستخفافا بدورهم السياسى ما ذكـره الشـاعر الأندلسـى الشهير ، أبو الحسن بن رشيق القيروانى ، الذى انتقد بشدة الصراعات بين ملـــوك الطوائف بقوله :

مما يزهدنى فى أرض أندلس أسمـــاء معتضد فيها ومعتمد(٣١)

ألقاب مملكة فى غير مواضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

أما الشاعر والأديب محمد بن أحمد بن أسحق بن طاهر ، فقد كان من أكـــثر الشعراء الذين انتقدوا القادر بن ذى النون ، ملك طليطلة وقد فرح لمقتله ، وأرســل يخاطب أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف فى هذه المناسبة بقوله :

أيهـــا الأحيـــف مهـــلا فلقـــد جئـــت عويصـــا

إذ قتلـــت الملـــك يحى وتقمصـــــت القميصـــــا

رب يـــوم فيـــه تجـــزى لـــم تجـــد عنـــه محيصا(٣٢)

وفيا يتعلق بمؤرخى الأندلس يتصدر اسم المؤرخ الكبير ابـــن حيـــان قائمـــة مؤرخى الأندلس الذين تصدوا بالنقد العنيف ، لملوك الطوائـــف ، وحملـــوا علـــى

سياساتهم التى أغرقت رعاياهم فى بحور من الدماء بددت قوة وهيبة الإسلام فى أسبانيا .

ويعتبر ابن حيان بحق « صاحب وحامل لواء التاريخ الأندلسى » على حد وصف تلميذه أبو على الجيانى[٣٣] .

ولد ابن حيان فى سنة ٣٧٧هـ فى عهد الخليفة الأموى هشام المؤيد بن الحكم المستنصر فى قرطبة ، ووالده هو خلف بن حسين بن حيان ، أحد كتاب المنصور ابن أبى عامر[٣٤] ، وقد صحب المنصور فى غزواته الشهيرة .

أما حيان ، الجد الأول لمؤرخنا الكبير ، قد كان مولى للأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الداخل[٣٥] ، ولهذا فقد ارتبطت أسرة بن حيان لصلة ولاء بالأسرة الحاكمة المروانية ، ولهذا السبب أيضا فقد نشأ المؤرخ الكبير ابن حيان ، على دراية كبيرة ببواطن السياسة ودخائل الأمور ، كما كان على علم بأحوال الممالك الأسبانية المسيحية .

وقد تقلد ابن حيان منصب « صاحب الشرطة » الذى يعد من المناصب العالية فى الأندلس ، وهو يقارب منصب الوزير أو الحاجب ، ولكنه رفض أن يتقلد غيره من المناصب السياسية ليتفرغ لكتابة التاريخ ، وتوفى ابن حيان فى عصر الطوائف فى سنة ٤٦٩هـ[٣٦] .

لقد أمضى ابن حيان حياته يدافع عن فكرة سياسية هامة وهى الاعتداد بالجماعة ، أو الوحدة الأندلسية[٣٧] ، التى اكتملت فى اعتقاده فى ظل خلافة بنى أمية ، ثم أطاحت بها الفتنة البربرية إلى الأبد .

ولم يكل ابن حيان ، أو يمل فى لحظة ، عن الدفاع عن فكرة ضرورة وحدة الأندلس ولم شمل المسلمين ، ولهذا فقد وصف الثوار والمنفصلين عن الدولة الأموية فى عصر الأمراء محمد والمنذر وعبد الله (٢٣٨ - ٣٠٠ هـ) بأبشع

الصفات ، ولا سيما الثائر عمر ابن حفصون ، كذلك كان يشعر بمرارة عميقة لانفصام عرى الوحدة الأندلسية فى عصر ملوك الطوائف . ومن هذا المنطلق ، نجد أن ابن حيان قد دافع فى كتاباته عن الخلافة الأموية وأكثر من انتقاده لملوك الطوائف ، فقد كان يرى فى الخلافة ، العاصم الوحيد للأندلس من التفكك والانهيار. وربما كان اعتداده الشديد بالجماعة وبوحدة الأندلس التى جاهد الأمويون دائما للحفاظ عليها ، هو الذى جعل ابن حيان ينفر كل النفور من ملوك الطوائف الذين مزقوا تراث الخلافة ولم يحسن أحد منهم الحفاظ على ما فى يده ، بل أدى تفريطهم فى الأمانة وتناحرهم وتحالفهم مع أعدائهم علي بعضهم البعض ، إلى تضييع الأمة الأندلسية كلها فى النهاية .

ولعل هذا الدفاع المستميت من قبل ابن حيان عن الخلافة الأموية ، دفع الكثيرون إلى الظن ، بأن صلة الولاء التى ربطت بين أجداد ابن حيان ، وبين عبد الرحمن الداخل ، هى السبب وراء النزعة الأموية لدى ابن حيان ، ولكن ابن حيان الذى أمضى عمره كله فى عصر ملوك الطوائف بعد انقضاء حكم المروانيين ، لم يكن ليستفيد على الإطلاق من الإشادة بمآثر هذه الدولة المروانية المندثرة اللهم إلا إذا كان دفاعه يكمن وراءه إيمان عميق بقضية كبيرة وهدف سام ألا وهو الدفاع عن وحدة الأندلس ضد تهور وضعف ملوك الطوائف[٣٨] .

ويعد ما كتبه ابن حيان عن محنة مدينة بربشتر التى اقتحمها النورمان فى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م ، فيه إجمال لرأى ابن حيان فى ملوك الطوائف جميعهم ، ومن ينافقهم من زملائه من العلماء وهو من أقوى نماذج النقد السياسى فى تاريخ الأندلس الإسلامى على الإطلاق فهو يقول :

« طرق الناعى بها قرطبتنا فجأة من صدر شهر رمضان من العام ، فصك الأسماع وإطار الأفئدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير للكل شغلا تسكع الناس فى التحدث به والتساؤل عنه والتصور لحلول مثله ، إذا لم يفارقوا فيها

عاداتهم من استبعاد الوحل ، والاعتزاز بالأمل ، والإسناد إلى أمراء الفتنة الـــهمل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل : يصدونهم عن سواء السبيل ، ويلبســـون عليـــهم وضوح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين منهم هم كـــالملح ، فيـــهم الأمراء والفقهاء ، قل ما تتنافر إشكالهم : بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يـــردؤون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذه لا كفايـــة له ، ولا تخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق نيادا عـــن الجماعة وجريا إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكـــد الله عليهم فى التبيين لهم ، قد أصبحوا بين كل من حلوائهم خابط فى أهوائـــهم ، وبيـــن مستشعر مخافتهم ، أخذ بالفتنة فى صرفهم ، وأولئك هم الأقلون فيهم ، فما أقول فى أرض فسد ملحها الذى هو المصلح لجميع أغذيتها ؟ هل هى إلا مشفية على بوارهـــا واستئصالها ؟ ولقد طمى العجب من أفعال هؤلاء الأمراء إن لم يكن عندهـــم لـــهذه الحادثة النكراء فى بربشتر إلا الفزع إلى حفر الخنادق ، وتعلية الأســـوار ، وشـــد الأركان وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوأة السواء مـــن إلقائـــهم بأيديـــهم إليهم: أمور قبيحات الصور مؤذنات الصدور بإعجاز تحل الغير :

أمور لو تدبرها حكيم أذن لنهى وهبب ما استطاعا

وقد أفشينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلقة ، طالمـــا حذر عليها أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره ، ولأشد مما أفشينا عنـــد أولى الألباب ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أمرنا بـــالتواصل والألفـــة وأصبحنا من أستشعار ذلك والتمادى عليه على شفا جرف يـــؤدى إلـــى الهلكـــة لا محالة ... »[٣٩] .

كذلك تعد الأخبار التى أوردها ابن حيان عن منذر بن يحى صاحب سرقسطة نموذجا قويا من نماذج كتاباته فى النقد السياسى فى تلك الحقبة ، فهو يصف انقـــلاب منذر على الخليفة هشام المؤيد ، رمز الوحدة الأندلسية ، وتحالفه مع ملوك الأســـبان

بقوله « وأما عذره فالنار برأس اليفاع ، من أفحشه صنعه بهشام المخلوع ، مولى نعمته ومعلى رتبته وباعثه إلى الثغر لنصرته ، فانقلب ناصرا لعدوه وغزاه في عقر داره وأنزله عن سريره وأسلمه لحتفه ، وباع دماء عشيرته أهل قرطبة مجانا باطلا بلا ثمن من البرابرة ، على غير عذر ولا ضرورة وعاد بمثلها لمحمد بن سليمان أثيره عندما استجار به في نكبته فقتله وهو ضيفه ... وكان لأول ولايته قد ساس عظماء الإفرنج وهاداهم حوطا للثغر وأهله وتأنيا للجماعة حتى تثوب لأهل الإسلام يناهضون بها عدوهم وكان رؤساء الجلالقة يومئذ ريمند الجليقي وشانجة القشتلي ، فسلك معهما سبيل الاسترضاء والموافقة والاستخذاء ، فحفظت أطرافه وكفت المعرة عن عمله ... وبلغ من استمالة الحاجب منذر لهذين الطاغيتين أن أجريا تصاهرهما على يديه ، وكتب عقد النكاح بينهما بحضرة سرقطة في حفل من أهل الملتين فقرفت الألسنة منذرا لسعيه في نظم سلك الطاغيتين لما فيه من سوء العاقبة . وقد قيل أن رأى منذر كان في ذلك أحصف ، من رأى من قدح فيه ، وقرف لنظره في شأن وقته ، وعلمه بانصداع عصا أهل كلمته ، فأثر من الموادعة ما ستر به العورة وشراه بغليظ الكلفة واختدع به عظيمي الجلالقة ريمند وشانجة المحدثين أنفسهما يومئذ بمناهضة أهل الأندلس ... »(٤٠) .

وقد اختار ابن حيان الإقامة في قرطبة ، عاصمة الخلافة الأموية القديمة في ظل الجهاورة ، الذين كانوا في اعتقاده أقل أمراء الطوائف سوءا ، فضلا عن أن قرطبة كانت لم تفقد بعد مكانتها الروحية بين مدن الأندلس ، فحافظت على وضعيتها العلمية والثقافية ، ولكن طبيعة ابن حيان من اعتزازه بنفسه واحترامه لقلمه وكبريائه ، أدت إلى تكدير صفو العلاقات بينه وبين بني جهور ، فقد تعرض ابن حيان لأبي الوليد بن جهور بنقد لاذع ، مما عرضه لغضب ولده عبد الملك الذي كاد أن يفتك بابن حيان لولا شفاعة والده أبي الوليد له .

وقد تحول ابن حيان بسبب نقده الشديد لسياسة ملوك الطوائف إلى « بطل شعبي » على حد تعبير المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور محمود على مكي في نظر

الأمة الأندلسية ، تحف به هالة من الإكبار والإجلال ، فلم يقدم أحد من ملوك الطوائف لذلك ، على التعرض له بأى سوء[٤١] .

ولعل صفات ابن حيان وميله إلى نقد ذوى السلطان تغليبا للمصلحة العليا كانت السبب وراء الصداقة التى ربطته بالفقيه والمؤرخ أبى القاسم سوار بن أحمد ابن سوار القرطبى ، الذى كان يحرص بدوره على الابتعاد عن ذوى السلطان ، ويتعفف عن منافقة ملوك الطوائف طمعا فى جاه ومركز ، واكتفى باهتمامه بعلمه ودراساته[٤٢] .

كذلك جمعت أواصر الصداقة بين مؤرخنا ابن حيان وبين المؤرخ والفيلسوف والفقيه الشهير أبى محمد بن حزم لاتفاق كليهما فى الرأى حول سياسة ملوك الطوائف .

وقد وصف ابن حيان صديقه ابن حزم بأنه كان حامل فنون الحديث والفقه والجدل والنسب[٤٣] . مع التعمق فى كثير من العلوم القديمة من المنطق والفلسفة ، كما أكد على تشيعه لأمراء بنى أمية ماضيهم وباقيهم بالمشرق والأندلس وانحرافه عن سواهم[٤٤] . ولعل هذا الولاء للأمويين وخلافتهم كان من أهم العوامل التى قربت بين هذين المؤرخين .

وكان ابن حزم من أكثر الناقدين لسياسة حكام الأندلس فى عصرى الفتنة والطوائف فقد وصف الأحوال السياسية فى بداية عصر الطوائف بقوله « فضيحة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها : أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بإمرة المؤمنين ويخطب لهم فى زمن واحد وهم : خلف الحصرى بإشبيلية على أن هشام بن الحكم ، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة ومحمد بن إدريس ابن على بن حمود بمالقة ، وإدريس بن يحيى بن على بن حمود ببشتر[٤٥] .

كذلك انتقد ابن حزم الفقهاء والعلماء الذين هرعوا لخدمة ملوك الطوائف غير عابئين بسياساتهم المشينة طمعا فى منصب وجاه وهو فى ذلك يقول فى إحدى رسائله :

« وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة ، وملابسه الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض فهذا أمر امتحنا به ، نسأل الله السلامة وهى فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى ... وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شئ من أندلسنا هذه أولها عن آخرها محارب الله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد ... فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذم جميعهم ، فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعة »(٤٦) .

ومن النحاة الذين لم يكتفوا بالتعمق فى دراساتهم اللغوية وإنما آمنوا بقضية أمتهم ودينهم فى ذلك العصر ، يبرز اسم أبو الحسن على بن محمد بن السيد النحوى ، البطليوسى ، من غرب الأندلس الذى كان معروفا بالخيطيال ، وهو أخو العلامة الكبير أبى محمد ابن السيد .

ويذكر ابن بشكوال إن حياته انتهت لذلك فى السجن بأحد معتقلات القائد ابن عكاشة فى قلعة رباح فى سنة ٤٨٠هـ(٤٧) .

٢ - الصورة الثانية من صور مقاومة علماء الأندلس للخطر الأسبانى وتتمثل فى دعوتهم للم الشمل والوحدة الإسلامية فى عصر الطوائف :

يبرز اسم الفقيه القاضى العلامة أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد المعروف بالباجى كأحد أكبر الدعاة إلى ضرورة وحتمية توحيد الصف الإسلامى

والتضامن وجمع كلمة المسلمين بالأندلس لمواجهة مد حركة الاسترداد المسيحى الأسبانى فى عصر الطوائف .

وقد أثار المؤرخ الدكتور عبد الرحمن الحجى قضية للمناقشة فى كتابة «التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة» حول أهمية دور هذا الفقيه الكبير فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس[٤٨] .

وأبو الوليد الباجى ، فقيه كبير ، وشهير ، ولد ببطليوس فى النصف الثانى من ذى القعدة من سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، ونشأ بها ، وتولى التدريس والقضاء فى كثير من بلاد المشرق الإسلامى ، وله العديد من المصنفات والأشعار التى جمعها ولده أبو القاسم . وتعد مناقشاته لابن حزم فى جزيرة ميورقة من أشهر أعماله ، كما أنه أقام فى سرقسطة عدة سنوات أثناء حكم المقتدر أحمد بن هود ، هذا إلى جانب توليه الرد على رسالة راهب فرنسى فند فيها مزاعمه ودعاه إلى اعتناق الإسلام[٤٩] .

وقد قام الباجى بدعوته هذه لوحدة الأندلس فى بادئ الأمر من تلقاء نفسه ، ودون إيعاز من أى سلطة رسمية ، وكان ذلك فى أعقاب عودته من رحلته إلى المشرق الإسلامى التى استغرقت ثلاثة عشر عاما (منذ عام ٤٢٦هـ حتى عام ٤٤٠هـ)[٥٠]، فقد وجد ملوك الطوائف بعد عودته أحزابا مفترقة متقاتلة ، ومتناحرة فأخذ ينتقل بينهم يعظهم[٥١] ويدعوهم للم الشمل ومدافعة العدو المشرك . وهم يجلونه فى الظاهر ويستبردون نزعته فى الباطن ويستثقلونه على حد تعبير ابن بسام[٥٢] .

ولعل نشاطه وحماسته كانا سببا دعا المتوكل عمر بن الأفطس ملك بطليوس، أن يعهد إليه رسيما بالقيام بهذه الدعوة بعد أن أحس بجهوده المستميتة لجمع شمل المسلمين فى شبه القارة الايبيرية أمام الموجة الأسبانية الشرسة التى باتت تهدد كيان الممالك الإسلامية كلها آنذاك[٥٣] .

أما الفقيه والشاعر الكبير أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمـــرى ، الذى كان لمولده فى سنة ٣٦٨هـ فى قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ونشأته بـــها ، فى بيت أدب وعلم حيث كان والده أحد الشعراء البارعين والمشهورين فى الترســـل الأدب ، أكبر الأثر فى إتقانه علوم السنة والقراءات، حتـــى حـــاز لقـــب « حـــافظ المغرب » وقد وصف فى المصادر بأنه كان ناصرا للسنة ولكنه كـــان فـــى نفـــس الوقت مستقلا فى فكره بعيدا عن الجمود ، مجددا فى الفقه والحديث مجتـــهدا فـــى استنباط المسائل الفقهية والأحكام ، يمحص آراء الأئمة ويستدل لرأيه بالسنة ويقارع الحجة بالحجة(٥٤) . وقد تولى أبو عمر عبد البر النمرى ، قضاء كل من الأشـــبونة وشنترين فى عهد المظفر بن الأفطس ، ولهذا فقد انتقل من قرطبـــة إلـــى غـــرب الأندلس ، وأخذ يتجول فى مدنها ، ثم توجه بعد ذلك إلى شرق الأندلس وتردد مـــا بين بلنسيه ودانيه وشاطبة داعيا إلى التوحيد ونبذ الفرقة .

ولأبى عمر بن عبد البر رسالة فى ذكر الجهاد واستنفار أهالى البلاد لمقاومـة العدو بعد نكبة مدينة بربشتر فى ٤٥٦هـ أوردها ابن بسام فى الذخيرة(٥٥) .

أما القاضى الفقيه ، والعالم ابو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأســدى ، الذى كان يعد من جلة الفقهاء ، وكبار العلماء بالأندلس فقد كان حافظا للرأى مـــهتما بالمسائل ، متبصرا بالأحكام والنوازل كما أنه تولى الشورى والصـــلاة بقرطبـــة ، والقضاء بالعدوة وغرناطة فكان أيضا من أبرز من دعا أهـــل الأندلـــس وملوكـــهم للتوحد أمام الخطر الأسبانى .

ويرجع القاضى أبو الأصبغ بأصله إلى وادى عبد الله من أعمال حيان وقـــد ولد فى سنة ٤٣١هـ .وتوفى فى الخامس من محرم من ســـنة ٤٨٦هـــ . وقـد استخدمه الأمير عبد لله بن بلقين بن باديس بن حبوس كرســـول لـــه لـــدى أمـــير المرابطين يوسف بن تاشفين عندما استقر بسبتة برسم عبور البحر من أجل الجـــهاد فى الأندلس لإنقاذها من مصيرها المحتوم .

وقد حث ابن سهل الأمير المرابطى بالإسراع بالجهاد فقد كان ابن سهل يؤمن بأنه فى حكم ملوك الطوائف الضعاف المتناحرين ، والمتحالفين مع ملوك أسبانيا ، هلاك للإسلام فى الأندلس ، لذلك فقد أخذ يتقرب ليوسف بن تاشفين ويدفعه لإنهاء حكم الطوائف ولكن ابن تاشفين سرعان ما انقلب عليه وتخوف منه وشك فى ولائه، لأنه انقلب على أسياده من بنى زيرى ، فأبعده عنه(٥٦) . ومن الجدير بالذكر أن كلا من المؤرخ ابن حيان وابن حزم قد تخطيا فى كتاباتها مرحلة النقد السياسى لملوك الطوائف إلى مرحلة الدعوة للم الشمل والتوحد ويتضح ذلك من خلال تحليلاتهما للأوضاع السياسية آنذاك(٥٧) .

٣ - الصورة الثالثة من صور مقاومة علماء الأندلس للخطر الأسبانى وتتمثل فى الجهاد بالنفس والمشاركة فى المعارك الحربية :

لم يكتف بعض العلماء الأندلسيين بالصورتين السابقتين لمقاومة العدو الأسبانى وحماية الأمة الإسلامية فتطور دورهم إلى ما هو أكثر إيجابية وفاعلية وهو المشاركة بالجهاد بالنفس فى المعارك الحربية ضد القوى الأسبانية .

ولم تكن هذه الظاهرة هى وليدة عصر الطوائف ، إذ كان من المألوف أن نقرأ بين سطور المصادر أسماء علماء وفقهاء مرابطين ومجاهدين شاركوا فى الجهاد فى الأندلس ضد القوى الأسبانية فى العصور الإسلامية السابقة ، ومن هؤلاء على سبيل المثال ، الفقيه محمد بن أبى الحسام طاهر القيسى الذى عرف بالشهيد لاستشهاده فى إحدى المعارك ضد الأسبان ، وكان قد شهد فتح مدينتى قلمرية وسمورة مع المنصور محمد ابن أبى عامر ، كما أنه أمضى حياته مرابطا فى مدينة طلبيرة وتوفى شهيدا فى سنة ٣٧٩هـ(٥٨) .

كذلك نطالع اسم الفقيه الزاهد موسى بن عبد الرحمن الذى توفى فى سنة ٣٧٨هـ ووصفه ابن بشكوال بأنه كان من أشهر المجاهدين فى طليطلة(٥٩) . واسم الفقيه المجاهد أبو بكر محمد بن سعدون التميمى الجزيرى المتعبد الذى اختار

المرابطة والجهاد فى بلاد المغرب وقد ذكر المقرى أنـــه غــزا غــزوات عديــدة وتعرض للجهاد وحرص عليه أيضا وتوفى فى عام ٣٤٤هـ(٦٠) . أمـــا فتــح بــن إبراهيم الأموى المعروف بابن القشارى الطليطلى فقد وصفه ابن بشكوال بانه كـــان شيخا صالحا كثير الصلاة والصدقة والجهاد وقد توفى فى سنة ٤٣٠هـــ . كما أشار ابن بشكوال إلى الأديب العالم العابد المتقشف محمد بن عبد السلام الذى جاهد فـــى عصرى الخلافة والفتنة وفقد فى وقعة قتيش فى سنة ٤٠٠ هـــ مع الأديـــب أبـــى عثمان القزاز(٦١) ، والقاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بـــابن الـــبريلى التطيلى ، قاضى تطيلة الذى حج بالمشرق فى سنة ٣٨١هـــ ودرس علـــى علمـــاء مصر وعرف بالعلم والصلاح والجهاد بثغرة وتوفى فى سنة ٤٠٠هـــ(٦٢) .

وفيما يتعلق بعصر الطوائف موضوع البحث فنطالع اسم الأديب هشام ابـــن إبراهيم التميمى ، الذى شاور بالأحكام فى طليطلة وعرف بالشـــجاعة فـــى ميـــدان القتال والفروسية ، واستشهد مجاهدا فى سنة ٤١٩هـــ فى عصر الفتنـــة وبدايـــات الطوائف(٦٣) ، وكذلك سميه هشام بن محمد بن سليمان القيسى الطليطلى الذى كـــان من تلاميذ الشيخ أبى عمران الفاسى بالقيروان ، وكان معروفا عنه حبه لجهاد العدو والمرابطة فى الثغور وتوفى فى عام ٤٢٠هـــ فى بداية عصر الطوائف(٦٤) .

أما أبو القاسم ثابت بن محمد بن وهب بن عباس الأموى ، الذى كـــان فقيـــها أشبيليا (ولد فى إشبيلية فى سنة ٣٣٨هـــ) ، درس بقرطبة وروى بها عـــن أبـــى عيسى الليثى وابن القوطية ، كما اشتهر بحفظه الأخبار والتواريخ ، فقد وصف بـــأن كان من أهل الطهارة والعفاف والثقة والجهاد فى سبيل الله ، وتوفى فى مدينته فـــى عام ٤٢٦هـــ(٦٥) .

كذلك نطالع اسم الفقيه خلف بن أحمد بن خلف الأنصارى الذى كـــان عالمـــا من طليطلة فى المسائل والأحكام ، وقد رفض خلف بن أحمد تولى قضاء مدينتـــه ، وارتحل إلى المشرق ، وأوقف من خيله ما يجاهد عليها فى سبيل الله ، وهـــو مـــن

أساتذة أبى الوليد الباجى بث فيه حبه للجهاد وضـــرورة التمســك بعــرى الوحــدة الإسلامية . وتوفى هذا العالم فى أول عصر الطوائف ، بعد سنة ٤٢٠هـ(٦٦) .

أما النحوى محمد بن يوسف بن محمد الأموى القرطبى المعروف بأنه كـــان من أهل الضبط والإتقان ، وله نصيب وافر فى علوم اللغة العربية والحساب ، فقــد ترك قرطبة فى زمن الفتنة واستوطن الثغور مجاهدا فى سبيل الله ثـــم عـــاد إلـــى قرطبة بعد استقرار الأمور بها(٦٧) وتوف فى سنة ٤٢٩هـ ومن استوطن الثغــور أيضا ورابط بها وجاهد ، الفقيه الزاهد عبد الله بن سعيد بن لباج الأموى الشـنتجيالى الذى جاور مكة لمدة أربعين عاما ثم عاد للأندلس فى عـــام ٤٣٠هــــ ، واســتقر بالثغر الجوفى فى غرب الأندلس بنية جهاد العدو والمرابطة ، ورابط بـــالفعل فـــى بطليوس ومرجيق وشلب ورباط الريحانة من أعمالها حيث كان له فـــرس يســميه مرزوق يقاتل به بنية الشهادة ، كما كان يروى الحديث بتلك الجهات ، وقـــد توفـــى عام ٤٣٦هـ ودفن بقرطبة(٦٨) ، وكذلك الفقيه الزاهد المحدث أبو الربيع سليمان بـن إبراهيم بن هلال القيسى ، الطليطلى ، الذى فرق جميع ماله ولزم الثغــور وتوفـــى بحصن غرماج(٦٩) .

ومن علماء الأندلس الذين شاركوا فى موقعة الزلاقـــة الشـــهيرة فـــى ســـنة ٤٧٩هـ واستشهدوا فيها ، الفقيه الزاهد ، والشاعر أحمد بـــن محمـــد بـــن فـــرج الأنصارى المعروف بابن رميلة القرطبى ، الذى كـــان كثـــير الصدقـــة ، وفعـــل المعروف ، وقد استشهد فى الزلاقة بعد أن استمات فى القتال ، غير مدبر على حـــد وصف ابن بشكوال(٧٠) .

كذلك استشهد فى معركة الزلاقة المفكر والفيلسوف أبو رافع الفضل بن الفقيه الكبير أبو محمد بن حزم الظاهرى ، فقد تشرب من والده مبادئ العمل على الوحـــدة الإسلامية والتضامن ، وجاهد فى معركة الزلاقة تحت قيـــادة المعتمـــد بـــن عبـــاد واستشهد(٧١) بها فى عام ٤٧٩هـــ ، ومن العلماء الذين شاركوا فـــى وقعـــة قتنـــدة

واستشهدوا بها الفقيه محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكريا المعروف بـــابن الفــراء الذى كان قاضيا لمدينة المرية ومن ابرز علماء عصره وانتهت حياته شـــهيدا فـــى هذه الموقعة فى سنة ٥١٤هـ(٧٢) .

ومن شهداء قتندة أيضا الفقيه الشهير حسين بن محمد بن فيرة بن حيون بـــن سكرة الصدفى ، الذى كان من أهل سرقسطة وسكن مرسية . وكان الصدفـــى مـــن تلاميذ أبى الوليد الباجى ، آمن بأفكاره وتشرب مبادئه ، ورحل إلى المشـــرق فـــى سنة ٤٨١هـ ، وتتلمذ هناك على كبار الأئمة والفقهاء فى مصر والعراق ثم عـــاد للأندلس فى سنة ٤٩٠هـ وقصد مرسية ودرس بجامعها مصنفات الحديث والخط ، كما استقضى بها ، وتوفى الصدفى شهيدا فى موقعة قتندة وكان يومها فى الســـتين من العمر(٧٣) .

كذلك نرصد اسم العالم الفقيه أحمد بن محمد بن عمر الزاهد الـــذى أمضـــى حياته ملازما لثغور المسلمين ، مجاهدا صواما قواما وقد عاصر المأمون بـــن ذى النون وتوفى فى سنة ٤٥٠هـ(٧٤) .

الخاتمة

لقد كان للدور الكبير الذى قام به هؤلاء العلماء الذين تعرضنا لسيرتهم أثناء البحث أثر كبير فى إفاقة ملوك الطوائف المتناحرين من غفوتهم ، خاصة فى أعقاب سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، فتناسى هؤلاء الملوك المسلمين خلافاتهم للحظة قصيرة من عمر الزمان وتعاونوا مع المرابطين لمواجهة حركة الاسترداد الأسبانى المسيحى فى موقعة الزلاقة .

إن هؤلاء العلماء الأندلسيين الذين أرخنا لهم فى هذا البحث من فقهاء ومؤرخين وشعراء وأدباء ، رغم قلة عددهم بالنسبة لعدد العلماء فى الأندلس آنذاك ، تميزوا فى تصورى ببعد نظر سياسى كبير ، وضمير حى ، وواعز أخلاقى ، وشجاعة كبيرة وعمق فكرى ، جعلهم يفضلون مصلحة أمتهم ودينهم على مصالحهم الشخصية ، فخاضوا طريقا كان صعبا ووعرا ، وهو نقد ملوكهم ودعوة الشعب الأندلسى المسلم للتوحد ثم الجهاد بأنفسهم فى نهاية الأمر .

لقد أدرك هؤلاء العلماء أنهم أمام حركة صليبية أوروبية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وليس مجرد حرب مع عدو أسبانى مجاور لهم ، ويؤكد ذلك أن الفونسو السادس ملك قشتالة وليون الذى استولى على طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، قام باستنفار أمراء أوروبا وملوكها عندما علم بقدوم المرابطين من بلاد المغرب لنجدة ملوك الطوائف فى أعقاب سقوط طليطلة .

ويذكر الحميرى أنه قد اجتمع له قبيل موقعة الزلاقة مباشرة فى سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م من الجلالقة والفرنجة ما لا يحصى عدده[٧٥] . وتبالغ مدونة لوزيتانو المسيحية فى ذكر من توافد من الممالك والإمارات الأوروبية على الفونسو السادس لا سيما من الفرنجة من فرنسا ومن بلاد الألب كما تؤكد المدونة العامة الأولى Primera Cronica General de Espania ، على انضمام قوات كبيرة من الفرنسيين ومن روما إلى قوات الفونسو السادس . وقد شارك القسس والرهبان

الأسبان والأوروبيين فى هذه الموقعة ضد ملوك الطوائف والمرابطين ، رافعين الصلبان وناشرين الأناجيل أسوة بما سيفعله الصليبيون فى المشرق الإسلامى بعد ذلك بعشرة سنوات ، كذلك توافدت على الفونسو السادس فى أعقاب هزيمته فى الزلاقة على يد ملوك الطوائف والمرابطين ، قوات أوروبية لنجدته ، من ليموزين وبواتو ونورماندى بصحبة ريمون دى سان جيل كونت تولوز الذى سيشارك فى الحملة الصليبية الأولى فيما بعد بنحو عشرة أعوام ، وتؤكد المدونة العامة الأولى أن ريمون دى سان جيل قد حصل على مباركة من البابا أوربان الثانى لمشاركته فى هذه الحملة لانجاد الملك القشتالى ، وأن ريمون دى سان جيل كانت تربطه صلة مصاهرة بالملك الفونسو السادس(٧٦) .

إن هذه القلة القليلة من علماء الأندلس التى أدركت مدى أبعاد المخطط الأسبانى فى ذلك الوقت وخطورته بعد حصوله على التأييد والدعم المعنوى والعسكرى من البابوية وملوك أوروبا ، تبينت أن المسلمين أمام خطر أسبانى ، أوروبى ، صليبى ، فى حقيقة الأمر فلم تتهاون أو تتقاعس عن أداء دورها ورغم ضياع الإسلام فى الأندلس فى نهاية الأمر ، بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م ، إلا إننا نقدر ، ونحمد لهؤلاء العلماء إخلاصهم لدورهم كحملة أمناء للعلم ، ومحاولتهم الشريفة لإنقاذ أمتهم ودينهم .

الهوامش

(١) غلب العنصر العربى على قرطبة فى عصر الدولة الأموية بينما غلب المولدون على أشبيلية وطليطلة ، كما تمركزوا مع البربر فى غرب الأندلس ، أما الجنوب ولا سيما غرناطة ومالقة فكان معظم سكانه من البربر (السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، ص ٣٦٤) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٤ وارجع كذلك إلى Munes (H), Essai sur La chute du Califat Umayyade de Cordoue en 1009, Le Caire, 1948, p. 169.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، طبعة بيروت ١٩٥٠، جـ٢ ، ص ٩٦ .

(٤) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، مدريد ، ١٩٢٦ ، ص ٤٦ – ٤٨ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ١١١ .

(٥) من الأمثلة على ذلك تحالف الثائر المولد ، سليمان بن مرتين المعروف بقعنب مع الثائر البربرى محمود بن عبد الجبار المصمودى وأخته جميلة فى ماردة ضد الأمير عبد الرحمن الأوسط . (لمزيد من التفاصيل راجع سحر عبد العزيز سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ١٩٨٩، جـ١ ، ص ٢٣٤ وما يليها) .

(٦) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٢٦٧ وما يليها .

(٧) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى (سحر سالم ، تاريخ بطليوس ، جـ١ ، ص ٢٣٧ ، وما يليها) .

(٨) من ذلك استعانة واضح الفتى بقومس برشلونة ريموند بوريل الثالث وأخيه أرمنجول الذى يسميه العرب ارمقند فى مقابل تنازله لهم عن مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط واستباحوا المدينة ، وأهلها عند دخولهم فيها . (أرجع إلى ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص ٩٤) .

Levi Provencal Historie de l'Espagne musulmane, Leiden,1950,T, II, p. 313.

(٩) راجع أحداث سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون رغم تحالفه مع حاكمها القادر بن ذى النون ومع جده المأمون من قبله ، الذى آواه ، وأجاره

أثناء حرب ألفونسو السادس مع أخويه في (ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٨) .

(١٠) سعد إسماعيل شلبي ، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (عصر ملوك الطوائف ، طبعة القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٤٥) .

(١١) إحسان عباس ، وداد القاضي ، دراسات في الأدب الأندلسي ، طبعة الدار العربية للكتاب ، ١٩٧٨ ، ص٩ وما يليها .

(١٢) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى المرجع السابق ، ص ١٧ .

(١٣) نفسه ، ص ١٧ – سعد إسماعيل شلبي ، البيئة الأندلسية ، ص٥٦.

(١٤) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(١٥) المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، مجلد٢ ، ص ٩٣، ٩٤ .

(١٦) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، طبعة ١٩٦٤ ، جـ١ ، ص ٢٣٤ ، سعد إسماعيل شلبي ، البيئة الأندلسية ، ص ٢٨٣ .

(١٧) المقري ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(١٩) نفسه ، وراجع ما ذكره ابن بشكوال في الصلة ، طبعة تراثنا ، ١٩٦٦ ، جـ٢ ، ص ٤٠٢ ، ترجمة ٨٦٥ .

(٢٠) ابن سعيد ، المغرب ، جـ١ ، ص ٢٣٥ ، سعد إسماعيل شلبي ، المرجع السابق ص ٢٨٣ .

(٢١) المقري ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٩٣ ، ٩٤، وكان ولده أبو القاسم الحسن الهوزني خال القاضي أبو بكر العربي (المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨) .

(٢٢) ابن سعيد ، المغرب ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ ، جـ١ ، ص ٢١ .

(٢٣) ابن شكوال ، الصلة ، جـ١ ، ص ٢٨٥ ترجمة ٦٢٩ .

(٢٤) الحميرى ، الروض المعطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، بـــيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٩٠ .

(٢٥) المقرى ، نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٣٥٢ ، وراجع ابن سعيد ، المغــرب ، طبعــة ١٩٨٠ ، جـ٢ ، ص ٢١ .

(٢٦) المصدر السابق ص ٢١ ، وارجع كذلك إلى المقرى ، جـ١ ، ص ٥١٤ .

* سحر عبد العزيز سالم ، بنو أبى عبدة ، وزراء وقادة الدولة الأموية فى الأندلـــس ، أحد أبحاث مجموعة « بحوث مشرقية ومغربية فى التاريخ والحضارة الإســلامية» الإسكندرية ، ١٩٩٧ ، جـ١ ، ص ١ – ٥٦ .

(٢٧) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٥٨٠ ، ترجمة ١٢٧٨ – الضبى بغية الملتمــس ،ص ٥١ ، ترجمة ٢٥ .

(٢٨) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٤٠٣ ترجمة ٨٦٨ . ويذكـــر ابـــن بشــكوال ترجمة للفقيه الكبير قاضى الجماعة محمد بن أحمد بن خلف المعروف بابن الحـــاج الذى ولد فى سنة ٤٥٨ ، وكان مـــن جلــة الفقــهاء وكبــار العلمــاء والمحدثيــن والنحويين، الذى قتل ظلما بالمسجد الجامع بقرطبة وهو ساجد سنة ٥٢٩هـ وإن لـم يحدد سبب مقتله (المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٨ ، ترجمة ١٢٧٨) .

(٢٩) ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق د. إحسان عبـاس ، طبعة بيروت ، ١٩٧٨ ، القسم لأول ، المجلد الثانى ، ص ٨٨٦ – إحسان عبـاس ، وداد القاضى ، دراسات فى الأدب الأندلسى ، ص ١٩ .

(٣٠) ابن بسام ، الذخيرة ، المصدر السابق ، ص ٨٨٦ وما يليها .

(٣١) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، جــــ٤ ، ص ٢٥٥ .

(٣٢) أهتم هذا الأديب بالنظم أكثر من اهتمامه بالنثر ، وتوفى سنة ٥٠٨هـ (الضبـــى ، بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس ، ١٩٦٧) .

(٣٣) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ١ ص ١٥٣ ، ترجمة ٣٤٥ – محمود على مكى فـي تحقيقه لكتاب المقتبس من أبناء أهل الأندلس لابن حيان ، طبعة بـيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٠٤ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٣٤٥ – على أدهم ، بعض مؤرخى الإسلام ، طبعة القـاهرة بدون تاريخ ، ص ٦٥ وما يليها .

(٣٥) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ١ ، ص ١٥٣ ترجمة ٣٤٥ .

(٣٦) لمزيد من التفاصيل عن حياة ابن حيان ، أرجع إلى محمود على مكى فـي تحقيقـه لكتاب المقتبس لابن حيان ، ص ٤٠ وما يليها .

(٣٧) المصدر السابق ، ص ١١٥ – على أدهم ، بعض مؤرخى الإسلام ، ص ٦٥ ومـا يليها .

(٣٨) محمود على مكى فى تحقيقه للمصدر السابق (المقتبس لابن حيان) ص ١١٦ .

(٣٩) ابن عذارى، البيان المغرب ، طبعة بيروت ، ١٩٥٠ ، جـ٣ ، ص ٢٥٤ – ٢٥٥.

(٤٠) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م١ ، ص ١٨١ – ١٨٢ .

(٤١) راجع ما ذكره د. محمود على مكى فى تحقيقه لمقتبس ابن حيـان ، ص ٤٥ – ٤٦ ويذكر الدكتور مكى أن ذلك لم يمنع ابن حيان من التغاضى عن مبادئه هـذه فـى بعض المناسبات القليلة ، من ذلك إهدائه تاريخه الكبير إلى المأمون بن ذى النـون ملك طليطلة ، رغم أنه كان قد وصف مساوئ أسلافه ومفاسد حكمـهم ، ثـم هنـأ المعتمد ابن عباد بفتح قرطبة وظهوره على المأمون بن ذى النون الـذى سـبق أن أهداه تاريخه وطرزه باسمه . كذلك قام بمدح الوزير ابن السقاء ، وزير أبى الوليـد ابن جهور وهو ما أثار ابن بسام على ابن حيان فنقده فى كتابه الذخيرة على موقفـه هذا نقدا لاذعا (أرجع لمحمود على مكى فى تحقيقه لكتاب المقتبـس ، ص ٤٨ – ٥٠) .

(٤٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٢٣ – محمود على مكى فى تحقيقه للمقتبس ، ص ٥٣ – ٥٤ .

(٤٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م١ ، ص ١٦٧ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٤٥) ابن حزم ، نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، تحقيق د. شوقى ضيف ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥١ ، ٨٣ – ٨٤ .

(٤٦) ابن حزم ، رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، ضمن مجموعة رسائل ابن حزم بعنوان « الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى » تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٧٢ – ١٧٤ .

(٤٧) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٤٢٢ ، ترجمة ٩٠٣ .

(٤٨) أرجع إلى عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى منذ الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٣٣٦ وما يليها .

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن أبى الوليد الباجى أرجع إلى ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ص ٩٤ – ابن خاقان ، قلائد العقيان القاهرة ، ١٣٢٠ ، ص ١٩٦ – ابن الآبار ، التكملة ، جـ١ ، ص ٣٩١ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٢٧٢ .

(٥٠) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٧١ ، جـ٢ ، ٤٠٨ ، ترجمة ٢٧٥ – النباهى المالقى ، تاريخ قضاة الأندلس ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٩٥ – المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٥١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، وارجع كذلك إلى القاضى عياض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بيروت ، ١٣٨٤/١٩٦٥ ، ٣ – ٤ /٨٠٨ .

(٥٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ق٢ ، م١ ، ص ٩٥ – ٩٦ .

(٥٣) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى سحر سالم ، تاريخ بطليوس ، جـ٢ ، ٣٤٠ وما يليها .

(٥٤) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب ابن عمر بن عبد البر النمرى ، التمهيد لما فى الموطأ فى المعانى والأسانيد ، تحقيق د. مصطفى العلوى ، الرباط ، ١٩٦٧ ، جـ١ .

(٥٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص ١٧٣ - سحر سالم ، تاريخ بطليوس ، جـ٢ ، ص ٣٥ .

(٥٦) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٤٣٨ ، ترجمة ٩٤٢ - وأرجع كذلك إلى النباهى ، المرقبة العليا ، ص٩٦ .

(٥٧) لمزيد من التفاصيل أرجع إلى عبد الرحمن الحجى ، تاريخ الأندلس ، ص ٣٤٦ .

(٥٨) الضبى ، بغية الملتمس ، ص ٨٤ ، ترجمة ١٥٤ .

(٥٩) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٦٠٨ ، ترجمة ١٣٣٠ .

(٦٠) المقرى ، نفح الطيب ، طبعة بيروت ، ١٩٦٨ ، تحقيق د. إحسان عباس ، مجلد ٢ ، ص ١٣٩ .

(٦١) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ، ص ٤٨٨ ، ترجمة١٠٥٤ .

(٦٢) المصدر السابق ، ـ٢ ، ص ٤٨٨، ترجمة ١٠٥٥ .

(٦٣) نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٤٨ ، ترجمة ١٤٢٢ .

(٦٤) نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٤٩ ، ترجمة ١٤٢٦ .

(٦٥) نفسه ، جـ١ ، ص ١٢٢ ، ترجمة ٢٨٦ .

(٦٦) نفسه ، جـ١ ، ص ١٦٨ترجمة ٣٧٨ .

(٦٧) نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٢١ ، ترجمة ١١٣٧ .

(٦٨) نفسه ، جـ١ ، ص ٢٧٢ ، ترجمة ٥٩٨ .

(٦٩) نفسه ، جـ١ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ترجمة ٤٥٠.

(٧٠) نفسه ، جـ١ ، ص ٦٨ ، ترجمة ١٤٤ .

(٧١) لمزيد من التفاصيل عن شخصية أبى رافع الفضل بن حزم وجهاده ، ارجع إلى سعد إسماعيل شلبى ، البيئة الأندلسية ، ص ٤٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ١٣ .

(٧٢) ابن بشكوال ، جـ٢ ، ص ٥٧٢ ، ترجمة ١٢٦١ .

(٧٣) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٤٤ ، ترجمة ٣٣٠ .

(٧٤) نفسه ، جـ١ ، ص ٥٩ ، ترجمة ١٢١ .

(٧٥) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص٨٨ .

(76) Francisco Henrique Florez, Espana Sagrada t, XIV, Madrid, Chronicon Luisitanum, p.405, Aera 1125.

حيث ورد فى هذه المدونة النص التالى الذى يؤكد وفود فرنسيين وأوربيين مــن بــلاد الألب لمساندة الفونسو السادس فى موقعة الزلاقة .

« Ubi unanimities convenerunt cum rege nostro christiani a partibus Alpes, multique Francorum in adjutorium ci affuerunt ».

أرجع كذلك إلى :

Primera Cronica General de Espana, editada por Ramon Menendez Pidal, Madrid, 1977, T. II, 557, 520, 521.

الغرب الأوروبى و حركة الإصلاح

فى الدولة العثمانية

أ. د. سعيد بن سعد سفر الغامدى(*)

١ – بداية حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية وموقف أعضاء الهيئة الإسلامية منها :

بلغت الدولة العثمانية فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى أوج عظمتها وقوتها ، وعقدت لها الزعامة على العالم الإسلامى السنى ، منذ أن استطاع السلطان سليم الأول (٩١٨ – ٩٢٧هـ/١٥١٢ – ١٥٢٠م) أن يهزم الشاه إسماعيل الصفوى ، شاه إيران ، وحامى المذهب الشيعى ، ثم استطاع السلطان سليم أن يحقق انتصاره أيضاً على الدولة المملوكية فى الشام ومصر . وتأكدت زعامة العثمانيين للعالم الإسلامى بدخول إقليم الحجاز سلمياً ضمن السيادة العثمانية، وتشرف سلاطين الدولة العثمانية بخدمة وحماية الحرمين الشريفين .

لكن بدأت – منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين – بوادر الضعف المبكر تدب فى الدولة العثمانية . وقد تبين ذلك من خلال المعاهدات التى عقدتها الدولة مع بعض الدول الأوربية ؛ حيث تنازلت فيها الدولة العثمانية عن كثير من مظاهر قوتها ، التى كانت تتعامل من خلالها مع تلك الدول .

ومنذ القرن التاسع عشر ازداد ضعف الدولة العثمانية ، وازدادت تبعاً لذلك أطماع الدول الأوربية فى ممتلكاتها ، وعرفت عندها الدولة العثمانية – فى الدوائر السياسية الأوربية – بالرجل المريض . وكان أن سارعت دول أوربا إلى السيطرة على هذا الجزء أو ذاك من ممتلكات الدولة العثمانية . ولم يقارب القرن التاسع عشر على الانتهاء إلا وقد خسرت الدولة معظم ممتلكاتها فى شرق أوربا ، وشمال إفريقية ، ولم يبق لها فى تلك البلاد إلا مجرد الاسم .

(*) أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض .

ونظراً لعوامل ومظاهر الضعف السالفة ، أحست الدولة العثمانية منذ القــرن السابع عشر بحاجتها إلى الإصلاح ، وظلت هذه الفكــرة تشـغل أذهــان بعـض السلاطين والمفكرين ورجال السياسة فى الدولة ، منذ عهد كــل مــن الســلطانيين عثمان الثانى (١٠٢٨ - ١٠٣٢هـ/١٦١٨ - ١٦٢٢م) ومراد الرابــع (١٠٣٣ - ١٠٥٠هـ/١٦٢٣ - ١٦٤٠م) .

وكانت حركة الإصلاح فى ذلك العهد تنبع من واقع حركة التاريخ العثمـانى ، وفى إطار الثقافة العثمانية الإسلامية ، وبتشخيص السبب فى ضعف الدولة وجد أنـه الابتعاد عن تطبيق الشريعة الإسلامية كاملة فى كافة مناحى الحيـــاة . وهــذا مــا تضمنته اللائحتان الإصلاحيتان اللتان تقدم بهما المفكـــر العثمانى « قوجى بــك » إلـــى كــل مــن الســلطان مــراد الرابــع ، والســلطان إبراهيــم الأول عـــام ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م.

وعندما أدرك السلطان مراد الرابع أن الدولة العثمانية تعانى من الانـــهيار ، أخذ فى إجراء بعض الإصلاحات الحربية البســيطة بغيــة وقفــه ، وقــرن ذلــك بإجراءات إدارية بمساعدة قاضى عسكر الأناضول .

وفى نهاية ذلك القرن تبنت أسرة كوبريلى بعض الإصلاحات ، كان من بينــها نظام جديد خاص بتحسين أحوال الرعايا ، بيد أن هذا الإصلاح لم يتضـــح ، ولــم تظهر له آثار ذات شأن[١] .

وكانت حاجة الجيش إلى الإصلاح أهم مالفت انتباه هؤلاء السلاطين ولذا كان من الطبيعى أن يتجه الإصلاح إلى الجيش ، فالحكم العثمانى فـــى طبيعتــه حكــم عسكرى، والجيش هو الذى يحكم ، إلى جانب وظيفتــه الأصليــة فــى الحــرب . وانعكست هذه الصورة فى الهزائم المتلاحقة التى نزلت بالدولة العثمانية فــى ذلــك القرن مما تطلب الإسراع بإصلاح الجيش قبل غيره من إدارات الدولة[٢] .

وكان السلطان أورخان بن عثمان هو أول من كون هذا الجيش الانكشاري ووضع له نظاماً صيغ فى أربع عشرة مادة ، تضمنت النظام الداخلى للجيش ، وتنظيم علاقات أفراده بعضهم ببعض ، كما نصت على الطاعة والمطلقة والانقياد التام لأولى الأمر[٣] .

ويتبين من قانون أورخان ، أن نشأة الانكشارية كانت عسكرية دينية ، وقد عنى معظم السلاطين العثمانيين بالجيش ، وقادوه إلى معارك النصر والظفر وفتحوا به بلاد شرق أوربا ، حتى كان عهد السلطان محمد الثالث (١٠٠٤ - ١٠١٢هـ/١٥٩٥ - ١٦٠٣م) الذى سمح لبعض العناصر المختلفة مثل الفلاحين والحرفيين بالانخراط فى سلك الانكشارية ، بعد أن كان ذلك محظوراً عليهم من قبل .

وسرعان ما أخذ الفساد يتسرب إلى الجيش تدريجياً ، بعد أن أصبح الباب مفتوحاً أمام العناصر الأخرى للانتظام فى سلك الإنكشارية . وكانت النتيجة أن تضاعفت الأعداد المنتمية إلى وجاقات الإنكشارية ، وتضاءل ارتباطهم بثكناتهم ، كما أصبح قسم كبير منهم لا يذهب إلى الثكنات إلا لتسلم مرتباتهم ، وأهمل الأفراد واجباتهم فى الحرب ، بل أصبحوا يعتدون على السكان ويعيثون فى الأماكن التى يمرون بها فساداً ، وإذا ما نشبت الحرب لا يثبت منهم أحد ، بل يلوذ الجميع بالفرار[٤] .

ومن العوامل التى ساعدت الانكشارية فى تماديهم فى أعمال الفساد والخراب، تولى سلاطين ضعاف لا يستطيعون السيطرة عليهم والضرب على أيدى المفسدين ، كذلك أدى توقف الفتوحات العثمانية فى شرق أوروبا ووقوفها موقف المدافع عن نفسه فقط ، أدى ذلك إلى فراغ الجيش ، ولم يعد له مجال يستنفذ فيه طاقته فلجأ معظمهم إلى السلب والنهب والفساد. وأصبح الجيش العثمانى الانكشارى

فى القرون الثلاثة الأخيرة عامل فساد ، بعد أن كان عـــامل إصــــلاح ، وأداة هـــدم وتخريب بعد أن كان عنصر بناء .

أما الإصلاح الإدارى : فكان فى مقدمة السلاطين الذين اهتموا به الســـلطان مراد الرابع والسلطان أحمد الثـــالث (١١١٥ - ١١٤٣هـــ/١٧٠٣ - ١٧٣٠م) ويرى بعض المؤرخين أن الأخير أول سلطان اتخذ الخطوة الأولى نحـــو محاكـــاة الحضارة الغربية ، والاستفادة من المبادئ الملائمة فيها وساعده فى ذلـــك الصـــدر الأعظم إبراهيم باشا الذى تولى منصب الصدارة العظمى فـــى الفـــترة (١١٣١ - ١١٤٣هــ/١٧٨١ - ١٧٣٠م) .

وقد أرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا الوزير العثمانى سعيد جلبـــى ســـفيراً للدولة العثمانية فى باريس عام ١١٣٤هــ/١٧٢١م وكلفه بان يدرس عناصر المدنية الغربية التى يمكن تطبيقها فى الدولة العثمانية ، ولا تتعارض مع تعـــاليم الشـــريعة الإسلامية .

وعند عودة هذا السفير إلى أستانبول - بعد أن أدى المهمة التى كلف بها فـــى باريس - أوصى بإنشاء المطبعة فى الدولة العثمانيـــة . غـــير أن بعـــض القضـــاة والعلماء عارضوه فى ذلك ؛ وكان الدافع وراء تلك المعارضة هو الخـــوف علـــى المصحف من التحريف . غير أن شيخ الإسلام عبد الله أفنـــدى اقتنـــع بضـــرورة إصدار فتوى تجيز طباعة الكتب العلمية والتاريخية والقواميس ، واستثنت الفتـــوى عدم طباعة القرآن الكريم والكتب الشرعية ، وصدر فرمان سلطانى بذلك فـــى ١٢ شعبان عام ١١٤٠هــ/٥ يوليه عام ١٧٢٧م .

وقد أخرجت المطبعة سنة ١١٤٣هــ/١٧٢٩م أول كتاب باللغة التركية وهـــو ترجمة لمعجم الصحاح للجوهرى ، باسم (كتاب معجم وانقولى) ، ثم صدرت بعـــد ذلك مجموعة من الكتب فى العلم والمعرفة والخرائط(٥) .

كذلك نشطت حركة الإصلاح الإدارى والعسكرى فى عهد السلطان محمود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨هـ/١٧٣٠ - ١٧٥٤م) ، حيث أدرك هذا السلطان أهمية إعداد عساكر مدربة كخطوة أولى نحو الإصلاح ، ومهد لهذا العمل بنشر رسالة «أصول الحكم فى نظام الأمم» ، كما أمر بترجمة بعض الكتب التى تتحدث عن فنون الحرب والقتال من اللغات الأجنبية وخاصة من الإيطالية ، وشجع السلطان المضى فى مشروع الطباعة ، فأنشأ داراً لها ، وصرح للقائمين بالعمل فيها على نشر الكتب التاريخية والجغرافية ، وأمر بسبك الحروف اللازمة للطباعة ، وصب القوالب الضرورية لها ، وهكذا سار السلطان محمود الأول بالإصلاح الحربى والإدارى والثقافى فى نفس الوقت(٦) .

وحمل السلطان مصطفى الثالث (١١٧١ - ١١٨٧هـ/١٧٥٧ - ١٧٧٤م) أفكار محمود الأول الإصلاحية ، ولكن الحروب المتوالية لم تمكنه من نشر حركة الإصلاح على نطاق واسع . وقد أرسل السلطان أحمد رسمى باشا فى سفارة إلى فينا ؛ لدراسة أحوال أوربا وإعداد تقرير بذلك . وفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٥٩م أعاد فتح المهندسخانه ، أى (مدرسة الهندسة) سراً ، وقد استفاد هذا السلطان من مشورة البارون دى توت De Tott الذى وصل إلى استانبول سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م(٧) .

وكان مصطفى الثالث يكثر من دعوة السفراء الأوروبيين إلى حفلات فى عاصمته ، ويتحدث معهم فيها عن أفكاره الإصلاحية . وفى أحد الاجتماعات فى حضرة وزراء الدولة ، وباشوات الايالات ، وكبار العلماء صرح بأن فرنسا قد تعهدت له بإمداد الدولة العثمانية بعدد كبير من السفن الحربية ، لإنشاء أسطول جديد ، ودلل ذلك على تصميمه وقوة إرادته(٨) . وافتتح سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م (مهندسخانة بحرى همايون) أى كلية الهندسة البحرية الهمايونية ، وأراد أن يفتح قناة السويس ، كما أراد ربط نهر صالاريا عن طريق بحيرة صابانجه بخليج

إزميت ، ولكنه لم يوفق ، وأسس منشأة في مكة لضمان وفـــرة الميـــاه[٩] . وقـــام مصطفى الثالث بإكمال ما بدأه محمود الأول ، من حيث إعداد العســـاكر المدربـــة ورتب لذلك الجداول واللوائح .

وأهتم السلطان عبد الحميد الأول (١١٨٧ - ١٢٠٣هـــ/١٧٧٤ - ١٧٨٩م) بتقوية المدفعية والإكثار منها ، وتنظيم العساكر المدربة ، ولكنه لم يستطع أن ينفـــذ برنامجه الإصلاحي في هذا الشأن ، فقد عارضه ضباط الانكشارية ، كما أن أفـــراد العساكر أنفسهم لم يمكنهم أن يميزوا بين الخير والشر ، فأوقف ترتيـــب العســـاكر المدربة ؛ خوفا من الفتنة .

ولما أرسلت الحكومة الفرنسية الجنرال لافييت لمعاونة السلطان في إصلاحـــه الحربي ، كلفه عبد الحميد الأول بالإشراف على تنظيم كلية الهندســـة العســـكرية ؛ لكي تزود تلاميذها بخبرة كافية في علم التحصينات . وتم افتتـــاح الكليـــة ، وكـــان يدخلها الطالب من سن ٨ إلى ١٢ سنة ، وبعد ثماني سنوات من الدراسة والتدريـــب كان يمنح المتخرجون منهم لقب مهندس ، ونشطت حركة الترجمة للمؤلفات التـــي تتصل بالهندسة ، والهجوم والدفاع والفنون الحربية والرياضية . وكان مـــن بينـــها دائرة المعارف الفرنسية ، وكـــانت بالمكتبـــة أيضـــا كتـــب باللغـــة الإنجليزيـــة ، استحضرت إليها من إنجلترا ، وقام بالتدريس في الكلية مدرســـون مـــن إنجلـــترا وفرنسا وبعض الدول الأوربية .

ولكن إصلاح الشئون العسكرية ما كان يمكـــن أن يتـــم بـــإصلاح المدفعيـــة والبحرية وحدهما ، بل كان لابد من إصلاح أحوال سائر أسلحة الجيش ، ولا ســـيما فرق المشاة أيضا ، على أساس التعليم العسكري وفقا للأصول التي كان قد توصـــل إليها الأوربيون ، غير أن ذلك اصطدم بعقبات كثيرة من جراء أوضاع الإنكشـــارية المعارضة للتعليم العسكري ، وكل جديد ؛ خوفا من الاستغناء عن خدماتهم إذا مـــا تم للسلطان تكوين الفرق العسكرية الجديدة ، وكان شعارهم في إنكـــار ومعارضـــة

النظام الجديد قولهم : « إن ولى الله الحاج بكتاش قد بارك جماعة الإنكشارية - عند تأسيسها - ودعا لها بالنصر الدائم »[١٠] . إذ كانوا يزعمون أن بركة ذلك الولى ودعائه يغنيها عن كل تعليم ، ولهذا السبب توقف إصلاح الجيش .

أما الإصلاحات العسكرية والإدارية فى عهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٤ - ١٢٢٢هـ/١٧٨٩ - ١٨٠٧م) ، فقد قطعت شوطاً بعيد المدى ، لكن نظراً لكثرة العراقيل التى وضعت أمامها لم تأت ثمارها إلا فى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي .

واصطدام أمر إصلاح الجيش بمعارضة شديدة على الرغم من شدة الحاجة إليه ، واستنفذ جهود رجال الدولة مدة تزيد على نصف قرن ، كما تعرضت سائر الإصلاحات إلى معارضة أشد من ذلك بكثير ، مما تطلب جهوداً أضنى ومدة أطول .

وقد أعلن السلطان سليم النظم والإصلاحات المسماه بـ « النظام الجديد » فى سنة ١٢٠٧ - ١٢٠٨هـ/١٧٩٢ - ١٧٩٣م . واعتمد على الضباط والخبراء والمدربين والأوربيين والفرنسيين فى المدارس الحربية التى أنشأها .

وأرسلت الحكومة العثمانية إلى فرنسا فى خريف ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م قائمة تحتوى على أسماء مجموعة من الضباط والفنيين للاستعانة بهم ، فاستجابت الحكومة الفرنسية فى سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م لطلب السلطان ، وأرسلت إليه السفير الجنرال أوبرت Aubert Dubeyet ومعه مجموعة من الخبراء العسكريين[١١] ، وهدية من المدافع المتحركة على جرارات ؛ لكى تقوم الدولة العثمانية بتجربتها ، وصنع مثيل لها إذا ما اقتنعوا بجدارتها[١٢] .

ويعتبر السلطان سليم الثالث أكثر سلاطين آل عثمان تفتحاً ، ولم يكن ضيق الأفق كأبيه مصطفى الثالث . ونظر إلى الانكشارية على أنهم سبب معظم الكوارث التى حلت بالدولة العثمانية .

ولم يكتف السلطان سليم ورجاله بإنشاء الجيش الجديد في عاصمة الدولة العثمانية وحدها ، بل سعى وراء تعميم هذا النظام شيئا فشيئا ، وشجع الولاة أيضا على الأخذ بهذه النظام على أساس التعليم العسكري الجديد . ويقدر معظم المؤرخين أن مجموع أفراد جيش النظام الجديد بلغ في عهده (٦٠,٠٠٠) جندي . ويرى المؤرخ الأستاذ أنور ضياء كارال أن « النظام الجديد » : بمفهومه الضيق يعني إنشاء جيش مدرب على النظام الأوربي . وأما بمفهومه الواسع فيعني محاولة التخلص من الإنكشارية والحد من نفوذ العلماء وإجراء الإصلاحات في العلوم والفنون والزراعة والتجارة على النظم الأوربية ، واقتباس حضارة الغرب التي تقدم بفضلها[١٣] .

كذلك وضع السلطان سليم نظاما سماه « نظام السلطان سليم الثالث » ، وبين فيه الخطوات التي ينبغي إتباعها لإصلاح الجيش[١٤] .

ولكن أعداء النظام الجديد أخذوا يبثون الفتن وينشرون الإشاعات ، فاضطر السلطان سليم إلى إصدار فرمان في غرة ربيع الأول سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٥م يؤكد في أغلب مواده أنه متمسك بالشريعة الإسلامية ، وأنه محب للعلم والصوفية ، وذلك ليقضي على الفتن ، ولينفي الشائعات التي نادت بأن النظام الجديد تشبه بنظم الكفرة، ومن تشبه بقوم فهو منهم، وقد بدأ السلطان فرمانه بأن دافع عن النظام الجديد ، ووصفه بأنه فكرة حسنة ، رغم قلة عدد جنوده ووعد بأن يزيد من عدده في بعض مناطق البلقان مستقبلا ، ثم أشار إلى أنه متمسك بتعاليم الشريعة الإسلامية ، وإلى أنه يأمر بقراءة الفقه الشريف في المساجد كأجداده ، ثم أنه يطلب الدعوات الصالحة دوما من المشايخ ومن المتصوفة ، وينعم على الفقراء لاستجلاب دعواتهم الطيبة[١٥] .

وقد عارض الانكشارية ، ومن انضم إليهم من العلماء وطلبة العلم والمتصوفة النظام الجديد . واستفتوا شيخ الإسلام محمد عطا الله في عدم جواز

الأخذ بأنظمة الدول الكافرة ، فأفتاهم بعدم جواز ذلك ، كما أفتاهم بجواز خلع السلطان سليم من الحكم بناءاً على طلبهم . ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى إعدام السلطان سليم .

ومما ينبغى الإشارة إليه أن أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة لم يقفوا جميعاً موقف المعارض من حركة الإصلاح العثمانى ، سواء كان ذلك الإصلاح فى النواحى العسكرية ، أو فى النواحى الإدارية والثقافية ، فكان لديهم من الوعى الدينى ما يجعلهم يؤيدون أى إصلاح لا يتعارض مع تعليم الشريعة الإسلامية السمحة ، إذا كان الدين الإسلامى لا يمنع من الأخذ بأسباب القوة والعزة والمنعة لمواجهة عدو الله وعدو المسلمين ، بل على العكس من ذلك ، فالإسلام حث المسلمين على الاستعداد ما استطاعوا لمواجهة عدو الله وعدوهم .

وكان أن اقتصرت المعارضة على فئة قليلة من العلماء وشيوخ الإسلام وطلبة العلم ، أغلبهم من المتصوفة الذين غالوا فى دينهم ، حتى خرجوا عنه ، وكفروا به ، ونسبوا إلى الدين ما ليس فيه ، وأعرضوا عن كثير مما فيه ، وتظاهروا بالزهد والتقوى حتى يجتمع الناس حولهم ، وهم فى الحقيقة أبعد الناس عن الإسلام وتعاليمه ، يسعون فى غير وعى لجمع المال من أى مكان وبأية طريقة، حتى ولو اضطروا إلى الإفتاء بغير ما أنزل الله ، أو الكذب على رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام . فكان لكثير من المتصوفة والدراويش - بمختلف طرقهم - دور كبير فى أضعاف الخلافة العثمانية الإسلامية ، وإسقاطها فى النهاية، كما لهم دور كبير أيضا فى نشر الجهل بين الناس ، ووضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ ؛ كى يؤيدوا فتاواهم وحججهم الكاذبة . ونشروا الخرافات ، والإشراك بالله مثل التعلق بالأولياء ، وزيارة قبورهم إلى درجة عبادة هذه القبور ، وهؤلاء الأولياء ، وأصبحوا يدعونهم من دون الله ، ويطلبون منهم قضاء حوائجهم ومطالبهم .

ومن المؤسف حقاً أن هذه الأمور الشركية ، التى نشرها كثير من المتصوفة فى أنحاء الدولة العثمانية ، لا يزال كثير منها باق إلى اليوم فى كثير من البلاد التى حكمتها الدولة العثمانية ، فنرى ونسمع الآن فى كثير من البلاد الإسلامية ، رفع القبور وتزيينها وزخرفتها وزيارتها من قبل الرجال والنساء والطواف حولها ، وسؤال أهل القبور قضاء حوائجهم ، ورفع مظالمهم ، وشفاء مرضاهم . كذلك نرى تقديس بعض الصالحين إلى درجة لا يرقى إليها الأنبياء ، مثل إدعاء علم الغيب ، وبالمقابل نرى إلصاق التهم والافتراءات بالأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام ، وبالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

ومما هو جدير بالذكر والاهتمام والتركيز ، أن الفئة التى عارضت الإصلاح فى مختلف نواحيه أغلبهم من المتصوفة ، الذين شوهوا سمعة وسيرة أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة فى الدولة العثمانية بانتسابهم إليها . وهم فى الحقيقة أبعد الناس عنها حتى أصبحنا نرى الكثير من المؤلفات - من المؤرخين والكتاب - تصف الهيئة الإسلامية بأنها ألعوبة فى أيدى السلاطين والقادة ، وأنهم كيفوا الدين حسب الرغبات والشهوات ، وأصدروا هذا الحكم المطلق على جميع أعضاء الهيئة الإسلامية دون تمييز ، ولم يحاولوا تتبع آراء ومعتقدات الفئة المعارضة ، وهذا أمر خاطئ ؛ فالتخصيص فى الحكم أولى من التعميم فى هذا المجال .

٢ - موقف العلماء والمفكرين من حركة الإصلاح فى عهد السلطان محمود الثانى والسلطان عبد المجيد :

أهتم السلطان محمود الثانى (١٢٢٣ - ١٢٥٥هـ / ١٨٠٨ - ١٨٣٩م) بأمر القضاء على الإنكشارية أشد الاهتمام ، حتى نجح فى التخلص منهم عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م .

كذلك شرع السلطان محمود فى تنظيم الجيش الجديد وفق النظم الأوربية وساعده فى ذلك خليل باشا وزير الحربية ، الذى كان يردد على السلطان محمود قوله : « إن لم نتمثل بأوربا ، فأننا سنعود القهقرى إلى آسيا»[١٦] .

واستمر السلطان فى الاستعانة بالخبراء الأوربيين ، فى إنشاء المصانع الحربية ، والمدارس العسكرية ، وأهتم بزيادة عدد جنود الجيش الجديد ، وإلغاء استعمال الأسلحة القديمة والاستعانة بالأسلحة الأوربية الحديثة[١٧] . ويذكر الضابط الشهير جون مولتكه الذى اشترك فى تدريب الجيش العثمانى فى هذه الفترة ، أن الإصلاحات كانت ذات طابع شكلى محض[١٨] .

ولكن خان الحظ السلطان محمود الثانى ، فقد قضى على جيشه القديم قبل أن يكون جيشاً جديداً متكاملاً - كما يذكر ذلك بعض المؤرخين - وربما نلتمس له العذر فى ذلك ؛ فالإنكشارية كانت تثير القلاقل والفتن كلما أعد أى سلطان بعض الفرق على النظام العسكرى الجديد ، وكانت شرور الانكشارية فى هذه الفترة قد بلغت مدى بعيداً .

وشرع السلطان محمود الثانى فى الإصلاح الإدارى والقضائى والتعليمى والزراعى والتجارى[١٩] ، ولكن حركة الإصلاح لم تكن تسير فى نفس المستوى الذى سار فيه الإصلاح الحربى . ومن هنا نتساءل عن فائدة وضع أحدث الأسلحة فى أيدى أفراد افتقدوا الروح المعنوية أو فهم أهداف الدولة ؟ كما نتساءل أيضاً عما يحققه جيش تم تدريبه وتسليحه وتثقيفه ، ولكن ظل يستند إلى جهاز إدارى بطىء التطور ؟

والذى لا شك فيه أن التطور الاجتماعى والثقافى والإدارى على يدى محمود الثانى لم يكن بالقدر الذى يضمن نجاح الإصلاح الحربى .

إن الدليل القاطع على ضعف إصلاحه الحربى ، هو اضطراره للاعتماد على روسيا . واعتماد السلطان على روسيا كان السبب المباشر للنفور الشديد من حركته

الإصلاحية بصفة عامة ، ومن الإصلاح الحربى على الأخص ، ومن ثم تضاعف يأس الناس وقنوطهم .

ولا شك فى أن محمود الثانى كان سئ الحظ ، وأن إصلاحاته ظلت موضع شك كبير ، وأن ظروفاً كثيرة وقفت ضده ، ويمكن القول بأن هزيمة الجيش العثمانى الجديد فى معركة نصيبين سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م كان معناها الخاتمة المفجعة للإصلاح الحربى .

إن حركة الإصلاح لم تحدث نتيجة الاتصال بالغرب ، ولكن لمحاربة الغرب بنفس أسلحته ، وكان الوصول لمستوى الغرب الحربى ، يستلزم الوصول لمستواه الاقتصادى والعلمى والمالى ، وتحقيق هذا كله يستلزم مستوى الغرب فى الوعى والإدارة .

ومن الأعمال التى قام بها محمود الثانى فى إطار الإصلاح استعادة سيطرة الحكومة فى الولايات . وقد صمم على أن تكون سلطته فعلية فى جميع الولايات كما هو الحال فى العاصمة ، فحارب أصحاب العصبيات ، وأصحاب الحقوق المكتسبة من المتنفذين ، وصمم على إخضاع العناصر المتمردة من الولاة وأرباب الاقطاعات ، وأخذ بسياسة تقوية قبضة الدولة على الولايات ، وإصلاح الحكم المركزى فى العاصمة والولايات ، وبالرغم من الهزائم المتلاحقة التى حلت بالدولة فى عهده ، سواء فى حربه مع اليونان ، أم فى حروبه الخاسرة مع تابعه القوى فى مصر محمد على الذى تمكن من احتلال بلاد الشام، وفكر فى الزحف على استانبول لخلعة، فقد استطاع محمود إنهاء عهد المغامرين من أصحاب العصبيات، وإنشاء الحكومة القوية فى الولايات العربية التى تهيمن عليها العاصمة تماماً ، كولايات بلاد الشام ، بعد جلاء القوات المصرية عنها سنة ١٥٥٦هـ/١٨٤٠م ، وبغداد بعد عزل آخر الباشوات المماليك داود باشا حوالى ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ، وطرابلس الغرب بعد عزل الأسرة القرامنلية فى سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م .

أما فى مجال التعليم : فكان يوجد - حتى ذلك الوقت - مدرستان : الأولى المدرسة البحرية ، والثانية مدرسة الهندسة العسكرية ، اللتان أقيمتا فى سنة ١١٨٧- ١٢٠٨هـ/١٧٧٣ - ١٧٩٣م ، وفى عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م . وكان أن صدر فرمان يعلن أن التعليم الابتدائى للشعب هو مسئولية الدولة ، وكان هذا يعنى رفع يد الهيئة الإسلامية عن الإشراف على التعليم .

ومع ذلك فإن هذا القرار لم يكن له أى تأثير مباشر ؛ إذ استمرت المدارس الابتدائية تحت سلطة وإشراف شيخ الإسلام ، وظل مرسوم ١٢٤٠هـ /١٨٢٤م عديم التأثير ، حتى ظهر الإصلاح فى المدارس الابتدائية ، وأقيمت مدارس جديدة، وعين وزير للتعليم للمرة الأولى فى الدولة العثمانية . وكانت هذه المدارس تدعى « المدارس الرشدية » و مهمتها تقديم نموذج من التعليم المتقدم على مدارس «الصبيان» للتأهيل للدخول إلى مختلف مدارس الجيش والبحرية والطب ووظائف الدولة . وكان إنشاؤها أصلا بغرض سد الفراغ الموجود فى مؤسسات التعليم العالى ومؤسسات التعليم الابتدائى . وفى عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م اتخذ السلطان خطوات ثورية ، بإرسال بعثات للدراسة فى مختلف بلدان العالم ، ويبدو أن السلطان كان يريد أن ينافس تابعه محمد على والى مصر ،الذى بدوره يرسل البعثات إلى فرنسا . وفى عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م أرسل محمود الثانى بعثة مكونة من ١٥٠ طالبا للدراسة فى المعاهد العسكرية والبحرية فى مختلف بلدان غرب أوربا بالرغم من احتياجات الهيئات الدينية[٢٠] .

وفى عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م افتتح السلطان مدرسة الطب فى استانبول ، قبل شهر واحد فقط من افتتاح محمد على باشا لمدرسة الطب فى مستشفى أبو زعبل فى القاهرة . وكان الغرض من مستشفى استانبول تدريب الأطباء للعمل مع الجيش الجديد ، كما تم تدريب أطباء لمعالجة المدنيين فى المؤسسات العادية ، مثل القسم الطبى فى السليمانية ، وكانت مدرسة الطب تتضمن قسما إعداديا ، يعطى تعليما

علمانياً ابتدائياً وثانوياً لأول مرة فى الدولة العثمانية . وفى عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م انتقلت المدرسة إلى غلطة سراى ، وكان التعليم يعطى بالتركية وبالفرنسية ، كما كان معظم الأساتذة من المدرسين الغربيين(٢١) .

وخلال الفترة ١٢٤٧ - ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣١ - ١٨٣٤م افتتحت مدرستان عسكريتان : الأولى كانت المدرسة الموسيقية ، ووظيفتها أن تقدم البواقين والطبالين للجيش الجديد ، وكانت المدرسة الأخرى التى افتتحت فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م هى « مدرسة العلوم العسكرية » وهنا لعب الأجانب - وخاصة الفرنسيون - دوراً رئيسياً فيها ، وفى كلية الطب حيث كان يوجد فيها قسم تحضيرى للطلاب .

وفى عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م بدأ السلطان يخطط لإحداث مدارس ابتدائية وثانوية للأغراض المدنية ، ولكن التقدم كان بطيئاً فى هذا المجال . فقد أنشأت مدرسة جديدة وهى « مدرسة التعليم القضائى » فى مسجد السلطان أحمد . وما لبثت هذه المدرسة أن انقسمت إلى « مدرسة التعليم القضائى » و « مدرسة العلوم الأدبية » ، وانتقلت مدرسة العلوم الأدبية إلى جامع السليمانية ، ووضعت تحت إشراف وزير التعليم الجديد . وظل برنامجها تقليدياً ، ولكنه تضمن تعليماً بالفرنسية ومواد أخرى حديثة . وكان الهدف من إنشائها ، تدريب موظفى الحكومة والتراجمة . والواقع أن هذه المدارس قد مثلث رحيل السيطرة الدينية على التعليم . وتوجيهه توجيهاً علمانياً فى مناهج الدراسة ، وأول خطوة فى إقامة نظام فى المدارس الابتدائية والثانوية والعليا على الطراز الأوربى .

وفى نفس العام افتتح السلطان محمود الثانى المبنى الجديد لكلية الطب فى غلطه سراى ، وخلال الافتتاح ، قال السلطان : « سوف تدرسون (يقصد الطلبة) علم الطب ... ليس هدفى من تعليمكم باللغة الفرنسية أن أعلمكم هذه اللغة بل لتعليمكم الطب . وتدريجياً حتى نستطيع تعلمه بلغتنا ... اعملوا على تحصيل المعارف الطبية من أساتذتكم ، وناضلوا بإطراد لتحصلوا عليها باللغة التركية

ونشرها بلغتنا»[٢٢] . ويلاحظ أن السلطان لفت الانتباه بشدة إلى دور اللغات الأوربية ووقوفها عقبة فى سبيل تقدم البلاد ونهضتها ، فقد كان عدد المسلمين العثمانيين الحاصلين على معرفة كافية باللغات الأوربية لا يزال قليلاً جداً ، ومعظمهم قتلوا فى مذبحة عام ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م ، فالمدرسون والمرشدون ، وحتى الضباط الفنيين فى الجيش كانوا أوربيين ، وكانت مصطلحاتهم وإرشاداتهم وأوامرهم تمر فى مراحل الترجمة ، ولفترة كان لابد من اللجوء إلى المترجمين النصارى . ولكن كانت هناك عدة عوائق تمنعهم من الاستمرار فى المهنة ؛ ولذا فقد كانت هناك حاجة ملحة إلى مسلمين على معرفة باللغات الأوروبية ، ليعلموا وليدرسوا علوم الغرب ، وليترجموا الكتب الأجنبية إلى التركية ، وأيضاً لإيجاد معاجم بالتركية تحتوى على المرادفات العلمية والفنية للمصطلحات المستوردة من الغرب[٢٣] .

وفى هذا المجال لعب شخصان دورين هامين : الأول هو محمد عطا الله ، وعرف باسم شانى زاده (١١٨٣ - ١٢٤٢هـ/١٧٦٩ - ١٨٢٦م) ، تلقى تعليمه على يد أحد العلماء ، وكان يوصف بأنه « دائرة معارف » . وفى عام ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م طلب إليه السلطان إصدار كتاب فى علم التشريح ، وجاء كتابه « مرآة الأبدان فى تشريح أجزاء الإنسان » ليثير اهتماماً كبيراً فى أوربا ، إذ إنه احتوى على عدد كبير من الصور ، وكان نشر صور الجسم البشرى يتناقض مع تقاليد العثمانيين المسلمين ، ولكن هذا الرجل تجاهل الانتقادات . وفى عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م عين مؤرخاً رسمياً للدولة ، إلا إنه نفى بعد القضاء على الانكشارية ، بسبب ما أشيع عن علاقته بجماعة البكتاشية ، ومع ذلك فلم يكن رجعياً ؛ وكان عمله الأساسى ترجمة الكتب الطبية الايطالية والنمسوية ، وقد الحق بها مقالات تفسيرية عن الفلسفة ، وترجمة نمساوية عن التلقيح[٢٤] .

وأما الشخص الثانى الذى عمل فى حقل العلوم الحديثة والمصطلحات الفنية فكان إسحاق افندى (١١٨٨ -١٢٥٠هـ/١٧٧٤ - ١٨٣٤م) ، وكان بلقانياً من أصل يهودى تحول إلى الإسلام ، وكان على معرفة باللغات الفرنسية ، اللاتينية ، العبرانية ، التركية ، الفارسية ، والعربية ، ولعل أعظم أعماله كانت أربعة مجلدات شاملة للرياضيات والفيزياء التى أعطت الطلاب العثمانيين لأول مرة بعض المعرفة عن هذه العلوم ، وكشانى زاده كان عليه إيجاد مصطلحات باللغة التركية للعلوم الحديثة ، هذه المصطلحات جعلته مع شانى زاده أعظم من أوجد مصطلحات فى الدولة العثمانية فى العصر الحديث[٢٥] .

أما موقف أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة من معظم إصلاحات السلطان محمود الثانى - وفى مقدمتها القضاء على الانكشارية - فقد كان موقف المؤيد . وتزعم هذا التأييد الشيخ زاده عبد الوهاب ، ومحمد طاهر ، ومصطفى قاسم ، والملا محمد أسعد ، ومصطفى بهجت ، وغيرهم . وقام هؤلاء العلماء بنشر التوعية لخطوات محمود الثانى الإصلاحية بين أفراد الشعب[٢٦] .

وإلى جانب العلماء قام الكتاب المؤرخون الذين استخدمهم محمود الثانى لنشر الدعاية ، بإظهار الانكشارية على أنهم مسلمون سيئون منتهكون للشريعة الإسلامية، واتهموهم بتمزيق القرآن الكريم خلال ثورتهم . ولم يكتفوا بذلك ، بل اتهموا جماعة البكتاشية بشرب الخمر فى شهر رمضان المبارك وإهمال الصلاة ، ورفض الخلفاء باستثناء على ، ويبدو أن غرضهم كان لإثبات التهمة بأنهم شيعة ، واتهامهم بالتآمر على الدولة . وبعد أن قام الانكشارية بالتمرد فى مدينة القدس عام ١٢٤١هـ/١٨٢٥م ، قام حليم أفندى وهو أستاذ فى الشريعة الإسلامية ، وعضو كبير فى الهيئة الإسلامية الحاكمة ، بمهاجمة الانكشارية فى محاضرة له أمام كبار الموظفين فى استانبول[٢٧] . لذلك لم يظهر العلماء أية معارضة فى القضاء على الإنكشارية ، بل أيدوا السلطان محمود الثانى بكل قوة ، كما أيدوه فى القضاء على الدراويش والطرق البكتاشية .

ومن الأعمال التى نفذها السلطان محمود الثانى وكان لـــها أثـــر كبـــير فـــى الإدارة، حضور جلسات الديوان الهمايونى بانتظام بدلاً من إنابة الصدر الأعظم فـــى الحضور ، كما قام بتحسين أوضاع الموظفين المدنييـــن ، ورفـــع مســـتواهم فـــى التخصص والإخلاص ، وحول المركز السابق لأغا الإنكشـــارية – قـــرب مســـجد السليمانية – إلى شيخ الإسلام ، الذى حصل للمرة الأولى على مكتب وإدارة ترتبـــط به ، وكان إعطاء شيخ الإسلام هذه الاختصاصات أول خطوة نحو إظهار العلمـــاء كطبقة متميزة عن بقية أفراد المجتمع .

وكان معظم إصلاحات وتغييرات السلطان محمود الثانى – كما ذكرت ذلـــك من قبل – تحظى بدعم العلماء واهتماماتهم .

على أن السلطان محمود الثانى اشتط فى محاكاة الغرب وتقليدهم إلـــى أبعـــد درجة ممكنة ، يتضح ذلك فى مجموعة القوانين الصادرة عام ١٢٤٢هـــــ/١٨٢٦م المتعلقة بالجيش ، إذ نصت بعض موادها على أن بدلات الجند يجب أن تتألف مـــن سترة وسروال على الطراز الأوربى . وقبل عشرين عاماً من ذلك التاريخ حـــاول السلطان سليم الثالث إلباس جنوده اللباس الأوربى ، ولكن هذه المحاولـــة أدت إلـــى ثورة ١٢٢٢هـــ/١٨٠٧م ، ثم عزله ، ومنذ الفترة الأولى للتاريخ العثمـــانى ، كـــان اللباس وما يوضع على الرأس هو الذى يحدد دين الرجل ومرتبتـــه الاجتماعيـــة . وكان للمسلمين لباس خاص بهم يميزهم عن أهل الذمة الذين منعوا من ارتداء مثله. ولذا ولم يكن من السهل إقناع عامة المسلمين والجنـــد العثمـــانيين بـــارتداء ألبســـة مشابهة للباس الكفار . وفى عام ١٢٤٤هـــ/١٨٢٨م عرض على الســـلطان نـــوع جديد من غطاء الرأس يسمى « الطربوش » ، وقد أمر الجند بلباسه بـــالرغم مـــن المعارضة الشعبية له ، وقد خشى بعض العلماء إن هم رفضوا الاقتباس الجديـــد أن ينزل السلطان بهم ضربات جديدة . لذلك فإنهم لم يؤيدون الابتكار الجديد فحســـب ، بل أخذوا على عاتقهم تفسير شرعيته للشعب[٢٨] .

وفى عام ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م أمر السلطان العلماء بلبس الطربوش الأحمر ، الذى كان إلزاميا لجميع موظفى الحكومة والجند ، والذى ارتداه هو بنفسه ، وعندما عارض شيخ الإسلام محمد طاهر هذا الإجراء مصرا على أن يظل العلماء طبقة متميزة فى المجتمع العثمانى ، عزله السلطان ، ولكن الحرب مع روسيا عطلت إتمام هذا المشروع ، وبعد انتهاء الحرب فى عام ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م عاد محمود الثانى لتنفيذ مشاريعه وفى تلك المرة امتد إصلاح اللباس إلى المدنيين فصدر مرسوم مفصل ، يحدد الأزياء التى ترتدى لمختلف الموظفين وفى شتى المناسبات(٢٩) .

وفى نفس الوقت بدأت تظهر الكراسى والطاولات الأوربية ، إلى جانب الأريكة والوسادة . كما تبنى العثمانيون عادات أوربية أخرى ، فقد بدأ السلطان يستقبل الدبلوماسيين الأجانب حسب الأسلوب الأوربى بدلا من الطريقة العثمانية ، ويستقبل ضيوفه ويتحدث معهم ، وأبعد من ذلك أظهر السلطان محمود الثانى احتراما كبيرا للسيدات النصرانيات(٣٠) .

ومنذ عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م اعتاد السلطان محمود الثانى أن يرسل صوره إلى كل من شيخ الإسلام والعلماء وكبار موظفى الدولة والحكام الأجانب كتعبير عن عطفه واحترامه لهم . ومع ذلك ففى عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م عندما وضعت صور السلطان فى مختلف الثكنات ومكاتب الحكومة ، قام كثير من الناس - وخاصة العلماء - بالاعتراض ؛ بحجة أنها قد تعطى انطباعا للشعب بتقديس صاحبها ، لكن محمود الثانى لم يعبأ بهذه الاعتراضات وسار قدما فى إدخال ما يراه مناسبا من الاقتباسات الغربية ، بل أمر أن تؤدى التحية لصوره كما تؤدى لشخصه ، وأمر بتوزيع نيشان افتخار على الذين ساعدوه فى حركة الاقتباس من الغرب . وهو الذى ابتدع نظام افتخار ، وقسمه إلى أربع طبقات : الأولى منها تتكون من ميدالية ذهبية عليها كلمتا نيشان افتخار ، وأمر بعمل شارات مميزة لكبار الموظفين ، وألغى كثيرا من التقاليد والاحتفالات العثمانية المتعارف عليها ، واكتفى بالنظم الأوربية الحديثة متناسيا تاريخ دولته الطويل(٣١) .

تولى السلطان عبد المجيد الأول الحكم في الفترة (١٢٥٥ – ١٢٧٨هـ/١٨٣٩ – ١٨٦١م) ، وسار على نهج السلطان محمود الثاني في الإصلاحات وكان زعماء رجال الإصلاح في عهده ، مصطفى رشيد باشا ، ومحمد أمين عالي باشا ، وفؤاد باشا .

واستهل عبد المجيد حكمه ، بإصدار مرسوم كلخانة سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، وقرئ في حفل رسمي كبير في قصر « كلخانة » ، ولذلك عرف بهذا الاسم ، وقرأه في ميدان كلخانه علناً مصطفى رشيد باشا في يوم ٢٦ شعبان ١٢٥٥هـ/٣ نوفمبر ١٨٣٩م في حضور السلطان عبد المجيد والوزراء والعلماء وكبار موظفي الدولة ، وبطريركي الأرمن والروم، وحاخام اليهود ، والسفراء الأجانب ، وجمهور كبير من الناس(٣٢) .

المرسوم المذكور باسمه الأصلي التركي « كلخانه خط همايوني » أو«كلخانه خط شريفي» ، وقد أعد نصه مصطفى رشيد بتكليف من السلطان عبد المجيد بعد عرضه عليه ، وجمع صبح يوم الإعلان مجلس الوزراء بغرض إعطائه صورة رسمية قانونية ، وأصدر قراراً رسمياً ، يقر بأن عهد التنظيمات يبدأ اعتباراً من إعلان الخط الهمايوني ، فقرأه على الحضور والسلطان بينهم يستمع من مقصورته.

ويتضمن الخط المذكور ست نقاط أساسية : تتضمن احترام تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، والمحافظة على حقوق الناس ، وأعراضهم ، وأموالهم ، وتأسيس جيش قوي للدفاع عن الدولة ، تكون مرتباته من الضرائب التي تفرض بالتساوي على الناس كل حسب دخله ، ونص الفرمان على مسألة التجنيد وتوزيعه على الولايات بنسب متساوية(٣٣) .

على أن المأخذ الكبير الذي يؤخذ على فرمان كلخانه ، هو المساواة بين المسلمين والنصارى واليهود في الحقوق على الدولة ، وليس في الواجبات الملقاه على عواتقهم ، مما جعل غير المسلمين يتمتعون بامتيازات أكبر من المسلمين في

الوظائف الكبرى فى الدولة ، والإعفاء من التجنيد والضرائب ، وهذا يدل دلالة واضحة على مدى النفوذ الأوربى فى الدولة العثمانية ، وقد بلغ هذا النفوذ قمته فى مرسوم التنظيمات الخيرية الذى أصدره السلطان عبد المجيد فى سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م[٣٤] .

وبعد أن انتهت حرب القرم التى وقعت اتفاقية الصلح فيها فى ٢٣ جمادى الأولى ١٢٧٢هـ/٣٠ مارس ١٨٥٦م فى باريس ، أصدر السلطان عبد المجيد فرمان الإصلاح فى ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢هـ/١٨ فبراير ١٨٥٦م ؛ وذلك بسبب إلحاح الدول الأوربية عليه لإصلاح أحوال رعاياها من النصارى ، ولا يختلف فحوى هذا الفرمان كثيرا عن الفرمان السابق شرحه ؛ فقد التزم السلطان بتنفيذ المبادئ التى أعلن عنها فى مرسوم كلخانه ، غير أن هذه المبادئ التى أعلن عنها فى مرسوم التنظيمات لم تطبق بحذافيرها ، فبقيت التفرقة بين المسلمين والنصارى ، وكان ذلك فى الخدمة العسكرية ، والوظائف الإدارية ، والقضائية التى كانت لا تزال مقصورة على المسلمين ، وهذا ما جعل الطوائف النصرانية التى تعتبرها الدولة العثمانية من رعاياها ، تزيد من ارتباطها بالدول الأجنبية التى حصلت على حق حمايتها فى العهود السابقة ، والتى تقدم لها العون من آن لآخر ، فى صورة إنشاء مدارس تنشر لغاتها وثقافاتها ، ومستشفيات ، وكنائس وأديرة ، ونواد ، وإرساليات تنصيرية ، وجمعيات سرية خيرية فى ظاهرها[٣٥] .

ونتج عن ذلك زرع الفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، ولم تفلح التنظيمات فى تحقيق الأهداف التى وضعت من أجلها ، ويرجع ذلك إلى النظام السياسى الذى قامت عليه الدولة العثمانية ، وهو نظام دكتاتورى وعسكرى فى آن واحد ، أى أن الطبقة الحاكمة كانت ممثلة فى شخص السلطان ، وهو صاحب السلطة الأولى فى الدولة ، وفى الجيش القابض على زمام الأمور فى البلاد ، فكل ما يتعارض مع مصلحة أى من هذين الطرفين لا يتم تنفيذه ويموت فى مهده .

ويذكر بعض المؤرخين أن أجهزة الحكم والإدارة العثمانية لم تتأقلم مع التنظيمات الجديدة ، رغم ما بذله الإصلاح فى الدولة من إخلاص ، ومرد ذلك إلى مئات من الأعوام التى ظل فيها جهاز الحكم جامداً متمسكاً بالأنظمة القديمة فليس من السهولة بمكان أن تغير تلك الأنظمة فى الحكم والإدارة فى بضع سنين ، ويلخص الدكتور عبد العزيز عوض عوائق الإصلاح فى عاملين : عامل داخلى : ويتمثل فى تمسك العناصر المحافظة فى الدولة العثمانية بالأنظمة السابقة ، والمصاعب المالية التى حالت دون التوسع فى المشاريع الإصلاحية ، كما تمثل بعدم رغبة بعض السلاطين فى السير بالإصلاح إلى غايته الطبيعية فى إقرار العلاقة بين الدولة ورعاياها على أساس جديد ، قوامه اشتراك الشعب وهيمنته على أمور الدولة . أما العامل الخارجى : فهو استمرار ثورات الشعوب النصرانية فى البلقان ، وبعض الأقاليم الأخرى ، واستمرار الضغط الأجنبى الأوربى على الدولة وولاتها ، الأمر الذى صرفها عن التفكير فى الأمور الإصلاحية إلى الدفاع عن ولاياتها المهددة بالاحتلال الأجنبى(٣٦) .

ولم يكن لأعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة مواقف معارضة تذكر ، بسبب انضمام بعض الأعضاء إلى السلاطين ومجاراتهم ، إما خوفاً من بطشهم ، وإما لاقتناعهم بالتغييرات الجديدة .

على أن هذا لا يعنى عدم وجود آية معارضة من قبل العلماء وطلبة العلم لتصرفات بعض السلاطين المسايرة للدول الأجنبية ، إلا أن هذه المعارضة ضاعت وخبت أثناء الحروب الطويلة والمريرة التى خاضتها الدولة العثمانية مع دول أوربا النصرانية .

٣ – موقف أعضاء الهيئة الإسلامية من حركة الإصلاح فى عهد السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثانى :

أصدر السلطان عبد العزيز (١٢٧٨ – ١٢٩٣هـ/١٨٦١ – ١٨٧٦م) فى السابع من جمادى الأولى ١٢٨١هـ/ الثامن من نوفمبر سنة ١٨٦٤م قانوناً خاصاً بالولايات لإحكام السيطرة عليها ، وإشراك المواطنين فى تدبير مصالحهم العامة والتخفيف من حدة الحكم المطلق ، الذى نشأ من الإدارة المركزية ، وقد كان هذا القانون مقتبساً من النظم الإدارية الفرنسية[٣٧] .

وقد اشترك فى وضع هذا القانون « كجه جى زاده محمد » و « فؤاد باشا » و « مدحت باشا » ، وقام الأخير بتطبيقه فى ولاية الطونة ، عندما أسند إليه حكمها سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م . وحقق نتائج مثمرة تستحق الإشادة بها .

وقد عمل هذا النظام على إصلاح أحوال الولايات من جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتأكيد خضوعها للحكومة المركزية فى استانبول ، ومن أهم أهدافه العمل على تقدم البلاد وإعمارها ، وإسعاد الأهالى وإصلاح شأنهم واشتراكهم فى إدارة أمور البلاد بالتعاون مع السلطات الحاكمة ، بالإضافة إلى ضبط الواردات والمصروفات ، وكذلك ربط الإدارة الفرعية فى الولاية بمقر الوالى، وربط ولايات الدولة العثمانية بالحكومة المركزية فى استانبول[٣٨] .

أنشىء نظام الحكم فى ولاية الطونة عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م لأول مرة ، وعلى نجاح تجربته ، وتعميماً لتطبيقه على الدولة العثمانية ، فقد قسمت الدولة من الناحية الإدارية – بعده بسنة – إلى سبع وعشرين ولاية ، ثم نشر عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م (نظام الحكم العام لإدارة الولايات) [٣٩] .

وصيغ هذا النظام فى ثمان وسبعين مادة ، ومادة مخصوصة[٤٠] مقسمة على أبواب وفصول ، ويرأس الولاية « الوالى » ، وهو خاضع مباشرة للباب العالى ، وقسمت الولاية إلى صناجق ، (أى ألوية) ، ويحكم الصنجق متصرف ، وقسم كل صنجق إلى أقضية (جمع قضاء) ، ويحكم القضاء قائمقام ، ويعتبر نائبا عن المتصرف ، كما قسم كل قضاء إلى مديريات ، ويحكم المديرية مدير[٤١] .

وفى ٢٩ شوال سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٢م صدر « نظام إدارة الولايات العمومية » ، وجاء فى (١٢٩) مائة وتسع وعشرين مادة ، ومادة مخصوصة ، ولكن عدل هذا النظام بموجب المادة « ١٠٨ » من القانون الأساسى التى أعلن علم ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م ، ويهدف هذا القانون إلى تعيين وظائف المأمورين[٤٣] ، ومجالس الإدارات والبلديات وإدارة النواحى .

وهكذا فإن هذا النظام الذى ربط ولايات الدولة العثمانية بالحكومة المركزية فى أستانبول ، قد أفرط فى المركزية وغالى فيها كثيراً ؛ حيث قيد الجهاز الإدارى فى الولاية بتعليمات الدولة العثمانية ، وأوامرها حتى فى أتفه الأمور وأقلها شأنا ، لا سيما وأن تعليمات الدولة تستغرق وقتاً طويلاً حتى تصل إلى الوالى ؛ بسبب تأخر وسائل المواصلات ، إن هذا القانون فى الواقع لم يأت بجديد فى مجال التقسيم الإدارى للولاية ، وإنما هو مجرد تغيير فى تقسيم الولايات ، فضمت ولايات أخرى وشكلت ولايات جديدة .

وقد وضع قانون الولايات كرد فعل لضعف الدولة العثمانية ، وخشية السلطة المركزية من خروج الولايات عن طاعتها ، ولـذا جاء مشدداً لقبضة الدولة عليها .

إلا أن أحوال الدولة العثمانية ساءت فى عهد السلطان عبد العزيز إلى درجة كبيرة ، واضطربت شئونها الاجتماعية أسوأ اضطراب ، وعانى الشعب أشد المعاناة من سوء سيرة الولاة ، الذين كانوا يجبون الضرائب بالسوط دون رحمة أو هوادة ، وتراكمت الديون على الدولة العثمانية ، فارتفعت من خمس وعشرين مليون ليرة إنجليزية فى عهد السلطان عبد المجيد إلى مائتين وخمسين مليون ليرة فى عهد السلطان عبد العزيز ، بسبب إسراف الأخير فى الإنفاق على البذخ والملذات والاحتفالات والمعارض ، فى الوقت الذى لم يكن يصرف فيه على الجيش والأسطول وبقية مرافق الدولة سوى ٧% من مجموعها الضخم واستمرت أوضاع الدولة العثمانية تسير من سيئ إلى أسوأ حتى كان عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م

حيث أعلنت الدولة العثمانية عجزها عن سداد الديون المتراكمة عليها مما أدى إلى إنشاء دائرة الديون العمومية تحت مراقبة هيئة دولية ، وما ترتب على إنشائها من إطلاق أيدى الأجانب فى شئون البلاد[٤٣] . لهذا السبب ، ولأسباب أخرى دعا شيخ الإسلام الشيخ حسن خير الله أفندى العلماء والوزراء والقادة العسكريين ، وقرروا خلع السلطان عبد العزيز من الحكم .

ويمكن تقسيم اتجاه حركة الإصلاح فى القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى إلى ثلاثة أقسام هى :

القسم الأول : اتجاه الانغماس فى الغرب :

رأى أصحاب هذا الاتجاه أن الحل الأمثل لإصلاح أوضاع الدولة العثمانية المتدهورة ، إنشاء حكومة حديثة على نمط الحكومات الأوربية واقتباس النظم والأساليب فى الحكم ، والإدارة ، والثقافة والاجتماع إلى الحد الذى يحقق إنشاء هذه الحكومة الحديثة ، دون النظر لماضى الدولة العثمانية المسلمة وما كانت عليه[٤٤] .

وكان من أشهر المنادين بهذا الاتجاه فى الدولة العثمانية فؤاد باشا[٤٥] (١٢٣١ - ١٢٨٦هـ/١٨١٥ - ١٨٦٩م) الذى تولى الصدارة العظمى فى عهد السلطان عبد العزيز عم السلطان عبد الحميد الثانى ، وهو من الجيل الذى أعده الوزير رشيد باشا[٤٦] ليتولى دفع عجلة الاقتباس من الغرب فى الدولة العثمانية .

تبنى فؤاد باشا فكرة الإصلاح على الأسس الغربية ، واستبعد المفاهيم الإسلامية التى قامت عليها الدولة العثمانية كوسيلة للإصلاح ، مؤكدا : « ما كان صالحا للدولة فى عصورها الماضية لم يعد صالحا لحالتها الحاضرة » .

ويرى فؤاد باشا أن الدولة العثمانية محكوم عليها بالموت لا محالة ، إن لم تتمثل خطى التطور الغربى ، فتكون ماليتها على غرار مالية إنجلترا ، ومعارفها كمعارف فرنسا ، ونظمها العسكرية مقتبسة من روسيا[٤٧] .

وقد أسرف فؤاد باشا فى ثقته بصداقة كل من إنجلترا وفرنسا ، وأهمية هذه الصداقة فى حل مشكلات الدولة العثمانية ، حتى إنه فضل أن تخسر الدولة أى جزء من أراضيها على أن لا تخسر صداقة إنجلترا حيث يقول : « إنه خير لنا أن نخسر عدة ولايات من ان نرى إنجلترا مهملة إيانا ومعرضة عن صداقتنا »[٤٨] . ويقول فؤاد باشا عن فرنسا : « إن أفضل طريقة للمحافظة على صداقة هذه الأمة الفرنساوية ، هى مجاراتها فى أفكارها وعمل ما يقع موقع القبول والرضا فى عينها»[٤٩] .

القسم الثانى : الاتجاه التوفيقى فى الإصلاح :

نادى أصحاب هذا الاتجاه بفكرة التدرج فى الأخذ عن الغرب ، فى مجال الإدارة والسياسة والثقافة والفكر ، وكل ما جاءت به الثورة الفرنسية ، أو نادى به مفكروها من حقوق سياسية واجتماعية للأفراد والجماعات .

وقد أكد أصحاب هذا الاتجاه ، أن ما ينادون باقتباسه عن الغرب من نظم ديمقراطية ، أو فى مجال حرية الأفراد والجماعات ليس غريباً عن مفاهيم المجتمع الإسلامى ، ولا عن ثقافته ، بل إن له فى الشريعة الإسلامية ، وتقاليد نظام الحكم فى الإسلام سنداً وأساساً ، فالنظام البرلمانى الديمقراطى فى بريطانيا وفرنسا هو نفسه نظام الشورى فى الإسلام ، وهكذا ..[٥٠] .

وكان من بين الداعين إلى هذا الاتجاه المفكر العثمانى ضياء باشا (١٢٤١ – ١٢٩٨هـ/ ١٨٢٥ – ١٨٨٠م) وهو من الشعراء والأدباء الأتراك البارزين فى عهد التنظيمات العثمانية وما بعدها ، عمل وهو فى السابعة عشرة من عمره موظفاً فى أمانة الصدارة العظمى ، وفى عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م ، عينه رشيد باشا فى الأمانة العامة للقصر السلطانى ، وعين متصرفاً على قبرص ، وقد كان عضواً بارزاً فى جمعية تركيا الفتاة (العثمانيون الجدد) ، وفى عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م هرب إلى أوربا ، وقام بترجمة بعض الكتب من الفرنسية إلى التركية ، ثم عاد إلى

استانبول فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، واشترك فى صياغة مشروع القانون الأساسى (الدستور) [٥١] .

عبر ضياء باشا عن آرائه وأفكاره الإصلاحية من خلال رسالة لـه أسماها (رؤيا) كتبها أثناء إقامته فى لندن ، وكان خلالها يحاور السلطان عبد العزيز حـول ما يجب أن تكون عليه الدولة من نظام ديمقراطى ، مطالبا بتشكيل جمعية وطنيـة ونظام دستورى ، مؤكدا أن هذا هو عين نظام الشورى الذى أقره الإسلام ونـادى به[٥٢]،وطالب بإيجاد تقارب إسلامى نصرانى من خلال مجلس مبعوثان منتخب[٥٣].

وقد ساير ضياء باشا فى هذا المنـهج التوفيقـى نـامق كمـال (١٢٥٦ - ١٣٠٦هـ/١٨٤٠م - ١٨٨٨م) الملقب بشاعر الحرية وعضو جمعية تركيا الفتاة . عين عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م فى قلم الترجمة ، وكتب فى جريدة (تصوير أفكـار) التى كان يصدرها الكاتب التركى « شناسى » ثم تولى إدارة الجريـدة بعـد سـفر صاحبها إلى أوربا ، حيث اشترك فى إدارة جريدة (حريـت) فـى لنـدن عـام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م إلى أن سمح له بالعودة إلى اسـتانبول ، فـأصدر مسـرحية « الوطن » التى أثارت عليه نقمة السلطان عبد الحميد الثـانى ، باعتبـار أن مفـهوم الوطن بالشكل الذى عرضه نامق كمال فى مسرحيته ، والذى يعنى أرضـا معينـة لأمة معينة كان غريبا عن مفهوم العثمانيين الذين لا يعرفون سـوى دار الإسـلام وطنا لهم ، ودار الحرب وطنا لأعدائهم . فرأى السلطان أن فى هذا المفهوم الجديـد خطورة كبيرة على وحدة الدولة العثمانيـة المكونـة مـن العديـد مـن الأقـوام والجنسيات[٥٤] .

نادى نامق كمال بتطبيق أساليب ونظم الحياة الغربية فـى الدولـة العثمانيـة وركز على ضرورة تبنى الحكم النيابى على النمط الأوربـى ، مؤكـدا أن الحكـم الإسلامى فى بداية أمره كان ، يشترك فى تشكيله ممثلو الأمة (أهل الحل والعقد)، فالشورى إذن كما يقول : « ليست بدعة إذ إنها مقرة فى أصول ديننا »[٥٥] .

وعلى الرغم من ليبرالية نامق كمال فإنه ظل مخلصاً للمبادئ والأفكار الإسلامية ، داعياً إلى أن تستمر الدولة العثمانية فى تمسكها بقوانينها ومعتقداتها التى تشكل أساس حضارتها ، إلى جانب ما تكتسبه من نظم وأساليب غربية ، هذا وقد انتقد رجال التنظيمات ، لتطرفهم فى الدعوة إلى صبغ مؤسسات الدولة بصبغة غربية كاملة ، وفشلهم فى حماية وتأمين التراث الإسلامى[٥٦] .

دعا نامق كمال إلى اتحاد العثمانيين واتفاق المسلمين ، ودعم فكرة الجامعة الإسلامية ؛ باعتبارها وسيلة هامة لحل مشكلات الدولة العثمانية والمسلمين كافة ، كما أبرز دور الدولة العثمانية فى سياسة الجامعة الإسلامية والعوامل التى هيأتها لهذا الدور ، فهى موطن الخلافة الإسلامية ، وذات موقع جغرافى بين العالمين الغربى والشرقى ، ومستودع الإمكانات المادية والبشرية[٥٧] .

القسم الثالث : اتجاه الأصالة الإسلامية :

رأى أصحاب هذا الاتجاه أن تستلهم الدولة وسيلة إصلاحها من تراثها الإسلامى ، ونظمها العثمانية الشرقية إبان عصور قوتها وازدهارها ورأى هذا الفريق من العلماء والمفكرين والسياسيين ، أن فساد الأنظمة العثمانية ، وما نتج عنها من تدهور فى كافة نواحى حياة الدولة ، لا يرجع إلى علة فى النظم نفسها ، وإنما إلى سوء تطبيقها وبداية التراجع عنه ، وأنه إذا أحسن التطبيق صلحت أحوال الدولة[٥٨] .

وقد رأى دعاة الجامعة الإسلامية فى استانبول ، والمنادون بمبدأ الأصالة العثمانية ، أن الدولة خدعت ، إذا أقبلت على مدينة الغرب وانسلخت عن شرقيتها ؛ مما أفضى بها إلى التقهقر والانهزام ، ويؤكد أصحاب هذا الاتجاه ، أن الدولة العثمانية بدأت كحكومة شرقية إسلامية قوية ، وانتهت بفعل التنظيمات إلى حكومة غربية ضعيفة ، وينظر أصحاب اتجاه الأصالة العثمانية إلى هذه التنظيمات ، وما تلاها من إصلاحات ، على أنها خديعة من جانب الدولة الأوربية ، عملت من

خلالها على تجريد الدولة العثمانية من عناصر قوتها الحقيقية المتمثلة بقوانينها الإسلامية ، وإحلال القوانين الغربية محلها وبصورة تدريجية ، حتى أفضى بها الأمر إلى أن سلخت الدولة العثمانية كليا عن إسلامها ، وفقدت هويتها المتميزة ، وخلعت عنها رداء السلطنة العثمانية ، ثم الخلافة الإسلامية ، وأعلنت عن هويتها العلمانية . وقد بنى هذا الاتجاه موقفهم فى معاداتهم للاقتباس من الغرب ، على أساس أن الدولة العثمانية بجغرافيتها وتاريخها وتركيبة شعبها ، تختلف كل الاختلاف عن تاريخ أوربا وطبيعتها الجغرافية والبشرية ، وأن الدولة العثمانية يجب أن يصاغ لها من الأنظمة والقوانين ما يتناسب مع طبيعتها الشرقية الإسلامية التى تختلف كل الاختلاف عن العالم الغربى(٥٩) .

وكان على رأس أصحاب هذا الاتجاه المفكر العثمانى أحمد جودت ، وهو من كبار علماء الأتراك وعظماء رجال السياسة ، وهو من أسرة عرفت بالجلادة ، أصلها من قرق كليسا ، ثم استوطنت لوفجه (جنوب بلفنا) منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادى ، وحارب أحد أجداده بطرس الأكبر ، واشتغل أحد أجداده بالإفتاء ، وقد حج أبوه وجده إلى مكة ، وولد أحمد جودت عام ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ، وتعلم مبادئ العلوم الإسلامية فى مسقط رأسه ، ولكن سرعان ما اجتذبته استانبول التى كانت مركز النشاط العقلى عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ، ودأب على الدرس وشغف بعلم الكلام والفلسفة والأدب الغربى والرياضيات وطبقات الأرض ، كما حذق الفارسية ، وحصل بعد ذلك بمدة قصيرة على إجازة مكنته من القيام بالتدريس فىأحد مساجد العاصمة العثمانية ، وما أن أتم شرح ديوان صائب ، حتى استطاع أن يدخل فى سلك التدريس بمصلحة المعارف ، كما استطاع أن ينال منصب ناظر جامعة المدارس المتوسطة .

واشترك فى البعثة المشهورة إلى بخارست عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م ، وبعد عودته كتب هو وفؤاد باشا أساس النحو فى اللغة التركية ، وترجمها إلى الألمانية عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م ، وصحب فؤادا فى رحلة قصيرة إلى مصر ، وفى عام

١٢٧٠هـ/١٨٥٣م – أى خلال حرب القرم – كلفه السلطان عبد المجيد كتابة تاريخ عام للأتراك من صلح كوجك قينارجه إلى إبادة الإنكشارية عام ١٨٢٦م، واستطاع أن يقدم للسلطان فى العام التالى المجلدات الثلاثة الأولى ، فكافأه السلطان بتعيينه مؤرخاً للدولة ، كما كافأه على مصنفه الثانى « المعاملات الإسلامية » الذى ظهر بعد ذلك بعامين بعنوان « النص الثابت »، والذى قوبل عند ظهوره بالإعجاب الشديد . وعين عضواً فى هيئة العلماء التى كانت تقوم فى ذلك الوقت بتنقيح القانون المدنى ، كما أقامه ناظراً على لجنة الأملاك ، ولازمه التوفيق فأخذ يتدرج فى المناصب العالية ، نخص بالذكر منها منصب الوزارة الذى ضحى من أجله بلقب مؤرخ الدولة عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م ، ومنصب رئيس المجلس الذى كانت وظيفته تنقيح القانون المدنى عام ١٢٨٤هـ، ذلك المجلس الذى ازداد نشاطه بتوليه رياسته . وقد ولى حكم حلب وبروسة ومرعش ويانيه على التعاقب ، وأصبح بعد ذلك والياً على الشام مرتين ، ثم ناظراً للمعارف ثلاث مرات ، ثم ناظراً للحقانية مرتين ، والداخلية والتجارة مرة ، ثم وكيلاً للمجلس المخصوص . وخير عمل قام به كان أثناء نظارته للمعارف إذ أدخل الروح العصرية فى المدارس(٦٠) .

وبعد أن اعتزل مناصب الحكومة ، قضى بقية حياته الطويلة موفور الصحة والنشاط شغوفاً بالقراءة ، التى كان يقضى فيها جل وقته ، ودلتنا مؤلفات أبنائه وبناته على أنه كان أباً رحيماً ، وقضى نحبه بعد مرض لم يمهله طويلاً فى بيته الريفى فى بيك على شاطئ البسفور ليلة الخامس والعشرين من مايو سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م .

وإلى جانب مصنفه القواعد العثمانية الذى ظل ينشر كاملاً وملخصاً فى طبعات منقحة ، مصنفان لغويان آخران هما « معيار سداد » و« آداب سداد » ، وهما مقدمتان فى الأسلوب الأدبى ، وكان يجيد اللغة العربية والفارسية قراءة وكتابة كاللغة التركية ، وقد بقى القليل من أشعارها ، وهى تمتاز بالبساطة وإن كانت أقرب إلى الصناعة منها إلى الشاعرية على الرغم من خلوها من الأخطاء .

وقد تم طبعه أثناء نظارته الثانية للحقانية (١٢٩٣ – ١٢٩٤هـ/١٨٧٦ – ١٨٧٧م) أكبر عمل قضائى فى عصره وهو القانون المدنى التركى ، واشتهر أحمد جـــودت بصفة خاصة بالتأريخ ، ففى أواخر عهد السلطان عبد العزيز وعندما لهجت الأفــواه جميعاً بالثناء عليه اتحف أحمد جودت الشـــعب العثمـــانى بـــألمع درة فـــى عـــالم المصنفات الشرقية ، ألا وهى « قصص الأنبياء وتاريخ الخلفاء » ، وهو مصنـــف ختمه بمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولكن المصنـــف الـــذى خلـــد اسمه فى عالم التأليف ، وهو كتابه فى تاريخ تركيا المسمى « وقائع الدولة العليـــة » الذى تناول فيه الحوادث من عام ١١٨٨ – ١٢٤١هـ/١٧٧٤ – ١٨٢٥م ، ويقـــع فى اثنى عشر مجلداً ، طبعت الطبعة الأولى منه فى القســـطنطينية عـــام ١٢٧١ – ١٣٠١ هـ ، وتكرر طبعه فيما بعد ، كما ظهرت الطبعة الأخـــيرة منقحـــة تنقيحـــاً سياسياً، ولم يعتمد أحمد جودت فى تاريخه هذا على الوثائق الرسمية فحسب ، بـــل اعتمد كذلك على مؤرخى الدولة أمثال واصف وأنورى وأديـــب ونـــورى وبرتـــو وعاصم وشانى زاده ، كما اعتمد فى بعض المناسبات على المؤرخ العربى الكبـــير عبد الرحمن الجبرتى وغيره(٦١) .

وبالرغم من أنه كان يكتب فى عصر سيطرت فيه فرنسا على نصف القـــارة الأوربية ، فإنه لم يرجع إلى أى مصدر فرنسى سوى مذكـــرات نـــابليون ، وكـــان أحمد جودت مستقلاً فى الرأى إلى حد أن سرده للحوادث كان يتسم بطابع عبقريتـــه الفذة وعقله الناضج ، وأثناء حكم عبد المجيد وعبد العزيز تمكن أحمد من الرجـــوع إلى المحفوظات الرسمية ، كما نستطيع القول بأنه رتب الحوادث ترتيبـــاً زمنيـــاً ، وأنه مزج الحروب والأحداث الداخلية فى مهارة فائقة استطاع بها أن يحافظ علـــى هذا الترتيب الزمنى ، وسار فى المجلدات الخمسة الأوائل على طريقة المؤرخيـــن القدماء فكان أسلوبه خطابياً فخماً ، ثم تنحى عن هذا الأسلوب فجأة فى أوائل المجلد السادس فتوخى البساطة التى بدأ الكتاب يتوخونها فى هذا العصر(٦٢) .

وكان أحمد جودت باشا مقتنعاً تمام الاقتناع بفائدة دراسة التاريخ فى التربية ، فهو يحذر مواطنيه دائماً من فساد الإدارة عند الشرقيين ، كما كان يوجه اهتمامه إلى عهود التقدم مهما تضاءلت ، يستعرضها فى إيجاز بليغ ويجعل منها وسيلة لإنهاض وطنه ، يظهر هذا بصفة خاصة فى أفكاره القيمة التى وردت كثيراً فى المجلدات الخمسة الأولى ، ولعل أكثر ما كان يضجره هذا الانتقال الفجائى من الركود التام إلى النشاط العجيب ، الذى كان يتمثل جلياً فى القرون الماضية ، وليس هناك شخص تأخذه الحماسة لانتصارات العلم أكثر من أحمد جودت باشا ، كما أنه يفيض وطنية عندما يشيد بما قامت به الدولة العثمانية من الفتوحات التى أفادت بها الحضارة ، كالفصل بين السلطات الحربية والمدنية الذى تم فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وتركيز الإدارة وإصلاح العملة ، أما فى ميدان السياسة الخارجية فلم يكن هناك شئ أحب إلى نفسه سوى أن يرى الدولة العثمانية تتحالف مع النمسا على روسيا؛ لأن هاتين الدولتين – وكلتاهما من الجنس الذى تمتزج فيه الدماء الصقلبية بغيرها – ليس أمامهما سوى الاتفاق بدل التنابذ إذا أرادتا أن توجها طغيان فكرة الجامعة الصقلبية(٦٣) .

ونذكر كذلك من مصنفات أحمد جودت باشا بصفة خاصة :بيان العنوان ، ومعلومات نافعة ، وتقويم الأدوار ، ثم إتمامه لترجمة ابن خلدون إلى التركية(٦٤) .

وقد فهم أحمد جودت الإسلام ، على أنه نظام حيوى شامل ينظم حياة الأفراد والجماعات والدول ، وأن الحاكم المسلم يجب أن يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية ، وأكد أحمد جودت أن الدين الإسلامى هو سر وحدة المسلمين ومصدر قوتهم ، وما تسرب الضعف إلى جسم الأمة الإسلامية إلا حين أخذت تستبدل الوطنية والقومية بدلاً من الفكرة الإسلامية .

وأكد أحمد جودت أن العثمانيين مدينون أكثر من غيرهم للإسلام باعتباره البوابة التى دخلوا منها التاريخ ، فهو أساس دولتهم وحضارتهم ، وإليه يرجع كل ما يفخر به العثمانيون ، ومن هذا المنطلق يقارن جودت باشا بين الأمة العثمانية

الشرقية ، وأمم الغرب النصرانية . ففى أوربا أنشئت الدول على أســـاس قومـــى ، وحلت عندهم الفكرة الوطنية محل الدين . ونمت دولهم الحديثة على هذا الأســـاس المادى الصرف ، والفكر الضيق المحدود ، الذى عمل على تقسيم الأمـــة الواحـــدة وتفتيتها إلى مجموعة من الشعوب . أما الدولة العثمانية فهى تختلف عن أمم الغـروب ودوله فى كافة النواحى ، فليس هناك إذن ما يمكن أن تستفيده الدولة العثمانية مـــن نظم أوربا وأساليبها فى الحياة(٦٥) .

وقد اهتم أحمد جودت كثيراً بأحوال الدولة العثمانيـــة ، ودرس أوضاعـــها ، وشخص أمراضها ، وعمل جاهداً فى ظل حكم السلطان عبد الحميد الثانى لإصـــلاح أحوال الدولة ، وإيجاد الحلول لمشاكلها . فرأى أن الدولة العثمانية بحكـــم تاريخـــها واتساع جغرافيتها وعراقة الأسرة العثمانية الحاكمة فيها ، وما أصبح لها من درايـــة بالحكم وخبرة بالقيادة ، وباعتبار الدولة موطن السلطنة ومستقر الخلافة ، كل ذلـــك مما يؤهلها لزعامة العالم الإسلامى وحمايته من الأخطار التى تهدده من كل جـــانب فى ظل سياسة الجامعة الإسلامية .

كما بين أهمية الوحدة بين أجزاء الدولة العثمانية ، وخاصة ولاياتها الشـرقية، ودعا إلى عدم التفريط بأى جزء منها ، ووقف موقفاً مناوئاً من الاقتراح الذى تقـــدم به سعيد حليم باشا – كان وقتها وزيراً للداخلية – والذى يقضى بإعطاء بريطانيـــا جزيرة قبرص وكريت ، وإعطاء فرنسا مصر لضمان وقوف الدولتين إلى جـــانب الدولة العثمانية فى حربها مع روسيا عام ١٨٧٧م ، والمحافظة على ممتلكاتها فـــى الروملى (أوربا الشرقية) ، فرد جودت باشا على هذا الاقتراح قـــائلاً : « كيـــف نعطى مصر البلد المسلم وباب الحرمين الشريفين وركيزة الإســـلام المهمـــة فـــى إفريقيا بدلاً من بلغاريا التى أكثر شعبها من النصـــارى(٦٦) . وأكـــد جـــودت باشـــا ضرورة أن يمتد هذا الاهتمام ليشمل كافة المسلمين فى مختلف أنحـــاء المعمـــورة لتبصيرهم بأمور دينهم ، وبيان أهمية الوحدة ، والائتـــلاف بينـــهم ، وأنـــها مـــن

مستلزمات دينهم الذى يوجب عليها التضامن والتكافل ، وتحذيرهم من مغبة التنابذ والتشتت والاختلاف(٦٧) .

وقد اتخذ جودت باشا من التنظيمات العثمانية ورجالاتها موقفاً معادياً واتهمهم بأنهم فى سياستهم التى اتبعوها كانوا منفذين لرغبات الدول الغربية ، خاضعين لنفوذ سفاراتها ، وأن حرصهم على إرضاء تلك الدول كان أكثر من حرصهم على مصالح الدولة العثمانية ، التى أغرقوها بالديون ، وأوقعوها فى حبائل المصالح الأجنبية . أما التنظيمات التى أوجدوها فى الدولة العثمانية فلم ينتج عنها سوى التمسك بالقشور من الثقافة الغربية ، وتقليد المظاهر والانصراف عن الاستفادة من جوهرها المتمثل بالصنائع والفنون ، هذا إلى جانب ما جرته هذه التنظيمات على الدولة من مخاطر حين أعلنت المساواة المطلقة بين عناصر الدولة ، بغض النظر عن الدين ، مما أتاح الفرصة لغير أبناء دينها لتتولى المناصب الهامة وتوجيه سياستها الخارجية ومراكزها العسكرية ، مما ألحق بالدولة أفدح الأضرار(٦٨) .

ولم يضع جودت باشا ثقته بأية دولة أوربية يمكن أن تعمل على مساعدة الدولة العثمانية ، فهذه الدول مجتمعة تعمل على إضعاف الدولة العثمانية ، وإثارة المشاكل العديدة لها فى الخارج وفى الداخل . فإنجلترا ، رغم تظاهرها بمساعدة الدولة ، كانت تعمل على إضعاف قوتها عن طريق إثارة الأرمن ضدها ، أما روسيا فهى دائمة السعى للثأر من الدولة العثمانية بعد هزيمتها لها فى حرب القرم عام ١٨٥٤م ، وأطماع النمسا بادية فى منطقتى البوسنة والهرسك ، مما دفعها إلى تأييد المتمردين فيها ضد الدولة العثمانية(٦٩) .

الهوامش

(١) محمد عبد اللطيف البحرواى : حركة الإصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ١٨٠٨ – ١٨٣٩م ، ص ٩٣ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤/ ١٩١٤م) القاهرة ١٩٨١م ، ص ٢١٢ – ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ٧٢ – ٧٣ ، بيروت ١٩٦٠م .

(٣) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٢ ، ص ٣٩١ ، الأستانة ١٣١١هـ .

(٤) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ١ ، ص ١٠٤ – ١٠٧ ، ترجمة عبد القادر الدنا ، بيروت ١٣٠٨هـ .

(٥) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ١١ ، ص ١٦٨ – ١٧٠ .

(٦) أحمد جودت : المصدر نفسه ، جـ١١ ، ص ١٦٨ – ١٧٠ .

(٧) البارون دى توت لختارته الحكومة الفرنسية – رغم أصله الهنغارى – للسفر إلى استانبول بصحبة السفير الفرنسى ، فى وقت كانت الحرب الروسية العثمانية على أشدها ، وقد بذل دى توت جهوداً لمساعدة السلطان العثمانى فى أعمال تحصين البوسفور وإصلاح المدفعية والبحرية ... ولدى عودته إلى باريس قدم إلى حكومته تقريراً عن حالة الدولة العثمانية السياسية ضمنه آراءه التى تتلخص فى : أن الدولة العثمانية آيلة إلى الانهيار القريب ، وأن تدخل فرنسا الدبلوماسى لنجاتها لا يجدى فتيلاً ، وأن الاستيلاء على مصر يخدم المصالح الفرنسية ، ويجعل من الميسور على فرنسا إيجاد الصلات الوثيقة مع الهند ، ويسهل إنشاء قناة تصل بين البحر الأحمر ونهر النيل عند فرع دمياط ، كما قام البارون دى توت بزيارة مصر فى رحلة تفتيشية كانت الحكومة الفرنسية قد كلفته بالقيام بها ، ووقف بنفسه على طغيان الأمراء المماليك وفرضهم الضرائب الفادحة ، وقدم البارون بهذا تقريراً إلى الحكومة الفرنسية . (طلال المهتار : آثار حملة بونابرت على مصر . الجامعة اللبنانية ، كلية الحقوق ١٩٦٢م ، ص ٢٣ ، ٢٤) .

(٨) عبد اللطيف البحراوى : المرجع السابق ص ٩٥ .

(٩) دائرة المعارف التركية ، ميدان لاروس . مادة مصطفى الثالث ، المجلد التاسع ص ٩٠ ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م استانبول .

(١٠) أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ص ٢٧١ – ٢٧٣ ، استانبول ١٨٨٢م ، نهاد سامى بانارلى : دستان ملوك آل عثمان ، ص ١١٢ – ١١٣ ، استانبول ١٩٣٨م .

(١١) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ٦ ، ص ٣١١ – ٣١٦ .

(١٢) إبراهيم حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ص ١٧٩ – ١٨٠ ، مصر ١٣٢٣هـ .

(13) Enver Ziya Karal : Osmanli Tarihi. Cilt 5, s – 62. Angel; P. 53, Ankara 1970.

(١٤) للإطلاع على محتوياته انظر : بيان نظام سلطان سليم الثالث : مخطوطة تركية فى جامعة الملك سعود ، برقم ٤٩٠ ، ومصورة من مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، ص١ – ١٠ .

(١٥) نظام دولت عثمانية : مخطوطة تركية سبق ذكرها ، ص ١٠ – ٤٠ .

(16) Yilmaz Oztum : Turkiye. Tarihl, Cilt II – Kitap 12. S,169.

(١٧) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ٧ ، ط٢ ، ص ٩٢ – ٩٣ .

(١٨) بوّل إيمبر : عثمانلى إيمبراطور لغنك تجددى ، ترجمة حسن فرهاد ، ومعلم أنثره من الإنجليزية إلى اللغة التركية ، ص ١١٢ – ١١٣ ، استانبول ١٩٢٣م .

(١٩) انكه لهارد : دولت عثمانية نك تاريخ إصلاحاتى ، ترجمة على رشاد، ص ١٨ ، استانبول ١٩٢٦م .

(٢٠) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : أثر الغرب الأوربى فى حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية (١٧٨٩ – ١٨٣٩م) ص ١٤١ ، رسالة ماجستير ، جامعة بيروت ، كلية الحقوق ١٩٧٥م .

(٢١) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .

(٢٢) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : المرجع نفسه ، ص ١٤٣ ، رشيد ثريا : أدبيات جديدة وقراءات أدبية ، جـ١ ، ص ١١٨ – ١٢١ ، طبعة جلال ساهر ومحمد فؤاد ، الآستانة ١٩٢٨م .

(٢٣) شمس الدين سامي : قاموس تركى ، ص ٤٩١ ، استانبول ١٣١٧هـ .

(٢٤) رشيد ثريا : أدبيات جديدة وقراءات أدبية ، جـ١ ، ص ١٢٧ .

(٢٥) إسماعيل حبيب : تورك تجدد أدبياتى ، ص ٦٨٢ الآستانة ١٩٢٥م .

(٢٦) عبد الوهاب القيسي : حركة الإصلاح وتأثيرها فى العراق ١٨٣٩ - ١٨٧٧م ، ص ٣٩ - ٤٣ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ١٩٦١م ، مطبعة العانى ، بغداد ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

(٢٧) إسماعيل حبيب : تورك تجدد أدبياتى ، ص ٦٨٢ ، الآستانة ١٩٢٥م .

(٢٨) عبد الرؤف محيى الدين سنو : المرجع السابق ، ص ١٥١ ، رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص ١٨١ ، مطبعة إستانبول (بدون تاريخ) .

(٢٩) أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ، ص ٢٥٣

- محمد ثريا : سجل عثمانى ، جـ٢ ، ص ٣٥٧

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ١٣١ ، الآستانة ١٢٨٥هـ .

(٣٠) عبد الرؤوف سنو : المرجع السابق ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ص ٢٦٧ .

(٣١) بجوى : تاريخ ، ص ٤١١ .

- أحمد رفعت : روضة العزيزية ص ١٦٧ ، الآستانة ١٢٨٢هـ .

- عثمان زاده : حديقة الوزراء ص ٨١ ، الآستانة ١٢٧١هـ .

- أحمد رفيق : كدنلر سلطنى ، جـ١ ، ص ٧٨ ، الآستانة ١٣٢٢هـ .

(٣٢) عزرا سمويل ساسون : مدحت باشا وجمعية الاتحاد والترقى العثمانية ص ١٢١ - ١٢٧ ، مطبعة جرجى غرزوزى بالإسكندرية ، سنة ١٩١٠م .

(٣٣) انظر تفصيل مرسوم كلخانه فى دائرة المعارف التركية . ميدان لاروس ، مادة Sulhane .

(٣٤) مجهول : عصر السلطان عبد الحميد وأثره فى الأقطار العربية ١٨٧٦ - ١٩٠٩م ، جـ١ ، ص ١٧٠ . صدر فى سلسلة أجزاء متتابعة المكتبة الهاشمية ، دمشق الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .

(٣٥) انظر نص الفرمان فى :
- أحمد مدحت : اس انقلاب ، ص ٢٨٣ – ٢٩٣ ، استانبول ١٢٩٤هـ ، وزارة العدل التركية خط همايون وقانون أساسى (تركى وعربى) ط٣ ، القسطنطينية طبع فى مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٧هـ .
- دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الخامس ، ص ٤٩٩ – ٤٥١ .
- عبد العزيز الشناوى وزميله : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ص ١٤ – ١٦ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م .

(٣٦) عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية فى ولاية سورية ، ١٨٦٤ – ١٩١٤م ، ص ٢٥ – ٣٧ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .

(٣٧) سليمان البستانى : عبرى وذكرى . أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ، ص ١١ – ١٢ .

(٣٨) مذكرات مدحت باشا ، ص ١٣٩– ١٤٠ ، نشرها ابنه يوسف كمال بك حتاتة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٨م ، مطبعة هندية بالموسكى بمصر . (بدون تاريخ).

(٣٩) دائرة المعارف التركية . ميدان لاروس . الطبعة الأولى ١٩٧٣م استانبول ، جـ١ ، مادة السلطان عبد العزيز ، ص ٢٦ .

(٤٠) هذه العبارة عبارة قانونية وتعنى فى الغالب ، أن محتوى هذا النظام ٧٨ مادة ، ثم ختم بمادة أخرى خاصة تحدد تاريخ سريان مفعول هذا النظام المعد ، أو تاريخ سريان مفعول المادة المؤقتة الموضوعة لاعتبارات خاصة .

(٤١) انكه لهارد : تركيا وتنظيمات ، دولت عثمانية نك تاريخ إصلاحاتى . ترجمة على رشاد ، ص ١٦٩ ، استانبول ١٣٢٨هـ .

(٤٢) المأمورين : أى الموظفين .

(٤٣) إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات عثمانية ، ص ٧١ – ٨٢ ، الآستانة ١٣٠٧هـ .
- سليم فارس : كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب ص ٣٢٠ – ٣٢٥ ، الطبعة الأولى ، مطبعة الجوائب ، بالآستانة ١٢٩٨هـ .

(٤٤) أبو الثريا سامي : وساوس السلطان عبد الحميد ، ص ١٤٠ – ١٤٣ ، مطبعة العهد – بغداد ١٣٥١هـ/١٩٢٢م .

(٤٥) فؤاد باشا ، صدر أعظم ، ومن كبار رجال الدولة العثمانية ، تولى منصب الصدارة العظمى في عهد السلطان عبد العزيز ، ورغم دراسته الطبية والعسكرية، فقد التحق بعد تخرجه بدائرة الترجمة بالباب العالي ، وكلف بمهمة إعادة الهدوء إلى لبنان على اثر فتنة عام ١٨٦٠م . وقد لفت إليه الأنظار بكفاءته في إيقاف الفتنة وإعادة الأمن والهدوء إلى المنطقة ، تولى الصدارة مرتين ، وتوفي عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م في مدينة نيس – جنوب فرنسا – حيث كان يعاني من مرض القلب (مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ١٣٤ ، وصديق الدملوجي : مدحت باشا ص ٢٣٠ – ٢٣١ ، مطبعة الزمان ، بغداد ١٩٥٢م) .

(٤٦) رشيد باشا ، تولى الصدارة في عهد السلطان عبد الحميد ، وكان الأخير خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد في الغرب ومدنيته مثله الأعلى وفلسفته . وقد أعد رشيد باشا الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة عن طريق إرسالهم في بعثات تعليمية وتدريبية إلى العواصم الأوربية ، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو .

(٤٧) فؤاد باشا : وصية فؤاد باشا السياسية . تعريب جميل معلوف . ص ٢٩ ، مطبعة المناظر ، سان باولو ١٩٠٨م .

(٤٨) ،(٤٩) المصدر السابق ص ٣٢ .

(٥٠) أحمد فهد بركات الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ص ٣٩ ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م – ١٤٠٤هـ .

– أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ص٢٢٠ – ٢٢٥ ، ترجمة : صالح أحمد العلي ، منشورا مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٠م .

(٥١) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ١٣٤ .

(٥٢) حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص٤٠٤ ، القاهرة ١٩٥١م .

(٥٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ٢٦ .

(٥٤) عثمان نورى : عبد الحميد ثانى ودور سـلطنتى . ص ٢٢٥ – ٢٣٠ ، اسـتانبول ١٣٢٧هـ .

(٥٥) ،(٥٦)،(٥٧) أحمد فهد بركات الشوابكة : المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٥٨) أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ١ ، ص ٧٥ .

- أحمد صائب :عبد الحميـد أوائـل سـلطنتى ، ص ٣٢٠ – ٣٢٧ ، ط٢ ، إسـتانبول ١٣٢٦هـ .

(٥٩) الماواتلن : عبد الحميد ظل الله على الأرض ، ص ١٢٢ ، ترجمة : راسم رشـدى ، القاهرة ١٩٥٠م .

(٦٠) ماجدة صلاح مخلوف : معروضات أحمد جودت باشا ، دراسة وتحقيق وترجمـة إلى العربية ، ص ١٤٥ ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لقسم اللغات الشـرقية، كلية الآداب ، جامعة عين شمس عام ١٩٨٣م ، القاهرة .

(٦١) ماجدة مخلوف : المرجع السابق ، ص ١٣٩ ، ١٤١ .

(٦٢) المرجع السابق ، ص ١٤٢ – ١٤٤ .

(٦٣) المرجع السابق : ص ١٤٢ – ١٤٤ .

(٦٤) جمال الدين وأحمد جودت : عثمانلى تاريخ ومؤرخلرى . القسطنطينية ١٣١٤هـ.

- إسماعيل حقى : كتاب الترك فى القرن الرابع عشر ١٣٠٨هـ .

(٦٥) أحمد فهد بركات الشوابكة : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٦٦) أحمد فهد بركات الشوابكة : المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٦٧) ماجدة صلاح مخلوف : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٦٨) ماجدة صلاح مخلوف : المرجع السابق ، ص ١١١ ، ١٤١ .

(٦٩) المرجع نفسه ، ص ١٠٩ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

- أحمد جودت : تاريخ جودت ، جـ١ ، ترجمة عبد القادر الدنا ، بيروت ١٣٠٨هـ .
- أحمد فهد بركات الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ .
- إبراهيم حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، مصر ١٣٢٣هـ .
- أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ترجمة : صالح أحمد العلى ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٠م .
- إسماعيل حقي : كتاب الترك فى القرن الرابع عشر ١٣٠٨هـ .
- الماواتلن : عبد الحميد ظل الله على الأرض ، ترجمة : راسم رشدى ، القاهرة ١٩٥٠م .
- أبو الثريا سامى : وساوس السلطان عبد الحميد ، مطبعة العهد - بغداد ١٣٥١هـ/١٩٢٢م .
- حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٩٥١م
- ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٠م .
- سليم فارس : كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب ، الطبعة الأولى ، مطبعة الجوائب ، بالآستانة ١٢٩٨هـ .
- سليمان البستانى : عبرى وذكرى . أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ، القاهرة ١٩٠٨م .
- صديق الدملوجى : مدحت باشا ، مطبعة الزمان ، بغداد ١٩٥٢م .
- طلال المهتار : آثار حملة بونابرت على مصر . الجامعة اللبنانية ، كلية الحقوق ١٩٦٢م .

- عبد العزيز الشناوى وزميله : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م .
- عزرا سمويل ساسون : مدحت باشا وجمعية الاتحاد والترقى العثمانية ، مطبعة جرجى غرزوزى بالإسكندرية ، سنة ١٩١٠م .
- عبد العزيز عوض : الإدارة العثمانية فى ولاية سورية ، ١٨٦٤ - ١٩١٤م ، دار المعارف بمصر ، القاهرة .
- فؤاد باشا : وصية فؤاد باشا السياسية . تعريب جميل معلوف . مطبعة المناظر ، سان باولو ١٩٠٨م .
- مجهول : عصر السلطان عبد الحميد وأثره فى الأقطار العربية ١٨٧٦ - ١٩٠٩م ، جـ١ ، صدر فى سلسلة أجزاء متتابعة المكتبة الهاشمية ، دمشق الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .
- محمد عبد اللطيف البحراوى : حركة الإصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ١٨٠٨ - ١٨٣٩م ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ / ١٩١٤م) القاهرة ١٩٨١م .
- مذكرات مدحت باشا : نشرها ابنه يوسف كمال بك حتاتة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٨م ، مطبعة هندية بالموسكى بمصر . (بدون تاريخ) .
- وزارة العدل التركية : خط همايون وقانون أساسى (تركى وعربى) الطبعة الثالثة ، القسطنطينية ، مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٧هـ .

ثانيا : المصادر والمراجع التركية :

- أحمد صائب :عبد الحميد أوائل سلطنتى ، ط٢ ، إستانبول ١٣٢٦هـ .
- أحمد رفيق : كدنلر سلطنى ، جـ١ ، الآستانة ١٣٢٢هـ .
- أحمد مدحت : اس انقلاب ، استانبول ١٢٩٤هـ .
- أحمد رفعت : روضة العزيزية ، الآستانة ١٢٨٢هـ .

- أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ، استانبول ١٨٨٢م ،
- انكه لهارد : دولت عثمانية نك تاريخ إصلاحاتى . ترجمة على رشاد ، استانبول ١٩٢٦هـ .
- إسماعيل حبيب : تورك تجدد أدبياتى ، الآستانة ١٩٢٥م .
- إسماعيل غالب : تقويم مسكوكات عثمانية ، الآستانة ١٣٠٧هـ .
- بول إيمبر : عثمانلى إيمبراطور لغنك تجددى ، ترجمة حسن فرهاد ، ومعلم أنثره من الإنجليزية إلى اللغة التركية ، استانبول ١٩٢٣م .
- جمال الدين وأحمد جودت : عثمانلى تاريخ ومؤرخلرى . القسطنطينية ١٣١٤هـ .
- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، مطبعة إستانبول (بدون تاريخ) .
- رشيد ثريا : أدبيات جديدة وقراءات أدبية ، جـ١ ، طبعة جلال ساهر ومحمد فؤاد ، الآستانة ١٩٢٨م .
- عثمان نورى : عبد الحميد ثانى ودور سلطنتى . استانبول ١٣٢٧هـ .
- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، الآستانة ١٢٧١هـ .
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانلى ، جـ٢ ، الأستانة ١٣١١هـ .
- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، الآستانة ١٢٨٥هـ .
- نهاد سامى بانارلى : دستان ملوك آل عثمان ، استانبول ١٩٣٨م .
Enver Ziya Karal : Osmanli Tarihi. Cilt 5. Ankara 1970.

ثالثاً : المخطوطات والقواميس ودوائر المعارف والمجلات :

- بيان نظام سلطان سليم الثالث : مخطوطة تركية فى جامعة الملك سعود ، برقم ٤٩٠ ، ومصورة من مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة .
- شمس الدين سامى : قاموس تركى ، استانبول ١٣١٧هـ .
- دائرة المعارف التركية ، ميدان لاروس . المجلد التاسع ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م استانبول .

- عبد الوهاب القيسى : حركة الإصلاح وتأثيرها فى العــراق ١٨٣٩ - ١٨٧٧م ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد - كانون الثانى ١٩٦١م ، مطبعــــة العــانى ، بغداد ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

رابعا : رسائل الماجستير والدكتوراه :

- ماجدة صلاح مخلوف : معروضات أحمد جودت باشا ، دراسة وتحقيق وترجمـة إلى العربية ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لقسم اللغات الشـــرقية ، كليـــة الآداب ، جامعة عين شمس عام ١٩٨٣م ، القاهرة .

- عبد الرؤوف محيى الدين سنو : أثر الغرب الأوربى فى حركة الإصلاح فى الدولـــة العثمانية (١٧٨٩ - ١٨٣٩م) ص ١٤١ ، رسالة ماجســـتير ، جامعــة بـــيروت العربية - كلية الآداب ، بيروت ، ١٩٧٥م .

المعاهدة التركية الأمريكية

عام ١٨٣٠م

« دراسة وثائقية »

د. عبد العليم على أبو هيكل (*)

فى الوقت الذى بلغ الصراع والتنافس الاستعمارى أشده بين بريطانيا وفرنسا لغرس نفوذهما فى الشرق ، فى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد خرجت لتوها من حرب الاستقلال بتوقيع صلح باريس عام ١٧٨٣م وبدأت من جانبها خطوات حثيثة لدعم بنيانها على كافة المستويات الداخلية والخارجية ، خاصة فى المجالات السياسية والاقتصادية .

وفى تلك الأثناء كان الشرق الأوسط الذى تبسط الدولة العثمانية سيادتها على معظم أجزائه ، يبدو فى صورتين متناقضتين أمام مخيلة الكثير من الأمريكيين ، فهو من ناحية الميدان الفسيح والموقع الاستراتيجى الهام المتحكم فى طرق التجارة العالمية بحريا وبريا على حد سواء ، أما سكانه من الناحية الأخرى فهم أقوام تهيمن عليهم وعلى أنماط حياتهم المعيشية أنواع من الأساطير والخيال والخرافات المتواترة ، ويقضى شيوخهم وقادتهم وأثريائهم جل وقتهم فى اللهو والبذخ[١] .

وقد بدا هذا التضارب واضحا عند النظر إلى طبيعة الدولة العثمانية وما كانت تبثه البعثات الأمريكية من تقارير متضاربة عنها ، كبعثة « بومباى » التى صبت جل اهتماماتها على تردى الأوضاع الداخلية بالولايات العثمانية[٢]، بينما

(*) كلية الآداب – جامعة القاهرة .

كانت القنصلية الأمريكية فى «لشبونة » دائمة الثناء على محاولات الدولة التصدى لضغوط القوى الأوربية عليها[٣] .

هكذا بدت منطقة الشرق الأوسط والإمبراطورية العثمانية أمام الكثير من الأمريكيين عالمًا غير آمن خاصة مع الأنباء المتواترة عن كثرة الصدام العسكرى والتنافس الاستعمارى حول الطرق المائية والبرية المؤدية إليه[٤] وانتشار عمليات القرصنة فى مياه البحر المتوسط والتصادم بين أسبانيا والمغرب بشكل خاص[٥] .

وكان أن تمخض عن هذا التباين فى الرؤية عن ازدواجية أمريكية فى كيفية التعامل مع الدولة العثمانية على النحو التالى :

الأول : التوجه الرسمى من قبل السلطات الأمريكية .

الثانى : الجهود الفردية التى قام بها المغامرون والتجار .

أما الأول فبدأ بمحاولات لجس نبض العاصمة العثمانية فى إمكانية إقامة علاقات تجارية معها ، والاستفسار عن الكيفية المناسبة ، والخطوات المطلوب اتباعها فى هذا الصدد ، عندما شكل « المؤتمر القارى الأمريكى – الكونجرس Continental Congress » ، عام ١٧٨٤م لجنة ثلاثية برئاسة توماس جيفرسون Thomas Jefferson ومعه جون آدامز John Adams وبنيامين فرانكلين Benjamen Franklin لإجراء اتصالات مع السلطان العثمانى[٦] .

وقد بعث جون آدامز برسالة إلى السلطات العثمانية فى فبراير ١٧٨٦م عن طريق وزير الخارجية الفرنسية « فيرنيس – Vergennes» يتمنى فيها الكونجوس إقامة علاقات تجارية وسياسية نشطة بين تركيا والولايات الأمريكية ، واغتنام الرغبة المشتركة لدعم وتقوية تطلعاتهم نحو (التحديث) واستغلال الإمكانيات المتاحة فيهما كى تصبح الأرض الأمريكية ميدانًا رحبًا لتسويق المنتجات التركية ، وتصبح الإمبراطورية العثمانية فى ذات الوقت سوقًا للسلع الأمريكية[٧] .

لم تكن الاستجابة التركية بذات الحماس الذى أبدتـه السـلطات الأمريكيـة ، عندما جاء رد الطرف الأول محملاً بالعديد من الأسباب التى تدعو إلى التأنى فـى اتخاذ خطوة كهذه بين البلدين ، خاصة فى ذلك الوقت عام ١٧٨٦م ، لمـا يخشـاه الصدر الأعظم من ازدياد المتاعب الدولية مع القوى المعادية ، والتى تجد الخطـى بحثًا عن الذرائع للضغط على الدولة ، مع استمرار المصادمـات العسـكرية التـى سوف تتعرض معها التجارة للخطر . واقترح الأتـراك تـرك منـافذهم التجاريـة مفتوحة لمن أراد الإقدام على المتاجرة داخل بلدانهم ، دون أدنى مسـئولية منـهم ، وحتى لا تثار الدول المعنية خاصة روسيا وإنجلترا(٨) .

أما التوجه الثانى الذى قاده المغامرون والتجار ، فكان أكثر جـرأة وإقدامًـا لأمرين أساسيين :

الأول : روح المغامرة والرغبة فى الانتظام من الإنجليز والفرنسيين والأسبان علـى حد سواء ، نتيجة للمعاناة والضغوط التى تعرضوا لها بصفة عامة خـلال حرب الاستقلال(٩) .

الثانى : التعويض عن الخسائر التى أصابت التجار منهم بصفة خاصة مع القوانيـن المقيدة لحركة التجارة التى أصدرتها السلطات البريطانية ، كقانون السـكر عام ١٧٦٤م ، وضرائب التصدير على السلع الأوربية التى تشـحن إلـى المستعمرات من بريطانيا والتى ارتفعت من ٢,٥% إلى ٥% ، إضافة إلى سخاء السلطات البريطانية فى منح كبار الملاك المؤيدين لها المزيد مـن الأراضى مكافأة لهم(١٠) .

وكان أبرز هؤلاء التجار « وليم بركنز – William Lee Perkins » وهـو من تجار الأقمشة والمواد الغذائية بمدينة بوسطن Boston الذين أصيبـوا بخسـائر متتالية خلال السبعينات من القرن ١٨ فى الفترة من عام ١٧٧٢ حتى ١٧٨٠م على النحو التالى :

العـــــــام	الدخل التقــريبى بالدولار
١٧٧٢م	١٨٠٠٠ دولار
١٧٧٤م	١٣٢٥٠ دولار
١٧٧٦م	٩٧٤٠ دولار
١٧٧٨م	٨٣٢٠ دولار
١٧٨٠م	٨١٥٠ دولار(١١)

كذلك قدرت خسائر سبعة عشر تاجرًا بمدينة يوركتون York Town الواقعة عند مصب نهر يوركYork عام ١٧٨١م بما يقرب من مليونين من الدولارات(١٢).

وفى أواخر عام ١٧٨٣م قام « بركنز » بمحاولة شـــخصية فحصـــل علـــى موافقة للمسئولين الأتراك على تأسيس وكالة تجارية له بمدينـــة أزمـــير لاســـتيراد الملابس التركية المعروفة باسم « سمرنا – Smyrna » (أى أزمير) وعرضـــــها فى الأسواق الأمريكية فى ذات الوقت الذى كان الأفيـــون يســـتورد مـــن كـــانتون Canton يباع فى الأناضول والروميللى دون عقبات من قبل المسئولين الأتراك(١٣). وعلى الجانب الآخر فضلت جماعة من المغامرين التأنى فى الوصول إلى عقـــر دار الدولة العثمانية بهدف اختبار الأوضاع على طرق التجارة عبر الهند وموقف القـــوى المتنافسة من حوله .

وفى منتصف عام ١٧٩٢م عبرت السفينة التجارية « بوسطن » المسافة بيـــن مدراس Madras وبومباى Bombay وعلى متنها عدد من جنود البحرية Mariner وبعض من أبناء الشمال الأمريكى Yankee ، واعتقد قائدها أنه قـــد وصـــل إلـــى ساحل المليار Malabar Coast عندما استقرت سفينتهم عند ميناء «ظفـــــار » فـــى العاشر من يوليو . وبإرشاد من عرب المنطقة تمكن الأمريكيون من الوصول إلـــى

مطرح بالقرب من مسقط فى عشر من أغسطس ، وبعدها قفلت السفينة عائدة مرة أخرى إلى الهند[١٤] .

وكان أن سرى نوع من الطمأنينة عند المغامرين فأتبعوا خطواتهم الاستكشافية المذكورة بأخرى أكثر جرأة كما مارسوا بعض النشاط التجارى لجس نبض القوى المعنية محليا ودوليا بالقرب من مناطق السيادة العثمانية ، فأبحرت السفينة (ساليم – Salem) وهى فارغة إلى مسقط فى صيف ١٧٩٥م ، وحين عودتها كان على متنها عدة أطنان من البن واللبان العمانى والسجاد الفارسى والتمور المجففة المحببة لدى الأمريكيين[١٥] .

وبعد عامين فقط – أى فى ١٧٩٧م – بدأ النشاط التجارى للمغامرين فى الاتساع ، فأضحت القافلة البحرية الأمريكية مكونة من ثلاث سفن بانضمام « ستارز Stars » و « سترايبس Stripes » إلى « ساليم » وعلى متنهن كميات كبيرة لم تحدد من الفراء والموز . وعندما وصلت إلى مسقط فى أواخر ذلك العام كانت قد أضيفت إلى الحمولة أطنان من الأقمشة والمنتجات الهندية التى حملتها من كلكتا Calcutta[١٦] .

على أن نشاط المغامرين الأمريكيين أثار بعض التوجس والمخاوف لدى شركة الهند الشرقية بما قدرته من مخاطر يمكن أن تكون مقدمة لنشاط تجارى أوسع ومزاحمة أمريكية يمكن أن يتمخض عنها ضرر بالغ على مصالح الشركة[١٧]، فى الوقت الذى أضحت فيه فرنسا بحملتها على مصر والشام فى أواخر التسعينات فى أواخر القرن الثامن عشر هى العدو المشترك لكل من إنجلترا والأتراك . وإذا كانت الأولى لم تشأ فتح جبهة جديدة لصدام مع الولايات الأمريكية، خاصة وأنها ما زالت قريبة العهد من الصلح الموقع بينهما فى باريس عام ١٧٨٣م ، وتصدت للحملة الفرنسية كحلقة من حلقات الصراع بين الطرفين ، فإن الدولة العثمانية تطلعت من جانبها للحصول على المزيد من المؤيدين لها لمواجهة الضغوط المتتالية عليها من معظم الدول الأوروبية[١٨] .

لهذه الأسباب بادر الباب العالى إلى إحياء الاتصالات الدبلوماسية بينه وبين اللجنة التى شكلها الكونجرس من قبل ، فبعث برسالة إلى جون آدامز[١٩] ذكره فيها بما اتفق عليه منذ ما يزيد على العشر سنوات، وأشار إلى إمكانية تنشيط العلاقات بين البلدين بشكل فعال ومؤثر ، خاصة وأن الدولة العلية تشهد نشاطًا إصلاحيًا واسع النطاق وعلى كافة الأصعدة العسكرية والاقتصادية والتعليمية[٢٠] .

وكان أن اغتنم آدامز الفرصة وسارع بإصدار قرار فى بداية عام ١٧٩٩م كلف فيه وليم سميث – William Smith الوزير المفوض فى لشبونة ، وهو من كارولينا الجنوبية – South Carolina القيام بمسئولية التعامل مع الصدر الأعظم ، محملاً بكل الصلاحيات فى إجراء المفاوضات ، وعرض وجهة النظر الأمريكية من أجل توقيع معاهدة صداقة وتجارة بين البلدين[٢١] .

وقد بلغ عدد الرسائل المتبادلة بين الطرفين خلال الفترة من عام ١٧٩٩ حتى عام ١٨٠٤م ما يزيد على الأربع عشرة رسالة دار محور المناقشات خلالها حول ما يمكن الحصول عليه من امتيازات متبادلة مثل الإعفاءات الجمركية والضرائب والرسوم التجارية وحجم السلع المتبادلة[٢٢] . أما موضوع الصداقة فقد أضحى مفهومًا غير محدد المعالم فى طبيعته وحدوده وكيفية تطبيقه ، فعلى حين كان الطموح التركى منصبًا على حتمية شمولية العلاقات ، بدءًا من التحالف العسكرى بكل صوره فى التصنيع والإمداد والدفاع إذا استدعى الأمر[٢٣] ، كان الجانب الأمريكى – نظرًا لتشابك علاقاته الخارجية وعدم استقرار أوضاعه الإقليمية – يرى حسر نوعية الصداقة عند « المفهوم السياسى والتأييد المناسب » بما لايتعارض أو يتصادم مع طبيعة تطور وتبدل الأحداث والعلاقات الدولية[٢٤] .

وهكذا لم تسفر هذه الاتصالات عن نتيجة حاسمة ، وتوقفت موضوعات المناقشة عند عرض وجهات النظر السابقة . وبالرغم من ذلك ، بدأ النشاط التجارى الأمريكى الرسمى يطرق أبواب الولايات العثمانية على سبيل الاختبار – كما يعتقد – عندما دفعت السفينة الحربية جورج واشنطن George Washington

إلى العمل بالبحر المتوسط رافعة العلم الأمريكي ، وتحت قيادة القبطان وليم بونبريدج William Boinbridge بعد مغادرتها ميناء بوسطن في التاسع من نوفمبر عام ١٨٠٠م متوجهة صوب ميناء الجزائر ، وهناك سلم (الباى) الجزية السنوية المقررة على ولايته إلى القبطان كي يسلمها إلى الباب العالى ، وصعد برفقته عدد من المسافرين العرب اقترب عددهم من الثلاثين فردا وسبعة عشر وطنا من الأسلحة الصغيرة والذخيرة(٢٥) .

وقد اعتبرت هذه الرحلة (الحربية التجارية) بمثابة مغامرة لجس نبض الموقف بالبحر المتوسط المضطرب بالأحداث ، لانتشار القرصنة والمعارك البحرية بين إنجلترا وفرنسا ، إلا أن النجاح الذى أصابته (واشنطن) بوصولها دون متاعب إلى استانبول شجع السلطات الأمريكية على اتخاذ خطوة أخرى باتجاه تنشيط الاتصالات مع الدولة العثمانية ، فقررت في منتصف عام ١٨٠٢م تعيين أول قنصل مقيم لها في استانبول هو وليم ستيوارت – William Stewart(٢٦) ومعه بدأت حركة نشطة للسفن التجارية بين البلدين على حد سواء ، في الفترة ما بين أعوام ١٨٠٢ و١٨٠٨م ، تبعا للبيان التالي بالنسبة للسفن التركية المتوجهة إلى ميناء بوسطن(٢٧) :

العام	العدد	الحمولة بالطن	السلع الأساسية المصدرة
١٨٠٢م	٣	٢١٠	زيت الزيتون ، الفستق ، السجائر التركية ، السجاجيد
١٨٠٣م	٤	٢٦٥	
١٨٠٤م	٣	٢٣٧	
١٨٠٥م	٦	٣٨٥	
١٨٠٦م	٧	٣٩٤	
١٨٠٧م	٦	٣٦٠	
١٨٠٨م	٤	٢٧٠	

وفى المقابل كانت هناك عام ١٨٠٨م ما لا يقل عن الأربع والعشرين سفينة تجارية أمريكية تجوب الطريق التجارى البحرى بين أزمير وبوسطن عبر البحر المتوسط ، بعد أن كان العدد فى بداية عام ١٨٠٢م لا يزيد على أربع سفن فقط ، مما جعل الأناضول والروميللى سوقًا جيدًا للسلع الأمريكية كالكيروسين ، والقطن ، والأسلحة الصغيرة والذخيرة[٢٨] ، وأضحت أزمير بوجه خاص مركزًا لعديد من التجار الأمريكيين الذين زاد عدد مؤسساتهم على سبعة عشر ، تتجر بذات السلع المذكورة ، وكانت مؤسسة « وودماس – أوفلى Woodmas-Offely » هى الأولى فى هذا النشاط ، إذ بلغ رأسمالها عام ١٨٠٨م ما يزيد على ٢٧٠٠٠ قرش ، بل أضحى ديفيد أوفلى ممثلاً للقنصل الأمريكى لدى السلطان التركى فى حال غيابه[٢٩]، وساعده فى هذه المهمة وليم بركنز الذى امتلك مؤسسة لتجارة الملابس الجاهزة والأقطان بذات المدينة[٣٠] .

وبالرغم من استمرار النشاط التجارى الأمريكى داخل معظم المدن التركية ، إلا أن التجارة الخارجية بين البلدين إضافة إلى الاتصالات الدبلوماسية توقفت تمامًا نتيجة للحرب التجارية التى نشبت بين بريطانيا وفرنسا حول السواحل الأوربية ومستعمراتها أيضًا . ولم تعد هناك فرصة للسفن الأمريكية كى تمارس نشاطها بأمان مع الدولة العثمانية ، مما جعل الموقف بالبحر المتوسط سببًا رئيسيًا دفع الرئيس « جيفرسون » إلى استصدار قانون يحظر التجارة الخارجية بأكملها[٣١] ، وكان ذلك فى الوقت الذى رأى الأمريكيون أن الدفاع عن البحرية وحماية الأسطول أضحت قضية جوهرية تجب ما عداها ، وبالتالى كان سماح الكونجرس بدعم السفن الحربية السريعة بالبحر المتوسط بما يزيد على الست عشرة سفينة خلال فترة الحظر التى امتدت من عام ١٨٠٩ حتى ١٨١٥م[٣٢] .

ومع انتهاء فترة الحظر ثم بداية رئاسة جيمس مونرو عام ١٨١٧م الذى أدار فى الوقت نفسه علاقة بلاده الخارجية ، عاودت الولايات المتحدة الاتصال مرة أخرى بالدولة العثمانية برسالة إلى الباب العالى فى شهر مارس ١٨١٨م ، حثه فيها

على المضى قدما فى إجراءات توقيع معاهدة صداقة وتجارة بين البلدين ، لمواكبة التطورات الجديدة عالميا بالاستقرار النسبى أوربيا عقب انتهاء الحرب النابليونية ، وداخل الولايات الأمريكية ذاتها بما يمكن أن يعود على الدولتين بمنافع جمة ، ولمواجهة ضغوط بعض القوى العظمى عليهما[٣٣] .

على أن الرد التركى جاء مخيبا للأمال إذ أوضح حاجة الدولة الماسة فى ذلك الوقت (عام ١٨١٨م) إلى المساعدات العاجلة ماليا وعسكريا وفنيا وبشكل مباشر أكثر من حاجتها إلى توقيع معاهدة يتطلب تنفيذها زمنا طويلا . وإذا كانت هناك ضرورة ملحة لبحث بنود المعاهدة ، فإن الآستانة بحاجة أيضا إلى ما لا يقل عن مليون قرش تستطيع به مع موارد أخرى تلبية مطالبها الإصلاحية ، وبالتالى توقيع معاهدة على أسس متينة وقوية[٣٤] .

ويبدو أن الخارجية الأمريكية – على ما يبدو – استشعرت نوعا من الاستغلال فى الرد التركى ، مما يفسر معه السبب الرئيسى لتوقف الاتصالات بينهما مرة أخرى الذى دعمته سياسة العزلة التى أعلن مبادئها الرئيس مونرو عام ١٨٢٣م . وجاء ذلك من منطلق فكرتين إحداهما (الاستعمار) بمعنى التأكيد بوجوب توقف أوربا عمن إقامة مستعمرات جديدة ، والأخرى (اللاتدخل) للعمل على الحد من التدخل الأوربى فى شؤون العالم الجديد[٣٥] . وهذا التوقف بأسبابه المالية والسياسية أصاب التجار بضرر بالغ ، الأمر الذى دفعهم لأخذ زمام المبادرة هذه المرة فى إعادة إحياء الاتصالات لتنشيط التجارة ووضع أسس متينة لها من خلال معاهدة ملزمة للطرفين .

وقبل عشر سنوات تقريبا من هذا الإعلان وفى عام ١٨١٤م وقعت اتفاقية غنت Treaty of Ghent التى أنهت القتال مع الانجليز . وعقبها شهدت الولايات المتحدة نشاطا اقتصاديا ملموسا رأسيا وأفقيا فى العديد من المحصولات النقدية كالفراء وقصب السكر والتبغ والقطن الذى أدخلت عليه أنواع محسنة ذات التيلة الطويلة ، إضافة إلى اختراع الحلج فضلا عن امتداد زراعته باتجاه الغرب إلى نهر

المسيسبى والأباما ، مما أدى إلى وفرة إنتاجه وتصنيعه[٣٦] . وعلى شاكلته انتشرت زراعة التبغ وعملت ولايات كنتاكى ونيس على تحسين ووفرة فى إنتاج أصنافه مما أعجز قدرات الأفراد الذاتية على التعامل الاقتصادى معه أو مع مثيله من المحصولات النقدية ، وهذا فسح الطريق لقيام الشركات الاحتكارية « كشركة التبغ الأمريكية » بواشنطن عام ١٨١٧م وشركة غرب المسيسبى لغزل القطن عام ١٨١٩م وشركة جبل روكى للفراء عام ١٨٢٢م[٣٧] .

ومع اتساع نطاق أنشطة مثل هذه الشركات الاحتكارية اختل ميزان التنافس التجارى لصالحها على حساب صغار التجار فى ميدان أضحى المكان فيه للأقوى اقتصاديا ، مع عدم توافر الأمن فى معظم ربوع الولايات الأمريكية نتيجة لاستمرارية العداء والتنافس بين الشمال والجنوب ، والتصارع فى السباق والملكية باتجاه الغرب ، فضلا عن استمرار مقاومة السكان الأصليين[٣٨] .

وقد عبر الكثير من التجار عن تردى أوضاعهم من خلال عشرات الرسائل التى بعثوا بها إلى مجلس الولايات الأمريكية . وكان منهم على سبيل المثال ريتشارد هاريسون Richard Harison أحد تجار القطن بفيلادلفيا Philadelphia وقد تراوحت خسائره السنوية ما بين ٣٠ إلى ٤٥% سنويا ، من جراء سياسة العزلة التى تتبعها الإدارة فى جانب، واحتكار النشاط الاقتصادى من قبل الشركات الكبرى التى استأثرت بمعظم ثمار حركة التوسع نحو الغرب فى كافة المجالات ، مما أحكم من حوله وأمثاله حلقة الحصار فى كافة الاتجاهات[٣٩] .

كذلك طالبت الرسائل بفتح بعض النوافذ أمام هؤلاء التجار المتضررين مما يدفعهم إلى التوجه نحو ميادين رحبة بعيدة عن القارة الأوربية أو مناطق تغلغل قواها الكبرى فى أفريقية وآسيا ومناطق الساحل الشرقى لأفريقية وساحل عمان والدولة العثمانية (تبعا لما تأتى به الأخبار المتواترة من هذه الجهات)[٤٠] .

وبالإضافة إلى مثل هذه الرسالة بعث « أوفلى » إلى الخارجية الأمريكية يقترح عليها إمكانية تحمل التجار تبعات كسر طوق العزلة مهما كانت التحديات -

على حد تعبير ما جاء فى رسالته – مع تحمل التجار مسئولية تنشـيط الاتصـالات ومتطلباته المالية إذا كانت هذه الأخيرة هى العقبة التى تحول دون توقيع المعـاهدة المنشودة ، وبادر بإعلان تشكيل لجنة برئاسته ضمت « لوثـر بـرادش Luther Bradish » و « وليم كرين William Crane » وأبدت الاستعداد لتقديم مبلغ قـدره ٢٠,٠٠٠ دولار إلى الحكومة العثمانية فى عام ١٨٢٨م[٤١] .

وفى الوقت الذى كانت الإدارة الأمريكية تطبق (عزلتها) بشكل كامل فـى الميدان السياسى ، إلا أنها من ناحية أخرى تجاهلت ما يجرى من أنشـطة تجاريـة خارجية يمارسهـا بعـض الأفـراد من التجـار و (اليـانكى) فضـلا عـن النشـاط التبشيرى ، خاصة مع تولى الرئيس « جاكسون » زمام السـلطة عـام ١٨٢٨م والذى كان يغض الطرف عن مثل هذه الخطوات لتخطى حـاجز العزلـة التجارية والفكرية بفعل توجهاته العامة وكونه مزارعا وتاجرا فى المقام الأول[٤٢] .

كانت الإدارة الأمريكية قد مهدت الطريق لمثل هذه الأنشطة (غير الرسـمية) عندما أصدر وزير الدولة بالخارجية (هنرى كلاى – Henry Clay) قرارا فـى منتصف عام ١٨٢٦م باعتماد مجموعة من الشباب كانت تعمـل كضبـاط صـف بالبحرية الأمريكية ويتحدثون اللغات الشرقية بطلاقة ، لتعيينهم بـأربع قنصليـات جديدة تقرر افتتاحها فى بداية عام ١٨٢٧م بالشمال الأفريقى فى كل مـن تونـس ، طرابلس ، الجزائر ، وطنجة ، وإلحاقهم بدورات تدريبية مكثفة لدراسـة كـل مـا يتعلق بالأوضاع التركية والعربية مع التركيز على إجادة لغتيهما بشكل كامل[٤٣] .

وأمام هذه التفاعلات أصدرت الخارجية الأمريكية قرارا بتعيين ديفيد أوفلـى قنصلا لها بأزمير على أن تكون مهمته الأساسية العمل بجدية ونشاط لتوقيع معـاهدة تجارية مع الدولة العثمانية[٤٤] وأمام النكسات التى أخذت تحل بالدولة العثمانية فإنـها بادرت بالاتصال بالولايات المتحدة الأمريكية للبدء فى إجراءات توقيـع المعـاهدة المنشودة بينهما . ولكن حاقت الهزيمة بالبحرية العثمانية والأسطول المصرى أمـام القوات المتحالفة الإنجليزية والفرنسية والروسية فى معركة نواريـن – Navarino

على الساحل اليونانى فى العشرين من أكتوبر ١٨٢٧م . وقالت المصادر التركية عن هذه الهزيمة أنها كانت نذير سيئ للدولة العلية على كافة المستويات[٤٥] وعليها اتخاذ خطوات جدية من أجل خلق نوع من التوازن فى علاقات الدولة الخارجية أمام هذه الضغوط ، خاصة من قبل إنجلترا وفرنسا وروسيا على وجه الخصوص[٤٦] .

وكان أن بعث الصدر الأعظم برسالة إلى الخارجية الأمريكية شرح فيها ما تعرضت له قوات الدولة والبحرية المصرية من خسائر فى نوارين ، مؤكدا أن هذا التحالف الغربى الجديد خاصة بين إنجلترا وفرنسا (أعداء الأمس) والغد والذى ليس له مثيل على حد قول الرسالة ، سوف يكون وبالا على النشاط البحرى بكل صوره التجارية والحربية إذا ظل محتفظا بكيانه ، وستكون الخسارة من نصيب الجميع ومنهم الدولة العلية ، وسدا منيعا أمام رغبات الإصلاح والتقدم[٤٧] .

وفى بداية عام ١٨٢٨م عقد اجتماع ضم رجالات الدولة الكبار استعرض فيه المستشارون بالحربية والداخلية خطورة ما تمر به الدولة وما تتعرض له من نكسات خلال مسيرتها الإصلاحية التجديدية العسكرية ، بعد القضاء على مراكز القوة القديمة (الانكشارية)[٤٨] ، والحاجة الملحة وبشكل سريع عاجل إلى قوة أكبر كبديل حديث ، لمواجهة التحالفات الجديدة ، مما يتطلب حتمية إقامة علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، باعتبارها قوة ناشئة استطاعت إلحاق الهزيمة بالإنجليز منذ فترة ليست بالبعيدة ، وبما يخلق « التخالف » معها من توازن وقدرة على المجابهة والاستفادة من خبرات أبنائها فى العمل بالسفن تجارة وقتالا[٤٩] .

وفى ضوء هذه التطوارت نستطيع تفسير تلاقى المطالب التركية والأمريكية عندما قررت الأخيرة تعيين « شارلز راين – Charles Rhin » مندوبا عنها لمناقشة بنود المعاهدة المقترحة ، فاستمرت المراسلات مع مستشارى الصدر الأعظم لمدة تجاوزت العام ، وبلغ عدد الرسائل المتبادلة إثنتا عشرة رسالة ، ضمت مناقشة القضايا العسكرية والتجارية المطروحة والتفسيرات المتعلقة بها[٥٠]

حتى تم التوقيع على المعاهدة فى السابع من مايو عام ١٨٣٠م . وكانت فى مجمل بنودها وملحقاتها تصب باتجاه منح الولايات المتحدة العديد من الامتيازات التى حصلت عليها من قبل بعض الدول الأوربية داخل الأناضول والروميللى والولايات التابعة للدولة ، مثل حرية المرور التجارى عبر المضايق التركية ، حيث جاء فى مادتها السادسة طبقا لتقرير راين أن للسفن التجارية وما شابهها والتى تحمل العلم الأمريكي مطلق الحرية فى المرور جيئة وذهابا عبر المضايق ، ومن البحر الأسود وإليه ، سواء أكانت محملة بالبضائع أو بالأفراد ، وفارغة على حد سواء[٥١] كذلك منحت المعاهدة حق القنصليات الأمريكية فى حماية رعاياها بفضل ما سوف يوفره لها السلطان من مساعدات وتسهيلات ، وما تعهدت به الدولة من إعطاء الأمريكيين جميع الحقوق المتعلقة بالحج والبعثات المماثلة لرعايا الدول الأجنبية الأخرى ، سواء القائم منها حينئذ أو التى ستمنح فى المستقبل ، بما يترتب عليها من حقوق وما ينشأ عنها من واجبات كامتلاك السفن وحرية التجارة والعلاقات بين الأفراد ودية او غير ودية ، وبما لا يتعارض مع القوانين الأمريكية[٥٢] .

ومن ناحية أخرى تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية : تقديم مساعدة مالية عاجلة فور التصديق على المعاهدة قيمتها ١٥٠,٠٠٠ دولار ، مع اتخاذ الخطوات التنفيذية لبدء بناء البوارج والسفن الحربية والطرادات التى تتطلبها البحرية العثمانية، بعد الموافقة على هذه الطلبات من قبل مجلس الشيوخ الأمريكى ، بحيث يبدأ البناء فى أحواض السفن الأمريكية ثم ترسل مع قطع الغيار والمعدات إلى الموانئ التركية كى يكتمل البناء فى أحواض السفن بها ، حتى يكون هذا الإجراء الأخير بمثابة فرصة متاحة للتدريب واكتساب الخبرة للأتراك[٥٣] .

وقبيل التصديق على المعاهدة فى أكتوبر ١٨٣١م شهدت العلاقات التركية الأمريكية انطلاقة بشتى المجالات السياسية والتجارية والعسكرية والثقافية . ففى المجال السياسى أسرعت الولايات المتحدة بافتتاح قنصلية لها باستانبول فى مارس ١٨٣١م ، وعينت فى الخامس عشر من إبريل ١٨٣١م قائما بالأعمال « ديفيد

بورتر David Porter » وبالرغم من أفكاره التحررية – كما وصفه المسئولون – وإيمانه بضرورة فتح آفاق النشاط التجارى دون قيود[٥٤] ، إلا أن مسئولياته وتوجيهاته لم تكن تتم إلا بمشاركة وموافقة وزير الدولة دانيال وبستر Daniel Webster نظرًا لحساسية الموقف الأمريكى المتعاطف وقتئذ مع التطلعات القومية والحركات الثورية لولايات البلقان والأرمن ، وبقية العرقيات الأخرى ، سواء فى آسيا وأفريقية كالعرب مثلاً ، مما يعنى انسجامًا إلى حد كبير مع ذات الموقف الروسى وهو العدو التقليدى للدولة والذى جعل طبيعة النشاط بمضيقى البسفور والدردنيل على قمة اهتماماته الخارجية[٥٥] .

وكانت التجارة هدفًا جوهريًا من أهداف عقد المعاهدة بين الطرفين مما شجع على المبادرة بدفع إحدى السفن لعبور مضيق البسفور والدردنيل ليكون ذلك بمثابة للنوايا الروسية وتقدير مدى حساسية الأوضاع المتشابكة بين القوى المعنية .

وفى أواخر يناير من عام ١٨٣٠م أقلعت من ميناء بوسطن سفينة الشحن « كاليوميت – Calumet وعلى متنها ١٢,٠٠٠,٠٠٠ جالون من شراب الرم – وهو شراب مسكر من إنتاج نيوانجلند – بهدف الوصول إلى روسيا وفارس عبر المضايق التركية ، إلا أن السلطات الأخيرة لم تتعرض لها وكان السبب فى الموافقة على العبور هو « الرغبة فى إظهار حسن النوايا ومدى ما يقدمه الباب العالى من منافع للأصدقاء من الأمريكيين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر »[٥٦] .

وعقب المعاهدة أضحت الولايات العثمانية سوقًا جيدًا للمنتجات الأمريكية خاصة القطن ، والأسلحة الصغيرة والمنتجات البترولية والملابس بكل أنواعها . أما السلع التركية التى أخذت فى الظهور فى الأسواق الأمريكية فأتت على رأسها السجائر والمنسوجات الحريرية والسجاجيد والفستق ، كما شهدت حركة التجارة بين البلدين نموًا مطردًا منذ بداية الثلاثينات حتى عام ١٨٤٥م على النحو التالى[٥٧]:

العـــام	قيمة السلع المتبادلة بالدولار الأمريكى
١٨٣٢م	٧٠٠,٠٠٠
١٨٣٤م	٩٦٠,٢٠٠
١٨٣٦م	١,٠٥٠,٠٠٠
١٨٣٨م	١,٠٣٠,٦٠٠
١٨٤٠م	١,٠٨٠,٥٥٠
١٨٤٢م	١,٢٧٠,٦٠٠
١٨٤٤م	١,١٢٠,١٠٠

أما آثار المعاهدة عسكريا فقد أوصى سكرتير الخارجية الأمريكية « مـــارتن فان بيتر Martin Van Buter » تعيين أحد الخبراء ليكون مشرفا ومســئولا عــن إعادة تنظيم البحرية العثمانيةعلى أسس حديثة تستطيع بموجبها الدفاع عــن نفســها وتتلاءم مع طبيعة النشاط المماثل والمكثف بالبحر المتوسط والمضـــايق والبحــار الأخرى المطلة عليها ، وبالفعل أصدر الرئيس جاكسون – Jackson قرارا يقضـــى بتعيين المهندس البحرى « هنرى إكفورد Henry Eckford » فى هـــذا المنصــب بمســاعدة خبير آخر هو وليم براون هدسون William Brawn Hadgson وقـــد بادر الخبيران قبيل تسلمهما العمل باستانبول بالتخطيط وبناء طــراد حربى أطلـــق عليه اسم (الولايات المتحدة) تبلغ حمولته ١,٠٠٠ طن ومزود بســـت وعشــرين مدفعا ليكون بمثابة رسم للصداقة وتعميق للعلاقات العسكرية بين البلدين[٥٨] .

وكان أن أعد إكفورد فور وصوله تقريرا شاملا قدمه إلى الباب العالى شــرح فيه بإسهاب ما تتعرض له البحرية العثمانية من مشاكل ومنافسة لقوتـــها البحريــة بالقياس مع ما تمتلكه بقية الدول الأخرى كروسيا وإنجلترا ، بل وحتى مـــن بعــض ولاتها كمحمد على باشا نفسه . وأكد أن نقطة الضعف الرئيسية فى هـــذا الميــدان

العسكرى ترجع تبعًا لتقديره إلى طبيعة النشأة البرية للدولة بالقياس مع القوى البحرية المنافسة لها خاصة إنجلترا التى تعتبر هى الأقوى على المستوى العالمى . وأضاف التقرير أن الدولة العثمانية تمتلك الكثير من الإمكانيات التى يمكن لو حسن استغلالها أن تتبوأ مكانة متقدمة نظرًا لموقعها الاستراتيجى وإطلالتها على البحر المتوسط وقيمته العالمية والمضايق المتحكمة فى شريان رئيسى من شرايين التجارة، فضلاً عن مناطق سيادتها المطلة على البحر الأحمر والخليج الفارسى(٥٩).

واقترح إكفورد أهمية البرنامج التدريبى طويل الأمد للمهندسين والعمال الأتراك ، سواء بالموانئ الأمريكية أو التركية ، لاكتساب الخبرة والعمل على السفن أو فى العمليات العسكرية التدريبية المرتبطة بالبحر ، إضافة إلى حتمية بناء أحواض وترسانات حديثة للسفن تجاريًا وحربيًا فى آن واحد(٦٠) .

وعند وفاة إكفورد فى منتصف نوفمبر ١٨٣٢م وبناء على ترشيح من بورتر، عين المهندس فوستر رودس – Foster Rhodas على رأس خمسة عشر مهندسًا وعشرات من العمال الأمريكيين إضافة إلى ما يزيد على (٦٠٠) ستمائة عامل من الأتراك والإيطاليين والألمان ، لبناء حوض للسفن على النظام الحديث (إينالى كافاك) – Aynali Kavak الواقعة على ضفاف القرن الذهبى(٦١) ، وقد تم بناء أول فرقاطة لحساب البحرية العثمانية فى ١٨ مايو ١٨٣٥م . وفى ٢١ أغسطس ١٨٣٧م أعدت قاذفة للهب مزودة بعشرين مدفعًا ، أسهمت فى سد نقص واضح فى هذا الجانب القتالى(٦٢) .

أما على الجانب التبشيرى ، فإضافة إلى مقر البعثة التبشيرية السابقة فى أزمير ، افتتحت الولايات المتحدة قنصلية أخرى لها فى استانبول عام ١٨٣١م تحت رئاسة وليم جوديل William Goodell الذى ترجم الكتاب المقدس إلى الأرمينية والتركية ، واستطاع إقامة فروع لبعثته فى بعض المدن التركية والعربية الأخرى مثل طرابيزون ، أرضروم والبصرة حتى بلغت أعداد أمثالها فى نهاية السبعينات من ق ١٩ ما يزيد على الثلاثين فى مختلف أنحاء ولايات الدولة

العثمانية ، كذلك أسست كلية روبرت – Ropert College[٦٣] التى أطلق عليها بعد ذلك مسمى « جامعة البسفور » ثم تلتها كلية استانبول للبنات عام ١٨٧١م[٦٤] ومعها أيضًا أسست الكلية الوطنية[٦٥] .

بهذه الخطوات المتوازية التى أخذت فى التبلور والنمو على كافة الأصعدة استطاعت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والدولة العثمانية تحقيق هدفيهما بإقامة علاقات شاملة بينهما .

* * *

وبعد ، فقد جاءت هذه التطوارت التى أدت إلى توقيع معاهدة التجارة والصداقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والدولة العثمانية كإفراز طبيعى للتطورات التى أعقبت حرب الاستقلال التى كان أبرزها النشاط الاقتصادى المحموم الذى شهدته داخلية العالم الجديد والتسابق بين الأفراد المغامرين والتجار بعضهم البعض ، وبينهم وبين الشركات الاحتكارية حديثة النشأة فى جانب ، وعلى الجانب الآخر لقطف بعض ثمار التجارة العالمية النشطة وما صحبها من تنافس بين القوى الكبرى فى ذلك الوقت فى أواخر ق١٨ وبداية ق ١٩ .

وبالرغم من سياسة العزلة المعلنة رسميًا ، إلا أن الواقع العملى كان غير ذلك ، خاصة من قبل ممارسات الكثير من التجار والمغامرين، وتحت ستار مسميات أنشطة أخرى أتى التبشير منها فى المقدمة ، الأمر الذى استثمرته الإدارة الأمريكية أيضًا من وراء حجاب لتحقيق بعض تطلعاتها الخارجية لإقامة مراكز اتصال لها فى آسيا وأفريقية بعد ذلك (سلطنة عمان ، شرق أفريقية) .

أمّا الدولة العثمانية فكانت من جانبها تجد فى البحث للعثور على ظهير لها يمكنها من إقالتها من عثراتها ودعم تطلعاتها الإصلاحية فى كافة المجالات أولاً ، ثم خلق نوع من التوازن بين عناصر التنافس الدولى المستعر حولها والحصول على مؤازرة مثل هذه القوة الناشئة الجديدة « الولايات المتحدة الأمريكية » ثانيًا .

ولما كانت الدولة العثمانية وقتئذ غارقة في متاعبها المتشابكة داخليًا وخارجيًا، مما أعاق تطلعاتها لتنشيط أوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية ، فقد أخذت الولايات المتحدة زمام المبادرة في الاتصال بعد تخلصها من مشكلاتها الجوهرية ، وانطلق التوجه الخارجي منها حول محورين أحدهما عشوائي من قبل المغامرين التجار ورجال البحر ، والثاني سار ذو صبغة حكومية رسمية . واعتمد التوجهان على الزحف التدريجي نحو مبتغاهم لجس النبض والحذر من رد الفعل البريطاني والفرنسي المعادي .

وبالقدر الذي كانت العثرات الداخلية والخارجية التي اعترضت سبيل الطرفين التركي والأمريكي على حد سواء تمثل به عائقا أمام تحقيق الغاية المنشودة لأكثر من ثلاثين عاما كانت هذه الصعوبات ذاتها عاملا رئيسا من عوامل الدفع والتشجيع للمضي قدما نحو الاقتراب بينهما للوصول إلى ما يأملان فيه ، حتى تمكنا سويا من توقيع المعاهدة عام ١٨٣٠م ، واستطاعت الولايات المتحدة بها العثور على موطئ قدم لها على طرق التجارة بالبحار الشرقية ، سرعان ما ثبتته بشكل راسخ بتوقيع معاهدة للصداقة والتجارة مع سلطنة عمان عام ١٨٣٣م .

أما الدولة العثمانية فقد أسهمت هذه المعاهدة إلى حد ما في تشجيع سلاطينها على مواصلة خطواتهم الإصلاحية باتجاهات شتى ، بالرغم مما شاب هذه التوجيهات من ثغرات عدة كان أبرزها عدم وجود آلية واضحة ومحددة للإصلاح ، فضلا عن أن هذه الرغبة لم تكن تعبر إلا عن طموح شريحة بعينها (الفئات العليا) دون بقية عناصر الدولة المتعددة الفئات والعرقيات ، إضافة إلى التشابك والتداخل بين الغايات والتطلعات الإصلاحية ذاتها .

الهوامش

(١) A. B. C. F. M. (American Board of Commissioners for Foreign Missions), 16. 9. 3/23. Report from Admiral C. M. Chester 'American Commercial Opportunities in Turkey, To Department of State, 2/4/1907.

(٢) Ibid.

(٣) A. M. C. F. M. 16. 9. 3/3709, Report from Smith (W.), To Department of State, 3/5/1786.

(٤) بانيكار (ك. م.) : أسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جـاويد ، مراجعـة أحمد خاكى ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص ص٩٥/١٤٣ .

(٥) أحمد توفيق مدنى : الثلاثمائة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢/١٧٩٢م ، الجزائر، بـدون تاريخ ، ص ص٥٠٩/٥٢٧ .

(٦) A. B. C. F. M. 16. 9. 3, 908, Despatch from Continental Congress to Jefferson (T.) 19/10/1986.

(٧) A. B. C. F. M. 16. 9. 3/24, Despatch from Adams (J.) to Sublime Porte, 19/2/1782.

(٨) A. B. C. F. M. 16. 9. 3/7302, Despatch from Adams (J.) to the Continental Congress 17/11/1786.

(٩) نيفنز (ألان) وكوماجر (هنرى سنيل) : موجز تاريخ الولايات المتحدة ، ترجمـة محمد بدر الدين خليل ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ص ٦٢/٦٥ .

انظر كذلك ، شينى (ل. ج.) تاريخ العالم الغربى ، ترجمة محـى الديـن حفنـى ناصف ، مراجعة على أدهـم ، سلسلـة الألـف كتـاب (٥٤٦) ، القـاهرة ، ص ص٢٧٦/٢٨٠ .

(١٠) نيفنز (ألان) وآخر : المرجع نفسه .

(١١) A. B. C. F. M. 16. 9. 3/2601, Report from Graves (J.), American Interests in Turkey, 25/3/1789.

(١٢) A. B. C. F. M. 16. 9. 3/260, OP. Cit.

(١٣) Ibid.

(١٤) Phillips (James D.), Salem and Indies, The Story of the Great Commercial Era of City, Boston, 1949, pp. 139/241.

(١٥) Malone (J.), America and the Arabian Peninsula, The Middle East Journal, Vol. 30, 1976, P. 408.

(١٦) Malone , OP. Cit.

(١٧) I. O. Boards Collection, Vol. 192, Letter from Manesty (S.), Gombron to the Court of Director of the East India Company, 3/12/1797.

(١٨) I. O. Boards Collection, Vol. 192, Letter from Manesty (S.), to the Court of Director of the India Company, 5/7/1798.

(١٩) فى هذه الفترة كان جون آدامز قد أصبح رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية لفترة رئاسية واحدة من عام ١٧٩٧ حتى عام ١٨٠٠م .

(٢٠) بعد وساطة من بروسيا وإنجلترا وهولنده وقعت الدولة العثمانية مع روسيا معاهدة للصلح فى (زشتوى) فى جمادى الأولى ١٢٠٦هـ/ يناير ١٧٩٢م وبعدها ، دخلت الدولة مرحلة من الإصلاح الداخلى قاده « كوجك حسين باشا » ، خاصة فى المجال العسكرى والمالى ، وكان سبيله فى هذا الهدف تحطيم القاعدة العسكرية التقليدية للجيش العثمانى أولاً وهم الانكشارية .

انظر : محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، ط٢ بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ص٣٧٠/٣٧٢ .

مجموعة مجلس مخصوص : وثيقة رقم ٣٠٦٩٧ رسالة من الباب العالى إلى السيد آدامز بشأن العلاقات بين الدولة العلية والحكومة الأمريكية فى شوال ١٢١٣هـ/١١/٧/١٧٩٨م .

(٢١) A. B. C. F. M. 109/6705, Annual Report from Crooker (S.), 22/2/1800.

(٢٢) مجلس مخصوص : وثيقة ٣٦٨ من الصدر الأعظم للدولة العلية إلى السيد وليم سميث مفوض الدولة الأمريكية فى لشبونة ، بخصوص تعزيز العلاقات بين الدولتين ١٥ رجب ١٢١٩هـ/١٨٠٤م .

(٢٣) نفس المصدر .

(٢٤) A. B. C. F. M. 109/34102, Annual Report from Brewster 18/4/1805.

(٢٥) A. B. C. F. M. 109/10019, Annual Report from Crooker (S.), 19/2/1801.

(٢٦) A. B. C. F. M. 109/1786, Annual Report from Crooker (S.), 30/1/1803.

(٢٧) A. B. C. F. M. 109/538, Annual Report from Brewster (J.), 18/1/1809.

(٢٨) Ibid.

(٢٩) مجموعة خارجية : وثيقة رقم ٨٩٧٣ تقرير من طلعت باشا ، إلـى البـاب العـالى بشأن نشاط بعض التجار الأوربيين والأجـانب بالأناضول والروميللـى صفـر ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م .

(٣٠) المصدر نفسه .

(٣١) بالرغم من إعلان فرنسا التخلى عن موقفـها بالنسـبة للولايـات المتحـدة ، إلا أن إنجلترا استمرت فى تطبيق سياستها المعلنة ، مما أدى إلى استمرار سـوء العلاقـة بين الطرفين وجعله سببًا فى إعلان الحرب بينهما عام ١٨١٢م ، التى انتـهت فـى ٢٤ ديسمبر ١٨١٤ بتوقيع معاهدة جنت Gand بوقف العدوان وجلاء كـل فريـق عن أراضى الفريق الآخر بين كندا والولايات المتحدة : انظر : د. عبـد العزيـز سليمان نوار ، ود. عبد المجيد نعنعى : تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديـث ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ص١٠٤/١٠٧ .

(٣٢) N. A. U. S. A., Department of State, 711/6718, Annual Report (Turkish, Request That United State Sell Them Vessel on 1860-History.) 18/9/1861.

(٣٣) N. A. U. S. A., Department of State, 867/51, Despatch to Sublime Porte, 16/3/1818.

(٣٤) N. A. U. S. A., Department of State, 867/601, Despatch from Sublime Porte, to Dep. Of State, 27/5/1818.

(٣٥) هنرى كوماجر وألن نيفنز : المرجع السابق ، ص ص١٤٩/١٥٠ .

(٣٦) I. O. Boards Collection, Vol. 192, Report on 'A voyage Round the Middle West of America from James Carnac' The Governor of the Board of Control of the East India Company, 7/3/1834.

(٣٧) Ibid.

(٣٨) Olson (Keith W.) American History, Maryland, 1964, pp. 61/64.

(٣٩) N. A. U. S. A., Department of State, 864/034, Despatch from Harison, (Richard), Philadelphia, 13/7/1827.

(٤٠) N. A. U. S. A., Department of State, 864/034, OP. Cit.

(٤١) N. A. U. S. A., Department of State, 864/034, Despatch from David (O.), 7/4/1828.

(٤٢) نيفينز وكوماجر : المرجع السابق ، ص١٥٦ .

(٤٣) N. A. U. S. A., Department of State, 867/9867, Report from Clay (H.), 25/8/1826.

(٤٤) N. A. U. S. A., Department of State, 867/3109, Despatch to David (O.), 14/11/1828.

(٤٥) مجموعة مجلس مخصوص ، وثيقة رقم ٦٠٥١ ، تقرير للصدر الأعظم موقع من كاتب سر (مكتوبجى) عن الحادثة المشئومة (ناورين) فى ١٥ ربيع ثانى ١٢٤٣هـ/نوفمبر ١٨٢٧م .

(٤٦) المصدر نفسه .

(٤٧) مجموعة مجلس مخصوص ، رقم ١٣٠٧٩ ، رسالة من مكتوبجى الصدر الأعظم إلى الخارجية الأمريكية فى ٧ شوال ١٣٤٣هـ/ مايو ١٨٢٨م .

(٤٨) كان ذلك فى شهر ذى القعدة ١٢٤٠هـ/آخر يونية ١٨٢٦م .

(٤٩) مجلس مخصوص : وثقة رقم ٧٣٤٦ ، عرض اجتماع لمستشارى الصدر الأعظم بخصوص العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية وإمكانية شراء سفن حربية منها، جمادى الأولى ١٢٤٣هـ/فبراير ١٨٢٨م .

(٥٠) N. A. U. S. A., Department of State, 867/0023, Report from Charles (R.), 17/6/1830.

(٥١) N. A. U. S. A., 867/0023, OP. Cit.

(٥٢) Ibid.

(٥٣) N. A. U. S. A., 867/0023, OP. Cit.

(٥٤) N. A. U. S. A., Department of State, 667/096, Report on Opportunities for Extension of American Trade in Turkey, 19/ /1832.

(٥٥) N. A. U. S. A., 66/096, OP. Cit.

(٥٦) أوراق يلديز سراى : وثيقة رقم ٧٣ . تقرير من والى « سينوب » إلـــى الصـــدر الأعظم عند مرور بعض السفن الأجنبية إلى البلاد الروسية ، بشـــكل مؤقـــت فـــى شوال ١٢٤٤هـ/مايو ١٨٣٠م .

(٥٧) N. A. U. S. A., Department of State, 711/5308. Report from Webster (D.), 3/5/1845.

(٥٨) N. A. U. S. A., Department of State, 711/6016, Report from Martin (V. B.) American Relations with Turkey, 8/4/1832.

(٥٩) N. A. U. S. A., 711/6016, 8/4/1832, OP. Cit.

(٦٠) Ibid.

(٦١) N. A. U. S. A., Department of State, 711/0807, Despatch from Porteer, 15/2/1833.

(٦٢) مجموعة أوراق يلديز سراى : وثيقة رقم ٧٦٩ ، تقرير من رامز باشا عن النشـــاط البحرى للخبراء الأجانب فى ميناء إينالى كافاك ، ذو الحجة ١٢٥٥هـ/١٨٣٨م .

(٦٣) كانت هى الكلية الوحيدة الأولى التى أقيمت فى ذلك الوقت عام ١٨٦٣م فى منطقـــة الشرق الأدنى ، وقد أقيمت فى استانبول على ضفاف البسفور ولم تكن هذه الكليـــة خاضعة لإشراف أى من البعثات والمجالس التبشيرية لكنها كانت تحـــت إشـــراف القنصلية ، وقد اندمجت مع كلية القانون فى ولاية نيويـــورك ، وشـــملت قســـميها الدراسيين علوم الهندسة وآخر للزراعة . انظر فى ذلك :

Barton (James L.) American Educational and Philanthropic Interests in the Near East, The Moslem World Journal, Vol. 23, No. 1, January, 1933, P. 130.

(٦٤) أقيمت باستانبول أيضا بالقرب من كلية « روبرت » وانصبت مقرراتها على مناهج التربية التعليمية لتخريج المعلمات أكثر من كونها دراسة أكاديمية ، ثـــم اندمجـــت الكلية بعد ذلك مع كلية القانون فـــى مساشوســـتس – Massachusetts واعتـــبرت كمعهد عال لتعليم البنات .

(٦٥) انصبت الدراسة بها على فنون الزراعة بالإضافة إلى الفنون الحرة إلا أن الدراســة بها كانت للبنين فقط ثم انضمت أيضًا مع كلية القانون سابقة الذكر.

انظر عن هذه الكليات السابقة :

Barton, American Educational, OP. Cit.

المصادر والمراجع

أولاً : وثائق تركية :

وهى صور للوثائق الأصلية ، محفوظة بقسم الوثائق والدوريات بدارة الملك عبد العزيز بالرياض وقام بترجمها إلى اللغة العربية كل من :

١ - الأستاذ صبحى فرزات .

٢ - الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد متولى .

٣ - الأستاذ الدكتور الصفصافى أحمد القطورى .

٤ - الدكتور مجدى بكر .

١ - مجموعة مجلس مخصوص :

وثيقة رقم ٣٦٩٧	شوال ١٢١٣هـ
وثيقة رقم ٣٦٨	رجب ١٢١٩هـ
وثيقة رقم ٦٠٥١	ربيع ثان ١٢٤٣هـ
وثيقة رقم ٧٣٤٦	جمادى الأولى ١٢٤٣هـ
وثيقة رقم ١٣٠٧٩	شوال ١٢٤٣هـ

٢ - مجموعة خارجية :

وثيقة رقم ٨٩٧٣	صفر ١٢٢٤هـ

أوراق يلديز سراى :

وثيقة رقم ٠٧٣	شوال ١٢٤٤هـ
وثيقة رقم ٧٦٩	ذو الحجة ١٢٥٥هـ

ثانيا : وثائق وزارة الهند I.O. (India Office)

1- Boards Collections, Vol. 192, 7/12/1797.
2- ——————————, Vol. 192, 5/7/1798.
3- ——————————, Vol. 192, 7/3/1843.

ثالثًا : وثائق أمريكية :

١ - وثائق مجلس مفوضى البعثات الخارجية :

A. B. C. F. M. (Board of Commissionrs for Foreign Missions.

أولاً : ملف رقم 16. 9. 3

I- 16. 9. 3/24, 9/2/1782.
908, 19/10/1784.
3709, 3/5/1786.
7302, 17/11/1786.
260, 25/3/1789.
23, 2/4/1907.

ثانيًا : ملف رقم 109

ويحتوى على تقارير المجلس السنوية

II- 109/6705, 22/2/1800.
10019, 19/2/1801.
1786, 30/1/1803.
5138, 18/1/1809.

ثالثًا : ملفات الخارجية الأمريكية :

1- 667/096, 19/9/1832.
II- 711 0807, 15/2/1832.
6016, 8/4/1832.
5308, 3/5/1845.
6718, 18/9/1861

III- 867 51, 16/3/1818.
- 601, 27/5/1818.
- 9807, 25/8/1826.
- 034, 2/4/1828.
- 3109, 14/11/1828.
- 0023, 17/6/1830.

رابعًا : مراجع عربية ومعربة :

١ - أحمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا (١٤٩٢م/١٧٩٢م) - الجزائر ، بدون تاريخ .

٢ - بانيكار (ل. م.) : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة توفيق جـاويد، مراجعة أحمد خاكى ، القاهرة ١٩٦٢م .

٣ - شينى (ل. ج.) : تاريخ العالم الغربى ، ترجمة محى الدين حفنى نـاصف ، مراجعة على أدهم ، سلسلة الألف كتاب (٥٤٦) .

٤ - د. عبد العزيز سليمان نوار ود. عبد الحميد نعنعى : تاريخ الولايات المتحـدة الأمريكية الحديث ، بيروت ، ١٩٧٣م .

٥ - محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقـى ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٦ - هنرى ستايل كوماجر ، وألن نيفنز : موجز تاريخ الولايات المتحدة الأمريكيـة ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، القاهرة ١٩٨١م .

خامسًا : مراجع بلغة أجنبية :

1- Olson (Keith W.), American History, Maryland, 1964.

2- Phillips (James D.), « Salem and India, » The Story of the Great Commercial Era of City, Boston, 1949.

سادسًا : دوريات أجنبية :

I- Barton (James L.) American Educational and Philanthropic Interests in the Near East, The MOSLEM World Journal, Vol. 23, No. 1, January, 1933.

II- Malone (Joseph J.), America and the Arabian Peninsula, The Middle East Journal, Vol. 30, No. 3, 1976.

على الغاياتى ودوره فى الحركة الوطنية

د. حسن أحمد يوسف نصار(*)

كفاحه فى صفوف الحزب الوطنى :

ولد (على الغاياتى) فى أسرة متوسطة الحال فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٨٥ بمدينة دمياط[١] ، والتحق بكتاب القرية قبل أن يتجاوز السادسة من عمره وما أن بلغ الثامنة حتى كان قد حفظ القرآن الكريم ثم أرسله أبوه إلى المعهد الدينى فى (جامع البحر) ليتلقى علوم الدين وأصول اللغة والبلاغة[٢] ، وتفتحت مدارك على الغاياتى مع بداية القرن العشرين على فظائع البريطانيين مع أن الاحتلال بدأ يؤثر فى الأمة تأثيراً ملؤه اليأس والقنوط ألا أن فترة البعث الوطنى جاءت على يد مصطفى كامل كانت تدعو إلى الحرية والاستقلال ، وبدأت دعوته غريبة على الأذهان ، إذ كيف تقوم حركة وطنية لاستخلاص الاستقلال من يد أقوى الدول نفوذا. ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه ، فكانت رسالته جهاد من أجل الحرية والاستقلال بعد الاستسلام للاحتلال والاستعباد[٣] . ومع ذلك فقد كان (على الغاياتى) فى معزل عن هذه الحركة الوطنية إذ (أنه نشأه بين قوم كرام غير أنهم محافظون يعبدون الحكام كأنهم ألهه يحيون ويميتون ثم لا يكادون يذكرون الوطن والوطنية على الإطلاق)[٤] .

بدأت أولى أفكار ومبادئ الشيخ (الغاياتى) تتبلور بطريق غير مباشر لدعوات الإصلاح التى تبناها جمال الدين الأفغانى ثم (محمد عبده) والتى تتحصر فى الدعوة إلى نبذ الخرافات التى لحقت بالدين الإسلامى ، كالتوسل بالأولياء والتواكل والاستسلام ، وعدم الأخذ بأسباب التقدم التى اتبعها الغرب . وكان الغاياتى بعقله المتفتح ونفسه المتوثبه يعكف على دراسة هذه الآراء وينشرها بين الطلاب ، ويدافع عنها بحماسة ، مما آثار خصومات بينه وبين شيخ المعهد الملتحق

(*) مدرس بكلية آداب – قنا – جامعة جنوب الوادى .

به فى دمياط ، انتهى به إلى الطـرد ، فترك المعهد ليعمل مدرساً بإحدى المـدارس الابتدائية الخاصة(٥) حيث بقـى بين أهله حتى ناهز الثانية والعشرين مـن العمـر ثم غادرهم إلى القاهرة .

انتقل الشيخ الغاياتى إلى القاهرة ليعمل محرراً بجريدة الجوانب المصريـة ، وهى جريدة يومية سياسية أدبية تجارية يرأس تحريرها (خليل مطران) ، فكـان الغاياتى الأزهرى الشاب فى مطلع عمله بالصحافة لا يتردد فى أن يقف إلى جـانب الرأى الحر الذى يراه على صواب دون أن يقيم وزناً لسلطان خصوم هذا الـرأى(٦) واستمر الغاياتى فى كتاباته الثائرة فى تلك الجريدة إلى أن تركها كما يقول « بسـبب سياستها فى عهد صاحبها الجديد (عطا بك حسنى) والذى كان معروفاً بأنه صـهر العائلة الخديوية(٧) . وقد حدث أن الغاياتى كتب إحدى مقالاته بعنـوان (الدسـتور أميرنا) فلم تكد تعرف حتى أمر صاحب الجريدة برفعها وإحـلال أخـرى محلـها وإعادة طبع الجريدة . وجمع ما تم توزيعه فى السوق لأن المقال كان يغلب عليـه الطابع الوطنى إذ كان يطالب الخديوى بالدستور وكـان أن خـرج الغايـاتى مـن (الجوانب) ليكتب فى (اللواء) لسان الحزب الوطنى آنذاك .

وعلى أنه حدث أثناء فترة عمل (الغاياتى) فى جريدة الجوانـب أن قـامت فتنة دينية فى دمياط بسبب خلاف بين علماء الدين ، اشتعلت نارها بتدخل العـوام ، ورفع أمرها إلى مشيخة الأزهر والخديوى . وكان أحد علماء دمياط (الشيخ حسـن على) قد قصد فى ليلة المولد النبوى مسجد النفيس وبعد قراءة قصة المولـد حـث الحاضرين على الالتزام بما جاء فى كتاب الله وما صح من أحاديث الرسـول ﷺ ، وحذرهم من السجود للأولياء والاستنجاد بهم ، وعندما علم شيخ المسجد (الشـيخ النحاس) بما حدث حرض اثنين من قدامى العلماء على نقل ما جاء علـى لسـان الشيخ (حسن) محرفاً إلى الأهالى عندئذ قام الرعاع برمى منزل الشيخ بالحجـارة، مما أدى به إلى الاستنجاد بالحكومة وصدور حكم المشايخ بمنع هـذا العـالم مـن

التدريس وقطع راتبه وجرايته سنة كاملة ، ورأى الغاياتى أن هذا الحكم هو (من عمل الشيطان) وعقب عليه قائلاً (فهل بعد هذا نرجو تقدم الأمة بإرتقاء العلم والعلماء ؟ هل بعد هذا نعلق آمالنا بالأزهر ورجاله ؟ .

هكذا كانت بداية (الشيخ الغاياتى) تنبئ عن دور ملموس فى ميدان الجهاد الوطنى ، والوقوف ضد الجمود والتأخر فهو يدعو الأثرياء للتبرع للعالم الدمياطى الذى نعت بالكفر والهرطقة لدرجة أن خليل مطران (المسيحى) رئيس تحرير الجوانب تبرع بثلث راتبه لهذا الشيخ ، كما أيد الكتاب الغاياتى فيما يدعو إليه انتصاراً للحق ، ومنهم الفيلسوف الكبير (شبلى شميل)[٨] وانهالت رسائل القراء تحيى الجريدة وصاحبها ، مما جعل الغاياتى يوجه كتاباً مفتوحاً إلى شيخ الجامع الأزهر يندد فيه بالحكم على الشيخ حسن على ، ثم نشر ما كتبه فى (الجوانب المصرية) وما استكتبه السادة الأفاضل فى رسالة سماها (سيف الله الصارم) طبعت بمطبعة الجوانب فى ٦ يناير سنة ١٩٠٨[٩] . وقد نظم الغاياتى قصيدة جريئة وقاسية هاجم فيها دعاة الجمود الذين كانوا يعملون فى ذلك الوقت مع الاحتلال حتى وان كانوا من علماء الأزهر جاء فيها[١٠] .

يا ويل من عبدوا القبور واشركوا — بالله بين توسل وتضرع

ورأوا من العلماء تأييداً لهم — فمضوا وما فطنوا لغى مبدع

يا قوم أن أولئك العلماء — قد جعلوا الشريعة سلماً لمطمع

فهلما تنبذ رأيهم ونرى لنا — رأياً تنزه عن فساد المنزع

وكانت نتيجة التأييد الذى لقيه الشيخ (حسن) من الغاياتى أن حيكت ضده المكائد ، فأدخل الجيش بدعوى أنه أعفى من القرعة العسكرية لطلب العلم ، وأنه لم يقض المدة القانونية بعد المعافاة دون الاشتغال بحرفة سواها . وكانت نتيجة تلك المكيدة القبض على الشيخ الغاياتى وإدخاله (قشلاق العباسية الأحمر) اثنى عشر

يوماً . ثم أطلق سراحه بعد ثبوت أنها فرية لا أساس لها من الصحة وفى السجن وقف على أسرار النفور من الجيش المصرى ، وما وصل إليه الجيش من التدهور والتدنى.ويبدو أن الوطنى الثائر (على الغاياتى) اعتنق مبادئ الزعيم مصفى كامل منذ أن استمع إلى خطبته الكبرى التى ألقاها بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء المحافظين لعهده طوال السنين[١١] ، وكان من الطبيعى أن يكون الحزب الوطنى هو الحزب الذى يروق لمثل الغاياتى ، فلم يكن لشاب فى مثل حماسته ووطنيته أن يجد فى أحزاب مصر فى تلك الأيام مثل حزب الأمة وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية – ما يشبع ميله الفكرى ولم يكن من بين الأحزاب المصرية ما يفوق الحزب الوطنى فى آرائه التى بلغت حد التطرف ، حتى أنه كان يؤخذ عليه عند بعض خصومه أنه يبالغ فى التطرف إلى حد يعمى معه عن حقائق الحياة[١٢] .

وهكذا وجد (على الغاياتى) ضالته فى الحزب الوطنى وصحفه الوطنية الثورية ، فبدأ ينشر فى (اللواء) لسان حال الحزب الوطنى ثم فى جريدة (العلم) قصائد نارية ، لا يهاب فيها جانب الاحتلال ، ولا يقيم وزناً لمقام المحاكم أو القضاء ، ولا يجامل فيها أصحاب المقامات الأدبية مثل (أحمد شوقى) شاعر الأمير فى ذلك الحين قبل أن تعقد له إمامة الشعر ، كما أنه لم يمالئ شيوخ الأزهر وهو واحد منهم.

وكان مصطفى كامل بحق باعث الحركة الوطنية فى مصر عندئذ وقد واكب هذه الحركة طائفة من الشعراء من أهمهم إسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وأحمد شوقى وأحمد محرم وأحمد الكاشف . وكان شعر هؤلاء يسير موازياً للصحافة جنباً إلى جنب ، ويجرى مثلها مع حوادث المجتمع ، لا يترك مناسبة من المناسبات حتى تكون له فيها كلمة ، كما كان للنثر الصحفى دوره الهام فى دفع تلك الحوادث إلى الاطراد والنمو . وكثيراً ما كانت تشترك الكلمات فى المعانى والأفكار كما

اشتركت فى الغايات والأهداف . وكانت الحركة الوطنية كالأتون تحتاج دائماً إلـــى من يلقى فى داخلها الوقود لتزداد النيران لهيباً فتزداد المشاعر قوة[١٣] .

لقد كان الشيخ (الغاياتى) فى تلك المرحلة من أبرز فرسان الوطنية ، وكـــان قلمه فى يده خير معبر عما يجيش فى داخله من تفاعل وصراع ، فجاءت كتاباتـــــه حرة شجاعة . فها هو ينشر فى (اللواء) تحت عنوان (يا حماة الدين ويحكمـــوا) قصيدة يؤيد فيها طلبة الأزهر الذين أضربوا عن الدروس احتجاجاً على عدم قبـــول بعض طلباتهم ، ويعضـــد فيها استقالة الشيخ (حسونة النـــواوى) شـــيخ الجـــامع الأزهر من منصبه ، وذلك لمـــا لقيه الطلبة الأزهريون من ســـوء المعاملة بلغـــت حد جلد بعضهم فى قبلة مسجد الأزهر بأمر من (خليل حماد باشا) رئيس ديـــوان الأوقاف وقد جاء فى هذه القصيدة[١٤] :

يا حمـــاة النيل ويحكمو	ودعـــوا الدين الذى قبرا
إن بيـــت الله محتـــرم	كيف بـــات الآن محتقراً
خلـــق الظالم لهم رجلاً	حارب ا لعدل ومن عدلاً
عشـــق الجلد وعـــدته	فغـــدا الجلـــد له عملاً

وعندما صدر قانون المطبوعات المقيد لحرية الصحافة قال (الغاياتى) تحـت عنوان (صوت المصرى)[١٥] .

لئن قيدوا منى اليراع واوثقوا	لسانى فقلبى كيفما شئت ينطق
فلا يأمنوا تلك القلوب فأنهـــا	دمـــــا أراهـــا أوشكت تتدفق

ثم ينشر تحت عنوان (إلى سمو الأمير والوزارة والأمة) قصيدة من ثـــلاث قطع واحدة لسمو الأمير ، وأخرى للوزارة السابقة والثالثة للأمة واعتـــبر الغايـــاتى الأمير رأس الحكومة الأكبر وعليه تنعقد آمال الأمة وآلامها . وقـــد جـــاء قـــانون

المطبوعات حائلاً بين الأمير وشعبه ولذلك (كان يوم إرجاع هذا القانون هو آخر العهد بيننا وبين سموه وقاطع حبل المودة والعتاب الذى أصبح أمره بيد الأفئدة بعد الألسنة) يقول (الغاياتى) فى هذه القصيدة :

أعباس هذا آخر العهد بيننا ... فلا تخشى منا بعد ذلك عتابا

أيرضيك فينا أن نكون أذلة ... ننال إذا رمنا الحياة عتابا

ونيأس من آمالنا فيك كلما ... قضيت علينا أن نكون غضابا

وأرضيت أعداء البلاد وأهلها ... وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا

رويدك يا عباس لا تبلغ المدى ... ولا تستمع للظالمين خطابا

فما يبتغى (جورست) إلا مكيدة ... تحول أقلام السلام حرابا

وها قد رمى (حرية القول) رمية ... بسهمك تجنى للبلاد خرابا

* * *

ويقول (الغاياتى) فى الوزارة :

ألا أمطر لله الوزارة نقمة ... ولا بلغت مما تروم مراما

تحاول أن تقضى علينا بإثمها ... ولكن ستلقى دون ذلك أثاماً

وزارة خداع أقامته بيننا ... يد الحاكمين الآثمين فقاما

وبين يديه عصبة (بطرسية) ... تصوب نحو المصلحين سهاماً

جنى ما جنى فى (دنشواى) وغيرها ... ولم يكفه حتى استحل حراما

سلام على عهد الوزارة قبله ... وإن كان عهداً لا يبيح سلاماً

ثم استطر يقول فى حق الأمة المصرية :

بنى مصر بشــرى فالرخــاء محــقق	ومــن عــدم الأقــوال رام فعـــالا
وهـــذا يراعــى فليقيـــد فإنمـــا	لـــدى يراع لا يهــاب نضـــالا
سأطلقه يجـــرى كمـــا شـــاء حــدة	ومن شــاء فليقطــع عليــه مجــالا
فلا يتأسوا فاليـــأس مجلبــة الــردى	وشـــدوا إلى نيــل الرجــاء رجــالا
ولا تفزعــوا من حاكــم أو حكومــة	ترى نشــر آمــال العبــاد ضــلالا
وســيروا إلى مــا تأملــون بحكمــة	ولا تحســبوا النــور المبين محــالا
فإنى لمحت النصــر بين صفوفكــم	وابصرت عقبــى الظــالمين وبــالا

والملاحظ أن (الغاياتى) نهج أسلوب فريد فى التعبير والكتابة سواء شـــعراً أو نثراً ، فنراه يحرص على شرح ما ينغلق على القارئ من آبيات محاولاً توصيــل المعنى فى لغة سهلة بليغة يطرب لها وجــدان المتلقى . ومن أمثلة ذلــك التفســير الذى ساقه لنا هذا الوطنى الغيور لمعنى « ســياسة الوفاق » وهى تلك التـــى آتـــى بها المندوب السامى البريطانى فى مصر (جورست) بعد سياسة الخــــلاف التـــى ذهب بها اللورد (كرومر) وكان الغاياتى ، يرى أنه لا خـــير فـــى سياســـة مـــع الاحتلال ، ويستمر فيقول « أما الحكمون الآثمون فهــم الإنجليز المغتصبون وقـــد كان تعيين بطرس باشا غالى رئيساً للوزراء خلفاً لمصطفى باشـــا فهمى بمحــض أرداتهم ، فهم الذين أقاموه رئيساً للنظار وأصدروا أمرهم من (لندرة) بذلك كمـــا رواه المقطم (وهو لسانهم الصادق قطعه الله) . كما يرى (الغايـــاتى) أن اليـــأس باعث الهلاك ، ولا سبيل إلى نهضة الأمـــة وحياتها ألا بمحالفة الأمل ومحاربـــة اليأس ، وذلك تأكيداً لإحدى مأثورات الزعيم مصطفى كامل « لا حياة مـــع اليـــأس ولا يأس مع الحياة » .

وهكذا تسلح الشيخ (الغاياتى) بالجرأة البالغة ، ولم يجبن أمام تهديدات سلطات الاحتلال البريطانى ، ولم يتوان عن تجريد تلك الأسلحة فى آى ساحة من ساحات النضال الوطنى ، بل لم يبال بالنتائج المترتبة على ثوريته وحماسته الزائدة لدرجة التضحية بالنفس فى سبيل معتقداته الفكرية والوطنية . وكثيراً ما دفعته جرأته الشديدة إلى تحطيم القانون إذا ما دعا الموقف إلى تأييد الحق ورفع الظلم عن الوطنيين والأحرار ، ممن يواجهون الموت فى سبيل رفعة أوطانهم .

واستمر نضال الشيخ الغاياتى فى مصر قبل هجرته ما بين نظم القصائد فى المناسبات الوطنية وتدبيج لآلئة النثرية فى كبريات الصحف الوطنية حتى غدا نجماً ساطعاً ليس فقط فى سماء مصر بل فى سماء العروبة . واستطاع أن يجعل من مصر كعبة يتجه إليها بنى العرب بأفئدتهم وأبصارهم . وانعكس تأثير معاول الغاياتى فى داخل مصر على ما يناظرها من قضايا التحرير المصيرى فى المشرق وجند قلمه قبل لسانه من أجل نصرة آمال بنى وطنه ولم يدع مناسبة قوية إلا وهاجم فيها الاحتلال البريطانى والقصر والمشايعين لهما . ولم يتوان لحظة فى التنديد بالمتملقين والمتخاذلين فنراه يهاجم أعضاء الوزارة البطرسيه عندما امتنعوا عن حضور جلسات مجلس الشورى خشية مواجهة أسئلة نواب الشعب ومناقشاتهم فيقول :

يا أيها الوزراء ماذا أنابكم	حتى هجرتم صورة النواب
أن كان سيف الحق روعكم وقد	هتك الحجاب وصال فى الحجاب
أو كان (إسماعيل)[١٦] صوب سهمه	فأصاب منكم موضع الأوصاب
ورضيتم الهرب المعيب لأنه	خير من الإفلاس عند حساب
عارٌ عليكم أن يقال وزارة	لم تدر إن سئلت بيان جواب

وتحت وطأة الاحتلال وما لقيه الشعب من صنوف الأذى والظلم – خاصة بعد حادث دنشواى وإقامة المشانق فى ساحة القرية والحكم بالإعدام على العديد من أبناء الريف الأبرياء أخذ الغاياتى يمسح دموع الثكالى واليتامى ويطالبهم بالصبر عسى أن يأتى يوم القصاص من الطغاة فيقول(١٧) :

كفكفى يا مصر دمع الوجل | وارتقب يا نيل نيل الأمل

جاوز الصبر المدى والصدر لم | يعد فيه الوجد من محتمل

كم شقاء ! كم بلاء ! كم أذى ! | أى حال بعد ذا لم يحل

ومن ناحية أخرى ، أخذ على الغاياتى يناشد الأمم المحبة للحرية الوقوف إلى جانب وطنه الممزق وسارع لتوجيه النداء تلو النداء من أجل رفع قضية مصر فى المحافل الدولية . ولما كانت فرنسا تقف لبريطانيا بالمرصاد فإن الشعب المصرى كان يعلق آمالاً على إمكانية نجاح فرنسا فى زحزحة بريطانيا عن وادى النيل ومن هنا يتفاعل الغاياتى بما يدور فى داخل فرنسا ، فيواسى شعبها بعد أن فاض (نهر السين).واغرق جانباً من العاصمة باريس ، وربط أحداث ذلك الفيضان مع قضية مد امتياز قناة السويس لتصبح إلى سنة ٢٠٠٨ بدلاً من انتهائه فى سنة ١٩٦٩ . وقد أمر الخديو عباس الثانى بعرض هذا الموضوع على الجمعية العمومية فى ٨ فبراير سنة ١٩١٠ ، وأثارت هذه القضية مشاعر المصريين وصحفهم فكتب الغاياتى فى اللواء تحت عنوان (السين يضطرب والنيل ينتحب)(١٨) :

ما لقلب (السين) يضطرب | وأخوه النيل ينتحب

بلغت باريس غايتها | فتولى نهرها الطرب

ثم يهاجم أعضاء الجمعية العمومية تحت عنوان (إليكم نواب الجمعية العمومية) بقوله(١٩) :

أرادوا بمصر محنـــــة وبــــلاء   وجــــاءوا بكم يستعجلون قضاء

لقد بات قلب الشعب مصوبـــاً   سيمضــى إلى التراب أو ينتاءى

وبات يراع الكاتبيــــن مهنـداً   فاطلـــع مــن ليل المداد ضياء

وها قد أتى يوم (القناة) معجلاً   فويــــل لمن (يوم القناة) أساء

ولم يكن نثر الغاياتى أقل وطنية من أشعاره ، فجاءت كطلقات الرصـــاص . وعلى الرغم من أن كثيراً من تلك الكتابات أتت لتمجد الواقعة أو الحادثة التى كتبت فيها إلا أن جميع كتاباته فى المناسبات ألهبت خواطر الشعب وصارت سلاحاً مـــن أسلحة الوطنية ، ففى الذكرى الأولى لوفاة الزعيم مصطفى كامل نشر تحت عنـوان (رب ذكرى هيجت شجناً) :

« قد دهمنى خطب الفقيد العظيم فأقمت حفلات التأبين الجامعة وأديــت مــن الفروض الوطنية بعض ما يجب لفقيد الشرق الإسلام ، واشترك خطبـــاء المســاجد وعلماء الدين وجماعة الكتاب والشعراء فى قضاء هذا الحـق الوطنــى المقـدس . وكان الكل مدفوعاً بشعور واحد هو حب الفقيد الممثل لمعنى الوطـــن والوطنيـــة . ولقد جاء يوم الذكرى فحار دمعى بين الشؤون والجفون كما حار مدادى بين الـيراع والقرطاس ، فإذا ما شاركت اليوم الأمة فى شعورها الشريف بكلمات مــن الشــعر صادرة عن فؤاد محزون فإنى لا أزال أرانى مع هذا بعيداً عما أريد مــن التعبــير والبيان فى هذا الموقف العظيم »[٢٠] .

ثم ينشد هذه الأبيات :

عجباً للقريض كيـف عصانــى   ولدمــــع دعوتــــه فتنـاءى

كنت يـوم الوفـاة أول بــاك نظـم الدمـع والقريض رثاء
ليـت شعـرى مـاذا دهانـى جـف بالأمس مدمعي ومدادى ؟
إن ذكرى الفقيد بعـد ربيـع جـددت رزأة بكـل فـؤاد

* * *

قضية وطنيتى :

لم يكن لقصائد (على الغاياتى) الوطنية أن تأتى أكلها فرادى متنـاثرة هنـا وهناك ، ولذا بادر بجمع تلك الأشعار فى ديوان أطلق عليه اسم (وطنيتى) وذلـك فى منتصف عام ١٩١٠ . وبدا للحكومة آنذاك أنها أمام قنبلة مركزة من التحريـض ضد الاحتلال وأنها حملة أثارة إن لم تعالج فى بدايتها استشرى خطرها واسـتحال القضاء عليها . ولذلك بدأت الحملة على ديوان (وطنيتى) وكل ما اتصـل بـهذا الديوان كأعنف ما تكون الحملة ، فحكم على محمد فريد والشيخ بعد العزيز جاويش وعلى (الغاياتى) بالحبس مدداً تتراوح بين السنة وثلاثة شهور . ولعـل هـذا أول كتاب فى مصر – كما يقول فتحى رضوان – يجر ثلاثة إلى السجن ، ويؤدى إلـى هجرة اثنين منهما عن الوطن هجرة طالت ، حتـى مـات خلالـها أحـد الاثنيـن المهاجرين دون أن يرى وطنه ولا أهله ، وبنى فيها الثانى حياة جديدة كاملة خـارج وطنه ، ولم يعد إليها إلا بعد أكثر من ربع قرن[٢١] .

يروى الغاياتى قصة ديوان وطنيتى فيقول « أننى فرغت مـن قصـائد هـذا الديوان فى ٢٤ يونيو ١٩١٠ ولما كان طبع مثل هذا الديوان يعرضه للمصادرة فقـد قصدت مطبعة يملكها فرنسى وكان الأجانب حينذاك غير خاضعين لتفتيش البوليـس المصرى إلا إذا أذنت القنصلية التى يتبعها هؤلاء الأجانب . وكان اسـتصدار هـذا الأذن يسمح بإخفاء جسم الجريمة . ومن هنا تم طبع الديوان دون أن يصادر وكـان عدد النسخ المطبوعة ألف نسخه ... وأردت أن أهدى نسخة إلـى الشـيخ (علـى

يوسف) صاحب المؤيد ليقرظها ويعلق عليها . ولم يكد الشيخ على يوسف يطلع على الديوان حتى جرد عليه حملة ضارية ، وكأنه كان يكتب قرار الاتهام ضد الديوان وصاحبه ، وكانت (المؤيد) تنافس (اللواء) جريدة الحزب الوطنى وتتهم الحزب والجريدة بالتطرف المجنون وتلقت الحكومة هذه الحملة بصدر رحب فأخذت تبحث عن الديوان فى كل مكان تعلم أنه موجود فيه »[٢٢] .

كانت كل كلمة فى (وطنيتى) قذيفة فى صدر المحتل من الغلاف إلى الغلاف ، ففى إهداء الكتاب الذى ساقه الغاياتى إلى مصطفى كامل يقول (فلئن حييت لأنصرن مبادئ الحزب نصرًا ، ولأطلعن فى دياجى الخطوب من حياتى فجرًا ، ولأجودن بالنفس يوم تدعو البلاد للأمر حرًا ، بل لأغيرن أن استطعت وجه التاريخ الحديث فى مصر تغيرًا تخر له جبابرة الظالمين سجودًا يبكون خشية وفرقًا ويرفع الوطن المفتدى رأسه مهللاً مكبرا منصورًا إن شاء الله)[٢٣] . وهكذا يشعر المرء للوهلة الأولى بأن الغاياتى كان يؤهل نفسه لدخول السجن ، لأنه جازف بطبع الديوان مع إحساسه الداخلى بأن نسخ الديوان سوف تصادر ، ومعنى المصادرة هو اقتياده للمحاكمة ، ويعلق الدكتور أحمد هيكل[٢٤] على الديوان وصاحبة بأن (على الغاياتى) ينتمى إلى هذا الجيل من الشعراء الذى سار فى نفس اتجاه الشاعر (محمود سامى البارودى) ويترسم خطاه نحو الاتجاه المحافظ البيانى الحى . وترجع أهم أسباب ظهور هذا الاتجاه إلى الوعى الناضج الذى بدأ عند بعض المثقفين ... والذى يقرأ ديوان (وطنيتى) قد لا يجده كله شعرًا من طراز رفيع ولكن يجد فيه باكورة رائعة لشاعر شاب لم يتجاوز عمره ٢٥ سنة ، وإلى جانب ذلك نجد الوطنية الحقة والعقل المتحرر ، ويرى الأستاذ فتحى رضوان أن المتتبع لقصائد الديوان ويقرأ هوامشه لا تنطبع لديه صورة كاملة للعهد الذى ظهر فيه ، صورة شعب يناضل من أجل إجلاء الإنجليز عن أرضه بقلمه ولسانه ، ويتحفز

لقتال أشد ضراوة فى سبيل نفس الغاية ، من أجل الدستور ، ومن أجل مزيد من الحريات الداخلية وإصلاح الحكم والضرب على يد المفسدين[٢٥] .

ويرى الأستاذ محمد طاهر الجبلاوى أن ديوان وطنيتى هو الأول من نوعه الذى تخصص لموضوع واحد هو الوطنية . ذلك أن دواوين الشعراء فى ذلك الوقت كانت تصدر مقسمة إلى أبواب غالبًا ما تكون على النحو التالى : باب المدح، باب الرثاء ، باب الغزل والنسيب ، باب الوصف ثم الوطنيات . وهكذا كان (وطنيتى) وثبة من وثبات الشاعر فى عالم الشعر والأدب . يقص الشيخ على (الغاياتى) قصة قضية الديوان فيقول « كان من أشهر القضايا السياسية فى العصر الحديث . وقد كان لها صدى بعيد المدى فى مصر والشرق كما وصلت أنباؤها تترى إلى الغرب . ولا شك فى أن أول من وجه أنظار الحكومة علنا وحرضها بطريقة غير مباشرة على صاحبه هو الشيخ على يوسف[٢٦] .

يقول الشيخ على يوسف فى قضية الديوان (زارنا منذ يومين حضرة الشيخ على الغاياتى) المحرر بجريدة (العلم) وقدم لنا نسخة من كتاب شعرى وضعه حديثاً بعنوان (وطنيتى) وعزمت على أن اقرظه كما يستحق أديب مثله يحسن الشعر ويعمل كما يعتقد لأحياء الشعور الوطنى ... وأول ما وقع نظرى عليه قول هذا الشاعر المجيد :

يا ليت شعرى هل رأيت كما أرى   أن (المؤيد) معهد الهفوات

فنشرت فيه ما نشرت وإنما   هى زلة من أكبر الزلات[٢٧]

ويستطرد الشيخ (على يوسف) فيقول : استوقفنى هذا السباب الموجه إلى (المؤيد) وقلت : لعل حضرة الشيخ أراد أن يوجه إلى هذا الكلام مشافهة بتقديم الكتاب ، ولكنى رجعت وقلت لعل ذلك الزائر لم يقصد هذا وإنما قصد أن أدل قراء (المؤيد) على شئ من آيات وطنية البينات » ثم أورد الشيخ (على يوسف) أبياتاً

متفرقة من تسع قصائد للغاياتى كان قد نشرها فى (وطنيتــــى) ، كــانت ضمــن حيثيات الحكم فى تلك القضية الخطيرة .

ولم يمض يومان على مقالة (المؤيد) حتى نشرت الصحف خبراً مــؤداه أن إدارة الضبط قبضت على الشيخ (على الغاياتى) لأنه نشر ديوانا فيه قصائد تقــع تحت طائلة المطبوعات . وقد أحيل إلى النيابة للتحقيق معه(٢٨) ، ولكن فى الحقيقــة أن الغاياتى لم يقبض عليه ، وإنما كان خارج القاهرة . وذلك أنه علم بأن الحكومــة بدأت تبحث عن الديوان فى كل مكان وأن أمرا باعتقاله قد صــدر ، وقــد نصحــه بعض الأصدقاء بأن يفر خارج البلاد وليكن إلى تركيا .

وكان كتاب (وطنيتى) أبلغ دليل على : اتهام على الغاياتى بالثورة السياســية والتحريض ضد سلطات الاحتلال . ذلك لما احتواه من أشعار ألهبت نار الحماســة لدى العامة والخاصة متبعاً فى قوله سير الحركة الوطنية ، مشــرفاً علــى مشــاهد النهضة الحاضرة فيما بين ١٩٠٠ إلى ١٩١٠ من سماء الحزب الوطنى فى (اللواء) ثم فى (العلم) . فلا ريب أنها أدنى سماء يشرف منها مثل هذا العـــالم السياســى والكاتب الوطنى على تطور الحركة الوطنية وأدوارها فى مصر . ولعل مــن بيــن الأسباب الهامة التى أدت بالحكومة إلى اختلاق قضية تهدد مــن خلالــها الحركــة الوطنية هو ذلك التقريظ أو المقدمة التى تصدرت الديوان بقلم كل من الشــيخ عبــد العزيز جاويش رئيس تحرير (العلم) لسان حال الحزب الوطنى ، والتى أدى بــه إلى دخول السجن ومحمد فريد رئيس الحزب الوطنى ورئيس تحرير جريدة اللــواء خليفة مصطفى كامل .

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش فى تقريظه للكتاب « إذا شئت أن تعرف جيـد الشعر فدع عنك تفاعيل البحور والتزام الحروف ومحسنات الألفــاظ واعتــبر بمــا يتركه فى نفسك من الأثر فإن أحسن الشعر ما يملك قلبك حتى تفرغ منه كمــا أن أجمل الصور ما يملك بصرك حتى يغيب عنه ... ومن شاء أن يرى نموذج مــن

الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعنى ، وألف بين أحكام التأليف وصدق العبارة فليقرأ شيئاً من (وطنيتى) . من شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة والنفوس المتوقده والعزائم الصادقة فإنها من غراسها وجميل ثمارها »[٢٩] .

افتتح محمد فريد زعيم الحزب الوطنى كتاب الشيخ الغاياتى بقوله « لقد كان نتيجة استبداد حكومة الفرد سواء فى الغرب أو الشرق إماتة الشعر الحماسى ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد ، والإطراء الفارغ فى الملوك والأمراء والوزراء ، وابتعادهم عن كل ما يربى النفوس ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال ... لذلك تنبهت الأمم المغلوبة على أمرها فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والأناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة وباللغة العامية لطبقات الزراع والصناع وسواهم من العمال غير المتعلمين ، فكان ذلك أكبر العوامل على بث روح الوطنية بين جميع الطبقات .. ومما يزيد سرورى أن شعراء الأرياف[٣٠] وضعوا عدة أناشيد وأغانى فى مسألة (دنشواى) وما نشأ عنها . وفى المرحوم مصطفى كامل باشا ومجهوداته الوطنية وفى موضوع قناة السويس ورفض الجمعية العمومية لمشروعها ... وهى حركة مباركة أن شاء الله تدل على أن مجهودات الوطنيين قد أثمرت ووصل تأثيرها إلى أعماق القلوب فى جميع طبقات الأمة وتبشر باقتراب زمن الخلاص من الاحتلال ومن سلطة الفرد بإذن الله »[٣١] .

كان (وطنيتى) سجل حافل لوقائع عصر زاخر بالوطنية مما حدا بالسلطة لتقديم صاحبه للمحاكمة . ولم تكن إدانة كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش إلا عقوبة لتأييد كل منها لمضامين هذا الكتاب الذى كان – كما يقول الغاياتى – أداة من أدوات الكفاح الوطنى . ولذلك نرى استجابة للأحداث استجابة سريعة ، فلا يكاد الحدث الوطنى يقع حتى يفيض شعره . فعلى سبيل المثال عندما يصرح أحمد

شوقى عن لسان الخديوى عباس فى حديث له مع جريدة (المؤيد) أن الخديو لا يستطيع أن يعلن الدستور إلا بأن الأنجليز يعاجله الغاياتى بقصيدة يقول له فيها :

يا شاعر الأمير ويحك هل ترى　　فى النثر ما فىالنظم من خطرات

أنى رأيتك فى حديثك شاعراً　　لك خيالك زائغ النظرات

ويتورط (أحمد زكى) باشا شيخ العروبة بكلمة يحمل فيها على الحزب الوطنى ، فيهاجمه الوطنيون ، فيعتذر عن هذا الخطأ ويصفه بأنه من فلتات اللسان فيعرك (الغاياتى) أذنه فى نفس القصيدة التى يعاتب فيها شوقى ويختمها ببيت يقول فيه :

فعليك إصلاح الحديث فأنه　　عندى أشد أذى من الفلتات

وفى الديوان مديح لمصطفى كامل وهو على قيد الحياة ورثاء له حين لحق بالرفيق الأعلى ، ومديح وثناء على محمد فريد بعد انتخابه رئيساً للحزب الوطنى ، ومديح للشيخ (جاويش) بمناسبة الإفراج عنه بعد اتهامه فى إحدى القضايا ثم عند منحه (وسام الشعب)[٣٢] الذى اكتتب المصريون بثمنه وقلدوه إياه عندما خرج من السجن. ونظم الغاياتى قصيدة فى هذه المناسبة بعنوان (الوسام بعد السجن) قال فى مطلعها :

عاد إلى القلم المشهور سيرته　　ولاح بدر اللوا من بعد ما احتجبا

تجلو بشاشته الآلام والكربا

وعندما وقع حادث اغتيال بطرس باشا غالى رئيس النظار القبطى انتهز خصوم الحركة الوطنية هذا الحادث وأسرفوا فى القول بأن باعث (الوردانى) على القتل كان باعثاً دينياً ، وذلك لبث سموم التفرقة بين المصريين . وقد تصدى أحد المحامين الأقباط الذائعى الصيت (مرقص فهمى) يدفع عن الحركة الوطنية

هذا الاتهام الظالم فتأثر الغاياتى لهذا الموقف النبيل وكتب قصيدة عنوانها (إلى خطيب السلام) يبدأها بقوله :

خطبت فلم تجنح إلى شرعة الهوى ولم تتخذ الخصام سبيلاً

وما أمة القرآن فى مصر أمة ترى أمة الإنجيل أبغض جيلاً

فأنا وأنتم أخوة فى بلادنا قمنا على دين السلام طويلاً

وتنتقل من الوحدة الوطنية عند الغاياتى إلى الهجوم على (تيودور روزفلت) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سابقاً وذلك لالقائه خطاباً فى الجامعة المصرية أشاد فيها بالاحتلال الأجنبى البريطانى لمصر ، فينبرى له من بين من تصدوا له من الكتاب والشعراء فيقول :

لعمرك لست بالرجل الهمام إذا عد الهمام من إكرام

كرام الناس أصدقهم حديثاً وأبعد عن أكاذيب اللئام

ويذكر الغاياتى روزفلت فى هذه القصيدة بأن الإنجليز كانوا يحكمونهم ، وأن الأمريكيين الأحرار قد ثاروا عليهم وأشاد ببطولة زعماء النضال الأمريكى مثل واشنجتون وجيفرسون . وعندما سافر روزفلت من مصر إلى إنجلترا خطب ثانياً فى قاعدة (جليد هول) بلندن فحمل على المصريين من جديد مشيدًا بالاحتلال البريطانى فنظم فيه الغاياتى قصيدة أخرى لا تقل قوة عن الأولى تحت عنوان إلى خطيب (جيلد هول) يقول فى مطلعها :

ماذا تحاول يا رزفلت من خطب ترمى مصر عن حقد وعن غضب[٣٣]

وها هو الغاياتى لا يجد حرجًا فى مخاطبة السلطان (عبد الحميد) فى الآستانة وكان يسمى فى ذلك الوقت بأمير المؤمنين يطالبه فيه بالدستور ويشير إلى نكبة مصر بالاحتلال فيقول[٣٤] :

رمتهـا الحـادثـات بشـر قـوم لهـم فى كـل مظلمـة شـئون

قضـت فى عصرهـم مصـر ولولا رجـاء فيـك مـا قـرت عيـون

فاعـزز يـا حمـى الإسـلام شـعبًا بعـزك لا يـذل ولا يهـون

وكان قرار الاتهام فى قضية وطنيتى هو إحالة كل مـن الشـيخ جـاويش – المحرر بجريدة العلم – والشيخ على الغاياتى – المصحح بجريـدة العلـم والشـيخ محمد حسن القزوينى الموظف بقلم تحرير (العلم) والياس أفندى ديـاب صـاحب مكتبة التأليف إلى محكمة الجنايات يوم ٦ أغسطس برئاسة (محمد بـك مجـدى) وحضرة (على بك ذو الفقار) والمسيو (سودان) أعضاء كمـا تقـرر إخـراج إسماعيل أفندى حافظ صاحب جريدة العلم وتأجيل رفع الدعوى على حضرة محمـد بك فريد رئيس الحزب الوطنى حين عودته من أوربا وذلك لوضع ونشـر كتـاب يسمى وطنيتى ، ويشتمل على قصائد ومنظومات يتضمن بعضها التحريض مباشـرة على جناية القتل (صحيفـة ٣٤,٥ ، ٣٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٢) وبعضها التحريض على كراهية الحكومة والازدراء بها صحيفـة (٣٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧) وبعضها تحسين الجريمـة التـى ارتكبـها الشيخ جاويش وحكم عليه من أجلها فى العام الماضى وغيرهـا (٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٢ ، ١٠١) وبعضها العيب فى حـق ذات ولـى الأمر (صحيفة ٥٥ ، ٥٦) وبعضـها أهانه ناظر الحقـانية بصفته موظفاً عموميـاً (صحيفة ٦٣ ، ٦٤) وبعضها أهانه هيئة الوزارة والمحاكم (صحيفة ٥٦ ، ٦٨).

وهكذا أصبحت صفحات وطنيتى فى قائمة الاتهام حتى كان موعـد انعقـاد محكمة الجنايات الكبرى . وهذه صورة لجلستها كما جاء فـى اللـواء (انعقـدت الجلسة فى الساعة التاسعة صباحاً تحت رئاسة محمد بك مجدى وكل من العضويـن على بك ذو الفقار والمسيو سودان . وكان على كرسى النيابة توفيـق بـك نسـيم

وسكرتير الجلسة جلال أفندى . وكان النظام سائداً ، والقاعة غاصـــة بالحــاضرين يتخللهم رجال البوليس السرى المنتشر خارج القاعة وداخلــها . وكــان حضـــرات الشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ محمد حسن القزوينى والياس أفندى دياب واقفيــن فى موقف الاتهام ، وحضر حضرات المحامين الأفاضل للدفاع عن موكليهم ... ثـم تكلم حضرة رئيس الجلسة بعض كلمات طلب فيها من الجمهور المحافظـــة علــى النظام ونودى على المتهمين فسأل كل منهم عن اسمه وصناعته . وعمره وســكنه ، ثم قام كاتب الجلسة وتلا محضر الجلسة . وبعد ذلك قام وكيل النيابة وطلب معاقبــة الشيخ الغاياتى والشيخ جاويش بصفته فاعلاً وشريكاً فى الجناية وذلك لنشر أشـــياء مخالفة للقوانين بالجرائد »(٣٥) .

سأل رئيس الجلسة الشيخ عبد العزيز جاويش عن التهم الموجهة ضده فقـــال أنه قرظ الكتاب عن نيه حسنة » . وسئل الشيخ القزوينى عن التهم الموجهة ضـــده فقال أنه لم يطلع على الكتاب . وسئل دياب أفندى عن التهم الموجهة ضده فقال إنــه باعه كسائر البائعين . ثم قام حضرة وكيل النيابة وقال : قام هذا الشــاعر المفتــون (يقصد الغاياتى) ووضع هذا الكتاب فلا حيى الله وطنيته ولا بارك الله فيـــها مــن وطنية فاسقة ، لقد مجد فعل دنجرا والوردانى وكلاهما قاتل سفاك وهــذا تحريــض على ارتكاب الجنايات .. وقال : نعم هنا فى هذا الكتاب (وطنيتى) جملة قصـــائد أدبية ولكن هذا لا يبرر ما فى هذا الكتاب الذى يعظم الأثم ويدفن الحسنة ... وفـــى اليوم التالى وقف حضرة توفيق بك نسيم قائلاً بأن النيابة العمومية تطلـــب معاقبــة المتهم (الغايــاتى) بــالمواد ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ من قانون العقوبات لوضعه وطبعه كتاب (وطنيتى)(٣٦) .

ومع أن عدد من المحامين تطوعوا للدفاع عن المتهمين إلا أن حكماً صـــدر بإدانة كل من الشيخ الغاياتى والشيخ جاويش ووافق الخديو عباس حلمى الثانى علــى

حكم محكمة جنايات مصر فى قضية النيابة العمومية رقـــم ٦٧ ســايرة الأزبكيــة لسنه١٩١٠ وذلك بالحبس لمدة سنة مع الشغل بالنسبة للغاياتى مع تبرئته من تهمـــة التحريض على القتل والحبس ثلاثة أشهر على الشيخ جاويش .

كانت معظم القصائد التى احتواها كتاب وطنيتى قد سبق للصحف نشرها فـــى حينها ، ولم تجد النيابة فيها ما يستدعى المحاكمة إلا أن الوزارة أخذا بسياسة الشــدة التى انتهجتها حيال الحركة الوطنية أوعزت إلى النيابة بـــالتحقيق فيمــا ورد فـــى الكتاب ، فأمرت بمصادرته وأصدرت حكمها المتقدم على الشيخ جاويش والغايــاتى، أما الزعيم محمد فريد الذى اشترك فى تقديم الكتاب فقد كان أثناء التحقيق فى أوربــا يدافع عن قضية مصر فأرجأت النيابة إجراءاتها معه حتى يعود[٣٧] واعتبرته النيابــة شريكا للغاياتى فى التهمة . وكانت الحكومة تريد بالحكم السابق ضد الشيخ جــاويش عدم عودة محمد فريد إلى مصر . وقد أشاع خصومه أنه اعتزم إلا يعود خوفاً مـــن الحكم عليه ، ولكن فريد بادر بنفى هذه الإشاعة وهو فى أوربا . ويرى الرافعــى[٣٨] أنه بلغ من تأصل الوطنية الصحيحة فى بيت الزعيم أنه تلقى من كـــبرى كريماتـــه خطابا ترغبه فيه فى الحضور تقول فيه (ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثـــل مــا حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش فذلك أشرف من أن يقال بأنكم هربتم ومــا تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم) .

بـــدأت النيابة العمومية التحقيق مع محمد فريد بعد عودته إلى مصـــــر فـــى أواخر ديســمبر ١٩١٠ ونظرت القضية أمام محكمة جنايات مصر فى ٢٣ ينـــاير سنة ١٩١١ فانعقدت المحكمة برئاسة المستر (دلبروجلى) وعضوية كل من أحمــد ذو الفقار بك وأمين بك على ومثل النيابة محمد توفيق نسيم وحضر الزعيم بـــدون اصطحاب أحدًا من المحامين وسأله رئيس المحكمة عن التهمة الموجه إليـــه وهـــى تقريظه للكتاب فأجاب قائلاً : « فى الوقت المنسوب إلى فيه تقريظ الكتـــاب كنـــت غائبًا عن مصر لأنه ظهر فى أخر يونيه وأنا سافرت إلى أوربا فى ٥ مايو ، أمـــا

المقالة فكتبتها قبل صدور الكتاب ولا علم لي بالمسائل التي فيه لأن كثيرًا منها حدث ونظم شعره في غيابي ، ولما كتبت المقالة كتبتها باعتقاد أنها مما لا يعاقب عليها القانون » وعلى الرغم من ذلك فقد صدر حكم المحكمة بحبس محمد فريد ستة أشهر مع النفاذ . وإذا كان من الثابت أن محمد فريد قد كتب مقدمة وطنيتي دون أن يطلع على محتويات الكتاب بل وقبل أن ينتهي الغاياتي من وضعه له فإن الزعيم لم يحاكم من أجل تلك المقدمة بل من أجل موقفه العدائي من الاحتلال والحكومة وأن الغرض من محاكمته إنما هو إرهابه ومعاقبته على إخلاصه في جهاده ، إذ جاءت تلك المحاكمة بمثابة مأساة قضائية ووطنية وأخلاقية تلقي ظلالاً كثيفة على الحركة الوطنية .

وهكذا تخطت قضية وطنيتي مرحلة الذاتية بل صارت قضية قومية سياسية تناولتها الألسن والأقلام في مصر على تباين مشاربها ووجدت الصحف جميعها في الإحكام الصادرة مادة دسمة للخوض فيها واشتركت كافة الصحف في توجيه النقد إلى تلك الأحكام حتى الصحف المؤيدة للقصر والاحتلال لأنها « كانت ترى أنها صادرة ضد رجل من ذوي الأقلام » استوت في ذلك صحف المسلمين والأقباط والأجانب[٣٩] ، خاصة جريدة المقطم المعروفة بميولها للبريطانيين ، وشق عليها أن يصدر ذلك الحكم على خصمها العنيد وكأن ذلك الخصم القديم قد انقلب في شعورها دفعة واحدة إلى صديق حميم[٤٠] أما جريدة (الاجيبشيا جازيت) فقد علقت على ذلك بقولها « إن الدلائل تدل على أن النيابة لا تعمل بمفردها في تحقيق قضية الغاياتي بل ثمة يد انجليزية من وراء ستار لإدارة التحقيق »[٤١] .

أما جريدة (لوبرو جريه) الفرنسية فقالت تدافع عن الغاياتي بأن الجزء الأكبر من كتاب الشيخ الغاياتي عبارة عن ترجمة لقطع من الأدب الأوربي[٤٢] وأنها لم تر فيه إلا تبسيط يناسب العقلية المصرية ولكنه يهدف إلى جذب القارئ بإفهامه إن محاربة الإنجليز وحلفائهم والخديو وحكومته عمل من الأعمال الوطنية[٤٣] ،

ولكنها عادت مرة أخرى تتحدث عن الكتاب فقالت أنه مؤلف سياسى وليس أديبا ولم يكن لها من دليل تذكره إلا أن محمد فريد والشيخ جاويش قدماه إلى القراء.

وقد كتبت صحيفة (ايجبت شاناخرشتن) الألمانية مقالا عنيفا تحمل فيه على الحكومة وتدافع فيه عن محمد فريد دفاعا لم تشهده أكثر الصحف العربية وطنية ، وتساءلت عن الجريمة التى اقترفها وقررت أن مقدمة الكتاب لم تخرج عن كونها دراسة أدبية عامة ... وأن أكثر القصائد التى ضمها الكتاب كانت قد نشرت فى جريدة (اللواء) دون أن تتخذ الحكومة أى إجراء حيالها واستطردت تقول (إن الحكم على فريد بك نتيجة طبيعية لما اختطته الحكومة لنفسها من نهج خلال السنتين الماضيتين تجاه الصحف من إنذار وتعطيل وسجن ونفى للكتاب والخطباء)(٤٤) .

وقد طالب « ريمون كولر » رئيس تحرير صحيفة (ليجبت) الخديو بأن يستعمل حقه فى العفو عن فريد بك ذاكرا أن الرأى العام جميعه والصحفيين خاصة يشاركونه هذا الرجاء ولكن (الايجبتشانا خرشتن) تذكر الحكومة بأنها لابد أن ترجع عن تصرفاتها حيال حرية الرأى وتنتهج لنفسها خطة جديدة تقوم على الأفكار الحديثة فى الحرية والتساهل وأن هذه الفرصة هى انسب الفرص لاتخاذ هذا الإجراء الذى يكون له أثره الحميد بين مختلف طوائف الشعب المصرى فتطبق بذلك المثل القائل رب ضارة نافعة فربما كان هذا الحكم له أكبر النفع فى أن تعود الحكومة فتقرب ما بينها وبين الشعب الذى تحكمه ، أما الأهرام فقد علقت على تلك الأحكام بقولها « أن مثل هذا النوع من المحاكمات سيكون محضأة يحرك الجمر الذى غطاه الرماد ، رماد السكون والهدوء »(٤٥) .

وعلى الرغم من أن ديوان الشيخ الغاياتى صودر بمعرفة سلطات الاحتلال وبسببه قامت تلك الضجة الهائلة إلا أن الأعداد التى وصلت إلى يد الناس كانت كافية لامتداد استمرار لهيب الثورة الوطنية عن طريق التبادل أو الاستعارة ويبدو

أن الكتاب أعيدت طباعته أكثر من مرة بواسطة الوطنيين مـــن تلاميـذ الغايـاتى وأصدقاؤه ووصل سعره ثمنا باهظا[٤٦] بالقياس لأسعار المطبوعات فى تلك الفـترة فكان من الطبيعى أن يتهافت الناس فى كافة أرجاء القطر المصرى على اختــلاف انتماءاتهم السياسية على اقتناء نسخ من (المنشور الثورى) الذى أدى إلى تعديـل قانون المطبوعات واقترن اسمه باسم زعيم الأمة (محمد فريد) .

وكما اقترن وطنيتى بـ (محمد فريد) - لأنه يعـد فـى نظـر الكثـيرين السبب المباشر فى نفى الزعيم نفياً اختيارياً خارج مصـر - فإنـه ارتبـط أشـد الارتباط بصاحبه وصار الاسمان متلازمين وإذا كان الغاياتى قد ارتفـع بـالديوان فوق هامات السائرين فى ركاب الإنجليز والأسـرة العلوية الحاكمة فلا شـك فـى أن هـذا الكتاب خلق من الغاياتى بطلاً قومياً ووطنياً لا نجانب الصواب إذا قلنـا أنه وضعه فى مصاف زعماء الأمة الذين تبوءوا مكانة مرموقة فى نفوس الأهـالى، بل اعتبر فى نظر بعض الكتاب أنـه الباعث الحقيقى لثورة الشـعب فـى ١٩١٩ ولا عجب أن تفيض الصحف بالمآثر الوطنية الدافقة للغاياتى ولديوانـه الشـهير ، ولصحيفته التى أسسها فى القاهرة بعد عودته وليـس أدل علـى ذلـك مـن تلـك الرسـالة[٤٧] التى يشيد فيها أحد المصريين من الطبقة المتوسطة بمنـاقب الغايـاتى وبما يشـتمل عليه ديوانه من أشعار ونثريات كانت درساً بليغاً فى تربيـة النـشء إلى جانب انعكاساته الوطنية فيقول :

أنا ابن قولى وحسبى فى الفخـار بـه وأن غـدوت كـريم العـم والخـالى

فانظر لقولى تجد نفسـى مصـورة فى صفحـة فقولـى خـط تمثـال

« لقد قرأت كتاب وطنيتى للغاياتى فإذا به أجد نفساً عالياً عـامرة بالإيمـان الثابت زاخرة بالتفانى فى حب الوطن ... وقد لمست الرجولـة الفـذة والوطنيـة الصادقة والإنسان الذى كان يفتش عنه الفيلسوف اليونـانى (ديوجيـن الكلبـى) فالكتاب نفحة ربانية وتحفة أدبية ومشكلة وطنية وشعر رصين . ولو كـان الأمـر

بيدى لفرضت استظهاره على التلاميذ والتلميذات ، فلا أقل من أن يدخـــره الآبـــاء ويتخذوه نبراسا لتربية البنات والأبناء ليضمنوا للوطن أشبالاً أخيـــاراً وأمـــهات لا يقترفن الدنية ولا ينزلن إلى حضيض الرذيلة » .

هجرة الغاياتى خارج مصر :

اختلفت أقوال المؤرخين والكتاب فى سفر الغاياتى خارج الوطن فمنـــهم مـــن يسمى ذلك فراراً[٤٨] ومنهم من يطلق عليه هروباً أو ارتحالاً[٤٩] . وهنـــاك روايـــة تقول أن الغاياتى هرب من داخل السجن[٥٠] وهذا غير صحيح ولكن نـــأخذ بـــرأى الغاياتى نفسه فى أن ذلك كان فراراً ، وأنه كان فى السادس من يوليو ١٩١٠ .

عقد الغاياتى عزمه على السفر إلى تركيا ولم يكن يحمل معه جواز سفر يأذن له بمغادرة مصر ولا بدخول تركيا . ولكن لم يكن مثل هذا الجواز ضرورياً فـــى تلك الأيام ... وساقت الظروف للغاياتى ضابطاً تركيا كان فى رحلـــة صيـــد فـــى السودان فتصادقا معاً حتى وصلا إلى استانبول ودخلـــها فـــى حمايتـــه[٥١] . وفـــى الآستانة علم بأن الحكومة بدأت فى تفتيش المنازل والمكتبات والمحـــلات عـــن أى نسخة من الديوان كما علم أيضاً بمحاكمة الشيخ جاويش . وشاع فى أنحاء مصـــر بأن الغاياتى غادر الأستانة فى طريقه إلى سويسرا وذلك لأن الحكومـــة المصريـــة بعثت تطلب من الاستانة تسليمه إليها . وقد نشر الغاياتى قصيدة طويلة بعد أن علـــم بتفتيش البوليس لداره فى القاهرة يقول فيها :

فمـــاذا رأى العـــادون فى دارى التى　　　أحـــن إليهـــا كلمـــا راح لامـــع

لقد ابصروا الأقـــلام والكتب بينهـــا　　　فياليتهـــا أبصـــروها مدافـــع

تولى على الغاياتى بعد وصوله استانبول رئاسة تحرير جريـــدة أسبوعيـــة كانت تصدر فى عاصمة السلطنة العثمانية تسمى (دار الخلافـــة) كـــان صـــاحب امتيازها (عبد الوهاب عبد الصمد) وهو شـــاب من طرابلس الغـــرب (ليبيـــا)

كانت له صلات وثيقة برجال الاتحاد التركى فى تركيا والحزب الوطنى فى مصـــر. ومن المرجح أن الغاياتى كانت تربطه صداقــة بصاحب الجريــدة قبل مغادرته لها مصر . وكانت يخطط للعمل فيها عند سفره إلى تركيا إذ أنه كـــان يحمـــل رســـالة توصية من صاحب الجريدة فى القاهرة إلى وكيله فى الآستانة ليسند إليـــه إحـــدى الوظائف الصحفية بها . ولكن الغاياتى قام بتمزيقها خشية أن تقع فى يد أحد رجـــال الضبط ، وولى الغاياتى مسئولية إدارة الجريدة ورئاسة تحريرهـــا إذا كتـــب علـــى رأس الجريدة فى بداية عمله بها : المدير المسئول ورئيس التحرير هو الشـــيخ (ع. غ.) ثم استعيض عن تلك الأحرف بعد قليل بالاسم الصريح (على الغاياتى) .

بدأ الغاياتى فى العاصمة التركية بشهر قلمه ضد الظلم والطغيان فكتب العديـد من المقالات النارية التى ندد فيها بالاستعمار الأوربـــى للـــدول الناشـــئة وخاصـــة الاحتلال البريطانى لمصر ، كما شن حملة شديدة علـــى الحكـــام الذيـــن اســـتكانوا واتخذوا من الذل والهوان سبيلاً إلى عروشهم التى لا محال فهى زائلة . ولم تجـــد تلك الكلمات بطبيعة الحال صدى فى نفس الخديو وسلطات الاحتـــلال فـــى داخـــل مصر ، ومن هنا أصدرت السلطة قرارها بمنع دخول جريدة « دار الخلافة » إلـــى القطر المصرى وجاء فى قرار ناظر الداخلية « حيث أن جريدة دار الخلافة التـــى تطبع فى الآستانة اعتادت على نشر عبارات شديدة ماسة بسمو الخديو والحكومـــة المصرية ونشرت فى عددها الصادر فى ٩ رمضان ١٣٢٨هـ/١٣ ســـبتمبر ســـنة ١٩١٠ قصيدة خطية فى سمو الأمير وتحريض للمصريين علـــى الثـــورة وســـفك الدماء ، الأمر المخل كل الإخلال بالأمن والنظام العام »[٥٢] .

وعلى الرغم من منع جريدة دار الخلافة من دخول مصر فقد استمر الشـــيخ الغاياتى فى حملته على سياسة الاحتلال أيا كان نوعه وشبه طغيان الإنجلـــيز فـــى مصر بطغيان السلطان عبد الحميد فى تركيا ، وسار الغاياتى شوطاً أبعد من ذلك إذ

أن معظم أعداد (دار الخلافة) امتلأت بتمجيد ذكرى إبراهيم الورداني الـذى قـام باغتيال بطرس غالى رئيس الوزراء المصرى فى عام ١٩١٠[٥٣] .

وقد نشر الغاياتى فى العدد السابق من نفس الجريدة قصيدة تحت عنوان (مصر ودار السعادة) يقول فى مطلعها[٥٤] :

دار السعادة هل أتاك مخبر	يشكو لديك شقاء مصر وينشر
النيل من جمر المدافع فائض	والوجد فى أحشائه يشعر
لهفى على النيل الحزين وشعبه	وفؤادى المغنى به يتقطر

والتقى الغاياتى وهو فى الآستانة بـ (محمد فريد) فى طريق عودته من أوربا إلى مصر وعرض عليه – من منطلق الوطنية – أن يعود معه إلى مصر لو كان فى ذلك تحسين لمركزه أمام القضاء المصرى ولكن فريد رفض هذه الفكرة ويقول الغاياتى عن ذكريات تلك الفترة : لقد ذهبت لزيارة فريد بك فى الفندق الذى يقيم به فدخل علينا بعض الضباط الشبان فى الجيش التركى ، فقدم فريد أحدهم إلى وهو يقول : (عزيز على المصرى) وكانت تلك المرة الأولى التى اتعرف فيها على ذلك الضابط وهو الذى عاد إلى مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فشغل منصب رئيس أركان حرب الجيش المصرى[٥٥] .

تكررت اللقاءات القليلة بين كل من الغاياتى و(محمد فريد) فى استانبول وانتهت بأن عقد الغاياتى العزم على السفر إلى جنيف مستمعاً إلى نصائح الزعيم[٥٦] بأنها أرض بكر لتعليم اللغة العربية للأجانب الذين يريدون تعلمها ولما تهيأ للسفر إلى جنيف اهتم بتعلم اللغة الفرنسية . وكان قد بدأ يتلقى بعض الدروس فيها فى مصر فى مدرسة أنشأها الشيخ جاويش لتعليم الأزهريين تلك اللغة حتى يلموا بشئ من الثقافة الحديثة[٥٧] .

وصل الغاياتى إلى جنيف قادماً من الاستانه مساء يوم السبت ٢ ديسمبر سنة ١٩١٠ ماراً بفينا عاصمة النمسا . وقد اختار تلك المدينة بالذات ليبحث عن الشبان العرب الذين يتوقون إلى تعلم اللغة العربية ، كما عرفه بذلك محمد فريد . ولكن عدد أولئك الشبان القليل لم يكن يوفر لهذا المغترب المال الذى يعينه على الإعاشة، فيمم شطر جنيف وهناك استقبله أحد الطلبة المصريين الوطنيين ويدعى « خليل مدكور » واتخذ منه الغاياتى رفيقاً لدرب كفاحه ومعينا له على نوائب الدهر فى بلاد الغربة ، ومع ذلك فلقد كان إحساس الغاياتى بالغربة عن أرض الوطن فى بداية الأمر شديداً ، ونظم شعراً بالعامية قال فيه :

يا نيل أنا بأشكى الهوى   من يوم ما شفتك فى هوان

حبك رمانى بالثرى   ورماك بأشجانى كمان

واتجه الغاياتى إلى معهد يسمى معهد (لانس) لتعليم اللغة العربية وعرض نفسه على صاحبه وعمل فى هذا المعهد لفترة وجيزة تعرف فيها على الأمراء عبد المنعم وعبد القادر أبناء الخديو عباس حلمى الثانى(٥٨) وكانا قد قدما إلى جنيف للاستزاده من الدراسة فى المعاهد الأوروبية ، شأنهم فى ذلك شأن كافة الأمراء من الأسرة المالكة . وكان من بين الطلبة المصريين الذين عرفهم الغاياتى فى جنيف أيضاً شاب وطنى آخر يدعى (الأمير العطار)(٥٩) سبق أن عرفه فى مصر قبل هجرته وكانت خطيبته السويسرية هى الواسطة فى معرفة الغاياتى بخطيبته السويسرية أيضاً والتى صارت زوجة له طيلة حياته .

وبعد زواج الغاياتى من تلك السيدة الأوروبية بدأ يتطلع إلى تعلم اللغة الفرنسية بدرجة أكبر ليتمكن من الالتحاق بالجامعة وتقدم للالتحاق بكلية العلوم الاجتماعية وقبل طلبه ، حيث أنه تخرج فى معهد دمياط الأزهرى التابع للأزهر الشريف وكان الأزهر فى ذلك الوقت يعد من أكبر الجامعات العربية . وانتظم

الغاياتي في حضور المحاضرات . وكانت زوجته تساعده في فهم اللغة الفرنسية وإيضاح ما يستعصى فهمه . وبعد دراسة ثلاث سنوات تمكن خلا لها من استيعاب البرنامج المطلوب على أنه لم يتقدم للامتحان لأنه لم يستطع الوفاء بالتزاماته المالية بالنسبة للجامعة . وكانت الحرب العالمية الأولى قد قامت وقلت موارده المادية نظراً لسفر أكثر تلاميذه إلى بلادهم ، وأيضاً لغلاء المعيشة(٦٠) .

وكان أن شرع الغاياتي في مراسلة صحيفة الحزب الوطني في مصر حينذاك وهي (العلم) من مقر إقامته في جنيف ، مقابل ثلاثة جنيهات في الشهر كانت تساعده على مواجهة تكاليف الحياة هناك ، حتى يجد عملاً . ولكن لم يتلق سوى راتب شهرين فقط انقطع بعدها ورود الراتب إليه . وقد حزن حزناً شديداً ليس على انقطاع ذلك المورد المالي الهام ، ولكن لمعرفته سبب انقطاع تلك الجنيهات القليلة إذ علم فيما بعد أن أحد الأشخاص اقترح للدفاع عن محمد فريد أن يقال أن الغاياتي كان مدسوساً عليه من الحكومة ، ويبدو أن هذا الاقتراح الطائش وأن كان قد رفض إلا أن الألسن تناولته ، الأمر الذي أدى إلى البلبلة . وفي ظل هذا التشويش رؤى أن يقطع صلة جريدة الحزب بالغاياتي ... (وهكذا يساء إلى الأبرياء برعونة البلهاء) ، إلا أن الغاياتي استطاع أن يحصل على قوت يومه عن طريق تدريس اللغة العربية لبعض الشباب العرب الذين كانوا يطلبون العلم في جنيف .

كان الغاياتي في أوربا ولكن عينه كانت على مصر ، استلهم منها عشقه الأول ، إذ أن لهيب الوطنية لا يزال مستعراً في فؤاده لم تصرفه خطوبه ونوائبه الذاتية عن استجلاء أخبار معشوقته بنت وادي النيل . كان دمعه يجري حاراً إذا أصابتها المدلهمات رافعاً أكف الضراعة أن ينقذها من هذا الابتلاء العظيم . ولم تنل من وطنيته تلك الأقاويل المغرضة فكان يشارك بقلمه وأفكاره فيما يقيل وطنه

من عثرته . وقد علم أنه بعد استقالة وزارة محمد سعيد وتشكيل وزارة حسين رشدى فى ٥ أبريل ١٩١٤ أن كثرت الفتن الحزبية والطائفية نتيجة تعدد الأحزاب فكتب مقالا إلى جريدة الأهرام تحت عنوان « الوحدة الوطنية المصرية»[٦١] يقول فيه :

« إننى أسألكم بحق مصر عليكم أن تدعو المصريين كافة إلى الاتحاد والوئلم بدل الانقسام والخصام وتبينون لهم ضرر تعدد الأحزاب وتفرق الكلمة وتشيرون عليهم بأن يستبدلوا بهذه الأحزاب حزبا واحدا هو حزب الوحدة الوطنية الذى يجب على كل مصرى عاقل أن يعمل على إيجاده والانضمام إليه حبا فى مصر وإنقاذا لها من الهاوية التى رماها فيها رامى الخلاف والتفريق والتى لا يمكن خلاصها منها ما دامت على هذا الحال »[٦٢] .

وقد علق رئيس تحرير الأهرام (فى نفس العدد الصادر فى ٨ إبريل سنة ١٩١٤) بكلمة بليغة أقر فيها الغاياتى على ما كتبه حتى لا يتدخل الإنجليز فى كل صغيرة وكبيرة فى البلاد ولأن الوحدة الوطنية المصرية هى وحدها سفينة النجاة بل سلم الرقى والنجاح والإخلاص فمن أحب مصر عمل لها وحدها دون سواها ومن كان حربا عليها كان حربا علىمصر لا يريد بها خيرا ولا يرعىفيها ذمة ولا آلا).

كانت البداية الحقيقية لعمل الغاياتى فى جنيف هى الاشتغال بالترجمة ومراسلة الصحف السويسرية التى كان أكثرها فى جنيف ، فعمل فى أكثر وأوسع صحفها مثل (تريبيون دى جنيف) و (جورنال دى جنيف) و (لا سويس) كما راسل جريدة (جازيت دى لوزان) بمدينة لوزان وكانت تدفع له ثلاثين فرنكا عن المقال الواحد ولم يتوقف قلم الغاياتى فى الخارج عن التنديد بمن مالئوا الإنجليز وتواطئوا مع المحتل وداهنوا كبار الإقطاعيين . وهاجم الفساد الذى أخذ يستشرى فى الحياة الاجتماعية بين المصريين ويحثهم على النهوض لإزاحة المغتصب عن

أرض الوطن وتطهير تراب مصر الطاهر من الدنس والأوحال ، ولقد أصابت لعنة الوطنية التى اشتهر بها الغاياتى معظم الجرائد والصحف التى عمل بها فكانت السلطات المصرية لها بالمرصاد ومنعت دخولها إلى القطر المصرى (لأنها تنشر أموراً ماسة بكرامة ولى النعم)[٦٣] . ومع ذلك لم تسارع تلك الجرائد بفصل الغاياتى من العمل بها أو تجميد نشاطه الوطنى أو قصف قلمه بل ازداد قدرة ورسخت أقدامه وصارت تلك الصحف هى المورد المادى الثابت له إذ أصبح يتقاضى من (تريبون دى جنيف) مرتباً شهرياً قدره ٣٠٠ فرنكا بعد أن كان يتقاضى مكافآت عن القطع التى يقدمها فقط للجريدة ، وقد ظل الغاياتى فى هيئة تحرير هذه الجريدة عشرة أعوام من ١٩١٤ - ١٩٢٤ وأصبح كسائر محرريها عضوا فى نقابة صحافة جنيف[٦٤] .

عندما قامت ثورة الشعب فى مصر عام ١٩١٩ تولى الغاياتى الدفاع عنها والدعوة لها فى الخارج الأمر الذى أثر تأثيراً بعيداً فى دخله المادى إذ قل ما كانت تنشره له الصحف السويسرية . وكان النشاط الصحفى محجوراً عليه فى مصر والخارج أبان الحرب العالمية الأولى كما أنه لم يكن هناك مجال لإصدار صحف مصرية فى أوربا خاصة بعد أن بدأت الحياة فى مصر تستقر فى الداخل وعندئذ أصدر الغاياتى لحسابه الخاص جريدة عربية فرنسية أطلق عليها بالعربية (منبر الشرق) وبالفرنسية (La Tribune d'orient) وكان رياض الصلح (رئيس وزراء لبنان بعد الحرب العالمية الثانية) قد اقترح عليه أن يسميها منبر العرب ولكن الغاياتى فضل أن تكون جريدة لسان حال حركات التحرير فى الشرق كله وكانت جريدة (تريبون دوريان) تجربة فريدة فى تاريخ الصحافة إذ كانت تصدر فى أربع صفحات ثلاث منها باللغة الفرنسية والرابعة بالعربية ولما لم يكن فى جنيف مطبعة عربية كان الغاياتى يكتب هذه الصحافة بخطة ثم تحفر على الزنكوغراف فإذا ما وقع فيها أى خطأ لم يشطبه بل يعيد كتابة الصفحة من أولها

إلى آخرها ، ويبدو أن هذا الجهد أضناه فاشترى حروف مطبعة عربية من ألمانيا وتولى بنفسه جمع حروف الصفحة العربية ولكنه لم يجد لهذه الصفحة العربية صدى عند العرب مثل الصفحات الثلاث الأخرى فاكتفى بإصدارها باللغة الفرنسية. وقد نمت الجريدة وترعرعت وانتشرت فى الشرق والغرب وبات لها اسم معروف لا سيما فى مركز عصبة الأمم . ويرجع نجاحها كما يقول صاحبها إليه وإلى بعض البيوتات التجارية فى جنيف والتى أمدته بإعلاناتها .

صدرت (منبر الشرق) بالفرنسية يوم الأحد ٥ فبراير سنة ١٩٢٢ ، ٩ جمادى الثانية سنة ١٣٤٠ واستمرت تصدر فى انتظام حتى يوم الأربعاء ٢٦ مايو سنة ١٩٣٦ (١٦ ربيع أول سنة ١٣٥٦) وسط صعوبات مالية وسياسية بالغة الشدة صمد الغاياتى لها فى استبسال وصبر . ذلك أنه لم يلق من المصريين التأييد والمعونة الكافيين فى وقت كانت مصر فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الجريدة التى سما بها صاحبها فوق الخلافات الحزبية ، لتبقى خالصة للوطن ولمصلحة مصر ، وأن يكون الشرق للشرقيين . وقد أعلن الغاياتى فى صدر الجريدة أنها جريدة نصف شهرية أنشئت للدفاع عن حقوق الشرق الناهض تصدر بالعربية والفرنسية فى جنيف مركز جمعية الأمم ، وأن الاشتراك السنوى فى سويسرا هو عشرة فرنكات ، وفى الخارج عشرون فرنكا وحظيت شئون مصر السياسية والاجتماعية بالقدر الأعظم من أبواب الجريدة[٦٥] . وفى العدد الأول من الصفحة العربية يبين الغاياتى الهدف من إنشاء الجريدة بقوله « هى صحيفة شرقية همها الدفاع عن حقوق الشرق الناهض وتقريب المسافة بينه وبين الغرب ذى القوة والسلطان والبطش والعدوان . ولما كانت جنيف هى مركز جمعية الأمم ومرصد سياسة العالم فقد كان من الواجب فيها المبادرة بنشر تلك الجريدة لتحمل إلى هذه الجمعية المباركة ما قد لا تعلمه من آلام الشرقيين وآمالهم وتساعد على القيام بمعالم العدل ونشر لواء الإخاء والسلام بين الأمم والشعوب » .

أما المقالة الثانية للغاياتى فى الصفحة العربية من العدد الأول الصادر فى ٥ فبراير ١٩٢٢ فكانت تحت عنوان (سعد باشا) حيث كان سعد زغلول فى منفاه مع خيرة صحبه ، وكيف استقبله شعب وادى النيل قبل عشرة أشهر . ثم ينظم فيه قصيدة طويلة يقول فيها :

نظموا فيك أيها العلم ... درراً قيل أنها كلم

وهل عندى أجل جوهرة ... حملت تاج مصر لو علموا

بك يا سعد هام شاعرهم ... مثلما هام النيل والهرم

وجرت فيك من قصائدهم ... أبحر من النور والحكم

طال عهدى بموقف الشعرا ... ء وبينى وبينهم ذمم

أن نسونى فما نسيتهمو ... أو جفونى فما جفوتهمو

إن أمت أو أعيش بقيت على ... العهد أشقى به وقد نعموا

هيج النفس ذكر مصر فبا ... ت عصى القريض ينتظم[٦٦]

وقد ظهرت (منبر الشرق) فى وقت كانت المنطقة العربية تغلى كالبركان تحت وطأة قرارات التقسيم التى شملت معظم الشرق العربى من جراء اتفاقيات سايكس بيكو وسان ريمو بين الدول الاستعمارية الكبرى . ولم يكن ثمة متنفس للحريات سوى تلك الرئة فعن طريق جريدة الغاياتى أمكن للعديد من صيحات الاستنكار أن تصل إلى أوربا . ويعلق على ذلك أحد الشباب العرب عندما أرسل بمقال إلى (منبر الشرق) قائلاً : « لقد أجابنى على الغاياتى بإن الجريدة جريدتكم والمنبر منبركم ومنبر كل شرقى وعربى يعمل للشرق وللعرب ... لقد كانت مصر فى هوجاء اضطرابها السياسى ومعمعة حركتها الوطنية ، وكانت سوريا مسرحاً لحوادث دامية ، وكان لبنان غارقاً إلى قمته فى سياسة قائمة على الأحلام والأوهام،

وكان العراق ينتقل من ثورة إلى ثورة . فى ذلك الوقت العصيب صدرت جريدة منبر الشرق فى ١٩٢٢ فى جنيف فكانت أشهر الصحف للأراء الوطنية وصفحاتها ميدانا لتلك الأحاديث ، تفتح صدر صفحاتها لحملة الأقلام من المشتغلين بالسياسة المصرية والشرقية(٦٧) .

وهكذا ظل الغاياتى يناضل بقلمه خارج الوطن ، وينفعل مع الأحداث التى تدور داخل مصر ، فيكتب عنها مهاجما الخلل ومظاهر الضعف مؤيداً ومشجعاً ما يستحق التأييد ، ثم لا يفتأ يقوم بعقد الندوات الطوال للمصريين والعرب ، لشرح وتفسير ما ينغلق من الأحداث السياسية على الساحة العربية ، ولم يمض وقت طويل حتى صار الغاياتى من ألمع الصحفيين العرب بل لقد حقق لنفسه شهرة تفوق نظرائه من الأوربيين ، فكان المتحدث الرسمى بلسان العرب وغدت (منبر الشرق) بمثابة وكالة أنباء رسمية احترمتها الصحف الأخرى نظراً لمكانة صاحبها وصلاته الوثيقة برجالات (عصبة الأمم) فى جنيف . ويقول (أحمد حسين) (مصر الفتاة)(٦٨) عن جنيف ومكانة الغاياتى فيها بأنها (كانت بحق عاصمة العالم الدولية فهى مدينة المؤتمرات لا ينفض فيها مؤتمر حتى ينعقد مؤتمر ولا يغادرها عظيم من رؤساء الحكومات أو وزراء الخارجية أو كبار الكتاب حتى يفد عليها عشرات من هذا الطراز) وكان أحمد حسين قد أعد رسالة ليقدمها إلى سكرتارية عصبة الأمم عن طريق الغاياتى فكان إذ ذاك موضع ترحيب وإجلال من كل موظف هناك، وكان الناس يحيونه فى الطريق تحية الحب والتقدير ... وما أن سلم الغاياتى هذه الرسالة إلى مندوب وكالات الأنباء حتى نشرت فى عشرات الصحف والمجلات ، وأصبحت دار الغاياتى هى « السفارة المصرية » يقصدها المصريون والعرب على اختلاف مشاربهم ودياناتهم ويفد إليها أصحاب الحاجات ومحترفى السياسة والوطنية . وكان الغاياتى يسرف فى الحفاوة بزواره وقاصديه خاصة أبناء وطنه ويتفانى فى تقديم الخدمات لهم . وعلى الرغم من غربة هذا

السياسى الغيور إلا أن صورة مصر لم تبارح فؤاده أو عينيه ، فلا ينفك يحدث رفاقه عن مصر ونيلها ، فإذا سمع غناء مصريا هطلت الدموع من عينيه فاجتاحته نوبات الحنين[٦٩].

ولم تنج (منبر الشرق) الجنيفية من اضطهاد السلطات المصرية ، فمنعتها من الدخول مثل غيرها من الصحف التى عمل فيها الغاياتى من قبل ، وجاء فى نص قرار وزير الداخلية (إن جريدة تريبيون دوريان) التى تطبع بمدينة جنيف تنشر فيما يتعلق بمصر وحكومتها وولى أمرها أخبارا تتعمد فيها تشويه الحقائق تشويها من شأنه تضليل الأفكار والإخلال بالأمن والنظام العام . وبناء على المادة ١٧ من قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ وعلى قرار مجلس الوزراء الصادر فى ٢ مارس ١٩٠٩ تقرر منع دخول الجريدة المذكورة وعدم تداولها وبيعها فى القطر المصرى[٧٠] .

ولم يكن قرار منع جريدة الغاياتى من دخول مصر بالأمر السهل أو اليسير على نفسه ، إذ شق عليه أن تقابل جهوده فى الخارج بمثل هذا الإنكار ، كما حزن كثيرا لقطع صلة الهمز بينه وبين أبناء وطنه وساءه أن ينصرف عنه معظم الوطنيين من الساسة والصحفيين الذين بدءوا يتخذون من سياسة الحياد الإيجابى سبيلا لهم بعد أن توصلت سلطات الاحتلال إلى اتفاق ٢٨ فبراير ١٩٢٢ والذى كان ظاهره مصلحة مصر والمصريين وباطنه تمكين بريطانيا من إحكام قبضتها على البلاد . ومع ذلك استمر الغاياتى فى تأدية رسالته القومية تجاه مصر خارج الحدود، موضحا مساوئ تلك الاتفاقية وليكشف زيف وأباطيل قادة بريطانيا ، ثم يوجه الدعوة من جديد للمصريين لاستنهاض هممهم مستعيدا ذكريات ثورة ١٩١٩، ويحيى رموزها الوطنية ثم يوجه العتاب إلى حكام مصر وإلى الباب العالى كى يتمسكوا بحقوقهم فى السيادة الفعلية على البلاد . وفى محاولة يائسة من الغاياتى كى تفتح مصر ذراعيها لقلمه يقول فى التماس بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٢٧ (إن

جريدتى منبر الشرق التى أصدرها هنا (جنيف) منذ ستة أعوام هى صوت مصر الوحيد الذى يرتفع فى جو أوربا وصحيفة المصريين الفذة التى تنشر فى الغرب وفى جنيف مركز جمعية الأمم ... هذه الجريدة التى يجدر بالمصريين وحكومتهم السنية تشجيعها ومعاضدتها أصبحت اليوم فى أزمة شديد من جراء الإهمال المعيب التى صادفته من ذوى الشأن بمصر)(٧١) وفى التماس آخر فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٧ يستحلف الغاياتى حكام مصر بترابها الغالى أن يتركوا الباب مواربا لإسماع صوته ويرجوهم فى إباء وكبرياء اتصال ما انقطع فقط (أما الصحيفة فليست فى حاجة إلى العون المادى)(٧٢) .

وبعد انقضاء ثلاث سنوات على الحكم الصادر ضد الغاياتى وسقوط العقوبة عنه ، جرفه الحنين لزيارة مصر ، فعرض على بعض الصحف السويسرية أن يكتب تحقيقاً عن الحالة فى منطقة قناة السويس – وكانت آنئذ ميداناً هاماً من ميادين القتال فى الحرب العالمية الأولى – فرحبت تلك الصحف بذلك الاقتراح ، وأذنت له السلطات المصرية بالدخول . ولكن بعد سبعة أيام تم إلقاء القبض عليه وأخرج منها، وهو لا يدرى لماذا سمحت السلطات البريطانية بدخوله البلاد إذا كانت تشك فى نواياه . ولما عاد الغاياتى إلى جنيف شن حملة شديدة على حسين رشدى رئيس الحكومة فأرسل إليه رشدى يقول : « إن صدرى معرض للرصاص ، فلا تهمنى حملات الأقلام »ولما تقابل الغاياتى مع رئيس الحكومة المصرية قال له أن المصريين يتهمونك بأنك خنت ولى نعمتك الخديو عباس حتى تم عزله ، فقال رشدى بل إن الخديو رفض العودة من استانبول دون إيعاز منى . فقال له الغاياتى : « ها أنت تتهم بالباطل فتغضب وأنت تصدق ما ينسب إلى من تهم بلا سند ولا دليل »(٧٣) .

أما المرة الثانية التى حاول فيها الغاياتى زيارة مصر فكانت فى عام ١٩٣٣ وفيها اصطحب كبرى بناته (جميلة) ، وقد أمضى فى الزيارة الثانية شهراً قضاه

على ضفاف النيل فلما غادرها بكاها وطار فؤاده شوقاً إليها وهاله ما رأى فيها من سوء الأحوال السياسية الحزبية فأنشد يقول :

وما الأحزاب مسعدة ولا زعماؤها الكثر
إذا ما طاب للباغى بمصر الكر والفر
فلا الدستور فى أمن ولا الوزراء والقصر
ولا استقلال فى بلد به العادون قد قروا
ولولا أننا شيع يحارب شطرنا الشطر
ما أضحى لهم ظل ولا أمسى لهم ذكر[٧٤]

عودة الغاياتى إلى مصر :

بعد أن قبلت مصر عضوا فى عصبة الأمم خيل للغاياتى أن دوره فى أوربا قد انتهى ، وأن بلاده قد تكون فى حاجة إليه ، فقرر العودة نهائياً مع أسرته بعد غربة استمرت ٢٧ عاماً . وكان الأمل معقوداً على أن يعمل فور عودته بوظيفة حكومية فى وزارة الخارجية . ويبدو أن على ماهر رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت وعده بتعيينه فى السلك الدبلوماسى ثم تهرب من هذا الوعد ، فطلب منه الغاياتى فى التماس له (بضرورة الوفاء بما قطعه على نفسه)[٧٥] . ولكن الغاياتى لم يكتب له النجاح فى هذا السبيل لأسباب كان يعلمها الاحتلال واذناب الاحتلال[٧٦] . وكان أول مقال كتبه بعد وصوله إلى مصر تحت عنوان (الملك المحبوب) . وعلى الرغم من أن المقال كان تهنئة وثناء على الملك إلا أنه لم يكن مدحاً ولا نفاقاً وإنما كانت تغشاه روح الانتماء للنيل والوطن[٧٧] .

تقدم الغاياتى للحكومة – وكانت وفديه – آنذاك بطلب للترخيص له بإصدار صحيفة ، إلا أن هذا الطلب قوبل بالرفض ، ثم شاءت الأقدار له أن يصبح محرراً

المبادئ التى جند قلمه وروحه من أجل الدفاع عنها ، ولقى فى سبيلها كل عناء وشقاء مضحيا فى سبيل رفعة مصر وإعلاء كلمتها فى الداخل والخارج بكل غال ، فيقول الشيخ محمود شلتوت من هيئة كبار العلماء والمدرس بكلية الشريعة فى ذلك الوقت :

« تحية مخلصة من رجل يقدر إيمانك ووطنيتك . وليس الناس بحاجة إلى إقامة شاهد على تبوئك تلك المنزلة السامية ، فكل الناس يعرفون الشيخ على الغاياتى ، وكيف أخرج من دياره وأمواله بغير حق ، إلا أن يقول وطنيتى وطنيتى ... أنشأ له مملكة إسلامية فى بلاد لا تدين بالإسلام .. وأخذ وهو فى بيئته الجديدة يرسل دعوته الصافية الصادقة عن طريق « منبر الشرق » بلغة القوم « أى الفرنسية » ففتح للإسلام عيونا . وظل يكافح حتى عاد إلى بلاده فآب إليها يحمل نفس القلم ، وزاد فى إشراق قلبه ذلك المجهود الجبار الذى كان يبذله عن إخلاص فى سبيل وطنه ودينه فى بلاد لا تؤمن بوطنية فى مصر ولا بسعادة فى الإسلام»[٩٤] .

وفى ٢٧ أغسطس ١٩٥٦ – فى عهد الثورة – تقرر وقف إصدار جريدة «منبر الشرق» وشطب اسمها من قائمة الصحف المصرح بإصدارها فى مصر[٩٥]. وكان الغاياتى قد ارتفعت روحه قبل ذلك بأيام معدودة فلم يشهد تلك الخاتمة المؤلمة لذلك المنبر الذى كان فى حقيقة أمره قلعة لحرية الشرق ، وحرية العرب ، وحرية مصر .

(٦١) إبراهيم عبده ، جريدة الأهرام تاريخ وفن ، ص ٣٣٥ ، مطبعة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٤ .

كانت الأحزاب الموجودة على الساحة السياسية فى مصر هى : الإصلاح على المبادئ الدستورية ، الوطنى ، الأحرار ، الدستورى ، النبلاء ، المصرى ، الأمة راجع د. يونان لبيب ، المرجع السابق ، ص ٢٣ - ٧١ .

(٦٢) جريدة الأهرام ٨ أبريل ١٩١٤ .

(٦٣) دار الوثائق : محافظ عابدين ، محفظة رقم ٦٠٠ ، قصاصات وجرائد عربية ١٩٠٨ - ١٩٤٦ بشأن منع جريدة (لا سويس) فى ١٨ يوليو ١٩٢٢ ومنع جريدة (تريبيون دى جنيف) من دخول القطر المصرى لأنها نشرت مطاعن ماسة بكرامة ولى الأمر ، فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٢ .

(٦٤) منبر الشرق ، ص ١ ، العدد ٢٣٠ ، فى ٤ ديسمبر سنة ١٩٤٢ .

(٦٥) منبر الشرق ، العدد ١٣٨ ص ١ ، ٧ فبراير سنة ١٩٤٠ .

(٦٦) د. مختار الوكيل : المرجع السابق ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٦٧) منبر الشرق ، فى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٣ ، رسالة من أحد المواطنين العرب للجريدة بتوقيع ح. ج.

(٦٨) فتحى رضوان ، المرجع السابق ، ص ٣٩٩ .

(٦٩) د. مختار الوكيل : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٧٠) دار الوثائق : محفوظات مجلس الوزراء ، نظارة الداخلية ، صحافة ومطبوعات مختلف ١٨٧٨ - ١٩٢٣ .

(٧١) دار الوثائق : محافظ عابدين ، محفظه رقم ٦٠١ ، جرائد ومجلات عربية من ١٩٠٨ - ١٩٦٤ التماس من على الغاياتى إلى السلطات المصرية .

(٧٢) المصدر السابق ، التماس من الغاياتى إلى الحكومة المصرية بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٩٢٧م .

(٧٣) د. مختار الوكيل : المرجع السابق ، ص ٣١٢ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

(٧٥) دار الوثائق : محافظ عابدين ، محفظه رقم ٦٠٠ قصاصات جرائد عربيـــة ١٩٠٨ - ١٩٤٦ خطاب من على الغاياتى إلى على باشا ماهر فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٨ .

(٧٦) منبر الشرق ، ص ١ ، عدد ٨٦١ فى فبراير سنة ١٩٥٦ .

(٧٧) جريدة الجهاد ، فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧ .

(٧٨) جريدة السياسة ، ص ١ فى ٢ أبريل سنة ١٩٣٨ .

(٧٩) المصدر السابق ، ص ١ ، فى ٣ أبريل سنة ١٩٣٨ .

(٨٠) جريدة السياسة ، ٦ أبريل سنة ١٩٣٨ .

(٨١) وزارة الداخلية : إدارة الصحافة والمطبوعات ، دوسية رقم ١١ ، ٢/٢٩٢ الخــاص بجريدة منبر الشرق مستند رقم ٣ .

(٨٢) جريدة البلاغ ، فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٧ .

(٨٣) الهيئة العامة للاستعلامات ، إدارة الصحافة والمطبوعات ، ســجل رقــم ١٠ لقيــد الصحف المصرح بإصدارها فى مصر تحت مسلسل رقم ٥٠٩

(٨٤) منبر الشرق ، عدد ٢٤٧ ، فى ٢ إبريل ١٩٤٣

(٨٥) منبر الشرق ، ص٣ ، ١٦ إبريل سنة ١٩٤٣ مقال تحت عنوان « الوطنية » بتوقيــع سعيد محمد رمضان كلية حقوق القاهرة .

(٨٦) منبر الشرق ، ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٣ .

(٨٧) المصدر السابق ، ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، افتتاحية بقلم الشــيخ الغايــاتى تحــت عنوان « قضية العرب والعروبة » .

(٨٨) العدد السابق ، عد ٨١٥ ، ٢١ يناير سنة ١٩٥١ .

(٨٩) المصدر السابق ، عدد ٨٥٨ ، فى ١٣ يناير سنة ١٩٥٦ .

(٩٠) المصدر السابق ، فى ٧ مايو ١٩٤٣ ، افتتاحية الجريدة بقلم على الغايـــاتى تحــت عنوان « القانون والعلاقات الدولية » .

(٩١) المصدر السابق ، فى ٧ ديسمبر ١٩٤٣ ، افتتاحية بقلــم الغايــاتى تحــت عنــوان (مؤتمر القاهرة) .

(٩٢) المصدر السابق ٢٢ أكتوبر ١٩٤٣ افتتاحية العدد (ركن الذكريات) بقلم الغايـــاتى في رثاء الشيخ على يوسف .

(٩٣) المصدر السابق فى ٧ ديسمبر ١٩٤٣ افتتاحية بقلم الغاياتى تحت عنوان « مؤتمـــر القاهرة » .

(٩٤) منبر الشرق ، ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٣ رساله فضيلة الشيخ محمـــود شــلتوت إلـــى «على الغاياتى» صاحب الجريدة ملحوظة تولى الشيخ شلتوت مشيخه الأزهر فـــى نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات .

(٩٥) الهيئة العامة للاستعلامات ، سجل رقم (١٠) لقيد الصحف المصرح بإصدارها فـــى مصر تحت رقم ٥٠٩ .

(٤٥) رسالة من محمد ابن مشيش ، عامل الدار البيضاء ، إلى محمد بركاش ٢٨ محرم ١٢٨٢هـ (٣ يوليو ١٨٦٤م) نفس المصدر السابق ونفس الجزء ، وثيقة رقم ٥٥٤ ، ص٣٢٧ .

(٤٦) رسالة من أشعاش إلى محمد بركاش ١٤ ربيع الثانى ١٢٨١هـ (١٦ سبتمبر ١٩٦٤م) ، الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم٦٥٠ ، ص١٠٠ .

(٤٧) انظر الوثيقة المستخدمة فى هامش ٤٦ .

(٤٨) انظر شروط المعاهدة فى عبد الرحمن بن زيدان ، مرجع سابق ، الجزء الخامس ، ص١٩٥.

(٤٩) رسالة من محمد بن العربى الطريس إلى محمد بركاش ١٥ ربيع الثانى ١٢٩٧هـ (٢٢ مارس ١٨٨٠م) ، الوثائق ، الجزء السابع ، وثيقة رقم٩٠٤ ، ص١١٢ .

(٥٠) رسالة من عمارة بن الصادق البخارى إلى محمد بركاش ١٠ شعبان ١٢٩٣هـ (٩أغسطس ١٨٧٨م) ، الوثائق ، الجزء الخامس ، وثيقة رقم٦٥٠ ، ص١٠٠ .

(٥١) عبد الوهاب بن منصور ، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب ، ص٦٥ .

(٥٢) رسالة من محمد بركاش إلى القناصل فى ٢٧ ربيع الأول ١٢٩٦هـ (٢١ مارس ١٨٧٩هـ) ، الوثائق ، الجزء الخامس ، وثيقة رقم٦٦٢ ، ص١٦٠.

(٥٣) أحمد توفيق . المجتمع المغربى فى القرن التاسع عشر اينولتان (١٨٥٠ – ١٩١٢) ، الرباط : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ١٩٨٣ ، ص٣٧٨.

(٥٤) رسالة من المكى بن محمد بن عبد السلام إلى نائب الدولة الأمريكية ، ويليم لويس william Lewis ١١ رجب ١٣٠٤هـ (٦ إبريل ١٨٨٧م) رسائل القناصل بالأمريكيين بالمغرب – ميكروفيلم رقم ١٥ – مجموعة ٥٩ ، الأرشيف القومى الأمريكى ، واشنطن .

(55) Mohammed Kenbib, Op. Cit, p. 218.

(٥٦) لمزيد من المعلومات انظر المعاهدة المغربية الإنجليزية سنة ١٨٥٦ فى عبد الرحمن بن زيدان ، مصدر سابق ، الجزء الخامس ، ص١٩٥ وما بعدها .

(57) Mohammed Kenbib, Op. Cit, p. 220.

(٥٨) انظر سورة البقرة : الآيات ٢٧٨ – ٢٧٩ .

(٥٩) وردت تلك الإحصائية فى رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى محمد بركاش ٢١ شوال ١٢٨٦هـ (٢٤ يناير ١٨٧٠م) ، الوثائق ، الجزء الرابع ، وثيقة رقم٥٧٩ ، ص٣٨٩

(60) Mohammed Kenbib Op. Cit, p. 192.

(61) Turki Ajlan Al. Harithi, Moroccan Policy Towards the United States. A Study in Moroccan Society Under the Impact of Western Penetration. 1830-1912. Ph. D. Thesis U. K. Exeter University, 1987. P. 187.

(٦٢) عبد الرحمن بن زيدان ، مرجع سابق ، الجزء الأول ، ص٤٣٠ .

أيضًا انظر : Mohammed Kenbib, Op. Cit, p. 210.

(63) Turki Ajlan Al. Harithi, Op. Cit., pp. 213-215.

(٦٤) خالد بن الصغير : المغرب وبريطانيا العظمى فى القرن التاسع عشر ١٨٥٦ – ١٨٨٦ ، الرباط : جامعة محمد الخامس ١٩٩٧ ، ص ص٢٦٥ – ٢٦٦ .

(٦٥) انظر هامش رقم ٢٣ .

(٦٦) خالد بن الصغير : ص ص٢٧٠ – ٢٧١ .

الفكر السياسى والممارسة السياسية

عند الأمير عبد القادر الجزائرى

د. إسماعيل زروخى(*)

إن الاهتمام بشخصية الأمير عبد القادر يعد من أهم المسائل التـــى تســتحق البحث والدارسة لأنها تشكل حلقة من حلقات تطور مجتمعنا السياسى فى المجـــالين الفكرى والوطنى . والأمير عبد القادر ليس مجرد شخصية بطولية تاريخية قـــاومت أكبر قوة فى عصرها ، وإنما هو أيضا رجل فكر ، ساهم فى بناء النهضة العربيـــة الحديثة . أن جهوده تجاوزت حدود الجانب الوطنى المحلى إلـــى الإطـــار القومـــى الإسلامى ، فلم يقتصر على التخطيط لمقاومة العدو بالسلاح فقط ، بل كان يســـعى إلى مقاومته بالفكر والقلم ، نعتقد أنه من واجبنا اليـــوم أن نقـــوم بدراســـة أفكـــاره لنضعها فى نسق مترابط يحدد أطرها العامة لكى يبقى لها البقاء والاستمرار ، علـــى أن يتم ذلك من خلال الممارسة السياسية المرتبطة بالمقارنة والتنظيـــم ، لأن هـــذه الممارسة كانت فى أول الأمر مجرد فكرة فى ذهن صاحبها ، ولذا فإنمـــا تتطلـــب قراءة فلسفية وسياسية نظرا لما تحتويه من وسائل وطرق ومناهج علـــى مســـتوى التنظيم والتأسيس .

والمعروف أن المقياس لكل نهضة أو تطور هو مجموعة التنظيمـــات التـــى تشتمل عليها الأمة أو الدولة . وذلك ما أحدثه الأمير فعليا ســـواء علـــى مســـتوى التنظيم أو على مستوى الممارسة . ولذلك يعد الأمير عبد القادر من أوائل المفكرين والساسة العرب المسلمين الذين ساهموا فى بناء وتأسيس النهضة العربية الحديثـــة . وسأركز دراستى على الـناصر الأساسية التى تبدو أساس النهضة السياســـية التـــى كان للأمير عبد القادر دور كبير فيها ، وسيتحدد ذلك ويتضح من خلال مجموعـــة

(*) أستاذ محاضر بجامعة قسنطينة ، ورئيس اللجنة العلمية .

من التساؤلات نطرحها على أنفسنا ، ونحن مضطرين للإجابة عنها وهذه الأسـئلة هى : ألسنا مطالبون بتحديد الأسس التى قامت عليها النهضة السياسية الحديثة ؟ ألـم يستخدم الأمير عبد القادر آلياتها النظرية والتطبيقية ؟ ألم يتمثل الأمير عبد القـادر أسسها المتمثلة فى الديمقراطية والحرية ؟ ألم يحدد المفاهيم التى كانت نمطًا مميـزًا للنهضة الحديثة فيما يتعلق بالوطن والوطنية ؟ ألم يشجع العلم والمعرفة ؟ ألم يطبـق العدل ؟ أليست هذه هى عناصر النهضة الحديثة التى قامت عليـها الـدول لا فـى الوطن العربى بل فى أوربا ؟ ألسنا مطالبون بالتدقيق فى نصـوص الأمـير عبـد القادر التى اشتملت على هذه المعانى ؟

ولدراسة شخصية الأمير عبد القادر دراسة علمية موضوعيـة نجـد أنفسـنا ملزمين بوضعه فى سياقه الزمنى والمكانى لتحديد آفاق فكره السياسى وممارسـته السياسية . والواقع أنه قام بثورة على ما كان سائدًا فى عصره سواء على المسـتوى السياسى المرتبط بالسلطة أو علـى المسـتوى الاجتمـاعى المرتبـط بالطبقـات الاجتماعية . ولذلك فإنه حارب فى عدة جبهات :

حارب المستعمر كما حارب القبائل ذات النفـوذ والسـيطرة فـى العصـر العثمانى ، وكذلك حـارب أيضًا العقليـة التى غلبت على الإنسـان الجزائـرى آنذاك ، والتى لم تكن على استعـداد لتقبل التحديث الذى كان يمارسـه ويدعـو إليـه الأمير عبد القادر ، إنها ثورة كلية شاملة ، أنهكت قـواه فـى المـدة التـى قضـاها حاملاً لواء المقاومة ، فلم يكن عدوه فى ذلك الوقت الاستعمار وحده بـل تلك العناصر مجتمعة .

أولاً : العرب والغرب الأوربى وبداية عصر النهضة :

كان للغرب الأوربى التأثير الكبير على أغلب المفكريـن العـرب المسـلمين الذين حملوا لواء النهضة العربية فى القرن التاسع عشر ، نظـرًا لاحتكاكـهم بـه. ولولا ذلك الاحتكاك لما تبين للعرب واقعهم المتقهقر . ويظهر ذلك بوضـوح فـى

فكر أغلب المصلحين العرب المسلمين الذين برزوا فى بداية عصر النهضة « القرن التاسع عشر » ، من الطهطاوى مرورا بخير الدين التونسى ، وانتهاء بمحمد عبده والأفغانى . ولكن ما تميز به الأمير عبد القادر عن أقرانه من المفكرين العرب المسلمين هو أن فكره التنظيمى التأسيسى كان إبداعا ذاتيا ، لأنه لم يحتك بالغرب الأوربى ولم يتأثر به ، وإنما كان يدافع عن إثبات كيانه وهويته . وما قام به يضاهى التنظيمات التى كانت فى الغرب والتى كان يدعو إليها مفكرو النهضة العربية ، سواء على مستوى التنظير أو الممارسة . وهذه خصوصية لا بد من التركيز عليها فى حياته . ولا يعنى هذا أنه كان يجهل صور الحضارة الغربية وما وصلت إليه علميا وسياسيا ، إذ الواقع أنه كان يشيد ببعض مظاهرها وينتقد أوضاع العرب الذين لم يسايروا تلك الحضارة ، فالروح العلمية الموضوعية التى كانت تميز شخصيته أشادت حتى بالفرنسيين الذين كان يقاومهم باعتبارهم العدو الذى جاء غازيا لوطنه ، فهو يعترف بتقدمهم وتفوقهم فى السياسة وفى مآثرهم على الحكام المغاربة . وقد أشار إليه حين تلقى ردود الفرنسيين على شروط الاستسلام حيث قال أن: « من وفاء كلمتهم وضبط قوانينهم وأنهم ليسوا كسلطان المغرب لعدم معرفة المغاربة بأحوال الرئاسة ومآثر السياسة »(١) .

إن هذا الإقرار والاعتراف من الأمير عبد القادر بسمو الحضارة الفرنسية ليس الهدف منه الخضوع والاستسلام لها ، وإنما ضرورة النظر إليها على أنها حاضر معاش ، يجب النظر فيه وتأليفه مع ما يتوافق مع تراثنا الذى كان يحمل نفس المظاهر ، حتى يمكننا النهوض والتقدم . وكانت هذه وجهة نظر كثير من المفكرين العرب المسلمين فى بداية النهضة العربية ، كخير الدين التونسى الذى كان يرى أنه لا بد من إيجاد توافق بين الحضارة الغربية ومبادئ الشريعة الإسلامية ، لأن التمدن الأوروبى كان كالسيل الجارف لا يقف أمامه شئ إلا استأصلته قوة تياره المتتابع وكان يخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار إلا إذا تنبهت هذه الممالك وحذوا حذوه وجروا مجراه فى التنظيمات الدنيوية

وعندئذ يمكن نجاتهم من الغرق[٢] . ونفس الدعوة دعا إليها الطهطاوى الذى عـاش فى فرنسا وعاين فيها التقدم والتحضر الذى وصلت إليه واستخلص أن : « مخالطة الأجانب « الأغراب » لا سيما إذا كانوا من ذوى الألباب تجلـب للأوطـان مـن المنافع العمومية العجب العجاب »[٣] .

ثانيا : الأمير عبد القادر وتنظيم الدولة :

قامت النهضة الحديثة أساسا على التنظيم السياسـى للدولـة ، فكـانت كـل الدعوات العربية فى بداية النهضة تتجه إليها فى شكل مجموعة من القواعد الفكريـة والتنظيمية ، سواء بالتركيز على ما كانت عليه حضارتهم فى غابر الأزمـان ، أو ما هى عليه الحضارة الغربية فى عصرهم ، غير أن كثيرا من تلك الدعـوات فـى الفكر السياسى العربى سواء على مستوى التنظير أو على مستوى الممارسـة لـم يكتب لها النجاح . ونحن نعتقد أن ذلك يرجع إلى أن القواعد الفكرية التى تبنوها لـم تعبر عن واقعهم العربى الإسلامى بقدر ما عبرت عن واقع المجتمعات الغربيـة ، كما أنها لم ترق إلى مستوى التنظيم الشامل لحياة مجتمعاتهم ، أما الأمير عبد القادر فقد نجح فى تنظيماته لأن فكره نبع من واقع ذاتى بخصوصية متميزة عـن الواقـع الغربى ، فهو لم يسافر إلى الغرب ولم يتمثل حضارته بخصوصيته الخاصة ، بـل أنه كان يكيف كل ما لاحظه وشاهده على مجتمعه بخصوصية مغايرة للخصوصيـة الغربية . وكانت تلك هى عبقريته المتميزة التى استهدفت دفع مجتمعه إلى النهضـة والتقدم وفق تلك الخصوصية . وعلى ذلك يمكننا القول — دون تحيز — أنه الوحيـد فى القرن التاسع عشر الذى استطاع أن يجسد مبادئه الفكرية على مسـتوى الدولـة التى أقامها فكرا وممارسة . وكانت ممارساته بالتالى فى ذلك العصر من أهـم مـا أنجزه العقل السياسى العربى الإسلامى فى القرن التاسع عشر ، خلافـا لمـا كـان متعارفا عليه فى الفكر السياسى العربى السابق ، ذلك أنه أحدث قفزة نوعية متمـيزة فى الفكر وفى الممارسة ، وليس كما يدعى البعض أنه بقى مطوقا بملابسات الفكـر العربى الإسلامى السابق[٤] .

فالدولة التى أقامها الأمير عبد القادر كانت تضاهى الدول المعاصرة لها فـــى الحداثة ، لا فى الوطن العربى فحسب ، بل حتى فى الغرب الأوربـــى نظـــرًا لمـــا اشتملت عليه من مؤسسات تنظيمية وآليات تحديثية من ديمقراطية وعدل ومســاواة ، واستطاعت أن تتجاوز الموروث السياسى للدولة العثمانية التى كانت تحكــم آنــذاك الوطن الجزائرى وأغلب مناطق العالم العربى . فكانت دولته كما يقول عبد البـــاقى الهرماسى ، أكثر تمركزًا وتحركًا وقوة ، وذلك ما لم تكن عليه يومًا دولة الـــترك(٥) . فالدولة القوية الحديثة المركزية التى بناها لم تكن تلك التى تتميز بـــالقوة القهريـــة الاستبدادية المهولة ، التى تمارس القهر والاستبداد على رعاياها ، لا واجب عليـــها إزاءهم ، بل إنها الدولة التى تمتلك تنظيمات وتشريعات للممارســـة السياســـية ، أى أنها عبارة عن أجهزة وأدوات وآليات للعمل السياسى والاجتمـــاعى ، ولـــها مـــن الوظائف وعليها من الواجبات أكثر مما لها من الحقوق ، فالأمير عبد القـــادر لـــم يمارس فى دولته نمط الدولة القهرية الاستبدادية ، هذا النمط من التنظيم السياســـى الذى ساد الدولة العربية الإسلامية فترة زمنية طويلة . وما فعله من تغيـــير علـــى مستوى الممارسة السياسية ، سواء على مستوى المظهر أو المضمون يعـــد بحـــق ثورة فى تاريخ الفكر السياسى الإسلامى .

إن الدولة القهـــرية الاستبدادية من وجهـــة نظر الأمير عبد القـــادر ليســـت الدولة التى تمارس الاستبداد فحسب ، بل حتى التى يصل فيها الحاكم إلـــى الحكـــم عن طريق القوة . وذلك ما أدركه الأمير عبـــد القادر حين قال : « إن أهل ناحيتنـــا هـــذه اتفقوا أشرافًا وعلماء ، وأهـــل الحـــل والعقـــد علـــى ولايتنـــا وملازمـــة بيعتنـــا »(٦) ، أى أنه كان يعتبر أن الدولة الفعليـــة والقوية هى التـــى يصـــل فيـــها الحاكم إلى الحكم بطريقة ديمقراطية برضاء الشـــعب عليه وانتخابـــه أو مبايعتـــه . فهو لا يفرق بين « البيعة » و « الانتخاب » ، لأنه أدرك أن المفهوم السياســـى المتداول فى الممارسات الحديثة هـــو الانتخـــاب. لذلـــك أراد أن يكيـــف المفـــاهيم الإسلامية المتداولة فى الممارسة السياسية الإسلامية بالمفاهيم السياســـية الناشـــئة ،

لأن هذا المبدأ الانتخابى هو الذى أحدث القوة والتقدم بالنسبة للدول الحديثة . لذلك كان حريصا على الامتثال له . وامتثاله له كان نتيجة إدراك مضمونه وتأثيره على الحياة السياسية . وقد استخدم لفظ « انتخبونى » فى وصوله إلى السلطة ، ولم يستخدم لفظ « أمرونى » الذى كان من أهم المفاهيم المتداولة فى الفكر السياسى العربى الإسلامى على مستوى الممارسة . ذلك أنه قال بشأن وصوله إلى الحكم : « انتخبونى لإدارة حكومة بلادنا وقد تعهدوا أن يطيعوا فى السراء والضراء ، وفى الرخاء والشدة ، وأن يقدموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة »(٧) .

والعقد الناشئ من هذه البيعة أو الانتخاب — من وجهة نظر الأمير — ليس خضوعا للحاكم ، وإنما هو خضوع للقانون الذى يوحد بين الحاكم والمحكوم ، وهو منشأ القوة . لذلك كان يقول بعد انتخابه ومبايعته : « ولقبول هذه المسئولية اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا أن عليهم دائما واجب الخضوع فى كل أعمالهم إلى نصوص وتعاليم كتاب الله وإلى الحكم بالعدل فى مختلف مناطقهم »(٨) ، أما ما يلتزم به هو فى هذا العقد فهو الإنصاف ، واعتماد النوازل المشهورة ، والفروع المأثورة من إتباع الكتاب والسنة والإجماع من السلف الصالح(٩) . ألم تكن هذه المسألة السياسية هى بداية الثورة لتأسيس الدول الحديثة . أليس معنى ذلك أن الأمير عبد القادر قد أدرك معنى الاختيار فى الوصول إلى السلطة ؟ ألا يحق لنا من هذا القول اعتباره من أوائل المفكرين والساسة العرب المسلمين الذين أسسوا نظرية الدولة الحديثة مبنية على الديمقراطية؟ ألم تكن الديمقراطية هى اختيار الشعب لحاكمه ؟

وكانت ممارسة السلطة السياسية عنده — رغم هذا الاختيار — تسير بصورة جماعية ، حيث كان يشاركه فيها من هم مؤهلون للمشاركة ، وهم عنده أهل العلم وحدهم فقط . وكان يبعد من حوله الغير مؤهلين والذين كانوا نافذين فى تسيير الدولة العثمانية وهم الأجواد ، حيث كان يقول : « كنت دوما أتحاشى استعمال

الجوادة « الأجواد » واستعين بالعلماء وأهل الدين في تسيير الحكم »[١٠] ، وكان الأمير عبد القادر هنا يميز بين نوعين من حملة المعرفة والعلم . العلماء الذين يحملون المعارف العقلية والعلمية[١١] ، والعلماء الذين يحملون المعارف الشرعية الدينية ، وكلاهما ضروري وجوده والاستعانة به في تسيير شئون الدولة .

إن هذه المعاني الجديدة التي بنى عليها الأمير عبد القادر دولته هي التي جعلت الأمة تتفاعل معه وتذعن له بالطاعة والخضوع . ولا غرابة في ذلك كما يقول عبد الباقي الهرماسي لقائد أعاد لها الثقة والاطمئنان . وبهذه الثقة كان الأمير عبد القادر قد أقام أول قاعدة للتوحيد الوطني على الرغم من قصر فترة تجربته[١٢]. إن هذه الممارسات السياسية هي التي تجعلنا ملزمين بوضع تشريعاتها في أطرها وأنساقها الفكرية الفلسفية والسياسية ، وتنقلها للأجيال على أنها نظام فكري سياسي قبل أن تكون ممارسة سياسية ، وهذا هو الطريق الوحيد الذي يضمن له البقاء والاستمرار .

ثالثا : الأسس السياسية في فكر الأمير :

١ — الوطن والوطنية :

كانت مسألة الوطن والوطنية من أهم المبادئ التي تأسست عليها الدول الحديثة ، وكانا معيارين لكل نهضة سياسية حديثة ، حيث أصبحت معانيهما وممارستهما مغايرة لما كانا يعرفان به . وهذه المسألة لم تكن غائبة عن رجل حمل لواء نهضة مجتمعه وأمته ، أعني بذلك الأمير عبد القادر الذي تطرق إليها ، وإن لم يكن يختلف فيها كثيرا عما ذهب إليه ابن خلدون في دراسته لتركيبة المجتمع العربي الإسلامي البدوية والحضرية ، وغيره من المفكرين العرب المسلمين ، مما يجعلنا نعتقد أن بداية النهضة العربية الحديثة تبدأ من عصره ، وليست من القرن التاسع عشر ، فالأمير عبد القادر استخدم كلمة الوطن مرارا[١٣] ، ولكن الوطن بالمفهوم السياسي الحديث ليس مجرد مكانا للسكن ،

ولا أرضا بدون سكان ، فالوطن بلا سكان لا معنى له ، والسكان بلا انتماء ولا شعور ولا مدافعة عن الوطن لا بقاء لهم . وقد أدرك الأمير عبد القادر تلك الخصوصية الحديثة التي أصبحت تميز الإنسان العربي الحديث على مستوى الهوية ، الذي يجب عليه أن يجسدها فعليا ، فالإنسان العربي إن كان في السابق يفتخر بانتسابه إلى قومه وقبيلته ، فإنه أضحى في الواقع وفي المفهوم الحديث ينتسب إلى وطنه مكان سكناه أكثر مما ينتسب إلى قومه ، وفي ذلك يقول : « إذا انتسب إلى البلد ذهب قومه وتنوسيت أسلافه فصار النسب مجهولا لا باحث على حفظه ولا حامل على تعريفه »[١٤] . وهذه من مستلزمات الصيرورة الاجتماعية التي تبعث التغير الحاصل في تركيبة المجتمع العربي الإسلامي والتي يجب مسايرتها والحياة وفقها ، لأنه كما قال أن العرب : « حين دخلت قرى الشام والعراق ومصر والمغرب وغير ذلك ، فلا تزال تلقى حلبيا أو حمصيا أو كوفيا أو بصريا أو قرطبيا أو باجيا وهو تميمي أو قيسي أو أزدي أو غيره وكثير منهم لا يعرف نسبه »[١٥] . فالانتساب للقبيلة أصبح ليس نموذجا لتركيبة المجتمع الحديث ولا الدولة الحديثة . وصفة المواطنة لا تتحدد عليها ، وإنما تتحدد على كل من ينتمي للوطن مهما كان جنسه ومهما كانت قبيلته . وهذا ما أدى بكثير من الناس في العصر الحديث إلى التباهي والتفاخر بانتسابهم إلى أوطانهم لا بالانتساب إلى أعراقهم . فأصبح كل واحد يمتدح وطنه للخصوصية التي يتميز بها : « فنجد هذا يمدح أرضه بكثرة المياه للاتساع في الشرب والطهارة والنقاوة ونحو ذلك ، وهذا يمدح أرضه بالبعد عن المياه كجود منابتها وصحة هوائها وذهاب الوخم منها ، وهذا يمدح أرضه بالسهولة بجودة المزارع فيها وكثرة ربيعها واتساع خيرها ، وهذا يمدح أرضه لكونها جبالا لتمنعها وعزة أهلها وحسن مائها وهوائها وقناعتها وغير ذلك »[١٦] .

• - إن الانتساب إلى الأرض مهما كانت يتطلب الارتباط بها ، وهي في عين سكانها تمثل ميزة خاصة بهم مهما تكن تضاريسها ، فإنه لا بديل لهم عليها ، ومن ثمة فلا بد عليهم من السعي إلى تحسينها وإغنائها وإثرائها ، وحمايتها والمدافعة

عنها . وإذا كان الأمير عبد القادر قد أدرك هذه الخصوصية وحث أبنـــاء وطنـه على المدافعة عن وطنهم ضد كل غريب دخيل ، فإنـه جسـدها حسـا ومعنـى ، لأنـه لا وطـن آخر يجنحون إليه إلا الوطن الجزائرى . ولذلك أليس مـن حقنـا التساؤل عما فعله فى هذا الشأن : ألم يكن فعلا هذا هو المعنى الوطنى الذى بنيـت عليه الدول الحديثة ؟ ألم تنشأ الوطنية الحديثة من هذا المعنى ؟ ألم يكن الأمير عبـد القادر رائدا فى إعطاء معنى الوطنية التى يرتبط فيها المواطن بوطنه حين قـال : « ومن أسباب المحبة والحنين حب من كان فيها من القرابـة والأحبـاب وتذاكرهـم وتذكارهم عند تذكارها »[١٧] ؟

إن الوطنية التى يقول بها الأمير عبد القـادر والتـى كـانت مـيزة الفكـر السـياسى الحديث ، هى التى تتحدد فيها العلاقات الاجتماعية من تعاون ومحبـة ، على أساس الحياة المشتركة فى الوطن الواحد ، لا على أساس التفـاضل الجنسـى والعرقى ، وبهذه الممارسة والرؤية والمفهوم استطاع الأمير عبد القادر أن يؤلـف بين كل سكان الجزائر ، ويحملهم على لواء المقاومة المشتركة للدفاع عن وطنـهم . وهذه هى قمة الوطنية فى مفهومها الحديث والمعاصر ، وهى مخالفة حتى للمفـهوم الأوروبى الحديث الذى يرى أن الوطنيـة هى التى نجحـت فـى تكويـن كيـان سـياسى وحكومة مستقلة[١٨] . وهذا ما فعله الأمير حتـى قبـل تكويـن الكيـان السـياسى المستقل ، لأنه كان يعتبر أن العرب أسبق من الأوروبيين فى الارتبـاط بعضهم بالبعض ، وبينهم وبين أوطانهم . وهذه من أخلاقياتهم وشيمهم الباعثة علـى الألفة والمحبة . وهى طبيعية فيهم يجب فقط تذكيرهم بهـا لأنهم ابتعدوا عنهـا . فى ذلك قـال : « فالأمة العربية أكثر وأشد من جميع الأمم فى ذلك لأنهـم فـى جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية ، وأخلاق مرضيـة ، وأفعـال كريمـة ، وهمـم عظيمـة ، وعقول راجحة وآراء ناجحة ، وشرف صميم ، وأنفة مـن كـل خلـق ذميم، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة »[١٩] ، أى أنـه إذا كانت ، هذه هى معانى الوطنية ، فإن العرب عرفوها قبل أن يعرفها الغربيـون

فى حضارتهم المعاصرة ، ولكن إن ابتعد العرب عنها فيجب السعى لاستردادها ، لأنها شيمة من شيمهم الطبيعية ، فكل حركة نحوها سهلة التحقيق والممارسة .

٢ — العدل والمساواة :

أجمعت كل الآراء والأفكار التى أسهمت فى تأسيس النهضة العربية على أن النهضة فى أوروبا لم تقم إلا على أساس العدل والمساواة . وإذا كان العرب يريدون مسايرة تلك النهضة فلا بد من أن يتخذوا من هذه الأسس ركيزة لهم .

وكان الأمير عبد القادر من أوائل العرب المسلمين ليس القائلين بهذا الرأى فقط ، بل والممارسين له ، ذلك أن شعاره السياسى فى تلك الممارسة هو أن جميع المواطنين سواسية ، وأن القانون الذى يخضع له الجميع هو ما أتى به القرآن الكريم ، حيث كان يقول : « لن آخذ غير القرآن . لن يكون مرشدى غير تعاليم القرآن . والقرآن وحده ، فلو أن أخى الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات »[٢٠] . إنها المساواة فى أكمل صورها ، وإنه العدل فى أقصى حدوده ، وكان فى تجسيده لهذا المبدأ يعتمد على القضاة واختيار العدول منهم[٢١] .

وكان هؤلاء القضاة يفصلون حتى فى القضايا المتعلقة بالجيش ، أو بين الرعايا ومسئوليهم . وكان ممثل الأمير يجوب الأسواق وينادى من ظلم منكم من طرف الأغا فليتقدم بشكواه إلى الأمير . وبهذه الممارسة تكونت الوحدة والمساواة لا بين الرعايا بعضهم وبعض فحسب ، بل بين أفراد القبيلة ورئيسها[٢٢] .

إن سياسة المساواة التى تشبع بها الأمير ومارسها إلى درجة التقشف فى جميع مظاهر حياته هى التى أكسبته ولاء رعاياه وطاعتهم ، لأنها – كما بينا وكما – كان يرى ، قريبة من وجدان رعاياه ، وهى طبيعية فيهم ، ولذلك كان يقول عن نفسه : إننى أول من مارست التقشف ، وأول من ضرب المثل بلبس ثياب بسيطة بساطة ثياب أكثر خدمى تواضعا . وهذا التساوى فى اللباس لم يكن كما

يعتقد البعض تمويها للعدو من أجل تفادى ضرباته ، وإنما هو كما أجاب بنفسه وقال : « ما فعلت ذلك خوفا من تميز نفسى أمام ضربات قنابل العدو ، ولكننى فعلته لأننى كنت أرغب أن لا أفرض على العرب إلا ما أفرضه على نفسى »(٢٣).
ألم تبن الدول الحديثة على هذه المساواة وهذا العدل ؟ ألم يدرك الأمير بأن هذه المقومات السياسية هى التى ترتقى بالأمم نحو التقدم والإزدهار لذلك لا بد من استيعابها ؟ ألم تكن هذه الأفكار على زمانه فيها من الجرأة ما لم يتصوره العقل ، خصوصا فى مجتمع مثل مجتمعه عاش فى ظل الظلم والقهر والتفاوت بين الناس حتى غدت هذه الانحرافات هى أركان الحياة الفعلية ، بينما غدا ما يخالفها صورة غير طبيعية ، لقد صار هذا الوضع هو السائد حتى على مستوى علماء الأمة الذين كما يقول عبد الله شريط عمل الكثير منهم على إشاعة مفاهيم معاكسة تزلفا للحكام فحرف بعضهم فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم وأخرجوها مخالفين روح الإسلام ذاته(٢٤) .

وكان الأمير عبد القادر يرى أنه حتى النظام السياسى الذى تجسدت فيه هذه المظاهر السياسية الحديثة العادلة ، أى النظام « الجمهورى » فإنه ليس غريبا عن الإنسان العربى ، لأن معناه عربيا وعرفته العرب قبل الأوروبيين وكان هو أساس السياسة العادلة سواء عندنا أو عندهم ، لأن فيه يستوى : « الرئيس والمرؤوس ، الشريف والمشروف ، الرفيع والوضيع ، ليجزى كل واحد على قانون الآخر . ولا يختص بأحكام مفضول على فاضل ولا يقع التصرف على الأدنى لما له قلة دون الأعلى ، ولا يتجبر بالتكبر عالى منزلة على سافل . ويجرى حكم شرع الإنصاف على من تجاوزوا الحد المشروع كيف كان حسبا ونسبا ، ولأن التفرقة بين الناس فى الحكم هو سبب هلاك كثير »(٢٥) ، فمن ابتعد عن هذا الحكم يكون مآله الهلاك والاندثار ، ولم تصل الأمم الأوروبية إلى تلك العظمة الحضارية إلا باستنادها على هذا الحكم ، وفى هذا يقتدى الأمير عبد القادر ، بما أشار إليه الرسول ﷺ حين قال: «.إنما هلك من كان قبلكم ، إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا

سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ». ومن هنا يتضح أن هذا الحكم ليس من ابتكار الأوروبيين — وخصوصا الفرنسيين — وإنما يرجع إليهم الفضل فى أنهم طبقوه عمليا فى تسيير حياتهم السياسية بمقتضاه ، وفى هذا الشأن يقول : « وبهذا تعلم أن الجنس الفرنسوى فاق على جميع الأجناس الرومية والنصرانية بكونه يستعمل الفائدة وينقلها أينما وجدها ، ولا يقول هذه ليست لغتى أو ليست عادة بلدى أو وطنى ، فكأنهم سمعوا قول نبينا ﷺ للمؤمنين « الحكمة ضالة المؤمن يطلبها حيث يجدها » »[٢٦] ، أليست هذه عبقرية متميزة للأمير عبد القادر ، أدرك من خلالها أسرار قوة الدول وقوة سياستها . وكان يدعو إلى الأخذ بمظاهرها سواء فى السير على السنن السياسية التى ساروا عليها ، أو أخذها منهم كما أخذوها عنا ، وهذا امتثالا لقول رسول ﷺ السالف الذكر .

ولا أدعى هنا أننى أحطت بكل فكر الأمير عبد القادر السياسى ، لأن الرجل كالجبل الشامخ الذى يحتوى على كنوز متعددة ومجهولة ومن يستطلع خباياه يكتشف فى كل يوم معدنا جديدا ثمينا وما زال فكر الأمير يحتوى على كثير من الآراء والأفكار المجهولة عنا ، ولكن باستعدادنا للبحث فيها والتنقيب عنها يمكننا إماطة اللثام عنها ، وهذا ما نحاول القيام به ، وبالله التوفيق .

الهوامش

(١) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، سيرة ذاتية كتبها فى السجن سنة ١٨٤٩م ، تحقيق محمد الصغير بنانى ، محفوظ سماتى ، محمد الصالح الجون ، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٩٤م ، ص١٣٠ .

(٢) خير الدين التونسى ، أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك ، تحقيق المنصف الشنوفى ، تونس ، ط٢ ، ١٩٧٢م ، ص١٦٦ .

(٣) الطهطاوى ، الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ١٩٧٣م جـ١ ، ٣٩٨ .

(٤) محمد الصغير بنانى ، معالم شخصية الأمير عبد القادر من خلال شعره ، معالم فكره السياسى ، الثقافة ، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر ، العدد ٩٦ ، نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٦م ، ص ١٣٩ .

(٥) محمد عبد الباقى الهرماسى ، المجتمع والدولة فى المغرب العربى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م ، ص٣٠ .

(٦) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص٩٦ .

(٧) شارل هنرى تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ترجمه وعلق عليه أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط٢ ، ١٩٨٢م ، ص١٥٦ .

(٨) المرجع نفسه ، ص٥٩ .

(٩) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ٩٧ .

(١٠) بسام العسلى ، الأمير عبد القادر ، دار النفائس ، ١٩٨٠م ، ص٣٩ .

(١١) يعتبر الأمير عبد القادر أن العقل من أشرف الخواص التى تميز الإنسان عن الحيوان ، وخاصية الشئ هى كماله ، وبهذا العقل يستطيع الإنسان أن يدرك العلوم ويعرف طريق الحق بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك ، ويتيقن حقائق الأمور ويراها منكشفة ، فإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، للمزيد من الإطلاع

على ما كتبه الأمير عبد القادر حول العقل يرجى الإطلاع على كتابه : المقـــراض الحاد ، لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالبـــاطل والإلحـــاد ، الطاســيلى للنشــر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٩م ، ص٩ وما بعدها .

(١٢) محمد عبد الباقى الهرماسى ، المجتمع والدولة فى المغرب العربى ، ص٣٠ .

(١٣) عبد الحميد بن هدوقة ، الأمير عبد القادر والمجابهة اللامتكافئة ، الثقافة ، العـــدد٧٥، ماى – جوان ١٩٨٣م ، ص١٩٧ .

(١٤) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص٢١٢ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص٢١٢ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص٢١٣ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص٢١٢ .

(١٨) عبد الله شريط ، مشكلة الحكم الإسلامى فى دولة الأمير ونظريـــة ابـن بـــاديس ، الثقافة ، العدد ٧٥ ، ص٢٣٩ .

(١٩) الأمير عبد القادر ، المقراض الحاد ، ص٢٤٣ .

(٢٠) شارل هنرى تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ص٥٧ ، ٥٨ .

(٢١) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص٩٦

(٢٢) عبد الله شريط ، مشكلة الحكم الإسلامى فى دولة الأمير ونظريـــة ابـن بـــاديس ، ص٢٤٠ .

(٢٣) شارل هنرى تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ص١٥٤ .

(٢٤) عبد الله شريط ، مشكلة الحكم الإسلامى فى دولة الأمير ونظريـــة ابـن بـــاديس ، ص٢٤١ .

(٢٥) الأمير عبد القادر ، المذكرات ، ص١٣٦ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص١٣٦ .

الصحوة العربية فى القرن العشرين

الثورة المغربية ١٩٤٥ - ١٩٥٦

د. مدحت محمد عبد النعيم(*)

شهد العالم العربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين صحوة بدأت فى شكل حركات سياسية هادئة ، وذلك نتيجة لتدهور الإقطاع كنظام متحكم فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية ، وحلول النظام الرأسمالى محل المراكز الاقتصادية المبعثرة التى تمثل النظام الإقطاعى ، إلى جانب تطور طرق المواصلات وتحقيق التقدم العلمى فى كافة الميادين المختلفة ، هذا بالإضافة إلى ظهور الطبقة المتوسطة وهى التى أصطلح فى المغرب على تسميتها الطبقة البرجوازية وبها قطاع ديناميكى هو قطاع المثقفين المسمى فى الغرب Inteiligenria وهذا القطاع بالذات هو الذى سير الحركة القومية الوطنية وقاد كافة الطبقات ورائه .

والطبقة المتوسطة هذه (التى كانت تشتغل بالتجارة عادة) تتجه بحكم مصالحها الشخصية نحو محاربة الإقطاع ومحاولة القضاء عليه ، وتخليص السوق الوطنى من نير الاستعمار لذلك فإنها تسعى إلى قيام حكم مركزى يستهدف التخلص من الإقطاع والاستعمار وفى ضوء هذه الاعتبارات فإن الحركات الوطنية فى الشرق الأوسط استهدفت تحقيق مبادئ أربع هى :

١ - الحرية الفردية .

٢ - النظام الدستورى .

٣ - هدم الإقطاع .

٤ - التحرر الوطنى من السيطرة الأجنبية .

---

* مدرس التاريخ الحديث - كلية التربية بالإسماعيلية - جامعة قناة السويس .

وهكذا اتجهت القوى الوطنية فى الشرق الأوسط قبل أواخر القرن التاسع عشر إلى الدين والتقاليد والعصبية الأسرية ، لتطوير النظام الاجتماعى والاقتصادى فى اتجاه الرأسمالية وبقدر نجاحها فى ذلك تباينت مناطق الشرق الأوسط قوة وضعفًا فى مسيرتها الوطنية والقومية ، فهى أظهر ما تكون فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فى مصر وبلاد الشام ، أما فى نجد واليمن وشمال أفريقية فقد اتخذت المقاومة للسيطرة الأجنبية شكل حركات دينية مثل الحركة الوهابية فى نجد والأمامية الزيدية فى اليمن والسنوسية فى شمال أفريقية والإدريسية فى عسير[١] .

وقد تميزت المجتمعات العربية بأنها لم تكن مجتمعات عربية خالصة الدماء، وإنما كانت إسلامية بالدرجة الأولى ، فقد تواجدت فيها إلى جانب العناصر العربية عناصر أخرى إسلامية غير عربية الأصول مثل الشراكسة والأتراك والألبان أو الأرناؤد وغيرهم وهذه العناصر كانت تعتبر الوطن العربى وطنها الأول ، ففى مصر كان محمد على ألبانيا ، لكنه هو الذى وضع حجر الأساس فى بناء مصر الحديثة ، وقام خلفاؤه باستصدار الفرمانات التى استخلصت استقلال مصر الداخلى من النفوذ العثمانى ، وكان خير الدين باشا فى تونس مملوكا من أصل شركسى ومع ذلك فقد كان مصلحا دستوريا كبيرا .

ويبدو أن أهم قوى المقاومة التى واجهت الاستعمار فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فى الوطن العربى هى القبائل التى كانت تشكل القوة الاجتماعية الأولى الرئيسية فى معظم أجزاء ذلك الوطن، وقد تميزت بالروح العسكرية والصلابة وفى الوقت نفسه كانت تفتقر للروح النظامية التى تتميز بها المجتمعات الراقية الحديثة ، كما كانت تسيطر عليها الروح القبلية الانقسامية التى شتتت جهودها وأوقعتها فى منازعات عنيفة وحروب دموية لم يستفد منها سوى الاستعمار . وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكن إدراك النتائج التى حققها المناضلون فى سبيل حرية بلادهم ، عبد القادر الجزائرى فى نضاله ضد الفرنسيين ، إذ كان

يتعرض لمعارضه بعض القبائل ويضطر إلى خوض الحروب ضدها ، كما يمكـــن فهم الاتفاقيات التى عقدها الفرنسيون مع بعض القبائل مثل قبيلتى الدوائر والزمالـــة فى ١٦/٦/١٨٣٥م ، وبمقتضاها أصبح أفراد القبيلتين رعايا فرنسيين(٢) .

ومن ناحية أخـــرى ، فإن الـــدين والطرق الصوفية لعبـًا دورًا هامـًـــا فـــى مقاومة القبائل للمستعمرين ، كما حدث فى ليبيا حيث لعبت الدعوة السنوســـية دورًا رئيسيًا فى لم شمل القبائل وتأسيس الزوايا السنوسية التى تصـــــدت للمســتعمرين الإيطاليين ، كذلك لعبت الاباضية دورًا فى توحيد القبائل الأماميـــة فـــى عمـــان الداخلية ، كما لعبت الدعوة الوهـــابية دورًا هامًا فى توحيد القبائل العربية فى نجـــد حتى جمعت أراضى الجزيرة العربية كلها فى وحدة متكاتفة .

وفى بعض الحالات لعبت الطرق الصوفية دورًا مضادًا ؛ فإذا كانت الطريقـــة القادرية قد ساعدت الأمير عبد القادر الجزائرى على قيام دولة فإن الطريقة الطيبيـــة والتيجانية وقفتا موقف المعارضة من حركته .

وفى البلاد الزراعية كان الفلاحون يمثلون عنصر المقاومـــة الرئيســـى فـــى الحركات الوطنية ، كما هو الحال فى مصر أثناء الحملة الفرنسية والثورة العرابيـــة وثورة ١٩١٩م .

ومهما يكن من أمر فإن المقاومة العربية للاستعمار الأوربى مرت بمرحلتين، الأولى مرحلة المقاومة للغزوة الاستعمارية ، والثانية مرحلة التخلص مـــن الحكـــم الاستعمارى وانتزاع الاستقلال من أنيابه ، ولكل مرحلة مـــن هـــاتين المرحلتيـــن سماتها الخاصة ، فإذا كانت المرحلة الأولى قد منيت بالفشل وترتـــب علـــى ذلـــك سقوط العالم العربى تحت وطأة الاستعمار ، فإن الثانية ترتب عليها الاستقلال حتـــى أطلق عليها اسم الحركة الاستقلالية أو حركة التحـــرر الوطنـــى وحققـــت النجـــاح واستطاعت الشعوب العربية المناضلة أن تســـترد حريتـــها وإرادتـــها واســـتقلالها وثرواتها(٣) ، ومن هذه الحركات الحركة الاستقلالية التى شـــهدها المغـــرب ضـــد

الحماية الفرنسية والأسبانية وقد بدأت هذه الحركة عام ١٩٤٥ وانتهت عام ١٩٥٦ باستقلال المغرب وتوحيده فى دولة واحدة ذات سيادة واحدة تحت حكم الملك « محمد الخامس » وهذه الحركة هى موضوع دراستنا .

*   *   *

الصحوة العربية المغربية على فرنسا وأسبانيا ١٩٤٥ – ١٩٥٦ :

يمثل المغرب الدولة العربية الوحيدة التى لم تخضع للحكم العثمانى ، فظل حتى منتصف القرن التاسع عشر يمثل دولة قوية مهابة ، تتعامل مع الدولة العثمانية معاملة الند للند ، بل أن المغرب أخذ يشجع جميع الحركات الوطنية المناوئة للأتراك فى الجزائر ، وعندما عجز الأتراك عن حماية الجزائر من الغزو الفرنسى، تولت الدولة المغربية مساعدة المقاومة الجزائرية فى تلمسان ، واستمر تأييدها لهذه المقاومة على النحو الذى أدى إلى وقوع الحرب بين المغرب وفرنسا، وفى هذه الحرب منيت القوات المغربية التى كان يساعدها قوات الأمير عبد القادر والقبائل الأخرى ، بهزيمة ساحقة فى معركة وادى أيسلى فى ١٤ أغسطس ١٨٤٤، وترتب على ذلك قبول المغرب الارتباط بفرنسا باتفاقيتين إحداهما لتخطيط الحد وقد عقدت فى يونيو ١٨٤٥ ، وراعت فيها فرنسا أن تهيئ لها سبيل التدخل فى المغرب كيفما شاءت ، والثانية تتعلق بالتجارة ، وتنص على أن تختص فرنسا بالمكانة الأولى فى تجارة المغرب .

والواقع أن معركة اسلى تشكل نقطة تحول مصيرى فى الوضع المغربى إذ أدت إلى زيادة التنافس الاستعمارى على المغرب ، وهو التنافس الذى اتخذ شكلين مميزين :

الأول : فرض الامتيازات الأجنبية .

والثانى : اشتداد الضغط الاستعمارى على المغرب وخاصة من جانب أسبانيا .

ففى يوم ٢١ مايو ١٩١١ دخلت القوات الفرنسية العاصمة المغربية . وفـــى شهر يونيو دخلت مكناس ، وذلك لإخماد ثورة ١٩١١ ، وقد فتح هـــذا الانتصـــار شهية الدول الاستعمارية لاقتسام المغرب ، وقد حاولت أسبانيا مسايرة الفرنسيين فى التوسع فى منطقة نفوذها ، ففى يونيو ١٩١١ احتلت مدينتـــى القصـــر والعرائـــش بالإضافة إلى مدينتى مليلة وسبته وكانت تحتلهما منذ القرن الخامس عشر .

وفى ٣٠ مارس ١٩١٢ تم توقيع معاهدة الحماية بين فرنسا والمولـــى عبـــد الحفيظ سلطان المغرب ، وبمقتضاها وافق على أن تقوم فرنسا بـــاحتلال أى جـــزء من المغرب ، وفى ٢٧ نوفمبر عام ١٩١٢ وقعت اتفاقية بين فرنسا وأسبانيا نظمـــت أسبانيا بمقتضاها إدارة النفوذ الأسبانى بالمغرب ، فجعلتها تابعة لســـيادة الســـلطان الموجود بمنطقة النفوذ الفرنسية ، والتى يطلق عليها اسم المنطقة السلطانية ، ويعين خليفة له فى تطوان يخضع لإشراف الإدارة الإسبانية ، وأطلق على هـــذه المنطقـــة المنطقة الخليفية ، وهى منطقة الحماية الأسبانية ، حاكمها يمارس جميـــع ســـلطات السلطان بموجب تفويض عام ، وتستقل الإدارة الأسبانية بإدخال التنظيمات الإداريـــة التى تراها[٤] .

وبموجب هذه الاتفاقية ظلت المنطقة الســـلطانية[٥] منطقـــة حمايـــة فرنســـية والمنطقة الخليفية[٦] منطقة حماية أسبانية ، وهكذا استطاعت أسبانيا السيطرة علـــى المنطقة الخليفية ما عدا تطوان التى أصبحت فيما بعد عاصمة للمنطقة .

فى ٧ مايو ١٩٤٥ انتهت الحرب العالميـــة الثانيـــة بانـــهيار دول المحـــور واستسلام ألمانيا وفى ١٤ أغسطس استسلمت اليابان بلا قيد ولا شـــرط ، بعـــد أن ألقيت الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية الأولى على مدينـــة « هيروشـــيما » فى ٦ أغسطس ، وألقيت القنبلة الذرية الثانية علـــى « ناجـــازاكى » فـــى يـــوم ٨ أغسطس وانتهت بذلك الحرب العالمية الثانية ، وتم تقسيم ألمانيا بموجب اتفاقيـــة « بوتسدام » وكان – لنهاية الحرب بهذا الوضع آثاراً كبيرة على المغرب بمنطقتيـــه ، وعلى الدولتين الحاميتين أسبانيا وفرنسا[٧] .

ذلك أن أسبانيا تعرضت فى فترة ما بعد الحرب لبعض المشاكل السياسية ، من أهمها :

١ - محاولة « فرانكو » تعديل نظام الحكم فى الداخل .

٢ - فشل محاولة فرانكو لإعادة الملكية لأسبانيا ، لكى تقف سدًا منيعًا ضد آمال الجمهوريين فى العودة إلى البلاد .

٣ - تحركات الجمهوريين ضد حكومة فرانكو ومناصرة دول الحلفاء لهم والعمل على إحلالهم محل حكومة فرانكو فى أسبانيا .

٤ - موقف الحلفاء العدائى ضد أسبانيا ، وخاصة بعد أن طالبت فرنسا فرانكو بالتنازل عن الحكم فوراً ، وإفساح الطريق لحكومة أخرى فى أسبانيا تستطيع أن تتعامل مع العالم بعد الحرب(٨) .

وكان رد الفعل الفورى فى المغرب أثر انهيار ألمانيا فى الحرب هو الوقوف موقف العداء ضد مواطنى دول المحور فى المنطقة وذلك بتوقيع الحجز على كافة أملاك الأجانب التابعين للمحور أو التابعين للدول التى تسيطر عليها(٩) ، وذلك عن طريق منع هؤلاء الأجانب من أى تصرف فى هذه الممتلكات(١٠) ، كما أخضعت الإدارة العامة للحماية فى المنطقة الخليفية بالمغرب جميع الهيئات الأجنبية التابعة لدول المحور المحتجزة أملاكها وأموالها لنظام تفتيش ، ومراقبة طبقًا لمراسيم خاصة تقررها المندوبية السامية الأسبانية .

وهكذا بدأت المنطقة الخليفية فى تغيير معاملتها بطريقة جذرية لمواطنى وهيئات ومؤسسات دول المحور بالمنطقة ، أو حتى الدول التى تتعامل معها ، لكى تحاول أسبانيا أن تمحى شبهة التعاون مع دول المحور أثناء سنوات الحرب ، ولكن الحلفاء لم ينسوا إطلاقًا ذلك التعاون وعاملوا الدول الحامية للمغرب بطريقة عدائية كبيرة .

ولم تقف المنطقة الخليفية فى تلك الفترة موقفا عدائيـــا ضـــد دول المحـــور فحسب ، بل أن الحركة الوطنية بها وقفت ضد الدولتين الحاميتين أيضا ، وحـــاولت الأحزاب القيام بهذه المهمة .

أما فرنسا وهى الدولة الحامية الأولى فقد خرجت من الحرب العالمية الثانيـــة محطمة مهزومة ، وحاول الوطنيون فى المنطقة السلطانية تنظيم صفوفهم لإمكـــان مواجهة هذا الكيان الضعيف ، ومحاولة انتهاز فرصة هذا الضعف لتحقيق آمالـــهم الكبيرة فى الاستقلال بزعامة حزب الاستقلال[١١] .

وفى ذلك الوقت تقاربت أهداف الملك محمد الخامس وأهداف الوطنيين ، كمـا بدأت العلاقات بين القصر والإقامة العامة تسوء كثيرا عما كانت عليه ، وقد تـأزمت العلاقات بين السلطات والمقيم العام (جبريل بيو) لزجه بعدد كبير من الوطنييـــن فى السجون وللوسائل التعسفية التى أغضبت حكومة المخزن[١٢] .

وحاولت فرنسا أن تقوم بتهدئة الموقف فى المغرب على أساس الوصول إلـــى تفاهم مع العناصر الوطنية ، فقامت فى مارس ١٩٤٦ باختيار (أريـــك لابســـون) مقيما عاما للعمل على حل القضايا الملحة[١٣] .

وعلى أثر تعيين المقيم العام الجديد (أريك لاسون) قدم إليه حزب الاسـتقلال مذكرة تضمنت بعض المطالب ، وطلب الحزب العمل ضمن « إطار القانون»، كمـا التمست المذكرة الإفراج عن « الفاسى » و« الوزانى » اللذين كانا معتقلين منذ سنة ١٩٣٧م ، و« بلفرج » الذى اعتقل فى ١٩٤٤ وفى أوائل شهر يوليـــو ١٩٤٦تــم الإفراج عن هؤلاء المعتقلين طبقا لسياسة التقارب والتهدئة التى حاول المقيم العـــام الجديد تنفيذها مع الوطنيين[١٤] .

وبعودة هؤلاء الزعماء إلى المغرب تفجرت من جديد حدة الحركة الوطنيـــة التى كانت تهدف أساسًا إلى الاستقلال عن الدولتين الحاميتين (فرنسا وأســـبانيا) . وعندما عاد « علال الفاسى » إلى المغرب أنضم إلى حزب الاســـتقلال[١٥] ، وقـــد توسع حزب الاستقلال فى عمله سريعًا فى عدة جهات وفتح مكاتب إعلام فى كـــل

من باريس ولندن والقاهرة وطنجة ودمشق ، ثم أرسل البعثات إلـــى بـاريس فـــى محاولة لتعريف القضية المغربية للشعب الفرنســـى والحكومـــة الفرنسـية تعريفًـا مباشرًا، والعمل على توصيل نداء الحزب للاستقلال للمناطق القبليـــة فـــى جبـال الأطلس الأوسط ،ثم قامت الحركة الكشفية التى يتزعمها « إدريس المحمدى » فـــى المنطقة الخليفية بمجهودات سرية فى سبيل الاستقلال ، كما أسست منظمـــة جديـدة للشباب فى الدار البيضاء ، وأنشأ الحزب أيضًا أندية رياضية فـــى مدينـــة فـاس ، وأصبحت هذه الأندية مراكز شعبية للحركة الوطنية كما أنشأ الحزب عدة مـــدارس جديدة خلال عام ١٩٤٩ لتعليم الدين الإسلامى لتعمل فى نفـــس الوقـت كمراكـز لإعداد الإطارات اللازمة للحزب ، وضم أعداد جدد به(١٦) .

ومن المؤكد أن هذا التوسع الكبير فى النشاط الوطنى لحزب الاســتقلال قـد اقنع المغاربة بأن الاستقلال هو المطلب الوحيد الملح الذى يمكـــن أن يطـالب بـــه المستعمر فى تلك الفترة ، قبل أى تصرف آخر ، أو أى إصلاحات أخرى، واعتـبر الوطنيون أن كل إصلاح هو جزئى ومسكن ، وأن الإصلاح الأساسى هو الاسـتقلال الكامل .

أما فى المنطقة الخليفية (منطقة الحماية الأسبانية بالمغرب) فقد بدأ ازدهـــار الحركة الوطنية فيها ، فى ظل وجود المقيم العام الأسبانى الجديد (فاريلا) الــــذى بدأ علاقاته مع الوطنيين فى المنطقة بداية استطاعوا أن يستشعروا معها بأنـــه مـــن الممكن أن يعمل معهم ذلك المقيم العام فى سبيل تحقيق الأمانى المغربية المشـروعة وأولها الاستقلال(١٧) .

وقد حاول الحسن بن المهدى خليفة المنطقة الخليفية أن يوجه وجه المنطقـــة فى ذلك الدور إلى العالم العربى ، ويقـــوى علاقاته بكافة الدول ، كما حاول الحسن أن يخـــدم القضـــية المغربية فى قلب أسبانيا ذاتهـــا ، فذهب إلى أسبانيا فـــى عـــام ١٩٤٦ ، محاولاً الاتصال بحكومة مدريد لإجراء بعض التعديلات الجوهرية علـــى السياسة التى تنتهجها أسبانيا فى هجرة المستعمرين الأسبان ، وذلك بعـــد أن فتـح

المقيم العـــام الأسبانى (فاريلا) باب الهجــرة على مصــرعه . على أن هـــــذه التغيرات قوبلــت بالرفــض من قبــــل فرانكــــو ، الــذى كـــان يــــــرى أن بقــــــاؤه فى المغــرب لا يتأتى إلا بالأغلبية الأسبانية الموالية لأسبانيا(١٨) .

ولم تستكن المنطقة الخليفية لتصرفات المقيم العام الأسبانى فاريلا فاســـتأنف حزب الإصلاح نشاطه فى المنطقة الخليفية تحت قيادة عبد الخالق الطريسى ، الـذى طالب فى منشورات وزعها الحزب على الأهالى بإيقاف الهجرات الخارجيــة إلــى المنطقة ، والكف عن نزع ملكية الأراضى ، وإلغاء المساعدات المالية التى تصرف من ميزانية المغرب على الكنيسة الكاثوليكية الفرنســية ، كمــا طــالب فـــى هــذه المنشورات بإطلاق الحريات وتكوين حكومة مغربية وطنية مؤقتة تعمـــل لإعــداد المغرب للاستقلال .

وفى أواخر أغسطس ١٩٤٦ ، وفى أثناء احتفال البلاد بعيد الفطر المبــارك ، تظاهر حوالى ألفى مغربى فى مدينة تطوان مطالبين بمنع هجرة الأسبان للمنطقـــة حتى لا تفقد هويتها ، هذا بالإضافة إلى المطالبة باستقلال المغرب ورحيــل فرنســا وأسبانيا عن الأراضى المغربية ، مما تترتب عليه قيام القوات الأسبانية بـــالتصدى لهذه المظاهرة ، واستعمال القوة والعنف ضد المتظاهرين ، فأصيب منهم المئـــات ، وقتل منهم العشرات ، كما اعتقل حوالى مائة وخمسين مواطنا وتم ترحيلـــهم إلــى السجن العمومى ، وشكلت لهم محكمة عسكرية ، وقد احتجت الحكومـــة الخليفيــة على هذا التصرف وأنذرت الإقامة العامة الأسبانية بعواقب هذه التصرفات(١٩) .

كذلك امتدت الاضطرابات والمظاهرات إلى مدينة تطوان وطنجة(٢٠) محتجين على عدم مساواة الأجور بين المغاربة والأوربيين وخاصة رجال الشرطة ، وكذلــك سوء معاملة النساء المغربيات ، وحالة البطالة المتزايدة ، بسبب الهجرة الخارجيــة ، وأتساع نطاق البغاء فى البلاد .

واتحد حزب الإصلاح مــع حــزب الاســتقلال وطــالبوا بنفــس مطــالب المتظاهرين، كما طالبوا فى بيانات وزعوها على المتظــاهرين باســتقلال البــلاد ووحدتها ، وكان رد الفعل الأسبانى فوريًا وعنيفًا إذ واجهوا المتظــاهرين بالســلاح والقنابل المسيلة للدموع ، وأصيب وجرح وقتل العديد من الأهالى ، كما اســتعدت القوات البريطانية لمواجهة الظروف الطارئة ، وحاولت القوات الأسبانية إجــهاض هذه الانتفاضة والسيطرة على الموقف المتأزم ، عن طريق التفرقة بيــن شــطرى المغرب ، فأبلغت الخليفة بنيتها على إنشــاء وزارات جديــدة للماليــة والزراعــة والتعليم، بقصد دعم سياستها فى وجه نفوذ الملك محمد الخامس المــتزايد ، ولــهذا ثارت الأحزاب السياسية لهذا التصرف الذى ينم عن تفرقة وتمزيق وحدة المغرب ، فأصدر حزب الإصلاح بيانًا أكد فيه وحدة المغرب بمنطقتيها كما أكــد فيــه علــى إصراره على استقلال المغرب وعدم استعداد الحزب للدخول فى هذه الوزارات .

وفى الوقت نفسه أصدر حزب الاستقلال بيانًا تضمن نفس المعنى وأكد علــى تضامن واتحاد الوطنيين المغاربة فى الشــمال والجنــوب فــى مطالبــهما وحــذر المواطنين من سياسة أسبانيا الخادعة[٢١] .

وكان أن حاولت السلطات الأسبانية الالتجاء إلى القــوة فــى مقاومــة هــذه الاضطرابات ، وشددت الرقابة على الصحف ، وأغلقت وأوقفت بعضــــها ، مثــل صحيفة (الوحدة المغربية) ، وجريدة الحرية لســان حــال حــزب الإصــلاح ، وفرضت غرامة مالية كبيرة على الحزب مع إنذاره بإيقاف نشاط الحــزب كذلــك أصدرت الإقامة العامة الأسبانية أوامرها بــالتضييق علــى الوطنييــن وأعضــاء الأحزاب وزعمائها ، ومراقبة تحركاتهم وتفتيش منازلهم وحددت إقامة بعضــــهم ، خاصة بعد أن قدم حزب الإصلاح مذكرة إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة يفضـــح فيها التجاوزات غير المشروعة للسلطات الأسبانية مفندين فيها مظالمهم ومطــالبين بإلغاء الحماية الأسبانية على المنطقة وإعلان الاستقلال لشطرى المغرب[٢٢] .

وإزاء كل هذه التطورات تأزم الموقف وأزداد سوءًا ، ولهذا أوفـــدت الهيئـــة العليا لحزب الاستقلال وفدًا من أعضائه إلى باريس لتقديم مذكرة للحكومة الفرنســية تضمنت مسئولية فرنسا عما يحدث بالمنطقة الفرنسية من تجاوزات تقوم بها أســبانيا فى المنطقة الخليفية ، لأنها هى التى تنازلت لأسبانيا عن هـــذه المنطقــة دون إذن وموافقة سلطان مراكش ، وأنه ليست هناك أية اتفاقيات مبرمة بين أسبانيا وســلطان مراكش بهذا الشأن ، كما تضمنت ضرورة الاعتراف بالسيادة المغربية على طنجــة وتوحيد المغرب بضم المنطقة الخليفية إلى المنطقة السلطانية تحت حكم الملك محمد الخامس[٢٣] .

واتفقت الحركة الوطنية فيما بينها فى المنطقتين الخليفيــة والســلطانية علــى العمل المنظم والابتعاد عن استخدام العنف والقوة فى مواجهة الســلطات الفرنســية والأسبانية ، وبدأت هذه السلطات مراجعة وإعادة حساباتها واتخاذ كافة الاحتياطــات لمواجهة أى موقف ، والعمل بطريقة جذرية ومدروسة لمواجهة الموقف الوطنــى ، كذلك عقد اجتماع سرى فى مدريد بين المسئولين فى الإقامــــة العامــة الأســبانية والمسئولين الفرنسيين فى المنطقة السلطانية وذلك لبحــث الموقــف المتــأزم فــى المغرب . وبعد مناقشات ومداولات بين الحكومتين الفرنســية والأســبانية واســتقر الرأى على تغيير الملك محمد الخامس[٢٤] .

وكانت هذه أول بادرة خطيرة تصدر من الســلطات الاســتعمارية بــالمغرب بمنطقتيه للتحكم والسيطرة على الأمور ولهذا استمرت التظـــاهرات بتشــجيع مــن الحركة الوطنية فى العديد من المناطق المختلفة بالمغرب واتخذت أشكالاً مختلفة .

وكان عام ١٩٤٧ العام الحاسم بالنسبة للحركة الوطنية فى المنطقتين الخليفيــة والسلطانية لبداية انطلاق الحركة الوطنية بمفهوم وأسلوب جديد ، أدى فى النهايـــة وبعد سنوات قليلة إلى الاستقلال ووحدة مناطق المغرب المختلفة . وقد شـــهد ذلــك العام أحداثًا بالغة الأهمية اعتبرت علامات بارزة على طريـــق تــأكيد الشــخصية المغربية القوية والإصرار على بلوغ الآمال ، مهما بلغت المصاعب ، فكان مؤتمــر

المغرب العربى بالقاهرة فى ١٥ فبراير ١٩٤٧ يمثل إصـــرار الحركـة الوطنيـة المغربية على فضح الاستعمارين الأسبانى والفرنسى بالمغرب فى جميــع أرجـاء الوطن العربى ، والتصميم على طلب الاستقلال مهما كانت نتائج هذا الطلب(٢٥) .

زيارة الملك محمد الخامس لطنجة وأثرها على الحركة الوطنية :

كانت زيارة الملك محمد الخـامس لمنطقة طنجة ، البداية الحقيقيـة لموقـف الملك محمد الخامس الصريح من تحيزه للحركة الوطنيـة المغربيـة ، ووقوفـه بجانب شـعبه في جهاده من أجل الاستقلال ، ولتـأكيد سـيادته وسـيادة المملكـة المغربية على المنطقة الخليفية ، حتى ولو كانت ترزح تحت الحمايـة الأسـبانية ، وكذلك على منطقة طنجة حتى ولو كانت تتمتع بنظام دولى خاص(٢٦) .

وفى ٩ أبريل ١٩٤٧ بدأت زيارة الملك محمد الخامس لمدينة طنجة ، بعد أن اعترضت السلطات الفرنسية عليها ، واشترطت لإتمامها أن يصاحب الملك محمـد الخامس المقيم العام الفرنسى ، لكى يقوم بالإشراف على هذه الزيـارة مـن حيـث تحديد مناطق الزيارة ونوعية الخطب التى يلقيها الملك ، وتحديد الأشخاص المزمـع مقابلتهم ، لكن الملك رفض هذه القيود ، ووافق على أن يصاحبه المقيم العـام دون تدخله فى أى شئ ، وقد اهتم العالم كله بهذه الزيارة التاريخيـة ووصلـت طنجـة وفود الصحفيين من الدول المختلفة ، وكان الهدف من هذه الزيارة تـأكيد سـلطته وسيادته على مدينة طنجة على الرغم من أنها دولية الإدارة ولم يزرها أى سـلطان مغربى منذ عام ١٨٨٩م(٢٧) .

وكان أن جاوزت آثار الزيارة الملكية لطنجة حدود المغرب ، وانتقل صداهـا إلى العالم الخارجى ، وكانت فرنسا أكثر الدول تأثرًا بهذه الزيارة ، حيث اعتـبرت هذا العمل الذى قام به الملك محمد الخامس بمثابة ثورة على الوجود الأجنبى كلـه فى المغرب أشعلها الملك من العاصمة السياسية لبـلاده بحضـور ممثلـى الـدول الأجنبية والصحافة العربية والعالمية ، ليعرف العالم كله أن المغرب قد حدد هويـة

انتسابه ، فجعلها عربية إسلامية ، وحدد هوية مطالبه فجعلها الاستقلال ، وحدد وحدة ترابه ، وحدد هوية مستقبله السياسى ، فجعلها التعاون مع بلاد المشرق العربى فى بوتقة الجامعة العربية ، وحدد هوية خطته للمرحلة الجديدة فجعلها استقلالا ناجزًا يقود إلى الإصلاح بدلاً من أن تكون إصلاحًا يقود إلى استقلال فى بوتقة الاتحاد الفرنسى[٢٨] .

ومهما كانت ردود أفعال هذه الزيارة ، فقد أسفرت عن نتيجتين هامتين فى خلال عام ١٩٤٧ الأولى هى محاولة فرنسا نقل بطل المنطقة الخليفية عبد الكريم الخطابى إلى فرنسا لتحديد إقامته هناك ، وذلك فى إطار محاولتها التخفيف من ردود أفعال زيارة الملك محمد الخامس لطنجة ومناداته بالوحدة المغربية التى أثارتها كلمات الملك ضد فرنسا من جهة ، ومن جهة أخرى لمعاكسته بالإيحاء له بوجود منافس على عرش المغرب .

والنتيجة الثانية لزيارة الملك لطنجة هى عزل المقيم العام الفرنسى لابون وتعيين بدلاً منه (جوان) وذلك لغضب السلطات الفرنسية على الأول[٢٩] .

وكانت أول نتيجة لزيارة طنجة هى شبه العفو الذى أصدرته فرنسا عن عبد الكريم الخطابى الذى سبق أن حارب فرنسا وأسبانيا مجتمعيين فى حرب الريف ١٩٢٠/١٩٢٦ ، وقد احتج وزير خارجية أسبانيا على هذا الإفراج دون استشارة أسبانيا بوصفها الدولة الحامية للمنطقة الخليفية[٣٠] .

وفعلاً اتخذت وزارة الخارجية الفرنسية الاستعداد لنقل الخطابى وأسرته وأتباعه إلى فرنسا ، لكنه خيب آمالهم والتجأ سياسيًا إلى القاهرة[٣١] . وترتب على هذا العمل آثاراً بعيدة المدى فى داخل المغرب نفسه ، وفى سائر دول الشمال الأفريقى[٣٢] ، إذ أحدث دهشة عظيمة فى الأوساط الفرنسية والصحافة الفرنسية التى اتهمت الحكومة الفرنسية بالإهمال والغفلة لمساهمتها بإفلات الزعيم المغربى

من السيطرة الفرنسية ، وأن الرأى العام الفرنسى يشعر بالخجل من الإهانة التى لحقت بفرنسا .

أما الحكومة الأسبانية فقد لزمت الصمت لأنها رأت أن مسألة نزول الخطابى فى مصر تهم فرنسا بصفة خاصة .

وهكذا أصبحت القاهرة مقرًا لعدد من زعماء المغرب هم علال الفاسى وعبد الخالق الطريس والحبيب بورقيبه وعبد الكريم الخطابى ، وبذلك غدت من أهم المراكز للدعاية للقضية المغربية ، ومن القاهرة امتد نشاطهم إلى المغرب وبدأوا يخططون ويعدون ضد الأسبان فى المنطقة الخليفية ، وفرنسا فى المنطقة السلطانية، بل لقد امتد نشاطهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتم إيفاد ممثل عن الحركة الوطنية المغربية بمنطقتها إلى الولايات المتحدة هو « المهدى بتونة » ممثلاً لهم هناك ، فقام بالأعمال الدعائية لوحدة المغرب والتنديد بفضائح الاستعمار الأسبانى بالمنطقة الخليفية كما قام بتقديم مذكرة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة باسم الحركة الاستقلالية المغربية ، تناول فيها تجاوزات فرنسا وأسبانيا فى المنطقتين[٣٣] .

وفور تقديم هذه المذكرة استدعى (قائد بل آزاتار) سفير أسبانيا فى واشنطن « المهدى بنونه » لمقابلته ، وذلك لأن السفير توقع تقديم مذكرة أخرى ، يقدمها أحزاب المنطقة الخليفية لتشرح سوء وتدهور الأوضاع فى المنطقة ، وهذا بالطبع يشكل ضررًا بالغاً بالمصالح الأسبانية أمام هيئة الأمم المتحدة ، ولهذا طلب السفير من المهدى إرجاء تقديم المذكرة المذكورة ، وتم الاتفاق بينهما على التغاضى عن تقديمها فى حالة تحقيق بعض المطالب الهامة من الدولة الحامية أسبانيا والتى تتمثل فى :

١ – تأييد قيام دولة مغربية مستقلة تضم مراكش الفرنسية وطنجة والمنطقة الخليفية الأسبانية ، على أن تعلن أسبانيا استقلال المنطقة الخليفية .

٢ - إعلان العفو العام عن جميع المنفيين والمعتقلين السياسيين .

٣ - الدخول فى محادثات مباشرة لتحقيق الاستقلال التام لبـــلاد المغـرب . لكـن السلطات الأسبانية رفضت هذه المطالب[٣٤] ، الأمر الذى ترتب عليه أن قـدم « المهدى بنونه » المذكرة للجنة السياسية للأمـــم المتحـدة ، يشـرح فيـها الأوضاع الاستعمارية السيئة والمتردية فى المنطقة الخليفيـة وطـالب فيـها بالاستقلال الكامل وتوحيد مناطق المغرب .

وهكذا كان نشاط زعماء المغرب فى المنطقتين الخليفية والسلطانية كبيرًا فـى الدوائر العربية والفرنسية والعالمية ، لتعريف تلك الحكومات والشـعوب بالمشـكلة المغربية والظلم الواقع على كاهل الشعب المغربى ، من جانب الأسبان والفرنسيين، مما كان له الأثر الكبير بعد ذلك فى وقوف العالم بجانب القضية المغربية[٣٥] .

وفى يونيو ١٩٤٧ تم عزل (لابون) المقيم الفرنسى العـام فـى المنطقـة السلطانية وتعيين (جوان) بدلاً منه . وكان هذا التعيين تحديًا سافرًا مـن جـانب فرنسا للوطنيين المغاربة ، وتسليمًا من جهتها بمعالجة المسألة المغربيـة بـالعنف والشدة نظرًا لطبيعة شخصية (جوان) التى كانت تؤهله لهذا الأسلوب من التعامل. وكان أن بدأ الصراع السافر بين الملك محمد الخامس وجوان واستمر طيلـة مـدة عمله بالمغرب[٣٦] .

وفى خلال تلك الفترة تعـددت أساليب مواجهة نمو الحركة الوطنيـة سـواء من السلطات المخزنية (الفرنسية) أو الأسبانية ، وتمثلت فى إنشاء مجلس شـورى فى المنطقة الخليفية لمواجهة أية اضطرابات من الممكن أن تحدث فيها نتيجة نمـو الحركة الوطنية بصفة عامة ، وكان هذا المجلس يختص بدراسـة كافـة القضايـا الخاصة بالمنطقة ويقدم المشورة للحكومة المخزونيـة ، كمـا حـاولت السـلطات الأسبانية إبعاد تأثير الثقافات المختلفة وخاصـة المصرية منهـا ، وفرض الثقـافة الأسبانية على شـعب المنطقة إلا أن قادة الرأى والفكر فى المنطقة تصـدوا لـهذه

الفكرة ؛ وقد استغل الوطنيون والزعماء المغاربة فى المنطقة هذه المعارضة فى إثارة الاضطرابات والبلبلة بين الأهالى[٣٧] .

وكان لنمو الحركة الوطنية واليقظة القومية المغربية وعقد مؤتمر المغرب العربى فى القاهرة وزيارة الملك محمد الخامس لطنجة والتجاء الأمير عبد الكريم الخطابى سياسيًا للقاهرة كان لكل ذلك ، الأثر الكبير والحاسم فى تطور الكفاح المغربى ، ونقله من داخل المغرب إلى خارجه ، وإزاء كل هذه الأوضاع لم تجد الدولتان الحاميتان أسبانيا وفرنسا بدأ من استعمال العنف والشدة للسيطرة على المنطقتين ، فقامت أسبانيا بنشر جواسيسها فى أوساط الوطنيين ، وكانت تعتقل كل من يتصل بالقاهرة لوجود زعماء الحركة فيها أو بالزعماء المغاربة المقيمين فيها الذين يحرضون الأهالى بالمنطقة على الثورة أو المطالبة بالاستقلال ، كذلك ألغت الشرطة المغربية واستعانت بدلا منها بالأسبانية وخولت لها حق تفتيش المنازل دون قيدٍ أو شرط ، كما أسندت حق الفصل فى قضايا الأمن إلى القضاء العسكرى الأسبانى[٣٨] .

ومن الواضح أن الإقامة العامة الأسبانية استهدفت من وراء إصدار هذه القرارات إقصاء الحكومة المخزنية وتنحيتها عن ممارسة سلطاتها فيما يتعلق بصيانة الأمن والاستقرار ، وذلك بعد أن أحجم موظفو الحكومة المخزنية عن تنفيذ كل ما يصدر إليهم من السلطات الأسبانية من أوامر تستهدف كبح جماح الحركة الوطنية المغربية والتنكيل برجالها .

وقد ثار شعب المنطقة إزاء قرارات السلطات الأسبانية بالمنطقة ، وأضربت مدينة تطوان . وأيد الخليفة احتجاج الشعب وحدثت مصادمات بين الشعب والبوليس الأسبانى ، وساند الشعب حزب الإصلاح وأصدر بيانًا يشجب فيه تصرفات البوليس الأسبانى ودعى الشعب لمقاومة هذه التصرفات، وطالب بإلغاء القرارات[٣٩] .

واتفق كل من الجنرال (فاريلا) المقيم السامى الأسبانى ، والجنرال (جوان) المقيم الفرنسى العام للعمل فى توحيد خطتهما فى المغرب لضرب الحركة الوطنية والعمل معًا للقضاء على الروح الوطنية التى انتشرت فى المغرب .

وعلى أثر هذه الأحداث اتخذت السلطات الأسبانية إجراءات أمن عنيفة فى مدينة تطوان ، وألقت القبض على جميع زعماء الحركة الوطنية وزعماء الأحزاب الوطنية ، واحتلت القوات الأسبانية مراكز هذه الهيئات . ثم حاصر الجيش الأسبانى مدينة تطوان واحتل شوارعها وفق نظام حظر التجوال فيها ونصبت الأسلاك الشائكة فى مفترق الطرق[٤٠] .

وحدثت مصادمات واشتباكات عنيفة وقوية فى هذه الاضطرابات نتج عنها أعداد كبيرة من الجرحى والقتلى ، كما تم اعتقال الكثير من الأهالى ، وغصت سجون مدينة تطوان وسبته والمدن القريبة من تطوان بآلاف الأهالى، وطبقت السلطات الأسبانية الأحكام العسكرية بشكل لم يعرف له مثيل من قبل ، كذلك أغلقت جميع المدارس والمساجد وأصبحت المنازل محاطة بالجنود الأسبان المدججين بالسلاح لمنع تحركات الأهالى . وكان هدفهم من ذلك القضاء على الحركة الوطنية بأية وسيلة ، وكانت القوات الأسبانية تطلق النار بشكل عشوائى على أى فرد تشتبه فيه فى الطرقات[٤١] .

وفى ١٣ فبراير ١٩٤٨ ، ألقت السلطات الأسبانية القبض على وفد من أعيان تطوان كان فى طريقة لمقابلة السلطان ، وتم نقلهم إلى السجن وهم مكبلين بالحديد .

وفى ٣٠ مارس ١٩٤٨ أرسل زعماء الأحزاب الوطنية فى المنطقتين – الخليفية والسلطانية – ببرقيات إلى هيئة الأمم المتحدة ووزارتى الخارجية الأسبانية والفرنسية ، طالبوا فيها بإلغاء المعاهدات التى نصت على وضع مراكش تحت حماية كل من أسبانيا وفرنسا[٤٢] .

واتبعت السلطات الأسبانية ابتداء من ١٥ إبريل أساليب التهدئــة . وبعــد أن هدأت الثورة فى المنطقة حاولت السلطات الأسبانية التقارب مع الأهالى . وبــالرغم من ذلك ظل التوتر قائمًا بين الأهالى والأسبان وذلك يرجع إلى عدم الإفراج عــن المعتقلين .

وفى يوليو ١٩٤٩ انفجرت الثورة مره أخرى فى المنطقة الخليفيــة ، وذلــك نتيجة لما صرح به فرانكو لممثل لبنان ، وهو يقدم أوراق اعتمـــاده كسـفير فــى أسبانيا، بأن منطقة شمال مراكش أى المنطقة الخليفية مناطق أسبانية ، ومعنى هــذا التصريح أن المنطقة قد ضمت لأسبانيا .

وقد تجاوزت الاضطرابات فى المنطقة الخليفية كل ما كانت تتوقعه أســبانيا وخشية من تطورها لتشمل المغرب كله ، عملت أسبانيا علــى تهدئــة الأوضــاع بالتقارب إلى شعبها[٤٣] .

ولكن سرعان ما بدت بوادر أزمة أخرى ، وذلك فى خلال انعقــاد الــدورة العادية لمجلس الشورى فى شــهر ديسـمبر ١٩٥٠ ، ذلــك أن الإدارة الفرنسـية تعرضت لهجوم عنيف فى أثناء عرض الميزانية المغربية ، وكــان هــذا هــو أول نقاش عنيف يحدث بهذا الشكل فى تاريخ المجلس ، مما حدا بــالجنرال (جــوان) المقيم الفرنسى فى المنطقة السلطانية بأن يطلب من العضو (اليزيدى) المقرر العــام للميزانية ، ورئيس الغرفة التجارية المغربية ، وعضو حزب الاستقلال ، الامتنــاع عن تلاوة بقية تقرير الميزانية . وكان ذلك عندمــا هــاجم الإدارة الفرنسـية فــى المغرب واتهمها بالجور فى توزيعها للميزانية ، فطلب منه التوقف عند هــذا الحــد والامتناع عن إيداء مثل هذه الآراء فى المجلس ، وفى اليوم الثامن والتاســع مــن شهر ديسمبر ١٩٥٠م ، عندما انتقد محمد الغزاوى بحدة وعنف السلطات الفرنسـية، اعتبرها الجنرال جوان أهانه لفرنسا ، وطلب منه مغادرة المجلس فورًا ، وأنســحب الغزاوى من المجلس وأنسحب معه أحمد اليزيدى وتسعة أعضاء آخرين .

واستقبل الملك محمد الخامس الأعضاء المنسحبين في قصره ، ومن ثم أدركت الإقامة العامة أن الملك متضامن معهم ، ومصمم على خوض معركة الاستقلال حتى النهاية ، خاصة بعد أن تزايدت قوه الحركة الوطنية داخل وخارج المغرب ، وتوحدت الأحزاب الوطنية في كافة أرجاء المغرب العربي الكبير ، ووضع ميثاق عمل لها يوحد أهدافها ، وهو العمل على الاستقلال التام(٤٤) .

وعلى أثر هذا الموقف الذى اتخذه الملك صمم الجنرال جوان على خلع الملك محمد الخامس لأنه قد تأكد أن وجوده فيه خطر كبير على نظام الحماية، وأختار جوان ، الجلاوى – وهو باشا من مراكش مناوئ للحركة الوطنية لتنفيذ مخططه وهو أن يقوم الجلاوى بالتحرش بالملك ، وذلك أثناء الاحتفال بالمولد النبوى في القصر الملكى ، بإسداء النصح للملك بالابتعاد عن حزب الاستقلال ، ولما رفض الملك الطريقة ، التى عامله بها وعدم ملائمة المكان ، أتهمه الجلاوى بأنه لم يعد سلطاناً للمغرب بل أصبح سلطان حزب الاستقلال الشيوعى الملحد ، فما كان من الملك إلا أن طرد الجلاوى من قصره أمام المدعوبن ، وبدأت الصراعات بينهما فقام الجلاوى بمهاجمة الملك وأهله بشتى الطرق الشرعية وغير الشرعية ، وخاصة فى الصحف داخل وخارج المغرب ، وأظهر تعاطفه مع السلطات الفرنسية بالمغرب وأشاد بالإصلاحات الفرنسية وسياستها الحكيمة بالمغرب ، محاولاً أن يظهر فى صورة المدافع عن الإسلام ضد الهجمة الشيوعية(٤٥) .

ولم يرض الشعب المغربى عن هذا الوضع وبدأ رجال حزب الاستقلال والأحزاب الأخرى يعبرون عن احتجاجهم لمسلك الجلاوى ضد سلطان البلاد ، وتحيزه للسلطات الفرنسية ، وفى يناير ١٩٥١م ، قامت مجموعة من أعضاء الحزب بحركة مفاجئة عمدوا فيها إلى منع الحكام المحليين من الذهاب إلى دار المقيم العام الفرنسى فى مدينة الرباط العاصمة بعد أن أغلقوا جميع الطرق المؤدية إلى الدار ، لمنعهم من تقديم التهانى إلى « جوان » المقيم العام الفرنسى .

وهكذا بدأت الأوضاع تتصاعد وتشتد توترًا من الجانب الفرنسي ، فقامت الإقامة العامة الفرنسية بتطويق القصر الملكى ومحاصرته بالجنود الفرنسيين لمنع أقطاب الأحزاب والحركة الوطنية من الرجوع إليه ، كما طلبت من بعض الفقهاء المتعاونين معها بإصدار فتوى شرعية بجواز استبدال الملك بآخر(٤٦) .

وفى ٢٦ يناير ١٩٥١م إلتقى الجنرال « جوان » مع الملك محمد الخامس وطالبه بالتخلى عن حزب الاستقلال وطرد أعضائه من القصر الملكى . وكذلك سلمه كشفًا يتضمن بعض أسماء من كبار الموظفين بالديوان الملكى لطردهم والاستغناء عنهم ، ولما رفض الملك هذه المطالب شددت الشرطة الحصار على القصر ومنعت دخول أو خروج أى فرد من القصر مهما كان وضعه فى الدولة ، كما كلف الجلاوى بالعمل على حث رؤساء القبائل على قبول مبدأ خلع الملك(٤٧) .

وتطورت الأوضاع بعد أن ساءت الأحوال ، فقامت قوات الجيش الفرنسى بتجريد قوات الحرس الملكى من سلاحه ، وأمر الجنرال جوان بأن تزحف قوات الجلاوى على العاصمة لخلع الملك عن العرش ، واتجهت النية إلى تنصيب النجل الثانى للملك وهو الأمير « عبد الله » الذى كان لا يزال قاصرًا ، على أن يكون الجلاوى باشا وصيًا على العرش ليعمل على تحقيق أطماع فرنسا فى المغرب .

وفى الأول من مارس بدأت الدبابات الفرنسية تجوب لأول مرة شوارع المنطقة التى يقع فيها قصر الملك ، وتم استبدال الحرس الخاص بالملك بقوات فرنسية لمراقبة تحركات الملك ، ثم حاصرت الدبابات الفرنسية منازل جميع أفراد الأسرة المالكة ، وزعماء الحركة الوطنية وأعضاء الأحزاب وفرضت نظام حظر التجوال ، بعد أن ألقى القبض على رموز الحركة الوطنية المغربية ، هذا بالإضافة إلى أن الجنرال « جوان » ألف حكومة جديدة وتولى بنفسه إصدار المراسيم الإدارية . وقد استنكرت المنطقة الخليفية بأحزابها وشعبها وخليفتها أعمال العنف التى تنتهجها السلطات الفرنسية فى جنوب المنطقة السلطانية ، كما استنكرت جامعة

الدول العربية هذا التصرف المشين ، وطالبت فرنسا بإنهاء الحماية على المغـــرب ومنحه الاستقلال التام(٤٨) .

وفى ٢٨ أغسطس ١٩٥١م حل « جيوم » محل « جون » كمقيم عام فرنسى فى المنطقة السلطانية ، ومع ذلك لم تتغير سياسة فرنسا تجاه الوطنيين واســـتمرت الخطوط العريضة للسياسة الفرنسية التى كانت تستهدف فرض سيطرتها ونفوذهـــا على المغرب بمنطقتيه السلطانية والخليفية .

وفى الوقت نفسه استغلت أسبانيا تردى الأوضاع فـــى المنطقـــة الســلطانية وعملت على كسب ود الوطنيين فى المنطقـــة الخليفيـــة ، فقـــامت باتخـــاذ بعـــض الإجراءات المالية الهامة ، بهدف التغلب على آثار المجاعة التـــى حدثـــت بـــالبلاد فقامت بزيادة رواتب أفراد القوات المسلحة المخزنية فى المنطقة الخليفية ، واعتمـــاد ميزانية استثنائية لزيادة مرتبات الجنود المغربية ، ومنح علاوات ومكافئـــات ماليـــة للعاملين بالدولة ، وإنشاء صندوق أعانه لموظفى المنطقة وتنظيم أعمال الشــــركات والمصانع ، والاهتمام بالشئون الصحية والتعليمية للمواطنيين(٤٩) .

وابتـــداء من عام ١٩٥٢م ، حدث تطور كبير فى السياسة الأســـبانية حيـــث انتهجت أسبانيا سيـــاسة جديدة قوامها دعم وتوطيد دعائم العلاقات الودية الشـــاملة مع المنطقـــة الخليفية ووضعت خطـــة دقيقة لتطـــور وتنميـــة هـــذه العلاقـــات تستهدف إحراز بعض المكاسب السياسية فى المنطقة الخليفية وقـــد بـــدأت هـــذه الخطة بدعوة الجنرال « فرانكو » الخليفة « مولاى المهدى » لزيارتـــه أســـبانيا خلال شهر يناير ١٩٥٢م ، وذلك للتشاور فى مستقبل العـــلاقات الأسبانية الخليفيـــة بصفة خاصة ، والعلاقات الأسبانية العربية بصفـــة عامة وكـــانت الزيـــارة وديـــة للغاية ، وكل طرف تفهم الآخر ، واتفقا على بعض الأسس والمبادئ العامـــة التـــى تساعد على نمو وتحسن العلاقات بينهما على أسس واضحة وقوية(٥٠) .

ولم تقتصر محاولات أسبانيا على إقامة العلاقات الودية بينها وبيـــن الخليفـــة فقط ، بل أنها حاولت إتباع هذا الأسلوب مع رجال الحركة الوطنية بالمنطقة ففـــى ٤

مارس ١٩٥٢ سمحت لزعماء المنطقة المبعدين عنها بالعودة إليها ، وكانت النتيجة وصول الزعيم عبد الخالق الطريس زعيم حزب الإصلاح ومعه مجموعة من رفاقه إلى تطوان حيث استقبلهما الشعب استقبالا حافلا ، كذلك اجتمع الطريس مرات عديدة بالمقيم العام الأسبانى وطالبه بالعفو العام عن جميع المعتقلين السياسيين ، وإلغاء الرقابة على الصحف ، وفتح المركز الرئيسى لحزب الإصلاح وفروعه ، وكان أن حققت السلطات الأسبانية المطالب التى طلبها منه الطريس ، وأطلقوا الحرية الكاملة للأحزاب، وصرحت بإصدار الصحف المعبرة عن وجهة نظرهما كما سمحت لها بعقد اجتماعاتها بحرية كاملة[٥١] .

وقد أثار تصرف أسبانيا هذا ، قلق فرنسا خوفا من أن تنعكس آثاره على المنطقة السلطانية الموضوعة تحت الحماية الفرنسية ، خاصة وأن السلطات الأسبانية بدأت فى أواخر مارس ١٩٥٢م تعتنى بدراسة مشروع يكفل الحكم الذاتى بالمنطقة الخليفية .

والواقع أن حزب الإصلاح الوطنى وزعيمه عبد الخالق الطريس استطاع أن يسهم مساهمة فعالة فى إثراء الحركة الوطنية فى تلك الفترة ، مستغلا جو الحرية الذى أتاحته له السلطات الأسبانية ، فأنشأ جريدة الأمة[٥٢] التى كانت تطالب بالاستقلال ، كما قام بتعريف شعب المنطقة بحقوقه وواجباته ، وخاصة واجباته تجاه الدولة الحامية وهى أسبانيا[٥٣] ولم يقتصر اهتمام الجريدة على النواحى السياسية فقط لكنها اهتمت بمعالجة النواحى الاقتصادية والاجتماعية السيئة التى كانت تجتاح المنطقة الخليفية وحاول أن يجد لها الحلول التى ترضى المواطنين ، كما اهتمت بالنواحى الصحية والثقافية للأهالى[٥٤] .

أما فى المنطقة السلطانية فقد اندلعت المظاهرات ابتداء من ١٩٥٢م عندما قتل الزعيم التونسى فرحات حشاد[٥٥] فى ٥ ديسمبر ١٩٥٢م للقضاء على الحركة العمالية احتجاجا على تواطؤ السلطات الفرنسية فى عملية القتل ، مما أدى بالمقيم العام الفرنسى إلى إصدار الأحكام العرفية وحظر التجوال ليلا

ومنـع الاجتماعات ، وأصبحت الدار البيضاء تطوقها الدبابـات وقـوات الجيش . وشـاركت منطقة طنجة الدولية والمنطقـة الخليفيـة والسـلطانية فـي إضرابـها ومظاهراتها احتجاجًا على مسلك السلطات الفرنسية بتونس[٥٦] .

ومرة أخرى تطورت الأحداث في المنطقة السلطانية وتم اعتقال ما يقرب مـن ٣٠٠ فرد وقتل حوالي ٣٠٠ آخرين في خلال عدة أيام من مقتل الزعيم التونسـي وعقدت المحاكم العسكرية لقادة زعماء حـزب الاسـتقلال وتظـاهر الآلاف مـن المواطنين في مدينتي مراكش والدار البيضاء واشتبكوا في صراع كـان ضحيتـه العشرات من القتلى والجرحى وقد بلغ عدد المعتقلين في ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ حوالي ٣٤ ألف معتقل من بينهم ٢٦٠٠ سيدة ، وتوفي منـهم ٦٠٠ شـخص . واسـتغل الفرنسيون هذه الاضطرابات وحاولوا الضغط على محمد الخـامس للتوقيـع علـى مراسيم تقوم على أساس إقرار السيادة المزدوجة بين الفرنسيين والمغاربة ، ولكـن الملك رفض مثل هذه الأمور ، ولهذا قامت القوات الفرنسية بمحاصرة قصر الملـك ومنعته من الاتصال بأي شخص حتى أفراد أسرته[٥٧] .

وفي ٢٠ أغسطس ١٩٥٣ قام جيوم مع مدير الأمن وقوة من الجيش الفرنسي باقتحام القصر الملكي وجردوا الحراس من سلاحهم وقبضوا على الملك ومن معـه في القصر وتم نفيه إلى كورسيكا ، بعد أن رفض التوقيع على وثيقة تنـازل عـن العرش .

وبعـد نفي الملك محمد الخامس ، وفي يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٣م وصل إلى الرباط العاصمة الملك الجديد « محمد بن عرفه » قادمًـا مـن مراكـش يصحبـه الجلاوي ، وفي ذلك اليوم اجتاحت المغرب موجه من السـخط العارم ، خاصة بعد أن أذاع الملك الجديد بيانًا أكد فيه صداقته الأبدية لفرنسا ، وأشـاد فيـه بفرنسـا ووقوفهـا المشـرف مع المغرب ، وعلى أثـر هـذا نشـط الفدائيـون المغاربـة وقـاموا بنسف مستودعات الجيش الفرنسي ومبنى بلدية الرباط .

وفى ١١ سبتمبر ١٩٥٣ وصلت أعمال العنف ذروتها بمحاولة اغتيال الملك الجديد محمد بن عرفه ، أثناء خروجه من صلاة الجمعة ، ثم تصاعدت الأحداث والاضطرابات والأعمال الفدائية ضد الفرنسيين والأوربيين ، وزادت الحرائق فى المنشآت الفرنسية ، وتم تفجير محطة كهرباء الرباط وبعض سكنات الجيش الفرنسى(٥٨) .

أما فى المنطقة الخليفية فلم يعترف بالملك محمد بن عرفه ، واستنكرت ما تقوم به السلطات الفرنسية ضد المغاربة ، كما طالبت جميع الأحزاب الأهالى بالوقوف صفًا واحدًا ضد الفرنسيين ، وطالبوا بإعادة الملك محمد الخامس الملك الشرعى للبلاد ، وإعادة حقوقه الشرعية(٥٩) .

ومن ناحية أخرى فإن الحكومة الأسبانية استنكرت بشدة هذا العمل ورفضت الاعتراف بمحمد بن عرفه ، وفى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٣ ، أعلن الجنرال « جارسيا بالينو » المقيم العام الأسبانى فى المنطقة الخليفية مسئولية فرنسا الصريحة عن نفى الملك محمد الخامس ونصحها صراحة بتغيير سياستها الفاشلة فى المغرب ، وكان لهذا التصريح أثره الكبير فى الأوساط الفرنسية ، حيث حمل فرنسا أخطاءها فى مراكش ، ولم يقتصر رد الفعل على الوطنيين فى المنطقة الخليفية والدولة الحامية لها فقط بل عم السخط البلاد العربية كلها من المحيط إلى الخليج(٦٠) .

وفى يناير ١٩٥٤ تواترت الأنباء بأنه من المؤكد أن ينادى بخليفة المنطقة الخليفية وصيًا على العرش ، وذلك فى اجتماع يدعى إليه العلماء والباشوات والوجهاء ورؤساء القبائل ، إلا أن وزارة الخارجية الفرنسية عارضت ذلك لتعارضه مع المعاهدات المعقودة بين فرنسا وأسبانيا ، وحذرت أسبانيا بأنها ستقاوم بجميع ما لديها من وسائل أية حركة تستهدف إخراج المنطقة الخليفية من دائرة السلطة التى يتمتع بها « محمد بن عرفه » سلطان المغرب الجديد ، وبذلك بدأت نذر الخلاف بين فرنسا وأسبانيا .

وفى ٢١ يناير ١٩٥٤م وفى مدينة تطوان عقدت اجتماع بين زعماء المنطقة الخليفية وذلك للاحتجاج على أعمال فرنسا فى المنطقة السلطانية ، وحضره من الجانب الأسبانى الجنرال « أوليفر » حاكم مدينة سبته العام ، وقائد قوات الطيران فى المغرب وحاكم المدينة العسكرى وشخصيات أسبانية عسكرية ومدنية كثيرة ، ومن الجانب المغربى حضره العديد من العلماء ورؤساء الأحزاب والقبائل . وفى هذا المؤتمر طالب المندوب السامى الأسبانى الشعب المغربى بالتمسك بوحدته ضد جميع المؤامرات التى تحاك ضده ، ثم أعلن العفو عن جميع المسجونين المحكوم عليهم بمدة أقل من سنتين ، كما خفضت مدة السجن بالنسبة للمحكوم عليهم بمدد بين ثلاث وست سنوات إلى النصف(٦١) .

وفى هذا المؤتمر أعلن المجتمعون عدم الاعتراف بالسلطان الجديد محمد بن عرفه ، ووقع ٤٣٠ من الباشوات والقضاة ورجال الدين والعلماء ممن كانوا حاضرين المؤتمر ، ورفعت للجنرال فرانكو ،الذى أعلن ارتياحه بذلك وفى ١٣ فبراير ١٩٥٤ أعلن فرانكو رسميًا أن أسبانيا لا تعترف بالملك محمد بن عرفه فازدادت العلاقات سوءًا بينها وبين فرنسا .

وفى تلك الأثناء ازدادت أعمال العنف قوة وامتدت إلى كل ما يتعلق بفرنسا ، وفى شهر يوليو ألقيت قنبلة على حشد كبير من الأوربيين فى الدار البيضاء ، قتلت وجرحت منهم الآلاف ، بالرغم من الإجراءات التى فرضتها السلطات الفرنسية ، كما انتشرت عمليات الاغتيالات وعمت البلاد، ولتهدئة الموقف ، أعلن المقيم العام الفرنسى أنه لا بد من عزل « بن عرفه » لرفضه من جميع الهيئات ومن الشعب المغربى ، وضرورة عودة محمد الخامس للبلاد(٦٢) .

ولاقى هذا الاقتراح قبولاً من الحكومة الفرنسية ، ولهذا أعلنت نقل الملك محمد الخامس هو وأسرته من المنفى إلى فرنسا تمهيدًا لعودته لبلاده ، لممارسة حقوقه المشروعة كملك للبلاد ، وعندئذ هدأت الأحوال والاضطرابات قليلاً فى المنطقة السلطانية ، ولقى هذا الإعلان ارتياح جميع فئات الشعب المغربى .

وهكذا اضطرت فرنسا للتراجع عن موقفها المتشدد فى المغرب ، خاصة بعد اندلاع ثورات فى الجزائر وتونس والكاميرون ، تطالب بطرد الفرنسيين من بلادهم[٦٣] .

وفى الوقت نفسه استمرت أسبانيا فى سياسة التقارب والتعاطف والدفاع عن موقف المنطقة الخليفية تجاه سياسة فرنسا فى المنطقة السلطانية ، وخاصة موضوع نفى الملك . وتطبيقًا لسياسة التقارب بين أسبانيا والمغاربة ، قررت أسبانيا إسناد بعض المناصب الإدارية إلى المغاربة لمشاركتهم فى الحياة السياسية العامة ؛ فتولى عبد الله كنون منصب وزارة العدلية ، والعربى بن الحاج على اللوه منصب وزير للأوقاف الإسلامية ، وتعيين الشيخ محمد زريوح زعيم حزب المغرب فى منصب وزير التربية والثقافة ، وقامت بإنشاء وزارة جديدة للشئون الاجتماعية تكون مهمتها حماية الطفولة والشيخوخة ونزلاء السجون ومقاومة الأمراض الخطيرة ومنح المعاشات للمحتاجين من أهل المنطقة .

كذلك أعلنت أسبانيا أنها سوف تشرك رؤساء الأحزاب فى المنطقة فى أعلى المناصب الحكومية وقوبل هذا التعيين بتقدير كبير من الوطنيين ، فى الوقت التى تقوم فيه فرنسا بأعمال عدائية ضد الأهالى فى المنطقة السلطانية .

واستمر الثوار فى مقاومتهم العنيدة والعنيفة للقوات الفرنسية حتى تمكنوا من الاستيلاء على مدن كاملة على حدود المنطقة الخليفية ، ولم تهدأ الثورة إلا بوصول الملك محمد الخامس فى ١٦ نوفمبر ١٩٥٥م ، ونظمت السلطات المخزنية مع السلطات الأسبانية الاحتفالات الكبيرة فى العديد من مناطق المغرب[٦٤] .

وفى ١٢ ديسمبر ١٩٥٥ تألفت أول حكومة مغربية فى المنطقة السلطانية وفى نفس الوقت أعلن وزير خارجية أسبانيا ، أن أسبانيا تريد أن ترى عملية تحرر المغرب واستقلالها وتوحيدها فى دولة واحدة بدلاً من المنطقتين فى أسرع وقت ممكن ، وترفض أن تدمج المنطقة الأسبانية (الخليفية) مع المنطقة السلطانية .

(الفرنسية) تحت سيطرة فرنسا أو الاتحاد الفرنسي ، وأنها تشترط دمج المنطقتين تحت رأية المغرب المستقل ذي السيادة المستقلة .

وكان لهذا التصريح أطيب الأثر بين الدوائر السياسية في المنطقة الخليفية وشكر الخليفة « الحسن بن المهدي » الجنرال فرانكو على إصداره مثل هذا التصريح ، ووصفه بأن فرانكو قد وضع الأسس السليمة لبلوغ الاستقلال بإصداره هذا التصريح ، كما وعد الحكومة الأسبانية بالتعاون الدائم معها في ظل وحدة الإمبراطورية المغربية تحت ظل السلطان « سيدي محمد الخامس » .

وبدأت المفاوضات بين السلطات المخزنية في المنطقة الخليفية والسلطات الأسبانية في المنطقة ، وتم الاتفاق على جميع المشروعات والوسائل الخاصة بعملية الدمج ، كما بدأت المفاوضات بين السلطات الأسبانية والفرنسية من جهة، وبين الحكومة المغربية والسلطات الفرنسية من جهة أخرى على إجراءات إعلان الاستقلال المغربي بمنطقتيه السلطانية والخليفية[٦٥] .

وفي ٢ مارس ١٩٥٦م ، أعلنت الحكومة الفرنسية اعترافها علنًا باستقلال المغرب وتمتعه بالسيادة الكاملة على أرضه ، وأن يتمتع بالحقوق التي تتيح له تكوين الجيش المغربي والسلك الدبلوماسي .

وفي ٧ إبريل ١٩٥٦م وقع وزير خارجية أسبانيا البرتومارتين ارتاخو ، في مدريد والوزير الأول للمغرب « امبارك بكاي » على تصريح ينص على اعتراف أسبانيا باستقلال المنطقة الخليفية تحت زعامة الملك محمد الخامس وعلى تحديد العلاقة بين الدولتين في المجالات المختلفة .

وبذلك استقلت المنطقة الخليفية ، واندمجت مع السلطانية ومنطقة طنجة الدولية في دولة واحدة ، هي دولة المغرب ذات السيادة على جميع أراضيها ، وكانت لهذه المرحلة (مرحلة الاستقلال) أوضاعها الدولية داخليًا وخارجيًا المتميزة وبها بدأت مرحلة جديدة في تاريخ البلاد[٦٦] .

الهوامش

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص٢٤٧.

(٢) عبد العظيم رمضان : الغزو الاستعمارى للعالم العربى وحركات المقاومة ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص٣٦ .

(٣) نفسه : ص ص٣٨ – ٤٠.

(٤) نفسه : ص ص١٧٣ – ١٨٨.

(٥) هى المنطقة الجنوبية من المغرب .

(٦) هى المنطقة التى تقع على الساحل الشمالى والشمال الغربى من المملكة المغربية واللذان يطلان على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، وقد أطلق هذا الاسم منذ عام ١٩١٢ على منطقة الحماية الأسبانية حتى إعلان الاستقلال فى عام ١٩٥٦م .

(٧) أحمد عطيه الله : القاموس السياسى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ص٢٢٥ – ٢٢٦.

(٨) جلال يحيى : المغرب الكبير (العصور الحديثة وهجوم الاستعمار) جـ(٣)، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص٦٢١.

(٩) وهم مواطنو الدول : البانيا ، المانيا ، بلجيكا ، بلغاريا ، الصين تشيكوسلوفاكيا ، الدانمرك ، ايستونيا ، فنلندا ، فرنسا ، اليونان ، هولندا هنغاريا ، إيطاليا ، اليابان ، ليتونيا ، لوكسمبورج ، النرويج ، بولندا ، رومانيا ، تايلاند ، يوغسلافيا .

(١٠) لمزيد التفاصيل انظر :

Boletin Oficial de la Zona le protector ado Saponal en Maruecos, Ano XXXII Num. B. P. 344.

(١١) Le Monde, Paris. 3 / 7 / 1947.

(١٢) Jelien, Charles Andre, L'Arique de Nord en Marche, Paris
Réne Julliard, 1959, p. 353.

(١٣) روم لاندو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، ترجمـــة الدكتـــور نيقـــولا زيادة ، مراجعة الدكتور أنيس فريحه ، المغرب ، الدار البيضـــاء ، ١٩٦٣ ، ص٣١٨ .

(١٤) حزب الاستقلال : المغرب الأقصى ، مراكش ، مكتب المســـتندات والأنبـــاء القاهرة ، ١٩٥١ ، ص٣٣ .

(١٥) عبد المجيد بن جلون : هذه مراكش ، ١٩٧١م ، ص٢٣٥ .

(١٦) دوجلاس أى، أشفورد : التطورات السياسية فى المملكة المغربية ص١١١.

(١٧) جريدة الوحدة المغربية : العدد ٤٥١ ، تطوان ، فى ١٠ يونيو ١٩٤٥م .

(١٨) علال الفاسى : الحركات الاستقلالية فى المغرب العربـــــى ، لجنـــة الثقافـــة الوطنية لحزب الاستقلال ، مطبعة الرسالة ط١ ، القاهرة ١٩٤٨، ص٣٧١.

(١٩) نفسه ، ص٣٧٢ .

(٢٠) خضعت مدينة طنجة لنظام دولى خاص وذلك بعد تقســـيم فرنســـا وأســـبانيا للمغرب فيما بينهما عام ١٩١٢ ، ومن ثم لم يبق لملك المغرب سوى ســـيادة اســـمية تتمثل فى وجود مندوب مخزنى ليس له حق البت فى قـــرار مـــا ، ولكن عليـــه التوقيع رسميًا على كل ما يعـــرض عليه مـــن مشـــروعات ، وبعد انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية تم تدويل طنجة .

(٢١) علال الفاسى : المرجع السابق ، ص٣٧٣ .

(٢٢) عبد الله العروى : تاريخ المغرب ، ترجمة ذوقان قرقوط ، المؤسسة العربيـــة للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٧ ، ص١٢٠ .

(٢٣) Istiqlal Party Documents, Documentation and Information office of the Istiqlal Party (English edition) Paris, 1904, P. 62.

(٢٤) جلال يحيى : المغرب الكبير فـي الفـترة المعـاصرة وحركـات التحـرر والاستقلال ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص٨٥ .

(٢٥) للمزيد انظر ، كمال محمـد حسـن علـى : المنطقـة الخليفيـة بـالمغرب ١٩٥٦/١٩٣٩ ، رسالة دكتوراه غـير منشـورة ، كليـة آداب سـوهاج ، ١٩٨٣م .

(٢٦) عبد الله العروى : المرجع السابق ، ص١٢١ .

(٢٧) حلمى محمد عشيش : المغرب الأقصى كما رأيتـه ، دار الكتـاب العربـى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص٢٥ .

(٢٨) أمين سعيد : ثورات العرب فى القرن العشرين ، دار الهلال القـاهرة (د. ت) ص٦٦ .

(٢٩) أحمد عسه : المعجزة المغربية ، ط١ دار القلم للطباعة والنشـر بـيروت ، ١٩٧٤ ، ص ص٢٤٥ – ٢٤٨ .

(٣٠) جلال يحيى : عبد الكريم الخطابى ، سلسلة أعلام العرب ، القـاهرة ١٩٦٨م. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ص١٢٢ .

(٣١) نفسه : ص١٢٣ .

(٣٢) عـلال الفـاسى : الحـركات الاسـتقـلاليـة ، المـرجـع السـابق ، ص ص٤٠١ – ٤٠٤ .

(٣٣) Istiqlal Party, Op. Cit, P. 46.

(٣٤) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص٢٨١ .

(٣٥) حلمى محمد عشيش : المرجع السابق ، ص٢٦ .

(٣٦) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص٢٨٢ .

(٣٧) صلاح العقاد : المغرب العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القـاهرة ١٩٦٩م، ص ص١٠٠ – ١٠٥ .

(٣٨) جلال يحيى : عبد الكريم الخطابى ، مرجع سابق ، ص١٢٥ .

(٣٩) علال الفاسى : المرجع السابق ، ص١٦٣ .

(٤٠) جريدة الأهرام : القاهرة ، ١١ فبراير ١٩٤٨م .

(٤١) جريدة تطوان : تطوان المغرب ، ١١ فبراير ١٩٤٨م .

(٤٢) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص٣٠٨ .

(٤٣) جلال يحيى : المغرب الكبير فى الفترة المعاصرة ، مرجع سابق ، ص٨٨ .

(٤٤) روم لاندو ، المرجع السابق ، ص٣٤٦ .

(٤٥) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٤٠٦ .

(٤٦) أحمد عسه : المرجع السابق ، ص٢٥٧ .

(٤٧) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٤٠٩ .

(٤٨) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص٣٥٢ .

(٤٩) دوجلاس أى أشفورد : المرجع السابق ، ص ص٨٤ – ٩٩ .

(٥٠) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص ص٣٦٩ – ٤٠٥ .

(٥١) حلمى محمد عشيش : المرجع السابق ، ص٢٩ .

(٥٢) صحيفة الأمة : العدد الأول ، تطوان ، المغرب ، أول مايو ١٩٥٢م .

(٥٣) صحيفة الأمة : العدد الرابع ، تطوان ، المغرب ، ٨ مايو ١٩٥٢م .

(٥٤) نفسه : العدد (٢٧) ، ٢٨ يوليو ١٩٥٢م .

(٥٥) أحمد عطيه الله : المرجع السابق ، ص٨٥٧ .

(٥٦) The Middle East Journal. Washington, U. S. A. Spring 53. N. 2. P. 203.

(٥٧) جلال يحيى : المغرب الكبير ، الفترة المعاصرة ، مرجع سابق ، ص١١٨ .

(٥٨) عبد المجيد بن جلون : المرجع السابق ، ص٣٣ .

(٥٩) جريدة الريف : تطوان ، المغرب ، ٢٥ أغسطس ١٩٥٣م .

(٦٠) دوجلاس أى أشفورد : المرجع السابق ، ص٧٥ .

(٦١) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص ص٤٥٥ – ٤٥٦ .

(٦٢) انظر تفاصيل أعمال العنف فى المنطقة السلطانية نتيجة نفى الملـــك محمـد الخامس ، انظر :

روم لاندو : المرجع السابق ، ص ص٤١٠ – ٤٢٦ .

(٦٣) صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٤١٥ .

(٦٤) روم لاندو : المرجع السابق ؛ ص٤٢٧ .

(٦٥) كمال حسن على : المرجع السابق ، ص ص٤٨٩ – ٤٩٢ .

(٦٦) ما عدا المستعمرتين الأسبانيتين ، مدينتى سبته ومليلة .

رقم الإيداع ٦٥٤٩/٢٠٠٠

الزهراء كمبيو سنتر

طباعة – نشـــر – إعلان

القاهرة – ت : ٢٩٦٠٦٦٧